الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة جيلالي اليابس – سيدي بلعباس
كلية العلوم الانسانية والاجتماعية
قسم العلوم الانسانية

---

# الفكر الديني عند الموريسكيين الأندلسيين خلال القرنين 16-17 ميلاديين من خلال بعض المخطوطات الألخميادية

أطروحة لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر

إعداد: دوبالي خديجة
إشراف: أد. حنيفي هلايلي

أعضاء لجنة المناقشة

| | | | |
|---|---|---|---|
| أد. مكاحلي محمد | جامعة بلعباس | رئيسا |
| أد. حنيفي هلايلي | جامعة بلعباس | مشرفا ومقررا |
| أ د. بوباية عبد القادر | جامعة وهران | مناقشا |
| أد. بلغيث محمد الأمين | جامعة الجزائر 1 | مناقشا |
| أد. دوحة عبد القادر | المركز الجامعي خميس مليانة | مناقشا |
| د. صحراوي عبد القادر | جامعة بلعباس | مناقشا |

ج:1

السنة الجامعية: 2013 – 2014م

بسم الله الرحمن الرحيم

# الاهداء

**إلى من كلله الله بالهيبة والوقار .. إلى من علمني العطاء بدون انتظار .. إلى من أحمل اسمه بكل افتخار .. إلى من به أكبر وعليه أعتمد .. إلى شمعة متقدة تنير ظلمة حياتي .. أرجو من الله أن يمد في عمرك لترى ثمارا قد حان قطافها بعد طول انتظار وستبقى كلماتك نجوم أهتدي بها اليوم وفي الغد وإلى الأبد .. والدي العزيز.**

**إلى زهرة حياتي .. إلى معنى الحب والحنان والتفاني .. إلى من بوجودها أكتسب قوة ومحبة .. إلى بسمة الحياة وسر الوجود.. إلى من كان دعاؤها سر نجاحي وحنانها بلسم جراحي .. إلى من أرتاح في حضنها إلى أغلى انسانة في الوجود أمي الحبيبية.**

**إلى من كان أخي في نصحه، وصديقي في دعمه، وكريما في عطائه وحنانه، إلى من كان عوني عندما احتجت إليه، ومازال هنا لكي لا أحتاج لغيره.. إلى الذي لم ولا ولن أنساه أبدا.. زوجي العزيز لك مني كل الشكر والتقدير والعرفان والامتنان..**

**إلى من جمعنا سقف واحد، واحتضننا صدر واحد، أحبتي إخوتي، وإلى كل زوجاتهم وأبنائهم.**

**إلى بلد المليون ونصف المليون شهيد الجزائر الغالية، وإلى شهداء الإسلام في الأندلس الشهيدة بالأمس وأبناء فلسطين الجريحة اليوم.**

**اليكم كلكم أهدي هذا العمل الذي كان ثمرة مجهود سنوات من البحث والتنقيب نرجو من الله عز وجل القبول وأن يجعله في ميزان حسناتنا.**

**بتوفيق من الله سبحانه وتعالى تمت هذه الدراسة، وبإذنه وعونه تم تدوينها، فلك الحمد ربي كله كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، أولا وآخرا.**

**ثم الشكر الجزيل والامتنان الخالص إلى الأستاذ المشرف الدكتور حنيفي هلايلي الذي لم يأل جهدا في تقديم نفيس مساعداته وجليل توجيهاته حتى تم هذا البحث.**

**تشكراتي الخالصة إلى الأساتذة المناقشين الأجلاء لتكرمهم عناء قراءة هذه الرسالة وإبداء ملاحظاتهم وانتقاداتهم القيمة، فلهم مني خالص الشكر والتقدير، وأدامهم الله ذخرا لهذه الأمة ونبراسا نقتدي بهم في زمن أصبح العلم هم محرك الشعوب وزادهم.**

**كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذ "بن عمار خالد" على ما بدله من جهد في تصحيح هذا البحث من جانبه اللغوي. كما أتقدم بخالص امتناني للإمام "مكي أحمد" الذي لم يبخل علينا بمساعداته القيمة فيما تعلق بالجانب العقدي.**

**ولا يفوتني في هذا المقام أن أحيي الأساتذة الزملاء، الذين نكن لهم خالص الاحترام والتقدير.**

**وتشكرات الخالصة إلى الأستاذة المناقشين على تكرمهم عناء قراءة الرسالة وإبداء ملاحظاتهم وانتقاداتهم القيمة، فلهم مني خالص الشكر والتقدير**

**والناس أكيس من أن يمدحوا رجلا من غير أن يجدوا فيه آثار إحسان**

## قائمة المختصرات

ج: الجزء

تح: تحقيق

تر: ترجمة

تعر: تعريب

تع: تعليق

ط: طبعة

د ط: دون طبعة

مج: مجلد

س: سنة

ع: عدد

م و ن ت: المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع

د م ج: ديوان المطبوعات الجامعية

Ibid: المرجع نفسه

N: numéro

op.cit: المرجع السابق

**P** : **page**

**Tome** : **T**

**Vo** : **Volume**

**Rv His** :**Revue Historique**

**Rv**, **hisp**:**Revue hispanique**

# مـقـدمـــة

دام حكم العرب المسلمين للأندلس ما يقارب الثمانية قرون (92-197 هـ/710-1492م) أعطى خلالها الإسلام الذي كان قد أوجد توافقا واندماجا بين حضارتين مختلفتين باستناده على التسامح الديني، وباعتماده على قدراته الهائلة في الإبداع وميله المتميز إلى التجريب والاختبار ثمارا عظيمة، هذه الأخيرة شهدت أهم اندماج عرقي بين الشرق والغرب، فكانت الحضارة يومها تشع من حواضرها، كقرطبة واشبيلية وغرناطة وطليطلة وبلنسية وسرقسطة وغيرها من المدن الأندلسية.

وبهذا حققت الأندلس طيلة ثمانية قرون جوا من التعايش والاحتكاك بين مختلف شرائح المجتمع الأندلسي طيلة حكم ثمانية قرون مما سمح للإسبان وغيرهم من الاقتباس من هذه الحضارة الراقية، بشكل مباشر وغير مباشر، ليتحقق تواصل حضاري بين عالمين مختلفين، وبذلك اعتبرت الأندلس أحد أهم المعابر الثلاثة التي تمت خلالها عملية التواصل بين الفكر العربي الإسلامي والفكر الأوروبي النصراني.

إلا أن الأوضاع بدأت تأخذ مجرى مغاير تماما لما كانت عليه في سابق عهدها فقد توالى سقوط المدن والقلاع الأندلسية بيد النصارى الكاثوليك قبل سقوط غرناطة بزمن طويل. وبعد هذا الحادث – المروع بالنسبة للوعي الإسلامي – زالت السلطة العربية الإسلامية نهائيا عن الأندلس. وطيلة هذه المرحلة وتلك، لم يتوقف المسلمون بوصفهم أقلية دينية ظاهرة أو مستترة داخل النصرانية أجبروا على التظاهر باعتناقها، عن إنتاج حضارة عربية إسلامية، في مواجهتهم للحضارة الغربية النصرانية.

كان سقوط غرناطة –آخر قلاع المسلمين في إسبانيا– سنة (897هـ/1492م) نذيرا بسقوط صرح الأمة الأندلسية الديني والاجتماعي، وتبدد تراثها الفكري والأدبي، فكانت مأساة المسلمين هناك من أفظع مآسي التاريخ؛ فقد شهدت تلك الفترة أعمالا بربرية وحشية ارتكبتها محاكم التحقيق (التفتيش)؛ لتطهير إسبانيا من آثار الإسلام والمسلمين، وإبادة تراثهم الذي ازدهر في هذه البلاد زهاء ثمانية قرون من الزمان.

فلقد برهنت الأبحاث التاريخية الجادة بأن الحصار الذي فرض على مسلمي اسبانيا، وإجبارهم على الدخول في النصرانية قهرا قبل طردهم نهائيا سنة 1018هـ/1609م ليس فقط لحقد عنصري، بل لحقد ثقافي وحضاري كذلك يمتد لعصور غابرة بدأت مع الحروب الصليبية. ومع هذا كله فقد حافظ هؤلاء المضطهدين دينيا وعرقيا، والذين سماهم خصومهم النصارى بـ "المورسكيين"، تحقيرا لهم، على حضارة أجدادهم ضمن ثقافتهم الخاصة.

وما كانوا ليستطيعوا أن يصمدوا أمام هذه الأوضاع لولا رفعهم "للتحدي" الذي فرض عليهم، واستجابتهم "للمبدأ الناظم" لحضارتهم، المتمثل في تشبثهم بدينهم الإسلامي. ولا عجب في ذلك، فالحضارات لا تبلغ غاياتها القصوى، إلا عندما تنطوي على دين أو ما يشبه الدين الذي يحدد قيمتها ونظرتها الشاملة.

فمن المعروف أن مختلف الحضارات تنتج تصوراتها، وتجهد في تأسيسها وتدعيمها بحثا عن الوحدة والتطابق ونفيا لكل تعدد واختلاف. وإذ تتغير هذه الحضارات ذلك، فإنها تضطر داخل ثقافتها وبواسطتها، إلى تشكيل تصورات مختلفة عن الحضارات الأخرى خاصة تلك التي تدخل في

صراع معها وتروم تقويضها والقضاء عليها ولا عجب في ذلك فالغيرية هي التي تؤسس الهوية وليس العكس.

وعلى الرغم مما عرفه مسلمو اسبانيا وعاشوه من ضروب الاضطهاد الذي سامتهم إياه مختلف السلطات الدينية والسياسية الإسبانية، بقصد تنصيرهم واجتثاثهم من الهوية العربية الإسلامية وتهميشهم وتجهيلهم، إلا أنهم لم يستسلموا لكل ذلك وعملوا على مواجهته من خلال إنتاجهم لتراث فكري متنوع ومتعدد.

انطلاقا من ذلك فإن موضوع رسالتنا سيرتكز حول الفكر الديني عند مسلمي اسبانيا مند سقوط غرناطة سنة 897هـ/1492م وإلى غاية ساعة الطرد النهائي سنة 1018هـ/1609م مبني على محاولة تقييم المسار التاريخي لهؤلاء المقصيين في أبعاده السياسية والدينية والأدبية والإجتماعية، بوصفه تاريخ مواجهة بين انتماءين حضاريين مختلفين، في روحه العامة، وتاريخ تثاقفهما في بعض لحظاته وتفصيلاته.

والهدف من هذا التتبع الأخير تخليص نتاجهم الفكري من بعض التصورات الاستشرافية والتصورات العربية الإسلامية على حد سواء، هاتين اختزلتاه معا في التعبير عن الاحتدام الصراع الحضاري بين الإسلام والنصرانية دون النظر في تحولاته واختلافاته مع العمل على تخليصه كذلك من كل المزاعم المغلوطة. فموضوعنا هذا ينطلق من افتراض يذهب إلى أن تلك النصوص وتاريخها يسمحان بالحديث عن وجود فكر ديني، من حيث كونه إسلاميا وعربيا وسنحاول الدفاع عن هذا الافتراض بتناولنا لهذا الفكر ودراسة أجناسه وأنواعه، ومضامينه وأهدافه، وخصائصه، وسياقاته

التاريخية وشروط إنتاجه داخلها.

وسنمحور ذلك حول أشكال تصويره لتدافع واحتدام الثقافيين بإسبانيا خلال مراحل إنتاجه بها من خلال تشبث أهله بعقيدتهم وثقافتهم الإسلامية، من دون أي إهمال لمراحل إنتاجه واستهلاكه بـ "الشتات الموريسكي" خارج هذه البلاد. كما سنحاول فيه كذلك، الدفاع عن افتراض آخر يقابل هذا الافتراض الأول ويخضعه إلى تلوينات دالة.

إن هدفنا الأول من إخراج هذا الإنتاج العلمي هو التعريف بالنضال المتواصل لمسلمي اسبانيا، وتوضيح جدور المجتمع الأندلسي المتأصلة في الهوية الإسلامية، وتسليط الضوء على القوى الدافعة لانبعاثه؛ كما سنسلط الضوء على مختلف الاجتهادات والابداعات التي أنتجها مسلمو اسبانيا محاولين تفسيرها من وجهة نظر الدين وعلم الاجتماع، مع الأخذ بعين الاعتبار الظروف التي ساهمت بشكل مباشر في ذل.

إن القيمة العلمية لهذا البحث تتأكد من خلال انحصاره في دراسة الفكر الديني لمسلمي اسبانيا خلال القرنيين السادس والسابع عشر ميلادي، ومحاولة فهم الظاهرة التاريخية من خلال مصادرها الأولية؛ فكثيرة هي المراكز والدراسات والأعمال والندوات التي تناولت قضية مسلمي اسبانيا، ويمكننا تصنيفها إلى قسمين، قسم منها عالج الجانب السياسي والاجتماعي لتاريخ هذه الأمة وبهذا الصدد نذكر بعض الأسماء لعل من أهمها:

كتابات "**ميغيل دي سرفانتس**" " **Miguel De Sarfats**". والدراسة الموسومة بـ: "**الموريسكيون حياة ومأساة أقلية**"، **و الكتاب الموسوم بـ:"تاريخ مسلمي الأندلس"** لصاحبه

"**أنطونيو دومينقير**". "**Antonio Dominiez**"أيضا "**سيمون الحايـك**" " **Simon Hayek**" في مؤلفه الموسـوم بـ: "**ابن أمية أو ثورة الموريسكيين**". هذا عن الجانب الغربي من الدراسات أما فيما يخص الدراسات العربية في هذا المجال فنذكر على رأسهم "**محمد عبد الله عنان**" في مجموعة من الأبحاث التي أكسبت المكتبة العربية والإسلامية رصيدا علميا مهما. أيضا لا يفوتنا التنويه إلى الدراسة التي أنجزها الباحث "**عبد الواحد ذنون طه**" الموسومة بـ: "**حركة المقاومة العربية الإسلامية في الأندلس بعد سقوط غرناطة**".

كما يجب الإشارة في السياق ذاته إلى الباحث "**عبد الجليل التميمي**" الذي له الفضل في انشاء مركز للدراسات الموريسكية، هذا الأخير أسس لكثير من الأبحاث والدراسات من خلال تنظيمه للمؤتمرات والندوات عنت بدراسة ما سماه "عبد الجليل التميمي" " الملف الموريسكي". أيضا ننوه بالبحث الأكاديمي االذي قام بإنجازه الباحث "**محمد رزوق**"، فهذا الأخير خبر عن قرب نصوص هؤلاء ضمن سياق إعداده لأطروحة في تاريخ المغرب والأندلس بعنوان: "**الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 و17**".

أما فيما يخص الجانب الديني لهذه الدراسات فنذكر على رأسها البحث الذي قدمه "**بدرو لونغاس**" "Pedro Longàs"، الموسوم بـ: "**الحياة الدينية للموريسكيين الأندلسيين**"" Vida religiosa de los moriscos" تناول من خلاله الممارسات الدينية لمسلمي اسبانيا على ضوء بعض المخطوطات الألخميادية وملفات محاكم التحقيق. بالإضافة إلى مجموعة مهمة من الدراسات

التي تقدم بها أصحابها للمشاركة في المؤتمرات الدولية التي نظمها عبد الجليل التميمي وقام بجمعها وطبعها على شكل دوريات.

كما يجدر بنا الإشارة إلى الدراسة الأكاديمية المهمة التي قدمها الباحث "**لوي كارداياك Cardiac Louis**" الموسومة بـ:" **الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون (المجابهة الجدلية)**" "Les moresques Andalous Affrontement polémique ".

فهذه الدراسة رسمت لنا الخطوط العريضة للجدال الديني الذي دار بين أقلية مسلمة وأغلبية نصرانية، مستنبطا مادته العلمية من مجموعة مهمة من المخطوطات الألخميادية ووثائق ملفات محاكم التحقيق الإسبانية.

ومع هذا كله فأثناء جمعنا للمادة العلمية لم نجد – على حدود علمنا – دراسة أفردت الحديث عن الفكر الديني عند مسلمي اسبانيا بالصورة والطرح الذي قدم في هذه الرسالة وإنما الذي وجدناه هي مجموعة من الدراسات التي حاولت عرض جانب فقط من جوانب هذا الموضوع دون معالجة كل تفاصيله، فنحن نعلم بأنه هناك دراسات متخصصة تسعى لشرح طبيعة سلوك مسلمي اسبانيا، على ضوء تفكيرهم ومواقفهم من خلال مؤلفاتهم؛ وإننا نعلم الشيء الكثير على احتضارهم السياسي، لكننا لا زلنا نحتاج إلى تأطير احتضارهم النفسي والثقافي.

لهذا ركزنا دراستنا على هذا الجانب آملين من خلال هذا الانتاج العلمي اثراء المكتبة الجزائرية على وجه الخصوص والمكتبة العربية والإسلامية عموما برصيد علمي حول حقبة مهمة من تاريخ الأمة الأندلسية المسلمة التي تشكل جزء لا يتجزأ من الأمة الإسلامية، خاصة وأن مكتبات الجزائر تفتقر

لمثل هذه الدراسات.

إن كل بحث يحاول من خلاله الباحث التأسيس لفكرة ينطلق من خلالها حتى تتبلور لتصبح دراسة قائمة بذاتها، فكان لابد له أيضا أن ينطلق من اشكالية تكون الأساس للبحث بحيث اعتمدنا في معالجة موضوعنا هذا على إشكالية عامة كانت المحور لموضوع الدراسة. فما هي أهم خصائص الفكر الديني عند مسلمي اسبانيا خلال القرنيين العاشر والحادي عشر هجريين الموافق للقرنيين السادس والسابع عشر ميلاديين في ظل الظروف القاهرة التي كانوا يعاونون منها؟

وتفرعت عن هذه الاشكالية مجموعة من التساؤلات أهمها: كيف تم استئصال هذه الأمة استئصالا تاما من الوجود، بحيث لم يعد لأفرادها كيان على الرغم من أنها كانت لثمانية قرون كاملة أمة متميزة عن سائر الأمم؟ وما ردود فعلها إزاء محاولات القهر والإكراه لطمس معالم عروبتها وإسلامها على مدى مائة وثلاثة وعشرين عاما؟ وهل يمكن الحديث عن وجود نتاج فكري بكل فروعه بعد سقوط غرناطة؟ وإلى أي حد يمكن أن يسمح لنا بتأسيس أطروحة عن مضامين ومقومات وأشكال تصويره للصراع الحضاري بين الإسلام والنصرانية بالمنطقة في المنطقة؟ وهل استطاعت هذه الأقلية في ظل الظروف القاهرة التي كانت تعيشها أن تؤسس لنفسها مجالا خاصا بها لممارسة شعائر الدين الإسلامي؟

من أجل دراسة هذا الموضوع وطبيعة حيثياته كان لابد من معالجة كل جوانبه مع الأخذ بعين الاعتبار بأن محاولة كهذه سوف تواجهها العديد من الصعوبات، من جملتها أننا حاولنا قدر الامكان الفصل بين الجانب الفقهي والتاريخي للموضوع وذلك لطبيعته، فكان صعب علينا دراسة كل جانب

على حدى.

كما حاولنا دراسة الموضوع من مصادره الأولية، إلا أننا لم نتمكن من تحصيل إلا جزء بسيط منها. كما شكلت عملية ترجمة النصوص التاريخية الاسبانية عائقا أمام تقدم البحث بصورته العادية. ضف إلى ذلك تشابك مواضيع البحث في ما بينها، ما أقحمنا ودون قصد منا في تخصصات قد تحتاج إلى دراسة قائمة بذاتها، مثل: علم الأديان والمعتقدات، علم الاجتماع، الأدب وفنونه، والعلوم السياسية. وبناء عليه نتوسم من المختصين تفهمهم لهذا الأمر.

ومع هذا وذاك حاولنا قدر الامكان تجاوز هذه الصعوبات وتخطيها باتباع منهج علمي سليم، فإذا كان المنهج العلمي يفرض على الباحث ضرورة أن يكون موضوعيا في دراسته – بمعنى تصوير الواقع ووصفه كما يوجد بالفعل – فإن أول التزام أخلاقي له هو الالتزام بالموضوعية والكشف عن الحقيقة التاريخية ولو بشكلها النسبي.

والالتزام بالموضوعية يعني الانحياز للحقيقة والالتزام بها وهذا يعد أهم وأول مبدأ أخلاقي في العلم؛ فالموضوعية ليست مرادفا للحياد الأخلاقي كما يردد البعض، ولكن تعني تصوير الواقع على ما هو عليه، وتنحية كل اعتبار انفعالي أو عاطفي أو قيمي أو طائفي والتحرر من سلطة العرف الاجتماعي، وذلك من أجل الفهم العلمي لأسباب وجود ظاهرة معينة وعلاقتها بمحيطها.

وللإلتزام بهذه الموضوعية حاولنا اتباع منهجا تضمن عدة خطوات. أولها عرض المادة التاريخية، فالمنهج العلمي لأي بحث يقوم على التسليم بأن جميع المظاهر التاريخية هي نتاج لأحداث معينة، فكل ظاهرة بالضرورة لها تاريخ في الأحداث التي سبقت حدوثها.

وبناء على ذلك فإن العلماء لا يقتصرون على وصف أي ظاهرة أو حدث ولكنهم يسعون دائما إلى اكتشاف العلاقات بين الظاهرة التي يدرسونها وبين ما سبقها من أحداث أدت إلى وقوعها. والتسليم بمبدأ الحتمية في المنهج العلمي بأن جميع الظواهر التاريخية هي في حالة تغيير دائم، إلا أن هذا الأخير لا يحدث على شكل قفزات مفاجئة أو أحداث عرضية أو عشوائية ولكنه يتبع نظاما ثابتا نسبيا.

ثم تليها الخطوة الثانية التي تعتمد على الوصف والتصنيف فالباحث يصف الأحداث والوقائع التاريخية، وتساعده النظرية العلمية التي تبناها في التركيز على الخصائص الجوهرية للظاهرة المدروسة وذلك بما تضمنه هذه النظرية من مفاهيم وقضايا، ثم بعد ذلك تصنف مادة الوصف وهنا يأتي مرة أخرى دور النظرية التي تساعد على صياغة معايير معينة لتصنيفه.

الخطوة الثالثة وهي عملية التحليل وتعني فك كل مركب إلى أجزائه ومكوناته، فالتحليل يعني تقسيم الظاهرة إلى مكوناتها وعناصرها الأساسية حتى تستطيع تحديد العام والخاص فيها، والاجتماعي والفردي والكلي والجزئي والجوهري والثانوي والشكل والمضمون.

وأخيرا الخطوة الرابعة التي تعتمد على تبني منهج تفسير الظاهرة التاريخية فهناك أكثر من صيغة للتعبير عن التفسير، فمنها الأسباب التي تصاحبها نتائج التي تسمي العلاقة السببية، وتوجد بين ظاهرتين، أو إضفاء معنى على الوقائع والبيانات على أساس النظرية الموجهة للبحث.

ولتطبيق هذه المنهجية اعتمدنا على بعض المصادر المخطوط منها والمنشور والمحقق، كما

استفذنا من مجموعة المراجع العربية والغربية التي توفرت في مختلف المكتبات الوطنية والدولية نذكر أهمها:

المخطوط الموسوم بـ: "**العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع، العز والمنافع للمجاهدين بالمدافع**" لصاحبه "**علي بن زكريا بن محمد بن غانم بن أحمد ابراهيم**". ظهر هذا المؤلف في نسخته الأصلية باللغة الألخميادية سنة 1041هـ/1632م وقام بتعريبه **أحمد بن قاسم الحجري** سنة 1047هـ/1638م. يتكون هذا المخطوط من مقدمة، وخمسين بابا، وخاتمة.

يعطي المؤلف في المقدمة معلومات عن حياته بإسبانيا، وأسفاره البحرية بين اسبانيا وأمريكا، و بمخالطته أثناء هذه الأسفار للمدفعيين الإسبان، ثم يذكر بعد ذلك خروجه من اسبانيا واستقراره بتونس، وممارسته للجهاد البحري هناك، وينتقل بعد ذلك إلى استعراض ما يتعلق بفن المدفعية في خمسين بابا. وقد وضع المعرب خاتمه تعرض فيها إلى الظروف التي كان يعيش فيها المسلمون بإسبانيا انطلاقا من تجربته الخاصة. وقد أفادنا في معالجة جزئيات مختلفة من البحث خاصة فيما تعلق بموضوع الجهاد الإسلامي في اسبانيا، وكذا الجزئية الخاصة بحركة التدوين التاريخي في مؤلفات مسلمي اسبانيا.

ثم المخطوط المعنون بـــ :" **رثاء احتلال المسيحيين**" لمؤلف "**مجهول**". جاء هذا المؤلف على شكل قصيدة شعرية يرثي صاحبها سقوط المدن الأندلسية الواحدة تلوى الأخرى. وبالرغم من أنها تنتمي إلى الفن الشعري إلا أنها تشكل وثيقة تاريخية تؤرخ لفترات حرجة من تاريخ الأندلس الشهيدة. وقد استفدنا من المعطيات الواردة فيه لإثراء الفصل الخاص بالشعر وأنواعه وأغراضه.

كما تم الاعتماد على مخطوطات أخرى ولكن بدرجة أقل نذكر المخطوط المعنون بـ "**الأنوار النبوية في آباء خير البرية**" لمؤلفه "**بن عبد الرفيع محمد الأندلسي**". فقد ألف محمد بن عبد الرفيع هذا الكتاب عام 1044هـ/1635م، مشتملا على ثمانية فصول، وذيله بخاتمة. تعرض فيه للظروف التي كان يعيشها المسلمون بإسبانيا، انطلاقا من تجربته الخاصة.

إذن يعتبر هذا المؤلف بما احتواه من مادة تاريخية وثيقة مهمة في دراسة محنة مسلمي اسبانيا، وكيف حاول هؤلاء التمسك بهويتهم الإسلامية في ظل الظروف القاسية التي كانوا يعيشونها. وقد أفادتنا المادة التاريخية المستقاة من المخطوط في معالجة بعض جزئيات الفصل التمهيدي والباب الثاني من البحث.

كذلك يجب الإشارة إلى المخطوط المعنون بـ: "**تاريخ الأندلس**" لمؤلف "**مجهول**"، حيث ضم ضمن ورقاته معلومات مهمة حول تاريخ الأندلس. وقد تم الاستفادة من مادته التاريخية في إطراء الفصل التمهيدي من الرسالة. هذا بالإضافة إلى مجموعة من الوثائق العثمانية التي كان مصدرها المكتبة الوطنية بالحامة؛ وقد تم اعتمادها في ضبط وشرح الكثير من المصطلحات التاريخية على رأسها نذكر ملف الوثائق العثمانية رقم: 1642.

هذا فيما يخص المادة المخطوطة والوثائقية، أما فيما يخص المصادر العربية فقد صنفت إلى ثلاث أنواع: مصادر تاريخية وفقهية وجغرافية، كل في المجال تخصصها نذكر من أهمها:

"**ناصر الدين على القوم الكافرين**" لصاحبه "**الحجري أحمد بن قاسم**"، يعتبر هذا المؤلف مختصر **لرحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب**. فقد كتب "**أحمد ابن القاسم** كتابه هذا عام

1047هـ/1637م بطلب من شيخ المالكية بمصر علي الأجهوري. يقع هذا المختصر في ثلاثة عشر بابا، تعرض خلالها إلى ظروف المسلمين بإسبانيا، وما كانوا يعانونه من خلال تجربة شخصية، وإلى قرار الطرد وأسبابه.

ويعتبر هذا المؤلف من بين أهم المصادر التاريخية الأندلسية التي كتبت بعد صدور قرار النفي، فصاحبه يتكلم وهو بمنأى عن محاكم التحقيق، يجادل النصارى واليهود، ويستعرض من خلال ذلك ما فعله الاسبان بالمسلمين، وبهذا فإن هذا المصدر يضم مجموعة من التقديرات التبريرية والدفاعية عن الإسلام مقارنة بالدين النصراني. وقد اعتمدنا على المعلومات الواردة في هذا المصدر في معظم محطات البحث، فقد كان بمثابة لبنة أساسية للدراسة.

" **المقري بن محمد أحمد شهاب الدين التلمساني**"، في تآليفه: الأول الموسوم بـ "**نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**"؛ ثم الثاني المعنون بـ: "**أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض**". يدرج المؤرخ "**المقري**" ضمن قائمة أهم المؤرخين الذين ألفوا حول هذه الحقبة المأسوية من تاريخ الأندلس الشهيدة، وهو أقرب زمنا إلى زمن نكبة السقوط.

وقد كتب مؤلفه "**نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**" من خلال ما أدركه من أخبار ترددت على ألسنة الشيوخ ممن عاشوا أحداثها وسمع منهم ومن جاء بعدهم من دقائق الأخبار وتفاصيلها. وجعل محور بنائه فيه يقوم على ترجمة أشهر وزرائه، ليترجم معه للأندلس أيضا بكل تاريخها، وقد استعنا بالمعطيات التاريخية الواردة في المصدرين في إثراء الفصل الأول والثاني من الباب الأول، وكذا في محطات مختلفة من البحث.

أما فيما يخص مؤلفه الثاني الموسوم بـ "**أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض وما يناسبها مما يحصل به ارتياح وارتياض**"، فقد ألفه عندما وصلته رسائل من بلده ترغبه في التعريف بالقاضي "**عياض**"، فلبى الطلب وكتب كتابه المسمى أعلاه وهو في فاس يستجمع ما هو رائج فيها من كتب الفترة ليستخلص منها تلك الصورة الحية لما كان يعرفه الأندلس في لحظات ازدهاره أو لحظات سقوطه.

تحدث **المقري** في الكتاب المذكور عن نكبة الأندلس ومجريات السقوط وما أعقب ذلك من خروج أمير الحمراء غرناطة إلى فاس لاجئا إليها مستقرا بها. فجاء ذلك استطرادا للحديث عن نكبة مدينة سبتة بلد القاضي "**عياض**" حينما سقطت في يد النصارى، فتذكر بذلك ما سبق من سقوط مدينة طليطلة وما قيل في رثائها، ثم ما قيل من مطولات أخرى في رثاء الأندلس.

ولا يغيب عن ذهن **أبي العباس المقري** وهو يتحدث عن لحظة ضياع الأندلس أن يرسم النبض الذي تحركت فيه أفئدة الأندلسيين وهم يرون بلادهم تسير نحو الهاوية، فتحدث عن الصورة المشرقة التي كانت عليها الأندلس سابقا وعن الحالة المؤسفة التي آلت إليها في انتظار فرج الله الذي لاشك أنه سيكون قدرا محتوما لهذه البلاد، ولا راد لقضاء الله .

إلا أن كثيرا من المادة التي ذكرها في "**أزهار الرياض**" قد وجدت مكانها في "**نفح الطيب**"، ولكن بصيغة أخرى. ففي "**نفح الطيب**" حاول أن يركز أكثر على إيراد المادة التاريخية للأندلس وما يمثله هذا في رقته وحضارته وأدبه وأشعاره وإنشاده وذكر علمائه وآثارهم في المغرب والمشرق. كما حاول

أن يركز على ما يمثله الأندلس في حضارته العربية الإسلامية في هذا الركن، وفي الحديث عن الإنسان الراقي الذي يتفاعل مع الجمال ويتعامل مع الفكر. وكان أكثر اعتمدنا عليه في الاستفادة من القصيدة التي ضمها مؤلفه لما حملته من مادة تاريخية مهمة.

"**نبذة العصر في أخبار انقضاء دولة بني نصر**"، لمؤلف "**مجهول**". يعتبر هذا المصدر من أهم ما كتب حول الأندلس بعد السقوط، ويعتبر مؤلفه ممن عاصروا الحدث التاريخي، لهذا فإن المعلومات التي احتواها هذا المؤلف قيمة ومهمة. فقد ركز المؤلف في كتابه هذا على الأسباب التي أدت إلى سقوط غرناطة. وقد استفدنا منه خاصة في إثراء الفصل التمهيدي وجزئيات من الباب الأول.

"**أسنى المتاجر في بيان الأحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر**" لصاحبه "**أبي العباس أحمد بن يحي الونشريسي**". كتب فتواه هذه عام 890هـ/1485م أي قبل سقوط غرناطة بوقت قليل؛ وهي في شأن الأندلسيين الذين هاجروا إلى المغرب، لكن أوضاعهم لم ترقهم، فعبروا عن رغبتهم في الرجوع إلى وطنهم الأصلي. وقد حرر الونشريسي فتوى ثانية سنة 901هـ/1495م، أي بعد سقوط غرناطة بوقت قصير، في شأن أندلسي أراد البقاء هناك، ليتكلم باسم الأندلسيين المسلمين لدى السلطات الاسبانية.

تناولت الرسالة مسألتين أساسيتين، تفرعت عنهما مسائل ثانوية متعددة، فهي تبحث في حكم بقاء المسلم في بلده الذي غلب عليه الكفار بخاصة، وحكم الإقامة في بلاد الكفار بصورة عامة. وتعتبر وثيقة تؤرخ لفترة من فترات استضعاف المسلمين، وبذلك نفسر اهتمام بعضهم بالسؤال

الذي في صدرها أكثر من جواب، لأن السؤال يرصد الواقع، أما الجواب فيقرر الشرع في الواقع المرصود. وقد تم الاعتماد عليه في الجزئية التي عالجت موقف مسلمي اسبانيا من قرار الطرد.

كما تم الاعتماد على مجموعة من المصادر الفقهية، هذه الأخيرة أعطت للبحث قيمة ومصداقية علمية، ومكنتها من تبيان عدة أمور لم تفصل فيها المراجع المختصة؛ فكانت بمثابة الركيزة الأساسية لضبط وتعليل المسائل الفقهية. نذكر على رأسها :"**تفسير القرآن**" لصاحبه "**ابن كثير**" بأجزائه الثلاثة الذي أفادنا في الكثير من محطات البحث. أما فيما يخص المصادر الجغرافية، فقد دعمت البحث بمجموعة مهمة من التخريجات التي أضفت على الدراسة نوعا من الجدية والإثراء.

هذا فيما المصادر العربية، أما فيما يخص الأجنبية منها فقد تم الاعتماد على مجموعة منها قد تبدو ضئيلة مقارنة بالمصادر العربية، ولكننا تعمدنا ذلك حتى نحاول أن نضع توازنا مع اعتمادنا للكم الهائل من المراجع الاسبانية بصورة خاصة والغربية بصورة عامة المترجم منها وغير المترجم، هذا الجهة، ومن جهة أخرى فقلتها أيضا يعود إلى أن معظم المصادر الاسبانية قد اهتمت بالتأريخ للصراع العسكري الذي دار بين السلطات الاسبانية ومجاهدي حركة المقاومة الإسلامية أكثر من اهتمامها لعرض ودراسة للاحتضار الثقافي الحضاري لهذه الأقلية الدينية في اسبانيا النصرانية. وفي هذا السياق نذكر المؤلف الموسوم بـ "**افريقيا**" لصاحبه "**مرمور**" الذي قدم معلومات مهمة حول محطات مختلفة من الصراع الاسباني الإسلامي.

وبالمنظور نفسه أفدت من أبحاث المؤرخين والمفكرين العرب والاسبان على حد سواء، وننوه بالذكر: "**محنة الموريسكيون في إسبانيا**" لصاحبه " **محمد قشتيلو**"، يقدم لنا هذا الأخير بحثا

ملخصا من المصادر الإسبانية. ويعتبر تصويرا حسنا لأدوارها وأسبابها ونتائجها؛ والكتاب يعتبر حدثا أدبيا وتاريخيا، لأنه يعالج موضوعا أندلسيا قلما عولج باللغة العربية.

فقد تناول " **محمد قشتيلو**" في دراسته فصولا من الصراع النصراني الاسلامي، بداية بعهد الملكين الكاثوليكيين إلى غاية حكم **فليب الثالث**، كما تطرق إلى موضوع الطرد النهائي وانعكاساته على شتى الأصعدة. وما يؤاخذ على هذه الدراسة أن صاحبها استعان بالمصادر والمراجع الاسبانية كلية مما أثر نوعا ما على طريقة سرد الأحداث التاريخية. وقد تم الاعتماد عليه في محطات مختلفة من الدراسة

"**انبعاث الإسلام في الأندلس**" لصاحبه "**علي المنتصر الكتاني**" عرض فيه هذا الأخير مسيرة مسلمي إسبانيا في نضالهم وكفاحهم ضد الاضطهاد الكنسي والحكومي الممارس عليهم. وقد أفادنا هذا المرجع في إثراء محطات مهمة من هذه الدراسة نذكر أهمها المقاومة، الطرد، الأدب الألخميادو. وما يؤاخذ على هذه الدراسة بالرغم من أهميتها أنها ينقصها التحليل والاستنباط. كذلك نذكر بهذا الصدد المرجع الموسوم بـ: "**الأمة الأندلسية الشهيدة**" لمؤلفه "**عادل البشتاوي**"، فقد ألم هذا الأخير بكل الفترات التي عاشها مسلمو اسبانيا. واستفذنا منه في إثراء الفصل الثاني والثالث من الباب الأول.

كتابات **عبد الله عنان**، هذا الأخير جعل من موضوعه الجوهري قضية سقوط الأندلس، الذي رأى من خلال اطلاعه على الكثير من الدراسات أنها لم تلتفت إليه البحث، ولم تتناوله الأقلام والبحوث الغربية بصورة جدية، وكذلك لم تتناوله الأقلام العربية بصورة وافية.

فاعتمادنا على مجموعة من مؤلفاته كانت بمثابة مصدرا علميا مهما أثرى مختلف جزئيات هذا البحث؛ نذكر على رأسها الدراسة الموسومة بـ " **الآثار الباقية في اسبانيا والبرتغال**" فقد كان هذا العمل بمثابة معجم أو موسوعة للتعريف بالمدن الأندلسية، تاريخها، موقعها، مميزاتها وخصائصها، وقد دعم البحث بمجموعة مهمة من التخريجات التي عرفت بالكثر من المواقع الأندلسية. كذلك المرجع الموسوم بـ :" **نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين**". فمن خلال عنوانه يستشف أن مؤلفه خصص جهوده العلمية لعرض وقد ساهم هذا المصدر في اثراء الباب الأول على وجه الخصوص.

كما لا يفوتنا الإشارة إلى الدراسات التالية: "**محنة العرب في الأندلس**" لصاحبه " **حومد أسعد**"، و"**حتامله محمد عبده**"، في دراسته الموسومة بـ "**التنصير القصري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين**". هذا الأخير يعرض من خلاله الكاتب لفترة حرجه من تاريخ المسلمين في الأندلس، تبدأ بسقوط غرناطة وتنتهي بالتطبيق الشامل للتنصير القسري لمسلمي الأندلس أو التهجير، وهي فترة مجهولة نسبيا قلما نجد دراسة جادة تتحدث عنها. وما يميز هذه الدراسة رجوع مؤلفها إلى عدد من الوثائق والمصادر الاسبانية واعتبارها مرجعا رئيسا له، مع عدم إغفاله للدراسات الإسبانية الحديثة للاطلاع على ما تقدمه من آراء ومعلومات، كما ألحق دراسته بخرائط للأندلس، ولمنطقة غرناطة خلال فترة الدراسة.

كذلك قدمت الدراسة إحصائية شاملة لمسلمي غرناطة زمن الملكين الكاثوليكيين، وواضح أن هذه الإحصائية وضعت– في وقتها – لمعرفة أعداد المسلمين ومواطنهم بدقة تمهيدا لمتابعة السياسة المرسومة للتنصير القسري. وساهم كلا المرجعين بنصيب وفير من المادة التاريخية التي أثرت الكثير من

جزئيات البحث.

أما فيما يخص المراجع الأجنبية فقد اعتمدنا على عدد مهم، منها ما كان مترجم إلى اللغة العربية، ومنها ما كان على أصله ـ فرنسي أو إسباني ـ ومن أهمها نذكر:

"**لوي كارديك**" في مختلف دراساته المعتمد عليها في تدعيم المادة التاريخية للبحث سواء كانت مراجع أو مقالات وعلى رأسها نذكر الدراسة المهمة " **الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون (المجابهة الجدالية)**" فقد قدم هذا المرجع معلومات قيمة حول الجدال الذي كان واقعا بين النصارى الكاثوليك ومسلمي اسبانيا على ضوء المخطوطات الألخميادية وملفات محاكم التحقيق. وما يمكن الإشارة إليه في هذه العجالة أنه بالرغم من كونه غربيا إلا أنه كان حياديا وتمتع بكثير من الموضوعية في طرحه لمادته التاريخية. أما عن مدى مشاركته في تدعيم المحاور الأساسية للدراسة فقد تم الاعتماد عليه بالدرجة الأولى في إثراء الجزئية الخاصة بأوجه الجدال الذي كان قائما بين النصارى الكاثوليك ومسلمي اسبانيا.

في السياق ذاته يجب الإشارة إلى الدراسة المهمة التي أنجزها "**بدرو لونغاس**" والموسومة بـ " **الحياة الدينية للموريسكيين الأندلسيين**". فقد اعتمد صاحبه على كم هائل من المخطوطات الألخميادية في استقاء مادته العلمية، إلا أنه يعاب عليه أنه لم يقم بتصحيح الأخطاء الواردة فيها أو تحليلها أو حتى نقدها. كما بدت في بعض جزئيات من بحثه نزعته الاستشراقية التي لم يستطع التخلص منها لكونه كان راهبا في الكنيسة.

أيضا "**ثورة بني أمية**" لصاحبه "**سيمون يفايفر**"، هذا الأخير أسهب كثيرا في ذكر تفاصيل

المقاومة الإسلامية دون تحليل أو استقراء للأحداث، كما أن عمله اكتسى الطابع الاستشراقي. أيضا في السياق ذاته نـذكر المرجع الموسوم بـ:"**الموريسكيون في إسبانيا وفي المنفى**" للكاتب الإسباني: "**ميكيل دي إيبالثا**" " **Miguel De Ipalata**"، وترجمة "**جمال عبدالرحمن**".

يتوزع الكتاب على قسمين: يتناول الأول تاريخ "الموريسكيين" في الفترة التي سبقت عام 1018هـ/1609م، ويعنى القسم الثاني بأخبار "الموريسكيين" بعد طردهم من إسبانيا، راصدا أوضاع هؤلاء المطرودين في الدول التي هاجروا إليها. ويعتبر "**ميكيل دى إيبالثا**" من الباحثين الذين تزخر باسمهم المراجع العلمية فهو على دراية بالثقافة الإسلامية. وقد أفادتنا دراسته هذه في تدعيم المادة التاريخية الخاصة بهذا المرجع في محطات مختلفة من الباب الأول والرابع من هذه الدراسة.

كما يجب الإشارة إلى أعمال الملتقيات والندوات التي ساهمت بقسط كبير في سد الكثير من النقص الذي كان يعاني منه البحث؛ بالإضافة إلى مجموعة مهمة من المقالات التي قدمت لنا مادة تاريخية ساهمت في إثراء جزئيات متفرقة من البحث، منها ما كان مصدرها مختلف المجلات، ونخص بالذكر المجلة المغربية. ومنها ما تم اعتماده من الشبكة العنكبوتية ولم نلجأ لهذه الأخيرة إلا بعد تأكدنا من اعتماد صاحب المقال على مجموعة من المصادر المهمة قد أشار إليها.

في سياق طرحه للموضوع أو في نهاية المقال. أيضا في السياق ذاته التنويه إلى دور الموسوعات والمعاجم في شرح وضبط المصطلحات. كما لا يفوتنا التنويه بدور الرسائل الجامعية في تدعيم المادة العلمية في محطات متنوعة من البحث.

وبناء على المادة التاريخية المتوفرة في مجموعة المصادر والمراجع المذكورة أعلاه والمشار إليها في

قائمة المصادر والمراجع تم تقسيم البحث إلى فصل تمهيدي وستة أبواب، معتمدين في تأسيسنا للخطة على البناء الموضوعي للمادة التاريخية وذلك في كل من الباب الأول والخامس من الرسالة، في حين اعتمدنا في الباب الثاني والثالث والرابع على التسلسل الزمني للأحداث.

افتتحنا هذا الانتاج العلمي بتصحيح بعض المفاهيم الأساسية التي رأينا أنه من الضروري الوقوف عندها لما تشكله من أهمية في فهم الظاهرة التاريخية. ثم كان الفصل التمهيدي الذي من خلاله حاولنا تتبع أهم الأسباب التي كانت وراء سقوط الأندلس في يد النصارى الاسبان، ذلك أن هذا الحدث يمثل في حد ذاته البداية الفعلية لمأساة الأمة الأندلسية المسلمة.

فالبحث في عوامل السقوط وظروفها جديرة بأن تتوجه إليها جهود الدارسين لفهم العوامل المتحكمة في حركة التاريخ، والناظمة لعملية الاستمرار والتغير وذلك وفقا لقوانين التاريخ، التي على ضوئها يمكن استخلاص العبر، بوضع رؤية استراتيجية تؤسس لدور فاعل ومؤثر في سيرورة الأحداث والصراعات السياسية والحضارية.

ثم كان الباب الأول الموسوم بـ "**المسيرة التاريخية للمحنة الأندلسية (896-921هـ/ 1492-1516م)** من خلاله حاولنا تتبع مأساة مسلمي اسبانيا مند سنة السقوط وإلى غاية الطرد النهائي على عهد **فيليب الثالث**. وعلى هذا الأساس قسمنا هذا الباب إلى أربع فصول. فأما الفصل الأول المعنون بـ " **تسليم غرناطة وبداية المأساة (896-904هـ/1492-1501م)**" تطرقنا من خلاله إلى ثلاث محطات أساسية في مسار المحنة تمثلت في تسليم غرناطة وقراءة في بنود المعاهدة الاستسلام ثم بوادر الغدر والخيانة فبداية التعايش المستحيل.

أما الفصل الثاني والموسوم بـ:" **اسبانيا على عهد كارلوس الخامس (921-968هـ/ 1516-1558م)** تطرقنا من خلاله إلى دراسة الظروف الداخلية والدولية التي ساهمت بشكل مباشر في تفعيل الصراع الإسلامي النصراني في إسبانيا. ثم الفصل الثالث المعنون بـ:" **مسلمو إسبانيا على عهد فيليب الثاني 932-1007هـ/1527-1598م).**

تتبعنا في هذا الفصل أهم المستجدات التي طرأت على الساحة السياسية في اسبانيا ومحاولات السلطات الإسبانية الكنسية والسياسية قتل الذاكرة التاريخية والدمج الثقافي. فأخيرا الفصل الرابع الموسوم بـ:" **مأساة الطرد التعسفي التحليل والأبعاد(1003-1018هـ/1598-1609م**. من خلال هذا الفصل تطرقنا إلى الدوافع ومجريات ونتائج عملية الطرد التعسفي الذي تعرض له مسلمو إسبانيا، بعدما تأكدت السلطات الإسبانية استحالة دمجهم في الثقافة والعقيدة النصرانية الكاثوليكية.

هذا فيما يخص الباب الأول من البحث، أما الثاني فعنوناه بـ:" : **الصراع الفكري بين مسلمي إسبانيا والنصارى (909-1018هـ/1504-1609م)**. ضم هذا الباب خمسة فصول، جمعت بمباحثها مادة علمية أطرت لأشكال الصراع القائم بين مسلمي اسبانيا والنصارى الكاثوليك الذي أجبر الطرف الأول من الصراع للبحث عن سبل ووسائل تكون كفيلة بحماية مقومات شخصيته الإسلامية من الانسلاخ.

على هذا الأساس جعلنا من الفصل الأول كعنصر تمهيدي للباب حمل العنوان التالي: **"الصراع الفكري آلياته وتجلياته"** وتطرقنا من خلاله إلى دراسة مفهوم الصراع وأشكاله، ومحاولة الإجابة على إشكالية عامة تمثلت في نوع الصراع الذي كان قائما بين المسلمين والاسبان، وما هي

خصائصه وآلياته.

أما الفصل الثاني والثالث من هذا الباب فحاولنا من خلالهما الجمع بين موضوع واحد وهو " **التقية رمز من رموز المقاومة"** وافتتحنا دراستنا للفكر الديني عند مسلمي اسبانيا بهذا العنصر نظرا لأن التقية كانت السلاح الوحيد الذي اعتمده معظم مسلمي اسبانيا الذين فضلوا البقاء في الوطن الأم للحفاظ على أرواحهم وعقيدتهم في آن واحد.

ثم كان الفصل الرابع الموسوم بـ:" **اللغة العربية في معركة البقاء"** تطرقنا من خلاله إلى مساعي السلطات الإسبانية في القضاء على اللغة العربية مخاطبة وتأليفا وقراءة ومعاملة، وبالمقابل عرضنا جهود مسلمي اسبانيا في الدفاع على اللغة العربية كمقوم أساسي في شخصيتهم الإسلامية. في حين حمل الفصل الخامس العنوان التالي:" **اللغة الألخميادية ابداع ومقاومة"** وخصصناه لدراسة المدلول اللغوي والتاريخي لهذه اللغة، وخصائصها الفنية والنسقية، وكيف أنها كانت وسيلة مقاومة ودفاع على عقيدتهم الإسلامية في صراعهم مع الإسبان.

فكان الباب الثالث الموسوم بـ:" **الانتاج الفكري وسيلة دفاع واستماتة".** ضم هذا الباب بدوره خمسة فصول تناولت كل أنواع الابداع الفكري الذي خلفه مسلمو اسبانيا من خلال مؤلفاتهم. فأما الفصل الأول المعنون بـ:" **الانتاج الديني"** تطرقنا إلى عرض نماذج من المواضيع الدينية التي شغلت اهتمام مسلمي اسبانيا؛ في حين شكل الفصل الثاني الموسوم بـ :"**الابداعات النثرية في مؤلفات مسلمي إسبانيا"** حاولنا من خلال هذا الفصل التعريف بالإبداع النثري وما مدى توافقه مع المقاييس والمعايير الابداعية في ظل الظروف القاسية التي حاصرت مسلمي اسبانيا.

ثم كان الفصل الثالث الذي لم يخرج على الاطار العام لما تم عرضه في الفصل السابق، إذ تناولنا فيه **الانتاج الشعري بأنواعه وأغراضه**. ثم الفصل الرابع هذا الأخير اعتنينا من خلاله لعرض أهم المواضيع التي خص بها **الانتاج الروائي** ومدى استجابته لمطالب واحتياجات هذه الأقلية المضطهدة.

أما الباب الرابع المعنون بـ:" **الحياة الدينية بين الممارسة الصحيحة والبدعة**" ضم هذا الباب أربعة فصول كلها عالجت الممارسات الدينية في ميزان الشرع، مع الأخذ بعين الاعتبار الظروف التي سادت اسبانيا خلال القرنيين العاشر والحادي عشر هجريين الموافق للقرنيين السادس والسابع عشر ميلاديين. وقد افتتحنا هذا الباب بدراسة نقدية للبحث الذي أنجزه بدرو لونغاس بعنون " الحياة الدينية للموريسكيين الأندلسيين". ثم كان الفصل الثاني الموسوم بـ:" **ركائز الإسلام في المنظور الفكري لمسلمي اسبانيا**" حاولنا من خلال هذا الفصل تسليط الضوء على صحة المعتقد الديني في ظل متابعات عمال محاكم التحقيق ومصادرتها وحرقها لكل التراث الإسلامي الفقهي.

ثم كان الفصل الثالث المعنون بـ:" **الطقوس والأساطير**" عالجنا في هذا الفصل أنواع الطقوس ومدى تطبيق مسلمي اسبانيا لها، مع الأخذ بعين الاعتبار أن استعمال أسلوب التقية شكل عائقا في معرفة الكثير من التفاصيل الخاصة بهذا الموضوع؛ أما الأساطير فحاولنا عرض نماذج منها من خلال مؤلفاتهم الألخميادية ومدى تأثيرها في السلوك العام لمسلمي إسبانيا. فالفصل الأخير الموسوم بـ:" **الممارسات الإسلامية في مجابهة الطقوس النصرانية الكاثوليكية**". تطرقنا في هذا

الفصل إلى عرض مختلف الممارسات الدينية لمسلمي اسبانيا في ظل التعصب والاضطهاد الديني المسلط عليهم.

في حين ضم الباب الخامس:" **الجهاد الإسلامي المسلح في إسبانيا (904-1020هـ/ 1499-1611م)**. على ثلاث فصول تتبعنا من خلالها المسيرة التاريخية للمقاومة الإسلامية التي خاضها مسلمو اسبانيا ضد قوى الظلم والطغيان محاولين من خلال ذلك التعبير على ايمانهم الراسخ بفرضية الجهاد كركن من أركان الدين الإسلامي لا يسقط في ظل الظروف التي كانوا يعايشونها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى رفضهم القاطع بالرضوخ والاستسلام لمحاولات طمس معالم شخصيتهم الإسلامية.

فقد ساهم الفصل الأول المعنون بـ:" **حرب الإعلام ودورها في النشاط الجهادي في إسبانيا"** في تسليط الضوء على دور الدعاية التي استعمل أصحابها شتى الوسائل للتعريف بقضيتهم على أمل الحصول على دعم سياسي وعسكري. ثم الفصل الثاني الذي تتبعنا من خلالها **حركة الجهاد الإسلامي على عهد الملكين الكاثوليكيين ( 904-906هـ/1499-1501م)**؛ فالفصل الثالث الذي سلط الضوء على **النشاط الجهادي في الفترة الممتدة بين 972هـ/1567م وإلى غاية 975هـ/1570م.**

فالباب السادس الموسوم بـ:" **الثقافة الإسلامية في إسبانيا النصرانية خلال القرنيين العاشر والحادي عشر هجريين الموافق للقرنيين السادس والسابع عشر ميلاديين.** اشتمل هذا الباب على تلاث فصول، ركزنا في الفصلين الأوليين منه على التعريف بحركة **الجدال الديني بين مسلمي**

**اسبانيا والنصارى الكاثوليك**، ومدى فعاليتها في ظل عدم تكافؤ قوى الصراع. ثم كان الفصل الثالث الذي حاولنا من خلاله تسليط الضوء على ظاهرة التصوف الإسلامي في إسبانيا الكاثوليكية. ثم ختمنا بحثنا بخاتمة ضمت مجموعة من الاستنتاجات المستخلصة.

# تصحيح مفاهيم أساسية

**تصحيح مفاهيم أساسية:**

بداية يجب أن نشير إلى أن تناولنا لأي مصطلح من المصطلحات، أو مفهوم من المفاهيم، ما هو إلا لغرض البحث والدراسة والتحليل من أجل الوصول إلى ماهية ذلك المصطلح أو المفهوم حتى نستطيع أن نحدده بشكل علمي، وذلك لغرض استخدامه في تحليل وتفسير الظاهرة التاريخية، إلا أن ذلك لا يعني الفصل الكامل بين تلك المصطلحات والمفاهيم المختلفة، حيث أن تركيب وتعقيد الظاهرة الإنسانية والاجتماعية يجعل تلك المصطلحات والمفاهيم كذلك مركبة ومتداخلة، لا تتعارض في غالب الأحيان بقدر ما تكون مكملة لبعضها البعض في تفسير الظاهرة التاريخية.

فقد أصبح تحديد المصطلحات علميا ومنهجيا يقتضي على الباحث ضبطها من جانبين، جانب تعريفي اصطلاحي تضمنته كتب متخصصة في المصطلح كبعض المعاجم أو كتب متخصصة في العلم الذي يوظف المصطلح، وجانب ثقافي عام، يرافق تطور المصطلح وتبلوره واستقراره في العلم المتصل به، أو في استعمالات من يشتغلون بذلك العلم أو في السياقات الثقافية العامة.

غير أن المتتبع يلاحظ حضور الجانب الأول بقوة، وغياب الجانب الثاني بشكل كبير، حيث يؤدي هذا الغياب إلى الإساءة للمصطلح في حد ذاته والعلم الذي يوظفه. فالجدية في البحث رهينة بتحديد المصطلح، إلا أن هذا التحديد نجده في الكثير من البحوث الأكاديمية غير متحصل بصورته التامة، ذلك أن الجانب الثقافي العام يكاد يغيب عن كل انشغال بالمصطلح مما يترك فراغا دلاليا مهولا لا يتم معه الادراك الحقيقي والشامل لدلالة مصطلح ما.

وقد لامسنا هذا من خلال انشغالنا بإنجاز هذا البحث، وحاولنا تحديد جملة من المفاهيم

الأساسية سواء تتصل بالبحث اتصالا مباشرا، أو تساعد في توضيح بعض الحقائق التاريخية؛ فتوصلنا إلى حقيقة خطيرة مفادها أن ما ندركه من دلالة مصطلح ما لا يكاد يخرج عن الدلالة المعجمية في معاجم اللغة العامة، أو الدلالة الاصطلاحية في بعض المعاجم المتخصصة، وحتى في معظم الأحيان تغيب هذه الدلالة في الكثير من الدراسات المتخصصة، أو عند بعض المهتمين بهذا العلم أو ذاك.

في حين يغيب الجانب الآخر تماما، الذي هو الدلالة الثقافية العامة، التي توجب تتبع المصطلح في مجاله، وعند أعلام هذا المجال، تتبعا دقيقا من شأنه توضيح دلالات معينة، وإضافة دلالات مهمة، لا يمكن التوصل إليها إلا عن طريق التنقيب الدقيق الذي يمكن أن يبنى على استجماع الجهد حول مرحلة تاريخية، والبحث في أهم الدلالات وتطورها التاريخي.

وبهذا فكل دراسة جادة لأي موضوع من الموضوعات، تقتضي منا الحديث عن جملة من القضايا التي ستتناولها، وفي مقدمتها مسألة المفاهيم والمصطلحات؛ فعرضنا هذا يقتضي منا تحولا فاعلا للمصطلحات التاريخية المستعملة في البحث، إذ لم يعد هناك ما يمكن أن نعده تغييبا للحقيقة التاريخية حيال المأساة التي عاشها مسلمو اسبانيا برمتهم، عندما مارست السلطات الدينية والسياسية المتعصبون أبشع أنواع الظلم والاضطهاد. وسنحاول من خلال هذه الوقفة العلمية الاصطلاحية إن صح التعبير الوقوف عند بعض المصطلحات التي شكلت محورا أساسيا في البحث، فيما خصصنا لمفاهيم أخرى فصولا لما لها من أهمية في الدراسة.

**1)- مصطلح "الموريسكيون" يقابلها "مسلمو إسبانيا:** طرحت بعض الإشكاليات المرتبطة بمفهوم "الموريسكي" "Moresque" باللغة الفرنسية و"Moriscos" بالإسبانية، من

حيث كونه شخصية ثقافية وتاريخية، فقد عبرت عما يمكن أن نسميه بـ "الظاهرة المورسكية" التي وجدت في مرحلة من مراحل تاريخ إسبانيا عن مجموعة بشرية عاشت تحت وطأة اضطهاد السلطات الإسبانية.

فالمصطلح يفيد بذلك حسب حمولته في اللغة والوجدان الإسبانيين: "النصارى من أصل إسلامي"، و"النصارى الجدد" أو النصارى الصغار". كما يفيد كذلك معنى الإسبانيين، الذين رجعوا إلى نصرانيتهم بعدما تخلوا عن الإسلام قهرا . ظاهريا فقط . ولا يخفى ما في هذا المعنى الأخير من تهافت على الواقع التاريخي لإسبانيا، ومن تحامل على الإسلام والمسلمين في الوقت نفسه.

ويفيد ذات المصطلح في مختلف دلالاته التداولية في التاريخ العربي والإسلامي للأندلس، معنى المسلمين الذين خضعوا لذلك المرسوم فصاروا "متنصرة" حسب **"عبد الله عنان"** أو منصرين حسب **سعيد البشتاوي**. ولا يميز كثيرا **ميغيل بونيس دي إيبارا " Miguel Bounis de ébira**"بين المدجنين والمورسكيين بل يميز بين هؤلاء والأندلسيين، فالأواخر عنده هم المسلمون الإسبان الذين عاشوا داخل المجتمعات الإسلامية بإسبانيا. بينما المدجنون والمورسكيون، هم مسلمو إسبانيا الذين عاشوا بين النصارى في مختلف الجهات التي "استردوها" من المسلمين على مر العصور.

واستنادا إلى هذا المعنى الأخير لمصطلح "المورسكيين" ولمأساتهم، التي يمكن أن نجملها في اضطرارهم بعد حركات مقاومة عديدة إلى التظاهر باعتناق النصرانية وتخليهم عن الإسلام بوصفه دينا وثقافة، فإنه يمكننا أن نذهب إلى أن "الواقع الموريسكي" قد سبقت بدايات تحققه في تاريخ إسبانيا قبل قرار التنصير، وبالتالي قبل ظهور المصطلح.

ولا غرو في ذلك فالمصطلحات تتأخر عادة عن الظهور والتشكل للتعبير عن مضامينها وعن محتوياتها ودلالاتها التاريخية. وبذلك "فالمورسكيون" الذين سنعنى بفكرهم وتاريخهم، هم عندنا تلك الجماعة المسلمة التي اضطرت منذ القرن التاسع الهجري الموافق للقرن الخامس عشر ميلادي إلى الحياة المزدوجة بين الإسلام والنصرانية داخل المجتمعات والسلطة النصرانية الضاغطة بإسبانيا.

***– أصل ومعنى كلمة موريسكي:** قبل مناقشة هذا العنصر يجب الوقوف عند نقطة مهمة وهو أنه هناك فرق بين مصطلح "موريسكي" و"مدجن"" أو "المدجنين " mudejares"[1]؛ فأما هذا الأخير فيعني كل المسلمين الذين فضلوا البقاء في مواطنهم بعد احتلالها خصوصا خلال القرن السابع هجري الموافق للقرن الثالث عشر ميلادي وعرف هؤلاء باسم "أهل الدجنs [2] لأسباب عدة[3].

فمن المعروف تاريخيا، أن هؤلاء الأندلسيين لم يتمتعوا بصفة المدجنين، إلا مدة معينة من الزمن. لذلك وجدنا من يرجع ظهور مصطلح "المورسكيين" من حيث كونهم مجموعة بشرية وثقافية،

---

[1]– **مدجن**: مصطلح مستقل من فعل <<دجن>> وهذا الأخير يطلق على من لم يغادر المكان والاسبان يطلقون عليهم المودیخار وهي كلمة محرفة عن المدجن. وعند سقوط دولة الإسلام في الأندلس استبدل هذا المصطلح بـ << موريسكوس>> « Moriscos » . وعلى العموم فالمدجن هو المسلم الذي عاش تحت حكم الممالك النصرانية منذ سقوط طليطلة سنة 478هـ/1085م إلى سقوط غرناطة سنة 897هـ/1492م. ينظر: عبد الواحد دنون طه، أهمية الكتب الفقهية في دراسة تاريخ الأندلس نموذج تطبيقي عن كتاب العبر، ضمن أعمال الندوة الدولية الموسومة بـ: حضارة الأندلس في الزمن والمكان، الرباط: د د ن، 1992م. ص: 138.

[2]– لقد شاع استعمال هذا المصطلح في مختلف المصادر من بينها: أحمد الونشريسي، المعيار المغرب والجامع المعرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، ج: 2، أخرجه مجموعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، د ط، 1981م. ص ص: 119، 120.

[3]– عبد الواحد دنون طه، دراسات أندلسية، د ب ن: المدار الإسلامي، د ط، د س ط.. ص: 251.

إلى نكث السلطات الاسبانية للعهود التي أبرمتها مع مسلمي مملكة غرناطة "Granada"[1]، وذلك بإصدارها لمرسوم قضى بتنصير ما تبقى من المسلمين بمملكتهما بالقوة سنة 907هـ/1502م.

فقد اختلفت مجموعة المصادر والمراجع المعتمد عليها في انجاز هذه البحث على شرح مصطلح "الموريسكي"؛ ولو أنها أجمعت في استعماله؛ فهناك فريق من الباحثين قدم شروحا للمصطلح بناء على المرجعية العرقية؛ بينما ركز فريق من آخر على أن أصل التسمية مرتكزة أساسا على تمييز ديني عنصري. في حين جمع فريق آخر بين التفسير العرقي والوضع الديني للجماعة التي نعتت به، من هذا المنطلق سوف نقدم نماذج عن كل فريق.

**أ)– نماذج من الفريق الأول:** من بين هؤلاء نذكر "**محمد قشتيلو**" في كتابه محنة المويسكيون في اسبانيا؛ يرى هذا الباحث أن هذا المصطلح مشتق من كلمة " الموروس" أي المغاربة. في حين أرجعت بعض الباحثين أن أصل الكلمة إلى العهد الروماني، "فموري مشتقة من "موري" "Mauri" وتعني الداخلين تحت "السلطة المسيحية"، ومنها جاءت "موريطانيا" " Mauretani"، وتطورت كلمة موري إلى مورو الاسبانية وأصبحت تعني عربي مسلم[2].

**ب)– الفريق الثاني:** من بينهم نذكر الباحث "**عبد الله عنان**" الذي يري بأن مصطلح "موريسكي" يرمز إلى المسلمين الأصاغر، وهذا تحقيرا وتصغيرا للمسلمين الذين بقوا في الأندلس بعد

---

[1]– **غرناطة:** معناها بالإسبانية "الرمانة" وهي شعارها التاريخي، الذي ما زال مائلا على باب قصبة الحمراء، في شكل ثلاث رمانات صخرية كبيرة. كانت آخر القواعد الأندلسية التي سقطت في يد النصارى الإسبان؛ وللاطلاع على خريطة غرناطة ينظر الملحق رقم: 1، ص؟؟: . ينظر: محمد عبد الله عنان، الآثار الباقية في اسبانيا والبرتغال (دراسة تاريخية أثرية)، د ب ن: مطبعة التأليف والترجمة والنشر، ط: 2، 1311هـ/1921م. ص: 160.

[2]–السائح الحسن، الحضارة المغربية (البداية والاستمرار)، ج: 3، الرباط: منشورات عكاظ، د ط، 2000م. ص: 69.

السقوط[1]. في حين ذهب المؤرخ "**سعيد عادل بشتاوي**" إلى أن تسمية الموريسكيين تعني "النصارى الجدد"، أو "النصارى الصغار"[2].

في حين يرى المؤرخ "**ليفي بروفنسال**" " **Lévi Provensel**" بأن "موريسكي" كلمة اسبانية تطلق على المسلمين الذين بقوا في البلاد بعد أن استولى عليها الاسبان[3]. أما **مرثيدس غارثيا أرينال** فترى أن "الموريسكي" هو ذلك المسلم الذي بقي في اسبانيا بعد سقوط غرناطة[4] وحافظ على إسلامه سرا بعد أن أجبرته السلطات الاسبانية على إتباع العقيدة النصرانية[5].

**ج)– الفريق الثالث:** جمع فريق من الباحثين في شرحهم للمصطلح على الأصل التاريخي والوضع الديني والسياسي للأندلسيين الذين فضلوا البقاء في أرض الوطن المسلوب بعد ضياعه على يد النصارى. ومن بين الأسماء الواردة في هذا القسم من الباحثين نذكر المؤرخ "**جمال يحياوي**" الذي أرجع أصل مصطلح "موريسكي" إلى أنه كلمة لاتينية إغريقية مشتقة من كلمة "موري" «Mauri» وتطلق على الأشخاص ذوي البشرة السواء؛ واستعمل هذا المصطلح للدلالة على المسلم المتنصر تمييزا عن النصراني القديم أو الأصيل[6].

---

[1]– محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين دولة الإسلام في الأندلس، العصر الرابع، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط : 4، 1987م. ص: 231.

[2]– ينظر: الأندلسيون المواركة (دراسة في تاريخ الأندلسيين بعد سقوط غرناطة)، القاهرة: مطابع أنترناشيونال برس، د ط، 1403هـ/1983م. ص ص 4لقد استعمل بشتاوي مصطلح مسلمي الأندلس بدلا من الموريسكيين وكان استعمال هذا الأخير إلا في مواطن متفرقة من بحثه. : 32، 33.

3-Voir : E : Moriscos, art. Ensyclopédia of Islam, Parie : Leyden, 1936. P : 220.

[4]–للاطلاع على خريطة تمثل مملكة غرناطة ينظر الملحق رقم: 1.

[5]– مرثيدس غارثيا أرينال، محاكم التفتيش والموريسكيون، تر: خالد عباس، تق: جمال عبد الرحمان، د ب ن: المجلس الأعلى الثقافي، د ط، 2004م. ص : 12.

[6]– ينظر: سقوط غرناطة ومأساة الأندلسيين 1492. 1610، الجزائر: دار الهومة للطباعة والنشر والتوزيع، 2004م. ص: 9.

أما المؤرخ " **أورني لابير**" "**Henry Lapeyre**" فذكر بأنه يقصد من "الموريسكيين" المسلمين الذين مثلوا "طائفة إسلامية" جديدة[1]. وفي معجم الأكاديمية الملكية الاسبانية نجد تعريف لمصطلح "الموريسكي" على أنه كلمة تطلق على المغاربة الذين بقوا وتعمدوا بعد استعادة اسبانيا.

على العموم فهناك اجماع أن مصطلح "موريسكي" أطلقه الاسبان على المسلمين بعد صدور المراسيم أسماء كثيرة منها "العرب المغاربة" أو الأفارقة " moro " أو المهجرين hagarans أو المحمديين Muhammadans ". وظلت هذه التسميات سارية المفعول حتى نهاية الخمسينيات من القرن العاشر هجري الموافق للقرن السادس عشر ميلادي، عندما ورد اسمهم في مراسيم ملكية على أنهم "الجماعة الموريسكية"[2].

من هذا المنطلق هناك اجماع على أن مصطلح "الموريسكي" أطلق على المسلمين الذين بقوا في الأندلس بعد السقوط تحت السلطة النصرانية، وواجهوا تعسف وظلم محاكم التحقيق، كما واجهوا القرارات المجحفة في حق حرياتهم الدينية على مدى فترات الحكم في اسبانيا[3]. فقد رمت السلطات الاسبانية من وراء اطلاق هذه التسمية على مسلمي اسبانيا هو فصلهم عن أجدادهم وحرمانهم من حقوق "المواطنة" في بلادهم وإظهارهم بمظهر من لا هوية له.

لذا لا يمكن أن تعني هذه الكلمة في أي حال من الأحوال أن هؤلاء " الموريسكيين " كانوا متنصرين لأن قسما كبيرا منهم ظل مسلما وعربيا حتى النهاية، لهذا عملت السلطات الإسبانية على

---

[1]-Voir : Géographie de l'Espagne Morisque, Paris, 1959, P : 120.

Ravaillard Martin, Morisque Bibliographies, Paris, 1982, T : 2, P : 06.

[3]- هارفي ليوناردو، تاريخ الموريسكيين السياسي والثقافي والاجتماعي، بيروت: مركز دراسات وحدة لؤلؤ، د ط، د س ط. ص : 319.

تغريبهم من بلادهم في مطلع القرن الحادي عشر هجري الموافق للقرن السابع عشر ميلادي. ولا توجد لنا ضرورة نحن المؤرخين العرب لتفريق مسلمي الأندلس بعد تسليم غرناطة عن الأندلسيين قبلها فجميع هؤلاء أبناء شعب واحد هو الشعب الأندلسي، والذي تغير هنا ليس الأندلسيون بل ظروفهم السياسية تحت حكم الإسبان النصارى.

على أنه يجب الإشارة إلى أنه هناك أطرافا أخرى شاركت في صناعة الحدث التاريخي لم تتبن المصطلح لاتجاه ديني أو سياسي رأت من خلاله ضرورة عدم قبول التسمية التي أطلقتها السلطات الاسبانية على المسلمين الذين فضلوا البقاء في الأندلس بعد السقوط، على أنه سوف نعرض أيضا رأي الطرف المعني بالأمر وهم "الموريسكيين" في حد ذاتهم، لنكون بذلك حاولنا الالمام بكل الأطراف المعنية في القضية.

فمن بين الأطراف التي رفضت تبني المصطلح في وثائقها وتقاريرها الرسمية وغير الرسمية نذكر الخلافة العثمانية، التي في حدود علمنا ومن خلال اطلاعنا على مجموعة من التقارير والرسائل لم تكن هناك اشارة أو استعمال لهذا المصطلح على مختلف الفترات الزمنية؛ وكأن العثمانيين رفضوا تبني هذه التسمية التي رأوا فيها إجحافا وظلما في حق المسلمين الذين فضلوا البقاء في الأندلس بعد السقوط.

وإذا ما تساءلنا في هذا المضمار عن الاسم الذي ارتضاه أصحاب الأمر والمعنيين به، الذين سموا بـ"المورسكيين"، فسوف نجد منهم **أحمد بن قاسم الحجري** المعروف بـ"**أفوقاي**"[1] وباسمه

[1] – **آفوقاي**: قد تكون هذه الكلمة مأخوذة من الكلمة الاسبانية (ABOGADO)، التي تعني محامي أو هي مختصر من اسمه. إحدى قرى مملكة

العجمي **إلياس بخرانو "Elias Bejerano"**[1]، الذي لا يكل في مؤلفاته بتسمية قومه بـ "الأندلسيين"[2]. الموقف نفسه تبناه **بن زكريا بن محمد بن غانم بن أحمد ابراهيم** في مؤلفه الألخميادي الموسوم بـ "**العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع**"، إذ نجده يسمي نفسه واخوانه من المسلمين المتواجدين في اسبانيا بـ "الأندلسيين"[3].

ويبدو لنا بأن كل من **الحجري** و**زكريا بن محمد** لم يرميا بهذه التسمية الأندلسيين، التعبير فقط عن آمالها وأحلام قومهما في استرجاع الأندلس وعودتها إلى الإسلام كما كانت في سابق عهدها، بقدر ما عبر عن واقع تسمية "المورسكيين" لأنفسهم بالأندلسيين، وإصرارهم على ذلك.

الموقف نفسه تبنوه المسلمون الذين بقوا في الأندلس بعد السقوط، فقد رفضوا تسمية "موريسكيين" ذلك أنهم كانوا يرون فيها تحقيرا وتصغيرا لهم هذا من جهة، كما رأوا أن الهدف الرئيس من وراء إطلاق السلطات الاسبانية لهذه التسمية يرجع إلى محاولة اجتثاث شوكتهم نهائيا من اسبانيا بجعلهم طائفة أو أقلية في المنطقة؛ لهذا سعوا إلى إيجاد تسميات بديلة، ومن بينها نذكر حفاظهم على تسمية " الأندلسيين" التي كثيرا ما نجدها تتداول في مؤلفاتهم العربية أو الألخميادية.

---

[1]- **أحمد بن قاسم الحجري**: ولد حوالي 980هـ/1570م في قرية أحجر (UGIJAR غرناطة، وإليها ينتسب. ولد وعاش في ظلمات محاكم التحقيق فأجاد اللغة الإسبانية، وغادر الأندلس سنة (1007هـ/1598م) إلى مراكش حيث عمل مترجما في بلاط أحمد المنصور الذهبي، رابع سلاطين الدولة السعدية بالمغرب الأقصى وولده مولاي زيدان (1037هـ/1627م)، وكان سفير السلطان المغربي إلى بعض البلدان الأوروبية. ناقش علماء اليهود والنصارى. وفي مصر – أثناء مروره بها خلال ذهابه أو إيابه وهو متوجه للحج والأغلب خلال عودته منه – دون مناقشاته في كتاب "ناصر الدين على القوم الكافرين"، وقد ضمنه اختصار أو بعض مؤلفه "رحلة الشهاب غالى لقاء الأحباب" الكتاب المفقود. وفي العودة استقر في تونس فكانت له صلة بأميرها العثماني الداي مراد. وتعرف على أحد مسلمي اسبانيا هاجر من الأندلس هو الرئيس إبراهيم بن أحمد بن غانم بن محمد بن زكريا الأندلسي (أواسط ق 11هـ/أواسط ق 17م) الشهير بالرباش من نولش من قرى غرناطة، ألف كتابا باللغة الألخميادية عن الجهاد بالمدافع فترجمه الشهاب إلى العربية. ينظر: عبد الله حجي، هجرة العلماء الأندلس لدى سقوط غرناطة (ظروفها وآثارها)، د ب ن: السلسلة الأندلسية، د ط، د س ط. ص: 77.

[2]- ينظر: ناصر الدين على القوم الكافرين، تح: رزوق محمد، دار البيضاء: كلية الآداب والعلوم الانسانية، ط: 1، 1407هـ/1987م.

[3]- ينظر: مخطوط رقم: 1252، الجزائر، المكتبة الوطنية ـ الحامة ـ قسم المخطوطات.

أما من خلال رسائلهم التي بعثوا بها إلى مختلف مناطق العالم الإسلامي فنجدهم كثيرا ما ينعتون أنفسهم بـ "العبيد"؛ هذا ما يتأكد من خلال هذا النص الشعـري الذي ورد في رسالة استغاثة للسلطان العثماني فجاء فيها ما يلي[1]:

سلام عليكم من عبيد أصابهم  مصاب عظيم يا لها من مصيبة

سلام عليكم من عبيد تخلفـوا  بأندلس بالمغرب في أرض غربـة

أيضا المصطلح نفسه نجده يتكرر في محتوى الرسالة التي بعثوا بها إلى السلطان العثماني سنة 982هـ/1541م، فجاء فيها ما نصه:"... **عبيدك الفقراء المساكين المنقطعين بجزيرة الأندلس...**". كما كانوا ينعتون دائما أنفسهم بالمسلمين في ذلك قولهم: "... **فأغاثنا وكان سببا في خلاص كثير من المسلمين من أيدي الكفرة المتمردين...**" أيضا نجـد التسميـة نفسهـا تتكـرر في هذا النص التاريخي:"... **وقد اتفق جمعنا من المسلمين المذكورين على رفع الشكوى إلى مولانا السلطان الأعظم سلطان الإسلام...**"[2].

كما سموا أنفسهم بـ "**الغرباء**" اقتـداء بالتسمية التي أطلقـها عليهم أحـد الفقهاء المعاصريـن للمحنة مفتي وهران "**أحمد ابن بو جمعة المغراوي**"، الذي نعتهم بـ "الغرباء" في أكثر من موقع في فتواه التي بعث بها إليهم ومن خلالها حثهم على البقاء مع استعمال مبدأ التقية في القول والعمل حفاظا على أرواحهم وأعراضهم. ومن بين العبارات الدالة على ذلك في نص فتواه نذكر:"... **فطوبى**

[1]- عبد الجليل التميمي، رسالة مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541م، تونس: المجلة التاريخية المغربية، ع: 3، 1975. ص:93

[2]- جمال يحياوي، المرجع السابق. ص: 251.

**للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس...**" كما ورد في نهاية الرسالة ما نصه: "**يصل إلى الغرباء إن شاء الله تعالى**"[1].

**2)- رؤية تاريخية حول ظهور هذه المصطلح:** ذهب فريق من الباحثين إلى أن أول مرة تم استعمال هذا المصطلح رسميا في ملفات محاكم التحقيق كان عام 905هـ/1500م[2]؛ في حين أكد فريق ثاني من الباحثين أنه ظهرت هذه التسمية خلال سنة 925هـ/1520م[3]؛ فيما أرجع الباحث الاسباني "**ميغيل أنخيل بونيس**" "**Miguel Anryle Bounise**" تاريخ ظهور مصطلح "موريسكي" إلى السنة تم فيها صدور المرسوم الخاص بالتنصير القهري عام 911هـ/ 1506م[4].

فيما يرى "**مرثيدس غارثيا**" "**Marsédése Garcia**" أنه بدءا من سنة 966هـ/1526م نجد مسمى "مسيحي جديد موريسكي"؛ وفي سنة 971هـ/1530م بدأ يتردد لفظ "موريسكي" على الأقل مثل اللفظين المذكورين آنفا. ومع ذلك، لم يفرض مسمى "موريسكي" نفسه حتى عام967هـ/1557م تقريبا، دون أن يتسبب في التلاشي الكامل لمسمى "مسيحي جديد من أصل مسلم"[5].

ويمكن القول بأنه مع بداية 980هـ/1570م تم استخدام مسمى " موريسكي" بشكل مطلق. وتجدر بنا الإشارة إلى أن نتسآل إذا كان الانتقال تم تطبيقه بشكل عام من المدجنين الحديثي التنصر

---

[1]- ينظر كل من: محمد قشتيليو، محنة الموريسكوس في إسبانيا، تطوان: مطبعة الشويخ، د ط، 1980م. ص ص : 115، 117. أيضا: عبد الله عنان، نهاية الأندلس، (المرجع السابق). ص ص: 342، 344.

[2]- دومينغ يثأورتيث وبرنارد فينسيت، تاريخ الموريسكيين مأساة أقلية، تر: عبد العال صالح، مر وتق: جمال عبد الرحمان، القاهرة: المشروع القومي للترجمة، ط: 1، 2007م. ص:24.

[3]-Ravaillard Martin, Op. Cit. P : 9.

[4]- ينظر: الموريسكيون في الفكر التاريخي، تر: وسام محمد جزر، مرازق جمال عبد الرحمان، د ب ن: المجلس الأعلى للثقافة، د ط، 2005م. ص : 21.

[5]- مرثيدس غارثيا أرينال، المرجع السابق. ص: 06

ممن لهم ارتباط بالحياة القشتالية منذ زمن بعيد، إلى مسمى "موريسكي" يحدد الوقت الذي تم التنبه فيه إلى مشكلة بدأت تأخذ طابعا قوميا حتى أدرج فيها المدجنون المسالمون وغير المضرين[1].

إذا كان "الموريسكيون" مسلمين وشرقيين ويتحدثون العربية، فإن المجتمع الإسباني في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين الموافق للقرنيين السادس عشر والسابع عشر ميلاديين كان نصرانيا وأوروبيا ويتحدث اللغة اللاتينية، فدراسة "الموريسكيين" من وجهة النظر هذه، تتركز على هويتهم الإسلامية مضافا إليها عناصر اكتسبوها من المجتمع الإسباني الذي عاشوا معه، فهم بذلك يشكلون جزءا من "تاريخ الإسلام"، ومن "تاريخ الأندلس".

هكذا تم تقديم الموضوع في الكتابات التاريخية الغربية والعربية على حد سواء، فهل يحق لنا أن نسمي أصحاب الفكر الديني الذي سنعنى به بـ "الأندلسيين"، بالرغم من تسمية التاريخ الأوروبي – ومن نحى نحوه– لهم بـ "المورسكيين"؟ بلى والجدير بالذكر في هذا السياق بأن وجهة النظر هذه تخصهم لوحدهم، ووفاء لذاكرة شهداء الأمة الأندلسية تفادينا استعمال هذا المصطلح؛ وبحثنا كثيرا لإيجاد بديلا عنه له، وانتهى بنا هذا البحث في نهاية المطاف إلى استعمال عبارة "مسلمي اسبانيا".

**2)– "الأندلس" يقابلها "اسبانيا":** كثيرة هي المصادر والمراجع العربية التي تخلط بين التسميتين متجاهلة التغيير التاريخي الذي مرت به المنطقة وما طرأ عليها من تحولات جدرية على مستوى الخريطة السياسية والاجتماعية والدينية. فعند قراءتنا التاريخية لمجموع المصادر والمراجع

[5]– مرثيدس غارثيا أرينال، المرجع نفسه. ص: 49.

المتحصل عليها لاحظنا الاستعمال المتكرر والمستمر لتسمية "الأندلس"[1] بعد سنة 897هـ/1492م. فاستعمال المصطلحين الأندلس وإسبانيا يثيران إشكالات عديدة، يدور أغلبها حول مختلف التصورات التي اتخذها مؤرخو إسبانيا والأندلس من الإسبانيين والعرب المسلمين، بالنظر إلى العلاقات الذاتية التي تجمعهم بهذا التاريخ.

فالأندلس عند المسلمين منهم، هي تلك المناطق الشاسعة من شبه الجزيرة الإيبرية " La Península Ibérica" التي انتظمتها الثقافة الإسلامية، منذ دخول المسلمين إليها[2]، إلى سقوط مملكتهم الأخيرة بغرناطة[3]. أما إسبانيا "España" فهي "الدولة القومية"[4] التي سيؤسسها الملوك النصارى على تلك المناطق نفسها، لتنتظمها هذه المرة، الثقافة الإسبانية الكاثوليكية.

تتراوح آراء الإسبانيين في هذا المضمار بين تصورين مختلفين أولهما يرى بأن إسبانيا بوصفها مفهوما وواقعا، قد وجدت بصفة أزلية منذ أن وجدت المجموعات البشرية بإسبانيا. أما الثاني فذهب إلى أن إسبانيا لم تشرع في التشكل إلا بعد وصول المسلمين إليها وعبر تفاعل الثقافات الإسلامية العربية والنصرانية اللاتينية واليهودية العبرية بها.

---

[1]- **الأندلس**: عبارة عن جزيرة متصلة ببحر أقياسي اسمها في القديم ابارية، ثم سميت باطقة، وعرفت بعدها باشابانيا، ثم سميت بالأندلس. ينظر: محمد بن علي بن الشباط التوزري، وصف الأندلس (قطعة من كتاب صلة الصمط وسمة المرط)، در وتح: أحمد مختار العبادي، مدريد: المعهد المصري للدراسات الإسلامية، ط:1، 1971م. ص:100. وذكر آخر أن الأندلس هي جزيرة متصلة ببحر أقياسي اسمها في القديم أبارية، وأول من نزل الأندلس وملكها وبنى بها المدن وغرس الأشجار بعد موقعة الطوفان قوم يقال لهم الأندلس ابن نفرش بن يافث بن نوح عليه السلام وعليهم سميت الأندلس. ينظر: مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، مخطوط رقم: 1528، الرباط: الخزانة الحسنية. ورقة رقم: 66.

[2]-للاطلاع على خريطة تمثل الفتح الإسلامي للأندلس، ينظر الملحق رقم: 2،

[3]- للاطلاع على خريطة تمثل المراحل التاريخية لسقوط الأندلس، ينظر الملحق رقم:3،

[4]- قضى قرار الطرد النهائي سنة 1080هـ/1609م للنخبة المسلمة على التنظيم الإسلامي الذي حافظت عليه اسبانيا لمدة مائة وعشرين سنة بعد سقوط غرناطة، فاندثر الإسلام ظاهرا وبقي حيا في قلوب المجتمع المسلم بإسبانيا، بل ظل الكثير منهم مسلمين سرا، ولم تنجح الكنيسة في تحويل الشعب الأندلسي المسلم إلى ما أرادته: كاثوليكي الديانة اسباني الهوية، بل كونت منه شخصية جديدة، هي "القومية الأندلسية المعاصرة" ذات الجذور الإسلامية الواضحة.

وغني عن البيان أن هذا الأمر يؤول بدوره إلى التصورين والتقويمين المتباينين عند الفريقين للوجود العربي الإسلامي بهذه الجزيرة وبتاريخها. لذلك سنعنى بمراجعة هذه التصورات ونقدها في هذا البحث، في ضوء معطيات التاريخ العام للأندلس ولإسبانيا، وبصفة أخص، في ضوء تاريخ فكرهم الذي يعنينا فيه. ولعلنا لن نجد ما يمكن أن يؤزم تصورنا بهذا الصدد، الذي نذهب فيه إلى أن إسبانيا من حيث كونها "دولة قومية"، لم يشرع في الحديث الجدي عنها، وفي العمل على إنجازها صفة فعلية إلا بعد سقوط مملكة غرناطة سنة 897هـ/1492م.

فكل دراس لتاريخ المنطقة خلال القرنيين الخامس والسادس عشر ميلاديين يدرك أن نموذج الحكم الإسلامي في الأندلس قد سقط مع سقوط آخر معقل إسلامي هناك غرناطة سنة 897هـ /1492م، واعتبرت انطلاقا من هذه السنة اسبانيا النصرانية وما زالت كذلك لحد الساعة. حتى وإن كنا نرفض سقوط المنطقة في يد الإسبان بعد قرابة ثمانية قرون من الحكم الإسلامي، إلا أن الواقع التاريخي فرض علينا التعامل مع المسألة وقبولها، من منطلق الموضوعية وتفادي الذاتية.

**3)–"محاكم التفتيش" تقابلها "محاكم التحقيق"**: أما اختيارنا لعبارة "محاكم التحقيق" بدلا عن التسمية التقليدية "محاكم التفتيش"، فالسبب يعود إلى أن الأصل في التسمية هو "Inquisitio"، من كلمة "Inquiry" التي تعني: تحقيق واستفسار وبحث. إذن، "لجان التحقيق" هي أقرب للمعنى الحقيقي منها "لجان التفتيش" ذلك أن الهدف من هذه اللجان كان التحقيق مع النصارى المتهمين لاستبيان حقيقة موقفهم من الديانة النصرانية.

لذلك ينبغي أن نوضح حقيقة تاريخية وهي أنه بما أن المقصود إذن من خلال هذه العملية هم

النصارى الخارجين عن العقيدة الصحيحة في منظور الكنيسة، وعليه فالنصارى فقط هم موضوع لجان التحقيق، أما المسلمون أو اليهود فلا سلطة لهذه اللجان عليهم لأنهم لا يدينون بالنصرانية.

وعندما نتحدث عن "محاكم تحقيق"، أول ما يتبادر لذينا هو "محاكم التفتيش الإسبانية" وسمعتها القبيحة. لكن في الواقع، هناك "لجان تحقيق "سبقت تلك التي أنشئت في إسبانيا وذلك بنحو ثلاثة قرون[1]. ونحن نرى أنه من الضروري الحديث عن تلك أولا حتى نفهم كيف نشأت اللجان في إسبانيا ومعرفة الفارق بينهما[2]. وقد اختلف استعمال تسمية هذه المحاكم من مرجع إلى آخر خاصة العربية منها التي قامت بترجمة التسمية من اللغة الإسبانية، فهناك من اختصر نعتها بمحاكم التفتيش، وهناك من أطلق عليها " ديوان التحقيق"[3].

**4) مصطلح "المسيحية" يقابله " النصرانية"**: هي الرسالة التي أنزلت على "**عيسى**" عليه السلام، مكملة لرسالة "**موسى** " عليه الصلاة والسلام، ومتممة لما جاء في التوراة من تعاليم، موجهة إلى بني إسرائيل، داعية إلى التوحيد والفضيلة والتسامح، ولكنها سرعان ما فقدت أصولها، إذ امتدت لها يد التحريف إليها، فابتعد أصحابها عن أصولها الأولى لامتزاجها بمعتقدات وثنية.

فقد سعى **قسطنطين** بما لأبيه من علاقات حسنة مع النصارى إلى استمالة تأييده، فأعلن مرسوم ميلان، وبذلك انتهت أسوأ مراحل التاريخ النصراني قسوة، التي ضاع فيها إنجيل **عيسى**

[1] – لمعرفة تفاصيل أكثر حول الموضوع ينظر: الباب الأول/ الفصل الأول.

[2] – للاطلاع على المسيرة التاريخية لهذه المحاكم ينظر: ص ص: من الفصل نفسه.

[3] – عبد الله عنان، نهاية الأندلس، (المرجع السابق). ص: 19.

عليه الصلاة والسلام، وقتل الحواريون والرسل[1]، وبدأ الانحراف والانسلاخ عن شريعة التوراة، ليبدأ النصارى عهدا جديدا من تأليه المسيح عليه الصلاة والسلام[2] وظهور اسم "المسيحية"[3].

ومصطلح النصرانية تضاربت الروايات حول اشتقاقه فقيل بأنه نسبة إلى قرية الناصرية التي ولد فيها عيسي عليه السلام[4]، وقيل مأخوذة من الأنصار، وذلك عندما قال المسيح لليهود من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فسموا بالنصارى. وفي المجمل فإن عيسى عليه السلام برئ من النصارى الذين حرفوا الإنجيل والذين عرفوا الإسلام ولم يتبعوه مصداقا لقوله تعالى في محكم تنزيله:

**{ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ :سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ قَالَ ٱللَّهُ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ للَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}**[5].

بل إنها تسمية الله سبحانه وتعالى لهم **{وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى**

---

[1]– من مات على هذا الاعتقاد فهو مسلم موحد بشرط قبل ظهور الإسلام؛ ولكن هذه العقيدة اندثرت وحرفت ونسخت بظهور الإسلام. قال تعالى على لسان الحواريين في سورة المائدة، الآية رقم: 111.:{ **وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ**}.

[2]– في وسط هذه العقائد المختلفة والفرق المتضاربة ما بين من يؤله المسيح وأمه أومن يؤله المسيح فقط، أو يدعي وجود ثلاث آلهة :إله صالح، وإله طالح، وآخر عدل بينهما. ظهرت بما يعرف بالأقانيم الثلاثة :الأب، الابن، الروح القدس، بما يسمونه في زعمهم وحدانية في تثليث وتثليث في وحدانية . وذلك الزعم الباطل صعب عليهم فهمه، ولذلك اختلفوا فيه اختلافا متباينا، وكفرت كل فرقة من فرقهم الأخرى بسببه. ينظر: عبد الرزاق رحيم صلال الموحى، العبادات في الأديان السماوية (اليهودية، المسيحية، الإسلام)، دمشق: الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات والطبع، ط: 1، 2001م. ص: 92.

[3]– لمعرفة تفاصيل أكثر حول الموضوع ينظر: الباب السادس/ الفصل الأول والثاني.

[4]– في اشتقاق هذا الاسم اختلاف فهناك من يذهب إلى أنها مشتقة من قرية اسمها ناصرة كان يسكنها عيسى عليه السلام فنسبوا اليها. وقبل سموا بذلك لتناصرهم. وقيل إنما سموا بذلك لقوله من أنصاري الى الله قال الحواريون نحن انصار الله . ينظر: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، الملل و النحل، ج: 1، تع: عبد الامير علي مهنا وعلي حسن قاعود، بيروت : دار المعرفة، ط : 3 ، 1414هـ/ 1993م. ص:262.

[5]–سورة المائدة، الآيات رقم: 116، 117، 118، 119، 120.

**تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}**[1].

فبالرجوع إلى النصوص القرآنية لا نجد آية واحدة يخاطب من خلالها الله سبحانه وتعالى هؤلاء بـ " المسيحيين" ولكن نجده عز وجل يخاطبهم بـ "النصارى" والمصطلح الوحيد الذي يتردد في القرآن الكريم هو المسيح **عيسى** عليه السلام" فقد خص الله نبيه فقط بهذه التسمية. عليه فلا يجوز إطلاق كلمة "مسيحي" على أحد من النصارى لأن هذا يخالف تسمية الله لهم.

وكلمة "مسيحي" فيها إلحاق وتباعية للمسيح "**عيسي بن مريم**" عليه السلام؛ وهذا في حد ذاته تشريف لا يستحقونه وهو منهم برئ لما اعتقدوه فيه من أنه إله أو ابن إله مما يخالف الشريعة النصرانية الصحيحة. ولهذا فخلال كل المحطات التاريخية من هذا البحث سنستعمل مصطلح النصارى والنصرانية، ونتبعها دائما بالكاثوليكية، ذلك أن هذه الديانة انقسمت إلى ثلاث فروع، منها الكاثوليكية التي كانت الديانة الرسمية لإسبانيا.

## 5)– عبارة "المقاومة الإسلامية" أو "حركة الجهاد الإسلامي" مقابل مصطلح "الثورة":

تعني الثورة [2] وفقا لموسوعة التغيير الجذري في البني المؤسسية للمجتمع، تلك التغيرات التي تعمل على تبديل المجتمع ظاهريا وجوهريا من نمط سائد إلى نمط جديد يتوافق مع مبادئ وقيم وأيديولوجية وأهداف الثورة. وقد تكون الثورة عنيفة دموية وقد تكون سلمية، وقد تكون الثورة فجائية سريعة أو

---

[1]– سورة البقرة، الآيات رقم: 111، 112، 113.

[2]–**الثورة**: لغة يعني "ثار الشيء يثور ثوراناينظر: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكوم ابن منظور، لسان العرب، مج: 4، بيروت: دار الصادر، ط: 2، 1384هـ/1992م. ص: 108. "أما اصطلاحا: فهو التغيير الجذري والسريع لنظام سياسي بأسره، وهي عملية تغيير تستلزم العنف في كثير من الأحيان.

بطيئة تدريجية؛ وقد تنسب الثورة للمجال الذي تقوم في إطاره كالثورة الاجتماعية، أو الثورة الثقافية، أو الثورة الصناعية، أو الثورة السياسية، أو الثورة العلمية؛ وقد تنسب الثورة إلى الشريحة التي تقوم بها.

فبإعلان الثورة يرفض الفرد كل من الأهداف والوسائل، ولكنه لا يقف عند مجرد الرفض السلبي مثل الانسحاب بل يتعداه إلى الإدانة والسعي نحو تقديم تصور لبناء اجتماعي بديل للبناء القائم، يضم أهداف ثقافية مختلفة ووسائل أخرى لتحقيقها. وبهذا فالثورة هي محاولة تغيير جدري لكل الأوضاع في حين يتسبب باندلاعها أحدها.

وبالتالي عند تتبعنا لحركة الجهاد في إسبانيا نجد أن كل حركات المقاومة التي اندلعت لم ترق لمستوى الثورة ما عدا المقاومة بقيادة ابن أمية، فقد ورد على لسان هذا الأخير مقولته المشهورة: "**إننا لسنا جماعة من اللصوص، بل إننا نشكل مملكة**"[1]. فلقد أكدت الكثير من الروايات التاريخية على أن المشروع الذي قرر ابن أمية تنفيذه كان من أجل إعادة بناء دولة إسلامية في الأندلس[2]. كما شاركت في هذه المقاومة الكثير من المناطق ما عدا مدينة غرناطة، ومرجها، هويتورتاخار، بادول، دوركالونيغويلاس، ألمرية، فينيانا، بيليث، غواديكس، باثا، أويسكار، وآراضي باثاوبسكار، موتريل، وألموخيا، بيناكي، إثناتي، وماتشارابياجا، مونتيخاكي، بيناأوخان، الغاتيوس، وبنى عرابة.

وأثناء جمعنا للمادة التاريخية تبين أن معظم المراجع العربية التي تطرقت لموضوع حركة الجهاد في إسبانيا أطلقت عليها "الثورة"، ما عدا الباحث "**دنون عبد الواحد**" التي نعتها بالمقاومة

[1]_Henry Kamen, l'histoire de l'inquisition espagnole, Paris, 1966, P : 115.

[2]_ Sylvie Benitez, Op.Cit, P : 78.

الإسلامية[1]؛ في حين وصفتها جل المصادر والمراجع الغربية خاصة الاسبانية[2] بـ " العصيان"[3] أو "التمرد"[4].

وفي هذا الاطار تجنبنا استعمال المصطلحات التالية: "الثورة"، "العصيان" و"التمرد"، وفضلنا استبداله بحركة الجهاد الإسلامي، ذلك أن الحرب التي كانت قائمة في اسبانيا بين الطرفين كانت حربا دينية بالدرجة الأولى، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فاستعمالنا لمصطلح الجهاد يخدم موضوعنا أكثر، نظرا لأن الجهاد ركن من أركان الإسلام[5].

**7)- مصطلح الامبراطورية العثمانية يقابلها "الخلافة العثمانية":** لقد اختلفت مجموعة المصادر والمراجع حول النعوث التي وصفت بها الخلافة العثمانية، فمنها من أطلقت عليها مصطلح "الامبراطورية"، والبعض الآخر فضل نعتها بـ "الدولة العثمانية" بكل بساطة، فيما فضل فريق آخر تسميتها بـ "الخلافة العثمانية" هذه الأخيرة تضاربت الروايات التاريخية حول أحقية الأتراك بالخلافة، فانقسمت بين مؤيد ومعارض، وبين هذا وذاك كان لكل منهما حججه وأدلته.

---

[1]-ينظر: حركة المقاومة العربية الإسلامية بعد سقوط غرناطة، بيروت: دار المدار الإسلامي، ط:1، 2004م.

[2]- من بينها على سبيل المثال لا بسبيل الحصر نذكر:

Liorente Juan Antonio, Historica critica de la inquisicion d'España, Tome I

[3]- **العصيان**: لغة هو " مرد، تطاول في المعاصي". ينظر: أحمد رضا، معجم متن اللغة، مج: 5، بيروت: منشورات مكتبة الحياة، 1377هـ/1985م. ص: 273.

[4]- **التمرد**: فلغة "تمرد وتطاول في العصيان". أما اصطلاحا فيقصد به القول بـ: لا ولكن رفضه لا يعني الإنكار التام والمطلق، إذا هو الشخص الذي لا يتجاوز الواقع بسبب قسوة الظروف التي تتحكم فيه، وكما كان الأمر كذلك فالهدف منه إحداث تغيرات جزئية في هذا الواقع. ويعني ضمنيا رفض للثورة التي تنطوي على فكرة التغيير الجذري، أما الثوري فيقف في تضاد مع المتمرد ذلك أنّ الثوري لا يكتفي بأنصاف الحلول، بل يتجاوز الواقع. ينظر: محمد يحياتن، مفهوم التمرد عند البير كامو ومواقفه من الثورة الجزائرية، الجزائر، د د ن، د ط، 1984م, ص ص: 05-23 . ويستخلص من هذا كله المقارنة التالية: إن الثورة تختلف عن التمرد بالنظر لأهميتها والنتائج التي ترنوا إلى إحداثها، كما أنّها تختلف عن التمرد من حيث تنظيمها ووضوح أهدافها. أمّا التمرد فيختلف عن الثورة، ذلك أنّه ينقضي سريعا، فالتمرد هو بمثابة حركة غاضبة تفتقر إلى الوضاحة.

[5]- لمعلومات أكثر حول هذه النقطة الرجوع إلى الباب الخامس/ الفصل الثاني والثالث.

فبعد دخول العثمانيين إلى القاهرة عام 882هـ/1477م، تنازل المتوكل آخر الخلفاء العباسيين لسليم عن الخلافة. ولكن المؤرخ المصري المعاصر للأحداث وهو ابن اياس لم يذكر شيئا عن هذه المسألة الهامة؛ كما لم ترد في الرسائل التي بعث بها السلطان سليم إلى ابنه سليمان أية إشارة لتنازل الخليفة عن لقبه للسلطان[1].

ضف إلى ذلك أن المصادر المعاصرة لا تشير إلى مسألة نقل الخلافة إلى آل عثمان؛ وعلى العموم فإن الحكام العثمانيين قد أحرزوا مكانة تلائم استعمال لقب الخلافة وذلك بعد فتح **محمد الفاتح** العثماني[2] للقسطنطينية[3] عام 856هـ/1452م، واسقاطهم للإمبراطورية البيزنطية، فهذه الحادثة قد تنبأ بها رسول الأمة **محمد** صلى الله عليه وسلم.

كما أن مركز الخلافة في القاهرة لم يعد يعتد به، فيما كانت فتوحات الدولة العثمانية تتوسع، فجعلتها أقوى دولة اسلامية، خاصة بعد دخول مكة والمدينة ضمن ممتلكاتها سنة 922هـ/1517م، فقوة الدولة العثمانية جعلت مسلمي العالم يتطلعون إلى مساعدته بالخصوص بعد سقوط غرناطة سنة

---

[1]– كان الحاكم الأعلى للدولة العثمانية هو السلطان وهو القوة المؤثرة الأولى سياسيا وعسكريا وقد عرف بلقب حنكار ويعني بالتركية السلطان الأعظم كما عرف أحيانا بلقب بادشاه الفارسي، ويعني الحاكم الأعلى. وقد أطلق على بايزيد نفسه لقب السلطان، بعد موافقة الخليفة العباسي في القاهرة بصفة رسمية، وعندما فتح محمد الفاتح للقسطنطينية اتخذ لنفسه لقب سلطان البرين والبحرين. رغم شيوع لقب حنكار أو بادشاه عليهم، ثم لقب مراد الأول بعد فتح أدرنة بلقب خليفة الله. ينظر: محمد فريك بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تح: احسان حقي، د ب ن: دار النفائس، ط:1، 1401هـ/1981م. ص: 204.

[2]– **السلطان محمد الفاتح**: هو السلطان محمد بن السلطان مراد، جلس على العرش ستة وخمسين وثمانمائة، وكان عمره آنذاك عشرون سنة توفي سنة سبع وثمانين وثمانمائة. كان من أجل ملوك بني عثمان وأكرمهم كني بالفاتح لكونه فتح القسطنطينية سنة 857هـ/1452م. ينظر: محمد أبي سرور البكري الصديقي، فتح الرحمانية في الدولة العثمانية، المخطوط رقم: 1651، الجزائر: المكتبة الوطنية (الحامة) ورقة:08.. ينظر الملحق رقم:4، ص:

[3]– **القسطنطينية**: كانت دار ملك الروم، فتحها السلطان العثماني محمد الفاتح سنة 847هـ/1443م واتخذ منها عاصمة للخلافة العثمانية. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج: 4، بيروت: دار البصائر، د ط، د س ط. ص: 347.

897هـ/1492م وظهور الإسبان كقوة صليبية على مستوى البحر الأبيض المتوسط[1] .

وما يجب الإشارة إليه بهذا الصدد أنه من الخطأ وصف أو اطلاق تسمية الإمبراطورية على الخلافة العثمانية، ذلك أن نظام حكمها كان مختلف عن نظام الحكم المتبع في الإمبراطورية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنه خلال اطلاعنا على مجموعة الوثائق العثمانية لم نجد استعمال لهذا المصطلح "امبراطور، أو امبراطورية"[1].

**8)– عبارة "الاسترداد المسيحي""Reconpuista " يقابلها " الغزو الصليبي"** إن عبارة "الاسترداد المسيحي" لها مدلولها التاريخي في تاريخ الأندلس الإسلامية؛ فقد عمل الإسبان منذ الفتح الإسلامي على اعتقاد استرجاع الأراضي التي فتحها المسلمون؛ إلا أن هذه الحركة لم تأت بنتائجها الحاسمة إلا على عهد ملوك الطوائف؛ وازدادت هذه الحركة استفحالا بعد اضمحلال حكم الموحدين، وعدم وجود دولة قوية في بلاد المغرب الإسلامي تستطيع انقاذ الأندلس من الخطر، كما فعل المرابطون والموحدون من قبل.

فاستعمال هذا المصطلح أمر لا يخلو من الخطأ، ذلك أن بلاد الأندلس بقيت تحت الحكم الإسلامي ما يقرب ثمانية قرون من الزمن، وانصهر سكانها الأصليون مع الفاتحين المسلمين سواء كانوا أمازيغ أو عرب، ودخلوا في الدين الإسلامي أفواجا، وحتى الذين بقوا على الدين النصراني أو

[1]– محمد خير فلاحة، الخلافة العثمانية من المهد إلى اللحد، الشبكة العنكبوتية: WWW.SMART10.COM، بتاريخ: 2012/11/12، بتوقيت: 16،50سا. ص: 45.

[2]– على سبيل المثال ينظر ملف الوثائق العثمانية، رقم: 3205، الجزائر: المكتبة الوطنية بالحامة، قسم المخطوطات.

اليهودي، تعايشوا في سلم وتجانس مع المسلمين؛ فما حدث في بلاد الأندلس لم يكن احتلالا أو استبدادا وإنما فتحا تبعه عدل وحضارة وازدهار.

هذه بعض المصطلحات التي كان لا بد من توضيح موقفنا العلمي منها، وهناك مصطلحات أخرى قد خصصنا لها فصولا كاملة لما لها من حيز مهم في هذا البحث مثال ذلك: الفكر، الدين، الفكر الديني، الصراع. وفيما يلي سيكون لنا وقفة أخرى مع توضيح بعض المصطلحات التي تم استعمالها في هذه الدراسة.

**9)- "الأدب الألخميادو"**: وبالنسبة إلينا، فإذا رجعنا إلى الأدب المثبوت في مخطوطات ووثائق ومؤلفات مسلمي اسبانيا الذين نعنى بهم، فإننا سنجده مندرجا ضمن هذه الوحدة الانتسابية، ومعبرا عنها. فلم يكن أصحابه منفكين عن هذه الحضارة التي اضطرها التاريخ إلى الدخول في صراع مرير مع ربيبتها الحضارة النصرانية.

وكثيرا ما ستتكرر هذه العبارة في محطات مختلفة من هذه الدراسة؛ والمقصود منها ليس الكتابات الإبداعية التي يشكل الخيال جزءا منها، وإنما نعني منها كل ما كتبه مسلمو اسبانيا وما اصطلح عليه في الدراسات التاريخية "الموريسكيون"، فكل ما كتبه هؤلاء يدور في معظمه حول شرح معنى آية أو حديث نبوي أو تفاصيل شعيرة من الشعائر الدينية. وعليه فإن الأدب الألخميادو يندرج كله في إطار الكتابات الدينية، فحتى الجزء القليل الذى يبرز فيه إبداع المؤلف يدور حول الدين الإسلامي بشكل أو بآخر، إذ نجد في القصة أو في القصيدة إشارة إلى آية أو حديث أو مبدأ فقهى إسلامي.

# الفصل التمهيدي

# الأندلس في طريق المحنة (422هـ- 1030/896-1492م)

## المبحث الأول: أهم المحطات التاريخية في طريق المحنة (422- 895هـ/1030-1491)

1)- ملوك الطوائف وبداية النهاية (422-456هـ/1030-1064م)

2)- سقوط المدن الأندلسية (456-895هـ/1064- 1491م)

## المبحث الثاني: سقوط غرناطة آخر معقل الإسلام في الأندلس (898هـ/1492م)

1)- توحيد القوى النصرانية لمجابهة غرناطة

2)- نهاية الحكم الإسلامي في الأندلس

إن في تاريخ الأندلس ذلك الفردوس المفقود لدروسا وعبرا لا نجدها في تاريخ غيرها من البلاد. ولا شك أن ازدهار المسلمين ثم انهيار دولتهم وسقوط حضارتهم يشكل جزءا هاما من تاريخ الإسلام السياسي والحضاري، فقد كانت الأندلس نموذجا أمثل لرقي المسلمين الثقافي والإنساني، ولم يستطع التاريخ أن يقدم نظائر لما أنتجته من علماء ومفكرين.

وتنطلق البداية الفعلية لمأساة الأندلس في ظهور "ملوك الطوائف" هذه الأخيرة تعد من بين الحقب التاريخية الأكثر سوادا في تاريخ المنطقة. فمنذ انهيار الدولة العامرية (368-399هـ/ 978-1009م) الذي كان نذيرا بانهيار دعائم النظام والأمن اللذين تمتعت بهما الأندلس في ظلها رغم استبداد المنصور بن أبي عامر فقد سيقت الأمة الأندلسية إلى معترك مروع من الفتن المضطرمة والفوضى الشاملة، انتهى بانهيار حكومتها المركزية وتمزيق وحدتها.

حيث انتهت في أواخر النصف الأول من القرن الخامس الهجري الموافق للقرن الحادي عشر الميلادي على هذا النحو الفاجع، صرح شامخ انهارت أسسه وتصدع بنيانه. فقد اقتصت أطرافها، وتعددت القيادات في أنحائها؛ لا تربطها رابطة، ولا تجمع كلمتها مصلحة مشتركة، بل تفرق بينها منافسات وأطماع شخصية وضيعة، وتضطرم بينها حروب أهلية صغيرة؛ وصارت تفقد خلال ذلك مواردها وقواها تباعا، ويحدق بها خطر الفناء من كل صوب.

وبالرغم من أن عهد الطوائف الحقيقي لم يطل (أكثر من ثمانين عاما)، وبالرغم مـن أن الأندلس قد التأم شملها بعد ذلك في ظل المرابطين (483-541 هـ/1090-1146م) ثم الموحدين من بعدهم (541-668 هـ/1146-1269م)، وبالرغم أيضا من أنها استطاعت أن تسترد في هذين العهدين بعضا

من تفوقها العسكري في شبه الجزيرة الإسبانية، بالرغم من ذلك كله فإن الأندلس لم تستعد وحدتها الإقليمية الكبرى ولا تماسكها القديم.

لقد كانت حقبة ملوك الطوائف هذه الإرهاص لما آلت إليه الدولة الأندلسية في منتصف القرن السابع الهجري الموافق للقرن الثالث عشر الميلادي منحصرة في مملكة غرناطة الصغيرة بعد أن غدت قواعدها القديمة الكبرى (قرطبة وإشبيلية وسرقسطة وبلنسية ومرسية.. وغيرها) مدنا إسبانية نصرانية، وغدا ميزان القوى في إسبانيا بيد مملكة قشتالة الكبرى، ولتبدأ من ثم مرحلة استئصال الوجود العربي الإسلامي نهائيا منها.

## – المبحث الأول:أهم المحطات التاريخية في طريق المحنة (422-895هـ/1030-1491م)

إن أهمية موضوع ملوك الطوائف تأتي من كونها أكثر فترات التاريخ الأندلسي تعقيدا وتداخلا بالأحداث؛ فالفترة التي اعقبت سقوط الدولة الأموية في قرطبة عام 422هـ/1030م، تمزقت خلالها وحدة الدولة الأندلسية الى عدة دويلات أطلق عليها المؤرخون "ممالك الطوائف" والتي بلغ عددها أكثر من عشرين مملكة.

فهذه الفترة تعتبر فترة ضعف وصراع بين الملوك المسلمين الذين انشغلوا بترفهم وخلافاتهم الداخلية، والصراعات التي تدور بين بعضهم البعض؛ وأداروا ظهورهم منشغلين عن الدفاع عن بلادهم ضد عدوهم الذي بدأ يزداد قوة يوما بعد يوم وهم نيام، فكان يستمد قوته من ضعفهم وحروبهم وصراعاتهم، فازدادت الممالك النصرانية في الشمال قوة وتوحدت صفوفها في مملكة واحدة

في القرن الخامس الهجري الموافق للقرن الحادي عشر الميلادي.

فبعد توحيد صفوف النصارى، أخذوا يغيرون على المدن الإسلامية الواحدة تلوى الأخرى، ولم يستطع ملوك الطوائف ايقاف الزحف الصليبي الذي صمم بأنه لن يتوقف حتى يقضي على الوجود الإسلامي بالمنطقة. وبالفعل كان لهم ذلك، فقد تتالى سقوط المدن، وأصبحت الأندلس تعد أيامها الأخيرة، التي طالت بفضل ظهور غرناطة.

**1)– ملوك الطوائف وبداية النهاية (422–456هـ/1030–1064م):** في العقدين 410–420هـ/1020-1030م سقطت الخلافة ونشأت على إثر هذا الحدث المروع دويلات اصطلح عليها في المصادر التاريخية بـ "ملوك الطوائف"، هؤلاء قسموا الأندلس إلى اثنين وعشرين دويلة أو إمارة. ومع أن هذه الدويلات ورثت ثراء الخلافة[1]، إلا أن عدم استقرار الحكم فيها والتناحر المستمر بين بعضها البعض جعل منهم فريسة لنصارى الشمال، ووصل الأمر إلى أن ملوك الطوائف كانوا يدفعون الضرائب للملك ألفونسو السادس، وكانوا يستعينون به على بعضهم البعض؛ ومهما يكن فإن هذه الممالك رسمت وشكلت الخارطة السياسية للأندلس بعد مراسيم تشييع الخلافة، ويمكن تقسيم هذه الممالك إلى ثلاث أجزاء بناء على مؤسسها:

[1]– **سقوط الخلافة الأموية 399– 422هـ/1009–1031م** :خلال تلك الفترة العصيبة تولى فيها حكم الأندلس عددا من الخلفاء الأمويين يزيد عددهم على عدد كل من تولى الحكم منذ قيام الأندلس لوقتها وضاعت هيبة الخلافة وانقسمت البلاد مرة أخرى وبرزت العصبيات والقبليات المقيتة أكثر مما سبق وظهرت لأول مرة فكرة الاستعانة بنصارى إسبانيا الذين وجدوا في ذلك فرصة ذهبية في النيل من المسلمين، ومع موت المعتمد بالله سنة 422هـ/1031م أعلن وزيره أبو محمد بن جهور انتهاء وسقوط الخلافة الأموية لعدم وجود من يستحقها وأنه سيحكم الدولة جماعة من الوزراء على نظام شبه جمهوري؛ وبانتهاء هذه الفترة انقسمت البلاد إلى دويلات صغيرة واستقل كل أمير بمقاطعته وأعلن نفسه ملكا عليها، ودخلت الأندلس النفق المظلم الذي لم تخرج منه بعدها أبدا.

*– **الجزء الأول**: ومثله أهل الأندلس؛ شمل الممالك الآتية: دولة بني جهور[1] قرطبة "Cordoba"[2] حاضرة الخلافة الأموية[3] (463–422هـ/1031-1070م)، فدولة بني القاسم الفهريون في البونت "Alpuente"[4] (400-495هـ/1009-1102م) مؤسسها عبد الله بن القاسم، ثم مملكة بني عباد[5] اللخميين[6] بإشبيلية "Sevilla"[7](414-484هـ/1023-1091م)؛ وتعتبر من أهم و أقوى ممالك الطوائف وأعظمها شأنا.

---

[1]– **بنو جوهر**: نسبة لمؤسسها جهور بن محمد بن عبيد الله بن محمد بن يحي بن عبد الغافر بن أبي عبيد؛ كان من وزراء الدولة العامرية، وصوف بالدهاء ورجاحة العقل. صار له تدبير أهل قرطبة وهو أحد أعيان الجماعة، أوكل له الحكم بعد شغور منصب الخلافة لتسيير الفترة الانتقالية ومكث فيها حتى وفاته، سنة 435هـ/1037م. ينظر: ابن بشكوال، كتاب الصلة في تاريخ علماء الأندلس، بيروت: المكتبة المصرية، ط: 1، 2003 م. ص ص 122 ،121.

[2]– **قرطبة**: بلسان القوط "طاسعوط" وهي عندهم القلوب المختلفة، وقال آخرون قرطبة "كوربا عاقل اسكنها" وتفسيره "اجري يا عاقل واسكنها". ينظر: ابن الدلائي احمد بن عمر بن انس العذري، نصوص عن الأندلس، تح: عبد العزيز الأهوائي، مدريد: منشورات معهد الدراسات الإسلامية، د ط، د س ط. ص:121. تقع قاعدة بلاد الأندلس، على سفح جبل مطل عليها يسمى جبل العروس. ينظر: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الإدريسي، ، القارة الإفريقية مقتبس من كتاب نزهة المشتاق، تح: اسماعيل العربي، الجزائر: الديوان المطبوعات الجامعية، د ط، 1983م. ص ص: 302، 303.

[3]–بعد استشهاد عبد العزيز بن موسى سنة 97هـ/716م، اجتمع أهل الأندلس على تولية أيوب بن حبيب الذي أمر على نقل مقر الخلافة إلى قرطبة بدلا من إشبيلية، واستمرت كذلك قرطبة عاصمة للأندلس حتى نهاية الخلافة الأندلسية أوائل 5هـ/11م. ينظر: الحجي علي عبد الرحمان، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (92-897هـ/ 711، 1492م)، دمشق: دار العلم ، د ط، د س ط. ص ص: 174-175.

[4]–**البونت**: من أعمال بلنسية. وهي إمارة صغيرة دخلت معترك السياسة بعد الفتنة بفضل جهود مؤسسها عبد الله بن القاسم، ينظر: ابن عبد الله محمد بن عبد المنعم حميري، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، نش و تص و تع: ليفي بروفنسال، بيروت: دار الجيل، ط : 2، 1988م. ص: 56.

[5]– **مملكة بني عباد**: مؤسسها هو أبو الوليد إسماعيل ابن محمد بن عباد من ذرية عطاف بن نعيم القادم على الأندلس، و هم من قبيلة لخم اليمنية؛ وإسماعيل هذا كان قاضيا على إشبيلية وهو أول من تولى تسيير شؤونها أثناء الفتنة، ضعف بصره فولى مكانه ولده أبا القاسم محمد بن إسماعيل، ووصلت مملكة بني عباد إلى ذروة مجدها على عهد المعتمد بن عباد، حتى صارت المملكة تمتد من شرقي الوادي الكبير حتى المحيط الأطلسي غربا و الجزيرة الخضراء جنوبا. ينظر: الفتح بن الخاقان، قلائد العقيان، مصر: مطبعة التقدم العلمية، ط: 1،1320هـ. ص:4

[6]– ينتسب ملوك بني عباد إلى النعمان اللخمي آخر ملوك الحيرة، وأول من هاجر إلى الأندلس من أجدادهم هو نعيم حيث استوطنا إشبيلية. ينظر: أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، بيروت: دار النهضة العربية، د ط، 1978م. ص: 255.

[7]– **اشبيلية**: مدينة كبيرة وعامرة, ذات أسوار حصينة وأسواق كثيرة تقع على نهر الوادي الكبير. أصبحت بعد الفتنة عاصمة لمملكة بني عباد، ولم تفقد أهميتها في عصر الموحدين إلى أن استولى عليها النصارى نهائيا سنة 646هـ/ 1248م. ينظر: الإدريسي، المصدر السابق. ص:264.

ثم نجد أيضا مملكة بني هود الجذاميون بسرقسطة "Zaragosa"[1] (503.408هـ/1017. 1110م)، فمملكة بني حمود[2] الحسينيين (407.-449هـ/1057.1016م) بلغ عدد أمرائها تسعة، أولهم علي بن حمود، الذي تلقب بـ "الناصر" وآخرهم محمد الثاني المستعلي؛ اتخذ هؤلاء من قرطبة مركزا لحكمهم، ثم نقلوها إلى مالقة "Malaga"[3].

*– **الجزء الثاني**: يمثلها العنصر البربري، هؤلاء أسسوا الممالك الآتية :دولة بني برزال[4] في قرمونة "Caramona403.458هـ/1066.1012م "[5](). فدولة بني يفرن[6] في رندة"Ronda"[7]

---

[1] –**سرقسطة**: مدينة كبيرة، ذات شوارع وميادين فسيحة، ومبانيها عالية ضخمة، ويخترقها نهر إبرة، عند نهايتها، على مقربة من الكنيسة العظمى، والنهر ليس عريضا في تلك الجهة، وقد أقيمت عليه هنالك قنطرة رومانية، عربية الطراز، ترجع إلى القرن الخامس عشر، تسمى قنطرة الحجر، وعلى الضفة الأخرى من النهر، أحياء متواضعة وأرض قفرة. ويبدو عليه نهر الوادي الكبير في قرطبة، من حيث موقعه وراء الجامع. ينظر: عبد الله عنان، الآثار الأندلسية الباقية، (المرجع السابق). ص: 104.

[2] – **بنو حمود**: ينتمون إلى أصول عربية، استخدموا البربر والسودان في عملية تكوين الدولة، فهناك بعض الروايات التاريخية التي أرجعت أصولهم إلى الأدارسة الذين أسسوا دولتهم بالمغرب الأقصى، فانصهر فيها البربر، وعندما فتحت الأندلس 92 هـ/711م هاجر العديد منهم إليها، فكانت القيادات ذات أصول عربية، بينما آليات البناء ومؤسساته بربرية. ينظر: أبو عبد الله التنسي، تاريخ دولة الأدارسة من كتاب نظم الدر و العقيان، تح: عيد الحميد حاجيات، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، د ط، 1984م. ص ص 56 ،55.

[3] – **مالقة**: هي مدينة عظيمة مترامية الرقعة، ذات شوارع وميادين فسيحة، يظللها النخيل والأشجار الباسقة، ويخترقها نهر "وادي المدينة، ولكن مجراه يبقى جافا لا ماء فيه معظم أشهر السنة، وأشهر شوارعها، ذو الأشجار العتيقة الضخمة، وهو يشق المدينة على مقربة من الميناء، وتتفرع منه على الجانبين معظم شوارع المدينة. ينظر: عبد الله عنان، الآثار الأندلسية الباقية، (المرجع السابق)، ص: 242.

[4] – **بنو برزال**: ينتسب بنو برزال إلى قبيلة زناتة وهم من الخوارج الإباضية؛ لعبوا دورا كبيرا أيام الخلافة الأموية ، إذ قاموا بدور الوساطة في حل النزاعات، كما اشتركوا في الغزوات. وظلت دولتهم قائمة حتى استولى عليها بني ذي النون دون قتال، ثم آلت فيما بعد إلى بني عباد. ينظر: حمدي عبد المنعم محمد حسين، دراسات في التاريخ الإسلام" دولة بني برزال في قرمونة، الاسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، د ط، 1990 م. ص ص: 3،4.

[5] – **قرمونة**: مدينة واسعة قديمة البناء أصلها لاتيني، جاء من كلمة كارب مويه ومعناها صديقين. تقع على مقربة من جنوبي الوادي الكبير في شمال شرقي إشبيلية على رأس جبل. ينظر: محمد عبد الله عنان، الآثار الأندلسية الباقية، (المرجع السابق). ص: 71.

[6] – **بنو يفرن**: هم بطن من بطون زناتة ينتمون إلى يفرن بن يصلين بن مسرا بن زاكاين ورسيك بن أديت بن جانا، و يفرن في لغة البربر تعني القار، دخلوا بلاد الأندلس سنة 347 هـ/ 958 م واستقروا بتاكرونة. ينظر: محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس العصر الثاني دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط : 3، 1988 م. ص ص: 153 ،152.

[7] – **رندة**: مدينة قديمة ، اشتهرت بكثرة العيون و الآبار، تقع غربي مدينة مالقة. ينظر: الحميري، المصدر السابق. ص:79 .

(406-457هـ/1015-1065م) ، فدولة بني دمر[1] بمورو "Moro"[2]. ثم دولة إمارة بني خزرون في أركش[3] (402.461هـ/1012-1090م).

أيضا مملكة بني زيري الصنهاجيون[4] في غرناطة؛ نظمت هذه المملكة من طرف حبوس بن ماكسن الذي اتبع سياسة التوسع مما أدخل المملكة في صراع مع بني عبـاد؛ فـدولة بني الأفطس[5] في بطليوس "Badajoz"[6](413.-488هـ/1022.-1095م)، ثم بني ذي النون[7] في طليطلة "Toledo"[8] (428.-478هـ/1036.-1085م).

*. الجزء الثالث: يتكون هذه القـسم مـن الـدول التي أنشـأهـا مـوالي الدولـة العـامرية[9]،

---

[1]– **بنو دمر**: بطن من بطون زناتة من ولد ورسيك بن أديدت بن جانا و شعوبهم كثيرة، كانت مواطنهم بإفريقية في نواحي طرابلس وجبالها. ينظر: عبد الله عنان، دول الطوائف، (المرجع السابق). ص:154

[2]– **مورو**: مدينة متصلة بأحواز قرمونة وشدونة. ينظر الحميري، المصدر السابق. ص: 182.

[3]– **بنو خزرون**: ينتسبون إلى قبيلة يرنيان، المتفرعة عن زناتة؛ انخرطوا في الجيش الأموي عند دخولهم الأندلس، كما استعان بهم المنصور بن أبي عامر في بناء صرح دولته. ينظر: عبد الله عنان، دول الطوائف، (المرجع السابق). ص:155

[4]– **أركش**: مدينة قديمة تقع على وادي لكه، اشتهرت بالزيتون الكثير. ينظر: الحميري، المصدر السابق. ص: 14.

[5]– **بنو الأفطس**: ينتسبون إلى عبد الله بن محمد بن مسلمة، الملقب بابن الأفطس من بربر مكناسة الذين استقروا بالأندلس فتأقلموا مع أهلها و بعد وفاة سابور استولى ابن الأفطس على السلطة و بدأ يمارس نفوذه كملك. ينظر: عبد الله عنان، دول الطوائف، (المرجع السابق). ص:82

[6]– **بطليوس**: تقع غربي مدينة قرطبة على الضفة اليمنى من وادي يانة، تجمع المصادر على أن عبد الرحمن الجليقي هو الذي أنشأها. ينظر: الحميري، المصدر السابق. ص:46

[7]– **بنو دي النون**: من قبيلة هوارة البربرية البرنسية وبطونها كثيرة، اشتق اسمهم من اسم جدهم زنون الذي حرف إلى ذي النون، ومؤسسها هو إسماعيل بن ذي النون. ينظر: عبد العزيز سالم، في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، الاسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، د ط، 1998 م. ص ص:51،52.

[8]– **طليطلة**: مدينة أولية من بنيان الأول، عظيمة الغور، جليلة الوضع، منيعة وحصينة، كثيرة المياه والثمار؛ كانت قصبة بلاد الأندلس وقاعدتها العظمى. ينظر: مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، مخطوط رقم: 1528، (المصدر السابق)، ورقة رقم: 57. وذكر آخر أنها كانت قاعدة من قواعد مدن العدوة، ودار ملك قديم، وهي على ربوة من الأرض في حافة مطلة على الوادي المسمى طاخوا. ينظر: محمد الغساني الأندلسي، رحلة الوزير في افتكاك الأسير، حر وقد: نوري الجراح، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط:1، 2002م. ص: 133.

[9]–**الدولة العامرية**: أسسها المنصور بن أبي عامر الحاجب القوي للخليفة الطفل هشام المؤيد، الذي لم يتعد العاشرة، فاستولى على مقاليد تسيير شؤون الدولة، مجردا الخليفة الطفل من كل صلاحياته، وبعد وفات المنصور سنة (399هـ/1009م) خلفه ابنه عبد الملك المظفر وجاء بعده أخوه عبد الرحمن الذي طمع في الخلافة، حتى ثار عليه الأمويون وقتلوه في السنة نفسها، وبذلك انتهت هيمنة العامريين على السلطة . ينظر: إبراهيم بيضون، الدولة العربية في إسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة 92 - 492هـ/ 711.1031م، بيروت: دار النهضة العربية، ط:2 . ص ص: 343 ،341.

حكموا شرق الأندلس حيث صارت ألمرية "Almeria"[1] ومرسية "Murcia"[2] تحت حكم خيران العامري (405-415هـ/1014-1024م)؛ بعدها انقسمت المدينتان وكوننا إمارتين، ألمرية لبني صمادح 484.433هـ/1041-1091م) ومرسية من نصيب بني طاهر( 425 .471هـ/1033 .1078م). أما مدينة دانية "Dania"[3]، فاستقل بها مجاهد العامري (400-484هـ/1009-1091م) واستمرت كذلك إلى أن سيطر عليها بنو هود.

وبهذا كان ملوك الطوائف ضعافا في كل شيء، ضعافا في دينهم وفي "وطنيتهم"، غلبت عليهم الأهواء الشخصية إلى أبعد الحدود، ونسوا في غمارها دينهم و"وطنهم"، بل نسوا حتى الكرامة الشخصية واستساغوا لأنفسهم أن يتراموا على أعتاب ملوك النصارى؛ فقد اتسم هذا العصر بعدة خصائص أدت في جملتها إلى انحراف وجرح غائر في جسد الأمة الأندلسية لم يندمل قط حتى بعد السقوط.

**2)- سقوط المدن الأندلسية (456-895هـ/1064-1491م)**: لقد أسهمت عدة نكبات في سقوط الأندلس وضياعها من يد المسلمين، وكل الكوارث التي عرفتها المنطقة في رسم معالم المحنة وتحديد مسارها، عبر القرون، ومع ذلك فإن هناك منعطفات حاسمة على طريق المحنة، وذلك لارتباطها بظروف زمانية أو مكانية خاصة، أو لما تميزت به من خصوصية نوعية.

---

[1]- **ألمرية**: مدينة متقنة البناء، مصرية الشكل، والمدينة القديمة منها مسورة بسور عجيب لها ربضيين أحدهما شرقي والآخر غربي. ينظر: ابن الدلائي، المصدر السابق. ص:86.

[2]- **مرسية**:. مدينة بالأندلس من تدمير اختطها الحكم بن الحكم بن هشام وسماها تدمير, واستمر الناس على اسم موضعها الأول، وهي ذات أشجار وحدائق محاطة بها. ينظر: الحميري، المصدر السابق، مج:04، ص:324.

[3]- **دانية**: تقع دانية في ركن منعزل على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، قبالة جزيرة يابسة إحدى الجزائر الشرقية. ينظر: عبد الله عنان، الآثار الأندلسية الباقية، (المرجع السابق). ص: 59.

ومن هنا لسنا بصدد تتبع كل تلك المآسي[1]، بل سنتوقف عند أربع منها لأنها تمثل أهم المعالم الدامية على طريق المحنة. ويمكن ترتيب تلك المعالم بحسب التسلسل الزمني للأحداث على النحو التالي: فاجعة بربشتر"Barbastro"[2] سنة 456هـ/1064م، ثم كارثة طليطلة عام 478هـ/ 1085م، فمأساة بلنسية "Valencia"[3] بتاريخ 488هـ/1095م، بعدها هزيمة العقاب[4] سنة 609هـ /1212م.

فموقعة بربشتر كانت بمثابة المحطة التجريبية لقطار المحنة، إذ تعتبر أول هزيمة يتلقاها المسلمون بعدما أن تمزقت وحدتهم في الأندلس، وأصبحوا غير قادرين على صد العدوان، ولأنها لم تكن هزيمة يكتفي فيها المنتصرون بالقتل والسلب والنهب والسبي، وإنما تجاوزوا ذلك إلى ارتكاب جرائم أخلاقية يندى لها ضمير الإنسانية[5]. ومما يزيد هذه الفاجعة تميزا أن كل ما ارتكب فيها من جرائم، إنما كان تحت غطاء الصليبية، ذلك أن حملة بربشتر هي أول حملة صليبية على الأندلس الإسلامية[6].

ثم كانت كارثة طليطلة التي مثلت منعطفا حاسما، ومعلما بارزا على طريق المحنة، فلقد كشف

---

[1]- تبدأ المحنة الأندلسية كليا مع بداية الفتنة الداخلية التي اجتاحت عاصمة الخلافة الإسلامية قرطبة سنة 399هـ/1009م. ينظر: ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،ج:2، تح: بروفنسال ليفي، بيروت: دار الثقافة، ط: 03، 1983م. ص:162.

[2]- **بربشتر**: من بين مدن الثغر الأعلى؛ تقع على بعد 60 كلم شمال شرق سرقسطة، وتعتبر واحدة من بين القواعد الأندلسية المنيعة.

[3]- **بلنسية**: من أعمال الأندلس وتعني بلنسية "مدينة التراب". ينظر: ابن الدلائي أحمد بن عمر بن انس العذري، نصوص عن الأندلس (من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تح: عبد العزيز الأهواني، مدريد: معهد الدراسات الإسلامية، د ط، د س ط. ص: 27. وهي عبارة عن مدينة ضخمة، تخترقها ميادين فسيحة وشوارع واسعة، تقع على مقربة الشاطئ الغربي الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط. ينظر: عبد الله عنان، الآثار الأندلسية الباقية، (المرجع السالق).ص. 80.

[4]- **العقاب**: مكان متواجد في الموضع المعروف بحصن العقاب الواقع شمال مدينة جيان.

[5]- لقد تمتع أعداء الله بهتك شرف أسراهم بحضرتهم وأمام أعينهم إبلاغا في تعذيب قلوبهم. ينظر: أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة،1/3، تح: إحسان عباس، بيروت: دار الثقافة، ط: 1، 1997م. ص:184.

[6]- ليفي بروفنسال، الحضارة العربية في اسبانيا، تر:كريم عجيل حسين، بيروت: د د ن، د ط، 1976م. ص:121.

ضياع طليطلة على يد ألفونسو السادس"Alfonso VI "[1] ضعف ملوك الطوائف وأكد عجزهم عن حماية الأندلس والمحافظة على سلامتها، كما كان السبب المباشر في عبور المرابطين[2] إليها، وإسقاط دول الطوائف بها بعد موقعة الزلاقة سنة 479هـ/ 1086م[3] التي نشأت عن أخذ طليطلة[4].

وبذلك أصبحت الأندلس ولاية من ولايات الدولة المرابطية بعد أن كانت مستقلة[5]. ومن هنا فإن كارثة طليطلة لا تستمد قيمتها من المكانة التاريخية للمدينة فقط، وإنما تستمد خصوصيتها أيضا من نوعية الكارثة التي كانت ابتدائية نهائية، كما تستمدها أيضا من نوعية نتائجها التي تمثلت في إنهاء عصر ملوك الطوائف، وإنهاء عصر السيادة الأندلسية؛ ولقد وصف أحد الشعراء مأساة

---

[1] – **ألفونسو السادس**: داخل كنيسة سانتا غاديبا، أدى ألفونسو القسم، حيث واجهه الفارس القشتالي دون لذريق دياث دي بيبار؛ وتسبب ذلك الحدث، حسب رأي المؤرخين، في خلق العداوة والحرب التي شنها الملك على دون لذريق، إذ لم يتوان ألفونسو في مساعدة ملك طليطلة خلال حربه ضد ملوك قرطبة وإشبيلية، وحدا جيشهما وسقطت المدينتان في أيدي المأمون، وفي هذا الأخير سنة 468هـ/ 1076م وعاد ألفونسو إلى مجال ملكه الاتفاق نفسه أبرمه مع هشام القادر ابن ملك طليطلة الهالك لكنه نقضه على عهد الأخ الأصغر يحي القادر بالله .تنكر لأتباعه ولدينه واتفق مع النصارى ضد ذويه مما دفعهم إلى طلب حماية ألفونسو، الذي استنجد به في الآن نفسه ملك إشبيلية المعتمد بن عباد ضد حاكم طليطلة سقطت هذه الأخيرة في يده سنة 478هـ/1085م. ينظر: دون باسكوال بورونات إي براتشينا، الموريسكيون الإسبان ووقائع طردهم، ج: 1، تر: كنزة الغالي، د ب ن: مركز العمودي للترجمة ونشر التراث المخطوط، ط: 1، 1433هـ/2012م. ص: 67.

[2] – **المرابطون**: ينحدر المرابطون من قبيلة لمتونة الصنهاجية، ولذلك يسمون اللمتونيين ايضا. ويعود الأصل في نشأتهم وتسميتهم بالمرابطين إلى فكرة دينية نشرها بينهم الفقيه الداعية عبد الله بن ياسين الذي أمرهم بتغيير المنكر، فأخذوا يدعون بقية القبائل ويشنون الغارات على من خالفهم بقيادة أميرهم أبي زكريا يحي بن عمر قتل سنة 448هـ/1054م، فخلفه أخوه ابو بكر بن عمر الذي تخلى عن الملك لابن عمه يوسف ابن تاشفين سنة 465هـ/1074م وهو الذي أسس مراكش وأرسى دعائم الدولة المرابطية في المغرب ثم في الأندلس. ينظر: ابن عذارى، البيان المغرب، ج:4. (المصدر السابق). ص ص: 07-24.

[3] – **موقعة زلاقة**: معركة مشهورة وقعت بالقرب من بطليوس، وأول غزوة غزاها المرابطون بأرض الأندلس، قاد المعركة المعتمد بن عباد، وانتصر فيها المرابطون على قوات النصارى وأبادوا معظمهم. ينظر بتصرف: الناصري أبو العباس أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، تح: الناصري جعفر والناصري محمد، الدار البيضاء: دار الكتب، د ط، 1954م. ص ص: 30،41.

[4] –كان لانتصار المرابطين في موقعة زلاقة اثر عظيم في إسباغ هالة من العظمة والجلال على يوسف بن تاشفين، فأطاعته الملوك بعدها، وجاءه تقليد الخليفة العباسي من بغداد، وأشار عليه الكثير من الفقهاء أن يضم الأندلس إلى المغرب، فصادف ذلك رغبته ثم اخذ يسيطر على الإمارة تلوى الأخرى ما بين سنتي 482-489هـ/1088-1095م حتى استصفى مملكة الأندلس كلها، وبهذا أصبحت تحت سلطة المرابطين. رابح بونار، المرجع السابق. ص ص: 239 ، 240.

سقوط طليطلة بالأبيات التالية[1]:

يأهل الأندلس شدو رحالكم فما المقام بها إلا من الغلط

السلك ينثر من أطرافه وأرى سلك الجزيرة منثورا من الوسط

من جاوز الشر لا يأمن بوائقه كيف الحياة مع الحيات في سقط

ومع هذا لا تعتبر كارثة طليطلة هي المنعطف الحاسم في تاريخ الأندلس بل هناك أيضا مأساة بلنسية[2]، وتستمد خصوصيتها من تلك المعاناة التي ألحقت بأهلها البلنسيين، حيث اضطروا في أثناء الحصار الذي تجاوز عشرين شهرا إلى أكل القطط والفئران، وجثث موتاهم.

ومع ذلك فقد مات الكثير منهم جوعا، واضطر بعضهم تحت وطأة الجوع إلى مغادرة المدينة، رغم تهديد القمبيطور"El"Campiadorl [3] بإحراق كل من يغادرها حيا[4]، فأحرق منهم في يوم واحد ثمانية عشرة رجلا علانية؛ وهذا يعني أن ابن جحاف[5] لم يكن أول من أحرق، ولم يكن الأخير. وبهذا استمدت مأساة بلنسية من بدعة حرق الناس أحياء. وإذا كان السد الذي وضع

---

[1]- أحمد بن محمد شهاب الدين التلمساني المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض، ج: 1، الرباط: طبع هذا الكتاب تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومتي المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية، د ط، د س ط. ص: 46.

[2]- لم يكن سقوط بلنسية نهائيا كطليطلة، وإنما تمكن المسلمون من استردادها سنة 495هـ. ينظر: ابن بسام، المصدر السابق، 1/3، ص:101.

[3]- **قمبيطور**: فارس قشتالي مغامر؛ تشير إليه المصادر التاريخية باسم: القنبيطور، أو الكنبيطور" كان أتباعه ينادونه "السيد". اسمه رود ريجودياث دي فيفار "Rodrigo Diaz Vivar"، من مواليد قرية فيفار "Vivar"، قرب مدينة برغش "Borgos" عاصمة ثشتالة، عمل ضمن جنود شانجه. ينظر: مؤلف مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ج: 2. (المصدر السابق). ص: 125,

[4]- محمد الغساني الأندلسي، المصدر السابق. ص: 55.

[5]- **ابن جحاف الأندلسي**: هو أبو أحمد بن جحاف، من أسرة بلنسية؛ تقلد عدد من أفرادها القضاء، من بينهم أبي أحمد الذي عين قاضيا وتولى زمام السلطة سنة 485هـ/ 1092م؛ أحرقه القنبيطور بالنار في جمادى الأولى من سمة 488هـ/1095م. ينظر كل من: ابن عدارى، البيان المغرب، ج:3، (المصدر السابق). ص: 305. و: الضبي بن أحمد بن يحي بن أحمد بن عميرة، بغية الملتمس في رجال أهل الأندلس، تح: الأبياري إبراهيم، د د ن، دار الكتب المصرية، ط: 1، د س ط. ص: 257.

أساسه المرابطون[1]، وأقام بناءه الموحدون (524-667هـ/1129-1268م)[2] قد استطاع أن يكبح جماح التيار الصليبي إلى حين، فإنه ما لبث أن انهار في موقعة العقاب التي قادها الخليفة الموحدي محمد الناصر ابن يعقوب المنصور[3] ضد التحالف الصليبي الذي باركه البابا اينوصان الثالث" Inosan III"[4] وشارك فيه عدد لا يستهان به من الفرنسيين وملوك اسبانيا، تحت قيادة الفونسو الثالث"Alfonso III"[5].

كانت لهذه المعركة خصوصيات، جعلت منها منعطفا خطيرا ومعلما بارزا على طريق المحنة، فهزيمة العقاب كانت "الطامة على الأندلس" لما نتج عنها من انهيار لقوة المسلمين الذين لم تقم لهم بعدها قائمة، على حد تعبير الشاعر الاشبيلي أبو إسحاق إبراهيم بن الدباغ عندما كتب يقول

---

[1]-كان لانتصار المرابطين في موقعة زلاقة أثرا عظيما في إسباغ هالة من العظمة والجلال على يوسف بن تاشفين، فأطاعته الملوك بعدها، وجاءه تقليد الخليفة العباسي من بغداد، وأشار عليه الكثير من الفقهاء ان يضم الأندلس إلى المغرب، فصادف ذلك رغبته، ثم أخذ يسيطر على الإمارة تلوى الأخرى ما بين سنتي 482 -489هـ/1087. 1094م حتى استصفى مملكة الأندلس كلها، وبهذا أصبحت تحت سلطة المرابطين.

[2]- **الموحدون:** تعود في نشأتها الى فكرة دينية دعا إليها بن تومرت المهدي، لقي هذا الأخير عبد المؤمن بن علي الذي اقتنع بدعوته وصحبه الى المغرب، ثم أصبح قائدا لجيشه سنة 517هـ. وتوفي المهدي سنة 524هـ، فقام بالأمر بعده عبد المؤمن وهو المؤسس الفعلي لدولة الموحدين، التي أقامها على أنقاض دولة المرابطين، بعد أن استولى على عاصمتها مراكش 537هـ/1144م. ينظر: عبد الواحد محي الدين بن عبد الله المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح: العريان سعيد، الجمهورية العربية المتحدة: المجلس الأعلى للشؤون العربية، د ط، د س ط. بتصرف ص ص:245-276.

[3]- **محمد الناصر لدين الله:** كان من أبرز الحكام الموحدين قاد الحملة العسكرية التي التقى فيها مع جيوش قشتالية وأراغون وفرنسية ومعهم أوروبيون آخرون في سهل يقع جنوب غربي حصن العقاب شمال مدينة جيات. كان ذلك في 14 صفر من سنة 609 هـ/1218م، فدارت معركة شرسة بين الطرفين، انهزمت فيها قوات الخليفة الموحدي محمد الناصر لدين الله. بنظر: عادل سعيد بشتاوي، الأندلسيون المواركة (المرجع السابق). ص: 111.

[4]- **اينوصان الثالث(594-613هـ/1198-1216م)**: هو جيوفاني لوطاريودي. ولد سنة 553هـ/1160م، واعتلى كرسي البابوية سنة 589هـ/1198م؛ أشرف على الحملة الصليبية الرابعة سنة 594هـ/1203م. توفي سنة 607هـ/1216م. على عهده دخلت البابوية مرحلة سيطرة وقوة لم تعرف من قبل، تميزت بتعمق الشعور الديني في أوروبا، وارتفاع شأن البابا الذي اعتبر نفسه خليفة للقديس بطرس ونائبا للسيد المسيح. وكان يمارس سلطته عن طريق الموفدين البابويين معتبرا الملوك مجرد حكام أقطعهم الباب ممالكهم التي يحكمونها. ينظر: موسوعة لاروس، مادة اينوصان، م:11. ص ص: 6336، 6337.

[5]- .**الفونسو الثالث (252-297هـ/ 866-910م)**: الملقب في المصادر الاسبانية بـ "الكبير"؛ واجه أثناء توليه الحكم عدة مؤامرات عائلية نجح في قمعها؛ فرض على عامة الشعب ضرائب أدت إلى استيائه، فخلع لصالح ابنه غرسيه"Garcia". ينظر: الحجي عبد الرحمان، التاريخ الأندلسي (المرجع السابق). ص ص: 174،175.

بهذا الصدد[1]:

وقائلـــة أراك تطيل فكـرا  كأنك قد وقفت لدى الحساب

فقلت لها أفكر في عقـاب  غـدا ســببـا لمـعركـة الــعقـاب

فقد كان من نتائجها أن استعاد التيار الصليبي نشاطه التوسعي، فحاول احتلال المدن المتبقية فسقطت مدينة سرقسطة"[2] سنة 512هـ/1117م[3]، وطرطوشة[4] "Totosa"[5] واشبونة "Lisbona" سنة 542هـ/1147م[6]، ولاردة "Larda"[7] سنة 544هـ/1149م، وايبدة "Ubeda"[8] عام609هـ/1212م[9]، وجـزيـرة ميورقة "Mallorca"[10] سنة 630هـ/1232م[11]، ثم قرطبـة سنـة

---

[1]- المقري، نفخ الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، تح: إحسان عباس، بيروت: دار صادر، د ط، 1408هـ/1988م. ص:576.

[2]- **سرقسطة**: مدينة كبيرة في شمال شرقي الأندلس عن الضفة اليمنى من نهر ايرة (Ebra). ينظر: سالم عبد العزيز، تاريخ وحضارة الإسلام. (المرجع السابق). ص:83.

[3]- كانت مملكة سرقسطة آخر دولة من دول الطوائف دخلت في طاعة المرابطين أواخر سنة 503هـ/1108م، وارتبطت بتاريخهم؛ لكنها سقطت بيد ابن ردمير ملك مملكة أراغون. ينظر: مؤلف مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ج: 2. (المصدر السابق). ص: 248.

[4]- **طرطوشة**: تشغل رقعة كبيرة شبه مستديرة، وتحف بها الجبال عن كثب، ويشقها نهر إبرة الذي يشق مملكة آراغون كلها نحو نصفين.

[5]- سقطت المدينة في أيدي النصارى، قبيل سقوط لاردة بقليل؛ دعا البابا إلى تأليف حملة صليبية للاستيلاء عليها، فاجتمعت لهذا الهدف قوات مكونة من الاسبان والبيزيين والجنويين وفرسان المعبد، بقيادة الكونت رامون برنجار الرابع أمير برشلونة، فاضطر المسلمون إلى تسليم المدينة صلحا، مشترطين الاحتفاظ بمساجدهم وأملاكهم، ولكنهم لم يستطيعوا الحفاظ عليها أكثر من أربعين سنة، عندها اضطروا تسليمها إلى النصارى.

[6]- **اشبونة**: تتمتع المدينة بموقع طبيعي بديع على مصب نهر التاجه، وتشغـل سلسلـة من التـلال المتـدرجة التي تقع غـربي هـذا المصب.

[7]- **لاردة**: تقع غربي ثغر برشلونة، وهي مدينة كبيرة مستطيلة الرقعة، تمتد على الضفة اليمنى لنهر سحرى تكثر في هذه المدينة غابات الزيتون والكروم. كانت لاردة أيام العصر الإسلامي، من قواعد ولاية الثغر الأعلى. ينظر: عبد الله عنان، الآثار الأندلسية الباقية، (المصدر السابق). ص:114.

[8]- **ايبدة**: مدينة متوسطة، مستطيلة الرقعة، ذات شوارع طويلة، وتقع المدينة على مسافة قليلة من اليابسة.

[9]- سقطت المدينة في أيدي النصارى في عصر مبكر عقب موقعة العقاب التي هزم فيها الموحدون هزيمة شديدة.

[10]- **جزيرة ميورقة**: يغلب على سطحها الصفة الصخرية، خصوصا من أطرافها؛ فهذه الأطراف هي عبارة عن هضاب خلجان عديدة.

[11]- سقطت جزيرة ميورقة على يد جيوش متحدة من مملكة آراغون وملكها جايمش بن بطوه بن جايمش "Jaime I"، ومـن فرنسـا وايطاليا، الذيـن أمعنوا في أهلها سفكا، رافضين المصالحة. ينظر: بن الخطيب لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج: 1، (المصدر السابق). ص: 283.

627هـ/1236م[1]، بعدها شاطبة "Jativa"[2] ودانية "Dania"[3] في سنة 630هـ/1240م[4].

ثم سقطت مدينة مر سنة 640هـ/1242م، وبعدها مرسية سنة 664هـ/1243م[5] وتبعتها جيان "Jaén"[6] سنة 644هـ/1246م، فإشبيلية عام 646هـ/1248م[7]؛ وكذلك تتالى سقوط الحواضر الإسلامية الواحدة تلوى الأخرى إلى أن سقطت غرناطة[8] آخر المعاقل الإسلامية في الأندلس سنة 897هـ/1492م.

وهكذا قسمت بلاد الأندلس إلى سبعة أقسام شبه متساوية، كل قسم يضم إما عنصرا من العناصر، أو قبيلة من البربر، أو قبيلة من العرب، أو أهل الأندلس الأصليين، بل إن كل قسم أو منطقة من هذه المناطق كانت مقسمة إلى تقسيمات أخرى داخلية، حتى وصل تعداد الدويلات الإسلامية داخل أراضي الأندلس عامة إلى اثنتين وعشرين دويلة، وذلك رغم وجود ما يقرب من خمس وعشرين بالمائة من مساحة الأندلس في المناطق الشمالية في أيدي النصارى.

---

[1]- سقطت قرطبة على يد جيوش قشتالة، بعدما بدلت جهودا مشهودة للوقوف ضد الزحف الصليبي. ينظر: بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج: 1، (المصدر السابق). ص: 382.

[2]- **شاطبة:** عرفت بخيراتها الوافرة، لها ثلاث أقاليم، في كل إقليم أربعون قرية، يخترق بطاحها واد. ينظر: أحمد بن عمر العذري، ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، تح: عبد العزيز الأهوائي، مدريد: مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، د ط، 1965م. ص:18.

[3]- **دانية:** مدينة كبيرة تقع شرق الأندلس، وتطل على البحر قبالة جزيرة يابسة، تقع في منتصف المسافة بين بلنسية ولكنت.

[4]- استولت عليها مملكة أراغون ضمن سلسلة الحملات الصليبية على المدن الإسلامية الأندلسية.

[5]- سقطت المدينة في يد الأرغونيين واستولى عليها الاسبان بعدما نكلوا بسكانها.

[6]- **جيان:** من أحسن المدن الأندلسية، تقع على سطح جبل عال وبها أقاليم عدة وحمامات كثيرة ذات مياه عذبة. ينظر: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تح: مخزوم محمد، بيروت: دار أحياء التراث العربي، د ط، 1987م. ص:193.

[7]- تأتي مملكة اشبيلية في مقدمة دول الطوائف، من حيث سعتها وتفوقها السياسي؛ سقطت بيد ملك قشتالة فرانده (هرانده بن الهنشة) (فرناندو الثالث)( Fernando III) عام 246هـ/1248م، وذلك بعد مواجهات عسكرية لعدة سنوات وحصار طويل استمر حوالي سنة ونصف، فسلمت المدينة بشروط كان منها رحيل أهلها المسلمين منها. ينظر: لسان الدين ابن الخطيب، أعمال الأعمال فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام المعروف بـ تاريخ اسبانيا الإسلامية، ج:2، تح: ليفي بروفنسال، بيروت: دار الكشوف، ط:2، 1956م. ص: 222.

[8]- قامت مملكة غرناطة سنة 635هـ/ 1238م، على إثر انهيار حكم الموحدين بالأندلس، حيث استطاع محمد بن يوسف النصري المعروف بابن الأحمر أن يقيم دولة امتدت رقعتها من جيان شمالا إلى الجزيرة الخضراء جنوبا، وقد استغل حالة الفوضى التي سادت الأندلس في تلك الفترة لتقوية حكمه في غرناطة والوقوف أمام الأطماع الاسبانية.

هذا التفكك الجغرافي والسياسي وحتى الاجتماعي مكن العدو المتربص من القضاء على كل هذه الدويلات الواحدة تلوى الأخرى بعدما وحد صفوفه وكلمته، معلنا حربا بدون هوادة إلى أن يتم القضاء نهائيا على الوجود الإسلامي في الأندلس بعد قرابة ثمانية قرون من العطاء الحضاري والإنساني.

## – المبحث الثاني: سقوط غرناطة آخر معاقل الإسلام في الأندلس897هـ/1492م

ليست قراءة التاريخ والوقوف على حقائقه بدقة بالأمر الهين. وليس تحديد عوامل سقوط أمة أو حضارة أمرا هينا، وتكمن صعوبة هذا الأمر من مدى إمكانية التحقق من حدوث الوقائع التاريخية فحسب، ولكن من إمكانية قراءتها قراءة دقيقة، فالباحث حين يقرأ التاريخ لا يقرأه على نحو مباشر، وإنما من خلال إشكالية كونها ورسم لها خطوطها.

لذا فإن تفسير الحقائق يتوقف إلى حد بعيد على المعتقدات والمبادئ والخلفيات الثقافية للمفسرين. وهذا يعني أن علينا أن نرضى بموضوعية ناقصة ونتائج نسبية الصواب. ومشكلة التاريخ أنه يتأبى على الخضوع للتجربة، فنحن لا نستطيع أن نجزم هل لو أن أهل الأندلس لم يغرقوا في النعيم أو لم ينقسموا على أنفسهم، أو لم يصيروا من الهجوم إلى الدفاع، هل كانت أعمار دولهم ستطول أكثر مما كانت عليه؟

فسقوط غرناطة شكل مأساة كبرى، لأن ذلك لم يكن سقوط دولة، وإنما سقوط حضارة، كان يمكن لها أن تكون نقطة انطلاق لبداية جديدة، فسقوطها قلع شعبا مسلما من جذوره وعرضه

للضياع الكامل، ومن هنا تأتي فرادة النكبة التي حلت بالإسلام والمسلمين في الأندلس. وذلك لأن أسباب السقوط عديدة، ولا نعرف على وجه التحديد شكل النتائج إذا تخلف واحد منها.

**1)- توحيد القوى النصرانية لمجابهة غرناطة:** قامت مملكة غرناطة سنة 635هـ/1238م على أثر انهيار حكم الموحدين بالأندلس حيث استطاع **محمد بن يوسف** النصري المعروف بـ "**ابن الأحمر**" أن يقيم مملكة امتدت رقعتها من جيان شمالا إلى الجزيرة الخضراء "Algeciras"[1] جنوبا، وقد استغل حالة الفوضى التي سادت الأندلس في تلك الفترة لتقوية حكمه في غرناطة والوقوف أمام الأطماع الاسبانية، وبعد وفاته استطاع خلفاؤه من بني نصر الاحتفاظ بهذه المملكة مدة قرنين ونصف من الزمن وسط أخطار عديدة كانت تحدق بهم.

فقد تمكنت هذه المملكة الصغيرة أن تقف شوكة في حلق الممالك النصرانية الشمالية[2]، واستطاعت أن تؤخر سقوط الحكم الإسلامي بالأندلس إلى غاية سنة 897هـ/1492م، لذلك

---

[1]- **الجزيرة الخضراء:** يقال لها جزيرة أم حكيم, نسبة إلى جارية طارق بن زياد، أقرب مدن الأندلس مجازا إلى العدوة. وهي أول مدينة افتتحت من الأندلس في صدر الإسلام. ينظر: الحميري، المصدر السابق. ص ص:73 -75. والجزيرة الخضراء المدينة فسيحة الشوارع، متسعة المسالك، مرصفة الأزقة ديارها متقنة البنان، المدينة لا سور لها. ومن ناحية غربها يجري وادي قريب منها, مضروب عليه مجاز متوسط، وبإزائه أرجاء وأجنة وبحائر. ولا ماء بالمدينة إلا الآبار، وشرابهم من الوادي لقربه وجودته. ينظر: أحمد بن المهدي الغزال، نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد (رحلة الغزال وسفارته إلى الأندلس)، تح وتق: اسماعيل العربي، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، د ط، 1984م.ص:57.

[2]- بدأت الحملة على الأندلس من الشمال إلى الجنوب في شكل طرد جماعي لسكان المدن و مصادرة أملاكهم، حيث هاجر المسلمون نحو الممالك الجنوبية المحاذية لشمال إفريقيا. لكن القادة الصليبيون غيّروا خطتهم عند وصولهم إلى مملكة غرناطة حيث بدأوها من الجنوب و ذلك بعد انتشار أخبار عن إمكانية وصول المد الإسلامي من الجنوب، لذلك فقد سقطت مالقة قبل غرناطة بحوالي خمس سنوات. هذا مع العلم أنه كانت اتفاقيات سرية بين آخر ملوك غرناطة مع الملك القشتالي بالتسليم إذا سقطت المدن التي حولها؛ وهكذا فبعد مقاومة شرسة قادها عم ملك غرناطة المسمى بمولاي الزغل الذي كان عدو الصليبيين والغرناطيين المواليين للملك المهزوم تحققت أمنية الصليبيين في التفرد بغرناطة التفرغ لها.

لاحظ الإسبان أن الوجود الإسلامي بهذه المملكة يعرقل استكمال وحدتهما، فعزموا على القضاء عليها، فأصبحت بذلك هدفا لعدوان مملكتي قشتالة "Castilla "[1] وأراغون "Aragon "[2] في الوقت الذي جلس فيه ايزابيلا "Isabella"[3] وفرناندو "Fernando"[4] الكاثوليكيان[5] على عرش اسبانيا الموحدة[6].

---

[1]– **مملكة قشتالة:** تقع قشتالة بين ليون ونبارة؛ يحكمها زعيم محلي مقره برغش"Burgos"، وهذا الزعيم يخضع لملك ليون؛ حصلت قشتالة على استقلالها في منتصف القرن الرابع الهجري الموافق للعاشر ميلادي على يد فران غنصالص "Fernan Gonzales" (359هـ/970م). ينظر: الحجي عبد الرحمان، التاريخ الأندلسي (المرجع السابق). ص: 275.

[2]– **مملكة أراغون:** يقال عن أصول مملكة أراغون أن رعيتها كانوا قوطا، تراجعوا إلى جبال البيرينيه بعد الفتح الإسلامي للمنطقة؛ ثم اغتنموا فرصة اندلاع الاضطرابات في الثغور الأندلسية فحققوا تقدما لم يصبح مؤثرا إلا بعدما احتل الملك الأراغوني ألفونصو الأول الشهير بـ "المحارب" سرقسطة عاصمة الثغر الأعلى عام 512هـ/1118م. أما أشهر ملوك المملكة نذكر خايمي الأول ( 610-675هـ/1213-1276م). ينظر: عادل سعيد بشتاوي، الأمة الأندلسية الشهيدة (تاريخ 100 عام من المواجهة والاضطهاد بعد سقوط غرناطة)، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط: 1، 2000م. ص: 60. وللاطلاع على خريطة تمثل حدود المملكتين قشتالة وأراغون ينظر الملحق رقم: ص:

[3]– **الملكة ايزبيلا:** ولدت إيزابيلا سنة 856هـ/1451م، وتوفيت سنة 910هـ/1504م. ينظر:

Louis Cardaillac, L'Espagne des Rios catholiques (Le prince don Juan Symbol de l'apofée D'un règne, 1474_1497 Edition Aurement _ collection Mémoires P: 23.

وهي ابنة الملك خوان الثاني ملك قشتالة، وحفيدة أنريكي الرابع. ينظر: الزويعي محمود، محاكم التفتيش الاسبانية (922هـ/1516م)، الأردن : دار زهران للنشر والتوزيع، د ط، د س ط. ص : 42.

[4]– **الملك فرناندو:** في بعض المراجع نجده باسم فرديناند، وفي مراجع أخرى فرناندو. ولد الملك فرناندو عام 856هـ/1421م. وأصبح ملكا على صقلية سنة 873هـ/1468م، ثم ملكا على أراغون سنة 884هـ/1479م، ينظر:

Rodrigo de Zayas, Les moresques et le racisme d'état et la différence, Paris, 1992. P: 82.

بعدها أصبح ملكا على نابلي عام 910هـ/1504م؛ ثم ملكا على قشتالة منذ سنة 887هـ/1484م. ينظر: بشتاوي، الأندلسيون المواركة، (المرجع السابق). ص :123. توفي فرناندو في 17 ذي الحجة من سنة 921هـ الموافق لـ 23 يناير 1516م، وأوصى حفيده شارل الخامس بحماية الكاثوليكية والكنيسة، واختار لذلك محققين يخشون الله لكي يعملوا في عدل وحزم لخدمة الله– على حد زعمه– وتوطيد الدين الكاثوليكي، كما يجب سحق طائفة محمد "صلى الله عليه وسلم" – على حد زعمه –. ينظر: عنان عبد الله، نهاية الأندلس، (المرجع السابق). ص: 142.

[5]– **الكاثوليكية:** تعني هذه التسمية العام أو العالمي، كاثوليكوس أصل هذه الكلمة هو اللفظة اليونانية وسميت الكنيسة الكاثوليكية بذلك ؛ لأنها تدعي أنها أم الكنائس، وتسمى باللاتينية أو الغربية؛ لأن أكثر أتباعها في الغرب، والبطرسية أو الرسولية؛ لأن أصحابها يزعمون أن مؤسسها هو الرسول بطرس، وهو كبير الحواريين – بزعمهم – ويعتبر الباباوات أنفسهم خلفاؤه من بعده، وتمثل الكنيسة الكاثوليكية أكبر تجمع نصراني في العالم، وينتشر أتباعها في جميع بقاع الأرض ويرأسها البابا، وهو أسقف روما، ومقره مدينة الفاتيكان، وهي دولة صغيرة داخل مدينة روما عاصمة إيطاليا، ويساعده في تصريف شؤون الكنيسة ما يطلق عليه والسفارات البابوية التي تصدر بيانات البابا الرسمية، وبعض الوظائف الوزارية مثل وزارة الخارجية، ومجمع الكرادلة الذي يقوم بانتخاب البابا عندما يخلو الكرسي الرسولي. بولوس وهبة، المرجع السابق. ص: 213.

[6]– ما وحد المملكتين هو زواج ايزابيلا ملكة قشتالة من فرناندو دون رضا أخيها، فكان سببا عظيما في اتحاد الممالك الثلاث أراجون وقشتالة وليون بعد أن آل العرش إلى ايزابيلا الوريثة الوحيدة .وتزوج بها بعد أن تعهد أن يحيا حياته هو بها في قشتالة، وألا يغادر إلا بإذن من إيزابيلا. ووضعت شروط الزواج سرا ثم عقد حفل صغير بمدينة بلد الوليد لم يشهده غير قليل من الأصدقاء.

لكن الخلاف الذي بدأ يدب في صفوف البيت النصري[1] لعب دورا بارزا في القضاء على هذه المملكة؛ ففي هذه الآونة التي أخذت فيها الفرقة تمزق أوصال المملكة الإسلامية، بدأت القوى النصرانية تنفذ مخططاتها لتطبيقها، فكانت البداية بإهانة غرناطة وإجبارها على دفع ضرائب[2]، فرفضت ذلك مما أدى بالملك فرناندو إلى مهاجمة أراضيها والاستيلاء على الحامة[3]؛ كما تمكن القشتاليون من الزحف على مدينة لوشة "Loja"[4] ومحاصرتها، إلا أنهم لم يتمكنوا منها بسبب وجود حامية عسكرية كبدتهم خسائر فادحة.

وبعدما آل الحكم إلى أبي عبد الله[5]، قرر هذا الأخير مواجهة زحف النصارى[6]، ولكن

---

[1]- لقد كان للنساء أثر بارز في إذكاء هذا الخلاف والتعجيل سقوط غرناطة ، فالصراع الذي كان بين الزوجتين كلن سببا في انشقاق المجتمع الغرناطي إلى فريقين، فريق يؤيد الملكة الشرعية وولديها، وفريق يؤيد السلطان وحظيته، فكانت الغلبة للفريق الأحمر لفترة معينة. نظر: مؤرخ مجهول، أخبار العصر، (المصدر السابق). ص : 79.

[2]- دنون طه، دراسات أندلسية، (المرجع السابق). ص ص : 83،84.

[3]- **الحامة**: مدينة غنية متوسطة في مملكة غرناطة. احتلها الاسبان سنة 887هـ/ 1482م، بعد أن قتلوا أهلها ونكلوا بهم. ينظر: علي المنتصر الكتاني، انبعاث الإسلام في الأندلس، الجامعة الإسلامية العالمية إسلام آباد: مجمع البحوث الإسلامية، ط: 1، 1313هـ/1992م. ص: 51. في حين وصفها عبد الواحد دنون طه أنها من بين أهم الميادين في غرناطة، وهي عبارة عن ساحة فسيحة تحيط بها المحلات التجارية و تتفرع منها عدة شوارع. ينظر: آفاق غرناطة، آفاق غرناطة، دمشق: دار المعرفة، د ط، 1408هـ/1988م. ص 110.

[4]- **لوشة** : من أعمال مالقة كانت كدنية عامرة في عهد العرب، استولى عليها الملك فرناندو سنة 1488م. ينظر: على اسلام باشا، اسبانيا والأندلس، الاسكندرية: د د ن، د ط، 2001م. ص 10.

[5]- **أبو عبد الله**: الملقب في المصادر الاسبانية بـ "باوديل Baobdel "كان ضعيف الرأي، كثير التردد، شديد الوساوس والتطير، وزاده خبالا أن استقر في نفسه :أن الدهر يعكس آماله، وأن القدر يحاربه، فكان يندب دائما سوء طالعه ونحس نجمه، وعرف بين الناس بـ "الشِّقِيتو" أي الشقي، وبالزُّغَيْبِي، وكثيرا ما كان يقول وهو يرى» فيه ذلك فنبزوه آماله تئيض رمادا: لقد كتب في لوح القدر أن أكون مشئوم الطالع، وأن يكون زوال هذه المملكة على يدي. وكان أبو عبد لله كثيرا ما كان يسمع سبه ولعنه بأذنه في جميع شوارع غرناطة، وكثيرا ما يصل إليه ما يرميه الناس به من خيانة قومه ومخالفة أعدائه، ومع كل هذا كان يعيش مطمئنا هادئ البال، تام الثقة بحلفائه، سعيدا بزوال ملك عمه. ينظر: ستانلي لين بول، قصة العرب في اسبانيا، تر: علي جارم بك، مصر، د د ن، د ط، د س ط. ص:146. آل إليه الملك بعدما فشل والده أبو الحسن في مواجهته، مما أدى بهذا الأخير إلى استقلال في مالقة وضواحيها. بنظر : مؤلف مجهول، أخبار العصر، (المصدر السابق). ص ص : 85، 86.

[6]- لقد شن حملة عسكرية تمكن خلالها من الاستيلاء على مجموعة من الحصون والقلاع وهزم النصارى في معارك محلية حصل خلالها على غنائم كثيرة. بنظر: المصدر نفسه، ص: 86.

سرعان ما انهزم[1]، فكانت من نتائج الهزيمة أسر العديد من رجاله وكان هو ضمن الأسرى. وبهذه الحادثة تكون قد بدأت غرناطة تعدها أيامها، التي سينتهي بها المطاف إلى سقوطها على يد أبي عبد الله الصغير.

استغل الملكان الكاثوليكيان وجود أبي عبد الله أسيرا لديهما لتحقيق مآربهما والاستيلاء على غرناطة، فاشترطا مجموعة من الشروط على أبي عبد الله مقابل اطلاق سراحه[2]؛ هذه الشروط هي التي مكنتهما في حقيقة الأمر من تنفيذ سياستهما الهادفة إلى القضاء على نفوذ المسلمين في غرناطة، خاصة وأن هذا الأمير كان ضعيف الإرادة، همه الوحيد استعادة عرشه[3].

بعد عودة أبي عبد الله توالت الخلافات بين أفراد الأسرة الحاكمة[4]، مما سهل على القوى النصرانية الزحف واحتلال عدة مناطق[5] إلى أن تمكنوا من تضييق الخناق على غرناطة[6]، وخلال المعارك التي جرت بين الطرفين[7] تم أسر أبي عبد الله للمرة الثانية مما أدى به إلى تسليم المدينة مقابل اتفاقيتين إحداهما علنية وأخرى سرية. وبعد عقد هذه الاتفاقيات ركزت القوى النصرانية على المناطق

---

[1]- حصل ذلك خلال مواجهة عسكرية تمت بين الطرفين جنوب شرق قرطبة في حصن يسمى حصن اللسانة.

[2]- حومد أسعد، محنة العرب في الأندلس، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط: 1، 1400 هـ/1980م. ص :86 .

[3]- عند عودته تجدد الصراع مرة أخرى بين الأب والابن، هذا الأخير كان مجبرا على تطبيق بنود الاتفاقية المبرمة مع الملكين، فسار إلى المرية التي اتخذها قاعدة له ومنها شرع في مهاجمة المناطق التي كانت خاضعة لوالده. بنظر: حومد أسعد، المرجع السابق. ص : 87.

[4]- بعد استسلام الولد لابنه استمر الصراع بين الصغير وعمه الزغل حيث تم تقسيم غرناطة إلى قسمين جزء يأخذه العم والآخر ابن الأخ وذلك بعد تدخل الفقهاء لوضع حد لهذه الفتنة.

[5]- تمكنت القوى النصرانية من الاستيلاء على أزيد من ثلاثمائة حصن وهكذا سقطت سائر الأماكن والقلاع تمهيدا لمهاجمة ثغر مالقة من جهة الغرب.

[6]- استغلالا للخلافات التي كانت بين العم والابن سارعت الجيوش القشتالية في اتجاه الحصون المحيطة بغرناطة لاحتلالها فتمكنت من ذلك وأخرجت أهلها ثم شحنتها بالرجال والعتاد والمؤن والسلاح. ينظر: المقري، نفخ الطيب، ج : 2، (المصدر السابق). ص ص : 515-516.

[7]- استمر الدفاع على مملكة غرناطة ما يناهز سبع أشهر، أظهر خلالها مسلمو غرناطة كل ضروب الشجاعة والصبر، إلا أن طول الحصار أخذ يؤثر على صمودهم فلم يجدوا بدا من الدخول في مفاوضات مع العدو من أجل الاستسلام. ينظر: مجهول، أخبار العصر، (المصدر السابق). ص ص : 112-114.

الخاضعة لعمه الزغل[1]، نظرا لأهميتها[2]، فسقطت الواحدة تلوى الأخرى[3] بعد دفاع مستميت من قبل أهلها[4].

وبعد الاستيلاء على هذه المناطق لم يبق أمام النصارى سوى توجيه الضربة النهائية إلى مدينة غرناطة، فأرسل الملكان إلى أبي عبد الله الصغير رسلا لتسليم المدينة، وتطبيق بنود الاتفاقية السرية التي عقدت بين الطرفين مقابل اطلاق سراحه، وطلب من هذا القبيل يعني نهاية المملكة، مما أثار غضب الزعماء والفقهاء، فقرروا القتال حتى النهاية دفاعا عن مملكتهم ودينهم وحضارتهم. وبذلك سقطت غرناطة آخر المعاقل الإسلامية في بلاد الأندلس بسبب تشتت كلمة المسلمين وتفرق صفوفهم، وانشغالهم بالحروب ثم الاستعانة بالعدو والغادر على بعضهم البعض، فانتهى بذلك الوجود الإسلامي كحكم وليس كدين.

**2)- نهاية الحكم الإسلامي في الأندلس:** لم يبق من دولة الإسلام في الأندلس سوى بضع ولايات صغيرة في الطرف الجنوبي من الأندلس، قامت فيها مملكة صغيرة عرفت بمملكة غرناطة، إذ شاءت الله لها أن تحمل راية الإسلام أكثر من قرنين من الزمان، وأن تقيم حضارة رائعة، حتى انقض عليها الملكان الكاثوليكيان فرناندو وإيزابيلا، وحاصرا بقواتهما غرناطة في 12 من جمادى

---

[1]- **الزغل** :هو أبو عبد الله محمد (الثاني عشر) شقيق أبي الحسن علي بن سعد المعروف باسم الزغل في المصادر التاريخية، عرف بشجاعته وبسالته، كان حكمه من سنة 888هـ/1483م. إلى غاية 982هـ/1074م استسلم وغادر الأندلس نحو تلمسان. ينظر: الحجي، التاريخ الأندلسي، (المرجع السابق). ص : 568. وكلمة الزغل تعني في اللغة العربية الفتى الشاب. ينظر: ستانلي لين بول، المرجع السابق 146.

[2]- لقد كانت هذه المناطق تشكل اتصال بين الأندلس وشمال إفريقيا، ومنها كان يأتي المدد دوما إلى المسلمين الأندلسيين، سواء على عهد المرابطين، أم الموحدين فيما مضى، أو في عهد المرئيين فكانت الفرضية السياسية تفرض عليهم الاستيلاء على هذه المراز حتى قطع أي اتصال مع الخارج ويتم عزل غرناطة والمدن الداخلية في انتظار توجيه الضربة القاضية لها لإنهاء الوجود الاسلامي كليا بشبه الجزيرة الإيبيرية.

[3]- تمثلت هذه المناطق في كل من مالقة، المنكب، بسطة، ووادي آش، والقرية وألمرية.

[4]- لم يكن دفاع سكان هذه المناطق مجديا لكون النصارى يفوقونهم عدة وعددا، دون أن تأتيهم مساعدة عن باقي المدن وخاصة غرناطة التي التزم صاحبها بعدم التدخل في شؤون المناطق التي لا تخضع له.

الآخرة 896هـ/30 أبريل1491م حصارا شديدا، وأتلفا الزروع المحيطة بالمدينة، وقطعا أي اتصال لها بالخارج، ومنعا أي مدد يمكن أن يأتي لنجدتها من المغرب الأقصى؛ حتى تستسلم المدينة، ويسقط آخر معقل للإسلام في الأندلس.

فقد ساهمت الكثير من العوامل في صناعة هذه النهاية، فبعد أن سقطت جل إمارات الأندلس الشرقية والوسطى خلال منتصف القرن السابع الهجري الموافق للقرن الثالث عشر ميلادي، وكتب الله لإمارة غرناطة الصمود أكثر من قرنين من الزمن؛ تطورت الأحداث في غرناطة بعد مؤسسها الأول محمد بن يوسف بن نصر[1] أدت إلى بداية تضعضع كيان المملكة.

فإذا استثنينا الاستقرار الذي شهدته في عصر أبي عبد الله محمد بن يوسف الملقب بـ "الفقيه"[2]، ثم القوة وتجدد الجهاد في عهد السلطان أبي الوليد إسماعيل[3]، فإن باقي الحكام لم يكونوا في مستوى سابقيهم، وبهذا دخلت غرناطة مرحلة حرجة من تاريخها، بسب العوامل الداخلية والخارجية التي كانت تحيط بها.

بعد هذه المرحلة الحرجة من تاريخ غرناطة المسلمة دخلت بداية العد التنازلي لقوة بني

---

[1]– **محمد بن يوسف:** يعتبر أول من تولى حكم غرناطة من الأسرة الناصرية سنة 729هـ/ م. كان وسيما وشجاعا، تسبب للنصارى في عدة خسائر، ولكن دارت عليه الأحوال، فتمكن النصارى من الاستحواذ على الكثير من قواعد الأندلس وحصونها. ينظر: مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، (المصدر السابق). ورقة رقم: 108.

[2]– **أبو عبد الله محمد بن يوسف:** تولى الحكم بعد وفاة والده، على أيامه استدعى أمير المسلمين يوسف يعقوب بن الحق إلى الأندلس حين تم له ملك المغرب، فكتب إليه يستنصره مقابل ذلك يمنحه الجزيرة الخضراء وحصونها ليكون نزوله بها. توفي في قصر الحمراء. ينظر: المصدر نفسه، ورقة رقم: 108.

[3]– **أبو الوليد إسماعيل:** هو حفيد إسماعيل أخو محمد الأول الشيخ المؤسس، كان حكمه في شوال سنة 713هـ إلى غاية شهر رجب من سنة 725هـ/ 1314-1325م. على عهده جرت معركة مشيخة الغزاة سنة 718هـ/ 1319م. ينظر: المصدر نفسه. ورقة رقم: 110.

الأحمر[1] ولآخر قلعة من قلاع الأندلس رغم محاولات بعض السلاطين مثل الغني بالله محمد بن يوسف[2] الحفاظ على قوتها، والاستعانة بالمثقفين والعلماء في تسيير شؤون إمارته أمثال ابن الخطيب وابن زمرك[3].

وبوصول أبي الحسين[4] سنة 869هـ/1464م إلى الحكم فقدت غرناطة كل الآمال لاسترجاع مجدها السابق ودخل البيت الملكي في صراع السيدات[5]، ثم تحول الصراع بين العم وابن أخيه [6]

---

[1]– **بنو الأحمر**: كان أولهم محمد بن يوسف النصري المعروف بابن الأحمر، يرجع أصله إلى الأنصار وبالتحديد إلى سعد بن عبادة رضي الله عنه. يعتبر أول من أنشأ دولة غرناطة، وكان الرعيل الأول منهم على مستوى المسئولية ووصلت لأوج قوتها حتى عهد محمد الخامس سنة 763هـ/ 1262م وبعد موته لم يكن خلفاؤه على المستوى نفسه فبدأت المملكة في الاندحار، وقد استمر الملك في سلالة بني الأحمر حتى سقوط غرناطة؛.

[2]– **الغني بالله محمد بن يوسف**: خلف الحجاج يوسف الأول الذي تم اغتياله سنة 755هـ/1353م أثناء صلاته في المسجد الأعظم يوم عيد الفطر؛ من أهم ما ميز عهده علاقات صلح تمت بين مملكتي قشتالة وأراغون مع غرناطة. ينظر: عبد الحمان بن محمد بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج:4، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، د ط، 1391هـ/1871 م. ص: 275.

[3]– **ابن زمرك**: هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن أحمد الشريحي المعروف بـ ابن زمرك ( 724–796 هـ /1333–1393م) تلميذ ابن الخطيب وخلفه في وزارة غرناطة؛ برع ابن زمرك الغرناطي في الوصف والمرتجلات والموشحات؛ كما كان عالما فقيها باللغة العربية مالكا بزماماها. ينظر: عبد الواحد طه دنون، آفاق غرناطة، (المرجع السابق). ص: 120.

[4]– **أبو الحسين علي بن سعد بن إسماعيل**: كان في بداية أمره ملكا شجاعا مهيب الجانب. قام بغزوات كثيرة واضطر النصارى إلى مصالحته في البر والبحر، ولكنه بعد الحوادث التي تلت استيلاءه على قلعة الصخرة، لم يستطع مواجهة ردود الفعل النصرانية لخرقه الهدنة؛ ومما زاد من عجزه قيام ابنه أبي عبد الله باغتصاب عرش المملكة منه. وهذه الأحداث وغيرها جعلته، بعد استرجاعه العرش، يخشى من أن تغلق في وجهه أبواب غرناطة إذا خرج لقتال النصارى، فاستكان للذات وسرح الجند ابتداء من سنة 883هـ/ 1478م. توفي سنة 890هـ/1485م. ينظر: ايرقينجو واشنطون، سقوط غرناطة آخر الممالك الإسلامية بالأندلس، تر: العربي إسماعيل، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، د ط، 1988م. ص: 25.

[5]– **صراع السيدات**: اقترن الملك أبو الحسن في أواخر أيامه لفتاة نصرانية تدعى إيزابيلا، هذه الأخيرة كان يفضلها الملك أبو الحسن على زوجته الأولى عائشة التي لقبت بالحرة؛ وبفضل جمالها ودهائها استطاعت ثريا أن تجعل الملك أبا الحسن ألعوبة في يدها، فكانت تطمع أن يكون الملك في يد ابنها الأكبر بدلا من أبي عبد الله الصغير، ابن عائشة، فعملت على تحريض الملك الصغير وأمه، وسرعان ما بدأ الصراع بين الزوجين، فأخذت كل واحدة منهما تجمع الأنصار حولها، فانشق بذلك المجتمع الغرناطي إلى فريقين، فريق يؤيد الملكة الشرعية وولديها، وفريق آخر يؤيد السلطان وثريا، فكانت الغلبة للفريق الأخير لفترة معينة؛ وقد ساهم هذا الصراع في تفكيك وحدة غرناطة السياسية والاجتماعية. ينظر: مؤلف مجهول، أخبار العصر، (المصدر السابق). ص ص: 79. 83.

[6]– **الصراع بين العم وابن أخيه**: توالت الخلافات بين أبي عبد الله ووالده إلى أن استسلم الوالد لأخيه، فبدأ الصراع بين أبي عبد الله وعمه، ولما أنهكت قواهما تدخل الفقهاء لإيجاد تفاهم بين الجانبين فتم تقسيم المملكة بين الاثنين، وقد قبل الزغل بالقسمة حتى يتسنى له الاستمرار في مهاجمة النصارى إلا أن تطاول أبي عبد الله الصغير حال دون ذلك.

ضمن دائرة الصراع الناصري الناصري، في مقابل الصراع الناصري النصراني.

ومنذ خريف 894هـ/1489م أضحت غرناطة كالمصباح المرتجف تنطفئ أضواؤه تباعا، ورب قائل أن تناحر الأندلسيين ونزعة حكامهم للاحتفاظ بملكهم، بغض النظر عن السبل، هو السبب في سقوط الأندلس وتبدد شعبها، ورب قائل أن الأندلس قامت كيانا غريبا عن محيطه فكانت جزيرة وسط بحر لم يكن ليحتمل دينا غير النصرانية أو شعبا غير الأوروبيين.

ورب قائل أيضا أن انفصال الأندلس عن بقية العالم الإسلامي حمل إليها بذور الفناء، وأن تلك المملكة ما كانت لتستمر قوية بعد أن ضعف العالم الإسلامي وتنهاشته الشعوبية[1] والمؤامرات وتكالب أعداؤه عليه من كل جانب؛ وربما زعم آخرون أن الأندلسيين أخفقوا لأنهم كانوا "مستعمرين"، وكان عليهم الجلاء عندما توفر للشمال النصراني العزم على طردهم، وأن الوجود الإسلامي في إسبانيا كان تجربة تمت وتقوت واستمرت وأنجزت، ثم هبطت وخارت قواها عندما تخلت عن الأسس التي قامت عليها كما صورتها نظرية الهرم الخلدوني[2]

---

[1]– **الشعوبية**: بعد انكسار محاولات التمرد المسلح لجأ بعض المستفدين من معاهدة السلم إلى التعريض بالعنصر العربي على الخصوص، ومما تجدر الإشارة إليه أن شعوبية أهل الأندلس لم تتجاوز حدود اللياقة حيث ظلت بعيدة عن التعريض بأمور الدين والمعتقد، بل كان وازعها هو الصراع السياسي من أجل الفوز بمنصب القرار والقيادة. ينظر: عبد الله حمادي، الموريسكيون ومحاكم التفتيش في الأندلس، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، تونس: الدار التونسية للنشر، د ط، 1989م. ص: 14. والحايك سيمون، ابن أمية أو ثورة الموريسكيين، د د ن، د ط، 1996م. ص:40.

[2]– **نظرية الهرم الخلدوني**: يقول ابن خلدون بهذا الصدد أن "للدولة حصة من الممالك والأوطان لا تزيد عليها، وأما امتدادها في الزمان فيحدده بأنه أطوار تمر بها في مختلف مراحلها"؛ ويؤكد في نظريته على أن الدولة تنتقل في أطوار مختلفة وحالات متجددة وعنده لا تعدو في الغالب خمسة نلخصها فيما يلي: الاستيلاء على الملك وانتزاعه من أيدي الدولة السابقة، فيكون صاحب الدولة في هذا الطور أسوة قومه في اكتساب المجد وجباية المال والمدافعة عن الحوزة المكتسبة، ثم طور البناء والتأسيس، فطور القوة وقمة الازدهار، فمرحلة التقهقر، ثم السقوط. ينظر: محمد بن عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، تح: إبراهيم الأبياري، بيروت: دار الكتب اللبناني، ط: 1، 1402هـ/1982م. ص: 159.

مهما كانت هي الأسباب التي ساهمت في سقوط الأندلس بسقوط آخر معقل إسلامي "غرناطة"، فما هو واضح ومؤكد أن غرناطة فقدت قوتها، نتيجة أسرة حاكمة تنازعتها الأهواء، حصون[1] وأبراج [2] دفاعية سقطت في يد النصارى توحدت صفوفهم وكلمتهم بعد زواج الملكين، الكاثوليكيين إيزابيلا وفردناندو، وحليف بالعدوة المغربية يموج في فتن وصراعات داخلية، لم يبق أمام المملكة الصامدة سوى أن تعد أيامها خاصة بعد أن وقع الزغل[3] معاهدة صلح مع الاسبان[4] مقابل امتيازات قدمت له.

استغل الملكان الكاثوليكيان وجود أبي عبد الله أسيرا لديهما لتحقيق مآربهما والاستيلاء على غرناطة، فاشترطا مجموعة من الشروط على أبي عبد الله مقابل إطلاق سراحه[5] هذه الشروط هي التي مكنتهما في حقيقة الأمر من تنفيذ سياستهما الهادفة للقضاء على نفوذ المسلمين في غرناطة، خاصة أنّ هذا الأمير كان ضعيف الإرادة وهمه الوحيد استرجاع عرشه.

---

[1] – **الحصون:** مفرده حصن، وهو ذلك البناء الذي لا يوصل إلى داخله إلا بقتال. وكان على نوعين احدهما عبارة عن بناء منفصل قائم بذاته كان يبني في الثغور الساحلية وطرق القوافل التجارية والمواقع الاستراتيجية الحساسة المشرفة على حدود الدولة. والنوع الآخر عبارة عن بناء متصل على هيئة برج في سور المدينة أو قلعة أو نحو ذلك. ينظر: رزق عاصم محمد، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، القاهرة: مكتبة مذبولي، ط:1، 2000م. ص:81. وهي من أكثر المنشآت التي اهتم بتشييدها الحكام على مر الحقب التاريخية التي تداولت فيها الأسر الحاكمة الحكم على الأندلس.

[2] – **الأبراج:** مفرده برج وهو عبارة عن بناء حري مستطيل أو مستدير الشكل يبرز عن الجدار أو الأسوار، ويحتوي البرج على مساقط ومراقب ومزاغل لرمي السهام، لذلك فانه يتحتم أن تزود أسوار الحصون والقلاع بعدد مناسب من الأبراج، ومن ثم فان حجمها عادة يكون صغيرا لتعدادها. ينظر: خالد عزب، الاستحكامات الحربية في المدن الإسلامية، مجلة المنهل، ع:519، أكتوبر- نوفمبر1994، مج:56. ص:231. وقد ساد استخدام الأبراج المربعة في التحصينات المعمارية حول المدن الأندلسية ويتألف البرج من نصفين, نصف أدنى مصمت, ونصف علوي. ينظر: سالم عبد العزيز، بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، بيروت: دار الغرب الإسلامي, ط:01، 1992م، قس: 2. ص:100.

[3] – حومد أسعد، المرجع السابق. ص :86.

[4] – بعد استلام الولد لابنه استمر الصراع بين الصغير وعمه الزغل حيث تم تقسيم غرناطة إلى قسمين جزء يأخذه العم والآخر ابن الأخ وذلك بعد تدخل الفقهاء لوضع حد لهذه الفتنة.

[5] – تمكنت القوى النصرانية من الاستيلاء على أزيد من ثلاثمائة حصن وهكذا سقطت سائر الأماكن والقلاع تمهيدا لمهاجمة ثغر مالقة من جهة الغرب.

بعد عودة أبي عبد الله توالت الخلافات بين أفراد الأسرة الحاكمة [1] مما سهل على القوى النصرانية الزحف واحتلال عدة حصون[2] إلى أن تمكنوا من تضييق الخناق على غرناطة[3]، وخلال المعارك التي جرت بين الطرفين تم أسر أبي عبد الله للمرة الثانية مما أدى به إلى تسليم المدينة مقابل اتفاقيتين إحداهما علنية وأخرى سرية. وبعد عقد هذه الاتفاقيات ركزت القوى النصرانية على المناطق الخاضعة لعمه الزغل[4]، نظرا لأهميتها فسقطت الواحدة تلوى الأخرى بعد دفاع مستميت من أهلها.

وبعد الاستيلاء على هذه المناطق[5] لم يبق أمام النصارى سوى توجيه الضربة النهائية إلى مدينة غرناطة، فأرسل الملكان إلى الصغير رسلا لتسليم المدينة، وتطبيق بنود الاتفاقية السرية التي عقدت بين الطرفين مقابل إطلاق سراحه، مما أثار غضب الزعماء والفقهاء، فقرروا القتال حتى النهاية دفاعا عن مملكتهم ودينهم وحضارتهم[6].

بذلك سقطت غرناطة آخر المعاقل الإسلامية في بلاد الأندلس بسبب تشتت كلمة المسلمين

---

[1]- استغلالا للخلافات التي كانت بين العم والابن سارعت الجيوش القشتالية في اتجاه الحصون المحيطة بغرناطة لاحتلالها فتمكنت من ذلك وأخرجت أهلها ثم شحنتها بالرجال والعتاد والمؤن والسلاح. بنظر: المقري، نفح الطيب، ج: 2، (المصدر السابق). ص ص: 515، 516.

[2]- تمثلت هذه المناطق في كل من مالقة، المنكب، بسطة، ووادي آش ، والقرية وألميا.

[3]-شكلت هذه المناطق اتصالا بين الأندلس وشمال إفريقيا، فمنها كان يأتي المدد دوما إلى المسلمين الأندلسيين، سواء على عهد المرابطين، أو الموحدين.

[4]- كانت الفرضية السياسية تفرض عليهم الاستيلاء على هذه المزارع لقطع أي اتصال مع الخارج وعزل غرناطة والمدن الداخلية في انتظار توجيه الضربة القاضية لها لإنهاء الوجود الإسلامي كليا في إسبانيا.

[5]- لم يكن دفاع سكان هذه المناطق مجديا لكون النصارى يفوقونهم عدة وعددا، دون أن تأتيهم مساعدة عن باقي المدن وخاصة غرناطة التي التزم صاحبها بعدم التدخل في شؤون المناطق التي لا تخضع له.

[6]- استمر الدفاع على مملكة غرناطة ما يناهز سبع أشهر، أظهر خلالها مسلمو غرناطة كل ضروب الشجاعة والصبر، إلا أن طول الحصار أخذ يؤثر على صمودهم فلم يجدوا بدا من الدخول في مفاوضات مع العدو من أجل الاستسلام. ينظر: مؤلف مجهول، نبذة العصر، (المصدر السابق). ص ص: 112،114.

وتفرق صفوفهم، وانشغالهم بالحروب ثم الاستعانة بالعدو الغادر على بعضهم البعض، فانتهى بذلك الوجود الإسلامي كحكم وليس كدين من أرض الأندلس، لتبدأ مرحلة جديدة هي مرحلة اضطهاد الكنيسة[1] الكاثوليكية.

فالنهاية المأسوية للأمة الإسلامية في الأندلس المفقودة قلما نجد لها نظيرا في التاريخ رغم أن أمما عديدة عرفت نهاية تراجيدية، فالدارس يجد نفسه وهو يتصفح يوميات المسلمين المتبقين في الأندلس بعد السقوط أمام مشهد مروع يصور المعاناة اليومية للمسلمين الداخلين تحت سلطان الاسبان عنوة.

فثنائية التحدي قائمة بين الطرفين الإسباني والمسلم، فالإسبان ممثلين في السلطة السياسية والكنيسة الكاثوليكية سعوا جاهدين إلى تنصير ما تبقى من المسلمين بشتى الوسائل والأساليب ضاربين عرض الحائط كل القيم والمبادئ الإنسانية، والمسلمين من جهتهم يدافعون باستماثة لا نظير لها من أجل المحافظة على دينهم وأرواحهم وسط بيئة معادية.

ومما لا شك فيه أن قضية مسلمي اسبانيا بصفة عامة أثارت وسوف تبقى تثير دوما، اهتماما متزايدا من قبل الباحثين والمؤرخين لدراسة الجوانب المؤلمة والمأسوية فيها، والتي مازالت لم تكتشف تماما حتى اليوم، وهذا على الرغم من كل البحوث التي أنجزت في هذا المجال.

[1] – **الكنيسة**: ترجمة عربية لكلمة عبرية تعني الدعوى إلى الانعقاد. وهي المؤسسة التي تجمع المؤمنين وهي تشمل الأحياء والأموات حول الله؛ وترد لفظة بأكثر من معنى، فهناك كنيسة بمعنى جماعة المؤمنين في منطقة جغرافية محددة. أمّا الكنيسة التي تعني مكان العبادة فتأتي من وجهة استعمال المكان، أي أنّ مكان اجتماع الكنيسة صار يسمى "كنيسة" لدلالة الكلمة الوظيفية. ينظر: بولوس وهبة، المرجع السابق، ص:417.

# الباب الأول

# المسيرة التاريخية للمحنة الأندلسية

# (896ـ هـ/ 1492ـ 1516)

## الفصل الأول: تسليم غرناطة وبداية المأساة

## (896ـ 904هـ/1492ـ 1501م)

## الفصل الثاني: اسبانيا على عهد كارلوس الخامس

## ( 921-963هـ/1516ـ 1558م)

## الفصل الثالث: مسلمو إسبانيا على عهد فيليب الثاني

## ( 932ـ 1007هـ/1527ـ 1598م)

## الفصل الرابع: مأساة الطرد التعسفي ـ التحليل والأبعاد ـ

## (997- 1018هـ/1598ـ 1609م)

# الفصل الأول

# تسليم غرناطة وبداية المأساة

# (896ـ 904هـ/1492ـ 1501م)

## المبحث الأول: تسليم غرناطة (896هـ/1492م)

1)ـ معاهدة تسليم غرناطة (896هـ/1492م)

2)ـ قراءة تحليلية في بنود المعاهدة

## المبحث الثاني: بوادر الغدر والخيانة (904هـ/1501م)

1)ـ رحيل عبد الله الصغير ومؤشرات نقض بنود المعاهدة

2)ـ التنصير بالطرق السلمية(901-906هـ/1496ـ1501م)

## المبحث الثالث: بداية التعايش المستحيل (896ـ 921هـ/1501ـ 1516م)

1)ـ لمحة تاريخية عن محاكم التحقيق

2)ـ محاكم التحقيق في اسبانيا

سعا الملكان الكاثوليكيان إيزابيلا وفرناندو إلى إلغاء أي رابط يربط المسلمين بعقيدتهم بفصلهم عن تراثهم الإسلامي، وبالتالي يصبح من السهولة تنصيرهم، وبالفعل فقد سادت فكرة خلال السنوات الأولى لاستيلاء الإسبان على غرناطة مفادها أن المسلمين سيدخلون في الديانة النصرانية أفواجا دون صعوبات تذكر، فنظمت فرقا تنصيرية لهذا الغرض.

لكن عمل هذه الفرق باء بالفشل، وتدخل فرانسيسكو خمينيس " Franciso Jimenes ximénies ) أو ( Cisneros)" (912- 922هـ/1507-1517م) فارضا التنصير القسري ومستعملا لأجل ذلك كل وسائل التعذيب والقمع، مستعينا بعمال محاكم التحقيق التي كانت بمثابة اليد الضاربة للسلطات الاسبانية ضد كل ما مثل الإسلام. والوقوف أمام هذه المحطة التاريخية سوف يؤكد لنا على أن مسلمي المنطقة لم يستسلموا قط لسياسة التنصير والإدماج التي قاما بها الملكان ومن ورائهما الكنيسة الكاثوليكية.

كانت تؤمن السلطات الاسبانية بزعامة الملكين بأن وحدة العقيدة هي الأساس الأول الذي يمكنها من توحيد اسبانيا المجزأة، كما أنها كانت تخشى بأس المسلمين، وترى مع الكنيسة أن احتفاظهم بدينهم يقوي أواصل الصلة بينهم وبين إخوانهم في العالم الإسلامي، ومن ثم فإن تنصير المسلمين أو إخراجهم هو الضمان الوحيد لسلامة اسبانيا ووحدتها.

فقد ارتبط المشكل الأندلسي بإسبانيا – خلال عهد الملكين – بمعطيات سياسية واقتصادية واجتماعية هي التي حددت مسار السياسة الاسبانية اتجاه المسلمين، فإسبانيا كانت تبحث بقوة عن وحدتها السياسية متخطية بذلك كل الحواجز التي كانت تعوق ذلك:

– الحواجز الجغرافية بفعل التفاعل الجهوي العميق الذي تولد عنه انعزال العديد من المناطق التي تمسكت بذاتيتها واستقلالها إلى يومنا هذا ( قطالونيا "Catalonia"– الباسك "Vascones"– الأندلس ).

– الحواجز الاقتصادية: التفاوت الطبقي بفعل وجود قوات ذات امتيازات كبيرة، وهي قوات تؤدي إلى التفكك أكثر ما تؤدي إلى الوحدة. ففي قشتالة – مثلا – كانت الأسرة المالكة دائما ضعيفة الإمكانيات بسبب وجود عدد من الإقطاعيين النبلاء هؤلاء ضيقوا الخناق على كل مشاريع السلطة في تعزيز الوحدة. لكن العرش القشتالي تمكن من التغلب على هذه الصعوبات بفضل تحمسه للنصرانية وانتصاره على المسلمين والاستيلاء على الأراضي التي كانت بحوزتهم.

في سبيل تنفيذ هذا المشروع – التنصير الجماعي والقسري لمسلمي اسبانيا –، وتحقيق الوحدة الدينية في إسبانيا أسس الملكان الكاثوليكيان مؤسسة خطيرة، سجلت أعمالها في صفحات التاريخ بالسواد والدم عرفت في المصادر والمراجع التاريخية بـ "محاكم التفتيش" أو "ديوان التحقيق". ومع هذا رفض مسلمو اسبانيا رفض رفضا قطعيا ونهائيا تبني دينا غير الدين الإسلامي والعيش إلا في ظل تعاليمه، مع أن السلطات الاسبانية برعاية الكنيسة والملكين حاولت تنصيرهم بالطرق السلمية تحت غطاء الإغراء بالمال تارة، وبالأرض تارة أخرى.

## – المبحث الأول: تسليم غرناطة (897هـ/1492م)

كانت الوحدة القشتالية أولا والإسبانية ثانيا، المحور الأساسي الذي دار حوله عمل الملكين الكاثوليكيين، إذ جعلا من القشتالة مركز استقطاب لعدد من المتطوعين المتحمسين للنصرانية

ظاهريا فقط، فالأطماع الاقتصادية هي التي كانت تحركهم، وذلك بالاستيلاء على الأراضي المنتزعة من يد المسلمين، فجلب العرش القشتالي بذلك الجنود والضباط أي أنه أصبح لديه الإدارة الفعالة التي تسير به نحو الوحدة.

وعندما تجسدت هذه الوضعية، رسم الملكان أهدافهما، من أهمها إخراج المسلمين والاستيلاء على أراضيهم وضربهم في آخر معقل من معاقلهم متجهة إلى الوحدة السياسية والدينية. وقد كانت لهذه الوحدة نتائج خطيرة على الصعيدين الداخلي والخارجي:

– على الصعيد الداخلي: تمكن الملكان الكاثوليكيان من تنظيم السلطة وإعادة النظام؛ فالنبلاء أزيل لهم ذلك الاعتبار الخاص بهم منذ الحرب "الأهلية" القشتالية، فدخلوا في صف الملكين الكاثوليكيين، وبهذا أضحت الأوامر العسكرية مرتبطة بالعرش، فلم يعد هنا إلا شرطة واحدة هي شرطة الملكين، كما أسست "مليشيات" قوية ومسلحة وكل إليها محاربة السلب والنهب وأعمال اللصوصية التي سادت المملكة آنذاك.

– على الصعيد الخارجي : اتجهت اسبانيا نحو سياسة خارجية جديدة تطمح من خلالها فرض سيطرتها وهيبتها.

**1)– معاهدة تسليم غرناطة 897هـ/1492م**: من الحقائق التاريخية المتعارف عليها أن سنة 897هـ/1492م كان تاريخ سقوط الأندلس في يد النصارى الإسبان، وبهذا التاريخ تبدأ مأساة المسلمين بضياعهم للفردوس بعد ثمانية قرون من العطاء الحضاري، مازالت بصماته واضحة في التاريخ الإنساني، لكن لابد من تصحيح بعض الأمور أو الوقوف عندها لنبين بأن هذا التاريخ يمثل سقوط

آخر معقل من معاقل الأندلس[1] –غرناطة– الإمارة[2]، وليس نهاية للدين الإسلامي الذي ظل معتنقوه يقاومون ويدافعون بشتى الطرق والوسائل من أجل المحافظة على مقوماته وشرائعه، وذلك منذ أول يوم من تسليم غرناطة للملكين الكاثوليكيين.

هذا وقد بدأت غرناطة تعد أيامها، فتتالت المصائب والمحن على البلاد والعباد على يد أعداء الإسلام، إلى أن اضطر آخر ملوك غرناطة عبد الله الصغير تسليم المدينة إلى الملكين الذين توجا ملوكا على كل الأندلس الضائعة خاصة وأن زواجهما[3] كان بمثابة الضربة القاضية لآخر معقل إسلامي بالأندلس، فبينما عرف العالم النصراني التكتل والوحدة نجد بالمقابل العالم الإسلامي يعيش حالة من الفوضى والتفكك والضياع.

---

[1]– بين بعض المؤرخين الأندلسيين أسبابا لسقوط الأندلس. فيذكر أبو يحي محمد بن عاصم (857هـ) قاضي الجماعة بغرناطة ومؤلف كتاب "جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى": أنه "من **استقرأ التواريخ المنصوصة، وأخبار الملوك المقصوصة، علم أن النصارى –دمرهم الله– لم يدركوا في المسلمين ثأرا، ولم يدحضوا أو: يرحضوا = يغسلوا [طعن أنفسهم عارا، ولم يحرقوا] أو: يخربوا [من الجزيرة منازل وديارا، ولم يستولوا عليها بلادا جامعة وأمصارا، إلا بعد تمكينهم لأسباب الخلاف واجتهادهم في وقوع الافتراق بين المسلمين والاختلاف، وتضريبهم بالمكر والخديعة بين ملوك الجزيرة، وتحريشهم بالكيد، والخلابة بين حماتها، في الفتن المبيرة**". وهكذا فقد "**اتسع الخرق على الراقع**"، كما أشار تلميذ ابن عاصم أبو عبد الله محمد بن الحداد. ينظر: المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض، ج: 1، (المصدر السابق). ص ص: 50، 51. فنلاحظ في هذا النص التاريخي إلمامة كاملة بكل الأسباب التي أدت لضياع الأندلس على يد الصليبيين الاسبان.

[2]– **الإمارة**: الإمارة لغة: هي كلمة مشتقة من الفعل أمر, يأمر, أمرا, وهي تعني صار أميرا. ينظر: وجدي محمد فريد، دائرة معارف القرن العشرين، بيروت: دار المعرفة، ط: 3، د س ط. ص:570. وتتفرع إمارة إلى أنواع من أهمها إمارة الاستيلاء، هذه الأخيرة تقع نتيجة انشقاق بعض الولايات، فيستأثر أمراء هذه الولايات بالسلطة ولكنهم يعترفون في الوقت نفسه بالخليفة خوفا من سخط العامة التي ترى فيها رمزا لوحدة الأمة الإسلامية ومجدها. ينظر: القاسمي ظافر، نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، لبنان: دار النفاش، ط: 5، 1405هـ/ 1985م. ص:526.

[3]–لقد عارض هنري الرابع مشروع زواج أخته إيزابيلا من فرناندو، خاصة بعد وجود عدة منافسين له كانوا قد تقدموا هم أيضا لطلب الزواج منها، إلا أن إيزابيلا ولبعد نظرها وبعد الإمعان في الأمر فضلت أخيرا الزواج من ابن عمها وفي سرية تامة، فتم عقد الزواج في بلد الوليد سنة 874هـ/1469م في حفل خاص لم يشهده سوى قليل من الأصدقاء. ينظر: عبد الله عنان، نهاية الأندلس، (المرجع السابق). ص : 182. ونظرا لمعارضة أخيها لهذا الزواج فقد تعهد فرناندو بالوفاء بمجموعة من الشروط أهمها احترام قوانين قشتالة وتقاليدها، وذلك بأن يجعل مقر إقامته فيها، وألا يغادرها دون إذنها، وألا يجري أي قرارات أو تغييرات في المملكة دون الاستشارة إيزابيلا، كما تعهد بالأخص أن يتابع الحرب ضد المسلمين ويعتبر هذا الشرط الأخير الشرط الأساسي لهذا الزواج. ينظر:

Louis Cardaillac, L'Espagne des Rois catholiques,( 0p. Cit. P: 22.

فبتاريخ يناير من سنة 896هـ/1492م، وعلى الساعة الثامنة مساءا، في بهو قمارش[1] بقصر الحمراء[2]، تمت المقابلة بين الملك أبي عبد الله الصغير والشخصيات البارزة في البلاط الملكي، فكان مساءا كئيبا على كافة الناس، بعدما أدى المسلمون آخر صلاة العشاء في مسجد غرناطة[3] الجامع[4] فقد أصبحت الأخبار مؤكدة أنه في الغد سيصير تسليم المدينة للملكين الكاثوليكيين[5]، وتسقط بذلك راية الإسلام عن آخر معقل للمسلمين بأرض الأندلس، ولم يكن أحد يصدق أن هذا يمكن أن يكون، فهي مصيبة تتضاءل بجانبها مصيبة الموت[6].

كانت القاعة[7] تغص بكبار الشخصيات، وفي ناحية كان يجلس التجار والأعيان، وفي

---

[1]– **بهو قمارش**: هو أعظم أبهاء الحمراء، من حيث سعته وارتفاع قبته الشاهقة. وهو عبارة عن مستطيل مساحته نحو ثمانية عشر مترا في أحد عشر، وله قبة خشبية فخمة يبلغ ارتفاعها ثلاثة وعشرون مترا، وقد حفرت زخارفها على شكل النجوم، وزخرفت الجدران على الطراز نفسه، وفي هذا البهو كان يعقد مجلس العرش؛ ويعلو بهو السفراء برج قمارش. ينظر: عنان، الآثار الأندلسية الباقية، (المرجع السابق). ص: 196.

[2]– **قصر الحمراء**: بناه الأمراء الناصريون خلال القرنيين الرابع والخامس عشر ميلاديين. يعتبر جزء أساسي من رؤية الغربيين والعرب على حد سواء للحضارة الأندلسية، فشهرته ومجده متأتيان في معظمهما من كونه القصر العربي الوحيد المتبقى من القرون الوسطى في حالة قريبة من رونقه الأصلي، مع تزييناته المذهلة. ويحاول مؤخرا بعض المؤرخي الفن بدراسات هامة تعيد النظر في تقييمها وتفسيرها. ينظر: غيشار بيير، المجتمع الأندلسي، الأسطورة والواقع، العالم العربي في البحث العلمي، ع: 19، 1988م. ص: 26.

[3]– **مسجد غرناطة**: يقع على مقربة من ميدان باب الرملة، وقد بنيت فوق موقع مسجد غرناطة الجامع الكاتدرائية أو الكنيسة العظمى، وفقا لسياسة الاسبان التي اقضت بأن يحول المساجد الجامعة في كل المدن الأندلسية إلى كنائس. ينظر: المرجع السابق، ص: 171.

[4]– **المسجد الجامع**: سن عمارته عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عندما كتب لولاته على الأمصار بأن يتخذ كلّ منهم للجماعة مسجدا، وللقبائل مساجد، فإذا كان يوم الجمعة انضمت القبائل إلى مسجد الجماعة لتأدية الصلاة الجامعة، فعرف كلّ واحد من هذه المساجد الجامعة بعد ذلك بالجامع، ينظر: رزق عاصم محمد، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، القاهرة: مكتبة مذبولي، ط:1، 2000م ، ص: 288.

[5]– لقد قدمت إيزابيلا وزوجها فرناندو بالسيطرة على مملكة غرناطة أهم انتصار على الإسلام، فاعتبر البابا إيزابيلا ملكته المفضلة وأطلق عليها وعلى زوجها عام 899هـ/1494م لقب " الملكين الكاثوليكيين".

[6]–كانت المدينة تعج بالشائعات والأقاويل منذ أول النهار، وسمعوا بأن الملك سوف يلتقي بأكابر أهل غرناطة، وقادة الجند والوزراء بعد صلاة العشاء في قصر الحمراء لاطلاعهم على قرار تسليم مدينة غرناطة. وظلت في نفوس الرعية جدوة من أمل، فمن يدري لعله يرفض التسليم والاستسلام في هذا الاجتماع، ولعله يطلب من المسلمين المقاومة والحرب ضد الغزاة الصليبيين.

[7]–كانت قاعة السفراء مجلسا للملوك العرب؛ وهي قاعة بعرض 37 قدما، وارتفاع 60 قدم. وتشغل الحيز الداخلي لبرج التجار. ولا زالت تحمل كل آثار ماضيها العريق، فالجدران الجميلة المليئة بالزخارف تحمل كل تصورات المسلمين عن الجمال. ينظر: عصام الدين عبد الرؤوف الفقي، تاريخ المغرب والاندلس، القاهرة : مكتبة نهضة الشرق د ط ، د س ط . ص: 72.

الناحية الأخرى جلس الفقهاء[1] والعلماء والأدباء، [2] وتوسط القاعة في مواجهة الملك الوزراء وقادة الجند، وكان قد خيم على الحضور الصمت الرهيب، حينها قام أبو القاسم[3] دون استئذان لينقد الموقف، فشرح للحضور الظروف التي أدت إلى توقيع المعاهدة[4]، وكيف ناقشوا بنودها بندا بندا قبل إقرارها في هذه القاعة، وكيف أنه قد بذل غاية جهده مع زميله ابن كماشة[5] في محاولة إقناع مفاوضين أذكياء وأقوياء من رجال الملكين الكاثوليكيين[6]، ليستخلصوا هذه الحقوق لشعب غرناطة.

كما أعلمهم أنه بموجب هذه المعاهدة سيتم تسليم المدينة غدا للملكين، ويجب أن يتعاون الجميع من أجل أن يمر هذا اليوم بسلام، حرصا على أرواح المسلمين وأموالهم وأعراضهم؛ كان هذا هو المغزى من الاجتماع. ولما ارتفعت الضجة في القاعة تدخل أبو القاسم من جديد وقال: "... **نحن لم نجتمع هذه الليلة لنناقش المعاهدة فهي أمر واقع، وإنما اجتمعنا لمنع المزيد من إراقة الدماء... امنعوا سفهاءكم من التصدي لجند الملك في الغد أو تسوء عاقبة الجميع...**"[7].

---

[1]- من بين أشهر الفقهاء الذين عاصروا الفترة نذكر القاضي أبو بكر محمد بن عاصم القيسي الغرناطي، ولد بغرناطة سنة 760هـ/1357م، وتوفي بها سنة 839هـ/ 1426م. برز في النثر والنظم، ووضع عدة قصائد وأراجيز تناول فيها بعض مسائل من علم الأصول.

[2]- من بين أشهر الأدباء الذين عايشوا الحدث التاريخي نذكر الوزير والكاتب الشاعر أبي عبد الله محمد بن عبد الله العربي المعروف بـ "الشريف العقيلي"؛ وصف بأنّه "شاعر العصر، ومالك زمام النظم والنثر، وبما أنّه إمام هذه الصناعة.

[3]- **أبو القاسم عبد الملك:** كان من أبرز الشخصيات السياسية والعسكرية في البلاط الملكي؛ كان سياسيا عمليا يؤمن إيمانا قويا بسياسة الخضوع والاستسلام.

[4]- تم توقيع على هذه المعاهدة بعد عدة أسابيع من المفاوضات بين جانب قشتالي قوي متشدد، وجانب ضعيف متهالك، يسلم لخصمه دون مناقشة، وكان تاريخ التوقيع من الجانبين هو يوم21 محرم من سنة 897هـ الموافق لـ 25 نوفمبر 1491م .

[5]- **ابن كماشة:** هو يوسف بن كماشة؛ كان وزيرا في البلاط الملكي الغرناطي، لعب دورا بارزا في ساحة الأحداث، سواء أثناء المفاوضات، أو عند تسليم المدينة، وحتى بعد احتلال الإسبان لها.

[6]- ندب الملكان الكاثوليكيان للتفاوض مع ممثلي السلطان أبي عبد الله الصغير أمين سر الملك فرناندو دي ثافرا، وقائده جون زالقو دي كردوبا، هذا الأخير كان خبيرا بالشؤون الإسلامية، عارفا باللغة العربية.

[7]- أحمد رائف، وتذكروا من الأندلس الابادة، القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ط: 1، 1407هـ/1987م. ص: 153.

حينها ثارت ثائرة موسى ابن أبي غسان[1] فقام مضطربا من مجلسه وتدخل قائلا[2]: "..**تعلموا أنني الوحيد الذي رفض هذه المعاهدة، وقد قلت لكم من قبل أني أفضل أن أحض مع الذين استشهدوا عند أسوار غرناطة**[*]..."[3]. ثم أضاف قائلا قبل أن ينسحب من المجلس[4]:

"... **وإني أود أن أتقدم إليكم بسؤال: إن كان الإسلام قد ذهب من نفوسكم وأنتم قادة الشعب، ألا تقاتلون عن بلدكم ونساؤكم وأموالكم؟ وإن كنتم تظنون أن النصارى سوف يحفظون عهدكم فأنتم واهمون، سوف يخدعونكم ويقضون عليكم**[*]**، إن الموت أقل ما نخشاه منهم**[**]**، فما ينتظرنا هو نهب المدن وتدميرها، وتدنيس المساجد، وهتك الأعراض، وما سوف نلقاه منهم هو الظلم الفادح، والتعصب الوحشي، والتعذيب؛ وسوف يأتي عليكم يوم تبحثون فيه عن الموت الشريف فلا تجدونه إلا في سجون النصارى، والأنطاع والمحارق، ويجب علينا أن نعي درس التاريخ أيها المسلمين سوف تموتون كالعبيد واحدا...**"[5].

---

[1]– **موسى بن أبي غسان:** كان من أهم الشخصيات العسكرية في البلاط الملكي، أثناء الأحداث المذكورة أعلاه لم يكن قد تجاوز الأربعين سنة. وهو سليل احدى الأسر العريقة التي تتصل ببيت الملك؛ كان كريما، شجاعا، سيدا في قومه وعشيرته، يحبه الناس؛ كان مقيما للصلاة، حريصا عليها في الجماعة، يقرأ القرآن كلّ ليلة، ويختمه مرة كلّ شهر؛ كما كان له في الأسبوع يوم يقضيه بين الكتب، فلا يخرج فيه لأحد، كما كان له يوم يستقبل فيه الأصدقاء وأصحاب الحاجة. ينظر: واشنطون، المرجع السابق. ص ص: 404، 405.

[2]– أحمد رائف، المرجع السابق. ص: 154.

[3]– **استشهاد موسى بن أبي غسان:** تذكر الروايات التاريخية أنه ترك المدينة وخرج من باب البيرة، فالتقى مجموعة من فرسان قشتالة على ضفة نهر شنيل، فتقاتل معهم، إلى أن استشهد. بنظر : البشتاوي، الأندلسيون المواركة، (المرجع السابق). ص: 121.

[4]– ستانلي لين بول، المرجع السابق. صفحة:153.

[*]– من خلال كلام ابن أبي الغسان نلاحظ نظرته الثاقبة للأمور، وفراسته وحكمته، هاتين أخيرتين مكنته من تحليل الأوضاع الراهنة والوصول إلى مجموعة الاستنتاجات التي كانت بالفعل هي النتيجة المأسوية التي آل إليها مسلمو الأندلس بعد السقوط بمرحلة قصيرة.

[**]– نظرا لموقفه هذا أصر الملك فرناندو على عزله عن قيادة الجند، وقد استجاب أبو عبد الله الصغير لهذا الأمر؛ وكان الجيش القشتالي قد لقي الإرهاق والخسائر من هجمات موسى وجنده المباغتة، فكان يخرج إليهم في كتيبة، فينال منهم ثم يعود وتغلق البوابات؛ وكان يحرص على نقل الجرحى من جنده إلى المدينة، ويظل يزورهم في بيوتهم حتى يشفوا، أو يكون على رأس الجنازة إن رزق أحدهم الشهادة.

[5]– أحمد رائف، المرجع السابق. ص: 154.

بعد هذه الوقفة الشجاعة والجريئة من أبي الغسان وقف أبو عبد الله الصغير معلقا على كلامه:"...**اذهبوا فانظروا مصالحكم، وإياكم والتعرض غدا لنقمة فرناندو. وأنتم تعلمون جميعا أحوالي كلها، ولقد حاربت وقاتلت**[*] **ولكن لم تعد هناك فائدة من هذا كله، فلقد كتب الله على أن أكون أشقى الناس، فعلى يدي وباسمي سينزل لواء الإسلام عن هذه البقاع...**"[1].

عندها غادر الحضور القاعة، وعندما فرغ التفت الملك إلى الوزيرين وقال لهما عاتبا لائما: "**أنتما أشرتما إلي بعقد هذا الاجتماع، لم نجن منه غير السخرية والشماتة والاحتقار**". وعندما استمعت والدة الملك عائشة[2] إلى حواره مع الوزير، وشهدت جانبا من الاجتماع خلف الستار، توجهت إليه قائلة:"...**قد أخذت القليل ثمنا لملك المسلمين...**".

وبهذا ظلت مملكة غرناطة لسنوات تصارع الموت، صامدة ضد هجمات النصارى، لكن بمجرد اختفاء عوامل الصمود بدأت مؤشرات السقوط تظهر في الأفق، فالبيت المالك أصبح منقسما على نفسه ومملكة قشتالة وأراغون توحدتا وعقدتا العزم على اقتحام آخر معقل إسلامي بالمنطقة، والمغرب لم يعد قادرا على تقديم ما كان يقدمه من مساعدات بسبب أزمته السياسية والاقتصادية التي كان يمر بها آنذاك، وبذلك بدأت مرحلة جديدة تختلف جذريا عن المرحلة السابقة .

---

[*] – من بين الحروب التي قادها ابن الصغير أسوة بعمه الزغل تلك التي خرجها على رأس جيوشه لغزو الأراضي النصرانية، فاجتاح بعض الحصون والقرى، وكلل ببعض النجاح بعدما استطاع استرجاع أندرش، وتحرير حصن همدان وحصن شلوبانية على البحر وحاول تحرير المنكب إلا أنه في النهاية مني بالفشل وتم أسره.

[1] – أحمد رائف، المرجع السابق. ص: 154.

[2] – **الملكة عائشة**: بنت السلطان الأيسر. ينظر: ابن الخطيب، أخبار العصر، ( المصدر السابق). ص: 16. لقبت هذه المرأة بـ "الحرة"؛ كانت امرأة قوية الشكيمة، جميلة القسمات، في الثالثة والخمسين من عمرها، رفضت جبن وخضوع ابنها وقالت فيه مقولتها الشهيرة: "**ايك بكاء النساء على ملك لم تستطع الحفاظ عليه مثل الرجال**".

**2)- ملخص نص المعاهدة:** اشتملت معاهدة الاستسلام على 47 مادة[1] أولها تحدد ضرورة تسليم غرناطة قبل تاريخ 896هـ/1492/01/25م للملكين الكاثوليكيين. أما المواد الثالثة إلى الخامسة فمن خلالها توضح أدب دخول النصارى إلى غرناطة عند التسليم، وإرجاع ابن السلطان أبي عبد الله، وضمان احترام أبي عبد الله على دينه وعاداته، وعدم مصادرة أسلحة المسلمين باستثناء الذخيرة.

في حين نصت المادتان السادسة والسابعة فتحددا تسهيلات لمن يريد الهجرة من المسلمين وتضمن المواد الثامنة إلى الحادية عشر عدم إرغام المسلمين وأعقابهم على وضع شارات خاصة، وألا تؤخذ منهم إتاوات لمدة ثلاث سنوات، وألا يستخدموا دون رغبتهم أو دون أجر.

تضمن المواد الثانية عشر إلى السابعة عشر بعدم السماح للنصارى بدخول لمساجد تحت طائلة العقاب، وألا يولى اليهود على المسلمين، وأن يعامل جميع المسلمين معاملة شريفة، وألا يجبر المسلمون على استضافة النصارى وألا يدخل النصارى لبيوت المسلمين قسرا وإذا دخلوا عوقبوا، وأن يقضي القضاة المسلمون في القضايا التي تجري بين المسلمين حسب الشريعة الإسلامية.

حددت المواد الثامنة عشر إلى الحادية والعشرون للنظر في تركات المسلمين حسب الشرع الإسلامي، وضمان أوقاف المساجد بأن تظل بيد الفقهاء وألا تصادر قط، وأن تشمل هذه المعاهدة مدينة غرناطة وكل المدن والقرى التابعة لها، وألا يعاقب أحد بذنب غيره.

---

[1]- تضاربت المصادر والمراجع حول الرقم النهائي لعدد بنود المعاهدة، فمن المصادر نذكر المقري في تأليفه نفح الطيب، الجزء الرابع من الصفحة 525 وما يليها أورد عدد بنودها سبعة وستين بندا؛ أما من المراجع فنذكر عنان في مرجعه: نهاية الأندلس (المرجع السابق)، من صفحة رقم: 22 إلى غاية صفحة رقم:32. أيضا عبد الله عنان، المسلمون المنتصرون، (المرجع السابق). ص ص: 22-32، وهنري تشارلس، العرب والمسلمون في الأندلس بعد سقوط غرناطة، تر : الكرمي حسن سعيد، بيروت : دار لبنان للطباعة والنشر، ط: 1، 1988. ص ص: 32-38. المرجعين الأولين أوردا 56 بندا نقلا عن المصادر الاسبانية في حين أورد المرجع الأخير 48 بند فقط.

فيما ضمنت المواد 22 إلى 24 عدم متابعة من حارب النصارى قبل الاستسلام، وألا ترجع الغنائم التي بيد المسلمين، ويحرر جميع الأسرى المسلمين الغرناطيين الذين بيد النصارى. أمّا المادة 25 فتؤكد بألا يدفع المسلمون إتاوات أكثر مما كانوا يدفعونها لسلاطينهم.

في حين حددت المواد 26 إلى 29 تسهيلات الهجرة إلى المغرب أو العودة في ظرف ثلاث سنوات لمن يود ذلك، وتسهيل تصرف المهاجرين في أموالهم وتجارهم. وتؤكد المواد 30 إلى 33 بألا يرغم أي مسلم على اعتناق النصرانية حتى ولو كان من أصل نصراني، وألا يستجاب لمن يريد اعتناق النصرانية من المسلمين إلا بعد وعظه من طرف الفقهاء .

كما أكدت المادة 34 على عدم إرغام أحد على إرجاع الغنائم السابقة والمادة 35 ألا يساءل أحد عن إهانات للنصارى سابقة. وحددت المادتان 36 و37 على دفع الضرائب الخاصة الأملاك بعد ثلاث سنوات حسب المعاهدة، بما في ذلك أملاك الفرسان والقادة المسلمين.

أما المادة 38 فشملت المعاهدة اليهود كذلك، وأن يطبق عليهم ما يطبق على المسلمين. في حين أكدت المادة 39 على الحفاظ على امتيازات القواد والحكام المسلمين. فيما ضمنت المادة 40 ألا يطلب أحد من ذرية الملكين الكاثوليكيين أبا عبد الله بأي شيء مضى.

في حين صرحت المادة 41 على ألا يولي أبو عبد الله وأتباعه أحد من أتباع الزغل. ونظمت المادة 42 مجلسا قضائيا مكونا من مسلم ونصراني في النظر في الخصومات التي تقع بين نصراني ومسلم. فيما حددت المواد 43 إلى 46 ضمان حقوق أبي عبد الله وتسريح أسرى المسلمين وتسهيل فتح الموانئ لبواخر المسلمين.

كما تم الاتفاق سريا بين الطرفين على مجموعة من الامتيازات تقدمها السلطات الاسبانية إلى الملك المخلوع مقابل تسليمه للمدينة فضمت البنود التالية:

– سوف يعطي الملكان لأبي عبد الله وأولاده وورثته حق الملكية الأبدية فيما يملكانه من محلات وضياع في برجة "Berja"[1]، ومدينة دلاية"، ومرشانة "Marcena"، ولوشة "Loja"[2]، وأندرش[3]، وأجيجر، وأرجبة، ومدن أخرى مجاورة يحددها أبو عبد الله ويوافق عليها الملكان الكاثوليكيان، وكل ما يخصها من ضريبة وريع، وما لها من دور وأماكن وقلاع وأبراج، وأن يتولى القضاء في النواحي المذكورة باعتباره سيدها.

– يعطي جلالتهما للملك المذكور، منجاة قدرها ثلاثون ألف جنيه قشتالي من الذهب عقب تسليم الحمراء وسائر القلاع الأخرى في الموعد.

– يهب جلالتهما للملك المذكور، كل الأراضي والطواحين والحدائق والمزارع التي كان يملكها أيام أبيه السلطان أبي الحسن، سواء في غرناطة أو جبال البشرات "Sierra Alpujaras"[4].

– إذا شاء الملك، وقوادهم وخدمهم وأهلهم صغارا وكبارا العبور إلى المغرب، فإن جلالتيهما يجهزان الآن وفي أي وقت سفينتين لعبور الأشخاص المذكورين متى شاءوا دون أي قيد أو غرم.

---

[1]–**برجة**: يحدها غربا عذره، وشرقا طاعة دلاية، وجنوبا البحر المتوسط، وشمالا جبال غادور، وقسم من طاعة أندرش؛ وبرجة كلها أراضي خصبة تنتج الحنطة والشعير والقمح؛ كما تضم مراعي واسعة للمواشي، وبها تربى دودة القز.

[2]– **لوشار**: يحدها غربا أندرش وشمالا جبل الثلج، وجنوبا جبل غدور، وشرقا طاعة مرشانه. تضم سبعة عشر قرية. أرضها خصبة بسبب النهر الذي يمر بها، وهو نهر أندرش ونهر آخر ينحدر من جبل أوباش. المرعي فيها كثيرة والأشجار مثمرة.

[3]– **أندرش**: تقع بين جبلين كبيرين، يحدها غربا أجيجر وشمالا جبل الثلج (شيلر)، وجنوبا طاعة برجة والية، وشرقا طاعة لوشر، وقسم من جبل غادور. يمر في وسطها نهر ينبع من جبل شلير؛ وهي من أخصب الطاعات في منطقة البشرات، القمح فيها كثير، والمراعي خصبة، والمناخ جميل، بنابيع المياه تسقي البساتين التي تغطي أنواعا كثيرة من الثمار اللذيذة الطعم.

[4]– **جبال البشرات**: في بعض المصادر والمراجع نجدها تكتب بالألف بعد الشين "البشارات". وسوف نخصص جزئية من الفصل الثاني/ الباب الخامس

– يحق للملك المذكور متى أراد أن يرسل من يراه من خدمه أو قادته إلى بلاد المغرب أو غيرها من إيراداته دون أي قيد أو غرم.

– يحق للملك المذكور متى خرج من غرناطة أن يسكن أو يقيم متى شاء في الأراضي التي منحت له، وأن يخرج هو ومن معه بخيلهم وماشيتهم متقلدين أسلحتهم ، وكذلك نساءهم وخدمهم وألا يأخذ منهم شيء سوى المدافع.

– ألا يفرض عليهم الآن أو في أي وقت وضع علامة على ثيابهم، وأن يتمتعوا بسائر الامتيازات المقررة في عهد تسليم غرناطة.

مقابل هذه الامتيازات تنازل الملك المخلوع على مملكته وسلمها في يد من سيسومها سوء العذاب، وبالتالي وجدت مملكتا أراغون وقشتالة مخرجا سياسيا واقتصاديا لكل المشاكل التي كانت تتخبط فيهما[1].

**3)– قراءة تحليلية في بنود المعاهدة:** إن دراسة بنود معاهدة تسليم غرناطة تثير تساؤلا مهما لأنها تبدو من وجهة النظر الغرناطية، على الأقل، بمثابة وثيقة الحكم الذاتي، وواحدة من أكمل المعاهدات التي يمكن التوصل إليها في ظروف الحرب؛ فحقوق أهل غرناطة مضمونة وواضحة، وتتضمن حالات لا ترد عادة في معاهدات مماثلة.

[1]– مرت مملكتا قشتالة وآراغون بفترات عصيبة اتسمت بالنزاعات والحروب الأهلية والتنافس على العرش، وإن كانت هذه الفترات لا تخلو من وجود ملوك كبار استمروا في تنفيذ حربهم الصليبية بمهاجمة الأراضي والحصون الإسلامية في الجنوب، وقد شكل زواج فردناندو لآراغون من ابنة عمه إيزابيلا القشتالية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر وبالضبط سنة 874هـ/1469م، أبرز العوامل لتجاوز تلك الخلافات وتحقيق الوحدة الاسبانية.

**ماذا إذن في هذه المعاهدة؟** فيها ضمان سلامة أرواح وممتلكات سكان مملكة غرناطة، والسماح لمن أراد مغادرة غرناطة إلى العدوة، وفك أسر جميع من وقع بيد القشتاليين أثناء الحرب. ولكي نفهم الأبعاد الحقيقة وراء تدوين بنود هذه المعاهدة والموافقة عليها من طرف الإسبان لا بد لنا من قراءة استقرائية للظاهرة التاريخية التي كانت وراء صناعة هذه المعاهدة

**أ)– الأبعاد التاريخية للمعاهدة:** المتمعن في بنود المعاهدة يلاحظ أن الملكين كانا يرغبان في إنهاء الحرب التي أنهكت خزينة المملكة وتسليم علما منهما أن كثيرا من الضمانات التي تعهدا بها لن تجد طريقها إلى التنفيذ، فلم تكن بنود المعاهدة سوى ستارا للغدر والخيانة.

إذ تبدو هذه المعاهدة وثيقة غرناطية صرفة[1]، وكأن المفاوضين القشتاليين قالوا لنظرائهم الغرناطيين[2]: "**أكتبوا في المعاهدة ما تشاؤون ونحن نضمن موافقة إيزابيلا وفرناندو**". إذن لماذا كل هذه التنازلات من الطرف الاسباني بالرغم من أنه كان الأقوى؟ والإجابة على هذا السؤال ترتكز على أمرين:

---

[1]– لعب عاملان أساسيان دورهما في تغيير استراتيجية الملكين إيزابيلا وفرناندو اتجاه غرناطة خلال المرحلة الأخيرة من الحرب: الأول توجيه غرناطة الرسل إلى الدول العربية والإسلامية القوية لمساعدتها، وارتفاع الأصوات في العالم الإسلامي للتدخل لوقف الهجوم القشتالي. والثاني: تسبب استمرار الحرب مع غرناطة في إعاقة جهد قشتالة دخول السياق الحاسم مع البرتغال للوصول إلى مصادر التوابل في الهند حيث الثروة الهائلة التي كانت تنتظر أول الواصلين إليها.

[2]– ناب على الطرف الغرناطي الوزيران ابن كماشة وأبو القاسم، وقد عرفا بجشعهما المادي، إذ كانا يبحثان عن مصالح مادية خاصة لهما، وقد كشفا عن مدى وضاعتهما النفسية من خلال تلك الرسائل التي كانا يرسلاها وما يؤكد خيانتهما أنهما كان يتقضيان مرتبات من قبل الملكين في الوقت الذي لا يشتد فيه الحصار على أبناء دينهم . وأيضا يتبين ذلك من خلال الرد الذي خاطب به الوزير أبي القاسم المليح الملكين فجاء نصه كما يلي: " **أقسم بالله وبالشريعة أنني إذا استطعت أن أحمل غرناطة على كتفي لحملتها إلى أصحاب الجلالة، وهذا برغبتي وليقضي الله علي إذا كنت أكذب كما أتمنى من الله أن ينتهي هذا الأمر على خير من هؤلاء القوم المجانين**". ينظر: فرنثيسكو ماركيث من وجهة نظر أخرى، مر وتق: جمال عبد الرحمن، د ب ن: المجلس القومي للترجمة، د ط، 2005م. ص: 32.

– أن الحرب التي قامت بين الطرفين كان المنتصر فيها الإسبان[1].

– أن حاكم غرناطة وممثل العرش الأندلسي وقع أسيرا في يد الإسبان[3] ثم فيما بعد ابنه الذي كان رهينة عند الجيش القشتالي.

من خلال هذين السببين نجد أن موقف السلطات الاسبانية كان الأقوى، إذن ما هي الدوافع التي جعلت الملكين الكاثوليكيين يوافقان على بنود المعاهدة التي تخدم الطرف الغرناطي في ظروفه الراهنة أكثر من الطرف الاسباني؟ والإجابة على هذا التساؤل يكون كالآتي:

إن السلطات الاسبانية الممثلة في شخص الملكين كانت على إدراك تام بأن الوفاء بتنفيذ بنود الاتفاقية كان مستحيلا في ظل الأهداف التي رسمتها السلطة السياسية والدينية، وبالتالي فهذه البنود كانت مجرد حبر على الورق فقط.

أما السبب الثاني فيتمثل في الحالة التي آل إليها الجيش القتشالي بعد تلك المواجهات التي تكبد من خلالها خسائر مادية وبشرية، وبالتالي الدخول في حرب مع غرناطة ليس بالأمر الذكي ما دام أنه يمكن استلامها في ظروف سلمية.

في حين يكمن السبب الثالث في الخسائر المادية التي تكبدتها خزينة العرش القشتالي في الحرب التي دارت رحاها بين المسلمين والنصارى الإسبان بدليل الرسالة التي بعث بها الملكان إلى

---

[1]– في الوقت الذي جلس فيه فرناندو وإيزابيلا على عرش اسبانيا الموحدة بدأ الخلاف يدب في صفوف البيت الناصري الحاكم وفي هذه الآونة التي أخذت فيها الفرقة تمزق أوصال المملكة الإسلامية، بدأت القوى النصرانية تنفذ مخططاتها لتطبيقها، فكانت البداية بإهانة غرناطة وإجبارها على دفع ضرائب. ينظر: دنون عبد الواحد طه، دراسات أندلسية، (المرجع السابق). ص ص: 83،84. فرفضت ذلك مما أدى بالملك فرناندو إلى مهاجمة أراضيها والاستيلاء على الحامة، كما تمكن القشتاليون من الزحف على مدينة لوشة ومحاصرتها، إلاّ أنهم لم يتمكنوا منها بسبب وجود حامية عسكرية كبدتهم خسائر فادحة بعدما آل الحكم إلى أبي عبد الله ، قرر هذا الأخير مواجهة زحف النصارى، ولكن سرعان ما انهزم فكانت من نتائج الهزيمة أسر العديد من رجاله وكان هو ضمن الأسرى. ينظر: حومد أسعد، المرجع السابق. ص :86.

الكاثوليكيان إلى البابا يسوقا من خلالها الأهداف "النبيلة" التي كانت وراء شن حرب على غرناطة، فجاء نصها مترجما كما يلي[1]:

**"...نحن لسنا ولم نكن مدفوعين للقيام بهذه الحرب رغبة في الحصول على دخل أكبر أو طلبا لجمع الثروة. فلو أننا أردنا أن نوسع سلطاننا ونزيد من وارداتنا بمخاطر ونفقات أقل من ذلك بكثير لكان بوسعنا أن نفعل ذلك. ولكن الرغبة التي تدفعنا لخدمة الله وحماستنا للعقيدة الكاثوليكية المقدسة قد حملتنا على تنحية مصالحنا الخاصة وتجاهل المصاعب والمخاطر المستمرة التي جرتنا إليها هذه الغاية. وهكذا يدفعنا الأمل إلى نشر العقيدة الكاثوليكية المقدسة وتخليص العالم المسيحي من هذا الخطر العنيد الذي يقبع عند أبوابنا، إذا لم يتم اقتلاع هؤلاء الكفار من مملكة غرناطة وطردهم من اسبانيا..."**

من خلال نص الرسالة نستنتج مجموعة من المعطيات المهمة:

– يتبين من خلال هذه العبارة "...**من هذا الخطر العنيد الذي يقبع عند أبوابنا، إذا لم يتم اقتلاع هؤلاء الكفار من مملكة غرناطة..**[2]" أن فرناندو وإيزابيلا لم يكن لديهما أية نية للالتزام بشروط أية معاهدة قد يوقعاها مع أهل غرناطة.

---

[1]– استغل الملكان الكاثوليكيان وجود أبي عبد الله أسيرا لديهما لتحقيق مآربهما والاستيلاء على غرناطة، فاشترطا مجموعة من الشروط على أبي عبد الله مقابل إطلاق سراحه هذه الشروط هي التي مكنتهما في حقيقة الأمر من تنفيذ سياستهما الهادفة إلى القضاء على نفوذ المسلمين في غرناطة، خاصة أن هذا الأمير كان ضعيف الإرادة وهمه الوحيد العودة إلى عرشه. بعد عودة أبي عبد الله توالت الخلافات بين أفراد الأسرة الحاكمة مما سهل على القوى النصرانية الزحف واحتلال عدة حصون إلى أن تمكنوا من تضييق الخناق على غرناطة، وخلال المعارك التي جرت بين الطرفين تم أسر أبي عبد الله للمرة الثانية مما أدى به إلى تسليم المدينة مقابل اتفاقيتين إحداهما علنية وأخرى سرية.

[2]_ José Goni Gaztambide, La sante sede y la reconquista de Grenada, Hispania sacra, Vol : 4, 1951. PP: 28- 32.

– عمدا الملكان الكاثوليكيان على إخفاء نواياهم اتجاه مسلمي غرناطة على وجه الخصوص ومسلمي الأندلس عموما، فمن خلال بنود المعاهدة التي أمضاها مع الملك المخلوع أبي عبد الله نجد فيها احترام للدين الإسلامي ومقدساته.

إذ نصت على ضمان حرية ممارسة الشعائر الدينية عدم إرغام أي مسلم على اعتناق النصرانية حتى ولو كان من أصل نصراني، وألا يستجاب لمن يريد اعتناق النصرانية من المسلمين إلا بعد وعظه من طرف الفقهاء حسب الشريعة الإسلامية والأمور الواردة في الرسالة تثبت عكس ذلك تماما بدليل هذه العبارة:"... **يدفعنا الأمل إلى نشر العقيدة الكاثوليكية المقدسة وتخليص العالم المسيحي...**"[1]. وبالتالي يمكننا القول بأنه تم استغلال غباء الملك الغرناطي وحاشيته، لأنه لا يعقل أن يوافقا الملكان ورجال الكنيسة على بنود معاهدة كانت كلها تسير باتجاه معاكس لمخططاتهم.

بهذا يعتبر سقوط غرناطة حدا فاصلا بين حضارتين في اسبانيا: حضارة عربية إسلامية ظلت تصارع الموت لسنوات، وحضارة غربية نصرانية تكتسح ما تعتبره دخيلا وتقذف به خارج اسبانيا؛ لذلك يحتل سقوط غرناطة مكانة خاصة لدى الإسبان والمسلمين على حد سواء، فالإسبان اعتبروه أخر حاجز في سبيل توطيد سلطتهم وتوحيد بلادهم، إذ مباشرة بعد هذا السقوط سيقوم الملكان بعدة انجازات "وحدوية "؛ أما المسلمون فاعتبروه بداية محنة لن تنته إلا بالقضاء عليهم أو تنصيرهم.

## – المبحث الثاني: بوادر الغدر والخيانة (904هـ/1501م)

عندما نلقي نظرة متفحصة على مجريات الأحداث في المنطقة بعد سقوط غرناطة آخر معقل

1-José Goni Gaztambide, Ibid. P: 29.

للإسلام سنة 897هـ/1492م، نجد تلك الصبغة الدينية الظاهرة لدى المملكة الجديدة، فالقران السياسي بين الملكة إيزابيلا والملك فرناندو دفع بها إلى توحيد شطري المملكة النصرانية، وإظهارها بصبغة دينية؛ بذلك نجد أن الملكين قد أخذا من البابا الناطق باسم الكنيسة الكاثوليكية صكا على بياض لتنفيذ سياستهما الغاشمة، لتكون تتويجا لانتصار النصرانية على الإسلام، فحملا على عاتقهما تطهير الدين والوطن من آثار الإسلام.

1)- **رحيل عبد الله الصغير ومؤشرات نقض بنود المعاهدة:** لما أذنت ساعة رحيل السلطان أبي عبد الله، فاجتاح طرقات غرناطة في موكبه ذليلا، وهو يشيع من العامة بالعويل والبكاء وكأنما ما يحدث كان مشهدا أسطوريا، دولة تخرج من التاريخ مع موقع حوافر الملك المخلوع وهو يخرج من غرناطة للأبد، وأخرى تصعد إليه مع خطوات إلى أعلى البرج ليثبت الصليب[1] على أعلى برج قصر الحمراء، حيث تتربع "الكتلكة"[2] وبجواره رفع علم قشتالة، وعلم القديس يعقوب[3]

---

[1]- **الصليب**: هو الرمز الأساسي في النصرانية، لا يل هو أكثر بكثير من رمز: إنّه علامة التعريف فيها. وصار الصليب عند النصارى هو رمز الحب الأقصى الذي يفعله النصراني تشبها بالمسيح في اعتقادهم، لذا أصبحت علامة الصليب، علامة نصرانية بحسب ما جاء في رسالة بولوس. ودخل استعمال علامة الصليب مع البسملة بين النصارى منذ اليوم الأول، إذ آمن النصارى أن العلامة قدّست بسبب صلب يسوع وتغيّرت إلى علامة مجد وبركة بعد أن كانت علامة شرّ ولعنة وكان للصليب أربع أذرع يوضع فوق رأس المصلوب وكذلك توضع لائحة التهم في رقبته. يعتقد النصارى أن آدم عليه السلام حين عصى ربه، وأكل من الشجرة فقد أخطأ، وانتقلت الخطيئة وراثيا الى بني أدم، واراد الله تعالى —كما يزعمون — أن يكفر عن خطيئة أدم، فبعث ابنه ليصلب، ويكون دمه فداءا تكفيريا عن خطيئة أدم. وهذه العقيدة تتناقض مع أبسط أحكام العقل، وتثير كثيرا من الأسئلة من بينها ما علاقة صلب ابن الله بتكفير خطأ آدم عليه السلام؟ واذا كان صلب ابن الله خطأ أكبر من أكل آدم عليه السلام من الشجرة، فكيف يكون تكفير خطأ صغير بخطأ أكبر وأعظم؟ ومن تم جاء الاسلام بمفاهيم عقائدية تصحح كثيرا مما أصاب العقائد اليهودية والنصرانية من تحريف' وتبديل سواء في مفهوم الألوهية ' أو النبوة أو صحة كتبهم المقدسة. ينظر: بولوس وهبة، موسوعة الأديان. ص: 334. والصليب الذي رفع على البرج هو نفسه الصليب الذي كان يحمله فرناندو دائما معه في حروبه مع المسلمين، ولا يزال باقيا.

[2]– **الكتلكة**: اشتق هذا المصطلح من " الكاثوليكية"، حاول أنصار هذا المذهب نشره عبر كامل أرجاء العالم بصورة عامة، وفي اسبانيا على وجه الخصوص بكل الوسائل وشتى الطرق.

[3]– **القديس يعقوب بن يوسف**: عقد فيما بين عام 51 – 55م أول مجمع وفيه تقرر استثناء غير اليهود من الالتزام بشريعة التوراة إن كان ذلك هو الدافع لانخلاعهم من الوثنية، كما تقرر فيه تحريم الزنا، وأكل المنخنقة، والدم، وما ذبح للأوثان، بينما أبيحت فيه الخمر ولحم الخنزير والربا. ينظر: ابن قيم الجوزية، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، اعتنى به أحمد حجازي السقا، القاهرة: المكتبة القيمة، د ط، د س ط. ص: 69.

الذي قامت باسمه جمعية " شانت ياقب""Santaigo"[1] الدينية.

بعده أطلقت المدافع ابتهاجا، وصحت الموسيقى أثناء خروج الجند المسلمين من القلعة؛ ثم ارتفعت أصوات المنشدين من الفرقة الملكية، وكان الملك المخلوع يسمع إلى كل هذه الأصوات وهو في طريقه ليتجرع كأس الذل عند لقائه بالملكين ليقدم لهما شارات الحكم من خاتم ومفاتيح؛ وقد رفضت والدته عائشة، كما أمرت زوجته مريم[2] وسائر أخوات الملك بعدم الذهاب إلى محلة الملك لتقديم الولاء والخضوع وخاطبت ابنها قائلا: "**هذه كأس شربناها معك، فاشرب ثمالتها وحدك**".

سار عبد الله الصغير إلى ضاحية "أرميليا" حيث محلة الملكة إيزابيلا هناك قدم لها فروض التحية والولاء والطاعة[3]، ثم رأى ولده المريض يسير بين الحرس حيث كان رهينة في معسكرها، وما إن رأى الغلام أباه حتى حاول أن يلحق به فمنعه الحرس، فبكى أبو عبد الله الصغير واستعبر وبدا عليه الذل والضياع والكآبة، فسرت الملكة إيزابيلا وعزته وأمرت بتسليم الغلام إليه وبهذا غادر أبو عبد الله الصغير محلة الملكة ومعه غلامه ثم أخذ طريقه إلى جبال البشرات حيث قرية أندرش منفاه الأخير[4]، وعندما وصل إلى موضع يسمى تل البذول أشرف على غرناطة ورأى المدينة وقد

---

[1] – **سانتافي**: كانت سانتافي أو "الإيمان الخالص" مدينة صغيرة أقامتها إيزابيلا على بعد تسع كيلومترات من غرناطة. احتوت المدينة على أزقة ودروب وحوانيت، وأماكن اللهو، وبيوت للسكن قد أقامها الجند القشتاليون، وتزوجوا بها وأتوا بزوجاتهم من بلادهم في العمق الإسلامي. كما كان بالمدينة مستشفى، ومدرسة، وكنيسة قد اجتمع بها عدد لا يستهان به من القساوسة والأحبار. ينظر: محمد رائف، المرجع السابق. ص:201.

[2] – **مريم**: تعتبر هذه السيدة زوجة الملك عبد الله الصغير، كانت أكثر شجاعة ونخوة من زوجها، فقد رفضت أن تقدم الولاء والطاعة للملكين الكاثوليكيين؛ كما بكت لضياع غرناطة ومعها الأندلس المسلمة لآخر حياتها التي لم تدم بعد ذلك طويلا في المنفى.

[3] – كريمال مارمول، إفريقيا، تر: محمد حجي آخرون، الرباط: مكتبة المعارف، د ط، 1984م. ص ص: 446، 447.

[4] – عاش أبو عبد الله الصغير في منفاه حياة مترفة لاهية عاتية؛ يقضي وقته في الصيد والقنص، ومحاولة نسيان ما هو فيه من واقع مرير. وكانت من بين تسلياته أيضا، الوقوف على العمال والصناع وهم يشكلون النقوش في السقف وعلى الجدران. وعندها فتحت الطرق وسارت التجارة بين البلدان بعد سقوط غرناطة أرسل يشتري الرخام الفاخر من جبال "جليقية" في شمال البلاد ليصنع الأعمدة اللامعة المصقولة، وكان يتحدث إلى ندمائه مصرحا بنيته لعمل بركة مياه ونافورة تضارع تلك التي تركوها في قصر الحمراء.

احتواها صليب كبير، فوقف ينظر إليها مودعا، وتذكر ماضيه بالأمس، فأجهش بالبكاء والنحيب.

**2)- التنصير بالطرق السلمية (901-906هـ/1496-1501م):** في النهار نفسه الذي سلمت فيه غرناطة، بدأ انتهاك المعاهدة من طرف الملكيين وحاشيتهما؛ فقد أقيم قداس[1] كبير في مسجد غرناطة الجامع حضره الكاردينال[2] دي مندوسا "De Mendoza"[3]، رغم أن نصوص المعاهدة نهت على ارتكاب مثل هذه الأمور[4]. وبدأ التخطيط لنقض بقية بنود المعاهدة في عشاء ليلة من تسليم غرناطة[5]، إذ اجتمع رجال الدين من أجل وضع الخطوط العريضة لتحقيق أهدافهم[6]، كان من أهمها القضاء على كل ما يرمز للإسلام في الأندلس المفقودة.

في ليلة تسليم غرناطة اجتمع الملكان مع كبار الدولة والقساوسة[7] لاستعراض التدابير التي

---

[1]- **قداس:** وردت لفظة التقديس في القرآن الكريم في عشرة مواضع ، متضمنةً أربعة معاني المعنى الأول : أن التقديس حق لله تعالى المعنى الثاني : وصف جبريل بأنه روح القدس المعنى الرابع : وصف الأرض التي أمر موسى قومه بدخولها بالمقدسة المعنى الثالث : وصف الوادي الذي كلم الله فيه موسى بالمقدس إذا نظرنا إلى المعاني الشرعية لمعنى التقديس نجد أنها لا تختلف عن المعاني اللغوية لهذه الكلمة، فهي دائرة حول معنى التطهير، والتنزيه، والتبريك ويظهر مما سبق أن الضابط في إطلاق التقديس على شيء هو الوقوف على ما ورد عليه الدليل، كما جاء في وصف الوادي المقدس، والأرض المقدسة، ونحو ذلك، لأن الوصف بالتقديس حكم، وذلك لا يعلم إلا من جهة الشرع.

[2]- **كاردينال Cardinale**: هو في الأساس المساعد الأول للبابا. وتطلق هذه التسمية على الكرادلة في مناصبهم. ينظر: أبو غزالة جان بول، موسوعة الأديان المسيرة، ص:412. والكردينالية هي من الدرجات الكنسية الإدارية وتشكل ما يسمى بمجلس الكرادلة الذين ينتخبهم البابا لاستلام الوظيفة الإدارية الكاردينالية أمراء الكنيسة، وهم يساعدون البابا في إدارة الكنيسة وفي انتخابه.

[3]- **دي مندوسا:** هو بيدرو دي مندوسا، كان مطران اسبانيا، ينتمي إلى نبلاء قشتالة، وعده الملكان بتعيينه محافظا على غرناطة.

[4]- من بين النصوص التي أكدت على ذلك نذكر المادة التي جاء نصها كما يلي: "**الملكان باسمهما وباسم خلفهما مجبوران على احترام العادات الإسلامية على الدوام بترك مساجدهم**".

[5]- أقيم في الليلة من اليوم نفسه حفل كبير حضره الأمراء والنبلاء والعظماء والقشتاليون وفتوح الوادي آشي صاحب الشرطة الجديدة، كما حضرت الحفل الملكة السابقة ثريا وحضر معها ولداها، سعد ونصر.

[6]- من بين ما تعهد عليه الملكان الكاثوليكيان شن حرب شرسة على غرناطة، وبذلك بدأت صفحة جديدة من سياسة الملكين الحقودين على الإسلام، حيث استطاعا أن يمدا نفوذهما إلى الجنوب ، إذ لم يتبقى للمسلمين سوى مملكة غرناطة فعلى الصعيد الداخلي حاول الملكين تشكيل قوة عسكرية جيدة التدريب تحت السيطرة المباشرة للتاج الملكي.، وتكوين دولة غنية موحدة تدر عليها عوائد كبيرة. أما على الصعيد الخارجي فقد كان هدف الملكان تحقيق الوحدة الاسبانية ، والاستمرار في توسيع ممتلكاتها جنوبا نحو سواحل البحر الأبيض المتوسط .

[7]- **القس:** هو كاهن الكنيسة والأب الروحي للنصارى ووجوده هو تطبيق لسر (الكهنوت) وهو أحد اسرار الكنيسة السبعة المعترف بها لدى الطوائف الأرثوذكسية والكاثوليكية. وتتركز مهام القس فيما يلى: . اقامة الصلوات والطقوس الدينية.

سوف تتخذ في الغد، وبعد قراءة المراسيم الخاصة بتنظيم الوضع في غرناطة، اطمأن الجميع إلى سياسة الدولة الرامية إلى استئصال شأفة المسلمين وأن المعاهدة والحفاظ عليها ليس غير مسألة وقت فقط، وأنهم سوف يتحللون من بنودها حسبما تسمح به الظروف لتحقيق مهمة تنصير المسلمين[1]، قام الملك فرناندو باستدعاء خيمينيس [2] إلى غرناطة فجاء إليها في سنة 905هـ/1499م، عندها أمر بجمع فقهاء المدينة ودعاهم إلى اعتناق النصرانية، وأغدق عليهم التحف والهدايا فأقبل بعضهم على التنصير، وتبعتهم جماعات كبيرة من العامة.

ولكن قبلهم تنصر بعض الوزراء، منهم الوزير أبو القاسم بن رضوان وجميع عائلته، طمعا في الامتيازات التي قد يتحصلون عليها مقابل تنصرهم، كما أراد أبو القاسم من خلال هذا العمل أن ينال قدرا من السيادة والسلطة في البلاط الملكي الجديد. أيضا عائلة هارمس "Harmas"التي شغل أعضاؤها وبالتناوب وظائف تجارية وإدارية مثل وظيفة محلف بغرناطة. وبهذا استطاعت هذه العائلة أن تندمج اندماج كلي في المجتمع النصراني[3].

---

[1]- Henry Lapeyre, Op. Cit. P: 120.

[2]- **خمينس دي سيسنيروس (209-922هـ/1436-1517م)**: اسمه الكامل (François jenenes). ولد في قشتالة سنة 209هـ/ 1436م. ينظر: بسام العسلي، خير الدين بربروس والجهاد في البحر (1470-1547)، بيروت: دار النفائس، د ط، 1983م. ص، 45. بدأ حياته راهبا، ينحدر من أسرة فقيرة وضيعة الشأن، أخفى كل تعطشه إلى المال والسلطة تحت شعار "التدين الزائف للكثلكة)، واستطاع الوصول إلى الملكة إيزابيلا، التي كانت تحترم وتقرب هذا النوع من الشخصيات. صار يحدثها عن رؤاه وأحلامه، وأنه شاهد القديس بطرس في المنام يلومه لأنه لم يتم القضاء على الأخطار التي كانت تحذق بالمملكة. عين رئيس أساقفة طليطلة سنة 901هـ/1496م، ثم بعث إلى غرناطة سنة 904هـ/1499م. ينظر: أحمد رائف، المرجع السابق. ص:321. يعتبر من بين أخطر الشخصيات التي اختارتها الملكة إيزابيلا واعتمدت عليهم في تطبيقها لسياسة التنصير القسري. وقبلها كان مطران على إمارة طليطلة. قام بإحراق الآلاف من الكتب العربية كما أوكلته الملكة مهمة الاختيار وتعيين رئيس ديوان مجمع قضاة الإيمان الكاثوليكي (محاكم التفتيش). ينظر: عبد العزيز سالم، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، (المرجع السابق). ص: 305.

[3]- خافييركاستير فرناندیس، النبلاء المورسكيون: وهم تاريخي وواقع اجتماعي، أعمال المائدة المستديرة منشورات مركز البحوث في علوم المكتبات والمعلومات، تونس: المعهد الأعلى للتوثيق، أبريل 1995م بعنوان: الأدب الألخميادو – المورسكي، تزاوج لغوي وعالم الاستطرادات اللامتناهي، ص ص : 172، 173.

كما نجد صاحب الشرطة[1] الذي تنصر مباشرة بعد سقوط غرناطة وخروج الملك المخلوع عبد الله الصغير منها مدلولا مهانا، وصار الخادم الوفي والمخلص للملكين الكاثوليكيين. في حين نجد من فئة القادة يحي النيار[2] الذي تنصر أثناء حصار غرناطة، بعدما أحرز تاريخا مليئا بالانتصارات العسكرية على العدو الاسباني؛ مباشرة بعدها تنصرت زوجته وولده علي، هذا الأخير صار يلقب بـ "الدون ألونسو جرانادا فينجاس" "Don Alonso Girard Finjas"وهو تحريف للاسم العربي "علي" "وفينجاس" هو اسم جده لأمه "بنيغش" "Bnirich"، فقد صار هذا الشاب نصرانيا قشتاليا حتى النخاع، خاصة بعد زواجه من إحدى وصيفات الملكة، "والونيا خوانا ديمنوثا" " Walonya Ruina Dymonota".

أما آل الثغري ورئيسهم حامد الثغري، أولئك الذين استبسلوا في الدفاع عن مالقة فقد خيروا أثناء تسليم مدينة مالقا بين التنصر أو التحقير والذل والمهانة الذي سوف يكون على يد الاسبان" فاختاروا التنصير، وسمى حامد الثغري باسم قشتالي جديد "جونتالفو فرناندو ثاجري""Jontalfo Fernando Tatajry".

أيضا ممن تنصروا طواعية نذكر أحمد مالكين[3] الذي لم يتم تعميده إلا في فترة التنصير الجماعي عام 905هـ/1500م. واستطاعت عائلته الحصول على اعتراف السلطات الاسبانية بوضعيتهم

---

[1]- **صاحب الشرطة**: أوكلت إليه عملية الاشراف على النظام العام حول القصر وفي كل مدينة غرناطة؛ وحفاظا على مركزه وطمعا في امتيازات مادية وسلطوية قدم ولاء الطاعة والخضوع للملكين الكاثوليكيين، ولم يتوقف هذا الأمر فقط، بل ارتد عن الإسلام واعتنق النصرانية الكاثوليكية.

[2]- **يحي النيار**: كان ابن عم الأمير زغل وزوج أخته. اعتمد عليه الزغل في كل مراحل حكمه، لذلك عينه قائدا على جيوشه، والحاكم على مدينة المرية، عرف بشجاعته التي نشرت الرعب في صفوف العدو الاسباني أثناء الحروب؛ كان فصيح اللسان مسموع الكلمة، شديد الحماس في المجالس، بالمقابل كان يعاب عليه أنّه كثيرا ما كان يستجيب لانفعالاته، ويستسلم للعاطفة. ينظر: واشنطن، المرجع السابق، ص: 345.

[3]- **أحمد مالكين**: ينتمي إلى منطقة بازا "Baza" .

المميزة كنبلاء[1]. أيضا عائلة هارمس التي شغل أعضاؤها وبالتناوب وظائف تجارية وإدارية. ولقد استطاعت هذه العائلة أن تندمج اندماجا كليا في المجتمع النصراني.

كما انتشر القساوسة في سائر أنحاء المدينة وأرباضها[2] يدعون إلى التنصير ويمنون الناس بالحقوق التي سوف يتحصلون عليها تبعا لذلك، فكانت تعليمات فرناندو الموجهة إلى الكونت "تندله" "Tandalla"[3] توصي باستعمال سياسة اللين والتسامح بهدف اجتذاب أكبر عدد ممكن إلى النصرانية [4]، وتأجيل استخدام القسوة لوقت مناسب[5]. وعلى هذا الأساس انكب القساوسة والرهبان[6] على تعلم اللغة العربية والاطلاع الأعمق لتعاليم الدين الإسلامي.

لكن هذا الأمر أحدث أثرا عكسيا، فالشريعة الإسلامية تجعل من يفكر فيها تفكيرا علميا منصفا يعيد النظر في إيمانه إن كان غير مسلم، وهذا ما حدث فعلا مع بعض القساوسة، الأمر الذي أثار الفزع في الإدارة الاسبانية، فأصدروا أمرا بوقف هذا النوع من الدراسات، وإن حصل ذلك فلا

---

[1]- خافيير كاستير فرناندیس، المرجع السابق. ص ص : 172، 173.

[2]- **الأرباض: جمع ربض**. وهي في المفهوم الأندلسي لا تقابل الضواحي كما هي في المفهوم المعاصر، وإنما كانت أجزاء من المدينة. ينظر: الحماد محمد عبد الله، الخصائص العمرانية والإدارية لمدن الأندلس الإسلامية، مجلة المنهل, جدة: دار المنهل للصحافة والنشر المحدودة، ع: 519، جمادى الأولى 1415 هـ/أكتوبر – نوفمبر 1993م، مج: 56. ص:211. وكان العمران خفيفا في الأرباض حيث كانت المساحات الخضراء تتناوب مع المساحات المبنية، وتشير هذه البقاع إلى وجود القصور الريفية. ينظر: لسان الدين ابن الخطيب، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، القاهرة: المطبعة السلفية، د ط، 1348هـ/1928م. ص: 15.

[3]- **تندلة** : ينحدر من أسرة مندوزا المعروفة، عين حاكم عسكري على مستوى غرناطة.

[4]- كان تندله مهتما بتعاون أهل غرناطة لأن العادة آنذاك كانت توزيع الأجناد على بيوت الأهالي للمساهمة في إطعامهم وإيوائهم، كما كان يريد تفادي الدخول في معركة لم يكن مستعدا لها مع سكان غرناطة خصوصا أن المعاهدة نصت على تسليم القلاع والحصون والمدافع لكنها سمحت للغرناطيين الاحتفاظ بأسلحتهم الفردية من بنادق وغيرها.

[5]- دون باسكوال بورونات، المصدر السابق. ص: 118.

[6]- **الراهب**: فالكهنوت النصراني هو رمز مهم جدا في النصرانية، وهو درجة ملقاة على عاتق أشخاص معينين مهيئين لغرض خدمة المؤمنين. والمؤمنون أو العلمانيون هم شركاء في مهمة المسيح الكهنوتية، وذلك في إعلان رسالة المسيح للعالم بالقول والفعل، لأنهم معاونون في نشر البشرى السارة في العالم .أي أنهم جميعا، كهنة بحسب المفهوم الكاثوليكي لخدمة الكلمة وذلك بالمعمودية والتثبيت والمسحة التي يمسحون بها، فيكرسون كهنة بالروح القدس، ويمارسونها بتقديم حياتهم وأعمالهم. ينظر: وهبة بولوس، موجز في المذاهب والأديان، (المرجع نفسه). ص: 189.

يتم إلا بأمر السلطات الاسبانية.

اعتقد خمنيس[1] أن أقصر الطرق إلى تنصير عامة الغرناطيين هو تنصير فقهائهم[2]، فجمع إليهم من تبقى من فقهاء غرناطة ليناظرهم حول النصرانية في كنيسة كانت في السابق مسجدا، فكانت حجة الفقهاء بالغة في النقاش، وبهذا لم يوفق خمنيس في محاولته هذه، لذلك نبذ الفقهاء، وبدأ في تطبيق المرحلة الثانية القاضية بتنصير عامة سكان غرناطة، فأخذ يستدعي البسطاء فيحاورهم[3]، وعندما لا يتلق تجاوبا يغريهم بالمال والمتاع ويعدهم بالأراضي والأموال.

كما استهدف خمنيس وجماعته في المرحلة الثالثة من سياسة التنصير كل من كان أحد أجداده نصرانيا وأسلم، فحضوا هؤلاء على العودة إلى الكاثوليكية. ويبدو أن نصيب هذه المرحلة من النجاح فاق كل المحاولات الأخرى. فاحتج الفقهاء لهذا الأمر[4]، ولكن خمنيس لم يأبه بهذا الاحتجاج ، فتابع تنفيذ سياسته على محاور عدة.

وفي ديسمبر من سنة 904هـ/1499م، أمر الكاردينال خمنيس السلطات المدنية بالتوجه إلى البيازين "Albaicin"[5] وإحضار كل المسلمين القاطنين به، فتجمع له في الكنيسة نحو ثلاثة آلاف

---

[1]–أوقف خمنيس عملية ترجمة الإنجيل إلى العربية، لأنه رأى فيه عملا خطيرا، ذلك أن اللغة العربية لغة نجاسة ستطال الكتاب المقدس.

[2]– حاول خمنيس إقناع فقهاء غرناطة بأنّ انهزام مسلمي الأندلس على يد القشتاليين كان بإرادة الله الذي وقف إلى جانبهم وذلك لصحة عقيدتهم وديانتهم.

[3]– محمد العروسي الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، تونس: نشر دار الكتب الشرقية، ط:1، 1374 هـ/ 1954 م. ص: 187.

[4]– احتكم الفقهاء إلى نص معاهدة التسليم التي تقضي " بألا يقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم ، وأن من تنصر من المسلمين يقف أياما حتى يظهر حاله ويحضر له الحاكم من المسلمين وآخر من النصارى".

[5]– **حي البيازين**: أي الصفّارين، والبازي من أسماء الصقر، وقد تحور اسم البيازين في الاسبانية إلى" البايثين" "Albaicin"؛ يقع الحي في شمال شرق غرناطة، تجاه هضبة الحمراء، ويفصله عنها نهر حدره، ويمتد صاعدا على سفح التلال حتى أسوار المدينة القديمة، وشوارعه ضيقة متقاطعة؛ ويمتد الحي على الربوة القائم عليها، شمالا حتى الأسوار القديمة، وفي نهايته مما يلي الأسوار توجد مسالك ودروب ضيقة على المنحدر. وقد كان هذا الحي من أكبر أحيائها، وكان منزل العديد من الأسر الغنية ذات العصبية. ينظر: عبد الله عنان، الآثار الأندلسية الباقية، (المرجع السابق). ص ص: 167، 169.

مسلم[1] حاورهم وناظرهم، ثم أعلنهم نصارى عن بكرة أبيهم؛ ولما علم الفقهاء والزعماء بالأمر تدمروا واتهموه بخرق معاهدة تسليم غرناطة، فساد الهرج وعلا الصياح[2]، عندها عاد خمنيس إلى بيته مغموما، وترك أثرا بالغا في نفسه فنقم على الفقهاء[3] وعاد إلى استدعائهم أفرادا وجماعات يهددهم ثم بدأ يضمر لهم الشر والمكيدة[4].

## – المبحث الثالث: بداية التعايش المستحيل (906–921هـ/1501–1516م)

إن التعايش النسبي الذي كان قائما في إسبانيا إبان العصر الوسيط بين مختلف الفئات، سواء دعت إلى ذلك التعايش ضرورة سياسية عسكرية أو اقتصادية ضمنت في أغلب الأحوال استمرار مظاهر الحياة اليومية للنشاط الاجتماعي، ولكن بعد التوحيد الإقليمي والسياسي الذي عرفته إسبانيا في نهاية القرن التاسع الهجري الموافق للقرن الخامس عشر ميلادي.

**1)– لمحة تاريخية عن محاكم التحقيق:** ظهرت مع بداية القرن العاشر هجري الموافق للقرن السادس عشر ميلادي قضية الوحدة الدينية والعقائدية كواجب اجتماعي، وعلى الرغم من أنه قد أعطيت ضمانات لمسلمي اسبانيا في مرحلة الانتقال، إلا أنهم سرعان ما استيقظوا أمام حقيقة مرة وهي أنهم تحت مراقبة دينية شديدة، تسهر عليها محاكم التحقيق وأصبحت محاولة العيش بحسب

---

[1]– عندما أيقن الفقهاء بخطورة الوضع نزلوا إلى العامة يحضونهم على عدم الاستجابة إلى خمنيس والامتناع عن قبول الهدايا، وكأن هؤلاء الفقهاء كانوا على علم بما سيقدم عليه هذا الكاثوليكي المتعصب.

[2]– من أهم المعارضين لسياسة خمنيس التنصيرية رجل إسمه الزغري، حرض هذا الأخير أتباعه ضده وعارض تنصيرهم، إلا أن السلطات الاسبانية بزعامة خمنيس واجهته بالقمع الشديد بعدما فشلوا في استمالته باللين. ينظر: دون باسكوال بورونات، المصدر السابق. ص: 116.

[3]– من بين هؤلاء الفقهاء الذين اضطهدهم خمنيس شيخا من كبار شيوخ غرناطة من بني زيري، ناظره لمدة ساعة ثم طلب إليه الإفتاء لأهل غرناطة بالتنصير؛ فرفض الشيخ الزيري الطلب فحاول خمنيس استمالته بالهدايا والعطايا فاعتذر الشيخ وقام ليسير إلى البيازين فبعث إليه خمنيس رجاله ساقوه إلى السجن وعذبوه، ومنعوا عنه الطعام والشراب . وبعد أيام خرج خمنيس على أهل غرناطة يدعي أن شيخهم رأى مناما وسمع صوتا من السماء يدعوه إلى التنصير فتنصر وها هو يحض سائر المسلمين على الاقتداء به.

[4]– محمد حسن العيد روس، تاريخ العرب الحديث، الكويت: دار الكتاب الحديث، د ط، 2001م. ص: 57.

تعاليم عقيدتهم وإيمان أسلافهم جرما يؤدي بصاحبه مباشرة إلى النار على يد عمال محاكم التحقيق.

هذه المحاكم التي جاءت كتتويج للحروب الصليبية[1] قد استهلكت كل طاقة اسبانيا النصرانية وشغلتها وأضلتها[2]، لذلك كان لا بد من التوقف عند هذا الانجاز الذي أقام أسسه ودعائمه الملكان وسار على دربهما الملوك الاسبان مستعرضين في ذلك أهم فصولها. ومما لاشك فيه أن الدارس سيجد نفسه أمام مشاهد مروعة ووحشية بلغت حدها، وهمجية لا نظير لها، وقد اتفق جل المؤرخين على وحشية الإجراءات المتبعة من طرف محاكم التحقيق، معتمدين على مختلف الوثائق الإسبانية والعربية.

هذا الوصف يبقى ذابلا أمام الصورة التي قدمها هؤلاء المضطهدون على أحوالهم في نداء الاستغاثة الشعري الذي وجهوه إلى السلطان العثماني بايزيد الثاني [3] عام 910هـ/1505م، ذلك أن الهمجية التي طبقت من محاكم التحقيق الغاشمة، لم تكن تخفى على كل من درس التاريخ مسلمي اسبانيا، واطلع على الوثائق العربية أو الإسبانية القديمة أو المعاصرة. ذلك أن السواد الذي غطى

---

[1] – **الحروب الصليبية:** يرى بعض المؤرخين الحركة الصليبية انطلاقة كبرى عن حركة الأحياء الديني التي ظهرت في الغرب الأوروبي في القرن العاشر الميلادي، وبلغت أشدها في القرن الحادي عشر، وقد أدت هذه الحركة إلى تقوية مركز البابوية وإثارة الحماسة الدينية في نفوس الناس، الأمر الذي جعل البابوية تطمح إلى السيطرة على العالم النصراني عن طريق ختم الكنيسة الشرقية لها. ينظر: أثر الشرق الاسلامي على الفكر الأوروبي خلال الحروب الصليبية، ص:23.

[2] – **الوضع الديني في إسبانيا:** شكلت شبه الجزيرة الايبرية اختصارا لمجموعتين واسعتين تشكلتا في الشرق والغرب النصرانيين. اتجهت المناطق الغنية والأكثر تطور نحو التوحيد الأحادي، بينما اعتنقت المناطق الفقيرة النصرانية الثالوثية، وفيما بعد اعتنقت هذه المناطق الارثوذكسية على يد الصليبيين الفرنسيين الذين حملوا أفكار كلوني Cluny .أما الجنوب، فقد تابع التطور نفسه الذي تم في الشرق الأدنى نحو حضارة جديدة كان محركها الأساسي الإسلام، الذي لم يتعارض مع التوفيقية "Sincretismo" الاريوسية. ينظر: إسماعيل أمين، العرب لم يغزو الأندلس (لمحة تاريخية مختلفة) رياض: الريس للكتب والنشر، ط:1، 1991م. ص:119.

[3] – **السلطان بايزيد الثاني (886–918هـ/1481–1512م):** عرف بحبه للأدب، وتبحره في علوم الشريعة الإسلامية، شغوفا بعلم الفلك، اشتهر بتشييده للمنشآت المعيارية. حاول بايزيد الاستيلاء على سوريا ولكنه فشل؛ أما على الصعيد الأوروبي، فقد استطاع أن يحرز نصرا كبيرا على البنادقة باليونان. ينظر: ياغي اسماعيل، المرجع السابق. ص ص: 50، 52.

تاريخ هذه المحاكم لم تستطع السنوات أن تزيله من ذاكرة التاريخ، وحتى الكنيسة عينها لم تعد قادرة على تجاهل مسؤولياتها المباشرة عن الفظائع التي ارتكبت بحق المسلمين من خلال عمل هذه المحاكم.

فلقد بدأت عملية إحراق الناس بسبب معتقداتهم الدينية المنافية لمبادئ الكنيسة في أوروبا منذ سنة 467هـ/1075م[1]، لكنه لم يأخذ طابعا منظما إلا على عهد البابا [2] أنوصان الثالث " Anosan III"[3] الذي أمر رجال الكنيسة باضطهاد "الهراطقة"[4]، ووضع بذلك الدعامة الأولى التي قامت عليها محاكم التحقيق فيما بعد، وعموما فقد كان إنشاء هذه المحاكم كان تطبيقا للحركة الإصلاحية البابوية التي قادها البابا غريغوري التاسع"GrigoriVIIII"(594-613هـ/1198-1216م) [5].

---

[1]- من بين أشكال "الهرطقة" الأولى نذكر تعاليم الكاهن الاسكندراني أريوس، ونجد مثالا مهما آخر في أراء تسطورا أو تسطوريو بين (380-451م) بطريك القسطنطينية الذي أنكر الوهية المسيح وأنكر على السيدة مريم لقب "أم الرب". ينظر: عادل سعيد البشتاوي، الأمة الأندلسية الشهيدة، (المرجع السابق). ص:211.

[2]- يرأس البابا الكرسي الرسولي) باللاتينية (SanctaSedes نظرا لكونه خليفة القديس بطرس، والذي يشكل الهيئة العليا لإدارة الكنيسة الكاثوليكية؛ وهو أيضا رأس دولة الفاتيكان. كان للبابا في السابق دولة تعرف باسم الولايات البابوية، غير أن توحيد إيطاليا قد أدى لإنهائها، وأدت إلى نشوء دولة الفاتيكان عام 1929 بمثابة رمز لاستقلال الكرسي الرسولي عن أي سلطة سياسية في العالم. كان من نتائج التخلي عن الإدارة المدنية، حصر الاهتمام البابوي بأمور الدين والقضايا المتصلة به كالأخلاق.

[3]- **البابا أنوصان الثالث**: على عهده دخلت البابوية مرحلة سيطرة وقوة لم تعرف من قبل، تميزت بتعمق الشعور الديني في أوروبا، وارتفاع شأن البابا الذي اعتبر نفسه خليفة للقديس بطرس ونائبا للسيد المسيح. وكان يمارس سلطته عن طريق الموفدين البابويين معتبرا الملوك مجرد حكام أقطعهم الباب ممالكهم التي يحكمونها. ينظر: عادل البشتاوي، الأندلسيون المواركة، (المرجع السابق). ص:64.

[4]- **الهراطقة: مشتق من "الهرطقة"**، هذا الأخير هومصطلح كنسي يشير إلى رأي أو فكرة مبتدعة تتعارض مع معتقدات الكنيسة أو النظام المرتبط بها. والهرطقة كلمة أصلها يوناني هو "hairesis" أخذها الأوروبيون في البداية من اللاتينية، ثم نقلت عن الفرنسية القديمة "HERESIE". ولا تعني هذه الكلمة أكثر من "الاختيار أو التفضيل" لذا كان النصارى الأوائل بالنسبة للرومان نوعا متقدما من الهراطقة لأنهم فضلوا مفاهيمهم على المفاهيم التي كانت سائدة آنذاك ورفضوا تقديم الأضحيات للإمبراطور واعتبروا ادعاء بعض الأباطرة الالوهية باطلا. ينظر: المرجع نفسه. ص:209.

[5]- **غريغوري التاسع**: ولد سنة 540هـ/1145م وتوفي في سنة 639هـ/1241م؛ واسمه الحقيقي أوجلينو دي كونتي، تقلد الباباوية سنة 624هـ/1227م وحتى وفاته. بعد ترقيته إلى كرسي البابوية في ختام الانتخابات البابوية عام 624هـ/1227م، وما إن لبس غريغوري رداء الباباوية حتى بدأ بتوجيه الانتقادات اللاذعة إلى الامبراطور الألماني فردريك الثاني واتهمه بالمماطلة في تنفيذ وعوده بشن حرب صليبية جديدة على الأراضي الفسلطينية وقد وصل الأمر إلى الحرمان الكنسي واعلان أن فردريك خارج عن رحمه الكنسية. وأخيرا أدرك فريدريك الثاني أن مصلحته تستدعي القيام بحملة صليبية على فلسطين، فتشكلت بقيادته الحملة الصليبية السادسة سنة 652هـ/1228 وانطلقت إلى المشرق.

وفي سنة 488هـ/1095م[1] أعلن البابا أوربان [2] ضرورة "استرداد" بيت المقدس من أيدي المسلمين [3]، ولكي يحشد المتطوعين أعلن أن الاشتراك في الحروب الصليبية [4] يعادل التوبة من أي ذنب، ويستحق صاحبه الغفران، بعد ذلك أصبح كل من يشارك في نفقات الحروب يستحق أن ينال صكوك الغفران، هذه الأخيرة ساهمت في تشييد كاتدرائية القديس بطرس[5]. ومن الأمور التي لم تتوقعها الكنيسة الكاثوليكية هو حدوث انشقاقات عليها، لهذا أرسل البابا حملات حققت بعض النتائج المرجوة منها، إلا أن "المخالفات" استمرت؛ لذلك أصدرت الكنيسة قانونا بموجبه يعاقب "الملحد"[6] بالإعدام حرقا، وبمرور الوقت كان البابوات يدعون الملوك الآخرين إلى سن قوانين مشابهة.

بهذا نمت محاكم التحقيق مع تزايد غطرسة الكنيسة الكاثوليكية واجتهادها في مراقبة ضمائر

---

[1]– في هذه السنة أعلن البابا أوربان ضرورة "استرداد" بيت المقدس من أيدي المسلمين، ولكي يحشد متطوعين لذلك أعلن أن الاشتراك في الحروب الصليبية يعادل التوبة عن أي ذنب، ويستحق صاحبه الغفران. بعد ذلك أصبح من يشارك في نفقات الحروب يستحق الغفران كذلك. ثم أصبحت صكوك الغفران تباع للمساهمين في نفقات تشييد كاتدرائية القديس بطرس، وبعد ذلك أصبحت تلك الصكوك تباع بأثمان زهيدة ولأي سبب. ينظر: ميغيل انجيل ايبارا، المرجع السابق. ص:08.

[2]– **البابا أوربان:** ولد سنة 530هـ/1035م في شاتوي سيرهارن. درس على يد القديس بارنو ثم صار راهبا في دير كلوني عام 460هـ/1068م، التحق بخدمة البابا غريغوري السابع؛ حمل اسم البابا أوغبان عام 492هـ/1099م. ينظر: عوض مؤنس محمد، الحروب الصليبية بين الشرق والغرب، د د ن: عين الدراسات والبحوث العلمية والإنسانية والاجتماعية، د ط، 1999–2000م. ص ص:62،63.

[3]– **احتلال بيت المقدس:** توجه الصليبيون بقيادة قود فروادي بويون نحو بيت المقدس في سنة 492هـ/1099م، وفي منتصف الشهر نفسه فرضوا عليه حصارا، وكان لضعف الفاطميين وتضعضع معنوياتهم أكبر الأثر في الإسراع بسقوط بيت المقدس واحتلالها من طرف الصليبيين واقتحام الأسوار واحتلال المدينة، مرتكبين أبشع الجرائم وأفظعها. بنظر: المطوي العروسي، المرجع السابق. ص ص : 53 ، 54.

[4]– تعني هذه الحروب، أشياء كثيرة لمؤرخين كثيرين، فمن هؤلاء من يرى أن الحروب الصليبية تتضمن كل الحروب التي تبنتها البابوية أو شجعت عليها. ومنهم من يضيف إلى ذلك حروبا شنها الكاثوليك على البروتستانت، أو البابوية على الهراطقة أو المنتصرين من القبائل الجرمانية على إخوانهم الوثنيين، أو حتى بعض الحملات التي نظمها بعض البابوات ضد خصومهم الشخصيين في إيطاليا.

[5]– **القديس بطرس** : عاش بين النحو السنة العاشرة ميلادية والسنة 67 م، هجر مع زوجته ليبشر في الأرض ، وظل ينتقل من مكان إلى مكان بأنطاكية وصار أول أسقف لها ولا توجد أي أية تاريخية قاطعة على الظروف التي رافقت موت القديس إلا أن الشائع في المرويات المسيحية أنه صلب مكبوبا على تل فاتيكانوس خلال اضطهاد تيرون للمسيحية بين سنتي 64و 68 بعد اتهامهم بحرق عاصمته وأن رفاته محفوظ تحت كنيسة القديس بطرس في مدينة الفاتيكان التي هي قصر البابا. بنظر : عادل سعيد البشتاوي، الأندلسيون المواركة، (المرجع السابق). ص: 112.

[6]– **الإلحاد اسم ملحد:** هو في نظر الكنيسة هو المسيحي الذي يشك في إيمانه، ومن هذا المنطق فإن أي يهودي أو مسلم كانا بمنأى عن خضوعهما لسلطة محكمة التحقيق؛ وهذا يجعلنا نستنتج أن الشخص كان يخضع لسلطة المحكم اعتبارا من تاريخ تنصره، سواء كان هذا الأخير قسريا أو إراديا. ينظر: ميخيل انجيل، المرجع السابق. ص:11.

الناس في المناطق التي كانت تحت سيطرتها. فقد كان يكلف البابا[1] بعض الأساقفة بتعقب من كانت أفكاره مخالفة لتعاليم الكنيسة وطبق هذا النظام في البداية في كل من إيطاليا وفرنسا وألمانيا حيث كان يتحول مندوبو البابا في أنحاء البلاد لتقصي أخبار الناس واتهام كل مخالف بالكفر، ثم القبض عليه ومعاقبته. وكانت تعقد لذلك مجالس كنسية مؤقتة اعتبرت بمثابة محاكم التحقيق المبدئية، ثم تحل المحكمة بعد مطاردة المتهمين والقضاء عليهم.

بعدها نشأت في أديرة[2] الفرانسسكان[3] والدونيكان[4] محاكم ثابتة حيث كان يتولى الأساقفة رئاستها بسلطة مطلقة. أما التحقيقات والمرافعات فكانت تجري بطريقة سرية، ولم تكن الأحكام قابلة للنقض بعد صدورها. وكان يسمح للعبيد والنساء والأطفال بالشهادة ضد المتهم في الوقت الذي لم يكن يسمح لهم بالشهادة له؛ وكثيرا ما ارتكزت هذه الأحكام على اعترافات المتهم التي كانت تؤخذ منه بالتعذيب والمكر[5].

---

[1]– ينتخب البابا مدى الحياة عن طريق المجمع المغلق، وتعتبر البابوية واحدة من أكثر المؤسسات ديمومة في العالم، وكان لها دور بارز في تاريخ البشرية الحديث. ساهمت البابوية في العصور القديمة على انتشار المسيحية وحسم الخلافات المذهبية والسياسية على حد سواء، ولعبت دور الوسيط بين الممالك المختلفة في أوروبا، ودعمت العلوم والفنون والفلسفات خلال مرحلة عصر النهضة ومولت الكثير من المشاريع الاستكشافية والعلمية إلى جانب الفنية. في الوقت الراهن، تنشط مؤسسة البابوية إلى جانب إدارة الكنيسة وحفظ وحدتها في الحوار المسكوني، والحوار مع سائر الأديان، والعمل الخيري وترسيخ العدالة الاجتماعية، والدفاع عن حقوق الإنسان.

[2]– **أديرة: مفردها** "الدير"، وهو المكان الذي يخصص من قبل مجموعة من النساك للتعبد والدراسة عن الآهيات والعقائد والصلوات الطقسية والعمل الجماعي المشترك . وكانت مصر وبالتحديد الصحراء المصرية هي المكان الذي نشأت فيها الحياة النسكية الرهبانية.

[3]– **الفرنسيسكان:** من أشهر مدارس التنصير في المنطقة العربية وفي غيرها ، ومؤسسها هو فرانسيس الآسيزي (577 623هـ/1181 – 1226 م) ، وكانت في بدايتها جماعة من الفقراء تعيش على التبرعات والصدقات وتسمي نفسها بالإخوة الصغار. ينظر: عبد الجليل شلبي، الإرساليات التبشيرية، الإسكندرية : منشأة المعارف، د ط، 1987م . ص ص: 173 – 179 .

[4]– **الدومينيكان:** أسسها القديس دومينيكوس (565 618م/ 1170 – 1221 م)، وكان اسمها الإخوة الوعاظ، قامت على دحض البدع والخرافات؛ أنشأ روادها مكتبة ومجلة، ومعهدا للدراسات الشرقية بالقاهرة. قام نشاطها التنصيري على الدراسة والبحث؛ يمتاز أتباعها بكراهيتهم الكبيرة للإسلام والمسلمين. ينظر: المرجع نفسه. ص ص:180 – 183 .

[5]– لقد تفننت محاكم التحقيق في طرق التعذيب التي كثيرا ما كانت تؤدي بحياة المتهم أو تعوقه فيما تبقى من حياته. ولم تكن لتلك المحاكم سجون ثابتة، بل كان يرمي المتهمون في سجون مؤقتة مظلمة قليلة الهواء، مصدفين بالأغلال، يذوقون الأمرين، يتجرعون الآلام النفسية.

ارتكزت أكثر العقوبات على المصادرة لملء خزائن محاكم التحقيق والقائمين عليها، أو السجن المؤبد، في حين تمثلت العقوبات الأخرى في الجدف على السفن أو الخدمة في المناجم؛ كما كانت هناك أحكام بالإعدام حرقا؛ والسعيد منهم من يفلت بغرامة ضخمة. كما أصدرت محاكم التحقيق أوامرها بإحراق الكتب التي كانت تراها محرمة[1]، وكم على هذا الأساس أحرقت كتب العلماء والفلاسفة[2]. وهكذا تابعت محاكم التحقيق عملها في كل أنحاء أوروبا كل من كان مخالف لها مثل الألبيين "Albegenses"[3] واليهود[4] الذين كانوا هدفا لمتابعات عمال محاكم التحقيق[5].

ثم أخذت تطارد كل من ظهرت عليه بوادر الشك في العقيدة الكاثوليكية حسب قرارات

---

[1]– أحرقت الكنيسة ما يزيد على ثلاثة آلاف عالما من علماء النصارى ممن تلقوا علومهم في الجامعات الإسلامية لا سيما بالأندلس (وقت ازدهار علم وحضارة المسلمين)، والتي كانت آنذاك مصدرا للنور والعلم، ومن أبرز هؤلاء العلماء الذين أحرقتهم الكنيسة: جاليليو وبرونوا، و إلى غير ذلك من الشخصيات العلمية المعروفة في تلك الحقبة التاريخية.

[2]– لقد منح البابا كليمنتي الثامن أعضاء المحكمة الاسبانية سلطة النظر في المخطوطات، وحضر قراءة الكتب التي يرون أنها تخالف الآداب العامة أو عقيدة الكنيسة الكاثوليكية، تمثلت هذه الأخيرة في "عذرية السيدة مريم" – حتى بعد أن وضعت – والتثليث، وصلاحية الكنيسة في منح الغفران.

[3]– **حركة الألبنيين** نسبة إلى مدينة ألبي "Albi" في جنوب فرنسا. وكان أتباع هذه الحركة يمتنعون عن الزواج والإنجاب وأكل اللحم والمنتجات الحيوانية، وقالوا إن الروح سجينة الجسد وعقابا لها على الخطايا، وإن قيمة الصلاح إطلاق الروح عن طريق الانتحار الذي يفضل أن يكون بالتجويع. ونمت الكاثارية بسرعة ووجدت الكاثوليكية صعوبة باللغة في القضاء عليها نظرا إلى التأييد الذي حضي تبهمن العامة ، هؤلاء الجماعة مثالا يقتدى به في نبذ الدنياويات والتمسك بمبادئ المسيحية الأولى. بنظر : البشتاوي، المرجع السابق، ص: 213.

[4]– اليهود من الهود جمع هائد وهو التائب، وهاد الرجل أي رجع وتاب، وتهود إذا دخل في اليهودية وهو هائد والجمع هود، والهود اليهود من الهوادة وهو المودة أو اللين، وما يرجى به الصلاح أو التهود وهو التوبة والرجوع إلى الحق، ويذهب بعض الباحثين إلى أن الإسرائيليين إنما سموا يهودا حين تابوا عن عبادة العجل ثم لزمهم هذا الاسم لقوم موسى عليه السلام. بينما ذهب آخرون إلى أن التسمية كانت لأنه كانوا يتهودون أي يتحركون عند قراءة التوراة هذا ويرجع بعض الباحثين نسبة اليهودي إلى يهوذا رابع أبناء يعقوب عليه السلام أو إلى مملكة يهوذا بمقارنتها بمملكة إسرائيل، وقد شاعت هذه التسمية أثناء السبي البابلي (586 –539 ق.م). بينما ذهب فريق آخر إلى أنهم سموا "يهود" لقول موسى عليه السلام: "إنا هدنا إليك" وكتابهم التوراة. ينظر: ابن الشحنة محب الدين أبي الوليد بن محمد، روض المناظر في علم الأوائل والأواخر، تح: مهني سيد محمد، بيروت: منشورات محمد علي بيضون، ط:1، 1417هـ/1997م. ص ص:23-29 يتصرف. وعموما أصبحت لفظة يهود أعم من بني لإسرائيل لأن كثيرا من أجناس العرب والروم والفرس وغيرهم صاروا يهودا ولم يكونوا من بني إسرائيل. ينظر: محمد بيومي مهران، بنو إسرائيل (التاريخ منذ عصر إبراهيم وحتى عصر موسى عليهما السلام )، ج 1، الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، د.ط، 1999م. ص ص 38، 39. وقد اعتبر النصارى اليهود مسؤولين عن صلب السيد المسيح عليه السلام فطردوهم من الإسكندرية في عهد سيرل. ثم أجبروهم مع الزمن على ارتداء ثوب العار في روما لتمييزهم عن غيرهم فهجرت جماعات من اليهود المدينة إلى شبه الجزيرة الايبرية التي باتت موطن أكبر تجمع يهودي.

[5]– إن المرجعية التاريخية لاستقرار اليهود بإسبانيا تعود إلى قضية اعتبار النصارى اليهود مسؤولين على صلب السيد المسيح عليه السلام– فطردوهم من الإسكندرية في عهد الكاهن سيرل؛ ثم أجبروهم مع الزمن على ارتداء ثوب العار في روما لتمييزهم عن غيرهم فهجرت جماعات من اليهود المدينة واستقروا بشبه الجزيرة الايبيرية التي باتت موطن أكبر تجمع يهودي.

الكنيسة المتغيرة[1] فطورد العلماء والمفكرون، وشرد وأحرق الكثير ممن اتهموا بالسحر والشعوذة. فيما ذهب فريق آخر من المؤرخين أن السبب الرئيس في إنشاء محاكم التحقيق هو تحول كثير من اليهود إلى النصرانية عام 794هـ/1391م، بعد تعرضهم لضغوط شديدة.

بعدها دعا البابا إلى القيام بحملات صليبية في جنوب فرنسا عام 603هـ/1208م[2] وكان المشاركون يحصلون على امتيازات مادية ومعنوية، فأما هذه الأخيرة فتمثلت في منحهم صكوك الغفران. في حين اشتمل الجزء الأول على اقتطاع أراضي زراعية لصالحهم بعدما تصادر من "الملحدين"، هذا ما جعل عدد المشاركين يصل إلى خمس مئة ألف متطوع. وقد استولوا على مدينة بيزيرس بعدما ذبحوا ستين ألفا من سكانها من بينهم نساء وأطفال.

رغم كل تلك المتابعات إلا أن "الإلحاد" استمر في مدينة تولوز مما دفع البابا إلى إنشاء محكمة التحقيق عام 612هـ/1215م، وإزاء المجازر التي ارتكبت ضد الأبرياء في جنوب فرنسا، تصاعدت صيحات الاحتجاج في أنحاء عديدة من العالم النصراني، مما ترتب عليه عقد اتفاقية تولوز[3] عام 626هـ/1229م التي أقرت بإنشاء محكمة التحقيق.

---

[1]- مرثيديس غارثيا ألاينال، المرجع السابق. ص :9.

[2]- دعى البابا إلى قيام " بحملات داخلية " في جنوب فرنسا عام 588هـ/1208م، وكان المشاركون في تلك الحملات يتحصلون على " الغفران" بالإضافة إلى الأراضي التي كانت تصادر من " الملحدين"، مما جعل عدد المشاركين يصل خمسمائة ألف متطوع. والقد استولى على مدينة بيزرسBeziers وذبحوا ستين ألفا من سكانها من بينهم نساء وأطفال. وكان الجنود يسألون القساوسة: **" كيف نفرق بين المسيحي المخلص والملحد؟" فكانوا يجيبونهم :" أقتلوا الجميع وسيتولى الرب التمييز بين الفريقين"**. ورغم كل ذلك إلا أن " الإلحاد " استمر في تولور، مما أدى إلى استمرار الصراع إلى غاية عام 652هـ/ 1254م. بنظر: ميغيل انجيل، المرجع السابق. ص : 8.

[3]- **اتفاقية تولوز** : عقدت سنة627هـ/1229م ومن أهم الظروف التي ساهمت في عقد هذه الاتفاقية هو أن "الإلحاد" استمر في تولوز، مما أدى إلى استمرار الصراع حتى عام 599هـ/1203م، وكان البابا قد اصدر أمرا بإنشاء محكمة تحقيق بابوية عام 612هـ/1215م، وإزاء المجازر التي ارتكبت ضد الأبرياء في جنوب فرنسا تصاعدت صيحات الاحتجاج في أنحاء عديدة من العالم النصراني، مما ترتب عليه عقد اتفاقية تولوز التي أقرت إنشاء محكمة تحقيق. ينظر: ميغيل أنجيل بونيس أيبارا، المرجع السابق. ص: 8

2)- **محاكم التحقيق في اسبانيا:** أنشأت أول محكمة تفتيش في شبه الجزيرة الإيبيرية[1]، في مملكة أراغون في القرن الثالث عشر ميلادي[2]، وحدد نظامها سنة 640هـ/1242م، عرفت بـ "الديوان القديم"[3]. ثم فكرت مملكة قشتالة في تأسيس محاكم التحقيق لملاحقة النصارى من أصل يهودي[4] الذين سما شأنهم في الدولة والكنيسة[5]، وأصبح لهم نفوذ مالي كبير ومكانة مرموقة في المجتمع القشتالي[6]. ولم تكن تشمل هذه المحاكم آنذاك المسلمين[7].

---

[1]- ضمت اسبانيا جموعتين واسعتين تشكلتا في الشرق والغرب النصرانيين. اتجهت المناطق الغنية والأكثر تطور نحو التوحيد الأحادي، بينما اعتنقت المناطق الفقيرة النصرانية الثالوثية، وفيما بعد اعتنقت هذه المناطق الارثوذكسية على يد الفرنسيين الذين حملوا أفكار كلوني Cluny.أما الجنوب، فقد تابع التطور نفسه الذي تم في الشرق الأدنى نحو حضارة جديدة كان محركها الأساسي الإسلام، الذي لم يتعارض مع التوفيقية "Sincretismo" الاريوسية. ينظر: إسماعيل أمين، المرجع السابق. ص:119.

[2]- من بين المناطق التي نشطت فيها محكمة التحقيق اراغون وذلك لملاحقة أنصار حركة "البجينز" في القرن الرابع عشر. ينظر: عادل سعيد البشتاوي، الأمة الأندلسية الشهيدة، (المرجع السابق). ص:214.

[3]- استعمل هذا الديوان بكل قساوة ضد الألبيين حتى أصبح اسمه مدعاة للإرهاب والفزع

[4]- اختلفت الآراء بين المؤرخين حول وجود اليهود بالأندلس في القرون السابقة للميلاد لعدم وجود الأدلة الوثائقية والأثرية التي تثبت ذلك، بينما اتفقت معظمها على تواجدهم في المنطقة في القرون الميلادية الأولى، فقد عثر في أدرا بإسبانيا على كتابة لاتينية موجودة على شاهد قبر لفتاة يهودية تعود تاريخها إلى القرن الثالث ميلادي، كما اكتشفت عملات نقدية يهودية في منطقة طركونة Tarrgonna. ينظر: الخالدي يونس خالد، اليهود في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس (92 -897هـ/711-1498م)، د ب ن: جامعة بغداد، د ط، 1999م. ص:15.

[5]- يمثل اليهوذ الطائفة الثانية من أهل الذمة، حيث شكلوا قسما هاما من سكان الأندلس في العصور الوسطى، و بلغ عددهم خلال الفتح الإسلامي على ما يزيد مائة ألف. ينظر: حسن أحمد النوش، التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي، بيروت: دار الجيل، ط: 1، 1992 م. ص: 44، 45. وقد كانت وضعيتهم في إسبانيا القوطية أكثر اهتزازا، إذ قاسوا ضروبا من المهانة والملاحقة على أيدي القوط، حتى أنهم حرموا من ممارسة شعائرهم الدينية، بل وقعت محاولات لتنصيرهم قهرا، و لعل الباحثون الإسبان يجعلون من تردي أوضاع اليهود سببا في اتصالهم بالمسلمين و مساعدتهم في فتح الأندلس. ينظر : السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم، (المرجع السابق). ص:133 هذا وقد اندمج اليهود مع جميع طبقات المجتمع، وكانوا من ذوي المال لامتهانهم التجارة في حوض المتوسط، كما ساعدتهم الأعمال التجارية على تمتين الروابط مع الجاليات اليهودية المتفرقة في العالم. ينظر: مسعود كواتي، اليهود في المغرب الإسلامي، الجزائر: دار هومة للنشر والتوزيع، د ط، 2000 م. ص:274 .

[6]- أرسل سكوتس الرابع مرسولا كلفه بالتحقيق والقبض على الخارجين على الكنيسة ومعاقبتهم. فخاف الملكان فرناندو وإيزابيلا أول الأمر على سلطتهما ووقفا ضد هذه المحاولة البابوية، فأوقفا القساوسة من متابعة النصارى من أصل اليهود.

[7]- ارتكز عمل محاكم التحقيق في قشتالة على اليهود الذين تنصروا بفعل الإرهاب والاضطهاد بين عامي 1391 و1416 بعد اتهامهم بنشر الطاعون والكنز والاحتكار وغيرها. ينظر: عادل سعيد البشتاوي، الأمة الأندلسية الشهيدة، (المرجع السابق). ص:218. وقد طرد ايزابيلا وفرناندو اليهود من قشتالة عام 987هـ/1492م بغرض التخلص من القروض التي قدمها اليهود للإنفاق على حرب غرناطة، ومن أهم هؤلاء نذكر الممول الملكي ابراهام سنيور. ينظر: المرجع نفسه. ص:229.

هذا الأمر لم يستمر طويلا، فقد أرسلا الملكان الكاثوليكيان سفيرهما إلى البابا سنة 883هـ /1478م يطلبان منهما إذنا بإنشاء محكمة تحقيق في قشتالة وتعيين المفتشين "لمطاردة الكفرة ومحاكمة المارقين"؛ فندب بذلك الملكان مفتشون وعددهم ثلاثة في شهر سبتمبر من عام 885هـ/1480م إلى اشبيلية عاصمة قشتالة آنذاك؛ وهكذا بدأت محاكم التحقيق عملها الجهنمي ضد المسلمين في اسبانيا.

توسع عمل محاكم التحقيق، في فبراير من سنة 887هـ/1482م بتعيين سبعة مفتشين جدد بمرسوم بابوي استصدره الملكان؛ كما أنشئت بعد ذلك محاكم التحقيق في بلد الوليد "Valladolid"[1] وشقوبية "Segovia"[2] وطليطلة وقرطبة وجيان، ثم عممت المحاكم على مستوى كل من قشتالة وأراغون. بعدها صدر مرسوما بابويا سنة 888هـ/1483م يقضي بإنشاء مجلس أعلى لديوان التحقيق يتكون من أربعة أعضاء، أحدهم المحقق العام يمثل رئيس المجلس؛ وكان لهؤلاء الأعضاء حق التفويض الكامل في كل ما خص الشؤون الدينية.

ثم بعدها صدر قرارا بابويا في شهر أكتوبر من السنة نفسها يقضي بتعيين القس توماس[3]

---

[1]– **بلد الوليد**: كانت هذه المدينة من القواعد الأندلسية التي احتلها الاسبان منذ أوائل القرن الرابع هجري الموافق للقرن العاشر ميلادي، ولم تمكث تحت حكم المسلمين أكثر من قرنيين. واسمها ينم عن أصله الأندلسي، ولكن ليس من المعروف إن كان قبل الفتح تاريخ، يرجع بها إلى العهد القوطي أو الروماني، أم أنها أنشئت عند الفتح على أطلال محلة أو قاعدة قديمة، وأسبغ عليها ذلك الاسم العربي " بلد الوليد" الذي حرفه الإسبان إلى وضعه الحالي " قايادوليد". وعلى العموم فإن بلد الوليد لم تلعب دورا كبيرا في تاريخ الأندلس المسلمة. ينظر: عبد الله عنان، الآثار الأندلسية الباقية، (المرجع السابق). ص: 318.

[2]–**شقوبية**: تحمل المدينة طابع العصور الوسطى، بل العصور الغابرة. وهي تقع غربي مدينة مدريد، في سفح جبال وادي الرملة، وتمتد أمامها بسائط خضراء يانعة، تنتج مختلف المحاصيل لا سيما الحبوب. ينظر: المرجع نفسه، ص: 322.

[3]– **القس توماس**: هو توماس توركيمادا من أبرز المفتشين، ولد عام 828هـ/ 1425م. عين مفتشا عاما سنة 883هـ/ 1483م. وقد أجرى العديد من المحاكمات في مدن مختلفة؛ يعتبر من المشجعين على مشروع طرد اليهود والمسلمين من اسبانيا؛ كما تميزت وسائله بالوحشية. توفي عام 903هـ/ 1498 وخلفه القس دييغو ديسا. بنظر: الزويعي محمود، محاكم التفتيش الاسبانية (922هـ/1516م)، الأردن: دار زهران للنشر والتوزيع، ص : 42

دي توركيمادا [1]"Tomàs de Terguemada"(888-903هـ/1483-1498م) محققا عاما؛ على هذا الأساس عين في اشبيلية لجنة من المفتشين وضعت سنة 890هـ/1485م نظام الديوان الجديد مع مجموعة من القرارات واللوائح. ثم اجتمعت لجنة ثانية عام 893هـ/1488م في بلد الوليد، وثالثة سنة 903هـ/1498م في منطقة آبلة "Avila"[2].

ثم تولى بعد ذلك المجلس الأعلى صياغة اللوائح وتنظيمها. وهكذا تكونت محاكم التحقيق الكاثوليكية الإسبانية التي جمعت بين الهدفين الديني و"القومي"[3]، والتي ذاق منها المسلمون بعد ذلك صنوفا لا توصف من العذاب والظلم.

***– أعضاء، مقر وعمل المحاكم:** ضمت هذه المحاكم على جهاز بيروقراطي معقد مكون من ثلاثين موظفا تناط بعهدتهم مهام مختلفة يمكن تقسيمها إلى نوعين: الجانب السري الذي اهتم بقمع كل من طبق تعاليم الدين الإسلامي. ثم النوع الثاني المتمثل في الإدارة الفعلية للشؤون المادية. أما الموظفون الأساسيون الثلاثة بهذا الشأن، فتتم تسميتهم مباشرة بحكم الملكي، المستلم والقاضي والمحتسب، ويعين الحاكم العام للمحكمة من طرف الإدارة الملكية تتبع بموافقة من بابا روما.

من بين مهامه إسناد الألقاب إلى الموظفين الساميين[4]، بينما يتلقى الموظفون الصغار تسميتهم من طرف عمال المحاكم على مستوى المناطق الفرعية. كما ضمت محاكم ضمن عناصرها

---

[1]– **توركيمادا** : تعني هذه الكلمة البرج المحروق.

[2]– **مدينة آبلة:** مدينة صغيرة تقع في شمالي غرب مدريد، وبينها وبين شقوبية مسافة صغيرة. ينظر: عبد الله عنان، الآثار الأندلسية الباقية، (المرجع السابق). ص: 326.

[3]– كان من الطبيعي أن يطالب البابا ايزابيلا بتأسيس محكمة التحقيق تأمر بأمرها وليس بأمر البابا الذي كان يقبع على مسافة شهر من المنطقة.

[4]– خواكين جيل سان خوان، وثائق ديوان التفتيش بغرناطة، بحث قدم ضمن أعمال الملتقى الثالث عشر الموسوم بـ: **الأبعاد العقائدية والفكرية في الأدب الألخميادو سياسة محاكم التفتيش تجاه الموريسكيين**، تونس : مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، ط: 1، 2009م. ص: 65.

مجموعة من الأشخاص أطلقت عليهم تسمية "المتعاونين" هؤلاء تحصلوا على عفو شامل، وليتم تعيينهم لابد من إخضاعهم لاستجوابات المحكمة[1].

أما مقراتها على الأغلب فكانت تقوم في الأديرة[2] والكنائس، وكونت جيشا وكيانا خاصا بها، كأنها دولة بل هي الدولة في إسبانيا[3]. كما عرفت لها أماكن أخرى كالمباني الإسلامية التي تحولت إلى كاتدرائيات كقصر الجعفرية[4]، إذ اتخذته مقرا لها سنة 980هـ/1485م، وكذلك قصر الخلافة القديم[5] بقرطبة. أما مقرها الرئيس فكان في اشبيلية، ثم انتقل بعد ذلك إلى طليطلة.

ويبدأ عمل محاكم التحقيق بمجرد تقديم بلاغ أو وصول خبر مشابه كالاعتراف، ويقوم به شخص ما لأسباب مختلفة وغالبا ما يكون البلاغ جزءا من اعتراف متهم آخر، حيث توجد احتفالات لممارسة الشعائر الإسلامية جماعيا وبالتالي فإن اتهام أحد أفراد العائلة أو مجموعة منها يورط الباقين، وبهذه الطريقة نوجد سلسلة من المحاضر اعتبارا من اعترافات أحد الأفراد.

بعد حلقات التحذير، يتم استجوابهم وإجراء تحريات سرية عنهم تعرض نتائجها على القضاة ليقرروا ما إذا كانت التهم المنسوبة إلى المبلغ ضده تجعله مرتكبا لجريمة "الكفر"، أو تلقى عليه فقط شبهة ارتكابها، وكان ينتهي رأيهم دائما بالإدانة، إلا في حالات نادرة، وعلى إثر هذا التقرير يصدر

---

[1]- مرثيديس غارثيا ألاينال، المرجع السابق. ص: 108.

[2]- عادة ما كانت هذه الدير عبارة عن بناء ضخم أشبه بالقلاع، وله أسوار عالية تحرسها فرقة من جند اليسوعيين. ينظر: محمد علي قطب، المرجع نفسه. ص:112.

[3]- الحجي عبد الرحمان، محاكم التفتيش الغاشمة وأساليبها، الكويت: مكتبة المنار الإسلامية، ط:1، 1987م. ص: 45.

[4]- **قصر الجعفرية:** يقع هذا الصرح الضخم في شرقي سرقسطة، على مقربة من الضفة اليمنى لنهر إيبرو، وهو يقوم فوق بقايا الصرح الأندلسي القديم، وقد كان يضم القصر والقصبة. ويرجع بناءه إلى القرن الحادي عشر الميلادي؛ ثم توالت بعد ذلك تغييرات وإضافات كثيرة، على يد ملوك النصارى، حتى غدا يمثل في أجزائه المختلفة عصورا مختلفة. ينظر: عنان، الآثار الأندلسية الباقية، (المرجع السابق). ص:105.

[5]- **قصر الخلافة:** كان هذا القصر مقام الأمراء مند قيام الدولة الأموية، حتى أوائل عهد الناصر، وكان يضم مدافنهم أيضا. ولم يبق اليوم شيء من آثار القصر الأموي القديم، واستعمل فيما بعد محكمة وسجنا لديوان التحقيق.

النائب أمره بالقبض على المتهم والزج به في سجن الديوان السري بتهمة الزيغ والكفر، وكانت هذه السجون غاية في الشناعة[1]. أما فيما يخص الأحكام التي كانت تصدرها محاكم التحقيق فقد تمثلت في ثلاث أنواع[2]:

**البراءة:** حكم نادرا ما حكمت به محاكم التحقيق، عندها يخرج المتهم بريئا لكنه يعيش بقية حياته معاقا ومتسولا، بسبب التعذيب الذي تعرض له، كما أن كل أمواله وممتلكاته قد صودرت.

**الجلد:** كان المتهم يساق إلى مكان عام عاريا تماما وينفذ عليه أمر الجلد، وغالبا ما كان يموت تحت وطأة الجلد.له.

**الإعدام:** الحكم الأكثر صدورا عن محاكم التحقيق، ويتم الإعدام حرقا[3] وسط المدينة [4].

على الرغم من كل الوسائل العنف والإرهاب التي استعملتها السلطات ومحاكم التحقيق في تنصير مسلمي اسبانيا، إلا أنهم استمروا في ممارسة شعائر دينهم بصورة سرية، فكانوا يؤدون الصلاة

---

[1]- لوي كارديلك، الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون المجابهة الجدلية، تر: عبد الجليل التميمي، تونس، الجزائر: منشورات المجلة التاريخية المغربية وديوان المطبوعات الجامعية، د ط، 1983م. ص، 333.

[2]- حتاملة، المرجع السابق، ص ص: 111، 112.

[3]- حفلة الحريق: كان يتقدم الموكب كاهن يرتدي حكة بيضاء, ويحمل صليبا أسود في يده, يترنم بترانيم الموت. ويمر أولا أمام عرش الملك ويعود فيقف في الساحة, ثم يأتي فريق من الكهنة بثياب بيضاء وصلبان سوداء, ثم يمر فريق من الشعب وهم يرتدون ملابس بيضاء حاملين صلبانا سوداء, ثم يمر المحكوم عليهم بالحرق وقد غطتهم القاذورات والطين والأوحال التي قدفهم بها متعصبة الناس, فاذا ما وصل السجناء الى الساحة أصعدوا الى أكوام من الحطب عالية, وفي وسط كل كوم صليب مثبت لكي يموت المعذبون وهم ينظرون الى ذلك الصليب. ثم يرتقي رئيس المحكمة في مكان مرتفع وسط الميدان –ساحة ريبرا –ويأخذ في قراءة الحكم بصوت مرتفع قائلا: "**إن هؤلاء الكفرة قد استحقوا الحرق رجالا ونساءا لأنهم مسلمين, وأنهم قد استخفوا بالأحكام المقدسة, وأنهم قد اتخذوا الشيطان عدو البشر وليا وحفروا الكنيسة وهم لا يأتون ثمرا لذا وجب قطعهم وحرقهم بالنار عملا بقول السيد المسيح له المجد: (من ليس معنا فهو علينا, وأن كل شجرة لا تثمر وجب قطعها وإلقاؤها في النار. إن الذنب ذنبهم, ودماؤهم على رؤوسهم)**". وبعد أن ينتهي من تلاوة ذلك الحكم يصرخ أحد الكهنة باللاتنية: "**المجد لسيدتنا والدة الإله, ومبارك كل مؤمن طائع**". ينظر: محمد علي قطب، مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس د ب ن: د د ن، ط:1.. ص ص:88،89.

[4]- كان مكان الحرق عبارة عن أربعة أعمدة، وأحيانا عمود واحد، أو جذع شجرة مرتفع، وحوله أكوام الحطب من كل جهة، وعلى علو ثلاثة أمتار تقريبا من الأرض، ويكون على هيئة مصطبة مربعة في أعلاه، والعمود بارز منها. فكانوا يوقفون المحكوم عليه الى هذا العمود ويربطون حبلا في رقبته، ويربط الحبل الى العمود، ويلف الجلاد الحبل على الرقبة عدة مرات وفي كل مرة كان يزيد في الضغط حتى يختنق المحكوم عليه. ينظر: المرجع نفسه. ص:101.

سرا في بيوتهم، وكانوا يغلقون بيوتهم يوم الأحد موهمين السلطات بأنهم ذهبوا إلى الكنيسة، وعندما يتم تعميد أطفالهم في الكنائس يبادرون إلى غسلهم بعد رجوعهم إلى بيوتهم مباشرة وكانوا يعقدون حفلات الزواج على الطريقة الإسلامية نشرا بعد إجراء الاحتفال العلني في الكنيسة.

بهذا حاول مسلمو اسبانيا، خلال عهد الملكين الكاثوليكيين مواجهة المصير المؤلم، لكن كل شيء كان يسير نحو النهاية، إذ أن تصميم الإسبان على اقتحام آخر معقل إسلامي بإسبانيا فاق أية محاولة قام بها الأندلسيون بالمنطقة للدفاع على معقلهم الأخير.

فهذه الملكة إيزابيلا ماتت وهي توصي بمتابعة الحرب الصليبية ضد ما أسمتهم بأعداء "الإيمان.. المسيحي"، وقرينها فرناندو لم يخرج عن القاعدة فقد أوصى أولاده عام 921هـ/1516م قائلا: "**عليكم أن تعملوا على تحطيم أتباع الديانة المحمدية**"، ويترك بذلك الوصية لشارل الخامس آمرا بضرورة اختيار محققين أكفاء ومخلصين للإيمان الكاثوليكي لتضييق الخناق على طائفة محمد صلى الله عليه وسلم.

عموما وأمام هذه المعطيات يمكن الخروج بمجموعة من الاستنتاجات:

1 – إن نجاح الملكين في القضاء بسرعة على مملكة غرناطة يرجع أساسا إلى عاملين:

*– الخلافات التي عرفتها المملكة، وما ترتب عنها من تفكك في الوحدة السياسية والاجتماعية.

* – انقطاع المساعدة المغربية بفعل الظروف الداخلية للمنطقة.

2 – انتهج الملكان الكاثوليكيان سياسة المراوغة لشراء الضمائر أمام عنف المواجهة الإسلامية، لكن سرعان ما ظهرت النوايا الحقيقية لهما عندما فرضا التعميد الإجباري، وإخلالهما بالعهود المبرمة مع المسلمين.

3 – رفض المسلمين المطلق لأية محاولة إدماج في المجتمع الاسباني، فأعلنوا تمردهم وعصيانهم بكل الطرق والوسائل للمحافظة على هويتهم الإسلامية.

4 – واجهت السلطات برعاية الكنيسة الكاثوليكية المقاومة المسلحة والإيديولوجية التي أبداها مسلمو اسبانيا بعنف ووحشية لإدراكهم عمق المشكل المطروح.

هذا عن الجانب التاريخي لهذه المحطات الحاسمة من تاريخ مسلمي اسبانيا تحت حكم الملكين؛ أما عن الجانب القانوني والتشريعي لهذه الحقبة فيمكننا أن نخرج بالملاحظات التالية:

نجد أن المراسيم والقرارات التي أصدرها الملكان بمباركة الكنيسة الكاثوليكية لا تختلف كثيرا عن تلك التي صدرت عام 895هـ/1490م إلا في الناحية الدينية الصرفة، حيث يبدو أنه الموضوع الأكثر أهمية، ولهذا ففي 12 أكتوبر 906هـ/1501م صدر أمرا يقضي بإحراق كل الكتب التي لها علاقة بالإسلام.

وفي هذا الخط نفسه صدرت تعليمات بشأن ذبح الحيوانات حيث اعتبر أمرا دينيا تم تحريمه في اتفاقيات عامي 906-907هـ/1500-1501م. بينما لم تعتبر الحمامات والزي الإسلامي أمرا دينيا على الرغم من اختلافها الكامل على تلك التي كان يلبسها النصارى.

هكذا فرقت هذه الوثائق بين ما هو ديني وما هو ثقافي. وهذا يعني أن سياسة الإدماج كانت تعالج الجانب الديني. وبهذه الطريقة أعلنت السلطات ثقتها الساذجة في جدوى الوسائل المتخذة للوصول بالمسلمين إلى تنصير حقيقي وتبين عدم فهم السلطات العميق لطبيعة الحقائق الثقافية حيث كان المسلم المنصر في نظرهم يعتبر نصرانيا سيء التدين مؤقتا.

# الفصل الثاني: اسبانيا على عهد كارلوس 921-963هـ/1516ـ 1558م)

## المبحث الأول: كارلوس الخامس مند ولادته وإلى غاية اعتلائه العرش

**(921-963هـ/1516-1558م )**

1)ـ مولده ونشأته

2)ـ بداية مشواره السياسي إلى غاية توليته ملك اسبانيا

## المبحث الثاني: سياسة كارلوس في محاربة الإسلام في إسبانيا

1)- نقض العهد وتجدد الصراع النصراني الإسلامي

**2)- سياسة المهادنة وتداعياتها**

## المبحث الثالث: السياسة الإسبانية الخارجية وانعكاساتها على مسلمي اسبانيا

**( 917-945 هـ/1530-1541م)**

1)- اسبانيا في مواجهة البروتستانت

2)- حرب اسبانيا مع فرنسا

**3)- الصراع الإسباني العثماني**

كانت قشتالة في الطريق إلى أخذ دورها الكبير في أوروبا عندما بدأت الكوارث تتوالى على البيت الملكي الاسباني، ففجع الملكان بوفاة ابنهما الوحيد، كما بقيت ابنتهما كاتلينا حبيسة الأديرة في انكلترا؛ ثم ماتت ابنتهما إيزابيلا، وأصيبت خوانا بالجنون، بعدها فقدا حفيدهما ميغيل. وهكذا عاشت الملكة إيزابيلا سنواتها الأخيرة في شقاء وحزن شبه دائمين وماتت كذلك عام 909هـ/1504م.

في خضم كل هذه الأحداث رفض فرناندو تسليم مملكة زوجته إلى فيليب زوج ابنته خوانا، ولكنه في نهاية المطاف اعترف به ملكا جديدا على قشتالة، لكن فيليب ابن إمبراطور النمسا ماكسيمليان مات عام 911هـ/1506م فآل إليه عرش قشتالة دون أي معارضة.

ووجد فرناندو نفسه فجأة ملكا شرعيا على اسبانيا، وبهذا أصبح قادرا على التخطيط لمستقبل مملكته في الصورة التي دوما أرادها، لكن كان عليه في الوقت نفسه موازنة مصالح مملكته الأراغونية مع مصالح قشتالة خوفا من أن يثير استياء مراكز القوى فيها خصوصا النبلاء والكنيسة ومحاكم التحقيق التي بات خمينس وقتها محققها العام.

والمتصفح للمسيرة السياسية لهذا الملك يجد أنه حاول الموازنة بين كل القوى الضاغطة آنذاك إلى أن توفي بتاريخ 17 ذي الحجة من سنة 921هـ الموافق لـ .23 يناير 1516م، وأوصى حفيده كارلوس الخامس بحماية الكاثوليكية والكنيسة، واختار لذلك محققين يخشون الله لكي يعملوا في عدل وحزم لخدمة الله وتوطيد الدين الكاثوليكي، وسحق طائفة محمد "صلى الله عليه وسلم – على حد زعمه–

والسلوك العام الذي يلاحظه الباحث حول المسيرة السياسية للإمبراطور كارلوس الخامس أنه واكب تشدده مع مسلمي اسبانيا ازدياد الخطر البروتستاني أو انحساره، وبمعنى آخر انتصاراته على الأمراء البروتستانت أو هزائمه، وكذا حال الحرب المستعرة في صورة شبه مستمرة مع فرنسا، جارة أراغون الأقرب.

كان مسلمو اسبانيا قد سمعوا بنهوض الحركة اللوترية ونشوب الحرب مع فرنسا، إلا أن كارلوس بدا لهم ملكا لا يمكن قهره وكانوا يعتقدون أنه سيظهر امتنانه للولاء الكبير الذي أدوه له خلال حركات التمرد والعصيان التي اندلعت في المدن الاسبانية، فيرفع عنهم القيود المفروضة على ممارسة دينهم وعاداتهم بموجب مراسيم ملكية سابقة بعدما خطا خطوة إيجابية بإلزام نفسه في خطاب استلام عرش أراغون بعدم التدخل في الشؤون الدينية لمسلمي اسبانيا.

على الرغم من أن كارلوس استمع إلى شكاويهم ووعد بدراسة مطالبهم، إلا أنه رأى بأن كل الظروف المحيطة بإسبانيا تحول ضد خلق تعايش سلمي بين المسلمين والنصارى، فهذه فرنسا تحاول آجلا أو عاجلا النفاذ إلى اسبانيا عبر أراغون، والحرب ضد اللوترين تقتضي أولا ضبط اسبانيا باعتبارها قاعدة الأساسية، والعمل على توحيدها من خلال كثلكة كل من يعيش فيها أيا كان مستقرهم ومهما كانت النتيجة.

وبما أن السياسة تقتضي الرجوع عن تعهده للأراغونيين بعدم التدخل في شؤونهم الدينية، فقد كتب إلى البابا يطلب منه أن يحله من هذا التعهد، وكان وصول البابا بالموافقة على ذلك؛ وفي 12 من شهر مارس سنة 972هـ/1564م أصدر كارلوس قرارا ببدأ عمل محاكم التحقيق في

ملاحقة كل مسلمي اسبانيا بما فيهم مسلمي مملكة أراغون، هؤلاء كانوا الهدف الرئيس الذي وضعته الحكومة والكنيسة ومحاكم التحقيق نصب عيونها.

## المبحث الأول: كارلوس مند ولادته 905هـ/1500م وإلى غاية اعتلائه العرش 925هـ/ 1520م

توج كارلوس ملكا على اسبانيا، وكان عليه أن يواجه عدة جبهات، جعلته من الصعب التحكم في الأمور وتسيير شؤون إمبراطوريته كما كان يريد، وكما أرادته له السياسة الاسبانية التي كانت تدريها الكنسية الكاثوليكية. فقد أوكل لكارلوس مهمة تحقيق المشروع الذي بدأ مسيرته الملكان الكاثوليكيان إيزابيلا وفرناندو.

**1)**- مولده ونشأته: ولد كارلوس[1] في 24 فبراير من عام 905هـ/1500م من خوانا "Ruina"(المجنونة) [2] في هولندا[3].كان له خمسة أشقاء هم على التوالي إليونورا "Ilionora"أكبرهم، تزوجت من مانويل الأول "Manuelle I" ملك البرتغال ثم لاحقا بفرانسوا الأول "François I"ملك فرنسا؛ ثم إيزابيلا "Isabella"التي ارتبطت بـ كريستيان الثاني "Christiane II"ملك الدنمارك؛ بعدها يأتي فرديناند "Ferdinand" الذي تزوج من أنا

[1]- بعد أن توج إمبراطورا اتخذ اسم كارلوس الخامس أو شارل الخامس، واشتهر به تاريخيا.

[2]- **خوانا**: هي خوانا تراستامارا التي لقبت فيما بعد بالمجنونة ابنة فرناندو ملك أراغون وإيزابيلا ملكة قشتالة. بدأت عليها إشارات الجنون سنة 906هـ/ 1501م، وبعد وفاة زوجها فليب عام 911هـ/1506م فقدت صوابها تماما، ووضعت جثته في صندوق وراحت تنقله معها أينما ذهبت. توفيت سنة 965هـ/1555م.

[3]- كان ذلك في غنت، بلدة تتبع دوقية فلاندر لذا سمي بـ "شارل خنت"؛ لم تكن هذه المنطقة تعرف العصبية التي سادت اسبانيا في تلك الحقبة التاريخية.

"Anna" ابنة ملك المجر وبوهيميا[1]؛ فشقيقته ماريا "Maria" التي اقترنت بلايوش الثاني "Blayoche II"[2]؛ وأخيرا كاتارينا "Catarina" التي تزوجت من جواو الثالث " Goio III" ملك البرتغال.

تتلمذ كارلوس أول على يدي وليم دي كرويحاكم شيفر (Chièvres)، بعدها أتم تعليمه أديريان الأترشتي (921-963هـ/1516-1522م)"Adrian Utrecht"[3]، كما ساهمت عمته الأرشيدوقة مارغريت "Marguerite" هابسبورغ في تربيته وتكوينه. وقد تلقى الأمير الشاب كل تعليمه في الفلاندر[4] فتشبع بالثقافة الفلمنكية، رغم أصوله النمساوية الإسبانية. لم يكن مولعا بالدراسة، ورغم كونه ملك إسبانيا فإن لغته كانت الفرنسية، أما الإسبانية فتعلمها بشكل سطحي؛ وكان يفضل فنون الفروسية والصيد على أي أمر آخر.

هذه النشأة جعلته لا يعرف الكثير عن قشتالة أو أراغون؛ ولكن جهله بممالكه في شبه الجزيرة الإيبيرية لم يكن العامل السلبي الوحيد، فقد اعتمد أيضا على حاشية كبيرة من الفلمنك[5] جلبها معه

---

[1]- من هذا الاقتران تكون فرع هابسبورغ النمساوي.

[2]- هو شقيق أنا ياغيلون وملك بوهيميا والمجر في الفترة الممتدة من( 911- 930 هـ ) / (1506 - 1525).

[3]- **أديريان الأترشتي**: هو أديريان فلورنس أوتريخ بدأ مشواره بعمله ككاهن في خدمة الكنيسة، تولى منصب أسقف طرطوشة، ثم توج بعدها بابا على الكنيسة الكاثوليكية عرف بـ "أدريان الرابع".

[4]- **الفلاندر**: تمثل دوقية فلاندرز مهد شارل، وقد أقام بها والده فيليب منذ أن ورث ملكها عن والدته ماري، التي توفيت عن عمر يناهز خمسة وعشرين ربيعا إثر سقوطها عن صهوة جواد. وفي الفلاندر قضى شارل طفولته ومراهقته.

[5]- **الفلمنك**: أو **الفلمنج** للدلالة على أكثر من ستة ملايين شخص من ساكني منطقة الفلاندرز (Flanders) -الجزء الشمالي من بلجيكا- للدلالة، أيضا على غالبية البلجيك. والفلاندرز الحالية لا تعبر عن الفلاندرز القديمة، الفلاندرز القديمة كانت تشمل أجزاء من فرنسا و هولندا حاليا، كما لم تكن تشمل الأجزاء الشرقية و وسط الفلاندرز الحالية. ومصطلح الفلمنك ربما لايزال مستخدما خصيصا للإشارة إلى شرق و غرب الفلاندرز اللتان تعدان محافظتين من بلجيكا الآن، أو للإشارة إلى مناطق البلد الأخرى حيث تستخدم الهولندية بلهجة فلمنكية أو الهولندية الفصحى.

حين وصل إلى قشتالة سنة 922هـ/1517م[1]، تسببت كل هذه المعطيات في اندلاع تمرد أهل المدن تزامنا مع تتويجه إمبراطورا سنة 925هـ/1520م[2].

تربى كارلوس الخامس في ظروف كانت بعيدة كل البعد على التعصب القشتالي[3]، مما جعله لا يعير اهتماما كبيرا لعمل محاكم التحقيق وذلك في بداية مشواره السياسي فقط[4]، إلى أن بدأ يشعر بخطر الحركة البروتستانية في كل من ألمانيا وهولندا، واحتمال تأثير ذلك على الدخل الهائل الذي كان يحصل عليه من الضرائب الباهظة التي فرضها على الهولنديين.

تخلى الإمبراطور كارلوس الخامس عن العرش 966هـ/1556م وانزوي في دير يوستي بعد أن سئم من السلطة والتاج الذي علا رأسه طيلة أعوام وخلف ابنه فليب الثاني على العرش[5]. ومات بعد سنتين من ذلك أي في سنة 968هـ/1558م، دون أن يتمكن من قهر الفرنسيين أو العثمانيين أو حتى البروتستانت، ولكنه خلف وراءه إمبراطورية هائلة لابنه فليب الثاني.

وبهذا كان كارلوس هولندي المولد، غريبا وبعيدا كل البعد عن رعاياه في قشتالة حتى أنه أمضى ستة عشر سنة هناك من أصل الفترة التي حكم فيها التي امتدت حوالي واحد وأرعين سنة، ووصل لتسلم مقاليد الحكم في قشتالة سنة 922هـ/1517م وهو لا يعرف أصول اللغة الاسبانية،

---

[1]- عادل سعيد البشتاوي، الأندلسيون المواركة، (المرجع السابق). ص: 132.

[2]- توفي شقيقه فرديناند سنة 902هـ/1497م دون أن يترك ذرية. وبعد ذلك مباشرة توفيت شقيقته البكر عام 905هـ/1500م وفي السنة نفسها توفي أيضا ابنها الوحيد وولي عهد قشتالة وأراغون. لذلك، بموت الملكة إيزابيلا سنة 909هـ/1504م، ورثت ابنتها خوانا والدة شارل عرش قشتالة، فصار شارل بدوره الوريث المحتمل.

[3]- ترعرع كارلوس بعيدا عن التعصب الديني القشتالي والكراهية الدينية التي جلبت عليها طبيعة جدته إيزابيلا.

[4]-أعلن كارلوس دوقا على بورغونيا سنة 920هـ/1515م؛ اعتمد في تسيير أمور حكمه على مجلس ضم مجموعة من الشخصيات المقربة له نذكر منهم وليم دي كروي وأدريان أوتريخت وجان دي سوفاج.

[5]- الحايك سيمون، المرجع السابق، ص: 33.

مما سبب إخفاقه في تكوين مملكة واحدة متعددة الأطراف يحكمها رجل واحد وتدين له بدين واحد ومذهب واحد هما النصرانية الكاثوليكية، ولكن هذا لا ينفي أنّه كان مؤسس لإمبراطورية مترامية الأطراف، وبقي على فيليب الثاني استكمال رحلة والده.

**2)- بداية مشواره السياسي:** تزامن مع تتويج كارلوس إمبراطورا من طرف رئيس الأساقفة سنة 925هـ/1520م[1] في كاتدرائية آخن حدثان مهمان هما: اندلاع حركة عصيان مسلحة[2] قادها أهل المدن[3]، اشترك فيها كل من النبلاء والتجار ورجال الدين والرعاع على حد سواء[4]؛ ثم الانتصارات التي حققها على المستوى الأوروبي[5]. لقد كانت النقمة عارمة على كل من له صلة بالحكم، فنمت هذه الحركة واتسعت نتيجة الموقف السلبي الذي أخذه أدريان الأترشتي، هذا الأخير عينه كارلوس وصيا على البلاد أثناء غيابه لتسلم عرش الإمبراطورية.

بعث أدريان بجيش قدر تعداده بحوالي ألف جندي لقمع هذه الحركة في مدينة شقوبية سنة 925هـ/1520م، ولكنه هزم، فأرسل تعزيزات أخرى إلى المدينة نفسها، ودارت حرب شوارع

---

[1]. كون كارلوس هابسبورغيا، كان لا بد له من الدخول في مفاوضات من أجل الحصول على قبول الرعية له ملكا. وتحقيقا لهذه الغاية استدعى إلى بلاطات قشتالة نهاية سنة 922هـ/1517م بمدينة بلد الوليد أهم الشخصيات الحساسة وبعد مفاوضات عدة وعند بداية العام التالي، أصبح ملكا على كل قشتالة. بالمثل تصرف مع بلاطات أراغون وكاتالونيا، الذين دعاهم أواخر سنة 923هـ/1518م في سرقسطة وبرشلونة واعترف به ملكا سنة 924هـ/1519م. وفي سنة نفسها استلم عرش النمسا، إضافة لدخول الميراث البورغوندي لجدته من أبيه في حيازته. كما انتخب إمبراطور للرومانية المقدسة.

[2]- محمد علي قطب، المرجع السابق. ص: 50.

[3]- ما شجع سكان المدن بالقيام بحركة عصيان، أنه خلال صيف سنة 924هـ/ 1519م ظهرت بعض حالات الإصابة بالطاعون فهرب المسؤولون والجنود من بعض المدن.

[4]- رمت هذه الحركة التمردية إلى تحقيق قدر أكبر من الوزن السياسي لقشتالة داخل الإمبراطورية.

5- استطاع كارلوس زيادة ممتلكات تاج إسبانيا فيما وراء المحيط من خلال انتصاره على الآستكيين وإستلائه على فلوريدا، كوبا، المكسيك، غواتيمالا، الهند وراسويوكاتان؛ كما استولى على بيرو وشيلي أي من ساحل أمريكا الجنوبية المطل على المحيط الهادئ. على إثر هذه المستجدات عين كارلوس كورتيس حاكما على الأراضي التي استولى عليها في أمريكا الشمالية والتي ستشكل إسبانيا الجديدة .بينما عين بيسارو حاكما للبيرو غداة تتويجه إمبراطورا.

شرسة، وصلت إلى إحراق مدينة كمبو، ثم امتدت إلى بلد الوليد مما اضطر أدريان إلى الفرار[1]، وبات من العسير على كارلوس العودة إلى مملكته.

خلال هذه الحركة التمردية استلم أسقف سمورة قيادة الناقمين والغاضبين، فأحرقوا المزارع والكنائس، ونهبوا ما فيها ولكنه اعتقل أثناء فراره إلى فرنسا وأودع السجن، فحاول الهرب منه بعد خمس سنوات إثر قتل السجان، لكنه اعتقل للمرة الثانية ومات تحت وطأة التعذيب، مما دفع بالبابا إلى فصل الإمبراطور كارلوس من الكنيسة لبعض الأشهر.

في الوقت نفسه الذي اندلعت فيه الحركات التمردية في قشتالة، كان أهل مدن مملكة أراغون يشعلون نيران حركة أخرى ولكن لأسباب مختلفة[2]. وفي السنة التي سبقت اندلاع التمرد شاعت أخبار مفادها قيام العثمانيين بهجوم على اسبانيا[3]، وكان ذلك كافيا لإثارة الاضطراب في نفوس لسكان؛ هؤلاء شكلوا مجموعات تسلمت مقاليد السلطة في بلنسية تزعمها المدعو خوان لورنيك " Ruine Lounik"[4]؛ وبدأت توسع نفوذها على مستوى الأرياف القريبة. ثم انتقلت الزعامة إلى شخص آخر يدعى بيريس "Byriss" الذي وجه نقمة المتمردين ضد النبلاء [5] ثم ضد

---

[1]- عادل سعيد بشتاوي، الأندلسيون المواركة، (المرجع السابق). ص: 132.

[2]- اندلعت في أراغون حركة تمردية أطلق عليها "حركة خرمانيا"، هذه الأخيرة وجهت ضد النبلاء، وقد مثلت "خرمانيا" تجمعا ضم كل فعليات المنطقة.

[3]- يعتقد الكثير من المؤرخين أن انتقال الإشاعة التي مفادها هجوم العثمانيين على اسبانيا في عقر دارها يعود لاستشهاد الأخوين بربروس اسحاق وعروج في واقعة بني راشد بتلمسان سنة 923هـ/1518م. إذ توقعت السلطات الإسبانية أن ردود الفعل العثمانية سوف تكون قوية انتقاما لمقتل زعماء البحرية العثمانية على يد القوات الإسبانية في الجزائر.

[4]- **خوان لورينك**: كان يشتغل بصناعة الملابس، ولكنّ طموحه كان أكبر من ذلك، فقد فكر في تحويل بلنسية إلى جمهورية مستقلة مثل جمهورية البندقية.

[4]- حملت حركته شعار "اليوم تنتهي أيام النبلاء والكفار" وهكذا تحولت حركة التمرد في بلنسية إلى حركة إصلاح اجتماعي من نوع خاص.

المسلمين[1].

وما حدث بعد ذلك يبدو غامضا ولكن نيران هذا التمرد خمدت، في حين بقيت غرناطة وقرطبة ومدن أخرى في المناطق الجنوبية تؤيد الملكية، وتحث كارلوس على العودة إلى البلاد، وكان لانقسام زعماء الحركة وخمود نيرانها دور في تراجعها أمام تقدم المؤيدين لكارلوس، وكانت طليطلة آخر المدن الثائرة التي سقطت بعد قتال عنيف قادته أرملة قائد الحركة في أحد مراحلها بديلا "Badulla". وجاءت نهاية زعماء هذه الحكة حينما أعدم الإمبراطور كارلوس حوالي مائتين وخمسين متمردا في بلد الوليد سنة 927هـ/1522م بعد أربع أشهر من عودته.

ثم جاءت عملية اقتحام المناطق التي سكنها المسلمون ومحاولة تنصيرهم قسرا؛ إزاء هذا الموقف تردد بعض أفراد الأسر الحاكمة في تأييدهم لحركة التمرد في مدينة بلنسية، فانعزلت، وتمكن الموالون لكارلوس من هزيمة قوات بيبرس خارج مدينة بلنسية في تشرين الأول من سنة 926هـ/1521م[2]، وفر زعيم الحركة بيريب، ولكن ألقي القبض عليه أول السنة التالية؛ وانتهت بذلك هذه الحركة التمردية في أراغون، كما سبق وانتهت في قشتالة.

الوفاة المبكرة لجميع ذكور السلالة القشتالية الأراغونية، إلى جانب وفاة والده فيليب مهد الطريق لكالورس بعمر التاسعة عشرة لأن يحكم إمبراطورية بحجم لم يسبق له مثيل[3]؛ فكانت

---

[1]- كان يرى زعيم هذه الحركة أن عددا كبيرا من هؤلاء المسلمين كانوا يعملون لدى هؤلاء النبلاء، وبالتالي اعتبرهم معادين للحركة مثل أثرياء المدينة.

[2]- بشتاوي عادل، المرجع السابق، ص: 133.

[3]- توصل كارلوس بعد عامين من تتويجه في آخن إلى اتفاق سري مع شقيقه فرديناند بشأن الحقوق الميراثية لكل منهما. تقرر بموجب هذا الاتفاق أن تؤول الأراضي النمساوية والتاج الإمبراطوري لفرديناند وذريته، في حين تؤول لذرية كارلوس بورغونيا والفلاندر وإسبانيا والأراضي فيما ما وراء البحار.

ممتلكاته على النحو التالي[1]:

*- إرث إيزابيلا ملكة قشتالة : قشتالة، نافارا، غرناطة، بالإضافة إلى ممتلكاتها في أفريقيا الشمالية وفي أمريكا الوسطى والكاريبي.

*- ورث من جدته للأب لقب دوق بورغونيا[2].

*- إرث فرناندو ملك أراغون : مملكة أراغون، فالنسيا ومايوركا والكونتيا الوراثية في برشلونة وروسيلون وسردانيا وممالك نابولي وصقلية وسردينيا.

*- إرث ماري "Maria"دوقة بورغونيا : الأراضي المنخفضة، فلاندر.

*- إرث ماكسيمليان الأول "Maximilian I"[3]: هابسبورغ، أرشيدوقية، النمسا مع أستيريا وكيرنتنتير ولوميلانو والمجر.

بعد عودة كارلوس الخامس إلى عرش قشتالة أيده المسلمون خوفا من أن تؤدي الفوضى إلى إقحامهم في النزاع وسقوطهم ضحايا لرعاع قشتالة وأراغون، أو على الأقل، لتجنب مصير أندلسي بلنسية، رغم أنهم كانوا الأغلبية فيها، وانتظروا أن يأخذ كارلوس تأييدهم هذا بعين الاعتبار وذلك عند النظر في مظالمهم، وبذلك فقد استبشروا خيرا عندما ألزم الإمبراطور نفسه في خطاب تسلم

---

[1]-للاطلاع على خريطة توضح أهم المناطق التي سيطر عليها الإمبراطور كارلوس الخامس ينظر الملحق رقم: ص:

[2]- **بورغونيا**: كانت بورغونيا أرضا واسعة في شمال شرق فرنسا، اتحدت معها لمصالح مشتركة في الماضي أراضي أخرى والمقاطعات الهولندية والفلمنكية، ما جعل هذه الأراضي الأغنى والأكثر ازدهارا في أوروبا. كانت تلك المناطق تقع في مركز الطرق التجارية الأوروبية وكانت وجهة تجارة ما وراء البحار من وإلى أوروبا.

[3]- حاول الإمبراطور ماكسيمليان جد كارلوس بعد وفاة زوجته ماري عام 887هـ/1482م الاستحواذ على دوقية بورغونيا لقيادتها تحت حكم الهابسبوغيين المباشر، محاولاً انتزاعها من تاج فرنسا. وتحقيقا لهذه الغاية خاض صراعا مع الفرنسيين استمر لأكثر من عقد من الزمن وخرج منه مهزوما. فاضطر في سنة 898هـ/1493م لتوقيع صلح سونلي مع شارل الثامن ملك فرنسا، تنازل بموجبه نهائيا عن جميع مطالبه بشأن دوقية بورغونيا مع احتفاظه بملكه على الأراضي المنخفضة؛ لم يتقبل ماكسيمليان هذا التنازل، وانتقلت تلك الرغبة في الانتقام من فرنسا إلى حفيده كارلوس هذا الأخير لم يتخلى طيلة حياته عن فكرة استعادة بورغونيا.

العرش القشتالي أثناء الاحتفال الذي تم في سرقسطة بعدم التدخل في الشؤون الدينية لمسلمي مملكة أراغون.

## – المبحث الثاني: سياسة كارلوس في محاربة الإسلام في إسبانيا

وجد كارلوس نفسه صاحب سلطة هائلة لم تنافسه في اتساعها وقوتها سوى الخلافة العثمانية؛ كما وجد نفسه فجأة يدافع عن إمبراطورية ضد خطرين داخليين هما "الحركة اللوترية في ألمانيا وسويسرا"، و"حركات التمرد والعصيان التي أعلنها أهل المدن في اسبانيا"، وخطر خارجيين هما "فرنسا والعثمانيون". فكان القضاء على حركات التمرد والعصيان التي اندلعت في المدن الاسبانية لا تعادل شيء مقابل خطر التصدي للوترية التي كرس لها جل حياته، وانتهت باعترافه بالكنيسة البروتسنانتية ولولا صعود اللوترية لكان كارلوس، على الأرجح حل محاكم التحقيق في اسبانيا.

**1)– نقض العهد وتجدد الصراع النصراني الإسلامي:** دخل كارلوس الخامس غرناطة سنة 927هـ/1522م[1] برفقة زوجته[2] إيزابيلا البرتغالية[3]، وأقسم في كاتدرائية غرناطة على أنه سوف يتقيد بالمحافظة على قوانين وامتيازات تلك المملكة[4]، ومن بينها حقوق المسلمين المهدورة بموجب ما نصت عليه وثيقة استسلام غرناطة للملكين.

منذ تولي كارلوس العرش شرعت الشكاوى تتوارد عليه من الطرفين – النصارى والمسلمين–؛

---

[1]– وصل كارلوس إلى ميناء سنتد الواقع على خليج بسقاية ومعه نحو أربعة آلاف جندي ألماني، وقد أثارت رؤية هؤلاء الجنود في قشتالة استغراب الناس.

[2]– محمد الغساني الأندلسي، المصدر السابق. ص: 83.

[3]– تزوج كارلوس في الحادي عشر من شهر مارس سنة 931هـ/1526م من ابنة خالته إيزابيل أفيس المولودة سنة 908هـ/1503 م، وتوفيت سنة 980هـ/1539 م؛ وأنجب منها ستة أبناء.

[4]– دون باسكوال بورونات، المصدر السابق. ص:125.

فعن الجانب الأول اشتكى وتذمر من كثرة الجرائم وانعدام الأمن والنظام في المملكة لانتشار قطاع الطرق واللصوص. وكانت أصبع الاتهام موجهة إلى المسلمين طبعا، إذ ادعى هؤلاء النصارى أن المسلمين أساءوا استعمال الامتيازات الذي نالوها[1]، مما نتج عنه انتشار الجريمة. فيما اشتكى الطرف الثاني بكثرة التعديات والإهانات التي كانت تأتيهم من النصارى وموظفي محاكم التحقيق.

على إثر هذه الشكاوى قرر الإمبراطور كارلوس الخامس تسليم الملف إلى مجلس[2] للنظر فيه، وبدوره عين هذا الأخير خمس أعضاء[3] لدراسة القضية[4] والتأكد من صحة ما يدعيه المسلمون والنصارى على حد سواء. فكانت نتيجة البحث والتحريات التي قام بها أعضاء اللجنة الخماسية أن أكدت على أن جميع المسلمين الذين تعمدوا منذ سبعة وعشرين عاما أكثرهم ظل مسلما في الباطن وبالتالي رفعت تقريرها إلى الإمبراطور بضرورة معاقبتهم والنظر في أمرهم.

أمام هذه المستجدات طلب كارلوس من البابا كلمنت السابع "Clément VII "في الفترة الممتدة من 928-929هـ/1523-1524م أن يحله من يمينه الذي اقسمه عام 923هـ/1518م بأن لا يطرد عربيا أو ينصر مسلما فوافق البابا وجاء في رسالة هذا الأخير[5]:"...**إن البابا يشعر**

---

[1]- من بين الامتيازات التي منحت لمسلمي اسبانيا الإذن لهم بحمل السلاح، واقتنائها والمتاجرة في البعض منها.

2- كان إلى جوار كارلوس مجلس دولة يمارس نفوذا كبيرا على القرارات المتخذة، تألف من ثماني أعضاء هم : واحد إيطالي وواحد سفوي وإسبانيان وأربعة من الفلمنك. كما تشكلت بالمجلس جبهتان منذ تأسيسه : يرأس الأولى نائب الملك في نابولي كارلو دي لانوي، أما الجبهة الثانية فكان يرأسها البييمونتي مركورينو أربوريو غاتينارا كبير مستشاري الملك، وقد استمر في هذا المنصب من سنة 924هـ/1519م إلى غاية سنة 935هـ/1530 م.

[3]- تكونت هذه اللجنة من لويس واللسانسيادو أوتييل، وبطره Guevera، وأسقف وادي آش، والراهب الفرنسيسكاني أنطونيو دي غيفاره Avalos، وكان رئيس هذه اللجنة المطران غسباردي أبالو.

[4]- لقد عرفت هذه الشخصيات التي تكونت منها اللجنة الخماسية بقساوتها والشدة في التنقيب على عادات المسلمين وتقاليدهم لهذا فإن قرارتها سوف تكون مبنية على هذا الأساس.

[5]- دون باسكوال بورونات، المصدر السابق. ص:130.

**بحزن عـميق عنـدما علـم بـأن من رعـايا كـارلوس جمـاعات كثيرة من العرب والمسلمين في بلنسية وقطالونيا وارغون لا يستطيع المؤمنون المسيحيون التعامل معهم دون خطر..."**

هكذا أعلن البابا عن إحلال كـارلوس إحـلالا تـاما مـن قسمـه وإعفـائه من جميع "الآثـام" المترتبة على ذلك بموجب صلاحيات البابا. وبدأت أكبر عملية تنصير للمسلمين في تاريخ هذا الإمبراطور[1]، لهذا قرر أن ممارسة المتهمين للدين الإسلامي سرا فضيحة كبرى، وأمر خطير للغاية[2]، لذلك استدعى إلى البلاط اللاهوتيين والعلمانيين، وتشكلت اللجنة من ثلاثة عشر كنسيا وعلمانيا[3]، كلفوا بمتابعة الملف وإصدار العقوبات في حق المتهمين[4]. وبعد إطلاع الإمبراطور على على نتائج أعمال اللجنة قرر إصدار مرسوم يقضي بما يلي[5]:

- التخلي عن اللغة العربية واللباس العربي.
- على النساء الظهور في الشوارع كاشفات الوجوه.
- على الرجال طلب الإذن من القاضي بحمل السلاح.
- تكتب جميع العقود باللغة الاسبانية.
- يفرض على الخياطين تفصيل ثيابا قشتالية.

---

[1]- دون باسكوال بورونات، المصدر نفسه. ص:119.

[2]- حايك سيمون، المرجع السابق، ص: 31.

[3]- تكونت هذه اللجنة من رئيس محكمة التحقيق بصفته مرشد الإمبراطور الروحي، وأسقف مندنيده، وأورنسة Osma مطران اشبيلية، ومطران وادي آش، والمرية، وأوسمة، ورئيس أساقفة سنتيا قوب، مع ثلاثة وزراء من المحكمة العليا لكي يقرروا مصير مسلمي اسبانيا البالغ عددهم آنذاك نصف مليون شخص.

[4]- عقدت هذه اللجنة عشر جلسات أسفرت عن محو آخر سطر من المعاهدة التي فتحت أبواب غرناطة في وجه الملكين الكاثوليكيين، ووافق الإمبراطور على جميع المواد المذكورة في النص الذي عرض عليه وحوله إلى مرسوم قانون.

[5]- دومينغيث اورتيث برنارد فينسينت، المرجع السابق. ص:29.

– يمنع على الصياغين صناعة حلي على الطريقة الإسلامية.

– يجب أن تكون القابلات من النصرانيات لكي لا تستعمل العادات والتقاليد الإسلامية عند ولادة الطفل.

– تعليم الديانة المسيحية لأبناء المسلمين في كلّ من غرناطة ووادي آش والمرية.

لكنه توقف مفعول هذا المرسوم بعدما أن عرض عليه المسلمون مبلغ ثمانين ألف دقوية[1] بموجبه خول لهم الإمبراطور حق استعمال اللغة العربية، وارتداء اللباس الإسلامي، وحمل السلاح والخنجر في القرى، والرمح على مستوى الحقول، كما حظر على عمال محاكم التحقيق متابعتهم أو مصادرة ممتلكاتهم.

**2)– عمل محاكم التحقيق:** شهدت محاكم التحقيق اعتبارا من سنة 928هـ/1523م توسعا هائلا في دائرة اهتمامها ومسؤولياتها لم تقتصر على ملاحقة مسلمي اسبانيا فقط بل أيضا امتدت للقضاء على اللوتريين أو أنصارهم في اسبانيا خارجها. وفي اسبانيا نفسها اعتمدت محاكم التحقيق دائما وفي صورة حاسمة على وشايات الاسبان بممارسي" الهرطقة" بموجب المرسوم المشهور الذي أصدرته **إيزابيلا**. ولم يكن الإبلاغ على مظاهر "الهرطقة" واجبا قوميا ودينيا فقط، بل كان الامتناع عن ذلك جريمة ينزل بمرتكبها عقابا شديدا.

كما قدمت محاكم التحقيق إلى جانب التهديد بالعقاب حافزا ماديا، فكـان الواشون يتحصـلون

[1]– استفاد الإمبراطور كارلوس الخامس من هذا المبلغ في بناء قصره في الحمراء، لكنه لم ينجز بناءه.

على مكافآت مالية[1] تتناسب والأحكام التي تصدر ضد المتهمين، كما صرفت لبعض الواشين شهادات "حسن السلوك" يمكن استخدامها، إلى جانب شهادات نقاء الدم، لشغل المناصب الرفيعة أو المهمة.

ومع مرور الوقت تطورت الحاجة لحماية هؤلاء الواشين من انتقام ذوي المتهم المدان، فكانت المحكمة تحفظ سرية أسمائهم وعناوينهم، وتمنع المتهم من مواجهة الواشي مهما كانت الظروف أو نوع التهمة الموجهة له. كما أصدرت محاكم التحقيق لوائح تنظيمية سنوية تؤطر الوشاية وتحدد أنواعها[2]، ولذا كان سهلا على الاسبان، التعرف على نوع "الهرطقة" التي يمكن الإبلاغ عنها لعمال محاكم التحقيق.

بهذا الصدد كلف كارلوس الخامس المحقق العام ألفونصو مانريك "Alfonso Manrique، الذي جمع العناصر القابلة للوشاية بكل من كان يشك في أمره في لائحة جرى تعليقها في الأماكن العامة يتقدمها أمر بأهمية الوشاية بمن يخالف تعاليم الكاثوليكية[3]؛ وقد حملت هذه اللائحة مجموعة من البنود، حدد آخر أجل للتقيد بها ست أيام من رؤيتها، أو سوف يعرض كل من يخالفها لعقوبات صارمة؛ وتضمنت هذه اللائحة ستة وثلاثين بندا[4]، نذكر منها:

- أن يسمع الواشي من أحد المنصرين الجدد: أن دين محمد (صلى الله عليه وسلم) هو

---

[1]- لم تكن المكافأة المالية هي وحدها الدافع وراء الوشاية، فقد اعتبر بعض الواشين أنفسهم مواطنين صالحين وكاثوليكيين أتقياء فكانوا ينطلقون من شعورهم الكاثوليكي العميق بصدق موقفهم وعدالته في الوشاية بكلّ من كان يشك في أمر.

[2]- خصت هذه اللوائح في بداية الأمر اليهود وبعض المسيحيين ذوي الممارسات الدينية غير الكاثوليكية ؛ ولكن فيما بعد تحولت على عهد كارلوس ضد المسلمين في اسبانيا.

[3]- 4_Liorente Juan Antonio, Historica critica de la inquisicion de Espana, Tome I, pp : 241

5_Ibid, PP : 241-247.

الأفضل، وأن لا سبيل لغيره إلى الجنة.

– الاعتقاد بأن المسيح عليه السلام نبي وليس إلها، وأن أمه لم تكن عذراء.

– إذا سمع الواشي أو رأى أن النصارى الذين تم تعميدهم يمارسون بعض الطقوس للاحتفال بأعياد دين محمد (صلى الله عليه وسلم ) مثال ذلك: الاحتفال بيوم الجمعة بأكل اللحم وقولهم إنه حلال، وكذلك تزينهم بقميص نظيف وملابس أحسن من بقية الأيام الأخرى.

– إذا تم ذبح الدواجن أو الحيوانات عن طريق قطع العنق بسكين محولين وجهة نحو المشرق[1] وقائلين "بسم الله".

– إذا ختنوا أبناءهم أو لقبوهم بأسماء عربية.

– إذا قالوا وجب الإيمان بالله وأن محمدا "صلى الله عليه وسلم" نبيه.

– إذا حلفوا بكل الأيمان القرآنية.

– إذا صاموا رمضان، ولم يأكلوا ولم يشربوا حتى يلاحظوا النجمة الأولى، واستفاقوا ليأكلوا قبل طلوع النهار أو غسلوا أفواههم ورجعوا إلى فراشهم.

– إذ توضأوا فغسلوا السواعد والأيدي حتى المناكب والوجه والأنف والأذنين والساقين.

– إذا صلوا وحولوا وجهتهم نحو الشرق فوق حصير أو قطعة من قماش، ثم حركوا رؤوسهم قائلين بعض الكلمات العربية قائمين بغيرها من الصلوات المحمدية.

– إذ احتفلوا بعيد الأضحى.

[1] – قصد بها القبلة.

– إذا تزوجوا على سنة محمد "صلى الله عليه سلم " وإذ غنوا الأغاني العربية ونظموا حفلات أو رقصات وضربوا آلات موسيقية ممنوعة.

– إذا وضعوا على أبنائهم شكل يد بخمس أصابع كذكرى للفرائض الخمس.

– إذا احترموا تعاليم الإسلام الخمسة، وغسلوا موتاهم ولفوهم في كفن من قماش أبيض ودفنوهم في أرض بكر أو في قبر عميق واضعين حجارة تحت رؤوسهم وتاركين على اللحد أغصانا خضراء وشيئا من العسل والحليب وطعام آخر.

– إذا تذكروا محمدا "صلى الله عليه وسلم " عند الحاجة وقالوا إنه نبي الله ورسوله "صلى الله عليه وسلم".

– إذا قالوا إن أول بيت لله هو بمكة، وأن محمدا "صلى الله عليه وسلم " دفن فيها.

من خلال قراءة متمعنة في بنود هذه اللائحة نجد أن كارلوس ومن ورائه الكنيسة ورجال محاكم التحقيق لم يتركوا ثغرة أو أمر لم يتم التطرق فيه؛ فنجد إشارة إلى العقيدة والعبادات والمعاملات، والعادات الإسلامية، وبأدق تفاصيلها وكأن من أملي هذه البنود كان يمارسها، وبهذا يمكننا أن نستنتج أنه من كتب هذه اللائحة كان له دراية كاملة ودقيقة بتفاصيل الدين الإسلامي وممارسته.

وقد قعت بنود هذه اللائحة على مسلمي اسبانيا كالصاعقة، فسعوا إلى فتح المفاوضات مع السلطة لكن هذه الأخيرة كانت قد سلمت الأمر إلى محاكم التحقيق وبدأ قطار نشاطها يندفع بسرعة كما لو كان بالقوة الكامنة؛ إذ لم ينتظر عمال محاكم التحقيق كثيرا إذ بدأت الوشايات تصل

إليهم في بلنسية فور تعميم اللائحة، فقبضوا على عدد كبير من مسلمي اسبانيا لأسباب اعتبرها هؤلاء بسيطة، وبدأت بمصادرة أملاك المشتبه فيهم بمخالفتهم ما أدرجته اللائحة لصالح خزانة الدولة.

في 28 أبريل من سنة 929هـ/1524م استقبل المحقق العام مانريك في مدينة برغش[1] وفدا من مسلمي المنطقة استمع إلى شكاويهم التي تضمنت تشدد عماله في معاملتهم فحصلوا منه على وعد بتوخي العطف في التعامل معهم[2]. أما في شهر ماي من العام التالي (930هـ/1525م) فقد وجهت أوامر صارمة إلى كل المسلمين المعمدين بالتوجه إلى كاتدرائية بلنسية لإبرائهم من تهم الهرطقة، وتوعدت كل من يرتد منهم بعد التعميد بالإعدام ومصادرة الأموال والممتلكات.

وفي 13 سبتمبر من السنة نفسها وجه كارلوس إلى مسلمي بلنسية أمرا بقبول التعميد رغبة في "**إنقاذ أرواحهم وانتزاعهم من الضلال الذين تعيشون فيه**"، وتبع ذلك قرار في 16 أكتوبر من العام نفسه بإجبار مسلمي اسبانيا على التعريف بأنفسهم عن طريق وضع هلال من قماش أزرق على قبعاتهم بحجم البرتقالة.

ولحق به أيضا قرار آخر صدر في السنة نفسها بإجبار مسلمي إسبانيا على الإبلاغ عن أي متنصر جديد يرجع إلى الإسلام. أما آخر سلسلة القرارات التي عرفها عام 930هـ/1525م فهو الذي نص على وجوب قيام محاكم التحقيق والكنيسة بتعميد جميع مسلمي اسبانيا قسرا قبل تاريخ 31 يناير من سنة 931هـ/1526م.

---

1- **مدينة برغش**: تقع هذه المدينة في قشتالة القديمة شمالا.

2 - Liorente Juan, OP, Cit, P: 248.

كما أمر كارلوس بتأسيس محكمة للتحقيق في غرناطة عام 931هـ/1526م[1]، على إثرها عمدت هذه المحكمة على ملاحقة مسلمي غرناطة، إذ سجنت منهم الكثير، وأحرقت عددا كبيرا منهم في احتفال خاص[2]؛ وقد تألفت مجموعة الاتهامات التي حكموا على إثرها بالسجن ثم الحرق من: الإلحاد، تعدد الزوجات، ممارسة السحر والشعوذة – على حد زعم عمال محاكم التحقيق.

**3)– سياسة المهادنة وتداعياتها:** مع نهاية العشرينات من القرن العاشر الهجري الموافق للقرن السادس عشر ميلادي، بدأت سياسة كارلوس الخامس تتغير؛ ففي عام 932هـ/1527م أمر المحقق العام لمحاكم التحقيق بعدم التدخل في شؤون مسلمي منطقة مونزون[3]؛ كما تابع كارلوس سياسة التهدئة في السنوات اللاحقة فأصدر قرارا إلى محكمة التحقيق في بلنسية بتاريخ 12 يناير من سنة 975هـ/1534م بالامتناع عن مصادرة أي أملاك جديدة تخص مسلمي المنطقة، المتهمين "بالهرطقة" لمدة أربعين سنة. ولحق بذلك القرار مرسوم آخر في سنة 976هـ/1535م تبناه المجلس الأعلى في بلنسية يحظر تطبيق عقوبة الحرق في حق مسلمي المنطقة المعمدين.

---

1– انتقلت محاكم التحقيق في عهد خيمينس إلى قمة جديدة فقسم البلاد إلى عشر مقاطعات شكّل في كل منها محكمة، ووضع على رأسها محققا من اختياره. وكان لخيمينس حسابا لم يتمكن من تصفيته بعد المقاومة المسلحة في منطقة البشرات، التي تسبب بقيامها، واعتقد بعد استلامه منصب المحقق العام أن الوقت حان، فأراد أن يقيم فرعا للمحكمة في غرناطة غير أن الملك فرناندو تدخل ورفض رفضا قطعيا هذا الأمر، متابعاً بذلك النهج الذي اختطته زوجته إيزابيلا، فهذه الأخيرة رفضت مطلب البابا بإقامة محكمة تحقيق في غرناطة، استجابة لمطالب النبلاء، أركان مملكتها، الذين وفروا القسم الأكبر من آلة الحرب ضد غرناطة. ففي تلك الأثناء لم يكن حتى الملوك الكبار قادرين على الاحتفاظ بجيش كبير. وعندما تنشب حرب ما فإن كل نبيل ودوق وكونت يتعهد بتقديم عدد معين من المشاة أو الفرسان. وكان هؤلاء النبلاء تواقين إلى إشعال الحرب مع غرناطة لأنّ الحرب كانت أهم السبل وأسرعها إلى جمع الثروة والجاه والمناصب الرفيعة. ولما انتهت الحرب وحل السلام سعى هؤلاء إلى جمع ثروتهم من إنتاج الأراضي التي اقطعتها لهم إيزابيلا، فكان عليهم استخدام مسلمي غرناطة لهذه الغاية، لذا كان من شأن الاستمرار في الضغط على هؤلاء إلحاق في الضرر بالنبلاء. وهكذا تغلبت مصالح إيزابيلا الملكة على مصالح إيزابيلا الكاثوليكية وقاومت إغراء إقامة محكمة للتحقيق في غرناطة ومنعت عمالها في حالات كثيرة من التدخل في شؤونهم.

2– البشتاوي، الأندلسيون المواركة، (المرجع السابق). ص : 254.

3– **مدينة مونزون:** تقع في الشمال الشرقي من سرقسطة في الطريق الرابط بين مدينة لاردة وشقة.

أما في عام 977هـ/1536م أصدر كارلوس قرارا يقضي بعدم مصادرة ممتلكات مسلمي اسبانيا؛ كما حمل القرار أمرا يمنع تدخل عمال محاكم التحقيق في شؤون مسلمي قطالونيا؛ كما رافق هذه القرارات قرار خص مملكة غرناطة تضمن منع مفتشي محاكم التحقيق التدخل في شؤون مسلمي غرناطة لمدة أربعين سنة مستقبلا[1].

بات من خلال مجموعة القرارات التي أصدرها الملك كارلوس الخامس أن سياسة الحكومة الإسبانية تغيرت، وهذا التغيير لم يكن ناتج عن تعاطف الملك وحكومته مع مسلمي إسبانيا، أو حتى استيقاظ ضمير عمال محاكم التحقيق اتجاه ما ارتكبوه من جرائم فظيعة في حق هؤلاء المضطهدين، وإنما كانت نتيجة لمجموعة من المعطيات والمستجدات محلية ودولية.

لقد كان النبلاء والإقطاعيون أكثر المتضررين مباشرة من قرارات تعميد مسلمي اسبانيا وملاحقتهم، فحاول كارلوس الخامس تلطيف وقع قراراته على اقتصاد النبلاء من خلال منحهم أوقاف المساجد التي تم تحويلها إلى كنائس، ولكنّ هذا الإجراء لم يلق قبول الجميع؛ فتطورت معارضة قوية لهذه السياسة، واستطاع النبلاء في نهاية المطاف الضغط على كارلوس والكنيسة بتغيير سياستهما اتجاه مسلمي اسبانيا خاصة في كل من أراغون وغرناطة.

## – المبحث الثاني: السياسة الإسبانية الخارجية وانعكاساتها على مسلمي اسبانيا (971– 946 هـ/1530– 1541م)

لم يجمع كارلوس خلال فترة حكمه الكثير من النجاحات؛ ربما لضخامة ممتلكاته أو لوجود

[1]– بشتاوي، الأندلسيون المواركة، (المرجع السابق). ص: 255.

حقائق معاصرة أخرى متعارضة مع إمبراطوريته، مثل فرنسا والدولة العثمانية فقد شكلت هذه الدولتين أكبر عائق أمام سياسة كارلوس الرامية لتكوين إمبراطورية موحدة يحكمها إمبراطور واحد، وتسيرها الكنيسة الكاثوليكية.

كما توجب على كارلوس مواجهة المشاكل الداهمة في ألمانيا، بسبب العقيدة الدينية الجديدة التي ظهرت في مواجهة الكنيسة الكاثوليكية. لم تتجل تلك المشاكل في الخلافات المذهبية فحسب، بل أدت أيضا إلى صراعات مفتوحة؛ فقد جعل كارلوس من نفسه بأنه أقوى مدافع على الكنيسة الكاثوليكية، ومع هذا لم يستطع هزيمة العقيدة الجديدة ولا الحد من انتشارها على أقل. وانتهى اجتماع أوغسبورغ 971هـ/1530م وريغنسبورغ 981هـ/1540م دون نتائج.

**1)- اسبانيا في مواجهة البروتستانت:** من أبرز سمات هذه المرحلة انتشار الفساد، ومحاربة العلم والعلماء والتنكيل بهم، والإقرار أن البابا معصوم له حق الغفران، مما دفع إلى قيام العديد من الحركات الداعية لإصلاح فساد الكنيسة، وفي وسط هذا الجو الثائر ضد رجال الكنيسة انعقد مؤتمر ترنت عام 983هـ/1542م لبحث مبادئ مارتن لوثر التي تؤيدها الحكومة والشعب الألماني، وانتهى إلى عدم قبول آراء الثائرين أصحاب دعوة الإصلاح الديني.

من هنا انشقت حركة دينية جديدة هي البروتستانت[1] لتستقر النصرانية بعد الصراع الذي عصف بتاريخها على ثلاث حركات رئيسة، لكل واحدة منها عقيدة مستقلة، وهي: الأرثوذكس[2]،

---

[1]- استخدمت هذه الكلمة للمرة الأولى في محفل عُقد في مدينة شبير Speyer الألمانية عام 970هـ/1529م.

[2]- **الأرثوذكس:** كلمة أصلها يوناني ومعناها العقيدة القويمة أو الملتزمة. ينظر: محمد ضياء الرحمان الأعظمي، المرجع السابق. ص: 171. ومضمون الأرثوذكسية الدينية لا يمكن تفسيره عن طريق العقل بالمعنى الحديث للكلمة. ينظر: محمد أركون، الفكر الإسلامي قراءة علمية، تر: هاشم صالح، د ب ن: المركز الثقافي العربي، ط: 2، 1986م. ص: 7.

الكاثوليك والبروتستانت، هذه الأخيرة شكلت حركة إصلاح ديني[1] معادية لكاثوليكية روما[2] في زوريخ واتسعت لتشمل ألمانيا[3] والنمسا، وتزامن ولادة هذه الحركة بتعزيز كارلوس الخامس لسيطرته على ممالكه الأوروبية، وبهذا وجد نفسه يتصدى للوتر[4] بوصفه إمبراطورا على ألمانيا وهولندا[5].

أمام هذه المستجدات حاول كارلوس الخامس التوصل إلى حل توفيقي لهذه المشكلة فعفى على لوتر واستدعاه للمثول أمام محفل فورمز "Worms"[6]، فلما لاحظ كارلوس قوة الاقناع التي يملكها لوتر تفطن بأنه ارتكب خطأ كبيرا باستدعائه لهذا المحفل، لكن التراجع لم يعد ممكنا وكان عليه

---

[1]- أحدث لوتر في بداية القرن السادس عشر ثورة دينية كبيرة وذلك عندما ترجم العهد الجديد إلى الألمانية، وبات في استطاعة مواطنين عاديين لا يعرفون اللاتينية قراءة الإنجيل بلغة يعرفونها للمرة الأولى. وأشرك لوتر بتوفير تلك الترجمة الناس في ما بعد في الحوار الدائر في شأن طبيعة مهام البابوية، وكان في إمكانهم أن يلاحظوا أن الإنجيل لا يتضمن كثيرا من الطقوس والممارسات الشائعة في الكنيسة الكاثوليكية.

[2]- احتج الأمراء الألمان المساندين للوتر خلاله على الضغوط التي كان كارلوس الخامس يمارسها عليهم للتخلي عن مساندة لوتر. ولم تكن اللوترية حتى ذلك التاريخ وضعت أسس حركتها الدينية التي ولدت بعد عام من ذلك في محفل أوغسبرغ Augsburgعندما قدم إليه فيليب ميلانشتون وثيقة اللوتريين التي عُرفت باسم "اعتراف أوغسبرغ" فاتسع نطاق الخلاف مع الكاثوليكية ليشمل معارضة التبتل وإكرام القديسين والقدّاس وغيرها. وأضافت جماعات إصلاحية مبادئ أخرى إلى اللوترية مثل وقف تعميد الأطفال وتعميد البالغين بدلا من ذلك الحركة المضادة للتعميد

[3]- عكس لوتر مشاعر استياء رجل الشارع الألماني عندما انتقد في 13 أكتوبر من عام 922هـ/1517م تسويق صكوك الغفران مما يفسّر التأييد شبه الفوري الذي حظيت به أطروحاته. فخلال تلك الفترة كان الألمان العاديون يعانون ضائقة مالية سببها جشع التجار المحليين الذين رفعوا الأسعار،- وانتشار الأزياء الأجنبية ذات التكلفة العالية في البلاد مما أثر سلبا على الصناعة المحلية. وجاءت صكوك الغفران فامتصّت جزءا من السيولة فاتسع نطاق الاستياء الذي ظل مع ذلك مخنوقا لأن إظهاره كان يعني انتقاد البابوية وبالتالي الكاثوليكية التي كانت مذهب الألمان حتى تلك الفترة. ينظر: صبري المقدسي، الموجز في المذاهب والأديان، ج:1، المديرية العامة للثقافة والفنون، ط:1، 2007م. ص ص: 265-266.

[4]- **مارتن**: هو مارتن لوتر، ولد في مقاطعة ساكسونيا سنة 888هـ/1483م، من عائلة بسيطة، درس بكلية الحقوق، ثم انضم لسلك الرهبنة سنة 910هـ/1505م في أحد أديرة القديس أوغسطين. تحصل على شهادة الدكتوراه في علم اللاهوت سنة 913هـ/1508م، ثم اعتلى كرسي الأستاذية بجامعة فيث ندرت. أول اتهام وجهته البابوية إلى لوتر هو أنه يتبنّى التعاليم الإسلامية ويؤيد بحركته هدف المسلمين شق الكنيسة الكاثوليكية. وسعى لوتر إلى دفع هذه التهمة عن نفسه فكتب ضد الإسلام وعدّد انتقاداته للدين الإسلامي ومن بينها عدم الاعتراف بصلب المسيح، لكن التهمة ظلت عالقة به. ودعا مرة إلى تنظيم حملة صليبية ضد العثمانيين لكنّه عاد وقال إن الحملات الصليبية أعمال نصرانية غير شرعية.

[5]-كانت هولندا من أغنى الممالك التي احتلتها اسبانيا، ومن بين أهم الدول التجارية والمالية في أوروبا، فكانت هذه المنطقة تمد خزينة اسبانيا بأموال

[6]- عقد هذا المحفل في ألمانيا عام 926هـ/1521م برئاسة كارلوس الخامس، وأمر هذا الأخير لوتر بسحب أقواله وأطروحاته، ولكنه رفض، حينها عرف كارلوس أنه ارتكب خطأ كبيرا بعد دقائق من إعطائه الفرصة للكلام، إذ كان مقتنعا في طرح آرائه وأفكاره.

الإنصات إليه وهو يشرح أفكاره[1]. حينها أعطى كارلوس لوتر بعض الوقت لمراجعة نفسه، ولما وجده متشبثا بآرائه[2] أحل دمه ونادى بقتله في سائر ممالكه.

كانت شهرة لوتر ذاعت وقتها والتف حوله الناس فخشي أمير ساكسون الألماني فريدريش "Fridirich" الملقب بـ"الحكيم" من ثورة الناس عليه إن هو قتله أو سلمه، فآواه وحماه. وهكذا وجد لوتر نفسه يقود هذه الحركة ضد ممارسات البابوية مدة خمسة وعشرين عاما[3] غاية ساعة وفاته عام 987هـ/ 1546م.

أمام هذه المستجدات أخذ كارلوس يدعم نشاط محاكم التحقيق في هولندا للقضاء على البروتستانت[4]، في الفترة الممتدة ما بين سنة 928هـ/1523م و930هـ/1525م، اعتبارا أن هذه المحاكم كانت امتدادا طبيعيا لسلطته، كما كانت سابقا على عهد أسلافه[5]، ولأنه كان

---

[1]- شرح لوتر أفكاره للمحفل قائلا: "الدين في نظري يضع الإنسان مباشرة أمام الخالق، وبأن الله يجعل المؤمنين أحيارا من خلال عطفه عليهم، وبأن خلاص الناس ينبع من الإيمان بالمسيح الذي يوجد فيه فقط الصلاح الكافي لتحقيق الخلاص ما لم أكن مقتنعا بشهادة الكتاب المقدس أو بسبب واضح، فأنني ملتزم عهدي بالكتاب المقدس الذي اقتطفت منه وضميري أسير كلمة الله. لذا لا استطيع سحب أي شيء ولن أسحب أي شيء فليس سليماً ولا صحيحا مخالفة ضميري".

[2]- وجد لوتر نفسه آنذاك في وضع خاص إذ مكنه تعمقه في دراسة أصول النصرانية من ملاحظة الاختلاف بين حال الكاثوليكية آنذاك والحال الذي كانت عليه النصرانية في بداية انتشارها، كما وجد اختلافات في الترجمات الكثيرة التي أعدت للعهدين القديم والجديد.

[3]- لم يقصد لوتر الراهب الكاثوليكي وأحد أهم الدعاة في ألمانيا من أطروحاته شق الكنيسة ولا الحديث عن فساد الكنيسة الكاثوليكية لأنه كان لا يزال كاثوليكيا ورجلا من رجال الكنيسة، غير أن نشرها في تلك الفترة بالذات شجع بعض الألمان على توجيه انتقادات إلى سلطات البابا كاستمرار للصدام الذي نشأ بين الملوك الألمان والباباوات منذ نهاية القرن الحادي عشر. واتسع نطاق هذه الانتقادات مع الزمن فشملت السلطات البابوية الدينية والزمنية، ثم شرعية البابوية نفسها وأدت إلى انفجار صراع ديني دموي رهيب انتهى بأحداث شرخ في الكنيسة الكاثوليكية أهم من الشرخ الذي حدث بين الكنيستين الغربيّة والشرقية قبل نحو خمسة قرون من ذلك في مكان آخر هو القسطنطينية.

[4]- بحلول القرن الحادي عشر من خلال جهود غريغوري السابع، نجحت الكنيسة بتأسيس وإعلان نفسها بأنها كيان مستقل من الناحية القانونية والسياسية داخل المسيحية الغربية مما أتاح للكنيسة قوة سياسية وتأثير كبير على المجتمع الغربي؛ وكانت قوانين الكنيسة وتشريعاتها القانون النافذ ويمتد تأثيرها إلى السلطات القضائية وحياة والشعوب في جميع أنحاء أوروبا، مما أتاح لها سلطة بارزة. ومن خلال نظام المحاكم الخاص بها، احتفظت الكنيسة الولاية على جوانب كثيرة من الحياة العادية، بما في ذلك الميراث، والتعليم، والوعود شفوية، وخطاب القسم، والجرائم الأخلاقية، والزواج. وباعتبارها واحدة من أقوى المؤسسات في العصور الوسطى، فقد انعكست المواقف الكنيسة على القوانين العلمانية الحديثة.

[5]- اقتضى تمويل الحروب التي كان يخوضها كارلوس ضد فرنسا من جهة، والخلافة العثمانية من جهة أخرى ضح الخزانة بالأموال، لذلك تسامحت السياسة الاسبانية مع مسلمي اسبانيا مقابل الحصول على أموالهم التي ضمنت لهم الحرية الدينية المحدودة.

يعيش مخاوف اتساع حركة الإصلاح الديني في ممالكه الأوروبية[1] وسع من صلاحيات عمال محاكم التحقيق[2]، عندها تقدمت إليه بعض الزعمات المسلمة في غرناطة، يطلبون منه وقف مضايقات محاكم التحقيق احتراما لبنود المرسوم الصادر عام 931هـ/1526م.

فقد شهدت مهام محاكم التحقيق اعتبارا من عام 928هـ/1523م توسعا هائلا في دائرة اهتمامها ومسؤولياتها، إذ لم تقتصر على ملاحقة مسلمي اسبانيا بل أيضا على اللوتريين أو أنصارهم[3]. وفي إسبانيا نفسها اعتمدت محاكم التحقيق دائما وفي صورة حاسمة على وشايات الإسبان بممارسي الهرطقة بموجب المرسوم المشهور الذي أصدرته إيزابيلا. ولم يكن الإبلاغ عن مظاهر الهرطقة واجبا قوميا ودينيا فقط بل كان الامتناع عن ذلك جريمة ينزل بمرتكبها عقاب شديد.

قدمت محاكم التحقيق إلى جانب التهديد بالعقاب حافزا ماديا فكان الواشون يحصلون على مكافآت مالية تتناسب والأحكام التي تصدر على المتهمين في حال ثبوت التهم الموجهة إليهم. وإضافة إلى المكافأة المالية[4]، كانت المحاكم تصرف لبعض الواشين شهادات "حسن سلوك" يمكن استخدامها، إلى جانب شهادات نقاء الدم، لشغل المناصب الرفيعة أو المهمة.

---

[1]- ضمت إمبراطورية كارلوس في البحر الأبيض المتوسط نابولي وصقلية وسردينيا، والبلاد الواطئة، بالإضافة إلى ممالك أخرى مثلت نصف القارة الأوروبية، علاوة على المستعمرات الاسبانية الهائلة في العالم الجديد.

[2]- فيما عكفت البابوية على دراسة الأطروحات بدأ بعض الألمان في توسيع نطاق الخلاف فشمل بعض صلاحيات البابا. وتطور انتقاد تسويق الصكوك إلى حركة ضد السلطات البابوية الزمنية، ثم صارت اللوترية حركة أصولية نصرانية نادت بالعودة إلى نقاء النصرانية الأولى والرجوع إلى تعاليم العهد القديم ونبذ البدع التي دخلت على الدين. وظل لوتر في البداية مصراً على أن انتقاده محصور بتسويق صكوك الغفران

[3]- خلال المعارك التي دارت رحاها على مستوى البحر الأبيض المتوسط كان مسلمو اسبانيا يدفعون الثمن تارة، لنجاح الهجمات على الأساطيل الاسبانية والأرغونية والإيطالية، وتارة أخرى لتقدم حركة الإصلاح الديني في أوروبا، وأحيانا أخرى بسبب إخفاق حاكم أو آخر أو سياسة أو أخرى.

[4]- لم يكن دافع الوحيد للوشاية هو الحصول على المكافأة أو الانتقام، فبعض الوشاة كانوا مواطنين صالحين وكاثوليكيين أتقياء دلوا على جيرانهم وأصدقائهم انطلاقا من شعورهم الكاثوليكي العميق بصدق موقفهم وعدالته.

كانت محاكم التحقيق تصدر لوائح تنظيمية سنوية تؤطر الوشاية وتحدد أنواعها، لذا كان سهلا على الإسبان، التعرف على نوع الهرطقة الذي يمكن إبلاغه إلى عمال محاكم التحقيق[1]. واقتضت ضرورات تنفيذ أوامر كارلوس الخامس وضع لائحة خاصة بمسلمي اسبانيا تمهيدا لدعوة الشعب الإسباني إلى الوشاية بهم.

لكن مع بداية سنة 933هـ/1528م بدأت سياسة كارلوس تتغير، حيث أمر المحقق العام لعمال محاكم التحقيق بعدم التدخل في شؤون مسلمي اسبانيا المستقرين في إقطاعية مونزون[2]، كما تابع سياسة التهدئة في السنوات اللاحقة فوجه لعمال محكمة التحقيق في بلنسية سنة 939هـ/ 1534م بالامتناع عن مصادرة أي أملاك تخص المسلمين المتهمين بـ "الهرطقة" لمدة أربعين سنة.

لحق بذلك قرار تبناه المجلس الأعلى في بلنسية يحظر تطبيق عقوبة الحرق على المسلمين المعمدين. وفي عام 941هـ/1536م أصدر كارلوس قرارا يقضي بعدم مصادرة أملاك مسلمي اسبانيا في المستقبل، وقرارا آخر يمنع تدخل محكمة التحقيق في شؤون مسلمي بلنسية وقطالونيا، كما رافق هذه القرارات قرار خاص بمملكة غرناطة تضمن منع محاكم التحقيق من التدخل في شؤون أهل غرناطة لمدة أربع سنوات، وبات واضحا أن كارلوس غير سياسته.

[1] – أوكلت هذه المهمة إلى المحقق العام ألفونصو مانريك الذي جمع العناصر والمظاهر القابلة للوشاية بها في لائحة جرى تعليقها في الأماكن العامة يتقدمها أمر بأهمية الوشاية بمن يمارس أياً من البنود المذكورة خلال ستة أيام من رؤيتها أو تعريض نفسه للعقوبات الصارمة ومخالفة تعاليم الكاثوليكية.

[2] – **مونزون**: مدينة واقعة في الشمال الشرقي من سرقسطة في الطريق بين مدينتي لاردة ووشقة.

على إثر توقيع الصلح بين فرنسا واسبانيا عام 949هـ/1544م عرف بصلح "كريبسي"[1]، تمكن الإمبراطور كارلوس الخامس من التصدي للأمراء البروتستانت وأنزل بهم هزيمة في معركة مهلبرغ "Muhlberg"[2] عام 952هـ/1547م[3] لكن الحظ خانه عام 957هـ/1552م فهرب من المواجهة بعد هزيمة نكراء.

وبهذا دفع كارلوس بإخفاقه ثمن عجزه عن فهم الدوافع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، التي كانت وراء صعود حركة اللوترية بتلك السرعة إذ كان يحاول مصالحة هدفين لم يعد ممكنا مصالحتهما آنذاك، هما رغبته في إقامة إمبراطورية كاثوليكية مضادة للإصلاح يسيرها سياسيا ودينيا من خلال الضغط على البابا، ويكون فيها حاكما مطلق الصلاحية وفق مفاهيم العصور الوسطى، ورغبة الأمراء الألمان في إقامة دولة يستطيعون من خلالها المشاركة في صنع الحدث التاريخي في أجواء عصر النهضة الفكرية والحريات الفردية.

فزج كارلوس في هذه المعركة الجيش تلو الأخرى، إلا أن محاكم التحقيق باتت وقتها من أهم

---

[1] – **صلح كريسبي**: أطلق صلح "كريسبي Crespy "عام 949هـ/1544 مع فرنسا يد كارلوس في التصدي للأمراء البروتستانت وأنزل بهم هزيمة منكرة في وقعة مهلبرغ عام 952هـ/1547م لكن الحظ خانه عام 957هـ/1552م فهرب من وجههم بعد هزيمة شنيعة. وفي العام الأخير نفسه وقف في وجه كارلوس أكبر عدوين أوروبيين له بعدما أيدت فرنسا الأمراء البروتستانت لقاء الحصول على ثلاث مناطق ألمانية محاذية لفرنسا هي ميتس وتول والفردان. وقامت حرب بين إسبانيا من جهة والفرنسيين والأمراء الألمان استمرت خمس سنوات أخفق كارلوس خلالها في استعادة المناطق الثلاث فتنازل لابنه فيليب عام 961هـ/1556م عن عرش تربع على إسبانيا والمنطقة التي نعرفها اليوم باسم بلجيكا ونابولي ومعظم الأميركتين الوسطى والجنوبية (استكملت إسبانيا فتحهما في حدود 955هـ/1550م، وأخيرا هولندا التي كانت أغنى ممالك فيليب الثاني وأهم دولة تجارية ومالية في أوروبا.

[2] – **معركة مولبوغ**: هي معركة فاصلة بين الإمبراطور شارك الخامس من جهة, وتحالف البروتستات (عصبة سما لكلدا) (liga de smalklda) من جهة أخرى, أما الجبهة الثنية فقد أخذت على عاتقها الدفاع عن إصلاحات المذهب اللوثري, واستقلال الأمراء والسادة الألمان. وقد قاد الإمبراطور شارل الخامس المعركة بنفسه وانتصر في نهايتها انتصارا ساحقا, ووقع جميع الأمراء والسادة الألمان بين الأسر أو القتل. وبعدها بأشهر قليلة استطاع الإمبراطور حكم ألمانيا من جبال الألب إلى بحر البلطيق.

[3] – رسمت للإمبراطور كارلوس لوحة شهيرة تضم إلى أعمال تيتيان سنة 953هـ/1548م تخليدا لهذا النصر، متواجدة بمتحف ديل برادو في مدريد. يظهر الإمبراطور على صهوة جواد بدرع وخوذة ورمح في يده أثناء قيادة القوات بالمعركة.

الأسلحة. ولم يتصومع كارلوس في دير يوست عام 961هـ/1556م ويتنازل عن الحكم لابنه فيليب الثاني إلا وضحاياه في هولندا يعدون بين خمسين ألفا ومائة ألف شخص، وسيكون فيليب الثاني من بعده مسؤولا عن قتل وتشريد عشرات الألوف غيرهم.

لقد كان القضاء على الوجود الإسلامي في اسبانيا لا شيء تقريبا مقابل خطر التصدي للوترية التي كرس لها جل حياته الإمبراطورية، وانتهت باعترافه بالكنيسة البروتستانتية. ولولا صعود اللوترية لكان كارلوس، على الأرجح، حل محاكم التحقيق في إسبانيا، إلا أنه بدا واضحا أنه سيكون في حاجة إلى كل القوى التي يستطيع حشدها دفاعا على مصالحه الدولية. ومع كل هذه الضغوطات فقد حاول كارلوس الخروج منتصرا على مستوى الجبهتين، وإن ليس بكفاءته الخاصة بقدر ما هو لكفاءة مساعديه. ومع هذا فقد حقق بعض النجاحات ولكنه استنزف خزينة اسبانيا، خصوصا أن الحملات العسكرية كلفت أموالا باهظة.

**2)- حرب اسبانيا مع فرنسا:** لم يحدث بعد كل هذه المستجدات الخطيرة ما كان سيغير رأي كارلوس القاضي بإلغاء محاكم التحقيق أقله للتخلص من سمعتها السيئة في أوروبا. لكننا نجد بعد ذلك سلوكا عاما عند كارلوس الخامس واكب فيه تشدده وتهاونه مع مسلمي اسبانيا ازدياد الخطر البروتستانتي أو انحساره، وبمعنى آخر انتصاراته على الأمراء البروتستانت أو هزائمه، وكذا حال الحرب المستعرة في صورة شبه مستمرة مع فرنسا، جارة أراغون الأقرب.

فقد حاول ملك فرنسا فرانسوا الأول "François I"[1]، مسخرا كل إمكانياته التوسع في

1- **فرنسوا الأول**: ولد سنة 899هـ/1494م، وأصبح ملكا على فرنسا سنة 920هـ/1515م. تميزت فترة حكمه بالصراع الحاد الذي نشب بينه وبين كارلوس الخامس، مما أجبره على عقد حلف مع الخلافة العثمانية على عهد الخليفة سليمان القانوني.

الفلاندر وهولندا وكذلك إيطاليا، وتصدى بذلك لكل محاولات الإمبراطور كارلوس الرامية لجعل فرنسا تحت سيطرته؛ فمارس هذه المعارضة من خلال العديد من الصراعات الدموية.

ففي أوائل عقد الثلاثينات، بدأ كل من الإمبراطور كارلوس وفرانسوا الأول بانتهاج ما تعارف عليه في تلك الحقبة التاريخية بـ"الزواج السياسي"؛ حيث حاولوا من خلال إتباع هذه السياسة بسط نفوذهم وسلطانهم على بلدان أوروبا؛ فقد زوج كارلوس ابنته غير الشرعية مارغريت "Marguerite" من دوق فلورنسا، كما زوج ابنة شقيقته كريستينا "Cristina" من دوق ميلانو. من ناحيته زوج فرانسوا الأول أخت زوجته ريني فالوا "Reni vallo" من دوق فيرارا إركولي الثاني ديستي "Rivoli II Disty".

لكن أبرز أعماله كانت ترتيب البابا كليمنس السابع لزواج ابنة أخيه كاترين دي ميديشي "Catherine de midichi" من النجل الثاني لفرانسوا الأول[1]، هنري "II "[2]، الذي بسبب الوفاة المبكرة فرانسوا[3]، سيكون هو ملك فرنسا الذي عرف باسم هنري الثاني[4].

---

[1]- توفي فرانسوا الأول في سنة 952هـ/1547م، وقد جعلت وفاة هذا الأخير شارل الخامس في ذروة قوته؛ فقد تمكن من تحقيق انتصارا على الاتحاد الشمال كالدي .دوقية ميلانو، كما هو الحال في جنوا وسفويا ودوقيات فيراراوت وسكانا ومانتوفا، بالإضافة إلى جمهوريتي سيينا ولوكا وجنوب إيطاليا.

[2]- هو ابنه البكر فرانسوا الدلفين الذي توفي سنة 941هـ/1536م، من عمر يناهز الثامنة عشر ربيعا.

[3]- **هنري الثاني**: ولد في مدينة سان جرمان إن ليه في عام 924هـ/1519م، وهو ابن الملك فرانسوا الأول وكلود من فرنسا، من عائلة فالوا. تزوج كاترين دي ميديشي في سنة 938هـ/1533م وكان عمره حينذاك أربعة عشر عاما. أنجبا خمسة أبناء هم: فرانسوا الثاني، وشارل التاسع، وهنري الثالث، ومارجريت فالوا، وإليزابث فالوا. لم يكن يحب زوجته كاترين. كان يمضي معظم وقته مع مربيته ديانيه. توفي عام 664هـ/1559م بعد حادثة أثناء ممارسته لمبارزة السيوف على متن الخيول، ودفن عند كاتدرائية سان دوني. خلفه في الحكم ابنه الملك فرانسوا الثاني.

[4]- أخذ ملوك وأباطرة العالم النصراني على عاتقهم واجب لدفاع على النصرانية من المد الإسلامي الذي تزعمته الخلافة العثمانية. فنشأت بذلك تحالفات خاضت معارك شرسة ضد الخلافة العثمانية كمعارك كاسوفيا ونيكوبوليس الشهيرة، لكن البلاط الفرنسي هو أول من انسحب من هذا التحالف، بغرض التقوي بالتحالف مع السلطان سليمان القانوني، مطبقا بذلك النظرية القائلة:"عدو عدوي صديقي". ينظر: مراد دوسون جه، نظم الحكم والإدارة في الدولة العثمانية في عهد مراد جه دوسون، تر: فيصل شيخ الأرض، د د ن، د ط، د س ط. ص: 212.

كما استهوت فرنسوا الأول شبه الجزيرة الإيطالية، فتذرع بحقوق له موروثة في دوقية ميلان، لتحقيق هذا الغرض تحالف مع البندقية في الوقت الذي تحالفت فيه اسبانيا والبابوية ضده[1]؛ فبدأت الحرب في نافار واللوكسمبورغ. ففي سنة 926هـ/1521م حاول هنري البرت " Henri Albert"ملك نافار الاستيلاء على المملكة البيرينية، إلا أنه اضطر إلى التخلي عن أرضه؛ أما في اللوكسمبورغ فقد شن الكونت روبرت "Robert"حليف فرنسوا هجوما فأخفق إخفاقا ذريعا[5]. ثم جدد كارلوس معاهدته مع انجلترا، وهجم على فرنسا واستولى رجال الإمبراطور على موزون، وحاصروا ميريز، لكن القائد بايار تصدى لهم[2].

كما تحالف هنري الثامن مع البابا ليون العاشر "Lion X" وكسرت الجيوش الفرنسية في ايطاليا، وفقدت ميلانيا كلها؛ وفي سنة 928هـ/1523م انضم القائد دوبوربون "Debierne"إلى صف كارلوس، وبعد ذلك بسنة احتل فرانسوا الأول ميلانيا، لكنه أخذ أسيرا في بافيا بتاريخ فيفري من سنة 930هـ/1525م، ومنه أرسل إلى أمه لويز سافوا " Luise Sapho" كتابا يقول من خلاله ما يلي [3]:"...**لقد خسرت كل شيء، ولم يبق لي سوى الشرف والحياة...**"

ثم نقل إلى اسبانيا وسجن في حصن القصر بمدريد، وألزم على توقيع معاهدة مدريد[4] وبعد إطلاق سراحه نقض المعاهدة واستأنف الحرب، وبمقتضى معاهدة 934هـ/1529م، اضطر كارلوس

---

[1]- صلاح أحمد هريدي، تاريخ أوروبا الحديث، الإسكندرية: دار الوفاء، ط: 1، 2001م. ص: 117.

[2]- نور الدين حاطوم، تاريخ النهضة الأوروبية، لبنان: دار الفكر الحديث، د ط، 1968م. ص: 59.

[3]- صلاح أحمد هريدي، المرجع السابق. ص: 118.

[4]- عقدت هذه المعاهدة في مدريد سنة 934هـ/1529م بين فرنسا وأسرة الهابسبورغ، بمقتضاها تنازل فرانسوا الأول على مطالبه في ايطاليا وبرجنديا.

للتنازل على برجنديا، بينما تنازل فرانسوا الأول على نابولي[1]. في خضم هذا الصراع ظهر الدور الذي لعبه السلطان سليمان القانوني[2]، إذ أبرم هذا الأخير تحالفا مع الملك فرانسوا الأول[3] سنة 940هـ/1535م[4]، الأمر الذي شجع السلطان العثماني على فتح جبهة صراع ثانية ضد الإمبراطور في البحر الأبيض المتوسط بقيادة خير الدين[5]. أمام هذه المعطيات قرر كارلوس بعد أن عاد من حملته على تونس التوقف في إيطاليا، لعقد تحالف مع البابا الجديد بولس الثالث " Polos

---

[1]– وليم لانجر، موسوعة تاريخ العالم، تر: محمد مصطفى زيادة، ج: 4، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، د ط، 1963م. ص: 1043.

[2]– **سليمان القانوني**: هو ابن سليم خان الأول بن بايزيد خان الثاني بن محمد الفاتح بن مراد الثاني بن محمد الأول جلبي بن بايزيد الأول بن مراد الأول بن أورخان غازي بن عثمان بن أرطغل عاشر سلاطين الدولة العثمانية وخليفة المسلمين الثمانون، وثاني من حمل لقب "أمير المؤمنين" من آل عثمان. بلغت الدولة الإسلامية في عهده أقصى اتساع لها حتى أصبحت أقوى دولة في العالم في ذلك الوقت وصاحب أطول فترة حكم من 6 نوفمبر 925هـ/1520م حتى وفاته سنة 671هـ/1566م خلفا لأبيه السلطان سليم خان الأول وخلفه ابنه السلطان سليم الثاني. سليمان القانوني : ارتقى العرش عام 927 هـ/ 1520م ، وأثناء عهده اتجهت الدولة العثمانية في عملياتها الحربية نحو أوربا وآسيا وإفريقيا ؛ وبرز في هذه العمليات النشاط الحربي البحري ؛ فنجح في انتزاع العراق كله من أيدي الصفويين في بلاد فارس عام (941 هـ/1524م)، ووجه اهتمامه لتوطيد دعائم الحكم العثماني في اليمن . بنظر : عبد الرحيم أحمد مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، القاهرة: د د ن، ط : 2، 1993م. ص ص : 90، 91.

[3]– نجحت فرنسا في التقرب من البلاط العثماني وبناء علاقات دبلوماسية معه أقل ما يمكن وصفها به أنها كانت ممتازة، وأثمرت تعاونا اقتصاديا وتجاريا استفادت منه إلى حد كبير، وتجسد هذا عندما نجح ديه لافوريست في الوصول إلى عقد معاهدة تجارية مع الدولة العثمانية سنة 940هـ/1535م، التي تعتبر من بين أشهر المعاهدات التي وقعها العثمانيون مع الدول الأجنبية، ومنح بموجبها السلطان سليمان القانوني للحكومة الفرنسية ورعاياها تسهيلات فتحت الباب للدول الأوروبية عامة

[4]– نتج عن التحالف العثماني الفرنسي الإمضاء على معاهدة، اعتبرت من أهم المعاهدات الدولية آنذاك؛ إذ تضمنت تجديدات في مجال العلاقات بين المسلمين والنصارى، في الجانب القانوني والتجاري، وفي بعض قواعد الشرع الإسلامي المنظمة لهذه العلاقات، كونها استندت على مبدأ حرية التنقل والسكن والتجارة للفرنسيين في جميع المناطق التابعة للخلافة العثمانية. كما تشير المعاهدة إلى مدى الاستعداد الذي أظهره الخليفة العثماني للتنازل بتعديله لبعض المبادئ الشرعية المنظمة للعلاقة بين المسلمين والنصارى. ومهما يكن فإن معاهدة 940هـ/1535م، لا يختلف اثنان في كونها البداية الفعلية في تحول الامتيازات الممنوحة من قبل الخلافة العثمانية من مجرد امتيازات عادية إلى معاملات دبلوماسية في إطار معاهدات رسمية تلتزم بها الخلافة العثمانية، وأضحت هذه الامتيازات مظهرا من مظاهر ضعف الخلافة وسببا من أسباب انهيارها وتراجعها.

[5]– **خير الدين**: انقسم المؤرخون إلى فريقين في أصل هذا القائد المجاهد فذهب المؤرخون الأوروبيون إلى أن أصله يوناني ثم اعتنق الإسلام. ينظر: كورين شوفالي، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة الجزائر، تر: جمال حمادنة، الجزار: ديوان المطبوعات الجامعية، د ط، د س ط. ص:24. في حين ذكر الفريق الثاني أن أصله يرجع إلى الأتراك المسلمين كان والده يعقوب بن يوسف من بقايا الفاتحين. ينظر: محمد يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران في اختيار مدينة وهران، تق وتع: المهدي بوعبد الله، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، د ط، 1979م. ص:183. ولد سنة 861هـ/ 1474م. ينظر: أحمد بن عبد الرحمان الشقراني الراشدي، القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط، تح وتق: ناصر الدين سعيدوني، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط:1، 1991م. ص: 32.

III"[1] ولكن هذا الأخير قرر اتخاذ موقف الحياد أمام الصراع المستمر منذ أكثر من عقد بين فرنسا واسبانيا.

هذا ما شجع فرانسوا الأول إلى استئناف الأعمال العدائية، مبتدأ النزاع الثالث مع الإمبراطور، الذي انتهى بعد عامين فقط، إذ اتفق الطرفين على عقد هدنة تمت سنة 943هـ/1538م عـرفت عنـد المؤرخين بـ "هـدنة بوميو"؛ ثم كان صلح نيس الذي تم سنة 948هـ/1543م[2] ومـع هذا لم يؤديا إلى أية نتائج جديدة[3]، مؤجلين ذلك إلى قرارات مجمع مسكوني[4].

ثم تجدد الصراع العسكري بين الدولتين، إذ شن فرانسوا حربا ضد الإمبراطور سنة 947هـ/ 1542م، انتهت في سبتمبر من عام 949هـ/1544م بتوقيع صلح كريسبي الذي خرجت منه فرنسا مهزومة، لكنها مع ذلك حافظت على بعض الأراضي المحتلة خلال النزاع. ومع هذا لم يتنازل فرانسوا على أحلامه بغزو إيطاليا فحسب، وإنما عمل على دعم افتتاح مجمع بشأن القضية اللوثرية.

**3)– الصــراع الاسبــاني العثماني:** شكلت الخلافة العثمانية شوكة في خاصرة الإمبراطورية

---

[1]– توفي كليمنس السابع سنة 939هـ/1534م، وخلفه بولوس الثالث، الذي عمد إلى نقل مقر مجمع ترينتو إلى مدينة بولونيا.

[2]– حاصر الجيش الاسباني مدينة نيس سنة 948هـ/1543م، فبعث له السلطان العثماني سليمان القانوني أسطول بحري بقيادة خير الدين تألف من أربع عشرة سفينة، ونجح خير الدين من الوصول إلى مرسيليا في 24 جوان من سنة نفسها، وسلمت نيس في 20 أوت. ينظر: محمد فؤاد متولي، تاريخ الدولة العثمانية مند نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي، القاهرة: إبتراك للطباعة والنشر والتوزيع، د ط، 2005. ص ص: 263، 264.

[3]– مند السنة الموالية أي في سنة 950هـ/1545م، قام الأسطولان العثماني والفرنسي بهجومات ضد ممتلكات كارلوس الخامس، والأمر نفسه سار عليه خليفته هنري الثاني. ينظر: مراد جه دوسون، المصدر السابق، ص: 213.

[4]–**المجمع المسكوني**: دعا البابا بولس الثالث إلى مجمع مسكوني في مدينة ترينتو، وافتتحت الأعمال رسميا في 15 ديسمبر 950هـ/1545م؛ ناقش المجمع بأول عامين المسائل الإجرائية، دون اتفاق بين البابا والإمبراطور؛ فبينما أراد الإمبراطور للاجتماعات أن تتناول قضايا الإصلاح، أراد البابا لها أن تناقش أكثر قضايا ذات طابع لاهوتي. لم يعترف رواد الحركة المعارضة البروتستانت بقرارات المجمع، لذلك شن الإمبراطور كارلوس حربا ضروسا سنة 951هـ/1546م، شاركت فيها جيوشا مؤلفة من البابويين بقيادة أوتافيو فارنيزي، والنمساويين، ثم القوات الهولندية تحت قيادة كونت بورن.

بنواياه التوسعية نحو وسط أوروبا. وخاض كارلوس في الواقع عدة نزاعات ضد العثمانيين؛ فوجد نفسه غالبا ما يحارب على جبهتين في ذات الوقت: شرقا ضد العثمانيين وغربا ضد الفرنسيين. فالقوة العسكرية التي كانت تتمتع بها الخلافة العثمانية مكنتها من تحقيق انتصارات أبهرت أباطرة وملوك أوروبا. وبما أن كارلوس كان حامي الكاثوليكية، وإمبراطورا على مناطق كثيرة ومتفرقة من قارة أوروبا وأمريكا وإفريقيا، فقد واجهته مهمة الدفاع على ممتلكاته من التوسع العثماني، الذي أخذ يشكل خطرا مؤكدا على سلطانه.

وبهذا نافست الخلافة العثمانية اسبانيا في مستعمراتها، فقد تمكنت سنة 934هـ/1529م من التوغل في شرق أوروبا حتى وصلت إلى فينا[1]، وفرضت عليها حصارا[2]، فوجدت نفسها بلا جيش ولا مال لدعم دفاعات النمسا، فعمد سليمان القانوني إلى التدخل في الشؤون الدينية لأمراء ألمانيا، فقاموا على كارلوس، مما اضطره إلى الموافقة على عقد معاهدة عرفت بـ "الصلح الديني " في نورمبرغ عام 937هـ/1532م للحصول على الدعم العسكري من الأمراء اللوتريين ضد العثمانيين.

كانت شعوب أوروبا الشرقية خلال هذه الفترة ضعيفة اكتفت فقط بالدفاع والمقاومة المحدودة، فاستعانت بقراصنة البحر، على رأسهم قراصنة مالطا[3] المعروفين في المصادر الأجنبية بـ

---

[1]- كانت مدينة فينا من أهم المراكز الاستراتيجية التي كان لا بد السيطرة عليها، إذ مثلت عاصمة القسم الغربي من إمبراطورية كارلوس المتروكة في عهدة أخيه فرناندو.

[2]- **الحصار على فينا:** توجه سنة 934هـ/1529م السلطان سليمان بنفسه إلى عاصمة النمسا، وأقام عليها حصارا، ثم دخل في قتال عنيف، إلا أن سوء الأحوال الجوية جعلت السلطان يقرر الانسحاب. وكانت هذه الحملة درسا لما يمكن للعثمانيين بلوغه؛ وأعيدت الكرة مرة ثانية سنة 1683، إلا أن المحاولة منيت بالفشل. ينظر: أحمد بن زين دحلان، الدولة العثمانية، ج: 2، اسطنبول: مكتبة إيشيق، د ط، 1980م. ص: 160.

[3]- يعتبر هؤلاء من بين أهم الفرق العسكرية الدينية من حيث الاستمرارية، بحيث تؤكد بعض الروايات أن تاريخ تأسيسها يعود إلى ما قبل الحروب الصليبية. كانوا يتكونون من ثمانية أجناس أطلقت عليهم الروايات الغربية تسمية "فرسان اللغات الثمانية". انضموا إلى طائفة كاثوليكية متعصبة أطلقت على نفسها تسمية "فرسان القديس يوحنا"، يدعى رئيسها فيلي دي ليل آدام، طردوا من بيت المقدس على يد الناصر صلاح الدين الأيوبي.

"فرسان القديس يوحنا"؛ فاحتاط العثمانيون لهذا الأمر، وأذنوا لبعض رياس البحر[1] بارتياد الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط[2]، للدفاع على سواحل المغرب العربي، وحماية الإسلام من المد الصليبي[3] وانقاذ مسلمي اسبانيا الفارين من بشط محاكم التحقيق.

شعر كارلوس بالخطر العثماني الذي أصبح قريبا من عقر داره خاصة بعد التحاق الجزائر بالخلافة العثمانية[4]، وعلى هذا الأساس حاول أن يحتل مدينة الجزائر خلال الأعوام 921-923-942هـ/ 1516[5]- 1519[6]-1541م[7]. وعندما فشل نقل نشاطه إلى تونس،

---

[1]- من أبرز وأهم رياس البحر الذين لعبوا دورا بارزا في تطهير غربي البحر الأبيض المتوسط من الصليبيين نذكر أبناء الفخارجي يعقوب بن يوسف الثلاثة: عروج وخير الدين وإسحاق، الذين التحقوا بالقوات العثمانية مند حوالي 909هـ/1504م، واستحدثوا لأنفسهم أسطولا بحريا قويا، وشرعوا في مواجهة القراصنة الأوروبيين انطلاقا من جزيرة جربة، وحلق الوادي، وجيجل. وأثمرت جهودهم بالسيطرة الكاملة على غربي البحر الأبيض المتوسط.

[2]- تمكن العثمانيون من فتح جزيرة رودس عام927هـ/1522م، هذه الأخيرة كانت موطن قراصنة القديس يوحنا؛ بعدها أجلاهم الجيش العثماني من قبرص سنة 709هـ/1309م، فاستغل كارلوس تشرد هؤلاء ومنحهم جزيرة مالطا ليتخذوها مركزا لممارسة القرصنة والاعتداءات على الأسطول العثماني. بعد سقوط غرناطة سنة 897هـ/1492م أخذ الإسبان على عاتقهم تنفيذ وصية الملكة إيزابيلا باحتلال شمال إفريقيا وتحويل أهلها إلى النصرانية ودعمهم في ذلك التجار الأوروبيين والكنيسة الكاثوليكية.

[3]- محمد عبد الله عودة وإبراهيم ياسين الخطيب، المرجع السابق. ص: 27.

[4]- التحقت الجزائر رسميا بالخلافة العثمانية سنة 925هـ/1520م بعدما أرسل سكان مدينة الجزائر يطلبون من الخليفة العثماني ذلك.

[5]- بتاريخ أواخر سبتمبر 921هـ/1516م أبحرت نحو مدينة الجزائر عمارة بحرية إسبانية مؤلفة من خمسة وثلاثين سفينة، تحمل ألفين جندي مع ما يلزم من سلاح ومدافع وذخيرة، واختارت لنزولها السهل الذي يقع عليه باب الواد حيث كان يصب وادي المغازل في البحر؛ وكان عروج قد وضع خطة محكمة لصد الحملة وحقيق النصر المؤكد. وبالفعل هذا ما حصل فقد انتصرت القوات العثمانية بمساعدة المجاهدين الجزائريين من سحق القوات الإسبانية وحماية مدينة الجزائر من العدوان الإسباني. ينظر: أحمد توفيق المدني، حرب ثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492. 1792م، الجزائر: عالم المعرفة، ط:5، 2010م. ص ص: 163. 166.

[6]- اغتنم الاسبان فرصة انتصارهم على القوات العثمانية في معركة قلعة بني راشد بتلمسان سنة 923هـ/1518م أين استشهد كل من عروج واسحاق في المعركة، فجهزوا حملة عسكرية على مدينة الجزائر تكونت من أربعين سفينة تحمل على متنها خمسة آلاف جندي، ووضعت الحملة تحت قيادة نائب الملك الصقليين كودي منكاد، واشترك معه في القيادة القائد الإسباني كونز الفومارينو دي ربيرا. أبحر الأسطول من جزيرة صقلية أواخر شهر جويلية وأرسى في المرسى الكبير أين تزود بالجند والمدد، ثم اتجه نحو بجاية فأخذ منها أيضا جيشا كبيرا ثم غادر باتجاه مدينة الجزائر معتقدا بأن كل هذه القوات سوف تحقق النصر الكبير ووصل هناك في يوم 18 أوت من سنة 1519م، وبعد معركة دارت بين الجيشين تمكن القائد المجاهد خير الدين بمساعدة الجزائريين بتحقيق النصر الأكيد على العدو الإسباني. ينظر: مؤلف مجهول، كتاب غزوات عروج وخير الدين، مخطوط رقم: 1622، الجزائر: المكتبة الوطنية (الحامة). ورقة: 36-37.

[7]- ظن الملك الإسباني كارلوس الخامس بأن مغادرة خير الدين الجزائر نحو إسطنبول سنة 940هـ/1535م لاستلام مهامه الجديدة كقائد عام للقوات البحرية العثمانية بأن فرصة الاستيلاء على مدينة الجزائر سهلة لهذا جهز قوة عسكرية ضخمة اتجه بها نحو الجزائر ولكن واجهته القوات الجزائرية بقيادة حسن آغا الذي أحرز نصرا كبيرا لم يتجرع مرارته الامبراطور الإسباني لمدة سنوات.

واستعـان في ذلك ببعـض القراصنـة الأوروبيين مثـال: "أنـدري دوريـا" " André doria" الجنـوي[1]، ودون جـوان "Don ruine" النمساوي؛ فقد مثل الصراع حول تونس جولة من أهم جولات هذا النزاع الذي كان مسبوقا بتأزم الأحوال بين البابا ليون العاشر وكارلوس الخامس، بحيث كاد البابا أن يتحالف مع المسلمين ضد الإمبراطور بعد إبرام الحلف السري بين الخليفة العثماني وفرانسوا الأول.

لكن الإمبراطور استدرك الموقف وعزم على الاستيلاء على تونس ذات الأهمية الكبرى، وعندما كان يستعد للهجوم عليها أعلم الملك فرنسوا الأول خير الدين بذلك، فقام هذا الأخير بطلب الإغاثة من السلطان العثماني الذي أجابه باستحالة توجيه أي نجدة له لما كانت تعانيه الدولة العثمانية من الصعوبات وحثه على الاكتفاء بما لديه[2].

نجح القائد العثماني خير الدين بدخوله تونس على إثر انتفاضة شعبية ضد الحكم الحفصي[3]، أجبرت الملك الحسن الحفصي على الهروب باتجاه بجاية[4] ومن هناك استنجد

---

[1] – **أندري دوريا:** من أبرز القادة في الجيش الإسباني. ينتمي إلى عائلة فقيرة، لا يملك مستوى تعليمي. كان في أول أمره في خدمة الملك الفرنسي فرنسوا الأول، ثم انتقل إلى العمل في خدمة كارلوس الخامس، وبقي كذلك إلى أن توفي سنة 970هـ/ 1560م. ينظر: جون ب وولف ، الجزائر وأوروبا، تر وتع: أبو القاسم سعد الله، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، د ط، 1986م. ص: 41.

[2] – عبد الحميد بن أبي زيان بن أشنهو، دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، الجزائر: الطباعة الشعبية للجيش، د ط، د س ط. ص: 182.

[3] – **الدولة الحفصية:** تم اختيار أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص للولاية على إفريقية ، فتقلد ولايتها من سنة 603هـ/ 1203م إلى غاية 618هـ /1221م. ولما تولى ابنه أبو زكرياء الأول سنة 625هـ/1229م ساد الاضطراب دولة الموحدين بالمغرب الأقصى، فاستبد أبو زكرياء بإمارة المغرب الأدنى سنة 632هـ/1235م وبويع له على ذلك. ثم ضم إليه قسنطينة وبجاية. بنظر : المطوي العروسي، المرجع السابق. ص: 134.

[4] – بعدما تمكن الإسبان من احتلال مدينة وهران سنة 913هـ/1509م وجهوا حملة عسكرية نحو بجاية سنة 914هـ/1510مستغلة الصراع الدائر بين الأخوين مولاي عبد الله وعبد الرحمان وضعف الحكم الحفصي الذي كان مستبدا بالشرق الجزائري، وتمكنت القوات الإسبانية من احتلال المدينة وفرض السيطرة عليها. ينظر: أحمد توفيق المدني، المرجع السابق. ص ص: 108. 111. ولقد حاول العثمانيون تحريرها بقيادة عروج وخير الدين سنة 917 و919هـ/ 1512 و1514 ولكنهما لم يتمكنا من ذلك. ينظر: مؤلف مجهول، كتاب غزوات عروج وخير الدين، (المصدر السابق). ورقة: 17.

بالإمبراطور كارلوس الخامس[1]، الذي استجاب لندائه، فأبحر سنة 540هـ/1535م على رأس أسطول باتجاه الشواطئ التونسية فاستولى على حلق الوادي واحتل الجزء الشمالي الشرقي من البلاد.

نتيجة هذه المستجدات، عاد الملك المخلوع إلى عرشه، فرفضت عندها الرعية رجوعه هذا، ونظمت بمساعدة النجدات العثمانية مند سنة 945هـ/1540م حملات استهدفت خلعه والقضاء على الحاميات الإسبانية بقيادة درغوث باشا[2]، هذا الأخير تمكن من وضع حد للفوضى التي عمت المنطقة آنذاك، فانهارت سلطة الحسن الحفصي واضطر الإسبان إلى الجلاء عن تونس[3]، واعتراف المجتمع التونسي بالسيادة العثمانية،[4] فعين درغوث باشا ابن أخت خير الدين "شمشريفي" ليدير المنطقة نيابة عن الخلافة العثمانية.

بهذا دفع كارلوس بإخفاقه ثمن عجزه عن فهم الدوافع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، التي كانت وراء صعود الحركة اللوترية بتلك السرعة إذ كان يحاول مصالحة هدفين لم يعد ممكنا مصالحتهما آنذاك، هما رغبته في إقامة إمبراطورية كاثوليكية مضادة للإصلاح يسيرها سياسيا ودينيا من خلال الضغط على البابا، ويكون فيها حاكما مطلق الصلاحية وفق مفاهيم العصور الوسطى، ورغبة الأمراء

---

[1]- استعان حسن الحفصي بالإسبان لاستعادة نفوذه وسيادته على مدينة المهدية مركز الحكم الحفصي، فاغتنم الإسبان الفرصة وأنزلوا بالمدينة حامية إسبانية لفترة وجيزة.

[2]- **درغوث بن علي**: ولد في جزيرة رودوس في مطلع القرن السادس عشر ميلادي، ونشأ على الحياة الإسلامية والفروسية. التحق بالعمل في الأسطول العثماني كبحار، ونظرا للقدرات الكبيرة التي أبداها في المعارك التي خاضتها القوات العثمانية ضد العدوان الصليبي نال ثقة خير الدين، فقربه إليه، وكلفه بمهام جليلة.

[3]- يحي بو عزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، د ط، 1999م. ص: 213.

[4]- لقد أمرت السلطة العثمانية في استانبول بتجهيز حملة عسكرية من اجل تحرير تونس من الاحتلال والسيطرة الاسبانية، وكان ذلك في ربيع من سنة 1574م، وقد تألفت هذه الحملة من 250 سفينة ضمت 55000 جندي، حققت هذه الحملة نجاحا كبيرا واستطاعت ان تحرر تونس نهائيا من الاحتلال الاسباني، كما تم إلحاقها رسميا بالخلافة العثمانية في السنة نفسها. ينظر: عبد الجليل التميمي، عثمنة ايالات الجزائر وتونس وطرابلس على ضوء مهمة دفتري (1559-1595)، تونس: المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، ع: 34، 2006م. ص:22.

الألمان في إقامة دولة يستطيعون من خلالها المشاركة في صنع الحدث التاريخي في أجواء عصر النهضة الفكرية والحريات الفردية.

هذا فيما يخص الجانب التاريخي من هذه المحطة الحاسمة في تاريخ مسلمي اسبانيا في مواجهة المد النصراني الذي طبق بكل الوسائل وبشتى السبل على عهد كارلوس الخامس؛ أما عن الجانب التشريعي والقانوني فما يمكن استنتاجه هو تلك نقطة التحول في التطور الذي بدا في الفترة الممتدة ما بين 906-907هـ/1501-1502م والذي تكرر سنة 931هـ/1526م حينما أعلنت نتائج وصلت إليها لجنة انعقدت في غرناطة بقرار ملكي.

وهذه الوثيقة التي صدرت عن اللجنة المذكورة كانت تميل إلى إزالة كل خصائص مسلمي اسبانيا وسماتهم، فقد حرم أو حدد استخدام اللغة العربية والزي الإسلامي مثل الملحفة والتعاويذ وغير ذلك من الرقى أو الحلي؛ وبصورة عامة أي رمز له صلة بالدين الإسلامي مثل الختان أو امتلاك العبيد والأسلحة أو الطريقة الإسلامية في ذبح الحيوانات. أما عقود الزواج فقد كانت موضع مراقبة خاصة.

لكي تطبق هذه القوانين بصورة حازمة صدر قرار يقضي بإنشاء محكمة التحقيق في غرناطة، هذا القرار الأخير كان منعطفا حاسما في تاريخ محاكم التحقيق في اسبانيا بصورة عامة، وحدثا تاريخيا ميز حكم كارلوس على وجه الخصوص؛ إذ لفترة طويلة رفض الملكان الكاثوليكيان إيزابيلا وفرناندو إنشاء محكمة تحقيق في غرناطة، ليس رحمة أو محبة في مسلمي غرناطة، وإنما تفاديا لفتح جبهة داخلية قد تكون سببا في زوال ملكهما إذا ما تزامنت مع كل تلك الظروف التي كانت تمر بها المملكة.

فعلى الرغم من أن مصلحة الكاثوليكية كانت في المرتبة الأولى، إلا أنه كان على الملكين

الكاثوليكيين أن يتصرفا كملوك مسؤولين أمام الملوك الآخرين وأمام الشعب والنبلاء على وجه الخصوص، وأن يحافظوا على التوازنات القائمة، ويأخذوا مصالح مراكز القوى كلها بعين الاعتبار.

فتاريخيا كلنا نعلم مدى جدية المساعي التي قام بها المحقق خمنيس من أجل إنشاء محكمة تحقيق في غرناطة، فعلى الرغم من المكانة الكبيرة التي كان يتمتع بها خمينس، إلا أنه لم يستطع معارضة قرار الملكين، وبهذا لم يجد في غرناطة مسرحا مناسبا لتحقيق طموحاته الصليبية. وأمام هذه المعطيات التاريخية فيمكننا القول بأن كارلوس حاول من وراء كسر هذه القاعدة التي حافظا عليها الملكان التصدي للأخطار التي كانت تحذق بإمبراطوريته من كل الجوانب.

كما عمد الإمبراطور كارلوس إلى اعتماد بعض القرارات التي قد تبدو للبعض خيانة للكاثوليكية التي أقسم لخلفه فرناندو بحمايتها من الإسلام داخل اسبانيا؛ من بين هذه القرارات نذكر ذلك الذي اتخذه عندما أوقف تنفيذ المرسوم الصادر سنة 930هـ/1525م مقابل مبالغ مالية دفعها مسلمو اسبانيا حفاظا على مقوماتهم الإسلامية. ولكن المحلل لهذا الموقف قد يجده بشكل آخر يحمي الكاثوليكية من عدو كان يبدو أخطر من الإسلام في تلك الحقبة التاريخية، تمثل في ظهور حركة دينية إصلاحية، أخذت تسمية "البروتستانت".

وبهذا عاش كارلوس حياته وهو يعتقد أن الإسلام أهم خصوم الكاثوليكية. لكن الخطر الأكبر لم يأت من مسلمي اسبانيا بل من إخوانه في الدين" البروتستانت"، هؤلاء كونوا جبهة مضادة للكاثوليكية، وبما أن كارلوس المتعهد باسم الكاثوليك بالدفاع على هذه العقيدة، فقد أعلنها حربا ضروسا ودون هوادة ضد كل من تبنى هذا المذهب الجديد.

# الفصل الثالث: مسلمو إسبانيا على عهد فيليب الثاني

# ( 932- 1007هـ/1527- 1598م)

## المبحث الأول: فيليب الثاني، مشواره السياسي حتى اعتلائه العرش

### ( 932- 963هـ/1527- 1558م)

1)- مولده ونشأته ( 932-947هـ/1527- 1542م).

2)- مشواره السياسي إلى غاية تنازل كارلوس للحكم (947-963هـ/1542- 1558م)

## المبحث الثاني: محاولات قتل الذاكرة التاريخية والدمج الثقافي

### ( 965-975هـ/1560- 1570م)

1)- سياسة التنصير القسري (965-971هـ/1560- 1566م)

2)- عملية التهجير ( 972-975هـ/1567- 1570م)

بعدما أيقن كارلوس الخامس بأنه أخفق في تحقيق مشروعه، بسبب فتح عدة جبهات لم يكن ليستطيع مواجهتها في آن واحد تنازل سنة 963هـ/1558م لولده وولي عهده فليب الثاني عن حكم الإمبراطورية باستثناء ألمانيا. ولقد اشتملت هذه الإمبراطورية التي ورثها على رقعة واسعة من أوروبا وأمريكا والمغرب العربي.

وبذلك خلف فليب الثاني (963-1007هـ/1555-1598م) والده كارلوس الخامس في الحكم؛ وقد رأى في وجود المسلمين في إسبانيا مشكلة صعبة التعقيد، لأنه كان مقتنعا بوجهة نظر الكنيسة الكاثوليكية والسياسة الرجعية بأن هؤلاء المسلمين يمثلون أقلية عنصرية غير قابلة للاندماج في المجتمع الإسباني، لا سيما وأنهم على اتصال دائم بأعداء البلاد في المغرب العربي والدولة العثمانية، الأمر الذي كانت تخشاه السلطات الإسبانية وتنظر إليه دائما بكثير من الريبة والحذر.

نتيجة لهذه المعطيات طبق فيليب الثاني سياسة العنف والقمع والاضطهاد على مسلمي اسبانيا، فأصدر جملة من مراسيم ملكية إزاءهم، منها مرسوم بتاريخ 971هـ/1563م الذي حرم عليهم حمل السلاح إلا بترخيص من الحاكم العام، وقضي بتسليم الأسلحة ورخص اقتنائها في مدة أقصاها خمسين يوما، ومن تأخر عن ذلك يعرض نفسه للأشغال الشاقة مدة ست سنوات؛ وقد أثار هذا القانون السخط بين مسلمي اسبانيا، لأن السلاح كان ضروريا للدفاع عن أنفسهم لا سيما وأنهم كانوا محاطين بالأعداء من كل جانب، ويسكنون في أماكن نائية ومنعزلة.

كان هذا المرسوم بداية لقوانين أخرى أشد وأقسى، فقد تتالت المراسيم التي كانت بمثابة الطامة الكبرى على مسلمي إسبانيا، بداية مع إجبار المجمع الكنسي على فيليب الثاني تطبيق

قانون كارلوس الخامس الصادر سنة 922هـ/1526م، وتباعا مع تعنت واضطهاد عمال محاكم التحقيق.

بعدما فشلت كل محاولات التفاوض مع ممثلي السلطة الاسبانية، وبعد الرد الصريح والواضح الذي صدر عن رئيس محكمة التحقيق بدره ديسا أيقن المسلمون أنه من المستحيل إلغاء المرسوم كما حصل على عهد الملك كارلوس الخامس، وأن الحل الوحيد الذي بقي أمامهم إعلان التمرد المسلح على السلطات الاسبانية عسى أن يحقق ما لم تستطع أن تحققه المفاوضات.

## – المبحث الأول: فيليب الثاني، مشواره السياسي حتى اعتلائه العرش( 932-963هـ/1527. 1558م)

وجد فيليب الثاني بين يديه هذه الممالك الهائلة ومعها كل المشاكل التي عجز أبوه عن حلها. وإضافة إلى العثمانيين الذين زادوا إلى قوتهم العسكرية البرية التي لا تقهر قوة بحرية، كان الفرنسيون مستعدين للتحرك ضد عدوهم الأكبر إسبانيا عند أول فرصة سانحة، وكانت البروتستانتية تنتشر بسرعة في شمال أوروبا وبدأت تهدد بتقليص مساهمة هولندا الغنية في خزانة إسبانيا. ولم يحاول فيليب معالجة مشاكله بطريقة تختلف عن أبيه أو عن جدة جدته إيزابيلا فعزز محاكم التحقيق في هولندا وأعطاها صلاحيات واسعة وسير هو الآخر الجيوش لقتل الهولنديين.

وكانت محاربة انتشار اللوترية وتفرعها في هولندا واحدة من الأسباب التي دفعت إسبانيا إلى ارتكاب فظائع هائلة هناك، غير أن السبب الأهم بكثير كان استمرار السيطرة الإسبانية على الثروة الهائلة التي تمتعت بها هولندا إذ كانت الأموال التي تدخل خزانة إسبانيا من مختلف الضرائب

المفروضة على الهولنديين سبعة أضعاف قيمة الفضة التي تدفقت إلى مدريد من العالم الجديد.

**1)– مولده ونشأته:** ولد فيليب الثاني وإسبانيا من أقوى الدول في العالم، وبخاصة ممتلكاتها العينية والمالية. ولكن إسبانيا لم تكن لتخلوا من توترات داخلية تدفع بإسبانيا إلى هاوية الفقر. وكان أحد الأسباب في ذلك طرد اليهود عام 1492/897م مما أفقر إسبانيا من الخبرة التجارية واليد العاملة. ثم يضاف توسع إسبانيا عسكريا مما كلفها الكثير من قوتها المادية وبخاصة ما رافق هذا التوسع من حروب.

***– مولده:** ولد فيليب الثاني في الحادي و العشرين من شهر ايار من عام 932هـ/1527م في أحد البيوت المجاورة للقديس بابلوضون برناردينو"Bablodoné Bernardino"[1]، التي عاش فيها باستمرار[2]، وتبنى عاداتها وتقاليدها ولغتها.[3] وفي السنة نفسها تم تعميده في كنيسة سان بابل.

***– محيطه الاجتماعي وتكوينه:** قضى أولى سنتي حياته، بجانب والدته الملكة إيزابيلا البرتغالية، التي كانت تشرف على رعايته، تعينها في ذلك ليونارد يمسكريناس **(** Leonor de Mascarenhas)[4]. وفي الثانية عشر من عمره، توفيت والدته التي كانت غاية في الرعاية والعطف[5]، فخسر بذلك إنسانا، كان لا يحرمه شيئا من الود والتضحية. تزوج الملك فيليب الثاني عام 948هـ/1543م، من ماريا "Maria" البرتغالية التي توفيت عام 950هـ/1545م، تاركة وراءها ولـــدا

---

[1]– **منتل:** يقصد بها بلد الوليد.

[2]– محمد عبده حتامله، المرجع السابق، ص: 11.

[3]– الحايك سيمون، المرجع السابق. ص : 33.

[4]– **ليوناردیمسكريناس:** برتغالية الأصل، عرفت بإخلاصها وولائها للعرش الإسباني، ولت كلّ عنايتها لفيليب الثاني، الذي أحبته كثيرا.

[5]– محمد عبده حتاملة، المرجع السابق. ص : 13.

هو ضون شارل الثاني "Don Charles II".

أشرف على تدريبه[1] رجل من كبار النبلاء يدعى ضون خوان دي ثونيغا وافيانيدا " Juan de Zuniga y Avellaneda"، فيما تولى تعليمه مجموعة من الأساتذة، على رأسهم ضون خوان مارتينسسيليثيو "Don Juan Martinez Siliceo"، تلقى مختلف العلوم، فتوفق في الرياضيات والهندسة[2]؛ الخلل الوحيد الذي حصل في قضية تعليمه يكمن في عدم تلقينه اللغات الحديثة التي لا يستغني عنها إمبراطور يفترض فيه أن يحكم ويدير مناطق واسعة.

كان **فليب الثاني** ذكيا ونشيطا، أمضى القسم الأخير من حياته يعيش في إحدى غرف قصره كما يعيش الراهب. كان يحتاج لفترة طويلة قبل أن يتخذ قرارا، وأن اتخذه فقد لا يتابع تنفيذه حتى النهاية؛ وربما تدخل في بعض المسائل المجمدة فيؤجج لهيبها بدلا من أن يحلها، وهذا ما حدث مع مسلمي إسبانيا في الجنوب سنة 972هـ/1567م.

كما عرف بتعصبه الديني، الذي كان سببا في اندلاع ثورة الفلاندر في أوروبا؛ فعمل جاهدا لقمع مبادئ البروتستنتية[3] استكمالا لحرب أبيه **كارلوس الخامس**، خاصة وأنه أصيب بلطمة قوية عند اكتشاف عمال محاكم التحقيق لخليتين للبروتستانت تنشطان في اشبيلية وبلد الوليد، ولذا فإن

---

[1]- كانت الألعاب الرياضية في تلك الحقبة التاريخية أمرا لا غنى عنه للأمراء، ورجال البلاط، فبوشر بتعويده على ركوب الخيل والصيد والمبارزة بالسيف والرمح.

[2]- المرجع السابق، ص: 13.

[3]- تمثلت في جملة من المبادئ كان أهمها: أن يصبح من حق كل نصراني قراءة وتفسير الكتاب المقدس. . إلغاء رئاسة الكنائس، وجعل لكل كنيسة رئيسا خاصا بها له حق الإرشاد والتوجيه . لا تملك الكنيسة حق مغفرة الذنوب . من حق كل الناس ترجمة الكتاب المقدس إلى كل اللغات . إلغاء الفكرة القائلة بأن العشاء الرباني هو سر مقدس، ويصبح عادة تذكر الناس بالمسيح . القضاء على الفكرة الداعية بقدسية التماثيل، ومنع السجود لها. ينظر: سعدون محمود الساموك، المرجع السابق، ص: 294.

حملته للقضاء على البروتستانتية تحولت إلى نوع من الدفاع عن النفس، ثم إلى حملة مسعورة شنها ضد البروتستانت الهولنديين بواسطة قائده دوق البة وعمال محاكم التحقيق.

**2). مشواره السياسي إلى غاية تنازل كارلوس للحكم**(947- 963هـ/ 1542- 1558م): استأثر الإمبراطور كارلوس الخامس بتربية ابنه، وتدريبه على ممارسة الحياة السياسية؛ ففي سنة 947هـ/1542م، جعله يشترك فعليا في إدارة دفة الحكم، وأطلعه على ما يجري في مجالس قشتالة وأراغون، وقطالونيا وبلنسية؛ وبذلك اطلع الأمير وولي العهد على ما كان يجري في الساحة السياسية؛ كما ساهم في معالجة العديد من القضايا التي خصت شعبه وبلده.

لما تيقن الإمبراطور كارلوس الخامس من كفاءة ابنه على تسيير أمور البلاد، ولاه حكم اسبانيا، ليتفرغ لمجابهة العثمانيين الذين امتد نفوذهم إلى أملاك إمبراطوريته، وأثناء نزوله بميناء بلاموس "Puerto de Plamos" بعث لابنه فليب الثاني وصية تعتبر أساسا هاما وركيزة سياسية تجعل من الإمبراطور أشهر سياسي في زمانه، لما احتوت من الدقة والخبرة العميقة، في معرفة الرجال وفن الحكم[1]، وهذا عرض لأهم ما ورد فيها:

- على الحاكم أن يكون عادلا مع رعيته.
- أن لا يسمح بالفساد سواء كان مقابل المال أو السلطان.
- عليه أن يستبدل رفاقه، وأن يحيط نفسه برجال حكماء أفاضل.
- عليه أن يتعرف على أعضاء حاشيته ويميز فضائلهم ورذائلهم.

[1]- حتامله، المرجع السابق، ص: 15.

– أن لا يستسلم لأحد، وأن يكون متحررا، ولا يقع تحت تأثير أي شخص[1].

من خلال ما ورد في هذه الوصية نجد أنها نصائح تستحق الوقوف عندها لما تحمله من سمات الرجل المميز والشريف والناجح، ولكن عندما نتفحص في مسيرة الرجل الذي نصح بهذه الوصايا كارلوس الخامس نجده لا يحمل شيئا مما قاله أو ذكره؛ مثال ذلك قوله بأن لا يسمح بالفساد سواء كان مقابل المال أو السلطان؛ فكيف نفسر عمل محاكم التحقيق واضطهاد كل من خالف العقيدة الكاثوليكية.

أمام إصرار كارلوس الخامس على تجهيز ولي عهده ليتابع مشواره، أوكل إليه تسيير شؤون اسبانيا الداخلية؛ كما اهتم فليب الثاني بتنظيم اجتماعات المجالس، لتصادق على الميزانيات التي كانت تجمع بغرض تغطية نفقات تلك الحروب التي كلفتها حروب الإمبراطور كارلوس الخامس ضد العثمانيين، والبروتستانت والفرنسيين.

عندما انتصر الإمبراطور كارلوس الخامس في مولبوغ سنة 952هـ/1547م رأى أنه من الأنسب حضور ولده الأمير فليب الثاني إلى الأراضي المنخفضة، ليتعرف على الحكم على مستوى أوسع، ويطلع على رعاياه الجدد؛ ولقد ناب عنه أثناء غيابه الأمير فليب الثاني الأرشيدوف مكسيميليانو فرناندو، وشقيقه.

استجابة لرغبة والده سافر فليب الثاني متجها نحر الأراضي المنخفضة، تاركا وراءه الأرشيدو كسيميليانو بن فرناندو، وشقيقة فليب الثاني ماريا، لينوبا عنه في إدارة شؤون اسبانيا. وفي سنة

[1]– حتامله، المرجع نفسه. ص: 15.

954هـ/1549م، وصل الأمير فليب الثاني إلى فلنديس، فأعلن سيدا على جميع مدن المقاطعة وأريافها.

ولما اعتلت ماريا تيودور عرش انكلترا 958هـ/1553م، رأى الإمبراطور أن يتزوج منها ولده فليب الثاني[1]، ليتمكن من تضييق الحصار على عدوته اللدودة فرنسا[2]، وبالفعل ما وقع أنه تم زواج الأمير فيليب الثاني من الملكة **ماريا** سنة 959هـ/1554م[3]، ولكن هذا الارتباط لم يدم طويلا[4]، إذ توفيت الملكة سنة 962هـ/1557 م دون إنجاب ولي عهد.

في العام الأخير من حكم كارلوس واجه هذا الأخير أكبر عدوين أوروبيين له بعدما تحالفت فرنسا مع الأمراء البروتستانت لقاء الحصول على ثلاث مناطق ألمانية محاذية لفرنسا هي ميتس وتول والفردات؛ وكنتيجة لهذا التحالف قامت الحرب بين اسبانيا وفرنسا والأمراء الألمان، استمرت خمس سنوات[5]، أخفق خلالها كارلوس في استعادة المناطق الثلاث.

أمام هذه الضغوطات ولعجز **كارلوس الخامس** على مواجهتها ومجابهتها قرر في سنة 963هـ/1558م التنازل لولده وولي عهده فليب الثاني على حكم الإمبراطورية باستثناء ألمانيا

---

[1]- محمد عبده حتامله، المرجع السابق. ص: 16.

[2]- عندما علم الأمير فليب الثاني بمشروع زواجه أقلع نحو ميناء سوثميتون في انكلترا، وظل هناك فترة قصيرة، حيث انتقل إلى ونتشستر عام 1554م، وهناك أجرى مراسيم الزواج.

[3]- بعد عقد قرانه مع ملكة انكلترا توجه الأمير فليب الثاني إلى فلنديس، ليحضر حفل تنازل والده شارل الخامس على حكم إمبراطوريته باستثناء ألمانيا؛ وقد اشتملت هذه الإمبراطورية التي ورثها على رقعة واسعة في مناطق أوروبا وأمريكا وإفريقيا وأوقيانوسية.

[4]- حاول الملك فليب الثاني أن يتودد للإنكليز، وتصرف تصرفا لائقا في أمور الحكم؛ كما خفف من اندفاع زوجته ماريا فيما تعلق بالمشاكل السياسية والدينية، معتقدا أنّ سياسة اللين والتسامح، هي الوسيلة الفعالة لتهدئة النفوس، ولكن ظهور البروتستانتية، أوجد جوا من العداوة.

[5]- والتوتر تجاه الملك فليب الثاني والإسبان عموما، إذ اعتبروهم الإنكليز متعصبين، وقساة خاضعين للبابا ولرعب محاكم التحقيق.

واشتملت هذه الإمبراطورية التي ورثها على رقعة واسعة من أوروبا وأمريكا وإفريقيا توزعت كما يلي[1]:

– على مستوى أوروبا: كانت له السيطرة على البر تغال بكل مستعمراتها في الهند وجزر البهارات والبرازيل "Brazile".

– على مستوى إيطاليا: حكم منها ميلان"Milan" ونابولي"Napoli" وصقليةSicilia " وسردينيا "Cerdena".

– على مستوى فرنسا: كانت سيطرته على روسيليون"Rosellon" وفلندرا ومقاطعات فرنش كونته"Franco condado".

– كما شملت مملكتة البلاد المنخفضة، بلجيكا وهولاندا وحكم في أمريكا كل من كاليفورنيا "California" والمكسيك "Mejico" وخليج المكسيك Golfo de Mejico وكذلك فلوريدا "Floride" وكوبا"Cuba" واسبنيولا "Espanola" وبورتوريكو والأراضي اليابسة" – Tierro Firme" التي ضمنت من سانتيغو دي كراكس Santiago de cacas وترينداد "Trinidad" وبينما"Panama" وكينو"Quito" كما خضعت له بيرو"Peru وبراغواي " Paraguay" وأراغون"Uruguay" وكل من الأرجنتين"Argentina" بما فيها نهر لابلاتا"la Plata " وتشيلي"Chile"[2].

وفي سنة 963هـ/1558م ولاه مجلس قشتالة ولاية العهـــد، في ظروف مشحـــونة سادت

---

[1]– بنظر الملحق رقم:(3)، للاطلاع على خريطة توضح الأراضي والجزر الخاضعة لسلطة فليب الثاني.

[2]– محمد عبده حتامله، المرجع السابق. ص: 17.

غرناطة، كان سببها ذلك الجدل الذي ساد بين الأطراف الفاعلة في اسبانيا، ما أدى إلى زيادة الوضع تعقيدا الذي كان أصلا معقدا، ولهذا الأخير أسباب عدة أهمها الصراع على السلطة في المملكة ومحاولة كل جهة متنفذة هناك إعلاء مصالحها على الجهة الأخرى، خصوصا كل ما اتصل من تلك المصالح بالأراضي والتجارة والضرائب.

من خلال تتبع مسيرة هذا الرجل نجد أن القضية الدينية حلت لدى هذا الملك محل الصدارة، فقاوم بشدة كل من لا يدين بالكاثوليكية، وكان يهدف من وراء ذلك تحقيق الوحدة الدينية حسب التعاليم الكاثوليكية رغم كل الظروف الصعبة التي كانت تواجهها اسبانيا[1]، وهذا هو المحرك الرئيس لكل أعماله؛ فقد تتبع سياسة هدفها تنصير مسلمي اسبانيا أو تهجيرهم قسرا، لذلك اتخذ سلسلة من الإجراءات التي تقشعر لها الأبدان.

## المبحث الثاني: محاولات قتل الذاكرة التاريخية والدمج الثقافي

اعتلى فيليب الثاني عرش اسبانيا وهو يواجه حركة جهاد كبرى لأسباب يتماثل عدد مهم منها مع الأسباب التي أدت إلى الاضطرابات في هولندا. وكانت سياسة فيليب الثاني حيال مسلمي اسبانيا السيـاسة نفسها التي اختطهـا حـيال الهولنديين بعناصر تضمّنت التدخل العسكري الواسع النطاق وتكثيف دور محاكم التحقيق.

[1]- ساد في غرناطة جو مليء بالمشاحنات، فهذا الحاكم العسكري كان على خلاف مع محكمة التحقيق، وكانت هذه الأخيرة على خلاف مع مجلس البلدي، وهذا الأخير عمل ضد رئيس الأساقفة، ثم المحكمة العليا التي خالفت الجميع لأنّها اعتقدت أنّ رأيها أصوب الآراء. وبهذا تفاقم الصراع بين كلّ هذه الأطراف على حساب الغرناطيين، فكان عليهم إلاّ استنجاد بفيليب الثاني؛ انتظر هذا الأخير طويلا قبل أن يقرر التحري حول كلّ هذه الأوضاع، فأرسل في نهاية المطاف مبعوثا خاصا لحل الخلافات بين القوى المتناحرة في غرناطة؛ على هذا الأساس التقى مبعوث الملك مع جميع الأطراف وقدم على أساسه تقريرا مفصلا إلى الملك، ممّا جعل تدخلا شخصيا من جانب فليب الثاني هو الكفيل فقط بوضع حل لكلّ هذه المشاكل.

فكان دور القوة العسكرية حاسما لكن في البداية فقط. فبعد سحق أي تمرد بقوة السلاح تأخذ القوة العسكرية مكانا خلفيا مراقبا فيما ترمي محاكم التحقيق كل ثقلها لضمان استمرار"تهدئة" كلا الأمتين الأندلسية والهولندية من خلال أساليب اتبعتها المحاكم خلال حكم كارلوس وأساليب جديدة أقرها فيليب الثاني عندما منح المحاكم صلاحيات شبه مطلقة.

وتمكن مسلمو اسبانيا في بعض الأحيان من شراء حرياتهم المحدودة من إيزابيلا وفرناندو وكارلوس الخامس، وسيستمرون كذلك في تقديم الثمن إلى فيليب الثاني لكنهم لن يحصلوا في مقابله على الحريات التي كانوا يحصلون عليها أيام أبيه كارلوس الذي مات عام 963هـ/1558م ومات معه تعهده بكف يد محاكم التحقيق عن مسلمي مملكة غرناطة ومعظم مناطق أراغون مدة أربعين سنة.

**1). سياسة التنصير القسري (965-971هـ/1560. 1566م):** حلت القضية الدينية لدى فيليب الثاني محل الصدارة، فقاوم بشدة كل من لا يدين بالكاثوليكية وكان يهدف من وراء ذلك تحقيق الوحدة الدينية حسب تعاليم الكاثوليكية، وهذا هو المحرك الرئيس لكل أعماله. أما فيما يتعلق بمسلمي اسبانيا فقد اتبع سياسة هدفها تنصيرهم أو تهجيرهم قسرا، داخل اسبانيا؛ وقد اتخذ من أجل تنفيذ هذا المشروع سلسلة من الاجراءات الظالمة والمجحفة في حقهم.

ما يمكن ملاحظته عند تتبع مسيرة هذا الملك، أن سياسته تجلت في ثلاث جوانب:

- أما الجانب الأول فيتمثل في سرعة اتخاذ القرارات وتنفيذها، إذ أمر بالضغط الدائم على كل المعنيين لصياغة المخططات والحلول، كما تجسمت هذه السرعة أيضا في العجلة التي وقع بها نزع السلاح الذي رخصت السلطات الإسبانية سابقا حمله.

ويمكن أن نخلص هذا الجانب في أول جلسة لمجلس النواب عقدها في قشتالة بعد عودته من البلاد الواطئة سنة 965هـ/1560م، منع من خلالها على مسلمي اسبانيا استخدام العبيد واقتنائهم بحجة أن هؤلاء العبيد السود يتربون بين هؤلاء المسلمين، وبهذا يتعلمون منهم تعاليم الدين الإسلامي[1]؛ كما حضر عليهم المتاجرة بالذهب والفضة[2] بشكل سبائك. وقد تذمر مسلمو اسبانيا كثيرا من هذا القرار الجائر، لأنه حرمهم موارد دون أي تعويض بالمقابل.

كما انتزع منهم اليد العاملة في زراعة الحقول[3]، والتي كانت بمثابة الركيزة الأولى التي كان يعتمد عليها المسلمون في ممارسة النشاط الزراعي، هذا الأخير كان من بين أهم الموارد التي كانت تعينهم على اقتناء غذائهم.

وفي سنة 968هـ/1563م أصدر مرسوما يقضي على مسلمي إسبانيا تسليم كل الأسلحة المرخص لهم بامتلاكها خلال مدة لا تزيد عن خمسين يوما من صدور المرسوم،[4] تحت طائلة العقوبة تقدر بست أعوام في العمل بالقوادس[5] ويجب أن تمهر هذه الأسلحة بخاتم الحاكم العام.

ـ أما الجانب الثاني فتمثل في تعيين منفذين مناسبين يملكون معرفة كاملة وشاملة بالملف الخاص بمسلمي اسبانيا. وبالفعل تم تعيين كل من مارتين دي أبال، وفرناندو دي لوات، وقريقوريو

---

[1]- لحايك سيمون، المرجع السابق، ص : 33.

[2]- اشتهر مسلمو اسبانيا بصناعة الحلي سواء من الذهب كان أو من الفضة ، فعرفوا بصناعة الخواتم الفضية والذهبية المرصعة والأساور والخلاخل، الأقراص التي كانت على شكل أهلة، منها نوع يعرف بـ "المشريفة"، هذا الأخير لقي اقبالا كبيرا لجمال شكله. ينظر: حليمي عبد القادر، مدينة الجزائر: لشأنها وتطورها قبل 1830م، الجزائر: المطبعة العربية لدار الفكر الإسلامي، د ط، 1972م، ص: 298.

[3]- محمد عبد حتامله، المرجع السابق. ص : 23.

[4]- بعد صدور هذا المرسوم سلم ثلة من مسلمي اسبانيا أسلحتهم أو بعضها، أما الغالبية العظمى منهم لا سيما الذين كانوا ينحدرون من أسر عريقة فقد رفضوا تسليمها، كما رفضوا أن يضعوا ختم الحاكم العام على مقابض سيوفهم. كما أخفى الكثيرون منهم أسلحتهم تحضيرا للمقاومة.

[5]-**القوادس** : هي نوع من السفن الشراعية .

دي ميراندي[1] من أجل تحقيق هذا المشروع على أتم وجه.

– في حين تعلق الجانب الثالث عن كيفية عقد اجتماعات يمكن من خلالها إيجاد سبل تمكن السلطات الاسبانية من مواجهة وعلاج قضية مسلمي اسبانيا، ومن أهمها نذكر :

*– اجتماع برلمان بلنسية[2] سنة 969هـ/1564م[3]. وقد أشار هذا الاجتماع إلى وجوب تعليم الديانة النصرانية قبل الضغط عليهم، كما طالب النبلاء بالتعميد قبل تنفيذ العقاب.

*– اجتماع مجلس مدريد[4] فيما بين سنتي 969– 970هـ/1564 و1565م. وقد طالب الأساقفة من خلال هذا المجلس أن يأخذ التبشير بالإنجيل مجراه الطبيعي؛ كما طالبوا بإمكانية التصرف ليس طبقا للسلطة العادية فحسب بل وكذلك طبقا لتوكيل محاكم التحقيق.

في أواخر سنة 671هـ/1566م عقد رئيس أساقفة غرناطة ضونبيدرو غريرو " Don Guerrero Pedro "[5] الذي كان عضوا في مجمع ترينتو "Concilio de Trento "[6] مجمعا كنسيا حضره الأساقفة التابعون لمملكة غرناطة[7]، واقترحوا من خلاله على الملك فيليب الثاني

---

[1]– رفاييل بينيتاسبلانكو، محاولة استيلاب ثقافي للموريسكين في بلنسية، ضمن أعمال المؤتمر العالمي الثالث عشر للدراسات الموريسكية – الأندلسية الموسوم بـ: الأبعاد العقائدية والفكرية في الأدب الألخمايادو وسياسة محاكم التفتيش تجاه الموريسكيين. ص: 81.

[2]– تكون برلمان بلنسية من الأسياد ورجال الدين وأقليات المدينة .

[3]– تم هذا الاجتماع من سبتمبر 1563 الى غاية شتاء 1564 . وقد أولى اهتماما كبيرا لقضية "الموريسكيين".

[4]– ضم هذا المجلس مجموعة كبيرة من الأساقفة . نذكر منهم الأسقف فرانسيسكو نافرا.

[5]– **ضونبيدرو غريرو**: كان أحد القساوسة الناقمين على المسلمين والإسلام بصفة عامة، كان شديد الانفعال أعجب به البابا بيوس الرابع فجعله مراسل الفاتيكان في اسبانيا، يوافيه بتحركات المسلمين في اسبانيا، وموقف الحكومة المركزية منهم، وعلى العموم فقد جعله البابا ممثله في اسبانيا.

[6]– **مجمع ترينتو**: هو مجمع ديني، كان يعالج أمور الكاثوليكية، وكان ضد كلّ من ليس كاثوليكيا، لهذا عقد في العديد من المرات في روما وغيرها اجتماعات من أجل محاربة من سماهم بالمارقين والمراتدين.

[7]– قبل عقد هذا المجلس، تم مناقشة الأمر بين الملك فليب الثاني و ضونبيدرو غريرو، ونقل له إرادة البابا في القضاء على هؤلاء المسلمين، وأنه يجب على الملك الذي يمثل إرادة الكنيسة الكاثوليكية تطبيق هذا الطلب، ولكنّ الملك رده بعنف، وطلب منه عدم التدخل في شؤون الملك والسياسة,

تطبيق المرسوم الصادر في سنة 931هـ/1526م الذي أوقف مفعوله كارلوس الخامس[1].

وبما أن الملك فيلب الثاني كان حريصا كل الحرص على حقوق التاج الملكي أفهم المجمع الأسقفي أنه تخطى صلاحيته بالتدخل في شؤون الدولة، ومهمته القضايا الكنسية دون سواها، فشجب الصورة، وتبنى الجوهر، فعين لذلك لجنة خاصة مشكلة من قساوسة[2] ومدنيين[3].

كان غضب غريغوري "Grigori"من تصرف الملك، وحقده عليه داعين كبيرين على تدخله وإقناع أعضاء اللجنة بضرورة تطبيق المرسوم، فقرروا بالإجماع تطبيقه؛ وبمقتضى ما توصلت إليه اللجنة[4]، وقع الملك على المرسوم في سنة 971هـ/1566م، فحمل أسوأ العواقب على البلاد[5] وتمثلت بنوده فيما يلي:

*– يجبر مسلمو اسبانيا في خلال ثلاث أعوام من إصدار هذا القرار ونشره، على تعلم اللغة القشتالية، واعتبارا من ذلك التاريخ يحضر على أي كان الكلام أو الكتابة أو القراءة سرا أو جهرا باللسان العربي[6].

---

[1]– للاطلاع على بنود هذا المرسوم ينظر : الباب الأول، الفصل الثاني.

[2]– تشكلت اللجنة من رجال الدين تمثلت أسماؤهم فيما يلي: ضونديبغو دي اسبينوسا "Don Diogo de Espinosa" أسقف سيغونثا ورئيس مجلس قشتالة. و ضون أنطونيو "Juan Don Antonio" رئيس دير سان خوان، أيضا أسقف أوروبيله "De Orihuela".

[3]– تمثلت أسماؤهم في: دوق ألبا "Alba"، ونائب مستشار أراغون ضونبيرناردو دي بوليا "Don Bernardo de Bolea"، أيضا المحقق ضونبيدرو ديسا "Don Pedro Deza"، و مينتشاكه "El LicenciadoMenchca" الحاصل على شهادة علمية، والدكتور فيلاسكو "Valsco" أحد أعضاء المجلس والحاشية الملكية.

[4]– أوكلت لهذه اللجنة مهمة في النظر إلى اقتراح رئيس أساقفة غرناطة <<بطجره غريره >> ، وقد وافقت على قرار هذا الأخير ، وزادت عليه أمورا أخرى جعلته أشد صرامة من سابقه .

[5]– عين لتنفيذ هذا المرسوم رئيس محكمة التفتيش في غرناطة بدره ديسا فأمر هذا الأخير بطبع المرسوم سرا.

[6]– هو القرار نفسه الذي أصدره الملك كارلوس الخامس سنة هـ/1526م ولكن أضيف إليه أمر آخر وهو تعلم اللغة القشتالية كبديل عن اللغة العربية.

*- تعتبر جميع العقود والوكالات وكافة المعاملات التي تكتب باللغة العربية اعتبارا من ذلك التاريخ ملغاة ولا قيمة لها إطلاقا، ولا يحق لأحد المطالبة أو الادعاء أو الشكوى بصحة هذه الوكالات والعقود وغيرها.

*- جميع الكتب العربية مهما كان موضوعها ومضمونها يجب أن يؤتى بها إلى رئيس المحكمة العليا في غرناطة لكي ينظر فيها ويفحصها، وإذا لم يجد فيها مانعا تعاد إلى أصحابها للاحتفاظ بها طيلة ثلاث أعوام فقط.

*- أما من حيث المدة اللازمة لكي يتعلم مسلمو اسبانيا اللغة القشتالية فالأمر متروك إلى رئيس المحكمة العليا ورئيس أساقفة غرناطة اللذين ينعمان بخبرة واسعة من هذا القبيل يجعلهما يقرران ما يجب فعله "لخدمة الله" ولصالح هؤلاء المسلمين.

*- أمّا بشأن الألبسة فيحظر خياطة وتفصيل تلك الملبوسات التي كانوا يرتدونها على العهود السابقة، وجميع ما يخاط ويلبس يجب أن يكون حسب الزي النصراني. ولكي لا تضيع الألبسة المصنوعة من الحرير والكتان، يخول ارتداء الملابس الحريرية مدة سنة، والثياب القطنية مدة سنتين.

وبعد انقضاء هذه المدة لا يخول لأحد لبسها بأي حال من الأحوال، وخلال هذين العامين يجب على جميع النساء المرتديات الزي الإسلامي أن يكشفن عن وجوههن حيث كن، ويتخلين عن الملفة والمنديل ويلبسن الرداء والقبعة كما يجري في أراغون بعد إلغاء الزي إسلامي.

*- وفيما يخص الأعراس، يحضر استعمال الطقوس والاحتفالات بالطريقة الإسلامية، بل

تتم حسب الطقس الكنسي كما يفعله النصارى. وفي أيام الأعراس يجب أن تظل أبواب المنازل مفتوحة، وكذلك أيام الجمعة بعد الظهر وخلال الأعياد، ولا تستعمل التهاليل والزغاريد والآلات الموسيقية، ولا الأغاني الإسلامية من أي نوع كانت حتى ولو لم يذكر فيها شيء ضد الديانة النصرانية.

*- أما من حيث الأسماء، فيحظر استعمال الأسماء العربية، والذين يحملونها يجب أن يتخلوا عنها ويبدلونها بأسماء نصرانية، وعلى النساء أن لا يتزين بالحناء.

*- فيما يخص الحمامات، يمنع بناء حمامات جديدة، أما الموجودة فتهدم، ولا يحق لأي شخص كان استعمال هذه الحمامات.

*- أما بشأن الغزاة والأحرار أو المفتكين أو الذين سيفتكون لا يحق لهم الاستقرار في مملكة غرناطة، وبعد ست أشهر من افتكاكهم يغادرون البلاد، ولا يحق لمسلمي اسبانيا اقتناء عبيد من الغزاة ولو كانوا يحوزون على رخصة بذلك.

*- يجب على كل من يريد اقتناء العبيد السود عليه حمل رخصة يقدمها إلى رئيس المحكمة العليا بغرناطة للنظر بها، فإذا وجد أنهم لا يشكلون خطرا ولا يوجد مانع يحول دون اقتناء هؤلاء العبيد السود يمكنه الاستفادة منها، ويرسل علمنا وخبرا بذلك إلى صاحب الجلالة[1].

هذه إذن هي مجموع القرارات التي اتخذها المجمع المنعقد في غرناطة وقرر تطبيقها جميعها في الوقت ذاته؛ لذلك طبع المرسوم ووزع على جميع أنحاء غرناطة، وتم الاتفاق على إعلانه رسميا في

[1]- الحايك سيمون، المرجع السابق، ص ص: 35،36.

اليوم الأول من شهر كانون الثاني عشية الاحتفال بذكرى سقوط واستسلام غرناطة، وفي الوقت ذاته يكون مسلمو اسبانيا قد اطلعوا عليه[1].

وهذه قراءة في بنود هذا المرسوم؛ فمن خلال ما جاء فيه نستنتج ما يلي:

– نرى أن البند الثاني من المرسوم هو نفسه البند الرابع من المرسوم الذي أصدره الملك كارلوس الخامس، إلا أن صياغته مختلفة، ولكنهما يصبان في قالب واحد، ولهما نتيجة واحدة.

– في حين نجد البند الخامس من المرسوم يعادل البند الثاني والشطر الثاني من البند الأول من المرسوم الصادر بتاريخ 931هـ/1526م.

– كما نستنتج أن السلطات الاسبانية أرادت من وراء هذا المرسوم إعلان الحرب على مسلمي اسبانيا بكل صورها، وبالتالي حاولت إشعال نار المقاومة التي كانت في نفوسهم، والتي وجدوا في بنود أو قرارات هذا المرسوم سببا منطقيا ووجيها لإعلانها.

وخلاصة ما يمكننا الخروج به من استنتاجات هو منع كل ما له صلة بالدين الإسلامي ممارسة، ولغة، وعادات. وبهذا هو محاولة طمس لكل معالم الشخصية الإسلامية التي رأت فيها السلطات الاسبانية خطر على النصرانية، وبالتالي خطر على الوجود الاسباني بصورة عامة في المنطقة.

**2)– عملية التهجير مراحلها ونتائجها** (972- 975 هـ/1567- 1570م): كانت

[1]– وكل بهذه المهمة خادم الرعية في حي البيازين الراهب يسوعي <<البوتودو>>، هذا الأخير كانت له علاقات ودية مع المسلمين فهو منهم، ويعرف اللغة العربية معرفة جيدة، لذلك طلب من أعيانهم الاجتماع بهم في كنيسة << المخلص >> بحي البيازين ليطلعهم بصورة ودية على القرارات التي اتخذت بشأنهم، ويحاول إقناعهم بضرورة التقيد بكلّ بند من بنودها خدمة لمصلحتهم، وتجنبا لمواجهات مع السلطات الاسبانية.

محاكم التحقيق لا تتحرج في اتهام أي مسلم تعتبره مذنبا، وتحكم عليه بالسجن، لذلك عمل مسلمو غرناطة وحي البيازين على خطف النساء والأطفال الاسبان، ليستطيعوا إنقاذ إخوانهم بالسجون مقابل تسليم هؤلاء إلى ذويهم، ولم يكن أحد يستطيع أن يخرج ليلا إلى شوارع، ولا أن يتنزه نهارا بمفرده، بل كانت تتشكل جماعات مسلحة من الاسبان هدفها الأساس اقتناص أي مسلم قد يعثرون عليه؛ فكانت تشرق الشمس على غرناطة، وقد تناثرت الجثث في شوارعها هنا وهناك، هذه هي حالة الرعب التي كانت تعيشها غرناطة قبيل اندلاع المقاومة المسلحة

وفي سنة 972هـ/1567م اجتمع قضاة المحاكم وغيرهم من السلطات الدينية، وقرعت الطبول ودقت الصنوج وعزفت الآلات الموسيقية على اختلاف أنواعها في الأحياء والأسواق العامة في مدينة غرناطة وحي البازين، ثم أمرت السلطات بهدم الحمامات ابتداء بالحمامات، عندها بلغ غضب مسلمي اسبانيا حده، فعلت التهديدات والتوعدات[1].

وحدد هذا القانون نهاية سنة 972هـ/1567م كموعد نهائي لتخلي المسلمين، نساء ورجالا على لباسهم الإسلامي ولغتهم العربية؛ وألف من أجل ذلك القائد ديسا قوة من الشرطة لمراقبة المسلمين وألزمهم بنفقاتها؛ لكن الماركيز موندیخار حل هذه القوة لكسب تعاطفهم.

هذا ما آلت إليه أحوال المسلمين الذين سلموا غرناطة منخدعين بالمعاهدات، التي لم تعد إلا حبرا على ورق بعد أن مر عليهـــا ما يقارب خمســـة وسبعين عاما. لم يزد هذا القـــرار المسلمين إلا

[1]–لقد أخذوا يقولون من خلال الصرخات التي كانت تخرج من أفواه الكبار والصغار أن السلطات المحلية خدعت جلالة الملك بإعطائها تقارير مزيفة حول وضعية مسلمي اسبانيا، والتي نتج عنها اصدار هذا المرسوم الذي نزل كالصاعقة عليهم.

غضبا واستبسالا وطالب بعض النبلاء والفرسان الكاردينال ديسا بإلغاء تطبيق هذا القانون تجنبا لما يتوقعون من ويلات ستكتنف المجتمع الإسباني إذا ما طبق.

نظرا لتخوف بعض الشخصيات البارزة في البلاط الاسباني، توجه الماركيز **موندیخار** القائد العام للجيش إلى مدريد قصد مطالبة الملك فليب الثاني بإلغاء هذا القانون لأن إلغاءه في نظره يجنب اسبانيا حروبا لا يعلم نتيجتها إلا الله، بيد أن الملك قد استمع إلى تقارير ديسا وأمر القائد العام بالعودة إلى غرناطة وأن يساند القول بالعمل والأسلحة فأدى ذلك احتدام الغيظ في صدور مسلمي اسبانيا، الذين غدت حالتهم لا تطاق عند إضافة تلك القرارات إلى ما مروا به من أوضاع سيئة من قبل ونفسوا عن ذلك الغيظ بمواجهات عنيفة[1].

عندها عقد مسلمو المنطقة اجتماعا، وأرسلوا وفدا[2] إلى رئيس محكمة التحقيق **بدرو ديسا** لاطلاعه شفويا وكتابيا على مطلبهم القاضي بإلغاء هذا المرسوم؛ وأن كل ما جاء فيه من بنود هو ظلم في حقهم، ومن الواضح أنّه صدر لتدميرهم. وبهذا حاول مسلمو المنطقة فتح الحوار مع عمال الإمبراطور لإعادة النظر في هذه القيود ووقف متابعة مصادرة محاكم التحقيق والسلطات المدنية لأراضيهم[3].

1_ Manuel DanvilaCollado, El poder Civil en Españ̃a, mémoriapremiadaPor la real academia de ciencias morales y politicas, Madrid, 1885, Tome : 2, P P : 258,259.

[2]–تزعم هذا الوفد شخصا يدعى فرنسيسكو نونس مولاي، عرف هذا الأخير بحنكته ودهائه وحسن تصرفه.

[3]– تقدم وفد باسم مسلمي اسبانيا يرأسه رئيس جماعتهم مولاي فرانسيسكو نونيز؛ لكنّ ديسا قابل الوفد بكلّ غطرسة وإهانة وإهمال؛ بعدها أرسل مسلمو اسبانيا وفدا آخر إلى الملك فليب الثاني وإلى وزيره المفتش العام كاردينال سبينوزاير أسهخوان أنريكز وهو رجل نصراني كان متعاطفا مع قضيتهم. كما ضم الوفد مجموعة من الأعيان، منهم خوان فرناندس من غرناطة، وفراند والحبقي من وادي آش. اجتمع هذا الوفد بالكاردينال ولكن دون جدوى.

فكانت إجابة رئيس محكمة التحقيق[1] كالآتي : "...**إنّ جلالة الملك لا تريد بأي شكل من الأشكال مضايقة رعاياها بل على العكس انّها مستعدة لمساعدتهم، وإذا حدث أنّ بعض المسلمين تعرض للظلم من قبل القضاة ... ، عليه أن يبادر حالا لينصفه ويعاقب المسؤول ...وليكونوا على يقين أنّ المرسوم لن يلغى لأنّه عادل ومقدس وصدر بعد روية وإمعان الفكر وتبادل الآراء والتداول والاتفاق الجماعي**..."[2].

أما في سنة 973هـ/1568م، فقد صدر قرار يقضي بأن يسلم المسلمون أولادهم الذين تتراوح أعمارهم بين ثلاثة وخمسة عشر سنة إلى سلطات الكنيسة الكاثوليكية لتعليمهم الدين النصراني واللغة القشتالية.

نتيجة لكل هذه المستجدات قاد مسلمو اسبانيا مقاومة عنيفة ضد ظلم وتنكيل السلطات الاسبانية، فكانت هذه الحركة المسلحة منعرجا مهما في المسيرة النضالية لمسلمي إسبانيا؛ فقد كان لهذه المقاومة نتائج خطيرة على شتى الأصعدة، منها ما ظهرت بوادرها في المرحلة الأولى من المقاومة، ونقصد بذلك محاولة دون خوان "Don Ruine" بتهجير مسلمي غرناطة نحو قشتالة[3]، كإجراء وقائي لضمان عدم انضمامهم وتأييدهم للمقاومة، ولقد تم بموجب هذا القرار الذي نفذ في سنة 977هـ/1569م تهجير ما يقارب خمسة وثلاثين ألف مسلم من غرناطة.

---

[1]- لقد تقدم الماركيز دي مندوجر، حاكم غرناطة بعريضة الى الملك أوضح فيها خطورة الموقف لاعتراض مسلمي اسبانيا على القانون واحتمال وقوع حركة مقاومة مدعمة بقوة من العثمانيين.

[2]- الحايك سيمون، المرجع السابق، ص : 44.

[3]- جزأت السلطات الاسبانية عملية التهجير إلى سبع مناطق، كلف كل مسؤول أو مسئولين أو ثلاثة بتهجير سكان تلك المنطقة كبار وصغارا نساء أو رجال.

بعدها أصدر فليب الثاني مرسوما آخر في سنة 978هـ/1570م قضى بترحيل جميع المسلمين من غرناطة دون استثناء، ومصادرة ممتلكاتهم وتوزيعهم في كل من أسترامادورا "Estremadura"، وجليقية "Galicia"، وقشتالة القديمة، ومملكة ليون "Leon"، وإشبيلية، وكان مجموع من هجر في هذه المرحلة ما يقارب خمسون ألف مسلم.[1] **ومرت** عملية التهجير بعد فشل المقاومة بأربع مراحل:

*- **مرحلة التجمع الثانية:** تم خلالها نقل المهجرين في رحلة طويلة مشيا على الأقدام بمعدل عشرين كيلومتر يوميا باتجاه الشمال أو الغرب رتب الجيش أول الأمر هذا الانتقال في تنظيم عسكري محكم فقسم المهجرين إلى قوافل تتكون كل قافلة من 1500 مهجر مؤطرين من طرف مائتي جندي قشتالي تتبعها عربات تحمل أمتعة المهجرين المسموح لهم بحملها.

انتهت المرحلة الثانية من التهجير بوصول 21000 غرناطي إلى البسيط، و12000 إلى قرطبة، و6000 إلى طليطلة و5500 إلى اشبيلية، ما مجموعه 44500 غرناطي مسلم، وكان في نية السلطات الإسبانية ومن ورائها الكنيسة الكاثوليكية تشتيت المهجرين من نقاط تجمعهم الجديدة في قرى ومدن قشتالة لتكسير عزيمتهم وإجبارهم على نسيان هويتهم وعقيدتهم ولاضمحلال عصبيتهم حتى يسهل انصهارهم في المجتمع النصراني المحيط بهم.

*- **المرحلة الثالثة:** كان هدف السلطات الإسبانية من وراء هذا الاجراء تشتيت مسلمي المنطقة؛ إذ أجبر الجيش سبعة آلاف غرناطي ممن وصلوا إلى قرطبة على متابعة السير إلى منطقة

[1]- بشتاوي، الأمة الأندلسية الشهيدة، (المرجع السابق). ص ص: 149، 151.

بطليوس وسبعة آلاف وخمسمائة ممن وصلوا إلى البسيط نحو شقوبية وبلد الوليد وبلنسية[1] وطمنكة في الشمال.

*– **المرحلة الرابعة:** تبعت هذه المرحلة من التهجير مرحلة رابعة، عمدت إلى تشتيت المهجرين على المدن والقرى الثانوية حتى تصل نسبهم بين السكان إلى أصغر قدر ممكن[2] وبهذا دام التهجير مدة شهرين متواصلين ولم ينته إلا في سنة 978هـ/1570م.

ومن بين الانعكاسات التي انجرت على عملية التهجير هذه أن خسر المسلمون كل ممتلكاتهم المنقولة؛ فقد كان لنتائج التحقيق التي قام بها منفذوا العملية أن دونوا في سجلات خاصة معلومات دقيقة لكل ممتلكاتهم، هذه الأخيرة عرضت بالمزاد العلني وتم بيعها.

كما نص المرسوم الملكي نفسه على مصادرة جميع الممتلكات التي كانت ملكا لمسلمي مملكة غرناطة، ليت تحويلها إلى ملكية الملك؛[3] وعلى هذا الأساس كلفت السلطات الاسبانية مجموعة من الموظفين بالاستيلاء على ممتلكات المسلمين المهجرين باسم الملك[4]،كما أصدرت قرارا آخرا يقضي إجراء تحقيق شامل مخافة أن يخفي البعض منهم ممتلكاتهم بعد سماعهم لقرار السلطات الإسبانية.

كما اغتنم بعض النصارى فرصة انهزام المسلمين للهجوم على الغرناطيين المسلمين لسلب أموالهم وسبي أبنائهم وبيعهم عبيدا؛ وقد كتب بيمنتيل، نائب الملك على بلنسية[5] رسالة بتاريخ

---

[1]– الكتاني، المرجع السابق. ص: 127.

[2]– هناك الكثير من المهجرين من ماتوا بالطريق أو بعد الوصول بقليل وتقدر المصادر التاريخية عدد الذين استشهدوا بحوالي 33000 غرناطي.

[3]– المرجع السابق. ص: 128.

[4]– محمد عبده حتامله، المرجع السابق. ص: 93.

[5]– أخذ اللاجئون الغرناطيون يتدفقون على مملكة بلنسية هروبا من قمع السلطات الاسبانية في غرناطة، ولكن ما لاقوه في هذه المنطقة كان أبشع وأفظع وهو الاستعباد والاسترقاق.

979هـ/1569/04/14م وجهها إلى الملك فليب الثاني بخبره بما حدث، ويطلب منه التعليمات لمواجهة الوضع الجديد[1].

كما واصلت محاكم التحقيق اضطهادها لمسلمي اسبانيا، فصبت جم غضبها على الذين لم ينتفضوا، وذلك باعتقالهم كلما وصلتها معلومات تؤكد ممارسة شعائر الدين الإسلامي، وإذا لم تتمكن من انتزاع اعترافات تلقائية، فإنها تعمد إلى تسليط شتى أنواع العذاب عليهم[2]، والذي كانوا يتحملونه بصبر وجلد حسب اعتراف القضاة أنفسهم.

بالرغم من صرامة القرارات الصادرة، والممارسات الشيطانية لعمال محاكم التحقيق، إلا أن مسلمي اسبانيا لم يخضعوا ولم يستسلموا، بل قاوموا بكل الوسائل المتاحة في سبيل المحافظة على مقومات شخصيتهم الإسلامية.

وبهذا تفاقمت القطيعة بين الفئتين ولم تعد تحتاج لأسباب أكثر لتكون خطيرة، فقام الأساقفة بالخطوة الحاسمة في الإجراءات القهرية بعد أن خاب أملهم في نتائج حملات التنصير، ففي عام 970هـ/1565م عقد مجلس كنسى في غرناطة كان لقراراته أهمية خاصة، لأنها وضعت بصورة مدروسة نهاية لسياسة الملاينة من جانب الأساقفة حتى تلك الفترة.

فقد تكون نص القرار النهائي من تسع مواد تدعو إلى تطبيق مل اللوائح الصادرة قبل ذلك والتي توقف تطبيقها منذ عام 916هـ/1511م. ولم تعد تستعمل تلك الكلمات مثل: "التبشير"

---

[1]- لقد اجتهد النصارى في القبض على المسلمين المهجرين، وكلّما قبض على أحدهم استعبد وبيع في سوق النخاسة؛ كما اجتهد مسلمو مملكة أراغون من جهتهم في شرائهم لعتقهم أو حمايتهم.

[2]- محكمة التفتيش، الملف رقم : 2603 ، رسالة من محكمة غرناطة إلى المجلس الأعلى في 14 أكتوبر هـ/1569م.

و"الوعظ" و"تعليم العقيدة المسيحية"؛ بل استعملت كلمات تحمل صبغة القهر والإكراه، ولم تترك تلك الوثيقة أي مظهر من مظاهر الثقافة الإسلامية إلا وذكرته: مثل اللغة والثياب والحمام والشعائر الدينية.

كما نجد في مجموع القرارات الصادرة استئصال كامل لكل خصوصيات مسلمي اسبانيا، من امتلاك العبيد، فأصبح الوافدون من ذوي الأصل الإفريقي، غير مسموح لهم بالإقامة في مملكة غرناطة حيث تبين أن تأثيرهم على السكان كان غير مرغوب فيه.

أما محاكم التحقيق فقد كثفت نشاطها وحزمها وشددت عقوبتها بإصدار أحكام أكثر بالتجديف في السفن. كما تناولت هذه المراسيم كل شيء حتى السكن، حيث أمر عمال محاكم التحقيق بإقامة اثنتا عشرة عائلة على الأقل من النصارى في كل قرية من قرى التي يسكنها المسلمون، وينبغي أن يستقبلهم السادة ثم يقدمون لهم أماكنهم ومساكنهم، وذلك ليقوموا بزيارات دورية لبيوت المسلمين أيام الجمعة والسبت والأعياد، حتى يتأكدوا من صدق تطبيقهم لتعاليم العقيدة الكاثوليكية.

كل هذه القرارات لم تكن بالجديدة، وإنما سار فيليب الثاني على النهج الذي رسمه ملوك اسبانيا من قبله، هدفهم في ذلك استئصال كل مقومات الدين الإسلامي ولكن نجد أن هذه السياسة لم تلق النجاح المراد له، فقد قاوم مسلمو اسبانيا هذه القرارات كمحاولة أخيرة ويائسة لإنقاذ هويتهم الثقافية، بعد أن عانوا الويلات من الحصار القمعي المضروب عليهم والذي ضيق عليهم أكثر فأكثر مع مرور السنين، وخصوصا بعد فترة الحرب الباردة حيث أصبح النزاع أكثر احتداما ومضرا للجهتين، والذي أدى إلى حصول هوة عميقة بين الحضارتين.

من نتائج هذه المقاومة أن تم إصدار قرارا بتهجير كل مسلمي غرناطة؛ فالمتطلع لنتائج هذا التهجير يلاحظ إنعاكاستها الخطيرة على شتى الأصعدة، ذلك أن هؤلاء المهجرين لعبوا دورا بارزا في سير عجلة التنمية الاقتصادية. وبهذا فإن فيليب الثاني سار على نهج والده ومن قبله أجداده، في نقض العهود والمواثيق، والتعصب الديني والتنكيل بكل من لا يدين بالعقيدة الكاثوليكية، مستعملين في ذلك أبشع الوسائل والأساليب؛ ولكن مع هذا كله لم تحقق ما كان يصب إليه أباطرة وملوك اسبانيا.

# الفصل الرابع: مأساة الطرد التعسفي ـ التحليل والأبعاد ـ

# (997هـ/1598ـ 1609م)

المبحث الأول: التنصير القهري على عهد فيليب الثالث

(1004-1017هـ/1599-1608م)

1)ـ آخر محاولات التنصير القسري

2)ـ فشل مشروع التنصير

المبحث الثاني: الدوافع الرئيسة وراء قرار الطرد

1)ـ العوامل المساهمة في تبني مشروع الطرد

2)ـ قراءة تحليلية في الدوافع

3)ـ الظروف الدولية قبيل تنفيذ مشروع الطرد

المبحث الثالث: اجراءات الطرد

1)ـ الاجراءات التشريعية

2)ـ الاجراءات التنفيذية

المبحث الرابع: احصاء عدد المطرودين وانعكاساتها الاقتصادية على إسبانيا

1)ـ إحصاء عدد المطرودين

2)ـ الأوضاع المصاحبة لعملية الطرد والنتائج المترتبة عليها

تشكل تفاصيل عملية الطرد الجماعي التي تمت سنة 1018هـ/1609م على يد ملك فيليب الثالث "Filipe III" بتحريض من المؤسسات المدنية والدينية والسياسية حلقة جديدة ومكملة لمسلسل الإقصاء الديني والاجتماعي والثقافي والحضاري والاقتصادي الذي مارسته السلطة والكنيسة يومئذ بكل قسوة وظلم تجاه الجماعة المسلمة. فأي دراسة حول موضوع طرد مسلمي اسبانيا لا بد أن تقودنا سريعا إلى الاقتناع بالأبعاد التي آلت إليها قضيتهم كقضية تاريخية، والحقيقة أن ماضي اسبانيا ومستقبلها يتشابكان بطريقة معقدة مع الصراعات والمواقف الايديولوجية التي تركت بصماتها على القرن السادس عشر.

ويعد طرد مسلمي اسبانيا من أهم الأحداث التي حفلت بالتبعات على جميع الأصعدة التاريخية، الاجتماعية، الاقتصادية، والسياسية، وقد تجاوز كلّ هذا ليحتل مكانة كأزمة ضمير جماعي للإسبان في عصره وفي عصور لاحقة. فالطرد الجماعي لشعب تم تعميده قصرا وظلما ليس له سابقة في تاريخ النصرانية، وهو حدث شاذ بكل المقاييس المدنية والدينية؛ ذلك أن بتر الجماعة المسلمة من إسبانيا أدى إلى عواقب يصعب فهمها تقريبا، فهي وإن كانت تبدو جلية أمام كل شخص متأمل إلا أنها تلقي بالدهشة والذهول الهادئ في نفوس كثيرين آخرين.

لقد تم طرح هذا الاجراء آلاف المرات من قبل الضمير القضائي والديني، ليس من الرجال ذوي الضمائر، بل من قبل إسبانيا محاكم التحقيق والنصرانية الكاثوليكية، ثم ظهر أخيرا وكأنه مقاطعة مع الماضي، مع ماض قريب جسده الملك كارلوس الخامس وفيليب الثاني، وماض آخر أكثر عراقة لم يمت كلية، إنه ماضي التسامح الإسباني خلال القرون الوسطى.

فما كان يتم التلاعب به ليس المساوي لما يطلق عليه اليوم "حقوق الإنسان"، بل ما إذا كان المجتمع في دفاعه الحربي عن العقيدة الكاثوليكية، كان يعمل بمقتضى الالتزام الأخلاقي لهذه العقيدة أم لا، وهو يتوغل في نفق لا مخرج منه من الهرطقة الممارسة عمليا؛ إن سمة الحل النهائي التي كست عملية الطرد لم تؤد سوى إلى إثارة الندم الحزين كنتيجة لهذه التجربة المؤلمة حسبما رآها الكثيرون.

فقد تم التهجير القسري في ظروف يستحيل على الباحثين اليوم التعبير عنها بأمانة ودقة، لما حفت بها من فظاعة وظلم صارخ ومتعمد، فلقد منع المطرودون من حمل ثرواتهم، لذلك تم بيع ممتلكاتهم بأبخس الأثمان؛ كما ترك البعض منهم أثناء عملية التهجير هاته عبر السفن الإسبانية، في قرى مهجورة دون تمويل أو ذخيرة، وتم الاستيلاء على مدخراتهم، ومات أكثرهم في الملابسات الرهيبة التي حفت بتلك العمليات في موانئ فرنسا واسبانيا.

فقد اعتبرت السلطات الإسبانية قرار الطرد هو حل مثالي وصائب لتطهير إسبانيا من أي عقيدة غير الكاثوليكية، فحين وجده الكثير من مسلمي إسبانيا أنه فرج من الله سبحانه وتعالى لتخليصهم من الظلم والتنكيل الذي عانوه طيلة أكثر من القرن من الزمن؛ فعملية الطرد هذه كانت بالنسبة لهم خلاص بعدما فشلت كل المحاولات التي اعتمدوها في سبيل البقاء في أرض الآباء والأجداد.

فمن خلال هذه الجزئية سنسلط الضوء على أهم الوقائع التاريخية التي جرت قبل وأثناء عملية الطرد، مع أن الكثير من الدراسات تناولت هذا الموضوع بكثير من التفصيل، ومع هذا فكان لا بد لنا من وقفة مع هذه المحطة التاريخية من مسار المحنة الإسلامية في إسبانيا حتى تكتمل الحلقة التي

بدأناها مند الملكين الكاثوليكيين وكان لا بد من ختمها بهذه المحطة التاريخية التي تمثل النهاية المأساوية لشعب اقتلع من أرضه قهرا وظلما في ظل فشل حركة الجهاد الإسلامي التي قادها هؤلاء من أجل استرداد أندلسهم الضائعة، أو على الأقل الضغط على السلطات الإسبانية بقبول التعايش معهم.

**– المبحث الأول: التنصير القهري على عهد فيليب الثالث( 1004–1017 هـ/1599. 1608م)**

اعتمد كل ملوك إسبانيا الذين تدالوا على العرش سياسية واحدة اقتضت "تطهير" إسبانيا من أي عقيدة تكون مخالفة للعقيدة الكاثوليكية؛ وفيليب الثالث مثله مثل كل الملوك الذين سبقوه كانت له مساعي كثيرة في هذا المجال، فقد سعى كمحاولة أخيرة لتنصير مسلمي إسبانيا معتمدا في ذلك على عمل محاكم التحقيق.

ولتنفيذ مشروعه التنصيري الذي فشل فشلا ذريعا في العهود السابقة، قام فيليب الثالث سنة 1004هـ/1599م بزيارة منطقة بلنسية، لتدارس ملف الجماعة المسلمة في إسبانيا مع حاشيته. واتفق الجميع على ضرورة الاستمرار في تنصيرها قسرا، وعلى هذا الأساس أصدر الملك مراسيم ملكية مغربة من بينها قرار العفو الذي مس كل الذين يعترفون بجرائمهم ويطلبوا الصفح؛ كما طلب من رجال الدين التوقف عن ملاحقتهم وإيذائهم إذا هم نفذوا ما طلب منهم، وفي الوقت نفسه ألح على تكثيف عملية تلقين النصرانية على الوجه الأكمل للمسلمين.

**1)– آخر محاولات التنصير:** واصلت محاكم التحقيق عملها على عهد فيليب الثالث، محاولة منها القضاء على ما تبقى من معالم الدين الإسلامي في اسبانيا، التي أرادت منها أن تكون

نصرانية في الروح والجسد، في السياسة والحياة العامة. وحتى لا تعتبر هذه المحاولة تكرار لما ورد في الفصل الأول من الباب الأول من هذه الدراسة فسوف نتطرق في هذه الجزئية إلى عرض مقارنة بين عمل محاكم التحقيق في العهود السابقة، وعهد فيليب الثالث، وذلك بقراءة تحليلية في رسم بياني نموذجي يطرح أهم الإحصاءات لعمل محكمة التحقيق بكونيكا.

فقد أسست السلطات الإسبانية سنة 903هـ/1498م بكونيكا[1] محكمة تحقيق[2] تعمل بشكل مستقل[3]. وبالنسبة لموقع المحكمة، ففي البداية كانت تقع في جزء يعرف الآن بالديار الأسقفية، في البيت المقابل" لدار الأبرشيبة"، واستمرت بالمكان نفسه إلى غاية عام 989هـ/1584م، وهي السنة التي أصبح فيها السيد غسبار كيروغا جستيان " Gaspar Quiroga (Jesuitas " قاضيا عاما على محاكم التحقيق[4]، حيث أمر بنقلها إلى شارع سان بيدرو، في المكان المقابل لكنيسة اليسوعيين.

ورجوعا إلى الدراسات الإحصائية التي أنجزتها بعض الدراسات المتخصصة فنلاحظ وجود ثلاث قمم:

*- بلغت القمة الأولى دورتها فيما بين عامي 930- 934هـ/ 1525- 1529م نتيجة لموجة عنف التي قام بها العامة من مملكة فالنسيا ضد مسلمي إسبانيا، والتي كان لها صدى كبير في الأقاليم

[1]- يوجد بدار المحفوظات الأسقفية بكونيكا مايربو على 480 محضرا حقق مع المسلمين المتهمين فيما بين عامي 920- 1040هـ/1515- 1630م، ولم تتم مقاضاة أكثر من ثلاثة مسلمين قبل عملية التنصير في عام 1502م. بنظر : موثيدس غارثيا أوينال، المرجع السابق. ص : 38.

[2]- قامت محكمة التفتيش بنشاط بالغ في كونيكا. وقد هيأت عزلة المدينة ، عن مدريد للمحكمة القيام بنشاط فعال، لكنه كان سريا؛ وعلى ما يبدو فإن هذه الأخيرة تعد واحدة من الخصائص المميزة لها

[3]- P, Pruneda, Gronica de la provincia de cuenca. P: 47.

المجاورة.

*- بلغت القمة الثانية ذروتها في الأعوام من 975هـ/ 1570م إلى 979هـ/1574م. وهي أكثر القمم الثلاث توترا، وتبدأ من عام 974هـ/ 1569م إلى 990هـ/1585م.

*- تبرهن القمة الثالثة على استفحال نشاط محاكم التحقيق في السنوات السابقة للطرد مباشرة.

بالإضافة إلى القمم الثلاث التي تظهر بوضوح في الرسم البياني. نلاحظ زيادة مفاجئة في عدد المحاضر فيما بين سنتي 960هـ/1555م و 964هـ/1559م. ويجب أن لا ننسى أن اسبانيا خلال تلك السنوات منيت ببعض الهزائم أمام العثمانيين في البحر الأبيض المتوسط، خاصة هزيمة مستغانم، التي يقارنها بعض المؤرخين بمعركة ليبانت[1].

كما ليس من المستبعد أن تكون تلك الهزائم قد أثرت في موقف محاكم التحقيق من مسلمي اسبانيا، فهي لم تقم برد فعل فقط في إطار هذا المضمون عندما يحدث شيء يبرز الأقلية المسلمة على أنها خطر، لكن مسلمو اسبانيا اعتادوا الاحتفال بانتصارات العثمانية كما لو كانت انتصاراتهم[2]، وهو أمر يستوجب العقاب كما اتضح من المحاكمات المختلفة.

[1]- **معركة ليبانت(976هـ/1571م)**: هي معركة بحرية توحدت فيها الدول الأوروبية ضد العثمانيين. وكان على رأس الأسطول الأوروبي أخو الملك غير الشرعي جون دوان دتريس (D.Juan d'Autriche). وانتصروا فيه على الأسطول العثماني. ولقد اعتبر الأوروبيون هذا الانتصار، انتصار الصليب على الهلال، إذ استمر عدد من المؤرخين الأوربيين في تفسير تاريخ صراع الشرق مع الغرب على أنه صراع صليبي بين الهلال والصليب. ينظر:

[2]-Edouard Driault, La question d'orient depuis ses origines jusqu'à la paix de secrets (1920). 8e edition Paris, 1921, P: 479.

فرضوخ مسلمي إسبانيا لقرار الطرد لا يجب أن يفهم على أنه كان موقفا استسلاميا، بل اعتبروه مرحليا فقط، الغرض منه الالتجاء إلى العثمانيين لاسترجاع ما ضاع منهم، وهذا ما سجله بعض الرهبان الذين قادوا عمليه الطرد من بينهم الراهب أزمار كاغدونو "Azmar Cardono" الذي كتب يقول: "...**خرج المورسكيون من عمليات الطرد؛ وهم يهددون الإسبان بأنهم سيرجعون بمساعدة الأتراك لإعادة الإسلام إلى إسبانيا...**" وأضاف في تقريره بأنه ظل العديد منهم يحتفظ بمفاتيح بيوته على أمل الرجوع[1].

هذا فيما يخص شهادة العدو الطرف الغالب، أما عن شهادة المغلوب، فهذا رأي أحد الفقهاء المطرودين عندما سئل عن سبب اغتباط المسلمين أثناء طردهم من وطنهم فأجاب قائلا [2]:"...**إنهم كثيرا ما سعوا إلى شراء قارب أو سرقته للفرار مستهدفين الكثير من المخاطر، فكيف إذا عرضت لنا فرصة السفر الأمين مجانا، لانتهزنا للعودة إلى أرض الأجداد، حيث سنظل بحماية سلطاننا، سلطان الترك، وهناك نعيش أحرارا مسلمين لا عبيدا كما كنا...**"

وبهذا لم تنجح كل الأساليب والوسائل التي استعملتها السلطات الاسبانية في تنصير مسلمي إسبانيا، عندها أدركت الكنيسة الاسبانية مدى عمق الإيمان بالدين الإسلامي في نفوسهم، فقررت إخراجهم نهائيا من إسبانيا؛ إذ أصدر مجلس الملكي بالإجماع مرسوم بتاريخ عام 1017هـ/1608م يقضي بطرد جميع المسلمين من اسبانيا؛ ولم يحل شهر أكتوبر من السنة الموالية حتى امتلأت موانئ المملكة من بلنسية، وليكنت ودانية والجابية ورصافة، وغيرها من المدن الاسبانية بالمسلمين المطرودين

[1]- دون باسكوال بورونات، المصدر السابق. ص: 160.

[2]- عبد الله عنان، نهاية الأندلس، (المرجع السابق). ص: 398.

من أرض كانت في سابق عهدها أرضا أندلسية مسلمة.

2)– **فشل مشروع التنصير**: بالرغم من كل أساليب البطش والتنكيل الذي مارسته السلطات الإسبانية بمعية محاكم التحقيق لم تكن لتجعل مسلمي اسبانيا يقبلون التنصير ويفرطون في مقومات شخصيتهم الإسلامية؛ وبالتالي تأكد للسلطات الإسبانية الدينية والسياسية أنه صعب ادماجهم ضمن المجتمع النصراني، وأن مشروع تنصيرهم بالطرق السلمية كانت أو الوحشية لم تثمر بأي نتيجة مرجوة. على هذا الأساس، وبناء على هذه النتائج السلبية قررت السلطات الإسبانية ايجاد حلول عاجلة لهذه الأزمة، فتقرر من خلال الاجتماعات والجلسات والتوصيات بطرد كل من يشك في إسلامه، دون مراعاة لأدنى "حقوق الإنسان"، والضمير الأخلاقي.

وبهذا فشلت سياسة الإدماج رغم جميع المحاولات التي قامت بها السلطات الاسبانية، فقد كتب الملك بهذا الصدد يقول[1]:"... **إنكم لعلى علم بمحاولاتي مدة سنين طويلة لتنصير موريسكي هذه المملكة بلنسية، وكذلك موريسكي قشتالة، وبإصدار أوامر العفو مني عليهم، وبمساعي لتفقيههم في ديانتنا المقدسة، وبالنتائج الهزيلة المحصل عليها، إذ من الواضح أنه لم يتنصر أحد، بل على العكس لم يزد من اصرارهم إلا حدة ...."**

هذا ما أكدته النصوص التاريخية التي أوردتها بعض المصادر الأندلسية التي عاصرت الحدث التاريخي، فقد كتب الشهاب الحجري بهذا الصدد ما نصه[2]:"...**قد علمت ما صنع وعمل مع**

[1]-Mercedes Garcia,Op. Cit.P P: 251-253.

[2]– المصدر السابق. ص: 111.

**النصارى أهل تلك السلطنة وقشتالة على طول السنين الكثيرة الماضية من التحريض والإرشاد لاتباتهم في ديننا المجيد وإيماننا ولا نفع معهم قليلا ولا كثيرا؛ لأنه لم يجد فيها واحدا من هو نصراني حقيقة..."**

كذلك أيده ابن رفيع بهذا النص التاريخي فجاء فيه ما يلي[1]:"... **بقيامهم علينا مرارا وقتلهم أكابر مملكتنا والقسيسين والرهبان الذين كانوا بين ظهرينا. وقطعهم لحومهم وتمزيق أعضائهم. مع عدم توبتهم مما فعلوه وعدم رجوعهم رجوعا صالحا من قلوبهم لدين النصرانية وأنه لم ينفع فيهم وصايا ولا وصايا أجدادنا الملوك ولا من سلف منا..."**

إذن من خلال هذه النصوص التاريخية لم يكن هدف فيليب الثالث عند اعتلائه لعرش إسبانيا النصرانية طرد المسلمين، بل كان قراره يدعو إلى تنصيرهم بشكل عام وسريع، لكن العملية لم تمر بالشكل الذي أراده الأساقفة فقد أعلن المحقق العام لمحاكم التحقيق أنه لم يعتنق النصرانية طواعية إلا ثلاثة وثمانين مسلما فقط[2]. حتى وإن كان هذا العدد حقيقي فلا يمكننا التأكيد على صحته، في ظل اعتماد مسلمي إسبانيا لمبدأ التقية.

كما اعترف أسقف بلنسية بأنه فشل في مهمته، حينما حاول منذ سنتين تنصير مسلمي المنطقة بحسن المعاملة، وعلى ضوء ذلك طلب من الملك ومن رئيس وزرائه الدوق **ليرما** طردهم من المملكة، إلا أن أصدر البابا باولو الخامس "Paulo 5" عفوا عاما لمدة سنة. وأخبره في الوقت نفسه

---

[1]- المصدر السابق. ص: 331.

[2]- عبد الله محمد جمال الدين، طرد المسلمين من الأندلس مراحله، آثاره، ونتائجه، ضمن أعمال الأندلس قرون والعطاءات، (المرجع السابق). ص : 11.

أن هذه آخر فرصة لهم، وإلا اتخذ في شأنهم الإجراءات الزجرية الحاسمة.

انطلاقا من هذه السياسة عملت الكنيسة على ترويج لفكرة أساسها، أن أسباب هذه الهزائم هو وجود عناصر في اسبانيا تدعي النصرانية جهرا وتضمر الإسلام؛ وأن وجود مثل هؤلاء سبب الغضب الإلاهي على اسبانيا؛ فشاعت العبارة القائلة: «**كيف يأمل المرء أن يهدي إلى طريق السيد المسيح شعبا عنيدا قاوم التبشير للنصرانية والاضطهاد قرنا كاملا، ومازال مخلصا لقرآنه كإخلاص العرب في إفريقيا؟**[1]

فرجال الدين الذين أنيطت بهم مهمة تعليم مسلمي إسبانيا مبادئ الكاثوليكية، كانوا يعرفون تمام المعرفة أن هؤلاء، وإن مارسوا طقوس النصرانية، فإن هذه الممارسة لم تكن أكثر من مراءاة يوحيها لهم الخوف من ملاحقات محاكم التحقيق[2].

بالرغم من هذا وذاك فقد وجدت السلطات الاسبانية صعوبة في إدماج كل مسلمي إسبانيا وتنصيرهم، فقد امتنع الكثير منهم عن ذلك بشهادة المقري الذي كتب حول الموضوع يقول[3]:"... **وامتنع قوم عن التنصير واعتزلوا النصارى فلم ينفعهم ذلك وامتنعت قرى وأماكن منها بلفيق وأندلس وغيرهما...**"

كل هذه الأوضاع كانت سببا ودافعا قويا للتوقف والتفكير في حالة اسبانيا، فكانت بذلك

---

[1]-Bertant François, Journal du voyage d'Espagne, RV Hist Vol xxx, 1914. P: 225.

[2]- ما يثبت ذلك أنّه حين كان يقصد هؤلاء الكنيسة في عيد الفصح للاعتراف فإنّه كان يقدم نفسه بطريقة عالية الانتظام، ولكنّه لا يعترف بارتكاب أيّة ذنوب؛ ولم يعرف على المسلمين أنّهم توجهوا إلى القساوسة يطلبون منهم المساعدة حين يمرض أحدهم خوفا من حضور القساوسة بصفتهم الرسمية.

[3]- نفح الطيب، (المصدر السابق)، ج: 2. ص: 617.

بداية اللجوء إلى الإيمان بقدرية الأحداث وعبث الأيام كما صوره بعض أباء اسبانيا[1]، وبهذا تصور كثير من رجال الدين والسلطة في اسبانيا أن نفي مسلمي إسبانيا سيكون ذلك الانتصار الذي يعيد إليهم الشعور بالعظمة، ويرفع من معنوياتهم الهابطة. وهكذا سعت السلطات الإسبانية لتحقيق انتصار داخلي حيين عجزت على تحقيقه في الخارج، فكان لرأي العام الإسباني أكثر مهيئ لتحقيق هذا الانتصار ونفي مسلمي إسبانيا[2].

فقد أثبتت الدراسات التاريخية أن الأمم المهزومة عادة ما توجه نقمتها إلى الداخل لخلق التوازن النفساني المطلوب وذلك قصد التغلب على روح الهزيمة، حتى لا تغرق في الرذيلة وتمضي في طريق الانحلال الخلقي، أو تلجأ إلى موجة من الورع والتعبد وتعميق الحس الديني المشوب بالمهانة القومية. وهذا ما حدث تماما في اسبانيا النصرانية بعد الهزائم التي تكبدتها، فاعتبرتها إنذارا بنكبات وعقاب على ابتعاد الناس على دينهم .

وإذا كان انتشار الطاعون دعما إضافيا لرأي الكنيسة بالعودة الى التقوى على حد زعمها في زمن لم يعرف الناس فيه أسباب الوباء، فإن وجود السلطات الاسبانية في وضع يجيرها على إبرام الصلح أو الهدنة مع الهولنديين والإنجليز "الهراطقة" كان أكبر من أن تتحمله الكنيسة. واشتدت في بداية القرن السابع عشر الحملة على الكنيسة التي كان يعتقد أن السبب الخفي أو الظاهر لمصائب اسبانيا.

---

[1]- ظهرت أثناء هذه الفترة عدة أعمال أدبية مثال ذلك العمل الذي قام به المؤلف الاسباني ماثيو ألمان، هذا الأخير ألف رواية أسماها "سيرة عثمان الفراش"، وأيضا شخصية دون كبيشوت دي لامانشا سنة 1014هـ/ 1605م كما رسمها سيرفاتس.

[2]- عبد الله محمد جمال الدين، المرجع السابق. ص: 126.

وبهذا اعترفت كل السلطات الدينية والسياسية والعسكرية بفشلهم في تنصير مسلمي إسبانيا[1]، على أنه يجب توضيح أمرا مهما تمثل في الدور الكبير الذي لعبته الكنيسة في حشد طاقات الممالك الشمالية ضد الأندلس على مر قرون من الصراع بين النصرانية والإسلام[2]، وبالتالي فإن هؤلاء المضطهدين المنتشرين في إسبانيا شهدوا تحويلهم قسرا وقهرا إلى النصرانية ما بين سنتي (904-931هـ/1499م-1526م).

وما يؤيد ما ذكر أعلاه هو اجتماع الفقهاء لتقديم النصيحة لمسلمي إسبانيا بالتزام الصبر، وعللوا ذلك بأن هذا الطرد فرج من الله تعالى، وإنقاذ لعقيدتهم؛ ويذكر ابن عبد الرفيع بهذا الصدد ما نصه[3]:"... **ولا يخفى أن هذا أمر عظيم ومحال عادة، لما كنا فيه معه من الشدة والضيق في الدين والنفس والمال، فسبحان رب السماوات ورب الأرض الذي إذا أرادا أمرا قال له كن، فكان، فيا لها من أعجوبة ما أعظمها، ومن فضيلة ما أشرفها...**»

وبهذا ففي نظر رجال الدين والساسة الإسبان أن مسلمي إسبانيا قد استنفذوا صبرهم "بجحودهم الذي لا علاج له وخيانتهم"؛ ولا يمثل نفي المسلمين سوى الكمال المنطقي لـ "استرداد اسبانيا"، ومع تحريرها من هذا "الخطر الأخلاقي الداهم" سيكون في انتظارهم أيام من الإشراق والمجد بفضل العناية الإلاهية المحمودة، وعلاوة على التأثير الذي يشبه تأثير "التوزيع الموسيقي" والذي كان عادة ما يميز هذا النوع من الحملات. لم يكن هناك مجرد تنافس بين المؤيدين للطرد حول من سبب ألما أكثر لمسلمي إسبانيا، بل أيضا بعض الاختلافات الشخصية والمصالح الخاصة.

[1]-Mercedes Garcia,Op. Cit.P P: 251-253.

[2]- المقري، نفح الطيب، (المصدر السابق)، ج: 2. المصدر السابق. ص: 331.

[3]- المصدر نفسه. ص: 331.

## – المبحث الثاني: الدوافع الرئيسة وراء قرار الطرد

يمثل طرد مسلمي اسبانيا حدثا بارزا في تاريخ اسبانيا خلال القرن السابع عشر، كان له طابع مأساوي، بالنظر إلى فترة التعايش مع المسلمين في شبه الجزيرة على مدى تسع قرون. فقد كانت مبررات طرد مسلمي إسبانيا لدى مخططيها ومنفذيها واحدة. فقد شكلت عملية الطرد نهاية وحشية لمسلمي اسبانيا، فمن الناحية الاجتماعية كان عبارة عن إلغاء الأغلبية لأقلية في المجتمع الإسباني في ذلك العصر، وهذا ما يوضحه عنوان كتاب حديث: «تاريخ الموريسكيين: حياة ومأساة أقلية».

ومن الناحية التاريخية فقد كان قرار الطرد نهاية لتسعة قرون من حياة الإسلام الأندلسي، نهاية حزينة لتاريخ مجيد يعبر عنه عنوان كتاب آخر: «نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين». هكذا فهم معنى طرد مسلمي اسبانيا على أنه نهاية فترة تعايش ونهاية مرحلة تاريخية، هذا المغزى الاجتماعي والتاريخي يضفي طابعا مأساويا على مصير مسلمي اسبانيا ويضعهم في علاقة بلحظتين أساسيتين من حياة الإنسان.

اللحظة الأولى هي لحظة نهاية التعايش التي مثلها الطرد، هذا الأخير شكل رمزا لكل أشكال التوتر في العلاقة بين الإنسان والآخرين، واللحظة الثانية هي عملية انتهاء فترة تاريخية طويلة يطرح موضوع الموت، الموت الذي يسببه الآخرون، التعايش الاجتماعي وقتل النفس – وهي موضوعات في غاية الأهمية بالنسبة للفرد وللجماعة – نجدهما ممثلين في قضية مسلمي إسبانيا في القرن الحادي عشر هجري الموافق للقرن السابع عشر ميلادي، إنهما موضوعان يكتسبان أهمية سياسية معاصرة ومؤثران في حياة ملايين البشر.

ويستخدم المؤرخون مصطلح (طرد) عند الحديث عن تنفيذ المرسوم الملكي الصادر عام 1018هـ/1609م القاضي بـ: "...**أن يخرج كل موريسكي هذه المملكة، وأن يرحلوا إلى بلاد البربر**...". إن كلمة (طرد) تحمل معنى النفي والإخراج من الأرض وإقامة المطرود في مكان بعيد على أرضه. إن المعاني الثلاثة (طرد، وإخراج، ونفي) موجودة في عنوان وموضوع هذا الفصل. وتحدد عملية الطرد تاريخا فاصلا بين الفترة السابقة (التي تم فيها إخراج مسلمي اسبانيا) والفترة اللاحقة (التي استقروا فيها في بلاد المنفي).

ولقد اختلفت المواقف اتجاه هذا القرار القاضي بالطرد، كما اختلفت في ذلك دوافعه، وقبل أن نتطرق إلى دراسة الموقف المؤيد والمعارض، وتفاصيل عملية الطرد ونتائجها، علينا التوقف أمام أهم الأسباب التي كانت وراء قرار الطرد.

**1)– العوامل المساهمة على تبني مشروع الطرد**: اتحدت مجموعة من الدوافع التي حركت مشروع الطرد النهائي لمسلمي اسبانيا، وفي السياق نفسه تفاوتت هذه الأسباب في مدى تأثيرها على قرار الطرد. كما ساهمت الظروف الدولية في تنفيذ مشروع الطرد النهائي لمسلمي اسبانيا.

*– **العامل الديني**: لعبت الكنيسة دورا حاسما في حشد طاقات الممالك الشمالية ضد الأندلس على مر قرون من الصراع بين النصرانية والإسلام، ولم يتوقف دورها بعد سقوط غرناطة وانتقال الحرب إلى العدوة في منتصف القرن الثالث عشر وبعده.

وبما أن قشتالة انقسمت إلى مجتمعين أساسيين: أحدهما عسكري والثاني كهنوتي، فكان من

الطبيعي أن تستمر الكنيسة في دورها لنصرة العسكرية القشتالية أيام كارلوس الخامس وفيليب الثاني ولكنها اعترفت بفشلها على عهد فيليب الثالث[1]، ولو أن مشروع الطرد النهائي كانت بدايته الفعلية أيام حكم فيليب الثاني، ولكم كان هناك أمل يراود رجال الكنيسة بتحقيق مساعيه في تنصير مسلمي اسبانيا، لهذا قررت تعطيل مشروع الطرد إلى وقت لاحق وليس إلغاءه نهائيا من مخططات الكنسية والسلطة الاسبانية.

مع هذا كله واصل مسلمو اسبانيا المقاومة والتصدي لهذه القرارات الزجرية، ولما رأى أسقف بلنسية أن الملك والدوق لم يتخذا أي قرار عملي فوري لتهجيرهم، بعث بتقريرين جديدين إلى البابا يوضح فيهما خطرهم على البلاد، وتزايد حركتهم؛ واقترح عليه ضرورة تطبيق قرار التهجير. فقد تأكد لدى السلطات الإسبانية استحالة تنصير ما تبقى من الجماعة المسلمة في إسبانيا، هذا ما أكدته النصوص التاريخية[2].

*– **العامل الاقتصادي:** لم تكتف سياسة النصارى بعمليات المصادرة وفرض الغرامات، بل أصبحت ترى في طرد مسلمي إسبانيا أفضل حل لتحقيق المزيد من الثراء والحصول على موارد أكثر أهمية، فأصبح بذلك قرار الطرد حجة تذرعت بها السلطة الاسبانية باعتبار أن هذا القرار هو الكفيل بإنقاذها من الأزمة المالية التي كانت تتخبط فيها المملكة وتمكينها من تسديد ديونها الهائلة التي كانت

[1] – أثبتت الدراسات التاريخية أن الأمم المهزومة عادة ما توجه نقمتها إلى الداخل لخلق التوازن النفساني المطلوب وذلك قصد التغلب على روح الهزيمة، حتى لا تغرق في الرذيل وتمضي في طريق الانحلال الخلقي، أو تلجأ إلى موجة من الورع والتعبد وتعميق الحس الديني المشوب بالمهانة القومية. وهذا ما حدث تماما في اسبانيا النصرانية بعد الهزائم التي تكبدتها، فاعتبرتها إنذار بنكبات وعقاب على ابتعاد الناس على دينهم .

[2]- ينظر كل من: الشهاب الحجري، المصدر السابق. ص: 111. و ابن عبد الرفيع، المصدر السابق. ص: 331. ومن المراجع الاسبانية نذكر:
MERCEDES GARCIA ARNEL, Op. Cit. pp. 251-253.

تتعاظم عليها باستمرار وبصفة مستديمة[1].

*- **العامل الاجتماعي**: كان حظ مسلمي إسبانيا أنهم كانوا أقلية تتمتع بنفوذ سياسي ضئيل، ولأنهم عموما كانوا فقراء عاجزين عن مد السلطة تلوى الأخرى بالمال الذي تريده، ولأنهم أصروا على شخصيتهم المستقلة في وجه كل الضغوط التي مورست عليهم أكثر من قرن من الزمن، فكان مصيرهم الطرد من أرض آبائهم وأجدادهم.

وفي تلك الحقبة أيضا من تاريخ اسبانيا كانت المضاعفات النفسانية للهزائم التي لحقت بإسبانيا تفوق بإضعاف التأثير الفعلي لتلك الهزائم، ووجدت السلطات الإسبانية أن الحروب التي قادتهم إلى القمة هي نفسها التي قادتهم إلى الهاوية.

كما أن تخوف السلطات الإسبانية من زيادة النمو الديموغرافي عند الجماعة المسلمة أجبرها للبحث عن الحلول الملائمة التي قد تكون عائقا أمام هذا التكاثر الذي كان يشكل خطرا على العنصر الإسباني[2]؛ وما يدل على ذلك ما كتبه مارتين دي سالبتيرة أسقف سقورية بمملكة بلنسية في تقرير بعثه إلى البلاط الملكي بقضي طرد كل الذكور المسلمين، كبار وصغارا، حتى ينقرضوا بسرعة.

أيضا نجد القس ألونسو كوتيبرس يقترح الحل نفسه، ولكن فقط لتحديد نسلهم؛ الحل نفسه ذهب إليه بدرو بونسي دي ليون، الذي قضى عشرين عاما في خدمة البلاط الملكي، بإرسال شباب

[1]- هناك الكثير من الأموال حصلت عليها السلطات الاسبانية من أملاك لمنفقين بطريقة جشعة، كانت عظيمة جدا، فقد جاء في تقرير المجلس بمدريد أنّ ما أحرزته مالية المملكة عن عملية بيع ممتلكات المسلمين ما يقارب مائتي ألف دوكا.

[2]- Henry Lapeyre, Op. Cit. P:50.

المسلمين الذين تتراوح أعمارهم بين ثماني وأربعين سنة للعمل في السفن، وبإبعاد الشباب عن المجتمع المسلم يقل نسلهم[1].

***– العامل السياسي والعسكري:** إن المسلمين الذين هاجروا من غرناطة أثناء حرب الثلاث سنوات (964- 676هـ)/( 1569–1671م) والذين أخرجوا من قرى متعددة حين دخلها ضون خوان دي أوستريا[2]، واختبئوا في ممالك أراغون وبلنسية وقطلونيا، وأخذوا يقتلون وينهبون ويحطمون الأديرة والصلبان ويعذبون الرهبان انتقاما لما حدث لهم على أيدي القوات الإسبانية، وثأرا لمواتهم، لهذا اجتمعت لجنة بحثت مسألتهم في السنة نفسها التي ثاروا فيها، لكن أبحاثها ذهبت عبثا[3]، وبقي النصارى ينظرون إليهم نظرة أعداء يعايشونهم.

كما كان تخوف السلطات الاسبانية من تعاون عسكري بين مسلمي اسبانيا و باقي دول العالم الإسلامي سببا كافيا في التفكير بحل جدري لتفادي تأسيس أي تكتل أو حلف يأتي من المغرب أو من الخلافة العثمانية قد يساهم في إسقاط الحكم النصراني بإسبانيا[4]، فلم تجد السلطات الإسبانية حلا سوى الطرد النهائي لمسلمي اسبانيا لاجتناب كل الأخطار التي قد تأتي من ورائهم.

**2)– قراءة تحليلية في دوافع الطرد:** صرحت السلطات الإسبانية معللة قرار الطرد هذا أن السبب الرئيس يكمن في اتهام المسلمين بعدم إخلاصهم للديانة النصرانية والدولة الإسبانية؛ فلقد

---

[1]– الكتاني، المرجع السابق، ص: 148.

2–كان الداعي إلى استعمال سياسة اللين والرفق في تنصير مسلمي إسبانيا دون أن يجرحوا عواطفهم، ذلك أنه كان مدركا للأخطار الذي كان يأتي من المسلمين.

[3]–لم تكن لهذه السياسة نجاح، حيث أن المسلمين عملوا يدا واحدة مع العثمانيين والمغاربة الذين كانت مراكبهم تجول في مياه بلنسية، ويعطوهم الإشارات ويطلعونهم على نقاط الضعف والقوة بالبلد أو أمكنة حراسة القوات الإسبانية.

[4]– الشهاب الحجري، المصدر السابق. ص 112

وصلت الكنيسة والدولة في اسبانيا إلى اليأس التام من تنصيرهم، إذ استنتجت استحالة إخلاص مسلمي اسبانيا للنصرانية؛ لذلك كان قرار الطرد هو الحل النهائي والوحيد لهذا المشكل. هذا ما سوف يتضح جليا في هذا النص التاريخي المستنبط من تقرير كان خلاصة اجتماع رجال الدولة برئاسة الملك ورد فيه ما نصه[1]:"... **الاستمرار في تنفيذ أمر طرد الموريسكيين تحقيقا لخدمة المسيح ولأمن اسبانيا.**"

من خلال ما ورد في نص هذا التقرير يمكن استخلاص سببين مهمين: السبب الديني والسياسي. أما السبب الديمغرافي فلم يرد في التقرير إلا أنه يمكن للباحث إدراجه ضمن ما يسمى بـ "أمن اسبانيا"، فقد كان تخوف السلطات الدينية والسياسية من العنصر الديمغرافي واضحا، هذا ما وضحته بعض التقارير التي قدمتها بعض الجهات المسؤولة في البلاط الإسباني للسلطات الحاكمة.

فهذا ببرنارد فينسنت كتب تقريرا يؤكد ما ذكر أعلاه فورد فيه ما يلي:"...**بينما كانت المناقشات الشكلية في المجتمع الكنسي تتواصل، اتخذ مجلس الدولة في 04 أبريل 1609م قرار الطرد، كان المستشارون هم دوق أنها، وكونت ألبا، وماركيز ببلاد، وقائد قشتالة، وقائد ليون وكاردينال توليدو، ربما كان صوت ذوق ليرما هو الذي قاد الأصوات الأخرى استند القرار إلى أمن البلاد، واحتلت القضية الدينية مرتبة ثانوية...**".

نستخلص من هذا النص التاريخي بأن السبب الديني لم يكن الوحيد، بل كانت هناك أسبابا أخرى لم تصرح بها السلطات الإسبانية، وقد توصل إليها شهاب الدين الحجري حين كتب في مؤلفه

[1]- الكتاني، المرجع السابق، ص: 163.

يقول بهذا الصدد[1]:

"... **اعلم أن أهل الأندلس كانوا مسلمين في خفاء من النصارى، ولكن يظهر عليهم الإسلام ويحكمونه فيهم. ولما تحقق منهم ذلك لم يأمن فيهم ولا كان يحمل منهم أحدا إلى الحروب، وهي التي تفني كثيرا من الناس. وكان أيضا يمنعهم من ركوب البحر لئلا يهربوا إلى أهل ملتهم، والبحر يفني كثيرا من الرجال. وأيضا في النصارى كثيرون قسيسون ورهبان وراهبات، وبتركهم للزواج ينقطع فيهم النسل. وفي أهل الأندلس لم يكن فيهم قسيسون ولا رهبان مترهبات، إلا جميعهم يتزوجون ويزداد عددهم بالأولاد وبترك الحروب وركوب البحر. وهذا الذي ظهر على إخراجهم لأنهم بطول الزمن يكثرون** ..."

من خلال هذا النص التاريخي لشخصية معاصرة للحدث، وعانت من ويلات القمع والاضطهاد الذي سلطته الكنيسة الكاثوليكية بمباركة من السلطة السياسية أن السبب الرئيس من وراء الطرد، هو العامل الديمغرافي الذي كان يشكل خطرا حقيقيا على العنصر البشري النصراني في اسبانيا.

وفعلا فإن مسلمي إسبانيا كانوا في تزايد بنسبة أكبر من نسبة زيادة الإسبان، فمن خلال إحصاء سنة (970-977 هـ)/( 1572/156م) إلى غاية سنة الطرد 1018هـ/1609م ازداد نمو الإسبان بنسبة 44.7%، في حين ازدادت نسبة نمو المسلمين بـ 59.7%[2]، وهذا التزايد كان يشكل قلقا دائما بالنسبة للإسبان إلى أن وجدت الحل أخيرا، وهو الطرد.

---

[1]- المصدر السابق. ص ص: 103، 104.

[2] - CHAUMU, Monorites et conjoncture l'expulsion des Morisque en 1609, R his, Paris, 1961, n°1, P : 90.

من خلال هذه التقارير يتضح تخوف السلطات الدينية والسياسية من النمو الديمغرافي عند مسلمي اسبانيا، وهذا بالنسبة لهم يشكل خطرا على أمنهم القومي، حتى وإن حاولت الكنيسة والسلطة السياسية إخفاء هذا السبب ظاهريا إلا أنه كان موجودا في أذهانهم، هذا التخوف ترجمته مجموعة التقارير التي صدرت منهم بعد دراسة لكل الأوضاع.

انطلاقا من المعطيات المذكورة أعلاه تبينت لدينا مجموعة من الأسباب (دينية، ديموغرافية، وسياسية) التي حركت مشروع الطرد النهائي لمسلمي إسبانيا؛ ولكن بعد دراسة معمقة للأوضاع الراهنة التي كانت تعيشها إسبانيا في تلك الحقبة التاريخية، نستنتج أن هناك أسباب اقتصادية وأخرى اجتماعية. وعلى هذا الأساس كل هذه العوامل مجتمعة جعلت من السلطات الإسبانية وعلى رأسها الملك تصدر قرارا سياسيا بمباركة الكنيسة بطرد مسلمي اسبانيا جميعا ونهائيا.

## 3)– المبحث الثالث: اجراءات الطرد

بعد إرغام مسلمي اسبانيا على التنصير، وحرق كتبهم، ومسخ ثقافتهم، ومصادرة أموالهم، واستعباد أبنائهم ونسائهم، وقتل رجالهم، وقمع مقاومتهم، ومتابعتهم لأتفه الأسباب، ومنعهم من لغتهم العربية وعاداتهم وأسمائهم، ومتابعة تشريدهم وتشتيتهم، وحرق زعمائهم، ثم خذلان الدول الإسلامية لهم، لم تصل الكنيسة الكاثوليكية ولا السلطة السياسية الاسبانية إلى النتيجة المبتغاة منهم؛ فانهزمت الكنيسة أمام تصميمهم على الثبات على الإسلام، وارتعبت الدولة منهم على ضعفهم وقلة حيلتهم وهوانهم على الناس كلما اكتشفت أو تخيلت مؤامرة ضدها من طرفهم.

أمام عناد وتصميم مسلمي اسبانيا على عدم ترك دينهم تحت أي ظرف من الظروف، وأمام

فشل السلطات السياسية والدينية في تنصيرهم واستسلامهما للأمر الواقع، قررتا اتخاذ آخر الحلول وهو طردهم نهائيا من اسبانيا، للتخلص من هذا الخطر الذي أصبح يهدد وحدتهم الدينية والثقافية.

فقد تم اتخاذ القرار النهائي بالطرد بعد عشر سنوات من التردد، وخلال تلك الفترة تعارضت واختلفت كثير من الآراء، وينبغي أن نلغي إمكانية أن يكون ضغط الرأي العام هو السبب، فالحقيقة أن الرأي العام وإن كان في غير صالح الجماعة المسلمة، لكننا لا نجد طلبات كثيرة تنادي بالطرد سواء في أرشيفات المجالس النيابية أو في أدب تلك الفترة، فقد كان المطلوب أن يوضع حلا لبعض المشاكل وأن يعاقب بما اصطلح عليه بـ "قطاع الطرق"، أما طلبات الطرد فقد كانت قليلة تقدم بها بعض أشخاص فقط.

**1)– الإجراءات التشريعية لعملية الطرد:** استنتجت الكنيسة والسلطة الاسبانية استحالة إخلاص مسلمي اسبانيا للنصرانية، فأخذوا يفكرون في الحلول والاقتراحات لحل هذا المشكل العويص حلا جذريا، وانقسمت الاقتراحات بذلك إلى ثلاث حلول:

– جمع مسلمي اسبانيا في أحياء خاصة بهم. وهذا الحل اقترحه الراهب فرانسسكو دي رياس "Francisco de rias" سنة 987هـ/1582م، كان يقضي بتخيير المسلمين بين النصرانية والإسلام، فالذين يختارون النصرانية والاندماج في المجتمع النصراني، تتابع حراستهم ومراقبتهم من طرف النصارى القدامى؛ أما الذين يختارون الإسلام فيجمعون في أحياء خاصة بهم، ويسمح لهم بإتباع دينهم، وبهذا ينتهي الجدال حول عقيدتهم وغموض وضعيتهم. وتراقب الأحياء الإسلامية بعدد من الجنود النصارى تمول نفقاتهم من طرف المسلمين، ويكون قضاتهم من النصارى.

الاقتراح نفسه أرسل به الراهب ألونسو كوتييرس "Alonso coutyrise"من اشبيلية سنة 993هـ/1588م، إلا أنه ممارسة شعائرهم الإسلامية، وتضاعف عليهم الضرائب، ويؤخذ منهم خمس الميراث ويمنعون من التنقل دون علامة واضحة على وجوههم تبين أنهم مسلمين.

أما الحل الثاني فقد اقترحه الراهب تريخوس "Tryros"الذي كان من أب نصراني وأم مسلمة سنة 978هـ/1573م، تضمن اقتراحه القضاء على مسلمي اسبانيا باختطاف كل الأطفال الذين لا تتعد أعمارهم ست سنوات وتسليمهم للنصارى القدامى لتربيتهم على الدين النصراني، ومنعهم من الزواج حتى لا يتناسلوا، وبهذا ينقرضون مع مرور الزمان. أما المناصر للحل الثاني المطران ربيرا "Revira" فقد اقترح القضاء على مسلمي اسبانيا باسترقاقهم، وبأخذ كل سنة بضعة آلاف رجل منهم للعمل في السفن والمناجم حتى يتم إفناؤهم.

في حين ابتدأت فكرة الحل الثالث تتبلور منذ اجتماعات الأشبونة التي حضرها فيليب الثالث لتنصيبه ملكا على البرتغال بعد هزيمتها في موقعه وادي المخازن. وقد لاقى هذا الاقتراح ترحيبا من رجال الدولة والكنيسة.

وبتاريخ 986/12/04هـ/1581م كون الملك لجنة لدراسة وضع الدولة الداخلي والخارجي الناتج عن الخطر الإسلامي، فدرست الحلول المقترحة؛ وعقدت اللجنة اجتماعين آخرين في 987/06/09هـ/1582م، و987/09/13هـ/1582م توصلت فيهما إلى قرار توصية الملك بطرد جميع المسلمين خارج اسبانيـا؛ وقدمت اللجنة توصـية لمجلس الــدولة ( الكـورتس ) بتاريخ 19-09-987 هـ/1582م للمصادقة عليه.

تدارس مجلس الدولة محاسن ومساوئ طرد المسلمين؛ فرأى أعضاؤه أن معظم المساوئ اقتصادية بسبب انخفاض دخل الملك والنبلاء في حالة طردهم. أما السياسة فتكمن في احتمال حدوث اضطرابات ومقاومة عند إخراجهم؛ ودينية بسبب خسارة أرواح هؤلاء المطرودين نهائيا للدين النصراني. فرأى أعضاء المجلس أن كل هذه المساوئ، لا تساوى المحاسن التي تترتب عن هذا الطرد، وهي أن يعم السلام البلاد وأن تتوحد دينيا، لذا أجمع رجال الكنيسة على الموافقة على الطرد، بما فيهم أسقف طليطلة، وأسقف بلنسية، وقضاة محاكم التحقيق بهما.

بهذا بقيت فكرة الطرد بين المد والجزر، وقد اقتنع بها الملك، ولكن تهيب من تنفيذها خوفا من معارضة نبلاء مملكتي بلنسية وآراغون القديمة، وانتظارا لتوفير المصاريف الضرورية لمثل هذا الطرد الجماعي، وكذلك لعدم موافقة الأوضاع الدولية تم تأجيل المشروع، لكن كبار الدولة ورجال الدين حاصروا الملك وأقنعوه بضرورة تنفيذ أمر الطرد.

لما تيقن الملك فيليب الثالث أن معظم النصارى الاسبان يساندون فكرة الطرد، وأن الكنيسة تكاد تكون مجمعة عليه، وأن من السادة مع اقتنع به ومعظمهم لن يعارضه، أصدر مرسوما ملكيا يقضي بطرد كل المسلمين في ظرف شهرين، والحكم بالإعدام شنقا لكل من يتخلف؛ واستثنى الأمر الأطفال المسلمين، إذ تقرر أخذهم من آبائهم وتسليمهم للكنيسة لتنشئهم على الديانة النصرانية. رغم أن المجلس أوصى بتطبيق هذا الأمر في شتاء السنة نفسها إلا أن الملك تردد في تنفيذه، وبقي الوضع معلقا إلى أن مات فليب الثاني سنة 1003هـ/1598م.

وفي تاريخ 1004/01/03هـ/1599م عقد مجلس الدولة اجتماعا بحث فيه قرار الطرد، وأوصى

هذه المرة بطرد الرجال الذين تزيد أعمارهم عن الستين سنة والنساء إلى دول المغرب؛ أما الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين خمسة عشر و ستين سنة فيحكم عليهم بالأشغال الشاقة في السفن مدى الحياة كعبيد، وبمصادرة أملاكهم.

أما بتاريخ 1004/02/02هـ/1599م فتقدم الدوق دي ليرما لمجلس الدولة، بمشروع للخلاص من مسلمي اسبانيا، جاء فيه أن هؤلاء مسلمين كما كانوا وسيظلون كذلك؛ فأوصى بإعدام كل من هم في الخامسة عشر والستين سنة أو استعبادهم مع مصادرة ممتلكاتهم؛ فتابع مجلس الدولة دراسة الموضوع طوال سنة 1004هـ/1599م في سرية تامة؛ فتقرر أخيرا تجهيز قوة عسكرية كبيرة للإشراف على الطرد، وإحصاء جميع المسلمين المتواجدين في ممالك اسبانيا[1].

وأخيرا وقع الملك قرار الطرد في 1018/09/11هـ/1609م[2] وفقا لعريضة تجمع مجموعة من المعطيات جاءت كالآتي:

عدم تنفيذ أمر الطرد في قشتالة إلا بعد أن تتبين نتيجة تنفيذه في بلنسية.

- تأليف لجنة للنظر في وضع أبناء "الموريسكيين"، وتوزيع القوات المسلحة.
- اتخاذ التدابير اللازمة لمراقبة تحركات "الموريسكيين".
- مصادرة الثمار والأموال التي يتركونها لتربية أطفالهم المتخلفين.

---

[1]- الكتاني، المرجع السابق، ص: 150.

[2]-كتب غوستاف لوبون حول الموضوع يقول: "...**مما يرثى له أن حرمت اسبانيا عمدا هؤلاء الملايين الثلاثة الذين كانت لهم إمامة السكان الثقافية والصناعية؛ ثم رأت محاكم التحقيق أن تبيد كل نصراني ترى فيه شيئا من النباهة والفضل. وقد كان من نتائج تلك المظالم المزدوجة أن هبطت اسبانيا إلى أسفل دركات الانحطاط بعد أن بلغت في أيام العرب قمة المجد، وأن انهار كل ما كان فيها من الزراعة والصناعة والتجارة والعلوم والآداب**". ينظر: حضارة العرب، تع: زعيتر عادل، مصر، د ط، 1945م. ص: 292.

– يستثنى من الطرد كل النساء النصرانيات المتزوجات "بالموريسكيين" وأطفالهن، و"الموريسكيين" المخلصين للنصرانية.

2)– **الإجراءات التنفيذية:** في القرن العاشر هجري الموافق للقرن السادس عشر ميلادي لم تكن هناك سكك حديدية أو أي وسائل تكنولوجية تسمح بالقيام بالاستئصال التام والفعال على النحو الذي يمكن تنفيذه في وقتنا الحالي؛ وعليه فيمكن تخيل مأساة هؤلاء المغلوبين على أمرهم، وهم يسحلون في الشوارع والطرقات مع العجائز والمرضى والأمهات الحوامل، فلم يكن الطرد عرضا خاصا ليوم واحد، بل كانت عملية متأنية بدأت مند عام 1018هـ/1609م ولم تنته إلا مع نهاية سنة 1023هـ/1614م.

كما لم يتبع عملية طرد مسلمي إسبانيا أي نوع من الجدل العام مثلما حدث بشكل ما قبل الطرد، لأن فكرة الحوار نفسها لم تكن مقبولة في المجتمع الذي ساهمت حادثة الطرد في قولبته بشكل قاطع، ومع ذلك فقد ترك طرد مسلمي إسبانيا جرحا عميقا، وانضم ألمه المكبوت إلى الفكرة المزعجة الداعية إلى اعتبار حدث الطرد كجزء مما يطلق عليه "قضية إسبانيا".

فمنذ سنة 1018هـ/1608م، ابتدأت الإشاعات تنتشر وتؤذن بقرب تطبيق قرار الطرد، فأخذ مسلمي إسبانيا القادرون على الهجرة يبيعون ممتلكاتهم ويهاجرون في ظروف أفضل من الطرد، وهكذا عبرت أعداد كبيرة منهم البحر إلى دول المغرب العربي، عبرت أعداد أخرى جبال ألبرت نحو فرنسا.

لم يتأخر صدور المرسوم الملكي بطرد مسلمي اسبانيا ففي يوم 28/ 1018/08هـ/1605م أمرت السلطات الاسبانية من مسلمي اسبانيا الحضور مصحوبين بأمتعتهم وأموالهم في ظرف لا

يتعدى ثلاث أيام ليحملوا على متن سفن إلى خارج اسبانيا، ويستثنى من هذا كل الأطفال البالغ أعمارهم أربع سنوات[1].

وفي 1018/09/17هـ/1605م رست السفن الإيطالية في موانئ مملكة بلنسية، وتولت القوات العسكرية حراسة حدودها مع مملكة أراغون القديمة، وبتاريخ 1018/09/21هـ/1605م، اجتمع الملك مع أعضاء مجلس الدولة والنبلاء وكبار رجال الدولة، وفي اليوم التالي أعلن قرار الطرد. وقد قدرت المصادر التاريخية أن عدد من طرد من بلنسية سنة 1018هـ/1609م بحوالي 130.000 مسلم[2].

لقد اختار فيليب الثالث لهذه المهمة الشاقة رجلا هرما كان من أخلص الناس للسلطة يدعى أوغسطين ميجيا " Augustin Mejia"[3]، هذا الأخير قصد في بداية مهمته بلنسية، وقد استقبله عند وصوله قس المدينة ونائب الملك بها[4]. وأول من طبق عليهم مرسوم الطرد هم مسلمي بلنسية، فجمعت السلطات الإسبانية سفن إيطاليا في جزيرة ميورقة، حيث يسهل توجيهها إلى موانئ الترحيل بمملكة بلنسية، وتأهبت القوات العسكرية على مستوى المنطقة في حالة مقاومة مسلمي بلنسية لإجراءات التهجير.

فلم يصل صيف سنة 1018هـ/1609م حتى اجتمعت خمسون سفينة في ميورقة، و4000 جندي في مملكة بلنسية، بالإضافة إلى حرسها وخيالة قشتالة لمراقبة حدودها البرية، وقوات "الميليشا"،

---

[1]- قشتيليو محمد، المرجع السابق. ص : 107.

[2]- الكتاني، المرجع السابق. ص: 190.

[3]- **أوقستان دي ميخيا** : اكتسب شهرته من خلال حرب الأندلس التي قادها وأظهر فيها شجاعة كبيرة، وقد تقلد مناصب في بلاط العرش الإسباني، من بينها خدمته في بلاط الملك فليب الثاني.

[4]- كانت بلنسية دائما مهددة من قبل العثمانيين والمغاربة معا لكونها على شاطئ لبحر الأبيض المتوسط ، واليها ترد السفن التي تأتي من آسيا ومن العالم الإسلامي، ولكونها من المدن الغنية بالتجارة والصناعة والزراعة .

كما كلف الأسطول الإسباني في المحيط الأطلسي بمراقبة شواطئ المغرب العربي[1]، بقيادة القائد أوكندو "Oukado"[2].

وفي 1018/09/17هـ/1609م رست السفن الإيطالية في موانئ مملكة بلنسية وتولت القوات العسكرية حراسة حدودها مع مملكة آراغون القديمة، وفي يوم 1018/09/21هـ/1609م اجتمع الملك مع أعضاء مجلس الدولة والنبلاء وكبار رجال البلاد، وفي اليوم التالي أي في 09/22 من السنة نفسها أعلن قرار الطرد.

– **طرد مسلمي مملكة آراغون**: بعد مملكة بلنسية قررت السلطات الإسبانية طرد مسلمي مملكة أراغون[3]، لذلك أصدر الملك فيليب الثالث في 04/17 من سنة 1019هـ/1609م في البلد الوليد قرارا يقضي طرد مسلمي مملكة أراغون القديمة، وفي 1019/05/29هـ/م1610 نشر الماركيز دي أيتونا "De aytona"، نائب الملك الأمر في سرقسطة. تهيأ نائب الملك لعملية إجلاء مسلمي أراغون، فأمرهم بالتجمع في خمسة وثلاثين نقطة، ثم التوجه بعدها إلى خمس مدن على حدود أراغون القديمة[3]، وهي فبارة، مايلة، بال دي روبلس، بنيا روجا وأغوابيبا.

مرت عملية طرد مسلمي مملكة أراغون دون مقاومة تذكر، وبمصاعب أقل مما حدث في مملكة بلنسية، غير أنها مرت على المسلمين في جو من البؤس والألم، وصفـــه وصفا دقيقا أزنار كـــاردونا

[1]– كانت السلطات الإسبانية تتخوف من هجوم عسكري جزائري، ذلك أن أقوى أسطول بحري إسلامي على مستوى غربي البحر الأبيض المتوسط، كان الأسطول الجزائري، لذلك وضعت كل الاحتياطات اللازمة لتفادي أي مفاجأة غير مرغوب فيها.

[2]– عرف في المصادر الإسبانية بأمير البحر.

[3]– عندما رأى مسلمو مملكة آراغون ما حل بإخوانهم في بلنسية أخذوا يرفضون زراعة الأرض، ويبيعون ممتلكاتهم، ويرسلون بأموالهم إلى فرنسا، كما هاجر الكثير منهم إلى فرنسا.

"Azner Cardona" فكتب حول الموقف يقول[1]:

**"... كانت جماعاتهم تمر في فوضى كاملة، يختلط فيها الراجلون مع الفرسان، يتجاذبون وقم يتقطعون بالآلام وينفجرون بالدموع، يرتقع منهم ضجيج كبير وصراخ، محملون بأطفالهم ونسائهم ومرضاهم وعجزتهم، يغطيهم العرق والغبار، بعضهم يركب فوق العرابات يزاحم أمتعتهم وآخرون يمشون على الأقدام، متكسري الجناح لباسهم رديء كلهم ينظرون إلى النصارى الذين كانوا يتفرجون عليهم ويقولون لهم: ليحرسكم الله أيها السادة، استودعناكم اللهم وتمشى النساء بين الرجال، منهن فتيات، تظهر عليهم علامات التعب والألم والضياع، يتألم الجميع آلاما شديدة، وتتقطعهم مرارة عظيمة، وكثير منهم يتساقط على الطريق ميتا من الحزن، بينما يضطر الباقون إلى دفع ثمن الماء والظل لأن الفصل كان صيفا..."**

من خلال هذا الوصف الدقيق للمشهد المروع والمحزن الذي آل إليه مسلمو إسبانيا، بعدما كانوا السادة أصبحوا عبيدا، وبعدما كانوا أغنياء ومتحضرين أصبحوا فقراء وبؤساء، فلو علم الحكام المسلمين في الأندلس قبل ضياعها ما سوف يؤول إليه حالهم فهل كانوا سينصرفون إلى اللهو والمجون والشقاق والتشتت؟.

**- طرد مسلمي فالنسيا:** كانت أول منطقة يتم فيها تنفيذ قرار الطرد هي مملكة فالنسبا، وقد أعلن نائب الملك القرار في 22 سبتمبر، وأصدر تعليمات لم يتم تنفيذها كليا، وتعين عليه إصدار تعليمات جديدة. ففي أوائل أكتوبر شهدت كل موانى فالنسيا – من أليكانت حتى بيناروث– رحيل

[1] - Explusion Justificada de los Mariscos Espagnoles Parte2, Capitulo 2, p : 90.

أكثر من مائة وعشرون ألف مسلم على متن سفن ملكية وقوارب خاصة، في جو ساد فيه الكراهية والاعتداءات من طرف النصارى.

هذا ما أدى إلى ظهور مقاومة في القرى الجبلية بالداخل، وتم إخماد المقاومة بشكل دموي، وبقي عدد قليل من المسلمين في فالنسيا، «حوالي ألف من كبار السن، كما يمكن إحصاء عدد ثلاثة آلاف طفل سرقوا من عائلاتهم وبقوا مع عائلات نصرانية في فالنسيا.

– **طرد مسلمي قشتالة**: في أواخر عام 1019هـ/1610م[1] وقع الملك فيليب الثالث قرار طرد مسلمي قشتالة [2]، وكلف دون خوان دي مندوسه، وماركيز دي سان جرمان " De sin germain"بتطبيقه[3].

– **طرد مسلمي مرسية**: بتاريخ 1019/01/18هـ/1610م، نشر أمر بطرد مسلمي مملكة مرسية[4]، وكلف مجلس الدولة دون لويس فاخاردو Don Luise Farardo"[5] بتنفيذ المهمة؛ فطرد في المرحلة الأولى حوالي 15.000 مسلم وبقي حوالي 2500 منهم في وادي رقوط[6]. وفي 8-11- 1020هـ/1611م غير الملك رأيه، وأصدر أمرا بطرد جميع مسلمي مرسية.

---

[1]– بدأ مسلمو قشتالة بالهجرة منذ بداية عام 1018هـ/1609م، ربما حدث ذلك بمساعدة السلطات التي كانت ترغب في تجنب آثار الطرد الجماعي التي وقعت في إقليم فالنسيا.

[2]–كانت قشتالة تتكون من الأندلس، مملكة مرسية، استرمادورا وباقي المملكة.

[3]– لم يصدر القرار الخاص بطرد مسلمي مملكة قشتالة قبل عام 1018هـ/1609م، فقد كان القرار في بداية الأمر يشمل مصادرة جزئية لأملاك مسلمي المنطقة لصالح الخزانة الملكية بدلا من بيع الممتلكات بشكل كلي كما حدث مع مسلمي فالنسيا. كان نص القرار على تخلى الأسر المسلمة عن أطفالها الذين تقل أعمارهم عن سبعة أعوام إلاّ إذا توجهت هذه الأسر نحو بلدان تدين بالنصرانية، ممّا أجبر الكثير من هذه الأسر التوجه نحو فرنسا، رغم أن الكثير من السفن المتجهة إلى فرنسا غيرت طريقها واتجهت نحو السواحل المغاربية.

[4]–بعد نشر قرار الطرد قام نصارى مرسية بمظاهرات احتجاج توجهوا فيها للكنائس.

[5]–خلال تلك الحقبة التاريخية كان عضوا في الجيش البري والبحري الإسباني.

[6]– **وادي رقوط**: هي منطقة تضم ست قرى في مرج وادي شقورة تابعة للويس فاخاردو، ماركيز بليش.

لكن سكان وادي رقوط رفضوا تنفيذ قرار ترحيلهم بحجة إخلاصهم للدين النصراني، ولكن وصول تقارير إلى الملك مفادها تظاهرهم بالنصرانية وإخفائهم اعتناق الدين الإسلامي جعل الملك يصدر قرارا جديدا يقضي بطرد جميع سكان وادي رقوط، ومن تخلف من باقي مسلمي مرسية[1].

– **طرد مسلمي الأندلس**: حاول المسؤولون والأهالي النصارى على مستوى المنطقة منع طرد المسلمين منها، كما حدث في مملكة مرسية، مما يدل دلالة قاطعة أن معظم هؤلاء ينحدرون من أصول إسلامية ويضمرون التعاطف مع إخوانهم في محنتهم، ومع ذلك اتخذ الملك **فيليب الثالث** قرار الطرد بتاريخ 9-12-1018هـ/1609م الذي أعلن عنه في إشبيلية بتاريخ 12-01-1019هـ/1610م.

نص القرار على أنه حددت فترة قدرها ثلاثون يوما لكي يبيع المطرودون أملاكهم المنقولة ويتهيؤون للإبحار، لكن ماركيز سان جرمان، المكلف بإنجاز المهمة، قلص هذه الفترة إلى عشرين يوم، كما أذن لهم لمسلمي الأندلس المطرودون باصطحاب أبنائهم مهما كانت أعمارهم إذا كانت هجرتهم إلى بلدان كاثوليكية، أما إذا كانت هجرتهم إلى المغرب العربي فلن يسمح لهم باصطحاب أطفالهم الذين تقل أعمارهم عن سبع سنوات، وعليهم تركهم في إسبانيا[2]. ويقدر عدد من أخرج من الأندلس حوالي 32.000 مسلم.

– **طرد مسلمي أراغون**: بتاريخ 29 ماي من سنة 1019هـ/1610م أصدر الملك بمباركة الكنيسة الكاثوليكية قرارا يقضي بطرد مسلمي أراغون[3]؛ وتضمن المرسوم بنودا شبيهة بقرارات

---

[1]-Azner Cardona, Op. Cit. P: 91.

[2]– الكتاني، المرجع السابق. ص: 176.

[3]– دي إيبالثا ميكيل، الموريسكيون في إسبانيا وفي المنفى، تر وتق: عبد الرحمان جمال، د م ن، المجلس الأعلى للثقافة، د ط، 2005م، ص: 55.

الطرد الأخرى[1].

وبهذا خرج مسلمو اسبانيا برا عن طريق جبال البرانس، أو بحرا عن طريق ميناء الفاكيس القطالوني على نهر ايبرو، متجهين نحو بلدان المغرب العربي[2]، أو البلدان العالم العربي والإسلامية التابعة للخلافة العثمانية، كما اضطر آخرون إلى الرحيل نحو دول أوروبية مثل مملكة فرنسا[3] أو إيطاليا[4].

وفي 1018/12/28هـ/1609م وقع الملك فيليب الثالث قرارا بمجريط يوافق على خروج المسلمين من قشتالة القديمة والجديدة ومن المانشا والأسترمادورا، فأدى هذا الأمر إلى إخراج حوالي 16.713 مسلم من المناطق المذكورة. أما بتاريخ 1019/05/01هـ/1610م فقد كلف الملك الكوندي

---

**1**-Azner Cardona, Op. Cit. P: 92.

2- هناك مجموعة من العوامل ساهمت في قرار اختيار دول المغرب العربي كوطن بديل لمسلمي إسبانيا، من بين هذه العوامل نذكر العامل الجغرافي، فبغض النظر على قرب المسافة بين المنطقتين فالمتنقل من أرض الأندلس نحو المغرب يشعر بأنه في المكان نفسه، فالأودية والضياع المعلقة في أعالي السفوح والجو ومشهد الشارع في المدن الصغرى، حتى أوضاع الناس، كل ذلك يتشابه تشابها عجيبا. في حين تمثل العامل التاريخي في أن بلاد المغرب وجدت نفسها مدعوة منذ أن فتح المسلمون الأندلس، تلعب دورا هاما في عملية استقرار المغاربة في هذه البلاد، إذ أن العلاقات التاريخية بين البلدين في العهد الإسلامي تعود إلى نهاية القرن الأول الهجري . فاستقبلت الأندلس كثيرا من سكان المغرب الذين ما لبثوا أن تمازجوا مع سكان المنطقة. وقد ظلت الهجرات الأندلسية منذ الفتح الإسلامي، محافظة على توازنها بين العدوتين لارتباطها بما يعرف في الاصطلاح الجغرافي بعملية الجذب والطرد.

3- لقد قدر عدد المسلمين الذين طردوا من ا سبا ن يا باتجاه فرنسا حوالي 50000 مسلم على أقل تقرير، ولكن عندما تكاثر الوافدين على المنطقة وهم على ما هم عليه من الفقر و التعب والمرض، أخذ الفرنسيون يشتكون إلى الملك هنري الرابع من وجودهم، لذلك أصدر الملك بتاريخ 1019/04/25هـ/1610م أمرا ملكيا بتوجيه اللاجئين من اسبانيا إلى الموانئ المجاورة لإيجارهم خارج البلاد. وزادت معاملة مسلمي اسبانيا خاصة بعد وفاة الملك هنري الرابع سنة 1019هـ/1610م، فقررت السلطات الفرنسية إقفال الحدود عنهم وهدد برلمان اللانكدوق بتعذيب من يرفض منهم الخروج من فرنسا؛ كما منعت مقاطعة البروفانس عبورهم نهر الردانة. ونظرا للظروف القاسية التي واجهت مسلمي اسبانيا عند ا قامتهم بفرنسا، اضطروا إلى الهجرة نحو بلدان أخرى معظمها إسلامية؛ ولم يبق بفرنسا سوى ألف مسلم تقريبا سمح لهم بالإقامة في المدن، حيث عمل بعضهم في التجارة وآخرون في الطب، بينما ظل الكثير منهم يعمل في الزراعة. من بين النماذج التي استقرت بفرنسا نذكر المدعو لالياس لورانزو أنريقا " Alias Lorenzo Enripaz الذي أسر في عرض البحر على السواحل الأندلسية سنة 1029هـ/1620م، وقد مثل أما محاكم التفتيش بطليطلة وسرد قصته مضمونها أنه أثناء فترة الطرد، فقد تحول إلى فرنسا صحبة الأراقونيين أقلع من أكد (Agde) في اتجاه تونس. ومن هناك ذهب ليستقر بالجزائر. أيضا من بين هذه النماذج نذكر أحمد بن قاسم بن الشيخ الحجري الأندلسي الذي تحول إلى فرنسا بعد مكوثه مدة بالمغرب الأقصى أين قام باتصالات رسمية، وقد قدم للمجلس الملكي (الديوان السلطاني ) المسألة التي جاء من أجلها لهذا البلد، وبالمقابل سلمت له رسائل الملك الموجهة إلى القضاة التي أعطى أسماءهم، وكذلك إلى قاضي الأندلس. ينظر: لوي كارديناك، الأندلسيون الموريسكيون المسيحيون، (المرجع السابق). ص: 94.

4- دخل عدة آلاف من مسلمي اسبانيا المطرودين إلى ايطاليا، ولم يستقر منهم بها سوى حوالي ألف مسلم، أقام معظمهم في صقلية جنوبا وفي تسكانيا شمالا. ينظر: **الكتاني ، ا لمرجع السابق ، ص 182.** وهناك من هاجر إلى العالم الجديد وحمل تعاليم الإسلامية إلى أمريكا الجنوبية، ظنا منه أن بإمكانه الاختفاء عن الأعين و ممارسة الإسلام في أراضي الهنود الحمر الشائعة. ينظر: مرثيديس غارثيا أرينال، المرجع السابق. ص : 12.

دي سلازار "Alndy Sallazar"بطرد ما تبقي من المسلمين في طليطلة والمانشا واسترمادورا.

## -المبحث الثالث: احصاء عدد المطرودين وانعكاسات قرار الطرد على اسبانيا

عندما تأكد الملك الإسباني فيليب الثالث، قبل أربع قرون من الزمن من الآن، بأن أحفاد المسلمين الذين تم إطلاق اسم "الموريسكيين" عليهم، متشبثون بدينهم وثقافتهم الإسلامية التي رسخها أجدادهم في بلاد الأندلس خلال فترة عشرة قرون، أصدر قراره المشؤوم في تاسع أبريل من سنة 1018هـ/ 1609 القاضي بطردهم.

وهو القرار الذي جاء في صيغة قانون أصدره القصر الاسباني للتصفية العرقية والدينية، والذي اعتبر الأول من نوعه الذي تعرفه الإنسانية جمعاء، وأول تصفية عرقية ودينية تشهدها أوروبا؛ وتشير كتب التاريخ إلى أن قرار الطرد لم يكن سهلا تطبيقه في ظل وجود عوامل متداخلة، سواء منها السياسية أو الثقافية والدينية، وهو ما كان يتطلب سنوات عدة من الإجراءات شملت أسلوب الترهيب والاختيار ما بين التنازل عن المعتقد الإسلامي واعتناق النصرانية الكاثوليكية، مما استدعى إقامة محاكم التحقيق، التي نصبت سنوات قبل إصدار قرار الطرد.

**1)– احصاء عدد المطرودين:** اختلف المؤرخون في تقديرهم لعدد المطرودين، فتفاوتت ما بين مائة وألف والمليون، لكن معظم من عايشوا الأحداث برهنوا على أن الإحصائيات أعطت أرقاما تتراوح ما بين 270.000 و 340.000 مسلم، وتعود صعوبة تقدير عدد المطرودين وإلى أسباب كثيرة منها:

– أعداد كبيرة من مسلمي إسبانيا بطرد قبل هذا التاريخ أي قرار الطرد النهائي.

– أحصت السلطات الإسبانية عددا من مسلمي إسبانيا على أنه طرد منها، ولكنه بقي فيها دون علم الإدارة الإسبانية.

– هناك من المطرودين مكن عاد إلى إسبانيا بعدما طرد منها قسريا.

وهذا جدول يمثل أهم الروايات التاريخية التي قدمت لنا الإحصاءات حول أعداد المطرودين من اسبانيا:

| المؤرخ | عدد المطرودين |
|---|---|
| بليدا "Bleda "قدرهم بحوالي | 340.672 مطرود[1] |
| بينالوسا"Penalosa "قدرهم بحوالي | 310.000 مطرود |
| ساروزار دي موندوزا " Salozar de Mondoza" قدرهم بحوالي | 313.000 مطرود |

هذه الإحصاءات قدمتها روايات المؤرخين الذين شاركوا في الأحداث أو على الأقل عاصروهم. وما يلاحظ عنها أنها كانت متقاربة فيما بينها إلى حد كبير فلا يوجد فارق كبير بينهم.

وهناك مؤرخون آخرون من القرن السابع عشر أعطوا أرقاما أخرى:

| المؤرخ | عدد المطرودين |
|---|---|
| **إيكزولانو"Exolano " قدرهم بحوالي** | **600.000 موريسكي** |
| **رودريقو ماندیز سلیفا "Mendez Rodrigo** | **900.000 مويسكي** |

[1]- Henry Lapeyre, Op. Cit. P: 70.

| | |
|---|---|
| **Sliva" قدرهم بـ** | |
| **فرونسوا بارترو"François Bertant"[1] قدرهم بحوالي** | **بعدة ملايين** |

في حين نجد تفاوتا واختلافا واضحا بين الروايات التاريخية الأربع، ولا يوجد أي تقارب بينها؛ هذا فيما يخص مقرنتها ببعضها البعض، أما فيما يخص مقارنتها بالأرقام المعروضة في الجدول الأول فهناك فارق كبير، ولا يوجد أي اتفاق حتى ولو نسبي فيما يخص عدد التقريبي للمطرودين.

أما المصادر الأندلسية فقد قدرت عدد المسلمين المطرودين كالآتي[2]:

| **المؤرخ** | **عدد المطرودين** |
|---|---|
| **الشهاب الحجري قدرهم بـ** | **800.000 مطرود** |
| **ابن عبد الرفيع قدرهم بحوالي** | **600.000 مطرود** |

من خلال الرقمين المقدمين من طرف مؤرخين عاصروا الحدث التاريخي ولكن لم يعايشوه نلاحظ نوع من التقارب العددي بين الروايتين.

وهذا جدول مجزء يضم العدد التقريبي للمطرودين من كل منطقة وجاء على النحو التالي:

| **المدينة** | **عدد المطرودين** |
|---|---|
| **الهجرة الأولى** | |

[1]- مؤرخ فرنسي زار إسبانيا سنة 1655، ينظر: عدل البشتاوي، الأندلسيون المواركة، (المرجع السابق) ص: 189.

[2]- ابن عبد الرفيع، المصدر السابق. ص: 335.

| | |
|---|---|
| بلنسية | 150.000 |
| غرناطة | 80.000 |
| آراغون | 64.000 |
| قطالونيا | 44.000 |
| قشتالة | 82.127 |
| مورسية | 6.552 |
| قلعة رباح | 1.100 |
| فال ريكون | 2.500 |
| الهجرة الثانية | |
| المدينة | عدد المطرودين |
| بلنسية | 6.000 |
| قشتالة | 17.317 |
| المجموع | 453.596 |

في حين قدم الباحث المختص في الراسات الأندلسية عبد الله عنان هذه الدراسة الإحصائية لعدد المطرودين قبيل سنة الطرد وخلالها محاولا إثبات نظرية عدم تمكن السلطات الإسبانية من طـــرد

كل مسلمي إسبانيا[1].

| المنطقة (مملكة أراغون) | السنة | مجموع السكان | نسبة المسلمين |
|---|---|---|---|
| مملكة بلنسية | 1608 | 580000 | %39.7 |
| مملكة أراغون القديمة | 1608 | 352.000 | %20.5 |
| مملكة قطلونية | 1608 | 488.000 | %12.2 |

بعد عملية الطرد:

| المنطقة | السنة | مجموع السكان | نسبة المسلمين |
|---|---|---|---|
| مملكة بلنسية | 1609 | 440.000 | %20.5 |
| مملكة أراغون القديمة | 1609 | 291.000 | %16.8 |
| مملكة كطلونية | 1609 | 1.215.000 | %12.2 |

[1]- عبد الله عنان، انبعاث الإسلام في إسبانيا، (المرجع السابق). ص ص: 192- 196.

## ديموغرافية مسلمي مملكة قشتالة وتوابعها سنة 1018– 1019هـ/ 1608 – 1609م

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| قشتالة | 85.000 | 50.000 | 35.000 | %59 |
| الاسترمادورا | 17.000 | 8.000 | 9.000 | %53 |
| مرسية | 38.000 | 22.000 | 16.000 | %58 |
| الأندلس | 320.000 | 52.000 | 268.000 | %16 |

تبين الإحصاءات المعروضة في الجدولين عدم صحة خرافة الطرد النهائي والكلي لمسلمي إسبانيا مند سنة 1018هـ/1609م وإلى غاية سنة 1023هـ/1614م، خاصة بالنسبة للأندلس حيث لم يطرد سوى 16 % من مجموع المسلمين المقيمين فيها، بينما لم يطرد سوى 29 % من مجموع مسلمي مملكة قشتالة وملحقاتها.

وبسبب ذلك ينحـدر اليوم معظم سكـــان منطقة الأنـــدلس في حدودها الحالية من أصول إسلامية، على عكس ما حدث في مملكتي أراغون القديمة وبلنسية حيث لم يبق فيها بعد الطرد سوى خمس مسلميها. وهذا ما يفسر الشعور السائد في منطقة الأندلس الحالية بالانتماء إلى التاريخ الإسلامي، مما كون القاعدة الأساسية للقومية الأندلسية المعاصرة.

**2)– الأوضاع المصاحبة لعملية الطرد والنتائج المترتبة عليها:** تكشف كتب التاريخ أن قرار الطرد اتخذ سرا في تاسع نوفمبر من سنة 1018هـ/ 1609م وبقي سرا في البلاط الإسباني، ولم يتم البدء في تفعيله على أرض الواقع إلا في سبتمبر من السنة نفسها؛ فنهج التفاعل يقتضي ضرورة مراجعة العديد من القضايا في إطار العلاقة التي تربط إسبانيا بالمغرب على وجه الخصوص، وبالعالم العربي والإسلامي والحوض الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط عموما، والتخلي عن ثقافة الخوف التي تسيطر على الساسة الإسبان في سبيل التأسيس لحوار جيواستراتيجي قائم على التعاون المشترك بدل تبني خلفيات مسبقة تشكك في نوايا الآخر.

وتفيد كتب التاريخ بأن قرار الطرد جاء بعدما تبين للملك فيليب الثالث أن مسلمي اسبانيا لا يزالون متشبثين بماضيهم أكثر من رغبتهم في الاندماج في إسبانيا النصرانية، وهو ما قد يدفعهم إلى التحالف مع المغرب أو الخلافة العثمانية الآخذة في السيطرة على البحر الأبيض المتوسط حينئذ، والتي كانت سفنها تغير على شواطئ إسبانيا بين حين لآخر. وقد كان لقرار الطرد نتائج وخيمة على إسبانيا خاصة فيما يخص الجانب الاقتصادي منها.

***– الأوضاع المصاحبة لعملية الطرد:** لقد صاحبت عملية التهجير هذه جرائم وفضائع لا تصور، فقد أمرتهم السلطات بحمل ما استطاعوا من أمتعتهم على ظهورهم. كما تكونت في الطرق عصابات من النصارى يسرقون أمتعتم، ويقتلون منهم الكثير انتقاما منهم، والأمر من ذلك أنه اشترك في عملية النهب والسبي والقتل أفراد الجيش الذين كان من المفروض وضعوا لحراستهم؛ مع أنه صدر

مرسوم ملكي بتاريخ 1018/09/11هـ/1609م، يقضي بمعاقبة كل من يسيء معاملة المطرودين، ولكنه كان مجرد حبر على ورق.

كما قام أصحاب السفن بإغراق الكثير من مسلمي إسبانيا لسلب أموالهم، وقد وصف أحد شعراء إسبانيا الموقف في قصيدة شعرية من بين ما ورد فيها:

والعجائز بأحزان وبكاء الـــلتــوى وجـوههــن وشـكلهــن

محملات بجواهر مزيفــة وأواني الطبخ ومقلات وقرب وقنادل

وعجوز يحمل طفلا بيده والآخـــر على صــدر أمــه الحنــون

هكذا كانت إذن الصورة المأسوية التي عاشها مسلمو اسبانيا أثناء عملية الطرد. وقبل التطـرق لإجراءات الطرد النهائي وما رافقه من الأحداث يجب الإشارة إلى أنه كانت هناك هجرات سبقت هذا العهد بداية مع فترة حكم الملكين الكاثوليكيين حيث أشار المقري في «أزهار الرياض» إلى هذا الموضوع فكتب عنه يقول[1]:

**"...أمر فرناندو – لعنه الله – بانتقال سلطان غرناطة أبي عبد الله إلى قرية اندرش، من قرى البشرة، فارتحل أبو عبد الله بعياله وحشمه، وأقام بها ينتظر ما يؤمر به، ثم ظهر للطاغية أن يجيزه إلى العدوة، فأمـــره بالجــواز، واعد له المـــراكب العظيمة، وركب معــه كثيــر من المسلمين، ممن أراد الجواز، حتى نزلوا بمليلية من ريف المغرب..."**

[1]- المصدر السابق. ص: 130.

لقد اعتبر العديد من المؤرخين زمن فيليب الثالث وبعده رغم ايجابيات الطرد من الناحية السياسية والدينية، أكثر الحقب التاريخية تضررا إذا نظرنا إليه من حيث الجانب الاقتصادي[1]، فقد كان الطرد بمثابة الضربة القاضية لرخاء اسبانيا ومواردها، فانخفض الإنتاج الزراعي الذي برع فيه المسلمون، وخربت الضياع الكبيرة بفقد الأيدي الماهرة، وركدت الصناعة التي كان المسلمين أساتذتها وبخاصة الأنشطة ذات العمل التسلسلي[2].

فبعدما كانت أرض الأندلس في غابة يكون من الازدهار على مستوى كل الأصعدة الفنية و الزراعية و الصناعية أصبحت بعد طرد المسلمين منها متدهورة وأصبح الاقتصاد في اسبانيا يرثى عليه؛ وتذكر الكثير من الروايات التاريخية أن السلطات الاسبانية لم تستطع تعويض الخسارة التي نتجت عن طرد قرابة 400000 مسلم فبقيت الفلاحة والتجارة في مملكة غرناطة جامدة بعدما كانت مزدهرة رغم المعارك التي دارت رحاها بين الطرفين.

**ب)– النتائج المترتبة على عملية الطرد:** لقد ترتب على عملية طرد مسلمي اسبانيا عدة نتائج وخيمة انعكست بشكل مباشر خاصة على الجانب الاقتصادي والعمراني؛ فبالرغم من الوحدة الدينية و"القومية" التي حققتها السلطات الإسبانية من خلال تطبيقها لمشروع الطرد، إلا أنها خسرت الكثير بالمقابل.

*– **في الميدان الزراعي:** أدى الطرد على المستوى العمراني إلى فراغ العديد من المراكز ففي

1– محمد عبد الله جمال الدين، المرجع السابق. ص: 301.

2– دومنيقير أنطونيو، هوتر وبرنارد بنشت، المرجع السابق. ص: 60.

فكان للطرد أثرا سلبيا على الميدان الزراعي، فقد ظلت الضياع مهجورة مخربة لوقت طويل نتيجة تخريب السدود والقنوات، وأهملت العديد من الزراعات، كزراعة قصب السكر والقطن، وتربية النحل، ودودة القز، وقد حاول النبلاء والسادة تعويضهم بمزارعين آخرين لخدمة أراضيهم، لكن جهودهم ذهبت هباءا منثورا.

*-. **في الميدان الصناعي والتجاري**: تضررت اسبانيا كثيرا في الجانب الصناعي والتجاري؛ فقد مارس مسلمو اسبانيا الصناعة والتجارة بمهارة فائقة كانت تدهش الاسبان أنفسهم، فقد اختفت بعض الصناعات من بعض المناطق مثل قسطة التي اختفت منها صناعة الأسلحة، وأغلقت في مناطق أخرى مصانع الورق والحرير والأقمشة[1].

تشكل تفاصيل عملية الطرد الجماعي التي تمت سنة 1018هـ/1609م حلقة جديدة ومكملة لعملية الإقصاء الديني والاجتماعي والثقافي والحضاري والاقتصادي الذي مارسته السلطة والكنيسة يومئذ بكلّ قسوة وظلم تجاه الشعب المسلم الأعزل. فأي دراسة حول موضوع طرد مسلمي اسبانيا لا بد أن تقودنا سريعا إلى الاقتناع بالأبعاد التي آلت إليها قضيتهم كقضية تاريخية، والحقيقة أنّ ماضي اسبانيا ومستقبلها يتشابكان بطريقة معقدة مع الصراعات والمواقف الايديولوجية.

ويعد طرد مسلمي اسبانيا من أهم الأحداث التي حفلت بالتبعات على جميع الأصعدة التاريخية، الاجتماعية، الاقتصادية، والسياسية، وقد تجاوز كلّ هذا ليحتل مكانة كأزمة ضمير جماعي للإسبان في عصره وفي عصور لاحقة. فالطرد الجماعي لشعب تم تعميده قصرا وظلما ليس له سابقة

1- محمد عبد الله جمال الدين، المرجع السابق. ص: 301.

في تاريخ النصرانية، وهو حدث شاذ بكل المقاييس المدنية والدينية؛ ذلك أن بتر الجماعة المسلمة من إسبانيا أدى إلى عواقب يصعب فهمها تقريبا، فهي وإن كانت تبدو جلية أمام كلّ شخص متأمل إلا أنها تلقي بالدهشة والذهول الهادئ في نفوس كثيرين آخرين.

ولقد تم التهجير القسري في ظروف يستحيل على الباحثين اليوم التعبير عنها بأمانة ودقة، لما حفت بها من فظاعة وظلم صارخ ومتعمد، فلقد منع المطرودون من حمل ثرواتهم، لذلك تم بيع ممتلكاتهم بأبخس الأثمان.

لقد ترك البعض منهم أثناء عملية التهجير عبر السفن الإسبانية، في قرى مهجورة دون تمويل أو ذخيرة، وتم الاستيلاء على مدخراتهم، ومات أكثرهم في الملابسات الرهيبة التي حفت بتلك العمليات في موانئ فرنسا واسبانيا، وقصدوا بلدان المغرب العربي، وفرنسا وإيطاليا واسطنبول وحتى أمريكا اللاتينية، حيث عثر على آثارهم المعمارية. وقد نجم عن هذا الطرد انعكاسات سلبية وخطيرة خاصة على الصعيد الاقتصادي، إذ لم تستطع السلطات الإسبانية تعريض هذه الخسارة.

# الباب الثاني

## الصراع الفكري بين مسلمي إسبانيا والنصارى

## (909-1018هـ/1504-1609م)

الفصل الأول: الصراع الفكري آلياته وأهذافه

الفصل الثاني: التقية رمز من رموز المقاومة

الفصل الثالث: التقية بين الاجبار والاختيار

الفصل الرابع: اللغة العربية في معركة البقاء

الفصل الخامس: اللغة الألخميادية ابداع ومقاومة

# الفصل الأول

# الصراع الفكري آلياته وأهذافه

## المبحث الأول: الصراع مفهومه وأنواعه

### 1)- مفهوم الصراع

### 2)- مسبباته

### 3)- أنواعه

## المبحث الثاني: الصراع الفكري في إسبانيا مواصفاته ودوافعه

### 1)- مواصفات الصراع الفكري في اسبانيا الكاثوليكية

### 2)-الدوافع النفسية والاجتماعية المحركة لظاهرة الصراع

يدور موضوع هذه الدراسة حول ظاهرة الصراع الفكري بين مسلمي اسبانيا والنصارى الكاثوليك في إسبانيا خلال القرنيين العاشر والحادي عشر هجريين الموافق للقرنيين السادس والسابع عشر ميلاديين باعتبارها ظاهرة ذات أبعاد متناهية التعقيد، بالغة التشابك، يمثل وجودها أحد معالم الواقع الإنساني الثابتة، حيث تعود الخبرة البشرية بالصراع إلى نشأة الإنسان الأولى، حيث عرفتها علاقاته في مستوياتها المختلفة: فردية كانت أم جماعية، وأيضا في أبعادها المتنوعة: نفسية أو ثقافية، سياسية أو اقتصادية، أو اجتماعية، أو تاريخية.

وتستهدف الدراسة تقديم إطار مقارن لفهم وتحليل الصراع الدائر في إسبانيا خلل الحقبة التاريخية المذكورة أعلاه، طبيعته، أسبابه، وأنواعه. وبهذا الصدد، فإن هذه الدراسة تتبنى وجهة نظر ترى أن الطبيعة المعقدة والمتداخلة للصراع تجد جذورها في مصادر متعددة؛ منها ما يعود إلى تعدد أبعاد الظاهرة الصراعية ذاتها، ومنها ما يتعلق بتداخل مسبباتها ومصادرها من جانب، بالإضافة إلى تشابك تفاعلاتها وتأثيراتها المباشرة وغير المباشرة من جانب آخر، هذا فضلا عن التفاوت في مستويات الظاهرة من حيث المدى أو الكثافة والعنف.

فدراسة أي صراع وتتبع مساراته لا سيما الفكرية ينتج لنا معرفة جديدة للتعامل مع الواقع. وحينما نعرف جذور الأفكار نعرف كيف نواجهها أو كيف نصحح مسيرنا معها. لذا فإن دراسة الصراع الفكري وما ينتج عنه أمر لا بد منه حينما نريد أن نسير في الطريق الصحيح لأن الذي يعين على فهم الحقائق هو فهم الجذور الأولى له والدوافع الحقيقية وفهم الظروف التاريخية التي نشأ فيها.

فقد مثلت التيارات الفكرية سواء النصرانية أو اليهودية في بلاد الأندلس تحديا للإسلام

والفكر الإسلامي الأصيل في عصور الإسلام الزاهرة، فكان ذلك حافزا للمسلمين للوقوف أمامها بقوة وصلابة. وقد كانت المواجهة على مستوى التحدي بل تفوقه؛ إذ هضم الفكر الإسلامي تلك التيارات هضما دقيقا واستوعبها استيعابا تاما ثم كانت له معها وقفته الصلبة وبالأسلحة الفكرية نفسها.

فالمواجهة إذن كانت مواجهة فكرية، لكن في إطارها السلمي؛ هذا في مرحلة القوة وسيطرة نموذج الإسلامي على مقاليد الحكم، ولكن وعندما بدأ هذا الأخير يضعف وينهار شيئا فشيء تحول ذلك التحدي السلمي إلى صراع، كان في أصله حرب أفكار، فالمعركة إذن كانت معركة فكرية، ولهذه المعركة أدواتها التي يجب التسلح بها، فالخاسر في هذه المعركة أشد وطأة وأقوى تأثيرا وأعظم فتكا من خسارة أية معركة حربية أيا كان حجمها.

فالمطلع على هذه الدراسة كثيرا ما سيصادفه عبارة "الصراع الفكري" الذي كان أساسه عقدي، لهذا لنا وقفة مع هذا الفصل مستعرضين مفهوم الصراع الفكري، مسبباته، أنواعه. على أن موضوع مثل هذا يحتاج إلى حيز أكبر، وبحث أعمق في مجموعة المصادر والمراجع المختصة لما له أهمية وصلة بتاريخ الصراع الإسلامي النصراني في إسبانيا على وجه الخصوص، وفي العالم الإسلامي عموما.

## – المبحث الأول: الصراع مفهومه مسبباته وأنواعه

إن الصراع كمفهوم له طبيعته المركبة التي تستمد خصائصها من الموقف ذاته، ومن طبيعة وعلاقات القوى التي تحكم أطرافه وموضوعه. أما الصراع كظاهرة فإنه يتسم بالتعقد البالغ ، فظاهرة

الصراع وإن كانت تجمع – وعلى الأقل بشكل كامن ومحتمل – بين مزيج من الأبعاد الإيجابية والسلبية معا، فإن التكييف النهائي للظاهرة الصراعية إنما يتوقف إلى حد كبير على مجموعة المتغيرات.

تتشكل هذه المتغيرات أولا طبقا لمتغير الإدراك الخاص بأطراف الصراع، ثم ثانيا بمتغيرات التوقيت، الموضوع ، البدائل المتاحة، وغيرها من متغيرات بيئية تسهم بشكل متداخل في تحديد مدى وكثافة الظاهرة الصراعية. وأخيرا، فإن الصراع كعملية إنما يجد جذوره في روافد متعددة، كما أن أشكاله، ومظاهر التعبير عنه إنما تتداخل وتتقاطع فيما بينها بشكل يعكس قدرا لا بأس به من الاعتماد المتبادل بين منابع العملية الصراعية ومظاهرها. وقبل أن نتطرق إلى مفهوم الصراع الفكري ومسبباته، لا بد لنا من تعريف مصطلح الصراع أولا.

**1)– مفهوم الصراع:** تعكس أدبيات الصراع ثراء واضحا فيما تقدمه من تعريفات لمفهوم الصراع، كما تتعدد أيضا مجالات الاهتمام، ونقاط التركيز التي يوليها المتخصصون أهمية كبيرة عند تناولهم للمفهوم بالدراسة والتحليل. فقد قدمت تعريفات كثيرة من طرف الباحثين في العلوم السياسية وعلم الاجتماع ، على أن كل مجال فسره وفق المنظومة الخاصة به.

فالصراع في مفهومه يعبر عن موقف له سماته أو شروطه المحددة: فهو بداية يفترض تناقض المصالح أو القيم بين طرفين أو أكثر، وهو ثانيا يشترك إدراك أطراف الموقف ووعيها بهذا التناقض، ثم هو ثالثا يتطلب توافر أو تحقق الرغبة من جانب طرف (أو الأطراف) في تبنى موقف لا يتفق بالضرورة مع رغبات الطرف الآخر، أو (الأطراف الأخرى)، بل إن هذا الموقف قد يتصادم مع باقي

هذه المواقف[1].

وبوجه عام، فإن مفهوم الصراع في الأدبيات السياسية المتخصصة ينظر إليه باعتباره ظاهرة ديناميكية. فالمفهوم، من جانب، يقترح موقفا تنافسيا معينا[2]، يكون كل من المتفاعلين فيه عالما بعدم التوافق في المواقف المستقبلية المحتملة، كما يكون كل منهم مضطرا أيضا لاتخاذ موقف غير متوافق مع المصالح المدركة للطرف الآخر.

من هنا كان هناك اتجاه ينصرف إلى التركيز على البعد التنافسي في تعريف الصراع باعتبار أنه "أحد أشكال السلوك التنافسي بين الأفراد أو الجماعات"، وأنه "عادة ما يحدث عندما يتنافس فردان أو طرفان أو أكثر حول أهداف غير متوافقة، سواء كانت تلك الأهداف حقيقة أو متصورة، أو حول الموارد المحدودة. وفى تعريف آخر، فإن مفهوم الصراع يتميز بالبساطة والمباشرة، حيث يوصف الصراع بأنه "عملية منافسة ظاهرة، أو محتملة بين أطرافه[3].

وقد يتداخل مصطلح الصراع بمصطلحات أخرى كـ "النزاع" و"الأزمة"، " العنف" فأما الأول فالنزاع فيعرف في دوائر المصادر اللغوية بأنه " إعطاء أسباب أو حقائق لتأييد أو معارضة شيء ما"، أو أنه "المناقشة"، أو المجادلة، أو السجال حول شيء ما أو بخصوصه".

كذلك يدور النزاع حول، أو على، أو مع شيء ما، خاصة عندما يكون النزاع غاضبا، وممتدا

---

[1]- منير محمود بدوى، مفهوم الصراع : دراسة فى الأصول النظرية للأسباب والأنواع، مجلة دراسات مستقبلية، مصر: مركز دراسات المستقبل . جامعة أسيوط .، ع:3، يوليو 1997م. ص: 38.

[2]- وهنا تثار أهمية التمييز بين الصراع وبعض أنواع المنافسة –كالتي تحدث في المجالات الرياضية أو العلمية على سبيل المثال –، ففي المنافسة يتعاون الأفراد أو يتنافسون من أجل هدف إنساني، بينما في الصراع، فإن إحداث أو إلحاق الضرر المادي أو المعنوي بالآخرين إنما يعد هدفا محددا للصراع نفسه.

[3]- منير محمود بدوى، المرجع السابق. ص: 38.

لفترات طويلة. كما يعرف النزاع أيضا بأنه "جدال أو شجار – يكون بصفة خاصة ذا طبيعة رسمية – بين جماعة وجماعة أخرى. أما في الأدبيات المتخصصة، فإن النزاع يتم تعريفه بأنه "تعارض في الحقوق القانونية قد تتم تسويته بالتوصل إلى حلول قانونية وسياسية". كما أنه يفترض أيضا وجود طرفين أو أكثر يعترفان بوجود الاختلافات والمشكلات بينهما من جانب، وأن يبدى أحد هذه الأطراف على الأقل استعداده ورغبته في حل المشكلة[1].

على ضوء ذلك، فإن النزاع يشير إذا إلى موقف يواجه أطرافه أحد موقفين أحدهما قابل للتفاوض، بينما الآخر لا يحتمل التوفيق، ومن هنا كانت أهمية وحيوية البحث عن إطار لتحليل وحل المشكلة موضع النزاع[2]. ومن ثم، فإن مقارنة مفهوم النزاع بمفهوم الصراع توضح أن مفهوم الأول يشير إلى درجة أقل حدة وأقل شمولا في الاختلافات عن الثاني، وأنه قد يمكن احتواؤه والسيطرة عليه من وجود تعارض في القيم أو المصالح بحيث تشعر معه أطراف الصراع أن أهدافها غير متوافقة من جانب.

أما فيما يخص مصطلح "الأزمة" فيعرفه "**ستيفن فنك**" "**Steven Fink**" بأنه حالة من عدم الاستقرار للمؤسسة يوشك أن يحصل على أثرها تغيير حاسم وهام ينتهي بنتائج غير مرغوبة بشكل كبير أو بنتائج مرغوبة تنعكس ايجابيا على حالة المؤسسة وثقافتها وأدائها[3].

والأزمة كذلك في رأيه هي حالة مرضية ونقطة تحول للمؤسسة نحو الأسوأ أو نحو الأفضل

---

[1]– منير محمود بدوى، المرجع نفسه. ص: 40.

[2]– في هذه الحالة، فإن مفهوم النزاع هنا إنما يشير إلى الأسلوب أو الطريقة التي يتناول بها متخصصو العلوم الاجتماعية الحديث عن الإجراءات القانونية، وشبه القانونية والمؤسسية المتعلقة بتسوية أو حل النزاع من جانب، كما أن منظور النزاع بهذا المعنى إنما يحول الاهتمام عن الأبنية وعن القواعد الرسمية إلى عمليات الصراع، ومظاهرها، وأفعالها.

[3]– خالد العمرى، المدخل المنظومي في إدارة الأزمات وحل الصراع في النظام التربوي، ضمن أعمال: المؤتمر العربي الخامس حول المدخل المنظومي في التدريس والتعليم نظمه مركز تطوير تدريس العلوم بجامعة عين شمس القاهرة – ابريل 2005. ص: 3.

وتتميز بدرجة عالية من الخطورة وعدم التأكد والغموض وضيق الوقت، ويصاحبها عادة خطر التسارع في الأحداث، ووضع المؤسسة تحت المجهر والرقابة إعلاميا وإداريا واجتماعيا، وتكون المؤسسة عرضة للتدخل في أعمالها الاعتيادية وتشويه صورتها والحاق الضرر بها، وفي رأيه أن الأزمة لا تكون وليدة الساعة رغم أنها تأتي احيانا بشكل مفاجئ، فهي كالمرض تمر بأربع مراحل هي: مرحلة الاعراض، والمرحلة الحادة، والمرحلة المزمنة، ومرحلة الحل والمواجهة[1].

إن هذه التعريفات للأزمة تبين درجة الأهمية لها ومدى تعقيدها وتركيبها ويعود ذلك الى جملة الأسباب التي تقود إليها وتعدد هذه الأسباب ودرجة تأثيرها. ادارة الازمة بأنها فن إزالة الخطر المحدق بالمؤسسة وما يصاحبه من عدم التأكد والغموض ليسمح لك بالسيطرة أكثر على مصيرك او مصير مؤسستك، ويعنى ذلك ان تكون جاهزا ومستعدا دائما لأي طارئ.

يتبين من هذه التعاريف بأن إدارة الأزمة لا تقتصر على التعامل مع الأزمة عند حدوثها فحسب كرد فعل مرتجل بل تتضمن الاستعداد والمبادرة والتوقع والتنبؤ بالمجهول وعمل السناريوهات لأزمات افتراضية، من خلال محاولة السيطرة على الأوضاع.

في حين يعرف " العنف" يختلف مفهوما العنف والحرب[2]، فالأخيرة وإن مثلت إحدى صور

---

[1]-خالد العمرى، المرجع نفسه. ص: 3.

[2]- تعد الحرب أكثر صور العنف ذيوعا وشهرة في الصراعات الدولية. وعلى الرغم من الاختلاف حول التعريف الدقيق للمفهوم، أو ما يمكن تسميته التعريف، الجامع المانع للحرب. وفى هذا الصدد فالحرب حالة قانونية تسمح وبصورة متساوية لعدوين أو أكثر الاستمرار في صراعهما باستخدام القوة المسلحة. وفى تعريف مبسط آخر تعرف الحرب بأنها " أعمال عنف مسلح بين دولتين – أو أكثر –، أو أنها – أي الحرب– هي "أقصى صور الصراع عنفا وأكثرها وضوحا وسفورا، كما أن الأطراف، وقد تورطت فعلا في الحرب والصدام، عادة ما تتجه إلى تجاهل اختلافاتها الأساسية، والتطورات التي قادتها إلى الحرب من جانب، كما أنها وقد تورطت فعلا في الحرب، تصبح أولويتها الأولى متمثلة في الإضرار بمصادر قوة الخصم، والسعي إلى تدميرها بما يحقق هدفها في الانتصار أو عدم الخسارة.

الأول، إلا أنه –العنف– مفهوم له شموله وخصوصيته عن مفهوم الحرب. فمن جانب، يعد إحداث الضرر، أو إلحاق الأذى، أو استغلال الموارد، كلها تعد أهدافا أساسية للطرف المعنى من أجل تحقيق أهدافه، كما أن مفهوم العنف هنا لا يقتصر على الجانب العضوي فقط، حيث قد يمتد إلى المجالات العاطفية والنفسية[1].

ومن جانب آخر، فإن العنف باعتباره متميزا عن الحدة أو الكثافة التي تميز الصراع فإنه يشير إلى اختيار وسائل تنفيذ الصراع أكثر من إشاراته إلى درجة التورط من قبل المشاركين. أما كثافة الصراع أو حدته يتنوعان بشكل مستقل عن بعضهما البعض. فكلما كانت أطراف الصراع أكثر اندماجا في المجتمع أو الجماعة، كلما قل الاحتمال أن يكون الصراع بينهما عنيفا. في حين أنه كلما ازدادت وكبرت درجة الاندماج، كلما ارتفع احتمال أن تختار الأطراف المتصارعة أسلحة تؤدى بشكل دائم إلى تهديد الروابط المشتركة بينها.

إذن الصراع كمفهوم له طبيعته المركبة التي تستمد خصائصها من الموقف الصراعى ذاته، ومن طبيعة وعلاقات القوى التي تحكم أطرافه وموضوعه. أما الصراع كظاهرة فإنه يتسم بالتعقد البالغ ، فظاهرة الصراع وإن كانت تجمع – وعلى الأقل بشكل كامن ومحتمل – بين مزيج من الأبعاد الإيجابية والسلبية معا.

بعد التعرف على بعض المصطلحات التي نجدها عادة تتكرر مع أو ترافق مصطلح الصراع، فيمكننا القول بأن الصراع أعم وأشمل، ويمكنه أن يشمل كل هذه المصطلحات في آن واحد إذا ما

[1]– منير محمود بدوى، المرجع السابق. ص: 43.

حاولنا دراسة طبيعة الصراع بالتعرف على أسبابه وكيفية نشوئه وعلى أنواعه ومستوياته ونتائجه وهي كفايات أساسية لا بد للسلطة والطرف الآخر أن يتسلحا بها في إدارتهما للصراع. وخوضنا في هذه المصطلحات لم يكن من باب الحشو والإطناب، ولكن لأنها مصطلحات ستتكرر كثيرا في بحثنا هذا، فكان لابد من وقفة علمية معها حتى تتضح الصورة.

**2)– مسبباته:** يتوقف التكييف النهائي للظاهرة الصراعية إلى حد كبير على مجموعة من المتغيرات التي تتشكل أولا طبقا لمتغير الإدراك الخاص بأطراف الصراع، ثم ثانيا بمتغيرات التوقيت، الموضوع ، البدائل المتاحة، وغيرها من متغيرات بيئية التي تسهم بشكل متداخل في تحديد مدى وكثافة الظاهرة الصراعية. وأخيرا، فإن الصراع كعملية إنما يجد جذوره في روافد متعددة، كما أن أشكاله، ومظاهر التعبير عنه إنما تتداخل وتتقاطع فيما بينها بشكل يعكس قدرا لا بأس به من الاعتماد المتبادل بين منابع العملية الصراعية ومظاهرها.

وبهذا تتصف المداخل أو النظريات المفسرة لظاهرة الصراع بوجه عام بالتنوع والثراء. فمنها ما يهتم بتفسير الصراع كظاهرة عامة، وهنا يمكن القول ابتداء، أنه أيا كانت دائرة الاهتمام النظري في تفسير ظاهرة الصراع، فإن الصراع كظاهرة بالغ التعقيد لتداخل المتغيرات المرتبطة به وتشابكها من جانب.

فقد تعددت أنواعه ودوائره، ومن ثم مستويات تحليله ودراسته من جانب آخر؛ ومن هنا كانت ضرورة أن ينهض التفسير الموضوعي لظاهرة الصراع على الاستفادة المتكاملة من الإمكانات التي توفرها تلك المناهج والنظريات مجتمعة، مع الأخذ في الاعتبار السمات الخاصة لكل حالة

صراعية. فأسباب الصراع كثيرة ومتشعبة منها تداخل المهام، وغموض التشريعات، وتباين المصالح، ومعوقات الاتصال، وغياب المعايير، والتمييز؛ وقد قسمها المتخصصون إلى صراع المصالح، صراع العلاقات، صراع المصالح، فصراع القيم[1].

بينما يصنف **ستيرز** "**Steers**" الصراع حسب محتواه إلى أربع أنواع رئيسة هي: صراع الأهداف، والصراع الفكري، والصراع العاطفي، والصراع السلوكي[2]. ولو حاولنا التقريب بين التصنيفين فيمكننا وضع تقارب بين صراع القيم مع الصراع الفكري، وهذا الأخير هو المعتمد في بحثنا لما له صلة مباشرة بلب الموضوع قيد الدراسة.

فصراع القيم أو الصراع الفكري تسببه المعتقدات القيمية أو النظم العقيدية المتصورة، أو الفعلية، وذلك لعدم توافقها أو لعدم التوافق بينها، ولما كانت القيم عبارة عن معتقدات يستخدمها الأفراد لإعطاء معنى لحياتهم ، تشرح ما هو جيد أو سيئ، صواب أو خطأ، عادل أو ظالم، فإنه تنبغي الإشارة إلى أن القيم المختلفة في حد ذاتها لا تشكل صراعا، فالأفراد يمكنهم العيش معا في انسجام مع وجود نظم قيمية مختلفة . بينما الصراعات القيمية تثأر عندما يحاول أحد أطراف النزاع فرض مجموعة محددة من القيم على غيره من الأطراف، أو عندما يدعو إلى اتباع نظام قيمى محدد لا يسمح بالاختلافات العقيدية[3].

من هنا ، فإن لصراعات القيم أهمية تجعلها من أهم أنواع الصراعات، كما أنها استحوذت

---

[1]- شكلت كل هذه الأنواع بطريقة أو أخرى أسباب الصراع بين مسلمي اسبانيا والنصارى الكاثوليك، إلا أن صراع القيم قد تقدم كل هذه الأسباب من حيث أنه شكل محور الصراع في حد ذاته، حتى وإن كان يراد من ورائه تحقيق مصالح مادية أو سياسية.

[2]- خالد العمرى، المرجع السابق. ص: 10.

[3]- منير محمود بدوى، المرجع السابق. ص: 63.

على قدر كبير من اهتمامات الدارسين في مجالات علم النفس والعمليات الذهنية وذلك بهدف الربط بين حجم الصراع والسلوك المرتبط بحل الصراع. وفى هذا الصدد ، فإن فك أو حل الارتباط بين القيم والمصالح، والعمل المشترك على اكتشاف الاختلافات القيمية، والايدلوجية، والتركيز على إيجاد، واستخدام الصيغ التوفيقية والحلول الوسط تعد من أهم سبل حل الصراعات القيمية.

فالصراع الذي قام في الأندلس قبل مرحلة السقوط النهائي وبعدها كان أساسه صراع فكري ديني، حتى وإن تفاعلت معه عدة أسباب كانت مكملة له، أو مساعدة على تجسيده ميدانيا. فماهي أنواع الصراع الفكري الذي خاضه مسلمو اسبانيا ضد سياسة القمع والتنصير الإجباري، وليس ضد النصارى الإسبان في شخصهم، فالتاريخ يشهد بأنهم تعايشوا معهم لمدة ثمانية قرون دون أن يفكروا في التأسيس لصراع فكري عقدي.

**3)– أنواع الصراع**: تفيد القراءة التاريخية للصراع من خلال النصوص التي ألفها الطرفان، بأنه يتجلى عبر مستويين: أحدهما ظاهري والآخر باطني، ولكل مستوى من هذه المستويات أطرافه وأسبابه وتيماته وعلاقاته. وإذا كان تحديد مكونات المستوى الأول (الظاهري) أمر يسير، فإن تحديد مكونات المستوى الثاني (الباطني) ليست كذلك؛ فهي تحتاج أن نجتاز حدود القراءة درجة درجة، بحثا عن النفسية المنشأة للأفكار والصور للصراع الفكري بين الطرفين، مع الأخذ بعين الاعتبار أن قوى الصراع كانت غير متكافأة.

***– الصراع الظاهري**: يقوم بين الطرفين؛ جمع خلاله كل طرف لزاويته مجموعة من العناصر لتقوية جانبه نظرا لما لتلك العناصر مجتمعة من علاقات تربطها. وتشكل عناصر الجماعة

المسلمة الطرف الظاهري الأول في عملية الصراع. أما العلاقة الجامعة بين عناصر هذا الطرف فهي الجهاد والتضحية بكل صورها في سبيل البقاء على إسلامهم وفي وطنهم الذي لم يرضوا له بديلا.

في حين شكلت السلطات الإسبانية بكل مؤسساتها العناصر الأساسية للطرف الظاهري الثاني. أّما العلاقة الجامعة بين العناصر المكونة لهذا الطرف، فهي مسخ مقومات الشخصية الإسلامية للجماعة المسلمة في اسبانيا، واستغلالهم ماديا وجسديا في بناء مجدها ودولتها على حسابهم.

فالصراع الظاهري بالنسبة للطرف الاسباني، تمثل في ثلاث مؤسسات: المؤسسة السياسية التي تزعمها الملوك وكبار الشخصيات في البلاط الملكي التي أخذت تبحث في سن القوانين والتشريعات القاضية بمسخ معالم الدين الإسلامي في اسبانيا، ثم المؤسسة الدينية التي تفرعت إلى قسمين:

محاكم التحقيق التي كانت الأداة الفعالة للسهر على تطبيق هذه القوانين والمراسيم، في حين ضم القسم الثاني الكنيسة، التي سعت بكل ما لديها من وسائل لتجسيد مشروع التنصير. فالمؤسسة العسكرية حاولت فرض قوة وهيمنة السلطتين – السياسية والدينية – على هذه الأقلية التي رفضت البوتقة في المجتمع النصراني.

أما فيما يخص الطرف الإسلامي، فقد تمثل صراعها الظاهري مع قوى الظلم والاستبداد في في مختلف حركات المقاومة الإسلامية التي اندلعت مند سنة 904هـ/1499م وإلى غاية سنة 1020هـ/

1611م أي بعد صدور وتطبيق قرار الطرد النهائي من إسبانيا.

*– **الصـراع الخفـي**: يتجـاوز الصـراع الخفـي أو البـاطني، المظـاهر الصـراعية البادية علـى أرض الواقـع، لـيلامس أمـاكن أكثـر عمقـا في "ذات" وتـاريخ طـرفي الصـراع. فلـم تعـد اغتصـاب الأرض الأندلسـية مـن قبـل الإسـبان، هـي الأسـباب الحقيقيـة للصـراع، بـل إن المقاومـة بكـل أشـكالها الفكريـة والمسـلحة مـن أجـل حمايـة مقومـات شخصـيتهم الإسـلامية؛ والـتي هـزت أركـان إسبانيا الكاثوليكيـة مغيرة قـيم الباطـل بقـيم الحـق، هـي المحـرك الحقيقـي للصـراع الـدائر بـين الطرفين.

ومـن هـذا المنظـور، لم يعـد الصـراع صـراعا مـن أجـل اسـترداد الأرض المغتصـبة فحسـب، وإنمـا أصـبح اسـترددا لوظيفـة الأمـة الأندلسـية المسـلمة الحضـارية المسـتلبة واتزانهـا النفسـي الغائـب بفعـل الغـزو الاسـتلابي الصـليبي الحاقـد؛ إذ يعـد الاسـتلاب عنصـرا أساسـيا مـن العناصـر الـتي تـدخل في صـميم الوظيفـة المحتـل الغاصـب أيـن يشـكل التحريـف والحقـد والتعصـب الأعمى أبرز أعمدته.

فقـد كـان الصـراع البـاطني محاولـة مـن الطـرف المغلـوب عليـه فـرض منطقـه وتفكـيره علـى أرض الواقـع، فمسـلمو اسـبانيا حـاولوا ايجـاد سـبل ووسـائل للاحتفـاظ بالعقيـدة والـوطن معـا، ومـن أهـم مـا توصـل إليـه فكـرهم الابـداعي، اللغـة الألخميادية الـتي كانـت الضـمان الوحيـد للحفـاظ علـى المـوروث الإسـلامي وعـدم ضـياعه خاصـة بعـدما منـع اسـتعمال اللغـة العربيـة مخاطبة وتأليفا وتعليما ومعاملة، ومصادرة وحرق كل التراث الإسلامي؛ أما سلاحهم الثاني

الذي استخدموه للبقاء في وطنهم الأم الذي لم يرضوا له بديلا أسلوب التقية قولا وعملا.

## – المبحث الثاني: الصراع الفكري في إسبانيا مواصفاته ودوافعه

عندما تتغير مقاييس الزمن وتنحسر موازينه الطبيعية، يصاب المثقفون والأدباء ومنتجو الفكر بحالة من اليأس والقنوط والتراجع. وتسيطر عليهم النزعة الذاتية التي تتجاوز ساحة الصراع والمنافسة الفكرية والثقافية إلى درجة تظهر فيه روح العداوة والضغينة وتنعدم فيها أسباب الثقة وتتضخم فيها السلوكيات الخاطئة مثل الريبة والشك والتناحر الشخصي. وبذلك تضيع أخلاقية التسامح والألفة والمحبة والنقد الموضوعي البناء بين الأدباء ورجال الفكر.

**1)– مواصفات الصراع الفكري في إسبانيا الكاثوليكية:** تختلف مواصفات الصراع الفكري اختلافا كبيرا عن مواصفات الصراع الشخصي، فالصراع الفكري محوره رؤية فكرية أو توجه فكري، يقبله أفراد ويرفضه آخرون، أما الصراع الشخصي فوقوده قبول أو رفض فرد آخر (أو مجتمع آخر)، قبول وجوده في الساحة وانتمائه للمجتمع، أو رفض ذلك.

فالصراع الفكري قد يؤدي إلى نمو وتطور في الفكر، عندما يقصد الداخلون فيه البحث عن الرأي الصائب، ويتجردون من نوازع أهوائهم؛ أما الصراع الشخصي فينتج عنه تغيرات في خارطة الواقع البشري وانتماء الأفراد للفئات المختلفة، واتجاهات التغير تحكم عادة بقوة الأطراف المتصارعة، بمختلف أنواع القوة المادية والمعنوية، فالصراع الشخصي في الغالب مرتبط بمشاعر البغض والحسد وممارسات العنف والعدوان.

ومع ذلك يختلط النوعان من الصراع في كثير من المواقف، فيكون الصراع شخصيا، لكنه

يلبس لبوس الصراع الفكري، وهذا موقف حرج نحتاج فيه للموضوعية العالية التي لا نجد من يتمثلها بين الناس إلا القليل. وهذا النهج من الصراع حول الاجتهادات السياسية من أكثر ما يوقع الفتن، ويغيب القدرة على التفكير السليم، لأنه صراع حاد حول أفكار لم تعلن، ويقدم للجمهور على أنه صراع وجود، لا وقت فيه للانتظار، ومن لم يدخل فيه فهو خائن لأمته، بينما قد يكون في الواقع انعكاسا لمشاعر كراهية شخصية بين بعض الأفراد، يحملونها للمجتمع كله، ولا يهمهم أن يرهقوا أمتهم بفتن قد تدوم آثارها السيئة طويلا.

فظاهرة الاختلاف من بين الظواهر الطبيعية التي تميز سلوك الإنسان، وتجعل كل شخص مغاير للآخر في هواجسه ونوازعه وطموحاته ومصالحه، وفي سلوكه وأسلوب تعامله مع الآخرين، وفي تفاعله مع الظروف المحيطة به. ومهما كانت القواسم المشتركة بين الناس، أو الخصائص التي يمكن أن تتميز بها مجموعات بشرية معينة في إطار تاريخي أو جغرافي أو سياسي أو اجتماعي أو ثقافي أو حضاري، فإنه من الصعوبة إن لم يكن من المستحيل أن يصل التقارب إلى حد التطابق، ولو تعلق الأمر بشخصين منحدرين من مجتمع واحد، أو أسرة واحدة، وتلقيا تربية واحدة، وترعرعا داخل البيئة نفسها في ظروف مشابهة.

فيصبح الاختلاف بين الأشخاص أكثر وضوحا واتساعا، باختلاف الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، واختلاف العصور، وتباين الأجيال، كما أن اختلاف المواقع، وتباين الأهداف والمصالح، يؤدي عادة للاختلاف في تكوين الآراء، وفي صياغة الأفكار، والاختلاف في المواقف، وفي طريقة التعبير عنها.

كل هذا طبيعي ومنطقي، ولكن أن يصل الاختلاف إلى حد الخلاف، وأن يصل هذا الأخير إلى حد صراع يترجمه الاقتتال ومحاولة اقصاء الآخر وابادته لا لأمر سوى لأنه يختلف معك في العقيدة وبالتالي يختلف معك في التفكير فهذا ما ليس منطقي ولا يمكن لعقل سليم استيعابه، خاصة وهذا الآخر ظل يعيش معه لقرون طويلة.

هذا ما جسدته الحروب الصليبية التي اندلعت رحاها بين العالم النصراني والإسلامي، محاولة القضاء على هذا الأخير، بتوظيف الدين كعنصر أساسي لتحريك الساسة والعامة لخوض معركة أطلقوا عليها " تنظيف العالم من الهرطقة"؛ وعلى هذا الأساس تحركت الجيوش وأعلنتها حربا ضروس ضد الإسلام والمسلمين.

ولما فشلت هذه الحرب في تحقيق مبتغاها على أرض المشرق، أرادت الصليبية إعادة احيائها على أرض الأندلس، فقد عرفت هذه الأخيرة تعايشا سلميا بين أصحاب الديانات الثلاث . الإسلام، النصرانية واليهودية . لأكثر من ثماني قرون من الدهر في ظل الحكم الإسلامي، يمارس أتباع كل من الديانات الثلاث اليهود والنصارى والمسلمين طقوسهم وشعائرهم الدينية بكل حرية ودون تعصب.

ولكن روح الصليبية التي بدأت بدرة في الشمال الأندلسي ثم ما فتأت تنمو وتكبر إلى أن تحولت إلى قوة بعد ضعف المسلمين وتشتت وحدتهم، فقد غيرت موازين القوى السياسية والعسكرية، وأخذت تتهاوى المدن الأندلسية الواحدة تلوى الأخرى، وأخذ يتبلور في الفكر النصراني مشروع القضاء على الإسلام من على أرض الأندلس واعلانها حربا عقيدية فكرية بعد تحقيق النصر

العسكري والسياسي.

وهذا ما كان لها، فبعد القضاء على كل الامارات الإسلامية في الأندلس لم يتبق أمامها سوى غرناطة التي كانت الحجر العائق في تحقيق "مشروع الوحدة النصرانية الكاثوليكية"، ولهذا سعت جاهدة في القضاء عليها وإسقاطها إلى أن تم لها ذلك سنة 897هـ/1492م. بعدما ساهمت مجموعة من المعطيات بشكل مباشر في هذه النهاية المأسوية.

فقد سعت المبادرة الأولى، التي شاركت بها الدولة والكنيسة النصرانية الكاثوليكية، إلى استقطاب الناس الذين اعتنق أسلافهم الإسلام إلى العقيدة النصرانية الكاثوليكية، وتلت هذه المبادرة حملة تنصير المسلمين، فكانت مبنية على التنصير والمعمودية، وإذا كان مرسوم عام907هـ/1502م والقاضي بالاختيار بين التنصير أو الرحيل، فإن القوانين التي صدرت بين 916-931هـ/1511-1526م أكدت هذا الاتجاه لتشمل تحريم جميع الممارسات والطقوس الإسلامية.

ولتحقيق مشروع " النقاء الديني" لتسود النصرانية الكاثوليكية المحرفة كافة أرض الأندلس أسست السلطات الإسبانية محاكم التحقيق التي كانت أهم مؤسسة وأداة في محاربة ما اصطلح عليه تاريخيا في تلك الحقبة التاريخية بمصطلح "الهرطقة".

وبعد قرابة ثلاث قرون على إنشاء المؤسسة التي استهدفت في بداية الأمر النصارى المتهمين بالانحراف عن الطريق الصحيح تم تأسيس على عهد فرناندو وإيزابيلا محكمة تحقيق إسبانية. مهمتها الرئيسة محاربة مجموعة من "الجرائم" الدينية أو السياسية أو الأخلاقية محرمة من قبل الكنيسة الكاثوليكية وملك إسبانيا.

مع هذه المرحلة الجديدة من تاريخ الأندلس الضائعة في أيدي الصليبيين، تغيرت موازين القوى، ومعها تغيرت المعطيات على مستويات، فقد ظن المسلمون أن السلطات الاسبانية ستحترم على الأقل الديانات المخالفة لعقيدتها، ولكن ما حدث هو العكس تماما، فقد خاضت السلطات الإسبانية بكل مؤسساتها حربا ضروسا على كل ما كان يرمز للإسلام من عقيدة وطقوس. أمام هذه المستجدات الخطيرة لم يبق لمسلمي اسبانيا سوى خوض معركة، تارة تجسدت على شكل صراع فكري، وتارة أخرى تطورت على شكل مقاومة عسكرية، مثلت هذه الأخيرة هي أخرى نموذج من نماذج الصراع الذي كانت أرض الأندلس الضائعة ساحة له.

**2)– الـدوافع النفسـية والاجتماعيـة المحركـة للظـاهرة الصـراع الفكـري**: تنقسـم أسـباب الصـراع مثلمـا تنقسـم أطرافـه، إلى أسـباب ظـاهرة وأخـرى خفيـة. وإن كانـت مختلـف النصـوص التاريخيـة تـبرز الكثـير عـن الأسـباب الظـاهرة للصـراع الـدائر بـين الإسـبان بكـل مؤسسـاته والأقليـة المسـلمة، فإنـه يكتفـي بـالتلميح فقـط، عـن أسـباب الصـراع الخفيـة؛ تاركـا للباحـث المشـاركة في الكشـف عنهـا؛ مـن منطلـق أن القـراءة أي قـراءة، مـا هـي إلا نقطـة التقـاء بـين سـيكولوجيتين بالأسـاس. ولا يمكـن لهـذا الالتقـاء أن يكـون مثمـرا، مـا لم يكـن هنـاك تفاعلا بين السيكولوجيتين.

أمـا الأسـباب الخفيـة للصـراع، فإنهـا لا تكـاد تبـدو حـتى تختفـي، ولا تكـاد تختفـي حـتى تبـدو بأشـكال مختلفـة، وكـأن مـا تحملـه مـن قـدرات علـى الظهـور أقـوى مـن قـدرة المسـلم "الأندلسـي" علـى إخفائهـا. فبـين الحـين والآخـر تعلـن عـن قوتهـا وسـطوتها علـى "أنـا" وضـغطها

على ساحة شعوره ولو من بعيد، كاشفة عن مكونات نفسيته وعناصر هويته ومبتغاه من الصراع.

بناء عليه فقد حاول الساسة ورجال الدين المجتمع المدني " الفاعلون الاجتماعيون"[1] بأن هذه الحرب تعني الجميع[2]، وتبعا لذلك فكل في حدود وظيفته، مكان تواجده، مجبر على تأدية "واجبه الديني" للقضاء على أي خطر قد يزعزع أمن واستقرار اسبانيا[3] التي كانت طيلة ثمانية قرون دولة مسلمة.

وأمام هذه التطورات الخطيرة ما كان على مسلمي اسبانيا سوى خوض صراع أقحموا فيه اقحاما بالرغم من أنهم حاولوا التعايش مع الوضع الجديد بعد سقوط غرناطة وتقبل الأمر الواقع، إلا أن الحرب التي أعلنت ضد مقومات شخصيتهم الإسلامية أجبرتهم على خوض صراع طويل، فماهي مسبباته النفسية والاجتماعية بعدما تعرفنا في الفصل الأول على الأسباب السياسية والعسكرية.

---

[1] – **الفاعلون الاجتماعيون**: مصطلح سوسيولوجي يعني البشر بكل بساطة، أو أفراد المجتمع، وككل المصطلحات السوسيولوجية، فإنه يبدو جافا موضوعيا، ومعلوم أن البشر يتنافسون على شيئين أساسين هما المال والسلطة أو المعنى فعل الخير والشر فالإنسان يتنازعه دافعان: دافع القوة والتوسع والتسلط على الآخرين، ودافع المحبة وفعل الخير وزيادة المعنى الابداعي أو الأخلاقي في هذا الوجود؛ وبالتالي فهناك صراع على مدار التاريخ بين إرادة القوة والتسلط، وإرادة المعنى؛ وأحيانا تتغلب هذه على تلك وأحيانا أخرى يحصل العكس. ينظر: محمد أركون، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، تر: هاشم صالح، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، د ط، د س ط. ص 28.

[2] – لعبت الأديان ومؤسساتها وسلطاتها، أدوارا عديدة في المجالين العام والخاص، فتوظف الدين في العمليات السياسية، كما تستخدم لأداء وظائف عديدة في الشرعية السياسية والتبرير للخطاب السياسي لبعض الحكام، ودعم سياساتها الاجتماعية وقراراتها، وبشكل مكونا مهما في سياستها الخارجية أيا كانت دوائر اهتماماتها ومجالاتها. ينظر: . يوسف شلحت، المصدر السابق. ص: 186.

[3] – برزت مشكلة إدارة التعددية الدينية والثقافية للشعب الذي وضع تحت سيادة المملكة؛ إذ لم تنحصر هذه المسألة على إسبانيا فقط، بل تميزت هذه الحقبة بسقوط الإمبراطورية البيزنطية وتوسع الخلافة العثمانية التي مثلت الذرع الحامي للإسلام والمسلمين في منطقة البحر الأبيض المتوسط، على وجه الخصوص، والعالم الإسلامي عموما. وأمام هذا الزحف الإسلامي عبر الملوك الذين تداولوا عن رغبتهم في الوحدة والنقاوة الدينية التي كانت تبدو لهم أساسية من الناحية الزمنية والروحية، حيث كان من المستحيل آنذاك، الفصل بين الحكم السياسي والديني، وهو ما يعني عدم البحث عن الروح المشاركة بين الديانات، فالنصرانية كانت تحارب ما أسمته "الهرطقة" سواء كانت يهودية أو مسلمة أو بروتستانتية.

* – **الـدافع السـيكولوجي**: مـن بـين المـؤهلات الـتي يجـب الإلمـام بهـا في هـذا المجـال الاطـلاع علـى منشـأ وأسـس ومنطلقـات النظريـة السـيكولوجية وتتبـع مختلـف التطـورات والتنقيحـات الـتي مـرت بهـا خـلال مقاربتهـا لظـاهرة الصـراع، والتوقـف عنـد أهـم الملاحظـات والاسـتنتاجات المسـجلة عليهـا مـن قبـل البـاحثين أيضـا. لنسـتطيع بعـد ذلـك، اتخـاذ المسـار الذي يرتضيه الموضوع قيد الدراسة.

ولا يخـرج الحـديث عـن الصـراع وآلياتـه النفسـية بـين المسـلمين والنصـارى الكاثوليـك في اسـبانيا خـلال القـرنيين العاشـر والحـادي عشـر هجـري الموافـق لقـرنيين السـادس والسـابع عشـر ميلاديـين، عـن المقتضـيات السـابقة أي معرفـة كشـوفات علـم الـنفس فيمـا يخـص فكـرة "الصـراع" عمومـا، ومعرفـة تمظهراتهـا عنـد الطـرفين بشـكل عـام وكيفيـات تجليهـا في ممارسـتهم اليومية.

وينصـب اهتمـام النظريـة السـيكولوجية، في تعاملهـا مـع الظـاهرة تحلـيلا ونقـدا "علـى الـدلالات الباطنيـة في موقـف كـل طـرف والـذي سـيتأثّر بطريقـة مباشـرة بالعقـل البـاطن عنـدهما أكثـر مـن تـأثره بعقلـه الـواعي. وتفيـد النظـرة الشـمولية لإنجازاتهـا، في إمكانيـة حصـرها في ثـلاث اتجاهـات رئيسـة تعامـل كـل اتجـاه مـع الظـاهرة، بكيفيـة خاصـة بـه دون أن يقطـع مـع بقيـة الاتجاهات.

وبهـذا ينبـني التحليـل النفسـي للظـاهرة عنـد علمـاء الـنفس والاجتمـاع، علـى اعتبـار "المعـنى بنيـة رمزيـة حافلـة بأبعـاد رغـم تعميتهـا وتحريفهـا". وبالتـالي يصـبح مـن المهـم علـى المحلـل

أن يضع في حسابه، أن كل شيء يمكن أن يكون رمزا. وفك شفرات تلك الرموز لا يكون إلا بالرجوع إلى خصوصيات الفكر لدى كل طرف والنبش في مكونات شخصيته، للوصول إلى تركيبة دوافع "الصراع" لديه، الكامنة في عالم "اللاشعور"[1].

فينطلق من رؤية تحدد الإبداع في ثلاث عوامل هي: الوسط الاجتماعي وتاريخه وشخصية المبدع واللغة وتاريخها، وعليه فيجب أن نقيم أن الصراع الخفي الذي كان دائرا بين الطرفين تمثل في ذلك الانتاج الابداعي الذي خلفه مسلمو اسبانيا للتعريف بتوجهاتهم وطريقة تفكيرهم وعليه يجب علينا تقييم هذا الانتاج من حيث:

*- ارتياد عالم النص الألخميادي باعتباره ظاهرة أدبية ولغوية وليس كوثيقة معرفية.

*- التنقيب في عتمة لاشعور المبدع عن العناصر المكونة للأثر الابداعي وفيما اختاره من عبارات وأفكار تمثّل– في الحقيقة- الجانب اللاواعي من حياته الخفية؛ التي تقودنا إلى الصور الأسطورية والحالات المأساوية والباطنية التي انطلق منها الأثر الابداعي.

إن فموضوع الصراع وآلياته من خلال الأعمال الأدبية، من المواضيع الأساسية في النظرية السيكولوجية عموما، إلا أن منجزات "النقد نفسي" وما حققه على المستويين النظري والتطبيقي ووضعه التحليل النفسي في خدمة النصوص لا العكس جعل هذه الدراسة تختار مقولاته وتصوراته في دراسة الصراع الفكري بين الإسلام والنصرانية في اسبانيا وفق العناصر التالية:

[1]- زين الدين المختاري، المدخل إلى نظرية النقد النفسي، د ب ن: منشورات اتحاد الكتاب العرب، د ط، 1998م. ص:17.

1- تجليات الصراع وعناصره من خلال ما خلفه مسلمو اسبانيا من انتاج أدبي، وما كتبه الاسبان في هذا المنظور.

2- الآليات النفسية للصراع ودلالاتها في هذا الانتاج.

3 ـ لا تقتصر دراسة النص الألخميادو على تحليل الأثر تحليلا شكليا ولغويا ولا على تحليله تحليلا نفسيا، وإنما بتأسيس وحدة بين التحليلين. وذلك بالبحث في الصلة بين جوانب النفس اللاشعورية للشخصية المبدعة – من جهة- والشبكة الدلالية في العمل الإبداعي من جهة أخرى.

إذا كان المقام لا يتسع للحديث عن العلاقة بين التاريخ والأدب أو عن علاقة الصراع الإنساني بالفن عبر التاريخ بعبارة أدق، فإنه لن يضيق في وجه البحث عن العلاقة بين الابداع الفكري واللحظة التاريخية التي ولد من رحمها وكذا علاقته باللحظة الخافية للصراع؛ التي تضرب بجذورها في عمق "المطموس"؛ الذي تريد إثبات فعاليته في حلبة الصراع الدائر بين الأمة المسلمة الشهيدة والاسبان في حقبة من حقب التاريخ الحديث.

وإذا كانت عملية القبض على اللحظة التاريخية التي ولدت النص الألخميادي أمرا يسيرا، لأنها مرسومة في "التصدير" الذي وشى به مبدعو هذا الانتاج، فإن القبض على اللحظة الخافية يستوجب النبش في مكونات الجماعة المسلمة النفسية وفي لا شعورها الجمعي بالخصوص.

*– **الدوافع الاجتماعية**: يسعى السلوك الفعلي لأي فرد في المجتمع للعمل على حل المشكلة في ضوء التطور الذي حدده كل طرف؛ وتتضمن هذه المرحلة التكتيك المستخدم من كل طرف

لإيجاد مخرجا. وخلال هذه المراحل يحاول كل طرف اظهار آلية دفاعية للتعبير عن عدم رضاه، من خلال جلب الانتباه والتبرير والتعويض والاسقاط والعزل والعودة للماضي، والضغط ، والتخيل، والسلبية، والبحث عن طرف يحمله المسؤولية.

فالفعل الاجتماعي هو صورة للسلوك الإنساني. ويكون فعلا عندما يخصص الفرد معنى ذاتي معين لسلوكه؛ والفعل يصبح اجتماعيا عندما يرتبط المعنى المعطى لهذا الفعل بواسطة الفرد، بسلوك الأفراد الآخرين ويكون موجها نحو سلوكهم[1]. ووفقا لهذا المنظور يجب فهم السلوك الاجتماعي أو الظاهرة الاجتماعية على مستويين، المستوى الأول أن نفهم الفعل الاجتماعي على مستوى المعنى للأفراد أنفسهم .أما المستوى الثاني فهو فهم هذا الفعل الاجتماعي على المستوى الجمعي بين جماعات الأفراد وفهم دوافعهم ونواياهم.

فقد وصف بعض نتائج الصراع الاجتماعي حيث قرر أنه كلما كانت أهداف الأطراف المتنازعة غير محددة طالت عملية الصراع الاجتماعي، وكلما كان الصراع حادا وعنيفا كانت الجماعات المتصارعة بالغة التحديد والوضوح. وكلما تزايدت حدة الصراع، تزداد تضامن كل طرف اجتماعي من الأطراف المتصارعة لأن كل طرف يشعر بأن مصيره واحد ومشترك[2]. يتعرض لقمع فكري ونفسي يجعله مغتربا عن ذاته وعن حقيقة الواقع الذي يعيش فيه، ومغتربا حتى عن وعيه عن هذا الواقع، وبالقولبة الفكرية التي يتعرض لها ليكون مستوعبا داخل النظام.

---

[1]-سمير نعيم أحمد، النظرية في علم الاجتماع، القاهرة: دار المعارف، ط:3، 1982 م. ص: 112.

2- المرجع نفسه. ص: 113.

فالسلطات السياسة والدينية الإسبانية لم تدخر أي جهد أو وسيلة في تحقير كل المقومات الدينية والثقافية الإسلامية والمساس بكل ما هو مقدس؛ فقد فرضوا على المسلمين حربا اعتمدت على منطق التغيير الخارجي ليأتي بعده التغيير الداخلي، اذا هي حرب تقوم على فرض السيطرة على الأرض بالجيوش وفرض الولاء والتبعية بالقوة وباستخدام العنف كمرحلة مبدئية وتكون بعدها المرحلة الثانية وهي التغيير الذاتي للفرد كتغيير ثقافته وعقيدته وأفكاره لتكون ملائمة لهم.

فقد تعرض الإنسان المسلم في اسبانيا لقمع فكري ونفسي جعله مغتربا عن ذاته وعن حقيقة الواقع الذي يعيش فيه، ومغتربا حتى عن وعيه عن هذا الواقع، وبالقولبة الفكرية التي يتعرض لها ليكون مستوعبا داخل النظام؛ أمام كل هذه التناقضات لم يكن أمامه من وسيلة للتعبير عن رفضه لهذه السياسة إلا خوض الصراع الذي فرض عليه في معركة البقاء.

إن الصراع لدى الجماعة المسلمة في اسبانيا خلل القرنين العاشر والحادي عشر هجريين الموافق للقرنيين السادس والسابع عشر ميلاديين في مرحلته التاريخية هذه التي يمثّلها، ليست بين غاصب للأرض والدين، والعرض والمال فحسب؛ وإنما هو صراع متصل الحلقات بين الصليب النصراني المحرف الحاقد، والتعاليم الإسلامية السمحاء. إنه الصراع الأزلي بين الإسلام والنصرانية المحرفة، بمعنى صراع بين الحق والباطل والإيمان والكفر.

لقد عاش مسلمو إسبانيا ارهابا فكريا وتصفية جسدية طبقتهما عليهم السلطات الإسبانية بكل مؤسساتها، هذه الأخيرة عملت جاهدة على طمس لاشعوره الجمعي وهدم رموزه المقدسة. وقد أدرك مسلمو إسبانيا ذلك مبكرا، فاندفعوا محاولين الوصول إلى توازن جديد

يعيد للمجتمع دوره الحضاري المعطل وحقوقه الشرعية المستلبة. وسجلوا ذلك على امتداد مشوارهم النضالي عموما والأدبي بشكل خاص.

وتشير البحوث العلمية إلى أن أي شخصية ثقافية تواجه تحديات مصيرية ترد على التحدي عن طريق الإلحاح على مكوناتها الأساسية. هذه الأخيرة جمعت عنصرين "الدين" و"اللغة"[1]. وبالفعل فعنصر "الدين" مكن مسلمو إسبانيا من مواجهة الاندماج في الثقافة النصرانية بكل مقوماتها، حتى وإن تأثر بها بعض الشيء ليس بحكم الاقتناع بها، ولكن بحكم مجاورتها مدة أكثر من ثماني قرون من الزمن، ونظنها ليست بالمدة القصيرة؛ فالدين الإسلامي شكل قوة إسناد فعالة في تلك المواجهة.

كما أن اللغة كانت عاملا قويا في الحفاظ على مقوماتهم الإسلامية، هذا ما تفطنت إليه السلطات الإسبانية، فسارعت إلى منعها، والقضاء على كل وسيلة يمكن عبرها إحياءها، إلا أن مسلمي اسبانيا كانت لهم كلمتهم في ذلك، فلم يبقوا مكتوفي الأيدي أمام هذا المسخ الثقافي، بل واجهوه، فأبدعوا في ابتكار لغة تحاور وتعامل جديدة، ألا وهي اللغة الألخميادية.

لقد كانت هذه اللغة وسيلتهم في ابراز موقفهم الإبداعي في أحلك الظروف وأصعبها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى رمزا من رموز الرفض القطعي والجازم لكل ما هو إسباني على وجه الخصوص، والنصراني عموما.

[1]- خالدة سعيد، حركية الإبداع، بيروت: باب العودة، ط: 2، 1982م. ص:19.

بعد عملية البحث في أسباب وأنواع الصراع الإسلامي النصراني الكاثوليكي في إسبانيا خلال القرنيين العاشر والحادي عشر ميلاديين الموافق للقرنيين السادس والسابع عشر ميلاديين يمكن تسجيل النتائج التالية:

ـ بقيت الأمة الأندلسية الشهيدة أو ما تبقى منها في ظل كل تلك الظروف القهرية والصعبة مسلمة وعربية، بكل القيم التي تحملها العروبة والإسلام عبر الأزمان. وقد ساعدتها خواصها الذاتية الفريدة كالنفس الطويل والقدرة على الإبانة وفهم الواقع، القدرة على التحدي، قوة الإرادة، إرادة القوة، إرادة الإبداع والابتكار، نقد الآخرين واكتشاف العلاقات الدقيقة على تطوير آلياتها الابداعية وترجمة مطالبها وحاجاتها النفسية والاجتماعية على شكل صراع فكري وعقائدي اتخذت له وسائل وطرق شتى.

– كانت الأزمات والمحن التي مر بها مسلمو إسبانيا، اختبارات حقيقية شحذت همتهم وضبطت نفسيتهم وحددت مساراتها النضالية والإبداعية أيضا.

– إن العملية الإبداعية لا تتم في الواقع الموضوعي، بل تتم في دخيلة المبدع أي في نفسيته وعقله ثم تجد لها ترجمة في الواقع الموضوعي.

– ينبني الانتاج الفكري على موضوع مصارعة المحتل المغتصب. وهو الموضوع الذي تسري بين بنياته مكونة الأيديولوجيا التي تؤثّث جميع مفاصله وتهيمن على جميع أرجائه. فسواء إن انطلقنا من العنوان الرئيس أو من العناوين الفرعية، فإنه بالإمكان مصادفة طابع الصراع والمطارحة والاحتجاج. بيد أنه بإمكان أي باحث؛ من خلال وقوفه عند المطابقات والمقابلات وغيرهما في الانتاج

الألخميادي، أن يدرك بأنه لم يأت صياغة أو تنميقا، وإنما كان تغذية راجعة لثقافة مرحلة تاريخية بأكملها؛ مورس فيها الصراع على الجماعة المسلمة في اسبانيا، فانعكس ذلك على انتاجهم الفكري.

# الفصل الثاني:

# التقية رمز من رموز المقاومة

## المبحث الأول: التقية بين اعتقاد شيعي وممارسات مسلمي اسبانيا

### 1)- التقية مدلوله اللغوي والتاريخي

### 2)- حركة التشيع في بلاد الأندلس رؤية تاريخية

## المبحث الثاني: مظاهر التشيع في اسبانيا بعد سقوط الحكم الإسلامي

### 1)- قنوات التشيع في بلاد الأندلس

### 2)- موقف مسلمو إسبانيا من التشيع

## المبحث الثالث: التقية عند مسلمي اسبانيا بين الشرع والمعتقدات الشيعية

### 1)-الدواعي السياسية والدينية والنفسية لتبني مبدأ التقية

### 2)- تقية مسلمي اسبانيا في ميزان الشرع

تنتج مختلف الحضارات تصورات عن نفسها، وتجهد في تأسيسها وتدعيمها، بحثا عن الوحدة والتطابق، ونفيا لكل تعدد واختلاف وإذ تجاهلت هذه الحضارات ذلك، فإنها تضطر داخل ثقافتها وبواسطتها، إلى تشكيل تصورات مختلفة عن الحضارات الأخرى خصوصا تلك التي تدخل في صراع معها وتروم تقويضها والقضاء عليها.

ولا عجب في ذلك، فلا يمكن لأي حضارة أن تكتشف خصوصياتها وأن تهتم بتأسيسها، إلا عبر ملاحظة اختلافات ربيبتها وملاحقتها باستمرار أي إلى الدخول معها فيما يسمى بالصراع الحضاري ومن المعروف كذلك، أن هذا الصراع يستلزم مما يستلزمه بالضرورة إبداع استراتيجيات للتعبير عنه ومواكبته.

وإذا أجبر مسلمو اسبانيا على العيش في إسبانيا، بوصفهم أقلية دينية واضحة أو متسترة داخل نصرانية يتظاهرون باقتسامها مع أعدائهم، فلقد اضطروا إلى رفع هذا التحدي الذي فرض عليهم، والاستجابة للمبدأ الناظم لحضارتهم، الذي هو الدين الإسلامي كما اضطروا تبعا لذلك إلى اتباع سبلا ووسائل للتعبير عن هذا الصراع وتأجيجه ومتابعته.

فكما هو معروف أن لكل قوة اجتماعية، لابد لها من التعبير السياسي عن نفسها، ولا بد لها من استراتيجية شاملة تناسب حجم مصالحها، سواء في مجالها الداخلي أو الخارجي، هذا ما يتطلب الحضور الدائم في الزمان والمكان؛ هذه الاستراتيجية هي التي سوف تكشف، وتعكس المراحل الأكثر أهمية في حياة هذه القوة، مثل حركة التحولات الهائلة التي تؤشر على الانتقال من عصر إلى عصر، ومن حضارة إلى أخرى، إنها المرآة التي يرى فيها الناس أنفسهم، ويقرؤون أفكارهم وأحلامهم

وطموحاتهم؛ ويحاولون من خلالها ايصال رسالة إلى محيطهم الداخلي والخارجي معا.

انطلاقا مما ذكر أعلاه فكان على مسلمي اسبانيا من البحث عن وسائل وسبل تمكنهم من البقاء دائما في حالة مقاومة وصراع مع قوة اعتبرت نفسها هي المسير والمقرر لمصير هؤلاء. ومن بين الاستراتيجيات التي اتبعها مسلمو اسبانيا في رفضهم لكل ما هو نصراني اتباع أسلوب التقية؛ هذه الاستراتيجية لم تكن لتطبق لولا الفتوى التي أصدرها أحد أئمة العصر المدعو أبو جمعة المغرواي.

فالمحور الأساسي الذي سنقف عليه من خلال عرض هذه الجزئية من البحث هو الإجابة على بعض التساؤلات على أنه يجب الإشارة إلى أن معظم الباحثين تناولوا هذا الموضوع بسطحية، فكان التعامل معه في سياق طرحهم للأحداث التاريخية، ولم يخصصوا أو يفردوا له دراسة مستقلة ماعدا تلك التي أنجزها جمال يحياوي في مرجعه الموسوم بـ " سقوط غرناطة ومأساة الأندلسيين"، إذ خصص لها ثماني صفحات من بحثه.

ومن أهم التساؤلات التي سوف نحاول الإجابة عليها نذكر: هل مبدأ التقية الذي طبقه مسلمو اسبانيا هو نفسه ذلك الذي اتبعته الشيعة بحكم أن هؤلاء عرفوا عبر التاريخ بممارستهم له. وهل تبنيهم لمبدأ التقية كانت مبادرة من تلقاء أنفسهم اقتضها الظروف المحيطة بهم؟ وإلى أي حد نجح هؤلاء المضطهدين في المحافظة على مقومات شخصيتهم الإسلامية في ظل المراقبة المستمرة لعمال محاكم التحقيق؟

## المبحث الأول: مبدأ التقية بين اعتقاد شيعي وممارسات مسلمي اسبانيا

لعل الظاهرة التي استقطبت معظم الباحثين عند دراستهم لمظاهر الحياة اليومية لمسلمي إسبانيا

هي أسلوبهم في الحفاظ على دينهم بإظهار النصرانية وإبطان الإسلام، فكانت التقية ثمرة لتلك الهجرة أمام أساليب التمزيق والتفريق التي اتبعتها السطات الكنسية والرسمية في اسبانيا وهي تجربة فريدة من نوعها، إذا حاولنا قياسها بألوان الاضطهاد والعنصرية والتطهير العرقي الذي مارسته السلطات الإسبانية الدينية والسياسية؛ ولا شك أن محنتهم هذه مازالت تؤرق الضمائر الحية التي حاولت تقديم حقائق الصراعات الدينية والاجتماعية، وأسبابها العميقة.

فمن خلال هذا المبحث سنحاول الإجابة على سؤال جوهري ومهم يكمن في هل التقية التي يعتقدها الشيعة هي نفسها تلك التي مارسها مسلمو اسبانيا؟ وإن كان كذلك فهل كان للتشيع مكانا في بلاد الأندلس، وفي نفوس الأندلسيين قبل وبعد السقوط؟ على ضوء ما جادت به مجموعة المصادر والمراجع المستعملة في هذه الجزئية سنحاول الإجابة على هذه الإشكالية، مشيرين في سياق ذاته أنه ستكون لنا الكثير من المحطات سوف نعتمد فيها على التحليل الشخصي والاستنباط العلمي.

**1)– التقية مدلولها اللغوي والتاريخي**: دائما ما نجد مبدأ التقية متصلا اتصالا مباشرا ومرتبطا ارتباطا وثيقا بالشيعة، ذلك أنها كانت أكثر الفرق الإسلامية ممارسة لها، وتعتبرها من مبادئها الأساسية. فقد صرح بذلك الشيخ محمد رضا المظفر في قوله بأن التقية هي شعار آل البيت دفعا عنهم وعن أتباعهم وحقنا للدماء. ويحددون لها أحكاما من حيث الوجوب، وذلك حسبما تقتضيه مواقع الضرر والخوف.

***– المدلول اللغوي لمصطلح التقية**: التقية هي الحذر من إظهار ما في النفس من معتقد

وغيره للغير، كما يمكن القول بأن التقية عند أهل السنة هو إظهار المسلم لبعض الأقوال والأفعال الموافقة لأهل الكفر أو الجارية على سبلهم إذا اضطر إلى ذلك من أجل اجتناب شرهم مع ثبات القلب على إنكار موافقتهم وبغضها والسعي لدفع الحاجة إليها، فالتقية إذن من خلال هذا المنظور هي إظهار الكفر وإبطان الإيمان وذلك عند خوف المسلم على نفسه من الكفار والمشركين.

وأصل هذه الكلمة من وقى، "ووقيت الشيئ، بمعنى صنعه وستره، واتقيت الشيئ وتقيته وأتقيته تقي وتقاء: حذرته"[1] والاسم التقوى والتقية بمعنى واحد. أما اصطلاحا فقد ورد مصطلح التقية في القرآن الكريم، كما نجد توظيف هذه المصطلح في العديد من الأحاديث النبوية. ومن بين الآيات التي أشار الله إلى التقية بصورة مباشرة نذكر قوله عز وجل في محكم تنزيله: {**لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء إلاّ أن تتقوا منهم تقاة، ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير**}[2].

من خلال هذه الآية نهى الله سبحانه وتبارك عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين، وأن يتخذونهم أولياء يسرون إليهم بالمودة من دون المؤمنين[3]، ثم توعد على ذلك كل من يخالف أمره في قوله عز من قائل: "**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا**"[4].

وقوله تعالى في :{**إلا أن تتقوا منهم تقاة**}[5] أي من خاف في بعض البلدان أو الأوقات من

---

[1]- ابن منظور، المصدر السابق. ص ص: 401، 402.

[2]- سورة آل عمران، الآية رقم: 28.

[3]- ابن كثير، المصدر السابق، ج: 1. ص: 349.

[4]- سورة النساء، الآية رقم: 144.

[5]- سورة آل عمران، الآية رقم: 28.

شرهم، فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته[1].

هذا فيما يخص استعمال المصطلح في القرآن الكريم بصورة مباشرة، أما فيما يخص استعمال مدلوله الشرعي وليس اللفظي فقد ورد في قوله عز وجل في محكم تنزيله: "من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم"[2]. وقد نزلت الآية الكريمة في مسألة الصحابي الجليل رضي الله عنه عمار بن ياسر، إذ طمأن الله تعالى إنه كل من كفر بلسانه ووافق الكفار بلفظه مكرها، لما ناله من أذى وعذاب، وقلبه يأبى ما يلفظه فليس عليه حرج ولا مأخذ[3].

وخلاصة لكل ما قيل أعلاه أن المؤمن يلجأ إلى استعمال التقية إذا وقع في محل لا يمكن أن يظهر دينه، ولا يؤمن فيه على نفسه أو عرضه أو ماله من شر الأعداء، وفي حالة استمرار الوضع لفترة زمنية طويلة، فيصبح الأمر يشكل خطورة على عقيدة المؤمن فعليه الهجرة والرحيل إلى مكان يقدر فيه على إظهار دينه؛ من هذا المنطلق فأسلوب التقية هو موقف مؤقت محدود بفترة زمنية، ولا يمكن اتخاذه كبديل لمسايرة الأوضاع.

كما ورد استعمال مصطلح التقية في الكثير من الأحاديث النبوية، مثال ذلك ما رواه الديلمي عن الرسول صلى الله عليه وسلم:" **إن الله أمرني بمداراة الناس كما أمرني بإقامة الفرائض" وأيضا قوله صلى الله عليه وسلم عن أبي الدرداء:" إنا لنكشر في وجوه أقوام وقلوبنا**

---

[1]- ابن كثير، المصدر السابق. ص: 350.

[2]-سورة النحل، الآية رقم: 106.

[3]- المصدر السابق، ج: 4. ص: 350.

**تلعنهم**". هذا فيما يخص استعمال المصطلح بطريقة غير مباشرة أي بمدلوله الشرعي. أما فيما يخص الإشارة إلى المصطلح بصورة مباشرة فنجده في قوله صلى الله عليه وسلم عن ابن عباس:" **ليس التقية بالعمل وإنما التقية باللسان**"[1].

وهذه جملة من الأحاديث النبوية الشريفة كلها حول التقية، غير الذي ينبغي الإشارة إليه أنه لا يمكن ممارسة التقية لمس الدين بسوء ولا يسمح أيضا بارتكاب المعاصي باسم التقية[2]. وانطلاقا من هذه الآيات والأحاديث فيمكن للمؤمن استعمال التقية إذا ما عايش خطرا على حياته.

*– **مدلولها التاريخي**: إن استعمال مبدأ التقية أو إخفاء المعتقد خوفا من خطر أو ضرر عرفه المسلمون منذ البذرة الأولى لظهور الدين الإسلامي، ذلك أن طبيعته في محاربة قوى الشر جعلته يصطدم بأعداء الله على حد تعبير القرآن الكريم. الموقف نفسه عاشه مسلمو اسبانيا، فهل تطبيق هؤلاء لمبدأ التقية كان اقتداء برسول الأمة محمد صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام، أم كان تقليدا لما عرفه بعض الحركات السياسية والدينية على مدى التاريخ الإسلامي للأمة؟.

كانت المرحلة الأولى لبداية الدعوة الإسلامية بداية سرية، فقد لجأ المسلمون إلى استعمال التقية كلما حلت عليهم المصائب؛ فرسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم كان يلتقي بجماعته سرا في شعاب مكة يتدارسون كتاب الله خوفا من أعين قادة الكفر من أمثال عتبة وأبي لهب. فقد

---

[1]– ابن كثير، المصدر السابق، ج: 1. ص: 350.

[2]– توالت مظاهر هذا النوع من التستر من طرف جماعات مختلفة أيام الخلافة الراشدة، منها ما كان معارضا للسلطة القائمة كالسبئيين وأتباعهم، فابن سبأ الذي أسلم ظاهريا أيام خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه كان يتظاهر بالإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويخفي بداخله حقدا على كل ما يتصل أو يرمز إلى الإسلام سلطة ودينا، وذلك حتى يتمكن من اغتيال الخليفة وبث بدور الفتنة، فهذا المظهر من مظاهر التستر منهي عليه شرعا.

امتازت هذه المرحلة بعدم تكافؤ القوى بين قريش وأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، مما دفعهم إلى الاحتياط والكتمان والتستر على عقيدتهم، ولم ينتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المرحلة العلنية إلا بعد أن تقوت شوكتهم وزاد عددهم.

والعلويون أيضا كان لهم باع طويل في إخفاء أفكارهم؛ فهذه الفئة مند اجتماع السقيفة قبلت ظاهريا بخلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، بينما بداخلها كانت تدين بالولاء للإمام علي رضي الله عنه، وكانت تصفح عن هذه الفكرة كلما سمحت الظروف بذلك.

وعند محاولة اسقاط الخلافة الأموية مورست التقية كأسلوب ناجح لإخفاء أفكار الشيعة، وبفضل هذا التنظيم السري تمكنوا من اسقاط الحكم الأموي سنة 132هـ/750م، فأصبحت بذلك التقية عقيدة من عقائد الشيعة، على أن هذه الحركة بدأت كحركة سياسية ثم تحولت مع تطور الأحداث التاريخية إلى حركة دينية. كما استعمل الشيعة مبدأ التقية ليس في بلد المشرق فقط، ولكن كان استعماله في كل مكان وزمان، ومن النماذج التي احتفظت لنا بها الروايات التاريخية تأسيس لدولتهم في بلاد المغرب بالرغم من أن بذورها وتأسيسها وتطورها كان في بلاد المشرق.

**2)– حركة التشيع في بلاد الأندلس رؤية تاريخية:** أخذت ضربات الأحزاب المعارضة من الشيعة والخوارج تتزايد على بني أمية حتى انتهت بسقوط دولتهم سنة 132هـ/749م، وظن الشيعة العلويون أن الدولة أصبحت لهم، ولكن خاب ظنهم حين قبض أبناء عمومتهم من بني العباس على ناصية الأمر وجعلوا الخلافة في بيتهم، وعاد الشيعة مرة أخرى إلى نشاطهم كحزب معارض.

أما العباسيون فإنهم بدافع الانتقام من بني أمية نكلوا بمن بقى تنكيلا شديدا حتى اضطروهم

أن يتخفوا أو يهربوا إلى أقاصي الأرض. وكان ممن هرب من مطاردة العباسيين[1] عبد الرحمن[2] بن معاوية[3] بن هشام الذي هرب إلى الأندلس مدفوعا بعاملين: الأول بعدها عن مركز الخلافة العباسية في المشرق[4] والثاني كثرة موالي الأمويين بها، واستطاع أن يؤسس في قرطبة إمارة مستقلة[5]، وقد حفز نجاحه في ذلك كثيرا من الأمويين على أن يهاجروا إلى الأندلس، وكان عبد الرحمن يعهد إليهم بأرقى المناصب، وهكذا رسخت أقدام الأمويين في الأندلس.

فالأندلس منذ أن فتحت كانت أموية النزعة ولهذا فقد بدأ التشيع فيها ضعيفا. وقد استغرق عبد الرحمن الداخل طول مدة إمارته (138–172هـ/756–788م) في إخماد الثورات التي قامت ضده وعني بشكل خاص بأن يضرب بيد من حديد على كل دعوة عباسية كانت أو علوية. وقد وجد في الأندلس رغم اتجاهها الأموي القوي مركزان للتشيع كانا مصدرا لحركات مسلحة:

---

[1]– **الدولة العباسية**: سقطت الخلافة الأموية في المشرق على يد العباسيين سنة 132هـ/750م، وقد ساهمت عدة معطيات في نجاح حركتهم هذه من أهمها زعامة الثورة، الشعارات التي بنت عليها الحركة وتمثلت في المساواة والإمامة إلى آل البيت والإصلاح. ينظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مر

[2]– **عبد الرحمان**: هو عبد الرحمان بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الأموي، ويعرف باسم عبد الرحمان الداخل. ولد في دمشق سنة 113هـ/ 731م ونشأ بها. ترعرع في بيئة مهدت له أن يكون شخصا مميزا. كان تقيا، راجح العقل، واسع العلم، حافظا للقرآن والحديث. كما عرف بفصاحته إذ كان يجيد الشعر وكتابته. ينظر: أبو راس بن ناصر محمد، الخبر المعرب عن الأمر المغرب والحال بالأندلس وثغور المغرب، د مط، د ط، 1386 هـ/1966م. ص: 12.

[3]– **معاوية**: هو معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد الشمس بن عبد مناف بن قصي الأموي ( 41–60هـ/680–661 م)،أسلم يوم فتح مكة، كان من المؤلفة قلوبهم. عرف بدهائه وحلمه. ينظر : السيوطي جلال الدين، تاريخ الخلفاء، تن وتح: الحلبي محمود رياض، بيروت: دار المعرفة، ط: 4، 1420هـ/ 1999م. ص : 173.

[4]– كان خليفة المسلمين آنذاك هو أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء العباسيين الذي طمع في استرداد الأندلس واعادتها إلى الخلافة العباسية كما كان الحال من قبل.

[5]– حرص عبد الرحمن الداخل على جعل قرطبة صورة من دمشق في منازلها البيضاء ذات الأحواش الداخلية، المزينة بالأزهار والورود ونافرات المياه؛ كما بنى في شمال غرب قرطبة قصرا على سفح جبل قرطبة سماه قصر الرصافة محاكيا في ذلك قصر جده هشام بن عبد الملك الذي بناه خارج دمشق في بادية الشام. والواقع أن موقع قرطبة يشبه إلى حد كبير موقع دمشق؛ فدمشق تقع على الضفة اليسرى لنهر بردى، وقرطبة تقع على الضفة اليسرى لنهر الوادي الكبير. ينظر: أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، د ط، 1978م. ص ص: 108،109.

**الأول:** بين البيوت العربية[1] التي دخلت الأندلس[2]، وكانت تدين بنصرة آل علي من قبل فظلت فيها هذه النزعة متوارثة.

**والثاني:** بين القبائل البربرية[3]. والمركز الثاني للتشيع ـ وهو الأهم ـ هو القبائل البربرية، وذلك أن التشيع منذ نشأته اتخذ صبغة مضادة للعرب وللعصبية العربية، وكما أن التشيع في المشرق قام عليه الموالى من الفرس فكذلك في المغرب قام عليه الموالى من البربر.

لهذا فقد كانت بلاد المغرب تربة خصبة للـــدعوة الشيعية[4]، وقد تردد صـــدى التشيع في الأندلس لأول مرة بين صفوف البربر الذين استقروا في الأندلس، هؤلاء استوطنوا أغلب المناطق الجبلية والهضاب المرتفعة لا سيما الممتدة في وسط الأندلس[5]، وهي المنطقة التي كانت تعرف «بالجوف» وكذلك المناطق الجبلية في الجنوب الشرقي في كورة البيرة، وهذا هو ما ترك لهم السادة

---

1- لقد كان المجتمع الأندلسي – بعد الفتح – مؤلفا من عناصر بشرية، وفي مقدمة هذه العناصر العنصر العربي الذي وفد إلى الأندلس في تيار متصل على صورة جنود فاتحين، و لعل أول جماعة عربية كبيرة اندفعت إلى الأندلس جاءت في ركب القائد موسى بن نصير الذي قرر العبور سنة 93هـ/ 712 م مصطحبا معه جيشا جله من العرب، يتألف من ثمانية آلاف مقاتل. ينظر: مؤلف مجهو، أخبار مجموعة في فتح الأندلس و ذكر أمرائها – رحمهم الله –و الحروب الواقعة بينهم، تح و تق: إبراهيم الأبياري، القاهرة: دار الكتاب المصري، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط : 1، 1981م. ص:2 .

2- من أهم الثورات العربية التي كان لها صلة بالعلويين هي ثورة عبد الله بن سعيد بن عمار وأول بن ياسر، وجده عمار كان من أشد أصحاب علي إخلاصًا له وتقانيًا في الدفاع عنه، وقد قتل عمار في صفين بأيدي الأمويين، وظل عبد الله بن سعيد هذا معاديًا للحزب الأموي في الأندلس، واستغلها يوسف بن عبد الرحمن الفهرى أمير الأندلس عند قدوم عبد الرحمن الداخل، فعهد إلى الياسري بقتاله لما كان يعرفه من الخصومة والثأر بين عائلتيهما، ولكن هذه الثورة لم يكتب لها النجاح .ينظر: المقرى، نفح الطيب، ج:3. (المصدر السابق).ص: 96.

3- عرفت عملية فتح بلاد الأندلس تفوقا عدد البربر مقارنة بتعداد العرب، و قد استمرت الهجرة من المغرب دون انقطاع إليها. ينظر: عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، بيروت: دار النهضة العربية، د.ط ، 1969 م. ص:125

4- يعود أسباب نجاح الدعوة الشيعية في بلاد المغرب إلى عاملين أساسين, أما أولهما فهو الخطة المالية وتبدأ بالاستراتيجية السياسية. وثانيهما هو سرية الدعوة في بدايتها ودقة تنظيماتها. بالإضافة إلى طبيعة سكان المغرب. ينظر: مرمول صالح، السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في المغرب الإسلامي، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، د ط، 1983م. ص: 113.

5- تكونت الموجة الأولى من تلك الدفعة التي قادها طارق بن زياد، أما عن مواطن استقرار البربر فيمكن حصرها فيما يلي: شذونة :استقرت بها قبيلة ملزوزة و مغيلة و زناتة، أما منطقة مورور فنزلت بها مصمودة، غمارة، أوربة، كتامة، أزداجة، عجيسة، هوارة. ثم أشبيلية فاستقرت بها قبائل زناتة التي كان فرع منها مقيم في لبه شمال غربي اشبيلية ومن ثمة فقد لعب البربر دورا هاما في حركة توجيه الحدث الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي في الأندلس، فقد نشروا الإسلام، وشاركوا في الحياة السياسية، لذلك سنلاحظ أن هذا العنصر أتى بتراث وثقافة إلى بلد فتح حديثا.

العرب بعد أن سيطروا على أهم الوديان الخصبة والسهول[1]، وقد كانت المناطق البربرية ميدانا لجميع المقاومات الشيعية[2] التي عرفتها الأندلس[3].

ويذكر ابن حظم أنه خطب للقاسم ابن إبراهيم الإدريسي صاحب البصرة. أما ابن الخطيب فيذكر أنه خاطب الفاطميين في إفريقية فوجه إليه هؤلاء داعيين ممن يعتقد بمذهبهم وقدم هذان إلى عمر بن حفصون على التمسك بطاعة الفاطميين وإقامة دعوتهم بالأندلس وقد أقام هذان الداعيان لدى ابن حفصون واستعان بهما في حروبه ضد بني أمية ثم وجه بهما مرسلا معهما هدية إلى الخليفة الفاطمي[4].

بعدما سقطت الخلافة الأمـوية في قرطبة، وفشلت جميع المحاولات التي بذلت لإعادتها، بدا أن الجو أصبح صالحا لكي تثمر الدعوات الشيعية التي ابتدأت تنتشر في الأندلس منذ زمن بعيد، وقد أحسن العلويون فعلا انتهاز هذه الفرصة وتحقق لهم تكوين أول دولة علوية يخطب باسمها على منابر

---

[1]- محمود علي مكي، التشيع في الأندلس إلى نهاية ملوك الطوائف، مدريد: صحيفة المعهدِ المصري للدراسات الإسلامية، مح: 2، 1373 هـ/ 1954 م، ع: 1. 2. ص: 97.

[2]-كانت أخطر هذه الحركات المسلحة هي التي قام بها عمر بن حفصون في جنوب الأندلس، وقد امتدت سنين طويلة، واستغرقت إمارة عبد الله بن محمد (275-300هـ/887-913م) وجزءا من إمارة عبد الرحمن الناصر. وقد استغل عمر بن حفصون الدعوات العلوية في بلاد المغرب.

[3]- أول الحركات المسلحة التي قام بها البربر هي التي تزعمها شقيا بن عبد الواحد المكناسى في منطقة شنتبرية «Santaver»، وكانت أخطرها، إذ هددت ملك عبد الرحمن الداخل ولطولها إذ استمرت من(151-160هـ)/ (768-777)، وقد امتدت ما بين ماردة «Mérida» وقورية «Coria» غربا إلى ثغور وادي الحجارة «Guadalajara» وكونكة «Cuenca» شرقا، أي في جميع الهضبة التي تتوسط شبه الجزيرة. ثم تليها الحركة المسلحة التي كانت منطقة شرق الأندلس مسرحا لها؛ ففي نهاية القرن الثاني الهجري وجدت الدعوات الشيعية الكثير من الرواج في العالم الإسلامي كله، لا سيما بعد أن أوقع العباسيون بالثوار العلويين الذين تزعمهم الحسين بن علي بن الحسن في موقعة فخ سنة 169هـ/786م فقد نتجت من هذه الوقعة ظهور شخصين قدر لهما النجاح في تكوين دولتين شيعيتين: وهما يحيى بن عبد الله بن الحسن الذي استولى على الديلم في شمال إيران وأخوه إدريس الذي استطاع أن يقيم دولة الأدارسة في المغرب الأقصى وقد كان لهذا الاضطراب السياسي والفكري الذي عم العالم الإسلامي صداه في الأندلس وبين البربر الذين أثبتوا حاجتهم إلى زعيم روحي جديد. وقد تمثل هذا الزعيم في شخصية معلم آخر لم تحتفظ لنا المراجع باسمه قام في شرق الأندلس 237هـ/851م وادعى النبوة، وكان يتأول القرآن على غير تأويله. ينظر: محمود علي مكي المرجع السابق. ص ص: 99، 100.

[4]- المرجع نفسه. ص: 100.

الأندلس، وتلك هي الدولة الحمودية[1]، ولكنها لم تلبث إلا فترة قصيرة.

والواقع أن الحموديين كانوا شيعة معتدلين، فلم تتخذ دولتهم طابعا دينيا قويا، ولم يكن لهم مذهب كامل واضح المعالم، ولا فلسفة تقوم على أسس ثابتة، ولا فقه خاص يميزهم عن غيرهم[2]، كما نجد ذلك في الدولة الفاطمية في مصر، أو البويهية في إيران، حقيقة كانوا يدينون ببعض المبادئ العامة التي قام عليها التشيع، ولكنهم لم يأخذوا من ذلك إلا بقدر ما كان يحقق لهم مأربا سياسيا. وحتى على بن حمود[3] أول خلفائهم لم يستند في دعـواه على قرابته مـن النبي صلى الله عليـه وسلم بقدر ما اعتمد على حجته في أن هشاما المؤيد الأموي عهد إليه بالطلب بدمه، وبهذا أخرج كتابا للناس أول ولايته نسبه إلى هشام، وفيه يستغيث من سليمان بن الحكم المستعين، ويولى ابن حمود أمر الأخذ بثأره، وقد رأى أنه بهذا يكسب دعواه مظهرا من الشرعية والحق وبهذا الكتاب مدحه الشعراء المتشعيون[4]، إلا أنه لم يحاول مطلقا أن يفرضها على أحد في دولته.

هكذا نستطيع أن نقول بوجه عام أن تشيع الحموديين كان تشيعا باهتا لا روح فيه، وهو

---

[1]- **الدولة الحمودية:** لقد فتحت الصراعات التي سادت بلاد الأندلس الباب على مصراعيه للطامعين في السلطة، إذ زحف علي بن حمود، الذي ولاه المستعين على سبتة على العاصمة و اعتقل سليمان و دخل قرطبة في 22 محرم سنة 407 هـ/ 01 / جويلية 1016 م، حيث قام بالبحث عن هشام المؤيد فدلوه على قبره، فتأكد من موته بعد نبشه؛ وهكذا انتقلت السلطة من الأمويين إلى الحموديين الذين ادعوا الخلافة. وبذلك انتهى عهد الدولة الأموية التي كانت هيكلا بلا روح في عهد هشام المؤيد،. ينظر: محمد عبد الله عنان :دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثاني، دول الطوائف، (المرجع السابق). ص:660

[2]- استندت في تأسيسها إلى أصلها العلوي، ولا شك أن تاريخ الأدارسة الطويل بالمغرب قد أكسبهم زعامة روحية بين المغاربة حتى صار الأمير الحمودي يعرف بصاحب البربر، وهو يقابل صاحب الجماعة في الحزب الأول. على أن نفوذ بني حمود في الأندلس وإن كان قد امتد إلى قرطبة فترة قصيرة من الوقت، إلا أنه كان قاصرا على منطقة مالقة والجزيرة الخضراء أي في الجزء الجنوبي من الأندلس المجاور للممتلكاتهم في شمال المغرب، ولم يلبث بنو حمود أن انقسموا على أنفسهم، وصار كل واحد فيهم يدعي الخلافة لنفسه. ينظر: ابن الخطيب، أعمال الأعمال، (المصدر السابق). ص: 149.

[3]**– علي بن حمود بن ميمون بن حمود بن علي بن إدريس بن باديس** و ينتهي نسبه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وفد أجداده إلى المغرب فرارا من بطش العباسيين، فسكنوها و امتزجوا مع أهلها، وكان حمود بن علي واليا على سبتة، تسمى بالخلافة عند دخوله قرطبة سنة 407 هـ/ 1016م. ينظر: ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، قس:1، مج:1، تح: إحسان عباس، ليبيا، تونس: الدار العربية للكتاب، د.ط. ص ص: 37، 38.

[4]- أبو عبد الله محمد بن فتوح الحميدي، المصدر السابق.ص :22.

تقليد للمشرق لا تجد فيه أثرا للشخصية الأندلسية، ثم هو سطحي لا عمق فيه، مقتصر على مظاهر كثيرة منها المتكلف، يمثلها لنا ما يرويه المؤرخون عن إدريس بني يحيى الحمودى الخليفة العلوي في مالقة[1]، إذ اتخذ له حجابا ينشده الشعراء من خلفه، وذلك تشبها بالخلفاء الهاشميين من بني العباس.

## – المبحث الثاني: مظاهر التشيع في اسبانيا بعد سقوط الحكم الإسلامي.

من خلال المحطات الكبرى التاريخ الإسلامي في الأندلس يظهر فيها الدور الذي كان لقيمة التسامح في صنع التقدم والرقي والازدهار، و إشاعة العدل و الأمن والاستقرار. حيث تعايشت الأعراق والمعتقدات والثقافات في ظل الإسلام، بتسامحه الذي لم يلبث أن انعكس على النفوس والأفكار، فتحررت في علاقتها مع ذاتها وغيرها من كل ألوان العقد والاضطرابات، وملتزمة بأخلاق سلوكية وجهت التصرفات والمعاملات وحفزت باستمرار على التطوير والتجديد والابتكار وعلى الأخذ والعطاء، انطلاقا من هذه الأخلاق، بفكر متناسق و ذهنية متوازنة.

وقد انصهرت جميع هذه المظاهر في بوتقة الوحدة التي كان الأندلسيون حريصين عليها، بالرغم من إكراهات التاريخ، التي أقاموها وفق منظومة تتسم بمراعاة التنوع والتعدد، والحفاظ على التوافق والتكامل، وتمزج باتزان واتساق بين الإسلام والتراث الإنساني. على هذا الأساس ظهرت الكثير من المعتقدات سادت بلاد الأندلس خلال الحكم الإسلامي، ومن بينها حركة التشيع التي دخلت المنطقة عن طريق المغرب والمشوق معا عبر قنوات مختلفة، ولعل تمسك مسلمو الأندلس بالمذهب المالكي هو الذي جعل مبادئ التشيع لم تجد رواجا كبيرا في الأندلس مقارنة ببلاد المغرب أو المشرق معا، فالتاريخ

[1]– المقري، نفح الطيب، ج:1، (المصدر السابق). ص: 410.

يشهد قيام للشيعة دولة في كلي المنطقتين، بينما فشل في إقامة مشروعه في الأندلس.

فشله في قيام دولة شيعية في بلاد الأندلس، من جهة، وتمسك سكانه بالمذهب المالكي لم يمنع من تسرب بعض المعتقدات الشيعية بين مسلمي الأندلس وبقيت متداولة بينهم على شكل أعراف متداولة حتى بعد سقوط الأندلس. ولنا في هذه الجزئية نماذج من ذلك على أن يكون الهدف الرئيس من هذا الفصل هو الفصل في قضية التقية التي تبناه مسلمي اسبانيا هل كانت شيعية أم سنية.

**1)– قنوات التشيع في بلاد الأندلس:** لعب عامل التواصل الفكري والسياسي بين المغرب والأندلس من جهة والمشرق مع هذه الأخيرة دورا بارزا في الهام أهلها لإبداع نمط حضاري متميز بعطائه العلمي والفلسفي والصوفي والأدبي والفني، وبما كان له من تأثير على مسيرة الحضارة العربية الإسلامية في مختلف الأقطار، ولاسيما في المغرب وبقية بلدان المغرب الإسلامي.

دون إغفال الدور الكبير الذي كان له في النهضة الأوربية، مما تعتبر به الحضارة الأندلسية صلة وصل بين التراث الحضاري القديم، و ما أنتجته العهود الحديثة والمعاصرة؛ وكذا دون إغفال الإرث الغني الذي خلفه في شبه الجزيرة الايبرية، متمثلا في جوانب كثير من الحياة الفكرية الاجتماعية وفي المواقع والآثار القائمة شاهدا على الشأو الذي أدركته الحضارة الأندلسية.

دخل التشيع بلاد الأندلس عن طريقين: **أولهما** الأندلسيين الذين رحلوا إلى المشرق وأخذوا بقليل أو كثير من الثقافة الشيعية لا سيما في العراق أو مصر أو المغرب. ويبدو أن أول من نقل شيئاً

من الثقافة الشيعية إلى الأندلس هو محمد بن عيسى القرطبي المعروف بـ "الأعشى" (ت221)[1]، **وثانيهما**، عن طريق بعض المشارقة الذين باشروا نشاطا دعائيا في الأندلس أو قاموا بدور التجسس لمصلحة مواليهم الشيعة.

لكن انتشار الدعاية الفاطمية في نهاية القرن الثالث الهجري الموافق للقرن التاسع ميلادي جعل بعض العلماء الأندلسيين يعتنقون هذا المذهب، ومن هؤلاء محمد بن حيون الحجارى (ت305) الذي لم يكن يذهب مذهب مالك وكان معاصروه يتهمونه بالتشيع، كان حريصا على كتمان مذهبه حتى لا يتعرض للاضطهاد من جانب الفقهاء وعملا بمبدأ التقية الذي كان أصلا من أصول التشيع.

وهكذا ألم الأندلسيون بشيء عن الشيعة ومبادئهم وفرقهم ولكنه كان شيئا ضئيلا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد تدخلت الدولة في الأمر إذ كان من مصلحة الحكومة الأموية أن يفهم التشيع على أنه مجموعة من الضلالات والبدع لا تتفق مع ما يجب أن يكون عليه المسلم الصحيح من سير بمقتضى السنة وابتعاد عن محدثات الأمور. ولعل مما يمثل نظرة الأندلسيين المثقفين إلى التشيع ومدى ما كانوا يعرفونه منه ما ورد عنه في كتاب أبي عمر أحمد بن عبد ربه[2] المشهور (ت 328) «العقد

---

[1]– **محمد بن عيسى القرطبي**: رحل إلى العراق مخالفا بذلك زملاءه الأندلسيين الذين كانوا في ذلك الوقت يترددون على المدينة للتفقة على مالك بن أنس وتلاميذه. وقد كانت نتيجة دراسته في العراق أن نقل إلى الأندلس بعض كتب وكيع بن الجراح الذي كان من أكبر المحدثين الشيعيين، وله كتب في الدفاع عن مبادئ الشيعة الزيدية ينظر: أبو فتح الشهرستاني، المصدر السابق. ج:2، ص: 26

[2]– **أبو عمر أحمد بن عبد ربه**: (246–328) هو أحمد بن محمد بن عبد ربه عده ابن سعيد "إمام أهل الأدب بالمائة الرابعة وفرسان شعرائها في المغرب كله" وذكر الحميدي أن ديوانه يقع في عشرين جزءا لكن هذا الديوان ضاع مع ما تبدد من ثرات أهل الأندلس, ولم تبق منه الا أشتات متفرقات, جمعت فيما أطلق عليه اسم الديوان. كان عبد ربه غزير الشعير, متنوع الموضوعات, وقد عاش الرجل قرابة ثمانين سنة, شرقت فيها شهرته وغربت. اذ يعتبر من أكثر شعراء عصره شهرة. ينظر: زكريا عناني، تاريخ الأدب الاندلسي، دار المعرفة الجامعية، د ط، 1999م. ص ص: 85،87.

الفريد»[1].

كما برز في بلاد الأندلس عدد من المفكرين من نزع إلى اتجاه شيعي معتدل دون أن يكون خطرا يهدد الدولة، ومن أمثلة هؤلاء نذكر " منذر بن سعيد البلوطي"(ت 355)[2] الذي وصل إلى منصب قاضي الجماعة بقرطبة. وقد خالف منذر جمهور علماء عصره في مذهبه الفقهي فبينما كانت الدولة تدين بمذهب مالك نراه هو ينزع إلى المذهب الظاهري[3] ويؤلف في الدفاع عنه كتبا.

على أنه كان حريصا برغم ذلك على احترام وحدة الدولة من الناحية المذهبية، فكان إذا

---

[1]- أفرد المؤلف من كتابه فصلا لأصحاب الأهواء تكلم فيه ببعض التفصيل عن الشيعة وفرقهم فهو يتناول بعض العقائد الغريبة التي دانت بها فرق شيعية متطرفة كالسبئية والمغيرية والمنصورية ويأتي ببعض نصوص شعرية لكُثَيِّر عزة والسيد الحميري وغيرهما في تأييد مذاهبهم. ثم يأتي بكثير من أقوال العلماء في ذم الشيعة والتبرؤ من عقائدهم والمقارنة بينها وبين العقائد اليهودية. ونلاحظ أنه يكثر الرجوع إلى كتاب ابن أبي شيبة ويعتمد كذلك على ابن قتيبة مما يجعلنا نرجح أن كثيراً مما ذكره ابن عبد ربه قد عرف من قبل عن طريق هذه الكتب المشرقية. والذي نلاحظه أن ابن عبد ربه لا يذكر لنا شيئاً مطلقاً عن التشيع الإسماعيلي الذي كان في وقت تأليف كتابه (300-322هـ/913-926م) قد ملأ شمال إفريقية منذ سنة 296هـ/909م حيث استطاع أن يزيل دولة الأغالبة السنية ويقيم الدولة الفاطمية العبيدية؛ هذا على الرغم من أن كثيراً من تعاليم الشيعة تسرب حينئذ إلى الأندلس نفسها. وربما كان إضراب ابن عبد ربه عن ذلك تماشيا مع السياسة التي رسمها لكتابه، وهي الاهتمام بالمشرق قبل كل شيء وتقديمه على كل ما يتصل ببلده أو بالمغرب على وجه العموم، أو لعله رأى أن الإشارة إلى مبادئهم في كتابه ربما كانت وسيلة غير مباشرة لنشرها وهو ما لم تكن تقره سياسة الدولة الأموية في الأندلس. ينظر: محمود علي مكي، المرجع السابق. ص: 105، 106.

[2]- **منذر بن سعيد البلوطي**: كان بربريا ينتسب إلى قبيلة نفزة وثانيا أسرته فالذي بقى من الأخبار عن عائلة منذر يدل على أنها اعتنقت مبادئ شيعية منذ زمن طويل وقد كانت قبيلته نفزة أول من آمن بدعوة ابن القط وقام بنصرته سنة 288 هـ/891م وهو يذكر أن خاله كان من أتباع هذا المهدى وكان ممن حضر وقعة سمورة معه. وقد نقل ابن حيان عن منذر بن سعيد طائفة من الأخبار الطريفة عن هذه الثورة رواها منذر عن بعض قرابته وثالثا البيئة التي عاش فيها فقد قضى منذر جل حياته في منطقة «الجوف» وتولى القضاء بماردة وما ولاها من المدن ثم تولى هذا المنصب بالثغور الشرقية وقد رأينا أن هذه البيئات كانت أكثر بلاد الأندلس صلاحية للمبادئ الشيعية وربما أضفنا إلى هذا الثقافة التي تلقاها في المشرق فنحن نعلم أنه درس مع أبي بكر بن المنذر النيسابوري في مكة كتاباً يتناول الفرق الإسلامية واختلافها وهو «كتاب الأشراف» الذي ربما عالج تعاليم بعض فرق الشيعة فلقيت هذه التعاليم من نفس منذر رغبة وهوى. ينظر: المرجع نفسه. ص: 110.

[3]- **الباطنية**: لقب اصطلاحي تندرج تحته اتجاهات لطوائف وفرق مختلفة، :القاسم المشترك فيما بينها، أو الصفة العامة التي تغلب عليها هي: تأويل النص الظاهر بالمعنى الباطن, تأويلا يذهب مذاهب شتى، قد يصل بالمذاهب الباطنية، التي تعمل التأويل في النص، الى حد التناقض فيما بينها، بحيث تصبح الفرق الباطنية خارجه عن ملة الاسلام بل فرقا من فرق الكفر. ينظر: عبد القاهر البغدادي، الفرق بين الفرق، بيروت: د دن، د ط، د س ط. ص:22.

جلس للقضاء لا يحكم إلا بمذهب مالك[1]، وهذا ما يجعلنا نعتقد أن منذرا لم يحاول أن يفرض تشيعه على الناس بل احتفظ به لنفسه ولم يجعل له أثرا في حياته الرسمية إذ كان يتولى أكبر المناصب بعد الخليفة.

على أية حال كان نجاح الدعاية الفاطمية في اجتذاب أنصار لها من الأندلس محدودا جدا، وذلك لما كان للمذهب السنى من قوة متأصلة، وإن كان ذلك لا يمنع من القول بأنهم أفلحوا في ضم بعض رجال الفكر إلى صفهم، ومن أمثلة هؤلاء ابن أبي المنظور الذي ولى القضاء لإسماعيل المنصور ثالث الخلفاء الفاطميين (334-341هـ/945-952م).

وربما كان من ثمرات دعاية الفاطميين شاعر إليبرى قضى فترة شبابه في الأندلس، ثم طرد منها حين عرف اتجاهه الفاطمي، وهذا هو ابن هانئ الأندلسي (ت 362هـ/972م)[2] الذي التحق بخدمة المعز لدين الله الفاطمي[3]، ثم صار الشاعر الرسمي لدعوة الشيعة العبيدية[4]، ويعتبر شعره وثيقة هامة تطلعنا على نظريات الإسماعيلية في مختلف شئون عقيدتهم.

كما يجدر بنا في هذا المقام الإشارة إلى أحد الجواسيس الفاطميين الذين قاموا بدور مهم في لأندلس ونقصد بذلك ابن حوقل النصيبي (ت367هـ/977م)، دخل الأندلس متسترا بالتجارة

---

[1]- المقرى، نفح الطيب، ج: 2، (المصدر السابق). ص: 228.

[2]- **ابن هانئ:** هو محمد بن هانىء بن محمد بن سعدون الآذدى الأندلسي أبو القاسم – أشعر المغاربة، وهو عندكم كلمتنبى عند أهل المشرق، ولد بإشبيلية في الأندلس، واتصل بالمعز لدين الله الفاطمي، ورحل معه إلى مصر، قتل في برقة.

[3]- **المعز لدين الله:** يكنى بـ" أبي تميم" والده المنصور بالله. ولد سنة 319هـ/ بالمهدية وتسلم الحكم سنة 342هـ/954م رحل من المغرب إلى مصر سنة 321هـ/ 933م وأنجب أربعة أولاد وبنتين. ودفن بالقاهرة سنة 365هـ/ 976م.

[4]- اختلفت المصادر التاريخية في التسمية التي ألحقت بهذه الدولة فهناك من لقبها بالدولة الفاطمية، ومن هؤلاء نذكر ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، (المصدر السابق)، ج: 4، ص: 64. فيما ذهب فريق آخر إلى أن تسميتها الحقيقية هي الدولة العبيدية منكرين في ذلك نسبهم إلى آل البيت الطاهرين. أمثال هؤلاء ابن حزم. ينظر: الشهرستاني، المصدر السابق، ج: 5. ص: 36.

ليستطلع أحوال الأندلس ودارستها لمصلحة مواليه الفاطميين، وذلك حينما كانوا يفكرون في توجيه ضربتهم إلى هذه البلاد[2].

ولعل هذا هو ما يفسر اهتمامه بصفة خاصة بتسجيل دخل الدولة ومواردها الاقتصادية وتعداد خيراتها، ووصفه طرقها ومسالكها، ثم أحوالها من الناحية العسكرية، كل ذلك اهتم ابن حوقل ببيانه في دقة تستوقف النظر، وقد حاول في كتابته أن يقنع الفاطميين بضرورة الاستحواذ على الأندلس لكثرة خيراتها من ناحية، ولضعف أهلها عن الدفاع عنها من ناحية أخرى[1]، ولكن يظهر أن مشروعه لم يظفر بالتأييد من جانب الحكومة الفاطمية.

ولكن الأمويين لم يكونوا ليقفوا مكتوفي الأيدي من الدعوات الشيعية التي ظلت تلح على الأندلس إلحاحا شديدا، فوقفوا منذ اللحظة الأولى موقفا عدائيا صارما، وواصلوا في الأندلس السياسة التي رسمها لهم أسلافهم في المشرق من المحافظة على المذهب السني والقضاء على كل نزعة تمت إلى التشيع بصلة.

مع هذا فقد كانت النزعة الأموية رغم ذلك معتدلة إلى حد ما، فلم يأمروا بلعن علي بن أبي طالب ولا أحد من أهل البيت على المنابر كما فعل الأمويون في المشرق، وقد كان عملهم حينذاك مما أثار عليهم أهل السنة المعتدلين الذي كانوا يرون لعلي من قرابته وفضله ما يلحقه بالخلفاء الراشدين، دون أن يدخلهم ذلك في زمرة الشيعة، وإننا نجد ابن حزم رغم نزعته الأموية القوية يعيب على خلفاء المروانيين في المشرق ما ارتكبوه من ذلك، بينما يعد من فضائلهم في الأندلس أنهم امتنعوا

[1]- محمود علي مكي، المرجع السابق. ص: 116.

عن لعن السلف.

**2)– موقف مسلمو اسبانيا من التشيع:** بعد هذا التقديم لبدايات وقنوات التشيع في بلاد الأندلس، وموقف السنة من تفشي هذه الظاهرة، على أساس أنهم كانوا متشبثين بالمذهب المالكي في حياتهم الدينية والدنياوية. ولكن موضوعنا ليس هذا، لكنه كان لا بد لنا من هذه الوقفة حتى ندرك مخلفات هذه الحركة على الأجيال التي لم تعاصر الصراع السني الشيعي الذي ساد الأندلس.

ومن هنا لنا أن نتسآل في ظل هجرة الكثير من الفقهاء والعلماء من المنطقة قبل وبعد سقوط غرناطة، وفي ظل الممارسات المتكررة للسلطات الاسبانية في محاولة مسخ الشخصية الإسلامية هل تغللت بعض رموز الدينية الشيعية في عقيدة مسلمي اسبانيا؟ وإن كـــان كذلك فمـــدى وعي هؤلاء باقتباسهم لهذه الرموز لدرجة أخذهم للتقية كمبدأ أساسي في العقيدة الشيعية؟

***– الجفر رمز من الرموز الشيعية في مؤلفات مسلمي اسبانيا:** لقد كانت المحنة التي يمر بها مسلمو الأندلس باعثة على اليأس؛ مما جعلهم يبحثون عن ملاذ لهم في الحيل المدهشة التي تمكنهم من احتمال الوضع وتمنحهم بعض المتعة والفرح؛ لقد انغمسوا في النبوءات أو كتب الجفر (aljofores)، ويعد هذا الأمر من الأبعاد المدهشة والمثيرة للاستغراب في الأدب الألخميادو، كما أنه يعد مثالا مثيرا على التفكير الرغبي الجمعي.

فبات الجفر كلمة تستبطن في طياتها معنى الغيب ويغلفها ستار من الغموض ومع غيبية الباطن وغموض الظاهر، يعيش الجفر في أذهان بعض الناس فيحدثونك عن المستقبل وعن أحداث تقع هنا وهناك مما ينبئ عن أن عصر الخضوع لمنطق المادة لم يؤثر في ارتباط هؤلاء الناس بالغيب، فلم

تحتل المادة كل الأفق الذي يشغله نظرهم، بل هم يرون بارقة نور تبشر بعصر تخضع فيه المادة لمنطق الحق والعدالة .

يعتبر الجفر[1] أحد ركائز المعتقدات الباطنية[2] للشيعة، إذ يطلق عندهم على علم من العلوم الغيبية المبنية على أسرار الحروف[3]، ومنها يستدل على الحوادث المستقبلية حتى قيام الساعة ويدعي المشتغلون به كذبا وبهتانا أنه علم أسره النبي صلى الله عليه وسلم، إلى الإمام علي بن ابي طالب رضي الله عنه، وأمره بتدوينه، فكتبه الإمام حروفا متفرقه، وأخذه جعفر الصادق عنه، والحق أن واضع هذا الكتاب هو هارون بن سعيد العجلي الذي ادعى روايته عن جعفر الصادق[4].

لكن مع هذا الانحسار في ضيق الرؤية بالنسبة للآثار الأدبية فإننا نستطيع تسجيل حضورها منعكسا على بعض الأعمال الأدبية البارزة التي ظهرت مع مطلع العصر الذهبي بالنسبة لتاريخ الأدب

---

[1]- يعتبر الجفر في زعم الشيعة علم يحيط بكل شيء، ويستدل منه على تفسير معاني القرآن على أساس باطن الكلمات والعبارات، لا على ظاهر معناها، وسمي الكتاب باسم الجفر على اسم جلد ولد الماعز، ومن الافتراء ما رواه الكليني عن أبي عبدالله جعفر الصادق أنه قال "وإن عندنا الجفر، وما يدريهم ما الجفر؟ فقيل له : ما الجفر؟ قال : وعاء من أدم فيه علم النبيين والوصيين، وعلم العلماء الذين مضوا من بني اسرائيل" هذا في الوقت الذي تبرأ فيه علي ابن أبي طالب ان يكون اختص هو أو أحد من ذريته بأي علم خاص، ومع ذلك يجعل الكليني الجفر في كتابه أحد المصادر الأربعة الرئيسة للآثار عند الشيعة الاثني عشرية، والواقع أن عقيدة الجفر التي تقوم على حساب الحروف قد تسربت الى الشيعة عن طريق اليهود وطريقتهم في حساب الجمل، وإن كان أصلها يرجع الى الفلسفة الفيثاغوسيه في الأعداد وأول من قال بها الشيعه الخطابية كما يقرر ذلك محمد أبو زهره متابعا للمقريزي.

[2]- يعالج المنهج الباطني النصوص على انها رموزا وإشارات، الى حقائق خفية وأسرار مكتوبة ومن ثم يعالجون الشعائر الدينية، والأحكام العملية على أنها رموز وأسرار, وبهذا فإن أهل الباطن (الباطنيون) فهم الذين ينفذون الى العاني الخفية المستورة، التي هي من شأن العلم الحق عندهم، "علم الباطن". ينظر: أبو حامد الغزالي، فضائح الباطنية، تح وتق: عبد الرحمان بدوي, مصر: دار المعارف، د ط، د س ط. ص:56.

[3]- المقصود أن هذا العلم كما يسمونه : العلم الباطن، وإن كان ليس حقا، فالمقصود أنه كان متفشيا في الأمم من قبل، ثم ظهر وتفشى في الأمة الإسلامية، وقد أظهر ذلك الرافضة، عندما ادعوا أن لديهم كتاب "الجفر والجامعة" وأن في الجفر يوجد خبر ما كان وما سيكون إلى قيام الساعة، وأن هذا الجفر منسوب إلى جعفر الصادق، كتب فيه الملاحم إلى قيام الساعة، ويوجد لديهم بعض النسخ إلى الآن في بعض المكتبات.

[4]- من أهم المصادر التي كتبت حول الجفر كتاب الوشى المصون و اللؤلؤ المكنون في علم الخط الذي بين الكاف و النون و هو عبارة عن موسوعات واسعة في علم الجفر و الحروف اورد فيها مؤلفها ستمائة علم و ثلاثة و عشين علما لأحمد بن محمد؛ أيضا العلم المخزول في علم الخواص وهو مجلد على أجزاء. وعيون الحقائق و كشف الطرائق ذكره في الجفر و هو على ثلاثين باب كل باب في علوم غريبة الجامعة هو كتاب في الجفر منسوب الى الامام جعفر الصادق. ينظر: أحمد زكي، موسوعة العلوم العربية وبحث على رسائل اخوان الصفا، مصر: المطبعة الأميرية، ط :1، 1308هـ. ص ص: 59، 60.

[5]- لتفاصيل أكثر حول هذا الموضوع ينظر: الفصل الثاني من الباب الثالث.

الإسباني، فقد تجلى هذا التأثير واضح المعالم في الأعمال القصصية المعروفة بقصص الفروسية التي طبعت العصور الوسطى بنزعتها الاحتفائية المشحونة بالخوارق والطقوس، فنجد انعكاس الوهج الإسلامي المقاوم واضح السمات على هذه القصص.

ومن بين النماذج التي كتبت في هذا الصدد نذكر[1] ما نصه: " **يا جبل طارق الدخول عليك واحتلالك هو نهاية المطاف. وهذا يفهم فيه أنه في سبتة وطنجة والقلاع وجميع المناطق لا يبقى منها شيء وكلها يقع عليها الاحتلال واسبانية ومالقة تعود إلى زراعة وتكون سعيدة بشريعة الإسلام، ويدخل الذل بلدتي المنكب وبليش وتداس عجرفتهما التي اكتسباها بالهرطقة وكذلك قرطبة تداس أيضا بسبب ذنوبها وخطاياها**"[2].

من خلال ما ورد في هذا الجفر نلاحظ أنه يحمل الكثير من الحقائق التاريخية، حتى وإن كان مصدرهما يعتبر من المصادر الباطلة في نظر الشرع بناء على نصوص من القرآن والسنة. ومهما يكن فعقيدة الجفر عقيدة باطلة، لأنها حسب قولهم من العلوم الغيبية التي لا يعلمها إلا الله عز وجل، حتى أن رسوله ومصطفاه صلى الله عليه وسلم، أمره مولاه جل وعلا بتقرير ذلك بنفيه علم الغيب عن نفسه إلا بما يوحى اليه من ربه فما بالك بغيره، صلى الله عليه وسلم؟ ومن هذا المنطلق فهل اقتباس هذه الجفور التي هي شيعية المصدر من طرف مسلمي اسبانيا هو نتيجة لتأثرهم بالشيعة أم كان لضرورة اقتضها الظروف الراهنة التي كان يعيشها هؤلاء؟.

***– على بن أبي طالب في التراث الألخميادي:** تتحدث كتب السيرة عن على بن أبي

---

1- سيمون الحايك، المرجع السابق. ص ص : 47،48.

طالب رضي الله عنه، وقد برزت تلك الشجاعة في مواطن كثيرة، خاصة في موقعة بدر الكبرى. ورغم أن كتب السيرة تنسب إلى علي بن أبي طالب شمائل كثيرة كالتواضع والعلم والتقوى، إلا أن مسلمي اسبانيا كانوا يبرزون شجاعته بشكل خاص، بل وقد وصل غلوهم في هذا الأمر إلى أن نسبوا إليه بطولات خارقة.

إن المخطوطات التي تعرض هذا الأمر كثيرة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما ورد في نص مخطوط ألخميادي حول هذا الموضوع[1] "...**كانت شجاعته منقطعة النظير، حتى أنه "وهو يمتطي جواده كان يساوي ألفين من الفراسان، وكانت قوته خارقة، فكان يقسم فارسا وحصانه إلى نصفين بضربة واحدة.... وفي بعض الأحيان كان على يكر بمفرده على جيش كامل ويفعل به ما تفعل النار في الهشيم...**"[2]

كما ورد في نص مخطوط ألخميادي آخر ما يؤكد الاتجاه نفسه، فجاء هيه ما نصه:" **وأعقبه (في الخلافة) سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، زوج السيدة فاطمة رضي الله عنها، بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. كان أشجع من عرف من المحاربين، فقد كان يظهر في أية موقعة فحتى لو كان غائبا في مكان بعيد كان الله يرسله وكان يظهر بين الناس وحقق النصر في كل المعارك، وهو الذي يظن النصارى أنه سانتاغو وهم مخطئون**"[3].

نستطيع أن نفسر تركيز مسلمي اسبانيا على الجـانب الأسطـوري في بطولات علي بن أبي

---

[1]- المخطوطة رقم 5120 بالمكتبة الوطنية بمدريد.

[2]- جمال عبد الرحمن، ثقافة موريسكي، ضمن مجموعة من البحوث نشرت في: دراسات موريسكية، تر وتق: جمال عبد الرحمن، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ط: 1، 2008م. ص: 112.

[3]- مخطوط رقم: 4935، مدريد: المكتبة الوطنية. ورقة: 25 ظهر. نقلا عن المرجع نفسه. ص ص: 112، 113.

طالب رضي الله عنه بالظروف الخاصة التي كانوا يعيشونها؛ فلقد بذلوا كل ما في وسعهم للتخلص من اضطهاد السلطات الاسبانية، ولم يعد أمامهم سوى انتظار معجـزة إلهية. ويفسر أيضا الحـــديث عن معجزات يجريها الله سبحانه وتعالى على يد علي بن أبي طالب[1].

كذلك نجد مثل هذا التأثير ملحوظ الابعاد في قصة "كتاب المعارك" وهو بمثابة مجموعة من المرويات ذات الطابع الملحمي الفروسي المشحون بالتكثيف الأسطوري حيث أعطت قسطا وافرا لتروي أحداث المغازي الاسلامية أياما اندفاعاتها القوية التي ظهرت الامبراطوريات وأطاحت بالجبابرة كل ذلك ضمن اطار خرافي تقف في حكايات شيقة كقصة "الامام علي رضي الله عنه وتصديه للتنين" وهذا العمل القصصي الشيق نجده ما يزال محفوظا بالمكتبة الوطنية بمدريد في مخطوط تحت رقم 3226.

فمثل هذه الأعمال الأدبية التي شارك في نسيج بنائها الدرامي الفكر الديني الإسلامي في اسبانيا النصرانية والذي اعتمدها لبعث الهمم الاسلامية وسط الاقليات المضطهدة حتى تقف كوجه من وجوه المقاومة التي تأبى الرضـوخ للأمر الواقـع ومـن منطلق هـذه المـآثر التي تغـذي في المسلـم روح المجاهدة والثبات

## المبحث الثالث: التقية عند مسلمي اسبانيا بين الشرع والمعتقدات الشيعية

لعل من بين تلك المفاهيم التي نطق بها القرآن الكريم والسنة المطهرة هو مفهوم التقية الذي لم ينحصر في الواقع بدين الإِسلام؛ بل عرفته الأديان السماوية كلها، وطبقته سائر المجتمعات البشرية

[1]. المخطوط رقم: 4935 نقلا عن: جمال عبد الرحمن، المرجع السابق. ص: 112

منذ أقدم العصور وإلى يومنا هذا، لانسجامه التام مع مقتضى العقول وفطرة الإنسان في الحفاظ على كيانه. فالتقية إذن لم تكن قاعدة فقهية، أو مبدأً إسلاميا صرفا فحسب، وإنما هي كذلك قاعدة عقلية جبلت عليها العقول السليمة، فحكمت بضرورة تجنب الضرر شخصيا كان أو نوعيا، ومن هنا أصبح موقف الإسلام من التقية موقف المؤيد والمساند لا المؤصل والمشرع.

وما جاء في القرآن الكريم والسنة الثابتة بشأن التقية إنما هو إمضاء لها لأنها من شرع ما قبلنا كما يفهم من تقية إبراهيم ويوسف عليهما السلام، ومن تقية أصحاب الكهف التي أكدتها الآيتان الكريمتان رقم 19 و20 الواردتين في سورة الكهف فجاء فيها ما نصه في محكم تنزيله: **{فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ، إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا}** .وأيضا تقية مؤمن آل فرعون في قوله عز وجل في الآية رقم: 28 من سورة غافر:" **وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ**".

كما ارتبطت التقية في تاريخ الأديان بصفة عامة بمراحل الاضطهاد أو التمييز القائم على العقيدة، بل إن النصارى الأوائل في عصر دقلديانوس اضطروا لاستخدامها في مصر وبلاد الشام. واستخدمها اليهود في أوروبا في العصور الوسطى وحتى في بلاد الأندلس. والإسلام أباحها بصفة عامة لحماية المسلم من أي ضرر في عقيدته أو دنياه، وعلى هذا الأساس تبنى مسلمو اسبانيا مبدأ التقية كرخصة يلجأ إليها المسلم في حالات اضطرارية ومواضع معينة بشرط أن لا يؤدي العمل بها إلى الفساد في الدين أو إخفاء للحق، وإلا فإنـــه لا يجوز للمسلم حينئذ أن يعمــل بالتقــية بل عليه أن

يضحي بنفسه في سبيل الله.

ومن خلال هذا المبحث سوف نحاول الفصل في مسألة مهمة وهي: هل التقية التي استعملها مسلمو اسبانيا هي نفسها التي استعملها الشيعة؟ ولا نستطيع الإجابة على هذا السؤال الجوهري إلا إذا تعرضنا إلى تشخيص الوضعية السياسية والدينية والنفسية لمسلمي اسبانيا.

**1)– الدواعي السياسية والدينية والنفسية لتبني مبدأ التقية:** بعد سنوات من سقوط غرناطة أخلّت السلطات الرسمية الإسبانية بشروط معاهدة التسليم، التي كانت تنص على حرية العقيدة، وشرعت في تنصير المسلمين طوعا أو كرها، وانتهى بها المطاف إلى حظر كل ما يمت للدين الإسلامي بصلة، فما كان أمام مسلمي اسبانيا سوى البحث عن حلول لمواجهة الأوضاع السياسية والدينية الجديدة التي فرضت عليهم واقعا كان بالنسبة لهم مستحيلا القوقعة فيه أو التأقلم معه.

***– الدواعي السياسية والدينية:** لم تكن الدموع التي ذرفها الأمير أبو عبد الله محمد وهو يسلم غرناطة لملكي إسبانيا النصرانية هي الدموع الأخيرة في بلاد الأندلس، إذ أعقبها الكثير من الدموع والدماء، فرغم العهود التي قطعها فرناندو وإيزابيلا على نفسيهما ووقعا عليهما في وثيقة استلام غرناطة الشهيرة، إلا أنه أبت على الملكين صليبيتهما أن يفيا للمسلمين بشيء من العهود والمواثيق، وكانت هذه الوثيقة ستارا للغدر والخيانة وشنيع ما سيقترف بالمسلمين في الأندلس.

فقد عهد الملك الصليبي فرناندو إلى الكاردنيال خمنيس مطران طليطلة ورأس الكنيسة الإسبانية مهمة تنصير مسلمي اسبانيا قهرا، وكان هذا الرجل من أشد أهل الأرض قاطبة عداوة للإسلام والمسلمين، بل إن البغضاء المشحونة في قلبه كانت مضربا للأمثال لعصور طويلة، فأنشأ هذا

الرجل ما عرف تاريخيا بـ "محاكم التفتيش" وذلك سنة 905هـ/1500م[1]، فكان أول عمل لهذه المحاكم أن جمعت كل المصاحف وكتب العلم والفقه والحديث وأحرقت في ساحة الرملة[2] بغرناطة كخطوة أولى لتنصير المسلمين بقطع الصلة عن تراثهم وعلومهم الشرعية.

بذلك بدأت حملة تنصير المسلمين بعد ذلك بتحويل المساجد إلى كنائس، ثم جمع من بقى من الفقهاء وأهل العلم وتم إجبارهم على التنصر، فوافق البعض مكرها وأبى الباقون فأعدموا حرقا، وكان التمثيل بجثث القتلى جرس إنذار لباقي المسلمين إما التنصير وإما القتل والتنكيل وسلب الأموال والممتلكات. فكانت عملية التنصير مركزة على إقليم غرناطة ومنه انتقلت حمى التنصير إلى باقي المدن الإسبانية، حيث كان هناك الكثير من المسلمين تحت حكم النصارى خاصة في الوسط والشرق.

ومند سنة 907هـ/1502م ظهرت تسمية جديدة أطلقتها السلطات الاسبانية على مسلمي إسبانيا، وهو ما اصطلح عليه في المصادر والمراجع التاريخية بـ "الموريسكيين"[3]، هؤلاء اضطروا للبقاء وأجبروا على إظهار النصرانية وترك الإسلام، وهذه الطائفة رغم البطش والتنكيل الشديد الذي تم بها لتجبر على التنصر، إلا إنها ظلت متمسكة بدينها في السر، كحل لا بديل له في وسط ذهنية غلبت عليها الشك والريبة، وبالتالي غلب عليها الشعور بما اصطلح عليه حاليا " فوبيا الإسلام".

فقد كانت العداوة الصليبية المستقرة في قلوب الإسبان تجاه مسلمين أكبر من مسألة الدين أو غيرها، فقد كانت هناك رغبة جامحة عند قساوسة ورهبان إسبانيا لاستئصال الأمة الأندلسية، فظل

---

[1]- حول تفاصيل أكثر عن الموضوع ينظر الفصل الأول من الباب الأول.

[2]- **ساحة الرملة**: من بين أهم الميادين في غرناطة، وهي عبارة عن ساحة فسيحة تحيط بها المحلات التجارية و تتفرع منها عدة شوارع. ينظر: عبد الحكيم دنون طه، آفاق غرناطة، (المرجع السابق). ص: 110.

[3]- لمعرفة تفاصيل أكثر حول المدلول اللغوي والتاريخي لهذا المصطلح ينظر: الجزئية الخاصة بتصحيح مفاهيم أساسية.

المسلمون موضع ريب وشك من طرف عمال محاكم التحقيق، فعملوا على الزج بآلاف منهم في السجون حيث آلات التعذيب والتنكيل التي تقشعر لها الأبدان ويشيب منها الولدان وذلك للتأكد من صدق تنصرهم وخالص ارتدادهم عن الإسلام، وكانت أدنى إشارة أو علامة تصدر منهم تدل على حنينهم للإسلام كفيلة بإهدار دمائهم وحرقهم وهم أحياء.

أمام هذا العرض الملخص لسلسة الأحداث التي واجهها مسلمو اسبانيا بعد سقوط غرناطة آخر معقل اسلامي لهم، وأماما المفارقات التي كانوا عليهم مواجهتها، وأهمها تلك التي تكمن في سلوك الملوك الكاثوليك تجاه المسلمين، فهم بعد انتهاء عملية الاستيلاء على غرناطة انقلبوا إلى ممارسة الشدة وعمليات الطرد لهم بسبب ما أطلقوا عليه شعور الإسبان بالذنب والسعي إلى الاندماج في العالم النصراني، مما كان يتطلب منهم العمل على محو جميع التأثيرات الغريبة في الدين والحياة الثقافية والعامة.

أمام هذه التطورات ما كان أمام هؤلاء حلا بديلا سوى أنهم يبحثوا لهم عن وسيلة تمكنهم من البقاء في وطنهم مع الإبقاء على مقوماتهم الإسلامية، فوجدوا في تبني مبدأ التقية خير وسيلة لتحقيق ذلك، مع الأخذ بعين الاعتبار أنه ليس بالأمر السهل أو الهين، في ظل الملاحقات والمتابعات المستمرة لعمال محاكم التحقيق.

***– الأسباب النفسية الدافعة إلى استعمال التقية:** كان مسلمو اسبانيا خلال هذا الاستشهاد المحزن، الذي فرض عليهم يحاولون بكل وسيلة استبقاء دينهم وتراثهم، فكانوا بالرغم من دخولهم في النصرانية يتعلقون سرا بالإسلام، وكثير منهم أدوا شعائر الإسلام خفية، وكانوا يحافظون

على لغتهم العربية، فالصراع الذي كان دائرا بين الطرفين . النصراني والإسلامي . لم يكن لمعتنقي هذا الأخير مواجهة هذا الموقف بصورة مباشر لما كان يجيش في صدور هؤلاء من كراهية.

إذن العزلة والسرية تسمحان لهم بذلك دون مواجهة مؤذية وغير محتملة العواقب. وهذا هو حال الكراهيات العريقة طوال القرون الماضية التي ما كان لها أن تنتعش لولا عزلة الطوائف والجماعات، وسياقات التواصل الخصوصية المغلقة. وحين انتهت العزلة وانفتحت حدود الطوائف على «مجال عام» مشترك، أصبحت هذه الكراهيات تواجه مصيرا صعبا.

فالمجاهرة علنا بكراهية مسلمي اسبانيا المستفزة لكل ما هو نصراني أصبحت مهمة شاقة، ومن يقدم على ذلك، فعليه أن يتحمل عواقب ذلك وتبعاته، لسبب مهم، يكمن في عدم تكافؤ القوتين على كل المستويات؛ من هذا المنطلق اضطر مسلمو اسبانيا إلى تداولها بصورة سرية وفي نطاق ضيق من الأقارب والأصدقاء الموثوقين، وإذا ما بلغ الخوف مبلغه في النفوس عند أحد من هؤلاء فسوف يعمد إلى بث هذه الكراهيات، بسرية تامة.

فقد حصل تحول لا يمكن إنكاره في هذا السياق، صحيح أن هذه الكراهيات التاريخية جرى إنتاجها وتداولها في سياقات تواصلية مغلقة وسرية، إلا أن سريتها القديمة إنما فرضتها ظروف خارجية تتصل بالعزلة وبسياقات التواصل القديمة التي ما كان يمكن أن تكون عمومية ومفتوحة في تلك اللحظة التاريخية. وتتصل، كذلك، بعلاقات القوة التي تجعل الجماعات الضعيفة والمهددة لا تكف عن إنتاج وتداول كراهياتها، ولكنها تضطر إلى عمل ذلك بصورة سرية؛ وذلك خشية من إثارة غضب الجماعات القوية والمهيمنة التي لن تتأخر في ردعها .

وهذا هو أصل "التقية" التي انتعش الحديث عنها في الجدل الفقهي والكلامي القديم بين المذاهب الإسلامية، والتي قد تنتعش لدى أية جماعة ضعيفة ومهددة، ومن اختار البقاء منهم اضطر إلى التكتم على دينه في السر واكتفى بالتظاهر علنا باعتناق الدين الجديد. وبهذا أصبح المسلمون نصارى بالاسم وفي العلن فقط، فيما كانوا يحافظون على دينهم في السر والخفاء داخل بيوتهم.

فقد فرضت هذه الظروف على المسلمين أن يعيشوا حياة مزدوجة مشطورة إلى نصفين: حياة حقيقية وصادقة في البيت وفي السر، وحياة مزيفة ومن باب التظاهر في العلن وأمام الناس. ويطلق الضعفاء المغلوبون على أمرهم اسم «التقية» على هذا النوع من الحياة المزدوجة، إلا أن الأقوياء يعدونها رياء ونفاقا يستحق الشجب والإنكار وحتى العقاب.

**2)– تقية مسلمي اسبانيا في ميزان الشرع:** قد يعتقد البعض أن التقية هي من عقائد الشيعة التي يجب العمل بها عندهم بدون دواعي وأسباب، وذلك لما وجدوهم يعملون بها في أكثر الأحيان وفي شتى الميادين. وما هذه المحاولة ـ المشتمل عليها هذا الفصل ـ إلا لكشف هذا التصور الخاطئ؛ وما نريد توضيحه هنا هو أنها مسألة فرعية ـ فقهية ـ إلا أن موضوعها تارة يكون من الأمور العقائدية، وتارة أخرى يكون من الأمور الفرعية. وذلك بعد أن بينا أن المناط في تشريعها هو عنوان الضرر المترتب على ارتكاب هذا الشيء أو تركه.

على هذا الأساس يمكننا بناء تصورنا على أن التقية كانت وسيلة للمحافظة على الروح والدين معا، وعليه يمكننا تقديم مجموعة من النقاط التي يمكننا الفصل بها في مسألة التقية عند مسلمي اسبانيا أكانت شيعية الاعتقاد أم كانت مجرد رخصة أباحها المشرع لرفع الضرر وتحقيقا لحفظ الروح

والعرض. وبهذا نستنتج من المقارنة المذكورة أعلاه ما يلي:

– التقية الشرعية تختلف تماما عن التقية الشيعية؛ حيث إن التقية الشرعية جاءت استثناء في أحوال اضطرارية معينة؛ كالإكراه، أما التقية الشيعية، فهي من أصول الدين، ولا دين لمن لا تقية له.

– التقية الشرعية تستخدم مع الكفار والمشركين، وليست مع المسلمين، كما هو سياق الآية الكريمة في سورة آل عمران. أما عند الشيعة والتقية فتستعمل مع أهل السنة والجماعة على وجه الخصوص.

– التقية الشرعية ليست هي من أصول الدين بحيث يكفر تاركها، أو يخرج من الملة، كما هو معتقد به عند الشيعة، فهي تكون عند هؤلاء في جميع الأحوال من غير تفريق بين أحوال السعة والاختيار، وبين أحوال الإكراه والاضطرار.

بناء على هذه المقارنة يمكننا وضع قياس على التقية التي اعتمدها مسلمو اسبانيا، وبالتالي الإقرار بأنها تدمج ضمن التقية الشرعية وليس الشيعية أو حتى تلك التي استعملها اليهود والنصارى من قبلهم، وفي هذا السياق سيكون لنا وقفة مع أهم المعطيات التاريخية التي على أساسها تم الفصل في الموضوع، وذلك في الفصل الثاني من هذا الباب. على أن هذا الرأي يبقى قابل للنقاش من وجهة نظر الشرع الذي يرى بأن التقية لا يمكن اعتمادها لفترة طويلة من الزمن.

# الفصل الثالث:

# التقية بين الاجبار والاختيار

## المبحث الأول: التقية بين الاختيار والإكراه

## 1)-الفرق بين الضرورة والاكراه

## 2)- محاولات تطبيق التقية في العبادات والمعاملات

## المبحث الثاني: التأسيس الشرعي لمبدأ التقية

## 1)- نظرة السلطات الإسبانية للتقية

## 2)- فتوى الفقيه أبي جمعة الوهراني بالتزام التقية والبقاء في اسبانيا

## 3)- الاستناد إلى السنة النبوية كأداة لتبرير قرار البقاء

## المبحث الثالث: الحلول البديلة على استعمال التقية

## 1)- الهجرة وسيلة لحفظ الروح والدين

## 2)- الجهاد المسلح خيار لا مفر منه

قد يتبادر إلى أذهان البعض ممن لا يستوعب المفاهيم القرآنية وتنظيم الشريعة للعلاقة بين الأحكام والمواقف والأمر الواقع، أن التقية فكرة تحول المسلم الى إنسان متعايش مع الأمر الواقع مع ما فيه من ظلم وفساد وانحراف، وأنها تربية تفرز الازدواجية واصطناع التوافق، فتقود الى النفاق، والرضا بكل ما يحيط بها فتنصرف عن مواجهة الظلم ومحاربة الفساد والانحراف تحت ستار الخوف على المال والنفس والكرامة.

غير أن هدف التقية هو معاكس لهذا الفهم تماما، إذ هي شرعت لتمكن المسلم الذى يعيش في ظروف القهر والإرهاب الفكري وأجواء الانحراف المسلطة عليه بالقوة، شرعت لتمكنه من المقاومة

والعمل على التغيير بشكل بعيد عن أعين القوى المتحكمة والمتسلطة، فمفهوم التقية، هو مفهوم التكتم والسرية في العمل السياسي والفكري الذى لا يروق للسلطة المستبدة والقوى المعادية للاتجاه السليم.

ومفهوم التقيه لا يلغى فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، بل يتحول عمل الفرد والجماعة التي ترى الفساد السياسي والفكري ولا تستطيع الاعلان عن مواجهته، يتحول العمل عندها الى عمل سرى، وإعداد بعيد عن أنظار المستبدين، فإذا توفرت القدرة على التغيير، تم الإعلان عن المواجهة المكشوفة والصراع الواضح لتغيير البناء السياسي والفكري والاجتماعي على أساس منهج القرآن ودعوته.

لهذا كله مثلت التقية عند مسلمي اسبانيا آلية لم تكن طبعا جوهريا في نفوس هؤلاء، بل إنما كانت حيلة دفاعية وسلوكا تطبعيا قابل للزوال بزوال مسبباته وظروف التهديد القاسية. ومن هنا يمكننا أن نتصور سياقا يضطر فيه كل أبناء الجماعات القوية (ويمكننا أن نستثني من هذا الحكم من يمتلك منهم الجرأة وقوة التحمل) إلى الاحتماء بالتقية والتطبع بأسلوب العيش المزدوج، وذلك إذا ما وجدوا أنفسهم، فجأة، في ظل علاقات قوة أخذ ميزانها في الميل لصالح الإسبان على حسابهم.

هذا يعني أن التظاهر أو الحياة المزدوجة القائمة على ثنائية الظاهر والباطن إنما كانت حيلة دفاعية اتخذها مسلمو اسبانيا لاتقاء أذى السلطات الاسبانية، ذلك أن هذه الأخيرة كانت في موقع قوة وهيمنة، وهي حيلة لجأوا إليها إذا طلبا للنجاة والسلامة فكانت السرية والتكتم نتاج ظروف

خارجية مرتبطة بالعزلة وبعلاقات القوة، ولم تكن بدافع داخلي فرضته أخلاق غيرية جعلت منتجي هذه الخطابات يشفقون على الآخرين مما سينتابهم من أذى نفسي وشعور ثقيل بالإهانة والتحقير.

وإلا ماذا يهم هؤلاء لو اطلع أحد المستهدفين بالكراهية على خطابات الكراهية والتحقير والإهانة بحقه وحق جماعته؟ صحيح أن هذا الأخير سيستفز وسينتابه شعور بالمرارة والحقد، لكن هذا لن يغير في الأمر كثيرا. إلا أن التغير الذي سيحصل، هو قلب كل المعادلات القديمة.

ولكن ثمة اعتبارات ومتغيرات خارجية أخرى استجدت وفرضت عليهم عدم المواجهة واستفزاز الطرف العدو بصورة علنية. ولا يهم، بعد هذا، أن نسمي هذا السلوك نفاقا أو تقية أو مجاملة أو مراعاة. فهل استنفذ مسلمو إسبانيا كل السبل وعليه كانوا مرغمين على انتهاج أسلوب التقية طيلة أكثر من قرن؟، وهل مسلمو اسبانيا باستعمالهم لأسلوب التقية كانوا مخيرين أو مجبرين لذلك؟ وهل اتباعهم لهذا المبدأ كانت ضرورة أو إكراها؟

## – المبحث الأول: التقية بين الاختيار والاكراه

ما هو متعارف عليه عند علماء الاجتماع والسياسة، وأكده المؤرخون أن الضعيف العاقل هو الذي يصالح عدوه إذا اضطر إليه، ويصانعه، ويظهر له وده، ويريه من نفسه الاسترسال إليه إذا لم يجد من ذلك بدا، ثم يعجل الانصراف عنه حين يجد إلى ذلك سبيلا. هذا مبدأ معظم الضعفاء العقلاء من البشر في كل مكان وزمان.

وهذا كان حال مسلمي شبه إسبانيا المعروفين تاريخيا باسم "الموريسكيين"؛ فبعد صدور مرسوم الطرد الذي كان يخيرهم بين الترحيل أو التنصير الإجباري؛ أمام هذه الأوضاع اضطر هؤلاء

إلى التكتم على دينهم وستر هويتهم الحقيقية والحفاظ عليها في السر والتظاهر علنا باعتناق الدين الجديد (الكاثوليكية).

وبهذا أصبح المسلمون في إسبانيا بالاسم وفي العلن فقط، فيما هم يحافظون على دينهم وهويتهم الحقيقية في السر والخفاء وداخل البيوت. واستمرت هذه الوضعية قرنا كاملا، أي إلى غاية طرد النهائي العام 1018هـ/1609م. وقبل التطرق إلى الإجابة على التساؤل المذكور أعلاه يجب عرض مقارنة موجزة بين الضرورة والإكراه.

**1)– الفرق بين الضرورة والإكراه:** ثبت عبر التاريخ الإسلامي بالاستقراء أن شريعة الإسلام جاءت لتحصيل مصالح الإنسان في المعاش والمعاد جلبا للنفع له، ودرءا للمفاسد عنه، فهي رحمة كلها وعدل كلها، وحكمة كلها وكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه، وحكمته الدالة عليه.

لهذا حثنا التشريع الإسلامي على حفظ الروح والعرض والمال، وهو ما بحثه الفقهاء قديما تحت موضوع "دفع الصائل"، وأن مشروعيته ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع والأثر والمعقول، وأنه قائم على منع الضرر ودفعه بأيسر ما يمكن، وأنه يختلف عن حالتي الضرورة والإكراه في جوانب ويتفق معه في جوانب أخرى.

ذلك أن العلاقة والصلة بينهما وبين الدفاع الشرعي علاقة وثيقة وهي وجود الاضطرار، أو التهديد بخطر حال على النفس أو العرض أو المال، تؤدي إلى ارتكاب الفعل المحرم، ولذلك اعتبر

الفقهاء كلا من الدفاع الشرعي الخاص والضرورة والإكراه المادي، تطبيقات لقاعدة "الضرورات تبيح المحظورات". وقبل التطرق إلى وضع أسس لقاعدة الضرورة والاكراه لنا وقفة مع وضع مفاهيم لهذين المصطلحين.

***– مفهوم الضرورة والإكراه لغة واصطلاحا:** خلق الله تعالى الإنسان وهو العالم بقدراته وطاقاته، لهذا الأمر فلم يكلف نفسا إلا وسعها، ولم يؤاخذ سبحانه عز وجل إنسانا إلا بما فعله مختارا ذاكرا غير مكره ولا ناس ولا مضطر، وهذا من تمام الدين ويسر الشريعة ومراعاتها لمصالح الناس الآنية والمستقبلية، ومن المسائل التي عنيت بها الشريعة الإسلامية مسألة الإكراه والضرورة وأثرهما على الأحكام الشرعية، بصفة عامة، وعلى عقيدة المسلم على وجه الخصوص.

فالضرورة لغة: هي "الحاجة والشدة لا مدفع لها، وهي اسم مصدر الاضطرار وهو الاحتياج إلى الشيء، واضطره إليه: "أحوجه وألجأه، فاضطر"[1].

وقد ورد مصطلح الضرورة في القرآن الكريم في عدة مواضع نذكر منها قوله عز وجل في محكم تنزيله:" **إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ**"[2]. والمقصود من قوله تعالى: **"غير باغ"** أي غير طالب له وراغب في لذاته، وقوله:" **ولا عاد**" أي متجاوز قدر الضرورة، وقال سعيد في رواية عنه ومقاتل بن حيان بهذا الصدد:" **غير باغ يعني غير**

[1]– ابن منظور، المصدر السابق، ج: 4. ص:483.

[1]– سورة البقرة، الآية رقم: 173.

**مستحلة**" وقوله: "**ولا عاد**" أي متجاوز قدر الضرورة، ومعناها " **لا يعدو به الحلال**". وقوله سبحانه "**فلا إثم عليه**" أي يباح له، وهكذا فالجائز عند الضرورة هو مقدار ما يدفع به الضرر[1].

وقوله أيضا سبحانه وتعالى:{**فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**}[2].

وقد ورد في تفسير الآية الكريمة أن الله عز وجل يعلم حاجة عبده المضطر وافتقاره إلى ذلك، فيتجاوز عنه، ويغفر له، وفي المسند وصحيح ابن حيان عن ابن عمر مرفوعا قال: قال رسول الله ﷺ:" **إن الله يحب أن تؤتى رخصته كما يكره أن تؤتى معصيته**". وفي لفظ لأحمد "**من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الإثم مثل جبل عرفة**"[3].

وعليه فأحكام الضرورة استثنائية، ولا وجود لضرورة دائمة في كل الأوقات، وعامة في جميع المكلفين؛ لأن ذلك يؤدي إلى زوال أحكام شرعية من أصلها، ونسخها وإبدالها بأحكام أخرى، وفي ذلك إبطال للشرع وهدم للدين. كما يتبين مما ذكر أعلاه أن الضرورة حالة طارئة، محدثة للمكلف ضررا ومشقة وخطرا متوقعا على دينه أو نفسه أو عقله أو عرضه أو ماله، فيرتكب حراما لدفع ضرر تلك الحالة؛ فتكون الضرورة بذلك شاملة لشوارد الحالات المتعددة التي يدخل فيها على المكلف حرج وضيق ومشقة.

والإكراه لغة عند ابن منظور مصدره "أكره، يقال: أكرهته، إذا حملته على أمر هو له كاره"[4]. أما اصطلاحا فقد ورد ذكر هذا المصطلح في القرآن الكريم في قوله عز من قائل:{ **لَا إِكْرَاهَ**

---

[2]- ابن كثير، المصدر السابق، ج: 1. ص:203.

[3]- سورة المائدة، الآية رقم: 3.

[4]- المصدر السابق، ج: 2. ص: 16.

[1]- ابن كثير، المصدر نفسه، ج: 12. ص: 81.

**فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}**[1].

فأما قوله تعالى: " **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**" أي لا تكرهوا أحدا على الدخول في دين الإسلام، فإنه واضح، جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام، وشرح صدره، ونور بصيرته، دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرها مقسورا[2].

يبدو مما سبق عرضه أن المعنى فيها متقارب من حيث أن المكلف يضطر إلى الفعل بسبب ضغط لا يقوى على رده، وبعبارة أخرى أن الأمر المشترك بين العبارات المتقدمة تقيد الإكراه بوجود مؤثر خارجي يلجئ من خلاله الفرد إلى فعل شيء لا يريد فعله، فإذا زال هذا المؤثر، فلا بد أن يعود المكلف إلى أصل العمل، ولذا قال الفقهاء بأن فعل المكره لا ينسب إليه وإنما ينسب للمُكرِه.

***– رأي الشرع في المكره والمضطر**: المتتبع للشروح المتقدمة أعلاه يدرك أن هناك فرق بين الإكراه والاضطرار، وقد اتضح ذلك جليا من خلال مواطن هذين المصطلحين في القرآن الكريم لهذا علينا تقديم بعض النقاط التي من خلالها يمكننا معرفة هذا الفرق ونجملها فيما يأتي:

– تعتبر حالة الضرورة أعم من حالة الاكراه.

– الاكراه يدفع المكرَه إلى إتيان المحظور من قبل شخص آخر بقوة الاكراه .

[2]– سورة البقرة، الآية رقم: 256.

[3]– المصدر السابق، ج: 1. ص: 305.

وأما في الضرورة فلا يدفع المرء إلى ارتكاب المحظور أحد، وإنما يكون المرء المضطر في ظرف خاص صعب يقتضي الخروج منه ارتكاب المحظور؛ لكي ينقذ نفسه أو عائلته من الهلاك المحتم، كالاضطرار إلى أكل لحم الميتة في حالة الجوع الشديد مع عدم وجود ما يؤكل غيره.

– والفرق الآخر هو أن امتناع المكرَه عن تنفيذ ما أُكرِه عليه قد يكون في بعض صور الاكراه واجبا عليه كما في الاكراه على القتل مثلا. وأما في حالة الاضطرار إلى ارتكاب المحرم لسد الرمق بعد الوقوع في مخمصة فالامتناع عنه حرام يعاقب عليه.

يمكن القول بأن الفرق الأَخير يعد من حيثية أُخرى اتفاقا بين الضرورة والاكراه، ذلك أن كلا منهما يهدف إلى صيانة النفوس من التلف. وهذا لا يعني انعدام الصلة بينهما إلا في هذه الحيثية، بل هناك جوانب اتفاق بين الضرورة والاكراه. ومن بين النقاط التي تجمع بين المصطلحين نذكر:

– أن الفاعل فيهما لا يجد سبيلا للخلاص من الشر المحدق به غير ارتكاب المحظور.

– اتفاقهما من جهة ترتب الآثار على نفس الفاعل.

– من نقاط الاتفاق الواضحة بينهما هو أن الضرورة تجعل المحظور مباحا كما مر في قاعدة (الضرورات تبيح المحظورات)، وكذلك الحال مع الاكراه، إذ يبيح ارتكاب بعض المحرمات، ومنها المساس بحقوق الآخرين[1].

على هذا الوجه يدخل الاكراه في مفهوم الضرورة العام الذي يعني تحققها بمجرد حلول خطر لا يندفع إلا بمحظور. فالاضطرار الى فعل المحرم نتيجة للخوف أو الهلاك أو وقوع الضرر الشديد

[1]– محمد محمود عبدالعزيز الزيني، الضرورة في الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي، الإسكندرية: مؤسسة الثقافة الجامعية، د ط، 1993م. ص: 59.

بالمضطر قد يكون بتهديد الغير للمضطر كما في الإكراه، وقد يكون ناتجا عن ظرف طارئ قهري، أو عارض شديد، كالمخمصة وشدة الحاجة والعطش، وهذا أعم من تهديد الغير.

إلا أن تهديد الغير بإيقاع الضرر لا يعتبر ضرورة إلا إذا بلغ الضرر حد الهلاك أو قطع الأطراف أو تفويت منافع الأعضاء، فإذ لم يصل الضرر إلى هذا الحد لا يكون ضرورة ملجئة .كما في حالة المخمصة والعطش الشديدين .[1]، ولذلك ينفرد الإكراه عن الضرورة في صور كالضرب الشديد الذي لا يفضي إلى الهلاك أو إهانة ذوي المروءة ممن تعتبر الإهانة في حقهم ضررا بالغا.

**2)– مجالات تطبيق التقية في العبادات والمعاملات:** في ظل قوانين ومراسيم كنيسة تضيق الخناق على مسلمي اسبانيا وتتتبع تصرفاتهم حتى داخل البيوت وتقدم كل مشكوك في أمره إلى محاكم التحقيق التي لا تتوانى في إصدار أقسى العقوبات، مثلما دون في ملفاتها ومحاضرها، أصبحت التقية في هذه المرحلة استراتيجية هامة للحفاظ على الشخصية الإسلامية في أوساط الجماعة المسلمة خفية عن أعين عمال محاكم التحقيق.

وبذلك تخلص مسلمو اسبانيا مما يجب عمله، إذ أجبر على التنكر لعقيدته واعتناق ديانة أخرى، وأكثر من هذا فإن اختيار البقاء في أرض أجدادهم وآبائهم غير ممكن إلا إذا انتهج صاحبه أسلوب التقية التي أصبحت قارب بمثابة النجاة، ثم صارت موقفا سياسيا بالنظر إلى الأوضاع المحلية، فلم يكن من السهل مفارقة الوطن الذي ولدوا على أرضه ونشأوا تحت سمائه وامتزج حبه بدمائهم وعمرها آباؤهم وأجدادهم ما يقارب الثمانية قرون.

[2]– علي الشملاوي، التقية في إطارها الفقهي، دمشق: د د ن، 1411هـ. ص: 136.

أمام كل هذه المعطيات أصبحت التقية الرفيق الدائم الذي لا يفارق المسلم في إسبانيا، سواء في المعاملات أو العبادات، وأسلوب حياة جديد سيمكنهم من الحفاظ على مقومات شخصيتهم الإسلامية، وضمان بقائهم في أرض الوطن دون التعرض لبطش وتنكيل عمال محاكم التحقيق التي لم تكن تتوانى أبدا في القبض على أي فرد تشك في مصداقية تبنيهم للعقيدة النصرانية الكاثوليكية.

*– **ممارسة التقية في المعاملات:** ليس من السهل التستر عند القيام بأي عمل ما، والكتمان قد لا يكون مضمون النتائج، في وسط أقل ما يمكن وصفه أنه كان متعصبا وبربريا في تعامله مع المسلمين؛ ومن يمارس أسلوب التقية والمداراة عليه دوما التأكد من عدم اكتشاف أمره، خاصة وأن هذا عليه كان يعرضه إلى خطر أعداء لا يرحمون.

وهذا هو الشأن الذي كان عليه مسلمو إسبانيا في اختيارهم لأسلوب التقية، لذا نجدهم تفننوا في استخدام المداراة والكتمان. وتعددت عندهم أساليب التقية وأصبحت الصيغة الغالبة على تصرفاتهم هي صفة التحايل، وشمل هذا الأخير على مختلف نواحي لدى مسلمي اسبانيا بدء حديث أين يجب التلاعب بالألفاظ خاصة تلك المتعلقة بالقداس أو شتم الرسول الكريم ﷺ عند الطلب، وصولا إلى الأكل والاغتسال والصلاة والصوم وما إلى ذلك من مجالات الحياة اليومية للمسلم، فمسلمو اسبانيا عموما أصبح يعيش حياة المداراة بصفة طبيعية في كل معاملاته اليومية، ولا يظهر عليه أي أثر للمداراة إلا في حالات نادرة.

على هذا الأساس بذل مسلمو اسبانيا كل ما يملكون من جهد للحفاظ على دينهم بالاعتماد على سياسة المداراة والمصانعة، ذلك أنهم لم يجدوا من سبيل يسمح لهم بالعيش في سلام

وسط التركيبة الاجتماعية الجديدة لإسبانيا النصرانية الكاثوليكية، التي حملت على عاتقها مهمة تنصير جميع المسلمين الباقين في إسبانيا.

فرغم ضروريات التقية التي كانوا يمارسونها، إلا أنه الكل كان يجتهد ويعمل في حدود مكانته الاجتماعية وامكانياته الثقافية، فالفقيه كان يؤدي واجباته الإسلامية سرا، بتعليم أفراد جماعته أمور دينهم، وينظم شؤونهم، بينما كان يظهر بين الناس في شكل عامل من العمال.

ويتظاهر رئيس الجماعة بضعف الحيلة، والغني بالفقر، ويخفي التقي المسلم تقواه الإسلامية بمظاهر نصرانية[1]. كما حرص الآباء على تعليم أبنائهم، منذ نعومة أظفارهم، الحذر من النصارى، ويؤكدون عليهم بضرورة التستر والحذر على أساس أن التقية هي أحسن وسيلة للبقاء في كنف أسرتهم وبين ذويهم[2].

كما عمد مسلمو اسبانيا على الحفاظ بعادتهم وتقاليدهم قدر الامكان، وكلما سمحت لهم الظروف بذلك، فكانوا يقيمون الاحتفالات فيما بينهم سرا في مناسبات كثيرة، كالزواج والختان وولادة مولود جديد؛ فكان بمجرد العودة من الكنيسة كانت تسرع الأم في إزالة آثار التعميد وتعطيه اسما عربيا في وسط احتفال سري مع الأصدقاء[3]؛ كما حافظوا على الطهارة بالاغتسال سرا. كل هذه المجهودات المبذولة لم تكن سوى دليلا قاطعا على عدم اندماج مسلمي إسبانيا في البيئة النصرانية الكاثوليكية ورفضهم لها.

---

[1]- عبد الله عنان، انبعاث الإسلام في اسبانيا، (المرجع السابق). ص ص: 202، 203.

[2]- المرجع نفسه. ص: 203.

[1]_ Marmol Carvajal, Historia Rebellon y Castigo de los moriscos, Madrid : Del rieno de de Crenada, 1946. P : 128.

أيضا اختلط مسلمو اسبانيا مع النصارى في النهار لدرجة توهم المراقب باندماجهم التام في المجتمع النصراني. غير أنهم كانوا في الحقيقة حريصين على الاحتفاظ بهويتهم الإسلامية، فكانوا يتكلمون فيما بينهم اللغة العربية، ويقيمون الشعائر الإسلامية.

فالغوص في يوميات المسلم في إسبانيا كشفت لنا عن حياة غنية بالصور التي تبين حرص هؤلاء المضطهدين على البقاء في دينهم، فحياتهم الاجتماعية كانت مليئة بمظاهر التستر والكتمان، وهذا راجع إلى الظروف الصعبة التي آلت إليها البلاد بعد سقوطها بين أيدي النصارى الإسبان، الذين حولوها إلى حلبة صراع حضاري، محاولين من خلال هذا الصراع القضاء على كل رموز الإسلام بالمنطقة.

***– ممارسة التقية في العبادات وكل ما تعلق بالشرع الإسلامي:** تعتبر العبادات باعتبارها العمود الفقري للدين الإسلامي، وبها يمكن قياس مدى حفاظ المسلم على مقومات الشخصية الإسلامية. والحديث على أسلوب التقية في مجال العبادات يعني جهود مسلمي اسبانيا في الحفاظ على دينهم، هذا الدين اكتسب . باعتباره أحد مقومات الوجود المميز لهم عن غيرهم . أهمية كبرى في الصراع العقائدي لكونه معقلا يلجؤون إليه حتى لا تذوب معالم شخصيتهم في العالم الجديد.

فمسلمو إسبانيا أصبحوا يعبدون دينين في آن واحد، فهم يعبدون دين النصارى جهرا ودين المسلمين في سرية وخفاء[1]، فمنذ سنة 907هـ/1502م كان من تبقى من المسلمين الذين غلبوا على أمرهم وأرغموا على اتباع الديانة النصرانية الكاثوليكية كرها، يتظاهرون بقبولهم هذا الدين حتى

[1]– الشهاب الحجري، المصدر السابق. ص ص: 3، 4.

يضمنوا البقاء في ديارهم إلى الأقل. فخلال هذه المحنة المؤلمة أصبحت تعاليم الإسلام وممارسته لدى مسلمي إسبانيا، فقد لبثت الجماعة المسلمة متماسكا محافظا على دينه رغم تنصيره بالقوة، مخلصا في سرائره للدين الإسلامي.

ولم تستطع الكنيسة بجهودها أن تحملهم على الولاء لدين غير ذلك الذي قاسوا في سبيل اعتناقه ضروبا من الآلام[1]، ورغم محاولات الإغراء التي مارستها السلطات الإسبانية على مسلمي اسبانيا إلا أنها لم تنجح في تنصيرهم قناعة واختيارا نظرا لأنهم لم يكونوا ليقنعوا طرفا آخرا بتبني عقيدة زائفة صعب على العقل السليم قبولها واستيعابها.

لذلك لجأت إلى استعمال العنف والارهاب المعنوي والجسدي من أجل تنصير هؤلاء المغلوب على أمرهم، فألزموا بالحضور للقداس، فكان حضورهم للكنيسة ليشاهدوا الاسبان فقط ويسخروا منهم في قرارة أنفسهم، كما تعمدت النساء المسلمات الجلوس بطريقة غير مؤدبة، وكثيرا ما كن يصطحبن أطفالهن الصغار ويأمرونهم بالبكاء عند القربان المقدس للتشويش على النصارى[2].

ومن هنا أصبح البحث عن سبل ناجحة قد تخلصهم من عقاب ملزم[4]" في حالة عدم حضورهم إلى القداس أمرا ضروريا، فلم يكن لهم إلا التظاهر بقبول الأمر، ولكن في الوقت نفسه يجدون سبلا لإظهار رفضهم لكل معتقد نصراني كاثوليكي.

---

[2]– عبد الله عنان، نهاية الأندلس، (المرجع السابق). ص: 342.

[3]_ Marmol Carvajal, Ibid. P : 210.

[4]_ Fournet Jaqueline, Les moresques Araconais et l'inquisition de Sarracosse (1540 _ 1620), Montepellier, 1980. P : 130.

أما الرجال فكانوا يضحكون ولا يبدون أي اهتمام، يتكلمون فيما بينهم في الوقت الذي يجب الصمت فيه؛ وإذا طلب منهم قراءة الإنجيل فإنهم لا ينطقون الكلمات سليمة ويختصرون الكثير من العبارات، وكثيرا ما كانوا يغلقون بيوتهم يوم الأحد موهمين الإسبان وكأنهم ذاهبون إلى الكنيسة[1]. وبذلك فكان ذهابهم إلى القداس يوم الأحد من باب مراعاة العرف والنظام، وليس اقتناعا بهذا الأمر؛ فالصراع بين الطرفين كان ديني وهو أعمق مما يمكن تصويره في هذه الأسطر.

كما حافظ مسلمو اسبانيا على أداء الصلاة في بيوتهم، فكانت تؤدى بسرية تامة خوفا من أعين جواسيس محاكم التحقيق؛ في حين كانت تؤدى صلاة الجمعة في المغارات أو أقبية البيوت جماعة، يؤمهم إماما يشترط فيه فقهه بأمور الشريعة الإسلامية، ومعرفته للغة العربية، وحفظه للقرآن الكريم[2]. فالبرغم من كل الوسائل والسبل المستخدمة لدمج مسلمي إسبانيا في الوسط النصراني الكاثوليكي، إلا أن هؤلاء رفضوا واتخذوا من التقية وسيلة للتعبير عن ذلك الرفض.

أيضا حافظ مسلمو اسبانيا على صيام رمضان إلى غاية سنة الطرد النهائي من إسبانيا، واتبعوا في ذلك عدة حيل حتى لا يكتشف أمرهم، فغالبا ما كانوا يغادرون بيوتهم طيلة أيام شهر رمضان المعظم لتجنب الاختلاط مع النصارى فيكتشف أمرهم؛ وفي حالة بقائهم في مناطق استقرارهم كانوا يتظاهرون أمام النصارى بأنهم أكلوا، أو يحتجون بمرض أصاب معدتهم[3]، خاصة وأن طبيعة مجاورتهم للنصارى في المسكن كانت كثيرا ما تؤدي إلى الوشاية بهم.

---

[1]_ Fournet Jaqueline, Ibid. P : 132.

[1]_ Fournet Jaqueline, Ibid. P : 136.

كما امتنع مسلمو اسبانيا عن أكل لحم الخنزير بل مآكل النصارى كلها، وشرب الخمر[1]، واتخذوا لذلك بعض الحيل لتفادي اكتشاف أمرهم في حالة إذا ما فرض عليهم فعل ذلك، فمثلا إذا اضطر أحدهم لأكل لحم الخنزير فإنه بعد ذلك كان يضع اصبعه في فمه ليتقيأ ما أكله. كما أن الكثير منهم ادعوا العمل في مزارع الكروم، للتظاهر بصناعة الخمور.

من خلال ما تم عرضه من معطيات تاريخية حول كيفية ممارسة مسلمي اسبانيا لشعائر الدين الإسلامي، فإننا أمام تحدي صارخ، وصمود كبير أمام كل أوجه الانسلاخ عن مقومات شخصيتهم الإسلامية بالرغم من الحرب الشرسة التي شنتها السلطات الإسبانية بكل مؤسساتها على الإسلام بصورة عامة.

***– الألخميادو وسيلة دفاع على الهوية الثقافية:** بما أن الصراع في جوهره كان صراعا عقائديا بين ديانتين مختلفتين عاشتا جنبا بجنب قرونا من الزمن على أرض الأندلس، فإن ركائز الحياة الثقافية من لغة وتعليم وتأليف تكون محور هذا الصراع. فالمسلم في إسبانيا الصامد لا يمكنه أن يرتبط بدينه من دون تعلم تعاليم هذا الدين، وقراءة القرآن والفقه.

والتعلم يعني معرفة جيدة باللغة العربية، لأن جدلية الارتباط بين هذه الأخيرة والإسلام وتشكلهما هي ثنائية يصعب الفصل بينهما. لذا اكتسبت الحياة الثقافية أهمية خاصة بين مسلمي اسبانيا، ولم تخل هي أيضا من اتباع أسلوب التقية، خاصة وأن الكنيسة الكاثوليكية أدركت مند

[2]– عبد الله عنان، نهاية الإسلام في الأندلس، (المرجع السابق). ص: 204.

البداية خطر التعلم على سياسة التنصير القسري التي انتهجتها وعولت عليها كثيرا في محو معالم الدين الإسلامي من اسبانيا.

فمند اللحظات الأولى لسقوط غرناطة، أدركت السلطات الاسبانية خطر بقاء اللغة العربية بين مسلمي اسبانيا، فبدأت بسن القوانين التي تمنع استعمالها كلغة تخاطب وتعامل وتأليف؛ كما أقدمت على حرق كل التراث الإسلامي في المنطقة[1]، كل هذه المحاولات المبذولة لم تكن لتجد نفعا أنا اصرار وصمود مسلمي اسبانيا في البقاء مخلصين للدين الإسلامي.

لذلك كان عليهم الاجتهاد والبحث عن سبل كفيلة بأن تنقذ ثقافتهم الإسلامية من التلاشي والضياع، فما كان لهم إلا أن أبدعوا في ابتكار لغة تخاطب جديدة تمكنهم من التفقه في أمور دينهم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى تجعل لغة القرآن خالدة بينهم إلى غاية ساعة الطرد النهائي من إسبانيا.

لغة الألخميادو[2]، هي اللغة التي ستكون حلا بديلا على تحريم تداول اللغة العربية، فقد أصبحت هذه اللغة بحكم التزامهم بمبدأ التقية لغة تأليف وتدارس بينهم؛ إذ حرصت النخبة المثقفة منهم على توفير ترجمات الى اللغة "الألخميادو" حتى تكون مفهومة من طرف جميع مسلمي اسبانيا، وتكون بمثابة الوسيلة الوحيدة المتاحة أمامهم للولوج الى عالم القرآن، لأن اللغة العربية توشك أن تنقرض من حياتهم بحكم الظروف القاسية كحظرها ومصادرتها واتهام المتلبس بها بالجريمة العظمى.

[1]- لمعرفة تفاصيل أكثر حول الموضوع ينظر: الفصل الرابع من هذا الباب.

[2]- حول الموضوع العودة إلى الفصل الخامس من هذا الباب.

فمثل هذه الظروف هي التي أوجبت عليهم اعتماد أسلوب "التقية" انطلاقا من التوجيه القرآني الذي يراعي قبل كل شيء اليسر والأمان للمسلم وعدم الالقاء بالنفس الى التهلكة إذا احتدم الصراع وحل فيه الكفر عن الايمان[1]. وهذه الأسباب والدوافع هي التي ألجأت مسلمي اسبانيا الى اتباع أسلوب التقية كحل لا خيار معه.

فحدة الصراع في الحياة الثقافية لم تكن أقل منها في الجانب الاجتماعي، ومثلما تحدى مسلمو اسبانيا صيغ التعميد القسري، وحافظ على عادات وتقاليد أجداده. فهو أيضا أبدع في ممارسة ثقافة خاصة به، معتمدا أسلوب التقية كما في باقي شؤون حياته، وبذلك تحولت ثقافته إلى ثقافة الكل ضمن السياق الإسلامي السري.

وبهذه الطريقة استطاع مسلمو اسبانيا الإبقاء على حبل الارتباط بينهم وبين أصولهم العربية الإسلامية داخل وسط يصعب على المرء فيه الحفاظ على شخصيته دون اللجوء إلى أساليب ناجحة، واستعمال ذكاء خارق، والاستماتة في المواجهة وابتكار الوسائل الكفيلة ببقاء الاتصال مع مقومات الشخصية الأصيلة مع خطر الأعداء المتربصين.

## – المبحث الثاني: التأسيس الشرعي لمبدأ التقية

سقطت غرناطة – آخر قلاع المسلمين في إسبانيا- سنة (897هـ/1492م)، وكان ذلك نذيرا بسقوط صرح الأمة الأندلسية الديني والاجتماعي، وتبدد تراثها الفكري والأدبي، وكانت مأساة المسلمين هناك من أفظع مآسي التاريخ؛ حيث شهدت تلك الفترة أعمالا بربرية وحشية ارتكبتها

[1]- مخطوط ألخميادي محفوظ بمكتبة مدريد تحت رقم: 9656. نقلا عن: سلمى الخضراء الجيوسي، المرجع السابق. ص: 6.

محاكم التحقيق لتطهير إسبانيا من آثار الإسلام والمسلمين، وإبادة تراثهم الذي ازدهر في هذه البلاد زهاء ثمانية قرون من الزمان.

أمام هذه الأوضاع فضل فريق منهم الهجرة كثير إلى دول المغرب بعد سقوط مملكتهم؛ فرارا بدينهم وحريتهم من اضطهاد النصارى الإسبان لهم، وعادت إسبانيا إلى دينها القديم، أما من بقي من المسلمين فقد أجبر على التنصر أو الرحيل، وأفضت هذه الروح النصرانية المتعصبة إلى مطاردة وظلم وترويع المسلمين العزل، انتهى بتنفيذ حكم الإعدام ضد أمة ودين على أرض إسبانيا. فقد نشطت هذه المحاكم الذي يدعمه العرش والكنيسة في ارتكاب الفظائع ضد مسلمين اسبانيا، وصدرت عشرات القرارات التي تحول بين هؤلاء المسلمين ودينهم ولغتهم وعاداتهم وثقافتهم، فقد أحرق الكردينال "خمينيس" عشرات الآلاف من كتب الدين والشريعة الإسلامية.

كما صدر أمر ملكي سنة 917هـ/1511م يلزم جميع السكان الذي تنصروا حديثا أن يسلموا سائر الكتب العربية التي لديهم، ثم تتابعت المراسيم والأوامر الملكية التي منعت التخاطب باللغة العربية وانتهت بفرض التنصير الإجباري على المسلمين، فحمل التعلق بالأرض وخوف الفقر كثيرا من المسلمين على قبول التنصر ملاذا للنجاة، ورأى آخرون أن الموت خير ألف مرة من أن يصبح الوطن العزيز مهدا للكفر، وفر آخرون بدينهم، وكتبت نهايات متعددة لمأساة واحدة هي رحيل الإسلام عن الأندلس الضائعة.

**1)– نظرة السلطات الإسبانية لمبدأ التقية:** لقد أصدرت السلطات الإسبانية مجموعة من القوانين التي كانت تستهدف استئصال هوية المسلمين من خلال إجبارهم على الحديث باللغة، في

مدة أصاها ثلاث أعوام، وتحريم الحديث والقراءة والكتابة باللغة العربية في السر والعلن، وبطلان العقود المكتوبة بها، ووجوب التسليم الفوري لجميع الكتب العربية لسلطات محاكم التحقيق في غرناطة، وإجبارية تغيير أسماءهم العربية مع تحريم إطلاق الأسماء العربية على المواليد الجدد.

كما منعت الثياب الإسلامية، وتحريم شعائر الاحتفالات والطقوس الإسلامية في الميلاد والزواج والموت، وغيرها من القوانين الجورية التي مست كل ما له صلة بالإسلام، وكل من يكتشف أمره أنه ما زال متمسك بعقيدته الإسلامية، فإن مصيره الإعدام حرقا في احتفالات، أكدت على العنصرية والوحشية التي وصفت اسبانيا خلال القرنين السادس والسابع عشر ميلاديين.

وبهذا احتدم الصراع الفكري بين أقلية مهمشة ومغلوب على أمرها ـ مسلمي اسبانيا ـ، وأغلبية متسلطة ومتعصبة حاولت بكل السبل والوسائل تنصير هذه الأقلية، ولرفض مسلمي إسبانيا البوثقة في الثقافة النصرانية الكاثوليكية، عمدت الفكر الاسباني يفكر ويجتهد في تغليط وتشويه وتزييف كل ما اجتهد فيه المسلمون من بدائل لحماية مقومات شخصيتهم الإسلامية. إذ أن الغفلة عن بناء الذات، وإكسابها المناعة الثقافية والحضارية والعسكرية، هي التي تستدعي السقوط، وتستدعي الأعداء ليأخذوا نصيبهم من اقتسام الضعيف، والسلاح هنا لا يقتصر على الشوكة العسكرية، وإنما ينضم له بناء الشوكة الفكرية والثقافية، التي تمثل ميدان الصراع الحقيقي، لكن الغفلة وإعفاء الذات.

فالتطورات التي حصلت في إسبانيا على غير صعيد فتحت الوضع على التغيير، أي أن ثمة تغييرا جذريا في ركاب التطورات، يدق أبواب منظـومة المنطقة وبناهـا. والمنطقة إذ تشهد تغييرا أو هي تقبل على تغيير، يسارع الى توضيح أن أمامها ثلاثة خيارات.

الأول هو "تغيير الضرورة"، ما يفهم منه أنه "تغيير ذاتي"، أي التغيير الذي تتم المبادرة إليه فيأخذ في الاعتبار المصالح والخصوصيات ومنطق التطور نفسه. أما الثاني فهو "تغيير الإكراه" أي ذلك الذي يأتي مفروضا بالقوة في ظل توازن قوى سياسي ـ عسكري، ويعززه التخلف عن المبادرة، فينتج تغييرا يمس في معظمه بالثوابت والهويات والخصوصيات لدى الأمة.

أما الثالث، فليس خيارا في حقيقة الأمر، بقدر ما هو نتيجة للتخلف عن المبادرة والإقدام، وهو أن يورث عنوان التغيير للأجيال المقبلة، أي أن يورث الجيل الذي عاصر فترة التنصير القهري للأجيال الاشكاليات كافة. وأمام كل هذه المعطيات لم يكن أمام السلطات الإسبانية ـ الدينية والسياسية ـ حلا سوى مهمة "تنقية إسبانيا" من أي فكر أو عقيدة غير الكاثوليكية.

لهذا خاضت إسبانيا صراعا فكريا بعدما حققت انتصارها العسكري والسياسي، ضد الأقلية المسلمة التي بقيت في أرض كانت في الماضي القريب أرضهم وأرض الإسلام. ومن بين المهام التي أوكلت إلى رجال الدين الكاثوليك التفكير والاجتهاد في إيجاد سبلا كفيلة بوضع حد للوجود الإسلامي في المنطقة، ذلك أن السلطات السياسية كانت متأكدة من أن سقوط الأندلس لم يكن يعني أبدا خروج الإسلام منها، ولكنها هو سقوط لنموذج الحكم الإسلامي فقط.

لهذا سارع رجال الدين في تزييف الحقائق واطلاق التسميات التي من شأنها تحقير وتقزيم أي اجتهاد فكري قد ينتجه المسلم في إسبانيا في معركته مع قوى الظلم والطغيان. ومن النصوص التي احتفظت لنا بها المصادر التاريخية الدالة على رأي السلطات الإسبانية الدينية وموقفها من استعمال مسلمي اسبانيا للتقية هذا النص التاريخي الذي وصف من خلاله المطران "جريرو" هذا الأمر بقوله:

**«...إنهم خضعوا في الظاهر للتنصير، ولكنهم لبثوا كفرة في سرائرهم، وهم يذهبون للقداس تفاديا للعقاب، ويعملون خفية في أيام الأعياد، ويحتفلون بيوم الجمعة أفضل من احتفالهم بيوم الأحد ويقيمون الصلاة خفية، ويقدمون أولادهم للتعميد خضوعا للقانون، ثم يغسلونهم في البيوت لمحو آثار التنصير، ويجرون ختانهم، ويطلقون عليهم أسماء عربية، وتذهب عرائسهم إلى الكنائس في ثياب أوروبية، فإذا عدنا إلى المنزل استبدلنها بثياب عربية، واحتفل بالزواج طبقاً للمراسم الإسلامية..."**[1]

من خلال ما ورد في هذا النص التاريخي اتضح جليا موقف السلطات الاسبانية الدينية من ممارسة مسلمي إسبانيا للتقية، فهؤلاء كانوا ينظرون إليها على أساس أنها وسيلة دفاع شرعية لابد منها في ظل الرهانات القائمة بين الطرفين، أما الاسبان فكانوا يرون أنها نفاقا وكدبا وضعفا وزيفا، محاولين في ذلك الحط من اجتهادهم الفكري في إيجاد منفذا أو مخرجا للحفاظ على مقومات شخصيتهم الإسلامية.

وبهذا فقد شهد لهم حتى أعداؤهم ببقائهم على دينهم، ففي تقرير رفع إلى الإمبراطور كارلوس الخامس ورد فيه أن كل " الموريسكيين" رغم المحن لم يكن بينهم من يدين بالنصرانية[2]، والأمر نفسه أكد عليه أعضاء لجنة التحقيق التي شكلها الإمبراطور للتحقق من سير عملية التنصير في أوساط المسلمين.

فقد فرضت الظروف القاهرة على مسلمي اسبانيا العيش ضمن حياة مزدوجة مشطورة إلى

---

[1]- جمال يحياوي، المرجع السابق. ص: 183.

[2]- المرجع نفسه. ص: 183.

نصفين: حياة حقيقية وصادقة في البيت وفي السر، وحياة مزيفة ومن باب التظاهر في العلن وأمام الناس ومحاكم التحقيق التي كانت ترتاب في صدق إيمانهم وتتربص بهم. ويطلق الضعفاء المغلوبون على أمرهم اسم «التقية» على هذا النوع من الحياة المزدوجة، إلا أن الأقوياء يعدونها رياء ونفاقا يستحق الشجب والإنكار وحتى العقاب.

## 2)– فتوى الفقيه أبي جمعة الوهراني بالتزام التقية والبقاء في اسبانيا:

اتفق جميع الباحثين الدارسين في شبه اسبانيا أن مسلمي إسبانيا المتحولين قسرا إلى النصرانية قد عاشوا حياة مبهمة وفريدة، جمعوا فيها بين اعتناقهم الجبري للنصرانية وولائهم الخالد للإسلام، فعاشوا نصارى في الظاهر ومسلمين في الباطن. وتشبثوا بهذه الازدواجية العقدية طيلة القرن السادس عشر، محبطين بذلك جميع مشاريع إدماجهم، (الإعدام، التعذيب، الطرد والتشتيت ومصادرة الأملاك)، التي ترأسها الملك رأس هرم الدولة ومحكمة التحقيق أعلى سلطة دينية.

ومن بين أسرار تشبث مسلمي إسبانيا بدينهم الإسلامي، استمرار الفقهاء (رغم ما يترتب على ذلك من مخاطر جسيمة) في داخل وخارج الأندلس بتثبيت الناس ونشر الفتاوى التي كانت تحث على الهجرة (كفتاوى الونشريسي لمسلمي إسبانيا بوجوب الهجرة) أو التي كانت تنصح من لم يقدر على الهجرة بالحفاظ على الإسلام باطنا والاعتقاد به سرا. وهذا النوع الثاني من الفتوى هو الذي سنعرضه من خلال فتوى مفتي وهران أبي جمعة المغراوي لمسلمي إسبانيا.

فقد توفرت فتوى، – أو أكثر– رأت في بقاء المسلمين في اسبانيا، وبينت طرقا لمواجهة هذا الوضع الجديد والقمع الشديد، اعتبرها أكثر فقها وأوعى رؤية لظروف اسبانيا وأحسن إدراكا

لإمكانياته وطاقاته ومتطلباته والتزاماته وأعمق توجيها لمضامين الشريعة الإسلامية وأرقى فهما وأجود استجابة لأهدافها وانسجاما لأبعادها وتجاوبا لمهمتها.

ونقصد بهذا الأخير "أحمد بن الجمعة المغراوي"[1] الذي اعتمد على نصوص من القرآن والسنة، محاولا من خلال هذه الفتوى إقناع مسلمي اسبانيا بضرورة البقاء في اسبانيا تحت ظل الظروف الراهنة. ففي ظل الظروف العصيبة، أرسل أهل مسلمو غرناطة وقشتالة إلى علماء المغرب يستفتونهم في مصابهم وكيف يتعاملون مع قرار تنصيرهم الذي خيرهم بين الكاثوليكية والويل والثبور.

فقد أعطت الفتوى التي وجهها الفقيه أحمد بن الجمعة إلى مسلمي اسبانيا، آمالا جديدة حيث رفعت عنهم فريضة الهجرة، ودعتهم إلى استعمال أسلوب التقية، كما أعطت لهم حلولا تسهل عليهم كيفية ممارسة شعائرهم الدينية، وبذلك مثلت لهم هذه الفتوى المرجع الأساسي للمحافظة على هويتهم الإسلامية، مع البقاء في وطنهم الأم. ونظرا لأهمية هذه الفتوى فقد تم ترجمتها إلى اللغة الألخميادية[2]، نظرا لأهميتها بالنسبة لمسلمي اسبانيا[3].

---

[1]- **أحمد بن بوجمعة الوهراني:** هو أحمد بن أبي جمعة المغراوي ثم الوهراني الشيخ الفقيه الحافظ المطلع المحقق المشارك مات ما بين سنتي 920 . 930 هجري الموافق لـ 1514. 1524 ميلادي. وهو شريف النسب لأن بوجمعة "جده هو ابن محمد بن عمر الهواري، دفين وهران، بن عثمان بن عياشة بن عكاشة بن سيدي الناس بن أحمد بن محمد بن علي بن الأمير أمغار ابن أبي عيسى بن محمد بن موسى بن سليمان بن موسى بن محمد بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه". ينظر: محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران. ص: 37.

[2]- عثر بدرو لونغاس على الترجمة الألخميادية للفتوى بالأكاديمية الملكية بمدريد، وقد نشر جزءا منها سنة 1915م في كتابه "الحياة الدينية للمورسكيين"، و أجرى عليها تعديلات طفيفة. تاريخ النسخة العربية لهاته الفتوى المترجمة للألخميادو هو بداية رجب 910 هـ/1504م. بينما يعتقد أنها ترجمت للألخميادو سنة 1563م، حيث تحمل هذه النسخة هذا التاريخ.

[3]- كتبت فتوى أبي جمعة الوهراني سنة 1504 بالعربية، و حملت إسبانيا عبر بلنسية. و قد أعاد كتابتها مدجن أراغوني في العشرية الثانية من القرن 16م وحملها إلى أراغون مع نصوص عربية أخرى. هناك، و حينما فرض التنصير على مسلمي أراغون سنة 1526م، و بدأ ضغط محاكم التحقيق عليهم، ترجم مسلمو إسبانيا هذه الفتوى إلى اللغة الألخميادية سنة 1563م. و هي النسخة المحفوظة بمدريد. وفي سنة 1609م، و قبيل الطرد النهائي من إسبانيا، ترجم مسلمو الأراغون هذه الفتوى مرة أخرى إلى الألخميادو. و هي النسخة المحفوظة اليوم بفرنسا.

تعتبر الفتوى التي أصدرها الفقيه المغربي أحمد بن بوجمعة، مؤرخة في رجب من سنة 910هـ/ 28 نوفمبر 1524م وثيقة تاريخية ذات مدلولات متنوعة، كلها مهمة. يخاطب من خلالها مسلمي اسبانيا بعد ثلاثة عشر عاما من سقوطها، وبعدما بدا الاضطهاد الشديد والمنع العنيد والعنف البليد، في كل ما هو إسلامي، وبدأت عمليات التنصير والتهجير والتنكيل والتقتيل والتحكم والتهكم، بضرورة البقاء والدفاع على وجودهم ومقومات شخصيتهم الإسلامية[1] وجاء نص الفتوى المحفوظة في بعض خزائن ومكتبات العالم[2] كما وردت في بعض المراجع التاريخية كما يلي [3]:

**"الحمد لله والصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما"**

**إخواننا القابضين على دينهم، كالقابض على الجمر، ممن أجزل الله ثوابهم فيما لقوا في ذاته، وصبروا النفوس والأولاد في مرضاته، الغرباء القرباء إن شاء الله من مجاورة نبيه في الفردوس الأعلى من جناته، وارثوا سبيل السلف الصالح في تحمل المشاق وإن بلغت النفوس إلى التراق، نسأل الله أن يلطف بنا وأن يعيننا وإياكم على مراعاة حقه بحسن إيمان وصدق، وأن يجعل لنا ولكم من الأمور فرجا، ومن كل ضيق مخرجا.**

**بعد السلام عليكم من كاتبه إليكم، من عبيد الله أصغر عبيده وأحوجهم إلى عفوه ومزيده، عبيد الله تعالى أحمد ابن بوجمعة المغراوي ثم الوهراني.**

**كان الله للجميع بلطفه وستره، سائلا من إخلاصكم وغربتكم حسن الدعاء، بحسن**

---

[1]- ظلت هذه الفتوى مهمة إلى غاية سنة 964هـ/ 1563م.

[2]- عثر الباحث محمد عبد الله عنان أثناء أبحاثه بمكتبة الفاتيكان، وقد نشرها سنة 1958م في كتابه: "نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنصرين".

[3]- ينظر كل من: قشتيليو، محنة الموريسكوس، (المرجع السابق). ص ص : 115، 117. أيضا: عبد الله عنان، نهاية الأندلس، (المرجع السابق). ص ص: 342، 344.

**الخاتمة والنجاة من أهوال هذه الدار، والحشر مع الذين أنعم الله عليهم من الأبرار، ومؤكدا عليكم في ملازمة دين الإسلام، آمرين به من بلغ من أولادكم. إن لم تخافوا دخول شر عليكم من إعلام عدوكم بطويتكم، فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس، وإن ذاكر الله بين الغافلين كالحي بين الموتى، فاعلموا أن الأصنام خشب منجور، وحجر جلمود لا يضر ولا ينفع، وأن الملك ملك الله، ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من إله، فاعبدوه واصطبروا لعبادته، فالصلاة ولو بالإيماء، والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم أو رياء، لأن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن إلى قلوبكم، والغسل من الجنابة، ولو عوما في البحور. وإن منعتم فالصلاة قضاء بالليل لحق النهار، وتسقط في الحكم طهارة الماء، وعليكم بالتيمم ولو مسحا بالأيدي للحيطان، فإن لم يمكن فالمشهور سقوط الصلاة وقضاؤها لعدم الماء والصعيد، إلا أن يمكنكم الإشارة إليه بالأيدي والوجه إلى تراب طاهر أو حجر أو شجر مما يتيمم به، فأقصدوا بالإيماء، نقله ابن ناجي في شرح الرسالة لقوله صلى الله عليه وسلم فأتوا منه ما استطعتم.**

**وإن أكرهوكم في وقت صلاة إلى السجود للأصنام أو حضور صلاتهم فأحرموا بالنية وانووا صلاتكم المشروعة، وأشيروا لما يشيرون إليه من صنم، ومقصودكم الله. وإن كان لغير القبلة تسقط في حقكم كصلاة الخوف عند الالتحام، وأن أجبروكم على شرب خمر، فاشربوه لا بنية استعماله، و إن كلفوا عليكم خنزيرا فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم، ومعتقدين تحريمه، و كذا إن أكرهوكم على محرم، وإن زوجوكم بناتهم، فجائز لكونهم أهل الكتاب، وإن أكرهوكم على إنكاح بناتكم منهم، فاعتقدوا تحريمه لولا الإكراه، وأنكم ناكرون لذلك بقلوبكم، ولو**

**وجدتم قوة لغيرتموه.**

**وكذا إن أكرهوكم على ربا أو حرام فافعلوا منكرين بقلوبكم، ثم ليس عليكم إلا رؤوس أموالكم، وتتصدقون بالباقي، إن تبتم لله تعالى. وإن أكرهوكم على كلمة الكفر، فإن أمكنكم التورية والإلغاز فافعلوا، وإلا فكونوا مطمئني القلوب بالإيمان إن نطقتم بها ناكرين لذلك، وإن قالوا اشتموا محمدا فإنهم يقولون له ممد، فاشتموا ممدا، ناوين أنه الشيطان، أو ممد اليهود فكثير بهم اسمه. وإن قالوا عيسى ابن الله، فقولوها إن أكرهوكم، وانووا إسقاط مضاف أي عبد اللاه مريم معبود بحق، وإن قالوا قولوا المسيح ابن الله، فقولوها إكراها، وانووا بالإضافة للملك كبيت الله لا يلزمه أن يسكنه أو يحل به، وعن قالوا قولوا مريم زوجة له، فانووا بالضمير ابن عمها الذي تزوجها في بني إسرائيل، ثم فارقها قبل البناء. قاله السهيلي في تفسير المبهم من الرجال في القرآن. أو زوجها الله منه بقضائه وقدره. وإن قالوا عيسى قد توفي بالصلب فانووا من التوفية والكمال والتشريف من هذه، وإماتته وصلبه وإنشاد ذكره، وإظهار الثناء عليه بين الناس، وأنه استوفاه الله برفعه إلى العلو، وما يعسر عليكم فابعثوا فيه إلينا نرشدكم إن شاء الله على حسب ما تكتبون به، وأنا أسأل الله أن يديل الكرة للإسلام حتى تعبدوا الله ظاهرا بحول الله، من غير محنة ولا وجلة، بل بصدمة الترك الكرام.**

**ونحن نشهد لكم بين يدي الله أنكم صدقتم الله و رضيتم به، ولابد من جوابكم والسلام عليكم جميعا.**

**بتاريخ غرة رجب عام عشرة وتسعمائة عرف الله خيره**

**يصل إلى الغرباء إن شاء الله تعالى"**[1].

مثلت هذه الفتوى مجموعة من النصائح والتوجيهات في شؤون الدين والدنيا، وجهها الفقيه أحمد بن جمعة إلى مسلمي اسبانيا على وجه الخصوص، إذ هم المراد بهم بهذا الخطاب. فقد حاول هذا الفقيه أن يرسم من خلال هذه الفتوى الطريق الذي يمكن أن يسلكه مسلمو اسبانيا في الحفاظ على مقومات شخصيتهم الإسلامية باستعمال المداراة والكتمان، وبمفهوم أدق "التقية" مع أن هذا المصطلح لم يتم الإشارة إليه بصورة مباشرة في الفتوى.

فقد اعتمد مسلمو اسبانيا الذين فضلوا البقاء في أرض الوطن الضائع في أيدي صليبيين متعصبين على هذه الفتوى كمرجعية دينية على شرعية استعمالهم لمبدأ التقية طيلة مدة بقائهم في إسبانيا وإلى غاية ساعة الطرد النهائي، واستندوا إليها في كل ما يخص العبادات والمعاملات في ظل الظروف التي فرضت عليهم البحث عن سبل للبقاء والنحاة من التعذيب والتنكيل والتقتيل.

**3)– الاستناد إلى السنة النبوية كأداة شرعية لتبرير قرار البقاء:** لقد وجدت التقية من يؤصلها فقهيا في الفتوى التي أصدرها أحمد بن الجمعة سنة 909هـ/1504م تحت عنوان «فتوى الغرباء». إذ جعلت هذه الفتوى من التقية برنامج حياة عملي ومفصل للعيش بنوع من التسوية بين الإيمان وظروف الإكراه التي لا ترحم. بالإضافة إلى هذه الفتوى فقد استند مسلمو إسبانيا في استعمال التقية كحل بديل لضمان البقاء في بلدهم إلى حديث لرسول الأمة محمد ﷺ.

فقد ذكر رسولنا الكريم ﷺ في حديثه عن الهجرة "عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال

[1]– تعمدنا عرض النص الكامل للفتوى بالرغم من طولها، لتبيان أهمية المعلومات الواردة فيها، وكيف أنها استطاعت أن تقدم لمسلمي إسبانيا حلولا لكل كبيرة وصغيرة في أمور الدين والدنيا. كما فضلنا عدم التعليق عليها لوضوح المعطيات الواردة فيها، ولبساطة الأسلوب الذي استعمله صاحبها.

النبي ﷺ:" **لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنزفتم فانفروا**"[1]. في هذا الحديث النبوي الشريف نفى الرسول الله ﷺ الهجرة بعد الفتح فقال:" **لا هجرة**" وهذا النفي ليس على عمومه، يعني أن الهجرة لم تبطل بالفتح فإنه " **لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تخرج الشمس من مغربها**" كما جاء ذلك في الحديث عن رسول الله ﷺ لكن المراد بالنفي هنا نفي الهجرة من مكة، لأن هذه الأخيرة بعد الفتح صارت بلاد إسلام ولن تعود بعد ذلك بلاد كفر ولذلك نفى نبي الله محمد ﷺ أن تكون الهجرة بعد الفتح[2].

لقد فهم مسلمو إسبانيا هذا الحديث فهما خاطئا على أساس أنه لا هجرة بعد فتح مكة، ولعل جهلهم لأمور دينهم لهجرة الكثير من علمائهم من البلد، وإحراق السلطات الإسبانية لكتب الفقه والحديث، ومنعها لاستعمال اللغة العربية مخاطبة وكتابة وتأليفا، كانت كلها أسبابا مباشرة في فهمهم الخاطئ للفقه الإسلامي.

فقد استند جمع كبير من مسلمي اسبانيا على هذا الحديث لتبرير بقائهم بأرض آبائهم وأجدادهم، وكحل بديل على الهجرة عمدوا على استعمال مبدأ التقية في العبادات والمعاملات، لتجنب الوقوع في مخاطر قد تكون حياتهم ثمنا لتمسكهم بمقومات شخصيتهم الإسلامية.

على هذا الأساس بنى فريق كبير من مسلمي إسبانيا موقفهم إزاء بقائهم في إسبانيا، وتبنيهم لمبدأ التقية في المداراة والكتمان لكل ما كان له صلة بالدين الإسلامي، بينما كان رأي السلطات الإسبانية في هذا التوجه الفكري الذي انتهجه مسلمو اسبانيا، لإنقاذ هويتهم من الانسلاخ في

---

[1]- حديث متفق عليه. نقلا عن: يحي بن شرف النووي، المرجع السابق، ج: 1. ص: 35.

[2]- المرجع نفسه. ص: 35.

الثقافة النصرانية الكاثوليكية، التي كرهوا فيها كل رمز وطقس نفاق ورياء وكذب. ولكن مع هذا وذاك هل تبنى مسلمو اسبانيا التقية كوسيلة للدفاع والبقاء أم كانت هناك حلولا بديلة ترفع عنهم استعمال التقية مدة قرن من الزمن؟

بناء على المعطيات التي تم عرضها خلال المبحث الأول والمبحث الثاني من هذا الفصل، تبين مدى تمسك فريق من مسلمي اسبانيا بمبدأ التقية ليس لأنها طبع فيهم، وإنما لجأوا إلى ذلك حفظا لدينهم، إذ لم يبق أمام هؤلاء في حالة تفضيلهم البقاء في إسبانيا طريقا آخرا سوى إخفاء معتقدهم أمام أعين كنيسة تتربص بهم الدوائر وتفتش عن أبسط سبب للتنكيل بهم.

إذن فتقييم مدى نجاح هذا الأسلوب وسط مجتمع معاد وأكثر من ذلك بنية مبيتة للقضاء على الإسلام نهائيا بأرض كانت تنعم بالإسلام طيلة ثمانية قرون من الزمن، لا يمكن أن نحدده في ظل التناقض الكبير الذي نقف عنده بين كل مرحلة ومرحلة من هذا البحث، وهذا راجع طبعا لطبيعة الظروف التي صاحبت الفترة التي نحن بصدد دراستها.

## – المبحث الثالث: الحلول البديلة على استعمال التقية

إن الحديث عن أسلوب التقية الذي استعمله فريق كبير من مسلمي إسبانيا، يعني جهود هؤلاء للحفاظ على دينهم، هذا الدين اكتسب باعتباره أحد مقومات الوجود المميز لهم عن غيرهم أهمية كبرى في الصراع العقائدي لكونه معقلا يلجؤون إليه حتى لا تذوب معالم شخصيتهم في محيط نصراني كاثوليكي متعصب.

هذا فريق من هؤلاء المضطهدين والمغلوب على أمرهم، فضلوا البقاء في إسبانيا، أرضهم

ووطنهم سابقا . باتباع مبدأ التقية كوسيلة دفاعية في معركة للبقاء . عقيدة ووطنا .، ولكن أيضا علينا الوقوف عند فريقين آخرين من الجماعة المسلمة بإسبانيا، فيمكننا القول بأن الجماعة المسلمة في هذه الأرض انقسموا في مواقفهم إلى ثلاث.

فريق فضل البقاء واختار اعتماد مبدأ التقية بفتوى من أحد فقهاء العصر، ثم فريق آخر اختار التحصن بالجبال والأماكن الوعرة بعيدا عن أعين عمال محاكم التحقيق، ومن هناك أخذوا ينظمون صفوفهم لخوض مقاومة مسلحة، ربما قد تحقق لهم آمالهم في استرجاع ما ضاع منهم، وفريق ثالث رأى ضرورة مغادرة البلاد بعدما أصبحت دار كفر وشرك.

فمن خلال دراستنا للمواقف كلها، لسنا بصدد اصدار أحكام تاريخية أو فقهية على أي فريق من الفرق الثلاث اختار الحل الصواب، ولكننا سنحاول عرض مجموعة من المعطيات قد تمهد مستقبلا لدراسات متخصصة تجمع بين رأي الشرع، وعلم الاجتماع والتاريخ فيما يخص هذه القضية.

**1)– الهجرة وسيلة لحفظ الروح والدين**: أمام محاولة الإدماج القسري التي نهجها الإسبان ضد مسلمي إسبانيا، كان من الطبيعي أن يختار عدد كبير من هؤلاء الهجرة بدينهم وحفظا لأرواحهم وأعراضهم، فخرج قسم منهم تاركين أموالهم سيرا على الأقدام غير عابئين بمشاق الطرقات ومجاهل وأخطار السفر إلى بلدان المغرب من دون مال أو راحلة، مع أن ما كان ينتظرهم بعد خروجهم من غرناطة عصابات الرعاع الإسبانية والجنود الإسبان، ومع ذلك آثروا الهجرة على البقاء في أرض كفر، استنادا على نصوص من القرآن والسنة.

وعلى هذا الأساس بنى الفريق المؤيد قرار الطرد على فتوى أطلقها فقهاء العصر من بينهم الحجري أحمد بن قاسم، والونشريسي؛[1] وقد اعتمدا هذان الفقهين في إصدار فتواهم على النصوص الواردة في القرآن والسنة النبوية الشريفة.

فأما الحجري فقد كتب حول الموضوع يقول[2]:"...**الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام فريضة إلى يوم القيامة، وكذلك الهجرة من أرض الحرام والباطل بظلم أو فتنة...**" فإذا الهجرة في نظر الحجري واجبة بناء على ما ورد في الكتاب والسنة، وإجماع الأمة على من أسلم بدار الحرب أن يهجره ويلحق بدار المسلمين ولا يسكن بين المشركين ويقيم بين أظهرهم لئلا تجري عليه أحكامهم"[3].

ويعلق في موضع آخر من مؤلفه أن هذه الهجرة "**لا يحرم على المهاجر بها الرجوع إلى وطنه إن عاد دار إيمان وإسلام**"[4]. من هذا المنطلق يحاول الحجري إقرار عامل الهجرة على أساس الدين كركن وركيزة في حياة المسلم، إذ ربط رجوعه إلى أرض الوطن بعودة الإسلام إليه. وقد قسم

---

[1]– **الونشريسي**: هو أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحد بن علي الونشريسي، التلمساني المنشأ والأصل، الفاسي المنزل والمدفن، ولد حوالي سنة 834-914هـ/1430-1509م بالمنطقة الكائنة بجبال الونشريس (بلدية الأزهرية حاليا ولاية تيسمسيلت). أخذ عن خيرة علماء تلمسان، منهم الإمام أبو الفضل قاسم بن سعيد العقباني (ت854هـ)، وولده القاضي أبو سالم إبراهيم بن قاسم (ت880هـ)، وحفيده الإمام الرحالة محمد بن أحمد بن قاسم (ت871هـ)، والإمام شيخ المفسرين والنحاة أبو عبد الله محمد بن العباس الشهير بابن العباس(ت871هـ)، والحافظ المحصِّل أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عيسى بن الجلاب(ت875هـ)، والعالم المشارك، المؤلف النظام أبو العباس أحمد بن زكري (ت899هـ)، والعالم الخطيب الصالح أبو عبد الله محمد بن محمد ابن مرزوق الكفيف (ت910هـ)؛ أخذ عنه مرويات سلفه الإمام الجد والوالد والحفيد، وغيرهم. وعلى إثر المحنة التي تعرض لها بتلمسان، فر أبو العباس هاربا إلى فاس، وكان ذلك في أول المحرم من سنة 874هـ كان حينها ناهز الأربعين من عمره فاستوطنها. وبعد حياة مليئة بالعلم أخذا وعطاء، وتدريسا وتأليفا، توفي أبو العباس الونشريسي يوم الثلاثاء عشرين من صفر سنة 914هـ. ينظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص:343.

[2]– أبو العباس أحمد بن يحي الونشريسي، أسنى المتاجر وبيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر، در وتح: الكريم نجيب، الرباط: المركز الإعلامي للدراسات والنشر، ط:1، 1427هـ/2006م. ص : 42.

[3]– المصدر نفسه. ص: 42.

[4]– المصدر نفسه. ص: 57.

لحجري الهجرة استنادا لاجتهاد ابن العربي إلى ست أقسام: أما القسم الأول منها، فهي الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام وكانت فرضا أيام النبي صلى الله عليه وسلم وهذه الهجرة باقية إلى يوم القيامة.

فأما الرابعة منها الفرار من الأذية في البدن والدين؛ وذلك فضل من الله ورخصة منه، فإذا خشي على نفسه في موضع أذن الله له في الخروج عنه، والفرار بنفسه ليخلصها من ذلك المحذور. تبيانا لقوله تعالى في منزل تحكيمه: **{إنّ الذين توفتهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيما كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا}**[1].

نزلت هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين، وهو قادر على الهجرة وليس متمكنا من إقامة الدين فهو ظالم لنفسه، مرتكب حراما بالإجماع، وبنص هذه الآية، حيث يقول سبحانه عز وجل: "**إن الذين توفاتهم الملائكة ظالمي أنفسهم**" أي يترك الهجرة "**قالوا فيما كنتم**" أي لم مكثتم ها هنا وتركتم الهجرة : " **قالوا كنا مستضعفين في الأرض**" أي لا نقدر على الخروج من البلد، ولا الذهاب في الأرض. " **قالوا ألم تكن أرض الله واسعة**" قال داوود: حدثنا محمد بن داوود بن سفيان، حدثني يحي بن حسان، أخبرنا سليمان بن موسى أبو داوود، إلى أن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**من جامع مشرك وسكن معه فإنه مثله**"[2].

أيضا قوله صلى الله عليه وسلم للعباس وعقيل لما وقعا في الأسر:" **افد نفسك وابن أخيك**" فقال: "**يا رسول الله، ألم نصل إلى قبلتك وشهد شهادتك**"، قال عليه الصلاة والسلام: "**إنكم**

---

[1]- سورة النساء، آية رقم: 97.

[2]- ابن كثير، المصدر السابق، مج:1. ص: 530.

**خاصمتم فخصمتم**"، ثم تلا عليه هذه الآية: "**ألم تكن أرض الله واسعة**"[1].

أما السادسة منها فالفرار خوف الأذية في المال، فإن حرمة مال المسلم كحرمة دمه[2]. مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم: "**يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القظر، يفر بدينه من ا لفتن**"[3].

أيضا الأمر نفسه تؤكده الآية الكريمة: "**ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة**"[4]. من خلال هذه الآية نجد التأكيد على الهجرة وترغيب في مفارقة المشركين وأن المؤمن حيثما ذهب وجد عنهم ملجأ يتحصن فيه، وذلك في قوله: "**مراغما كثيرا**" والمراغم هو التحول من أرض إلى أرض أخرى. وأما في قوله تعالى: "**وسعة**"[5] يعني الرزق، حيث ورد في شرح قوله تعالى أي من الضلالة إلى الهدى، ومن القلة إلى الغنى[6].

أيضا من الآيات الكريمة المرغبة في الهجرة قوله تعالى: {**ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله**}[7]. أي ومن يخرج من منزله بنية الهجرة فمات أثناء الطريق فقد حصل له عند الله ثواب من هاجر، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما من الصحاح

---

[1]- ابن كثير، المصدر نفسه. ص: 531.

[2]- أبو العباس أحمد بن يحي الونشريسي، المصدر السابق. ص ص: 68، 69.

[3]- الحديث رواه البخاري: 78/1 في كتاب الإيمان، باب الفرار من الفتن حديث، رقم: 19. الحديث رواه أيضا أبو داود : 103/4، في كتاب الفتن، باب ما يرخص فيه البداوة في الفتنة.

[4]- الونشريسي، المصدر السابق، ص: 68.

[5]- سورة النساء، الآية رقم: 100.

[6]- ابن كثير، المصدر السابق، مج:1. ص: 530.

[7]- سورة النساء، الآية رقم: 100.

والمسانيد والسنن[1].

أما الونشريسي فيرى أن الهجرة من "**أرض الكفر إلى أرض الإسلام فريضة إلى يوم القيامة... ولا تسقط هذه الهجرة الواجبة على هؤلاء الذين استولى الطاغية – لعنه الله – على معاقلهم وبلادهم إلا تصوروا العجز عنها بكل وجه وحال، ولا الوطن والمال، فإن ذلك كله ملغى في نظر الشرع**" و"**أما المستطيع بأي وجه كان وبأي حيلة تمكنت فهو غير معذور ظالم لنفسه إن أقام** ..."[2] مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم:" **أنا بريء من كل مسلم مقيم مع المشركين**"[3].

وبهذا استطاعت هذه الفتوى أن تؤثر في نفوس مسلمي اسبانيا، فتزايدت هجراتهم، لكنها سرعان ما عرفت نوعا من التراجع وذلك راجع لعاملين أساسيين:

- انتشار الوباء ببلاد المغرب[4].
- صدور فتاوى مناقضة أو معارضة لفتوى الأولى التي تجيز أمر الهجرة[5].

من خلال ما تم عرضه من معطيات تبين أن الفريق الذي فضل الهجرة بديلا على البقاء واعتماد التقية كمبدأ في العبادات والمعاملات بنى موقفه هذا على أساس فتاوى أصدرها أئمة العصر، محاولين تبرير موقفهم هذا بنص شرعي. فالأمر نفسه اعتمده الفريق الذي فضل البقاء واستعمال

---

[1]- ابن كثير، المصدر السابق. ص: 532.

[2]- سورة النساء، الآية رقم: 100.

[3]- الونشريسي، الصدر السابق، ص : 121 ، 122.

[4]- حول الموضوع ينظر: مجهول، أخبار العصر. (المصدر السابق). ص: 117.

[5]- نقصد من وراء هذا النوع من الفتاوى الفتوى التي أصدرها الفقيه بن جمعة المغراوي، والتي تطرقنا لها بالشرح في العنصر الذي سبق هذه النقطة من المبحث.

التقية لتفادي التصادم مع السلطات الإسبانية التي لن تتوان في إصدار عقوبات قاسية معظمها ارتكز على الإعدام حرقا.

فالتقية لم تكن بالنسبة هذا الفريق إلا آلية من آليات الدفاع وضربا من ضروب الالتفات الاضطراري إلى قوة الآخرين. ولهذا لا ينبغي أن نتصور أن هذه الآلية يمكن أن تكون طبعا جوهريا في نفوس أبناء جماعة من الجماعات، بل هي حيلة دفاعية وسلوك تطبعي قابل للزوال بزوال مسبباته وظروف التهديد القاسية.

وهي حيلة كثيرا ما نجح أصحابها في تأصيلها دينيا وفقا لأحكام الضرورات، ووفقا للاعتقاد الديني القائم على فكرة أن الله يرى ويطلع على السرائر وما تخفي الصدور، وأن القلب، دون سواه، هو الحصن الأخير الذي لا يمكن اختراقه بأي شكل من أشكال الإكراه مهما كانت فظاعته.

**2)– الجهاد المسلح خيار لا مفر منه:** قرر فريق آخر من مسلمي اسبانيا عدم الركون والاستسلام للأمر الواقع، فلا الهروب من الوطن الضائع ولا الهروب داخله سوف يكون الحل في نظر هؤلاء؛ إذ لا يمنع أنه يوجد من بين أبناء الجماعات الضعيفة والمهددة من يمتلك من شدة البأس وقوة التحمل ما يجعله قادرا على المواجهة حتى الموت، وقادرا على المجاهرة علنا، وبكل جرأة، عن معتقداته وخصوصيته وحتى عن كراهيته تجاه الأقوياء.

إلا أن الغالبية العظمى من الناس لا تمتلك مثل هذه الجرأة، ولذا تراهم يضطرون إلى المداراة والمصانعة والمسايرة والتظاهر في العلن بشيء، وفي السر والخفاء بشيء آخر. وبتعبير آخر، تراهم مضطرين إلى الالتفات إلى الآخرين وأخذ قوتهم بعين الاعتبار.

على هذا الأساس فر عدد كبير من المسلمين الذين رفضوا التعميد إلى الجبال المحيطة في غرناطة محتمين في مغاورها وشعابها الوعرة، وأقاموا فيها لفترات وأنشأوا قرى عربية مسلمة، ومن هناك أخذوا ينظمون حركات مقاومة إسلامية مسلحة، زعزعت أمن واستقرار إسبانيا، التي كانت تعد من بين أعظم القوى الدولية آنذاك، فكيف لشرذمة من المسلمين تتجرأ على رفع السلاح في وجهها . على حد زعمها .؟ ونسيت أن الظلم يولد الهمة، والايمان بالله قد يحقق المعجزات.

فالبرغم من أن هذه الحركات الجهادية على طول الفترات الممتدة من سنة 905هـ/1500م، وإلى غاية سنة 921هـ/1611م لم تحقق الهدف الرئيس وهو استرداد الأندلس الضائعة من أيدي الإسبان، إلا أنها أثبتت للتاريخ مدى صلابة وصمود هذه الجماعة المسلمة. ولن نفصل كثيرا في هذا الموضوع لأنه لنا وقفة حول حركة الجهاد الإسلامي في إسبانيا في جزئية منفصلة من هذه الدراسة[1].

1- لتفاصيل أكثر حول الموضوع ينظر: الفصل الثاني والثالث من الباب الخامس.

# الفصل الرابع:

# اللغة العربية في معركة البقاء

## المبحث الأول: مساعي السلطات الاسبانية للاجتثاث اللغة العربية

### 1)- رؤية تاريخية حول حركية اللغة العربية في الأندلس

### 2)- حظر اللغة العربية كمحاولة لمسخ الهوية الإسلامية

### 3)- جهود السلطات الإسبانية في القضاء على الإنتاج الفكري العربي

## المبحث الثاني: جهود مسلمي إسبانيا في الدفاع على اللغة العربية

### 1)- مكانة اللغة العربية عند مسلمي إسبانيا

### 2)- جهود الفقهاء في حماية اللغة العربية من الاندثار

إن الأمة التي تفقد لغتها تضيع هويتها وخصوصيتها، وتخسر ذاتها ومستقبلها، لذلك نجد دعوات فقهاء وعلماء الأمة الإسلامية صريحة وصارمة للتمسك باللغة العربية، والدفاع عن تراثها الثقافي والعلمي، ونبهوا إلى ضرورة تعزيز مواقعها في الحياة، ودعوا إلى تعليمها للأجيال، وإحياء تراثها الغني وكنوزها الأدبية والثقافية والتاريخية، ونذكر في هذا المجال، جهود ومساعي الأمة الأندلسية الشهيدة في ذلك.

فالهوية الإسلامية تشمل اللغة والثقافة والوعاء الحضاري، وعندما تتشكل هذه الهوية تتقاطع مع الجغرافيا والتاريخ، فتشكل مفهوم القومية، قاعدة الوحدة السياسية. فالثقافة هي الحافز الفكري لتفعيل العمل، وتطوير الحياة، وصناعة الحضارة، واللغة العربية هي روح هذه الثقافة وحامل إبداعها ومشروعها قديما وحديثا، وهي الأداة التي توفر للأجيال إرادة التغيير وفعله، والقدرة على مواجهة تحديات المستقبل والتمسك بالهوية.

ونظرا للخصوصية التي ميزت اللغة العربية فقد تجاوزت حدود القبيلة والقوم وارتبطت بالإسلام فكانت لغة عقيدته وشريعته وخطابه إلى جميع البشر، وسارت في ركاب الدعوة أينما ذهبت؛ ذلك أن القرآن الكريم وضع في أيدي جند هذه الدعوة، فكان المسلمون كلما فتحوا منطقة تركوا فيها القراء والمحدثين من أصحاب رسول الله  يعلمون الناس أمر دينهم، ويدعون أهل البلاد للدخول في حوزة الإسلام.

أمام هذه المعطيات حققت اللغة العربية إعجازا لغويا وعلميا؛ فهي في المقام الأول حملت آيات القرآن الكريم، وأصبحت لغة العلم والثقافة في كافة البلاد الإسلامية، واستوعبت تراث الأمم السابقة

ذوات الحضارات القديمة، كما قاومت في العصر الحديث كل محاولات غزوها في ديارها، أو تغليب لغات أخرى.

بهذا تأكد لنا من خلال هذه المعطيات أن اللغة عامل مهم في تماسك الأمم، لا سيما الأمة الإسلامية التي تشكل اللغة فيها بعدا أسمى من مجرد التواصل الاجتماعي، فهي اللغة الرسمية للوحي، إن صح التعبير، وهي لسان النبوة الناطق، لهذا لم تفلح أي لغة أخرى في استيعاب دقائق معاني التنزيل.

وإذا أردنا معالجة فضيلة اللغة العربية كأداة من مقومات الشخصية العربية الإسلامية بالنسبة للأقلية المسلمة في اسبانيا فإنها تجعلنا نقر بأنها كانت واسطة صراع فاصل بين الطائفتين المتنازعتين وهذا بالرغم من تقلصها وانحسارها وغربتها التي لم تبق منها سوى شبح مبهم إلا أن هذا المتبقى من وهج اللغة العربية ظل مطاردا من طرف عمال محاكم التحقيق الأوصياء على تنفيذ مشروع القضاء على كل ما له صلة بالدين الإسلامي، علما بأن اللغة العربية المتبقاة من بعد الانكسار الطويل الذي تجاوز القرن والنصف من الزمن.

فقد أدرك أعداء الإسلام أن حربهم ضده يجب أن تعتمد على محاربة اللغة العربية، وإحياء اللغات القومية، سعيا إلى تقليص وجود القرآن، وتهميش عقيدته؛ويبدو من خلال التحدي الكبير الذي واجهته اللغة العربية في اسبانيا النصرانية، أن الحرب لم تكن عسكرية فقط، بل كانت شاملة، ولإضفاء الشرعية على الجرائم التي كانت ترتكبها السلطات الاسبانية ضد اللغة العربية تسترت تحت مجموعة من القوانين، قامت بسنها قصد تجريد المسلمين من

لسانهم العربي، وبالتالي مسخهم لمقومات شخصيتهم الإسلامية.

ولم يكن قانون تحريم استعمال اللغة العربية كتابة وتخاطبا سوى مقدمة لما هو أقسى وأشد إيلاما، تمثل في حرق كل ما هو مكتوب باللغة العربية، ذلك أن بقاء اللغة العربية من أشد العوامل لمنع تغلغل النصرانية في نفوس مسلمي اسبانيا، وأنه لابد من القضاء على ذلك الحاجز الصخري الذي تتحطم أمامه جهود الكنيسة؛ فإلى أي مدى صمدت اللغة العربية أمام تعنت واصرار السلطات الكنسية والسياسية لاستئصالها؟ وما هي الجهود التي بذلها مسلمو اسبانيا لضمان استمرارية اللغة العربية في ظل تلك الظروف القاهرة؟

## 1)– المبحث الأول: مساعي السلطات الإسبانية في اجتثاث اللغة العربية

تأكد لدى السلطات الاسبانية بكل مؤسساتها أن اللغة العربية عامل مهم في تماسك الأمة الإسلامية. لهذا اعتبر التوحد اللغوي عند السلطات الاسبانية، ولو قهرا، أمر حرصت عليه قصد تحقيق شخصيتها القومية القوية التي وصلت غالبا إلى حد التعصب والاضطهاد، رافضة بذلك رفضا قطعيا إقحام أي لغة أخرى غير لغتها. وقبل التطرق إلى مساعي السلطات الاسبانية قصد الفضاء الكلي والجدري للغة العربية في اسبانيا لا بد من التعرف على مكانة اللغة العربية قبل سقوط الأندلس في يد الغزو الصليبي.

**1)–رؤية تاريخية حول حركية اللغة العربية في الأندلس** :ارتبطت اللغة العربية بشعائر الإسلام وعباداته وغدت جزءا أساسيا من لغة المسلم اليومية وفي حياة الأمة الإسلامية؛ فلازمت الفرائض الإسلامية؛ فقد أوجب الإسلام أن تكون إقامة الصلاة وتلاوة القرآن وترتيله، والأذان، ومناسك الحج

والدعاء، وسائر الشعائر الدينية.

كما فرض على المسلمين في مختلف الأقطار والأمصار تعلم القرآن الكريم وحفظه وفهمه، والإكثار من تلاوته، ويتحتم على الإمام والواعظ إتقان العربية، لكي يفهم أحكام القرآن والسنة، ويحسن شرحها وتفسيرها، ومعروف أن أحكام القرآن وتعاليمه لا يصح أن تؤخذ إلا من نصه العربي، ولا تعد ترجمته إلى أي لغة إلا تفسيرا لمعانيه، فلا تستنبط أحكامه منها.

لكل هذا ارتفعت منزلة اللغة العربية عند المسلمين، وتفقه المختصون في دراسة علوم العربية ووضع قواعدها في النحو والصرف، والبيان، ورسم الحروف، والخط وغيرها، وألفوا فيها عددا ضخما من نفائس الكتب، والأمة الأندلسية المسلمة كجزء لا يتجزأ من العالم الإسلامي عنيت باللغة العربية وعلومها.

والأندلس مثلها مثل المناطق الأخرى التي دخلها الإسلام أعطت للغة العربية مكانتها وقداستها، وعمد سكانها على استعمالها في كل مجالات الحياة طيلة فترة حكم العرب المسلمين للأندلس الذي قارب الثمانية قرون من الزمان (92-897هـ/711-1492م)أعطى خلالها الإسلام الذي كان قد خلق توافقا واندماجا بين حضارتين متضادتين باستناده على فكره الكوني، وصفة التسامح لمفهومه الديني، وباعتماده على قدراته الهائلة في التمثيل والإبداع، وميله المتميز إلى التجريب والاختبار، ثمارا عظيمة في بلاد الأندلس التي شهدت أهم اندماج عرقي بين الشرق والغرب.

فكانت الحضارة يومها تشع من حواضر الأندلس، من اشبيلية[1] وطليطلة[2] وبلنسية[3] وسرقسطة[4]، وكانت قرطبة في عصر الخلافة الأموية (316– 422هـ/928–1030م) [5] الأكثر سطوعا في ذلك الوقت والأكثر تحضرا في العالمين الإسلامي والأوروبي على حد سواء.فقد انتشر التعليم في الأندلس انتشارا عظيما وظهر العلماء والعباقرة في كل ميدان، فكثرت المدارس ومراكز التعليم، وزاد الوعي الثقافي.

وقد كان من أسباب الازدهار العلمي في الأندلس أنها لم تكن في أي وقت من الأوقات بمعزل عما يجري في حواضر العلم العربية الإسلامية الأخرى، بغداد ودمشق والقاهرة وفاس، فقد كانت الصلات الفكرية والعلمية مستمرة بين مختلف أقطار العالم الإسلامي يتنقل بين ربوعها العلماء والطلاب والمؤلفات.

---

[1]– سرقت أشبيلية أضواء الثقافة وازدهرت علميا وأدبيا، فتحولت إلى مدينة للأدب والطرب، وذاع صيتها أيام المعتمد بن عباد، فصارت قبلة للشعراء والأدباء، ففي اشبيلية تكون ابن زيدون وابن عمار وأدباء آخرون ذاعت شهرتهم ليس في الأندلس فقط بل في كل العالم الإسلامي. ينظر: صالح خالص، إشبيليةفيالقرنالخامسالهجري (دراسةأدبية تاريخية)، بيروت: دارالثقافة،د.ط، 1965م. ص: 117.

[2]– عرفت طليطلةا انفتاحا على الثقافة والفن المعماري، حيث أقام فيها الحكام القصور خاصة ذلك الذي بناه المأموني في النصف الأول من القرن الخامس الهجري؛ كما انتشرتفيها المجالس الأدبية والغناء، فأصبحت بذلك قبلة للأدباء والشعراء. ينظر: عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرةا لخلافة (دراسةتاريخيةعمرانية أثرية)،ج: 2، بيروت: دار النهضة العربية،د ط، 1972 م.ص: 108.

[3]– شهدت بلنسية ازدهارا للآداب وهجرة منقطعة النظير من طرف الفقهاء القرطبيين بسبب الفتنة، وشارك هؤلاء في الحركية الثقافية ببلنسية وترتب على ذلك تقدما علميا وأدبيا،كما شهدت ازدهارا في الغناء والموسيقى. ينظر: كمال السيد أبو مصطفى،تاريخ مدينة بلنسية، بحوث في التاريخ وحضارة الأندلس في العصرا لإسلامي،الإسكندرية، د د ن، د ط، 1983م. ص:298.

[4]– ساهمت سرقسطة في الإثراء الحياة الثقافية في عهد بني هود الجذاميين، التي كانت أسرة مستنيرة، ،واهتموا بالآداب والفنون، وأسسوا لسرقسطة البنى الحضارية، وتميزوا بالإسراف الجنوني في حشد الزخارف والتنميقات، وأسسوا مجالس اللآداب والغناء لمنافسة نظرائها من الممالك الأخرى. ينظر: خوليا نريبيرا، التربية الإسلامية في الأندلس أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية، تر:طاهر أحمد مكي، القاهرة: دارالمعارف،د ط،د س ط.ص: 178 .

[5]– كانت قرطبة في ظل الخلافة الأموية تمثل مرجعية سياسية وثقافية واجتماعية ودينية، باعتبارها عاصمة الملك،حيث استقطبت كل حدث ثقافي وسياسي، ومدينة يحج إليها العلماء والأدباء، وبهذا لم تكن المكتسبات التي استقاها الأندلسيون من التراث الأموي تنحصر في علوم دون أخرى، بل استطاعوا أن يطرقوا كل أبواب العلوم، وأن يحققوا في ذلك نشاطا علميا رائعا حيث شهد عصر الخلافة نهضة علمية في كل ميادين المعرفة، عقلية ونقلية، يضاف إليها لمسات الخلفاء،فحافظت على ديمومتها وسيرورتها.

ومن بين العلوم التي حظيت بعناية الأندلسيين خاصة المسلمين منهم نذكر علوم اللغة العربية، لما كانت هذه الأخيرة من قداسة ومكانة في قلوب الأندلسيين بصورة خاصة والمسلمين على العموم؛ وقد ساهمت مجموعة من المعطيات على إثراء هذا العلم وازدهاره من بينها نذكر:

– الخصب اللغوي الذي أوجده مجموعة من العلماء اللغويين الذين نبغوا في هذا المجال..

–تعدد المراكز الثقافية بظهور حواضر جديدة استقطبت الأدب والعلم مثل :بطليوس، ألمرية، ودانية، هذا ما بعث على ظهور الحركة اللغوية في الأندلس.

– ظهور حركة التأليف اللغوي، بفضل ظهور أسماء سجلت حضورها في سجل التاريخ بأحرف من ذهب أمثال: تمام بن غالب (436هـ/1044م)[1] وأبوالمحسن علي بن إسماعيل بنسيدة (458هـ/1065م)[2].

على أن وضعية اللغة العربية اختلفت وضعيتها مع المد الصليبي للأندلس وسقوط الإمارات الأندلسية، فالإنتاج الذي خلفه مسلمو اسبانيا يؤكد أن حال اللغة العربية في الثغر الأعلى ومملكة قشتالة يتناقض تماما مع حالها في جنوب الأندلس، وهذا يفسر في إحدى جزئياته سبب ظهور هذا الإنتاج بشكل كبير في الثغر الأعلى وليس في الأندلس، وعلى سبيل المثال ما ذكره خوان "مارتينيرويز" بهذا الصدد، فقد كتب يقول حول الموضوع: "موريسكيو غرناطة لم يتداولوا بينهم سوى

[1] –**تمام بن غالب**: المكنى بـ "أبي التياني" برع في علم اللغة، وانتقل من قرطبة إلى مرسية حيث انصرف إلى التدريس، ونشر علمه صنف كتابا في اللغة ولما طلع عليهم جاهد العامري حاكم دانية، أعجبه وبعث إليه بألف دينار وكسوة، على أن يذكر في مقدمته أنه صنفه باسمه، لكنه رفض لإخلاصه للعلم. ينظر: المقري، المصدرالسابق، ج:3 .ص:172 .

[2] – **أبو المحسن علي بن إسماعيل بن سيدة**: كان بارعا في اللغة متضلعا في علومها. ينظر:علي بن موسىبن محمد بن عبد الملك بن سعيد المغربي، المغرب في حلىل المغرب، ج: 2،تح:شوقي ضيف، مصر: دار المعارف، ط:2 ،1964م.ص: 259.

اللغة العربية رغم علمهم الكامل بالرومانسية"، ويسوق في السياق ذاته أبياتنا كتبها أحد مسلمي اسبانيا يصف فيها حال غرناطة قائلا[1]:

غرناطة هي بلـدة الحسـاد ومظنة الأضغان والاحقاد

ما إن ترى فيها سوى متكبر أو حاسد او عايب نقـاد

نار التبغضوالتحسد بينهم قـد أوقـــدوها أيما إيقـاد

من خلال هذه الأبيات التي كتبت في مطلع القرن الحادي عشرهجري الموافق للقرن السابع عشر ميلادي يمكننا ملاحظة المعرفة اللغوية لأهل جنوب الأندلس التي كانت تختلف عن حال إخوانهم في الثغر الأعلى ومملكة قشتالة بوجه خاص.

ومع هذا تبقى اللغة العربية في نفوس مسلمي الأندلس سابقا واسبانيا بعد سقوط ذلك الرمز المقدس الذي مهما كانت الظروف يمكن التنازل أو المساومة عليه، فبالرغم من كل الصعوبات التي صادف انتشار اللغة العربية في الأندلس، وكل القرارات التعسفية والإضطهادية بعد سقوط غرناطة بقيت اللغة العربية ذلك الرمز المقدس الذي مثل ركنا أساسيا في الإسلام.

2)**– حظر اللغة العربية كمحاولة لمسخ الهوية الإسلامية:** كان الصراع في اسبانيا بين المسلمين والنصارى في جوهره صراعا عقائديا بين ديانتين مختلفتين عاشتا جنبا إلى جنب قرونا من الزمن على أرض الأندلس، لذلك كانت ركائز الحياة الثقافية من لغة وتعليم محور ذلك الصراع، فمنذ اللحظات الأولى لسقوط غرناطة، أدرك رجال الكنيسة خطر بقاء اللغة العربية فرفعوا شعارات

1- طارق محمد خضر، علاقات الموريسكيين بالأراضي العربية المكرمة "من خلال المخطوطات الموريسكية"، ضمن أعمال السجل العلمي لندوة الموسومة بـ: الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات، (المرجع السابق). ص: 51.

التحذير، ودقوا ناقوس الخطر، ذلكأناللغة هيالنبعالذييصاغفيهفكر الأمةوعبقريتها.

لهذا تعالت الصيحات في اسبانيا، التي كانت موجهة في أساسها للقضاء على بقايا رواسب اللغة العربية التي لا تزال سارية المفعول بين مسلمي اسبانيا؛ فهذا أسقف أوهويلا[1] المدعو "استيبان" يفرض عام1004هـ/1595م شرطا قاسيا بين الولاء والتمرد جاعلا من اللغة حدا فاصلا بين الانتماء إلى جماعة معينة أو الانسلاخ عنها في قوله[2]: ".....**لما تكون الشعوب مشدودة إلى إمبراطورية واحدة فإن المغلوبين يتحتم عليهم تعلم لغة أسيادهم**....."الرأي نفسه أكده الراهب "ستيفان"[3] عندما أعلنها محذرا: "...**احذروا إنها العربية، فرصتهم الوحيدة ليكونوا حزبا ضدنا وضد النصرانية...**".

فقد أدرك رجال الكنيسة والساسة خطورة مفعول اللغة في معتقد الفرد، حيث لمسوا ذلك حتى في تعامل النصارى الجدد مع النصرانية الكاثوليكية، إذ راحوا يتدرجون إلى جوهره بواسطة اللغة العربية، الأمر الذي تسبب في معضلة التشكيك في النية، مما جعل الاطمئنان إلى صدق إيمانهم يظل مشوبا بالحذر الشديد ويضعهم دائما موضع الشبهات، الأمر الذي وقف عائقا في طريق الاكراه على تبني النصرانية الكاثوليكية.

فبالنسبة لرجال الكنيسة والساسة نستطيع أن نجزم بأنهم أدركوا ادراكا مبكرا جدلية ارتباط اللغة العربية بالإسلام كعقيدة وتشكلهما في ثنائية ذات علاقة تبادلية يصعب الفصل بينهما، إنه كما

---

[1] –**أوهويلا:** مقاطعة تقع بالجنوب الشرقي من اسبانيا.

[2] –نويفا فيلا فرانسيسكو، الدراسات العربية في اسبانيا، العالم العربي في البحث العلمي، ع: 9، 1998م. ص: 8.

[3] **– ستيفان:** يعتبر من الشخصيات البارزة في الكنيسة الكاثوليكية الاسبانية ، إذ شكل خطرا محدقا على كل ما يرمز إلى الدين الإسلامي.

يلاحظ شعور طبيعي بالخوف من فعالية هذا المجهول خاصة إذا كان الأمر يتعلق بلغة عدو[1]؛ فلقد بات الأمر بالنسبة للنصارى في منتهى الخطورة لأنه بالإمكان أن يدبر بها أمر ما قد يهدد استقرار المملكة.

أمام عند وتمسك مسلمي اسبانيا بالحفاظ على اللغة العربية، تواصلت جهود السلطات الاسبانية في تحريم استعمالها تخاطبا وقراءة وتأليفا، فتم إصدار المراسيم والقرارات التي تمنع استعمالها؛ إلا أن مواجهة اللغة العربية ومحاولة إبادتها أوقع الساسة الإسبان في مجابهة واقع معاش فرض عليهم في آخر المطاف الركون إلى مفعول اتفاقيات مرحلية.

من هذا المنطلق، منع استعمال اللغة العربية[2] هو محاولة من السلطات الاسبانية والكنسية الكاثوليكية طمس لمعالم الشخصية الإسلامية، وبالتالي محاولة دمج مسلمي اسبانيا ضمن المجتمع النصراني. فقد بادرت السلطات الاسبانية بزعامة الملكين الكاثوليكيين سنة900هـ/1495م، إلى تحريم التخاطب باللغة العربية باعتبارها المانع الوحيد لإتباع الدين النصراني[3]، كما اقتنعت الكنيسة الكاثوليكية أن تداول اللغة العربية في اسبانيا يشكل خطرا كبيرا على النصرانية.

المنهج نفسه سار عليه كل من خلف الملكين الكاثوليكيين؛ فهذا الإمبراطور كارلوس الخامس

---

[1]-Boronat y BarrachinaPascual, Los moriscos Espagnoles y su expulsion, Valencia, 1901, P : 652.

[2]- طارق محمد خضر، علاقات الموريسكيين بالأراضي العربية المكرمة،ضمن أعمال السجل العلمي لندوة الموسومة بـ: الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات، (المرجع السابق). ص : 32.

[1]-Op. Cit, P :652

يشكل لجنة من ثلاثة عشر كنيسيا وعلمانيا، كلفوا بمتابعة ملف مسلمي اسبانيا[1]؛ وبعد اطلاعه على نتائج أعمال اللجنة أصدر مرسوما سنة931هـ/1526م يقضي منع استعمال اللغة العربية كلاما وكتابة.

لكن بعد مباحثات طويلة وشاقة جمعته مع شيوخ الفئة المسلمة، أفضى إلى إعطائهم مهلة كافية للتخلي نهائيا عن التعامل باللغة العربية[2]، فتعلم لغة أخرى يقتضي ضرورة مهلة كافية؛ من هناك كانت مطالب الجماعة المسلمة في المحادثات هي فسحة زمنية تقدر بأربعين سنة يتركون بعدها العربية، ويتقمصون لغة التاج[3]. لكن المسئولين في محاكم التحقيق رفضوا هذا المطلب وقلصوه إلى عشر سنوات كحد أقصى يسمح لهم في بحرها من استعمال العربية.

كما أصدر الملك فليب الثاني مجموعة من المراسيم القاضية بمنع كل ما يرمز إلى الدين الإسلامي؛ من أهم هذه القرارات المرسوم الذي صدر عام970هـ/1565م الذي نص اجبارية تعليم الأطفال المنصرين باللغة القشتالية أو البلنسية[4]. أيضا المرسوم الذي صدر في سنة 971هـ/1566م، الذي حمل أسوأ العواقب على البلاد، من أهم ما ورد فيه[5]: "**أنه في خلال ثلاث أعوام من إصدار هذا القرار ونشره، على مسلمي اسبانيا تعلم اللغة القشتالية، واعتبارا من ذلك التاريخ يحضر على أي كان الكلام أو الكتابة أو القراءة سرا أو جهرا باللسان العربي**".

---

[2]- حايك سيمون، المرجع السابق. ص: 30.

[3]- محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج: 7، القاهرة: مكتبة الخانجي لمكتبة الأسرة، طبعة خاصة، 2003م. ص 354.

[4]- مرثيديسغرثياأرينال، المرجع السابق. ص: 33.

5-Juan Regla, Estudios sobre los moriscos, Barcelona : edition Ariel, 1974. P: 143.

[1]- حايك سيمون، المرجع السابق. ص: 36.

وتتابعت صدور المراسيم والقرارات الملكية بمباركة الكنيسة البابوية قصد القضاء على اللغةالعربية، فهذا المجمع البلنسي الذي انعقد سنة1017هـ/1608م أصدر قرارا ملكيا يقضي بتعليم اللغة القشتالية قصد نسيان اللغة العربية [1].أمام كل هذه الجهود المبذولة من طرف السلطات الإسبانية بكل مؤسساتها، السياسية، والدينية والعسكرية هل استطاعت القضاء على اللغة العربية ولو نسبيا؟ سؤال يحتاج إلى وقفة تاريخية من أجل تقديم إجابة موثقة.

فعند دراسة مؤلفات مسلمي اسبانيا في شتى المجالات يجب أخذ بعين الاعتبار أن هناك مجموعتين مختلفتين لغويا، من جهة مسلمي فلانسيا الناطقين باللغة العربية أي أن لغتهم العامة هي العربية، بيد أن اللغة الاسبانية تظل بالنسبة لهم لغة لم يتقنوا تعلمها؛ ومن جهة أخرى مسلمو قشتالةوآراغون المتكلمون باللغة الاسبانية[2] الذين تخلوا عن استعمال اللغة العربية ويمكن تصنيفهم حسب مناطق انتشارهم على الوضع التالي:

– مسلمو مملكة غرناطة كان وضعهم الاقتصادي جيدا ولم ينسوا اللغة العربية.

_مسلمو مملكة بلنسية: وضعهم الاقتصادي متدهور ولكنهم لم ينسوا اللغة العربية[3].

– مسلمو أراغون: كانت حالتهم الاقتصادية ممثالة لسكان بلنسية وقد نسوا العربية.

– مسلمو مملكة قشتالة: هؤلاء كانوا متفرقين في ربوع قشتالة الشمالية وقشتالة الجنوبية؛

---

[2]- Boronat y BarrachinaPascual, Op. Cit, P :537

[3]- دي فوانتاسالفاروقلماس، ما المشاكل حول نقحرة النصوص الألخميادياةالموريسكية، الأدب الألخميادو – الموريسكي، تزاوج لغوي وعالم الاستطرادات اللامتناهي، ص : 53.

[1]-كان تداول اللغة العربية منتشرا في سرية تامة بين مسلمي بلنسية، هذه الأخيرة كانت أكثر محافظة على استعمال اللغة العربية. ينظر:

[2]- Julio Caro Baroja, Op. Cit, P: 159.

كانت أوضاعهم الاقتصادية مرضية وجزء كبير منهم نسي اللغة العربية؛ وقد لعبت الحركة المسلحة "البوتارس" التي اندلعت سنة978هـ/1570م دورا بارزا في اندثار اللغة العربية.

-كما ظل تداول اللغة العربية في المناطق المعزولة خاصة الجبلية منها، والتي شهدت اندلاع حركة المقاومة الإسلامية[1].

فخلاصة الحديث حول أهمية اللغة العربية في المحافظة على الهوية الإسلامية يلخص في قول شيخ الإسلام ابن تيمية الذي كتب حول الموضوع يقول:"**إن الله أنزل كتابه باللسان العربي، وجعل رسوله مبلغا عنه الكتاب والحكمة بلسانه العربي، وجعل السابقين إلى هذا الدين متكلمين به؛ فلم يكن سبيل إلى ضبط الدين ومعرفته إلا بضبط هذا اللسان، وصارت معرفته من الدين، وصار اعتياد التكلم به أسهل على أهل الدين في معرفة دين الله، وأقرب إلى إقامة شعائر الدين، وأقرب إلى مشابهتهم للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار في جميع أمورهم، واللسان تقارنه أمور أخرى: من العلوم، والأخلاق، فإن العادات لها تأثير عظيم فيما يحبه الله، وفيما يكرهه، فلهذا جاءت الشريعة بلزوم عادات السابقين في أقوالهم وأعمالهم، وكراهة الخروج عنها إلى غيرها من غير حاجة**[2].

فقد تأكدت السلطات السياسية والكنسية في اسبانيا بأهمية اللغة العربية في حياة المسلم وعقيدته لهذا عملت بكل الطرق والوسائل للقضاء عليها، محاولة في ذلك مسخ معالم الدين الإسلامي من

---

[3]-Boronat y BarrachinaPascual, Los MoriscosEspanoles y su expulsion, Valencia : Edition Impenta Francisco Vives y mora, 1901. P: 227.

[1]- ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم، تح: محمد حامد فقي، د ب ن، د د ن، دط، د س ط. ص: 162.

اسبانيا الكاثوليكية، الذي كان من أهم المساعي التي رمت إليه السلطات من أجل تحقيق الوحدة الدينية والسياسية.

أمام كل هذه الإجراءات التعسفية، وعملية المطاردة التي أعلنتها السلطات الاسبانية ومن ورائها الكنيسة الكاثوليكية ضد اللغة العربية، إلا أن مسلمي اسبانيا تشبثوا بلغتهم وتكلموا بها، محاولة منهم التعبير عن رفضهم المطلق لأي عملية انسلاخ عن هويتهم الإسلامية. وبذلك كانت كل الجهود التي بذلها القساوسة والرهبان والساسة في عملية القضاء على اللغة العربية تذهب هباءا منثورا.

3)-**جهود السلطات الإسبانية في القضاء على الإنتاج الفكري العربي**: إن مجموع القرارات والمراسيم التي أصدرها الملكان الكاثوليكيان فرناندو وإيزابيلا سنة906-907هـ/1501-1502م، ومن بعدهم الملوك الكاثوليك الاسبان بمباركة الكنيسة بمنع استعمال اللغة العربية كلغة للحديث أو للكتابة، كان بمثابة عملية استئصال مسلمي اسبانيا من هويتهم الإسلامية، وكوسيلة فعالة لعملية التنصير.

إذ لم تبخل السلطات الاسبانية في تكريس كل الوسائل والإجراءات معتدلة كانت أو ظالمة، لتنفيذ سياستها الإدماجة، ومع هذا فإن مسلمي اسبانيا بقوا صامدين ضد مبدأ اعتناق النصرانية وتعاليمها؛ وفي الوقت نفسه الذي تظاهروا فيه في أعين العموم بأنهم نصارى، إلا أنهم في الباطن كانوا يعيشون في جو إسلامي بحت.

فمحاولة القضاء على اللغة العربية تخابطا لا يقلل من خطر الوجود الإسلامي في اسبانيا، لذلك سعت السلطات السياسية والدينية إلى جمع كل الإرث الثقافي الإسلامي وحرقه محاولة في ذلك القضاء نهائيا على كل ما له صلة بلغة القرآن والإسلام.

ونقصد بالإرث الثقافي والإسلامي هي مجموع الكتب التي تم تأليفها طيلة فترة الحكم الإسلامي في الأندلس؛ فالكتاب يمثل بما يحويه من ثمرات الفكر الإنساني وسيلة من وسائل العلم والمعرفة في أي عصر من العصور، وفي أي مجتمع من المجتمعات، لذا فمن الطبيعي أن نقف على مقدار الأهمية العظمى التي تعطى للكتاب في الحياة الثقافية.

لقد أعطت الأندلس للكتاب المنزلة اللائقة في خضم النشاط العلمي الذي عاشته ومارسته، وتعتبر فترة الحكم الإسلامي للمنطقة من أخصب الفترات لنمو الكتاب وانتشاره نتيجة تعدد المراكز الثقافية، وحدوث تنافس فيما بينهم فبعدما كانت قرطبة وأهلها أشد الناس اهتماما واعتناء بالكتب، صارت لا تقوى على منافسة الحواضر الجديدة في هذه الظاهرة، ومن الأدلة التي تثبت أهمية الكتاب، أنه يشترط في الذي يتولى الرياسة أن يكون في بيته خزانة كتب[1]. ويمكن إرجاع هذا الاهتمام بالكتب والتنافس عليها إلى عاملين أساسيين هما[2]:

-ظهور طبقة الوراقين[3]،التي انتشرت في المدن الكبرى الأندلسية كقرطبة وغيرها.

---

[1]- المقري، نفح الطيب، (المصدرالسابق)،ج: 1.صص: 462، 463.

[2]- حامد الشافعي دياب، الكتب والمكتبات في الأندلس، القاهرة: دارقباء للطباعة والنشر،ط: 1، 1998 م. ص: 31.

[1]- محمد بن أحمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تح: غازي طليمات، دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي د.ط،د س ن. 1980 م. ص: 39.

– الرغبة الشديدة عند الأندلسيين في تعلم القراءة والكتابة التي كانت دافعااللتأليف وتمدها بأسباب القوة والانطلاق.

ثم أن عامل جمع الكت بأثر بالحياة الثقافية، إذ أن ثلة من الأندلسيين كالأمراء والعلماء إلى جانب ترحيبهم بأهل العلم عملوا على جمع الكتب النادرة والحصول عليها من مصادرها[1]، وإلى جانب هذا نجد الاهتمام باللغات الأعجمية الذي يعد عاملا أساسيا مساهما في الفعل الثقافي.

انطلاقا مما ذكر أعلاه فنستنتج أن بلاد الأندلس عرفت برقيها الحضاري، وتقدمها العلمي وانتشار مراكز الإشعاع العلمي[2] كما عرفت بمدى شغف أهلها بحب اقتناء الكتب، هذا على صعيد العامة؛ أما فيما يخص الحكام فلقد عرف عن هؤلاء أيضا مدى اهتمامهم بتنشيط الحركة العلمية والأدبية[3]، تأليفا ونشرا وتوزيعا. هذه العوامل وغيرها كانت من وراء نشأة المكتبات في الأندلس[4]؛ ومكتبة قرطبة أحسن مثال على ذلك، إذ يرجع تاريخ إنشائها إلى عصر محمد الأول[5] (238-

---

[2]– جعفر يابوش، الحركة الطبية في الأندلس بين الصراع السياسي والمعرفي، الجزائر:دار الغرب للنشر،ط:1،د س ن. ص ص:40، 41.

[3]– من بين المراكز التي اشتهرت بالإشعاع الثقافي نذكر أشبيليةا التي سرقت أضواء الثقافة وازدهرت علميا وأدبيا فتحولت إلى مدينة للأدب، وذاع صيتها أيام المعتمد بن عباد، فصارت قبلة للشعراء والأدباء. ينظر: عبد العزيز سالم، قرطبةحاضرةا لخلافة، (المرجع السابق).ص ص: 101، 102.
_4H.Terrasse, Lesfortessedel'Espagnemusulmane, Madrid, 1954. P: 101.

[5]– أنشأ الأندلسيون مجموعة من المكتبات كان أهمها على الإطلاق مكتبة قرطبة الشهيرة التي كونها الخلفاء الأمويون بالأندلس. وقد شرع في تكوين هذه المكتبة الخليفة الحكم الثاني المستنصر بالله الذي استعان بوكلاء انتشروا في العالم الإسلامي يجمعون له الكتب حتى بلغ ما احتوت عليه هذه الخزانة أكثر من أربع مائة ألف مجلد. وكان الفهرس المشتمل على عناوين كتبها وأسماء مؤليفها مكونا من أربعين كراسة، كل كراسة منها تشمل على خمسين ورقة.

[6]– **محمد الأول**: هو محمد بن عبد الرحمان؛ يكنى " أبا عبد الله"، اسم أمه تهتر. ولد سنة 207 هـ/ م. كان محبا للعلم والعلماء، حسن السيرة بين قومه. توفي سنة 273هـ/ م. ينظر: أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي، فتوح بن عبد الله، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، د ط، 1966م. ص ص: 108، 109.

273هـ ./852-877م)، فقد عرف عن الأسرة الأموية[1] اهتمامها بالتعليم ومن ثم حبها للكتب.

إن الإرث الثقافي[2] والحضاري لبلاد الأندلس كان من أهم العوامل الذي ساهم في البناء الثقافي، وكان قاعدةا نطلق منها الحكام على مر العهود الإسلامية في تجسيد عمليات الفعل الثقافي، كون هذا التطور والازدهار الذي تم كان له أكبر الأثر في استمرار وتقوية تيار الحركية الثقافية، إذن فالعلم والمعرفة بناء يضاف إلى كيانه عبر العصور لبنات جديدة من الإبداع والنتائج العلمية.

أمام كل هذه المعطيات ورثت الأندلس قبل سقوطها كما هائلا من الإنتاج الفكري جعل من السلطات الاسبانية تنظر إليه بكل حذر وتخطط للقضاء عليه مهما كلفها الثمن؛ لذا أصدرت السلطات الكنسية بمباركة البلاط الاسباني قرارا يعاقب كل من يملك كتابا باللغة العربية أو يتعامل معها[3]، ومثل هذه التهمة أصبحت كفيلة بجر صاحبها إلى الإعدام شنقا أو حرقا.

فبعد سقوط غرناطة وإنشاء محاكم التحقيق، بادر عمالها إلى مطاردة كل من كان يمتلك كتبا باللغة العربية بموجب المراسيم الملكية مثالا على ذلك نذكر القرار الصادر في سنة931هـ/1526م والقاضي بضرورة تسليم الكتب العربية إلى السلطات النصرانية في مدة أقصاها ثلاثين يوما[4]. كما اشترط على مسلمي اسبانيا بكتابة جميع العقود باللغة الاسبانية.

وفي سنة973هـ/1566م قرر الملك فليب الثاني بأن جميع العقود والوكالات وكافة المعاملات

---

[1]- عرف عهد الخلافة الأموية نشاطا فكريا مميزا، نتج عنه ظهور الكثير من العلماء والمثقفين ساهموا بشكل جلي في ازدهار الحياة الثقافية بالأندلس؛ ومرد ذلك يعود إلى أن تلك الفترة كانت تتميز بالاستقرار والهدوء السياسي. ينظر: عبد القادر دامخي، النثرا لفني فيا لأندلس في القرن الخامس الهجري -الحادي عشر الميلادي، رسالة ماجستير، جامعة دمشق: كلية الآداب، 1987 م.ص:30 .

[2]- نقصد بالإرث الثقافي كل تلك الإنجازات والإبداعات التي حصلت في الأندلس في جميع المجالات.

[3]- لوي كارديك، الموريسكيون والمسيحيون، (المرجع السابق). ص: 56.

[4]- الحايك سيمون، المرجع السابق، ص : 31.

المكتوبة باللغة العربية ملغاة ولا قيمة لها إطلاقا، ولا يحق لأحد المطالبة أو الادعاء أو الشكوى بصحة هذه الوكالات والعقود وغيرها. كما أضاف في التقرير بأن جميع الكتب العربية مهما كان موضوعها ومضمونها يجب أن يؤتى بها إلى رئيس المحكمة العليا في غرناطة لكي ينظر فيها ويفحصها[1]، وإذا لم يجد فيها مانعا تعاد إلى أصحابها للاحتفاظ بها طيلة ثلاث أعوام فقط[2].

كما أصدرت السلطات الكنسية بمقاطعة أراغون في سنة1002هـ/1593م قرارا تدعو فيه كافة " المرتدين والمدجنين والموريسكيين" إذا أرادوا التماس العفو من " قداسة الكنيسة" أن يخرجوا كل ما يملكونه من الكتب العربية حتى تغفر خطاياهم وتزول من حولهم شبهة الاتهام والمتابعة[3].هذا فيما يخص الجانب التشريعي لملف الموروث الثقافي الإسلامي المكتوب باللغة العربية؛ أما فيما يخص الجانب التنفيذي فقد استعملت السلطات الاسبانية طرقا أقل ما يمكن وصفها بالوحشية والهمجية واللاحضارية.

من هناك دخل الكتاب العربي مجابهة علنية مع قرارات محاكم التحقيق واستعيد إلى الذاكرة ما يشبه العهد الأول من المضايقة التي شنها الكاردينال الصليبي خمينيس عام 901هـ/1500م على أعقاب سقوط غرناطة حيث تسجل لنا الوثائق الرسمية إقدامه الحاقد والشنيع على ارتكاب فعلته التاريخية المعروفة.

فقد اجتهد رجال الكنيسة والساسة على صياغة النصوص القانونية التي ستكون ستارا للأعمال

---

[1]- عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج، 7، (المرجع السابق). ص:357.

[2]- تظاهرت السلطات الاسبانية بنية إرجاع الكتب العربية المحجوزة إلى أصحابها، فبمجرد تجميع هذه الكتب سوف يحتفظ بها الملك بغية الاستفادة منها في الجانب العلمي، أما فيما يخص الجانب الديني والثقافي لهذه المؤلفات فسوف يرمى بها لتبتلعها النيران.

[3]- لوي كارداك، الموريسكيون والمسيحيون، (المرجع السابق). ص: 27.

البربرية التي سيكون الكتاب العربي عنوانا لها؛ ومن بين هذه المراسيم نذكر ذلك الذي صدر على عهد الملكين الكاثوليكيين وجاء في نصه ما يلي[1]:"...**يجب إحضار الكتب التي في حوزة الموريسكيين دون السماح بإبقاء أي شيئ من يوم إجراء هذا الإعلان ولمدة ثلاثين يوما، سواء كانت الكتب قرآنا، أو أي كتاب حول الطائفة المحمدية، ويجب حرقها علنا**".

إذ أقدم على حرق الكتب الإسلامية في الساحة العامة وبلغ عدد مجلداتها آنذاك خمسة آلاف دون وعي منه لقيمتها المعنوية أو الجمالية، وكذلك فعلت محاكم التحقيق بمقاطعة أراغون التي أقدمت على حرق آلاف المصاحف ومختلف الكتب الأخرى في الساحة العامة[2].

ولقد تضاربت الروايات التاريخية حول العدد النهائي للإرث العلمي والديني والأدبي الذي أحرقه الكاردينال خمينيس في ساحة الرملة، فهناك من ذهب إلى أن عددهم تراوح ما بين مليونين كتاب[3]، فيما ذهب فريق آخر أن بلغ تعدادهم خمسة ملايين كتاب، فيما رفع الرقم فريق آخر إلى سبعة ملايين مؤلف[4]. ومهما يكن الرقم الحقيقي الذي قام بحرقه الكاردينال خمنيس فإنه قضى على سنوات وسنوات من البحث والتأليف والابداع في شتى المجالات، فقد اتصف عمله هذا بالهمجية والبربرية. وقد وصف أحد الشعراء عملية الحرق التي تعرضت لها الكتب العربية في رسالة بعثها مسلمو اسبانيا إلى السلطان العثماني بايزيد الثاني قائلا[5]:

---

[1]- دومينغيثأورتيتبرناند، المرجع السابق. ص: 155.

[2]- عبد الله حمادي، الموريسكيون ومحاكم التفتيش، (المرجع السابق). ص: 43.

[3]- Don Francisco Javier Simomet, El cardénalXimenexde Cisneros, y Los manuscritosabàbigo- Granadinos, Imprenta de la lealtad à ocargo de J. G. Garrido, Grannada, 1885. P : 6.

[4]- Ibid. P: 8.

[5]- المقري، أزهار الرياض، ج: 1، (المصدر السابق). ص ص: 109.

وكل كتاب كان في أمر ديننا ففي النار ألقوه بهزء وحرقة

ولم يتركوا فيهـا كتابا لمسلـم ولا مصحفا يخلى به لقراءه

وما يؤكد النزعة الدينية الصليبية التي حركت عملية حرق الكتب، هو تجميع كل ما له صلةبالجانب العلمي وتحمليها إلى القصر الملكي[1]، فشكلت فيما بعد نواة مكتبة الأسكوريال" L Escurial"[2]،التي لا تزال بظاهر مدينة مدريد.

بالرغم من علمية الحرق والنهب التي ألحقت الآلاف من المؤلفات العربية، وبالرغم من كل هذه الإجراءات التعسفية إلا أن مسلمي اسبانيا حافظوا على البعض منها[3]، فانتشرت المكتبات السرية في أقبية البيوت، لكن التعامل معها كان يشكل خطرا عليهم[4]، فاكتشاف أمرهم من طرف مفتشي محاكم التحقيق قد يؤدي بهم حتما إلى الإعدام أو الجلد، أو العمل بالجدف لسنوات في السفن الاسبانية، لذلك كان من الضروري البحث عن وسيلة بديلة.

كان أحسن تعليق على فشل السياسة الاسبانية في محاولتها للقضاء على الإنتاج الفكري ما وصفه المستشرق الفرنسي "غوستاف لوبون" حين كتب على الموضوع يقول "...**وظن رئيس**

---

[1]- صاحبي محمد، الورق والوراقون وأثرهما في ظهور خزائن المخطوطات، المجلة الجزائرية للمخطوطات، ع: 1، جوان 2003م. ص:129.

[2]**–الأسكوريال**:أمر فليب الثاني ببنائه سنة 970هـ/1563م و أشرف على بنائها المهندس المعماري جوان دي هريرا و استغرقت عمارته أحد وعشرين سنة كاملة. علي اسلام باشا، المرجع السابق. ص: 46 . تقع على بعد أحد وعشرين ميلا من مدينة مدريد، وبناء هذه الكنيسة وتوابعها كلها من الحجارة الصلبة الشبيهة بالرخام، منقولة من الجبل المطل على الكنيسة، وهي حجارة كبيرة. تتكون من ثلاث أبواب: فالباب الوسط هو باب الكنيسة، وفوق الباب علقت صورة من حجارة زعموا أنها صورة للراهب لرينصول الريال الذي بنيت الكنيسة باسمه. والبابان على يمينها ويسارها هما بابان لدارين كبيرين خصصت للطلبة. كما توجد بوسط الكنيسة قبة عالية السمك، وهي في غاية الاتقان والصناعة. محمد الغساني، المصدر السابق. ص ص: 121. 124.

[3]- Don Francisco Javier Simomet, Op. Cit. P : 13.

[4]-Lo Pèze- Baaralt, Chronique de la destruction d'un monde la littérature Almarado-Morisque, Parie, 1886. P : 46.

**الأساقفة الاسباني خمينيس أنه بإحراقه على ما قدر جمعه من مخطوطات... محا ذكرهم من صفحات التاريخ إلى الأبد، وما كان يدرى أنه ما تركه العرب من الآثار التي تملأ بلاد اسبانيا، تكفي لتخليد اسمهم إلى الأبد..."** [1]

ويبقى مع كل ذلك أن مثل هذه القرارات المجحفة في حق الانسان والانسانية كانت تصدر باسم قداسة الكنيسة حامية الدين والأخلاق، وكانت تمارس أبشع الأساليب بهدف إشباع نفوسهم التي ملئت حقدا وبغضا وكرها لكل ما يمت للإسلام بصلة.

لكن في حقيقة الأمر تبقى الاجراءات والقرارات المتتالية الصدور بمثابة التمويه لأن واقعية الأحداث أثبتت ميدانيا أن المطاردة والتنكيل والابادة الجماعية كانت تمارس في السر والعلانية ضد هذه الجماعة المسلمة. وما القرارات والمراسيم إلا لجعل مثل هذه الجرائم البشعة تكتسي صبغة الشرعية المطلقة، ولكن في آخر المطاف أجمعت جل المصادر التي اهمت بالبحث والتقصي في الموضوع على أنها كانت من قبيل التضليل الفاضح، لأن واقع الحال سجل عكس ما تظاهرت به هذه القرارات. وبالمقابل تبقى رغم كل هذه المجهودات الاضطهادية محاولة القضاء على أثر الإسلام واللغة العربية في اسبانيا بمثابة السراب الذي يحسبه الظمآن ماء؛ لأن الوثائق الرسمية تثبت عكس ما رغبت محاكم التحقيق بلوغه من أهداف أقصاها القضاء المبرم على أثر الإسلام واللغة العربية.

## 2)– المبحث الثاني: جهود مسلمي اسبانيا في الدفاع على اللغة العربية

ناضل المسلمون إبان محنتهم في اسبانيا خلال القرنين العاشر والحادي عشر هجريين الموافق

[1] – الحايك سيمون، المرجع السابق، ص: 274.

للقرنيين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، بكل ما لديهم من إمكانيات للحفاظ على خصوصيتهم وشخصيتهم الإسلامية بالسلاح كلما تمكنوا من ذلك؛ وبالكلمة عندما يصبح جهاد السلاح مستحيلا.

فقد أبهر مسلمو اسبانيا كل متتبع لمسيرتهم النضالية، إذ برزت لديهم روح المقاومة، وأبوا إلا أن يجابهوا عصرهم بتحدياته المجسدة ثقافة مزدوجة، التي كان من ورائها إيجاد أنجع السبل للتواصل فيما بينهم، ومحاولة تبليغ بعضهم البعض بقايا عقيدتهم وتراثهم الثقافي، حتى يتمكنوا من الحفاظ على مقوماتهم الشخصية الإسلامية كي تنقذهم من خطر الذوبان والاندماج؛ إنه وجه آخر من وجوه المقاومة المستميتة لمسلمي اسبانيا في مجابهة ما يشبه المستحيل.

ولعل الأقلية المسلمة في اسبانيا تبقى فريدة من نوعها من هذا المنظور، وذلك بعنادها منأجل البقاء حتى ولو اقتضت الضرورات كما هو الحال بالنسبة لها إلى ابتكار هذا النوع من الإفرازات حتى تكون بمثابة الهوية الناطقة باسمهم والمميزة لكيانهم المهدد بالزوال.

**1)– مكانة اللغة العربية عند مسلمي اسبانيا:** عانى مسلمو اسبانيا من قمع واضطهاد مزدوج . السلطات السياسية والدينية . حيث ضيقوا عليهم الخناق، وقطعوا عليهم الطريق والأمل، وافتكوا منهم كل عناصر مقومات شخصيتهم الإسلامية، فكانت نتيجة ذلك أن حاول هؤلاء المضطهدين مقاومة ذلك الإرهاب الفكري الذي سلط عليهم بشتى الطرق والأساليب.

ومن بين ما كون الشخصية الإسلامية اللغة العربية، إذ تعتبر هذه الأخيرة لغة القرآن؛ لهذا

السبب نجد المسلمين ينظرون إليها بشتى مكوناتها الداخلية والخارجية كعنصر ديني يدخل في تركيب الإسلام؛ ولأن الخط العربي من المكونات الخارجية الأساسية لهذه اللغة، فنجد له قدسية خاصة عند المسلمين.

فلقد بلغت درجة الوعي عند مسلمي اسبانيا بخطورة الموقف أن عمق لديهم الإصرار والتمادي في تفضيل الأجواء المنغلقة حتى لا يكونوا عرضة لأي أثر مهدد لوحدتهم وتراصهم، فكانت اللغة العربية في هذا السياق ذريعتهم في التواصل وكان بواسطتها يتم الفرز الصحيح، وبها كذلك كانت تتم الثقة لإبرام التبادلات والتأسيس لأجواء للتعامل النقي، فمثل هذا الاحساس الواعي والمدرك حبذ إليهم الانغلاق لأن فيه سلامتهم وأمنهم ومستقبلهم وبه قاوموا منطلق الاندماج الذي كان الطرف المضايق لوجودهم يصر على النفاذ إليهم من خلال تنازلهم على لغتهم.

من هذا المنطلق ارتبط مسلمو اسبانيا في هذه الفترة ارتباطا وثيقا باللغة العربية[1]، فلقنوها لأبنائهم، وتدارسوها فيما بينهم[2]، وكتبوا بها حسب المستطاع؛ وقد فسر أحد المعاصرين للحدث التاريخي الشهاب الحجري هذا الارتباط بقوله[3]:"... **وكل لسان مختلف عن غيره، وهذهالعربية**

---

[1]- تعددت اللغات في شبه الجزيرة الإيريبية فهناك اللغة القطلانية المستخدمة في قاطالونيا وجزر البيار ثم اللغة الجليقية التي هي لسان أهل منطقة جليقيةوالأسكيرا وهي لغة المجتمع البلنسي؛ ويذهب الكثير من المؤرخين إلى أن مسلمي بانسية قد حافظوا على استعمال اللغة العربية أكثر من غيرهم، وهذا ما أكدته محاضر محاكم التحقيق. ينظر: فنسان برنار، لغة الموريسكيين، تع: التميمي، ضمن السلسلة الرابعة الخاصة بـ: تراجيديا طرد الموريسكيين من الأندلس والمواقف الاسبانية والعربية الإسلامية منها، (المرجع السابق). ص: 138. وقد تطورت هذه اللغات على مر الأزمان إلى أن أخذت شكلها المعروف اليوم. وتعامل الأندلسيون معها في شكل محدود وعرفوها عموما باسم " الأعجمية ". ينظر: البشتاوي، الأندلسيون المواركة، (المرجع السابق). ص : 32 .

[2]- انتشرت الثقافة العربية الإسلامية والتربية والتعليم في إسبانيا المسلمة لدرجة جعلت دوزي يقول إن أغلب الناس في الأندلس أصبحوا قادرين على القراءة والكتابة ، بل يمكننا أن نقول إن كل فرد تقريبا كان يعرف القراءة والكتابة.

[3]- ناصر الدين على القوم الكافرين، (المصدر السابق). ص: 21.

**وحيدة في الدنيا. وقالوا الحق في ذلك. فهو كلام مبارك، ومن تكلم بها لابد يذكر الله. ولذلك كان يقول بعض من الأندلس لا عربية بلا الله، ولا عجمية بلا شيطان،لأن النصارى يذكرونه في كلامهم، ولا يكره العربية والكلام بها إلا من لا يعرف فضلها وبركتها..."**

لذلك فليس من المستغرب أن نجد بين صفوف مسلمي اسبانيا في القرن الحادي عشر هجري الموافق للقرن السابع عشر ميلادي من كان يجيد اللغة العربية وليس هنا بالطبع حال الأغلبية من هؤلاء المسلمين، وهذا يفسر سر تناقض في الإشارات المتفرقة، المنتشرة في الدراسات التي عالجت قضية مسلمي اسبانيا، والتي أودت بالمستشرقين إلى نتائج مضطربة ومشوشة، جعلت من البعض يشكك في معرفتهم –في المرحلة التاريخية السابقة– أصلا باللغة العربية[1]، مرجعه في ذلك أنهم لم يأخذوا بعين الاعتبار انتشار ظاهرة التقية التي كانت وسيلة حماية لهم.

لهذا حاول مسلمو اسبانيا حماية لغتهم من الضياع، لأن في اعتقادهم أنه كل من"...**يفقد لغته العربية، يفقد في الوقت نفسه دينه...**" هذا ما ذكره أحد الغرناطيين في رسالة وجهها إلى مسلمي المغرب العربي؛ هذا أيضا ما أكده عالماللغةالثعالبيلما كتب بهذا الصدد يقول:

"**...من أحب الله تعالى أحب رسوله محمدا، ومن أحب الرسول العربي أحب العرب ومن أحب العرب أحب العربية التي بها نزل أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب، ومن أحب العربية عني بها، وثابر عليها، وصرف همته إليها، ومن هداه لله للإسلام وشرح صدره**

[1]–طارق محمد خضر، المرجع السابق. ص: 52.

**للإيمان وآتاه حسن سريرة فيه، اعتقد أن محمدا خيرا لرسل، والإسلام خير الملل، والعرب خير الأمم، والعربية خير اللغات والألسنة..."**

عليه فإننا لا نستطيع أن نؤكد بصورة أفضل من هذه، على أهمية المحافظة على اللغة الأصلية لمجموعة بشرية وجدت نفسها في صراع ومجابهة ضد كل أنواع القمع والاضطهاد، بالتالي فإن هذا مس مباشرة حياتها ووجودها تماما، فاللغة تعد أداة مهمة للمجابهة بين الأقلية المهددة بضياع ذاتيتها، والمجتمع المهيمن الذي يسعى لدمجها مستعملا لذلك كل الوسائل؛ فالمحافظة على الثقافة الإسلامية لا يمكن أن يتحقق إلا إذا اعتمدنا على ثلاث أركان أو ركائز، من أهمها تعلم وممارسة اللغة العربية.

لهذا الغرض ظهرت عملية انتشار التعليم السري لدى العائلات المسلمة في اسبانيا، إذ دأبت على إرسال أبنائها إلى الكنيسة لتعلم اللغة الاسبانية والتعاليم النصرانية للتظاهر بقبول الوضع الجديد؛ لكن بمجرد عودتهم إلى أسرهم يؤخذون إلى بيوت سرية، التي تحولت إلى مدارس لتعليم اللغة العربية وتعاليم الدين الإسلامي على يد فقهاء كانوا ملمين بالثقافة الإسلامية، هذا ما أكده بن عبد الرفيع الأندلسي الذي كتب في مؤلفه يقول بهذا الصدد[1]:"... **فيعلمني والدي دين الإسلام...**"

وهكذا نرى أن كل بيت مسلم في اسبانيا تحول إلى مدرسة، وكل رب عائلة صار معلما يعلم أبناءه اللغة العربية والإسلام؛ وبهذا استطاع مسلمو اسبانيا الإبقاء على حبل الارتباط بينهم وبين أصولهم العربية الإسلامية داخل وسط يصعب بل يستحال على المرء فيه الحفاظ على مقومات دينه دون اللجوء إلى أساليب ناجحة واستعمال التحايل، والاستماتة في المواجهة وابتكار الوسائل الكفيلة

[1]- يحياوي جمال، المرجع السابق، ص : 223 .

لبقاء اتصاله بمقومات شخصيته الإسلامية أمام وصايا رجال الدين الكاثوليكيين لسلطات الاسبانية لاجئات اللغة العربية باعتبارها أداة فعالة للمحافظة على الشخصية الإسلامية.

كما انتشرت المساجد السرية في المغارات والجبال لتعليم اللغة العربية[1]، التي كانت السبيل الوحيد لقراءة القرآن الكريم والمحافظة على مقومات الشريعة الإسلامية التي جاء بها الرسول محمد عليه أزكى الصلوات والتسليم. أيضا كثرت الرحلات الدراسية بين المدن خفية فنجد مثلا مسلمي أراغون كانوا ينتقلون إلى فالنسيا[2] لتعلم اللغة العربية؛ فكانت تعقد الجلسات السرية في البيوت لقراءة التاريخ الإسلامي، وكتب الفقه والسيرة النبوية.

أمام هذه المعطيات فقد حرص الكل على المحافظة على اللغة العربية كل في موقعه، فالآباء حرصوا على تعليم أبنائهم، والفقيه أو الإمام عمل على تلقين اللغة العربية لكل من طلبذلك، فالتعلم في هذه المرحلة لم يكن يقصد من ورائه الحصول على وظيفة، أو التباهي بين الآخرين، وإنما كان بهدف المحافظة على الدين الإسلامي، لذلك تحول من فرض إلى واجب مقدس لدى كل العائلات المسلمة بإسبانيا. كما نجد تأثير اللغة العربية في الآثار التي خلفها مسلمو اسبانيا من خلال حضورها البارز في إطار الأعمال والاقتراض والاشتقاق والاقتباس من كل ما يمت بصلة للغة العربية[3]، خاصة إذا تعلق الأمر بالمفاهيم الاصطلاحية الفقهية.

---

[1]- حايك سيمون، المرجع السابق. ص: 30.

[2]- امتاز مسلمو فلنسيا بمحافظتهم على اللغة العربية أكثر من غيرهم من سكان المقاطعات الأخرى. كما عرف تواجد عدد كبير من الفقهاء والقضاة في هذه المنطقة مما ساعد على انتشار اللغة العربية.

[3]- حنيفي هلايلي، الحرف العربي: تعبير مقدس في المخطوطات الألخميادية والموريسكية، الجزائر: المجلة الجزائرية للمخطوطات، ع:1، جوان 2003م. ص:69.

أمام هذه المعطيات ندرك مدى وعي الجماعة المسلمة بضرورة المحافظة على اللغة العربية، لأنه من يخسر لغته تضيع هويته وخصوصيته، ويخسر ذاته ومستقبله، فكانت دعواتهم صريحة وصارمة للتمسك باللغة العربية، والدفاع عن تراثها الثقافي والعلمي، ونبهوا إلى ضرورة تعزيز مواقعها في الحياة؛ كما ألحوا على التمسك بلغتهم الأم ودعوا إلى تعليم الأجيال بها، وإحياء تراثها الغني وكنوزها الأدبية والثقافية والتاريخية.

**2)– جهود الفقهاء في حماية اللغة العربية من الاندثار:** كان للفقهاء مكانة خاصة في المجتمع الأندلسي، فهم رجال الدين والدنيا، فمنهم الأئمة، والخطباء، والفقهاء، والقضاة، والمفتون والعدول وغيرهم؛ واستمدوا مكانتهم، ونفوذهم من كونهم حفظة الدين وحملة الشريعة، فأجلهم المجتمع، واحترمتهم السلطة، ووقفت عند رأيهم وعملت بإشارتهم، حفاظا منها على تقليد مرعى ظهر مع قيام المجتمع الأندلسي في أوائل العصر الأموي بالأندلس،واستمر حتى سقوط السلطة الإسلامية منها.

كما استمر دورهم حتى بعد سقوط دولة الإسلام في الأندلس، بالرغم من هجرة الكثير منهم إلى دار الإسلام، بعدما غابت شمسه على أرض عاش فيها قرابة ثمانية قرون من الزمن. وما بقاء مجموعة من هؤلاء الفقهاء ما كان إلا بدافع الضمير الذي كان يناديهم بضرورة البقاء لحماية مسلمي اسبانيا من الانصهار في المجتمع النصراني.

فكما هو معلوم وجلي أن أي محاولة تهدف إلى استئصال اللغة العربية تتحول إلى وسيلة مقاومة بالنسبة لأي أقلية، فإن أول ما يفكر في ضربه هو منع تعلمها في المدارس أو الكتاتيب على

يد الفقهاء، الأمر الذي تمت المصادقة عليه بالإجماع في المجالس الملكية. بالإضافة إلى غلق المدارس والكتاتيب عمدت السلطات الاسبانية إلى ارسال مدرسين من النصارى القدامى إلى كل المناطق الآهلة بالمسلمين حتى يقوموا بتعليم أبناءهم اللغة القشتالية رغما عنهم[1].

لكن مثل هذا الرهان المشلول الذي أيدته السلطة الملكية بوحي من السلطة الروحية نجده لم يحقق بدوره الأهداف المنشودة ويدل على صدق الفشل الذريع الذي منيت به مثل هذه المحاولة اليائسة داخل هذا الإطار المتباين شكلا ومضمونا نجد العوائق التي جابهت السلطات الملكية والروحية تأخذ صبغة الموضوعية مما جعلها من الصعوبة بمكان إيجاد الحل المناسب لها وخاصة أن الجماعة المسلمة راح إصرارها يزداد يوما بعد يوم على عدم القبول بالتبعية والانسلاخ عن مقوماتها.

وقد دفع مثل هذا الاصرار ببعض الفقهاء المجاهدين والمتشبثين بعقيدتهم ولغتهم على تعليم اللغة العربية لإخوانهم في الدين، بالرغم من كل المخاطر التي كانت تحيط بهم، إلا أنهم لم يستسلموا أبدا، واعتبروا هذا المسعى جهادا في سبيل إعلاء لغة القرآن والإسلام. فقد كان المسلم في اسبانيا يعرف القراءة والكتابة باللغة العربية لكن هذا لم يكن ليؤهله في فهم معاني القرآن الكريم[2]، لهذا كان لا بد من الاستعانة بالفقهاء من أجل توضيح ما هو مبهم وتفسير ما كان غير مفهوم بالنسبة لهم.

فهناك العديد من التواريخ المتفاوتة التي تذكر من حين لآخر بإصرار الكتابات العربية على التداول بين الجماعة المسلمة بفضل بعض الفقهاء؛ فقد ورد في ملفات محاكم التحقيق لسنة 675هـ /1576م

[1]-Boronat y BarrachinaPascual, Op. Cit, P :537

[2] Julio Caro Baroja, Los MoriscosdelReino de Granada, Madrid: Edition Isimo. 1976. P: 158.

على أنه تم اكتشاف أمر فقيه كان يمتلك كتابا باللغة العربية واستعماله في تعليم إخوانه من الجماعة المسلمة[1].

لهذا سخرت السلطات الكنسية كل مجهوداتها على متابعة الفقهاء على وجه الخصوص وإصدار الأوامر بالقبض عليهم أينما وجدوا؛ فقد جاء في نص البيان الذي رفع إلى الملك الإسباني فيليب الثاني ما نصه[2]:" ...**إننا نلفت جنابكم الموقر إلى ما تمكنا من العثور عليه بين هؤلاء المرتدين من الفرقالمحمدية من الكتب العربية التي في حوزتهم قصد التعلم بها.. نرى من الضروري إصدار الأمر بإلقاء القبض على الفقهاء والرؤساء منهم**".

من خلال هذا النص التاريخي والذي يمثل شهادة العدو الغاصب تأكد لنا نقطتين مهمتين هما:

– استمرار تداول اللغة العربية والكتاب العربي بين الجماعة المسلمة في اسبانيا بالرغم من كل الأساليب والوسائل التي استعملتها محاكم التحقيق في القضاء على اللغة العربية.

–دور الفقهاء في نشر وتعليم اللغة العربية، والتحدي الذي أعلنوه صراحة ودون خوف أو تردد أمام قوى الطغيان.

وبهذا كان معرفة اللغة العربية وعلوم الدين الإسلامي، رمزا من رموز التميز بين صفوف الجماعة المسلمة، مما جعل من هؤلاء الفقهاء والمفتيين قادة لهم، حتى لحظة الطرد النهائي. فقد صاغ هؤلاء الفقهاء تراثهم الثقافي والروحي متشبثين بحروف اللغة العربية، وبهذا لعبوا دورا مهما في الحفاظ

[1]– عبد الله حمادي، الموريسكيون ومحاكم التفتيش، (المرجع السابق). ص: 44.

[2]–عبد الله حمادي، المرجع نفسه. ص: 44.

على استمرارية العقيدة الإسلامية؛ من بين هؤلاء نذكر كبير فقهاء سيقوبيه صاحب كتاب «المعالم الرئيسية للتعاليم القرآنية» وهو كتاب مكتوب باللغة القشتالية، وأشار في مقدمة كتابه جهل مسلمي اسبانيا للغة العربية في قشتالة[1]، لهذا كان من الضروري تلقينهم لغة القرآن.

ومن بين الفقهاء الذين داوموا على حفظ القرآن الكريم وتحفيظه للجيل الذي عاش تحت ضغط المضايقات والمتابعات من طرف عمال محاكم التحقيق[2] وتعليم اللغة العربية، نذكر الفقيه المدعو ميقال موسى "Miguel Muza" الذي حكم عليه بالإعدام سنة671هـ/1573م بتهمة استعمال اللغة العربية وتلقينها لأبنائه واخوانه من الجماعة المسلمة[3].

يتبين من خلال تتبعنا المختصرة لدور الفقهاء في ترسيخ معالم اللغة العربية بين أفراد الجماعة المسلمة، أنهم مثلوا الأداة الفعالة والوسيلة الناجعة أمام صمود اللغة العربية في جو ساده التعصب الديني والقهر والحقد والكره لكل ما يمت إلى الدين الإسلامي؛ وأن كل ما قامت به السلطات الاسبانية بهدف القضاء على هذه الفئة الحساسة ـ الفقهاء ـ ، إلا أن الإرادة الإلاهية شاءت أن يبقى في الأندلس بعد سقوطها من يحمي الإسلام ومقوماته.

أمام المعطيات التي تم عرضها في هذا الفصل تمكن لنا الخروج بمجموعة من الاستنتاجات بالإضافة إلى تلك التي عرضها بعد كل جزئية من جزئيات الفصل:

– من خلال ما تم عرضه من مادة تاريخية أدركنا مدى وعي الجماعة المسلمة بضرورة المحافظة على اللغة العربية، لأنه في رأيها من يخسر لغته تضيع هويته وخصوصيته، ويخسر ذاته ومستقبله،

[1]–طارق محمد خضر، المرجع السابق. ص: 54.

[2]–Julio Caro Baroja, Op. Cit, P: 159.

[3]–Boronat y BarrachinaPascual, Op. Cit, P :262

فكانت دعواتهم صريحة وصارمة للتمسك باللغة العربية، والدفاع عن تراثها الثقافي والعلمي، ونبهوا إلى ضرورة تعزيز مواقعها في الحياة؛ كما ألحوا على التمسك بلغتهم الأم ودعوا إلى تعليم الأجيال بها، وإحياء تراثها الغني وكنوزها الأدبية والثقافية والتاريخية.

– تبقى كل الاجراءات والقرارات المتتالية الصدور بمثابة التمويه لأن واقعية الأحداث أثبتت ميدانيا أن المطاردة والتنكيل والابادة الجماعية كانت تمارس في السر والعلانية ضد هذه الجماعة المسلمة. وما القرارات والمراسيم إلا لجعل مثل هذه الجرائم البشعة تكتسي صبغة الشرعية المطلقة، ولكن في آخر المطاف أجمعت جل المصادر التي اهمت بالبحث والتقصي في الموضوع على أنها كانت من قبيل التضليل الفاضح، لأن واقع الحال سجل عكس ما تظاهرت به هذه القرارات.

– صفاء وانحطاط المستوى اللغوي للعربية يتوقف على المكان والزمان الذي تنشأ وتنتشر فيه، فالمعلوم أن مسلمي اسبانيا كانوا موزعين بحسب المد الصليبي الذي شمل المناطق الأندلسية، فنجد أولئك الذين شملهم القهر والتنكيل الصليبي راحوا تدريجيا يفقدون اللسان العربي بالرغم من تمسكهم بالإسلام.

– أدت سياسة عدم التسامح ورفض الآخر إلى تحقيق بعض النتائج الايجابية، فقد أضاع على المسلمين الذين بقوا في الأندلس بعد السقوط، الاستعمال السليم للغة أجدادهم، وهو ما دفع بالأغلبية إلى استعمال اللهجات المختلفة في حياهم اليومية.

# الفصل الخامس:

# اللغة الألخميادية مقاومة وابداع

## المبحث الأول: اللغة العربية مدلولها اللغوي والتاريخي

### 1)- المدلول اللغوي للأدب الألخميادو

### 2)- رؤية تاريخية حول ظهور اللغة وتطورها

## المبحث الثاني: الدراسة النسقية للغة الألخميادية

### 1)- المميزات النسقية

### 2)- الأدب الألخميادو عامل تأثير وتأثر

## المبحث الثالث: الخصائص اللغوية للأدب الألخميادو

### 1)- المميزات اللغوية

### 2)- نماذج من الكتابات الألخميادية

عانى مسلمو اسبانيا من قمع واضطهاد مزدوج – السلطات السياسية والدينية معا – حيث ضيقا عليهم الخناق، وقطعا عليهم الطريق والأمل، وافتكاك منهم كل عناصر مقومات شخصيتهم الإسلامية، فكانت نتيجة ذلك أن حاول هؤلاء المضطهدين مقاومة ذلك الإرهاب الفكري الذي سلط عليهم بشتى الطرق والأساليب.

فقد استعملت السلطات الاسبانية كل الوسائل والأساليب بغية تنصير مسلمي اسبانيا ومسخ مقومات هويتهم الإسلامية، ولكن كان الرفض القاطع والجازم هو ردهم، هؤلاء صمدوا وقاوموا كل وجوه الاضطهاد والتنكيل، مفضلين البقاء على عقيدتهم. فكثيرا ما تكلم المؤرخون عن الانحطاط الثقافي الذي آل إليه مسلمو اسبانيا عند مقارنتهم بأجدادهم الأندلسيين، ولكن لا بد الأخذ بعين الاعتبار ذلك الاضطهاد الثقافي والاحتضار الحضاري الذي كان يمارس عليهم حتى يتسنى إصدار حكم يأخذ بعين الاعتبار عمق البعد الثقافي لهؤلاء المسلمين.

إن احتفاظ مسلمي اسبانيا بذلك القدر اليسير من الثقافة وتطويره بالوسائل القليلة التي بقيت بين أيديهم يجعلهم جديرين بالاعتزاز والافتخار ربما أكثر من أجدادهم الأندلسيين ومن معاصريهم النصارى الذين توفرت لهم كل الوسائل المهيأة والجو الملائم للقيام بنهضتهم الثقافية..

فالثقافة الإسلامية التي كانت ملزمة بالنظر إلى داخل بيتها لإرضاء حاجيات أبنائها، كانت مجبرة في الوقت نفسه بالنظر إلى الخارج لتواجه خطرا مزدوجا تمثل من جهة في تهجمات الثقافة التي تتربص بها الفرص للقضاء عليها ونقصد بها الثقافة الإسبانية الكاثوليكية، ومن جهة أخرى في الموقف غير المكترث لكثير من مسلمي اسبانيا بسبب انهزام هممهم وبرودة عاطفتهم الدينية، الشيء الذي

كان سيؤدي في أغلب الأحيان إلى مغادرة صفوف الإسلام، وبالتالي انتصار العقيدة الفاسدة.

يمثل الإنتاج الفكري والأدبي الذي كتبة مسلمو اسبانيا من أكثر الأدلة وضوحا على هذا البعد السامي في إسبانيا، والذي بدأ يضمحل ولكنه ما زال رغم ذلك مؤثرا وفاعلا، يسمح لنا هذا الأدب السري، الذي ما زال معظمه غير منشور، والذي كتبه مسلمون دفعوا دفعا لأن يعملوا تحت الأرض، بأن نلمح عملية الانقراض البطيئة كما عاشها آخر المسلمين في إسبانيا في القرنين السادس والسابع عشر ميلاديين.

إن أغلب المخطوطات الأعجمية التي كتبها مسلمو اسبانيا تدور مواضيعها بشكل أو بآخر حول الدين : قرآن، حديث، تصوف ... إلخ. وهذا الأمر يدعونا إلى التساؤل حول مدى علاقة بروز هذا الأدب بالاستجابة لحاجة مسلمي اسبانيا في إيجاد أداة تواصل ديني مختلفة عن اللغة الرومنسية المرتبطة ارتباطا عضويا في هذه الفترة بالنصرانية في إسبانيا.

فقد ترجمت مجموعة المؤلفات التي حررها مسلمو اسبانيا بهذه اللغة حجم المعاناة التي كانت ثمنا لانتمائهم الإسلامي، وتشبتهم المستميت بثقافتهم وحضارتهم. إذن ما هي اللغة الألخميادية؟ ومتى ظهرت؟ وإلى أين وصلت؟ وماذا حققت؟ كل هذه التساؤلات سنحاول الإجابة عليها، مع الأخذ بعين الاعتبار أن محاولة كهذه سوف يتخللها بعض النقص أحيانا، والتناقض أحيانا أخرى، وهذا راجع لطبيعة المادة التاريخية المستقاة من مختلف المصادر والمراجع.

## – المبحث الأول: اللغة الألخميادية مدلولها اللغوي والتاريخي

اضطر مسلمو اسبانيا إلى ابتكار لغة جديدة للتعبير عن أفكارهم ومشاعرهم والمحافظة على

البقية الباقية من تراثهم الديني المكبوت في صدورهم، إذ وجدوا في اللغة الألخميادية المشتقة من القشتالية – المفروضة عليهم – والعربية – المكرهين على تركها – سبيلا للتعبير عن كل ذلك، حيث اختلطت فيها ألفاظ عربية وأعجمية مختلفة من اللهجات القديمة والمعاصرة لهم لا سيما الرومانية (لغة المحتل أيام الدولة الإسلامية) وتسمى اللغة اللاتينية.

**1)– المدلول اللغوي للأدب الألخميادو:** أدى ذلك القهر إلى تحول القشتالية في غالب الأحيان (الاسبانية القديمة) أو الأرغونية أو القطلانية أو البرتغالية أحيانا، إلى لغة تخاطب بين مسلمي إسبانيا، فقد اعتقدت السلطات في اسبانيا أن بمنعها استعمال اللغة العربية وحرق كل التراث الحضاري والإسلامي للأندلس سوف يمكنها من القضاء على كل مقومات الدين الإسلامي، وعلى رأسها اللغة العربية؛ لكن ما حدث كان عكس ما كانت ترجوه السلطات الاسبانية، فقد ولدت لغة إسلامية جديدة، كتبت بالحرف العربي، وسماها أصحابها اللغة الأعجمية وعرفت في كل المصادر والمراجع العربية منها والأجنبية بـ "الألخميادو" أو "الألخميادية"Aljamiadia ".

فكل من بقي من المسلمين في مسقط رأسه . الأندلس . متدثرا بغطاء التنصر كان عليه أن يتحايل على جلاديه ليواصل البقاء، وهذا التحايل خلق فنونا عديدة في ممارسة الحياة تحت رعب الخوف من اكتشاف الحقيقة، فنشأت لغة كاملة يكتب بها هؤلاء المضطهدين ما لا يريدون اكتشافه خوفا من ضياعه لو احتفظوا به فقط في ضمائرهم، فكانت اللغة «الأعجمية» أو «الألخيمادو» هي سبيلهم الوحيد للحفاظ على إرثهم الإسلامي، وبواسطتها تم كتابة كتب وموسوعات لها قيمة أدبية كبيرة إضافة إلى قيمتها التاريخية.

وقبل التطرق لشرح هذا المصطلح يجب التنويه إلى أنه لم يرد في المخطوطات التي ألفها مسلمو اسبانيا مصطلح "الألخميادو"، أو "الألخميادية" الذي هو يعادل مصطلح "الأعجمية" في اللغة العربية؛ وإنما ورد استعمال مصطلح "الأعجمية"، مثالا على ذلك نذكر ما ورد نصه في المخطوط الذي كتبه إبراهيم بن أحمد غانم الأندلسي[1]: "**كتب بالأعجمية وترجمه له بالعربية ترجمان سلاطين مراكش أحمد بن قاسم بن أحمد ابن الفقيه قاسم ابن الشيخ الحجري الأندلسي**" كما يظهر استعمال المصطلح نفسه في مواقع عدة من المخطوط نفسه.

من هنا نستنتج أن استعمال مصطلح "الألخميادو" أو "الألخميادية" في مجموع البحوث المختصة في هذا المجال جاء في فترة متأخرة[2]، ذلك أنه أول من اعتنى بإخراج هذا الإنتاج الفكري إلى النور هم الباحثون الغربيون[3]، ثم فيما بعد بدأت تظهر محاولات محتشمة لبعض الباحثين العرب والمسلمين كان على رأس هذه القائمة الباحث عبد الجليل التميمي[4].

---

[1]- المصدر السابق، ورقة: 1.

[2]- التميمي عبد الجليل، الدراسات الموريسكية ـ الأندلسية بين الواقع والمأمول، الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، د ط، 1423هـ/2003م. ص: 19.

[3]- بدأ يظهر الاهتمام بهذا الإنتاج الفكري في القرن التاسع عشر؛ ومن بين الرواد الأوائل في هذا التخصص نذكر باسكوال غايانغوس (Pascual Gayangos) وإدواردو سافيدرا (Saavedra Eduardo) يفكون شيفرة تلك المخطوطات، وفي بداية القرن العشرين قام خوليان ريبيرا وآسين بالاثيوس بهذه المهمة، أما في الوقت الحاضر فإن دراسة الأدب يلقى اهتماما أكبر من مختصّين مثل: ل. ب. هارڤي (Harvey.P.L) ومرسيدس غارسيا إرينال (Arenal Garcia Mercedes) ومانويلا مانزاناريس دي سيري (Cirre de Manzanares Manuela)، كونتزي وراينهولد (Kontzi Reinhold) وأوتمار هيجيي (Hegyi Ottmar) ولويس ودنيس كارديلاك (Louis and cardaillac Denise) وماريا تيريزا نارفيز (Narvaez Tereza Maria) وأنطونيو فيسبرتينو رودريغيز (Rodriguez Vaspertino Antonio)، ونخص بالذكر هنا ألفارو غاميز دي فوينتس (Fuentes de Galmes Alvaro) الذي بدأ بتحقيق سلسلة من هذه المخطوطات.

[4]- أسس عبد الجليل التميمي مركزا خاصا للدراسات "الموريسكية" في تونس، قدم من خلاله أبحاثا مهمة بهذا الصدد، كما نظم عدة مؤتمرات وملتقيات دولية شارك فيها مجموعة مهمة من الباحثين من شتى العالم خاصة الاسبان منهم، بالإضافة إلى طبعه لأعمالها على شكل مجموعة من المقالات التي مثلت مصدرا مهما للتأريخ للفترة المأسوية من تاريخ الأندلس الشهيدة.

وقد ورد مصطلح "الأعجمية" في بعض الآيات من القرآن الكريم نذكر على سبيل المثال قوله سبحانه عز وجل في محكم تنزيله: {**ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين**}[1].

أما فيما يخص تفسيرها من المصادر المختصة فقد ذكرت بهذا الصدد: "**قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغني كثيرا ما يجلس عند المروة إلى مبيعة غلام نصراني يقال له جبر، عبد لبعض بني الحضرمي**"، فأنزل الله تعالى هذه الآية مؤكدا على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتلق القرآن على يد هذا الغلام الذي كان لسان حاله الأعجمية ونحن نعلم أن القرآن الكريم نزل باللغة العربية لا غير[2].

كما ورد ذكر ها في موضع آخر من القرآن الكريم فجاء قوله عز وجل[3]:{ **مَّا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَة وَذُو عِقَاب أَلِيم**(43) **وَلَوْ جَعَلْنَهُ قُرْءَاناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُواْ لَوْ لاَ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ءَأَعْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدىً وَشِفَآءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَان بَعِيد**}(44) ".

هذه الآيات من الذكر الحكيم تتحدث عن الحجج التي اعتمدها الكفار في رفضهم لعقيدة التوحيد، وترد على واحدة منها، في قولهم: لماذا لم ينزل القرآن بلسان الأعاجم حتى نهتم به أكثر ويستفيد منه غير العرب؟ ولعلهم كانوا يستهدفون منها عدم فهم الناس القرآن حتى لا يضطروا إلى

---

[1]- سورة النحل، الآية رقم:103

[2]- أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، مج: 2، بيروت: منشورات محمد بن علي بيضون، د ط، 1421هـ/2000م. ص:608.

[3]- سورة فصلت، الآية رقم: 43 و 44.

منعهم عنه، كما أكد ذلك القرآن الكريم واصفا سلوكهم في قوله تعالى: **{لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه}**[1]. وهنا يجيب القرآن على هذا القول بقوله تعالى:**{ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته}.**[2]

كما تعجبوا وتساءلوا كيف لقرآن أعجمي ينزل على رسول عربي؟ وذلك في قوله تعالى سبحانه عز وجل: **{أأعجمي وعربي}**.[3] أو عكسوا الظاهرة وتساءلوا قائلين: كيف لكتاب أعجمي ينزل على أمة ناطقة باللغة العربية؟

تحدثت الآيات الكريمة عن ذلك المرض الكامن في نفوس الكفار وعجزهم عن مواكبة الهدى والنور الذي أنزل على لسان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فإذا جاءهم بلسانهم العربي قالوا: هو سحر وأسطورة، وإذا جاءهم بلسان أعجمي فإنهم سيعتبرونه غير مفهوم، وإذا جاءهم مزيج من الألفاظ العربية والأعجمية عندها سيقولون بأنه غير موزون.

وينبغي الانتباه هنا إلى أن كلمة (أعجمي) من «عجمة» وتعني عدم الفصاحة والإبهام في الكلام، وتطلق «عجم» على غير العرب لأن العرب لا يفهمون كلامهم بوضوح، وتطلق «أعجم» على من لا يجيد الحديث والكلام سواء كان عربيا أو غير عربي.

الأعجمية إذن هي مؤنث أعجمي وعليه فإن كلمتي أعجمية وعربية كلمتان عربيتان مختلفتان ومتعارضتان، من وجهة نظر المسلمين الذين يحدقون العربية فإنهم يتحدثون العربية وغيرهم يتحدث الأعجمية، أما من وجهة نظر النصارى الإسبان فإن المسلمين يتحدثون العربية غير المفهومة ويكتبون

---

[1]- سورة فصلت، الآية رقم: 44.

[2]- سورة فصلت، الآية رقم: 44.

[3]- سورة فصلت، الآية رقم: 44.

بلغة أعجمية مختلفة عن اللغة الرومانسية"Romance" [1]. على ضوء هذا الإيضاح يمكن أن نفهم لماذا كانت الأعجمية شيئا ايجابيا عند مسلمي اسبانيا الذين تركوا هذا التراث للتعريف بهم.

فاللغة الألخميادية هي لغة اسبانية أو برتغالية أو قشتالية أو أرغونية أو كاطلونية[2] كتبت بحروف عربية، وتاريخيا هي الوعاء اللغوي الذي احتوى آخر ما ابتكره مسلمو اسبانيا من آداب وتعرف اليوم في الاسبانية أي اللغة الاعجمية. وبهذا اعتمدت هذه اللغة الجديدة على الخط العربي بالاعتماد على اللغة الألخميادية الرومانسية أي العامية اللاتينية "Latin"[3] والسبب في هذا النوع من الابتكار أن مثل هذه اللغة يسهل تداولها بين مختلف الجماعات المسلمة المنتشرة بكل من أراغون وقطالونيا وغيرها من المناطق التي تنتشر بها العامية اللاتينية.

إذن نحن هنا أمام أدب هجين تمتزج فيه العربية والإسبانية في شتى المستويات بشكل لا نظن أنه عرف قبل هذا بين اللغة العربية ولغات أخرى، وبالتالي تمخض عن هذا المزيج نتاج معبر أيما تعبير وممثل أيما تمثيل لكيان أصحابه ولهويتهم الثقافية. فمع هذا الأدب نجد أنفسنا أمام كتابات إسبانية اللغة وعربية الخط تتخللها مصطلحات عربية إسلامية وتراكيب إسبانية معربة، والكل محفوف بغطاء

---

[1] – **اللغة الرومانسية**: اللغات الرومانسية هي مجموعة من لغات تطورت عن اللاتينية، وتستعمل الآن في الأماكن التي كانت من قبل جزءا من الإمبراطورية الرومانية. وتشمل هذه اللغات على الفرنسية، والإيطالية، والبرتغالية، والرومانية، والإسبانية. ومن بين اللغات الرومانسية الأخرى: القطالونية المستخدمة في شمال شرقي إسبانيا، والبروفانسية، المستخدمة في جنوب شرقي فرنسا. وتطورت اللغات الرومانسية عن اللهجات اللاتينية المحكية الكثيرة على مدى عدة قرون .وظهر أقدم دليل على اللغات الرومانسية في القرن التاسع. وبنهاية القرن الثالث عشر، كان قدر كبير من الأدب قد كتبت باللغات الرومانسية.

[2] – الأثر الملموس للظاهرة اللغوية في المقاطعة الكطلانية مجسدا في تلك الثروة اللغوية التي تزخر بها اللغة الكطلانية التي يعود أصلها أو أصل اشتقاقها إلى اللغة العربية. ينظر:

Louis Cardaillac, Le passage des Moresques en L'Languedoc,( Op. Cit) . P:38 .

[3] – كانت اللاتينية، اللغة الرسمية للإمبراطورية الرومانية. وتأتي كلمة رومانس من الكلمة اللاتينية التي تشير إلى المتحدثين باللاتينية، أو الذين يتحدثون بالطريقة الرومانية. وكان هؤلاء يتحدثون بإحدى طريقتين: إما اللاتينية الفصيحة وإما اللاتينية المحكية. فكانت الطبقات المتعلمة تتحدث باللاتينية الفصيحة، بينما يتحدث عامة الناس العامية، وتطورت اللغات الرومانسية عن اللاتينية المحكية المستخدمة في بعض البلدان الأوروبية المهزومة التي أصبحت مقاطعات رومانية. واقْتَبَسَت هذه اللغة اللاتينية المحكية كلماتٍ وبعض قواعد النطق من لغات البلدان المهزومة

صوتي يصعب نعته بالعربي أو بالإسباني.

وبهذا اقتضت حاجة المتأخرين من مسلمي اسبانيا إلى التمسك بأهداب اللغة العربية عن طريق ابتكارهم لهذه اللغة الجديدة، التي كان قوامها الصوتي رومانسي وحروفها عربية متأثرة شأنها شأن كل عامية بالمصطلحات الإقليمية؛ فإن ما اصطلح على تسميته بـ "الأدب الأعجمي الموركسي" هو عبارة عن مجموعة مخطوطات عثر عليها صدفة في أكثر من مناسبة بعد إخفائها قديما في تجاويف جدران المنازل وبين السقوف وفي المغارات وكذا في مخابئ أخرى.

**2)– رؤية تاريخية حول ظهور هذه اللغة وتطورها:** أصبحت هذه اللغة الجديدة، وسيلة دفاع مشروعة للحفاظ على مقومات الشخصية الإسلامية، فأصبحت بذلك لغة تأليف عند مسلمي اسبانيا، ويوجد حاليا الكثير من هذا الإنتاج الفكري في مختلف مكتبات اسبانيا، هذه المؤلفات تؤكد على بقاء الإسلام بعد سقوط غرناطة سنة 897هـ/1492م وإلى غاية قرار الطرد النهائي عام 1018هـ/ 1609م.

فعلى الرغم من الأسلوب الذي اتبع لدمج مسلمي اسبانيا وتلقينهم تعاليم النصرانية الكاثوليكية، وعلى الرغم من أن السلطات الاسبانية لم تبخل بالوسائل ولا بأي إجراء معتدل كان أو ظالم، لتنفيذ سياستها الإدماجية، مع هذا وذاك فإنهم بقوا صامدين ضد مبدأ اعتناق النصرانية الكاثوليكية وتعاليمها[1]؛ ففي الوقت الذي تظاهروا فيه في أعين العموم بأنهم نصارى، كانوا في الباطن يعيشون في جو إسلامي بحت.

[1]-Gellert Fabre, Op. Cit. P : 171.

إن هذه الصيغة المهمشة كانت مقصودة، فهؤلاء قاموا بكل ما هو ممكن للارتباط بثقافة أجدادهم، وإبلاغها إلى ذريتهم، خوفا على ضياعها ولهذا السبب تبنوا عدة خطط، من بينها الأدب الألخميادو؛ وهذا ما يؤكده شهادة أحدهم فكتب يقول حول الموضوع:[1] "...**لا أحد من إخوتنا أو أخواتنا في الدين يعرف العربية التي أنزل بها القرآن الكريم، أو يفهم حقائق الدين، إلا إذا عبرنا لهم عن هذه الأشياء بصورة ملائمة بلسان أجنبي الذي هو اللسان الذي يتكلم به هؤلاء الكلاب المسيحيون الطغاة الذين يضطهدوننا، ليلعنهم الله...**"

لهذا كانت اللغة الأعجمية تلك المرآة التي عكست الضمير المعارض؛ كما يمكننا اعتبارها وسيلة دفاع حتمية ضد سياسة الإدماج. فالنصوص الأدبية المحررة باللغة القشتالية والمكتوبة بالأحرف العربية هي في الحقيقة تعبر بقوة عن هذا الصوت الديني الذي ترجم عن مدى الإقصاء لهاته الأقلية التي كانت وراء إشعاع الحضارة العربية الإسلامية بالأندلس.

كما شكلت حركة الإنتاج باللغة الأعجمية رد فعل طبيعي قابل حركة التأليف التي شجعتها السلطات الاسبانية للتبشير بالنصرانية الكاثوليكية، لهذا السبب الجوهري بالإضافة إلى ما ذكر أعلاه قررت نخبة من مسلمي اسبانيا عدم البقاء مكتوفة الأيدي أمام هذا الصراع الفكري الذي كان الهدف منه مسخ كل مقومات العقيدة الإسلامية.

وقبل الخوض في تاريخ ظهور هذه اللغة الجديدة لنا أن نتسآل: هل كان مسلو اسبانيا هم الأوائل الذين ابتدعوا لغة غريبة تكتب بحروف عربية، أم سبقتهم إلى ذلك أمم أخرى؟ كما سنحاول

[1]-George Ticknor, Historia de literatura espanola, Madrid: Impr de la Publicidad, 1888, vol : 4. p : 420.

في السياق ذاته ابراز نقطة مهمة هو التاريخ الحقيقي لبداية ظهور هذه اللغة بين مسلمي اسبانيا.

تعرض يهود اسبانيا إلى القهر والتنكيل نفسه الذي تعرض له مسلمو اسبانيا، فقد حاربت السلطات الدينية والسياسية كل مقومات الشخصية اليهودية، من بينها العبرية، لهذا لجأ يهود اسبانيا إلى الطريقة نفسها مع كتبهم العبرية[1]. ولكن يجب التنبيه إلى أنه هناك فرق كبير بين ما أبدعه مسلمو اسبانيا ويهودها، فهم لم يقلدهم في ذلك وإنما ابتكروا لغة ميزتهم عن غيرهم.

كما نجد هذا الازدواج اللغوي في بعض المناطق الإسلامية، غير الناطقة بالعربية[2]، على اعتبار أن اللغة العربية هي حاملة للعقيدة الإسلامية ومواصلة للقرآن، وهناك أمثلة عديدة على استخدام حروف اللغة العربية بواسطة الأقليات الإسلامية في مناطق متعددة بل وذهب بعض الباحثين إلى القول بأن مسلمي اسبانيا اتخذوا المثال التركي بوجه خاص.

ويبدو أن أنصار هذه المدرسة، اختلطت لديهم أمور عدة منها: أن مسلمي اسبانيا لم يتخذوا مثالا مسبقا وما تم في اللغة التركية أو الفارسية من استخدام للحروف العربية، ما هو سوى تعريب لهذه اللغات على نحو يتفق ونموذج يتمثل في اللغة العربية الفصحى —لغة القرآن– ودرجة هذا التعريب تختلف باختلاف طبيعة العصر، وطبيعة المادة اللغوية المعربة، التي تزداد بداهة بازدياد المحتوى الديني

[1]–أحمد سعيد الصاوي، كتابة العربية بالحروف اللاتينية ( الأبعاد التربوية والسياسي) ، الشبكة العنكبوتية: موقع مكتبة مشكاة الإسلامية، 2013/11/22م، 15،35سا .ص 4.

[2]– كانت اللغة الألبانية في البلقان من أبرز اللغات التي تعتمد الحرف العربي للكتابة، إلى أن جاء سامي فراشري (1850–1904) فدعا إلى كتابة الألبانية والتركية بحروف لاتينية، ونشر في سنة 1879م أول كتاب لتعليم اللغة الألبانية، وبعد خمسين عاما فرض أتاتورك الحروف اللاتينية على اللغة التركية؛ وبالتالي كانت منطقة البلقان نموذجا حيا لازدواجية اللغة، إذ كانت تدون لغاتها بالأبجدية العربية، فهناك من الأدب الألباني ما كتب بالحروف العربية. منها ملحمة في 13 ألف بيت تحكي واقعة كربلاء، وأخرى في 56 ألف بيت مكتوبة كذلك بالحروف العربية، ويسجل التاريخ بكل الأسى أن آخر كتاب طبع باللغة الألبانية وحروف العربية قد صدر سنة 1970م، وتعج منطقة البلقان بآلاف المخطوطات التي تعاني الإهمال والتجاهل والازدراء، لا لشيء إلا لأنها دونت بالأبجدية العربية. ينظر: الصاوي، المرجع السابق. ص: 4.

للنص.

على حين أن الأدب الأعجمي، أدب سري تتمثل فيه روح المقاومة ورفض كل ما يتعلق بالشكل الكاثوليكي وقد رأينا مسبقا حالة الازدواج اللغوي بين سكان اسبانيا، ومن دراساتنا للمخطوطات الأعجمية نجد فيها أن الكاتب يحاول أن يستخدم لغة عربية فصحى ولكن قدرته اللغوية لا تسعفه، فيلجأ إلى العامية العربية والرومانسية، وبالتالي فالنموذج التركي، لا ينطبق مع النموذج الذي ابتكره مسلمو اسبانيا لعدة معطيات أهمها الظروف السياسية والدينية والاجتماعية التي كانت تعيشها الجماعة المسلمة في اسبانيا. فالطبيعة اللغوية لهذه المخطوطات يجب بحثها وفقا لمعطيات التاريخ والجغرافيا الإسلامية في اسبانيا وهو ما اصطلح عليه "الطابع الإقليمي اللغوي".

أما عن تاريخ ظهورها، فقد انتشرت اللغة الأعجمية بين بين مسلمي مملكتي أراغون وقشتالة في القرن الهجري الموافق لـ الرابع عشر ميلادي ، واندثرت في القرن الثامن عشر الميلادي، فكان عمرها بذلك يساوي حوالي 400 سنة تقريبا. وقد ظل هذا الأدب مجهولا خافيا لأن أصحابه طمروه بطرق تجعله خافيا عن الأعين[1]، ورغم اكتشافه في العام 1884 إلا أنه ظل أدبا مغلقا على المطلعين عليه لأنهم لم يفهموا طريقة الكتابة التي رسمت به تلك المخطوطات.

وظلت كذلك تحت الفحص حتى منتصف القرن العشرين الذي نشأت فيه دراسات مختصة بأدب تلك الحقبة وتمت استعادة كتابتها باللغة الأسبانية المعاصرة لتترجم بعد ذلك إلى اللغات الأوروبية الأخرى، ورغم اكتشاف هذا الكنز الكبير من آداب مسلمي اسبانيا إلا أن العرب

[1]- سلمى الخضراء الجيوسي، الأدب الألخميائي (الأدب الإسباني المكتوب بحروف عربية، المصدر: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، WWW.Google. Fr. ص:1.

والمسلمين ظلوا بعيدا عن حقل دراساتها ولا حتى مجرد الالتفات إليها رغم أن اكتشاف تلك المخطوطات كان يمكن استغلاله لإحياء قضية مسلمي اسبانيا المبعدين عنوة وتذكير العالم بقضيتهم العادلة.

لكن الملفت للانتباه أن معظم الباحثين إن لم نقل جلهم يربطون ظهور نصوص الكتابات الألخميادية بفترة القرن السادس عشر ولنا أن نتساءل عن مميزات هذا القرن في اسبانيا النصرانية؟ والجواب هو وجود مجموعتين مختلفتين على المستويين الديني والاجتماعي، مسلمو اسبانيا الذين شكلوا مجموعة مهمشة لأسباب تاريخية وحضارية. وأخرى متسلطة ومنتصرة شكلت القوة الضاربة في اسبانيا ضد كل ما هو غير نصراني كاثوليكي.

فلم يكتشف هذا الإنتاج الفكري إلا بعد وقت طويل من عملية إجلاء المسلمين عن إسبانيا التي جرت عام 1018هـ/1609؛ إذ شهد عام 1128هـ/1728م ظهور العديد من المخطوطات التي كانت مخبأة داخل عمود في بيت من بيوت ريكلا (Ricla)؛ كما اكتشفت سنة 1184هـ/1884م مجموعة أساسية كانت مخبأة داخل أرضية مزيفة في بيت مهدم في ألموناسيد دي لاسييرا ( de la Almonacid Sierra) في سرقسطة[1].

كما تم اكتشاف مكتبة كاملة من هذه المخطوطات بمحض الصدفة على أثر قيام بعض العمال بإزالة جدار أحد بيوت «مونثون» بإقليم أراغون فعثروا على جدار مزيف وفي التجويف عثروا على الكثير من الكتب والمخطوطات التي لم يفهموها أو يعرفوا ما تحويه نظرا للغة الغريبة المكتوبة بها،

[1]- سلمى الخضراء الجيوسي، المرجع السابق. ص: 1.

ولكن قس القرية أخذ بعضها فيما أحرق العمال بعضها الآخر على اعتبار أنها غير ذات قيمة.[1]

بهذا نستنتج حرص مسلمي اسبانيا على أن لا يفتضح أمرهم بدليل عدم دراية السلطات الإسبانية بأمر هذه المؤلفات إلا بعد سنة 1128هـ/1728م أي بعد قرابة قرن من عملية الطرد. فبالرغم من الملاحقة الشرسة لمحاكم التحقيق وتنكيلها بالمسلمين إلا أن عمالها لم يستطيعوا أن يكتشفوا أمر هذا الإنتاج الفكري الإسلامي، وكأن الله تعالى أراد أن يصون دينه من الفناء في بلاد أصبح الساسة بها كل همهم تنصير كل من وجد بها ونشر العقيدة الكاثوليكية الفاسدة.

أمام هذه المعطيات التاريخية يمكننا التأكيد على الانتشار الكبير للكتب باللغة الأعجمية بين مسلمي اسبانيا رغم محاربة السلطات الكنيسية والسياسية لها، ومطاردتها لكل من كان يكتبها أو يقرأها أو ينسخها أو حتى يحتفظ بها؛ ويجتمع منها اليوم في المكتبات الاسبانية وغيرها آلاف المجلدات التي كونت وعاءا لتراث إسلامي يتيم، يجهله المسلمون العرب لعدم معرفتهم للغة الأعجمية، كما يهمله الاسبان لعدم معرفتهم للحرف العربي، فأصبح بهذا الشكل في خطر الضياع.

هذا التراث جدير بأن يخرج إلى الوجود ويعترف به كتراث إسلامي فريد، وثمرة تجربة أمة مسلمة تفانت في الحفاظ على عقيدتها الإسلامية ولغتها العربية وكل ما يتعلق بها من عبارات وحروف، عندما أصبح الاحتفاظ باللغة العربية نفسها مستحيلا.

## – المبحث الثاني: الدراسة النسقية للأدب الألخميادو

إن ما اصطلح على تسميته بالأدب الألخميادو هو عبارة عن مجموعة مخطوطات عثر عليها

[1] – عبد الهادي سعدون، ابتهالات الحاج.. رحلة الموريسكي الأخير إلى مكة المكرمة، WWW.Google. Fr . ص: 2.

صدفة في أكثر من مناسبة بعد إخفائها قديما في تجاويف جدران المنازل وبين السقوف؛ إننا هنا أمام أدب هجين تمتزج فيه العربية والإسبانية في شتى المستويات بشكل لم يحدث أن وقع مثل هذا التزاوج بين اللغة العربية ولغات أخرى، وتمخض عن هذا المزيج إنتاج معبر أيما تعبير وممثل أيما تمثيل لكيان أصحابه ولهويتهم الثقافية.

فمع هذا الأدب نجد أنفسنا أمام كتابات إسبانية اللغة، عربية الخط تتخللها مصطلحات عربية إسلامية وتراكيب إسبانية معربة، والكل محفوف بغطاء صوتي يصعب نعته بالعربي أو بالإسباني. فهذه اللغة عكست بوفاء كبير شخصية مجموعة إنسانية متميزة داخل اسبانيا. فهذه المجموعة كانت تشعر بخصوصية تجاه النصارى الكاثوليك المتسلطين، وكذا اتجاه أولئك الذين مثلوا بشكل من الأشكال عنصرا عضويا في وجودهم، جيرانهم في بلاد المغرب على وجه الخصوص، والعالم الإسلامي بوجه أعم.

ونظرا للخصائص التي ميزت اللغة الألخميادية، والأهمية التي تنطوي عليها أساليبها البيانية واللسانية وتفاعل الحرف العربي مع المعنى الأعجمي، كل هذه الخصائص جلبت انتباه اللغويين والمؤرخين على حد سواء، لاستنباط مجموعة هامة من الأنماط الصوتية التي ساهمت في الكشف عن العديد من القضايا الألسنية المعقدة، وتوضيح التباين بين الأصوات في فضاء اللغات المتوسطية.

على ضوء المستجدات التي ظهرت في هذ التخصص ـ دراسة لغوية ونسقية للغة الألخميادية ـ سوف نحاول تقديم بعض الجوانب من الخصائص اللغوية التي تميزت بها هذا اللغة، وكيف أثرت وتأثرت بكل ما كان يحيط بها سواء داخل اسبانيا أو خارجها.

**1)– المميزات النسقية:** لئن لم يحظ مسلمو اسبانيا وأدبهم ألخيميادي بعناية الدارسين العرب فإن موضوعاته قد حظيت بعناية فائقة من قبل المستشرقين الغربيين، الأمر الذي أوجد لديهم عددا من المختصين في دراسة تاريخ مسلمي اسبانيا وأدبهم يوازي عددا مماثلا من المؤلفات ألخيميادية بل ثمة أبحاث حولهم درست أدبهم أو تاريخهم في منطقة جغرافية معينة أو فترة تاريخية محددة أو شخصية أدبية واحدة فاكتسب الأدب ألخيميادي قيمة وثائقية تاريخية ودينية واجتماعية.

فقد قدم للباحثين من علماء الصوتيات الإسبان خدمات جليلة مكنتهم من التعرف على طرق نطق الحروف الاسبانية من حيث مخارجها وخاصة أن اللغة الاسبانية شهدت تغيرات صوتية هائلة فيما بين القرن الخامس عشر والسابع عشر ميلاديين، فقد نقلت المخطوطات ألخيميادية طريقة نطق الكثير من الحروف الاسبانية قبل حدوث هذه الصوتية وأثنائها بدقة متناهية، وهو ما لا يدرك فائدته إلا المختصون.

إن أغلب النصوص الألخميادية التي نملكها ترجع إلى فترات الأعجمية المتأخرة "أي فترات نرى فيها مسلمي اسبانيا قد خضعوا إلى قوة النسق الفونولوجي الإسباني، واسبانيتهم قد تخلصت، ليس فقط من لغتهم، بل ونجد أن عربيتهم تظهر منطوقة حسب النسق الفونولوجي الإسباني كما تبين ذلك من خلال: إبطال المعارضة م/ن العربية في آخر الكلمة في النون المشتركة، وصعوبة تحقيق الحاء والعين، أيضا غياب التشديد في الكلمات العربية، وتحقيق الراء العربية البسيطة في أول الكلمة.

فإذا ما استثنينا ما أدخله هؤلاء المؤلفين من تغييرات نحوية أو صرفية، فإن هذه المؤلفات لا تحترم مقاييس النص الصوتية، وذلك بنقحرة الحرف العربي نفسه بشكل مختلف وحذف كل الانجازات

الصوتية، اللهجية القديمة.[1]

كما بتبين ذلك من خلال الصيغة العربية التي كيفها مسلمو اسبانيا مع البنية الكلامية الإسبانية، خصوصا عند اشتقاق أفعال من بعض الأسماء أو تكوين بعض المصادر والجموع. وفيما يلي بعض النماذج التي توضح ذلك:

| الفعل | المصدر | أسماء الفاعل أو المفعول | جموع |
|---|---|---|---|
| اشغا(أصغى) | اسحرار | اسجج | الدعائاش |
| اسجدا | امحدراش | احرد | العسانس |
| اسجدر | اسجدميانت | طهرد الركعد | الفقياش |
| اتبحر | احرميانت | حلاقذ | اتسبحنتا |
| لا العن | حلاقميانت | اتسبحدر | الجناسش |
| مسحر | الحدسدر | آلاقذش | الكتاباش |
| احرر | | خلاقدش | الملكاش |
| الركعر | | | الركعش |

[1]- الفارو قلماس دي فوانتاس، ما المشاكل حول نقحرة النصوص الألخميادية الموريسكية. ص: 51.

من خلال هذه المعطيات يمكننا تمييز محور جدولي وآخر نسقي في التصور الدلالي للمعجم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى تنتظم المأصل داخل حقوق صيدية بشكل معين، مكونة بذلك تفاعلات ترتكز على سمات تمييزية. أما إمكانية تقليب المأصل في وصلة النص فتحدد غالبا بالإمكانيات المرتبطة بالنظام اللغوي بشكل تختلف فيه مثل هذه الهيكلية في كل لغة؛ وهو اختلاف نجده أكثر عندما يتعلق الأمر بلغات تنتمي إلى أوساط ثقافية مختلفة مما يؤدي إلى أن الترجمة الجيدة للنصوص الألخميادية ينبغي أن تأخذ بعين الاعتبار هيكلة الألفاظ الدلالية كما وردت في اللغة العربية؛ وهي لغة يمكن أن تعد نموذجا للوسط الديني الثقافي الإسلامي.

**2)– الأدب الألخميادو عامل تأثير وتأثر**: إذا كان من سنن الله في خلقه أن تتأثر اللغة سلبا وإيجابا بواقع الأمة فتعز بعزها وتذل بذلها فإن اللغة العربية خضعت لهذه السنة ردحا من الزمن ولكن جذوتها لم تنطفئ، والسر في ذلك ارتباطها بالقرآن الكريم فحفظت بحفظه، ويتأكد ذلك في قوله تعالى في محكم تنزيله: { **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** }[1].

فإذا كان الجانب اللفظي العربي قد برز بسهولة في النصوص الإسبانية، فإن جانبها النحوي والصرفي يحتاج لإظهاره إلى دراسة دقيقة تعتمد مقارنة نصوص إسبانية تنتمي إلى عدة حقب ومستويات، مع أصولها العربية. ولو أن هناك مستويات لا يحتاج إبرازها إلى اللجوء إلى المقارنة. ومن المظاهر التي يمكن أن تكون العربية قد أثرت فيها على الإسبانية مثلا، تتابع الكلمات.

فالعربية اعتادت على الابتداء بالفعل وإتباعه الفاعل ثم المفعول، وهذا النظام هو نفسه المتبع

[1]– سورة الحجر، الآية رقم: 9.

في الإسبانية والبرتغالية في أغلب الأحيان خلافا لما يحدث في باقي اللغات الرومنسية. وقد سجلت في هذا المجال إمكانية تأثير سامي. ولكن هذا الجانب يحتاج لتوضيحه إلى دراسة عميقة. والتأثيرات النحوية والبنيوية العربية في الإسبانية، رغم معرفتها لبعض الدراسات، فلا زالت تحتاج إلى مزيد من البحث والتحليل حتى يكشف النقاب عن أكبر عدد ممكن من المكانزمات التي تدخل في هذا التأثير.

فموضوع التأثير اللغوي ينحصر أساسا في مسألة الإسهام الأندلسي المعرفي في مجال اللغة. والواقع أن هذا النوع من الإبداعات الأدبية، ساهم بمستواه اللغوي والأدبي في عقد مقارنات، ومقاربات وموازنات؛ ومن هنا يمكننا رصد البصمة العربية في الحضارة الاسبانية في العصور الوسطى وخلال القرن الذهبي.

كما تجدر الإشارة السريعة إلى انتشار اللغة الرومانسية بين مسلمي الأندلس، فقد كان من الطبيعي نتيجة الاختلاط الكبير بين العرب والإسبان عن طريق الحروب المتصلة والزواج المشترك وتزايد عدد المولدين، انتشار ظاهرة ازدواجية اللغة بين الأندلسيين، أي اللغتين العربية والرومانسية وهي إحدى اللهجات العامية المشتقة من اللاتينية التي تكونت منها فيما بعد اللغة القشتالية الحالية وهي اللغة الإسبانية السائدة.

وإذا تصفحنا المصادر الأندلسية المتعددة نجد إشارة واضحة قاطعة الدلالة على الازدواج اللغوي لأهل الأندلس، وهي إجادة لاشك تختلف من إقليم لآخر ومن عصر لآخر، وللأسف تفتقد حتى الآن لدراسة منهجية لحال اللغة العربية في أقاليم شبه الجزيرة الإيبيرية عبر التاريخ الإسلامي.

سنقدم بداية نبذة عن الصلات اللغوية بين اللغة العربية والاسبانية، فقد أكدت بعض الروايات التاريخية أن هناك الكثير من المفردات العربية دخلت إلى اللغات الإبيرية بلغت نحو أربع آلاف كلمة، كما يوجد عدد كبير من المفردات العربية ما زال يشكل حتى يومنا هذا المصطلحات اللغوية في مجال الري، بدءا بكلمة "Noria" التي انتقلت إلى الفرنسية عبر الاسبانية وهي مأخوذة عن الكلمة العربية "ناعورة"، أيضا "Saquia"، أو "سد" التي يعدلها بالاسبانية "Azuda"[1].

كما توجد نسبة كبيرة من المفردات العربية في ميدان علم النبات، حيث تشهد غالبية أسماء الفواكه وأزهار الحدائق في الاسبانية على مدى ما استعارته من العربية، ومن بين أشهر هذه الأسماء نذكر "برقوق" ما يعدله "Abarioque"، أيضا "أرز" "Arriz"، و"ليمون" "Limon"، و"الزيتونة" "Aceituna"، وغيرها من المفردات الكثيرة.

طبيعي أن كيانا سياسيا وفضاء حضاريا من حجم التراث الفكري لمسلمي اسبانيا، جدير بإثارة اهتمام المفكرين واللغويين؛ وعليه يجب التأكيد على تغلغل اللغة العربية في مصطلحات القرون الوسطى وحتى الحديثة في المؤسسات الاسبانية، فمفردات التحصين، والحياة الدينية، وكذلك الأنشطة التجارية، كل ذلك ما زال يحمل حتى اليوم ما يسمى الحضور العربي في اسبانيا، وهو ما تمثل عبارات "القلعة" "Alacalà"، و"البناء" "Albanil"[2].

فقد بينت مؤخرا بعض الدراسات مدى التأثير العربي في التسمية الاسبانية للموازين والمكاييل والنقود، مثال على ذلك نذكر كلمة "قنطار"؛ أيضا نلاحظ التأثير نفسه في بعض الوظائف

---

[1]- فليب وولف، الأصول اللغوية لأوروبا الغربية، باريس، د د ن، د ط، 1970. ص: 76.

[2]- حنيفي هلايلي، المرجع السابق. ص: 70.

الحكومية، مثالا على ذلك نذكر "المحتسب" "Almotacen" و"صاحب المدينة" "Zamedina".

والجدول التالي يوضح بصورة جلية مدى تأثير اللغة العربية على بعض المفردات الاسبانية[1]:

| اللفظ العربي | ما يقابله بالاسبانية |
|---|---|
| الدوار | Aduar |
| الديوانة | Aduana |
| القصر | Aleazar |
| القصبة | Alcasaba |
| القبة | Alcoba |
| الفارس | Alferez |
| الطبل | Atabal |
| المخدة | Almohada |
| الملحفة | Almalafa |
| المعصرة | Almazara |

[1]- حنيفي هلايلي، المرجع نفسه. ص: 73.

| | |
|---|---|
| **Almanara** | **المنارة** |
| **Almocadem** | **المقدم** |
| **Almocri** | **المقرئ** |
| **Almondiga** | **البندقية** |

كما لا يخفى على أحد مدى تأثير اللغة الاسبانية خاصة القشتالية على اللغة العربية، فقد تمكن النظام الصوتي والبنية الإسبانية من فرض نفسيهما على الكلمات العربية،ولكن سيبقى الجانب الدلالي الذي مكث في أغلب الأحيان بعيدا عن هذا الاستيلاء. فقليلة هي المصطلحات والعبارات العربية التي قبلت تعويضها بنظيراتها الإسبانية. فعبارة صلى الله عليه وسلم مثلا، التي تأتي بعد ذكر النبي محمد صلى الله عليه وسلم، تكاد لا تقبل الترجمة أبدا.

إن ظاهرة استيعاب ألفاظ لاتينية أو رومانية ظاهرة قديمة، وكانت موجودة بين أهل الأندلس من المحتجين بالعربية منذ وصولهم في القرن السابع، وقد استوعبت اللغة العربية عدة كلمات مستخرجة من اللاتينية، سواء الألفاظ المنطوقة والمكتوبة (كمصطلحات الطب والصيدلة) أو الألفاظ الخاصة بأسماء البلدان والأشخاص، إنها ألفاظ مشتقة من اللاتينية أو من وقت دخول الألفاظ، بالضبط كما أن الألفاظ العربية الموجودة حاليا في الاسبانية لا تدل على أن اللغة العربية لغة حية في إسبانيا.

وقد استخدم مسلمو الأندلس لغة النصارى في أوائل فترة وجودهم، بل وكتبوا ألفاظا بهذه

اللغة المشتقة من اللاتينية وجملا كاملة في نصوص تنتمي إلى العصور الوسطى عندما كان العرب يريدون تسجيل الألفاظ الأجنبية التي يسمعونها شفويا بحروف عربية، لكن ظاهرة الأدب الألخميادو –وهو عبارة عن نصوص دينية بالإسبانية لكن بحروف عربية –دليل على استيعاب عميق للثقافة الإسبانية.

فبالرغم من كل التناقضات التعبيرية التي تصطدم بها مع قواعد استعمال اللغة الإسبانية وأنساقها. فمثلا: (kien fara assala ocho arraka' as (بالحرف: من عمل الصلاة ثماني ركعات) تعني "من صلى ثماني ركعات. والجملة: kien fara assala aduhar do arraka'as وتكون ترجمتها: من عمل الصلاة الظهر ركعتين ) تعني "من صلى ركعتين."

وفي حالات أخرى نجد المؤلف يستغنى عن إمكانية التكييف البنيوي التي تعود استعمالها بكثرة في أمثلة : خلاقر – امحر – اسجدر...إلخ. وسنجد إضافة الفعل الإسباني (fazer) الذي يعني "عل وعمل" مع الكلمتين (الصدقة والحج) للتعبير عن الفعلين (صدق أو تصدق) و(حج)

faze al- hajj- fazer assadaqa
kreyenta komo ke fiziese assadaq (a) sobre todo kreyente [1]

ومن المظاهر التي يمكن أن تكون اللغة العربية قد أثرت فيها على الإسبانية مثلا، تتابع الكلمات. فالعربية اعتادت على الابتداء بالفعل وإتباعه بالفاعل ثم المفعول به، وهذا النظام هو نفسه المتبع في الإسبانية والبرتغالية في أغلب الأحيان خلافا لم يحدث في باقي اللغات الرومنسية. وقد سجلت في هذا المجال إمكانية تأثير سامي. ولكن هذا الجانب يحتاج لتوضيحه إلى دراسة عميقة.

[1]– الحسين بوزينب، المرجع السابق. ص: 5.

والتأثيرات النحوية والبنيوية العربية في الإسبانية، رغم معرفتها لبعض الدراسات، فلا زالت تحتاج إلى مزيد من البحث والتحليل حتى يكشف النقاب عن أكبر عدد ممكن من المكانزمات التي تدخل في هذا التأثير.

أمام هذه المعطيات نستنتج أن اللغة العربية أثرت على نظيرتها الاسبانية كما تأثرت بهذه الأخيرة وذلك بحكم التعايش الطويل بين مجموعتين بشريتين حاولت كل منهما الحفاظ على مقومات شخصيته طيلة العهود الأولى من تاريخ الأندلس الإسلامية، فيما حاولت القوى النصرانية الكاثوليكية سحق والقضاء على كل ما يخالف الكاثوليكية لغة ومعتقدا وقومية.

ومهما يكمن تأثير اللغة الاسبانية القشتالية على نظيرتها العربية في الأدب الألخميادو فلا يمكننا تحت أي ظرف من الظروف أن ننسب هذا الإبداع للأدب الإسباني كما ادعى البعض من الباحثين؛ وممن ذهب إلى هذا الرأي نذكر الباحثة **لوسي لوبيز بارالت**"Luce Lopez Baralt " **التي كتبت حول الموضوع تقول:**[1]

**"...لربما يكون الأدب الإسباني المكتوب بحروف عربية (الألخميائي) من قبل كتاب مسلمين من أكثر الأدلة وضوحا على هذا البعد السامي في إسبانيا، والذي بدأ يضمحل ولكنه ما زال رغم ذلك مؤثرا وفاعلا، يسمح لنا هذا الأدب السري، الذي ما زال معظمه غير منشور، والذي كتبه منشقون دفعوا دفعا لأن يعملوا تحت الأرض، بأن نلمح عملية الانقـراض البطيئـة**

[1]– لوسي لوبيز بارالت : أستاذة الأدب الإسباني والأدب المقارن في جامعة بورتوريكو.

**كما عاشها آخر المسلمين في إسبانيا بأنفسهم..."** [1]

نستنتج من هذا النص التاريخي نقطتين مهمتين:

– استعمال الباحثة لمصطلح "**منشقين**" هذا الأخير يرمز إلى وجود طرفين أولهما سلطة شرعية سواء كانت دينية أو سياسية، وأخرى مدنية تمردت وتطاولت على هذه السلطة. والمرجعية التاريخية تقول عكس ذلك تماما.

– استعمال الباحثة للعبارة التالية:" **الأدب الإسباني**" تعبير خاطئ، فمن ألف هذا الإنتاج كان هدفه الأساسي محاربة والتصدي إلى كل ما هو اسباني نصراني كاثوليكي؛ كما كانت غايته الأولى محاولة إثبات هويته العربية الإسلامية وذلك باستعماله للحروف العربية كمرجعية لغوية لتأليفه.

ولهذا فقد اكتسب الأدب الخيميادي قيمة وثائقية تاريخية ودينية واجتماعية مهمة، وقدم للباحثين من علماء الصوتيات الاسبان خدمات جليلة مكنتهم من التعرف على طرق نطق الحروف الاسبانية من حيث مخارجها وخاصة أن اللغة الاسبانية شهدت تغيرات صوتية هائلة فيما بين القرن الخامس عشر والسابع عشر، فقد نقلت المخطوطات الخيميادية طريقة نطق الكثير من الحروف الاسبانية قبل حدوث هذه الصوتية واثنائها بدقة متناهية، وهو ما لا يدرك فائدته إلا المختصون.

## – المبحث الثالث: الخصائص اللغوية للأدب الألخميادو:

كان فضل اللغة العربية على الإسبانية في تطورها، فضل مزدوج : فمن جهة نجد الجانب المادي الذي يكمن في الألفاظ والمصطلحات والأنساق البنيوية العربية؛ ومن جهة أخرى، كانت

[1]_Alois Richard Nykl, Aljamiado Literature: El Rrekontamiento del Rrey Alisandere, Rv, hisp, vol : 172 an : 1929 pp : 409.

العربية بمثابة الحافز الذي جعل الإسبانية تبحث عن صيغ وأدوات تمكنها من التعبير عن مفاهيم جديدة. فالعربية إذا كانت كتلك المرآة التي أظهرت للإسبانية جوانب نقصها فعملت على تداركها.

فإذا كان الجانب اللفظي العربي يبرز بسهولة في النصوص الإسبانية، فإن الجانب النحوي والصرفي يحتاج لإظهاره إلى دراسة دقيقة تعتمد مقارنة نصوص إسبانية تنتمي إلى عدة حقب ومستويات، مع أصولها العربية؛ ولو أن هناك مستويات لا يحتاج إبرازها إلى اللجوء إلى المقارنة.

**1)– المميزات اللغوية:** أجمع الباحثون المختصون أن واقع اللغة العربية منحها نوعا من التميز والتفرد إذ أكسبتها تجربتها الحضارية على مدى قرون ثروة هائلة من البنى. واحتبست تعابيرها في أرحامها قدرات خفية على العطاء وعلى الإيحاء وعلى تنويع التعبير؛ كما أكسبها انتشارها الواسع في بقاع فسيحة من الأرض وتفاعلها مع جماعات لغوية كثيرة ألوانا من الغنى، تأثرا وتأثيرا، فهي إذن ليست اللغة الأولية البدائية التي تحاول أن تصبو إلى مقاربة الحضارة أو ملاحقتها أو الاندماج فيها وإنما هي لغة ذات تجربة سابقة وما كان لظاهرة ما اجتماعية أو إنسانية أن تقوى على التخلي عن تجاربها السابقة، فهذه التجارب جزء منها.

فمن أعظم تجاربها أنها خالطت لغات كثيرة فلم تفسد في ألفاظها ولا في اشتقاقاتها، ولا في تراكيبها وأساليبها، أو في بيانها الدقيق المشرق، ولم يتعد تأثيرها بها عددا محدودا من الألفاظ التي تعربت استجابة لمتطلبات تطور أنماط الحياة وتنظيمها وازدهار الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية في ربوع بلاد المسلمين.

وينبغي علينا أن تأخذ بعين الاعتبار هيكلة الألفاظ الدلالية كما وردت في اللغة العربية؛ وهي

لغة يمكن أن تعد نموذجا للوسط الديني الثقافي الإسلامي؛ وإذا ما استثنينا ما أدخله هؤلاء المؤلفين من تغييرات نحوية أو صرفية، فإن هذه المؤلفات لا تحترم مقاييس النص الصوتية، وذلك بنقحرة نفس الحرف العربي بشكل مختلف وحذف كل الانجازات الصوتية، اللهجية القديمة[1].

إن استعمال الأزمنة والصيغ الفعلية يختلف بين اللغات، ذلك أن الصيغ التي تعبر عن موقف المتكلم وعلاقته مع الشيء المقصود سواء أكان واقعا أو محتملا، ضروريا أو ممكنا، تتغير من لغة إلى أخرى، وفي السابق الألخميادو وتركيب فعلية تنطبق على استعمال العربي، ومن بين النتائج الدالة على ذلك نذكر الأخطاء الصرفية:

**Kreemos Kon tu** - **نؤمن بك**

**Nos humillamos a tu** - **نخضع إليك**

**Servimos a tu** - **ونعبدك**

ولتصبح الصورة أكثر وضوحا حول الأخطاء الصرفية والإملائية التي أصبحت العامل المشترك بين كل المؤلفات الألخميادية، نعرض هذا النص الذي سوف يكون نموذجا على الإنتاج العلمي وأبعاده اللغوية فجاءت ترجمة النص باللغة العربية[2] كما يلي:

"**بسم الله الرحمن الرحيم، روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه دخل على ابنته**

[1]- الفارو قلماس دي فوانتاس، ما المشاكل حول نقحرة النصوص الألخميادية الموريسكية، (المرجع السابق)، ص: 51.

[2]- التميمي عبد الجليل، لغة المورسكيين وأوضاعهم من خلال نصوص وفرمانات، ضمن أعمال المؤتمر العالمي الثالث عشر للدراسات المورسكية – الأندلسية حول : الأبعاد العقائدية والفكرية في الأدب الألخميادو سياسة محاكم التفتيش تجاه الموريسكيين، تونس: مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، ط : 1 ، 2009م. ص ص : 51، 52.

فاطمة رضي الله عنها وهيا (كذا) تبكي وعل ( كذا ) رضي الله عنه يسكتها فقال صلى الله عليه وسلم لما تبكين يا فاطمة فقال ت ( كذا ) فاكمة لمن شيء يا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهل يبكي أحد من غير شيء أو يحزن أحد من غير شيء ثم قال صلى الله عليه وسلم ما نش في الدنيا مثل فاطمة فقالت فاطمة رضي الله عنها وكيفا ألا يبكي وقد حرمت صلاة " الوداع من رمضان ثم قالت فاطمة رضي الله عنه ( كذا ) لو هللت وكبرت وسبحت أيكون لي ثوابها فقال صلى الله عليه وسلم لو هللت وكبرت وسبحت عمرك كله ما بلغ تلك الركعتين من ليلة الوداع فقالت لو تصدقت بوزن جبل أيكون لي ثوابها ؟ فقال صلى الله عليه وسلمم لو تصدقت بوزن جبل أحد ذهب ( كذا ) ما بلغ ثوابها فهل أفضل في المزان ( كذا) من جبل أحد فقال عل (كذا) رضي الله عنه يا رسول الله كيف أصل ( كذا ) الركعتين فقال صلى الله عليه وسلم يا عل ( كذا ) طهر بيتك وثيابك وحضرر ما عندك من الطيب ثم قم إلى محرابك وقل سبحان الله عشر مرات ، وصل على جبريل ومكايل ( كذا ) واسرافيل وعل( كذا) حمالت (كذا) العرش وعلى ( كذا ) آدم وحو ( كذا ) وعلى جميع الأنبياء لكل واحد منهم عشر مرات وتقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم عشر مرات وادخل في الصلاة إن شئت أول الليل (كذا) أو آخره وآخر أفضل من أوله وأقرأ الحمد لله وقل يا أيها الكافرون وإذا جاء نصر الله وقل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس ، كل واحدة سبع مرات في كل ركعة وتتشهد وتسلم وبعد السلام تسجد سجدة طويلة تقول في سجودك بسم الله الرحمن الرحيم : سجد لك وجهي وخضعت لك رقبتي اللهم تقبل صومي وارحم ضعفي، اللهم لك

**صمت وبرزقك أفطرت وعليك السلام يا شهر رمضان ما كان بركتك كنت حصنا منع (كذا) وحرز (كذا) لمن تل (كذا) فيك القرآن وعبد فيك الرحمان فعليك السلام يا شهر رمضان ما كان أعظم بركتك وأكثر خيراتك فكم من صائم لا يصوم أبدا وكم من قائم لا يقوم فيك أبدا رضي الله عنك وعنا وعل (كذا) جميع المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات وصلى الله على سيدنا محمد سيد الأكوان وحبيب (كذا) وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثرا (كذا) إلى يوم الدين... "**

***– الخصوصيات اللغوية لهذا النص** : إن الخط المستعمل قد حرر ولا شك من قبل العوام من أشباه الأميين، وهو خط عربي مغربي سيء، إذ لا تنسيق بين أحرفه وهو صعب القراءة، والنص الذي بين أيدينا ضم الكثير من الأخطاء الإملائية والصرفية.

**الأخطاء الإملائية:** ما يلاحظ حول الأخطاء الإملائية أنها سقطت سهوا من صاحبها، إذ نجدها تكتب صحيحة في بعض المواضع ثم خاطئة في مواضع أخرى مثال ذلك صل ، عل.

**الأخطاء التي نجدها تتكرر في كل النص:** اسم علي رضي الله عنه وكتب عل. وهذه قائمة الأخطاء الإملائية والصرفية التي ظهرت في النص:

| الخطأ | الصواب |
|---|---|
| صل | صلي |
| هيا | وهي |

| | |
|---|---|
| عل | علي |
| فقال تا | فقالت |
| لمن | لا من |
| عنه | عنها |
| وكيفا | وكيف |
| ألا بكي | ألا أبكي |
| ذهب | ذهبا |
| المزان | الميزان |
| أصل | أصلي |
| ومكايل | ومكاييل |
| عل حماله | على حملة |
| اليل | الليل |
| منع | منيعا |
| وحرز | وحرزا |
| تل | تلا |
| حبيب | حبيبه |

| كثرا | كثيرا |
| --- | --- |

تترجم الأخطاء المسجلة في هذا النص على المستوى اللغوي للأغلبية الساحقة لمسلمي اسبانيا، وهذا ما أكده أحد المؤرخين الاسبان حين كتب يقول بهذا الصدد[1]:"...**هؤلاء الكتاب الذين لا نعرف عنهم إلا القليل، كانوا يتمتعون بدرجة دنيا من المعرفة فرضتها عليهم الظروف التي كانوا يعيشونها...**"

***– صفة التأكيد في لغة الألخميادو**: هذه بعض الحالات التي تعكس صيغ التأكيد العربية في الألخميادو المحاكاة:

**El Pladoso de placiad - سلم تسليما**

***– المحاكاة الأسلوبية في لغة الألخميادو**: إن كل لغة هي نظام معقد من الرموز التي تشكل لغة على حدى لأنها لا تطابق أية لغة أخرى، بيد أن الألخميادية هي خرق للقواعد اللغوية، وهي محاولة تهدف للتماثل أكثر ما يمكن مع تراكيب النص الأصلية، ومع نص اللغة الأصلية محدثين بذلك محاكاة أسلوبية ذات معنى.

كما تعتبر الرموز الخطية العربية في الأدب الألخميادو نقطة تداخل فونولوجي للعربية والاسبانية معا؛ ذلك أن المؤلف يطابق فيها أساسيات لغته الجديدة مع أخرى تنتمي إلى لغته الأولى؛ ولكن هل معنى هذا أن المطابقة المذكورة تجعل المؤلف يخضع أساسيات اللغة الثانية (أي الاسبانية) إلى القواعد الفونولوجية للغة الأولى.

[1]– الفارو قلماس دي فوانتاس، المرجع السابق. ص: 115.

إن أغلب النصوص الأعجمية التي نملكها ترجع إلى فترات خضع فيها مسلمو اسبانيا إلى قوة النسق الفونولوجي الاسباني، واسبانيتهم قد تخلصت، ليس فقط من النسق الفونولوجي العربي الذي عرفوه في البداية لازدواجية لغتهم، بل ونجد أن عربيتهم تظهر منطوقة حسب النسق الفونولوجي الاسباني[1].

أمام هذه المعطيات يمكننا الخروج بنتيجة، هذه الأخيرة أكدت أن اللغة الألخميادية ضمت العديد من الافتراضات اللغوية، ومختلف أنواع المحاكاة والتوليدات، لكن علاوة عن معارضة هذه العناصر، فمن الضروري كذلك اعتبار أن وجودها يستدعي تعديلات على صعيد هيكلة النظام الدلالي بمفهومه الواسع .

**2)– نماذج من الكتابات الألخميادية:** اعتبر الإنتاج الفكري والأدبي الذي خلفه مسلمو اسبانيا معتمدين على اللغة الألخميادية امتدادا لحركة الإستماتة التي انتهجوها للمحافظة على مقومات الشخصية الإسلامية، والتصدي لسياسة الإدماج، المنتهجة من طرف السلطات الاسبانية السياسية والدينية، هذا ما يستنبط من خلال اعتمادهم على الخط العربي للكتابة بهدف الدلالة على البعد الحضاري والديني لهذا الإنتاج.

فقد ظهرت حركة التأليف باللغة الألخميادية كوسيلة للتدليل على حجم المعاناة، والكشف عن الاغتراب الثقافي والإحساس بالظلم المسلط من طرف الاسبان والكنيسة الكاثوليكية ولهذا نجد أغلب الكتب كانت أدبية ودينية. وقد كتبت هذه المخطوطات بالخط المغربي الذي تعود عليه مسلمو

[1]– بوزينب الحسين، القيمة الحقيقية للرموز الخطية في الأدب الأعجمي، الأدب الألخميادو والمورسكي. (المرجع السابق). ص : 31.

اسبانيا[1].

من بين العناصر التي اكتسبت أهمية قصوى نذكر على وجه الخصوص العنصر الديني الذي يشكل العمود الفقري لهذه المخطوطات نظرا لطبيعة المادة الواردة في هذا الإنتاج، وقد تجلى هذا البعد الديني في كل مستويات النصوص إثر تبويب مضامينها ومقارنتها باللغة العربية، لغة الإسلام، ذلك أن المواقف التي يتبناها الكاتب عند استعماله للقشتالية للتعبير على حقائق دينية أفرزتها اللغة العربية في أحسن صيغة تحدد نمط التراكيب والمصطلحات والهياكل البنوية للنص.

وحتى تتضح الصورة حول ما ذكر أعلاه نعرض بعض النماذج التي تم فك رموزها في مجموعة المخطوطات الألخميادية التي تناولت مواضع دينية، فقد شكلت هذه الأخيرة قسما مهما من هذا الإنتاج؛ والهدف الأساسي لهذه الكتابات كان قصد المحافظة على التعليم الديني للمجموعة المسلمة الذي ينص على تلقين التعاليم الإسلامية الخمسة وشرح التفسير القرآني[2]. وهذه بعض النماذج التي خلفها مسلمو اسبانيا في مؤلفاتهم:

**دار أشديد دالش شياتا ذالن بانيسنكان ذا ذو الفياد فوارن اجنتدس انسرغس انك نبن ذا انردش مسليماش بانتارالش شياتا عليماش دكتش افصالدش ادا.**

وتكون ترجمتها باللغة العربية كالتالي:

**"بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد الكريم وآله وسلم تسليما"**

[1]- حنيفي هلايلي، المرجع السابق. ص: 67.

[2]- لوي برنابي وجوزي مارتيناز، الرجع السابق. ص: 26.

**وهذا نموذج مصور على إنتاج ألخميادي تناول موضوع ديني:**

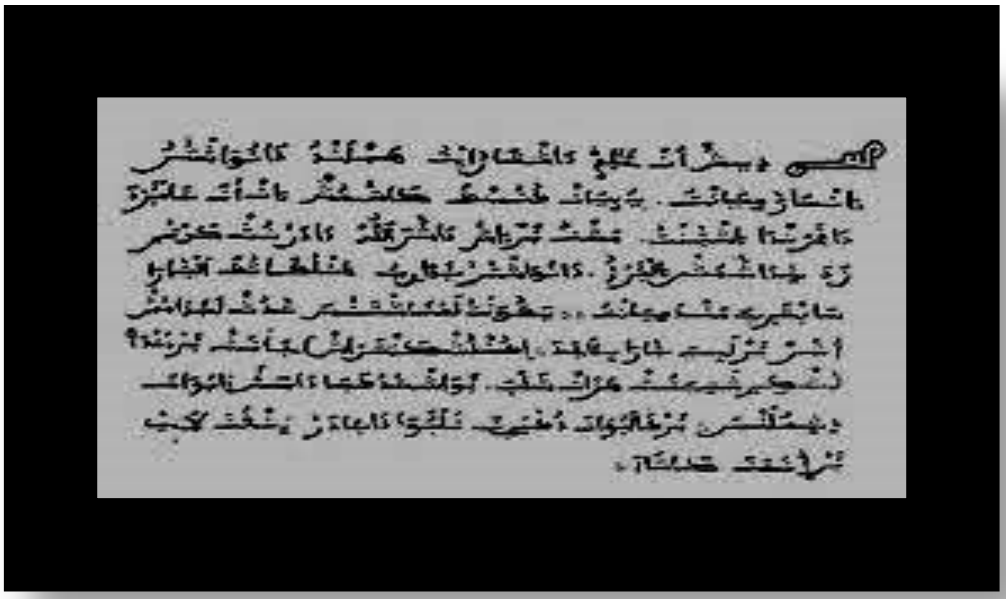

كتبت نصوص هذه المخطوطات بالخط المغربي الذي تعود عليه مسلمو اسبانيا، ففن الخط عندهم عرف بمميزاته، و الزخارف التي تزين صفحاتها وأغلفتها وما فيها من فن، وبالصور التي تزين وتوضح مضمون مخطوطتها هذا وقد دخل الخط العربي إلى الأندلس عن طريق النقود والتجارة والحج والاتصالات بين المشرق والمغرب[1]. أما بالنسبة للخط الأشبيلي في عهد بني عباد، فإنه يشبه الخط الكوفي، حيث تميز بخطوط منحنية التي تشكل ذيولا مستطيلة تهبط حتى ملامسة الخطوط في السطر، و تشكيل الخط يتألف من حروف غاية في الرشاقة و خالية من أي عنصر تزهيري[2].

كما بنيت خطوط قصر الجعفرية[3] بسرقسطة بأسلوب جديد للخط يقوم على أرضية من

---

[1]- محمد عبد العزيز مرزوق، الفنون الزخرفية في المغرب و الأندلس، بيروت: دار الثقافة، د.ط، د. س ط. ص:213 .

[2]- انتونيو فرناندير بويرتاس، فن الخط العربي في الأندلس ( الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس )، ج:2 ، د مط، د ط، ص: 925.

[3]- **قصر الجعفرية**: أما الجعفرية فنسبة إلى ابنه أحمد بن المقتدر بالله، المكنى أبا جعفر. ينظر: المقري، المصدر السابق. ج:1 . ص:442 . ويعتبر هذا القصر من بين القصور التي جسدت الفن الأندلسي، حيث تميزت بسور مستطيل الشكل و أبراج مستقيمة ترد الهجومات عنه، أما داخله فنجد غرفا مرتبة حول الصحن ؛ وقد فضل المهندسون الأقواس المتشابكة، حيث صار كل قوس و كأنه نموذج من الخط العربي. ينظر: مورينو جوميث، :الفن الإسلامي في إسبانيا، ترج: لطفي عبد البديع و محمود عبد العزيز سالم، مصر: الدار المصرية للتأليف والترجمة، د.ط، د. س ط. ص:262 .

النبات المزهر، و يرتبط بشكل هندسي يقتفي أثر الخط الكوفي وفي طليطلة برع بنو ذي النون في الخط، إذ نجد الخطوط على تيجان الأعمدة الرخامية، كما أن بني صمادح اعتمدوا على الخط الكوفي الأنيق والمتوازن مع زينة نباتية، ويظهر ذلك من خلال الخطوط الموجودة على القبور والنقود، حتى تأسست مدارس خاصة بهذا الخط[1].

هذا فيما يخص نوع وشكل الخط الذي كتب به هذا التراث العظيم إذا ما قورن بالظروف القاهرة التي أحاطت بمن قاموا بتأليفه، أما فيما يخص الجانب الشكلي لهذه المخطوطات، فنجدها أقل ما نقول أنها كانت متواضعة جدا، إذ لم يهتم أصحابها بالجانب الجمالي، هذا راجع لسبب وحيد وأكيد، هو ذلك القمع الحضاري والاقتصادي الذي سلطته قوى الغدر والدمار على هؤلاء المسلمين، فكيف لهم في ظل ذلك الاضطهاد والتنكيل الذي مورس ضدهم أن يهتموا بالجانب الجمالي والشكلي لهذه المخطوطات.

**وهذه صورة لنموذج آخر من هذه المخطوطات التي تؤكد على ما ذكر أعلاه:**

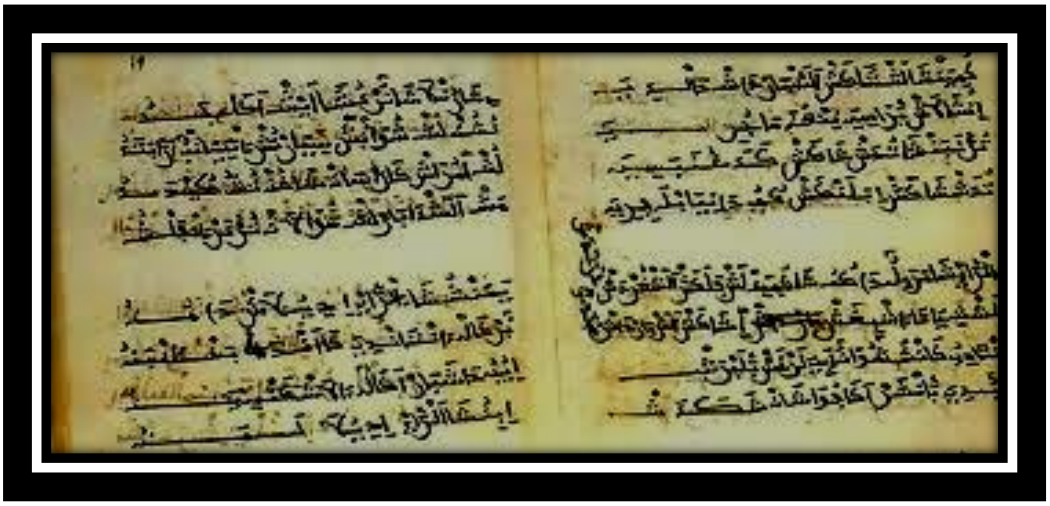

[1]- انتونيو فرناندير بويرتاس، المرجع السابق. ص ص: 926، 927.

من خلال هذه الصورة لنموذج من المخطوطات الألخميادية نلاحظ عدم استعمال الألوان ما عدا اللون الأسود؛ بالإضافة إلى غياب الزخرفة والأشكال الهندسية التي تضفي شكل جمالي لأي مخطوط مهما كان موضوعه. كما نلاحظ عدم الالتزام باتجاه واحد في الخط.

كل هذه الملاحظات تؤكد على أن مسلمي اسبانيا عند كتابتهم لهذا الإنتاج الفكري والديني لم يكن أمامهم سوى هدف واحد هو تبليغ ما أمكن تبليغه لإخوانهم المضطهدين من تعاليم الشريعة الإسلامية هذا من جهة، والمحافظة على ما تبقى من دعائم وركائز الدين الإسلامي في اسبانيا النصرانية من جهة أخرى.

من خلال ما تم عرضه من معطيات تاريخية يمكننا الخروج بمجموعة من الاستنتاجات:

– إن هذا الإنتاج الفريد من نوعه إن صح التعبير هو معلم وأثر باق على ذلك الجهد المثير الذي حاول من خلاله مسلمو اسبانيا إنقاذ المعرفة بالدين الإسلامي وثقافته – أو ما تبقى من هذه المعرفة – التي تقلصت بحكم متابعات واضطهاد رجال الدين والسياسة في إسبانيا إلى معتزلات سرية للمسلمين المضطهدين.

– لقد كانت إضاعة لغة القرآن أمرا مؤلما وشديد الوطأة على مسلمي اسبانيا، ليس من المنظور الثقافي فقط، بل من وجهة نظر الدين كذلك؛ إذ أن الإسلام يعد الصلاة باستخدام لغة الوحي المقدسة جزءا أساسا لا غنى عنه في الطقس الديني الإسلامي.

– كان مسلمو اسبانيا من خلال تأليفهم لهذا الإنتاج واعين كل الوعي لما كانوا يحاولون إنجازه، فقد كانت مهمتهم المستحيلة هي محاولة إحباط إيقاف التاريخ وانتهاكه من طرف اسبانيا

النصرانية بكل هيئاتها.

فالقرارات والمراسيم التي أصدرها الملكان الكاثوليكيان فرناندو وإيزابيلا ومن بعدهم الملوك الاسبان تحت وصاية الكنيسة الكاثوليكية بمنع استعمال اللغة العربية كلغة للحديث أو للكتابة، كان بمثابة عملية استئصال هؤلاء الأندلسيين من هويتهم الإسلامية، وكوسيلة فعالة لعملية التنصير. وكرد فعل طبيعي لهؤلاء المضطهدين، كان لا بد لهم من وسيلة للمحافظة على مقومات شخصيتهم الإسلامية والعربية فابتدعوا لغة يكتبون بها تراثهم الحضاري والديني، ويعملون من خلالها على تعويض ما فرض عليهم من منع استعمال اللغة العربية وامتلاك كتب لها صلة بالحضارة الإسلامية.

– لم يتوقف هذا الإنتاج عند التأليف فقط، بل تعدى ذلك إذ عمد الكثير من مسلمي اسبانيا الذين لهم ثقافة واسعة ودراية باللغة العربية إلى ترجمة المصادر العربية الإسلامية إلى اللغة الألخميادية بغية نشر الثقافة الإسلامية بين مسلمي اسبانيا.

والترجمة في هذه الحالة هي امتداد لحركة الاستماتة التي انتهجها مسلمو اسبانيا للمحافظة على مقومات الشخصية الإسلامية، والتصدي لسياسة الإدماج، المنتهجة من طرف السلطات الاسبانية مدعمة برجال الكنيسة الكاثوليكية، وهذا ما يستنبط من اعتماد الخط العربي للكتابة بهدف الدلالة على البعد الحضاري والديني لهذا الإنتاج.

# الباب الثالث

# الإنتاج الفكري وسيلة دفاع واستماتة

## الفصل الأول: الفكر مفهومه، تطوره وعلاقته بالدين في الإسلام

## الفصل الثاني: الكتابات الدينية ودورها في صمود الإسلام في اسبانيا

## الفصل الثالث: الإنتاج الأدبي بين الابداع والمقاومة

## الفصل الرابع: الشعر أنواعه وأغراضه

## الفصل الخامس: الرواية ودورها في المحافظة على مقومات الشخصية العربية الاسلامية

# الفصل الأول: الفكر مفهومه، تطوره وعلاقته بالدين في الإسلام

## المبحث الأول: الفكر والدين مدلولهما اللغوي والاصطلاحي

1)_ مفهوم الفكر لغة واصطلاحا

2)_ الدين مفهومه ومصادره

## المبحث الثاني: النظريات المؤسسة للدين

1)_ النظريات القائمة على الاتجاه الوضعي

2)_ النظريات المؤسسة لمذهب التوحيد الفطري

## المبحث الثالث: رؤية تاريخية حول تطور الفكر الديني في الإسلام

1)_ الفكر الديني بين البعثة ونهاية الخلافة الراشدة

2)_ تطور الفكر الديني ما بين الخلافة الأموية وإلى غاية ظهور الخلافة العثمانية

3)_ مصادر الفكر الإسلامي

يعتبر الفكر الديني في جميع الأديان وخاصة السماوية منها في حركة متطورة وديناميكية، وذلك لأنه – أي الفكر الديني– تفسير وتأويل لمقاصد ومعاني النصوص الدينية، أو بعبارة أخرى فهم إنساني لها عن طريق الاجتهاد، ومعلوم أن لكل فترة مشاكلها ووقائعها وأحداثها، وعندما تتنوع تلك الإشكاليات والوقائع والأحداث فلا بد للفكر أن يجد لها حلولا مقنعة بقدر الإمكان، ووسيلة الفكر هي إعمال العقل وبذل الجهد الذي هو الاجتهاد بالمصطلح المعروف.

فالتفكير له أهمية عظيمة في الإسلام، لذلك نرى فقهاء المسلمين يحددون معنى المكلف بأنه المسلم البالغ العاقل، فجعلوا البلوغ والعقل شرطا في التكليف، وأما الصبي والمجنون فلا يكلفان، استنادا إلى قول رسول الله ﷺ "**رفع القلم عن ثلاث عن الصبي حتى يبلغ وعن النائم حتى يستيقظ وعن المجنون حتى يفيق**".

ولقد بدى الفكر الديني في بداية العهد الإسلامي بسيطا واضحا يخلو من كل التعقيدات والغموض؛ ولكن مع المستجدات التي طرأت على الدولة الإسلامية بعد عهد الخلفاء الراشدين، وظهور الخلافة العباسية ومن بعدها الخلافة العباسية تعقدت البيئات وتنوعت، وحدثت مشاكل فكرية وأيدولوجية مما دفع المفكرين إلى الحوار والجدل والرد والنقض، واللجوء إلى قانون التأويل، هذه الظواهر لم تكن لتكون على عهد نبينا الكريم محمد ﷺ وصحابته الكرام.

ثم ظهرت بعد سقوط الخلافتين ظهور تفرقة وتشتت لكلمة المسلمين إلى أن حلت الخلافة العثمانية مكان الخلافة العباسية، فحاولت لم شمل البلاد الإسلامية، وإعطاء ضربات قاسية للصليبين الذين كانوا بمثابة الشوكة في روح الأمة الإسلامية، ومن أقوى هذه الضربات فتح القسطنطينية سنة

875هـ/1453م على يد محمد الفاتح. وبالمقابل رد الصليبيون على هذه الضربة باحتلال الأندلس واسقاط النموذج الحكم الإسلامي في المنطقة.

على ضوء هذه المستجدات الخطيرة قاد الاسبان الكاثوليك حربا صليبيا ضد كل ما له صلة بالإسلام، عقيدة، لغة، تقاليد وعادات، تراثا فكريا وعمرانيا؛ فما كان على مسلمي اسبانيا إلا التفكير والاجتهاد في ايجاد حلولا بديلة لمقاومة كل مظاهر الانسلاخ من الشخصية الإسلامية. سنحاول من خلال هذه الدراسة تسليط الضوء على أهم التطورات والتغيرات التي طرأت على الفكر الديني عند مسلمي اسبانيا في ظل الظروف الاستثنائية المفروضة عليهم، وقبل ذلك فكما عرفنا الدين فلابد لنا من وقفة مع تعريف الفكر، ثم ارتباطه بالدين، فتطوره التاريخي، وكيف نظر مسلمو اسبانيا إلى هذا الدين في ظل الرهانات الجديدة التي استجدت في حياتهم على وجه الخصوص، والمجتمع الإسلامي عموما.

## – المبحث الأول: الفكر والدين مدلولهما اللغوي والاصطلاحي

إن هذا الذي نسميه بالفكر هو خاصة من خواص الإنسان، لا يشترك معه فيه أي مخلوق آخر، ولا يطلق الفكر إلا على العمليات الذهنية التي يقوم بها الإنسان، أما الحيوانات فحتى العمليات التي تشبه عملية الفكر لدى الإنسان لا تسمى بفكر، وإنما تسمى بالتوجيه الغريزي. حتى المناطقة —علماء المنطق– الأقدمون يفسرون الإنسان فيعرفونه بأنه حيوان ناطق، أي مفكر. أما بقية الحيوانات فلها التوجيه الغريزي ونحوه، وهو الذي يقابل الفئكر والذهن والقوى العاقلة عندها.

**1)– مفهوم الفكر لغة واصطلاحا:** زود الله الإنسان في هذه الأرض بنور العقل وشمس

الهداية، ومن ثمة كانت دعوة القرآن الكريم للعقل في ارتياد آفاق الكون، واكتشاف نواميسه، لتتواءم حياة الإنسان مع مسيرة الكون، ولقد حدد الله – جلت حكمته- للعقل مجال فاعليته، كما حدد الآفاق التي ينبغي للعقل أن يفعل فيها طاقته.

فقد وردت مادة (عقل) وتصاريفها في تسع وأربعين آية من الكتاب الكريم. مثال نذكر قوله سبحانه وتعالى: { **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** }"[1].

من خلال هذه الآية الكريمة يبين لنا الله عز وجل أن في خلق السموات بارتفاعها واتساعها، والأرض بجبالها وسهولها وبحارها، وفي اختلاف الليل والنهار من الطول والقصر، والظلمة والنور، وتعاقبهما بأن يخلف كل منهما الآخر، وفي السفن الجارية في البحار، التي تحمل ما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء المطر، فأحيا به الأرض، فصارت مخضرة، وما نشره الله فيها من كل ما دب على وجه الأرض وما أنعم به على مخلوقاته من تقليب الرياح وتوجيهها، والسحاب المسير بين السماء والأرض، كل هذه دلائل على وحدانية الله لقوم يعقلون مواضع الحجج, ويفهمون أدلته سبحانه على وحدانيته، واستحقاقه وحده للعبادة[2].

كما ورد مصطلح الفكر بتصريفه على وزن الفعل في مواضع عديدة من القرآن الكريم، فورد مادة (فكر) ثماني عشرة مرة. مثال ذلك قوله عز وجل في محكم تنزيله: { **هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً**

---

[1]. سورة البقرة، الآية رقم:164.

[2]– ابن الكثير، ابن كثير أبي الفداء الحافظ، تفسير القرآن الكريم، مج: 1، بيروت، مج:2 دار الكتب العلمية، د ط، 1421هـ/ 2000م. ص ص:199، 200.

**لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُ ويُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً**

وجاء ذكر العقل في ست عشرة آية أخرى بمادة (اللب)، مصداقا لقوله تعالى: **{الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ}**[1].

كما ربط الله سبحانه عز وجل مادة اللب بالفكر في قوله تعالى في محكم تنزيله:**{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}**[2]. ومعنى الآية أنه تعالى يقول: **{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}** أي هذه في ارتفاعها واتساعها، وفي انخفاضها وكثافتها واتضاعها، وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب وبحار وجبال وأشجار وزروع ومنافع مختلفة الألوان والطعوم والروائح والخواص.

**{ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ}** أي تعاقبهما وتقارضهما الطول والقصر، فتارة يطول هذا ويقصر هذا، ثم يعتدلان، ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذي كان قصيرا ويقصر الذي كان طويلا، وكل ذلك تقدير العزيز الحكيم، ولهذا قال: **{لأولي الألباب}**. أي العقول التامة الذكية التي تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها، وليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون. ثم وصف تعالى أولي الألباب فقال: **{الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ}**. أي لا يقطعون ذكره في جميع أحوالهم بسرائرهم وضمائرهم

---

[1]- سورة البقرة، الآية رقم: 197.

[2]- سورة آل عمران، الآيتين رقم: 190-191.

وألسنتهم. ويتفكرون في خلق السموات والأرض أي يفهمون ما فيهما من الحكم الدالة على عظمة الخالق وقدرته وعلمه وحكمته واختياره ورحمته[1].

كما ورد العقل في القرآن العظيم في مادة (الفؤاد) ست عشرة مرة منها سبع مرات اقترن فيها السمع والبصر بالفؤاد. **{وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}**[2]. وأيضا في قوله تعالى في محكم تنزيله: **{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَتِي فِي الصُّدُورِ}**[3].

ولقد تعرضت السنة كثيرا لبيان فضل العقل وشرفه وأهميته، وبيان أهم خصائص العقلاء وصفاتهم ولقد اتفقت على أن أهم مقاصد الشرع هو حفظ الضروريات الخمسة التي تشمل: الدين والنفس والعرض والمال، فضلا عن العقل الذي يعتبر أشدها ضرورة وأهمية وجلها متوقف عليه.

***– التعريف اللغوي:** مادة ( ف ك ر) – (التفكر) التأمل، والإسم (الفكر) و(الفِكرة) والمصدر (الفَكرُ) بالفتح و(أفْكَر) في الشيء و(فكّر) فيه بالتشديد و(تفكّر) فيه بمعنى. ورجل (فِكّير) على وزن سِكّيت كثير التفكر. وبالتالي ( الفكر ) هو "إعمال العقل في المعلوم للوصول إلى معرفة مجهول ويقال لي في الأمر فكر نظر وروية وما لي في الأمر فكر ما لي فيه حاجة ولا مبالاة ( جمعه ) أفكار"[4].

ولم ترد في كتاب الله ( القرآن الكريم) مادة ( ف ك ر) بصيغة الاسم، أي لا نجد مثلا فكر

---

[3]– ابن كثير، المصدر السابق، مج: 2. ص:427.

[2]– سورة النحل، الآية رقم: 78

[3]– سورة الحج، الآية: 46.

[4]– نايف خرما، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، كويت: مجلس وطني ثقافة و فنون وآداب، ط: 2، 1979م. ص: 53.

كاسم أو مصدر ولا نجدها معرفة بلام ولا نكرة، فقد وردت في القرآن الكريم بصيغة الماضي – فعل ماض– وبصيغة المضارع مثال ذلك قوله تعالى في محكم تنزيله: { **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ**}[1]. جاء فعل فكر في الآية الكريمة في صيغة المخاطب.كما ورد فعل فكر في النصوص القرآنية في صيغة الماضي في قوله عز وجل في محكم تنزيله:{ **إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ**}[2].

والفعل في لغتنا العربية تعريفه بأنه ما دل على حدث وذات، يعني حينما نقول (ضرب) فضرب تدل على الدث نفسه وهو الضرب، وتدل على أن هناك إنسانا ضاربا، فحينما نقول فكر أو يفكّر أو تفكر في كلمة تدل على حدث هو الفكر، وتدل على الذات الفاعلة لهذا الحدث التي نسميها بالمفكر.

فحينما تستخدم في القرآن الكريم بهذه الطريقة فكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا إلى أن هذا العمل الذهني الذي يسمى بالفكر إنما هو عمل مرتبط بذات، فلا يمكن أن يتجرد الفكر عن المفكر. فكلما وجد فِكرٌ وُجد مفكر، وأن الفكر لا ينبغي أن يكون شيئا فيما لا طائل تحته وفيما لا عمل أو حركة في هذا الكون تبنى عليه.

***– المدلول الاصطلاحي**: لقد اهتم علماؤنا بتفسير الفكر وتعريفه وبيان حقيقته ومعناه أيام ازدهار الفكر الإسلامي وبداية تدوين العلوم الإسلامية في القرنين الثالث والرابع الهجريين. فقد تناوله علماء التصوف بالبيان والتحديد كما عرفه علماء اللغة وعلماء الكلام والفلاسفة والأصوليين.

[1]– سورة الأنعام، الآية رقم:50.

[2]– سورة المدثر، الآية رقم: 18.

عند كل هؤلاء وفي موسوعات هذه العلوم نجد كلاما كثيرا عن الفكر ومرادفاته وشروطه وتنوعه، ويخرج الدكتور طه جابر بتعريف اصطلاحي للفكر من تلك المصادر جميعها بقوله: "بأن الفكر اسم لعملية تردد القوى العاقلة المفكرة في الإنسان، سواء أكان قلبا أو روحا أو ذهنا بالنظر والتدبر، لطلب المعاني المجهولة من الأمور المعلومة، أو الوصول إلى الأحكام أو النسب بين الأشياء"[1].

فقد فضل الله تعالى الإنسان على سائر المخلوقات من الحيوانات وغيرها بالعقل والنطق وغير ذلك من النعم التي لاتعد ولا تحصى، فقد قال سبحانه وتعالى في محكم تنزيله: **{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}**[2].

والإنسان خليفة الله في الأرض، حمله الله الأمانة الكبرى التي أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها، وحملها الإنسان مصداقا لقوله تعالى: **{إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}**[3].

وأما الرسول الكريم ﷺ فقد حول هذا الاتجاه القرآني الصريح إلى واقع عملي شجع فيه المسلمين على الاجتهاد العقلي والتدبر والتفقه في شؤون الحياة كافة، وفرق بوضوح بين الوحي الإلهي وبين التفكير الإنساني وأدرك الصحابة الكرام ذلك؛ فكانوا كثيرا ما يقفون أمام الرسول ﷺ فيسألونه فيما إذا كان الذي يعرضه عليهم وحيا إلهيا أم رأيا رآه؟ فإذا أخبرهم أن ذلك كان منه اجتهادا

---

[1]- سورة الإسراء، الآية رقم: 70.

[2]- سورة الاسراء، الآية: 70.

[3]. سورة الأحزاب، الآية رقم: 70.

وتفكيرا، فكروا بدورهم وعرضوا آراءهم أمامه ﷺ كما حدث قبيل معركة بدر من مشاورة أصحابه ونزوله عند رأي الحباب بن المنذر.

بهذه الأدلة السابقة تبين لنا بوضوح أهمية التفكير، وكيف كان الرسول الكريم ﷺ يطبقه واقعيا كما رأينا، وجاء الصحابة الكرام والتابعين – رضي الله عنهم – وعرفوا أهمية التفكير، فعدوا الاجتهاد بضوابطه الشرعية أصلا من أصول الدين. وذلك مثل القياس والاستحسان وتحقيق المصالح وسد الذرائع ورفع الضرر وما إلى ذلك من وجوه الاجتهادات الأخرى.

وبهذا يعتبر مصطلح الفكر الإسلامي هو من المصطلحات الحديثة، وهو يعني كل ما أنتجه فكر المسلمين منذ مبعث رسول الله ﷺ إلى اليوم في المعارف الكونية العامة المتصلة بالله سبحانه وتعالى والعالم والإنسان، والذي يعبر عن اجتهادات العقل الإنساني لتفسير تلك المعارف العامة في إطار المبادئ الإسلامية عقيدة وشريعة وسلوكا.

فقد أثبتت وقائع التاريخ أن أية أمة من الأمم لا بد أن تنطلق في دربها الحضاري من مجموعة من الأفكار التي على أساسها تشيد صرح حضارتها. ويقدم لنا الواقع شواهد عديدة، على أن سلوك الأفراد في مجمع من المجمعات ما هو إلا الترجمة العملية لما يؤمنون به من أفكار، ولهذا السبب نجد المجتمعات تسمو أو تنحط أو تبيد، تبعا لطبيعة الأفكار التي يعتنقها أبناؤها.

ولذلك استخلف الله عز وجل الإنسان في الأرض وكرمه عن سائر المخلوقات بالعقل الذي يمكنه من أداء رسالته. كما أمده بالهداية الربانية المتمثلة في الوحي الذي نزل على الأنبياء من لدن آدم إلى خاتم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وعموما فالفكر الإسلامي هو نتاج لفكر المسلمين منذ مبعث رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى اليوم في المعرف الكونية المتصلة بالله سبحانه وتعالى والعالم والإنسان، والذي يعبر عن اجتهادات العقل الإنساني لتفسير تلك المعارف العامة في إطار المبادئ الإسلامية عقيدة وشريعة وسلوكا.

**2)– الدين مفهومه ومصادره:** تعتبر نزعة التدين نزعة مغروسة في أعماق النفس البشرية، فالغريزة الدينية مشتركة بين الأجناس البشرية حتى أشدها همجية وبدائية، وإن التطلع فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة الإنسانية، لقد وجدت جماعات إنسانية بدائية من غير علوم وفنون وحضارات ولكنه لا نكاد نعثر على جماعة بشرية بغير ديانة. فالدين ظاهرة إنسانية عامة شاملة ملازمة للإنسان حيثما وجد، أقرت به معابد وأهرامات ودور مقدسة، كما شهدت به بقايا ما قبل التاريخ بما حوته من نقوش ورموز وآثار ذات صبغة دينية.

إن المتتبع للظاهرة الدينية عبر التاريخ ليجدها أكثر تعقيدا وتشعبا، تتشابك فيها مفاهيم عديدة تختلف من دين إلى آخر، يتعذَّر فيها حصر الدين في قالب واحد دون الإحاطة بكل الأديان ومعرفة ماهيتها وخاصيتها. فقد بذلت محاولات كثيرة لتأسيس مفهوم صحيح له، محاولة أن تراعي المقومات الأساسية المشتركة في كل الأديان وتراعي عدم الالتزام بدين معين.

وتتخذ مسألة تعريف الدين خطورتها عندما يكون لها تأثير سلبي على إرساء قوانين دولية تحاول أن تصبغ جميع الأديان بصبغة واحدة، ومع الكم الهائل من الاقتراحات التي قدمت لحل مشكلة تعريف الدين بما تتفق عليه جميع الأديان إلا أنها ما زالت بعيدة عن تحقيق المراد من إرساء

إطار مشترك تجتمع حوله الأديان.

***– مفهوم الدين لغة واصطلاحا:** شهد التاريخ الديني للبشرية منذ بدايتها العديد من الأديان والعقائد، وألوانا من الملل والنحل ما بين سماوي منزل من عند الله، ووضعي من عمل البشر؛ ومن المسلم به أن بين هذه الأديان والعقائد تفاوتا واختلافا، وأن هذا التفاوت أو الاختلاف قد يكون في المصدر وقد يكون في القيمة أو الهدف.

لكن رغم هذا الاختلاف إلا أن هذه الأديان والعقائد بينها روابط تجمعها فكل واحدة منهما لها أتباع يعتنقونها ويؤمنون بها ويدافعون عنها[1] على ضوء هذا نتساءل: ما معنى الدين في اللغة والاصطلاح؟ وما هي مكوناته الأساسية والثانوية؟ وما أصل الدين ومصدره؟

فكلمة "دين" تستعمل أحيانا بشكل متبادل مع كلمة إيمان أو نظام اعتقاد، ولكن الدين يختلف عن الاعتقاد الشخصي من ناحية أنه يتميز بالعمومية؛ فمعظم الأديان تنظم السلوكيات، بما في ذلك التسلسل الهرمي الديني، تعريف ما يشكل الالتزام أو العضوية في هذا الدين، عقد اجتماعات منتظمة أو خدمات لأغراض تبجيل الإله أو للصلاة، الأماكن المقدسة، الطبيعية أو العمران، والكتب المقدسة.

كما يشمل الدين أيضا الخطب، أنشطة الاحتفال بإله أو آلهة، التضحيات والمهرجانات والأعياد، الخدمات الجنائزية وخدمات الزواج، والتأمل والموسيقى والفن، والرقص، والخدمة العامة، أو الجوانب الأخرى من الثقافة الإنسانية. لقد تم تطوير الدين عبر أشكال مختلفة في شتى الثقافات.

[1] – إبراهيم محمد إبراهيم، الأديان الوضعية في مصادرها المقدسة وموقف الإسلام منها، مصر: مطبعة الأمانة، ط:1، 1406هـ/ 1985م. ص:9.

فبعض الديانات ركزت على الاعتقاد، في حين أكد آخرون على الجانب الواقعي والبعض الآخر ركز على الخبرة الدينية الذاتية للفرد، في حين يرى البعض الآخر أن أنشطة المجتمع الدينية تعتبر ذات أهمية أكثر.

***– المدلول اللغوي للدين:** يجدر بنا في البداية أن نتتبع كلمة الدين في اللغة مما قد يفيدنا في إعطاء صورة عامة عن الإطار الذي تشكلت في ضوئه جملة التعريفات المختلفة للفظ الدين؛ فقد تم تعريف الدين بعدة طرق، فمعظم التفسيرات تحاول تحقيق التوازن بين الدقة القصوى والالتباسات العامة. وقد حاولت بعض المصادر أن تستخدم تعاريف رسمية أو عقائدية، في حين تؤكد أخرى على عوامل

تجريبية وعاطفية وبديهية وأخلاقية ومعنوية. فمعظم التعاريف، مع ذلك، تتضمن الآتي:

– مفهوم التنزيه أو الألوهية[1] في شكل من أشكال الإيمان بالله، ويستعمل هذا التفسير غالبا ولكن ليس دائما.

– أحد الجوانب الثقافية والسلوكية للطقوس والشعائر والعبادة المنظمة، وغالبا ما تتضمن نظاما من المعايير الأخلاقية والكهنوتية.

– مجموعة من الأساطير أو الحقائق المقدسة لدى المؤمنين .

فمصطلح الدين مشتق من الفعل الثلاثي "دان وهو تارة يتعدى بنفسه وتارة باللام وتارة

[1] – **الألوهية** : (Theism) وهي كلمة مشتقة من كلمة ('Theos ) اليونانية أي الإله ومذهب الألوهية والتأليه هو اعتقاد بوجود الله سبحانه وتعالى وهي تشمل عدة مذاهب : – وحدة الوجود أو الحلول (Pantheism) – الشرك أو الإشراك (Polytheism) – التوحيد ( Monotheism) – التوحيد الكاذب (Henotheism ) – الإلهية (Atheism). ينظر : طه الهاشمي، المرجع السابق. ص ص 46،47.

بالباء، ويختلف المعنى باختلاف ما يتعدى به"[1]. وقد ورد في "لسان العرب" أن "الدين الجزاء والمكافأة، ويوم الدين يوم الجزاء وفي المثل: كما تدين تدان أي كما تُجَازِي تُجَازَى، ودنته أدينه دينا سسته ودنته، ملكته وديّنته القوم أي ولتهم سياستهم، والدين الحساب"[2]. ومنه قوله سبحانه وتعالى في محكم تنزيله: { **مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ** }[3].

فالدين في هذا الاستعمال يدور على معنى الملك والتصرف بما هو من شأن الملوك والتدبير والحكم والقهر والمحاسبة والمجازاة، والديّان: الحكم القاضي. فالمراد بالدين هنا أطاعه وخضع له[4]، وهو ما جاء في لسان العرب لابن منظور: "**الدين هو الطاعة**"[5]، فالدين هنا هو الخضوع والطاعة والعبادة والورع، وكلمة الدين لله يصح منها كلا المعنيين: "الحكم لله أو الخضوع لله"[6].

فمصطلح "الدين" ذات صلة وثيقة بالمعاني التالية: «الجزاء، العبادة، طاعة، الذل، الحساب، الداء، القهر[7]، الغلبة، الاستعلاء، الملك، السلطان، الحكم، السيرة والتدبير، التوحيد وجميع ما يتعبد الله به، كما أنها تطلق على الملة والورع والحال والمعصية والقضاء بل وتتجاوز ذلك كله"[8].

---

[1] – بن عبد العزيز الخلف سعود، دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، مكتبة أضواء السلف، ط:1، 1418هـ/1997م. ص: 9.

[2] – ابن منظور، المصدر السابق، مج: 02. ص ص: 1468، 1469.

[3] – سورة الفاتحة، الآية رقم: 04. قرأ بعض القراء (ملك يوم الدين)، وقرأ آخرون (مالك يوم الدين)، وكلاهما صحيح متواتر في القراءات السبع.

[4] – محمد عبد الله دراز، الدين (بحوث ممهدة من دراسة الأديان)، بيروت: دار القلم، مطبعة الحرية، د ط، د س ط. ص ص: 30، 31.

[5] – ابن منظور، المصدر السابق. ص: 1469.

[6] – محمد عبد الله دراز، المرجع السابق. ص: 31.

[7] – يتحدث الزمخشري عن كلمة الدين بهذا الصدد فيقول: "ودنته بما صنع أي جازيته كما تدين تدان ومنه يوم الدين والله الديّان وقيل هو القهار، من دان القوم أي ساسهم وقهرهم فدانوا له ودانوه انقادوا له". ينظر: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد، أساس البلاغة، ج: 1، تح: محمد باسل عيون السود، بيروت: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، ط:1، 1419هـ/ 1998م. ص ص :305، 306.

[8] – الفيروز أبادي مجد الدين محمد ابن يعقوب بن محمد بن إبراهيم، القاموس المحيط، ج:4، بيروت: دار الكتب العلمية، ط:1، 1415هـ/1995م. ص: 215.

يفهم من هذه الأقوال أن الدين هو الطاعة "يقال دان له: يدين دينا إذا أصحب وانقاد وطاع، وقوم دين؛ أي مطيعون منقادون"[1]. وبعد تفحص معاني الدين والتي كانت مختلفة نجد أن هناك تباعد وتناقض بينها فالدين يطلق على العبادة والطاعة كما ومنه يتضح أن كلمة الدين كلمة أصيلة في لغة العرب وليست معربة عن اللغة العبرية أو الفارسية[2] كما يذهب إلى ذلك بعض المستشرقين ومن سار على دربهم[3] ومصطلح الدين له عدة مفردات لها علاقة به من بينها نذكر الملة، والنحلة[4]، والشريعة[5].

كل هذه التعاريف السابقة تتطلب أن نحدد المفاهيم الأخرى مثل "مقدس". وغالبا ما يعرف شيء "المقدس" على أنه شيء متعلق بطريقة أو بأخرى بالله والدين وأسراره وما يثير سلوكا معقدا للتقديس والانجذاب والإعجاب وغالبا الرهبة.

بشكل عام، يجب لتعريفات الدين أن تكون شاملة بحيث تشمل جميع الممارسات أو الفلسفات التي تعتبر حاليا أديان. على سبيل المثال، التعريفات التي تتضمن كشرط الاعتقاد في الله أو إلهة أو إله ليكون مسؤولا عن خلق الكون وصنعه، تستبعد تلقائيا الأديان غير التوحيدية مثل البوذية. وعلاوة على ذلك، هو تعريف واسع للغاية يتضمن أي تصور للعالم والممارسات البشرية فيما يتعلق بذلك وتشمل

---

[1] – أبو الحسين أحمد بن زكرياء ابن فارس، مقاييس اللغة، مج:2، تح: عبد السلام محمد هارون، بيروت:دار الجيل، د ط، د س ط. ص: 319.

[2] – **اللغة الفارسية**: هي لغة آرية تنتمي إلى مجموعة اللغات الهندو أوروبية. ينظر: الموسوعة العربية العالمية، مج:17، المملكة العربية السعودية، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ط:2، 1419هـ/ 1999م. ص: 182.

[3] – إبراهيم محمد إبراهيم، المرجع السابق. ص ص: 11- 13.

[4] – **النحلة**: تعني بكسر النون الدعوى. ينظر: الفيروز أبادي، المصدر السابق، ج: 3. ص : 618.

[5] – **الشريعة**: من فعل شرع وهذا الفعل يعني عند علماء اللغة "سن وشرعت الدواب في الماء شرعا وشروعا دخلت فيه، وشرع في الأمر خاض فيه والناس في هذا الشرع؛ أي سواء، والشارع العالم الرباني وأشرع بابا إلى الطريق أي فتحه". ينظر: المصدر نفسه، ج:3. ص: 57.

تخصصات مثل علم الكونيات.

والمتصفح في اشتقاق هذه الكلمة ووجوه تصريفها يستشف من هذا الاختلاف الظاهر تقاربا شديدا، بل توافقا وانسجاما في جوهر المعنى، إذ يجد أن تنوع هذه المعاني مرده إلى ثلاثة مضامين تكاد تكون متصلة باعتبار أن الكلمة التي يراد شرحها ليست كلمة واحدة، بل ثلاث كلمات، أو بعبارة أدق إنها تتضمن ثلاثة أفعال بالتناوب. فإذا كان هذا شأن الدين في اللغة، فكيف يكون حاله في اصطلاح؟

***– المفهوم الاصطلاحي للدين:** تعددت الآراء حول مفهوم الدين، وهذا التعدد كان لابد منه ما دام لكل باحث وجهة نظره، ومحاولة الوصول إلى تعريف كامل أو بتعبير آخر جامع يعد أمرا صعبا، فالأقوام البدائية تفهم الدين على وجه لا تفهمه الأقوام المتقدمة في الحضارة؛ وفيما يلي عرض لنماذج من التعريفات التي قدمها العلماء والباحثون سواء المسلمين أو الغربيين.

فينطلق المسلمون إلى تعريف الدين بأنه وضع إلهي سائق لذوي العقول المستقيمة باختيارهم إلى الصلاح في الحال والفلاح في المآل،[1] وهو ما يذهب إليه الجرجاني في كتابه "التعريفات" حيث كتب حول الموضوع: "**الدين وضع إلهي يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما هو عند الرسول صلى الله عليه وسلم**"[2]. وهناك من يعرفه على أنه الشرع الإلهي المتلقى عن طريق الوحي، وما يلاحظ عليه ـ التعريف ـ أنه قصر الدين على الأديان السماوية فقط، مع أن الصحيح هو أن كل

[1] – إبراهيم محمد إبراهيم، المرجع السابق. ص ص: 16،18.

[2] – الشريف أبا الحسن علي بن محمد بن علي الحسيني الجرجاني، التعريفات، تح: محمد باسل عيون السود، بيروت: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، ط:2، 1424هـ/ 2003م. ص: 109.

ما يتخذه الناس ويتعبدون له هو دين سواء كان يطلق على المعصية والعادة.

يطلق أيضا على الحكم والملك والسلطان كما يطلق على التذلل والخضوع سماوي أو غير سماوي[1] بدليل قوله عز وجل في محكم تنزيله: **{ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}** [2] وقد ورد في تفسير الآية الكريمة أنه من أراد دينا غير دين الله الذي أنزل به كتبه، وأرسل به رسله، وهو عبادة الله وحده لا شريك له فلن يقبل منه وهو من الكافرين[3]. وبهذا سمي ما كان عليه مشركي العرب من الوثنية[4] دينا[5].

ومن العلماء المسلمين نجد من عرف الدين بقوله: «... **ما شرع الله تعالى لعباده من الأحكام التي جاء بها نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ويسمى الشرع أيضا بالدين والملة فالأحكام من حيث أنها تطاع يقال لها دين، ومن حيث أنها تملى وتكتب هي ملة ومن حيث ومن حيث أنها مشرعة فهي شرع فالتفاوت بينهما بحسب الاعتبار لا بحسب الذات، إلا أن الشريعة والملة تضافان إلى النبي (عليه الصلاة والسلام) والدين يضاف إلى الله تعالى**"[6].

بعد تعريف الدين من مصادره الإسلامية، لا بد لنا التعريج إلى تعريف الدين من بعض

---

[1] – سعود بن عبد العزيز الخلف، المرجع السابق. ص ص: 9، 10.

[2] – سورة آل عمران، الآية رقم: 85.

[3] – ابن كثير، المصدر السابق، مج:1. ص: 370.

[4] – **الوثنية**: (Fetishism) مشتقة من كلمة (Fetsh) اللاتينية معناها الشيء الذي يحترم ويقدس، وتعني الوثن أي المادة الجامدة من الحجر والخشب اتخذتها الأقوام المتوحشة في إفريقيا. ينظر: طه الهاشمي، المرجع السابق. ص: 46.

[5] – سعود بن عبد العزيز الخلف، المرجع السابق، ص: 10.

[6] – إبراهيم محمد إبراهيم، المرجع السابق، ص 18.

المصادر الغربية ومنهم "شيشرون" "cicéron"[1] الذي عرفه بأنه ذلك "الرابط الذي يصل الإنسان بالله". أما الباحث شلاير ماخر فقد كتب بهذا الصدد يقول: "قوام حقيقة الدين شعورنا بالحاجة والتبعية المطلقة"[2]. أما رجال الدين النصارى، ومن بينهم الأب شاتل فعرف الدين على أنه مجموعة واجبات المخلوق نحو خالقه وواجبات الإنسان نحو الله وواجباته نحو الجماعة وواجباته نحو نفسه.

في حين عرف "وليام جيمس" "William"Jims الدين بأنه مجموعة من "الأحاسيس والخبرات التي تعرض للأفراد في عزلتهم وما تقود إليه من تصرفات، وتتعلق هذه الأحاسيس والخبرات بنوع من العلاقة يشعر الفرد بقيامها بينه وبين ما يعتبره إلها"[3].

على العموم يطلق الدين على مجموعة من الأفكار والعقائد التي توضح بحسب معتنقيها الغاية من الحياة الكون، كما يعرف عادة بأنه الاعتقاد المرتبط بما "وراء الطبيعة الإلهيات"، كما يرتبط بالأخلاق، الممارسات والمؤسسات المرتبطة بذلك الاعتقاد. وبالمفهوم الواسع، عرفه البعض على أنه المجموع العام للإجابات التي تفسر علاقة البشر بالكون وفي مسيرة تطور الأديان، أخذت عددا كبيرة من الأشكال في الثقافات المختلفة وبين الأفراد المختلفين.

## – المبحث الثاني: النظريات المؤسسة للدين

بعد أن أشرنا إلى أن الدين حقيقة واقعة في كل المجتمعات الإنسانية على اختلاف مستوياتها

---

[1] – **شيشرون** : هو خطيب أكثر منه فيلسوف، تعلق بالأكاديمية الجديدة، كان توجهه الفلسفي بقدر وظائفه السياسية، التي كانت تترافق في روما مع الوظائف الدينية؛ كما كان عضوا في كلية أوغور. ألف شيشرون كتبا عدة حول طبيعة الآلهة (La nature des dieu )، وآخر حول التنبؤ. ينظر: جاكلين لاغريه، الدين الطبيعي،تر: منصور القاضي، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط:1، 1413هـ /1993م. ص ص: 17، 18.

[2] – محمد عبد الله دراز، المرجع السابق. ص: 34.

[3] – فراس السواح ، دين الإنسان (بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني)، سوريا: دار علاء الدين، ط:1، 2002م. ص: 23.

الثقافية والحضارية، علينا التعريج إلى أصل الدين ومصدره والعوامل التي أعانت على تطوره ثم إلى وضعه في هذه القوالب. وقد لقيت هذه الأسئلة وغيرها مما يتعلق بالدين اهتماما كبيرا من العلماء في مختلف الثقافات والتخصصات فكان هناك اتجاهين أحدهما وضعي والآخر وحي فطري.

**1)– النظريات القائمة على الاتجاه الوضعي:** يرى رواده أن الإنسان وصل إلى الدين عن طريق عوامل إنسانية سواء كانت تلك العوامل من نوع الملاحظات والتأملات الفردية، أم عن طريق التأثيرات والضرورات الاجتماعية اللاشعورية؛ وقد سلكوا في ذلك منهجا للوصول إلى دعواهم من خلالها بينوا أن دراسة أديان المجتمعات القديمة والمعاصرة وإن اتفقوا في الغاية، إلا أنهم اختلفوا في النتائج التي توصلوا إليها، التي كانت متفاوتة ومختلفة، هذا ما جعل رواد هذا الاتجاه ينقسمون إلى فريقين[1]:

***– الفريق الأول:** توصل رواد هذا الفريق إلى أن الدين بدأ في صورة الخرافة والوثنية وأن الإنسان أخذ يترقى في دينه على مدى الأجيال حتى انتهى إلى فكرة التوحيد، بل زعم بعضهم أن فكرة التوحيد حديثة ووليدة العقلية السامية[2].

***– الفريق الثاني:** قرر هذا الفريق إبطال نظرية الفريق الأول بالنظريات تستند على التصورات العلمية[3]، تمكنوا من خلالها أن يؤكدوا على أن فكرة التوحيد هي أول ديانة عرفها الإنسان، وما

---

[1]– نادى بهذه النظرية أنصار مذهب "التطور التقدمي أو التصاعدي" الذي ساد في أوروبا في القرن 19م وحاول تطبيقه على الدين عدد من العلماء منهم سبنسر، تايلور، فريزر، دوركايم وغيرهم.

[2]– أطلقوا على هذه النظرية "التوحيد الفطري أو البدائي". ومن بين أشهر روادها: لانج، بروكلمان وشميدت.

[3]– سعدون محمود الساموك، موسوعة الأديان والمعتقدات القديمة (العقائد)، ج:2، عمان، الأردن: دار المناهج للنشر، والتوزيع، ط:1، 1422هـ/ 2002م. ص، ص: 24، 26.

الوثنية سوى أعراض طارئة[1].

*– **النظريات القائمة على أساس مذهب التطور:** شمل مذهب التطور على نظريات، التي ساهمت بشكل جلي في توضيح الرؤى لمختلف الاتجاهات حيث حاولت تقديم تفسيرات لظاهرة التدين عند الانسان، هذا الأخير رسم لنفسه اتجاهات عقدية. ومن أهم هذه النظريات نذكر:

– **نظرية عبادة مظاهرة الطبيعة (المذهب الطبيعي):** يرى أصحاب هذه النظرية[2] أن الدين أول محاولة قام بها العقل الإنساني لتفسير ظواهر الطبيعة وخصوصا تلك التي تثير في النفس العجب والدهشة، أو الخوف والرهبة؛ استند هؤلاء إلا المحسوس وقالوا أن الجماعات الأولى عبدت مظاهر الطبيعة وبذلك بنوا نظريتهم على مادة ترى وتلمس آثارها باليد.

– **نظرية عبادة مظاهر الروح أو المذهب الحيوي (الأنثروبولوجيا):** وضع رواد علم الأنثروبولوجيا[3] تصوراتهم عن الدين ونشأته من خلال مراقبتهم للمجتمعات البدائية، وأكثر النظريات الأنثروبولوجية قدما هي نظرية "هربرت سبنسر" الذي رأى أن البشرية بتقديس أرواح

---

[1]– انقسم رواد هذه النظرية إلى فريقين. أما الفريق الأول فقد أرجع نشأة الدين إلى أفعال قوية مارستها الطبيعة على الإنسان فأثارته، ويرى أن هناك مرحلتين في نشأة الدين، المرحلة الأولى تمكن في التأمل والعجب التي دفعت الإنسان إلى التفكير بأنه محاط بقوى مستقلة، والمرحلة الثانية هي التعبير عن هذا التفكير عن طريق اللغة وقد عبر الإنسان عن هذه الطبيعة باستخدامات لغوية كثيرة فتحولت إلى آلهة. ينظر: خزعل الماجدي، المرجع السابق. ص: 2. في حين رأى الفريق الثاني أن التأمل والنظر في الظواهر الطبيعية العادية لا يكفي لإثارة الفكرة الدينية، وإنما الذي يثيرها هو الطبيعة الشاذة العنيفة، فهذه الحوادث الرهيبة جعلته يستفسر عن مصدرها فنسبها إلى قوة خفية غيبية. ينظر: سعدون محمود الساموك، المرجع نفسه. ص ص: 85، 86.

[2]– المرجع نفسه. ص: 26.

[3]–**الأنثروبولوجيا:** تعرف بأنها علم الإنسان، وهي كلمة مشتقة من كلمتين يونانيتين هما أنثروبوس (Anthropos) بمعنى الإنسان، ولوجوس (Logos) بمعنى العلم، وهي كلمة تثير في الذهن معاني متعددة وخاصة فيما يتعلق بتطور الحياة العضوية في مراحلها المتأخرة لدى القدرة العليا بصورها في الأسلاف الغابرة للنوع الإنساني، كما قد تثير لدى البعض معاني تدور حول الشعائر الغريبة والخرافات التي تمارسها الشعوب المتوحشة. وكلمة الأنثروبولوجيا تشترك في الاشتقاق مع كلمات أخرى تعني تسلسل الإنسان أو الإشارة إلى مرتبة معينة من مراتب الحياة العضوية، وتعني مرتبات البشريات التي تشمل الإنسان والقرود معا، كما أنها تشترك مع كلمات تعني دراسة مقاييس الجسم الإنساني، وتشبه الإنسان بالله. ينظر: يحي مرسي عيد بدر، أصول علم الإنسان الأنثروبولوجيا، ج:1، تق: محمد عباس إبراهيم، الإسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط:1، 2007. ص: 10.

زعمائهم الراحلين، تحولت أرواح هؤلاء الأسلاف المبجلين تدريجيا إلى آلهة تمركز الدين حولها وابتدأ بها[1].

لكن تايلور الباحث الإنجليزي بين كيف تنبه الإنسان الأول إلى الروح واعتقد بأن للموجودات الأخرى (حيوان، نبات وجماد) أرواحا[2]، فعبد الروح ثم عبد أرواح الموتى فمظاهر الطبيعة بوصفها ذات أرواح ثم انتقل إلى الوثنية فعبارة آلهة متعددة[3]،ومع ذلك لا يمكن أن نعتبر النفس الإنسانية عند هذا الحد روحا لأنها متصلة بالجسد لا تخرج منه إلا نادرا.

وبهذا تصبح هذه النفس مقدسة بتحولها إلى الروح بعد أن تبتعد عن مكانها في الجسد، ولا يستطيع الإنسان أن يتصل بها إلا بمراعاة طقوس معينة، وإذا كان الموت هو الذي حول النفس الإنسانية إلى روح مقدسة فإن أول عبادة إنسانية في تصور تايلور إنما اتجهت إلى عبادة الموتى أي عبادة نفوس الأسلاف فكانت الطقوس الأولى طقوس الموت[4].

– **النظرية الطوطمية:** تحولت هذه النظرية إلى مذهب اجتماعي يؤمن بوجود صلة بين أشخاص أو جماعة أو طوطم ما[5]، وقد وردت كلمة طوطم في نهاية القرن السابع عشر ميلادي في كتاب نشره الباحث "لانج" "Lang" سنة 1191هـ/1791م[6]. والطوطم هو الرمز الذي تتخذه المجتمعات البدائية لنفسها، فيعتقد أفراد العشيرة أنهم منحدرون فعلا من هذا الطوطم، فهو الأصل في

---

[1] – خزعل الماجدي، المرجع السابق. ص: 24.

[2]– محمود الساموك، ص: 28.

[3] – طه الهاشمي، المرجع السابق. ص: 58.

[4]– محمود الساموك، المرجع السابق. ص ص: 29.

[5]– الحاج الطاهر زكية، العهد القديم ومدى علاقته مضمونه بالدولة الآشورية والكلدانية ومملكة يهوذا، رسالة ماجسيستر، جامعة الجزائر، 2002م. ص 34.

[6]– طه الهاشمي، المرجع السابق، ص 81.

وجودهم، ويعتبرون أنفسهم أعضاء في عائلة واحدة تجمعهم قرابة من نوع خاص، تنشأ عن حملهم جميعا لاسم واحد اختاروه لأنفسهم، فهو في الوقت نفسه اسم لفصيلة من الحيوان في أغلب الأحيان أو لفصيلة من النبات في أحيان أخرى[1].

ومعنى ذلك أن القرابة لا تقوم على أساس وحدة الدم وإنما يرتبط على أساس وحدة، تقوم على اشتراكهم في اتخاذ الطوطم اسما لهم واتحادهم في النظم الاجتماعية واشتراكهم في العادات والتقاليد والطقوس الدينية[2] التي يلتزمون بأدائها نحو الطوطم[3].

**2)– النظريات القائمة على أساس مذهب التوحيد:** اختلف رواد هذا المذهب وإن اتفقوا مع النظريات السابقة في الغاية في النتيجة، فقد توصل هؤلاء إلى فكرة التوحيد أو فكرة الإله الأعلى التي هي البداية الحقيقية للدين، وأن البداية النقية قد فسدت بتأثير الظروف الاجتماعية فانتشرت الخرافة والوثنية في المجتمعات الإنسانية، وأن الإنسان أخذ يرتقى فيما بعد إلى فهم الدين إلى أن انتهى إلى التوحيد[4].

– **نظرية لانج:** ذهب لانج[5] إلى أن الإنسانية بدأت بدين التوحيد وأنها كانت مفطورة عليه، لكن الخطيئة الإنسانية اخفت معالم الحقيقة، فلم تصل الإنسانية إلى فكرة التوحيد أو فكرة

---

[1]– فراس السواح، المرجع السابق، ص ص 179 ، 180.

[2]– تمثلت هذه الطقوس في تقديس طوطم العشيرة تقديسا يحرم لمسه إذا كان جمادا إلا في المناسبات الدينية قصد التبرك، ويحرم قتله أو صيده إن كان حيوانا، ويحرم أكله أو قطعه إذا نباتا. ينظر: سعدون محمود الساموك، المرجع السابق. ص ص: 29، 30.

[3]– المرجع نفسه، ص30.

[4] – المرجع نفسه، ص31.

[5] - بدأ لانج أبحاثه في تاريخ الأديان بمهاجمة المذهب الحيوي وقد استند إلى اكتشافات هويت (Howit) عن الكائن الأعلى في قبائل أستراليا الجنوبية الشرقية وإلى كتابات لانجلو باركر (Langlo Parker) وعن بعض قبائل أستراليا وقصصهم، كما استند على اكتشافات مان عن الإله المتعالي لدى قبائل إفريقيا واستخدم أيضا بعض الأبحاث عن اليوشمان و الهوتنتوت و الزولوو. ينظر: طه الهاتشمي، المرجع السابق. ص: 141.

إله السماء إلا بعد أجيال عدة[1].

– **نظرية شميت:** ظلت نظرية لانج موضوع الشك وعدم التسليم حتى ظهر المنهج التاريخي في علم الأجناس الذي اتفق مع كثير من النتائج التي انتهى إليها لانج وقد استخدم هذا المنهج الأب شميت الذي طبق نظريته على أقزام أواسط إفريقيا وبعض جزائر الفلبين، فدل البحث على أن الأقزام يمثلون أقدم طور في التطور البشري وأنهم أحط من قبائل جنوب شرقي أستراليا[2]، إلا أن أكثر هذه المجتمعات الإنسانية البدائية التي آمنت بوجود إلاه لم تكن موحدة بالمعنى الصحيح، لأنها كانت في الوقت نفسه تؤمن بوجود آلهة أخرى.

– **الاتجاه الثاني (مذهب الوحي)** من خلال عرضنا لنظريات المذهبين السابقين التطور والفطري عرفنا بأنه كلا المذهبين اتفقا في أن فكرة الدين قد وصل إليها الإنسان عن طريق عوامل إنسانية سواء كانت تلك العوامل فردية أم جماعية[3]، ولكن إذا عجزت وسائل العلوم أن تقدم بيانا يطمئن إليه القلب عن ديانة الإنسان الأول[4]، فلا مفر إذن من الاستماع إلى آراء أصحاب هذا المذهب ( مذهب الوحي).

حيث يؤكد أصحاب هذا المذهب على أن الدين موحى من عند الله وأن الإنسان الأول قد عرف فكرة الدين ودان بالتوحيد عن طريق الوحي وليس عن طريق العقل[5]؛ كما اهتم العلماء المسلمين بإثبات ضرورة الدين وأهميته وضرورة كونه من عند الله، ومن ثم بدعم حقيقة النبوة لتسلم

---

[1]– محمود الساموك، المرجع السابق. ص:32.

[2]– طه الهاشمي، المرجع السابق، ص 145.

[3] – المرجع نفسه. ص: 37.

[4] – محمد عبد الله دراز، المرجع السابق. ص: 113.

[5]– الساموك، المرجع السابق. ص ص: 38 ،39.

لهم النتيجة وهي أن الدين من عند الله، والكتب تقرر أن الله سبحانه وتعالى قد تولى خلق العالم، وتولى وما يزال يتولى أمر كائناته.

فقد خص الله تعالى الإنسان من بين سائر مخلوقاته بالتكريم في مجالات كثيرة[1] مصداقا لقوله عز وجل في محكم تنزيله: {**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**}[2]. فمن خلال هذه الآية الكريمة يخبر الله تعالى بامتنانه على بني آدام بتنويهه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم.

ما يمكن استنتاجه من خلال عرضنا لتعريف الدين لغة واصطلاحا وتبيين أصله ومصدره رغم اختلاف الفلاسفة والعلماء في تحديد مفهوم الدين وأصله ومنبعه والصورة الأولى التي كان عليها وحركة تصوره إلا أنه يبقى أقدم شيء عرفه الإنسان، وما التغيرات التي حاولت تحديد دين الإنسان الأول بالتطبيق على ديانات القرون الماضية، أو الأمم الهمجية والتي صورتها لنا تارة سليمة، وتارة ملفقة إلا افتراضات مبنية على افتراضات فهي لا تصف الحق الثابت، الذي هو مطلب العلم الصحيح وإنما تعرض احتمالات تشبه الحق قليلا أو كثيرا.

لهذا علينا التسليم بأن عقيدة التوحيد كانت أول عقيدة دان بها الإنسان ولكنها تشوهت مع مرور الزمان، وسيطرة الخرافات والأساطير على تفكيره فكانت الحاجة الماسة إلى تحديد الأصل، فأعاد الله تعالى الإرسال إلى الأرض، وهذا ما نلتمسه في قوله تعالى سبحانه تعالى: {**رُسُلًا مُبَشِّرِينَ**

---

[1]- سعدون محمود الساموك، المرجع السابق. ص ص: 41، 42.

[2] -سورة البقرة، الآية، رقم:31.

**وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}[1].**

وهو متعارف عند أهل الاختصاص في تاريخ الأديان والعقائد أن للدين مكونات أساسية وأخرى ثانوية، فمن المكونات الأساسية للدين المعتقد والطقوس والأسطورة. أما فيما يخص مكوناته الثانية فهي تشمل الأخلاق والشرائع. وبما أن ستكون لنا وقفة مع كل هذه المكونات في محطات لاحقة من دراستنا هذه فلن نتطرق لها في هذه الجزئية من البحث حتى نتفادى التكرار.

## – المبحث الثالث: رؤية تاريخية حول تطور الفكر الديني في الإسلام

إن الفكر الإسلامي ليس هو الإسلام نفسه، من حيث هو وحي إلهي ثابت في مصدرية المعصومين، ولذلك فإن الفكر ليس له عصمة الإسلام نفسه، ويجب ألا يخلط به، لأن خلطه به يؤدي إلى إقحام الفكر البشري في الوحي الإلهي، وقد جر ذلك كثيرا من الالتباسات التي أدت إلى نتائج في غاية الخطورة خلال التاريخ، حيث أضيفت أفكار بشرية عرضت حول الإسلام إلى الإسلام نفسه، وانتهت إلى إعاقة المسلمين والحضارة الإسلامية.

ذلك أن من أخطر الأمور التي يمكن أن تحدث في هذا السياق هو تحول أفكار بشرية في نواحي الحياة إلى دين مقدس، يحاسب الناس عليه، فالنتيجة الطبيعية لذلك إدخال فساد كبير على مبادئ الدين الحق وتشويهه وتحريفه عن الغاية التي جاء من أجل تحقيقها في المجتمع الإنساني، والنتيجة الأخرى تقييد الفكر عن الحركة والاجتهاد أمام تلك القضايا بدعوى أنها مبادئ معصومة لا يجوز الاجتهاد فيها.

[1]– النساء، الآية قم: 165.

**1)– الفكر الديني بين البعثة ونهاية الخلافة الراشدة:** كانت الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام مجموعة من القبائل العربية من البدو الرحل. ويعتبر الولاء للقبيلة وتحالفاتها الأساس في تنظيم المجتمع العربي؛ وكانت الغالبية العظمى تدين في مكة بالوثنية إضافة للديانة اليهودية في يثرب والنصرانية في نجران ونجد، واعتبرت مكة مركزا دينيا يؤمه العرب من كل صوب لأداء الحج إلى البيت الحرام.

في هذا الجو ظهر محمد ﷺ ليجهر بالإسلام، وكان أهم تأثير سياسي للإسلام أنه استطاع إقامة دولة في المدينة المنورة يسودها تشريع يحكم الجميع، ووثائق ومعاهدات مع يهود يثرب الذين كانوا يسكنون المدينة. ولاحقا استطاع المسلمون هزم المشركين في عدة معارك وفتحت مكة قبل وفاة رسول الله ﷺ بعامين فحطمت أوثان العرب التي كانت موجودة في الكعبة وأعلنت عقيدة التوحيد.

فالتوحيد الذي جاء به الإسلام لم يكن دينيا روحيا فقط، بل كان شاملا كل الجوانب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، فالجزيرة العربية كلها دخلت في عقيدة واحدة وأصبح لها كيان واحد وقبلة واحدة وإله واحد هو الله عز وجل. في حين ضعفت العصبيات القبلية والمطامع المادية بعد أن حقق المسلمون انتصارات مهمة لإسقاط دولة الساسانيين[1] وفتح بلاد الشام.

[1] – **الساسنيون**: يرجع تسمية الساسانيين إلى الكاهن الزرادشتي؛ والإمبراطورية الساسانية الاسم استعمل للإمبراطورية الفارسية الثانية(651 – 226) ؛ والسلالة الساسانية أسست من قبل الملك أردشير الأول بعد هزيمة ملك ألبارثيين / ألفرثيين الاشكانيين الأخير أرتبانوس الرابع، وانتهت عندما حاول ملك الدولة الساسانية الأخير يزدجرد الثالث (651– 632) محاربة الخلافة الإسلامية المبكرة لمدة 14 سنة. وأرض الإمبراطورية الساسانية أحاطت كل إيران اليوم، العراق، وأجزاء من أرمينيا وأفغانستان، والأجزاء الشرقية من تركيا، وأجزاء من باكستان. سمى الساسانيون إمبراطورتيهم (إيران شهر) أي سيادة الإيرانيين الآريون. والعصر الساساني يحيط طول فترة العصر القديمِ المتأخرةِ، ويعتبر أحد أهم العوامل المؤثرة في تاريخ إيران القديم، شهدت الفترة الساسانية الإنجاز الأعلى الميدية، وشكلت هذه الفترة الإمبراطورية الإيرانية العظيمة الأخيرة قبل الفتح الإسلامي وتبني الإسلام. وقد أثرت بلاد فارس على الحضارة الرومانية إلى حد كبير أثناء العهد الساساني، تأثيرهم الثقافي هذا يمتد أبعد كثيرا إلى ما وراء حدود الإمبراطورية الإقليمية، يصل بقدر ما إلى أوروبا الغربية، أفريقيا، الصين، والهند، وأيضا لعب دورا بارزا في تشكيل أنواع من الفنون في القرون الوسطى الأوروبية والآسيوية.

تجلت مهمة سيدنا محمدﷺ بالإصلاح الفكري، لأنه الأساس والركيزة الأولى لبناء الإنسان، فعندما يصبح الإنسان سليم الفكر، صحيح المعتقد، أو بعبارة أخرى عندما تصبح عقلية الإنسان سليمة وصحيحة ستنجو هذه العقلية من التبعية والتقليد الأعمى، ولعل هذه المهمة كانت شاقة على رسولنا الكريم ﷺ، فقد عانى كثيرا من قومه وبني جلدته من الاضطهاد والتعذيب والتهجير، وإلى محاولة القتل والاغتيال، إلى أن استطاع أن يتغلب عليهم ويطبق سيادة الإسلام عليهم وعلى غيرهم.

وبحكم أن طبيعة الإسلام تنافي العزلة والانغلاق لكونه دينا عالميا للبشرية كافة، فقد خرج من الجزيرة العربية، وانتشر في أصقاع العالم، حيث دخل فيه غير العرب من الفرس والترك والأمازيغ والحبش وغيرهم، وآمنوا برسالة الإسلام، وأسهموا في بناء الثقافة والحضارة الإسلامية.

فعندما أسلم هؤلاء كانوا أصالة أصحاب حضارة وتقدم ودين وثقافة، لكنهم دخلوا في الدين الجديد لأسباب موضوعية مقنعة، ولا يخفى أن الإنسان عندما يدخل في دين جديد، لا يمكن أن يتخلى عن ماضيه الثقافي والحضاري والفكري كليا، وحتى لو تمت التخلية عن الماضي بمعنى الكلمة، فإن طريقة التفكير ستبقى كما هي في بعض نواحيها، ولهذا نجد الأعاجم أثروا كثيرا في تلك البيئات المنغلقة، ونقل بعضهم تصوراته وقناعاته الفكرية، وأدخلها في أذهان العوام، سواء أدرك ذلك أم لم يدرك.

لكن بعد وفاة رسول الأمو محمد ﷺ، وقع اختلاف بين المهاجرين والأنصار حول من يخلف رسول الله ﷺ في اجتماع السقيفة، وهذا الاختلاف لم يكن عقديا فكريا، بل كان إداريا،

وقد تم تسويته، بتولي الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه زمام الحكم، وقد بدأ الخلفاء الراشدون، وخاصة أبو بكر وعمر بن الخطاب(رضي الله عنهم) باقتفاء المنهج الذي رسمه لهم رسول الله ﷺ [1]، ولم يثبت أن وقع خلافا عقديا فكريا خلال تلك المرحلة، وذلك لأنها قضايا عقدية وضحها لهم رسول الله ﷺ.

فهناك من المؤرخين من يختلف معنا في هذا الرأي ويذهب إلى أن أول انشقاق في صفوف المسلمين حصل بعد وفاة الرسول الكريم ﷺ مباشرة، ونقصد بذلك ظهور بدرة التشيع، الذي كان يرى معتنقوها أن عليا رضي الله عنه هو أحق صحابة رسول الله ﷺ بخلافته في تسيير شؤون الأمة الإسلامية من بعده، ولكن بدأت في السر، ولما آن لها الأوان ظهرت للعلن.

حتى وإن أخذنا بهذا الرأي، فإنه المتعارف عليه تاريخيا، ولن يختلف معي اثنان في هذا الأمر أن التشيع حتى وإن ظهر في هذه الفترة المبكرة من التاريخ الإسلامي، إلا أن الاختلاف كان أساسه سياسي ولم يكن عقدي أو فكري، ذلك أن شيعة علي رضي الله عنه كانوا مختلفين مع غيرهم حول موضوع الخلافة. وأما الأفكار الدخيلة والغريبة عن الإسلام لم يعرفها الشيعة إلا مع أواخر عمر الخلافة الراشدة.

## 2)– تطور الفكر الديني ما بين الخلافة الأموية وإلى غاية ظهور الخلافة العثمانية:

ينطلق الفكر الإسلامي من ضوابط الإسلام، ولكنه بالرغم من ذلك فإنه عبارة عن مواقف اجتهادية

[1]– حول تفاصيل أكثر حول الموضوع ينظر: أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج 3، تح: بركات يوسف هبود، بيروت: دار الأرقم، ط:1، 1420هـ/1999م. ص:367.

لعلماء الإسلام ومفكريه، ف لا بد أن يدرك كل باحث لذلك الفكر ذلك الفصل الحاسم بينه وبين أسسه وضوابطه وقواعده، وهي الوحي الإلهي الممثل في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

فالدين الإسلامي، ليس فكرا ولا تصورا أو فلسفة، لأن مصطلحات الفكر والتصور والفلسفة إنما هي إفرازات العقل الإنساني في تاريخه الطويل سواء تم ذلك الإفراز في المجتمع الإسلامي أم في المجتمعات الأخرى، غير أن الفكر المفرز إذا اهتدى بهداية الإسلام في إطار ضوابط فهمه وقواعده، فإن إمكانية الخطأ فيه تقل كثيرا عن إمكانية الخطأ في الفكر التائه الذي لا يضبطه ضابط يستند إلى عصمة الوحي الإلهي وأصوله العامة لسببين:

الأول: أن الإسلام يضع الحقائق الإلهية الكاملة أمام العقل في المجالات التي ليس له أن يلجها، لكون ذلك العقل وجد أصلا لكي يكون عقلا عمليا يتحرك في إطار عالم المادة، فيحاول الكشف عن قوانينه وأسراره. ولذلك نجد العقل الإنساني عبر التاريخ، كلما حمل نفسه من تفصيلات قضايا الغيب (ما وراء المادة) أكثر مما يتحمل؛ ضل وتاه وكثر اضطرابه ولم يصل قط إلى اليقين.

الثاني: أن الهوى المعبر عن حركة الانفعالات الغريزية لدى الإنسان يعيق العقل عن حركته السليمة، ويحجبه عن الإدراك الحقيقي للأشياء، بل يعطله أحيانا تعطيلا كاملا فيستعين الإنسان به، ويعتمد عليه، فلا يضع الأمور في أماكنها الصحيحة فينتهي إلى إلحاق الضرر بنفسه وبغيره.

ومن هنا فإن حركة الفكر الإنساني تحتاج إلى محور ثابت من حقائق الأنفس والآفاق والقيم المنبثقة منها. وهذا المحور الثابت لن نجده إلا في الوحي الإلهي الصادق المتمثل في صورته غير المحرفة في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة.

بناء على ما سبق ذكره فإن الفكر الإسلامي أخذ منعطفا آخرا خاصة بعد بعد مقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ، وما تلت هذه المرحلة من حقب تميزت بخصائص ومميزات أخرى[1]، خاصة حقبة التلاقح الحضاري والثقافي بين الأمم المختلفة[2]، أين تعقدت البيئات وتنوعت، وحدثت مشاكل فكرية وأيدولوجية مما دفع المفكرين إلى الحوار والجدل والرد والنقض، واللجوء إلى قانون التأويل[3] كما يسميه الغزالي.

فالإسلام لم يعاد التوسع في المعرفة الإنسانية، بل حث أتباعه على البحث والنظر ومعرفة التاريخ والاعتبار بالأمم والأيام وأخذ الحكمة من أي وعاء خرجت، لأن الحكمة هي ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق الناس بها. ومن هذا المبدأ انطلق المسلمون إلى الأخذ بأسباب الحضارة الإنسانية والاستفادة منها في بناء حياتهم وتطوير مجتمعهم. غير أنهم بقدر ما استفادوا من العلوم الرياضية والطبية والحيوية وغيرها من المعارف المفيدة التي نقلوها وطوروها وأنشأوا حضارتهم الزاهرة في ظلها، تضرروا من الثقافات الأجنبية، لأنها كانت في أصولها وثنية منحرفة غاية الانحراف في نظرتها إلى الوجود والحياة والإنسان.

فظهرت حركات وجماعات كان لكل واحدة منها تأويلاتها الخاصة للنصوص الدينية قرآنا وسنة، تحولت إلى مدارس فكرية لها دعاتها ومنظروها وفلاسفتها وأشياعها، وهذه الجماعات صنفان:

[1]- بدأت بوادر هذا العهد تظهر مع الخلافة الأموية، التي أحدثت الكثير من التغييرات في نظام الحكم والإدارة، من أهمها جعل الحكم وراثي بعدما كان شوري لا تحتكره أسرة معينة، أو قبيلة. وتراكمت الأمور إلى حلول الخلافة العباسية مكان الخلافة الأموية، والطريقة التي تقلدت بها هذه الأخيرة مقاليد الحكم جعلت من تاريخ الأمة الإسلامية تأخذ منعرجا مخالفا تماما لما عهده المسلمون على عهد الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم.

جماعات سياسية دينية أهمها الخـوارج[1] والشيعـة[2] وغيرها، وجمـاعـات فكـريـة دينيـة كالمعتـزلة[3] والأشعـرية[4] والماتريدية[5] وغيرها.

على أن هذه الحركات الدينية لقت مواجهة عنيفة من طرف بعض العقول النيرة التي اعتبرت نفسها المدافعة على عقيدة التوحيد التي جاء بها رسول الأمة محمد ﷺ ومن بعده الخلفاء الراشدين الذي ساروا على هذي النبوة الشريفة[4]، ولكن اتساع الرقعة الجغرافية للدولة الإسلامية، ودخول الكثير من الأمم التي كانت قبل إسلامها ذات توجهات مختلفة جعلت من الأمر صعب التحكم فيه بالرغم من كل محاولات الإصلاح التي ظهرت خلالها.

---

[1]– **الخوارج**: الذي يتابع تاريخ الخوارج ويتحفص في المقدمات والنتائج التي انتهوا اليها يجد ان عوامل خارجية بعيدة عن الاسلامية هي التي أدت الى ما انتهت اليه الأمور أبان هذه الفتنة. ويجد أن الذين قادوا الجماعة أول الأمر كانوا أكثر الناس زهدا في الحياة، كان هذا الشأن الجماعة (الخوارج) قبل المرحلة التي ذهبوا فيها يتألون، أو يفسرون ما ذهبوا اليه تفسيرا أفسح فيما بعد المجال لواردات العقل اليوناني والهندي والفارسي حتى تطور موقف الخوارج سياسيا ودينيا في المجال التاريخي بحيث أصبحوا قوة صدام بلا سلام والمسلمين وإذا كان الخوارج قد سبقوا غيرهم في القول بالخروج على الامام ونفي اشتراط ان يكون في قريش بل وتجاوزهم هذا المعنى الى تكفير الامام بالمعصية او بالقعود عن امر في كتاب الله دون أمر آخر. ينظر: صابر طعيمة، دراسات في الفرق (الشيعة، النصيرية، الباطنية، الصوفية، الخوارج)، الرياض: مكتبة المعارف، د ط، د س ط. ص ص:144, 145.

[2]– **الشيعة**: هؤلاء هم القائلون بإمامة الصحابي على ابن أبي طالب رضي الله عنه بعد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم نصا ظاهرا وتعيينا صادقا من غير تفويض بالوصف بل إشارة إليه بالعين. وهم بعدها لم يثبتوا في تعيين الأئمة بعد الحسن والحسين رضي الله عنهما على رأي واحد بل اختلافاتهم أكثر من اختلافات الفرق الأخرى. ينظر: الشهرستاني، المصدر السابق. ص: 69، 70.

[3]– **المعتزلة**: فرقة كلامية ظهرت في بداية القرن الثاني الهجري(80 هـ– 131 هـ) في البصرة (في أواخر العصر الأموي) وقد ازدهرت في العصر العباسي اعتمدت المعتزلة على العقل في تأسيس عقائدهم وقدموه على النقل، وقالوا بأنّ العقل والفطرة السليمة قادران على تمييز الحلال من الحرام بشكل تلقائي. من أشهر المعتزلة الجاحظ، والخليفة العالم المأمون.

[4]– **الأشاعرة**: فرقة تنتسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري رحمه الله، وقد مر الأشعري بثلاث مراحل – كما ذكر ذلك ابن كثير والزبيدي وغيرهما– مرحلة الاعتزال، ثم متابعة ابن كلاب، ثم موافقة أهل السنة، وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل، وقد صرح الأشعري بهذا الموقف الأخير في كتبه الثلاثة: رسالة إلى أهل الثغر، ومقالات الإسلامين، والإبانة، فمن تابع الأشعري على هذه المرحلة، فهو موافق لأهل السنة والجماعة في أكثر المقالات، ومن لزم طريقته في المرحلة الثانية، فقد خالف الأشعري نفسه، وخالف أهل السنة في العديد من مقالاتهم،

[5]– **الماتريدية**: فرقة كلامية تنسب إلى أبي منصور الماتريدي المتوفي سنة 333، ولهم أصول خالفوا فيها أهل السنة والجماعة، وخلافهم مع الأشاعرة محصور في مسائل يسيرة أوصلها بعضهم إلى ثلاث عشرة مسألة، والخلاف في بعضها لفظي.

[3]– من أهمهم الأئمة الأربعة: الإمام مالك والشافعي والحنبلي والحنفي. هؤلاء بدلوا جهودا معتبرة يشهد لهم التاريخ بذلك في سبيل الدفاع على عقيدة التوحيد بالرجوع إلى السنة النبوية في كل ما شاكل المسلمون في أمور دينهم ودنياهم.

أما الفترة التي نحن بصدد دراستها فارتبط الفكر الديني في هذه الحقبة الزمنية بالدولة العثمانية التي كانت تمثل القوة الإسلامية الوحيدة في نظر أوروبا، لأنها عمرت أكثر من خمس قرون. فالفكر الديني في هذه الحقبة له مرحلتان، الأولى تبدأ بجهود الإصلاحيين من المفكرين المسلمين داخل الدولة العثمانية، أما المرحلة الثانية فهي تبدأ بعد سقوط الدولة العثمانية.

فقد عرفت هذه المرحلة أحداثا مهمة وحاسمة في تاريخ الأمة الإسلامية، على رأسها فتح القسطنطينية عام 875هـ/1453م على يد محمد الفاتح وبالمقابل سقوط الأندلس عام 897هـ/1492م وما بين الحدثين كانت هناك وقائع أحدثت الكثير من المتغيرات على المجتمع الإسلامي. فسقوط الأندلس كانت بمثابة رد الاعتبار للنصرانية التي ضربت في الصميم بسقوط البيزنطيين وفتح القسطنطينية.

فسقوط الأندلس في يد النصارى الاسبان كان بمثابة انتصار للنصرانية . على حد زعمهم .؛ وعلى هذا الأساس كان لا بد من إظهار هذا الانتصار على الشكل الذي أراده ملوكها ورجالها. فعمدوا إلى أن تكون حربا دينية بعدما حققوا الانتصار العسكري والسياسي. أمام هذه الأوضاع لم يكن أمام مسلمي اسبانيا سوى الدخول في صراع أجبروا على خوضه، في معركة لفرض وجودهم حتى وإن كان بصورة أقلية مسلمة وسط بيئة كاثوليكية متعصبة.

فقد فرضت الأوضاع الجديدة على مسلمي اسبانيا الاجتهاد لإيجاد سبل جديدة، قد تحمي عقيدتهم من الضياع، على أن هذا الاجتهاد قد يكون للفقهاء والمختصين كلاما آخرا في مدى تجاوبه مع العقيدة الإسلامية الصحيحة، لكننا بهذا الصدد لن ننقاش ذلك مع أنه كانت لنا محاولات عديدة

في محطات مختلفة من هذا البحث لتبيان رأي الدين في مسألة من المسائل الدينية التي اجتهد فيها مسلمو اسبانيا في ظل الظروف القهرية التي كانوا يعانون منها.

ومن بين أهم الاجتهادات التي توصل إليه الفكر الديني الإسلامي في إسبانيا، ابداعهم للغة الألخميادية التي كانت وسيلتهم الوحيدة في الحفاظ على ثراتهم الإسلامي من الضياع والاندثار، خاصة وأن السلطات الإسبانية قد تفننت في تقنين المراسيم التي كانت وسيلتها الفعالة لضرب كل ما له صلة بالإسلام.

كما تبنى مسلمو اسبانيا أسلوب التقية كوسيلة يستفاد منها في أمرين: أما أولهما فالتقية تسمح لهم بممارسة شعائرهم الدينية دون التعرض لأدى من السلطات الإسبانية، هذه الأخيرة خصصت مؤسسة اصطلح عليها عند المؤرخين بـ " محاكم التفتيش"، التي كانت تراقب وتحقق مع أي شخص لمجرد شكوك قد تنتابها حول اعتقاده بالدين الإسلامي، وفي كل الحالات فعندما كانت تحقق معه كانت النتيجة في الحكم عليه بالموت حرقا.

***3)- مصادر الفكر الإسلامي:*** لا شك أن المصدرين الأساسيين للفكر الإسلامي هما القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وما وصف الفكر الإسلامي بأنه إسلامي إلا لأنه انطلاق من هذين المصدرين الإلهيين.

*- ***المصدر الأول: القرآن والسنة:*** لو تأملنا القرآن الكريم لوجدناه يفتح المجال الواسع لحركة العقل الإنساني، ويظهر لنا هذا واضحا عندما نجد أنه لا يقدم نصوصا قاطعة في كثير من المسائل،

بل تأتي تلك النصوص مرنة أو عامة أو ذات مقاصد كلية. وهذا الواقع القرآني وبجانبه السنة النبوية الشريفة، مما دفع علماء الإسلام إلى إعمال أفكارهم في مجالين:

– أولهما: الاجتهاد في تفسير القضايا التي لم تقرر بنصوص قاطعة، لا في كتاب الله ولا في السنة النبوية الشريفة.

– ثانيهما: الاجتهاد في القضايا والمسائل التي لم يتطرق إليها الوحي بصورة مباشرة.

إن البحث المنصف إذا تحرى عن حقائق الحياة الإسلامية خلال التاريخ الطويل، يرى أن مظاهر الفكر الإسلامي المتنوعة كلها انطلقت من الإسلام وجالت في دائرته واصطبغت بصبغته، وأن القضايا الكلية والجزئية التي أثيرت في التاريخ الإسلامي كانت بأصالة مصدريه الأساسيين؛ فالفكر الإسلامي على مدار التاريخ قام ببناء القضايا الكونية والاجتماعية التي أثارها هذان المصدران المعصومان على أساس المرتكزات العقلية التفصيلية والاستنباط منها والتوسع فيها وشرح وجوهها المتنوعة وإثبات أن النص القاطع الوارد في كلا المصدرين موافق للعقل الصحيح.

ففي "مجال العقائد" التي عرضها القرآن والسنة، قام الفكر الإسلامي بمحاولة فك البراهين القرآنية اليقينية، وبنائها على مقدمات عقلية، وقام كذلك باستعمال قوانين المنطق في تفنيد العقائد والمبادئ التي كانت تخالف العقائد الإسلامية. ولم يخف على العقلية الإسلامية الأصيلة، تلك المحاولات المنحرفة التي حاولت جر الإسلام كي يرافق الفلسفات الأجنبية التي كانت قد غزت المجتمع الإسلامي بعد القرن الثاني الهجري.

وأما في مجال "التشريع العملي" فقد استطاع الفكر الإسلامي منطلقا من مبادئ وقواعد الشريعة الإسلامية أن يواجه أحداث الحياة المتغيرة، فيضع لها من الأنظمة التفصيلية والأحكام الاجتهادية الكثيرة والحلول الناجعة المبدعة التي أقامت الحياة الحضارية الإسلامية في تفاصيلها الدقيقة، فأنتجت بذلك رقيا شاملا في المجتمع الإسلامي أدى إلى رفع مستوى الإنسان المسلم المادي والمعنوي.

على أن انفتاح المجتمع الإسلامي أمام الثقافات الأجنبية دون ضابط، وضغط التيارات المعادية للإسلام قد أخرج الفكر الإسلامي في بعض مظاهره على المبدأ القرآني الذي دعا إلى اشتغال الإنسان المسلم بحياته العملية التي يستطيع أن ينتج فيها مجتمعا حضاريا، والبعد عن محاولة التعرف الدقيق على تفاصيل القضايا الغيبية التي لا تزيده إلا حيرة واضطرابا، وتعيق حركته الإنسانية العملية نحو بناء الحضارة والحياة، عندما يصرف جهده في قضايا لا يبنى عليها عمل ما.

والحق الذي لا ريب فيه أن الصراعات الفلسفية والكلامية في وجوه عدة أخذت مجرى الترف الواضح في الجدل العقلي المتعب المغرق، وكانت من أسباب إضعاف المجتمع الإسلامي وعدم انسجامه الفكري وإسقاط كيانه الحضاري والسياسي أمام الغزاة من الشرق والصليبيين من الغرب.

*– **المصدر الثاني: الحضارات الأجنبية:** لم يمنع الإسلام التوسع في المعرفة الإنسانية، بل حث أتباعه على البحث والنظر ومعرفة التاريخ والاعتبار بالأمم والأيام وأخذ الحكمة من أي وعاء لأن الحكمة هي ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق الناس بها. ومن هذا المبدأ انطلق المسلمون إلى الأخذ بأسباب الحضارة الإنسانية والاستفادة منها في بناء حياتهم وتطوير مجتمعهم. غير أنهم بقدر ما

استفادوا من العلوم الرياضية والطبية والحيوية وغيرها من المعارف المفيدة التي نقلوها وطوروها وأنشأوا حضارتهم الزاهرة في ظلها، تضرروا من الثقافات الأجنبية، لأنها كانت في أصولها وثنية منحرفة غاية الانحراف في نظرتها إلى الوجود والحياة والإنسان.

لقد استطاعت تلك الثقافات المنحرفة غير المكتملة والبدائية في بعض مظاهرها أن تتسرب إلى حياة بيئات إسلامية معينة، فأفسدتها وأفرزت عليها همومها كلها، فشوهت جمال الإسلام وحرفت حقائقه وانتهت إلى تيارات فلسفية أو صوفية أو باطنية نقلت ضلالاتها وانحرافاتها ووثنيتها وإلحادها في صور شتى احتفظت بماهيتها بشدة، تحت راية الإسلام، حتى تتخذه منه ستارا لزحفها المنظم للقضاء عليه عقيدة وشريعة وسلوكا، وطمس معالم حضارته التي كانت الحضارة الوحيدة في التاريخ المدون، قامت على أساس التوحيد الخالص.

وكانت نتائج دخول جوانب من الثقافات اليونانية والأفلوطينية والهندية والفارسية والغنوصيات الشرقية واليهودية والنصرانية خطيرة جدا على الإسلام ومجتمعه، كادت أن تقضي عليه وتشوه معالمه، لولا قوة ذاتية الإسلام بعقائده الفطرية القوية، وحكمة شريعته السمحة، ولولا رد الفعل القوي الحاكم الذي أحدثته تلك الانحرافات في عقلاء الإسلام وعلمائه ومفكريه، حيث قاموا بقوة ويقين ودقة وتخطيط بدراسة تلك الثقافات دراسة واعية اطلعوا من خلالها على ثغراتها ومخالفتها للنقل الصحيح والعقل الصريح، فكتبوا مئات الرسائل والكتب في الكشف عن زيفها وانحرافها وخطورتها وبيان تهافتها، فاستطاعوا أن ينقذوا حقائق الإسلام وأصوله من ذلك الخطر الأكيد.

والخلاصة التي نخرج بها من خلال هذه المعطيات في اطار موضوع الرسالة هو أن الثروة

الفكرية الضخمة التي تركها لنا الفكر الإسلامي في مجال الصراع الفكري، كانت النتيجة العكسية لدخول تلك الثقافات الأجنبية التي أدت دائما إلى إحداث الاتجاهات المنحرفة في المجتمع الإسلامي في الأندلس خلال تاريخه الطويل.

فقد حافظ مسلمو اسبانيا على مقومات شخصيتهم الإسلامية دون الاضطرار إلى الدخول في مواجهة مباشرة مع الإسبان، ذلك أن النتيجة لن تكون لصالحهم، لعدم تكافؤ الطرفين. وقد يقول البعض أن هذا الاجتهاد ليس جديدا على المسلمين، فقد استعمله الرسول الكريم ﷺ في بداية البعثة، كما استعمله صحابته الكرام، ولكن الفرق بين الظرفين يكمن في عدة نقاط أهمها:

– أن الحقبة تلك كانت بداية الدعوة الإسلامية، فوق أرض عرفت بوثنيتها. بينما كانت الأندلس أرضا مسلمة عاشت كذلك لمدة ثمانية قرون من الزمن، وما الإسبان إلا محتل غاصب.

– استعمال التقية كان أمرا مؤقتا ولم يدم طويلا، إذ جهر رسول الأمة محمد ﷺ بالدعوة. بينما مسلمو اسبانيا ظلوا كذلك منذ سنة907هـ/1502م وإلى غاية ساعة الطرد النهائي سنة 1018هـ/1609م يعني قرنا من الزمن؛ ولا نعرف في حدود معلوماتنا أنه هناك شعب مسلم استطاع أن يطبق التقية كل هذه الفترة في بيئة كاثوليكية متعصبة.

– كما اجتهد مسلمو اسبانيا في التأسيس لمجتمع سري أطلقوا عليه " الجماعة"، هذا التنظيم مكنهم من خلق روح التضامن بينهم والتأسيس لمجموعة من الشرائع، لم تستطع السلطات الإسبانية بكل مؤسساتها القضاء عليه؛ وبالتالي أثبت مسلمو إسبانيا تاريخيا وجودهم ككيان فوق

أرض اصطلح عليها أنها أصبحت لا ترض بغير الكاثوليكية عقيدة، وبغير القشتالية لغة، وبغير الإسبان شعبا.

– أيضا يظهر الاجتهاد الفكري لمسلمي إسبانيا هو محاولتهم خلق ابداع أدبي بكل أنـواعه ذات توجه ديني يخدم قضيتهم، فمن خلال ما سيتم عرضه منمعطيات تاريخية حول هذا الموضوع سيتأكد أمامنا أمرين:

أ)– الأمر الأول: الاختلاف الجدري للتوجه الذي تبناه مسلمو اسبانيا في المجال الأدبي مقارنة بأسلافهم السابقين

ب)– الأمر الثاني: بوثقة هذا الانتاج ضمن دائرة الصراع الذي لم يكن في أصله سياسي بقدر ما كان فكري عقائدي.

– كما اجتهد مسلمو اسبانيا في خلق نوع جديد من الجدل الديني في إسبانيا التي لم تكن لتسمح بعقد مناظرات دينية بين الفقهاء المسلمين ورجال الدين النصارى، فتعصبها وقناعتها بهشاشة معتقدها جعلها ترفض أي حوار مع الآخر؛ على هذا الأساس كان الجدل القائم بين الإسلام والنصرانية الكاثوليكية في إسبانيا عملي أكثر منه نظري.

من خلال ما تم عرضه يمكننا القول بأن الإيمان يكون نتيجة تفكير وتأمل يؤدي إلى النظر إلى الأشياء نظرة نسبية، لهذا اعتبر الفكر الديني في جوهره الخطوة الأولى لنمو الفرد نفسه، فيعتبر الفكر تنسيق لآرائنا؛ والتنسيق هو في الواقع الأمر بالتصنيف فإذا فكرنا في النار مثلا كان معنى ذلك أن

نضعها في صنف من الأصناف؛ فالفكر الديني نشأ عن هذه التأملات، فالإنسان يتأمل في الطبيعة لكي يستطيع أن يتحكم فيها، وأن يؤثر فيها بشكل خاص.

وأنه بالأهمية بمكان الوقوف للتساؤل حول مدى ارتباط الفكر الديني بالواقع الاجتماعي والأثر المتبادل بينهما، حتى لا نظن أن الفكر الديني شيء مقدس، بل هو نتاج إنساني مثل الإيديولوجيات التي تنبع من واقع اجتماعي، ثم تعود لتؤثر فيه من جديد في الفكر الديني أساسا،

وبهذا فهما وضعان اجتماعيان يدلان على وجود طبقتين اجتماعيتين، تحاول كل طبقة أن تدافع عن حقوقها بالأبنية النظرية المتاحة في المجتمعات التقليدية، وهي العقائد الدينية، فهي قضية عملية وليست قضية نظرية، وبناء اجتماعي أكثر منها حقيقة فكرية؛ بمعنى أن الطبقة المسيطرة على الثروة والسلطة توظف الفكر الديني وتفسره لصالحها والأغلبية المستغلة توظف بدورها تفسير الدين، للقضاء على الأقلية المسيطرة بالسلاح نفسه. وبهذا فالفكر الديني مرتبط بالأمور التالية:

- مرتبط بموضوع الذات الإلهية.
- مرتبط بالنبوة والوحي. النبوة هنا معجزة وإعجاز.
- يتعلق بنظرية المعرفة. ويلاحظ أن هناك ثمة موقفان: موقف يجعل الإيمان وسيلة المعرفة على اعتبار أن الإيمان هنا هو فعل أولي يقبل ويسلم، ولا يرفض أو يعترض، وكل النظر المتاح هو بجانب "تبرير الإيمان وفهمه، دون نقده أو تمحيصه." ويُستدَل هنا بمسألة ضبط النفس، التي جعل منها الإسلام "جهادا"، وكذا البر بالوالدين وما سواهما، وقصر القتال على الذين "يقاتلوننا في الدين"، بفتننا عن عقيدتنا، فتنحصر الحرب على "الحرب الدينية".

– مرتبط بمسألة المعاد، بجهة تناول الأخرويات أو "ماذا يحدث للإنسان بعد الموت". هنا أيضا موقفان: الأول يجعل الموت بيد الله وحده، لا بيد سواه. الموت هنا يفترض قسمان في الإنسان: بدن فان، يتحلل، لا قيمة له، ونفس باقية، خالدة، تنتظر الحساب. فتبدو وقائع الحساب التي يتكفل بها قاض ليس بناء على قانون، بل على رحمته وعفوه.

– يتعلق بالصلة بين العمل والإيمان. وبه موقفان أيضا: موقف يدافع عن الإيمان الباطني للناس دون البوح به, فيضمن صمتهم بالتالي, وموقف ثان لا يفصل العمل عن الإيمان. إذ الإيمان بلا عمل لا وجود له، والإيمان بلا شعور داخلي أو تصديق عقلي أيضا، مجرد عاطفة هوجاء، والإيمان بلا قول يجهر بالحق، إيمان ذليل مهن.

– العلم، وهو الذي يجعل هذا العالم باقيا مستقرا، ويجعل جهد الإنسان فيه منتجا ومؤثرا؛ فالعلم ليس وسيلة لشيء آخر، بل هو غاية في حد ذاته، وهو ليس فانيا، بل باق، ووجود الإنسان فيه ليس عارضا، بل جوهري. من ثمة، فإن للجماهير كلمتها، وقدرتها على الفعل، والتأثير في الطبيعة والحكم، ولا تدين لسلطة تركز السلطة بين يديها.

– يتعلق بمسألة العقل والسلطة، أو العقل والنقل. هنا نجد أيضا موقفان، أما الأول فيجعل السلطة سابقة على العقل، والعقل سابق للسلطة. والثاني يجعل النقل أساسا للعقل والعقل تابعا للنقل.

ويقاس على هذين الموقفين كيفية تفسير النصوص، ليس فقط لأن كل نص هو مادة للاختلاف (حتى وإن كان صريحا)، بل لأن التغير ذاته يخضع لسياق المحيط، والموقف الاجتماعي،

ووضع المفسر وأهدافه. وبالتالي، فتعارض النصوص هو في الحقيقة، اختلاف في المواقف، التي تستعمل هذه النصوص وليس شيئا آخر.

– مرتبط بمفهوم ووجود الجماعة فالتاريخ لا يسير إلى الوراء، بل هو حركة تقدم نحو المستقبل الذي يجعل التاريخ جزءا لا يتجزأ من كيان الفرد والجماعة.

# الفصل الثاني: الكتابات الدينية ودورها في صمود الإسلام في اسبانيا

## المبحث الأول: القرآن الكريم دستور وحصن المسلم في اسبانيا

### 1)_ مساعي السلطات الاسبانية لدحض القرآن الكريم

### 2)_ مجهودات مسلمي اسبانيا في الدفاع على القرآن الكريم

## المبحث الثاني: الحديث في مؤلفات مسلمي اسبانيا ما بين الصحيح والموضوع

### 1)_ نماذج من الأحاديث الموضوعة

### 2)_ توظيف الحديث النبوي في المسائل المصيرية للجماعة المسلمة في اسبانيا الكاثوليكية

### 3)_ الأدعية المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم

## المبحث الثالث: التأليف في التفسير والعقيدة

### 1)_ التأليف في التفسير

### 2)_ فضل علم العقيدة وأهميته

يعتبر التراث الفكري الديني الذي خلفه مسلمو اسبانيا مجالا واسعا للدراسات المعاصرة، وما أبهر المختصين في هذا المجال هي تلك القدرة التي تمتع بها هؤلاء في استعمالهم لغة ذات ثقافة مزدوجة خلدت الذاكرة الجماعية لهذه الأمة الشهيدة في زمن الاضطهاد والإرهاب الديني والفكري، وعبرت عن الشتات الذي عانوا منه، كما ترجمت المستوى الثقافي الذي بقي من الثقافة الأندلسية التي انطفأ نورها بسقوط غرناطة سنة 897هـ/1492م.

فقد ترك مسلمو اسبانيا، ضمن سجلهم النثري، نتاجا فكريا آخرا، من خلاله حاولوا اثبات اصرارهم على تمحورهم حول ذاتهم الخاصة وتقوقعهم فيها؛ تشبثا منهم بهويتهم المهددة. فقد سبق أن ذكرنا، بأن الأدب الألخميادو قد استجاب في أصله إلى هذه الاستراتيجية التي أملتها عليه سياقات وجوده التاريخية، المتميزة باضطهاد السلطات الدينية والسياسية الإسبانية له ولأهله، ومراهنتها على اجتثاثهم عن هويتهم واستيعابهم في هويتها والقضاء المبرم عليهم. لذلك، حفل السجل المذكور بعدد هائل من التآليف التي عملت على مواجهة هذه السلطات لإنقاذ تلك الهوية والمحافظة عليها، موزعة فيما بين كتب تضمنت قصص الأنبياء والرسل، وأخرى قد حوت رحلات وأساطير ونبوءات مختلفة.

وفضلا عما أشير إليه في الأسطر السابقة فقد أرجع كثير من الباحثين رواج اللغة الخيميادية في أوساط الجماعة المسلمة الى عدم اجادتهم اللغة العربية، غالبا بسبب ما تعرضت له من اجتثاث. ولهذه الأسباب ولأسباب اخرى انتشرت بين أجيالهم بعض الكتب السرية الدينية، مثل (مختصر في السنة وفي العقيدة) وما ينبغي على المسلم ان يعرفه من أمور دينه؛ حتى يبقى صامدا أمام عملية التنصير الاجباري.

فالمرحلة التي نحن بصدد دراستها والتي دامت أزيد من قرن من الزمن، ستظهر فيها الترجمة من العربية إلى الإسبانية متسمة بسمات تختلف تماما عن تلك التي رأيناها في المرحلتين السابقتين. فإذا كانت الترجمة من العربية إلى الإسبانية أيام ألفونسو قد أملتها حاجة الإسبان الماسة إلى الاستفادة مما أنتجه الفكر العربي الإسلامي الذي عرف تفوقا على نظيره الإسباني في العصور الوسطى، فإننا سنجد اللجوء إلى الترجمة في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين الموافق للقرنيين السادس والسابع عشر ميلاديين كذلك من العربية إلى الإسبانية أملتها حاجة آخر مسلمي إسبانيا إلى فهم دينهم وجزء من تراثهم الذي تعذر عليهم التوصل إليه بلغة أجدادهم.

فأغلب هؤلاء المسلمين كانوا قد فقدوا العربية وأصبحت لغتهم في التخاطب والتعامل هي اللغة الإسبانية؛ لهذا السبب سنرى كيف تطورت بينهم الترجمة بهدف نقل بعض الكتابات الدينية التي كانوا في حاجة إليها للإبقاء على ثقافتهم الإسلامية التي ستكون بالنسبة لهم الحصن الحصين من كل اجتثات أو مسخ لمقومات هويتهم الإسلامية.

وكرد فعل طبيعي لهؤلاء المضطهدين، كان لا بد لهم من وسيلة للمحافظة على مقومات شخصيتهم الإسلامية والعربية فابتدعوا لغة يكتبون بها تراثهم الحضاري والديني، ويعملون من خلالها على تعويض ما فرض عليهم من منع استعمال اللغة العربية وامتلاك كتب لها صلة بالحضارة الإسلامية. فلم يقتصر مسلمو اسبانيا في إنتاج نصوصهم النثرية المتعددة والمختلفة تؤول في مجملهما إلى سجلين نثريين متميزين فيما بينهما ومتكاملين في مرماهما. يتعلق الأمر في أولهما بالسجل الذي اندرجت فيه مختلف الكتابات الدينية المتمثلة عندهم في إعدادهم لمصاحف قرآنية ولتفاسير

ومجموعات للحديث النبوي الشريف بلغتهم الأعجمية، فضلا عن كثير من المجادلات مع النصارى.

كل ذلك كان بغرض الذود عن الإسلام وعن خاتم المرسلين، ولإشاعة الثقافة الإسلامية العالمة بينهم وتلقينها لأهلهم، ضمن استراتيجية المحافظة على ذاتهم وعلى هويتهم المهددتين بالثقافة النصرانية الغربية وبالانصهار فيه. أما ثاني هذين السجلين فلقد ضم إسهاماتهم المتميزة في فنون القصة والرواية والرحلة؛ والذي سنخصص له دراسة مستقلة في فصول أخرى من هذا البحث.

فما الذي يمنعنا من الافتراض كذلك، بل من التأكيد عليه، بأنهم قد شكلوا لديه أفقا آخرا من أفاق انتظاره؟ وإن لم يكن الأمر كذلك. فما الذي دفع بمسلمي اسبانيا على استنساخ بعض النصوص القرآنية؟، وإلى ترجمة محتوياتها ومضامينها إلى الإسبانية، بوصفها لغة أغلبيتهم الساحقة في القرن العاشر والحادي عشر هجريين الموافق للقرنيين السادس والسابع عشر الميلاديين، وهم على أبواب الخروج النهائي من أندلسهم؟ وكيف يمكننا الحكم على مدى ثقافتهم الدينية من خلال مؤلفاتهم في العقيدة والسنة؟.

## – المبحث الأول: القرآن الكريم دستور وحصن مسلمي اسبانيا

تميز الجانب التثقيفي لدى الجماعة المسلمة في اسبانيا النصرانية بسمات الحقبة التي قدر لهذه الثقافة أن تعيشها وسط وضع مطبوع بالممنوعات وبالترصد للقضاء عليها؛ فالخطر أساسا كان موجها بالدرجة الأولى إلى العنصر الأكثر حيوية في هذه الجماعة أي العقيدة الإسلامية. لهذا نجد أن كتب القرآن والحديث وباقي الكتب المخصصة لتعليم الإسلام التي تحتفظ بها اليوم عدة خزانات إسبانية وغير إسبانية كانت تركز اهتمامها في الجوانب الأساسية التي كانت تتطلب الصيانة والإنقاذ.

فقد كان اللجوء إلى التكاليف الدينية ضمانا لكسب سلاح المقاومة ضد المحاولات الجهنمية للقضاء على مقومات الشخصية الإسلامية عند مسلمي اسبانيا، ذلك أن محور الصراع والمواجهة بين الطرفين كان أساسه ديني؛ هذه التكاليف كانت تنظم الحياة العامة، فهي تشمل على فتاوى الفقهاء ودليل الصلاة والصوم، والأدعية المأثورة.

**1- مساعي السلطات الاسبانية لدحض القرآن الكريم**: يعتبر القرآن الكريم، وهو الكتاب المنزل من رب العالمين على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم، دستور المسلم في كل العالم الإسلامي عموما، وفي اسبانيا على وجه الخصوص، لما يتضمنه من الحقائق العلمية المبهرة، ليكون هذا الكتاب المحكم المبين شاهدا على صدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم العالمية، ودعوته إلى العلم النافع في شتى المجالات، وتوظيفه في النهوض والرقي بالمجتمعات البشرية إلى أسمى مكانة وأرفع منزلة.

هكذا نظر واعتقد مسلمو اسبانيا في كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فحاولوا بكل السبل والوسائل الدفاع عليه في ظل ذلك الصراع الملتهب بين الإسلام والنصرانية في اسبانيا الكاثوليكية؛ فالمستهدف في هذا الصراع هي تلك القلوب النابضة والعقول المحركة للقاطرة البشرية. ومن تلك الجوانب حرب المعتقدات ومعركة الثقافة، التي تأتى في مقدمتها الغارة التنصيرية على القرآن الكريم. تلك الغارة الشرسة التي استهدفت أصالة القرآن الكريم بوصفه كلام الله المنزل على خاتم رسله محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

فبعد سقوط غرناطة بسنوات قليلة عمدت السلطات الاسبانية إلى جمع ومصادرة كل المصاحف الموجودة في المكتبات العامة والخاصة، وكذا اصدار أوامر صارمة لكل مسلمي غرناطة بتسليم كل المصاحف الموجودة عندهم، ليتم حرقها في ساحة الرملة أمام أعين مسلمي اسبانيا، مما زادهم حقدا وغلا وكراهية للنصارى الاسبان بصورة عامة.

وقد اعتقدت السلطات الاسبانية . السياسية والدينية . بأنها بارتكابها لهذا العمل الهمجي والبربري ستحول دون المسلم ودينه بحرمانه من كتابه المقدس . القرآن الكريم .، وبالتالي سيسهل عليها عملية دمجه في الدين والثقافة النصرانية الكاثوليكية، ولكن ما حصل هو العكس تماما، إذ أن هذا العمل البربري زاد من اصرار مسلمي اسبانيا على التمسك بدينهم ومحاولة الدفاع على معتقدهم.

أمام هذا الاصرار لجأت السلطات الاسبانية إلى سياسة أخرى، وهي محاولة تكذيب ودحض كل ما ورد من نصوص في القرآن الكريم، في محاولة للتشكيك في صحته؛ ولتحقيق هذا المسعى ما كان لها إلا أنها شجعت عملية التأليف في كل ما كان من شأنه الاساءة إلى القرآن الكريم وتكذيب كل ما ورد فيه جملة وتفصيلا. ومن بين المؤلفات الأولى التي ظهرت بهذا الصدد نذكر كتاب "**دحض القرآن**" **Alcorani Improbatio** للراهب الفلورانسي ريكولدو دي هونتركروثي.

كما ظهر في إشبيلية عام 905هـ/1500م باللغة اللاتينية كتاب آخر بعنوان "**إدانة القرآن**" Reprobacion del al Coran " ونشر أيضا في طليطلة عام 907هـ/1502م[1]. ومن بين الكتابات

[1]- ميغيل دي سرفانتس، المرجع السابق. ص: 141.

التي ظهرت في السياق نفسه نذكر "القرآن" **coran**"[1] من تأليف الراهب والمتعصب خوان أندريس مارتين[2]، وقد ظهر في فالنسيا عام 924هـ/1519م.

كما ظهر كتاب آخر موسوم بـ: "**في مواجهة القرآن**" "Anti Al Coraan" لصاحبه برناردو بيريث، الذي ظهر في اشبيلية عام 933هـ/1528م[3]. نجد النوايا نفسها وبأدلة مشابهة في كتاب "**مواجهة ضد القرآن وضد النحلة المحمدية**" من تأليف لوبي اوبريغون، طبع في غرناطة عام 960هـ/1555م بإشراف محاكم التحقيق.

كل هذه المساعي لم تكن لتحقق الأهداف المسطرة والمرجوة من طرف السلطات السياسية والدينية، وباءت كل محاولاتها لدحض القرآن الكريم بالفشل، واقناع مسلمي اسبانيا بصحة عقيدتهم المزيفة؛ إذ زادت هذه الاجراءات التعسفية في تمسكهم بكتابهم المقدس ـ القرآن الكريم ..

**2)– مجهودات مسلمي اسبانيا في الدفاع على القرآن الكريم:** أمام الحملة الشرسة التي شنتها السلطات الاسبانية على القرآن الكريم، لم يبق مسلمو إسبانيا مكتوفي الأيدي، بل سعوا بكل

---

[1]– **خوان اندريس:** كان ابنا لأحد الفقهاء، وكذلك هو نفسه كان فقيها وزعيما روحيا لمسلمي شاطبة وكان يسمى ابن عبد الله، وقد تحول للنصرانية عام 1487م وأصبح قسيسا وتسمى باسمي اثنين من الحواريين وذلك عن عمد. وقد عينه الملكان الكاثوليكيان راهبا، واسند تاليه مهمة تنصير أبناء دينه في غرناطة ثم في أراغون، وينسب إليه ترجمة القرآن، وكذلك كتب السنة السبعة.

[2]– احتوي الكتاب على اثني عشر بابا وقد لاق رواجا كبيرا بين أوساط النصارى بسبب محتواه فقد ركز المؤلف على التناقض بين نزول القرآن في ليلة واحدة بواسطة الملاك وبين استمرار هذا النزول عشرين عاما) وإنما يستحق الاهتمام بسبب النجاح الذي حققه وبسبب شخصية مؤلفه. وقد طبع هذا الكتاب في بداية عام 1515م في فالنسيا ثم في اشبيلية عام 1537م وأخيرا في غرناطة عام 1560م.

[3]– ميغيل دي سرفانتس، المرجع السابق. ص: 140.

مل أتيحت لهم من وسائل للدفاع والذود عليه، مع أن كل الظروف المحيطة بهم لم تكن لتسمح لهم بذلك؛ إلا أنهم رفعوا التحدي وأعلنوها حربا على أعداء الإسلام، بنسخهم للقرآن الكريم سرا وتوزيع ما تم نسخه بين مسلمي اسبانيا، وكتابة شروح للآيات الكريمة باللغة الألخميادية[1].

فمن خلال عرضنا لبعض النماذج من النصوص القرآنية التي وردت في مؤلفات مسلمي اسبانيا[2]، سيتأكد أمامنا أنها كانت الوسيلة الفعالة والوحيدة لسير عملية التأليف في كل ما يخص تعاليم ومقومات الدين الإسلامي؛ فقد كانت الكتابات القرآنية كثيرة. وهي عبارة عن مجموعات اشتملت على سور وعلى آيات قرآنية متفرقة، متبوعة بترجمتها الأعجمية.

ويعود القسط الأعظم من المخطوطات الألخميادية إلى القرن السادس عشر ميلادي، وتنقل لنا نصوصها في الدرجة الأولى لوحة من ثقافة مسلمي اسبانيا الدينية في وسط بيئة نصرانية. فمعظم ما كتبه هؤلاء المضطهدين يدور حول شرح معنى آية أو حديث نبوي أو شعيرة من شعائر الإسلام.

حتى الجزء القليل الذى يبرز فيه إبداع المؤلف يدور حول الدين الإسلامي، بشكل أو آخر، إذ نجد في القصة أو في القصيدة إشارة إلى آية أو حديث أو مبدأ فقهى إسلامي. وغالبية الأدب الألخميادو لم يكن سوى ترجمة لأصول عربية.

فمن بين المخطوطات الشاملة على آيات من الذكر الحكيم نذكر مخطوط عثر عليه بالخزانة

---

1- أجبر مسلمو اسبانيا على كتابة شروح الآيات باللغة الاسبانية، وكان هذا الأمر شاق عليهم ويحوز في قلوبهم، هذا ما أكده أحد الفقهاء بقوله :"...**لا أحد من بني قومنا يعرف اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم ولا يفهمون حقائق الدين ولا يدركون سموه الحقيقي دون اللجوء لشرحها بلغة اجنبية كلغة هؤلاء الكلاب المسيحيين طغاتنا ومضطهدينا دمرهم الله، لهذا أطلب المعذرة لمن يقرأ ما كتب بالقلوب، علما ان نيتي ما هي الا فتح طريق النجاة للمؤمنين المسلمين حتى ولو كان باستعمال هده الوسيلة الحقيرة والدنيئة...**" ينظر:
George Ticknor, Historia de Is literatura espanola, Madrid: Impr de la Publicidad, 188, vol : 4, p :. 420.

الوطنية في مدريد تحت رقم تسلسلي: 5078. وما يلاحظ على النصوص القرآنية الواردة في المخطوط أنها كانت تستجيب في اختيارها وجمعها، إلى ضرورة استنبات العقيدة الإسلامية الصحيحة بين مسلمي اسبانيا وضرورة صيانتها، مع إبراز اختلافهم الجوهري عن النصارى الكاثوليك في التوحيد والتنزيه مقابل التثليث والتجسيد.

وقبل البدء في عرض بعض النماذج من النصوص القرآنية التي كتبها مسلمو اسبانيا في مؤلفاتهم، يجدر بنا الإشارة إلى تكرار البسملة، إذ لا يخل أي نص قرآني من عبارة البسملة[1]، والملاحظة نفسها نلاحظها في النصوص النثرية[2] والعقدية[3] وحتى في العقود التي كان يتم التعاقد بها بين أفراد الجماعة المسلمة[4].

وكانت تكتب البسملة بالطريقة التالية: " **يال، بسم الله الرحمن الرحيم**"[5]. فهذه العبارة احتفظت برسمها العربي للحروف واللفظ، فهذا العمل هو بمبدأ الاقتداء بكتاب الله عز وجل، وسنة رسوله محمد عليه أزكى الصلوات والتسليم.

هذا فيما يخص البسملة التي كانت تفتح بها كل السور ماعدا سورة واحدة وهي سورة التوبة. أما فيما يخص النصوص القرآنية، فمن بين القلة التي كتبت في هذا المجال نذكر المدعو "المنسيبودي

---

[1]- مخطوط رقم: 9653، ص: 135، نقلا من البحث المعروض في المؤتمر العالمي الثالث عشر:
Chiroz Ben Hadj Ali, La lengua arab y los moriscos del escilio, Op. Cit. P : 126

[2]- على سبيل المثال ينظر: مؤلف مجهول، رثاء الأندلس، (المصدر السابق). ورقة : 1.

[3]- يهذا الصدد ينظر: مخطوط بالمكتبة الوطنية الإسبانية بمدريد تحت رقم: 5306 نقلا: عن انبعاث الإسلام في اسبانيا، (المرجع السابق).ص ص: 210،211. و: الكتاني، المرجع السابق. ص ص:216، 217. أيضا: التميمي عبد الجليل، لغة المورسكيين وأوضاعهم من خلال نصوص وفرمانات، (المرجع السابق). ص ص : 52، 53 .

[4]- الكتاني، المرجع السابق، ص: 220.

[5]- للاطلاع على نموذج من كتابة البسملة بالحروف العربية ينظر الملحق رقم:4، ص:

أبيرالو أو فتى ابيرالو"، فقيه كتب في التفسير والسنة النبوية، ووصف أوضاع مسلمي اسبانيا تحت الاضطهاد الكاثوليكي عبر إسبانيا كلها. ومن بين النماذج التي عرضت علينا في مؤلفاته حول عملية نسخ آيات من الذكر الحكيم[1]، نذكر هذا النص من كتاب الله تعالى:

**بسم الله الرحمن الرحيم " وإلهكم إله واحد، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم"**

وردت هذه الآية من الذكر الحكيم في سورة البقرة ورقمها في ترتيب الآيات في المصحف الشريف يكون 163. فمن خلال تفسير الآية الكريمة يخبر الله تعالى عباده عن تفرده بالألوهية، وأنه لا شريك له ولا عديل له، بل هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا إلاه إلا هو، وأنه الرحمان الرحيم[2].

كذلك من النصوص القرآنية التي تكررت كثيرا في مؤلفات مسلمي اسبانيا نذكر قوله عز وجل:**{ الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظها وهو العلي العظيم لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم، الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.}"**

ما ذكر أعلاه هو مجموعة من الآيات ورد ترتيبها في سورة البقرة على الشكل التالي:

**– الآية رقم 255 من الذكر الحكيم :{ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ**

[1]-Chiroz Ben Hadj Ali, Op. Cit. P : 130.

[2]- ابن كثير، المصدر السابق، مج:2 ص: 199.

**لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}**

**– الآية رقم 256 من الذكر الحكيم:{ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }**

**الآية رقم 257 من الذكر الحكيم:{ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }**

من خلال توظيف هذه النصوص القرآنية في المؤلفات مسلمي اسبانيا نلاحظ:

– محاولة نفي عقيدة النصارى الزائفة بجعل الإله الواحد الأحد ثلاث (عقيدة التثليث)؛ والتأكيد على ايمانهم الراسخ بأن الله إلاه واحد لا إلاه إلا هو.

– وظفوا الآيات التي كانت تعالج واقعهم المر الذي فرض عليهم التنصير القهري؛ فالآية رقم 256 تؤكد على عدم إكراه أحدا على الدخول في دين الإسلام، فإنه بين وواضح، جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام، وشرح صدره، ونور بصيرته، دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرها مقسورا كما يفعله النصارى الكاثوليك مع مسلمي اسبانيا.

– أما الآية رقم: 257 من سورة البقرة فتوظيفها فيه تحفيز على التمسك بدين الإسلام، فالله من خلال هذه الآية يخاطب عباده المؤمنين بأنه سبحانه وتعالى بأنه وليهم يخرجهم من ظلمات الكفر والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلي المبين.

أيضا من النصوص القرآنية الواردة في بعض مؤلفات مسلمي اسبانيا نذكر قوله تعالى: "**ألم الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم شهد الله أنه لا إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله ...ذالكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل، اتبع ما أوحي إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين الذي له ملك السموات والأرض، لا إله إلا هو يحي ويميت فآمنوا بالله ورسوله**".

قبل الخوض في ترتيب هذه الآيات حسب مكان تواجدها في المصحف الشريف يجب توضيح بعض النقاط الأساسية:

- هذه مجموع آيات من سور متفرقة
- لم يتم تحديد موقع هذه الآيات في المخطوط.
- لم يتم الفصل بين الآيات، كلما كان الأمر ضروريا بالاتصال مع الخروج من سورة والدخول في سورة أخرى.

- "**له ملك السموات والأرض**" لم نعثر على موقع هذه الآية ضمن السور الكريمة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فمنطقيا في فقه علوم القرآن أنه لا يمكن أن نتبع أي آية تتحدث عن المشركين بتقديس الله سبحانه تعالى.

– العبارة التالية " **لا إله إلا هو يحي ويميت فآمنوا بالله ورسوله**"ليس لها موقع في المصحف الشريف، فإذا هي محسوبة على القرآن الكريم.

أما تصحيح المنطقي لمجموع هذه الآيات يكون بالشكل التالي:

**– الآية رقم: 1– 2–3 – 4 من سورة آل عمران: { الم اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ}**

**– الآية رقم: 5 و6 من السورة نفسها: { إِنَّ اللَّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاء لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}**

**– {شهد الله أنه لا إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله}.**

**تصحيح الآية الكريمة من المصحف الشريف يكون بالشكل التالي: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا}** والآية الكريمة هي من سورة النساء رقمها: 87 في ترتيب آيات السورة.

**– الآية الكريمة: { ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}**. وهي من سورة الأنعام رقم: 102.

**– الآية الكريمة:{ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ}** هذه الآية من سورة الأنعام رقمها من السورة: 106.

وللتأكيد على أن هذه الأخطاء لم تكن موجودة فقط في هذا المخطوط وإنما تكررت في

معظم مؤلفات مسلمي اسبانيا نذكر هذه الدراسة التحليلية لما ورد من نصوص قرآنية في بعض المخطوطات الألخميادية، ومن بين هذه الملاحظات نذكر:

– النصوص القرآنية الواردة في مؤلفات مسلمي إسبانيا ضمت العديد من الأخطاء هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان غالبا ما يتم بثر بدايات الآيات ونهاياتها.

– في كثير من الأحيان كان توظيف الآيات كمصدر لإثبات شرعية عبادة من العبادات في غير مكانها المناسب لها؛ ومن النماذج الدالة على ذلك نذكر تلك الآيات التي وظفت لإثبات فرضية الصلاة؛ ومن النماذج الدالة على ذلك نذكر توظيف الآية الكريمة التي ورد نصها في القرآن الكريم:

**{وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ }**[1].

فقد جاء في تفسير هذه الآية الكريمة أن الله تعالى أمر عبده بذكره أول النهار وآخره، وكان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس، وهذه الآية مكية[2]. فالاستعانة بهذه الآية لإثبات فرضية الصلاة غير صحيح.

وبهذا فكل الآيات المستدل بها لإثبات فرضية الصلاة المعروضة لا تخدم هذه الأخيرة بطريقة مباشرة ولا تصل لها اتصالا مباشرا ماعدا الآية رقم: 238 من سورة البقرة والآية رقم: 45 من سورة العنكبوت "

– ما يلاحظ أيضا من خلال تحققنا من الآيات المستدل بها أنه هناك عدم إدراك كاف أو معرفة سابقة بأسماء السور.

---

[1]– سورة الأعراف، الآية رقم:6

[2]– ابن كثير، المصدر السابق، مج: 2. ص:291.

من خلال نماذج من النصوص القرآنية التي خلفها مسلمو اسبانيا في مؤلفاتهم اتضح لنا مدى تمسك هؤلاء بكتاب الله تعالى، ومحاولاتهم قدر الامكان الحفاظ على ما كانوا يحفظونه من السور بعما صادرت وأحرقت السلطات الإسبانية كل ما تمكن لها جمعه من المصاحف الشريفة.

كما لاحظنا من خلال اطلاعنا على نماذج من مؤلفاتهم الاستعمال المتكرر لكل الآيات الدالة على التوحيد وتنزيه الله سبحانه وتعالى من كل الافتراءات النصرانية؛ ضف إلى ذلك الوقوع في الكثير من الأخطاء، مع عدم خلط مجموع من الآيات من سور مختلفة دون الإشارة إلى ذلك. ومع هذا تبقى مجهودات مسلمي اسبانيا في الحفاظ على مقدساتهم أمر يرفعهم إلى مراتب أعلى في ظل الظروف التي كانوا يعانون منها.

## – المبحث الثاني: الحديث في مؤلفات مسلمي اسبانيا ما بين الصحيح والموضوع

احتلت علوم الدين الصدارة عند الأندلسيين المسلمين، حيث كان علم الحديث والفقه في مقدمة العلوم الدينية، فتهافتوا عليها بالدراسة والتمحيص، فقد لعبت الرحلات العلمية التي قام بها رجال الحديث الأندلسيين إلى المشرق دورا كبيرا في ازدهار علوم الدين في الأندلس، التي سوف تتحرر من هذه التبعية بل ستصبح المدرسة الأندلسية ذات تأثير في المشرق، ولعل اجتهادات ابن حزم في علوم الدين كان لها صدى في المشرق نفسه، بل أنه أحدث ثورة فقهية، و صار المشارقة يأتون إلى الأندلس للدراسة والتفقه.

وبقيت كذلك هذه العلوم إلى أن سقطت الأندلس مع سقوط آخر معقل إسلامي غرناطة سنة 897هـ/1492م، فتغيرت معها المعطيات كما تغيرت في الكثير من المجالات، فكل من يطلع على

مؤلفات مسلمي اسبانيا يجد تراجعا كبيرا في الثقافة الإسلامية بصورة عامة، والسنة النبوية وعلوم الدين على وجه الخصوص، ذلك أن الاضطهاد الديني الذي مارسته السلطات الاسبانية على مسلمي اسبانيا عموما، والفقهاء والعلماء خصوصا أثر بشكل سلبي على ثقافتهم الإسلامية.

وحتى تتضح الصورة أكثر لنا وقفة مع بعض النماذج من الأحاديث النبوية والمواضيع العقدية التي خلفها مسلمو اسبانيا في مؤلفاتهم سواء بلغتها الأم ـ اللغة العربية ـ، أو باللغة الألخميادية، مع الأخذ بعين الاعتبار أن البحث في مثل هذا الموضوع لم يكن بالسهل نظرا لأنه ذات مرجعية فقهية أكثر منها تاريخية.

**1)– نماذج من الأحاديث الموضوعة:** أكدت المؤلفات التي خلفها مسلمو اسبانيا في هذا المجال على تشبثهم بالهوية الإسلامية باستنادهم إلى السنة النبوية الشريفة؛ فلقد شكل لهم الاهتمام بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ومعجزاته مادة ضرورية وصلبة لتدعيم هويتهم الدينية؛ بالدفاع عن نبيهم وعن صحة نبوته، التي كانت موضوع جدال بينهم وبين النصارى الإسبان، هؤلاء لم يقصروا في العمل على نفيها ودحضها.

مع الأخذ بعين الاعتبار أن الكثير من الأحاديث النبوية التي خلفها مسلمو اسبانيا في مخطوطاتهم كانت موضوعة ولا أصل لها في كتب الحديث والسيرة النبوية وهذا الدافع هو الذي جعلنا نقدم عرض نماذج من الأحاديث الموضوعة على الصحيحة التي من المفروض أن يتم تناولها أولا.

فبلاد الأندلس اشتهرت بمحدثيها وفقهائها قبل وقوع المحنة الكبرى عليهـا، والدليل على ذلك

كتب التراجم الأندلسية التي ضمت الكثير من علماء الحديث[1]، ومن بين هؤلاء نذكر "الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري" (ت 463هـ/1072م)[2]، أيضا المحدث "عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن فطيس" (ت 420هـ/1029م)[3]، كما برز في مجال الحديث القاضي الشهير "أبو علي حسين بن محمد" المعروف بـ "ابن سكره"[4]، وأخرين لا يسع المقام لذكرهم.

وبالرغم من سقوط الأندلس المسلمة في أيدي الصليبيين الإسبان مع سقوط آخر معقل غرناطة، لم ينطفئ علم الحديث وبقي يقاوم قوى الطغيان والظلم، مع الأخذ بعين الاعتبار متغيرات الزمان والمكان والظروف التي لعبت دورا بارزا في تراجعه مقارنة مع العهود السابقة. وحتى تتضح الصورة أكثر لنا وقفة مع بعض الأحاديث النبوية الشريفة الواردة في بعض مؤلفاتهم؛ ومن بين الأحاديث نذكر ما نصه مترجم إلى اللغة العربية:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" **من أحب أن ينظر إلى اعتقاد الله من النار فلينظر إلى المتعلمين فو الذي نفسي بيده ويمشي على الأرض فيستغفر له ويمسي ويصبح مغفورا له**

---

[1]-Rafael Ramón Guerrero: el arte de lógica en Córdoba, el libro " al- Taqrib li-hadd al Mantiq " de Ibn Hazam, revista del instituto egipcio de estadios islámicos, volumen XXIX, Madrid, 1997, P167, 168.

[2]- **الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري:** يعتبر من أكثر الفقهاء علما وأكثرهم معرفة، فتسابق الناس إلى حلقاته. تولى منصب إمام الأندلس في رواية الحديث. ألف عدة مصنفات في علم الحديث من أهمها " التمهيد لما في الموطأ من المعاني و الأسانيد" و" الاستذكار لمذاهب علماء الأمصار"، وكتاب" الاستيعاب في معرفة الأصحاب". ينظر: ابن سعيد المغربي، المصدر السابق. ج: 2. ص:407 .

[3]- **عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن فطيس:** يعتبر من أئمة الحديث، حافظا له عارفا بعلومه. ألف في الحديث كتبا كثيرة منها كتاب الأخوة من المحدثين من الصحابة و التابعين و من بعدهم الخالفين في أربعين جزء"، و" مسند حديث محمد بن فطيس في خمسين جزء"، و مسند قاسم بن أصبغ العوالي في ستين جزء". ينظر: ابن بشكوال، المصدر السابق. ص: 255

[4]- **أبو علي حسين بن محمد:** ولد في سرقسطة، وسمع بالمرية من أبي عبد الله بن سعدون القروي، وأبي عبد الله المرابط، ثم ارتحل إلى المشرق. كان عالما بالحديث وطرقه عارفا بعلله وأسماء رجاله، حافظا لمصنفاته قائما عليها. ينظر: مريم قاسم طويل، مملكة ألمرية في عهد بن صمادح، مملكة ألمرية 443 -484هـ /1051-1091م، الدار البيضاء: مكتبة الوحدة العربية، ط: 1، 1994م. ص: 127.

**وشهدت الملائكة لهم بأنهم عتقاء من النار".**[1]

وبعد العودة إلى المختصين في علوم الحديث والتجريح تأكدنا من عدم صحة هذا الحديث، وأن ليس له أساس من الصحة؛ ولكن إذا حاولنا دراسة محتوى هذا الحديث المنسوب إلى رسول الله عليه الصلاة وسلام، نجد فيه احترام وتقدير أهل العلم، لما هذا الأخير من انعكاس ايجابي على المجتمع بصورة عامة. الرأي نفسه أيده أحد مسلمي اسبانيا المدعو **بن زكريا بن محمد بن غانم بن أحمد ابراهيم** حينما كتب في مؤلفه الألخميادي أن العلم جهاد[2].

أيضا ما ورد في الانتاج الألخميادو عن السنة النبوية نذكر الحديث التالي الذي نسبه مؤلفه مجهول الاسم إلى رسول الأمة محمد صلى الله عليه وسلم وجاء نصه كما يلي[3]:

**بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "تعلموا هذا الدعاء وعلموه للصلحين ولا تعلموه للسفهاء فوالذي بعثني بالحق بشيرا ونذيرا، ما دعا بهذا الدعاء أحد في سنة أو في شهر أو في زمان، فإن الله يدخله الجنة بغير حساب. قلنا يا رسول الله وإن سرق، قال وإن سرق، قلنا يا رسول الله وإن زنا، قال وإن زنا قال عليه السلام والذي بعثني بالحق بشيرا ونذيرا ما دعا به من أصابه الجوع والعطش، إلا أطعمه الله وسقاه، ولا دعا به من كان خائفا، إلا آمنه الله من خوفه أو عريانا إلا أكساه الله ولا دعا به رجل بنية خالصة على نهر بحري لوقف عن جريه، ولا دعا به جبل، حال بينه وبين**

[1]-Chiroz Ben Hadj Ali, Op.cit. P P : 126, 127.

[2]- المصدر السابق. ورقة رقم: 04.

[3]- التميمي عبد الجليل، لغة المورسكيين وأوضاعهم من خلال نصوص وفرمانات، (المرجع السابق). ص ص : 52، 53 .

**الطريق الذي يريد، لانتقل عن موضعه، وإن دعا به مظلوم، فرج الله عنه وينظر الله إليه بعينه التي لا تنام، ومن كتبه وجعله بين أكفانه، كان له شهيد يوم القيامة، فإنه قد وفي عنه كل دين ولو كان عليه دين مثل جبل تهامة إلا ادا الله عنه وهذا هو التهليل المبارك نفعنا الله به وجعلنا من أهل تهليل القرآن الكريم"**[1].

الأمر نفسه، فبعد التأكد من المصادر المختصة في علم الحديث والتجريح توصلنا بأن هذا الحديث ليس من قول رسول الأمة محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما نسب له، دون التأكد من سلسلة الرجال الذين رووه، فمن شروط صحة الحديث التأكد من الرواة؛ وبالتالي فالحديث موضوع. الأمر نفسه يتفق مع هذين الحديثين الذي ورد نصاهما كما يلي: **"اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا". "اللهم ارض عنا ولا تغضب علينا آمين"**[2].

النتيجة نفسها تقاس على هذا الحديث الذي نسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد جاء نصه كما يلي: **"اللهم إنا نستعين ونستغفر ونؤمن بك ونتوكل عليك وننحني ونخلع ونترك ومن يكفر بك، اللهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد وإليك نسعى ونحفظ، ونرجو رحمتك ونعود من غضبك الشديد"**[3].

المستوى الديني نفسه تؤكده مخطوطات ألخميادية أخرى على سبيل المثال لا الحصر نذكر المخطوطين الذين قام بنشرهما "**عبد الجليل التميمي**" في كتابه الموسوم بـ: "**تمسك الموريسكيون**

---

[1]- التميمي عبد الجليل، المرجع نفسه. ص: 53.

[2]-Chiroz Ben Hadj Ali, Op.cit. P:127

[3]_ Ibid. P: 128.

**بهويتهم من خلال الحديث في مخطوطين موريسكيين**". وقد وردت نصوص هذه الأحاديث بالشكل التالي[1]:

*- **الحديث الأول**: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**من أحب العرب حشر معهم**" وللتأكد من صحته تم الاستعانة بالمختصين في علم الحديث والتجريح، فكانت النتيجة أنه ذكر ابن أنس قال رسول الله صلى عليه وسلم:" **حب قريش إيمان وبغضهم كفر ومن أحب العرب فقد أحبني ومن أبغض العرب فقد أبغضني**". رواه الطبراني في الأسط وفيه الهيثم بن جماز وهو متروك. ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. وأورده الألباني في السلسلة الضعيفة ضعيف جدا. وبناء على ما ذكر فهذا الحديث موضوع وغير صحيح.

كما ورد هذا الحديث في صيغة أخرى جاء نصها كما يلي: "**من أحب العرب فبحبي أحبهم، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم**" التقى الهندي في كنز العمال وعزاه إلى الحكيم الترمذي وابن عساكر عن ابن عمرو من غير اسناد.

*- **الحديث الرابع**: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**من مات دون متاعه فهو شهيد**". لا أصل له بهذا اللفظ إنما جاء عن سعيد بن زيد قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "**من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد**". رواه أبو داود، والنسائي، وغيرهما، وصححه الألباني

[1]_ Abdeljalil Temimi, "Attachement des morisques à leur identité à travers les hadiths dans deux manuscrits morisques", Religion, identité et sources documentaires sur les morisques andalous, T; II, Tunis, 1984, 155-161

في صحيح الترغيب والترهيب ص: 1411.

*– **الحديث الخامس**: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **العمائم تيجان العرب**". حديث رواه ابن عدي، والبيهقي، عن أسامة. قال الألباني:" هو الحديث الأول عينه بلفظه وسنده إلا أن فيه الزيادة المذكورة وهذا لا يسوغ . ويقصد بالحديث الأول هو حديث "**اعتكفوا تزدادوا حلما**" رواه الطبراني عن أسامة بن عمير وفي سنده عبيد الله بن أبي حميدة" وهو ضعيف جدا . جعله حديثا ثانيا ما دام أن الطريق واحدة، وعند ابن عدي في الكامل (ق 2/274) من طريق ابن أبي حميد المذكور وكذلك هو عند البيهقي كما في الفيض للمناوي. وعلى العموم فهذا الحديث متروك.

*– **الحديث السادس**: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**من غادر الجماعة مات موت الكفار**". لا أصل له بهذا اللفظ إنما أخرجه مسلم من حديث موسى الأشعري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "**إن الله عز وجل إذا أراد رحمة أمة من عباده قبض نبيها قبلها فجعله لها فرطا وسلفا بين يديها وإذا أراد هلكة أمة عذبها ونبيها حي فأهلكها وهو ينظر فاقر عينه بهلكتها حين كذبوه وعصوا أمره**". وعموما الحديث الوارد في المخطوط غير صحيح ومردود.

*– **الحديث السابع**: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**أفضل جهد المؤمن القتال باسم الله**". لا يوجد له أصل بهذا اللفظ إنما صح من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **ما ترك قوم الجهاد إلا عمهم الله بالعذاب**". رواه الطبراني بإسناد في صحيح الترغيب والترهيب وقال عنه حديث حسن.

وهناك أحاديث أخرى وردت في المخطوطين ليس لها أثر في السنة النبوية لا من قريب أو بعيد

من بينها قوله صلى الله عليه وسلم: " **من صلى في غير دين الإسلام فهو كاذب**". أيضا الحديث الذي نسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فجاء نصه كما يلي: "**لا تنصلوا فلا يتنصل إلا الكافرون**". وأخيرا الحديث الذي جاء نصه كما يلي: "**الثقة بالمستقبل تزيل القلق والحزن**".

من خلال هذه النماذج الواردة في مؤلفات مسلمي اسبانيا لها دلالة قاطعة على المستوى الثقافة الدينية التي تراجعت كثيرا مقارنة مع العهود السابقة، ولعل السبب في ذلك منع استعمال اللغة العربية، وحرق كل التراث الإسلامي، ضف إلى ذلك هجرة الكثير من العلماء قبل وأثناء وبعد سقوط غرناطة؛ كل هذه الأسباب جعلت من العلوم الفقهية والعقدية تتراجع بشكل ملحوظ وملموس مقارنة بالعهود السابقة؛ وما يؤكد هذا الطرح استعانتهم بفقهاء المغرب في الاستعانة بهم في الكثير من أمورهم الدينية المصيرية.

**2)- توظيف الحديث النبوي في المسائل المصيرية للجماعة المسلمة في إسبانيا الكاثوليكية:**

لقد عكست النماذج من الأحاديث النبوية الصحيحة التي دونها مسلمو اسبانيا في مؤلفاتهم الألخميادية المشاغل نفسها التي عثرنا عليها في غيرها من صنوف الإبداع الفكري المتمركزة أساسا على تشبتهم بالهوية الإسلامية؛ فقراءة تحليلية لهذه النصوص تؤكد لنا بأن هذه الأحاديث كانت تعطي لهؤلاء المضطهدين حماية وسلاما، كما كانت مشعل أمل يمكن أن يعيد إليهم الثقة من جديد، ويوطد بينهم روابط الجماعة بالقوة من أجل التضحية والجهاد. ولتوضيح الصورة وتقريبها لنا وقفة مع بعض النماذج من هذه الأحاديث.

*- **الحديث الأول**: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**المسلم لا يرث الكافر**

**والكافر لا يرث المسلم. لا تنصلوا من آبائكم فلا يتنصل إلا الكافرون**". وقد عقد عليه البخاري في صحيحه بابا في كتاب الفرائض فقال:" باب لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم وإذا أسلم قبل أن يقسم الميراث فلا ميراث له".

ثم أخرج الحديث فقال:" حدثنا أبو عاصم عن ابن جريج عن ابن شهاب عن علي بن حسين عن عمرو بن عثمان عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "**لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم**". ورد في صحيح وكذا عند البخاري 130/8 برقم 6764 ومسلم 59/2 برقم 1614 وأخرجه أيضا أبو داود والترمذي وابن ماجه وغيرهم.

وورد هذا الحديث تبيانا للآية الكريمة:{ **يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيما حَكِيمَ}**[1].

*- **الحديث الثاني:** قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بدأ الدين غريبا وسيعود غريبا". من حديث عمرو بن عوف بن ملحة قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**إن الدين بدأ غريبا ويرجع غريبا فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس من سنتي**". وقال هذا الحديث حسن صحيح.

كما وردت مجموعة من الأحاديث النبوية الصحيحة التي تسعى إلى تحقيق الأهداف نفسها

[1]- سورة النساء، الآية رقم:11.

ونقصد من ورائها تلك التي وظفها أحد مسلمي اسبانيا المدعو **بن زكريا بن محمد بن غانم بن أحمد ابراهيم** في مخطوطه الألخميادي الموسوم بـ " **العز والمدافع**"، وفيما يلي نماذج منها[1]:

*– **الحديث الأول**: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **أن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض**" بالرجوع إلى أهل الاختصاص في الجرح والتعديل تأكد بأن هذا الحديث صحيح رواه ابن هريرة رضي الله عنه وأخرجه الإمام البخارى.

*– **الحديث الثاني**: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القانت بآيات الله" هذا الحديث صحيح رواه سلمان الفارسي رضي الله عنه وأخرجه الإمام مسلم.

*– **الحديث الثالث**: عن سلمان الفارسي قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:" رباط يوم وليلة خير من صيام شهر لعمله وقيامه وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله وأجرى عليه رزقه" هذا الحديث أيضا صحيح ورواه سلمان الفارسي رضي الله عنه وأخرجه الإمام مسلم.

من خلال ما تم عرضه من نماذج فحكمنا على هذا الانتاج الديني لن يكون فقهيا، وما تأكدنا من صحة هذه الأحاديث لم يكن سوى من باب الأمانة العلمية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كانت وسيلة للوصول إلى نتيجة منطقية حول مستوى الثقافة الدينية التي اكتسبها مسلمو

[1]– المصدر السابق. ورقة رقم: 5.

اسبانيا في ظل غياب كل الوسائل الكفيلة بتلقي علوم فقهية على أسس صحيحة. نعود ونقل بأن هدفنا الأساس من هذا العمل هم الحكم التاريخي على مثل هذا الإنتاج، فالواقف على كل هذه الأحاديث يستخلص مجموعة من الملاحظات:

– ضرورة التمسك بالدين الإسلامي الذي هو عماد الحياة السعيدة في دارين.

– ضرورة التمسك بالجماعة، التي في وحدتها، وحدة القرار والمصير.

– ضرورة التنصل من "الكفار" واجتنابهم فلا يتم التعامل معهم تحت أي ظرف من الظروف؛ وفي استعمال مصطلح "الكفار" ففيه إشارة إلى الاسبان النصارى الكاثوليك.

– الصبر على الابتلاء، والايمان بالمستقبل الزاهر. هذا ما تجسد واضحا وجليا في الحديث الأخير بالرغم من أنه موضوع.

– ضرورة التمسك بمقومات هويتهم الإسلامية، من بينها التقاليد الإسلامية. ويتضح ذلك في الحديث القائل:" **العمائم تيجان العرب**".

– الحث على الجهاد الذي كان بالنسبة لهم الحل الوحيد والأكيد لتغيير أوضاعهم، حتى وإن لم يتحقق ذلك، فالموت على الشهادة والكرامة أحسن وأرحم من العيش في ظل الظلم والاضطهاد والتنكيل الذي مارسته السلطات الإسبانية على مسلمي اسبانيا.

3)– **الأدعية المأثورة عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم:** استعان مسلمو اسبانيا ببعض الأدعية النبوية المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – في اعتقادهم –، من بينها نذكر

ما كتبه الفقيه علي بن محمد شكار الذي انتهى من كتابته في 30 جمادى الثانية عام 998 هـ الموافق لـ 23 مارس سنة 1589م، وهو يفتتح كتابه بما يلي:

**"بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد الكريم وعلى آله وسلم تسليما، لشاماشاش ذالش ألنكت ذا عربيي كاشا كوانتن برلنش إشتش: أليرمار شالم ألمحرام، ألبار مارذا شتا ماش أشذيا ذا مي غرندا ذين باش دلبر ذا لش شياتاذيش كاشن برألنبي محمد صلى الله عليه وسلم".**

**وترجمتها إلى اللغة العربية تكون بهذا الشكل:**

**"بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا الكريم وعلى آله وسلم تسليما، إن الدعوات التي يدعو بها في الشهور العربية هي التالية : الشهر الأول يسمى محرم، وأول يوم منه يوم مهم جدا، وهو من الأيام السبعة عشر من أيام النبي محمد صلى الله عليه وسلم "**[1].

أيضا من بين الأدعية المذكورة في المخطوطات الألخميادية نذكر ما نصه[2]:

**" الحمد لله بجميع محامده كل ما علمت منها وما لم يعلم على الجميع نعمه ما علمت منها وما لم يعلم الحمد لله رب العالمين حمدا يوافي نعمه ويكافي مزيده".**

من المعلوم عند جميع أهل العلم أن السنة هي الأصل الثاني من أصول الإسلام، وأن مكانتها

---

[1]- الكتاني، المرجع السابق. ص: 219.

[2]- مخطوط رقم: 9653، ص: 135، نقلا من المقال:

Chiroz Ben Hadj Ali, Op.cit. P : 126

في الإسلام الصدارة بعد كتاب الله عز وجل، فهي الأصل المعتمد بعد كتاب الله عز وجل بإجماع أهل العلم قاطبة، وهي حجة قائمة مستقلة على جميع الأمة، من جحدها أو أنكرها أو زعم أنه يجوز الإعراض عنها والاكتفاء بالقرآن فقط فقد ضل ضلالا بعيدا وكفر كفرا أكبر وارتد عن الإسلام بهذا المقال، فإنه بهذا المقال وبهذا الاعتقاد يكون قد كذب الله ورسوله، وأنكر ما أمر الله به ورسوله، وجحد أصلا عظيما فرض الله الرجوع إليه والاعتماد عليه والأخذ به، وأنكر إجماع أهل العلم عليه، وكذب به، وجحده.

بناء عليه تمسك مسلمو اسبانيا بالحديث النبوي الشريف كمصدر ثاني من مصادر التشريع الإسلامي، حتى وإن نسبوا الكثير منها خطء ولا أظنها عمدا لرسول الأمة محمد صلى الله عليه وسلم، ولعل السبب الرئيس في ذلك يعود إلى كل تلك الإجراءات التعسفية والحصار المستمر الذي فرضتها السلطات الإسبانية على كل ما له صلة بالإسلام.

## – المبحث الثالث: التأليف في التفسير والعقيدة

العقيدة هو ذلك التصور الإسلامي الكلي اليقيني عن الله الخالق، وعن الكون والإنسان والحياة، وعما قبل الحياة الدنيا وعما بعدها، وعن العلاقة بين ما قبلها وما بعدها. فالعقيدة تتناول مباحث الإيمان والشريعة وأصول الدين والاعتقادات كالإيمان الجازم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره وسائر ما ثبت من أُمور الغيب، وأُصول الدين، وما أجمع عليه السلف الصالح، والتسليم التام لله تعالى في الأمر، والحكم، والطاعة، والاتباع لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

**1)– التأليف في التفسير**: يشمل علم التفسير جميع ضروب البيان لمفردات القرآن وتراكيبه سواء تعلق البيان بشرح لغة، أم باستنباط حكم أم بتحقيق مناسبة، أو سبب نزول، أم بدفع إشكال ورد على النص، أو بينه وبين نص آخر أم بغير ذلك من كل ما يحتاج إليه بيان النص الكريم؛ وعرف القول في تفسير القرآن منذ عهد نزول القرآن ذاته، فالقرآن يفسر بعضه بعضا.

وقد يحتاج بعض الصحابة إلى بيان شيء من القرآن فيوافيهم به النبي صلى الله عليه وسلم كما ومن ثم عرف العلماء وذكروا في تصانيفهم ألوانا شتى من تفسير القرآن للقرآن ومن تفسير السنة للقرآن. ثم سار الصحابة فمن بعدهم على هذا المنوال من البيان لكل ما يحتاج إلى بيان من القرآن فتكونت، المدارس المتقدمة للتفسير في مكة والمدينة والشام، والعراق، وحتى دونت المصنفات التي لا تكاد تحصى في التفسير، كل على حسب مشرب صاحبه من العناية باللغة والبلاغة أو الفقه والأحكام، أو تحقيق أمور العقيدة ومباحثه علم الكلام، ثم من إسهاب إلى إيجاز إلى توسط في التناول، وهكذا صار تفسير القرآن علما قائما برأسه وضعت فيه المئات من المؤلفات

وبلاد الأندلس كغيرها من دول العالم الإسلامي لقي علم التفسير اهتماما بالغا من طرف فقهائها وعلمائها، واستمر الاهتمام كذلك إلى غاية لحظة سقوط آخر معاقل الإسلام في الأندلس سنة 879هـ/1492م، وتراجع هذا العلم مثله مثل بقية العلوم الفقهية لظروف قاهرة فرضتها السلطات الإسبانية على أفراد الجماعة المسلمة؛ ومع هذا بقيت الجماعة النخبة المثقفة تناضل وتقاوم من أجل الحفاظ على الجزء اليسير من مقوماتها الإسلامية.

ومن خلال بعض المؤلفات الموجودة في مختلف الخزانات عبر الدول الأوروبية والعربية

والإسلامية تمكن للباحث التعرف عن كتب المستوى الديني لفقهاء الجماعة المسلمة، وبهذا الصدد نذكر ما ورد في إحدى المخطوطات الألخميادية، إذ حاول صاحبه مجهول الاسم تفسير بعض الآيات من سورة الفاتحة التي هي ضرورية لإقامة الصلاة هذا من جهة، ومن جهة أخرى كنوع من الجدال مع عقيدة النصارى الكاثوليك المزيفة والمحرفة، فشرح قوله تعالى: " **إهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين**"[1] بأنه هناك اختلاف بين المفسرين في شرح هذه آيات. وشرحه "باليهود والنصارى"[2].

في حين فسر المدعو "**محمد قاصر**" أحد مسلمي اسبانيا الذي هاجر إلى تونس جزءا من سورة الفاتحة في مؤلفه[3] ذاكرا أنه "**اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين**"[4]. تعني: "يا إلاهي، أنقذنا من طريق الملعونين اليهود والنصارى الضالين"[5].

وعند مقارنة تفسير هذه الآيات من سورة الفاتحة من المصادر المختصة مع ما جاء في الشرحين السابقين إذ كل منهما تقاربا كثيرا في الشرح نجد أن من فوائد الآيتين 5 و6 من سورة الفاتحة: **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِين اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ}** هو لجوء الإنسان إلى الله عز وجل بعد استعانته به على العبادة أن يهديه الصراط المستقيم؛ لأنه لا بد في العبادة من إخلاص؛ ومن استعانة يتقوى بها على العبادة؛

---

[1]- سورة الفاتحة، الآيات رقم:

[2]- لوي كارديك، المورسكيون الاندلسيون والمسيحيون، (المرجع السابق). ص: 33.

[3]- مخطوط رقم : 9074 بالمكتبة الوطنية بمدريد.

[4]- سورة الفاتحة، الآيات رقم:

[5]-لوي كارديك، المرجع السابق. ص: 33.

ومن اتباع للشريعة؛ التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم[1].

أما الآية رقم: 7:{ **صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ**} فتعني الاستعانة بالله على اتباع الطريق الذين أنعم به على من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فهم أهل الهداية والاستقامة، ولا تجعلنا ممن سلك طريق المغضوب عليهم, الذين عرفوا الحق ولم يعملوا به، وهم اليهود، ومن كان على شاكلتهم، والضالين، وهم الذين لم يهتدوا فضلوا الطريق، وهم النصارى، ومن اتبع عقيدتهم المزيفة[2].

وفي هذا الدعاء شفاء لقلب المسلم من مرض الجحود والجهل والضلال, ودلالة على أن أعظم نعمة على الإطلاق هي نعمة الإسلام، فمن كان أعرف للحق وأتبع له، كان أولى بالصراط المستقيم، ولا ريب أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هم أولى الناس بذلك بعد الأنبياء عليهم السلام، فدلت الآية على فضلهم، وعظيم منزلتهم رضي الله عنهم. هذا ما اعتقده مسلمو اسبانيا من خلال هذه النصوص القرآنية.

تبين من خلال ما تم عرضه من معطيات مدى تمسك مسلمي اسبانيا بالإسلام وعلاقتهم بالله سبحانه وتعالى، فقد استلهموا من خلال ذلك الكثير من اشتراطات العقيدة الإسلامية ومستلزماتها من خلال انتاجهم الفكري الديني، وقد غلب على هذا النوع من التأليف معاني الاستغفار والاستشفاع والاسترحام.

**2)– فضل علم العقيدة وأهميته:** العقيدة الصحيحة هي الأساس الذي يقوم عليه الدين

[1]– ابن كثير، المصدر السابق، مج:1. ص ص: 30، 31.

[2]– المصدر نفسه. ص ص: 32، 33.

وتصح معه الأعمال. وهي الثوابت العلمية والعملية التي يجزم ويوقن بها المسلم. فالاعتقاد هو الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده. وهو يعني عموما ما عقد الإنسان عليه قلبه جازما به؛ فهو عقيدة، سواء؛ كان حقا، أو باطلا. كما هو مجموعة الأفكار والمبادئ التي يؤمن الفرد بصحتها. فيكون بذلك تبني العقيدة عن طريق الإدراك الحسي، الاستنتاج، الاتصال مع الأفراد.

فبالرغم من كل الملاحقات التي سلطت على مسلمي اسبانيا عموما، وعلى جماعة الفقهاء خصوصا، إلا أنه استمرت عملية الانتاج الفكري والديني خاصة فيما يخص علم العقيدة الذي لا يمكن الاستغناء عليه بالضرورة حتى وإن تطلب ذلك الكتابة بحروف عربية ولغة القشتالية؛ هذا ما أكده الفقيه عيسى بن جابر في القرن التاسع الهجري الموافق للخامس عشر ميلادي ذاكرا الأسباب التي دفعته الى كتاب مجموعة من الكتب في الفقه والسنة باللغة الاسبانية فكتب يقول بهذا الصدد:

"...**ان مسلمي قشتالة بسبب خضوعهم الكبير وبسبب الضرائب العالية والعناء المفرط شيئا فشيئا ضاعت منهم الممتلكات والمدارس واللغة العربية، نظرا الى هدا الخصائص طلب مني أصدقائي بكل عطف وإلحاح كبير منهم خصوصا المورعين الكرماء، والتمسوا مني باستعطاف بالغ ان اجمع باللغة الرومانسية كتابا مختصرا حول فقهنا و السنة ،وكدا لي بد الا ان اقبل هدا الطلب، وقد كان المورسكيون يعبرون عن اسفهم الصريح لاستعمالهم اللغة الاسبانية لشرح تعاليم الدين الاسلامي الذي لا يمكن شرحه إلا باللغة العربية**"[1].

[1]- أحمد كمون وهاشم السقلي، المرجع السابق. ص: 20.

ومن بين أهم الأسماء التي ألفت مجموعة مهمة من هذا الإنتاج الفكري الديني العقدي نذكر عيسى بن جابر فقيه مسجد شقوبية الجامع، واسمه في المؤلفات الألخميادية "**عيسى دي جابر**" "**Iça De Gebir**" وهو صاحب " **الكتاب الشقوبي**" "**El quiteb segoviario**" .

وقد وردت تحت اسمه تعريفا به بحروف عربية: "**بربيزية سني**" "**Bereviaro Sunni**" أي "**مختصر في السنة**"، وهو مختصر صغير في الأخلاق والشريعة[1]. والاسم الكامل كما ورد في نسخته الألخميادية هو:

**"إللكتب شجبين، بربيزى سني، ممريل ب أش برنشبلش مند مينتش إد بد مينتش د نو شترشنت مند مينتش إد بد مينتش د نو شترشنت لى إسن"** وهو يفهم إذا نحن رسمنها بحروف لاتينية:

**El quiteb segobiano. Brebioro sunni. Memorial de los principales" mandamientos y de bedamientos de nustra santa ley y sunna. »**

والكتاب يقع في فصول كثيرة عن الإيمان وما هو، وما ينبغي على المسلم الاعتقاد به ليصبح دينه، والوضوء والطهارة والماء الطاهر وغير الطاهر، والتيمم، والصلاة ومواقيتها، وهو يصف طريقة الصلاة ويذكر ما ينبغي أن يطبق به الإنسان المسلم في كل حركة من حركاته وهو يكتب المصطلحات بالعربية ويرسمها بحروف لاتينية محرفة ولكنها تحيطنا علما بالطريقة التي كان مسلمو اسبانيا ينطقون بها العربية مثال ذلك:

**الله أكبر . Allah wa aqbar**

[1]- أنجيل جنثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، تر: حسين مؤنس، مصر: مكتبة الثقافة الدينية، د ط، 1955م. ص: 511.

| | |
|---|---|
| **سبحان ربي العظيم** | **çubhana rabbi- Ilahadim** |
| **سمع الله لمن حمده** | **çemi allahu limen hamidehu** |
| **اللهم ربنا ولك الحمد** | **Allahuma rabbana qual col hamdu** |

ويستعمل صاحب المخطوط مصطلح العبادات الإسلامية باللغة القشتالية في صورة فعل مضيفا إليه في نهايته (AR)، فيقول مثلا: (الركعة) (Arraquear) أي الركوع؛ أيضا في السياق ذاته نجد الأمر نفسه يتكرر مع مصطلحات أخرى مثل (النوافل) (Anefiles)، جامعا نافلة جمعا قشتاليا[1]، وما إلى ذلك من مصطلحات دينية تخص ممارسة تعاليم الدين الإسلامي.

كما هناك كتاب آخر موسوم بـ " **التفسيره**" ينسب إلى مسلم من اسبانيا يدعى "مننب أريقالو"، حاول هذا الأخير عرض مجموعة من القضايا التي تخص العقيدة نقلا من مجموعة من العلماء هؤلاء اجتمعوا من أجل تدارس الأمور الدينية؛ ومما ورد في هذا الكتاب نذكر:

**"إر أن ديا د لش شيت دل أتي بنيشكوين د دلقعده، فويرن أختندش إن ثرجث أن كنبنى د أنردش مثلش أدند شأليرن مش د بينت مثلمش إإتتر إلبش شبيت ألميش دكتش إفد لدش إديبوش دل أدهر كمنثرن دش ش أرنج، إإنتر متشش كشش تفلت كين دش كم إرجرند نوشتر بردد إدكوت بك إثنشيا إر نوشتر أبرا، إديش أتر ألم كنش تربخس كتنيمش، لش كد كددى شنش أبرخبن، كتد شري برمش مرتنشيا، إربجنرن شدتش دثينذ كلش تربخس نكنلين برننجن منشكب د لأبر برثتد إكفلتند لمدل برنشيال كإش اللّيمممينت بر لأثلاّ ك لأبر نيديّا".**

[1]- أنجيل جنثالث بالنثيا، المرجع نفسه. ص: 511.

وتكون ترجمتها إلى اللغة العربية بهذا الشكل: **"في يوم من الأيام السبعة السنوية الخامس والعشرين من ذي القعدة، اجتمع في سرقسطة جمع من أشراف المسلمين حيث وجد أكثر من عشرين مسلم وكان بينهم سبعة علماء راسخون في العلم وفاضلون، وبعد الظهر أخذوا يعالجون آلاما وقال كل واحد منهم كلامه. ومن بين أشياء كثيرة تكلموا فيها لم يخل الأمر من واحد قال: كيف كانت خسارتنا كبيرة، وما أقل جدوى عملنا وقال عالم: إن كل الأعمال التي بين أيدينا والأعمال التي تشغلنا كل يوم، إن كل هذه ستكون عظيمة الأجر، فأنفوا من قوله قائلين الأشغال (اليومية) لا تأثير لها على العمل المفروض، وإنه إذا انعدم الشيء الأساسي وهو استجابة الداعي الصلاة لا يمكن أن يكون العمل مقبولا"**[1].

كما كتب المؤلف نفسه عن الصالحين والزهاد، وهو سند في ذلك بعض كلامه إلى نفر من علماء الإسلام يكتب أسماؤهم في صيغ قشتالية مثال ذلك: "**أبدر داى**" الذي يعادله باللغة العربية "أبو الدرداء" و"كتادتا" "قتادة".

أيضا هناك كتاب آخر في السياق نفسه يجهل اسم مؤلفه، وهذه الظاهرة لم تعد غريبة عند دارسي وباحثي هذا المجال من الانتاج الديني، فقد كان من تبعات ملاحقة محاكم التحقيق لكل من يشك في أمره أنه يخفي إسلامه، التي سينجر عن اكتشاف أمرهم إلى الإعدام حرقا. هذا الكتاب عنونه صاحبه بـ "**د لكرينثيا إلك دب سبر إلمهومتانو إأترش كشش كريشش**"[2].

---

[1]- أنجيل جنثالث بالنثيا، المرجع نفسه. ص:513.

[2]- المرجع نفسه، ص:513.

[63]- المرجع نفسه. ص:513.

من خلال النماذج التي تم عرضها في هذا الجانب يمكننا استخلاص بعض الملاحظات:

– أن الإنتاج الخاص بالعقيدة والتفسير كان حكرا على الفقهاء الذين كانوا يجمعون ثقافة إسلامية تمكنهم من الخوض في مثل هذه المواضيع.

– أن هذا الإنتاج تم تأليفه باللغة الألخميادية، للظروف التي تم عرضها في جزئيات مختلفة من هذا البحث.

– ما ألفه مسلمو اسبانيا في هذا المجال لم يكن سوى عملية نقل وترجمة لما دون في المصادر الفقهية التي عالجت مثل هذه القضايا الإسلامية المهمة.

# الفصل الثالث: الإنتاج الأدبي بين الابداع والمقاومة

## المبحث الأول: أدب الرسائل

1)_ الرسائل الديوانية

2)_ الرسائل الاخوانية

3)_ رسائل المناظرات

## المبحث الثاني: التاريخ وأدب الرحلة

1)_ التأريخ لمواطن استقرارهم

2)_ قراءة تحليلية في مؤلفين _عربي وألخميادي_

3)_ أدب الرحلة

لقد دأب الباحثون المختصون في الدراسات الأندلسية إلى تناولها داخل حقبة زمنية امتدت من الفتح الإسلامي للأندلس وإلى غاية نهاية الحكم العربي الإسلامي بها، وكأن هذه الآداب قد انطفأت وقررت نهايتها وتوقفها، عشية سقوط غرناطة، آخر معاقل الإسلام بهذه الجهة من العالم.

ومن المعلوم أنه بعد هذا الحدث الذي يعد حدثا كارثيا بالنسبة للحضارة الإسلامية لم يرحل جميع المسلمين عن هذه الجزيرة، واستمروا في إنتاج آدابهم بها، وحتى الذين خرجوا منها بعد ذاك الحدث، أو بعد هذا القرن، أو خلال المرحلة الفاصلة بينهما، فإنهم لم ينقطعوا أبدا عن مواصلة إنتاج أدبهم، غير أن هذه الآداب قد عرفت تحولات مختلفة، باختلاف تحولات الصراع الحضاري بين الإسلام والنصرانية الذي دار بهذه الجهة السالفة الذكر.

إذ ما هو متعارف عليه تاريخيا أنه لم يرحل جميع المسلمين عن هذه الجزيرة، واستمروا في إنتاج آدابهم بها. وإذ عرف هذا الأدب تحولات مختلفة، باختلاف تحولات الصراع الحضاري بين الإسلام والنصرانية الذي دار بعالم الجهة السالفة الذكر، فلقد واكب أيضا هذا الصراع، ليعبر عنه، وليجسده ضمن أغراضه وسماته، ووفق مقوماته وأساليبه، التي سنحاول عرض نماذج منها، لاستعادتها بوصفها جزءا لا ينبغي تجزئته عن الأدب الأندلسي العام.

ويكفي في البداية للاستدلال على هذا الأمر، التنبيه على أن منتجي هذا الأدب قد وقعوه بوصفه أدبا أندلسيا إسلاميا، كما تعرف إليه مستهلكوه، من حيث كونه كذلك. غير أن هذا الأمر لا يعني أبدا، كما ذكرنا وسنذكر لاحقا، بأن هذا الأدب لم ينفتح، ضمن تحولات هذا الصراع وتلويناته، على النتاج الأدبي الإسباني والروماني، أو أنه لم يتبادل معهما أي تفاعل.

فقد واكبت تلك الآداب هذا الصراع، لتعبر عنه، ولتجسده ضمن مختلف أجناسها وأنواعها، ووفق مقوماتها وأساليبها وسماتها المخصوصة؛ ولا عجب في ذلك، فالواقف عليها كما هي مبثوثة في مخطوطات أهلها وفيما نشر منها، يدرك بكل سهولة انصهارها في وحدة إنتسابية إلى الآداب العربية الإسلامية، بالرغم من اضطرار أصحابها إلى إنتاجها واستهلاكها في غالب الأحوال بغير اللغة العربية لكن إلى أي حد يمكن الحديث أصلا عن وجود فعلي لهذه الآداب، ثم كيف عبرت عن ذاك الصراع؟ وكيف واكبت تحولاته؟ وكيف خضعت بدورها إلى تحولات موازية؟

## – المبحث الأول: أدب الرسائل

شكلت الكتابة أحد أبرز الفنون النثرية، فقد تبوأت مكانة رفيعة لدى الأندلسيين، حيث كان للكاتب في الأندلس منزلة عظيمة في نفوس الملوك وعامة الناس، لذلك لا يتولى هذا المنصب إلا من أوتي قدرا كبيرا من العلم و المعرفة لأن من نال شرف اسم الكاتب وخوطب به لا يجوز في حقه الغلط البين، لأن الناس يترصدون عثراته، ولا يكادون يغفلون عنها لحظة مهما كانت منزلته الاجتماعية وقرابته من الحاكم.

ويمكن القول بأن النثر الأندلسي كان ينسج على منوال النثر المشرقي ويسير على نهجه و كبار النثر في الأندلس هم كبار شعرائها أمثال ابن زيدون وابن شهيد وابن حزم وأبي حفص ابن برد وابن دراج القسطلي ولسان الدين بن الخطيب وغيرهم وهذا على عكس أعمدة النثر في المشرق حيث كان شعرهم أقل جودة من نثرهم ونذكر منهم على سبيل المثال أبا الفضل بن العميد والصاحب ابن عباد وأبا بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني.

كما يعتبر النثر من أهم الأغراض الأدبية التي ميزت الأدب الأندلسي، فقد نشط الأندلسيون في نوعين من النثر، فأما النوع الأول فهو النثر الأدبي الذي يقصد به فنون الكتابة و الرسائل الديوانية والإخوانية والوصايا وغيرها من مواضيع النثر الفني.

أما النوع الثاني فهو النثر التأليفي، ولعل ابن حزم يمثل قمة هذا النثر، وما كتابه طوق الحمامة إلا صورة حية لذلك، حيث قسم كتابه هذا على ثلاثين بابا، منها عشرة في أصول الحب، و اثنتا عشر في أغراضه و صفاته، و ستة أبواب في الآفات الداخلة عليه، و ختم ببابين: باب الكلام في قبح المعصية و الآخر في فضل التعفف[1].

كما ساهم أبو بكر الطرطوشي في إثراء المكتبة الأندلسية بكتابه الموسوم "سراج الملوك"، حيث تغلب على هذا الأخير الصبغة الدينية، فهو يعالج سياسة الملك، كما قدم نظريات اجتماعية كانت نتاجا لما شاهده في الأندلس من أحداث تطورات غير عادية[2]؛ كما نجده من خلال مؤلفه هذا يبرز عوامل ضعف المسلمين التي أرجعها إلى اهتمام ملوكهم بجمع المال وعدم إنفاقه على الجند[3].

وبعد سقوط الأندلس في يد النصارى الإسبان، ومحاولة هؤلاء القضاء على معالم الهوية الإسلامية، على رأسها اللغة العربية كتابة وتخاطبا وتداولا، في محاولة منهم القضاء على التراث الإسلامي الأندلسي بكل ما يحمله هذا الأخير من خصائص ومميزات، لكن بقي مسلمو اسبانيا

---

[1]- ابن حزم، طوق الحمامة، ص ص: 189، 190.

[2]- عاصر طرطوشي فترة حكم ملوك الطوائف و قضى شطرا من شبابه في مملكة بني هود، و من أبرز نظرياته أن عصبية الدولة إنما تقوم على الجند قبل المال، و أن المال وجب أن يكثر إنفاقه للاستكثار من الجند.

[3]- محمد عبد الله عنان، تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، مصر: مكتبة الخانجي، د ط، د س ط. ص:295

صامدين أمام التعصب الديني والحضاري الذي مارسته السلطات الاسبانية ـ السياسية والدينية ـ فكان لهم أن خلفوا نتاجا أدبيا مهما شهد على محنتهم وتشبثهم بعروبتهم وبدينهم.

فمن خلال هذا المبحث ستكون لنا وقفة مع أهم المخلفات الأدبية النثرية التي خلفها مسلمو اسبانيا على ضوء المادة التاريخية ـ الأدبية التي تمكن لنا تحصيلها من مختلف قنوات المعرفة العلمية. وقد صنف المختصون في فنون النثر هذا الأخير إلى أنواع، على أساس هذا التصنيف سنحاول قدر الإمكان تناولها بعرض نماذج منها، للتدليل على مدى صمود الجماعة المسلمة أما الحرب الحضارية التي خاضتها ضدها الدولة الإسبانية بكل مؤسساتها ومختلف فئاتها.

**1) الرسائل الديوانية:** احتلت الرسائل في كل عصر حيزا كبيرا من الاهتمام. ومن العادة أن تقسم الرسائل إلى إخوانية وديوانية. أما النوع الأول منها فيمكن اعتبارها بمثابة "رسائل خاصة"، وهي لا تختلف عن الرسائل الديوانية في طبيعتها وأسلوبها. في حين اختص النوع الثاني من هذه الرسائل بمصالح الأمة وقوام الرعية؛ وهي بصورة عامة تختص بتصريف شؤون الدولة. وبهذا استطاعت أن تهيمن على كل المجالات، فهي بمثابة المرآة التي انعكست عليها هموم المجتمع.

وبما أن الإطار الزماني والجغرافي الذين نحن بصدد دراستهما تميزا بخصائص ومميزات جعلت من البحث يأخذ شكلا مغايرا، عما عهدناه في دراسات عالجت الموضوع نفسه في فترات سبقت سقوط غرناطة[1]، فإن هذا انعكس بصورة مباشرة على كل فنون النثر وعلى رأسها فن الرسائل.

[1]- كان في الأندلس نوعان من الكتاب، أعلاها كاتب الرسائل، و هو الذي يتولى الكتابة عن الملك أو الأمير إلى الملوك والولاة، و النوع الثاني هو كاتب الزمام الذي يتولى شؤون الخراج، و لا يحق لليهودي أو النصراني تولي هذا المنصب. ينظر: ـ المقري، نفح الطيب، (المصدر السابق)، ج:1 . ص: 217.

فكما ذهب إليه الباحثون أن الرسائل الديوانية تعنى بشؤون الأمة وتصدر من هيئة أو مؤسسة رسمية[1]، فإنه في الفترة التاريخية التي نحن بصدد دراستها كانت هذه الرسائل تصدر عن قيادات وزعمات حركة الجهاد الإسلامي في اسبانيا، محاولين عبرها إيصال صرخة استغاثة علها تجد آذانا صاغية فتلبي الدعوة، وتقدم ما يمكن تقديمه من دعم معنوي ومادي وعسكري، وحتى ديبلوماسي.

ولقد احتفظ لنا النتاج الأدبي النثري الذي خلفه مسلمو اسبانيا في هذا المجال مجموعة من الرسائل الديوانية التي توجه بها أصحابها إلى أهم القوى الإسلامية آنذاك موجهين إليهم صرخة عسى أن تلقى لها آذانا صاغية فتلبي نداءهم. ومن بين هذه النماذج نذكر الرسالة التي توجه بها قادة المقاومة الإسلامية في اسبانيا إلى السلطان العثماني سليمان القانوني سنة 948هـ/1541م فجاء نصها:"

**بسم الله الرحمان الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الكريم وعلى اله وصحبه، ويقبل مواطئ الأقدام الشريفة التي تراها، إذا مر بالعيون الرمدة ابراها، ورحاب الأكف الكريمة التي عطاها، إذا مر بالأرض الممحلة أثراها، أقدام شانها السعى في الخيرات والقربات،... وأوطاء (كذا) ركابها أعناق الملحدين والمتمردين، وأنعشه في كل وقت بنصر وفتح مبين، نسأل (كذا) الله تعالى أن يجعله أركابا لم يزل ممتطيا مطايا السعد محفوفا بالسعود، قطبا للسيادة السلطانية عليه تدور وبه تسود، وأن يجعله دائما باقيا في درجات العز والملك إلى آخر الدهر، مصونا في حرز كنف الله الحريز، وأن يخرق له العادة بطول بقائه وما**

[1]- من بين هؤلاء الباحثين نذكر: محمد طاهر كريم، من أدب الرسائل في المغرب العربي خلال القرنين السابع والثامن، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، د ط، 1993م. ص: 165. أيضا محمد الركيبي، تطور النثر الحديث، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، د ط، 1993م. ص: 44.

ذلك على الله بعزيز، ركاب حضرة الجود، وواق العز الممدود، ومعدن الرافة والحنان، وما من الخائف اللهفان، ومظمن أن الله يأمر بالعدل والإحسان، حضرة فخر الملوك البسيطة، كبير سلاطين الزمان، منيل أفانين الأماني والأمان، الملاذ الأعظم والثمال الأعصم، ذي العروة التي (كذا) لا تفصم، والحجة التي (كذا) لا يخصم، الذي يعترف له القاص والداني بالفضل على الإطلاق، يبوءه رتبة الأصالة والجلالة بالاستحقاق ولم لا فهو نسيم الخلافة العلية في منصب الوراثة، وحيز الفضلة السنية في من خدمة المساجد الثلاثة، وله ملك مصر وأنهارها، والشام وديارها، والحجاز وشرف مقامها، وإلى حضرته مجتمع الرفاق من الآفاق، وإليها تحج الأجسام بالرحلة والأفئدة بالأشواق، وعلى جمع الحضرة العليا لمحاسن الدين والدنيا، انعقد الإجماع والصفاق (كذا)، مولانا السلطان الملك الأشرف الأضخم الأرفع الأعرف الأعلم الأحلم الأرحم الأرف (كذا)، الأجود الأكرم الأسمح الأعطف، قامع الملحدين وقاطع دابرة الطغاة (كذا) والبغات (كذا) والمردة والمفسدين، ممهد طريق الحج والعمرة والزيارة، الفائز بشرف الدين والدنيا من جهاد في سبيل الله والسقاية في المسجد الحرام والعمارة، مطهر البسيطة من درن فسادها، ومطهر آيات الرأفة والرحمة في بلادها، سلطان الإسلام والمسلمين، عز الدنيا والدين وظل الله على الخليقة أجمعين السلطان بن السلطان سليمان بن السلطان سليم بن السلطان بايزيد بن محمد خان، مد الله ظلال النعمة بامتداد ظلاله، وضاعف لديه مواهب إكرامه وأفضاله، وأدام نجم سعده المنير الأشراق، وجعل ضده الحقير لازم الأخفاق بشهب الأولياء مجده من مردة النفاق، جميع الأقطار والآفاق، فهو الإمام

الهمام، والأسد الباسل الضرغام، الذي مهد الله تعالى بدولته البلاد، وأمن ببركة أيالته في مسالكها وممالكها العباد، ومزق به ثوب الفساد، وقطع بسيفه وسنانه وبادرتي قلمه الأعلى ولسانه دابر أهل العناد، فسعد الإسلام بدولته، واعتز دين الله العزيز في مدته، وخمدت نيران البغى بسعادته، وامتدت الأماني وشمل الأمان بحسن سياسته، نسأل (كذا) الله أن يصل لسيدنا ومولانا عادت (كذا) نصره وتمكينه ، ويريه قرة العين في دنياه ودينه وبعد: فإن عبيدك الفقر (كذا) المساكين المنقطعين بجزيرة الأندلس وجملة عدتهم ثلاثمائة ألف وأربعة وستون ألف منهم من رسايهم بغرناطة وغيرها خمسون والباقي من عامة المسلمين، رافعين شكواهم، وما يلاقون من بلواهم باكين متضرعين مستنصرين بعناية مولانا السلطان دام عزه ونصره لما أصبهم من أعداء الدين وطغاة المشركين، وما هم فيه من مكابدة الكفار، ومقاسات (كذا) التضييق والإضرار، وجور أهل الشرك أناء وأطراف النهار، وتحريقهم إيانا بالنار، قد تكالب العدو علينا ومدد السوء والضرر إلينا، وأحاطت بنا الأعداء من كل جانب، ورمونا عن قوس واحد بسهم صائب، وطالت بنا الأيام، وعاشت فينا يد النكاية والإيلام، وخذلنا جيراننا وإخواننا ببلاد المغرب من أهل الإيمان، وقد كان بجوارنا الوزير المكرم، والمجاهد في سبيل الله خير الدين وناصر الدين وسيف الله على الكافرين، علم بأحوالنا، وما نجده من عظيم أهوالنا لما كان في الجزائر، واجتمعت أهل الإسلام على إطاعة مولانا ومحبته بالخواطر والضمایر (كذا)، وانتظم العدل والشرع والأمان في البادي والحاضر، فاستغثنا به فأغاثنا وكان سببا في خلاص من المسلمين، من أيدي الكفرة المرتدين، ونقلهم إلى أرض الإسلام، وتحت

**ايالة طاعة مولانا السلطان ولعمارة مدينة برشك[1] وشرشال[2] ونواحي تلمسان[3]، فلما سمع الكافر اللعين بذلك ولم يقدر على منعنا بالسياسة والإهانة والحرق بالنيران، علم أنا اخترنا المصيبة في الأموال والأبدان، وأثرنا ديننا على سائر الأبدان، فلما صدقت الضمائر وبلغت القلوب الحناجر، خاف من عصبتنا واجتماع كلمتنا وتركنا أموالنا وأوطاننا وهجرتنا وفرارنا إلى بلاد الاسلام لسلامة ديننا، وتحاير في أمره، وجمع إليه أهل تدبيره وحزبه، فدبروا ومكروا وهل يحيق المكر السيئ إلا بأهله؟ واتفق رأيهم المعكوس، وتدبيرهم المنكوس، على قتال الجزائر، لئلا يبقى ببلاد المغرب لأهل الإسلام ناصر، فعاقبهم الله بعقاب أصحاب الفيل، وجعل كيدهم في تضليل، وأرسل إليهم ريح عاصف وموج قاصف (كذا)، فجعلهم بسواحل البحر بين أسير وقتيل، ولا نجا منهم من الغرق القليل، والآن اشتد غضبهم على أهل الإسلام، وهم يتوسلون بالرهبان والأصنام، ونحن نتوسل بسيد الأنام إلى موجب الوجود (كذا)، الجلال والإكرام، وهم عازمون (كذا) على الجزائر، والله تعالى هلكهم وينصر دينه وهو نعم الناصر، يا مولانا سلطان البرين والبحرين نصركم الله، المدد المدد لنصرة الجزائر لأنها سياج لأهل الإسلام وعذاب**

---

[1]- بريشك: مدينة صغيرة تقع بين مدينتي تنس وشرشال، ولعل موقعها هذا جعلها لا تقل حظا عنهما في استقبال المهجرين الأندلسيين. فقد كانت المدينة مركزا هاما لتجمعهم، فساعدوا على انتعاشها الزراعي والصناعي والتجاري. كما ساهموا في ازدهارها معماريا بتشييد المباني الأنيقة. ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج:1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، د ط، 1998م. ص: 178.

[2]- بعدما هجرها سكانها بسبب الحروب القائمة بين ملوك تلمسان، بقيت المدينة خالية قرابة مائة سنة إلى أن سقطت غرناطة سنة 987هـ/1492م فقصدها الغرناطيون وأعادوا بناء عدد مهم من دورها، كما جددوا القلعة الموجودة بها، ووزعوا الأراضي بينهم، ثم صنعوا الكثير من السفن، كما اشتغلوا بصناعة الحرير إذ وجدوا هناك كميات لا تحصى من أشجار التوت الأبيض والأسود تعيش فيها دودة القز. ينظر: الحسن بن محمد الوزان، وصف افريقيا، ج:2، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت: دار الغرب الإسلامي، د ط، 1983م. ص: 34.

[3]- لقد تمكن العثمانيون بقيادة عروج وخير الدين من انقاذ العديد من المسلمين الفارين من بطش واضطهاد السلطات الإسبانية، فكان أن استقر بهم الأمر في تلمسان حيث ساهموا بشكل فعال في تعمير وازدهار المنطقة. ينظر: يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، تر: عدنان محمود سليمان، تركيا: منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، د ط، 1988م. ص: 248.

**وشغل لأهل الكفر والطغيان... فنرغب ونطلب من مولانا نصره الله فيما يراه من ارساله لهذا الوطن إن رأى (كذا) في ذلك فيكون ذلك غاية الاحسان لجميع أهل الإسلام وقهر ونكاية لحزب الشيطان، وقد اتفق جميعنا رفع الشكوى إلى مولانا السلطان الأعظم سلطان الإسلام ولا زال بالعز موصوف وبالبهاء والنصر محفوف (كذا) بأن يغيثنا بارسال المجاهد خير الدين باشا (كذا) إلى الجزائر،... والسلام التام على المقام الشريف العالي ورحمة الله بتاريخ أوائل شهر شعبان أحد شهور سنة ثمانية ولأربعين وتسعمائة"**[1]

من خلال عرضنا لهذا النموذج من الرسائل الديوانية يتبين لنا مجموعة من المعطيات، لكن قبل الوقوف عليها يجب الإشارة إلى ثلاث ملاحظات مهمة:

– الملاحظة الأولى: عرض نص الرسالة دون التصرف فيه، إلا عند التدخل من أجل تخريج أحداث مهمة وردت في نص الرسالة.

– الملاحظة الثانية: تكمن في التساؤل الذي قد يطرحه البعض حول تصنيف الرسالة من حيث هي اخوانية أو ديوانية؟ ذلك أن هذه الأخيرة تصدر من هيئة رسمية نحو هيئة رسمية أخرى تحمل مشاغل الطرفين قد تكون سياسية أو اقتصادية أو ديبلوماسية. والمشكل الواقع في هذه الرسالة أنه لم يتبين لنا الطرف المرسل للرسالة، بينما نجد اشارة واضحة وجلية للطرف المرسل إليه.

والسبب في ذلك يعود في تخوف مسلمي اسبانيا من وقوع الرسالة في يد السلطات الاسبانية التي كانت تترقب تحركاتهم، ففي حالة الإشارة إلى أسماء، أو منطقة معينة قد تؤدي بكل سكانها إلى

[1]– جمال يحياوي، المرجع السابق. ص ص: 255. 260.

عقاب آخرته الموت حرقا، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن هناك الكثير من المصادر[1] والمراجع أكدت على وجود نظام "الجماعة" الذي كان يترأسه مجلس شوري يضم فقهاءهم وأعيانهم.

– الملاحظة الثالثة: تتضمن الدوافع التي كانت من وراء عرض معظم ما ورد في نص الرسالة، حتى وإن أخذ حيزا كبيرا، وهذا ليس من باب الحشو أو الاطناب، وإنما للضرورة العلمية المتمثلة في ابراز أهم خصائص ومميزات الرسائل الديوانية التي سادت العصر؛ وكذا التأكيد على أنها تمثل وثيقة تاريخية مهمة، قد يستفاد منها في التأريخ للحقبة.

في حين شملت مجموعة الاستنتاجات المستخلصة من الرسالة على ما يلي:

– دونت الرسالة باللغة العربية، تخللتها بعض الأخطاء اللغوية (النحوية والإملائية)[2]، كما لا يمكن وصفها بالعربية الجيدة، وذلك لما آلت إليه اللغة العربية في اسبانيا لما لاقته من مشاريع المسخ.

– تميزت الرسالة بوجود معاني وألفاظ تدل على الولاء والطاعة للخلافة العثمانية، واعتراف صريح بتبعيتهم لها[3].

– استعمـــال الكثير من العبارات والألفـــاظ الدينية[4]، رمزا على تشبث مسلمـــي اسبانيا

---

[1]– من بين هذه المصادر نذكر على سبيل المثال: أحمد بن قاسم الحجري، المصدر السابق. ص: 112

[2]– مثالا على ذلك نذكر استعماله للمفردات الآتية: "ضماير"، " صدقة"، " أصبهم"، " إطاعة". وتصحيحا لها تكون بالشكل التالي: " ضمائر" ، "صدقت"، "أصابهم"، "طاعة"

[3]– من بين النماذج الدالة على ذلك نذكر: "**يا مولانا سلطان البرين والبحرين**"، أيضا "**اتفق جميعنا رفع الشكوى إلى مولانا السلطان الأعظم سلطان الإسلام**". وكذلك هذه العبارة:" **يبوءه رتبة الأصالة والجلالة بالاستحقاق ولم لا فهو نسيم الخلافة العلية في منصب الوراثة، وحيز الفضلة السنية في من خدمة المساجد الثلاثة، وله ملك مصر وأنهارها، والشام وديارها، والحجاز وشرف مقامها**".

[4]– مثالا على ذلك نذكر العبارات التالية: "**ممهد طريق الحج والعمرة والزيارة، الفائز بشرف الدين والدنيا من جهاد في سبيل الله والسقاية في المسجد الحرام والعمارة، مطهر البسيطة من درن فسادها، ومطهر آيات الرأفة والرحمة في بلادها، سلطان الإسلام**". أيضا: " **في ذلك فيكون ذلك غاية الاحسان لجميع أهل الإسلام وقهر ونكاية لحزب الشيطان**".

بمقومات شخصيتهم الإسلامية رغم كل وجوه التنكيل والاضطهاد الممارس عليهم من طرف السلطات الإسبانية ـ السياسية والدينية وورود بعض التسميات السياسية[1].

– تميز أسلوب الرسالة بوجود خصائص ميزت الرسائل الديوانية، " فالدراسة الفنية للرسائل الرسمية تتمثل في بنيتها النموذجية، وفي الأسلوب". فهذه البنية تتشكل من عناصر أهمها:

*– المقدمة: تميزت بالطول والإطراء. واشتملت على البسلمة والصلاة على أشرف المرسلين[2]؛ كما ارتكزت على مدح الخليفة العثماني والتعريف بفضائله، وإظهار محاسنه[3]، وإبراز فضله على الرعية[4]، وإظهار الطاعة له والولاء والتبعية، والتنويه بخصاله الحميدة، والدعاء له بالخير[5] والنصر[6]، مستعملين في ذلك المحسنات اللفظية المتمثلة في الجناس[7].

*– العرض: أرخت هذه الوثيقة التاريخية لكثير من الأحداث مست الساحة الداخلية ـ اسبانيا والساحة الخارجية الجزائر على وجه الخصوص. فمن خلاله حاول كاتب الرسالة سرد وقائع الحرب

---

[1]- مثالا نذكر تكرار استعمال مصطلح" **السلطان**".

[2]– وردت بالشكل التالي: "**بسم الله الرحمان الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الكريم وعلى اله وصحبه**".

[3]– مثال على ذلك نذكر:" **ركاب حضرة الجود، وواق العز الممدود، ومعدن الرافة والحنان، وما من الخائف اللهفان، ومظمن أن الله يأمر بالعدل والإحسان، حضرة فخر الملوك البسيطة، كبير سلاطين الزمان، منيل أفانين الأماني والأمان، الملاذ الأعظم والثمال الأعصم، ذي العروة التي (كذا) لا تفصم، والحجة التي (كذا) لا يخصم، الذي يعترف له القاص والداني بالفضل على الإطلاق**".

[4]– مثال على ذلك النص الآتي: "**الذي مهد الله تعالى بدولته البلاد، وأمن ببركة أياله في مسالكها وممالكها العباد، ومزق به ثوب الفساد، وقطع بسيفه وسنانه وبادرتي قلمه الأعلى ولسانه دابر أهل العناد، فسعد الإسلام بدولته، واعتز دين الله العزيز في مدته، وخمدت نيران البغى بسعادته، وامتدت الأماني وشمل الأمان بحسن سياسته، نسأل (كذا) الله أن يصل لسيدنا ومولانا عادت (كذا) نصره وتمكينه ، ويريه قرة العين في دنياه ودينه**".

[5]– وردت الكثير من العبارات الدالة على ذلك، وعلى سبيل المثال نذكر:" **مد الله ظلال النعمة بامتداد ظلاله، وضاعف لديه مواهب إكرامه وأفضاله، وأدام نجم سعده المنير الأشراق، وجعل ضده الحقير لازم الأخفاق بشهب الأولياء مجده من مردة النفاق، جميع الأقطار والآفاق**".

[6]– ومما ورد حول هذه النقطة نذكر ما نصه:"**أدام الله أيامها ونصر أعلامها، وأوطاء أعناق الملحدين والمتمردين، وأنعشه في كل وقت بنصر وفتح مبين**".

[7]– **مثال ذلك نذكر العبارات التالية:" مد الله ظلال النعمة بامتداد ظلاله، وضاعف لديه مواهب إكرامه وأفضاله**".

الدائرة رحاها بين إسبانيا والجزائر، على أساس أن هذه الأخيرة كانت الممثل الشرعي للخلافة العثمانية على مستوى غربي البحر الأبيض المتوسط.

*- الخاتمة: انتهت بعبارة " السلام" وتقديم لتاريخ الرسالة بالتقويم الهجري.

من خلال هذه الدراسة النقدية للرسالة اتضح أنها رسالة ديوانية إذ حملت مشاغل الجماعة المسلمة في إسبانيا أناب عنها زعماؤها وممثلوها الشرعيين إلى السلطان العثماني[1]، ضمن سياقا خاصا عكس بطريقة جلية المستوى الديني والفكري الذي تميز بها مسلمو اسبانيا؛ كما عكس أيضا

---

[1]- رد السلطان العثماني على هذه الرسالة فكان جوابه كالآتي:" **وصل إلى أستانة سعادتنا عرض حالكم الذي جاء فيه أن الكفارة، دمرهم الله و أضلهم، قد سلبوكم أسلحتكم ومنعوكم من التحدث بالعربية، وأنهم يتعرضون لنسائكم ويمارسون كل أنواع الظلم والتعدي عليكم. وتعلمون أنه يوجد حاليا لديكم عشرون ألف رجل مسلم كما أن هناك مائة ألف رجل قادر على حمل السلاح. وعلمنا باستلامكم مقدارا من السلاح من الجزائر، وأن ذلك قد ربط على قلوبكم، وتمكنتم بذلك من تكبيد الكفار العديد من الخسائر. فالحمد لله على نصر أهل الإسلام، وليكتب لهم الفوز الدائم على الكفار، أضلهم الله. وقد عرض بالتفصيل كل ما جاء في عرض حالكم من تحريرات وتقريرات على سرير سعادتنا، وأحاط علمي الشريف الملوكي وشمل كل ما يتعلق بأحوالكم وأخباركم، وأن أنظاري منصرفة دائما نحوكم. ولكن كفرة جزيرة قبرص القريبة من ممالكي المحروسة، والتي كانت على العهد والامان منذ زمان اجدادي العظام... لذا بعد التوكل والإعتماد على علو عناية الحق سبحانه وتعالى و التوسل والإسناذ إلى المعجزات كثير البركات لفخر الموجودات صلوات الله عليه وسلامه. وكذلك بالإستمداد بالأرواح الطاهرة لسائر الصحابة الكرام، عليهم رضوان الله تعالى أجمعين، (أقول هذا لا يجوز. فالتوسل، والإعتماد والتوكل لا يكون إلا على الله وحده عز وجل. ولا أحد يستطيع لنا نفعا ولا ضرا إلا الله ولو كان ملكا مقربا أو نبيا مرسلا أوصحابيا جليلا أو وليا صالحا. وعجبي بمن يعرض عن الله و يدعو غيره من الاموات والأحياء لكشف ضر أو شفاء مرض. فقد استقرت نيتنا الملوكية على فتح و تسخير الجزيرة المزمورة في الربيع الأخر القادم. ونضرع إلى عتبة حضرة الحق جل وعلا أن ييسر لنا فتح وتسخير تلك الجزيرة وأن يبسط أيدينا عليها حتى تؤهل لأهل الإسلام، كما كانت عليه، وكي تقام فيها شعائر الشرع الشريف، وحتى يأمن التجار في غدوهم ورواحهم، ينصرفوا للدعاء بثبات ومجد ورفعة دولة. وبما ان الوضع على هذا الحال، فإن إرسال الأسطول الهمايوني المظفر لحمايتكم سيتأخر ريثما يتم إيصال المراكب للعساكر المنصورة للجزيرة المزبورة. وسيتم ذلك إثر إنهاء الأسطول لمهمته بعناية الحق. و قد أرسل أمري الهمايوني المؤكد إلى امير أمراء الجزائر الذي تتجه أنظاره و أفئدته نحوكم لإرسال النجدة و المعونة لكم, إما بإرسال العساكر المظفرة أو بإرسال العدة و العتاد, و بموجب أمري الشريف فإن أمير أمراء الجزائر سيكون خير معين و ظهير لكم. كما أننا نتوخى من خلال حميتكم الإسلامية المتأصلة في حلبتكم عدم التراخي عن إظهار غيرتكم على الدين المتين، فلتظهروا أنواع أخدامكم وأصناف اهتمامكم في الحرب والقتال و الجدال ضد الكفار الاذلاء..**". ينظر: . مهمة دفتري رقم 14 حكم رقم 231 بتاريخ 24 شوال عام 977هـ موافق لـ 20-1-1569م. نقلا عن: عبد الجليل التميمى، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين، تونس: منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والمويسكية والتوثيق والمعلومات، د ط. ص: 103.

مستوى الوعي السياسي الذي تمتع به هؤلاء في ظل الرهانات التي فرضت عليهم نموذجا خاصا من مسايرة الأحداث.

**2)– الرسائل الاخوانية:** تمثل الرسائل الإخوانية ذلك اللون المتبادل بين الكتاب بعيدا عن الطابع الرسمي، أو يعالج أغراضا تحمل الطابع الذاتي من تهنئة وتعزية، شكر أو اعتذار، وعتاب، أو توضيح مسألة؛ وما إلى ذلك من العلاقات الاجتماعية بين الأفراد. وهي تعكس جانبا مهما من الحياة الاجتماعية والفكرية والأدبية.

فقد سعت الرسائل الإخوانية من حيث الوظيفة إلى تحقيق الاتصال والتواصل بين الناس فكريا وجماليا، مثلها مثل أي ابداع أدبي يسعى إلى تحقيق عدد من الوظائف أهمها: الوظيفة الابلاغية، التعبيرية، والانفعالية[1]. وبلاد الأندلس مثلها مثل بقية دول العالم الإسلامي عرفت نشاطا ملحوظا في هذا المجال، وبقيت كذلك حتى اللحظة الأخيرة لسقوط غرناطة سنة 897هـ/1492م؛ ولأن الفترة التي تلت سقوطها كانت بمثابة تحول جذري مس كل المجالات، فكذلك تأثر النثر العربي الإسلامي بكل أشكاله لما عانته اللغة العربية من محاولات مستمرة لاقتلاعها واجتثاثها من أرض أجدادهم.

ومع هذا بقي مسلمو اسبانيا يجتهدون في ايجاد سبل تمكنهم من وضع أسس للتواصل الثقافي مع محيطهم الخارجي سواء على الصعيد الإسلامي أو النصراني، ذلك أن هذا التواصل سيسمح لهم من التنفيس عما كان يجول في صدورهم من أسى وألم على المحن التي تتالت عليهم مند عشية استسلام غرناطة وإلى غاية ساعة الطرد النهائي في الفترة الممتدة من سنة 1018هـ/1609م إلى سنة

[1]– شوكي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، د ب ن: دار المعارف، د ط، د س ط. ص: 491.

1025هـ/1614م.

من بين السبل التي وجد فيها مسلمو اسبانيا متنفسا لمصائبهم ومحنهم كتابتهم للرسائل التي اصطلح عليها عند المختصين في الأدب والبلاغة بـ " الرسائل الإخوانية"؛ فهذه الأخيرة مثلها مثل أي نتاج فكري عالجت مختلف القضايا الهامة التي كان يعيشها المسلم بإسبانيا الكاثوليكية؛ مع الأخذ بعين الاعتبار بأن عملية البحث عن مثل هذه الرسائل في التراث الفكري الذي خلفه مسلمو اسبانيا قد يكون صعب المنال، ومع هذا حاولنا إيجاد تقارب بين ما جادت به مختلف المصادر والمراجع، وما حملته الرسائل الإخوانية من مميزات وخصائص.

ومن بين الرسائل الإخوانية التي احتفظت لنا بها بعض المصادر التي عايشت الحدث التاريخي عن قرب تلك التي كتبها أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي إلى سلطان المغرب الأقصى مولاي أحمد بمراكش بتاريخ " أول عام ثماني عشرة وألف من الهجرة"[1] فجاء فيها ما نصه:

**قد علمت ما صنع، وعمل مع النصارى الجدد الاندلس أهل تلك السلطنة، وقشتالة على طول السنين الكثيرة الماضية مع التحريض، والارشاد لاثباتهم في ديننا المجيد وايماننا. ولا نفع معهم قليل ولا كثيرا لانه لم يجد فيهم واحد من هو نصراني حقيقة. والغرر والشر الذي يمكن ان يحدث بسبب ما تعامينا عليهم، قد ذكره الينا رجال وصلحاء، وانه لزمنا اصلاح ذلك الامر، لنرضى به الله، ونزل غضبه من اجل الامة، ... وأيضا بعثوا لاعدائنا البحرية بالجهة الشمالية التي تحت القطب، وأنعموا انهم يعينهم بسفونهم. وأما سلطان**

[1]- سنة 1018هـ الموافقة لـ 1609 م.

**اصطبول قد اصطلح مع السلطان الفرس، لأنه كان يشغله، وإذا اتفقوا جميعا مع هؤلاء نرو نفوسنا في الامر الذي لا يخفى. وللقيام بما لزمنا من حفظ مملكتنا، ودفع ما يعرض لها..."**[1]

**3)– رسائل المناظرات:** تعتبر المناظرات أحد أروع إنتاجات الفكر والمنطق، وأفضل الوسائل للإقناع أو الرد، لأن النفس البشرية بطبيعتها تميل إلى فهم الأفكار بشكل أفضل حين تتعرف على نقيضها، فلولا الظلام، لما عرف معنى النور، ولولا الشر لما عرف معنى الخير، وهذا هو تماما جوهر المناظرات، التي تبنى أساسا على الإقناع بصحة رأي إما لفساد الرأس الآخر، أو قوة الرأي بسبب إضعاف أسباب الاعتراض عليه.

من خلال وضع مقارنة بسيطة وسريعة بين الرسالة الاخوانية والديوانية التي تم عرضها سابقا نجد أنها اختلفت كثير عنها من حيث البنية النموذجية، بافتقارها لعدة عناصر شكلت فارقا واضحا بينهما، ومكنتنا من التأكد من صحة ما ذهبنا إليه عندما قررنا أن الرسالة المعروضة تصنف ضمن الرسائل الديوانية.

كما استنتجنا من خلال عرضنا لهذا النموذج من الرسائل . الاخوانية . التي تمت بين أحد مسلمي اسبانيا المدعو أحمد بن قاسم الحجري وسلطان المغرب الأقصى مولاي أحمد تبين أنه حتى من خلال المراسلات الشخصية التي كانت تتم بين مسلمي اسبانيا مع أحبتهم وأصدقائهم من الدول الإسلامية كانت تحمل بين طياتها همومهم وانشغالاتهم بمصيرهم المجهول الذي أخذ يتبلور إلى نهاية مأساوية، كانت طردهم واجتثاثهم من وطنهم الأم.

[1]– المصدر السابق. ص ص: 111، 112.

فقد كانت المناظرات ومازالت أحد أقوى سبل الإقناع بالمحاورة، وتعد من أفضل طرق الشرح حيث يتوفر فيها جانب جذب انتباه المتلقين، إضافة إلى وضوح الأفكار بسبب عرض الشيء ونقيضه، وكذلك رغبة كل طرف في الدفاع عن رأيه أمام خصمه مما يدفعه إلى بذل أقصى ما بوسعه ليحقق الأنصار لفكرته. فرسائل المناظرات هو نوع من الفنون الأدبية التي نشأت في بلاد المشرق وبلغت أوج ازدهارها في الأندلس؛ وهو فن أدبي نثري برع فيه عدد من كتاب الأندلس على درجة من التفاوت والتأنق[1]. وابتكروا موضوعات جديدة مستحدثة على أيديهم لم تكن معروفة لدى كتاب المشرق.

من خلال هذه الجزئية سنحاول القاء الضوء على الرسائل التي شملت المناظرات ذات الطابع الفكري. لأنها عبرت عن الجانب الفكري والديني في اسبانيا، كما أكدت نزعة مسلميها إلى التمسك بأصالتهم، والدعوة إلى الاهتمام بتاريخهم وثقافتهم في وقت كانت فيه الحوادث الخطيرة والهزات العنيفة تهدد هذه الشخصية بالزوال.

ولأن الظروف الاستثنائية التي سادت اسبانيا خلال القرنيين العاشر والحادي عشر هجريين الموافق للقرنيين السادس والسابع عشر ميلاديين لم تكن لتسمح بممارسة أي نوع من أنواع الحرية الفكرية، فقد حاول مسلمو اسبانيا مناقشة أفكارهم العقدية عن طريق مراسلات جمعتهم ببعض النصارى في بلدان إسلامية وأخرى أوروبية.

[1] – **المناظرات**: المناظرات بشكل مختصر هي تجمع لفريقين أو شخصين، غالبا في وجود جمهور من المتفرجين، يقوم كل من الخصمين بالدفاع عن وجهة نظر معينة، أو فكرة، أو رأي، أو أن يكون أحد الخصمين يسعى لإثبات الفكرة، والآخر يسعى لنفيها، ويقوم كل منهم بتأييد رأيه أو فكرته بالحجج المنطقية، والتفسيرات العلمية التي تخدم فكرته، ويكون لكل منهم فرص متتابعة في توضيح ما لديه، أو الرد على الطرف الآخر، وفي النهاية تتكون لدى الجمهور فكرة وقناعة بأحد الطرفين، إما لتغلبه بالوسائل المنطقية، أو لحسن أدائه في المناظرة.

من بين النماذج التي قدمتها لنا بعض المصادر التاريخية حول هذا النوع من الرسائل نذكر هذه الرسالة التي كتبها المدعو "مولينا" "Molina" الغرناطي **إلى أحد سكان مدينة "تروخيلو" "Trujillo" الاسبانية "دون جيرونيما دي لويزا" "Don Géronima de Loaysa" جاء نصها كما يلي[1]:**

**"... لتعتقد فضيلتك أن الطرد لم يكن من عمل ملك اسبانيا، بل هو ناتج عن وحي إلهي . فلقد رأيت هنا بالفعل تكهنات ترجع إلى أكثر من ألف سنة تنبئ بما سوف يقع لنا: وكنت أقرأ فيها بأن الله سوف يخرجنا من بلادكم ومن أجل ذلك سوف يغرس هذه الفكرة في عقل الملك وعقول مستشاريه، وأن عددا كبيرا من ذوينا سوف يهلكون برا وبحرا، وباختصار كل ما حدث فعلا كما تنص هذه التكنهات على أن الله سوف يأخذ على حسابه أقل إهانة تصيبنا وسوف يبعث ملكا يفرض ، بكلمة الله وحدها، سيطرته على العالم كله، وتعجز عنه الحصار والمدافع ، وهناك أشياء أخرى كثيرة لا أريد أن أذكرها هنا لكي لا أطيل . كما رأيت تكهنا آخر لمنجم بلنسي وقع نقله من بلنسية في السنة نفسها(*). إذن إن هذا الطرد هو معجزة حقيقية، فهو طرد لخرفان وديعة، كادحة ومجردة من السلاح من قبل الذئاب الجشعة. ولكن صدقني، إني لا أكتب هذا تحت الانفعال الناتج عن صدمة الإهانة، وإنما بنفس العقلية، كما لو كانت في اسبانيا، فلم يجبرنا هنا على القيام بأي عمل روحي أو مـادي مخالف**

---

[1]- لوي كارياك، ظاهرة التكهن علامة من علامات الهوية الموريسكية، تع: التميمي، ضمن السلسلة الرابعة : تراجيديا طرد الموريسكيين من الأندلس والمواقف الاسبانية والعربية الإسلامية، تونس: منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، 2011م. ص: 129.

*- كان ذلك بتاريخ 25 جويلية من سنة 1020هـ/1611.

**لما كنا عليه، وسوف أكون مسرورا لو قرأتم تكهنات القديس إيزيدور (Saint-Isodore)**[*].

من خلال هذا النص يحاول مسلمو اسبانيا اثبات هويتهم تجاه النصارى بإثبات شخصه ككائن متعلق بالدين أساسا، فيضع قدره في مخطط مقرر سلفا من عند الله لصالح مجموعته، وحتى لو بدا له بأن المظاهر هي التي تثبت أن العدو هو المسير للأحداث والصانع للتاريخ، فلابد من تجاوز هذه النظرة السطحية للأحداث؛ فالطرد ليس بانتصار فليب الثالث، وما هزيمة المسلمين إلا لحظة من المحن الضرورية التي تنبئ بمستقبل ملؤه الأمل فأمام الخوف الشديد المرتبط بالظرف(الحاضر)، يخلق التكهن حركية جديدة؛ فالرؤية التاريخية لمسلمي اسبانيا تبدو في حلقتين.

فأما الأولى فتتجلى في قرن المحن وسط المجتمع النصراني؛ أما قيمة هذه المحن، فتتمثل في عملية الطرد وظروفه المأسوية؛ لكن منذ تلك اللحظة بدأت الحلقة الثانية أي إقامة مسلمي اسبانيا بالأراضي الإسلامية، وسوف تتجلى هناك بكل وضوح هويتهم، لا فقط ببعدها عن الضغط بل وأيضا بفضل الانتصار النهائي على النصرانية بعد تصادم جديد؛ وسوف يبعث الله ملكا يسيطر على الأرض كلها.

كما نلاحظ تأثر صاحب النص بالتكهن النصراني الذي كان ظاهرة متفشية بينهم، فبالإضافة إلى ما ورد في هذا النص نذكر أسطورة ذلك الرجل الذي ظهر قبل أكثر من مائتي سنة في أوربا وألمانيا وذهب إلى الكنيسة ودرس في الفاتيكان يسمونه " انوستردامث " هذا الأخير كتب كتابا يتنبأ فيه

---

*- **القديس إيزيدور**: كان مطران إشبيلية. وقد تنبأ هذا المطران بأنه سوف يأتي ملك يذهب إلى بيت المقدس وسوف يموت هناك. إما أنه سوف ينتصر بكلمة الله وحدها وظهور هذا الملك هو أسطورة أيبيرية قديمة، تنتمي إلى مجموعة الأساطير، والشائعة أيضا في بلدان المغرب العربي. وهذا الملك المسمى " دون خوان " "Don Juan" ملك النمسا، وتارة فليب الثالث، فهو أيضا ملقب بداود الجديد ، وإن هذا الأخير هو مسيح عصر الابن علي الوجه الأكمل، ولافتتاح عهد "الألف سنة" الذي يمثل سلطان الروح ينتظر بروز داوود جديد تماما سوف تتجسم فيه، في الوقت نفسه، السلطات الزمنية والروحية.

بأحداث، وزعم أن ما تنبأ به ليس مجرد أخبار وآراء أو تنجيم وكهانة، إنما فيه أيضا من نور النبوة والوحي . على حد زعمه .، ويحتمل أن يكون قد أخذ الكثير مما ذكره عن كتب المسلمين الذين استندوا إلى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم على بعض الفتن والملاحم.

وهذا النوع من الرسائل يقوم على المجادلة بين شخصين، يدلي كل واحد بحججه وبراهينه ليثبت تفوقه على الآخر، معتمدا في ذلك على رصيده الثقافي ومخزونه التراثي من القرآن الكريم والأحاديث النبوية والتراث الإسلامي؛ ويعنى صاحبها بطرح مجموعة من الأدلة والجدل والحوار داخل إطار من الفلسفة والمنطق والاستدراك، وغرضه في ذلك إظهار براعته مستفيدا من ثقافته، وقدرته على الصياغة والاستدلال.

من خلال النماذج التي تم عرضها في هذا المبحث حول الأنواع المختلفة من النثر الأدبي حتى وإن لم نحط بكل أنواعه نظرا للمادة العلمية التي تخول لنا الحصول عليها فيمكننا الخروج بمجموعة من الاستنتاجات أهمها:

– عمل مسلمو اسبانيا على التعريف بمحنتهم والتأكيد على صمودهم من خلال مختلف الرسائل التي كتبوها وتركوه كتراث أدبي وفكري لمجموعة بشرية كتب عليها الاستشهاد في ظل الرهانات الدولية السائدة آنذاك.

– من خلال هذا النتاج الفكري تمكن مسلمو اسبانيا من إظهار مدى قدرتهم على الابداع حتى في ظل الأوضاع أقل ما يمكن وصفها بالمأساوية، في حين أكدت معظم الدراسات التاريخية والسسيولوجية أن انعدام الاستقرار السياسي، يؤثر بشكل مباشر وسلبي على كل ابداع فكري.

– عمد مسلمو اسبانيا على تقديم هذا النتاج الأدبي حتى يكون حجة صارخة ووثيقة تاريخية تؤكد صمود هذه الجماعة المسلمة في وجه النصرانية الكاثوليكية بكل ما تحمل هذه الأخيرة من عناصر ومكونات، حتى وإن كلفهم ذلك الموت حرقا.

## – المبحث الثاني: التاريخ وأدب الرحلة

إذا تتبعنا حركة الدراسات التاريخية في الأندلس، نجد أن الأندلسيين اعتنوا أكثر بكتابة التراجم، فقد نشطت حركة التأليف في هذا المجال نشاطا كبيرا خاصة في عصر الطوائف، حيث برز مؤرخون كان لهم جهدا بارزا في إثراء هذا العلم في مقدمتهم ابن حيان القرطبي (ت469هـ/ 1079م)، الذي عد من أعظم مؤرخي الإسلام، و هو من غير شك أعظم من أنجبته الأندلس، ويتضح ذلك من مكانة ابن حيان وما خلفه من كتابات ودراسات تاريخية قيمة، في مقدمتها "كتاب المقتبس" الذي تناول تاريخ الأندلس من الفتح العربي حتى عصر المؤلف تقريبا.

فقد حظي التأليف في التاريخ والتراجم باهتمام وعناية بالغين من طرف الأندلسيين، فظهر فيهم مؤرخون لامعون استطاعوا أن يمدوا حركة الدراسات التاريخية بالكثير من الجهود العلمية أمثال ابن أبي الفياض[1]، الذي عمل على تكوين الحس التاريخي والاستماع إلى الروايات وتقصي الحديث، كما حرص على الإسناد، و من بين تآليفه " كتاب العبر " الذي هو كتاب تاريخي بالأساس، لم يبق منه سوى قطعة صغيرة مخطوطة ونصوص متفرقة[2]، احتفظ بها بعض المؤرخين المتأخرين في

---

[1]– **ابن أبي الفياض**: ولد في مدينة أستجه "Ecija " سنة 375 هـ/ 989 م عاش و عمل في مدينة المرية، يعتبر ابن بشكوال الوحيد الذي أشار بشكل مقتضب لأصله و بعض شيوخه و مؤلفه في الخبر و التاريخ و وفاته سنة 459 هـ/1066 م. ينظر: عبد الواحد ذنون طه، نشأة التدوين التاريخي العربي في الأندلس، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ط: 1، 1988م. ص ص: 47 . 52.

[1]– عبد الواحد ذنون طه، المرجع نفسه. ص:52

مؤلفاتهم.

وسار على دربهم الكثير من المسلمين الذين بقوا في اسبانيا بعد سقوط غرناطة، فحاولوا التعبير على مكنوناتهم ورسم مسار محنتهم بالتأريخ لنضالهم الطويل وصمودهم المدهش أمام كل المحاولات لمسخ هويتهم الإسلامية؛ كما حاولوا تحفيز اخوانهم بضرورة التمسك بفكرة الجهاد الإسلامي المسلح الذي يعد سنة من سنن الرسول صلى الله عليه وسلم ومن بعده صحابته الكرام، وذلك عن طريق رصد غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم، تأكيدا منهم على فرضية الجهاد المسلح ضد الكفار هذا من جهة، ومحاولة لإقناعهم بتأييد الله سبحانه وتعالى إن هم أخلصوا له النية.

كما عمد البعض منهم على تدوين رحلاتهم بما اصطلح عليه عند المختصين بـ "أدب الرحلة"، سواء كانت هذه المؤلفات تعرض حياة هؤلاء في المواطن التي استقروا بها بعد فرارهم من اسبانيا، أو بعد عملية الطرد النهائي. كم نجد في البعض من هذه المؤلفات عرض تفصيلي وجغرافي لطريق الحج الذي اعتمده البعض من مسلمي اسبانيا لأداء فريضة الحج.

**1)– التأريخ لمواطن استقرارهم:** عرف ابن خلدون "التاريخ" بقوله: "**إنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من أحوال مثل: التوحش أو العصبيات، وأصناف التقلبات للبشر بعضهم مع بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش، والعلوم والصنائع...**".

والناظر في تعريف ابن خلدون يستطيع أن يتبين أنه أوجد للتاريخ أكثر من جانب: جانب ظاهري، وآخر باطني. الجانب الأول وهو الظاهري نستطيع اعتباره الجانب النظري، وهو لا يعدو أن يكون مجرد إخبار عن الأيام والدول القديمة والأمم الهالكة[1]؛ إلا أنه من حيث الجانب الباطني يعتبره نظرا وتحقيقا، وتعليلا دقيقا للكائنات ومبادئها. ومن ثم فهو يطلعنا على أسباب الوقائع والأحداث وكيفية حدوثها.

على هذا الأساس اهتم مسلمو اسبانيا بتدوين مسار محنتهم، وكشف حقيقة الكنيسة الكاثوليكية، التي لم تكن سوى أداة فتاكة للقضاء على كل ما يعرضها أو ينافسها، على رأسها الدين الإسلامي. فقد احتفظت لنا بعض المخطوطات الألخميادية والعربية على حد سواء ابداعات مسلمي اسبانيا في هذا المجال؛ ومن خلال هذه الجزئية لنا وقفة مع بعض النماذج منها مع الأخذ بعين الاعتبار بأن محاولة كهذه تحتاج إلى أن تكون بحثا قائما بذاته.

[1] – بدأ التدوين التاريخي فرديا وبسيطا، ثم انتشر وتنظم عبر ثلاث مراحل. فأما المرحلة الأولى فهي مرحلة التدوين الأولى هذه الأخيرة اتسمت بالطابع الشخصي العفوي وبالنقل عن الرواية الشفهية. فقد كانت الرواية الشفهية هي السائدة ومن حرص من السامعين علي تسجيل حدث بذاته عمل على تدوينه لنفسه، وربما بدأ ذلك النوع من التدوين مع بداية العصر الأموي ثم تحددت اتجاهاته وتنوعت بين تدوين للسيرة أو للأنساب أو للفتوح وغيرها، ومع ذلك بقي فرديا وشخصيا. وفي هذا المرحلة وجد الكثيرون من الرواة الشفهيين الذين ينقل عنهم أو يحفظ أقوالهم جمهور من العلماء والحفاظ في المساجد والحلقات، وبعض أولئك الرواة كانوا من أعلام العرب والمسلمين أمثال عقيل بن أبي طالب، وعمرو بن خوله، والأقرع بن حابس، وغيرهم كثير. ومن الواضح أن أولئك كانوا ممن عاصروا الجاهلية والإسلام وقد بلغوا الشيخوخة وهم يروون أحداثا شاركوا فيها، من هنا كان الاهتمام بالنقل عندهم وتدوين ما يسردونه من أحداث ينقصها التسلسل الزمني. في حين امتدت المرحلة الثانية خلال القرن الثاني كله تقريبا، مع نهاية العصر الأموي ومطلع العصر العباسي. اهتم أثناءها الاخباريون بجمع الأخبار المختلفة من جميع الأفواه والرواة ثم تنظيم كل نوع على حده ووضعه في كتاب خاص، وإن لم يبلغ التنظيم الشكل النهائي. وفي هذه الفترة كذلك كان الاهتمام إلى جانب السيرة بالجوانب التاريخية الأخرى عن العصر الجاهلي والأنساب والأمم السابقة .أما المرحلة الثالثة فهي مرحلة التدوين التاريخي على الأساس الزمني المتسلسل، وجمع المواضيع المتعاقبة على التوالي في كتاب واحد على أساس وحدة التاريخ الإسلامي ووحدة التاريخ الإنساني. وبدت بشائر هذه المرحلة في كتاب لابن اسحاق عن السيرة النبوية، ثم امتدت حتى نهاية القرن الثالث حتى استقرت وتوطد بها علم التاريخ الإسلامي ومنهجه في التدوين كما يظهر في كتب الحوليات وأهمها تاريخ الطبري. وقد ساعد على ازدهار التدوين وتنظيمه في هذه المرحلة الاهتداء لصنع الورق واستخدامه وانتشاره مما ساعد على التوسع في التدوين كما شجع على جمع المؤلفات الصغيرة السابقة في تاريخ عام متصل متسلسل، هذا مع انتشار حركة الترجمة والنقل عن الثقافتين الفارسية واليونانية .

فمن بين النتاج الفكري الذي خلفه مسلمو اسبانيا نذكر المخطوط الذي ألفه صاحبه بغية التعريف بتاريخ هجراتهم، والمناطق التي استقروا بها، وكيف كان لهم المقام في مواطنهم الجديدة[1]، وهل استطاعوا أن يتأقلموا مع أوضاعهم الجديدة، فلنا وقفة مع بعض النصوص من هذا المخطوط الذي ضم بين صفحاته تفاصيل قد تكون إجابة على كل هذه التساؤلات.

فنجد في المخطوط نصوصا استهدفت عرض الصفحات السوداء لمحاكم التحقيق، وإقامة شواهد المسلمين أمام تلك المحن؛ كما يعرض صاحب المخطوط التفسير الإسلامي للترحيل كحكم سماوي أتي ليمنح مسلمي اسبانيا حريتهم.

كما عرض المخطوط معلومات مهمة حول الولي الصالح "سيدي بولغايز أبو الغيث القشاش"[2] الذي رأى أنه كان من واجبه الدفاع عنهم من غضب التونسيين الجنوني[3]، الذين استاؤوا كثيرا من أطفالهم الذين رموا بالأوساخ في الزاوية التي أسكنوهم فيها[4]. ويذكر الرافعي بصورة تكاد تكون حرفية نص دفاع "سيدي بولغايز" الذي قال عنه بهذا الصدد:" **لو عرفت البناية من زارها لابتهجت ولقبلت آثار خطواتهم ولهتفت: مرحبا بكم أيها القوم الكرام النبلاء**"[5].

---

[1]- مخطوط، رقم 9653، نقلا عن: لوت لويات بالرات، غم المنفي الخفي ( شهادة مورسكي من تونس )، ضمن أعمال المائدة المستديرة تحت عنوان: **الأدب الألخميادو – المورسكي، تزاوج لغوي وعالم الاستطرادات اللامتناهي**، تونس: المعهد الأعلى للتوثيق، منشورات مركز البحوث في علوم المكتبات والمعلومات. ص: 25

[2]- وصفه أحمد بن قاسم الحجري "...**بالولي الشهير**... " وكان على تدين كبير. ينظر: المصدر السابق. ص: 55.

[3]- عبد الجليل التميمي، أبو الغيث القشاش، ضمن أعمال الندوة العالمية الأولى للجنة العالمية للدراسات المورسكية الأندلسية، المعهد الأعلى للتوثيق، تونس: منشورات مركز البحوث في علوم المكتبات والمعلومات، ع: 13، 1986. ص : 64.

[4]- ذكر أحمد بن قاسم الحجري بأن هذا الولي كان يقدم للمهجرين المسلمين كل يوم ما قيمته " **نحو ألف وخمسمائة قرصة من الخبز صدقة**". ينظر: المصدر نفسه. ص: 55.

[5]- نقلا من مخطوط: غم المنفي الخفي، رقم 9653، المرجع السابق. ص: 25.

أيضا نقل لنا صاحب المخطوط بدقة سياسة الحاكم العثماني على عهد عثمان داي[1] للفترة الفاصلة بين 996-1019هـ/1593—1610م بمساعدة "سيدي بلغايز". كما فصل في سرد الامتيازات التي منحها حاكم تونس لهؤلاء المهجرين[2] فكتب يقول في الموضوع: "... **وأعفى الداي المورسكيين من دفع الضرائب خلال السنوات الأولى لنزولهم بتونس وترك لهم أيضا من ناحية أخرى حق اختيار مكان إقامتهم بوطنهم الجديد الإسلامي...**" فكان التونسيون الجدد، حسب قول صاحب المخطوط "**جنودا دون رواتب خاضعة للسلطة التركية.**" [3]

وفي مقام آخر نلاحظ وصفا دقيقا للاحتفاظ بحق اللجوء الذي قرره كل من عثمان داي و"سيدي بلغايز" للمطرودين فكتب يقول "... **في أرض الإسلام تلك استقبلنا كل من عثمان**

---

[2]- **عثمان داي(ه)** /(1594. 1610م): انكشاري تركي قدم إلى تونس صحبة سنان باشا وارتقى إلى رتبة داي. من أهم انجازاته العمرانية القصر الذي أمر ببنائه؛ ويعتبر من أقدم القصور وأفخمها في تونس وقد جعله عثمان داي لاستعماله الخاص بعيدا عن القصبة ومشاكل الانكشاريين والمتمردين، وقد ذكرت المصادر التاريخية ان عثمان داي في قصره هذا إلى أن توفي عام 1019هـ/1610م.

[3]- من بين المسلمين المهجرين من اسبانيا واستقر بهم حال أمرهم في تونس، ولعبوا أدورا بارزة في تفعيل النشاط الاقتصادي بالإيالة نذكر المدعو محمود خزندار، من أصل أندلسي، طرد مع الذين طردوا من الأندلس بعد قرار النفي النهائي؛ عرف بنكته في إدارة سياسة البلاد، مما جعل حسين بن علي لا يحكم إلا بتوجيهاته ولا يتم أي شيء في الدولة إلا برأيه – شغل منصب وزير المالية. كان غنيا يملك العديد من العبيد. كما كان يهتم بأعمال الخير، إذ بنى مدرسة وزاوية بجانب داره وأوقف عليها عدة أجناس. كما لعب دورا بارزا في إنشاء المستشفى، بحيث كانت له وساطة مجدية بين النصارى الإسبان من جهة، والباي والسكان البلاد من جهة أخرى، مما سهل عليه مهمة تذليل الصعوبات والمشاكل؛ كما ساعد محمود خزندار خيمانات على القيام برحلات عديدة داخل البلاد، وذلك بتقديم يد المساعدة معنوية كانت أو مادية. توفي محمود خزندار في 26 أوت من سنة 1726م. أما الشخصية الثانية فهو المدعو الشريف القسطلي ينتمي هذا الأخير إلى عائلة " الكونترايس" من منطقة قشتالة. كان غنيا بفضل الغنائم البحرية التي تحصل عليها من عملية الجهاد البحرية التي كان يقوم بها مع رجاله. كما عمل في تجارة العبيد، فقد كان مالكا لأكبر عدد من العبيد بعد السلطة في الإيالة بطبيعة حال، وهي تجارة كانت تدر عليه أرباحا طائلة. من أهم أعماله نذكر تلك الوساطة التي قام بها بين السلطة التونسية الممثلة في شخص الباي والفرنسيين، وذلك حين أرسلوا بواخرهم إلى موانئ تونس وحلق الوادي سنة 1728م؛ كما كانت له عدة وساطات وتدخلات في مسائل داخلية تخص إدارة سياسة البلاد . كما كلفه الباي بإعادة بناء وتنظيم مستشفى المسلمين .إضافة إلى كل ذلك فقد كان له نشاط في قطاع الشاشيه، إذ كان يمتلك عدة معامل لصنع الشاشية بالباطان تحت تصرفه أو ضمن ممتلكاته. ينظر: مكيال دي إيبلزا، وثائق جديدة حول الأندلسيين، تع : نور الدين الحلاوي، تونس: المحلية التاريخية المغاربية ، ع : 15 – 16؛ جويلية 1979م. ص ص :137، 138. من خلال الدور الذي قام به هذان الشخصان : محود خزندار والشريف القسطلي نرى أنه كان لهما الدور نفسه الذي كان لعبه أسلافهم في القرن السابع عشر أمثال: مصطفى قردناش، لويس صا باطا، الشريف الأندلسي، محد الخيار علي الصوردوا.

[3]- نقلا من مخطوط: غم المنفي الخفي، رقم 9653، (المرجع السابق). ص: 25

**داي ملك تونس الذي كان شديد التواضع إلى حد أننا اعتبرناه لقمة سائغة واستقبلنا سيدي بلغايز بروحه الطيبة وقد حاولوا جميعا حسن معاملتنا مقدمين لنا الهدايا بكل حب وصداقة(*). وتراجع عثمان داي عن عادة دفع مائه إسكودو لكل مركب يرسى بالميناء جعلها بغية خلق روح المنافسة بين أصحاب المراكب..."**[1]

وأضاف مؤكدا بأنه في هذه المدينة تركت لهم حرية اختيار مكان استقرارهم مرغما البعض منهم على اختيار المهدية[2]، كما تم تموينهم بالقمح والشعير والأسلحة. ولم يكن ذلك ليدهشهم نظرا لما عرف به الداي عثمان من كرم وشجاعة[3]، فكتب ما نصه "**فقد علمت من أحد خلانه ما قاله له الملك وهو ملازم فراشه: عندما أشفي يجب أن نذهب معا إلى كل تلك الأماكن ونقدم لهم ما قد يحتاجونه**"[4]. كما أعفاهم من دفع الضرائب لمدة ثلاث سنوات، وهذا دليل آخر على توفير الظروف الملائمة والحياة الكريمة لهؤلاء المهجرين.

من خلال عرض مختصر لبعض النصوص التاريخية الواردة في المخطوط نلاحظ وصفا دقيقا لمجريات الأحداث التي عاشها مسلمو اسبانيا أثناء استقرارهم بإحدى دول المغرب ـ تونس ـ؛ كما أرخ

---

*- المعلومات نفسها أكدها أحمد بن قاسم الحجري، إذ كتب حول الموضوع يقول:" ...أكثرهم خرجوا بتونس، وكان عثمان داي أميرا فيها، وتكفل أمورهم بالسكنى في المدينة وغيرها في القرى، وأحسن اليهم غاية الاحسان ـ أحسن الله اليه .. ينظر: المصدر السابق. ص: 55.

[1]- نقلا من مخطوط: غم المنفي الخفي، رقم: 9653، (المرجع السابق). ص: 25.

[2]- **المهدية**: تتمتع المدينة بموقع استراتيجي مهم في تونس، هذا الموقع مكنها من جعل لها حصانة طبيعية. الفاطميون هم أول من اتخذوها عاصمة لحكمهم عند استقرارهم ببلاد المغرب وتمكنهم من تحقيق حلمهم الذي فشلوا في تحقيقه في بلاد المشرق.

[3]- من خلال استقرار مسلمي اسبانيا في تونس وإقامتهم بهذه الأخيرة يمكننا استخلاص بعض النتائج الإيجابية لذلك من أهمها، أن الأندلسيين حافظوا على طابعهم الذاتي خصوصا فيما يخص استعمال اللغة الاسبانية، إذ أن بعضهم كان قادرا على ترجمة كتب باللغة العربية إلى الإسبانية، وهو أمر ليس له نظير حتى في المغرب الأقصى. كما لعبت عدة شخصيات أندلسية دورا هاما في إدارة شؤون الإيالة، خاصة في أوائل العهد الحسيني، وهو أمر كان مجهولا إلى حد الآن، مما جعلنا ندرك أسباب تمركز الدولة الحسينية مدة قرنين ونصف، هو ما لم يكن ممكنا في طرابلس رغم بعض المحاولات.

[4]- نقلا من مخطوط: غم المنفي الخفي، رقم: 9653، (المرجع السابق). ص: 25.

بطريقة غير مباشرة للسيرة الذاتية للداي عثمان والولي " سيدي بلغايز". وبهذا يمكننا القول بأن مسلمي اسبانيا حاولوا نقل تفاصيل حياتهم في موطنهم الثاني بعدما حرموا وطردوا من موطنهم الأم.

**2)– قراءة تاريخية في مؤلفين – عربي وألخميادي –:** خلف مسلمو اسبانيا، ضمن سجلهم النثري، نتاجا أدبيا آخر، لم يلتفت إلى هذا الأمر، ليصر على تمحوره حول ذاته الخاصة وتقوقعه فيها؛ تشبثا منه بهوية مهددة. فقد سبق أن ذكرنا، بأن الأدب الأعجمي أو الألخميادو قد استجاب في أصله إلى هذه الاستراتيجية التي أملتها عليه سياقات وجوده التاريخية، المتميزة باضطهاد السلطات الدينية والسياسية الإسبانية له ولأهله، ومراهنتها على اجتثاثهم عن هويتهم واستيعابهم في هويتها والقضاء المبرم عليهم.

على هذا الأساس ووفقا لهذه المعطيات حاولت الفئة النخبة أو المثقفة إن صح التعبير . أن تدون تاريخها حتى لا تتركه لغيرها فيكتبه بالطريقة التي تحفظ له وجه مائه، آخذين بالنظرية التاريخية التي أكدت على أن تاريخ الأمم والشعوب يناله التشويه مرتين: الأولى عندما يكتبه الغالب، والثانية عندما يكتبه المغلوب، فيعكس الاثنان الوجه ونقيضه في صورة الحدث الواحد. إلا أن التشويه الأهم يحدث عندما تقبل هذه الصيغة أو تلك بلا مساءلة، والأسوء من الثلاث أن تترك الشعوب للشعوب الأخرى كتابة تاريخها، ثم تعود فتقبله وهي في حال من الانبهار على أنّه تاريخها الفعلي فيما هو حقيقة إعادة هندسة التاريخ.

هذا ما سوف يتأكد لنا من خلال دراسة استقرائية لنتاجين ألفهما وأبدعا فيهما رجلان مسلمان عايشا الأحداث ووقائعها فأرادا أن يكون عملهما رسالة إلى محيطهم الخارجي بشقيه

الإسلامي والأوروبي، هذا من جهة، كما أرادا تدوين مأساة الأمة الأندلسية الشهيدة التي عرفت أول تصفية عرقية ودينية عرفتها البشرية بالصورة التي طبقتها عليها السلطات الاسبانية.

وقد وظفنا في تقديمنا لهذا العنصر عبارة (دراسة استقرائية)، ذلك أن العملين لم يكن موضوعهما الأساسي التدوين التاريخي، وإنما الأول والموسوم بـ: "**ناصر الدين على القوم الكافرين**" لصاحبه "**أحمد بن قاسم الحجري**" كان عرضا مميزا لمجادلات ومناظرات وقعت لصاحب المؤلف مع اليهود والنصارى، كما كان وصفا جغرافيا لأهم المدن التي استقربها أحمد بن قاسم؛ فإذن النصوص التاريخية التي سيتم عرضها، هي نتاج قراءة متأنية بين الكم الهائل من المعلومات الخاصة بالجدال الإسلامي.

في حين سيكون المخطوط الثاني الذي سيكون أيضا نموذجا للإبداع والتأليف هو لصاحبه "**إبراهيم غانم**" والذي أسماه " **العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله**". كتبه صاحبه باللغة الألخميادية، وترجم له باللغة العربية أحمد بن قاسم الحجري. فمحتوى المخطوط كما يتبين مباشرة من عنوانه هو نتاج علمي اختص فيه مؤلفه بالتعريف بآلات الحرب وكيفية صناعتها، وصيانتها، والعمل عليها. ولهذا فالمعلومات التاريخية في هذا المخطوط ستكون في سياق الحديث عن الموضوع الأساسي لتأليفه هذا.

*– **قراءة في مخطوط باللغة العربية**: من خلال هذه الجزئية لنا وقفة مع مصدر يعتبر من أهم المصادر التي أرخت للمحنة الأندلسية، فصاحبها كان شاهدا على أحداثها، وكل مؤرخ يدرك مدى أهمية المعلومات المستقاة من مثل هذه المصادر؛ فهي تقدم لنا صورة تفصيلية حول الوقائع، التي

قد تسد عدة ثغرات من أي بحث يحاول تسليط الضوء على فترة من فترات أمة من الأمم.

هذا التقديم نخص به شخص المدعو "أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي" الذي جعل من كتابه الموسوم بـ "ناصر الدين على القوم الكافرين"، هذا الأخير كان بمثابة شهادة حية على عصره. فبالرغم من كونه اهتم أكثر بالمناظرات والجدال مع اليهود والنصارى، إلا أنه يلقي من خلاله أضواء جديدة على بعض ما عرف غرب البحر الأبيض المتوسط من أحداث خلال القرن السابع عشر. كما يجعلنا نتعرف فيه إلى بعض ظاهرة النهضة الأوربية، المتمثلة عنده فيما أنجزته بفضلها من تقدم علمي وتقني وعمراني واكتشافات جغرافية وإصلاح ديني.

وقد حاولنا قدر الامكان عرض نصوص تاريخية تصف أحوال المسلمين بإسبانيا قبل قرار الطرد أو خلاله. ومن بين النصوص التاريخية الواردة في المؤلف والدالة على الوحشية التي اتسمت بها محاكم التحقيق قوله ما نصه:"...**واذا ظهر على احد شيء من عمل المسلمين يحكمون فيهم الكفار الحكم القوي: يحرقون بعضهم كما شاهدت حالهم اكثر من عشرين سنة قبل خروجي منها...**"[1]

أما حول تحريم السلطات الاسبانية لتداول اللغة العربية بين مسلمي اسبانيا تخاطبا وكتابة وقراءة فكتب حول الموضوع ما نصه:"...**وكنت احضر معها، ولم يظهر للنصراني انني نقرأ العربية لما كانوا يحكمون فيمن ظهر عليه ذلك...**"[2] ثم يؤكد المعلومات نفسها في مقام آخر بقوله:"..

[1]- المصدر السابق. ص: 18.

[2]- المصدر نفسه. ص: 25.

**قال لي: القسيس الكبير أمر أن تمشي معي الى حضرته، قلت في نفسي: كيف الخلاص والنصارى تقتل وتحرق كل من يجدون عنده كتابا عربيا أو يعرفون أنه يقرأ بالعربية..."**[1]

كما أرخ أحمد بن قاسم لقضية طرد مسلمي اسبانيا، فكتب بهذا الصدد يقول: "...**ثم ثبت في المملكة مولانا زيدان ابن سلطان مولاي أحمد . رحمهما الله تعالى . وفي أيامه أمر السلطان النصراني ببلاد اشبانية . اعني بلاد الاندلس . المسمى بفليب الثالث . من اسمه . باخراج جميع المسلمين من بلاده، وابتداء ذلك كان لسنة ثمان عشرة وألف. وآخر من خرج منهم كان عام عشرين وألف. وكان الأندلس يقطعون البحر في سفن النصارى بالكراء..."**[2]

كما أبدى أحمد بن قاسم اعجابه وافتخاره بالعثمانيين فأرخ شهادته هذه بقوله:

"...**وكل واحد من السلاطين النصارى يرتعد ويخاف من سلاطين العظما العثمانيون التركيون. وقد تقدم لنا ذكر ما رأيت وفهمت من النصارى في بلادهم من الخوف العظيم الذي في قلوبهم منهم. ورأوا ملوك النصارى أنه يليق بهم صحبتهم على وجه اللين واللطف، حتى ان كل واحد منهم يبعث رسوله ليقعد على الدوام والاستمرار في القسطنطينية العظمى**[*] **يطلب منهم الصلح والرضى عنهم وهم . نصرهم الله . وخلد ملكهم، وجعل النصارى والكفار الاعدا تحت أقدامهم . لا يبعثون رسولا لكافر على وجه القعود في بلادهم، وصح أن سلطان اشبانية . هي بلاد الأندلس . أراد أن يبعث رسولا للقعود مثل سائر ملوك النصارى ولم يقبلوه، ولما**

---

[1]- المصدر نفسه. ص: 25.

[2]- المصدر نفسه. ص ص: 43، 45

*- يقصد من وراء كلامه السفرات والديبلوماسيين الذين كانوا يمثلون دولهم على مستوى الخلافة العثمانية.

**تحققوا من عداوته للاسلام، وغدره فيما مضى، مما صدر منهم مع سلطان الهنود المغربية بمدينة ميشق(*) المسمى متشمة(**)، اذا مشوا اليه بهدية، وقتلوه."**[1]

بالمقابل سجل أحمد بن قاسم شهادته الحية حول الحقد والبغض الذي كان يكنه لإسبانيا بكل ما تمثله من مؤسسات سياسية وعسكرية ودينية وحتى مدنية فكتب حول الموضوع ما نصه:" **والعهود التي عاهد المسلمين الأندلس حين أخذ بلادهم، ثم نكتها، وأن حين أمر على الأندلس بالخروج من بلاده كل من علم به أن يمشي الى بلاد المسلمين أخذ لهم الأولاد، كل من أقل من عشر سنين أو نحو ذلك،.. ولم يكن لسلاطين المسلمين أعداء ولا أضر من سلاطين اشبانية.."**[2]

ما يلاحظ على لغة الكتاب **أنها عكست الأحوال العصيبة التي كان يعيشها أفوقاي وإخوانه؛ إذ جرى تنصيرهم قهرا وتحريم استعمال اللغة العربية، وتجريمهم في حالة ما إذا اكتشف عمال محاكم التحقيق استعمال أحدهم للغة العربية سواء تخاطبا أو كتابة أو قراءة؛ فاللغة التي كتب بها أفوقاي هي اللغة العربية لكونه ألف كتابه في مناخ إسلامي بعد خروجه من إسبانيا، إلا أنها خضعت لاستعمال بعض الألفاظ العربية للنظام الصوتي الإسباني، وانتشار الأخطاء اللغوية والتراكيب الأعجمية للغة**

---

[1]- المصدر السابق. ص: 99.

*- **ميشق**: يقصد بها بلاد المكسيك.

**- **متشمة**: هو اسم لأحد ملوك الهنود الحمر.

[2]- المصدر السابق. ص: 99.

[3]- المصدر نفسه. ص: 99.

**العربية.**

فمؤلف الكتاب كان شاهد عيان على الأحداث المؤلمة التي عاشتها الجماعة المسلمة تحت حكم الاسبان الكاثوليك فحاول طرحها بالشكل الذي كان يراه مناسبا، فعمله هذا هو بمثابة وثيقة تاريخية سجلت لنا عن قرب مآسي الجماعة المسلمة تحت اضطهاد وتنكيل الممارس من طرف السلطات الاسبانية . السياسية والدينية .

***– استنباط أحداث تاريخية من خلال مخطوط ألخميادي:** يعتبر الانتاج المخطوط من أهم المصادر التي يمكن الاعتماد عليها في البناء التاريخي لأي موضوع، فمن خلاله يستطيع الباحث تقديم صورة تفصيلية لمواقف معينة، سواء كانت سياسية، اجتماعية، وثقافية، حول حقبة تاريخية معينة، بالرغم ما يعاب على مثل هذه المصادر من أنها تمثل رأي صاحبها، أكثر مما تقدمه من تفسيرات للظاهرة التاريخية المعالجة في المؤلف.

على ضوء ما تم طرحه سنحاول التعرف عن كتب عن مدى الثروة العلمية التي قدمتها المخطوطات الألخميادية في ظل غياب الكتابات العربية التي زامنت الحدث التاريخي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى في ظل طغيان الكتابات الإسبانية، التي مهما شكلت من رصيد مهم في تفسير الظاهرة التاريخية إلا أن تحمل سموما، كونها شكلت طرفا مهما وحاسما في ذلك الصراع الحضاري القائم في اسبانيا خلال القرنيين العاشر والحادي عشر هجريين الموافق للقرنيين السادس والسابع عشر ميلاديين.

بهذا الصدد سنحاول استقراء بعض النماذج من النصوص التاريخية من مخطوط الألخميادي

موسوم بـ"العز والرفعة والمنافع في المجاهدين في سبيل الله بالمدافع" لصاحبه "ابراهيم غانم". فمن خلال عنوان هذا المخطوط نستنتج أنه اعتمد على الأسلوب العلمي أكثر من أي أسلوب آخر، إلا أننا سنحاول ابراز الجانب التاريخي منه.

فمن بين النصوص التاريخية الواردة بين ورقات المخطوط، عرض قوة العثمانيين ومدى قدرتهم على فرض السيادة الإسلامية على دول الأوروبية، كما أكد على اعجابهم ودعمهم الكامل لهم، مع عرض فروض الولاء والطاعة، فكتب ابراهيم غانم بهذا الصدد ما نصه:

"... **سلطان سلاطين الاسلام والدين هو مولانا السلطان مراد ابن السلاطين العثمانيين رحمهم الله تعالى واعلى درجتهم في اعلى عليين سلطان البرين والبحرين ومصر والشام والعراقين وخديم الحرمين ايده الله بعزيز نصره وامده بمعونته ويسره وخلد جميل ذكره ونصره وجنوده في ذهابه وايابه بفضل اولياء الله واهل دينه وكتابه واعطاه رضى السلاطين المرحوم بكرم الله واجداده الذين اشهر الله بركاتهم في ارضه وبلاده حتى حصلت الروعة الموروثة خوفا منهم في قلوب النصارى والمشركين الكفار اهلكهم الله وافناهم واخزاهم وخذلهم ودمارهم اشد الدمار**"[1].

كما حاول تكذيب الأساطير النصرانية القائلة بقرب سقوط الخلافة العثمانية، فكتب حول الموضوع يقول:" **وقد شاهدت في كثير من بلادهم وكتبهم وتحققت من خاصتهم وعامتهم ان الخوف الذي في قلوبهم منهم لم يفارقهم في اليل والنهار وانقطع رجلهم الذي كانوا يرجونه**

[1]- المصدر السابق. ورقة رقم: 7.

**ان الدولة العثمانية يكون انقراضها عند السادس عشر من سلا طينهم واستدلوا بذلك من قول يوحنا الحواري الذي كتب ربع الانجيل ثم كتب كتابا مرموزا يسمى يَنْفلِبْشِ فتدولوا بعض رموزه على مقتضى غرضهم ومرادهم فاظهر الله بالبرهان ان قولهم كان باطلا وزورا اذ هو السلطان الموجود الان ايده الله ونصره عليهم الثامن عشر من السلاطين جاز الحساب وظهر الغلط فيما تدولوه من الكتاب وايضا تقول النصارى اعنى من اكابر علمايهم ان الانجيل ثلاث بركات ظاهرة الان فالواحدة منها ابن ببركاته هو يشغل الله السلاطين العثمانيين عنهم..."**[1]

كما أرخ صاحب المخطوط لفترة من تاريخ تونس فكتب بهذا الصدد يقول: "**تولى الامر بتونس المحروسة بالله فخر الامراء ومالك زمام الفضلا والكبر ابو المحاسن مراد داي دام الله عزه واسعد ايامه وقد ازال المناكر وغيرها ومن المشهورة منها ديار الخمر التي كانت قبل توليته ببيعه..ومن جملة ما رايت وتغيرت من اجل ذلك تغييرا كبيرا انفي الجامع السني الشهيرالبركة والثنا والذكر في الدنيا وهو جامع الزيتونة والامام يخطب والاولاد يلعبون في داخله ويرفعون اصواتهم في داخله ويرفعون اصواتهم حتى ان من كان قريبا منهم لا يفهم ما يقوله الامام في خطبته بسببهم...**"[2]

من خلال هذه النصوص التاريخية المستقاة من المخطوط يتبين مدى اهتمام مسلمي اسبانيا بالتأريخ للوقائع التي عايشوه، كما عبروا من خلال نتاجهم هذا على صراعهم القائم مع عدوهم اسبانيا، ومدى تعلقهم واعجابهم وولائهم للخلافة العثمانية، التي كانوا يرون فيها حامي الإسلام،

[1]- المصدر نفسه. ورقة رقم: 8.

[2]- المصدر نفسه. ورقة : 9.

وناصر المسلمين في شتى أنحاء العالم.

**3)– أدب الرحلة:** يعتبر أدب الرحلة ذلك الأدب الذي يصور فيه المؤلف ما جرى له من أحداث، وما صادفته من أمور أثناء رحلة قام بها لأحد البلدان. وتعد كتب الرحلات من أهم المصادر الجغرافية والتاريخية والاجتماعية؛ ذلك أن الكاتب يستقي المعلومات والحقائق من المشاهدة الحية، تجعل من نصوصه ذات مصداقية.

وقد عرف المسلمون عموما، والأندلسيون على وجه الخصوص أدب الرحلات منذ القدم[1]، وكانت عنايتهم به عظيمة في سائر العصور. ويعد القرن السادس الميلادي وما يليه من أكثر القرون إنتاجا لأدب الرحلات. وهنا يطالعنا ضمن النماذج العديدة[2].

وقد اقتدى مسلمو اسبانيا حدو هؤلاء، بالرغم من الظروف القاسية التي عانوا منها، والتي كانت ستشكل عائقا أمام قدرتهم على الابداع لولا إرادتهم القوية وعزيمتهم الكبيرة على محاولة تغيير مصيرهم الذي لم يتقبلوه ولم يخضعوا له. وقد قسمنا هذا النتاج الفكري إلى صنفين: فأما الأول

---

[1]– لعل من أقدم نماذجه الذاتية، رحلة التاجر سليمان السيرافي بحرا إلى المحيط الهندي في القرن الثالث الهجري، ورحلة سلام الترجمان إلى حصون جبال القوقاز عام 227هـ، بتكليف من الخليفة العباسي الواثق، للبحث عن سد يأجوج ومأجوج، وقد روى الجغرافي ابن خرداذبه (ت 272هـ) أخبار هذه الرحلة. ثم تأتي رحلات كل من المسعودي (ت346هـ) مؤلف مروج الذهب، والمقدسي صاحب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، والإدريسي الأندلسي في نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، هذا إلى رحلة الرحالة المؤرخ عبد اللطيف البغدادي (ت 629هـ) وتأتي رحلة البيروني (ت 440هـ)، المسماة تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، نموذجًا فذًّا مخالفًا لكل ما سلف، إذ تُعد وثيقة تاريخية هامة تجاوزت الدراسة الجغرافية والتاريخية إلى دراسة ثقافات مجتمعات الهند قديمًا، ممثلة في لغاتها وعقائدها، وعاداتها، مع عناية خاصة باللغة السنسكريتية، وهي لغة الهند القديمة، إذ يتناولها البيروني بالتحليل، ويقارن بينها وبين اللغة العربية على نحو جديد. وقد أعانه على ذلك إتقانه اللغة السنسكريتية، وثقافته الواسعة، وميله إلى التحقيق والدقة، فضلاً عن إقامته الطويلة بالهند، حيث قاربت الأربعين عامًا. وكان البيروني قد دخلها برفقة السلطان محمد الغزنوي عند فتحه الهند، ثم انطلق سائحا متأملا.

[2]– كما نجد لابن خلدون، في أدب الرحلات، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب وصف فيه مشاهداته في بلاد المغرب، خلال نفيه إليها، وهو في ثلاثة أجزاء. هذا بالإضافة إلى كتاب ابن خلدون (807هـ) التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا وهو مزيج من السيرة الذاتية وأدب الرحلات مكتوب بلغة سلسة، مع وصف دقيق لرحلته إلى كل من بلاد الأندلس حين أقام فيها منفيا، وبلاد الفرنجة حين أوفده أحد أمراء بني الأحمر إليها، ثم مصر التي أقام فيها قرابة ربع قرن متقلّبا بين مناصب التدريس والقضاء.

فسيقودنا إلى وصف دقيق لرحلة الحج[1] قام بها أحد مسلمي اسبانيا؛ فيما سيختص الصنف الثاني من هذا الأدب بوصف البلدان الأوروبية والإسلامية التي تنقل إليها البعض منهم لينقلوا لنا عبرها تجاربهم وأهم الأمور التي استخلصوها من هذه الرحلات.

ولعل أهم من بين أهم نتاج حول أدب الرحلة ذلك الذي ألفه احمد بن قاسم الحجري والذي لم يعثر عليه بعد، والذي نعده ضمن أهم مفقودات الأدب الأندلسي المتأخر. ونقصد بذلك كتابه الذي ألفه بمصر وسماه بـ "رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب".

ولقد ذكر ذلك في مقدمة كتابه: ناصر الدين على القوم الكافرين، معرجا على دواعي تأليفه ومحتوياته. إلا أنه قد تم العثور على النبذة التي اختصرها الحجري بنفسه لهذا الكتاب ووضع لها عنوان ناصر الدين على القوم الكافرين. وهو السيف الأشهر على كل من كفر، وأنها قد حققت ونشرت مرتين كما سبقت الإشارة إلى ذالك.

فقد وفق الحجري في مؤلفه هذا إلى أن يجعلنا نسافر معه ونرحل من الأندلس إلى مراكش، ومنها إلى فرنسا، ثم إلى هولندا ومن بلاد فرنسا، لينقلنا بعد ذلك إلى مصر، ثم إلى تونس. وصحيح كذلك أنه جعلنا نعيش معه مختلف تجاربه في هذه الأقطار، وملاحظاته وتقويماته لمختلف مناحي الحياة بها.

ومن بين النماذج التي وردت في مؤلفه فيما يخص تخريج بعض المدن الإسلامية نذكر:

[1]- شاع من أدب الرحلات في تراثنا . أدب الرحلات الحجازية، منها الرحلة الحجازية للبتانوني، ورحلة شكيب أرسلان الموسومة بـ "الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف"؛ وهي تمضي، بشكل عفوي، على طريقة القدماء، وفيها قابل الملك عبد العزيز، وسجل لنا صورة عن إعجابه بشخصيته، كما اعتبر موسم الحج فرصة لاجتماع الصف الإسلامي وتحقيق الوحدة الإسلامية.

"...**مراكش، هي مدينة كبيرة وفواكهها كثيرة، وعنبها ليس في الدنيا مثله. عرضها احدى وثلاثون درجة ونصف. وطولها تسع دراج، لانها قريبة من الجزر الخالدات المسماة الآن بقنارية، ومنها ابتدأ الطول...**"[1]

أما فيما يخص نموذج من تخريج بعض المدن الأوروبية نذكر وصفه لمدينة أمستردام فكتب عنها يقول:"...**بلغنا مدينة مسترضام، رأيت العجب في حسن بنيانها، ونقائها، وكثرة مخلوقاتها، كاد أن تكون في العمارة مثل مدينة بريش بفرنجة...**"[2]

من خلال عرضنا لهذين النموذجين، ومثلهما كثير، إذ لا يسعنا في هذا المقام إلا التعريف بهذا النوع من التأليف عند مسلمي اسبانيا، إذ بالرغم من كل الظروف القاسية التي واجهتهم إلا أنهم أظهروا صمودا وابداعا لا نظير له، سجلوا من خلاله حضورهم بالرغم من المحاولات المستمرة للسلطات الاسبانية بإيقاف عجلة التاريخ لهذه الأمة الشهيدة مع تسليم غرناطة.

فعلى الرغم من كون الحجري فد اختار نوع الرحلة من الأنواع الأدبية، مثلنا عليه بهذه الرواية، فإن هذه الآداب، لم تقصر بدورها في الانفتاح على ذاك الأدب والتفاعل معه، وفي ذلك ما يبرز قدرتهما جميعا على تجاوز الاختلافات والاحتقانات بين أهليهما، لمواكبة البعد الإنساني المشترك بينهما و التعبير عنه.

ويكفي في هذه العجالة، للتمثيل على هذا الأمر والتدليل عليه مرة أخرى، لينتظم فيه تأليفه

---

[1]- المصدر السابق. ص: 43.

[2]- المصدر نفسه. ص: 105.

لكتابه ناصر الدين على القوم الكافرين، فإن ذلك لم يمنعه من استثمار هذا النوع الأدبي في خدمة هدفه الأصلي من وضع هذا الكتاب الذي تتوافر فيه عناصر المعيار التصنيفي الذي يسمح بإدراجه ضمن المتن الرحلي.

# الفصل الثالث

# الشعر أنواعه وأغراضه

## المبحث الأول: لمحة تاريخية حول الحركية الشعرية في الأندلس

1)_ خصائص الشعر الأندلسي

2)_ التطور التاريخي للشعر الأندلسي

## المبحث الثاني: شعر الرثاء في قصائد مسلمي اسبانيا

1)_ شعر الرثاء مدلوله وخصائصه

2)_ نموذج من الشعر الأندلسي في رثاء المدن

3)_ وصف الشاعر للمحنة الأندلسية

## المبحث الثالث: الاستغاثة، المدح والجدل الديني والسياسي في أشعر مسلمي اسبانيا

1)_ شعر الاستغاثة

2)_ شعر المدح

3)_الشعر في المجادلة الدينية والسياسية

ظهر الشعر الأندلسي في ظروف مختلِفة عن مثيله في الشرق، ظروف اتصلت بطبيعة الأندلس وتنوعها، وأخرى بالتكوين الثقافي للسكان، فلأول مرة يلتقي الجنس العربي مع أجناس لاتينية وقوطية وأمازيغية ويهودية على أرض واحدة، وتتعايش تحت سمائها الأديان السماوية الثلاثة: الإسلام واليهودية والنصرانية، فيسمع صوت المؤذن إلى جانب رنين أجراس الكنائس والبيع، وتتحدث العربية إلى جانب الأمازيغية، الإسبانية والكتلانية والعبرية، فنشأ من هذا التعايش بين هذه الأديان والأجناس والثقافات واللغات جو خاص وحضارة فذة.

فالشعر الأندلسي لم يكن وقفا على الشعراء وحدهم وإنما شاركهم في نظمه وإلى حد الإجادة أحيانا كثيرون من أهل البلاد على اختلاف أهوائهم ومشاربهم وبعد ما بينهم وبين الأدب ومن حيث أعمالهم وتخصصاتهم وقلما خلت ترجمة أندلسي من شعر منسوب إليه سواء أكان المترجم له أميرا أو وزيرا أو كاتبا أو فقيها أو نحويا أو فيلسوفا أو طبيبا أو غير ذلك.

ولعلهم كانوا مدفوعين إلى ذلك بما فطروا عليه من محبة الشعر وبتكوينهم الثقافي المؤسس على علوم العربية وآدابها ثم طبيعة الأندلس الجميلة وبكل ما يضطرب فيها مما يحرك العواطف ويستثير الخيال. وقد نظم الأندلسيون في جميع الشعر العربي وزادوا عليه بعض فنون اقتضتها ظروف بيئتهم وأوضاع مجتمعهم.

ويمكن تقسيم الفنون التي قالوا فيها الشعر إلى ثلاث مجموعات: الأولى مجموعة الفنون التقليدية التي جاروا فيها شعراء المشرق وإن اختلفت طريقة التعبير فيها عندهم في بعض أجزائها وهذه الفنون هي: الغزل والمدح والرثاء والحكمة والزهد والاستعطاف والهجاء والمجون.

والثانية مجموعة الفنون التي لا تخرج عن كونها من الفنون التقليدية أيضا ولكنهم توسعوا بالقول فيها لوجود مقتضيات هذا التوسع ودواعيه في مجتمعهم وتتمثل هذه الفنون في: الحنين وشعر الطبيعة ورثاء المدن والممالك والشعر العلمي. والثالثة مجموعة الفنون الشعرية المحدثة التي لم يسبقوا اليها وهذه هي الموشحات والأزجال وشعر الاستغاثة أو الاستنجاد. وكل هذه الفنون الشعرية جمعت بينها سمات عامة مشتركة ثم ينفرد كل فن بعد ذلك بسمات خاصة تميزه وفقا لطبيعته.

ومن سمات الشعر الأندلسي العامة غلبة الوصف الشعري والخيال عليه والميل في طرائق التعبير إلى الأساليب البيانية من تشبيه واستعارة وكناية وإلى بعض الأساليب البديعية كالطباق والمقابلة وحسن التعليل والمبالغة وإن كانوا يخرجون بها أحيانا إلى الغلو وأغلب معانيهم تتسم بالحدة والطرافة، أما ألفاظهم فتتميز بالسهولة والوضوح والعذوبة وقلما يعثر الانسان في شعرهم على لفظة حوشية غريبة او لفظة تنبو عن الذوق أو تعاف الاذن صوتها.

وبهذا احتل الشعر لدى الأندلسيين مكانة عظيمة، و صار يمثل تقريبا السمة الأدبية العامة في الأندلس، ثم أن الطبيعة الأندلسية أعطت دفعا كبيرا في تألق الحركة الشعرية، فقد اتصفت الأندلس بالطبيعة الساحرة، من مياه جارية وجبال خضراء وجنات تزهو بخضرة أشجارها ورونق أزهارها، هزت مشاعرهم، كما أثارت ملكاتهم الفكرية.

وكما هو متعارف عليه أن الحركة العلمية والأدبية بصورة عامة تتأثر بالأوضاع السياسية، فبعد سقوط الأندلس ظهرت معالم ومعطيات جديدة غيرت مجرى حياة الأندلسيين الذين كانوا على أيامهم السابقة سادة في وطنهم، فهل تأثرت الحركة الشعرية بالوضع الجديد الذي آل إليه مسلمو

اسبانيا بعد سقوط دولتهم؟ وهل أبدع مسلمو اسبانيا في أشعارهم مثلما فعل أسلافهم؟ وهل سعت انتاجهم الشعري على خدمة قضيتهم أم كانت بعيدة كل البعد عن مشاغلهم واهتماماتهم؟ هذا ما سنحاول الوقوف عنده عبر هذا الفصل الذي سنحاول من خلاله رسم مسار التاريخي للإنتاج الشعري عند مسلمي اسبانيا.

- **المبحث الأول: لمحة تاريخية حول الحركة الشعرية في الأندلس**

لم يتخلف الشعر العربي عن تسجيل بعض الأحداث المهمة للعرب قبل الإسلام والعرب والمسلمين بعده؛ وبهذا كان الشعر أحيانا يقوم مقام الوثيقة التاريخية على قدر ما يمكن للنص الشعري أن يقوم به من رواية وأخبار، وعلى قدر ما يستطيع الشاعر نفسه من التوفيق والتنازل والتعبير، بل نستطيع أن نؤكد بأنه هناك الكثير من النصوص الشعرية كانت مصادر توثيقية مهمة لكثير من الأحداث التاريخية.

ويمكن أن يشار بهذا الصدد، إلى ما كان يسمح به الشعر من روايات تاريخية بشأن أهم الأحداث التاريخية في العصور الإسلامية المتتابعة كما فعل المتنبي في وصف معركة سيف الدولة الحمداني، وكما فعل أبو تمام في وصفه لفتح العمورية على يد المعتصم، وفي هذا المجال لم يتخل الشعر الأندلسي عن هذا الدور في تسجيل بعض الأحداث التاريخية المهمة التي مرت بها الأندلس في العصور المختلفة.

**1)- خصائص الشعر الأندلسي:** ارتبط مصطلح "الشعر" بالتذوق والأحاسيس واللغة واللسان و المعرفة و الثقافة و لا يشترط توفر هذه الأنواع دفعة واحدة بنسب متساوية بل قد تكون

متباينة من حين لآخر، ومهما اختلفت التعاريف ،فإنها تتوحد في نقل الإشارة إلى شيء واحد هوان الشعر يترجم ما هو داخلي من تصورات وأفكار إلى الآخرين باستعمال مفردات اللغة، وتلك التصورات أو بالأحرى نسميها أغراضا.

فقد وصف أبو العباس عبد الله بن محمد المعروف بـ "أبي شرشيشر (ت 293هـ)[1] الشعر بأنه: "**قيد الكلام، وعقال الأدب وسور البلاغة ومحل البراعة، ومجال الجنان، ومسرح البيان، وذريعة المتوسل، ووسيلة المترسل، وذمام الغريب، وحرمة الأديب وعصمة الهارب، وعذر الراهب، وفرحة المتمثل، وحاكم الأعراب وشاهد الصواب**"[2].

لهذا كان الشعر ديوان العرب كما قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وتبوأ مكانة مرموقة عند القبائل العربية "لأنه مجمع عاداتهم، ومأثر أيامهم، ومجسد أحوالهم العقلية"[3]. فقد كان فرحة هذه القبائل تتعاظم اذا ما نبغ فيها شاعر "لأنه حماية لأعراضهم وذب عن أنسباهم وتخليد لمآثرهم, وإشادة بذكرهم"[4].

---

[1]– **أبو العباس**: ينتهي نسبه بشمالة، وهو عوف بن أسلم من الأزد). ولد في 10ذو الحجة من سنة 210 هـ/ 825/م، وتوفي عام 286هـ/899 م)؛ هو أحد العلماء الجهابذة في علوم البلاغة والنحو والنقد، عاش في العصر العباسي؛ كان واحدا من العلماء الذين تشعبت معارفهم، وتنوعت ثقافاتهم لتشمل العديد من العلوم والفنون، وإن غلبت عليه العلوم البلاغية والنقدية والنحوية، فإن ذلك ربما كان يرجع إلى غيرته الشديدة على أصله العربي واللغة العربية وآدابها في عصر انفتحت فيه الحضارة العربية على كل العلوم والثقافات، وظهرت فيه ألوان من العلوم والفنون لم تألفها العرب من قبل. تلقى العلم في البصرة على يد عدد كبير من أعلام عصره في اللغة والأدب والنحو منهم :أبو عمر صالح بن إسحاق الجرمي، وكان فقيها عالما بالنحو واللغة، وأبو عثمان بكر بن محمد بن عثمان المازني الذي وصفه "المبرد" بأنه كان» أعلم الناس بالنحو بعد سيبويه«، كما تردد على الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، وسمع منه وروى عنه حتى عد من شيوخه، وأخذ عن أبي حاتم السجستاني، وكان من كبار علماء عصره في اللغة والشعر والنحو، كما تلقى عن التوزي– أبو محمد عبد الله بن محمد–، وكان من أعلم الناس بالشعر.

[2]– حسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، بيروت: دار الثقافة، ط:3، 1981م. ص:64.

[3]– محمد عزام، قضية الالتزام في الشعر العربي من العصر الجاهلي وحتى عصر الانحطاط، دمشق: دار طلاس، ط:1، 1989م. ص:103.

[4]– ابن رشيق أبو علي الحسن المسيلي، العمدة في محاسب النقد وآدابه، ج: 2، القاهرة: مطبعة السعادة، ط:2، 1955م. ص:65.

والشعر الأندلسي الذي يعتبر جزء لا يتجزأ من الشعر العربي تميز بطابع خاص، لاسيما في الفنون الشعرية الذي امتازت بالوصف ورثاء الممالك الزائلة والاستنجاد بالرسول وكبار الصحابة ونظم العلوم والفنون والشعر الفلسفي، كما امتازت معانيه وأفكاره بالوضوح والبساطة والبعد عن التعقيد والتلميح إلى الوقائع التاريخية ولاسيما في رثاء الممالك الزائلة.

أما ألفاظه وعباراته فقد كانت واضحة وسهلة، فقد تجنب الشعراء الأندلسيون الغريب من الألفاظ واهتموا بالصنعة اللفظية، كما انتزعوا تصويره وخياله من البيئة الأندلسية الغنية بمظاهر الجمال الطبيعية وتزاحم الصور، أما بالنسبة للأوزان والقوافي فقد التزموا بوحدة الأوزان والقوافي بدايةً ، ثم ابتدعوا أوزانا جديدة لانتشار الغناء في مجالسهم ونوعوا في القوافي ومن ذلك الموشحات.

إن موسيقى الشعر ممثلة في أوزانه وقوافيه هي سمته الواضحة التي لا غموض فيها ولا ايهام، وهي التي تضيف إلى الكلمات حياة فوق حياتها، وهي تصل بمعاني الشعر إلى قلوبنا بمجرد سماعه[1]، "فالصوت والنغم جانب هام للتجربة في الشعر[2].

وتنقسم موسيقى الشعر في القصيدة العربية إلى قسمين :خارجي، ويتألف من الوزن والقافية. وداخلي، وهذا النوع من الإيقاع ينسحب على تناغم الجمل والألفاظ والحروف. ولا يمكن بأي حالٍ من الأحوال الفصل بين قسمي الموسيقى؛ لأن الإطارين الموسيقيين الخارجي والداخلي لا يعملان كل على حدة، ولكنهما يتفاعلان، ويتآزران في تكامل بنائي ينتج عنه إيحاء شعوري مؤثر.

إن الموسيقى الداخلية ذات أهمية كبرى فهي تكسب النص الشعري بعدا تأثيريا قادرا على

---

[1]– عبد العزيز عتيق، النقد الأدبي، بيروت : دار النهضة العربية، د ط، 1972 م. ص: 171.

[2]– محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، ط ٣، الاسكندرية : الهيئة العامة المصرية للكتاب، ط:3، 1978 م. ص: 305.

شد السامع والقارئ إليه، والإيقاعات الداخلية تظهر قدرة الشاعر على انتقاء كلماته والملاءمة بينها، وتظهر اهتمامه بالجرس اللفظي للكلمات الذي تنبعث عنه النغمات الموسيقية العذبة الشجية.

وعنصر الموسيقى الشعرية في القصيدة له شأن كبير في الدلالة على مدى تدعيم العلاقات الداخلية بعضها لبعض، كما أن له دوره الضخم في التعبير والتأثير، والموسيقى الداخلية تقوم بتحديد دقيق لنوع الانفعال الذي يعمل داخل الشاعر والذي يريده أن ينتقل عبر عمله الأدبي. فموسيقى الشعر لم يضبط منها إلا ظاهرها وهو ما تضبطه قواعد علمي العروض والقافية، ووراء هذه الموسيقى الظاهرة موسيقى خفية تنبع من اختيار الشاعر لكلماته وما بينها من تلاؤم في الحروف والكلمات، فكأن للشاعر أذنا داخلية وراء أذنه الظاهرة، ولذلك فإن الموسيقى الداخلية هي التي تفرق بين بيت وبيت في قصيدتين من وزن واحد وقافية واحدة.

إن الصورة الشعرية هي المنبع الأساسي للشعر وهي فكرة وشعور ولغة وموسيقى وخيال، تنقل إحساس الشاعر إلى المتلقي فتثير انفعاله وتؤثر في فكره ووجدانه بحيث تجبره على الاستجابة العاطفية أو النفسية المطلوبة، فالمهم أن تتآلف عناصر هذه الصور في نسق يقبله العقل، وينتسب بعضها إلى بعض في تركيبات.

**2)– التطور التاريخي للشعر الأندلسي**: مر الشعر الأندلسي مثله مثل الشعر العربي بصورة عامة بأطوار حددها المختصون بثلاثة مراحل، تميزت كل مرحلة بخصائصها ومميزاتها، على أنه يجب الأخذ بعين الاعتبار أن الحركة الشعرية في بلاد الأندلس لك تكن بمنأى على ما كان عليه في بلاد المغرب أو المشرق معا.

فأما المرحلة الأولى فبدايتها كانت منذ الفتح حتى أوائل القرن الخامس الهجري الموافق للقرن الميلادي، خلالها وصف الشعر الأندلسي بأنه كان التقليد لأدب المشرق، ولم يكن هذا التقليد عجزا عن الابتكار، وإنما كان لشعور الانتماء إلى الأصل كشعر ابن عبد ربه، وابن هانئ وابن شهيد[1]، وابن دراج القسطلي[2].

في حين بدأت المرحلة الثانية منذ القرن الخامس الهجري الموافق للقرن أين جمع الشعراء بين التجديد والأخذ بشيء من التقليد، ويمثل هذا التطور شعر ابن زيدون[3]، وابن عمار، والمعتمد بن عباد، وابن الحداد، والأعمى التطيلي.

أما المرحلة الثالثة فامتدت من القرن السادس الهجري الموافق للقرن الثاني عشر الميلادي وما بعده، خلال هذه المرحلة صور الشعراء بيئتهم، وبرزت العوامل الأندلسية الذاتية كما يتبين ذلك في شعر كل من الشعراء أمثال ابن حمديس، وابن عبدون، وابن خفاجة، وابن سهل[4]، وأبي البقاء

---

[1]– **أبو عامر بن شهيد**: المتوفي عام 426هـ/1035م. كان ندا لابن حزم، ويكبره بعامين وتربطهما صداقة وطيدة، يدعمها التوافق في المزاج، والتقارب في الأهواء، ووحدة الطبقة، فكلاهما وزير وابن وزير ولكن ابن شهيد لم يفارق قرطبة كصاحبه، وعاش نهاية أيام مركز الخلافة عن قرب، وشهد مأساتها كاملة، وصوته لا يبلغ قرطبة من بعيد، وإنما يصدر من أعماقها بين الأطلال وأكوام الخراب، وجاء صدى لهذا الواقع، ولم يملك ابن شهيد غير أن يدعو لها بالغيث ينزل بساحتها ويحي رياضها، ويأسى على ما كان من أيامها وسلامها، وما عمرت به من علماء وأدباء. ينظر: زكريا عناني، المرجع السابق. ص ص: 215, 216.

[2]– **ابن دراج القسطلي**: (متنبي الأندلس) 347هـ-421هـ.هو أحمد بن محمد بن العاصي، وكنيته أبو عمر ينحدر من أسرة بربرية (من صنهاجة) ذات رئاسة في قسطلة، إلى حد أن هذه البلدة التي تقع الآن في البرتغال تذكر أحيانا باسم قسطلة دراج. وأول شعر معروف له قاله وهو في الخامسة والثلاثين من عمره، في مدح المنصور العامري أي سنة 382 وهي حافلة بالنضج والحيوية. ينظر: المرجع نفسه. ص ص:78، 79.

[3]– **ابن زيدون** (394هـ/1003م- 463 هـ/1071م) :هو أحمد بن عبد الله بن أحمد بن أحمد بن غالب بن زيد المخزومي" شاعر أندلسي. برع في الشعر كما برع في فنون النثر، حتى صار من أبرز شعراء الأندلس المبدعين وأجملهم شعرا وأدقهم وصفا وأصفاهم خيالا، كما تميزت كتاباته النثرية بالجودة والبلاغة، وتعد رسائله من عيون الأدب العربي. ولد الشاعر سنة (394هـ/1003م) بالرصافة من ضواحي قرطبة، وهي الضاحية التي أنشأها "عبد الرحمن الداخل" بقرطبة، واتخذها مقرا لحكمه، ونقل إليها النباتات والأشجار النادرة، وشق فيها الجداول البديعة حتى صارت مضرب الأمثال في الروعة والجمال، وتغنى بها الكثير من الشعراء. ينظر: المرجع نفسه. ص ص:97، 98.

[4]– **ابن سهل: هو الشاعر الرقيق الوشاح إبراهيم بن سهل الإشبيلي الأندلسي وكان يلقب قبل إسلامه بالإسرائيلي كان يهوديا وأسلم ومات غرقا سنة 649هـ/1248م**. ينظر: المرجع نفسه. ص: 216.

الرندي[1]، وابن حاتمة الأنصاري، ولسان الدين بن الخطيب، وابن زمرك، ويوسف الثالث ملك غرناطة، وابن فركون، وعبد الكريم القيسي البسطي.

فقد أولع الأندلسيون بكل ما هو شرقي[2]، وبسبب هذه المحاكاة للمشارقة في أساليبهم ومعانيهم قيل للرصافي ابن رومي الأندلس، ولابن دراج متنبي المغرب، ولابن هانئ متنبي الأندلس، ولابن زيدون بحتري المغرب والأندلس. وكانت ظاهرة الانتقاء من التراث من خصائص الأدب الأندلسي، فكانوا يضمنون قصائدهم أقوال السابقين وأشعارهم وأمثالهم وما صادف هوى في نفوسهم.

كما لقي حب الجديد صدى مستحبا في نفوس الأندلسيين، فلم يتقيد أغلبهم بأساليب الأعراب ومعانيهم وأوصافهم، ولم تكن لغتهم محكمة كلغة المشارقة والأقدمين لبعد صقعهم عن البادية، ولوجود جيل لم يكن عربيا صرفا، وقد نفروا من الألفاظ الوحشية إلى الألفاظ المأنوسة الرقيقة، وكانت القافية الواحدة، وأوزان العروض الستة عشر ومثلها أكثر المعاني والأساليب المتوارثة قوام الشعر التقليدي في الأندلس.

---

[1]- **الرندي**: هو صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن أبي القاسم بن علي بن شريف الرندي الأندلسي. من أهل (رندة) قرب الجزيرة الخضراء وإليها نسبته. من حفاظ الحديث والفقهاء. كان بارعا في منظوم الكلام ومنثوره، مجيدا في المدح والغزل والوصف والزهد، ولكن شهرته ترجع إلى قصيدة نظمها بعد ضياع عدد من المدن الأندلسية. وفي قصيدته التي نظمها يستنصر أهل العدوة الإفريقية من بني مرين لما أخذ ابن الأحمر محمد بن يوسف أول سلاطين غرناطة يتنازل للإسبان عن عدد من القلاع والمدن إرضاء لهم وأملا في أن يبقى له حكمه المقلقل في غرناطة. ينظر: زكريا عناني المرجع نفسه. ص: 99.

[2]-يعتبر الشعر في الأندلس امتداد للشعر العربي في المشرق ؛ فقد كان الأندلسيون متعلقين بالمشرق ، ومتأثرين بكل جديد فيه عن طريق الكتب التي تصل إليهم منه، أو العلماء الذين يرحلون من الشرق أو الأندلسيين الذين يفدون إلى الشرق للحج أو لطلب العمل، فقد كانت الاتصالات العلمي والأدبي قوية بين مشرق العالم الإسلامي ومغربه. فقد كان الأندلسيون ينظرون إلى المشرق وما يأتي منه نظرة إعجاب وتقدير؛ فكانوا في غالب أمرهم مقلدين للمشارقة، ويبدو ذلك واضحا في ألقاب الشعراء وفي معارضاتهم لشعراء المشرق. ولكن هذا التقليد لم يمنعهم من الإبداع والابتكار، والتميز بميزات تخصهم نتيجة لعوامل كثيرة، أهمها البيئة الأندلسية الجديدة الجميلة التي طبعت الأدب الأندلسي بطابع خاص.

وما من شك فيه أن الشعر تبوأ في عصر الطوائف مكانة مرموقة حتى علا شأنه، فإذا كانت قرطبة في عهد الخلافة الأموية تمثل مرجعية للشعر، فإنها وجدت منافسة شديدة من طرف مدن أخرى، بل عاشت عزلة في بعض الأحيان أمام إشبيلية وسرقسطة وألمرية بطليوس، وتجمع المصادر على أن إشبيلية قد سرقت الأضواء في ظل بني عباد و صارت المرجعية الأولى للشعر والفن، فكان التنافس بين الملوك وتشجيعهم للشعراء ماديا ومعنويا، دافعا كبيرا لنمو الحركية الشعرية.

رغم الانقسام السياسي وحالة الفوضى الذي عرفته بلاد الأندلس على عهد ملوك الطوائف، إلا أن هذه الحقبة التاريخية اعتبرها الكثير من المختصين عصر نهضة للآداب خاصة الشعر، حيث تنافس الملوك في جذب الشعراء نحو بلاطاتهم، وغدت قصورهم أماكن للاجتماعات الفكرية[1].

ومن بين الشعراء الذين ساهموا في إثراء الحركة الشعرية في الأندلس على عهد ملوك الطوائف نجد المعتمد بن عباد[2] كنموذج للمساهمة الأرستقراطية، فأشعاره التي حفظتها كتب ابن بسام في ذخيرته والمقري في نفحه، تدل على قمة الشعر النوعي، فالملك الشاعر يعتبر بلا ريب من أعظم شعراء الطوائف، و كيف لا يكون كذلك و بنو عباد يمثلون المرجعية الشعرية في الأندلس، يضاف إلى ذلك وراثته للشعر، فأبوه المعتضد ورث له مع التاج القلم أيضا[3].

كما ساهم بنو الأفطس ملوك بطليوس في الحركة الشعرية، حيث كان بلاطهم خاصة في

---

[1]- إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، بيروت: دار الثقافة، ط :2، 1962م .ص:78

[2]- **المعتمد بن عباد:** هو أبو القاسم محمد بن عباد، ولد في مدينة باجة غربي الاندلس. كان يتقلب في بداية امره باسم الظافر المؤيد بالله، ثم تحول الى المعتمد بعد توليه العرش سنة461هـ/1097م ولا يعرف شيء عن أمه. تمرس منذ شبابه على الاعمال العسكرية والسياسية. وعندما آل اليه الملك سنة461هـ/1097م لم تصرفه أمور الدولة عن الشعر والشعراء. ينظر: محمد زكريا عناني، المرجع السابق. ص ص: 111-114.

[3]- أنخل جنثالث بالنثيا، المرجع السابق. ص: 211.

عهد المظفر وولديه عمر والمتوكل، مركزا للشعراء؛ كما لعب المعتصم بن صمادح دورا كبيرا في رقي الشعر، فقد كان ولداه يحي الملقب برفيع الدولة وأبو جعفر الملقب برشيد الدولة[1]، و ابنته أم إكرام من ألمع شعراء العصر[2]، حيث تعتبر المجالس الأدبية التي كان يعقدها في قصره من الأدلة التي تثبت على وجود نشاط شعري كبير.

من خلال تتبع الحركة التاريخية لتطور الشعر في بلاد الأندلس عبر مراحل مختلفة، تميزت تارة بالاستقرار، وأحيانا كثيرة بالاضطراب والقلاقل، تأكد لدى الباحث أن النشاط الشعري لم يتوقف، وابداع الشعراء في مختلف صنوف الشعر تركت دواوين كانت محل بحث وتحليل من طرف المختصين.

## – المبحث الثاني: شعر الرثاء في قصائد مسلمي إسبانيا

لا شك في أن الشعر العربي الذي كان وعاء للمشاعر العربية والأحداث التاريخية المهمة، واستمر في هذه المهمة الخطيرة والحساسة، بعد سقوط الأندلس بمدة قصيرة، وحاول أن ينقل لنا بشيء من الإخلاص مشاعر مسلمي اسبانيا، وما عانوه من مرارات، وأن يؤرخ لنا بعض الوقائع والأحداث المهمة؛ وإذا كان علينا أن ننظر بشيء من الحذر إلى النصوص الشعرية بشكل عام بوصفها وثائق، فإن علينا كذلك، أن نستشف ما يصدق مما تنقله هذه النصوص وتحتويه من معلومات من شأنها أن تدعم الحقائق التاريخية وتقويها.

**1)– شعر الرثاء مدلوله وخصائصه:** الرثاء بصورة عامة هو تعداد خصال الميت بما كان

[1]– عبد الله عنان، دول الطوائف، (المرجع السابق). ص:430

[2]– لقد كان الشعر النسوي أهم ميزة اتسمت بها الساحة الأدبية في عصر الطوائف، ويبدو ذلك من خلال عدد الشاعرات اللواتي غلب على شعرهن الغزل والهجاء ووصف الطبيعة. ينظر: الطاهر أحمد المكي، المرجع السابق. ص:84.

يتصف به من صفات كالكرم والشجاعة والعفة والعدل والعقل. كما يصف حالة التفجع على الميت والتأسي والتعزي. وقوام القصيدة الرثائية بنية تتألف من عناصر أربعة ترد متراتبة على النحو التالي:

– العنصر الأول وبه يتم الاستهلال وهو حتمية الموت.

– العنصر الثاني وهو التفجع ومن معانيه تحديد أسباب الفاجعة(كيف حصل موت المرثي) وزمانها ومكانها ثم إبراز تأثير الفاجعة في أهل المرثي وفي الراثي الشاعر.

– ثم العنصر الثالث وهو التأبين، ويكون بتعداد خصال الميت وترد مختلفة باختلاف سن المرثي فإن كان شابا أو كهلا ترصد معاني تأبين مخصوصة قائمة على الشجاعة والعفة والعدل والعقل والكرم وإن كان طفلا فإن المعاني تأتي ضامرة، ورمزية، مدارها على البراءة والطهر والغضاضة والنضارة وإن كان شيخا فإن التأبين سينهض على معاني الوقار والتوبة والورع، وإن كان امرأة فله معان تخص محاسن النساء الخلقية والخلقية.

– أما العنصر الرابع والأخير فيتضمن التأسي والتعزي.

**1)– مدلوله اللغوي والشعري:** لا يختص شعر الرثاء بالإنسان فقط، فهناك رثاء المدن والممالك، ورثاء القصور ورثاء مظاهر الحضارة الإسلامية كما في رثاء الأندلسة وغيرها. وهناك أيضا رثاء من نوع آخر كرثاء الراثي ذاته الذي غدا مرثيا، فتحول الرثاء بذلك إلى اغتراب وحنين وشعور بالغم الوجودي وتزييه بنزعة تأملية فلسفية؛ ويمكن أن نصادف هذا النوع من الرثاء لدى البعض من الشعراء أمثال ابن حمديس الصقلي.

***– المدلول اللغوي:** ارتبط المدلول اللغوي لمصطلح "الرثاء" عند علماء اللغة بالميت

والبكاء عليه. وهما في الأصل مصدر للفعل (رثى) فيقال: "رثيت الميت رثياً ورِثاءً ومرثاةً ومرثية"[1]"؛ وقد أخذ مدلول الرثاء يرتبط بالقصيدة الشعرية، فيقال "رثَيْتُ لفُلان: رقَقتُ". ومن الباب قولهم رثى الميت بشعر. ومن العرب من يقول: رَثَأْت. وليس بالأصل".

وأما اصطلاحا فالرثاء في الأصل ناشئا من الحزن والأسف، وقد وصفه ابن رشيق[2] فكتب يقول بهذا الصدد: "وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع بين الحسرة، مخلوطا بالتلهف والأسف والاستعظام"[3].

فقد حاول الانسان أن يصور حزنه وألمه بفقدان عزيز عليه في نظمه لقصائد شعرية، عرف هذا النوع بشعر الرثاء؛ وقد أخذ شعر الرثاء مكانة وسط الإبداع الشعري العربي بصورة عامة، والشعر الأندلسي على وجه الخصوص، لما اقتضت الحاجة لوجوده، وهو يعني باختصار: "تعداد مناقب الميت وإظهار التفجع والتلهف عليه[4]. وانقسم الرثاء إلى صنفين: رثاء الأشخاص ورثاء المدن.

فالنوع الثاني من الرثاء . رثاء المدن . يصور لنا علاقات الشاعر الإنسان بالوطن والأحباب والجيران وما وراء ذلك من ذكريات عزيزة على القلب، ملتصقة بالروح، فيعز فراقها، ويصعب

---

[1]- ابن منظور، المصدر السابق، ج: 5، كتاب الراء فصل(رثى). ص: 149

[2]- **ابن رشيق: هو** أبو علي الحسن بن رشيق المعروف بـ "القيرواني". ولد بالمسيلة بالجزائر سنة 390 هـ/1096م ونشأ بها وتعلم هناك، أبوه مملوك رومي من موالي الأزد. وكان يعمل في المحمدية صائغا، فعلمه أبوه صنعته، وهناك تعلم ابن رشيق الأدب، وفيها قال الشعر، وأراد التزود منه وملاقاة أهله، فرحل إلى القيروان سنة 406هـ/1064م واشتهر بها ومدح صاحبها واتصل بخدمته، ولم يزل بها إلى أن فتح المسلمون القيروان، فانتقل إلى جزيرة صقلية، وأقام بمازرة إلى أن توفي سنة 456هـ/1064م له كتب عدة منها :كتاب العمدة وكتاب الانموذج والرسائل الفائقة والنظم الجيد. ينظر: زكريا عناني، المرجع السابق. ص: 192.

[3]- أبو علي الحسن ابن رشيق، العمدة في معرفة صناعة الشعر ونقده وعيوبه، ج: 2، تح: محمد محي الدين، ايران: مطبعة حجازي، د ط،1934م. ص:140.

[4]- السيد أحمد الاشي، جواهر الأدب في الأدبيات وإنشاء لغة العرب، ج:1، د ب ن: دار الجيل، د ط، د س ط. ص :402.

تناسيها، فيترجم بذلك الانسان أحاسيسه هذه على شكل قصائد يرثي بها وطنه الذي ضيعه أو ضاع منه.

*– **مميزات شعر الرثاء:** يكتسب الرثاء أهميته في الشعر العربي عموما والشعر الأندلسي على وجه الخصوص من أنه غرض يرتبط بالوجدان من ناحية لتعبيره عن مشاعر اللوعة والفقد ومن ناحية أخرى لأنه حمال للقيم شأنه شأن المدح.

فالصورة الكلية في شعر الرثاء عبارة عن مشاهد متتالية في القصيدة تستغرق غالبا أبياتا عدة، وقد تمتد لتشمل القصيدة كلها، ويجمع فيها الشاعر بين التعبير الحقيقي والتعبير المجازي ليشكل منهما بعد تآزرهما الصورة الكلية، وهي في الغالب تأتي في شعر رثاء الأدباء لتصور مواقف الحزن والأسى، أو تأتي لتنقل بعضا من صور الذكريات التي كانت تربط بين الشاعر ووطنه الأندلس الضائعة. وبهذا يمتاز شعر الرثاء" بأن يكون شاجي الأقوال، مبكي المعاني، وأن يكون بألفاظ سهلة"[1].

كما يمتاز شعر الرثاء بصوره المتتابعة، فهذه الأخيرة تأتي بعضها إثر بعض لتكوين مشهد معين من مشاهد شعر الرثاء سواء كان هذا المشهد متعلقا بالراثي أو المرثي أو غيرهما، وتبرز هذه المشاهد ألوانا من الصور البصرية والسمعية والحركية يتتابع بعضها خلف بعض.

ففي مضمون هذه النوع من القصائد نجد تتابع الصور حتى تشكل في الختام لوحة تمثل سقوط المدن الأندلسية جميعها، وأن مسلمي اسبانيا لا يملكون شيئا إلا ما قدموا في حياتهم. وعموم

[1]– حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب ابن الخوجة، تونس :المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، د ط، 1966م. ص: 351.

الصور وعدم خصوصيتها جعل خطابها عاما لجميع الأمة الأندلسية الشهيدة.

وتمتاز البنية الشعرية للقصائد بوجود صور متقابلة وللتقابل في شعر الرثاء ظهور واضح، إذ أنه شعر وقع لتدبر الحياة والموت معا، وفي الحياة إيجاب وفي الموت سلب، ومن بين الإيجاب والسلب ظهرت أغلب صور الرثاء من خلال ثنائيات عدة من قوة وضعف، ويعمل هذا التقابل على إظهار الشكل العام للصورة التي أراد أن ينقلها شاعر الرثاء.

**2)– نموذج من الشعر الأندلسي في رثاء المدن:** من بين النصوص الشعرية التي عالجت الأوضاع المزرية التي عاشها مسلمو اسبانيا نذكر القصيدة الشعرية لشاعر أندلسي مجهول نظمها في شهر شعبان من العام 897هـ/1492م أي بعد سقوط غرناطة ببضعة شهور فقط. فالقصيدة وردت في مخطوط متوفر في المكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة (الحامة)، قسم المخطوطات، تحت رقم تسلسلي 1627، وأيضا متوفر في شكل قرص مضغوط.

***– بطاقة فنية للمخطوط:** يتألف المخطوط من ثماني ورقات[1]، طولها 20 سم، وعرضها 15 سم، الصفحة الأولى منه بيضاء، أما بقية الورقات مكتوبة. ضمت كل ورقة عشرة أبيات ما عدا الورقة الثانية التي ضمت تسعة، والورقة الأخيرة التي احتوت على خمس أبيات فقط؛ وبهذا يكون مجموع أبيات القصيدة أربعة وأربعون بيتا.

كتبت القصيدة بحبر أسود، خطها مغربي، أما أسماء المدن، واسم الله والنبي صلى الله عليه

[1]– الكتابة كانت على وجه وظهر الورقة.

وسلم والمفردات الدينية، وصيغ التعجب فكتبت بحروف أكبر؛ أضاف الناسخ بحبر أحمر بعض التعليقات المفيدة والمختصرة، جاءت على شكل سطور منحدرة على الهامش، منظمة ودقيقة.

*– **مضمون المخطوط**: يؤرخ الشاعر من خلال نص قصيدته لكثير من القضايا المتعلقة بالإجراءات التعسفية التي قامت بها السلطات الاسبانية ومن ورائها الكنيسة الكاثوليكية ضد مسلمي اسبانيا، ومن خلال محاولات التنصير القسري، بعد سقوط مدنهم الواحدة تلو الأخرى، على مدى مائة وستة وأربعين بيتا. ويخص الشاعر بالذكر تسع مدن أندلسية هي: رندة، مالقة، بلش، المنكب، الإقليم، غرناطة، وادي آش، بسطة، وألمرية على التوالي.

فقد حاول هذا النص أن يرسم صورة ناطقة صادقة لمشاعر مسلمي اسبانيا وهم يواجهون نكبتهم الكبرى في ضياع أهلهم وذويهم وأموالهم وممتلكاتهم؛ وتأتي أهمية هذه الصورة من أن الشاعر عاصر الأحداث ، بل عاشها ورآها رؤية العين، وهذه قضية مهمة جدا في مسألة التوثيق.

وبهذا نجد أن الشاعر قد وثق لسقوط تسع مدن أندلسية، بمحض التجربة والمعايشة، فكل هذه المدن التسع هي مما أدركه الشاعر، ولذلك ذكر لكل مدينة ما يخصها ويتعلق بها، وقد سقطت جميعها في زمن متقارب، وواحدة منها مدينته وموطن آبائه وأجداده وهي ألمرية. وكل هاته المدن هي آخر المناطق الساقطة في أيدي الغزو الصليبي الاسباني.

بهذا اشتمل النص الشعري– التاريخي– على وصف دقيق لما كان يجري أثناء سقوط هذه المدن وبعده بقليل، من تعرض المسلمين إلى التقتيل والتشريد والاضطهاد والتنكيل وهتك الأعراض وابتزاز الأموال، وغير ذلك مما كان يمارسه الاسبان القسري لمسلمي الأندلس تعد من المعلومات

التاريخية المهمة الخطيرة التي سمحت بها وثائق محاكم التحقيق في وقت متأخر، وهو ما يجعلها في المقدمة من أهميات هذا النص، فضلا عما اشتمل عليه من حرارة العاطفة وصدقها النابعين من الإحساس الصادق بالفجيعة.

ولم يكتف الشاعر بإرسال المعلومات التاريخية إرسالا دون أن يتدخل، بل عمد إلى التعليل والاستنتاج، فيذكر الأسباب مقرونة بالنتائج، شأنه في ذلك شأن المؤرخين المتخصصين الموهوبين. وما يدل على حسه التاريخي هو أنه ذكر سقوط المدن الأندلسية التسع بحسب تسلسلها التاريخي.

كما استثنى من هذا التسلسل الحولي للأحداث التاريخية مدينته ألمرية التي جعلها آخر مدينة يخصها بالكلام، مع أنها لم تكن آخر المدن المنكوبة، وذلك لأسباب عاطفية نفسية، ليتسنى له أن يطيل في ذكرها، وأن يتغنى بما لها من محاسن ومفاخر، وبما له من صدى ذكريات فيها، وبذلك استطاع أن يصيب في هذا الذكر خلاصة آهاته وعصارة حسراته. وهذه بعض الأبيات التي وصف من خلالها سقوط المدن الأندلسية.

**3)– وصف الشاعر للمحنة الأندلسية:** يدور محتوى القصيدة حول محاور خمسة، تختلف بينها الأفكار، وعدد الأبيات. فأما المحور الأول فيدور موضوعه حول بكاء رندة وجاء في ثلاثة وستين بيتا. في حين دار موضوع المحور الثاني حول رثاء مالقة وما حولها. أما المحور الثالث فالحديث فيه متصل برثاء المرية، ولو أن الترتيب التاريخي غير مراعي في هذا القسم من القصيدة، فمن الصعب تحديد نهاية الأبيات به مباشرة، ويمكن القول أنها شغلت ثمانية عشر بيتا.

في حين ركز الشاعر في المحور الرابع حديثه حول استنفار المسلمين في الأندلس الضائعة وخارجها لإنقاذها، وقد ضم هذا المحور ستة وعشرين بيتا شعريا، يبدؤها بدعوة المسلمين ليهبوا باسم الاسلام. وأخيرا المحور الخامس الذي جاء على شكل دعاء، ورد في خمسة عشر بيتا، توجه من خلالهم إلى رب العالمين، يطلب غوثه، ويستشفع برسوله الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، ويختمها بالصلاة والسلام عليه.

***– حول ما أنشده فيما يخص سقوط رنده**[1]

أحقا خبا من جو رندة نورهـا وقد كسفت بعد الشموس بدورها

وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزلـت مـنـازلهـا ذات العـلا وقـصـورهـا

وأزعـج عـنـها أهـلها وعـشيرهـا أحقا خليلي أن رنـدة أقفـرت

وهدت مبانيها وثلت عروشهـا ودارت على قطب التفرق دورهـا

هوت رندة الغراء ثم حصونهـا وأنـظـارها شنعـاء عـز نظيرهـا

وقد كن عقدا زين العقد نظمها فقـد فتـح الآن الـبـلاد نثيـرهـا

في هذه الأبيات يظهر للقارئ جليا أسلوب العارف أي الاستفهام الذي يكون معه معرفة للإجابة.

**ثم وصف الشاعر المأساة التي حلت على مدينة** مالقة:[2]

فمالقة الحسناء ثكلى أسيفة قد استفرغت دبحا وقتلا حجورها

[1]– المخطوط رقم: 1627. (المصدر السابق). ورقة رقم:3،2.

[2]– المصدر نفسه. ورقة رقم:7.

وجزت نواصيها وشلت يمينها وبـدال بـالبـين المبـين سرورهـا

وقد كانت الغريبة الجنن التي تقيها فأضحى جنة الحرب سورها

**فيليها يصف لنا هول ما وقع في بلش فكتب حول هذه النكبة يقول:** [1]

بـلـش قـطـعـت بيـمـينهـا ومن سريان الداء بان قطورهـا

وضمت على تلك الثنيات حجرها فأقفر مغناها وطاشت حجورها

من خلال هذه الأبيات يتهم الشاعر سكان بلش بأنهم أذو أنفسهم بأنفسهم.

**أما عن سقوط غرناطة فكتب الشعر يقول**[2]

ألا وليقف ركب الأسى بمعالـم قد ارتج باديها وضج حضورهـا

بدار العلا حيث الصفـات كأنهـا من الخلد والمأوى غدت تستطيرها

محـل قـرار الملك غرنـاطـة التـي هي الحضرة العليا زهتها قصورهـا

فمـا في العراقيـن العتيقين مثلهـا ولا في بـلاد الله طـرا نـظـيرهـا

ترى في الأسى أعلامها وهي خشع ومنـبرهـا مـستعـبر وسـريـرهـا

ومأمومها ساهي الحجي وإمامهـا وزائـرها في مـأتـم ومـزورهـا

لها حال نفس قد أصيب فـؤادهـا وبتـت لهـا اليمنى وحم ثبورهـا

فأنـفسهـا في الصعـق دون إفاقـة كـنفس كـلـم الله إذاك طورهـا

وقد ذعرت تلك البنيات حولهـا فهن بواكي الأعين الرمد مورهـا

---

[1]- المصدر نفسه. ورقة رقم:7.

[2]- المصدر نفسه. ورقة رقم:8.

**حول استعمال أسلوب المبالغة ولتهويل بالإفادة من أسلوب: <<كم من...>>**

فواحسرتاكم من مساجد حولت وكانت إلى بيت الحرام شطورها

ووأسفاكم من صوامع أوحشت وقد كان معتاذ الأذان يزورهـــا

فمحرابها يشكو لمنبرها الجـوى وآياتها تشكو الفراق وسورهـــا

**4)– دراسة نقدية للنص الشعري:** كان لهذا النص جملة من الخصائص

الفنية، ومن ذلك أنه طويل نسبيا، إذ بلغ عدد أبياته مائة وستة وأربعين بيتا، وهو طول يحتاج إليه موضوع مثل الموضوع الذي تناوله الشاعر، الذي يتطلب السرد والرواية، فضلا عن حاجة الشاعر نفسه إلى البوح والتنفيس، وقد أفرغ ذلك كله في إيقاع البحر الطويل.

نجد الشاعر من خلال قصيدته يعرض لنا أحداثا ووقائع تاريخية، مبديا رأيه بين الحين والآخر حول الدوافع التي كانت وراء وقوع هذه النكبة والمأساة؛ وفي ذلك كتب يقول[1]:

بعصياننا علينا عدونـــا وعاثت بنا أسد العدا ونموره

نعم سلبوا أوطاننا ونفوسنا وأموالنا فيئا وأبيجت وفورهـا

أما من حيث البناء الشعري للقصيدة فقد استعمل الشاعر قافية واحدة، وهي الهاء، وهذا الأخير أي حرف الهاء حرف يخرج معه هواء الزفير بعمق ، فكأنه تنهد وتحسر. وإضافة الألف إلى حرف الهاء يمكن من مد الصوت قدر المستطاع، بما يشبه العويل والاستغاثة، فجاء ذلك متناسقا مع موضوع النص، ومع عاطفة الشاعر الجياشة الصادقة نحو أعز ما يملك الإنسان: أهله ووطنه، ومن

[1]– المصدر السابق. ورقة رقم:3 .

هنا نلمح بوضوح حرارة النص وصدقه الفني، النابعين من حرارة عاطفة الشاعر وصدقها.

أما لغة النص الشعري – التاريخي- فهي لغة واضحة سلسة، خالية من التعقيد والغموض، وهو أمر لا بد منه في مثل هذا الغرض الذي يقتضي الخطاب المباشر، وما يلزمه من افهام سريع، وتأثير في النفوس، وقد أكثر الشاعر فيها من الألفاظ الدينية ، مثل : الله ، الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، الإسلام، الإيمان، الجنة، النار، الجهاد، المسجد، المحراب، الصومعة، وجعل بإزائها ألفاظا نصرانية مثال ذلك: دين الصليب، الكنائس، الصلبان، النواقيس، الكفار، وكل ذلك لكي يلهب حماس المسلمين، ويضمن استجابتهم من خلال تغليب العامل الديني، لما هذا الأخير من تأثر قوي في النفوس.

ومن بين الأبيات الدالة على ذلك نذكر[1]:

وفـرق شمـل المـؤمنين لهيبهـــا وقطع من أرواحهم زمهريرهـا

تسلمها حـزب الصليب وقادهـــا وكانت شرودا لايقاد نفورهـا

وقد ذهـبت أذيـــالها ونفوسهـــا وقد دثرت تحت إلسياء دثورها

فباد لها الإســلام حتى تقطعـــت مناسبها واستأصل الحق زورها

واصبحت الصلبان قد عبدت بها تمـاثيلهـا دون الإله وصـورهـا

لـقرع النواقيس اعتـــلى بمنارهـــا كرائه أصوات يروع صريرهـــا

ثم لجأ الشاعر إلى المبالغة والتهويل بالإفادة من أسلوب: "كم من ..." ومثالا على ذلك ما

[1]- المخطوط نفسه. ورقة رقم:2.

ذكره حول تنصير الأطفال وإنشائهم نشأة نصرانية[1]:

وكم من صغير بدل الدهر دينه وهل يتبع الشيطان إلا صغيرهـــا

**ثم يقول حول من اعتنق النصرانية خلاصا من المعاناة والتنكيل[2]:**

وكم من شقي يسرت هذه له سبيلا إلى العسرى يحيف كفورها

**أما ما قاله حول اغتصاب المسلمات الأندلسيات فكتب بهذا الصدد[3]:**

وكم من طفلة حسناء فيها مصونة إذا أسفرت يسبى العقول سفورها

فأضحت بأيدي الكافرين رهينـــة وقد هتكت بالرغم منها ستورهـــا

كما استعمل الشاعر أسلوب الاستفهام الإنكاري وسؤال العارف، والمقابلة بين الحقائق وأضدادها، كما نوع في أساليب التعبير، والالتفاتات من أسلوب إلى آخر أو العكس . فتراوح ذلك بين الإخبار والخطاب بأغراضه المختلفة والدعاء.

خلاصة القول نقول أن رثاء المدن في الشعر الأندلسي نشأ بين الأحداث المتلاحقة ومن الصراع المستمر بين الأحزاب المختلفة التي قامت على أنقاض الخلافة المنهارة وبين الأندلسيين وغزاتهم من النصارى. فقد حاول الانسان الأندلسي التغني بحب الوطن قرية، أو مدينة، فإذا فقدت أو ذهبت بها الحرب بكاها الشعراء ومن هنا أصبح بكاء الممالك المنهـارة والمـدن الـذاهبة فـن أنـدلسي أصيـل وجدت دوافعه في الأندلس، فتفرد بأنه جرى مع هذه الدوافع إلى غايتها.

[1]- المصدر نفسه. ورقة رقم:5.

[2]- المصدر نفسه. ورقة رقم:5.

[3]- المصدر نفسه. ورقة رقم:4.

## المبحث الثالث: الاستغاثة، المدح والجدل الديني والسياسية في أشعار مسلمي اسبانيا

من التعارف عليه تاريخيا أن مسلمي اسبانيا قد اعتمدوا، للحفاظ على هويتهم الإسلامية وذاكرتهم العربية، داخل مختلف التحولات الثقافية التي أخضعوا إليها؛ على إنتاج أدبيات متعددة ومختلفة، واستهلاكها باستمرار؛ كما عملوا ضمن هذا المضمار، على العودة الدؤوبة إلى أجزاء دالة من التراث الأدبي والديني العربي الإسلامي.

ومن انتاجهم الشعري ما استنسخوه، ومنه ما ترجموه أو أعادوا إنتاجه إلى اللغة الألخميادية، من شعر الاستغاثة، والسير النبوية والمجادلات الدينية، والشعر السياسي؛ فكان هذا الانتاج كفيلا بدغدغة تلك الهوية، وإنعاش هذه الذاكرة، وإذكاء الأمل في مقاومة كل أشكال القضاء المبرم عليها. فهل استطاع هذا الانتاج الشعري تنميط متلقيها داخل اختيارات ذوقية وفنية مخصوصة، تحدد بدورها تبعا لذلك، تأسيس ذات الأدب وتطوره واستراتيجيته الثقافية والحضارية كما هو الشأن بالنسبة إلى نظيرتها النصرانية في التراث النصراني؟

**1)– شعر الاستغاثة:** وهو صنف من أصناف الشعر الذي برع في نظمه مسلمو اسبانيا. وهذا النوع من الشعر يقوم على استنهاض عزائم حكام المغرب العربي في المحل الأول والعالم الإسلامي، وهمم المسلمين في سائر أقطارهم كي يهبوا بباعث الأخوة الإسلامية لنجدة إخوانهم في اسبانيا ومد يد العون لهم في جهادهم ضد أعدائهم.

ولعل أول نص شعري بعد سقوط غرناطة في هذا النوع من الشعر قصيدة للشاعر أبي عبد الله محمد بن عبد الله الصغير العقيلي على لسان الملك المخلوع أبي عبد الله الصغير آخر ملوك غرناطة،

في رسالته إلى الشيخ الوطاسي وسماها " الروض العاطر الأنفاس في التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس"[1].

كما اعتمد مسلمو اسبانيا في التعريف بقضيتهم وطلب الدعم من الخلافة العثمانية، وغيرها من دول العالم الإسلامي على نظم قصائد شعرية عرفت بشعر الاستغاثة. ومن بين هذه القصائد نذكر تلك التي بعثها مسلمو اسبانيا إلى السلطان العثماني بايزيد الثاني[2]. وبالعودة الى نص القصيدة الشعرية التي تضمنتها هذه الرسالة نجدها قد تقدمت بأسطر نثرية مدحية، اعتمد على تأكيد معانيها، وتحقيق هدفها، بهذه القصيدة والتي جاء معانيها حسب كل مقطوعة منها كما يلي:

**ـالأبيات [1–8]**: جاءت على شكل مقدمة نموذجية تحصل بين طياتها غرض المدح الذي يقوم على تعداد مآثر الممدوح، ومناقبه، ووسمه بالكرم والفضل، وعلو الهمة، وبعد النظر، وأنه صاحب مجد وقدر ورفعة، وقبلة القصاد من ذوي الحاجات والمطالب؛ ويتخذ الكاتب من تكثيف المدح، والمبالغة في الإطراء طريقا لإرضاء ممدوحه ونيل اعجابه وبالتالي الوصول إلى هدفه أو على الأقل التمهيد له[3].

والشاهد على ذلك يتوفر في كل بيت بعد عبارة تحية السلام، وهو مدح موجه بصفة خاصة للسلطان بايزيد وعائلته وحاشيته بصفة عامة مثلا قوله "...**مولاي ذي المجد والعلا، وعلى**

---

[1]– المقري، نفح الطيب، ج4، (المصدر السابق). ص: 529.

[2]– تم التعامل مع هذه القصيدة في اطار تدعيم الفصل الخاص بحرب الإعلام ينظر: الباب الرابع / الفصل الأول . وما سيكون في هذه الجزئية هي دراسة أدبية لنص القصيدة.

[3]– صفية بنت بن رضيان العسيبي، توظيف الشعر في الرسائل الاخوانية من بداية العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع، المملكة العربية السعودية: جامعة أم القرى، رسالة ماجستير في الأدب. ص:54.

**القاضي ومن كان مقله من العلماء الاكرمين الاجلة..."**[1].

**-الأبيات [9-10]**: يقوم الشاعر بالتعريف بالطرف الأول من العملية الاتصالية أو التواصلية وهو المرسل، والذي يشير إليه بعبارة "**عبيد**"، وذلك بغرض التأكيد على ذلك المدح الذي جاء في أول القصيدة، بالتقليل من شأن المرسل، وبيان الحالة الاجتماعية والطبقية التي ينتمي إليها.

بالإضافة إلى التعريف بديارهم وموقعها الجغرافي بعبارة "**بأندلس بالمغرب في أرض غربة**" و"**أحاط بهم بحر من الروم الزاخر، وبحر عميق ذو ظلام ولجة**"[2] ويقصد بها شبه الجزيرة الايبيرية التي يحدها من الشرق والجنوب البحر الأبيض المتوسط، ومن الغرب المحيط الأطلسي.

-**الأبيات [11-15]**: يظهر الشاعر من خلالها للمرسل إليه الحالة الاجتماعية التي يعيشها مسلمو إسبانيا من خلال تعداد طبقات المرسلين والإشادة إلى المصيبة التي المت بهم، ويبدو ذلك في قوله مثلا: "**سلام عليكم من شيوخ تمزقت شبوبهم بالنتف من بعد عزة**". وقوله أيضا: "**سلام عليكم من عجائز أكرهت على اكل لحم الخنزير ولحم الجيفة**"[3].

**-الأبيات [16-18]**: نرى الشاعر قد اتخذ من اسلوب الدعاء اسلوبا لاستئناف المدح ومع هدف استعطاف السلطان, النه س يذي كان في مقدمة القصيدة, ومن اجل في تذكير المرسل إليه بأنه بالرغم من كل تلك المصائب التي ألمت بالمرسل إلا أنه لم ينس السلطان من دعائه وتعظيمه.

**- البيت [19]**: نرى أن الشاعر قد استرسل في كشف الضرر الذي أصاب من كلفوه

---

[1]- جمال بحياوي، المرجع السابق. ص ص: 250.

[2]-ا المرجع نفسه. ص: 250.

[3]- المرجع نفسه. ص: 250.

بكتابة رسالتهم، وايصال شكواهم، التي جاء بها بصريح العبارة من خلال هذا البيت بقوله:" **شكونا لكم مولاي ما قد أصابنا, من الضر والبلوى وعظم الرؤية**"[1]. ومن هنا يظهر للمتلقي الهدف الحقيقي للمرسل الذي أطال وبالغ في مدحه للسلطان بايزيد وهو المتلخص في لفظة "شكونا" من الشكوة، وهو أسلوب يهدف من خلاله التصريح بالضرر؛ وكأنه يقول: لهذا راسلتك مولاي من أجل طلب النجدة.

**-الأبيات [20-23]**: في هذه المرة نتعرف على سبب تلك الشكوى، وأوضاع المشتكيين، وطبيعة المصيبة التي وجدوا أنفسهم فيها، وأسوأ ما فيها، والتي فضل الشاعر أن يبدأها بتصوير الجانب المشترك بينه وبين السلطان، وهو الجاني الديني الذي يعد عماد تلك العلاقة التي تجمع بين طرفي الرسالة، بقوله[2]:

عذرنا ونصرنا وبــدل ديننا ظلمنا وعوملنا بكل قبيحة

وكنا على دين النبي محمــد نقاتل عمال الصليب بنية

ونلقي امورا في الجهاد عظيمة بقتل واسر ثم جوع وقلة

فاستعمال كل من المصطلحات التالية "**ديننا**" "**دين النبي محمد**" و"**الجهاد**" تدل على الأهمية القصوى والقيمة الكبيرة للدين الإسلامي الذي كان العامل المشترك والموحد بين الطرفين.

**-الأبيات [24-30]**: هاته الأبيات تعرف بالعدو المشترك بين الطرفين، وهو الروم، وما كان

[1]- جمال يحياوي، المرجع نفسه. ص ص: 250

من بشاعة في تصرفاتهم التي كانت في معظمها عسكرية وحشية. وهو عرض مفصل لمسار محنتهم. الشاهد على ذلك استعمال الكاتب لحرف "الواو" الذي هو حرف عطف يفيد السرد المرتب أو غير المرتب.

وعليه نجد الشاعر في صفة الراوي لأحداث ماضية مستمرة في الحاضر، وذات مستقبل مجهول من خلال تتبع مراحل النكبة الأولى فالأولى، بداية من توحيد صفوف النصارى وإلى غاية تسليم مدينة غرناطة آخر معقل للمسلمين بالأندلس – اسبانيا- والذي تخلله الإشارة إلى الجهاد من حين إلى آخر بالنظر إلى الامكانيات التي كانت متاحة للأندلسيين في تلك الظروف رفضا للاستسلام.

**-الأبيات [31-33]**: تشير هذه الأبيات إلى عدم قدرة المسلمين في دول الجوار اغاثة مسلمي إسبانيا والنتائج المترتبة عن ذلك على الصعيد الاجتماعي خاصة والتي عبر عنها بلفظة "لأطعناهم بالكره" للدلالة على الاستسلام القهري والقسري للمسلمين تحت سطوة السلاح والقوة. كما يشير أيضا إلى أسباب أخرى أدت إلى ذلك الاستسلام مثل الخوف على أبنائهم وبناتهم، ومخافة السبي والقتل والأسر.

**-الأبيات [33-34]**: هذه الأبيات تؤرخ لمعاهدة الاستسلام وتسليم غرناطة سنة 897هـ/ 1492م وذكر الشروط التي تعهد بها الملكان الكاثوليكيان، والتي كانوا يرون فيها أمانا على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم وفوق كل ذلك على دينهم.

**- الأبيات [40-65]**: بدأها الشاعر بحرف "الجزاء" "فاء" والذي يفيد سرد النتائج أو ردود

الأفعال لأسباب سابقة. وهو ما جاء به الشاعر بنبرة حسرة وألم وندم على وثوقهم في وعود وعهود زائفة وكاذبة من الكفار؛ فوصف مسار المحنة التي تأزمت وتعقدت بنقض بنود المعاهدة التي جمعت بين مسلمي ونصارى إسبانيا والتي شهدت حرق التراث العربي الإسلامي وضرب الدين الاسلامي بعملية التنصير القصري بهدف القضاء عليه من جذوره.

وهذا الجزء من القصيدة يحمل في طياته غرضين متداخلين هما: الوصف والسرد، ثم الحسرة ولفت النظر واستعطاف المرسل إليه. يتخلل بين الحين والآخر عبارات التحسر والندبة وهي عملية التفجع وإعلام السامع أنه وقع في أمر عظيم، أو خطب جسيم، وهو الذي يهدف اليه الشاعر من خلال رسالته من خلال تصوير الحياة اليومية للمسلم الاسباني.

– **الأبيات [66–68]**: في هذه الأبيات يستطرد غرض التودد والاستعطاف بذكر كل ذي جاه مسموع ومحترم لدى السلطان. مثلا: آل محمد (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه وبآل العباس وكأنه يستعمل جاههم العظيم ليتوسط له عند السلطان بغرض ضمان تلبية مطالبهم.

– **أما البيت 69 إلى آخر القصيدة**: كلها معان صريحة في قالب شعري غرضه الاستغاثة بصريحة العبارة، وذلك بذكر مطالب مسلمي اسبانيا مباشرة دون أي غموض أو ايحاء. ومن خلال هذه الأبيات أيضا نجد تأكيد مسلمي اسبانيا على ولائهم واحترامهم وخضوعهم للسلطان العثماني، وعليه فإن من واجباته عليهم حمايتهم ونصرتهم على من ظلمهم من خلال التدخل الدبلوماسي نظرا للمكانة الدولية التي كانت تحتلها الخلافة العثمانية وقتئذ.

وانطلاقا من هذه الأبيات يبدو مشهد المأساة من مختلف الجوانب الإنسانية والحضارية

والثقافية، فمن خلال المادة الشعرية التي بين أيدينا، يمكننا حصر هذه المأساة من خلال ثلاث مراحل كبرى :التنصير القسري، الإقصاء الحضاري، والطرد التعسفي.

وبهذا مثلت فقد مثلت هذه الرسالة نموذجا حيا لشعر الاستغاثة، الذي حاول من خلاله مسلمو اسبانيا التعريف بقضيتهم، ومناشدة العالم الإسلامي باسم الدين واللغة والتاريخ المشترك تقديم يد المساعدة لهم للتخلص من الظلم والقهر والاستبداد الذي كانت تسلطه عليهم السلطات الاسبانية.

**2)– شعر المدح:** اعتبر الإنسان المدح كظاهرة نفسية جزءا مهما من حياته، وهو بطبعه مفطور على ذلك، يحب من امتدحه، ويبغض من هجاه وظاهرة المدح عند الشعراء الأندلسيين بدأت مكافأة ومحبة وانتهت تكسبا وبحثا عن العطايا؛ وقد يتداخل المدح بالفخر حينما يثني الشاعر على انجازات حكامه، وربما تداخل بالغزل حينما يريد الشاعر أن يصف أخلاق امرأة ما.

ولكن بعد سقوط الأندلس جعل مسلمو اسبانيا من شعرهم وسيلة للدفاع على مقومات شخصيتهم الإسلامية، فنظموا قصائدا في مدح الرسل والأنبياء، حتى تكون بمثابة مرجعا دينيا يتعلم منه مسلمو اسبانيا هذا من جهة، ومن جهة أخرى وسيلة مقاومة فكرية للدفاع على عقيدتهم الإسلامية أمام زيف وتحريف النصارى للكثير من الحقائق الدينية.

وقد كان لمدح الرسول صلى الله عليه وسلم نصيبه في الشعر الألخميادو، فقد حاول مسلمو اسبانيا من خلال أشعارهم الإشادة بخصال الرسول صلى الله عليه وسلم، وبالتالي تعليم الأجيال الصاعدة تمسك بتعاليم الدين الإسلامي بالاقتداء بسنة خير الأنام عليه الصلاة والسلام؛ ومن بين

هؤلاء الشعراء نذكر الشاعر محمد رمضان، الذي ينتمي إلى بلدة الرويضة (Rueda del Jolon [1]؛ طرد سنة 1019هـ/1610م من اسبانيا، واستقر في تونس. كانت له ابداعات شعرية في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم.

فقد وضع هذا الشاعر سنة 1008هـ/1603م قصيدة تدور أحداثها حول تاريخ نسب محمد صلى الله عليه وسلم (Historia Gemealofica de Mohamed) ضمنه ما ورد في كتاب للحسن البصري عن النسب النبوي وسنورد من شعره بعض الابيات من قصيدة "تاريخ نسب محمد صلي الله عليه وسلم" فورد فيها ما يلي[2]:

أنا الذي تخشون اسمي عنـــدما تذكرون اسمي

من اسفل الارضييـــن الى اعـــلى الابـــراج

أنا الذي لا يفلت أحـد مـن رغبـــتي المريـــرة

إنني أجعـل الجميع سواء الكبـــار منهم والصغـار

مـن أوضـــع العمـــال إلى أنبـــل الأباطـــرة

ومـن أرفـــع الـــملـــوك إلى أبســـط الرعـــاة

أنـــا الطليعـة الوحيـــدة الذي لا يغيب عن بصري

[1] – **الرويضة** : منطقة موجودة بين سرقسطة و قلعة أيوب، في مملكة أراغون القديمة.

[2] – انجيل جنثاليت، المرجع السابق. ص:521.

مخلــوق في بدنـــــه روح  أو شيء ينعـــم بحيـــــاة

أنا الذي أنزل بالجيوش الحرارة  الفناء والتشتيت والانكسار

أنا الذي أجرد الأجســـــــاد  من أرواحهـــا العزيـــــــزة

.....

لست أريد أن أهادن أحـــدا  ولا أصغي أبـــدا لكـــلام

ولست صديقـــــا لأحـــــد  أعامل الكل بناء على نظام

عزرائيـــــــــــل يسمونـــي  مـــلك المـــوت اسمـــي

أنا الذي لم أعرف الخوف قط  جيـــــلا بعـــد جـيـــل

أيضا ممن برز في هذا المجال نذكر الشاعر "**خوان ألونسو الأراغوني**"، الذي يعتبر من أكبر شعراء الشعر الألخميادي؛ ويدل شعره الذي تركه على شكل ديوان يتكون من رباعيات على معرفته الواسعة بالإسلام والنصرانية على حد سواء[1] وقد هاجر هذا الشاعر في أواخر حياته إلى تطوان بالمغرب الأقصى.

ولم يهتم مسلمو اسبانيا في نظم قصائد في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم فقط، بل وضعوا قصائد في مدح رسل وأنبياء آخرين، مثل سيدنا يوسف عليه السلام. فمن بين أهم و أقدم الآثار الألخميادية في هذا النوع من الشعر قصيدة لشاعر مجهول عاش بأراغون القديمة.

تتكون القصيدة من 1220 بيت مجزأة في 305 رباعية، القصيدة تسمى عادة في كتب الأدب

[1]- الكتاني، المرجع السابق، ص: 218.

(El Poema de Jose) ولكن عنوانها الحقيقي كما كتبه صاحبها هو "حديث يوسف" –El dejose Alhadits"؛ وهي منظومة في مقطعات من البحر القشتالي القديم المعروف بـ "الكوادرنو بيا" "Cuedenno Via" وهي قصائد تنظم كل أربعة أبيات منها على قافية واحدة[1].

والقصيدة تقص علينا قصة سيدنا يوسف بن يعقوب عليه السلام كما تروي في "سورة يوسف" من القرآن الكريم مختلطة بالكثير من الأساطير الإسلامية، لذا نجد لتأثير اللغة العربية في الآثار الأدبية الألخميادية الحضور البارز، حيث زخرت هذه الأعمال بالافتراض والاشتقاق والاقتباس من كل ما يمت بصلة للغة العربية، خاصة اذا تعلق الأمر بالمفاهيم الاصطلاحية الفقهية، وهو ما نلاحظه جليا في الملحمة المطولة المعروفة بـ "قصيدة يوسف"[2].

فظهرت ضمن هذا العمل الشعري الملحمي العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية داخل النسيج الشعري الأعجمي فجاءت بمثابة التضمينات. وهي طريقة سلكها الكتاب المسلمين بإسبانيا النصرانية في جل أعمالهم الابداعية حتى ميزتهم عن باقي كتاب دول عصر النهضة الذين التفتوا بشكل واضح الى موروثهم اللاتيني والاغريقي، الذي عرف فيما بعد بالرصيد الكلاسيكي بالنسبة لموروثهم الثقافي. ومن بين ما ورد في نص القصيدة نذكر نذكر[3]:

بسم الله الرحمان الرحيم

لو ميا نت أد الله، أللت ياش أبارددار

---

[1]- انجيل جنثاليت، المرجع السابق. ص: 515.

[2]- نشرها وحققها الباحث الاسباني "رامون مينيداث" عام 1952

[3]- المرجع السابق. ص: 515.

أنرد اقنبلد، شانردارايترا

شانرد اتد، أن شل اشانر

فرا نكوا بدارشه، أرداندر شارتار

غرن باش ال، شيدار تد ألمند أبرق

تن شلا أنقبرا كشه كا أنالمند نسق

شقيازا ان لمون يان تد لطمرق

ن يان لتيار برياته ن يان لبلنق

فغبش أشبار، أيداش، مش أمدش

لك كنتا شيه ان لش تيا نبش بشدش

أجق ابيوسف ايشش داش ارمنش

بر كبد شيه أنبديه أبيارن أشايار ملش

**وترجمتها باللغة العربية تكون بالشكل التالي:**

بسم الله الرحمان الرحيم

الحمد لله العلي الحق

العزيز الكامل الملك العادل

رب العالمين الواحد الاحد الصمد

الكريم القوي القيوم

هو الأكبر، تعم قوته كل شيء

ولا تخفى عليه خافية في الكون

لا في البر ولا في البحر

لا في الارض السوداء و لا البيضاء

اعلموا واسمعوا يا أحبائي

ما حدث في الأيام الغابرة

ليعقوب ويوسف أخوته العشرة

الذين بالطمع والغيرة أصبحوا شريرين.

من خلال النموذجين الذين تم عرضهما، تأكد لدى الباحث ما يلي:

- صياغة القصائد الشعرية باللغتين العربية والألخميادية.
- توظيف الشعر كوسيلة دفاع ومقاومة
- استعمال الشعر كمرجع للثقافة الإسلامية
- تمسك مسلمي اسبانيا بمقومات شخصيتهم الإسلامية بالرغم من كل وسائل القمع والاضطهاد المسلط عليهم.

**3)- الشعر في المجادلة الدينية والسياسية:** كان الصراع بين المسلمين والنصارى في اسبانيا في أصله صراعا فكريا عقديا، فكل فريق حاول أن يدافع على مقومات دينه، ومن بين الأسلحة التي وظفها مسلمو اسبانيا في توضيح موقفهم من الديانة النصرانية، ومن شرعية السلطة

الإسبانية نذكر الشعر، هذا الأخير كان سلاح المسلم في اسبانيا للتعريف بموقفه بشكل حضاري وراقي، مع أن هذا الأسلوب شكل نوعا من الصراع الايديولوجي الذي ساد اسبانيا خلال الفترة المدروسة.

*– **الشعر السياسي**: كان مسلمو اسبانيا يصوغون أشعارهم في قوالب شعر الأغاني الإسبانية المعروفة بـ"الرومانتس" (los Romances) التي كانت شائعة في ذلك العصر، ومن ذلك ما فعله المعلم[1] خوان ألفونسو الذي هاجر إلى تيطوان لكي يمارس شعائر الإسلام من غير خوف، ومن هناك كتب قصيدة يتحامل فيها على الاسبان حملة شعواء يتجلى فيها ما كان لديه من ثقافة إسلامية ومن بين ما ورد في قصيدته نذكر[2]:

أيها الغراب الاسباني الملعـــــــون

يا ناشر الوباء ايها السجان البغيض

ها انت واقف برؤوسك الثلاثـــــة[*]

علـــــــــى ابـــواب الجحيـــم

ومن بين الذين برزوا أيضا في هذا المجال نذكر "**علي بيريزا**"، صنف هذا الأخير ضمن كبار الشعراء. عبر في شعره على حبه لشعبه وبلده الضائعة فصاح بذلك أشعارا حول الثورة الكامنة لدى الشعب الأندلسي المسلم المضطهد والمقهور في عقيدته وجسمه وشرفه ومأكله ومشربه، وفي كلما

[1]– ما كان متعارفا عليه في الوسط أن كنية "المعلم" لا تلحق إلا بأولئك الذين يثبتون جدارتهم في نوع ما من أنواع الخلق والابداع وإلا ما كانت لتضفى على هذا الشاعر المشرد لولا اعتراف العصر بموهبته الشعرية.

[2]– مخطوطة ألخميادية محفوظة في مخطوط بالمكتبة الوطنية بمدريد تحت رقم: 967 نقلا عن: انجيل جنثاليت، المرجع السابق. ص: 520.

*.–يقصد بها الشاعر الصليب ومسألة التثليث.

يجعل الانسان انسانا.

هاجر على بيريز في أوائل القرن السابع عشر إلى تونس، وعبر عن هذه الهجرة بقوله[1]: "أخرجنا الله بعظيم قوته من يد الفراعنة الكفرة وقضاة التفتيش الملعونين." ومن بين ما كتب حول مسألة اضطهاد الإسبان ورجال محاكم التحقيق لمسلمي اسبانيا نذكر هذه الأبيات :

ذئاب سارقة عديمة الخير همها

الكبرياء والعجرفة واللواط

والفسق والكفر والانتقال

والغدر والظلم والسرقة

كل ذلك بدون عدل

هاجر علي .

*– **شعر الجدل الديني**: أنتجت المجابهة الجدلية بين المسلمين والكاثوليك في إسبانيا خلال القرنيين العاشر والحادي عشر هجريين الموافق للقرنيين السادس والسابع عشر ميلاديين إلى مجموعة كبيرة من القصائد الجدلية التي تحمل في بعض الأحيان اسم مؤلفها، بينما في أحيان كثيرة تبقى مجهولة المؤلف. ومن بين القصائد التي دار موضوعها حول قضية جدلية نذكر هذه الأبيات[2]:

يا من تجعلون لله ابنا

وتخصصون له

[1]– الكتاني، المرجع السابق، ص: 217.

[2]– ميغيل دي سرفانتس، المرجع السابق. ص: 14.

مئات التماثيل

من الذهاب والرخام والبرونز والخشب

وتقدمون له القرابين الزائفة

أيضا مما نظم بهذا الصدد قصيدة ألفها شاعر مجهول، يحاول من خلالها الدفاع على عقيدة التوحيد، فورد في بعض أبياتها ما يلي[1]:

والدلـــيـــــل عـلـــى وجـــــود

رب الـــــه بـــالـضـــــــرورة

هي المخلوقات نفسها, وإننا نجـد

اللـــون والـزمـــن والمـــوت

كمـــا نـــرى النـــاس يحيـــون

وحيث اننا نرى في عالم المخلوقات

انـــه لا فعـــل بـدون فاعـــل

فمـــن هـــذا نفهـــم بوضـــوح

ان هـــذا الكيـــان الـــذي نـــراه

لـه مـن غيـــر شـــك صـــانـــع

كما نظم مسلمو اسبانيا قصائد في أنواع أخرى من الشعر أقل ما يمكن وصفها أنها كانت

[1]- انجيل جنثاليت، المرجع السابق. ص:519.

تحاول احياء مقومات الشخصية الإسلامية، التي حاولت السلطات الاسبانية القضاء عليها بشتى الطرق والوسائل. ومن مثل هذه الأشعار نذكر تلك التي نظمها بعض الشعراء في التعريف بركن الحج الذي كان من المستحيلات في تلك الحقبة التاريخية.

ومن بين القصائد التي ألفت بهذا الصدد نذكر رباعيات "**بوي منثون**" " Coplas del Al Hichante depey Moncon" أحد مسلمي اسبانيا، كان يعيش في قرية على حدود كطالونيا؛ فقد وصف من خلال قصيدته رحلته إلى مكة قام بها في القرن السادس عشر ونظمها في سياق شعري سهل وبسيط[1]. والقصيدة تكونت من مقطعات "كوبلاس" "Coplas" كل مقطعة متكونة من ثمانية أبيات[2].

أيضا في السياق نفسه لا يفوتنا التنويه إلى القصيدة الشعرية التي نظمها أحد مسلمي اسبانيا المدعو "بواي مونسون" "Puey Moncon "؛ وقد عكست هذه القصيدة في الواقع قصة أحد مسلمي إسبانيا حج من أراقون أواخر القرن السادس عشر جاء في بعض أبياتها ما يلي[3]:

لقد سافـــرت بفـــــرح

بعيدا عن كل أقـــــاربي

للتحول إلى أرض العرب

لاتمـــام فريضـــة الحـــج

---

[1]- عثر عليها الأديب الاسباني مريانو دي بانواي رواتا Mariano de Pano y Ruata مكتوبة باللغة الاخميادية وكانت عسيرة القراءة, وقد تمكن من فك رموزها ونشرها بعد ذلك على شكل دراسة للشعر الأخميادي.

[2]- آنجيل جنثاليت، المرجع السابق. ص:522.

[3]- لوي كارديلك، الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيين، (المرجع السابق). ص: 33.

وللقيـــام بهـــذا الحـــج

لـــذي هـــو فريضـــة هامـــــة

من شأنها أن تغسل كل آلام

من يقوم بمثـــل هـــذه الرحلة

من خلال ما تم عرضه من معطيات تاريخية وأدبية باللغتين العربية والألخميادية، تأكد لدينا الفكرة التي بنينا عليها دراستنا، والتي مفادها أن أصل الصراع كان عقدي، تجلى في صور مختلفة، ومن بينها الانتاج الشعري بكل أصنافه.

فمن الناحية الفنية اتكأ الانتاج الشعري الذي قدمه مسلمو اسبانيا على أغلب أوزان الشعر العربي الستة عشر، وتلونت موسيقاها بمختلف الإيقاعات، ولم تقتصر على وزن عده القدماء جليلا ثقيلا دون وزن كانوا يعدونه هزليا خفيفا، وكان مقياس ذلك بحسب ما يراها المختصون هو إيقاع نفس الشاعر ساعةَ نظم القصيدة، واستجابته له دون التفكير بتحضير ما يراه ملائما من الإيقاعات الشعرية دون سواه. وما يقال عن الأوزان ينطبق على القوافي، فقد تنوعت بين مطلق ومقيد.

ومما يلاحظ أيضا أن مجموع القصائد المنظمة في مختلف أنواع الشعر استطاعت أن تؤثر في نفوس شعراء آخرين من الأجيال المتعاقبة ليعارضوها، فكانت لدينا مجموعة كبيرة من القصائد موحدة الوزن والقافية والروي والمواضيع.

أما حرارة النظم وقوته فلا نكاد نجدهما في قصائد الخوف من الله عز وجل كما نجدهما في قصائد الخوف من التنصير والخوف من الموت نفسه، ذلك أن المسلم المؤمن يتوجه في خوفه إلى الله سبحانه

وتعالى بروح ساكنة مطمئنة، وهو مؤمن تمام الإيمان بأنه غفور رحيم، ومقبل على حياة أخرى خالدة، بينما الخائف من السلطان يتوجه إليه وهو يائس من رحمته وعفوه، واثق من بطشه وتنكيله، فتفور نفسه بالجزع، وتطفح مشاعره بالفقدان، ومثله المتشبث بالدنيا الطامع بمزيد من العيش، الذي يجد في الموت انقطاعا تماما عن الحياة، وزوالا لملذاتها.

# الفصل الرابع

# الرواية ودورها في المحافظة على مقومات الشخصية العربية الإسلامية

## المبحث الأول: الرواية التاريخية في مؤلفات مسلمي اسبانيا

1)_ القصص حول حياة وتاريخ الرسل

2)_ القصص والروايات حول المغازيذ

## المبحث الثاني: الرومانسية والموعظة في الإنتاج الروائي

1)_ الرواية الرومانسية

2)_ الموعظة والحث على التمسك بالأخلاق في الإنتاج الروائي الألخيادي

## المبحث الثالث: الوصية والرواية الخيالية في مؤلفات مسلمي اسبانيا

1)_ أدب الوصية

2)_ الرواية الخيالية

لقد دأب دارسو الآداب الأندلسية على تناولها داخل حقبة زمنية امتدت من الفتح الإسلامي للأندلس وإلى غاية نهاية الحكم العربي الإسلامي بها، وكأن هذه الآداب قد انطفأت وقررت نهايتها وتوقفها، عشية سقوط غرناطة، آخر معاقل الإسلام بهذه الجهة من العالم؛ ومن المعلوم أنه بعد هذا الحدث . الذي يعد حدثا كارثيا بالنسبة للحضارة الإسلامية . لم يرحل جميع المسلمين عن هذه الأرض، واستمروا في إنتاج آدابهم بها إلى غاية سنة الطرد النهائي سنة 897هـ/1609م.

فحتى الذين خرجوا منها بعد ذاك الحدث، أو بعد هذا القرن، أو خلال المرحلة الفاصلة بينهما، فإنهم لم ينقطعوا أبدا عن مواصلة إنتاج أدبهم، غير أن هذه الآداب قد عرفت تحولات مختلفة، باختلاف تحولات الصراع الحضاري بين الإسلام والنصرانية الذي دار بهذه الجهة السالفة الذكر، فلقد واكبت تلك الآداب هذا الصراع، لتعبر عنه، ولتجسده ضمن مختلف أجناسها وأنواعها، ووفق مقوماتها وأساليبها وسيماتها المخصوصة.

ومن بين هذه الآداب نذكر فن الرواية والقصة، هذا الأخير طرأ عليه تغييرا نظرا للظروف التي عرفتها المنطقة، فقد كان الهدف الرئيس للسلطات الاسبانية طمس معالم الحضارة العربية الإسلامية بالمنطقة، بكل ما تحمل هذه الحضارة من مقومات وخصائص.

لكن المقاومة المستميتة لمسلمي اسبانيا ورفضهم الخضوع والاستسلام مكنهم من الابداع في خضم ذلك الصراع الذي كانت فيه القوتان غير متكافئتين. ومع هذا فبالعودة إلى الانتاج الأدبي القصصي على وجه الخصوص الذي خلفه مسلمو اسبانيا يؤكد لنا مدى ايمان هؤلاء بعدالة قضيتهم، هذا من جهة، ومدى تمسكهم بمقومات شخصيتهم العربية الإسلامية، هذا من جهة أخرى.

فقد رأى باحثون عديدون أن قيمة الأدب القصصي الألخميادي أعلى من الشعر وهو أدب أحكم بحكايات في أغلبها ذات أصل عربي إسلامي ينقل مشاهد من حياة الأنبياء عيسى وموسى ويعقوب عليهم السلام؛ وكذلك من حياة محمد عليه الصلاة والسلام وصحابته الاجلاء، فضلا عن الأساطير التي توحي عناوينها بمضامينها :يوسف وزليخة، حديث ذي القرنين، وحديث الملك الاسكندر، حكاية المقداد والمياسة وسواها.

ولا عجب في ذلك، فالواقف عليها كما هي مبثوثة في مخطوطات أهلها وفيما نشر منها، يدرك بكل سهولة انصهارها في وحدة انتسابية إلى الآداب العربية الإسلامية، بالرغم من اضطرار أصحابها إلى إنتاجها واستهلاكها في غالب الأحوال بغير اللغة العربية لكن إلى أي حد يمكن الحديث أصلا عن وجود فعلي لهذه الآداب، ثم كيف عبرت عن ذاك الصراع؟ وكيف واكبت تحولاته؟ وكيف خضعت بدورها إلى تحولات موازية؟

## – المبحث الأول: الرواية التاريخية والخيالية في مؤلفات مسلمي اسبانيا

تعتبر الرواية عمل فني يعتمد على عنصر الحكاية التي لها بداية ووسط ونهاية؛ فالبداية تكون مشوقة مثيرة، تجذب القارئ، وبعدها تأتى مرحلة الوسط فتتوالى الأحداث ويتأزم الصراع ويزداد القارئ تشوقا. حتى تصل إلى الذروة، وبعدها تأخذ الأحداث في الهبوط وتبدأ العقدة تتكشف، ويأخذ الصراع في الحل بالتدريج حتى يصل إلى النهاية.

والنهاية في الرواية نوعان نهاية معقولة، يقدم الكاتب فيها الحل؛ ونهاية مفتوحة، لا يقدم فيها

الكاتب الحل، ولا ينهي المشكلة أمام القارئ ولكن يجعله يحس بها ويدفعه إلى البحث عن حل لها.

ومن أهم عناصر الرواية الشخصية، والحدث، الصراع، البداية، الوسط، والنهاية. فقد عرفت الرواية مثلها مثل كل أنواع الابداع الأدبي مراحل تطورت خلالها وبرزت كعنصر مهم ومكون للشخصية الأدبية الأندلسية. ولكن مع تغير الظروف والمعطيات في بلاد الأندلس تأثر الابداع الأدبي مثله مثل مجالات عديدة بالمحن والنكبات التي حلت على البلاد والعباد.

على أنه بالرغم من كل ذلك لم يتوقف الابداع الأدبي، ولكنه طرأ عليه تغييرا في المقاصد، فأصبح يوظف كسلاح في حركة المقاومة الايديولوجية التي خاضها مسلمو اسبانيا ضد قوى الظلم والطغيان التي حاولت جاهدة بكل ما أتيت من سبل ووسائل طمس معالم الشخصية الإسلامية في بلاد الأندلس.

**1)– الرواية التاريخية: هي** ضرب من الرواية يمتزج فيه التاريخ بالخيال، تهدف الرواية التاريخية إلى تصوير عهد من العهود أو حدث من الأحداث الضخام بأسلوب روائي سائغ مبني على معطيات التاريخ ولكن من غير تقيد بها أو التزام لها في كثير من الأحيان، والواقع أن الروايات التاريخية . ليس معناها العميق الحدوث في الزمن الماضي فهي رواية تستحضر ميلاد الأوضاع الجديدة.

فهي تصور بداية ومسارا وقوة دافعة في مصير لم يتشكل بعد. وهي عمل يقوم على توترات داخلية في تجارب الشخصيات تمثيلا لنوع من السلوك والشعور الإنساني في ارتباطهما المتبادل بالحياة الاجتماعية والفردية، كما تمثل بالضرورة تعقيدا وتنوعا في الخبرة والتجربة.

والرواية التاريخية تختلف عن ذلك النوع من الروايات الاجتماعية التي تتطلب استقرارا. فلكي "تصنع" تلك الروايات شريحة من الحياة يجب أن يكون الواقع مستقرا هادئا تحت مبضع الروائي. مع الأخذ بعين الاعتبار أن الرواية التاريخية لا تأخذ مجتمعها كقضية مقرة، هادئا راسخا تحت عدستها، تدرس تدرجاته وتعدد ألوانه، فهي تواجه مجتمعا بعيدا عن الثبات والرسوخ. وينتقل الاهتمام بدلا من التدرجات وتعدد الألوان إلى مصير المجتمع نفسه.

وتصبح لغة الأفراد سؤالا يدور حول "أتقف مع هذا المجتمع أو ضده "وإجابة تجعلهم يطابقون بين أنفسهم وبين فكرة ما أو دور ما. فهناك حلبة معركة أمام طاقات البطل وهو يشق طريقه إلى المجتمع وخلال المجتمع، لا بمواهبه وطاقاته الفردية فحسب بل خلال متغيرات في علاقات الواقع الذي لم يعد مصطلحا ثابتا متجانسا.

فقواعد الصعود قد استقرت ثم هوت واضمحلت وأصبح على إرادته الفردية في عصر الثبات والاستقرار أن تكون جزءا من مصير اجتماعي اتخذ شكلا، وتصاعدا مدرجا. ولكن تلك الدرجات بدأت تذود عن وضعها المغلق أمام الوافدين الجدد المتسلقين بقوة إرادتهم وطاقاتهم الفردية المتأقلمة وحدها.

وتقوم الرواية التاريخية باستخلاص فردية الشخصيات من الطابع التاريخي الخاص لعصرهم لا من مجرد أزياء العصر. فنرى فولتير وديدرو قد وضعوا رواياتهم التاريخية في زمان ومكان متخيلين، ومع ذلك أبرزوا ملامح الصراع الماثلة في عالمهم بواقعية جريئة نفاذة، أما فيلدنج فقد اتخذ عنده مكان الفعل وزمانه طابعا تفصيليا ملموسا في الأشخاص والأحداث. وكانت الرواية التاريخية عند فولتير

إعداد فكريا للثورة الفرنسية، واستهدفت إبراز ضرورة تحويل المجتمع غير المعقول للحكم الإقطاعي المطلق.

أما الرواية التاريخية عند مسلمي اسبانيا فكانت أغلبها ذات أصل عربي، وهي حكايات تتخللها وتزيدها طلاوة من حين لآخر مشاهد من حياة عيسى وموسى ويعقوب عليهم السلام عموما، ومحمد صلى الله عليه وسلم وصحابته على وجه الخصوص. وهي تتسم جميعها بسمة ظاهرة وهي توارد أحاديث العجائب في ثناياها.

ومن بين الاهتمامات التي شغلت حيزا كبيرا في الروايات التاريخية التي كتبها مسلمو اسبانيا خلال القرنيين العاشر والحادي عشر الهجريين الموافق للقرنيين السادس والسابع عشر ميلاديين سردهم لسيرة بعض الرسل وانجازاتهم، متخذين في ذلك سبيلا لإعلان مقاومتهم الايديولوجية ضد كل الزيف والتحريف الذي أدخله النصارى الكاثوليك على وجه الخصوص في حياة هؤلاء الرسل، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كانت عبارة عن وسيلة تثقيفية في محيط تميز بالتعصب والديني.

*- **القصص حول حياة وتاريخ الرسل:** تتصل بهذا النوع من التأليف، من حيث أسلوبه والهدف من وضعه واستخدامه، كتب عديدة أخرى اهتم فيها مسلمو اسبانيا بتناول قصص الأنبياء والمرسلين التي ترددت في أسفار العهد القديم وفي الأناجيل، لإعادة صياغتها في صيغ موافقة لتصور الإسلام ولتصوراتهم لهؤلاء الأنبياء والمرسلين، ولمجريات حياتهم بين قومهم، ولمعجزاتهم وعلاقاتهم بالوحي وبربهم، في محاولة منهم لرسم حركة الجدال الذي دار بين مسلمي إسبانيا والنصارى الكاثوليك.

ومن بين الرسل الذين أخذوا حيزا كبيرا واهتماما بالغا في الانتاج الروائي الذي خلفة مسلمو اسبانيا سرد سيرة رسول الأمة محمد صلى الله عليه وسلم، وذكر مغازيه وانجازاته. فقد شكل لهم الاهتمام بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ومعجزاته مادة ضرورية وصلبة لتدعيم هويتهم الدينية؛ بالدفاع عن نبيهم وعن صحة نبوته، التي كانت موضوع جدال بينهم وبين النصارى الإسبان، الذين لم يقصروا في العمل على نفيها ودحضها.

فقد تعرض بعض الأدباء المسلمين في اسبانيا إلى سرد حياة رسول الأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من خلالها تناول هؤلاء على شكل عمل قصصي سلسلة من الحكايات حول مولده وشبابه ومغازيه، وأخبار نفر من صحابته الأولين الكرام.

ويمكننا في هذا السياق عرض نماذج من الكتابات حول سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ويمكن أن نمثل على أولها، بكتاب "الأنوار" "Libro de las Luces" الذي هو ترجمة أعجمية لكتاب أبي الحسن البصري في قرابة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وسيرته[1]. ولقد جاء هذا الكتاب في أصله العربي في نسختين مخطوطتين لم تنشر لحد الآن أية واحدة منهما. أولاهما: "**انتقال أنوار مولد المصطفى المختار ومعجزته ومغازيه**". وثانيتهما: "**الأنوار ومفتاح السرور والأفكار في مولد النبي المختار**". أما الترجمة الألخميادية لهذا الأخير فنشرها الباحث "فدركو كورينتيكر دوبة".

والكتاب في حد ذاته عبارة عن سرد لقرابة الرسول وسيرته. تنطلق هذه القرابة فيه من خلق الله تعالى لآدم عليه السلام، وتعرج على الأجيال الأولى من الأنبياء، لتصل إلى ميلاده صلى الله عليه

[1]- فريدة بنعزوز، النثر الموريسكي أو الأندلسي المتأخر، الشبكة العنكبوتية:.www.Google Fr . مقال مسحوب بتاريخ: 23 . 03 . 2012، بتوقيت: 16,55 سا. ص: 2.

وسلم وطفولته. ويستقطب المؤلف هذه القرابة من خط جامع وواصل بين محطاتها، يتمثل في النور الذي وضعه الله على جبهة أب الأنبياء، وجعله ينتقل إلى ذريته من الأنبياء، لكي يستقر في النهاية على جبهة المصطفى عليه الصلاة والسلام.

أما سيرته، فلقد جاءت في هذا الكتاب متعقبة لبعض مجريات حياته إلى وفاته صلى الله عليه وسلم؛ متوقفة على مراحل دالة منها، متعلقة ببداية تلقيه للوحي، وببعض معجزاته، وبمعراجه، فضلا عن بعض أحكامه وأوصافه وشمائله[1].

جاءت هذه الترجمة الأعجمية لهذا الكتاب في شكل رواية، لم تفتقر أبدا، على احتوائها لمواد عقدية وأحكام شرعية، وعناصر التشويق التي وعد بها كاتبها جمهوره. وهو الكاتب الذي دل في كثير من فصولها على قدرته السردية وكفاءته الأدبية، المتمثلة عنده في ردف قصصه بعضها ببعض، ليحولها في مجموعها إلى رواية فرسانية إسلامية شيقة متميزة برقة أسلوبه ودقته، وبدقة رسمه لشخصياته وتوليده لتفاصيل الأحداث والوقائع.

ولعل النبي الذي حظي بقصص ألخميادية عديدة، هو نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام. ولا عجب في ذلك، فلقد احتاج مسلمو إسبانيا إلى هذا النوع من القصص لينافحوا بها عن تصوراتهم الإسلامية لعيسى عليه السلام، في مقابل التصورات التي كان يحملهم عليها النصارى لهذا الرسول التي لم تكن لتحترم، في رأيهم، لا وحدانية الله ولا تنزيهه.

ومن أهم المحاور التي سيقت في سرد سيرة نبي الله عيسى عليه السلام نذكر قصة ولادته وما

[1]- فريدة بنعزوز، المرجع نفسه. ص: 2.

رافق هذه الولادة وأحاط بها من وقائع غريبة ومعجزات باهرة. ولقد اعتمد مسلمو اسبانيا في إعداد هذه القصة على ما جاء عن موضوعها في القرآن الكريم، وفي أناجيل أخرى غير معتمدة بين النصارى، الذين يرون بأنها من تلفيق مسلمي اسبانيا ودسهم عليهم.

ومن بين الروايات الواردة في سرد حياة نبيي الله عيسى عليه السلام نذكر تلك الرواية التي ألفها أديب مجهول خلال القرن السادس عشر وأسماها بـ"**حديث الجمجمة التي مر بها عيسى**" ومن خلالها يحاول الأديب المسلم وصف الجحيم وعذابها.

ضمن السياق ذاته يمكننا عرض نموذجا آخر من الإنتاج الألخميادو، الذي حاول صاحبه من خلاله عرض قصة سيدنا يوسف عليه السلام؛ من خلالها تم سرد حكاية سيدنا يوسف عليه السلام مع زوجة عزيز مصر، المسماة عندهم بـ "ربيعة"، بتفاصيل شيقة عن جميع ما دار بينهما، ومقاومته لدعوتها. ولقد اتخذوا من سورة يوسف في القرآن الكريم، ومن تفسيراتها عند الطبري والبيضاوي نواة صلبة لتشكيل هذه القصة. كما أنهم قد أحالوا للغرض نفسه على قصص الأنبياء للثعلبي وعلى رواية كعب الأحبار[1].

ومن بين النماذج التي تطرقت إلى عرض جوانب من حياة الرسل والأنبياء نذكر كتاب آخر[2] ألفه أحد مسلمي اسبانيا[3]، تعرض من خلاله إلى سرد معجزات المسيح عيسى عليه السلام، مع

---

[1]- فريدة بنعزوز، المرجع السابق. ص: 6.

[2]- مخطوط باللغة الألخميادية موجود تحت رقم: 1650 بالخزانة الوطنية بمدريد.

[3]- صاحب المخطوط مجهول، وهذه الظاهرة تكررت غالبا . عدم ذكر اسم صاحب المخطوط . تخوفا من ملاحقة عمال محاكم التحقيق، التي كانت تلاحق أي واحد لمجرد الشك فيه.

عرض لشخصيات أخرى في سياق الحديث عنه؛ كما بين في السياق نفسه المعجزات التي آلت إلى محمد صلى الله عليه وسلم[1].

تتصل بهذا المخطوط، من حيث نوعه والهدف من وضعه واستخدامه، كتب عديدة أخرى اهتـم فيها مسلمو اسبانيا بتناول قصص الأنبياء والمرسلين التي ترددت في أسفار العهد القديم وفي الأناجيل[2]، لإعادة صياغتها في صيغ موافقة لتصور الإسلام ولتصوراتهم لهؤلاء الأنبياء والمرسلين، ولمجريات حياتهم بين قومهم، ولمعجزاتهم وعلاقاتهم بالوحي.

نذكر أيضا قصة تضحية سيدنا إسماعيل عليه السلام، التي تضمنت حكاية ابتلاء نبي الله وخليله إبراهيم عليه السلام في ولده واستجابته لربه، المتمثلة في همه بذبحه، وطاعة هذا الولد لوالده ولإلهه بقبوله هذا الأمر. وبطبيعة الحال، فالذبيح في هذه القصة، ليس هو إسحاق عليه السلام كما ورد في العهد القديم، وكما هو متداول في الذاكرة الدينية اليهودية والنصرانية، بل إسماعيل عليه السلام، كما هو شائع في الذاكرة الشعبية للمسلمين[3].

والواقع أن هذا الضرب من القصص كثير عند مسلمي اسبانيا. كما أنه قد طال بالتناول أشهر أنبياء بني إسرائيل؛ بحيث تتوافر فيه حكايات عن موسى، وعن داوود، وعن سليمان وعن آخرين، عليهم جميعا صلوات ربي وسلامه.

---

[4]- دي إيبلزا ميكال، مخطوط قصصي نموذجي عربي، ألخميادي للقضايا اللغوية والأدبية والعقائدية في الترجمات الموريسيكية، ضمن أعمال المؤتمر العالمي الثالث عشر للدراسات المورسكية – الأندلسية حول : الأبعاد العقائدية والفكرية في الأدب الألخميادو، (المرجع السابق).. ص: 47 .

[1]- دي إيبلزا ميكال، المرجع نفسه. ص: 47

[2]- فريدة بنعزوز، المرجع السابق. ص: 6.

كما اعتنى مسلمو اسبانيا بسرد سيرة وبطولات رسل وأنبياء الله، ومن هؤلاء نذكر سيدنا اسماعيل عليه السلام؛ ومن النماذج التي كتبت بهذا الصدد نذكر قصة تضحية إسماعيل عليه السلام، التي تضمنت حكاية ابتلاء نبي الله إبراهيم عليه السلام في ولده واستجابته لربه، المتمثلة في همه بذبحه، وطاعة هذا الولد لوالده ولإلهه بقبوله لهذا الأمر.

وبطبيعة الحال، فالذبيح في هذه القصة، ليس هو إسحاق عليه السلام كما جاء في العهد القديم، وكما هو متداول في الذاكرة الدينية اليهودية والنصرانية على حد سواء، بل إسماعيل عليه السلام، كما هو شائع في الذاكرة الشعبية للمسلمين، بناء على ما ورد في القرآن الكريم وسنة نبينا محمد عليه صلوات ربي وسلامه.

ولا يخفى ما في هذه المنافحة الألخميادية في الذبيح، من عض بالنواجذ على هويتهم العربية، عبر احتفائهم بإسماعيل عليه السلام، وتبجيلهم له، ليس بوصفه نبيا فقط، بل من حيث كونه جد العرب وجد نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى اقتدائهم خليل الله ابراهيم وابنه اسماعيل عليهما السلام بخلق الصبر واحتمال الابتلاء طمعا في الفوز برضا الله سبحانه عز وجل.

كما اهتم مسلمو اسبانيا بالتأريخ للأحداث التاريخية على فترات متباينة، ذلك أن لهذا الصنف مميزاته وخصائصه. فقد اتسمت بعض المخطوطات الألخميادية بالطابع الأدبي لهذه النصوص، ألا وهو الطابع القصصي حتى تكف عن تسميتها بالخرافات، وهي تسمية قد تضفي على محتواها حكما دينيا يجعلنا نقف موقف أولئك الذين ينظرون إلى الروايات الإسلامية بالمنظار

النصراني، والحال أنه لا يمكننا أبدا اعتبار نصوص الكتب السماوية اليهودية والنصرانية خرافات؛ ويجدر بنا هنا انطلاقا من مبدأ تنسيق المفاهيم الدينية ومن موضوعية علم التاريخ أن يكون تقسيمها من حيث الشكل والمضمون.

ولرسم صورة واضحة حول هذا النوع من المخطوطات، سوف نعرض نموذجا عنها تمثل في مخطوط[1] غلب عليه الطابع القصصي أي أن نصوصه قابلة للإلقاء، الشيء الذي يدل على سلاسة أسلوبها وقيمتها الأدبية هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى تستند جميع نصوصه تقريبا إلى شخصيات وردت في القرآن الكريم، وفي التدوين الأول للتاريخ الإسلامي.

ومثل هذه القصص كانت لها علاقة مباشرة بكل ماله اتصال بالنصوص الإسلامية، كالقرآن الكريم والحديث الشريف، وكتب الفقهاء في الشريعة الإسلامية، وبالتالي فلا يمكن اعتبار هذه النصوص تدوينا عربيا أو ألخميادیو لتقاليد شفاهية[2].

وهذا المخطوط مزيج بين اللغة العربية والألخميادية فقد ورد جل المخطوط باللغة عربية[3] في تراكيب مستقيمة، ومفردات سهلة نسبيا، إذا ما استثنينا بعض الألفاظ غير المفهومة، كما تخللته بعض المقاطع الشعبية. وفيما يخص بعض النصوص الألخميادية فكانت مجرد ملاحظات هامشية جاءت لتفسير بعض الكلمات العربية أو لتعطي ما يقابلها في الاسبانية من ذلك: "حنا"

---

[1]- مخطوط تحت رقم: 1668 عثر عليه في مكتبة الإسكوريال باسبانيا.

[2]- دي إيبلزا ميكال، المرجع السابق. ص : 43.

[3]- إن العودة إلى الكتابة العربية راجع إلى أن المسلمين الذين ألفوا هذه المخطوطات حصل ذلك في لمنفى أي خارج اسبانيا، وبالتالي فإنه لم يعد من الضروري اللجوء إلى السرية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن قداسة الحرف العربي تعود إلى أنه لغة القرآن، ولهذا فقد حافظ الكثير من مسلمي اسبانيا على استعمال اللغة العربية.

و"نستسهموا"[1]. ومن بين ما تم عرضه بهذا الصدد نذكر هذا المقتطف[2]:

**" بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد الكريم وآله وسلم تسليما، أر أن ذى دالش يشياتا دالن بانتشنكان ذا ذو ألقياد، فوارون أججنتدش أن شرغش أو كذبن دا أنردش مشلماش يأنتار ألش سياتاعليماش دكتش افصالدش دا الظهر كما نسرون أترتردا نوا شترش ذوالش اكد أن ذيش ..."**

وترجمتها إلى اللغة العربية يكون بالشكل التالي:

**"بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد الكريم وآله وسلم تسليما، في أحد أيام شهر السابع من السنة خمسة وعشرين اجتمع في سرقسطة جماعة من المسلمين المحترمين، ومن بينهم سبعة علماء فقهاء مقتدرين، وبعد الظهر ابتدءوا بمعالجة مشكلتنا، وكل واحد منهم ..."**

وهكذا يصبح التطور فارضا للسلطة التي تتمتع بالقدرة على فرض ما تريد بمالها من قوة وليس بما يكمن فيها من رغبة مجردة في الحفاظ على النظام وتمتعهم بالسلطة الإكراهية لتأمين النظام، فقد مثلت الرواية التاريخية ذلك التعبير الفكري عن حقيقة الواقع السياسي، أي أنها عملت على إبراز التفكير والفكر السياسي المعالج للأوضاع القائمة.

فوق كل ذلك فإنها لعبت دورا مهما في توضيح المعتقد الديني، فهي كانت دوما جزءا من الدين، فقد ارتبطت الرواية ارتباطا وثيقا بالدين الإسلامي، ودخلت في صلب العبادات التي يمارسها

[1]- المرجع السابق. ص: 47.

[2]- الكتاني، المرجع السابق، ص: 220.

الفرد والجماعة، ولهذا الاعتبار فقد ساعدت في محافظة مسلمي اسبانيا بمقومات شخصيتهم الإسلامية، التي كانت دائما في مواجهة الحرب الشرسة التي أعلنتها ضدها النصرانية الكاثوليكية في اسبانيا.

بهذا شكلت الرواية التاريخية في مؤلفات مسلمي اسبانيا، والتي استلهمت السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي بصفة عامة، حيزا كبيرا واهتماما بارزا؛ فقد استدعى مؤلفوها التاريخ واستلهموه ليقدمون لنا النماذج الإنسانية المشرفة من حضارتنا، ويرصدون جهاد السلف الصالح في شتى جوانب الحياة، دفاعا عن الدين وسعيا لتأسيس مجد غير مسبوق.

وفي بعض الأحيان كانوا يستدعون التاريخ ليعالجوا من خلاله قضايا راهنة أصابتهم بالإحباط واليأس، ويوقظون به الأمل في نفوس الأجيال الجديدة عن طريق إحياء الهمة وبعث العزيمة والإصرار؛ وفي كل الأحوال فإن استلهام التاريخ في الرواية عند مسلمي اسبانيا، كان إبرازا لمعطيات الإسلام العظمية، وإمكاناته الهائلة في تحويل الإنسان المسلم إلى صانع حضارة وباني مجد، وجندي ظافر في معاركه ضد الشر والتوحش.

**2)– القصص والروايات حول المغازي:** بالإضافة إلى هذا النتاج الأدبي الألخميادي الذي يبرهن على تمسك مسلمي اسبانيا بهويتهم الإسلامية، نجد اهتمام مسلمي اسبانيا بالتأليف فيما تعارف عليه عند المختصين بـ " المغازي". فلقد ترك لنا هؤلاء، ضمن سجلهم النثري، نتاجا أدبيا، لم يلتفت إلى هذا الأمر، ليصر على تمحوره حول ذاته الخاصة وتقوقعه فيها؛ تشبثا منه بهوية مهددة.

فقد استجاب هذا النوع من الأدب الألخميادي في أصله إلى هذه الاستراتيجية التي أملتها عليه سياقات وجوده التاريخية، المتميزة باضطهاد السلطات الدينية والسياسية الإسبانية له ولأهله، ومراهنتها على اجتثاثهم عن هويتهم واستيعابهم في هويتها والقضاء المبرم عليهم. لذلك، حفل السجل المذكور بعدد هائل من الكتب التي عملت على مواجهة هذه السلطات لإنقاذ تلك الهوية والمحافظة عليها.

وهذه الحكايات هي عبارة عن تذكير بالماضي الإسلامي وبإنجازات الفتوحات، وتذكير كذلك بإمكانية وقوع المعجزات بالصمود والإيمان بالله. لهذا فبالإضافة إلى البعد الأدبي للمغازي فهي كذلك ذات بعد سياسي وديني، ونوع من الخطاب الحماسي غير المباشر في تلك الفترة التي شهدت عدة حركات مقاومة إسلامية كانت أشهرها حرب غرناطة الكبرى عام 965هـ/1568م والتي تزعمها محمد بن أمية.

إلا أن كتابة هذه الحكايات من طرف مسلمي اسبانيا خلال القرن الهجري الموافق للقرن السادس عشر ميلادي لا ينفي وجودها سلفا كحكايات شفهية. وقد لجأ هؤلاء إلى هذا النوع من الكتابة لمحاولة إنماء الروح الدينية في الوقت الذي كانوا يعانون من الاضطهاد والقمع الممارس عليهم من طرف محاكم التحقيق.

ومن بين الانتاج الأدبي الذي خلفه مسلمو اسبانيا بهذا الصدد نذكر "كتاب المغازي الموريسكية"، هذا الأخير عبارة عن مجموعة من الحكايات الملحمية المجهولة المؤلف، والتي تروي أحداث بعض غزوات العهد الإسلامي الأول، وتتخذ لها كبطل رئيس عليا بن أبي طالب رضي الله

عنه. وقد كتبت هذه المغازي في القرن السادس عشر باللغة الألخميادية. فكتاب "المغازي الموريسكية" يضم تسع حكايات تختلف في أزمنتها وأمكنتها لكنها تلتقي في موضوع واحد وهو الغزوات الإسلامية. وسيكون لنا وقفة مع حكايتين من هذا الكتاب.

الحكاية الثانية، والتي تنسب إلى الراوي السابق، فتحكي عن ملك اليمن " الحارث بن أبي شمر الغساني" الذي بعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم رسالة مع زيد. فلما سمع الحارث الرسالة التي قرأها عليه أحد بطارقته، احتار في أمره، وبعد مرور تسع أيام أقام الحارث مأدبة ليجتمع كل الناس، وأمر أحد وزرائه بأن يقرأ عليهم رسالة.

فلما قرأها قام عجوز فنصح الملك ألا يخرج لمحاربة النبي صلى الله عليه وسلم ونصح الحارث أن يرسل عمرو بن معد يكرب الزبيدي لملاقاة النبي صلى الله عليه وسلم، حتى إذا انتصر عمرو كانت لـه هدية الحارث، وإذا انهزم دفع الحارث الجزية للرسول صلى الله عليه وسلم وبقي في ملكه.

فعمل الحارث بنصيحة الشيخ. وقد خرج الرسول صلى عليه وسلم بجيش تعداده اثني عشر ألف جندي، وخرج عمرو بجيش قوامه عشر آلاف مقاتل؛ ولما التقى الجيشان بدأت المعركة بينهما، فقتل عمرو مقاتلان وفتى وعجوزا. ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم عليا لمنازلته فطال النزال بينهما[1].

والتقيا من جديد في اليوم الموالي فهزم علي عمرو، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم بالإسلام فرفض أن يفعل تحت القوة، فأطلق النبي صلى الله عليه وسلم سراحه بأمر من الله. ثم عاد عمرو في

[1]- عبد العالي بروكي، كتاب المغازي الموريسكية استلهام الملحمة واضفاء طابع البطولة على الحكايات، مجلة القدس العربي، 23 أوت 2011م، الشبكة العنكبوتية موقع: www. Google. Fr ، 2011/11/04م، 14،05سا. ص: 1.

اليوم الموالي رفقة مائتين من رجاله فأسلموا جميعا. وبعد ذلك عاد عمرو إلى الحارث وأخبره بإسلامه ونصحه بدوره أن يسلم فأسلم هو و من عنده.

في حين تدور مجريات الحكاية الخامسة حول إحدى أشهر الغزوات وهي غزوة حنين، رغم أن الحكاية تحمل عنوان آخر وهي "معركة بدر وحنين"، وهي مروية عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه. وملخص الحكاية أن مالك بن عوف النصري بعد ما سمع بغزو الرسول صلى الله عليه وسلم لمكة وبتحطيمه للأصنام، دعى جميع القبائل للتحالف معه ضد محمد صلى الله عليه وسلم.

فاجتمعت له قبائل بني النضير ومزيان وبنو عامر وبنو الملوح، إضافة إلى قبائل هوازن وثقيف اللتان كانتا لمالك. وكان عدد الجيش ثلاثين ألفا ما بين فارس وراجل. وجاء إبليس في هيئة فارس فحكى لهم ما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة فزاد غضبهم.

وجاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره باستعداد مالك لمهاجمتهم وجاء جبريل عليه السلام فأكد كلام الأعرابي؛ حينئذ جمع الرسول صلى الله عليه وسلم الناس وحرضهم على الجهاد. فخرج في جيش مكون من اثني عشر ألف جندي، وفي الطريق نحو مالك لقي المسلمون ثعبانا ضخما بوادي، كانت عليه شجرة ضخمة كانت تعظمها قريش[1]، حيث كلمه الرسول صلى الله عليه وسلم فأخبره بأنه جني مؤمن جاء صحبة اثني عشر ألف جني للجهاد[2].

---

[1]- الرواية تختلف عن تلك التي ذكرها ابن هشام في السيرة إذ قال: "كانت كفار قريش و من سواهم من العرب لهم شجرة عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواط يأتونها كل سنة فيعلقون أسلحتهم عليها، ويذبحون عندها، ويعكفون عليها يوما. قال الحارث بن مالك: فتنادينا من جنبات الطريق: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. قال الرسول صلى الله عليه وسلم: الله أكبر، قلتم والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، قال إنكم قوم تجهلون".

[2]- عبد العالي بروكي، المرجع السابق. ص:1.

فالتقى جيش المسلمين بجيش مالك وقام إبليس بإعلان موت النبي صلى الله عليه وسلم ففر المسلمون ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم عمه بنداء المسلمين فرفع الله صوته وسمعوه جميعها ثم عادوا بينما بقي علي يصارع جيش العدو حتى قال عنه جبريل عليه السلام أن الملائكة أعجبت به، ولحق به النبي فوجد عنده سبعين جرحا؛ فأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم قدحا من الماء ومر بيده على الجراح فشفيت وبعد ذلك تنازع علي رضي الله عنه مع ذا الخمار فقتله علي رضي الله عنه، فتقدم علي رضي الله عنه وتبعه المسلمون وانتصروا على عدوهم.

كان هدفنا من خلال هذا التلخيص للحكايات، هو إبرازها في شكلها العام بغية تقربنا من مضمونها حتى يتسنى لنا رصد بعض من جوانبها التاريخية والتي تطرقت إليها كتب السيرة؛ فمن خلالها تم إبراز بعض من التراث الألخميادي المكتوب وكذا مظاهر ارتباط مسلمي اسبانيا بالسلف الصالح وبالعهد الإسلامي الأول في خضم محنتهم، حيث لجأوا إلى مختلف الوسائل المتاحة والممكنة من أجل تحفيز بعضهم البعض في مواجهة حملات الإبادة والاقصاء التي تعرضوا لها على يد محاكم التحقيق والتي لازال التاريخ يحتفظ بها ويسجلها.

وعموما فما يمكن استخلاصه من هذا النموذج الروائي الألخميادي أنه لم يفتقر هذا النوع من التأليف أبدا، على احتوائها لمواد عقدية وأحكام شرعية، إلى عناصر التشويق التي وعد بها كاتبها جمهوره. وهو الكاتب الذي دل في كثير من فصولها على قدرته السردية وكفاءته الأدبية، المتمثلة عنده في ردف قصصه بعضها ببعض، ليحولها في مجموعها إلى رواية فرسانية إسلامية شيقة متميزة برقة أسلوبه ودقته، وبدقة رسمه لشخصياته وتوليده لتفاصيل الأحداث والوقائع.

**– المبحث الثاني: الرومانسية والموعظة في الانتاج الروائي** يتحول النص الروائي عبر تشكلاته واشتباك خصائصه، إلى حاضن لاستقبال المعاني من نصوص أخرى سابقة، من أجل الإثراء وفقا للتماثل والتطابق، فالنص من هذا الاعتبار؛ هو ممارسة دلالية يمنحها علم العلامات امتيازا، لأن عمله الذي يتم بواسطته اللقاء بين الفاعل واللغة عمل مثالي، ومثاليته متأتية من خاصية قدرته على الجمع والالتفاف والحيازة، وقابلية الاستقبال اعتمادا على ذهنية وبنية قابلة للإثارة والتجاوز للنمطية. سيما حين تكون المعرفة ضاغطة ولامة لجزئياتها، إذ تعمل على تطوير إمكانية المقاربة.

فقد سعى مسلمو اسبانيا من خلال ابداعهم الأدبي إلى خلق محيط خاص بهم، يمكنهم من تحقيق ذاتهم في وسط حاول مسخ هويتهم والقضاء على كل مقوماتهم؛ فقد كان الانتاج الابداعي بمثابة سلاح يثبتون من خلاله وجودهم وكينونتهم، ويفرضون كلمتهم على كل من قال بأن هذا المجتمع قد قضي عليه ولم يبق له وجود.

كما حاولوا من خلال هذا الانتاج نشر الأخلاق الحميدة، وضرورة التمسك بالصبر على الابتلاء من أجل الخروج من هذه الأزمة التي كانوا يرون دائما، أنها زائلة مهما طالت، وأن أندلسهم ستعود لهم يوما كما كانت على سابق عهدها، وأن عدوهم سيكون مآله للسقوط والزوال، كما هي عادة النهايات السعيدة لمعظم الروايات والقصص.

1)- **الرواية الرومانسية:** هذا النوع من الإنتاج الأدبي يعتمد على سرد نثري طويل تصف شخصيات خيالية وأحداث على شكل قصة متسلسلة، كما أنها أكبر الأجناس القصصية من حيث الحجم وتعدد الشخصيات وتنوع الأحداث؛ وعلى العموم فهذا النوع من الرواية يعتمد على السرد بما

فيه من وصف وحوار وصراع بين الشخصيات وما ينطوي عليه ذلك من تأزم وجدل كما تغذيه الأحداث المتنوعة الواردة فيه.

والرواية الرومانسية يغلب عليها قصص الحب والمثالية، ولا تلتفت إلى مشكلات المجتمع أو الحكم أو المشكلات السياسية الأخرى. وتقوم عقدة الرواية على المغامرة العاطفية، وتتابع الأحداث فيها يعبر عن القلق الوجداني الذي يحيط بأبطال الرواية لكي يتم الوصول إلى تبادل العلاقة المثالية من الحب.

أي أن الرواية الرومانسية تنصب على العلاقات الاجتماعية السائدة بين الرجل والمرأة، ولكنها لا تكون فقط في صورة علاقة الحب الرومانسي بل تمتد إلى مختلف أشكال العلاقات الاجتماعية بين الرجل والمرأة مثل: موت والد البطلة واحتياجها الحنان والحب الذي تفتقده بموت الأب، أو فرض السيطرة من جانب الرجل مثلا في علاقة زواج والتي تعكس الحرمان العاطفي الذي يتم البحث عنه للوصول إلى حد الإشباع والاطمئنان.

ويشير بعض النقاد إلى أن الهدف من الرواية الرومانسية هو مجرد تقديم التسلية وتصوير للعلاقات الاجتماعية التي تبحث عن الحب وتشعر بالحرمان العاطفي. لكن هذا الرأي لا يوجد فيه شيء من الصحة، فالرواية الرومانسية على العكس تماما فهي تقدم قضايا هامة في المجتمع.

فالمحيط الحسي هام لكل فرد في المجتمع لكي يخلق شخصية سوية تصلح المجتمع، كما أن مناقشة العلاقات الاجتماعية المختلفة بين الرجل والمرأة تؤثر تأثيرا لا حد له في أي مجتمع من المجتمعات من خلال مناقشة الظلم أو الفشل والاحباط وغيرها من المشاكل النفسية التي تؤثر سلبا أو

ايجابا على المحيط الاجتماعي، ولابد أن تكون اللغة المستخدمة في هذا النوع من الروايات تضم تراكيب قوية تنشط العاطفة.

فمسلمو اسبانيا بالرغم من كل الظلم والاضطهاد والمتابعات، التي من شأنها توقف كل عملية ابداع ثقافي، إلا أنهم عمدوا على مخالفة هذه القاعدة، وأنتجوا أدبا خاصا بهم ينافس نظيره الإسباني على وجه الخصوص، والأوروبي عموما. ومن بين ما أنتجوا في هذا السياق قصصا وروايات رومانسية عمدت على اضفاء خاصية متفردة قادت أصحابها إلى عرض مجموعة من العواطف والأحاسيس التي كانت تجول بداخلهم.

ومن بين الروايات التي ألفت في هذا السياق نذكر قصة الموسومة بـ "حمام في إنتاجها بين الاقتباس عن أصل عربي مشرقي سابق وبين الإبداع الابتدائي. ولقد كانت من أولى النصوص الألخميادية التي تطبع[1].

تجري أحداث هذه القصة ووقائعها في قرطبة، حيث ترسم لنا مشاهد من الحياة اليومية لساكنها خلال أوج ازدهارها. وفيها يبحث العاشق عن محبوبته الجميلة بين أزقة هذه المدينة العامرة، منشدا أشعاره التي تعبر عن ولهه بها، قبل أن تستجيب إلى حبه، ليتزوجها في نهاية القصة[2].

والجدير بالتنبيه عليه بهذا الصدد، أنه لم تكن من عادة مسلمي إسبانيا في إنتاجهم الأدبي الإحالة على عصور الأندلس المتقدمة كما هو الشأن في هذه القصة؛ فما عهده الباحث في هذ المجال هو عودة هؤلاء إلى التاريخ العربي الإسلامي المشرقي المزدهر، ليكون عونا لهم على دغدغة

[1]- أول من نشرها الباحث إغناسيو سايفدرة سنة 1881م، وأعاد نشرها أسين بلاثيوس في عام 1924م.

[2]- آنجيل جنثاليت، المرجع السابق. ص:526

عواطفهم وأحلامهم بتجاوز محنتهم ومأساتهم المعروفة. وذلك هو ما يفسر عودتهم المكثفة إلى كتب السير والمغازي والفروسية العربية والإسلامية وآدابها، لينتجوا منها، ومن خيالهم رواياتهم وملاحمهم.

يتضح بأن هذه القطعة الأدبية الألخميادية تنتمي إلى الرواية العربية بكل المقاييس المعيارية لهذا النوع الأدبي. فهي قصة كلاسيكية تشكلت من ثوابت بنائية تتمثل في سرد حكايات تحتفي بحب ثابت ومتواتر ومطارد، تحف به المخاطر والممنوعات من كل جانب، وتتخللها قصص الشجاعة والثبات على الموقف.

2)- **الموعظة والحث على التمسك بالأخلاق في الانتاج الروائي الألخميادي:** ألف مسلمو اسبانيا نوعا خاصا من الانتاج الروائي، الذي كان الهدف الرئيس منه محاولة غرس الأخلاق الكريمة، والتشبث بمبادئ الدين الإسلامي، في محيط عدواني سعى بكل ما أتي من سبل وامكانات لمسخ هويهم وشخصيتهم الاسلامية.

في هذا السياق من الانتاج الروائي نجد رواية لمؤلف مجهول عنونها صاحبه بـ:" **حكاية العابد والفاتنة**"؛ وهي عبارة عن سرد لقصة عابد انصرف عن الدنيا إلى عبادة الله بمعبده بأعلى الجبل. وفي ليلة من ليالي خلواته الطويلة بين يدي خالقه، طرقت بابه امرأة، لتقف أمامه بكل ما أوتيت من جمال وفتنة، تدعوه بهما إلى الفاحشة.

ولكي يثنيها عن ذلك، أخذ يخوفها بالنار الموعودة للزناة، مقربا لها صور هذا العقاب، بوضع أصابعه ثم يده بنار موقده تلتهمها التهاما. ولم تستطع الفاتنة تحمل روع هذا العذاب، فسقطت ميتة على أرض معبده. ذلك هو ما كان ينتظره إبليس لكي ينتقم من هذا الورع، فسعى إلى الملك متهما

العابد بقتل المرأة من بعد إشباعه لغريزته منها. فأمر الملك بقتله، فقتل. غير أن الله بعث نفس المرأة لتشهد أمام الملأ ببراءة المقتول وشدة تقواه، وكيف استعصم بتقواه، وكيف جازاه ربه وزوجه بخمسين ألف حورية من حوريات الجنة[1].

وتمثل هذه الحكاية نموذجا آخر من نماذج علاقة الأدب الألخميادي الإسلامي بالآداب الغربية النصرانية. فمن المعلوم أن هذه الآداب الأخيرة تتوافر بدورها، مثلها مثل الآداب العربية الشرقية، على كثير من النصوص التي تتجلى فيها مثل هذه القصة، سواء من حيث موضوعها وغايتها، أو من حيث الثوابت الأساسية لبنيتها وتشكلها.

كما نجد بهذا الصدد أيضا رواية أخرى عنونها مؤلفها بـ "حكاية الفتاة كركيونة". وتروي هذه الرواية قصة فتاة بريئة يحكم عليها أبوها بقطع يديها ونفيها إلى غابة بعيدة، عقابا لها عن رفضها لزنى المحارم الذي دعاها إليه. لكنها لن تموت في هذه الغابة كما كان متوقعا.

فلقد أرسل الله إليها ظبية بيضاء لتطعمها بفمها، وتشفي جروحها بلسانها. وستخرج من هذا النفي عندما سيقع أمير في حبها ليتزوجها ويخلف منها ولدا. لكن سرعان ما ستتهمها أم زوجها في عرضها، لتبعدها صحبة رضيعها إلى نفس المنفى. ولن تكف في هذه الغابة عن التضرع إلى الله عز وجل، ليظهر براءتها ويعيد إليها يديها وزوجها وسعادتها[2].

فإن كانت مثل هذه الروايات لا تصدر عن مرجعية إسلامية واضحة، إلا أنها حاول مؤلفوها

[1]- فريدة بنعزوز، المرجع السابق. ص: 2.

[2]- فريدة بنعزوز، المرجع نفسه. ص: 3.

غرس القيم الأخلاقية في مسلمي إسبانيا. فمن خلالها تجلت دعوتهم إلى ضرورة التشبث بمكارم الأخلاق والصبر على الابتلاء، في انتظار الفرج الإلهي.

نجد أيضا من بين الآثار الأدبية الألخميادية الهامة في مجال القصص، قصة "**العربي و الجارية ومجيئ الاسلام** "[1] وتتعرض هذه القصة بالتقريب إلى وضع المرأة قبل مجيئ الإسلام؛ وتتمحور موضوعاتها حول الآية الكريمة: { **وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ**}[2] حيث تتدخل العناية بواسطة النبي صلى الله عليه وسلم لتنقد هذه الفتاة المحكوم عليها بالقتل ظلما وعدوانا من طرف أبويها الكافرين[3].

من خلال ما تم عرضه من مادة أدبية المعطيات نلاحظ بأن أغلب هذه القصص، تتوخى التعبير عن واقع مسلمي إسبانيا وإمكانية تجاوزه، من خلال المماثلة التي تحرص على إقامتها بينهم وبين شخوصها وأبطالها ومجمل حكايتها. فما أشبه مسلمي إسبانيا رمزيا فيها بالفتاة أركيونة، أو بالتقي المفتون أو بغيرهم.

ويتضح كذلك، مرة أخرى، بأن مسلمي إسبانيا لم يكونوا ليصدوا آذانهم عن الآداب العالمية. فلقد برهنوا بهذا النص وبغيره عن عدم انغلاقهم وتقوقعهم على ذاتهم وعن انفتاحهم على آخرهم؛ بحيث أنهم لم يعملوا دائما وأبدا على إعادة صياغة ما ينهلون منه من آداب غيرهم في ضوء انتماءاتهم الثقافية الخاصة بهم.

---

[1]- مخطوطة ألخميادية محفوظة بالمكتبة الوطنية بمدريد تحت رقم: 4953.

[2]- سورة التكوير، الآية رقم:8.

فانفتاح الأدب الألخميادو على الآداب النصرانية، الذي مثلنا عليه بهاتين الروايتين، لم يقتصر في الانفتاح على ذاك الأدب والتفاعل معه؛ وإنما يبرز أيضا مدى قدرتهما على تجاوز الاختلافات والاحتقانات بين أهليهما، لمواكبة البعد الإنساني المشترك بينهما والتعبير عنه.

**– المبحث الثالث: الوصية والرواية الخيالية في مؤلفات مسلمي اسبانيا**

يحفل هذا النتاج الألخميادي بكثير من المؤلفات المهتمة بإرشاد أهلها أو المعنيين بها إلى سواء السبيل وجادة الطريق. ولقد تغيى منها مسلمو إسبانيا تحقيق أهداف تربوية وأخلاقية بين أوساطهم المهددة بالانصراف عن مكارم الأخلاق الإسلامية، والتفريط فيها، بالنظر إلى اعتمادهم مبدأ التقية، لتجاوز ملاحقتهم من طرف محاكم التحقيق.

**1)– أدب الوصية:** يتعلق الأمر بنوع أدبي مخصوص، وهو أدب الوصية الذي كان شائعا، كما هو معروف، بين العرب وبين المسلمين، ومتواترا فيهم، في الغالب، عن طريق الحكي الشفهي. فلقد دخلت هذه الكتب في علاقات متداخلة مع نظيراتها الإسبانية النصرانية، لتتفاعل معا مع الأهداف والمرامي نفسها.

ومن بين ما خلفه مسلمو اسبانيا بهذا الصدد نذكر نص رسالة الشيخ أحمد الواردة في مخطوط ألخميادي[1] حاول من خلالها مؤلفها حث مسلمو اسبانيا على التمسك بمقومات الدين الإسلامي وقد ورد نصها كما يلي[2]:

---

[1]– مخطوط رقم: 3983 بمكتبة اسبانيا الوطنية بمدريد.

2– ميغيل دي سرفانتس، المرجع السابق. ص: 11.

بسم الله الرحمن الرحيم. صلى الله على سيدنا محمد وآله وحبه وسلم تسليما. هذه وصية النبي صلى الله عليه وسلم. قال العالم وكيل الروضة الشريفة أحمد قال: كنت ليلة الجمعة نتلو كتاب الله عز وجل عند الروضة الشريفة إلى العشاء الآخر، ثم صليت العشاء ونمت، فسبحان من لا ينام، فأتاني النبي صلى الله عليه سلم ووقف علي وقال: يا الشيخ أحمد، عندك شيء من أخبار أمتي؟ فقلت لا يا رسول الله، فقال لي: يا الشيخ أحمد مات من أمتي بين الجمعتين سبع مائة، وماتوا كلهم كافرين إلا سبعة منهم ماتوا على الإسلام، نعوذ بالله، واستحييت من ربي عز وجل ولا بقيت ننظر في وجوههم. وأنا أرسلت إليهم بهذه الوصية ثلاثا وصية. ولا وصية عملوا بها من وصاياي، فخالفوا الروايات واتبعوا أهواءهم وزادوا في الفسوق والفجور والكذب والزنا واللواط، وبقي الغنى لا ينظر في الفقير وقلوبهم وزادوا في قبح أفعالهم وأولادهم، وتركوا الحق واتبعوا أهواءهم، واستقر الزنا، وإذا قرئ القرآن يخوضون في حديث غيره ولا يسمعون القرآن، وإذا دخلوا المسجد يتكلمون بالغيبة والنميمة ويردون في أوقات الصلاة ويعملون كبائر الإثم والفواحش. ومولانا عز وجل قال: يا حبيبي يا رسول الله، أنا أريد أن تبدل صفة أمتك وردهم على (كذا) أقبح الصفات، فقلت يا ربي، بعزتك وجلالك لا تقهر أمتي حتى أبعث لهم وصية، فإذا لم يقيموا أمر دينهم ولم يؤتوا بشيء فحينئذ افعل ما شئت. ويا الشيخ أحمد وبقوا لا يشكرون الله، على إنعامه وإحسانه عليهم ولا يصلون ولا يركعون ولا يصومون رمضان، وبقوا يتبعون أهواءهم ويشتغلوا بالزنا وشرب الخمر. يا الشيخ أحمد، قل لأمتي القيامة قد قربت وباب التوبة تغلق عن قريب، وإذا غلق باب التوبة لا تقبل.

هذه آخر الوصية آخر الشفاعة. قل لأمتي يتوبوا قبل إغلاق باب التوبة ويصوموا ثلاث أيام، واليوم الرابع يعيدوا، ويتوبوا من جميع ذنوبهم ويستغفرون الله عز وجل ويكثرون بالصلاة علي قبل أن تغلق باب التوبة. وهذه الوصية وجدتها بخط أخضر أخصاه (كذا) لي النبي صلى الله عليه وسلم. وهذه الوصية ترسلها من بلد إلى بلد ومن وطن إلى وطن ومن دار إلى دار. والذي تكون عنده ولا يرسلها فنكون أنا بريء منه وهو مخلد في النار.

ومن أرسلها من بلد إلى بلد ومن وطن إلى وطن فأنا شفيعه ويدخل الجنة معي بغير حساب. وقل لأمتي يلون في المساجد ويزكون من أموالهم. وتارك الصلاة إن مرض لا تقف عليه ومات لا تصلوا عليه وإن سلم على أحد لا يرد عليه السلام. وأنا بقيت نستحي من ربي عز وجل من قبح أعمال أمتي، ولا بقيت أقدر أن أقابل الملائكة من أفعال أمتي. قل لأمتي يحملون أهليهم وأولادهم وعيالهم ويصلون في المساجد. يا الشيخ أحمد كل من دخلت هذه في يده ولا يقرأها على الناس فأنا برئ منه، والذي يقرؤها ولم يؤمن بها كأنه لم يؤمن بي. قال الشيخ أحمد كل من لا يؤمن بهذه يموت على غير دين الإسلام. هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. فرحم الله من آمن بها وصدق بهذه الرؤية المباركة النادرة الإسلام. فرحم الله الكاتب والقارئ والمستمع ولمن دعا للكاتب بالرحمة ولوالديه ولجميع المسلمين. كملت بحمد الله تعالى وحسن عونه والسلام. الله الله الله الله الله اللهم انصرنا على الكافرين.

نعرض في السطور التالية وصفا لمخطوطة التي تتضمن الرسالة. تنقسم المخطوطة إلى ثمانية أجزاء، كل جزء منها محفوظ في ملف مستقل، وهذه الملفات هي كالتالي:

– الملف الأول: يضم بعض الآيات القرآنية يعقبها دعاء القنوت وصيغ التشهد والأذان والإقامة.

– الملف الثاني: يحتوي كذلك على آيات قرآنية. والخط الذي كتبت به مادته يشبه الخط نفسه الموجود في أوراق المظروف الأول. الورقة الأخيرة (من وجهين) بها دعاء لناسخ المخطوطة رغم أنه ارتكب عددا هائلا من الأخطاء الإملائية.

– الملف الثالث به صيغة لعمل "حجاب". يلاحظ هنا أن الخط سيئ للغاية، وأن الناسخ (وهو دون شك مختلف عن ناسخ الأجزاء السابقة) لا يجيد قواعد الإملاء.

– الملف الرابع يحتوى على نص رؤيا ابن كثير. يقول شخص يدعى ابن كثير أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، وأنه كلفه بإبلاغ وصية ما إلى الأمة. فتقول الرسالة إن المسلمين يجب أن ينقلوا نص الوصية من بلد إلى بلد ولا يجب أن يتجاهلوها.

فعندما استيقظ ابن كثير وجد الرسالة بين يديه، والحقيقة أن الرسالة شديدة الغموض، إذ لا نتنين ماذا يريد صاحبها سوى أن ننقلها من بلد إلى بلد، وهى تحذرنا أن من لا يفعل ذلك ستحل عليـه النكبات. هناك جزء ثان من المظروف الرابع يتضمن آيات قرآنية وفقرات عن فضائل سورة الرحمن.

-الملف الخامس: به آيات قرآنية وفصل عن تارك الصلاة وعقوبة شارب الخمر، ثم بعض آيات ثم أدعية النبي صلى الله عليه وسلم في المناسبات المختلفة ثم حديث عن كرامات بعض الصالحين.

- الملف السادس: به آيات قرآنية، والخط شبيه بتلك الخطوط التي تكتب بها المخطوطات الألخميادية عادة.

- الملف السابع يتحدث عن فضائل بعض سور القرآن الكريم، وفى الجزء الأخير منه نجد وصفا لكيفية عمل "حجاب" لكل غرض.

- الملف الثامن يتضمن رسالة الشيخ أحمد[1].

من هذا العرض يتبين أن المخطوط جمع بين خصائص المخطوطات الألخميادية أواخر سنوات وجود المسلمين في إسبانيا من حيث ضعف مستوى اللغة العربية وكثرة الأخطاء الإملائية عند الناسخ، ومعالجة المخطوطة الواحدة لموضوعات شتى، وبعد مضمون المخطوطة في كثير من الأحيان عن الإسلام الصحيح[2] لكننا سنقصر حديثنا الآن على الجزء الثامن من المخطوط بالوصية.

لغة المخطوط: يمكن اعتبار المخطوط رقم: 4983 نموذجا للمخطوطات الألخميادية،

[1]- ميغيل دي سرفانتس ، (المرجع السابق). ص: 11.

[2]- جمال عبد الرحمن "الإسلام في الأندلس بعد سقوط غرناطة من خلال وثائق لم تنشر بعد" كتاب تكريم الدكتور لوى دى كارداياك، مؤسسة التميمى للبحث العلمي والمعلومات، 1995م. ص. 133- 146.

فبالإضافة إلى ما ذكرناه سابقا نجد فيه خاصتين، هما أثر اللغة العامية، والأثر الواضح للغة الإسبانية في الناسخ وفي المؤلف على حد السواء. ونعرض فيما يلي بعض الأمثلة[1]:

| التعبير | الملاحظة |
|---|---|
| كنت ليلة الجمعة نتلو | تغيير ضمير المتكلم |
| يا الشيخ أحمد بى | أثر إسباني واضح، فالمنادي المضاف في اللغة العربية لا تدخل عليه أداة التعريف "ال" |
| عندك شيء من أخبار أتي؟ | أثر اسباني، فالمعتاد هنا استعمال أداة الاستفهام "هل" |
| مولانا عز وجل قال | أثر اسباني ففي اللغة العربية تبدأ الجملة عادة بالفعل |
| باب التوبة تغلق عن قريب | أثر اسباني واضح، لأن كلمة "باب" لفظ مذكر في العربية ومؤنث في الاسبانية |
| إذا أغلق باب التوبة لا تقبل | أثر اسباني، فالأسلوب العربي السليم يقضي بتكرار كلمة التوبة هنا. |
| يحملون أهليهم وأولادهم | "يحملون" هنا ترجمة لكلمة **LIevar**، أما في العربية فتستخدم كلمة "يصطحب" عادة. |

[1]- ميغيل دي سرفانتس المرجع السابق. ص: 11

وبالإضافة إلى هذه الملاحظات نجد أن هناك تعبيرات كثيرة تستخدم فيها حروف الجر في غير مكانها الصحيح، وهو ما يمكن أن نعتبره أثر اللغة القشتالية في لغة المخطوط. ونجد كذلك خلطا بين السين والصاد، وبين الياء والكسرة. ومن الأمثلة الدالة على ذلك نذكر:

وبالإضافة إلى هذه الملاحظات، نجد أن هناك تعبيرات كثيرة تستخدم فيها حروف الجر في غير مكانها الصحيح، وهو ما يمكن أن نعتبره أثرا إسبانيا آخر في لغة المخطوط. ونجد كذلك خلطا بين السين والصاد، وبين الياء والكسرة. أي أن المخطوط يجمع بين خصائص الكتابات الألخميادية المتأخرة.

تحرير المخطوط: جاء في كتاب "حياة الموريسكيين الدينية" لبدرو لونغاس أن محكمة التحقيق قد عاقبت مسلمي اسبانيا لأنهم صاموا ثلاث أيام[1] (وهو الأمر الذى تنص عليه الوصية)، وجاء في أقوال أحد الشهود أن "الحادثة" وقعت بعد طرد مسلمي فالنسيا وقبل طرد مسلمي أراغون، أي في عام 1018هـ/1609م بالتحديد.

كما تحدد المخطوطة رقم: 5390 بمكتبة إسبانيا الوطنية – وهى محررة عام 1013هـ/1603م- بكل دقة تاريخ وصول رسالة الشيخ أحمد لأول مرة. يقول مؤلف المخطوط رقم: 5390 وكان فقيها على الأرجح- أنه تلقى رسالتين إحداهما منذ عشرين عاما (أي عام 990هـ/1583م) والثانية بعد ذلك بأربعة عشر عاما (أي عام 1004هـ/1597م) إذا قرأنا وصف الرسالتين كما عرضهما الفقيه سنجد أن رسالة الشيخ أحمد هي التي وصلت إليه عام 1004هـ/1597.م مكان وصول الرسالة:

[1]- بدرو لونغاس، المرجع السابق. ص. 49

تذكر المخطوطة رقم: 5390 أن نسخة من وصية الشيخ أحمد قد أرسلت إلى موضع يسمى " ملیانة"، وقد ورد اسم ملیانة في القضية التي نظرتها محكمة التحقيق ضد السيد "سانشو دى كاردونا" المتهم بحماية رعاياه المسلمين وتمكينهم من إقامة شعائر الدين الإسلامي[1].

هنا يجب أن نضيف ملاحظة أخرى تتعلق بتاريخ رسالة الشيخ أحمد. إن محاكمة السيد سانشو دى كاردونا تمت عام 979هـ/1569م، وهو تاريخ قريب من تاريخ تحرير الرسالة، وهذا أمر يعضد فكرة أنه في ذلك التاريخ كان هناك جو من الحرية والتسامح النسبيين في ملیانة.

إذا صدقنا ما جاء في ملف قضية السيد سانشو دى كاردونا فلنا أن نتخيل أن قرية ملیانة التي كان يسكنها المسلمون كانت تتمتع بحماية السيد سانشو وعاشت فترة من التسامح الديني. هذا يفسر الدعوة إلى صلاة الجماعة التي ترد في وصية الشيخ أحمد.

مؤلف المخطوطة: لا يرد في هاتين المخطوطتين من أسماء الأعلام إلا اسم محمد بن على المؤذن، ويذكر المؤلف الفقيه أن الشخص المذكور من بين الذين نسخوا رسالة الشيخ أحمد، وبهذا فإن مؤلف الرسالة شخص مجهول.

تعتبر رسالة الشيخ أحمد التي يتلقاها البعض منا بين الحين والآخر ليست وليدة هذا العصر، وإنما ترجع أصولها إلى القرن العاشر هجري الموافق للسادس عشر ميلادي، وقد ظهرت لأول مرة في إحدى قرى مملكة فالنسيا. وقد تأكد لنا ذلك بعد أن عثر الباحثون في مكتبة إسبانيا الوطنية على مخطوطتين إحداهما تتضمن نص الرسالة المتداولة، والأخرى تحدد تاريخ وصولها والمكان الذى وصلت

[2]- مرثيديس غارثيا أرينال:"الموريسكيون الأندلسيون" تر وتق: جمال عبد الرحمن، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، د ط ،2001م. ص: 65.

إليه لأول مرة.

ومن المهم أن نشير إلى أن فكرة نسبة وصية ما إلى مصدر إلهى أو نبوي ليست من بنات أفكار مسلمي اسبانيا، فقد سبقهم إلى ذلك نصارى إسبانيا حين كان الإسلام ينتشر ورأوا أن النصرانية في طريقها إلى الزوال. فقد أخذ مسلمو اسبانيا النهج ذاته عندما كانوا يمرون بظروف مشابهة، وكانوا يخشون زوال الإسلام في إسبانيا، فنسبوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وصية مزعومة.

إذن رسالة الشيخ أحمد من عمل مسلمي اسبانيا وتندرج في إطار الكتابات الدينية التي تبعد عـن الإسلام الصحيح، وإن كان الشخص الذى وضعها قد كتبها بدافع من الرغبة في إنقاذ ما تبقى من الآثار الباهتة للإسلام في إسبانيا الكاثوليكية.

**2)– الرواية الخيالية:** غالبا ما يدمج هذا النوع ضمن قصة أو حكاية رمزية بسيطة ومأثرة تلخص عددا لا ينتهي من المواقف المتشابهة، فالرواية الخيالية إذن تترجم قواعد السلوك عند الجماعة الاجتماعية أو الدينية بعينها، فهي تنتمي بالتالي إلى العنصر المقدس الذي تكونت حوله هذه الجماعة ويتعين أن يكون أصلها غامض [1].

فالرواية الخيالية بناءا على هذا المنظور هي عبارة عن بنية مركبة من فكر وتاريخ وفن وحضارة، وبالتالي فإن لها القدرة على الامتداد ماضيا وحاضرا ومستقبل؛ كما تعد من الظواهر الإنسانية والاجتماعية والثقافية المعقدة

والأدب الألخميادو كغيره ضم ضمن انتاجه قصصا وحكايات – عدا بعض الاستثناءات –

[1]– حسن الباش، الميثولوجيا الكنعانية والاغتصاب التوراتي، دمشق: دار الجليل، ط:1، 1988م. ص: 50.

لها علاقة بالعالم الإسلامي؛[1] والذي يجلب الانتباه في هذا التآليف الأدبية هو فترتها الزمنية والتي ترجع إلى بداية الإسلام. أما الأبطال فمنهم المسلمون وغير المسلمين. وأما الهدف الأساسي لهذه المجابهات، هو بقاء الإسلام وانتشاره، ففي هذه المعارك ينتصر دوما الإسلام والمسلم؛ والغاية من تعميم وانتشار مثل هذه القصص ضمن المجموعة المسلمة، كان يقصد منه البحث عن الإيمان بالإسلام، نشأته وقوته.

على العموم فإن مجموع الروايات الخيالية التي أنتجها مسلمو اسبانيا، حررت بطريقة تجعلها سهلة التذكير بها، حتى تشكل جزءا من التقاليد الشفهية، وبالإضافة إلى ذلك، فإنها شكلت نوعا أدبيا شعبيا في مرحلتها الابتدائية.

مثلت الرواية بكل أنواعها في مؤلفات مسلمي اسبانيا صياغة فكرية وتطبيقية لمفهوم الأدب الإسلامي، في صورته المقبولة والمؤثِّرة في مجال الرواية والقصة على وجه الخصوص، حيث تحقق الغاية الخلقية والفنية لعملية الإبداع الأدبي، وإذا كانت بعض التيارات الأدبية تعارض أن يكون للأدب غاية خلقية، فإن الواقعية الإسلامية لا يمكنها أن تتخلّى عن هذه الغاية التي ألح عليها كثيرون في الماضي والحاضر.

فالتعبير عن هموم المظلومين والمقهورين والمستضعفين من عامة الناس في الرواية " الموريسكية" يمثل لب الرسالة الخلقية للواقعية الإسلامية، فالطبقة الدنيا المظلومة المقهورة المستضعفة، حاضرة في رواياتهم حضورا مستمرا دائما، ونماذج المظلومين والمقهورين والمستضعفين تملأ صفحات كثيرة في

[1] – قام الباحث قالماس دوفوانتس بدراسة ومونوغرافية لهذا الجانب من الأدب الألخمياد و.

أدبهم، إلى جانب الاهتمام أيضا بالنماذج العادلة والقوية والظافرة وفق المفهوم الإسلامي. وهذا الاهتمام بقضايا المجتمع من خلال هذه النماذج أو تلك يأتي استجابة لتوجيه إسلامي كي نهتم بأمور المسلمين اليومية والاجتماعية.

ومن الجدير بالذكر أن مسلمي اسبانيا بذلوا جهدا تنظيريا مهما في هذا السياق، للتعريف بمفهوم الأدب الإسلامي وأبعاده، في عديد من الكتب والبحوث المنشورة، ومن خلالها وضحوا علاقة الأدب بالدين، ومفهوم الالتزام الإسلامي في الأدب.

إن الجهاد الفكري الذي بدله مسلمو اسبانيا لتقديم الرواية أو القصة الإسلامية، يمثِّل انعطافة كبيرة في مسيرة الأدب الإسلامي، ليس في مواجهة أعدائه فحسب، بل في مواجهة بعض ضيقي الأفق الذين يرون في الأدب عموما ترفا يجب أن يترفع عنه المسلمون، وما علموا أن العلاقة بين الأدب والدين علاقة حميمة.

# الباب الرابع

# الحياة الدينية بين الممارسة الصحيحة والبدعة

## الفصل الأول: قراءة نقدية في كتاب بدرو لونغاس

## (الحياة الدينية عند الموريسكيين الأندلسيين)

## الفصل الثاني: الايمان وأركانه في منظور الفكر الديني لمسلمي اسبانيا

## الفصل الثالث: الطقوس بين التقليد والاجتهاد

## الفصل الرابع: ممارسة العبادات في مجابهة الطقوس النصرانية الكاثوليكية

# الفصل الأول: قراءة نقدية في كتاب بدرو لونغاس (الحياة الدينية عند الموريسكيين الأندلسيين)

## المبحث الأول: بطاقة فنية للكتاب

1)_ المستعربون والدراسات الإسلامية

2)_ التعريف بصاحب الكتاب

3)_ إنجازاته العلمية

4)_ شهادات علمية حول الدراسة

## المبحث الثاني: قراءة تحليلية في الكتاب

1)_ نقد بيبوغرافية المصادر المستعملة في انجاز هذه الدراسة والمنهج المتبع

2)_ الأخطاء التي يؤاخذ عليها الباحث

يعتبر الكتاب الموسوم بـ" الحياة الدينية للموريسكيين" "Vida religiosa de los moriscos " لصاحبه "بدرو لونغاس" "Pedro Longàs" مصدرا لا غنى عنه لدراسة الجانب الديني في حياة مسلمي إسبانيا، وتؤكد الدراسات الحديثة هذه الرؤية. فقد بذل المؤلف جهدا كبيرا في دراسة المخطوطات الألخميادية لكى يتمكن من وضع الكتاب، فأصبح على هذه الصورة يمثل مرجعا أساسيا لكل باحث أوروبي يتعرض لدراسة ممارسة مسلمي اسبانيا لشعائر الإسلام.

ولعل السبب في كونه يحتل هذه المكانة أن من الصعوبة بمكان أن يقوم باحث أوروبي يبدل كل هذا الجهد ويدرس هذا الكم الهائل من المخطوطات. أما الباحث المسلم فقد يكون له رأى مختلف في الكتاب على ضوء معلوماته عن الشعائر الإسلامية. فالكتاب إذن عبارة عن دراسة لبعض المخطوطات الألخميادية وملفات محاكم التحقيق التي نظرت في قضايا متهمين بممارسة شعائر الإسلام المحظورة بحكم القانون. استنادا إلى كل هذه الوثائق يشكل لونغاس صورة للحياة الدينية التي مارسها مسلمو اسبانيا.

وخلص بدرو لونغاس من خلال بحثه القيم إلى ثلاث النتائج: الأولى هي أن مسلمي اسبانيا ظلوا يمارسون الإسلام بشكل صحيح. في حين تمثلت النتيجة الثانية في أن الدين يعرض لا أن يفرض، فقرارات الحظر كانت كثيرة ومتلاحقة، وكانت عقوبة من يخالفها شديدة، ومع ذلك فالوثائق تثبت أنهم ظلوا يمارسون الشعائر الإسلامية حتى يوم رحيلهم من إسبانيا.بينما نجد النتيجة الثالثة التي توصل إليها لونغاس أن مسلمي اسبانيا ظلوا متمسكين بمقومات شخصيتهم الإسلامية إلى غاية ساعة الطرد النهائي.

## المبحث الأول: بطاقة فنية للكتاب

تعتبر ظاهرة الاستعراب من مولدات الاستشراق، المقصود منه مجموع الدراسات والأبحاث ذات العلاقة بالشأن العربي الإسلامي، فالمستعربة الإسبان مثلا يرفضون وصفهم بالمستشرقين، ويفضلون بدلها كلمة (الاستعراب Arabistas) لكونهم نذروا حياتهم كلها لخدمة اللغة العربية بآدابها وعلومها في الأندلس، ولم تكن عنايتهم موجهة أساسا للغات الشرقية الأخرى بتعددها وتنوعها.

فالاستعراب ظاهرة رافقت المد الإسلامي حيثما حل، لأن المسلم بطبعه ميال إلى تعلم لغة دينه، هذه اللغة التي تمكنه من فهم الإسلام دون حاجة لترجمان، وهو ما ساعد على ظهور علماء ( مسلمين وغير مسلمين ) من غير العرب المهتمين بدراسة الإسلام وحضارته بنظرة مغايرة.

**1)- المستعربون والدراسات الإسلامية:** المستعربون" Los Mozarabos " هؤلاء مثلوا عنصرا فعالا في الحياة الأندلسية، في نقل الحضارة العربية إلى اسبانيا النصرانية، فالعصور الوسطى الاسبانية لم تكن تعرف الانفصال الجغرافي ولا العنصري بين المسلمين والنصارى حيث كانوا متعايشين سوية بروح التسامح.

والمستعربون بحكم معرفتهم للغتين العربية واللاتينية الحديثة كانوا أداة اتصال بين شطري اسبانيا، وهم منذ الفتح العربي الإسلامي لم ينقطعوا عن الهجرة إلى المناطق الشمالية في اسبانيا حيث كانوا النصارى، وقد ازدادت هجراتهم في القرن السادس والسابع هجريين الموافق للقرنيين الثاني عشر والثالث عشر ميلاديين على عهد دولتي المرابطين والموحدين.

فقد هاجر سكان بلنسية منها إلى قشتالة في عام (496هـ/1102م)، وخرجت جماعة كبيرة من

غرناطة مع جيش الفونسو الأول ملك أرغون عام 519هـ/1125م، كما خرجت جماعة أخرى من إشبيلية إلى قشتالة عام541هـ/1146م وقد كان لنتيجة هذه الهجرات أن انتشرت الثقافة الإسلامية العربية بين نصارى الشمال الاسباني[1].

والواقع أن الثقافة العربية الإسلامية والتعليم انتشرا في إسبانيا المسلمة إلى درجة جعلت المؤرخ دوزي[2] يقول إن أغلب الناس في الأندلس أصبحوا قادرين على القراءة والكتابة، بل يمكننا أن نقول إن كل فرد تقريبا كان يعرف القراءة والكتابة وقد انتقلت الثقافة العربية إلى المستعربين الإسبان.

فقد سرت إليهم العادات الإسلامية وتعلموا اللغة العربية وكتبوا بها وألف بعضهم كتبا بها، بل واقتنوا مكتبات عربية، أما أصل كلمة الاستعراب اللغوي من عرب عربا: فصح بعد لكنة، ويقال عرب لسانه وأعرب فلان كان فصيحا في العربية وإن لم يكن من العرب وتعرب: تشبه بالعرب واستعرب: صار دخيلا في العربية وجعل نفسه منهم.

ولم يظهر لفظ مستعرب في النصوص والكتابات الرسمية إلا في زمن متأخر على خلاف ما يظن، ويبدو أن هذه التسمية كانت شائعة على آخر نصارى الأندلس فقط[3]. وهناك من يرى أن

---

[1]- حسين مؤنس، فجر الأندلس دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية 711 م 756 – م، د ب ن: الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط: 2،1985 م. ص ص: 125، 126.

[2]-**دوزي**: هو راينيهارت دوزي (1820م-1883م) مستشرق هولندي في مدينة ليدن، بدأ دراسة العربية في المرحلة الثانوية وواصل هذه الدراسة في الجامعة، حصل على شهادة الدكتوراه عام 1881م وتعلم البرتغالية ثم الإسبانية فالعربية. وانصرفت عنايته إلى الأخيرة، فاطلع على كثير من كتبها في الأدب والتاريخ. أشهر آثاره «معجم دوزي . ط» في مجلدين كبيرين بالعربية والفرنسية، اسمه (ملحق بالمعاجم العربية) ذكر فيه ما لم يجد له ذكرا فيها. وله «كلام كتّاب العرب في دولة العباديين» في ثلاث أجزاء، وبالألمانية «تاريخ المسلمين في إسبانية» ترجم كامل الكيلاني فصولا منه إلى العربية في كتاب «ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام» وله «الألفاظ الإسبانية والبرتغالية المنحدرة من أصول عربية» باللغة الألمانية. ومما نشر بالعربية «تقويم سنة 961 ميلادية لقرطبة» المنسوب إلى عريب ابن سعد القرطبي وربيع بن زيد، ومعه ترجمة لاتينية، و«البيان المغرب في أخبار الأندلس

[3]- ابن خلدون، المقدمة، (المصدر السابق). ص:349 . إلا أن هناك من المستشرقين من عارض روايته. ينظر: ميكيل دي إيبالزا، المستعربون – الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس–، ج: 1، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، د ط، 1999م. ص: 334.

أصل الكلمة مشتق من أصل عربي لأن العرب عرفوا مصطلح مستعربة، ويقابله العرب البائدة.

على العموم فالمستعربون هم نصارى الإسبان الذين احتكوا بالمسلمين وتكلموا العربية مع احتفاظهم بدينهم [1]؛ وكانوا يطلق عليهم "العجم"[2]، وكثيرا ما يراد بذكر هذا المصطلح الصدام بين النصارى والسلطة الإسلامية، خاصة زمن الفتح، ولم يكن هذا مصطلح ينطوي على نصارى الأندلس فقط، بل شمل نصارى شبه الجزيرة الأيبيرية كلها كما احتفظوا بقوانينهم تحت سلطة الأساقفة وأمراء النصارى وكان رئيسهم يسمى غومس "Gomès "[3].

وبعد انهيار الخلافة الأموية وبروز مرحلة دول الطوائف توزع المستعربون بين الأرياف والمدن، ففي الأرياف كانت هناك قرى كاملة يقطنها المستعربون، أما في المدن فكانوا يختلطون بباقي السكان، وفي بعض الأحيان كانت لهم أحياء خاصة مستقلة داخل المدينة أو خارجها؛ وقد سهل ذلك عملية تحصيل الجزية[4] وكذا الجباية التي تختلف من مدينة إلى أخرى حسب ما تملكه من غلات و تجارات و أسواق خاصة قرطبة، المرية، والبيرة، كما كانت لهم مدافنهم الخاصة بهم عند بوابات المدن[5].

**2)- التعريف بصاحب الكتاب**: ولد بدرو لونغاس في قرية تاويتي بإقليم سرقسطة في 01 يونيو من سنة 1881م، أتم دراسته الثانوية في معهد سرقسطة واوسيكا؛ وفي عام 1896م التحق بأحد

---

[1]- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم، (المرجع السابق). ص:130

[2]- ليوبولد وتورس بالباس، المدن الإسبانية الإسلامية، تر: إليو دورو دي لابينيا، المملكة العربية السعودية: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط:1 ، 2003 م. ص:297

[3]- **غومس**: هو رئيس الجماعة النصرانية، كان يعين بإذن من السلطات الإسلامية؛ انحصرت صلاحياته في معالجة المسائل الدينية الخاصة بالنصارى، فكان بذلك بمثابة حلقة وصل بين النصارى والسلطة الإسلامية. ينظر: عبادة كحيلة، المرجع السابق. ص ص: 86 ،85

[4]- ليوبولد وتورس بالباس، المرجع السابق. ص: 296

[5]- ابن حوقل، المصدر السابق. ص:111

المعاهد الدينية المعروف بـ"saminario conciliar de sta cruz " في أويسكا حيث عين في العام التالي خادما لأسقف تلك الناحية ماريانو سوبر فيا أي لوستالي.

وفي عام 1904م عين قسيسا، وكان قبل ذلك بعام قد التحق بكلية الفلسفة والأداب قسم التاريخ في جامعة سرقسطة حيث تحصل على شهادة ليسانس عام 1907، وفي السنة نفسها تحصل على شهادة الدكتوراه من جامعة مدريد المركزية[1] عن موضوع موسوم بـ "صفحات من تاريخ أراغون" وقد نشرت الرسالة بأربع سنوات من مناقشتها.

أما في سنة 1980م اشترك في مؤتمر عن تاريخ حرب الاستقلال والحصار الذي عقد في سرقسطة، وبعد ذلك عين مديرا لمدرسة " san juan bautista de santona " وتحصل في سنة 1911م على منحة من قسم اللغة العربية بمركز الدراسات التاريخية لمدريد.

اشترك في العديد من الأعمال الأكاديمية؛ من بينها التحاقه بفريق مسئولي الأرشيف وأمناء المكتبات ورجال الآثار حيث عمل في البداية مع مجموعة "delegation de hacienda de vizcaye ". ثم تدريسه في كلية الفلسفة والآداب بجامعة مدريد، وبعد ذلك عمل في مكتبة أكاديمية التاريخ الملكية.

تناوب سنة 1924م مع خوستو غارثيا سوريانو على فهرسة المكتبة الوطنية " bio – bibliografia de ecuerpo facultativo de orchiveros . biliotecariosy arquéologes madrid-1958-1858" واستقر نهائيا بالكلية حتى إحالته على التقاعد سنة 1951م، عندها كان رئيسا لقسم المخطوطات.

[1] – كانت الجامعة الوحيدة في إسبانيا التي تمنح درجة الدكتوراه في تلك الفترة.

ومع ذلك فإن نشاطه لم يقتصر على القيام بدور أمين المكتبة إذا أنه في سنة 1914م حصل على منحة من جمعية تطوير الدراسات والأبحاث العلمية، فزار أرشيفات[1] ومكتبات فرنسا بهدف جمع المادة العلمية عن تاريخ أراغون. وفي سنة 1919م تحصل على منصب مدرس مساعد مؤقت بكلية الفلسفة والآداب بجامعة مدريد.

**3- إنجازاته العلمية:** كان لبدرو لونغاس عدة مشاركات علمية سواء في مجال النشر أو العمل ضمن فرق بحث ومن بين أهم انجازاته العلمية نذكر:

- شارك بدرو في مؤتمر جمعية تقدم العلوم الذي عقد في مدريد .

- أعد فهرس المخطوطات اللاتينية في المكتبة الوطنية بمدريد بالاشتراك مع مارتن ديلاتوري.

- نشره للعديد من المقالات من بينها نذكر:

- المقال الموسوم بـ "**الأخوة أو الوفاق بين تاوبيستي " إيخيا دي لوس كابا بيروس 1992م**" في مجلة أراغون الجزء الثامن، 1905م.

- "**لوائح بلدية غردي التابعة لوادي رونكال (نافارا)**، في مجلة الثقافة الإنسانية الجزء الأول، 1906م.

- "**التمثيل الأراغوني في المجلس المركزي الأعلى (25 سبتمبر 1808-29 يناير 1810)**"، وهو عبارة عن نقل لوثائق ودراسة تمهيدية نشر في الجزء الثامن من مجموعة

[1] - يقصد به مركز الدراسات التاريخية بمدريد.

وثائق لدراسة تاريخ أراغون وسرقسطة، مطبعة ديكارا، عام 1912م، تناول في هذا الكتاب نشاط كل من **فرانشيسكو ريبوبيد وديبالافولس ميلتي ولورينثو كالبوروثان**، وهما نائبان عن أراغون.

- "**الاتفاقيات المبرمة لإطلاق سراح ابن عمر موسى بن عمر بن ابراهيم وزير مملكة فاس الذي أسر في أراغون سنة 1300م**". وهو منشور بالغتين العربية واللاتينية القطالونية. تم نشره في كتاب "تكريم **ميندیث بيدال**" "الجزء الثالث "(1925م).

- "**بيانات عن كتاب (تاريخ مسلمي الأندلس) لمؤلفه خورخي ألماثينو**" في مجلة المراجع الوطنية، ج: 1، 1940م.

- "**لوائح جمعية سانتا كربيستيا بإقليم نافارا في نهاية القرن الثاني عشر**"، في مجلة علم الاجتماع الدولية، ج:1، 1943م.

- "**أعمال ميغيل أسين** " في مجلة الأندلس" ج: 9، 1544م[1].

- "**قراصنة مسلمون في غاليثيا (القرن السابع عشر)**"، في مجلة الأندلس، ج: 16، 1951م[2].

- "**الطقوس الدينية عند تتويج الملك في العصور الوسطى**"، في مجلة تاريخ القانون الإسباني، ج: 23، 1953م.

---

[1]- كتبها بمناسبة وفاته أستاذه.

[2]- هي عبارة عن وثيقة غربية كتبها خوان دي إيرينا أي موريدا في 22 أوت عام 1618م يبلغ فيها الملك فليبي الثالث عن حملات المسلمون على سواحل غاليثيا وهجومهم على موانئ غارينيو وسانت مارتادي أور تيغيرا في إقليم لاكورونيا وميناء كونغاس في إقليم بوني فيدلا.

- "**نبذة عن كتاب ألفريد بل la fête des sacrifices en barbarie**، في مجلة الأندلس، ج:2، 1934م.

- "**نبذة عن كتاب دافيد لويس ( نصوص ألخميادية برتغالية) لشبونة عام 1940**"، نشر في مجلة الأندلس، ج: 7، 1942م.

أما في دراستنا هذه فقد وقع اختيارنا من بين مجموع أعماله على دراسة نقدية لكتابه الموسوم بـ " **الحياة الدينية للموريسكيين الدلسيين**" "**vida religiosa de les moriscos**"[1] الكتاب عبارة عن دراسة مستقلة، كانت ثمرة لبحث طويل

**شهادات علمية حول الدراسة:** درس الكثير من الباحثين المختصين في مجال البحث والتنقيب في التراث الثقافي الذي خلفه مسلمو إسبانيا يقول عنه الباحث البحث الذي أنجزه بدرو لونغاس، وتأكد بأن عمله هذا يعد من أهم البحوث التي أنجزت حول الحياة الدينية لمسلمي إسبانيا، نظرا لاعتماد الباحث على كم هائل من المخطوطات الألخميادية وملفات محاكم التحقيق. ومن بين هذه الآراء نذكر:

* **–رأي الباحثة "خوليو كارو باروخا" " Roulyo Barora**: "**إنه لمن الأهمية بمكان أن نبحث في أرشيفات محاكم التفتيش عن حياة المورسكين لا من وجهته نظر الإسلام، وإنما من وجهة نظر التراث المحلي والفلكلور، عندئذ سيتبين بوضوح إل أي مدى كانت هذه الحياة**

[1]– أول مرة نشر فيه هذا الكتاب كان بتاريخ 23 يوليه من سنة 1915م بلغته الأصلية؛ ثم قام الباحث جمال عبد الرحمان بتعريبه، وقدم له وراجعه الباحث المختص بالدراسات الموريسكية عبد الجليل التميمي، هذا الأخير نشره عن طريق: (تونس: منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات)، بتاريخ: جويلية 1993م.

**الدينية تغير التراث الإنساني القديم من حيث العادات الخاصة بالمواليد وحفلات الزفاف ودفن الموتى والحفلات السنوية ذات الطابع المحلي أو العام ".**

***– شهادة الباحثة "مارثيدس جارثيا أرينال":** كتبت في دراستها عن التاريخ الموريسكي مبدية رأيها حول العمل الذي قدمه **بدرو لونغاس** فقالت:" **إن الأعمال المنشورة حتى ذلك الحين والتي تبتعد عن المشاكل لهي قليلة، من بينها كتاب بدرو لونغاس " حياة الموريسكيين الدينية " الذي لا يزال حتى اليوم يمثل واحدا من أفضل المراجع التي ظهرت عن هذا الموضوع وأكثرها توثيقا**".

***– أما "عبد الجليل التميمي" فكتب يقول بهذا الصدد: يعتبر بدرو لونغاس راهب وأستاذ جامعي تجعل منه إحدى الشخصيات الأكثر قدرة على تحليل عناصر حياة "الموريسكين الدينية"**[1].

وكان الهدف من وراء انجاز هذه الدراسة، بالدرجة الأولى توسيع إطار المعرفة بالممارسات الدينية "للموريسكيين" خلال القرن السادس عشر ميلادي. وقد علق الباحث نفسه على هذه النقطة في الصفحة رقم: 34 من كتابه فكتب يقول: "... **ورغبة مني في توضيح الشعائر التي كان الموريكسيون يمارسونه**".

## – المبحث الثاني: قراءة تحليلية في الكتاب

[1]– هذا ما أجمع عليه مجموعة من الباحثين، إذ اعترف بعض المتخصصين الإسبان والأجانب بمزايا ميغيل أسين في عصره كأستاذ جامعي وراهب وخبير عالم بالمذهب الكاثوليكي والتصوف الإسباني لكي يقوم بدراسات عن التصوف الإسلامي مقارنا إياه بالتصوف النصراني.

يعتبر البحث الذي أنجزه الباحث بدرو لونغاس ثمرة مجهود شاق بذله المؤلف في مدة طويلة، ولهذا يعتبره الباحثون الأوروبيون والمسلمون على حد سواء مرجعا أساسيا. مع أن هناك اختلاف بين الطرفين في نظرتهما لطريقة عرض المادة التاريخية في الكتاب؛ فالباحث المسلم يدرك دون مشقة أن المؤلف قد جانبه الصواب في غير موضع من الكتاب، وقد يعود ذلك إلى أن لونغاس لم يوفق في اختيار المصادر المناسبة للحكم على مدى مطابقة شعائر التي كان يمارسها مسلمو اسبانيا للإسلام الصحيح.

وعلى هذا الأساس لنا وقفة سريعة مع بعض النماذج من الأخطاء الكثيرة التي وقع فيها الباحث، والتي كان باستطاعته تجنبها لو وازن دراسته هذه بالعودة إلى المصادر العربية الإسلامية المختصة، خاصة وأنه يجيد اللغة العربية.

**1)– نقد ببيوغرافية المصادر المستعملة في إنجاز هذه الدراسة والمنهج المتبع:** اعتمد بدرو لوونغاس كما ذكرناه سابقا على مجموعة كبيرة من المخطوطات الألخميادية والتقارير الواردة في ملفات محاكم التحقيق، على أن هذه الأخيرة بالرغم من أهميتها في التأريخ للوقائع التاريخية، إلا أنه يجب التعامل معها بحذر، إذ تحمل بين سطورها سموما قد تشوه تاريخ هذه الأمة الشهيدة، إن لم نتعامل معها بكثير من التريث والتحليل وتقصي المعلومات.

***– المخطوطات الألخميادية:** يخطئ من يتحدث عن مسلمي إسبانيا بعد سقوط غرناطة على أساس أنهم كيان واحد لهم ملامح واحدة. إن من يدرس تاريخ الأندلس في الفترة التي سبقت سقوط غرناطة يدرك أن المسلمين كانوا يعيشون في مناطق مختلفة تحت ظروف مختلفة من حيث مستوى

استيعاب اللغة العربية.

صحيح أنه لم يكن هناك حظر للغة العربية قبل سقوط غرناطة، لكن الصحيح أيضا هو أن ثقافة الأغلبية تؤثر كثيرا في ثقافة الأقلية. وبموجب المراسيم التي كانت تحرم استعمال اللغة العربية، أخذت هذه الأخيرة تتلاشى تدريجيا في الحياة اليومية ثم في أوساط المؤلفين، وهنا كانت اللغة الإسبانية هي البديل المنطقي للعربية.

لكن المؤلفين الذين وضعوا كتبا باللغة الإسبانية اختاروا أن يكتبوها بحروف عربية. هنا تختلف آراء الباحثين عند تبرير ما فعله المؤلفون: فمنهم من يقول إن المؤلفات كانت ذات موضوعات إسلامية مقدسة، ومن ثم كان لابد أن تكتب بحروف مقدسة، ومنهم من يقول إن السبب يعود إلى الرغبة في السرية لتفادى ملاحقة محكمة التحقيق. لكن هذا الرأي لا يصمد كثيرا أمام النقد العلمي.

فمن المعلوم أن المراسيم الملكية كانت تحظر اللغة العربية كتابة وقراءة وتحدثا، فلو نجا "المتهم" من مشكلة النص الإسلامي المحظور قانونا فإنه يدخل هكذا في مشكلة أخرى هي مشكلة اللغة العربية المحظورة كذلك. لم نصل بعد إلى نتيجة حاسمة، لكن أقرب التفسيرات إلى التفكير المنطقي هو رغبة مسلمي اسبانيا في المحافظة على شيء يميزهم عن مجتمع الأغلبية النصرانية.

من ناحية أخرى فإن النصوص الألخميادية نصوص مترجمة عن أصول عربية بالتأكيد، وإذا كان المترجم يضع نصب عينيه دائما متلقى النص في صورته الجديدة، فإن بإمكاننا أن نقول بأن مجموع القراء المسلمين كانوا يستخدمون الحروف العربية، حفاظا على هويتهم.

لهذا علينا أن نضع في اعتبارنا عند قراءة النصوص التي يعرضها الكتاب أن الحياة الثقافية لمسلمي

الأندلس كانت في تدهور مستمر لأسباب بديهية، ولا يجب أن يظن أحد أن المسلم في إسبانيا كان يستطيع أن يضع كتابا في الفقه. وعليه فإن النصوص الواردة في الكتاب ما هي إلا مجرد ترجمات لنصوص عربية كتبت في "دار الإسلام."

إن أغلب المخطوطات الألخميادية التي نتوفر عليها اليوم تدور موضوعاتها بشكل أو بآخر حول الدين : قرآن، حديث، حكايات إسلامية، شعر، وغيرها من أنواع الاجتهاد والابداع الفكري. وهذا الأمر يدعونا إلى التساؤل حول مدى علاقة بروز هذا الأدب بالاستجابة لحاجة مسلمي إسبانيا في إيجاد أداة تواصل ديني مختلف عن اللغة الرومنسية المرتبطة ارتباطا عضويا في هذه الفترة بالنصرانية في إسبانيا.

إن الجواب العلمي عن هذا التساؤل يقتضي تتبع النتاج الألخميادو منذ ظهوره على شكل صيغ أولية بسيطة ستنمو وتنضج في هيئة نصوص طويلة تخضع لقواعد خطية قارة إلى حد بعيد. ولقد حاولنا من خلال دراستنا للغة الألخميادية وكل ما تعلق بها أن نقدم تعليلا لهذه الظاهرة الثقافية. وعلى كل حال، نستطيع أن نقول في حدود هامش لا يستهان به من اليقين أن الحاجة الملحة إلى أداة للتواصل الديني بين مسلمي إسبانيا قد منحت للغة الألخميادية ذلك النضج كنتيجة لاستعمال مكثف لهذه الأداة.

فالحافز الذي جعل مسلمي إسبانيا يقومون بهذه الترجمات دون شك هو حافز المحافظة، على العقيدة إذ كان هو الهدف المتوخى. ثم إن الخوف من التجديد الآتي عن طريق جهل الدين هو الذي أوحاه. ولكن الترجمة نفسها كانت تمثل عملية تجديد توازيه في البلدان الأوربية الأخرى عملية مماثلة

مثيرة للانتباه، حيث كـان أتباع النصـرانية يترجمون كـل على حدة نصه المقدس الخاص، أي الكتاب المقدس.

فالترجمة كانت مسألة شائعة. ثم إن هناك مفاهيم عديدة، إذا تم اعتمادها سيظهر مسلمو اسبانيا من خلالها كمتخلفين ثقافيين وككائنين قروسطيين قد ألقى بهم في شاطئ "الإصلاح المضاد". ولكن الأدب الألخميادو يتوفر على بعض الجوانب التي تجعل منه ظاهرة ثقافية في انسجام تام مع العصر.

فكثيرا ما تكلم المؤرخون وذوو الاهتمام بهذه الأقلية المسلمة عن الانحطاط الثقافي الذي آلوا إليه عند مقارنتهم بأجدادهم الأندلسيين وبمعاصريهم من النصارى. ولكن لم ينظر إليهم في هذا إلا قليل من زاوية الاضطهاد الثقافي الذي كان يمارس عليهم حتى يتسنى إصدار حكم يأخذ بعين الاعتبار عمق البعد الثقافي.

إن احتفاظ مسلمي اسبانيا بذلك القدر اليسير من الثقافة وتطويره بالوسائل القليلة التي بقيت بين أيديهم يجعلهم جديرين بالاعتزاز والافتخار، ربما أكثر من أجدادهم الأندلسيين ومن معاصريهم النصارى الذين كانوا يتوفرون على كل الوسائل المهيأة وعلى الجو الملائم للقيام بنهضتهم العلمية والثقافية.

ومن ناحية أخرى يجب التعامل مع الثقافة الألخميادية بنوع من الذكاء الخاص لإدراك النظرة العميقة لهذه الثقافة. ففي هذا الإطار نجد لدى مسلمي إسبانيا تعاملا خاصا مع اللغة التي كانوا يترجمون بها النصوص الدينية من قرآن وحديث وغيرهما من النصوص التي تتصل بالإسـلام. وهذا

التعـامل كان يمليه ذلك الرفض لكل ما هو نصراني. فكانوا يتجنبون استعمال أي كلمة يمكنها أن تؤدي إلى اختلاط مع طقس أو معتقد نصراني.

لهذا فإن المخطوطات الألخميادية بما تحويه من نصوص محفوظة تمدنا بمادة كافية لإعادة تكوين صورة على الحياة الدينية التي كانت تمارس بين الضلال وبشكل خفي، إذ لم تكن هناك وسيلة غير هذه في نظرهم. إذن فالرجوع إلى هذه المصادر يمثل لبنة أساسية لأي دراسة تريد كشف الغموض على الكثير من التفاصيل التي خصت ممارسة شعائر الدين الإسلامي في بيئة نصرانية معادية ومتعصبة.

*- **ملفات محاكم التحقيق:** إن الاعتماد على الوثائق في التأسيس لأي بحث تاريخي قد يقدم للدراسة الكثير من المعطيات قد تتصف بكثير من المصداقية والموضوعية، مقارنة بتلك التي يستقيها الباحث من الروايات التاريخية التي غالبا ما تكون معبرة عن آراء وتأويلات شخصية متأثرة بالظروف الاجتماعية التي عاشها الراوي. وهذه الشهادات غير المقصودة أصبحت تحتل اليوم مكانة هامة.

ولكن وقوفنا عند أوضاع مسلمي إسبانيا خلال القرنين العاشر والحادي عشر هجريين الموافق للقرنيين السادس والسابع عشر ميلاديين جعلنا نتأكد من بأنه هناك حالات استثنائية تكون فيها الوثيقة تحمل آراء أصحابها ونزعاتهم وتعصبهم الديني. ونحن بذلك نقصد ملفات محاكم التحقيق؛ هذه الأخيرة اعتبرت مصدرا أساسيا للكثير من البـاحثين في التـأريخ للمسيرة المأسوية لمسلمي إسبانيا.

فمن كتب هذه الوثائق هم عمال محاكم التحقيق، أي القاضي والجلاد معا، فكيف لنا أن نثق بكل ما ورد فيها من معلومات؛ في هذا السياق يجب التعامل مع هذه الوثائق بحدر كبير، فهي تحمل ضمن طياتها سموما قد تشوه تاريخ هذه الأمة الشهيدة إذا ما تجاهل الباحث هذه القضية. من هذا المنطلق فإن ملفات محاكم التحقيق المدونة من طرف المسؤولين اكتسبت طابعا مميزا ومغايرا لما هو عليه الشأن حاليا، محاولة تبرير الطرق المستعملة تارة، أو بإخفاء الحقيقة تارة أخرى. ويمكن تصنيف هذه الملفات إلى ما يلي:

**أ)– محاضر القضايا:** إن محاضر القضايا تمثل المصدر الأساسي لمعرفة نتائج النشاط القمعي لديوان التحقيق سواء فيما يخص الإعدامات العمومية أو الخاصة. فحتى سنة 980هـ/1570م لم تكن هذه المحاضر سوى قائمات لأسماء المتهمين، ولكن مع الوقت أصبحت أكثر وضوحا؛ ففي بعض الأحيان يمكننا استنتاج أصل المسلم المدعى عليه انطلاقا من اسمه العربي، لكنه في غالب الأحيان نجد نقصا في المعلومات حول أعمار ومهنة المحكوم عليهم.

**ب)– محاضر التحقيقات:** هو نوع آخر من محاضر القضايا؛ قام بكتابتها قضاة التحقيق على مستوى الإقليم. وفي هذه المحاضر نجد معلومات حول عادات مسلمي اسبانيا خاصة من النواحي التي لا تعتبر من الخطورة بمكان حتى يقع رفعها إلى المحكمة.

**ج)– مراسلات محاكم التحقيق:** هي عبارة عن رسائل بعث بها قضاة التحقيق إلى المجلس الأعلى لديوان التحقيق، وهي بهذا تمثل مصدرا مهما من الناحية التاريخية، لأنها تضم معلومات ذات قيمة بالغة؛ ويمكن تصنيف هذه المراسلات إلى عدة أنواع منها الرسائل

البابوية، أو المذكرات وبيانات الشهادات، والمطالب، ووثائق الإحصاءات.

**د)– الوثائق الاقتصادية:** تمثل هذه الوثائق قسم هام من ملفات محاكم التحقيق، وهي تخص الأمور المالية للمحكمة من حسابات وآداءات وعمليات الحجز، وأعمال المجلس المالي والأشغال والأجور والمساعدات.

**هـ)– مجموعة الدفاتر:** ويطلق عليها أيضا موجز أو فهرس مرتب للبراءات والقرارات الملكية والرسائل الموجهة من طرف أعيان المجلس الأعلى، وفي هذا الفهرس نجد ملخصا لما يزيد عن ألف وخمسمائة وثيقة، اعتمدت عليها المحكمة في أحكامه.

وبالرغم من كل السموم التي تحملها هذه الوثائق إلا أن لها أهمية كبيرة باعتبارها مصدر تاريخي، حيث تصور أدق تفاصيل الشعائر الدينية "للموركسيين" وبديهي أن نشك في صدق رواية النصارى القدامى المذكورين كشهود إثبات عند إتهام أحد "الموركسيين" بالدعوة إلى الإسلام، إذ أن الشهادة قد تكون مبنية على عداء شخصي بعيد كل البعد عن الأسباب الدينية؛ ومع ذلك فكل الشهادات تعتبر على الأقل أدلة لإثبات أن الشعائر موضع إتهام.

أما المنهج المتبع في إنجاز هذه الدراسة فذكر الباحث بهذا الصدد بأنه اتبع في إنجاز هذه الدراسة "الشكل الإفتائي أو القانوني الذي تعرض به الواجبات الدينية في حياة المسلم في النصوص الألخميادية". وما يلاحظ على منهجه في التأسيس لموضوعه ما يلي:

– استعمال المعلومات الواردة في ملفات المحاكم التحقيق في الحواشي، واستفاد منها لعرض حالة نموذجية في نهاية كل فصل.

– أما في ما يخص المخطوطات الألخميادية فقد نقلها حرفيا، إذا التزم الكاتب بقواعد الكتابة الحالية وعلل ذلك بهدف جعل هذه المخطوطات دليلا حيا على الواقع.

– استعان بدرو لونغاس بأبحاث بعض المؤرخين في عرض السياسة التي اتبعتها السلطات الإسبانية مع "الموريكسيين" في كل ما تعلق بممارسة شعائر الدين الإسلامي؛ وذكر الباحث أنه استعان إلا بالمصادر التي رأى أنها مصادر موثوقة.

– ما كان ينقص هذه الدراسة باعتراف المؤلف، تجاهله للمخطوطات التي تتحدث على ممارسة السحر والشعوذة كنوع من الطقوس التي يمكن لها أن تعبر على شخصية الإنسان المسلم في اسبانيا.

**2)– الأخطاء التي يؤاخذ عليها الباحث**: وقع الباحث في الكثير من الأخطاء، ويرجع ذلك في اعتقادنا إلى عاملين: أولهما أنه يجهل الممارسات الخاصة بشعائر الدين الإسلامي. في حين يرجع العامل الثاني لتجاهله التام والكلي للمصادر الإسلامية وعدم الرجوع إليها للتأكد من بعض المعلومات ولتصحيح البعض الآخر ولتوضيح ما تبقى.

ومن جملة ما نراه قد أخطأ فيه أنه لم يفرق بين " الركوع" و " الركعة" التي تشمل قراءة الفاتحة وسورة أخرى ثم الركوع و السجود. لهذا نراه يتحدث عن قراءة القرآن في أثناء الركوع، وهو خطأ. كذلك نجده يخلط بين النظافة والطهارة، ويخلط بين الصلاة والدعاء مما يشوش الفكرة لدى القارئ الإسباني.

من ناحية أخرى لم يضع المؤلف في اعتباره أن مسلمي اسبانيا كانوا مقتنعين

الإسلام، فقد حاول تصوير الأمر على أنه تقليد لتراث آبائهم. كما لم يضع في اعتباره قضية التقويم الهجري، مما أوقعه في خطأ لا يليق بباحث مدقق حين حدد تواريخ ميلادية لمناسبات إسلامية، كعيد الأضحى أو عيد الفطر. أيضا نجد الباحث يخطأ في أرقام الآيات والسور، ويرمز للسور بالأرقام بدلا من أسمائها. وفيما يلي نماذج من الأخطاء التي رأينا حسب منظورنا الوقوف عندها:

***– عنوان الدراسة: "الحياة الدينية للموركسيين الأندلسيين"" Vida religiosa de los moriscos"** تصرف المترجم عبد الجليل التميمي في عنوان المرجع بإضافة مصطلح "الأندلسيين" ذلك أن الباحث بدرو لونغاس في عنوان كتابه لم يستعمل هذا المصطلح ونجد بتصرف المترجم في عنوان المرجع خطأ ارتكبه ذلك أنه بمجرد الإشارة إلى "المورسكيين" فهناك إشارة إلى مسلمي إسبانيا بعد السقوط، فليس هناك شعب نعث بهذا الاسم على مر التاريخ سوى الشعب المسلم الذي بقي في الأندلس بعد السقوط تحت حكم النصارى الإسبان.

كما كان لابد على الباحث أن يشير في عنوان مؤلفه إلى الإطار الزمني للموضوع، إذ يشكل هذا الأخير ركنا أساسيا في أي دراسة، لأن ترك العنوان مفتوحا بهذا الشكل قد يجعل كل من يلجأ إلى هذا البحث من أجل الاستعانة بما ورد فيه من معلومات يفهم أن الباحث بدرو لونغاس قد تناول كل الفترة الممتدة من سنة 987هـ/1492م إلى غاية الطرد النهائي سنة 1018–1023هـ/1609–1614م. ولكن في حقيقة الأمر نجده في المدخل صفحة رقم: (33) يحدد الفترة بالقرن العاشر الهجري الموافق للقرن السادس عشر ميلادي فقط، وبهذا كان عليه أن يشير إلى هذا الإطار الزمني في العنوان.

ويمكننا اقتراح عنوان يكون أدق من ذلك الذي وضعه الباحث بدرو لونغاس بناء على ما ورد من مادة تاريخية في دراسته وهذا فإن العنوان المقترح يكون: "الحياة الدينية للموريسكيين من خلال المخطوطات الألخميادية (القرن السادس عشر )" وهذا تحديدا لما قام به الباحث أصلا.

*– **فيما يخص مدى تمسك الباحث بالموضوعية العلمية:** حاول الباحث قدر الإمكان تجنب الذاتية والتزام الموضوعية العلمية، ولكن كونه كاهن منعه في بعض المحطات من بحثه الخروج على هذه القاعدة وإظهار نزعته النصرانية، ولنا في ذلك بعض الأدلة التي تثبت حكمنا هذا.

– تجاهل الباحث بدرو لونغاس التعامل والإستعانة بالمصادر العربية التي تناولت الموضوع وهذا باعتراف الباحث في الصفحة رقم: (33) وعلل ذلك بأن بحثه هذا ليس مقارنة المادة المستنبطة من المخطوطات الألخميادية فيما يخص ممارسة شعائر الدين الإسلامي بالمصادر المختصة وإنما اقتصرت دراسته إلا على عرض ما ورد فيها فقط.

وهذا ما ذكره في الصفحة رقم:(93) فكتب ما نصه:"...**تعمدت تجاهل دراسة المصادر العربية التي كانت أساسا لهذه النصوص الألخميادية..**" ثم أضاف قائلا: "...**تجاهلت الدراسات العربية التي تتناول الدين الإسلامي...**"

– اعتراف الباحث في الصفحة رقم: (35) أنه التزم بنقل المعلومات الواردة في المخطوطات الألخميادية حرفيا بقوله: "**لم أسمح لنفسي إلا بالتزام قواعد الكتابة الحالية**" " ثم أضاف " **لم أكن لأصل إليه لو أنني أجريت تعديلا**" ولكن إذا حاولنا الرجوع إلى الصفحة رقم : (33) نجده يقع في تناقض كبير إذ ذكر في الفقرة الثانية من الصفحة نفسها أنه قام بقراءة المصادر

العربية لتوضيح فقرة غامضة وفي الفقرة الثالثة من الصفحة نفسها وردت العبارة التالية "...**وعدلنا ما وجب تعديله**".

– ذكر في الصفحة رقم: (34) أنه اعتمد على المصادر العربية فذكر ما نصه "... **وكذلك في الكتب العربية التي تعتبر مصادر لهذه النصوص**".

– تمتع الباحث في بعض المحطات التاريخية من بحثه بالذاتية في محطات، وما يؤكد هذا الأمر ما ذكره في الصفحة رقم: (37) ذكر في إحدى فقراتها ما نصه: "...**عدم فعالية الوسائل التي اتبعت معهم لتعليم الدين الحقيقي واعتناقه**..." استعماله للمصطلح المسطر تحته يدل على استعمال الذاتية والنزعة الدينية النصرانية.

فمن خلال استعمال تلك العبارة يتضح جليا رؤية الباحث للدين النصراني، فلا يمكن أن لا نأخذ بعين الاعتبار بأنه لاهوتي قبل أن يكون باحثا، وهذا بالطبع سوف يؤثر بطريقة أو بأخرى على توجهاته، حتى وإن حاول تجنبها قدر المستطاع. وما يؤكد أنها لم تكن مجرد عبارة في سياق الحديث فقط هو تكرارها في العديد من المواقع؛ من بينها نذكر:

تكررت عبارة **الدين الحقيقي** بالصياغة نفسها مرتين في الصفحة رقم: (37) الفقرة الأولى، السطر الثاني، ثم الفقرة الثانية السطر الأخير. كذلك الصفحة رقم: (38) السطر الأول من الفقرة الأولى؛ والصفحة رقم: (40) الفقرة الثانية السطر الثاني؛ والصفحة رقم: (53) الفقرة الثالثة السطر الثامن.

– أيضا ما يثبت عدم موضوعية الباحث استعماله لبعض المصطلحات أو العبارات التي تسيئ إلى المسلمين، أو تجعل من عمل الكاردينال خمنيس أمرا عاديا لا يحمل تعصبا دينيا مثال ذلك نذكر قوله:

– "..**كرس خمينس نشاطه التبشيري لتنصير المسلمين المقيمين بإسبانيا..**". فما قام به هذا المتعصب لم يكن عملا تبشيريا وإنما كان تنصيرا قهريا للمسلمين الذين بقوا في إسبانيا بعد سقوط نموذج الحكم الإسلامي بالأندلس، فهناك فرق بين المصطلحين[1].

– أيضا عرض فقرة كاملة في الصفحتين رقم: 44– 45 تؤكد النزعة النصرانية دون التعليق عليها أو حتى التصرف فيها.

– عرض نصوص تاريخية للقسيس ماركودى غوار دلاخارا فيها إساءة للإسلام والمسلمين دون أن يتحرج الباحث أو أن يعلق حتى عليها مثال ذلك:"...**إلحادهم المشين وشعائرهم الحيوانية وشعوذتهم الهمجية**". "**كان هؤلاء الكلاب...**" "... **يسلون أنيابهم بمياه قذرة ...**" "...**كانوا كالشياطين ...**"

– عرض أفكار تؤيد عمل الملكين: كما ورد في الصفحة رقم: (53) مثال ذلك ما ورد

[1]– يطلق التنصير على النشاط الذي تمارسه أفراد وهيئات ومنظمات أجنبية في الأراضي الإسلامية ضد العقيدة والمجتمع في الإسلام. والهدف النهائي لذلك النشاط الهدام ليس إدخال المسلمين فى النصرانية. أما التبشير فهو إحدى مؤسسات التنصير وليس كل التنصير؛ مما يجعل من قصر مصطلح التنصير على العمل التبشيري وتخصيصه به تمويها على المستهدفين بالتنصير وتحويل أنظارهم بعيدا عن نشاط المؤسسات التنصيرية الأخرى، التي ربما يفوق تأثيرها الهدام تأثير التبشير. كما أن ليس كل مبشر منصر ، لكن ليس كل منصر مبشرا. فمفهوم التنصير في البيئة الإسلامية صيغ وتحددت وظيفته فيما يؤدي إلى إخراج المسلمين من دينهم وهذا ما حصل بالفعل في اسبانيا على يد المتعصبين من الكاثوليك. ينظر: عبد الراضي محمد عبد المحسن، الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم، ضمن أعمال الندوة الموسومة بـ "العناية بالقرآن الكريم وعلومه"، 1421هـ، موقع المفكرة الدعوية www.dawahmemo.com، بتاريخ: 15. 12، 2011، 30، 10 سا. ص ص: **6**، **7**.

نصه:"...**بدأت عظمة المملكة الإسبانية من خلال نشر الدين المسيحي...**"

– العبارة التالية في الصفحة ص:(91) تظهر الرأي الذاتي للمؤلف حول تعاليم الدين الإسلامي ورد فيها ما نصه:"...**ولهذا فهي مفرقة على أقصى حد...**"

***– فيما يخص المادة العلمية الواردة في الدراسة:** يجب علينا من باب الأمانة العلمية أن نشير إلى نقطة مهمة جدا، أنه بالرغم من بعض الأخطاء التي وقع فيها الباحث بدرو لونغاس إلا أنه تعد دراسته هذه من أهم الدراسات التي عالجت الحياة الدينية لمسلمي إسبانيا، ولا يمكن لأي الباحث دراسة هذا الموضوع دون الرجوع إليها. وفي هذا الصدد ونحن نستقي معلوماتنا منها حاولنا تقديم بعض الأخطاء التي وقع فيها الباحث، وسنأخذ كنموذج لذلك باب الصلاة[1]؛ فمن بين الأخطاء الواردة في هذا الباب ندكر:

– تقسيم باب الصلاة إلى عشر فصول ثم تحت ترقيم كل فصل يضع رقم الجزء "الفصل الأول – الجزء الأول" الفصل الثاني الجزء الثاني " وهكذا وكان من الأحسن لو جعل الصلاة فصلا كاملا ثم يقسمها إلى عناصر، وهذا نظرا لأن كل عنصر "جزء" لم يحمل الكثير من المعطيات ليرقى إلى مستوى فصل، وهذا متعارف عليه منهجيا أنه هناك رقما من الصفحات يجب احترامه في التأسيس للفصل.

– لم يفرق الباحث بين الشهادتين والإيمان؛ فالإيمان كما ورد عند الفقهاء هو الإيمان بوجود

[1]– لم نطمح إلى تقديم كل الأخطاء الواردة في المرجع نظرا لأمرين: أولهما أن دراستنا لم تقتصر على الحياة الدينية لمسلمي إسبانيا فقط، وإنما عالجت الفكر الديني. والأمر الثاني: لتفادي الإطالة، فتصبح الدراسة مثقلة بمادة ليست بالأساسية إذا ما قورنت بتلك التي تعلقت بالفكر الديني وكل ما اتصل به من عناصر.

الله تعالى، والإيمان بربوبيته، والايمان بألوهيته، والإيمان بأسمائه وصفاته[1].

– هناك الكثير من الأخطاء التي تكررت على مدى صفحات هذه الدراسة، خاصة في أرقام الآيات وقد قام بتصحيح الكثير منها الباحث المختص في "الدراسات الموريسكية" عبد الجليل التميمي. ومن النماذج الدالة على ذلك نذكر:

*– الآية التالية في قولع عز من قائل: {**وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر**} سورة رقم (44)، الآية رقم:(29)، وقد علق عبد الجليل التميمي وصحح رقم السورة (45) وليس (44)[2]. وقد ورد نص الآية الكريمة مصححا ومشكلا من المصحف الشريف بهذا الشكل:{ **اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ**}[3].

*– قوله تعالى في محكم تنزيله: {**فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره**} ورد في الدراسة أنها من السورة رقم: 28، الآية: رقم 138، وصححها التميمي بأن رقمها هو (150) بدلا من (138)[4]. وقد ورد نص الآية مشكلا ومصححا من المصحف الشريف بهذا الشكل:{ **قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ**}[5]

---

[1]– العثميين بن صالح محمد، القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، الجزائر، دار الفجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط18، 1424هـ، 2003م. ص:5.

[2] – المرجع السابق، ص:74.

[3]– سورة العنكبوت، الآية رقم: 46.

[4]– المرجع السابق. ص:75.

5– سورة البقرة، الآية رقم: 144.

*- كما وقع كل من بدرو لونغاس وعبد الجليل التميمي في ترتيب الآيات والسور، ومن النماذج الدالة على ذلك نذكر:

*- قوله تعالى في محكم تنزيله: {**فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين وأعبد ربك حتى يأتيك اليقين**}. ذكر بدرو لونغاس أن هذه الآية رقم :(99) من السورة رقم:(158) وعلق عبد الجليل التميمي أن الآية رقم:(15) من سورة طه. وبعد عملية البحث والتقصي تأكدنا بأن الآية الكريمة هي من سورة الحجر وليست سورة طه. وقد ورد نص الآية مشكلا ومصصحا من المصحف الشريف على الشكل التالي:{ **فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ**}[1].

*- في تصحيح الآية الكريمة{**أتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون**} ذكر بدرو لونغاس أن رقم السورة هو (45)، بينما صححها عبد الجليل التميمي وذكر أن رقمها هو: (44)، وهو بذلك يعني سورة الجاثية؛ وخلال تفقدنا لهذه السورة لم نعثر على وجود هذه الآية، وبذلك فإن كل من صاحب النص الأصلي والتميمي قد أخطأ في تصنيف هذه الآية؛ وبالعودة إلى المصحف الشريف، المصدر الرئيس لتصحيح مثل هذه الأخطاء، اكتشفنا أن هذه الآية وردت في سورة

العنكبوت الآية رقم: (45)، بمعنى أن السورة ترتيبها في المصحف الشريف ترتيبها (29). وقد ورد نص الآية الكريمة مشكلا من المصحف الشريف بالشكل التالي:{ **اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ والمنكر ولذكر اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ**}[2].

---

[1]- سورة الحجر، الآية رقم:99.

[2]- سورة العنكبوت، الآية رقم: 45.

*- في قوله تعالى: {**وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن أناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى**}[1] أخطأ بدرو لونغاس في رقم الآية؛ في حين لم يعلق عبد الجليل التميمي على هذا الخطأ كما فعل في مواضيع كثيرة من الدراسة[2]. أما تصحيحها استنادا إلى القرآن الكريم فهي الآية رقم: (130) من سور طه وقد بثرت بدايتها فالآية الكريمة تقول: **{فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ}.**

*- الخلط في استعمال المصطلحات الخاصة بالصلاة فقد ذكر بدرو لونغاس أن الصلاة "تتلى" فالقرآن هو الذي يتلى وليس الصلاة، إنما هذه الأخيرة تؤدى[3].

هذه نماذج من الأخطاء التي وقع فيها الباحث بدرو لونغاس، والتي كان يمكنه تجنبها إن هو التزم قواعد البحث العلمي، التي تلزم أي باحث بالتعامل مع كل المصادر والمراجع التي قد تفيد بحثه وتضفي عليه نوع من المصداقية العلمية.

ومع هذا كله لا يمكننا أن ننكر الأهمية العلمية لهذه الدراسة، وأنها تعتبر من أعمدة الدراسات التي عالجت الممارسات الدينية لمسلمي اسبانيا؛ إذ يعتبر هذا الكتاب انجاز علمي يستفيد منها الباحث المسلم وكذا الأوروبي، إذا ما أراد رسم الخطوط العريضة لحياة هذه الأقلية المضطهدة في أبسط حقوق الإنسان، وهو العيش بحرية.

---

[1] - سورة طه، الآية رقم:1.

[2] - المرجع السابق. ص:75.

3- المرجع نفسه. ص: 74.

# الفصل الثاني: الايمان وأركانه في منظور الفكر الديني لمسلمي اسبانيا

## المبحث الأول: توحيد الألوهية والربوبية عند مسلمي اسبانيا

### 1)_ عقيدة التوحيد

### 2)_ نماذج من النصوص القرآنية الدالة على توحيد مسلمي اسبانيا لله تعالى

### 3)_ اعتقاد مسلمي اسبانيا في صفات الله وأسمائه

## المبحث الثاني: الايمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقضاء والقدر

### 1)_ الايمان بالكتب والملائكة

### 2)_ الايمان بالرسل

### 3)_ الايمان باليوم الآخر والقضاء والقدر

منذ القدم بدأ الانسان يتحسس الأشياء من حوله ويدركها ويعيها، كما راح يبحث عن فكرة نشوئها وتكوينها، وصار وهو في لجة بحثه وتأمله لما كان يراه من ظواهر مادية وطبيعية، يفسر كل شيء على ضوء فهمه لها، فهذه شجرة وتلك حجارة وهذا ماء غير أنه ظل عاجزا عن الكثير من الظواهر الأخرى كالعواصف والأمطار، والليل والنهار، وغيرها من الظواهر الطبيعية. ازاء هذا العجز لم يكن أمام الإنسان سوى أن ينسبها الى المجهول والغيب أو القوى الخفية؛ ومع مرور الزمن تحولت

هذه القوى إلى آلهة، أغدقوا عليها هالة عالية من القدسية وصار لكل ظاهرة إلاها وتخصصت في واجباتها، فهذا اله الخصب وذاك للمطر وغيره للموت.

واختلفت الطقوس من واحد الى آخر، وكذلك الفرائض التي تقدم إليها، وجاءت الأساطير التي استمدت مادتها من هذه الالهة لتضيف إليها المزيد من الطاقات الخارقة وتفصل في معتقداتها وتضفي عليها صورا، ناهيك عن صفات الاستقامة والمقدرة، وكما يريدها الآخرون كنموذج لا يشوبه عيب خلافا لآلهة الشر التي تتصف بالعدوانية والشراسة والانتقام. وقد تناغمت هذه المعتقدات مع انفعالات الانسان لا على الادراك الملموس والعقلي بل على أساس الايحاء والاعتقاد، كونها لا تمتلك ولا تعتمد البراهين والأدلة، بل إنها مجرد صيغ رمزية لا تخضع للإثبات والنفي بالتقصي العلمي والتحليل الفلسفي.

ولما كان الإسلام آخر الرسالات السماوية التي أرسل بها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قد أثبت صدق دعواه امتلاك الحقيقة المطلقة والقدرة على قيادة الإنسانية باختلاف أجناسها وشعوبها وتطلعاتها وآمالها ، وذلك بما أنجزه في حيز التطبيق الفعلي لذلك الاستحقاق، حيث استطاع في قرن ونصف من الزمان أن يجمع تحت رايته أكثر من ثلثي تعداد سكان العالم من بيض وسود، وعرب وعجم، وبربر وترك وهنود وقوقاز، سوى بينهم في الحقوق والواجبات، وصهرها في بوتقة ألّفت أزهى عصور التاريخ : حضارة وعلما وأخلاقا.

فإن تلك القدرة الهائلة للإسلام قد أذهلت أهل الكتاب الذين قعدت بهم دياناتهم عن تبوء تلك المنزلة أو ما يدانيها، على الرغم من الفترة الزمنية السحيقة التي قرعت العالم فيها نواقيس اليهودية

والنصرانية. لهذا أدرك أهل الكتاب خسارتهم معركة التحدي الكونية، بسبب فقد ديانة العهد القديم والعهد الجديد المقومات الذاتية اللازمة لقيادة الإنسانية والارتقاء بها حضاريا وأخلاقيا، فعمدوا إلى سلوك طريق آخر يستهدف إقصاء الإسلام عن الحلبة الكونية نهائيا؛ حتى يتسنى لهم قيادة العالم وامتلاك مقدراتها بما يدعون من حق إلهي مقدس.

فكانت المواجهة مع الإسلام والصراع ضده هي السبيل لتحقيق ذلك الهدف، وقد اتخذ ذلك الصراع شكلين أساسيين هما الحروب العسكرية التدميرية وحرب العقيدة والفكر التي تسعى للنيل من الإسلام، ونبيه، وكتابه، ومعتقداته، وشرائعه، ونظُمه؛ بهدف زعزعة عقيدة المسلم وتشكيكه في دينه، مما يقود إلى الخروج من الإسلام وليس بالضرورة الدخول في النصرانية.

ويكشف لنا هذا الغرض النهائي من حرب العقيدة والفكر سر المشاركة الفعالة للنصارى الاسبان في الصراع ضد الإسلام، مصداقا لقوله تعالى في الآية رقم: 109 من سورة البقرة: ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾. فقد ساهم النصارى الإسبان في حربهم ضد كل ما يمثل الإسلام من عقيدة ولغة وأخلاقا وشريعة، فكانت حربا شرسة أعلنوها على الإسلام مباشرة بعد سقوط آخر معقل للمسلمين في الأندلس الضائعة غرناطة.

إلا أن مسلمي اسبانيا تمسكوا بمقومات شخصيتهم الإسلامية، ورفضوا الانسلاخ عنها رغم كل الضغوطات وعملية التنكيل والاضطهاد الذي عنوه على يد السلطات الإسبانية السياسية والدينية. وبذلك أعلنوها تحديا صارخا للحرب الصليبية التي حاولت النيل من الإسلام باضطهاد

تابعيه، فكان أن زادهم ذلك اصرار وتمسكا به. فتركوا لنا تراثا يؤكد ذلك ويفند كل الادعاءات القائلة باختفاء الإسلام من اسبانيا بعد سقوط غرناطة.

على هذا الأساس سنحاول من خلال هذه الجزئية التعرف على مدى تمسك مسلمي اسبانيا بمقومات الدين الإسلامي من عقيدة وعبادات وشرائع في ظل بطش محاكم التحقيق، وتنكيل السلطات السياسية بهم، مع الأخذ بعين الاعتبار بأن دراسة مثل هذه ليست بالأمر السهل في ظل كل تلك التناقضات التي احتوتها مجموع الدراسات التي اختصت في هذا المجال.

## المبحث الأول: توحيد الألوهية والربوبية عند مسلمي اسبانيا من خلال إنتاجهم الديني

يعتبر المعتقد الديني أول أشكال التعبيرات الجمعية عن الخبرة الدينية الفردية التي خرجت من حيز الانفعال العاطفي إلى حيز التأمل ويبدو أن توصل الخبرة الدينية إلى تكوين المعتقد هو حاجة سيكولوجية ماسة؛ ذلك أن المعتقد هو الذي يعطي للخبرة الدينية شكلها المعقول الذي يعمل على ضبط وتقنين أحوالها، ويشكل المعتقد المركز الفكري الذي تصوغه تصورات وأفكار الجماعة الدينية والذي يصبح المصدر الأول حيث ينظم مكونات الدين الأساسية والثانوية الأخرى، ويتألف المعتقد عادة على الأفكار الواضحة والمباشرة التي تعمل على رسم صورة ذهنية لعالم المقدسات وتوضح الصلة بينهم وبين عالم الإنسان، فغالبا ما تصاغ هذه الأفكار على شكل صلوات وتراتيل.

**1)– عقيدة التوحيد:** نقصد بالتوحيد هنا معنى منهجيا يمثّل خاصية من خصائص الفكر المرشدة للفكر الإسلامي، فهو إذن ليس معنى عقديا وإن كان له صلة به من حيث إن عقيدة

التوحيد تطبع العقل المؤمن بها على خاصية التوحيد كخاصية منهجية في التفكير، فهي ثمرة لها ونتيجة من نتائجها.

ونعني بهذه الخاصية المنهجية أن يتوجه العقل في البحث عن الحق، وفي تركيب خطط الإصلاح منه بحيث يؤالف بين المعطيات التي يتوفر عليها، ويرد بعضها إلى بعض بحسب التشابه والتماثل، ويوحدها في معيار دلالي يكون أساسا لمبدأ واحد تنخرط فيه جهود الفهم والتعليل، وتنبني على أساسه الرؤى والحلول. وبهذه الخاصية يتوصل الفكر إلى أحكام معرفية موحدة المعيار، فتنسجم نتائجها ولا تتناقض، سواء كان ذلك في المعرفة الكونية بما تقوم عليه من وحدة القواعد في التجريب، أو في المعرفة الشرعية والإنسانية بما تقوم عليه من وحدة المبدأ والغاية.

وفي العقيدة الإسلامية ما يشكل العقل على هذا النحو من المؤلفة والتوحيد في النظر، حيث إن هذه العقيدة تقوم على التوحيد المطلق، فكل ما في الكون مبدؤه واحد على كثرة أنواعه وتغيرها، ونظامه في التركيب والحركة والظهور والاختفاء يجري على قانون واحد، وسيرورته تتجه إلى غاية واحدة، ذلك هو الله المبدئ والمهيمن والمعيد، وحياة الإنسان في مختلف تصاريفها تتجه إلى وجهة واحدة هي تحقيق الخلافة في الأرض بالعبودية لله، فهذا المعيار الموحد الذي تقوم عليه العقيدة الإسلامية من شأنه أن يكيف عقل المؤمن بها على نحو من المؤالفة والتوحيد في الفهم والتحليل والحكم.

وترتكز العقيدة الصحيحة في الإسلام على توحيد الله، الذي لا أول له ولا آخر، ليس كمثله شيء، محيط بكل شيء، يحي ويميت وكل شيء هالك إلا وجهه الكريم، الذي لا يحده الماضي

والحاضر والمستقبل. فالتوحيد مصدر "وحد يوحد" أي جعل الشيء واحدا، وهذا لا يتحقق إلا بنفي أو إثبات، نفي الحكم عما سوى الموحد، فمثلا لا يتم للإنسان الوحيد حتى يشهد أن لا إله إلا الله فينفي الألوهية عما سوى الله تعالى ويثبها الله وحده. وفي اصطلاحا التوحيد هو "إفراد الله عز وجل بالعبادة " أي أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا بل نفرده وحده بالعبادة محبة، وتعظيما، ورغبة، ورهبة[1]. وأنواع التوحيد ثلاث: توحيد الربوبية[2]، توحيد الألوهية[3] توحيد الأسماء والصفات[4].

وفيما ورد في الإنتاج الديني الذي خلفه مسلمو اسبانيا مصطلح الإيمان،[5] فالإيمان بالله هو التسليم المطلق والثقة الكاملة به، لا يحتاج إلى دليل أو إثبات لوجوده لأنه فوق الأدلة. وفي هذا النوع من الإيمان تختلف درجات المؤمنين قوة وضعفا بحسب قابليات المؤمنين الفكرية وبحسب تجاوبهم معه. فالمؤمنون هم الذين جمعوا بين الأعمال التي بعضها يقع في القلب وبعضها باللسان وبعضها بهما وسائر البدن، مصداقا لقوله عليه الصلاة والسلام:"**الإيمان قول باللسان، عمل بالأركان، معرفة بالقلب**"[6].

---

[1]- بن عبد الوهاب محمد التميمي النجدي، شرح كشف الشهاب ويليه شرح الأصول السنة، شر: العثيمين بن صالح محمد، بيروت، دار الكتب العلمية ، د ط، 1424هـ/2003م. ص ص:13، 14.

[2] - **توحيد الربوبية**: هو إفراد الله تعالى بالخلق والملك والتدبير.

[3] - **توحيد الألوهية**: هو إفراد الله تعالى بالألوهية.

[4] - **توحيد الأسماء والصفات**: هو إفراد الله سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته الواردة في كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وذلك بإثبات ما أثبته، ونفى ما نفاه من غير تحريف، ولا تعطيل، ومن غير تكييف، ولا تمثيل. وربنا جل جلاله وتقدست أسماؤه متصف بجميع الصفات، فله الأسماء الحسنى، والصفات العلى، لا شبيه له من خلقه، ولا شريك له في ملكه، ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير. ينظر: أبو بكر أحمد بن الحسين ابن علي بن موسى البيهقي، الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد، بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، ط: 1، 1424هـ/2003م. ص: 29.

[5]- اعتمادا على الدراسة التي أنجزها بدرو لونغاس فيما يخص "لحياة الدينية عند الموريسكيين"، وهو بدوره اعتمد على مجموعة مهمة من المخطوطات. الأخميادية. وهذه المادة العلمية مستقاة من هذه المخطوطات.

[1]- بن عبد الوهاب محمد التميمي النجدي، المصدر السابق. ص: 22.

وفيما ذكر الله في هذه الأعمال تنبيه على ما لم يذكره، والأحاديث في تسمية شرائع الإسلام إيمانا، فقول عبارة "آمنت بالله" تشمل بوجود الله عز وجل، وبربوبيته وبأسمائه وصفاته وبأحكامه وبأخباره وكل ما يأتي من قبله عز وجل، تؤمن به وتستقم على طريقه[1]. وما ورد حول الإيمان في بعض المخطوطات الألخميادية نذكر ما نصه:

**من أركان الإيمان: الإيمان بالقدر خيره وشره، ويشمل:**

**– الإيمان بكل نصوص القدر ومراتبه (العلم، الكتابة، المشيئة، الخلق)، وأنه تعالى لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه.**

**– هداية العباد وإضلالهم بيد الله، فمنهم من هداه الله فضلا. ومنهم من حقت عليه الضلالة عدلا.**

**– العباد وأفعالهم من مخلوقات الله تعالى، الذي لا خالق سواه، فالله خالق لأفعال العبـاد، وهم فاعلون لها على الحقيقة.**

**– إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى، وإثبات الأسباب بمشيئة الله تعالى.**

**– الجماعة هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، والتابعون لهم بإحسان، المتمسكون بآثارهم إلى يوم القيامة، وهم الفرقة الناجية. وكل من التـزم بمنهجهم فهـو من الجماعة، إن أخـطأ في بعض الجزئيات.**

[2]– النووي، المصدر السابق. ص: 300.

**–لا يجوز التفرق في الدين، ولا الفتنة بين المسلمين، ويجب رد ما اختلف فيه المسلمون إلى كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وما كان عليه السلف الصالح.**

**– من خرج عن الجماعة وجب نصحه، ودعوته، ومجادلته بالتي هي أحسن، وإقامة الحجة عليه، فإن تاب وإلا عوقب بما يستحق شرعا.**

**– إنما يجب حمل الناس على الجمل الثابتة بالكتاب، والسنة، والإجماع، ولا يجوز امتحان عامة المسلمين بالأمور الدقيقة، والمعاني العميقة.**

**– الأصل في جميع المسلمين سلامة القصد المعتقد، حتى يظهر خلاف ذلك، والأصل حمل كلامهم على المحمل الحسن، ومن ظهر عناده وسوء قصده فلا يجوز تكلف التأويلات له.**

**_ الإمامة الكبرى تثبت بإجماع الأمة، أو بيعة ذوي الحل والعقد منهم، ومن تغّلب حتى اجتمعت عليه الكلمة وجبت طاعته بالمعروف، ومناصحته، وحرم الخروج عليه إلا إذا ظهر منه كفر بواح فيه من الله برهان.وكانت عند الخارجين القدرة على ذلك.**

**_الصلاة والحج والجهاد واجبة مع أئمة المسلمين وإن جاروا.**

**– يحرم القتال بين المسلمين على الدنيا، أو الحمية الجاهلية؛ وهو من أكبر الكبائر، وإنما يجوز قتال أهل البدعة والبغي، وأشباههم، إذا لم يمكن دفعهم بأقل من ذلك، وقد يجب بحسب المصلحة والحال.**

**– الصحابة الكرام كلهم عدول، وهم أفضل هذه الأمة، والشهادة لهم بالإيمان والفضل أصل قطعي معلوم من الدين بالضرورة، ومحبتهم دين وإيمان، وبغضهم كفر ونفاق، مع الكف عما شجر بينهم، وترك الخوض فيما يقدح في قدرهم. وأفضلهم أبو بكر، ثم عمر، ثم**

**عثمان، ثم علي، وهم الخلفاء الراشدون وتثبت خلافة كل منهم حسب ترتيبهم.**

**– من الدين محبة آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوليهم، وتعظيم قدر أزواجه أمهات المؤمنين، ومعرفة فضلهن، ومحبة أئمة السلف، وعلماء السنة والتابعين لهم بإحسان ومجانبة أهل البدع والأهواء.**

**– الجهاد في سبيل الله ذورة سنام الإسلام، وهو ماض إلى قيام الساعة.**

**– الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم شعائر الإسلام وأسباب حفظ جماعته، وهما يجبان بحسب الطاقة، والمصلحة معتبرة في ذلك**[1].

يتضح من خلال ما ورد حول أركان الإيمان أنها ترجمت من المصادر الفقهية إلى اللغة الألخميادية حتى يتمكن مسلمو اسبانيا من الاطلاع عليها، وبتالي اكتساب ثقافة دينية تمكنهم من صد الهجمات الصليبية التنصيرية التي أعلنتها ضدهم السلطة والكنيسة الإسبانية.

**2)– نماذج من النصوص القرآنية الدالة على توحيد مسلمي اسبانيا لله تعالى:** لا أدل على أهمية التوحيد وعلو مكانته، من اهتمام القرآن به، حتى قال بعض العلماء: إن كل آية في القرآن

[1]– مخطوط رقم: 3298، المكتبة الوطنية بمدريد، نقلا عن بدرو لونغاس، المرجع السابق، ص: 34.

فهي متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه. فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله. فهو التوحيد العلمي الخبري – توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات –، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع كل ما يعبد من دونه.

فهو التوحيد الإرادي الطلبي – توحيد الإلوهية –، وإما أمر ونهي، فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة. فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى من العذاب . فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد. فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم.

لهذا وظف مسلمو اسبانيا بعض الآيات من الذكر الحكيم للدلالة على عقيدة التوحيد التي التزموا بها بالرغم من كل أنواع الاضطهاد الذي كانوا يعانون منه؛ ومن بين النماذج التي كتبوها حول موضوع التوحيد الذي هو ركن أساسي في العقيدة كتابا قرآنيا عثر عليه في الخزانة الوطنية بمدريد تحت الرقم 5078 يحتوي على بعض الآيات من سور مختلفة[1].

تظهر هذه الآيات من أول وهلة أنها جمعت بطريقة عشوائية، لكن عند تفحصها ودراسة معناها من المصادر المختصة نجد وتحليل مضمونها يتبين أن جمعها قد خضع لاختيار دقيق تبعته بعد ذلك ترجمتها إلى الأعجمية بهدف تعليمي محض لغرس العقيدة الإسلامية، أخذين بعين الاعتبار

[1]– الحسين بوزينب، المرجع السابق، ص: 1.

الوضعية التي كان يعيشها مسلمو اسبانيا بسبب الملاحقة والاضطهاد من قبل محاكم التحقيق. ومن أجل توضيح ذلك هذه النماذج مما ورد في الكتاب:

ابتدأ صاحب الكتاب بالآية رقم: 163 من سورة البقرة: **﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾**. وقد جاءت الآية الكريمة مشكلة من المصحف الشريف بالشكل التالي:**﴿وَإِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾**.

من خلال هذه الآية الكريمة يخبر الله عز وجل عباده عن تفرده بالإلهية، وأنه لا شريك له ولا عديل له، بل هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا إله إلا هو، وأنه الرحمان الرحيم[1].

وتتبعها الآيات رقم: 255 – 256 – 257 من السورة نفسها، جاء نصها في محكم تنزيله كما يلي: **﴿ الله لا اله إلا هو الحي القيوم لا تاخده سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الارض من دا الدي يشفع عنده الا بادنه يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا بحيطون بعلمه الا بما شاء وسع كرسيه السموات والارض ولا يؤده حفظها وهو العلي العظيم﴾**. وقد جاءت الآية الكريمة مشكلة من المصحف الشريف بالشكل التالي: **﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾**.

هذه آية الكرسي، التي لها شأن عظيم، وقد صح الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها أفضل آية في كتاب الله تعالى؛ وهذه الآية تضم عشر جمل مستقلة فقوله: **﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾**. إخبار بأنه المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق. **﴿ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾**. أي الحي في نفسه الذي لا يموت

[1]– ابن كثير، المصدر السابق، مج:1. ص: 199.

أبدا، القيم لغيره. ﴿ **لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ**﴾. أي لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه، بل هو قائم على كل نفس بـا كسبت، شهيـد على كـل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا يخفى عليه خـافية، ومن تمام القيومية أنه لا يعتريه سنة ولا نوم[1].

وقوله عز وجل ﴿ **مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ**﴾ إخبار بأن الجميع عبيده وفي ملكه، وتحت قهره وسلطانه، كقوله: ﴿ **إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا** ﴾.[2] وقوله:﴿ **مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ**﴾ وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه عز وجل، أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه له في الشفاعة، كما في حديث الشفاعة: "**آتي تحت العرش فأخر ساجدا، فيـدعني مـا شـاء الله أن يـدعني. ثم يقـال: ارفـع رأسك وقـل تسمـع واشـفـع تشفع قـال فيحـد لي حـدا فأدخلهم الجنة**".

وقوله تعالى: ﴿**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ** ﴾. دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات، ماضيهـا وحاضرها ومستقبلها[3]، كقوله إخبارا عن الملائكة سبحانه وتعالى: ﴿ **وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا** ﴾[4]. وقوله عز وجل: ﴿**وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ**﴾ أي لا يطلع أحد من علم الله على شيء إلا بما أعلمه الله عز وجل وأطلعه

---

[1]- ابن كثير، المصدر نفسه. ص: 302.

[2]- سورة مريم، الآية رقم: 93.

[3]- المصدر السابق. ص ص: 302، 303.

[1]- سورة مريم، الآية رقم: 64.

عليه. ويحتمل أن يكون المراد لا يطلعون على شيء من علم ذاته وصفاته، إلا بما أطلعهم الله عليه، كقوله تعالى في محكم تنزيله: ﴿ **وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا**﴾[1]

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ** ﴾ سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قول الله عز وجل في ﴿ **وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ**﴾ "**قال كرسيه موضع قدميه والعرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل**". وقوله تعالى: ﴿ **وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا**﴾ أي لا يثقله ولا يكرثه حفظ السموات والأرض، ومن فيهما، ومن بينهما، بل ذلك سهل عليه، يسير لديه، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء، فلا يعزب عنه شيء ولا يغيب عنه شيء، والأشياء كلها حقيرة بين يديه، الذي لا يسأل عما يفعل وهو يسألون، وهو القاهر لكل شيء، الحسيب على كل شيء، الرقيب العلي العظيم، لا إلاه غيره، ولا رب سواه[2]. وقوله سبحانه عز وجل: ﴿ **مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ**﴾ كقوله تعالى: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ**﴾[3]

لم يكن هذا المخطوط الوحيد من بين ما أنتجه مسلمو اسبانيا بهذا الصدد، فهناك مخطوط آخر وردت فيه الآيات نفسها؛ تأكيدا على تمسك مسلمي اسبانيا بعقيدة التوحيد التي هي ركن أساسي في الإسلام. ومن بين النماذج أيضا التي ضمتها صفوف الخزانة الوطنية بمدريد[4]، الذي ألفه أحد مسلمي اسبانيا، محاولا نشر عقيدة التوحيد بين جماعته، وحثها على التمسك بالإسلام

---

[2]- سورة طه، الآية رقم: 110.

[3]- ابن كثير، المصدر السابق. ص: 304.

[4]- سورة الرعد، الآية رقم: 9.

[3]- مخطوط رقم: 9653، ورقة رقم: 135، نقلا من المقال:

Chiroz Ben Hadj Ali, La lengua arab y los moriscos del escilio, Op. Cit. P : 126

الـذي هـو الـدين الصحيح؛ كما حاول من خلاله نفي عقيدة التثليث التي كان يفخر بها النصارى ويحاولـون نشـرها بشتى الطرق. وللتأكيد على ما ذكرناه هذا عرض لبعض الآيات التي تخدم الموضوع:

**قال تعالى في محكم تنزيله: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تاخده سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الارض من ذا الذي يشفع عنده الا بادنه يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء وسع كرسيه السموات والارض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم، الله ولي الذين امنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا اولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون﴾**[1].

نلاحظ أن هذه الآيات هي من الآية 255 إلى 257 من سورة البقرة، وقد جاءت الآيات الكريمة مشكلة في المصحف الشريف كالتالي: **﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ(255) لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(256) اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(257)﴾**

[1] – سورة البقرة، الآيات رقم: **255 . 256 . 257**

**أيضا قوله تعالى: ﴿الم الله لا اله إلا هـو الحي القيوم نـزل عليك الكتـاب بالحق مصـدقا لما بين يديه عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام ان الله لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء هو الذي يصوركم في الارحام كيف يشاء لا اله إلا هو العزيز الحكيم شهد الله انه لا الا هو ليجمعنكم الى يوم القيامة لا ريب فيه ومن اصدق من الله ...ذالكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل اتبع ما اوحي اليك من ربك لا اله الا هو واعرض عن المشركين الذي له ملك السموات والارض لا اله الا هو يحي ويميت فامنوا بالله ورسوله﴾**[1].

نلاحظ في هذه الآيات الكريمة من الذكر الحكيم أنها من سور مختلفة تمثلت في سورة النساء وسورة الأنعـام وسـورة الأعـراف. ولهـذا فنقسم النص القرآني الـوارد في المخطوط إلى مـا يلي مع تصحيح الأخطاء الواردة فيه

**﴿شهد الله أنه لا إلاه هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله...**

﴾الآية رقم: 86 من سورة النساء. والملاحظ على الآية الكريمة الواردة في نص المخطوط أن المؤلف وقع في أخطاء تمثلت فيما يلي: الآية تبدأ بـ " الله". وليس شهد. أما الخطأ الثاني فيكمن في إضافة كلمة "أنه" ثم الخطأ الثالث ويتمثل في حذف " إلا". كما أنه بشر آخر الآية. وتصحيحها من المصحف الشريف يكون كالآتي: **﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾**

[1]- Chiroz Ben Hadj Ali, Op. Cit. P: 127.

في حين نجد الآية الكريمة التي تبتدأ بـــ " **شهد" هي** من سورة آل عمران، الآية رقم: 18 وقد جاء نصها كاملا من المصحف الشريف كالآتي: ﴿**شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾

أما الآية الكريمة التي ورد نصها بهذا الشكل في المخطوط الألخميادي: ﴿**دالكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل**﴾ هي الآية رقم: 102 من سورة الأنعام وقد وردت مشكلة في المصحف الشريف بالشكل التالي: ﴿**ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**﴾

في السياق نفسه نجد الآية الكريمة: ﴿ **اتبع ما اوحي اليك من ربك لا اله الا هو واعرض عن المشركين**﴾ موجودة في السورة نفسها – الأنعام – الآية رقم: 106 وقد جاء نصها مصححا من المصحف الشريف بهذا الشكل: ﴿**اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُو وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ**﴾

أما الآية التي ورد نصها في المخطوط بالشكل التالي: ﴿**الذي له ملك السموات والارض لا اله الا هو يحي ويميت فامنوا بالله ورسوله**﴾ فما يمكن ملاحظته أنها احتوت خطأين نعرضهما مع التصحيح بالشكل التالي:

*– الآية مبتورة البداية فنصها الأصلي هو: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا**﴾

*– الآية الكريمة جاءت مبتورة الآخر ونصها من المصحف الشريف هو كالآتي: ﴿**النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾

ويكون نص الآية الكريمة التي هي من سورة الأعراف رقم:158 مصححة ومشكلة من المصحف الشريف بالشكل التالي:﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾

من خلال المعطيات التي تم عرضها يمكننا الخروج بمجموعة من الاستنتاجات:

*- لم يكن اختيار الآيات عشوائيا أو ارتجاريا، وإنما تم اختيارها عن قصد، فكلها تدل على وحدانية الله الذي لا إله إلا هو، وهي عقيدة المسلم الصحيحة.

ما يمكن ملاحظته من خلال توظيف هذه الآيات أن مواضيعها مثلت الشغل الشاغل لأصحابها أي :

*- وحدانية الإله وبالتالي الرفض التام لكل أنواع الشرك الذي يقصد منه عقيدة التثليث.

*- تسامح الإسلام الذي يقابله التشدد الذي عاملتهم به السلطات النصراني.

*- التشبث بالإسلام بالرغم من كل أنواع التنكيل والاضطهاد الذي مارسته السلطات الاسبانية الدينية والسياسية ضد مسلمي اسبانيا.

*- الأخطاء الواردة في بعض السور، وهذه الظاهرة وإن ذلت فتدل على المستوى الذي كان عليه مسلمو اسبانيا الناتج على حرق كل المصاحف، ومتابعة محاكم التحقيق لكل من يشك في أمره أنه يملك مصحفا في بيته، أو حتى كتابا يضم مجموعة من السور. أيضا ظاهرة حضر استعمال

اللغة العربية. بالإضافة إلى كل هذا وذاك، هجرة عدد كبير من علماء وفقهاء الأندلس بعد وقوع المحنة.

*- الربط بين مجموعة من الآيات، تختلف في موقعها من المصحف الشريف، فعند قراءتنا للآيات يفهم منها أنها من سورة واحدة، ولكن بالرجوع إلى المصدر الأول وهو القرآن العظيم نعثر على أنها من سور مختلفة؛ لا ندري إن كان ذلك عمدا أو دون قصد، ويكون ناتجا عن الخلط الذي يقع للمسلم عندما لا يراجع المصحف الشريف باستمرار. ولكن عموما فاختيار الآيات يدل على تمسك مسلمي اسبانيا بالإسلام، ومحاولاتهم إيصال رسالة إلى إخوانهم المضطهدين بتحفيزهم وتشجيعهم.

**3)- اعتقاد مسلمي اسبانيا في صفات الله وأسمائه الحسنى:**" أسماء الله هي كل ما دل على ذات الله مع صفات الكمال القائمة به؛ مثل: القادر، العليم، الحكيم، السميع، البصير؛ فإن هذه الأسماء دلت على ذات الله، وعلى ما قام بها من العلم والحكمة والسمع والبصر؛ أما الصفات فهي نعوت الكمال القائمة بالذات؛ كالعلم والحكمة والسمع والبصر؛ فالاسم دل على أمرين، والصفة دلت على أمر واحد، ويقال: "الاسم متضمن للصفة، والصفة مستلزمة للاسم ".

ومن بين النصوص التي خلفها مسلمو اسبانيا بهذا الصدد نذكر ما نقله لنا أحمد بن قاسم الحجري في مؤلفه يبين نظرته واعتقاده ومن خلالهما نظرة واعتقاد مسلمي اسبانيا من صفات الله وأسمائه، وما يجب على المسلم الاعتقاد فيهما فكتب يقول في هذا السياق:

**"...ولا شيء من جميع المخلوقات، فلا تشبه إلى الله تعالى في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله. أما ذات الإنسان فهي حادثة، والله تبارك وتعالى قديم، والإنسان فان، والله تعالى غني عنه، وقائم بنفسه، والانسان مفتقر أبدا، والله تبارك وتعالى هو الغني، وكل ما سواه مفتقر إليه. واما الانسان فله صفات مختلفة لصفات الله تعالى. فالانسان له سمع، وبصر، وكلام، وقدرة حادثة، وعلم، وغير ذلك من الصفات. أما السمع فيسمع الانسان ما هو قريبا منه، وإذا تكلم إليه جماعة من الناس في حين واحد، فلا يفهم ما يقولون إلا أن يتكلم واحد وحده، ويكون الكلام باللغة التي يعرف هو، والله تبارك وتعالى يسمع البعيد والقريب، وما تقوله جميع المخلوقات بلسان المقال، ولسان الحال، وما في الضمائر في حين واحد، ولا يشغله شيء عن شيء. وأما البصر فالانسان يبصر القريب بشروط، مثل الضوء، وأن لا يكون حائلا بينه وبين المنظر إليه، والله تبارك وتعالي يرى البعيد والقريب، وما تحت الثرى وما في داخل الأجرام. وأما الانسان فلا يعلم من العلم إلا قليلا، والله تعالى أحاط بكل شيء علما وكذلك سائر الصفات الانسانية كلها ناقصة، محدودة، عاجزة، فانية، كلها مختلفة لصفات الله تعالى. وأما فعل الانسان فلا يخرج عن عادته في الأعمال إلا نادرا حتى أن الخط الذي يكتب يكون معروفا له حتى تشهد الناس، ونقول هذا خط فلان..."**[1].

اعتقد مسلمو اسبانيا أن الإيمان بأسماء الله وصفاته، أحد أركان الإيمان بالله تعالى، وهي الإيمان بوجود الله تعالى، والإيمان بربوبيته، والإيمان بألوهيته، والإيمان بأسمائه وصفاته. وتوحيد الله به،

[1]- أحمد بن قاسم الحجري، المصدر السابق. ص: 116.

أحد أقسام التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات. فمنزلته في الدين عالية، وأهميته عظيمة، ولا يمكن لأحد أن يعبد الله على الوجه الأكمل، حتى يكون على علم بأسماء الله تعالى، وصفاته، ليعبده على بصيرة، قال الله تعالى في سورة الأعراف، الآية رقم: 180: ﴿**وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا**﴾. وهذا يشمل دعاء المسألة، ودعاء العبادة. ومن ضمن الأدعية الدالة على أسماء الله الحسنى وصفاته نذكر هذا النص:

"**بسم الله الرحمن الرحيم اللهم إني أسأل، يا أول قديم، يا وتر، يا أحد، يا صمد، يا الله، يا رحمان، يا رحيم، يا حي، يا قيوم، يا عزيز، يا ذا الجلال والإكرام، يا نور السموات والأرض وما بينهما، ورب العرش العظيم، يا من له...ولم يلد ولم يكن له كفؤا أحد...يا هادي، يا باري، يا عالم، يا رب الأرباب يا ملك الملوك، ولا إلاه فيهما في السموات، ومن في الأرض غيرك قدرتك في الأرض وفي السماء سلطانك في الأرض كسلطانك في السماء**"[1].

## – المبحث الثاني: الإيمان بالملائكة والكتب والرسل

الإيمان هو التصديق والاطمئنان، وهو من مادة **أمن** في اللغة، والتي توسعت فيها كتب اللغة توسعا يشبع فهم الباحث. وفي الاصطلاح الشرعي فهو الإيمان بالله، والإيمان بملائكته، والإيمان بكتبه. والإيمان برسله، والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره. فهذه الأمور الستة هي التي عليها مدار النفس وتفكيرها، في حاضرها ومستقبل أمرها، في شؤون الحياة الدنيا، وما يصلح الأموال فيها،

[1]- أحمد بن قاسم الحجري، المصدر نفسه. ص: 127.

وفي المستقبل المنتظر حدوثه في هذه الحياة الدنيا، أو ما يحصل بعد الموت وعند البعث والنشور. كي يكون الإنسان مسلما عليه أن يؤمن بأركان الإيمان الستة والتي عرفها الإسلام. وذلك نجده في سورة البقرة، الآية رقم:285 ﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ** ﴾

وفي محاولة منا لمعرفة مدى تطابق ايمان مسلمي اسبانيا مع الايمان الصحيح لنا وقفة بهذا الصدد، على أن المحاولة تبقى تحتاج إلى المزيد من البحث والتنقيب حتى يتحقق لها الالمام الكامل بهذا العنصر المهم في فهم الفكر الديني لمسلمي اسبانيا خلال القرنيين العاشر والحادي عشر هجريين الموافق للقرنيين السادس والسابع عشر ميلاديين، مع الأخذ بعين الاعتبار الظروف القاهرة التي كانوا يعانون منها.

**1)- الايمان بالكتب والملائكة**: ومعنى هذا أن نؤمن بالكتب التي أنزلها الله على أنبيائه ورسله. ومن هذه الكتب ما سماه الله تعالى في القرآن الكريم، ومنها ما لم يسمى، قال تعالى في سورة الأعلى، الآيتين 18و19: ﴿ **إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى** ﴾ ونذكر فيما يلي الكتب التي سماها الله عز وجل في كتابه العزيز: التوراة، الإنجيل، الزبور، صحف إبراهيم، قال تعالى في محكم تنزيله في سورة البقرة، الآية رقم: 255: ﴿ **اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ** ﴾.

وقوله أيضا سبحانه وتعالى في سورة آل عمران، الآية رقم:3 و4﴿ **نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ** ﴾ فالتوراة لسيدنا موسى والانجيل لسيدنا عيسى والزبور لسيدنا داوود والصحف لسيدنا إبراهيم والقرآن المعجزة الخالدة لسيدنا محمد صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين.

***– الايمان بالكتب:** آمن مسلمو اسبانيا مثلهم مثل مسلمي العالم الإسلامي بكل الكتب السماوية التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على رسله ومن ذلك، ما خلفوه من مؤلفات حول جدالهم مع النصارى فيما يخص تحريفهم للإنجيل[1]، فهم كانوا يعتقدون اعتقادا جازما بأن الانجيل الذي كان متداولا بين نصارى الاسبان عموما، ونصارى العالم على وجه الخصوص محرف[2].

الأمر نفسه جرى على كتاب الله التوراة، الذي رأوا أنه هو أيضا تعرض للتحريف والزيف من طرف أتباعه، ومن النماذج الدالة على هذا الاعتقاد ما دونه أحمد بن قاسم الحجري وهو يجادل اليهود ويدحض اعتقادهم الزائف فكتب يقول ما نصه:" **ان الله تبارك وتعالى خلق آدام – عليه السلام – في جنة الأرض، وفيها أشجار تسقى بغير ماء، ومنه تخرج أربعة أنهار، وهم: النيل، والفرات، وقيصون، والدجلة. وهذه الانهار معروفة الآن أن كل نهر في بلاد مختلفة عن غيره، ومعروف ابتداؤه**". ويحكم على هذا النص بأنه "**باطل بالبرهان، مثل الشمس**"[3].

---

[1]– لوي كارديك، المورسكيون الاندلسيون والمسيحيون، (المرجع السابق). ص: 34.

[2]– فيرناندو دى لاغرانجا، معجزات اسبانية في مؤلف جدلي إسلامي، ضمن مجموعة من المقالات جمعت في المرجع الموسوم بـ: دراسات أندلسية وموريسكية، (المرجع السابق). ص:61.

[3]– أحمد بن قاسم الحجري، المصدر السابق. ص: 78.

أما اعتقادهم في القرآن الكريم فهو أنه خاتم الكتب السماوية وجاء ناسخ للكتب الأخرى المنزلة على رسل الله سبحانه وتعالى؛ وفيما يؤكد ذلك هذا النص التاريخي الذي ورد فيه ما يأتي:" **عندكم في التوراية مسألة مثل ما قال الله في القران أنه يمحو ويثبت...**"[1].

*– **الايمان بالملائكة:** المقصود من الإيمان بالملائكة هو الاعتقاد الجازم بأن الله خلق الملائكة من نور وهم موجودون، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم، وأنهم قائمون بوظائفهم التي أمرهم الله القيام بها مصداقا لقوله تعالى في سورة البقرة، الآية رقم: 177: ﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** ﴾

ومن الآيات الواردة في نص المخطوط المذكور آنفا[2] قوله عز وجل بهذا الصدد: ﴿**آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير**﴾[3]. **ولقد جاءت الآية الكريمة مصححة ومشكلة من المصحف الشريف بالشكل الآتي:** ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرِ**﴾

يشير الله سبحانه وتعالى في الآية الكريمة بأن المؤمنين يؤمنون بالله الواحد الأحد، الفرد الصمد، لا إلاه غيره، ولا رب سواه، ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء على

---

[1]– أحمد بن قاسم الحجري، المصدر نفسه. ص: 89.

[2]– مخطوط موجود بالخزانة الوطنية بمدريد، الرقم :5078 نقلا عن: الحسين بوزينب، المرجع السابق، ص: 2.

[3]– سورة البقرة، الآية رقم: 285.

عبد الله المرسلين والأنبياء، لا يفرقون بين أحد منهم، فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، بل الجميع عندهم صادقون بارون راشدون مهديون هادون إلى سبيل الخير[1]، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله حتى نسخ الجميع بشرع آخر المرسلين سيدنا محمد عليه أزكى الصلوات والتسليم.

**2)– الايمان بالرسل:** تعتبر عقيدة الإسلام هي العقيدة الوحيدة التي توجب الإيمان بجميع أنبياء الله تعالى ورسله، وتدافع عنهم مما قد نسب إليهم من ادعاءات كاذبة وافتراءات باطلة، بل وترفع من قدرهم، لأنهم اختيار الله تبارك وتعالى، العليم الحكيم. فالله سبحانه وتعالى هو أعلم بمن يختارهم ويصطفيهم لرسالاته.

على هذا الأساس آمن مسلمو إسبانيا بكل الرسل والأنبياء، منهم عيسى عليه السلام[2]، فهم يعتقدون في الرسول عيسى عليه السلام مثلما تعتقد باقي الأمة الإسلامية؛ إذ يقولون بأن "**الله رفعه إلى السماء حيث مازال حيا وسوف يبقى كذلك إلى يوم رجوعه إلى هذا العالم ليحكمه بالقانون الذي سوف يحكم به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه من خلال أربعين سنة سيكون حدث سعيد حيث يصل الذئب والأسد والنعجة أن ترعى معا**"[3].

وأيضا من بين النصوص الألخميادية الدالة على معرفة مسلمي إسبانيا برسل الله وأنبيائه وايمانهم بهم كلهم هذا النص الذي كتبه أحد مسلمي إسبانيا يبين من خلاله ثقافتهم الدينية فورد فيه ما نصه:

---

[1]– ابن كثير، المصدر السابق. ص: 335.

[2]– لوي كارداك، المورسكيون الاندلسيون والمسيحيون، (المرجع السابق). ص: 34.

[3]– المرجع نفسه. ص: 34.

**"... خص الله عشرة أنبياء فآدم قد تلقى في هذا اليوم التوبة، وسفينة نوح عليه السلام قد اصطدمت في مثل هذا اليوم، كما أنه في مثل هذا اليوم قد حمل سيدنا إدريس إلى أعلى قمة انتصاره بجبل شوتي وحيث مازال حيا، وفي مثل هذا اليوم وهب النصر لسيدنا موسى على فرعون الذي أغرق هو وذووه في البحر، وفي مثل هذا اليوم أيضا خلص سيدنا إبراهيم من نار النمرود، وأخرج سيدنا يونس من بطن الحوت وسيدنا يوسف من البئر، وقبل الله توبة الملك النبي داوود، كما خلص سيدنا أيوب من آلامه، وفي مثل هذا اليوم ولد سيدنا عيسى..."**[1].

من خلال هذا النص التاريخي – الديني – نلاحظ معرفة صاحب المخطوط بأسماء الكثير من الرسل والأنبياء وتسلسلهم التاريخي وأهم الأحداث التي ميزت عهدهم، على أنه لا يمكننا قياس هذه المعرفة على كل مسلمي اسبانيا في ظل الحصار الديني والفكري الذي مارسته السلطات السياسية والدينية عليهم هادفة من ذلك مسخ هويتهم الإسلامية ودمجهم في الثقافة النصرانية الكاثوليكية المحرفة.

أيضا من بين الأمور التي كانت موضوع جدال بين مسلمي إسبانيا والنصارى الإيمان بالرسل والأنبياء كما ورد ذكرهم في القرآن الكريم. ومن بين الرسل الذين كانوا محل جدال سيدنا أدام عليه السلام فقد حدث نقاشا بين أحمد بن قاسم الحجري وأحد الرهبان، ومن بين ما ورد فيه نذكر ما نصه:

---

[1]- لوي كارداك، المرجع نفسه. ص: 34.

**"... ثم قال الله تبارك وتعالى: خلق أدم على هيئته، أو على مثاله. وهذا القول هو ابتداء شركهم، لأن مرادهم بالتشبيه أن سيدنا عيسى – عليه السلام– له أصل في ذلك الخلقة للألوهية، التي يقولون فيه – لعنهم الله وأخزاهم– ثم كتبت له الجواب على الكفر الذي ذكر في كتابه، وقلت له: الله تعالى منزه عن التشبيه، والمثال..."**[1].

وأضاف قائلا مبينا موقفه ومن خلاله يتوضح موقف مسلمي اسبانيا من سيدنا أدام عليه السلام، فذكر أنه عليه السلام مخلوق من مخلوقات الله، اصطفاه الله عن باقي خلقه بالرسالة، وخلافة الأرض؛ وشرك وكفر أن ندعي عليه أو فيه غير ذلك[2].

أيضا من بين الرسل الذي حظي باهتمام كبير من طرف مسلمي اسبانيا سيدنا عيسى عليه السلام؛ ففي ظل معتقدات النصارى بين الإفراط والتفريط، جاء الإسلام بالقول الحق الوسط، الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، جاء بالمعتقد الصحيح السليم، الذي تقره الفطرة النقية والنفوس الزكية، العقول الرشيدة، ولا تقبل غيره.

فالإسلام قد جاء بالقول الفصل، وهو: أن المسيح عيسى عليه السلام هو عبد الله ورسوله، وأن السيدة مريم العذراء (والدة المسيح) هي الطاهرة العفيفة، وأن حملها بالمسيح عليه السلام، كان بكلمة من الله تعالى (كن فيكون)، وفقا لعلمه وحكمته سبحانه وتعالى وإرادته ومشيئته، فكما خلق سبحانه وتعالى آدم من غير أب ولا أم، فقد شاء سبحانه وتعالى أن تكون ولادة المسيح من غير

---

[1]- أحمد بن قاسم الحجري، المصدر السابق. ص: 116.

[2]- المصدر نفسه. ص: 116.

أب[1].

ولقد وضح الإسلام بأن ميلاد المسيح عليه السلام، كان ميلادا معجزا، مؤيدا بكلامه (المسيح) في المهد، تبرءة لأُمه مما قد نسبته اليهود إليها، وتمهيدا لرسالته. وأن الله تعالى قد رفع المسيح عليه السلام إلى السماء، وحال بين صلبه وقتله من أعداءه، ومن ثم فإن الإسلام قد جاء نافيا تماما الادعاء الذي تزعمه النصرانية، في إهانته وصلبه وتعذيبه وقتله، تكفيرا لذنوب البشر، حيث إن مثل ذلك المعتقد إنما هو من أحط مراتب الكفر، وسب عظيم للذكاء الإنساني[2].

هذا كان اعتقاد مسلمي اسبانيا في سيدنا عيسى عليه السلام ومن بين الكتابات الألخميادية التي خلفها مسلمو اسبانيا بهذا الصدد نذكر ترجمة مختصرة لرسالة المسيح عليه السلام الواردة في مؤلف ألخميادي فجاء نصها كما يلي[3]: "...**هذه نسخة من رسالة هبطت من السماء إلى الأرض يجب علينا جميعا أن نؤمن بها. وقد عثر على الرسالة في بلدة سانتا ماريا لانوبيا على بعد ستة أميال من أبيلا**".

**– نهى عن شهادة الزور والبخل وعدم توقير يوم الأحد وعدم الذهاب لسماع الوعظ واصطحاب الأولاد إلى الكنيسة وارتكاب المعاصي وعدم التوبة وعدم تقديم العون للأرامل واليتامى.**

[1]– المخطوط ألخميادي رقم: 9653. ص: 13 ظهر. نقلا عن: عبد الرحمان جمال، ثقافة موريسكي: قراءة في المخطوطة بمكتبة اسبانيا الوطنية، مجموع مقالات في كتاب الموسوم بـ: دراسات أندلسية وموريسكية، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ع: 1192، ط: 1، 2008م. ص: 107.

[2]– المرجع نفسه. ص: 107.

[3]– مخطوط ألخميادي رقم 6149 بمكتبة اسبانيا الوطنية بمدريد، نقلا عن: جمال عبد الرحمن، رسالة موريسكية إلى العالم (قراءة في مخطوطين بمكتبة اسبانيا الوطنية)، ضمن مجموع مقالات: دراسات أندلسية وموريسكية، (المرجع السابق). ص: 138.

**– الجحيم عاقبة من لا يفعل ذلك.**

**– من لا يؤمن بهذه الوصية فهو كافر، وكذاك من لا ينشرها بين الناس.**

**– من يرسلها من بلد إلى بلد فيستغفر الله له وذنوبه ولو كانت بعدد نجوم السماء.**

**– هذه آخر وصية، فإذا لم يعمل بها فيسرسل الله حجارة تقتل الناس جميعا وسيحول نور الشمس إلى ظلام دامس.**

**– على كل نصراني أن يصوم ثلاثة أيام اثنين وثلاثة أيام ثلاثاء وثلاثة أيام أربعاء وثلاثة أيام جمعة**[1].

من خلال نص هذه الرسالة التي ادعى صاحبها أنها أنزلت من السماء، نلاحظ مجموعة من القيم الأخلاقية التي زالت من المجتمع النصراني، حتى وإن كان أصحاب الاختصاص – الفقهاء – كلام آخر في هذه نص هذه الرسالة وظروف وصولها إلى الناس.

**3)– الايمان باليوم الآخر والقضاء والقدر:** يعتبر الايمان باليوم الآخر والقضاء خيره وشره من أركان الايمان الصحيح، وبدونهما تبطل عقيدة الإنسان المسلم. ومسلمو اسبانيا كانوا يعتقدون في هذين الركنيين مثل ما أمرهم الله عز وجل وعلمهم رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم؛ إلا أنه ظهرت بعض الشوائب التي كانت نتيجة للظروف القاهرة التي فرضها عليهم الوضع الجديد.

***– الايمان باليوم الآخر:** هو الاعتقاد بنهاية الحياة الدنيا والدخول بعدها إلى دار أخرى ، تبدأ بالموت والحياة البرزخية وتمر بقيام الساعة ثم البعث والحشر والجزاء إلى دخول الناس الجنة أو النار. والإيمان باليوم

[1]– جمال عبد الرحمن، المرجع نفسه. ص: 138.

الآخر أحد أركان الإيمان التي لا يتم إيمان العبد إلا بها، فمن أنكره فقد كفر، قال الله تعالى في سورة البقرة، الآية رقم:177 ﴿**لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾.

آمن مسلمو اسبانيا مثلهم مثل بقية مسلمو العالم الإسلامي باليوم الآخر وما فيه من علامات وأشراط بناء على ما ذكره الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم، وما جاء على لسان رسول الأمة محمد صلى الله عليه وسلم. مع الأخذ بعين الاعتبار أن مستوى الثقافة الدينية قد تراجع كثيرا مع مرور السنوات[1].

فمسلمو اسبانيا اعتقدوا اعتقادا جازما بأنه هناك يوم الآخرة أين سيكون الثواب والعقاب والجزاء، بناء على أعمال كل فرد منهم. لهذا اجتهدوا قدر المستطاع في تنفيذ الأوامر واجتناب النواهي، وقد توسلوا في ذلك حسن الثواب نظرا للابتلاء الذي أصيبوا به، والذي لا يسمح بأداء الواجبات الإسلامية على أتم وجه[2].

تميزت فكرة الموت عند مسلمي اسبانيا على أنها واقع لابد منه، فالوعي الذي اكتسبوه مع مرور السنين، وتحت وطأة الاضطهاد الديني جعلهم يدركون أن الحياة فانية ومؤقتة، وبهذا فقد كان

---

[1]- آنخيل جنثاليت، المرجع السابق. ص:527.

[2]– بن زكريا بن محمد بن غانم، المصدر السابق. ورقة رقم: 5.

للموت مكانة هامة في أدبياتهم، فكل أفراد الجماعة المسلمة أو أغلبية أعضائها يعتقدون به، ويعتبرونه جزء أساسي من حياتهم، وهي حقيقة متأصلة عميقة ومهمة بالمقارنة مع غيرهم من المجتمعات[1].

فقد اعتبروا أن الموت اشارة أو وسيلة لحياتهم الدنيوية الحاضرة والتي ستنتهي يوما ما، الموت حتى، أو لعل مدلوله على رفض الواقع السيئ، الموت والموتى دليل على عملية تجدد في المجتمع، وأيضا هي مسألة نفسية ودينية، وهو موضوع اهتمت به الكثير من النصوص التاريخية والدينية، خاصة إذا ما اطلعنا على ضريبة الموت التي لحقت بمسلمي اسبانيا؛ فقد أعطت هذه الأدبيات للموت صيغة ايجابية على عكس ما نراه في باقي المجتمعات وخاصة إذا ما وضعنا الحالة الاجتماعية والدينية التي كانوا يعيشونها[2].

*– **الايمان بالقضاء والقدر**:يقتضي الايمان بالقضاء والقدر خيره وشره أن يعتقد المؤمن اعتقادا جازما لا ينتابه شك أو شائبة أن خالق الخير والشر هو الله تعالى فكل ما في الوجود من خير وشر فهو بتقدير الله تعالى. فأعمال العباد من خير هي بتقدير الله تعالى ومحبته ورضاه، أما أعمال العباد من شر فهي كذلك بتقدير الله ولكن ليست بمحبته ولا برضاه.

والإيمان بالقدر ركن من أركان الايمان، وقد دلت الأدلة من الكتاب والسنة على اثباته وتقريره. فمن الكتاب قوله تعالى في سورة القمر، الآية رقم: 49 ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ وقوله تعالى في سورة لفرقان، الآية رقم:2 ﴿**الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ**

1- Laila Boukli Hacene Tani, El moriscis visto a traves del siglo XIX, Mémoire de diplôme d'études approfondies, Dirigé par : Louis Cadaillac, Alger : université d'Alger, Juin 1983. P : 69.

2- Ibid. P : 69.

**فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾** أما في السنة فيدل عليه حديث جبريل وسؤاله للرسول صلى الله عليه وسلم عن أركان الايمان فيما رواه الإمام مسلم: {**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره**}.

آمن مسلمو اسبانيا أن ما حل بهم هو قضاء الله وقدره، وأن الصبر على هذا الابتلاء سوف يكون عليه جزاء وثواب؛ على أن هناك بعض الأمور التي قد تجعل هذا الايمان محل ريب وشك، فقد اعتمد مسلمو اسبانيا على بعض الجفور في معرفة ما سيحصل في المستقبل[1] وهذا قد يتنافى مع العقيدة الصحيحة للفرد المسلم.

حاول مسلمو اسبانيا من خلال هذه الجفور إعادة كتابة تاريخهم والتأثير في مستقبلهم، ومن النادر أن نجد ظاهرة موازيا لهذه التجربة الإنسانية التي حاولوا من خلالها العيش ضمن سياق حياة مختلفة عن حياتهم. فقد لجأ مسلمو إسبانيا في بعض الأحيان إلى استشارة بعض نبوءات، هذه الأخيرة كانت محفوظة عندهم في بعض الكتب العربية تمكنت من النجاة من الحريق الذي أضرمه الكاردينال خمينيس. ومن بين الجفور التي وصلت إلينا مكتوبة باللغة الاسبانية نذكر ما أورده الحايك سيمون[2] مترجم إلى اللغة العربية[3]:

**" بسم الله الرحمن الرحيم هذا هو الجفر الإلهي الذي كتبه سيدي الفرغوالي[*] رحمه الله ويقول ما يلي : أني منذ زمن طويل أحبس في صدري ما وعده به رسول الله صلى الله**

---

[1]- للاطلاع على تفاصيل أكثر يتظر: الباب الثاني/ الفصل الأول.

[2]- عثر على هذا النص في بعض الكتب التي ضبطتها محكمة التفتيش بغرناطة.

[*]- **زيد فرغوالي** : أحد النساك، واسمه الفرغوالي نسبة إلى فرغال التي قدم منها المرابطون.

**عليه وسلم، والله نظر إليه منذ الأزل وأوحى به إليه ليس بلسان الناس ولا ينقص حرف مما قاله الله وسيكون مثلما قاله. أريد الكلام عن الجيل التاسع، فالمشرع تضرع إلى الله مرارا عديدة لكي يجود برحمته، وسمع الله دعاءه وظهر له. أيها الناس، أريد أن أحدد لكم ما قاله النبي عن الجزيرة المحصورة بين المياه وهي الجزيرة الاسبانية فكل ما حصل لها حتى الآن قاله على ابن أبي طالب، وكله جرى حسب قوله وهذا ما أعلنه حذيفه ونشره، وهذا ما جاء به أيضا على لسان النبي دانيال لأن ما قاله علي لا شك فيه والجميع يثق به وقرأ عنه أحداثا كثيرة وقعت كما تنبأ عنها، وتحدث عن المغرب والأندلس في نبوءاته وقال : لا شك أنها تنتقل إلى أيدي ليست أيدي المؤمنين وهذا ما جرى أنه في سنة 96هـ ستحتل الأندلس من جديد وتتعمر جميع مدنها ويظهر فيها أمير وقبل ذلك يذهب جميع الأهالي إلى الريف ويقطنون فيه ويحرثون الأرض..."**[1].

من خلال ما ورد في نص هذا الجفر نلاحظ اعتماد صاحبه على أقوال مأثورة عن الصحابي علي رضي الله عنه؛ فلقد تأثر مسلمو اسبانيا بالفكر الشيعي، الذي تأثر بدوره بالفكر اليهودي وما عندهم وأخذوا منهم؛ فكما يزعمون أن أهل البيت يعلمون الغيب، وأن هذا العلم المخفي الخاص المضروب به على غير أهله الذي لا يطلع عليه سواهم وقد ادعى ذلك أيضا الصوفية: فإنهم زعموا أن أولياءهم وكبراءهم يعلمون ذلك بطريق كشفي أو بطريق كسبي، ومن ذلك ما هو مشهور عن ابن عربي وابن سبعين وأمثالهم ممن كتبوا في هذا.

[1]- الحايك سيمون، المرجع السابق. ص ص : 48،47.

أما الجفر الثاني فقد ورد فيه ما نصه[1]: " **يا جبل طارق الدخول عليك واحتلالك هو نهاية المطاف. وهذا يفهم فيه أنه في سبتة وطنجة والقلاع وجميع المناطق لا يبقى منها شيء وكلها يقع عليها الاحتلال واسبانية ومالقة تعود إلى زراعة وتكون سعيدة بشريعة الإسلام، ويدخل الذل بلدتي المنكب وبليش وتداس عجرفتهما التي اكتسباها بالهرطقة وكذلك قرطبة تداس أيضا بسبب ذنوبها وخطاياها**".

من خلال ما ورد في الجفرين فإننا نلاحظ أنهما يحملان الكثير من الحقائق التاريخية، حتى وإن كان مصدرهما يعتبر من المصادر الباطلة في نظر الشرع بناء على نصوص من القرآن والسنة. ومهما يكن فعقيدة الجفر عقيدة باطلة، لأنها حسب قولهم من العلوم الغيبية التي لا يعلمها إلا الله عز وجل، حتى أن رسوله ومصطفاه صلى الله عليه وسلم، أمره مولاه جل وعلا بتقرير ذلك بنفيه علم الغيب عن نفسه إلا بما يوحى اليه من ربه فما بالك بغيره، صلى الله عليه وسلم؟ ومن هذا المنطلق فهل اقتباس هذه الجفور التي هي شيعية المصدر من طرف مسلمي اسبانيا هو نتيجة لتأثرهم بالشيعة أم كان لضرورة اقتضها الظروف الراهنة التي كان يعيشها هؤلاء؟.

**قراءة تحليلية حول مسألة اقتباس الجفور من طرف مسلمي اسبانيا:** قبل عرض قراء تحليلية للظاهرة المذكورة آنفا يجب الاشارة إلى ملاحظة مهمة، وهي أن هذا العمل سوف يكون اجتهاد يبقى يحتاج إلى دراسات مستقلة قد تؤكد أو تنفي وجهة نظرنا في القضية، على أن النتيجة التي سوف يتم عرضها تبقى نسبية، وهذا في ظل غياب الدراسات المختصة في هذا الموضوع.

[1]- الحايك سيمون، المرجع نفسه. ص ص : 48،47.

وخروجا عن المعتاد سوف نشير إلى الإجابة على التساؤل المطروح أعلاه ثم نقوم بعرض مجموعة المعطيات التي في نظرنا قد تؤكد على وجهة نظرنا.

فاعتماد مسلمي اسبانيا على الجفور التي هي شيعية المصدر، ليس لاعتقادهم في شرعية هذه الطائفة الدينية، وإنما كانت نتيجة للمرحلة الجديدة التي لم يستطع وعيهم استيعابها للتبعات التي لحقتها من فقدان لكل ما هو عزيز وغالي عليهم، وعلى كل انسان بصورة عامة: العقيدة، والوطن. فلهذا استنادهم لنصوص هذه الجفور لها تفسيرها النفسي والتاريخي والسياسي رجوعا واستنادا لمحتواها.

**أ)– التفسير النفسي للظاهرة:** عند الرجوع إلى نصوص الجفرين، نلاحظ نقطة مهمة، وهي أن كليهما ارتكزا على موضوع واحد، وهو الحديث على أرض الأندلس، الوطن الضائع والمفقود، فقد كان يعيش المسلم في اسبانيا غربة الوطن وهو على أرضه وبين دياره، فما أصعب هذا الموقف، فتفسير هذا المسلم للمآل الذي آل إليه من خلال المعطيات الواردة في الجفرين هو قدر وقضاء ومشيئة ربانية لا قدرة له في رده.

فالجفر هو عملية استقراء للمستقبل، وكل من يلجأ إلى مثل هذا الاتجاه دليل على شعوره بالخوف، فهذا الأخير عادة ما يكون من بعض رواسب الماضي التي استقرت في تربية عقلنا الباطن، وهو ناجم كذلك عن سيل ممارسات اجتماعية متراكمة عبر مسيرة مرحلة طويلة عملت جذورا لها في أعماقنا ووقعنا أسرى لها دون أن تكون لنا إرادة في ذلك.

فالخوف يكون حالةٌ شعوريةٌ تنتاب الإنسان عندما يحس بخطر ما يواجهه دون أن تكون له مناعة ضده أو سبيل لمقاومته. وقد يعظم هذا الشعور عندما يكون الإحساس بالخطر أعظم وأقوى، وكلما زادت درجة الإحساس بهذا الخطر زاد الخوف لدى الإنسان أكثر وقد يصل فيها إلى مرحلة العجز الفكري.

وهذا العجز إما أن يقوده إلى شلل في الإرادة وفي معنوية الجسد فيعلن عن استسلامه، لهذا الخطر معلنا عن إقراره بأنه القضاء الذي لا مرد له والحكم الذي لابد من تنفيذه، دون أن يبدي استعدادا لأية مقاومة أو يبذل جهدا حقيقيا في مسعى للتغلب على هذا الشعور ومحاولة كبحه؛ وهذا المنحى بالطبع سلبي قد يدمر حياة المرء برمتها إذ يقوده شعوره هذا بالضعف والإحباط وضيق الحيلة إلى أن ينفس عن كل هذا الشعور بالضيق إلى التزام سلوك شائك يعاقب فيه من خلاله نفسه والآخرين في غير حدود المعقول والمنطق.

فالجفر بصورة عامة يحمل ضمن طياته معلومات عن المستقبل في مفهوم أصحابها، وكلمة المستقبل تشير إلى الخوف والقلق ويثير التساؤل عن شيء غير معروف، أي العمل من أجل الزمن القادم، لذلك تتداخل في دراسته حركة التاريخ والمجتمع وتتشابك في إطارها معادلات الماضي والحاضر والمستقبل، على أساس إن البدايات تلد النهايات، والنهايات تؤشر البدايات، وما بين البدايات والنهايات وجود متحرك قيمته بتكوناته وإبداعاته، وبذلك فان الماضي يشير إلى الزمن الذي انقضى فلم يعد له وجود أما الحاضر زمن يتحقق وهو في طريقه إلى الانتهاء والانقضاء، بينما المستقبل زمن لم يتحقق بعد وما زال يفتقر إلى الوجود.

**ب)– الدافع السياسي لتبني الظاهرة:** لقد كان استشهاد الأمة الإسلامية الأندلسية من أروع مآسي التاريخ، وكان هذا الشعب المهيض الذي أُدخل قسرا في حظيرة النصرانية، والذي أنكرته مع ذلك إسبانيا سيدته الجديدة، وأنكرته الكنيسة التي عملت على تنصيره، يحاول أن يروض نفسه على حياته الجديدة، وأن يتقبل مصيره المنكود بإباء وجلد.

لكن إسبانيا النصرانية كانت ترى في هذه البقية الباقية من الشعب الأندلسي المجيدِ عدوها القديم الخالد، وتتصور أن هذا المجتمع الأعزل، الذي أحكمت أغلالها في عنقه، مصدر خطر دائم على سلامها وطمأنينتها، وتشتد في مطاردته وإرهاقه بمختلفِ الفروض والقوانين والمغارم، وتمعن في انتهاك عواطفه وحرماته، وفي تعذيبه وتشريده، وتنكر عليه أبسط الحقوق الإنسانية.

# الفصل الثالث: الطقوس بين التقليد والاجتهاد

## المبحث الأول: الطقوس الدينية والاحتفالية

### 1)_ الطقوس الدينية

### 2)_ الطقوس الاحتفالية

## المبحث الثاني: الطقوس السحرية

### 1)_ العوامل المساعدة على انتشار ظاهرة السحر بين مسلمي اسبانيا

### 2)_ أنواع السحر الشائعة بين مسلمي اسبانيا

### 3)_ نماذج من الممارسات السحرية

يمثل الدين في أسسه النفسية العميقة اختبار للقدسي من خلال حالة انفعالية سابقة على أي تصور عقلاني، وبأن هذه التجربة الدينية الداخلية ليست وقفا على شخص دون آخر، ولا على فئة دون أخرى، بل يتعرض لها الجميع، وإن حدث ذلك بدرجات متفاوتة من حيث الشدة والوضوح، ويتعاملون معها كذلك بدرجات متفاوتة أيضا من حيث القبول والاعتراف.

وعندما تصل الخبرة الدينية المباشرة هذه إلى حالة من الشدة لدى الإنسان فإنها تستدعي القيام بسلوك ما، وذلك من أجل إعادة التوازن إلى النفس التي غيرت التجربة من حالتها الاعتيادية. هذا السلوك ندعوه بالطقس. فالطقس هو مجموعة من الإجراءات والحركات التي تأتي استجابة للتجربة الدينية الداخلية، وتهدف إلى عقد صلة مع العوالم القدسية.

كما أن الأسطورة تلعب دورا أساسيا في المعتقدات الدينية من حيث تثبيتها وترسيخها، وتبقى في النتيجة، صورا وأفكارا على هذه الدرجة من الوضوح أو تلك. ولكن هذه الصور والأفكار لا تصنع دينا بالغا ما بلغ من وضوحها واتساقها، إلا عندما تدفع إلى سلوك وإلى فعل؛ فيتم بذلك الانتقال من حالة التأمل إلى الحركة، ومن التفكير في العوالم القدسية إلى اتخاذ مواقف عملية منها؛ فنتقرب إليها، أو نسترضيها، أو نسخر قواها لصالحنا.

فإذا كانت المعتقدات، وما يدور حولها من أساطير، تضعنا في موقف ذهني من القدسي فإن الطقس يضعنا في موقف عملي منه، في حالة فعل من شأنها إحداث رابطة واتصال. فمن خلال أداء حركات معينة ورقصات إيقاعية وتكرار صيغ كلامية ذات أثر خاص على النفوس يمكن للأفراد

المستغرقين في الأداء الطقسي الجمعي الانتقال إلى مستويات غير اعتيادية للوعي، يشعرون معها بتلاشي الحدود بين العوالم الدنيوية والعوالم القدسية.

وربما قد تلعب الظروف والمستجدات عاملا أساسيا في تغيير مجرى الأمور في كل ما يخص الطقس أو الأسطورة، إلا أن هذين الأخيرين يستطيعان الصمود في وجه كل المتغيرات، على أنه يمكن أن تحدث بعض الاجتهادات التي قد تتلاءم مع هذه الأوضاع، كذلك كان الحال مع مسلمي اسبانيا، هؤلاء حاولوا قدر المستطاع الحفاظ على هذه المكونات التي اعتبرها الكثير من المختصين في علم الأديان والمعتقدات من المكونات الأساسية للدين. فهل استطاع مسلمو اسبانيا الحفاظ على طقوسهم؟ وكيف أبدعوا في مجال الأسطورة؟

## -المبحث الأول: الطقوس الدينية والاحتفالية

يضم الطقس الجانب الانفعالي والعملي من الدين، وهو شأن شعبي يتيح بطبيعته مساحة أوسع للناس فرغم أن الخاصة تشرف عليه وتوجهه إلا أنهم يعملون على تحويله إلى عادة راسخة تتناقلها الأجيال؛ وليس الطقس فقط نظاما من الإيماءات التي تترجم إلى الخارج ما نشعر به من إيمان داخلي بل هو أيضا مجوعة الأسباب والوسائل التي تعيد خلق الإيمان بشكل دوري لأن الطقس والمعتقد يتبادلان الاعتماد على بعضهما البعض.

وعلى العموم فإن الطقس يضم الجانب الانفعالي والعملي من الدين، وهو شأن شعبي يتيح بطبيعته مساحة أوسع للناس فرغم أن الخاصة تشرف عليه وتوجهه إلا أن الناس يعملون على تحويله

إلى عادة راسخة تتناقلها الأجيال، وليس الطقس فقط نظاما من الإيماءات التي تترجم إلى الخارج ما نشعر به من إيمان داخلي بل هو أيضا مجوعة الأسباب والوسائل التي تعيد خلق الإيمان بشكل دوري لأن الطقس والمعتقد يتبادلان الاعتماد على بعضهما البعض، وهو أيضا الفعل الديني الواضح الذي يقوم به الساحر أو المتعبد لأن الفعل يسبق التفكير والكلام ولأن العاطفة تسبق العقل ولذلك كان الطقس.

إذ لا يمكن لأي دين القيام أو الاستمرار دون طقوس ولكم ارتقت بعض العقائد إلى مستوى ديني رفيع ولكنها في ظل غياب الطقوس اندرجت في تاريخ الفكر ولم تتبلور أو تتطور إلى ديانات حقيقية[1]، وتتنوع الطقوس الدينية حسب نوع الأديان وتكوينها فهناك طقوس الخصب، طقوس الحج، طقوس الصلاة، الطقوس الجنائزية وطقوس الصوم[2].

**1)– الطقوس الدينية:** إن ما يميز الإنسان ويعطيه خصوصية وجودية هو القدرة التي يملكها على عقل الأشياء وإنشاء الرموز وشبكة المعاني، فالعيش بالرموز وتوظيفها فعالية إنسانية بكلّ امتياز، بها يعيش الإنسان ويؤثث وجوده ويبني عالمه المادي والمعنوي ويرسي نظام الأشياء والعلاقات بينه وبين الآخرين من الناس. ودلالة الأشياء والعلاقات لا تدرك إلا من خلال استعمالاتها ومما تتضمّنه من معنى في حياتهم ومما تتخذه من دلالة في متخيلهم الجمعي.

[1]- يوسف شلحت، نحو نظرية جديدة في علم الاجتماع الديني (الطوطمية – اليهودية – النصرانية – الاسلام) تح وتق : خليل أحمد خليل، لبنان: دار الفارابي، ط: 1، 2003.. ص: 86

[2]– خزعل الماجدي، بخور الآلهة (دراسة في الطب والسحر والأسطورة والدين)، لبنان: الأهلية للنشر والتوزيع ، ط1، 1998م، ص ص 79، 80.

فالطقوس كما يعرفها علماء الانثروبولوجيا[1] وعلم الاجتماع[2] هي مجموعة حركات سلوكية متكررة يتفق عليها أبناء المجتمع وتكون على أنواع وأشكال مختلفة تتناسب والغاية التي دفعت الفاعل الاجتماعي أو الجماعة للقيام بها. وكذلك مثلت الطقوس القيمة القدسية نفسها عند مسلمي إسبانيا، إذ حاول هؤلاء قدر المستطاع ممارستها كطريقة لمجابهة الطقوس النصرانية الكاثوليكية. وانقسمت هذه الطقوس إلى نوعين منها ما كان ديني، ومنه ما خص العادات والتقاليد.

فالعبادة ليست إذن مجرد نسق من العلاقات والاشارات التي يترجم بها المعتقد نفسه للخارج وانما هي مجموع الوسائل التي تخلق بها العبادة نفسها وتحدد نفسها تحديدا دوريا. وهكذا لا يهم على الاطلاق ما إذا كانت الجماعة تؤدي هذه الحركات وتلك لكي تصبح واعية بذاتها وإنما العامل الجاسم أن الأفراد يجتمعون معا على صعيد واحد، وأنهم يعيشون أحاسيس مشتركة، والشعائر هي أولا وقبل كل شيء وسائل تؤكد بها الجماعة الاجتماعية ذاتها تأكيدا دوريا[3].

*– **الصلاة:** رغم وصول العديد من النصوص الطقسية إلينا من ثقافة الفرد المسلم في اسبانيا إلا أننا لا نستطيع حتى الآن رسم صورة متكاملة للطقوس الدينية التي كانت تقام في اسبانيا خلال القرنيين العاشر والحادي عشر هجريين الموافق للقرنيين السادس والسابع عشر ميلاديين، ذلك أن هذه الطقوس كانت تمارس بصورة سرية متبعين في ذلك مبدأ التقية.

---

1- تنقسم إلى أنثروبولوجيا اجتماعية و أنثروبولوجيا فيزيقية، وهذا الفرع الأخر يعد أكثر ارتباطًا بالعلوم الطبيعية والبيولوجية منه بالعلوم الاجتماعية .أما الأنثروبولوجيا الاجتماعية، فقد نشأت لكي تدرس النظم الاجتماعية والحضارية للإنسان، وهي بذلك تعد أقرب العلوم الاجتماعية لعلم الاجتماع.

2– **علم الاجتماع**: هو أحد العلوم الاجتماعية مثل علم النفس، وعلم الاقتصاد وعلم السياسة وغيرها، يهتم بدراسة المجتمع دراسة وصفية، تحليلية، تفسيرية، وبأسلوب ومنهج علمي له قوانينه وطرائقه العلمية، وله دور في حل المشكلات الاجتماعية .له أيضا دوره في مساعدة أفراد المجتمع على التكيف مع الظروف المحيطة بهم وعلى معرفة أدوارهم الاجتماعية .يتناول في دراساته جوانب عديدة مثل :العمليات الاجتماعية، والثقافية والتغير الاجتماعي، والبناء الاجتماعي، والعلاقات الاجتماعية، كذلك خصائص المجتمعات وتطورها ووظائفها ومشكلاتها.

3- هنري برجسون، المرجع السابق. ص:98

وتتخذ الصلاة عند مسلمي اسبانيا حالهم حال كل مسلمي العالم الإسلامي دور الصدارة في الطقوس الدينية؛ ويتألف الطقس اليومي عادة من الوضوء الذي كان يشكل ركنا أساسيا لصحة الصلاة، فقد حافظ مسلمو اسبانيا على الوضوء مثلما تعلموه عن رسول الأمة محمد صلى الله عليه وسلم، بالرغم من كل متابعات وملاحقات عمال محاكم التحقيق[1].

وتعتبر الصلاة عند مسلمي اسبانيا من الطقوس الروتينية الأساسية. ولكننا لا نعرف بالتفصيل عن الكيفية التي كانت تؤدى بها الصلوات نظرا لعدم توفر الشروح الطقسية الخاصة بها نظرا للسرية الكبيرة التي كانت تمارس فيها. ولكننا نستطيع الاستنتاج مما وصلنا من نصوص ألخميادية تندرج في زمرة الصلوات أن المصلي كان يتلو سورة الفاتحة وبعض الآيات من الذكر الحكيم[2].

بالإضافة إلى ما كانت تتضمنه **الصلاة من القيام والركوع والسجود،** فالإنسان عادة ما يلجأ تلقائيا أو بصورة موروثة إلى استخدام بعض الحركات أو العلامات بواسطة اليدين ووضعية جسمه أو تعابير وجهه أو ملابسه في بعض الطقوس لكي يعبر عن مشاركته الفعلية في اجراء الطقوس، جماعية أم فردية. فهي عبارة عن وسيلة وعامل مساعد للتعبير عن علاقة الانسان بالله سبحانه وتعالى، وكلما كانت هذه الحركات والعلامات والرموز والوسائل متناسقة ومنتظمة جاءت معبرة عن معنى لاهوتي. ولقد استمر مسلمو اسبانيا على ممارسة الطقوس الخاصة بالصلاة ظلت كذلك إلى غاية ساعة الطرد النهائي من اسبانيا 1018هـ/1609م التي كانت ذات يوم وطنهم الأم

[1]- بيدرو لونغاس، المرجع السابق. ص: 45.

[2]- لوي كارديلك، الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون، (المرجع السابق). ص: 33.

الذي لم يرضوا عنه بديلا[1].

*– **الصيام:** يعتبر صوم شهر رمضان ركن من أركان الإسلام الخمس الذي لا يسقط على الفرد المسلم إلا بعدر شرعي بينه الله في القرآن الكريم، أو وضحه الرسول صلى الله عليه وسلم في سنته الشريفة. وقد حافظ مسلمو اسبانيا على صيام شهر رمضان بالرغم من ملاحقات عمال محاكم التحقيق ولكل ما كان يشك في أمره بأنه كان يمارس الطقوس الدينية. ومن بين ما حافظ عليه مسلمو اسبانيا فلأداء هذا الركن الحرص على رؤية الهلال اقتداء بسنة رسول الأمة محمد صلى الله عليه وسلم[2].

*– **الحج:** يعتبر الحج من أركان الاسلام الخمس، لمن استطاع إليه سبيل؛ على ضوء هذا النص الشرعي الذي أتبث فرضية ركن الحج حاول مسلمو اسبانيا القيام به طمعا في الثواب والأجر، ولكن في ظل الظروف القاسية التي كان يعيشها هؤلاء كان مستحيلا عليهم أداء هذا الركن، إلا أنه كان هناك بعض الاستثناءات التي حظيت بشرف زيارة البيت الحرام، وأداء الركن الخامس من الإسلام؛ من أمثال هؤلاء نذكر المدعو لبواى مونسون "Puey Moncon"[3] وابن صباح[4] الذي

---

[1]– المرجع السابق. ص: 49.

[2]– لوي كارديلك، الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون، (المرجع السابق). ص: 34.

[3]– المرجع نفسه. ص: 33.

[4]– ابن الصباح: هو عبد الله بن الصباح الأصبحي نسبة إلى قبيلة الصباحين اليمنية؛ وقد كانت قبيلته إحدى القبائل التي دخلت بلاد الأندلس عند فتحها. وابن صباح من سكان مدينة المرية مكث بها حتى بعد سقوطها في يد فرناندو سنة 894هـ/1489م؛ ثم غادرها ليستقر به المطاف في غرناطة. ينظر: جمعة شيخة، بعض المظاهر الدينية في رحلة عبد الله ابن الصباح، ضمن أعمال المؤتمر العالمي الثالث للدراسات المورسكية – الأندلسية الموسوم بـ: تطبيق المورسكين للشعائر الإسلامية ( 1492، 1609)، إشراف : التميمي عبد الجليل، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والمورسكية، 1989م. ص: 40.

وصف لنا بعض الطقوس التي كانت تؤدى عند القيام بهذه الفريضة فنذكر ما جاء في رحلته[1]: "**التجرد من المخيط من الثياب وارتداء لباس الإحرام والتزام النطق بالتلبية المطلوبة**" وقوله أيضا في الاحرام: "**والله لقد أحرمت بالإفراد وكشفت رأسي، ما كان إلا ثلث النهار**" ثم ما كان من مناسك فكتب يقول: "**التي نعتها بالمناسك: جبل عرفة، المزدلفة، المشعر الحرام، الجمرات، منى، الكعبة، الحجر الأسود، الركن اليماني، الملتزم، حجر اسماعيل، مقام ابراهيم، بئر زمزم، الصفا، المروة، المسعى، التنعيم**"[2].

*- **الطقوس الجنائزية:** تعتبر الطقوس الجنائزية أحد أكبر مظاهر الثقافة الإنسانية منذ ظهور الإحساس بالموت، باعتباره معطى من معطيات الواقع البشري، وإدراك الكائن الحي لهذا البعد من أبعاد إنسانيته، وإن اختلفت تفسيراته وأنماط التفكير في التعامل معه. ل

لم تكن هذه الطقوس بمعزل عن السياق البدائي في التعرف على ظاهرة الموت بمشاكلها وضبابيتها وتعقيد التفسيرات المحاطة بها حتى عالمنا المعاصر، غير أن الفكر الديني نحى بالأمر في الكثير من الأحيان أن يتعامل مع الإنسان خارج سياق هذا التراكم الإنساني، وأصبحت الطقوس تأخذ منحى الإلهي بطريقة من الطرق، حين أصبحت محاطة بثقافة الحلال والحرام والجائز والممنوع، محاولة فصل هذا الترابط والامتداد الثقافي والتاريخي منذ ظهور هذه الطقوس وبدايات تشكلها مع الكائن البشري.

---

[1]- الرحلة عنوانها : منشاب الأخبار وتذكرة الأخيار.

[1]- عبد الهادي التازي، منشاب الأخبار وتذكرة الأخيار (حلة ابن الصباح الى مكة)، www. Google. Fr، بتاريخ: 26-05-2012، 16-30سا. ص: 1.

على هذا الأساس حرص مسلمو اسبانيا على العمل بجدية من أجل ايصال الميت إلى مثواه في أبهى وأجمل صور الطهارة والتقديس لمضاعفة حسناته ومحاولة التشفع له ليسهل مروره الى العالم الآخر ويتجاوز كل الامتحانات بنجاح وخاصة أننا نعلم ما لحقهم من اضطهاد للتخلي عن معتقداتهم[1]، مما جعلهم يتظاهرون بالنصرانية وربما هذا التظاهر هو الذي جعلهم يحسون بخوف وتأنيب الضمير.

فعند موت أحدهم كانت تغسل جثته بماء معطر كتقليد ورثوه جيل عن جيل عوتلف بأحسن ثيابه ثم تقرأ على الميت بعض الآيات القرآنية ويدفن في أرض لم تزرع، ووجهه إلى الشرق وذلك في مقبرة تكون خارج العمران، ويوضع فوق القبر ماء وخبز وبعض عناقيد العنب[2].

كما اعتاد مسلمو اسبانيا إلى الإكثار من الطيب عند الانتهاء من تغسيل موتاهم، بعدها تبدأ عملية التكفين التي استعملوا فيها أثواب القطن والكتان والحرير وهذا ما أورده لوي كارياك حيث ذكر أن المدعوة ايزابيل باريز تمت ادانتها بعد أن غسلت الميت وغطته بكفن حسب التقاليد والعادات الإسلامية وألبسته ثلاث أقمشة كتانية: قميصا سراويل نظيفة، وستارا على الوجه وفوق الكل كفن أبيض[3].

بالرغم من قلة المادة التاريخية التي تأطر معالم الطقوس الدينية التي حافظ عليها مسلمو اسبانيا نظرا لأنها كانت تؤدى بطريقة سرية لتفادي العقوبات التي كانت تنتهي في أغلب الأحيان بالإعدام

---

[1]- دون باسكوال بورونات، المصدر السابق. ص: 175.

[2]- بدرو لونغاس، المرجع السابق. ص:65.

[3]- لوي كارديلك، الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون، (المرجع السابق). ص: 37.

حرقا، إلا أننا حاولنا تسليط الضوء على هذا الموضوع الذي يعد من أساسيات الدين.

2)_ **الطقوس الاحتفالية:** تعتبر الممارسات الاجتماعية والطقوس والاحتفالات أنشطة اعتيادية تتهيكل حولها حياة الجماعات، ويشارك فيها كثير من أعضائها ويعتبرونها ذات صلة بواقعهم. وتستند أهميتها إلى أنها تؤكد بالنسبة لممارسيها هوية الجماعة أو المجتمع، وهي ترتبط بمناسبات هامة، سواء مورست على المستوى العام أو الخاص، منها ما كانت تقام بين الحين والآخر، ومنها ما كان يحتفل بها مرة كل سنة، وهو ما اصطلح عليها بالاحتفالات الدورية.

بناء على ما تقدم فلا يمكن وجود مجتمع ما مهما كانت ظروفه أو معتقداته لا يشعر بالحاجة إلى ممارسة و إحياء المشاعر والعادات الاجتماعية التي تخدم وحدته ويمتع شخصيته وهي ممارسة تتم على فترات منتظمة ففي نظام الجماعة يقترب الأفراد من بعضهم البعض ويحددون مشاعرهم المشتركة ويبتون فيها حياة جديدة[1]

*– **الاحتفالات الاجتماعية:** بالرغم من المأساة والمحنة التي كان يعيشها مسلمو اسبانيا إلا أنهم كانوا يحتفلون في مناسبات خاصة كالزواج[2] والختان[3]، فهذه المناسبات كانت لها خصوصياتها وطقوسها؛ أما فيما يخص مناسبة الزواج، فبعدما كان يتم عقد قران الزوجين في الكنيسة، تعاد طقوس

[1]- يوسف شلحت، المصدر السابق. ص ص: 98، 99

[2]– كانت ظاهرة الزواج من أبرز الأحداث الخاصة بحياة الأسرة الأندلسية، والذي يعتبر أيضا من المناسبات الهامة والشعبية، وكان عقد القران يتم في المجتمع الأندلسي على ثلاث: "الولي والصداق وشاهدان" وسنة إظهار الوليمة والدخلة. والنكاح مندوب إليه لمن قوي عليه، ولا يكون إلى بولي وصداق، أقله ربع دينار أو ثلاث دراهم كيلا أو قيمته أحدهما" ينظر: ابن سهل أبي الاصبح عيسى بن عبد الله الأسدي، ديوان الأحكام الكبرى والإعلان بنوازل الأحكام وقطر من سير الحكام، تح: يحي مراد، القاهرة: دار الحديث، د ط، د س ط. ص:175.

[3]– كانت عملية الختان سنة سواء قبل أو بعد سقوط الأندلس، أما في المرحلة الأولى فكانت فعلى الذكور واجبة، والخفاض في الإناث مكرمة. ينظر: خلاف محمد بن عبد الوهاب، قرطبة الإسلامية في القرن 5هـ/11م (الحياة الاقتصادية والاجتماعية)، القاهرة: د د ن، ط:2، 2003م. ص:307.

الزواج على الطريقة الإسلامية مباشرة بعد العودة إلى البيت وفي سرية تامة[1].

ومن بين الطقوس التي كانت على العروس القيام بها وضع وردة ملونة على رأسها [2] ودخول بيت الزوجية أو الغرفة الخاصة بها بقدمها اليمنى، ثم عليها غلق عينيها وفمها عند الكشف عن الخمار الذي يغطي كامل وجهها اعتقادا منها أنها إن فعلت ذلك فسوف تصاب بعين أو مس من الشيطان[3].

هذا فيما يخص الاحتفال بمراسيم الزواج على الطريقة الإسلامية وكان يحدث ذلك مباشرة بعد العودة من الكنيسة التي فرضت عليهم بحكم تنصيرهم القسري الزواج طبقا للطقوس النصرانية الكاثوليكية[4]. أما فيما يخص الختان[5]، فقد كان هذا الأخير من بين الشعائر الإسلامية الشائعة بين مسلمي اسبانيا حتى في ظل الملاحقات والمضايقات لعمال محاكم التحقيق[6]. فكان عندما يكمل المولود أسبوعا يرسل من أجل تطهيره[7] ويكتبون على جبهته بعض الكلمات ويعلقون في رقبته

---

[1]- Yvette Cardaillac – Hermosilla, Les noms du diable esssai sur la magie, la religion et la vie des derniers musulmans d'Espagne : Les moresques, Paris : Edition : Seguier- Carré idées, I S B N. P : 8.

[2]- بدرو لونغاس، المرجع السابق. ص: 62.

3-Op. Cit. P : 93.

[4]- دون باسكوال بورونات، المصدر السابق. ص: 174.

[5]- قبل سقوط الأندلس تكفل بهذه العملية مجموعة من الأطباء والطبيبات، فقد روى ابن عبدون بأنه كان يتم اجبار الذكور على الختان، فإنهم متبعون بزعمهم لسنة عيسى عليه السلام، الذي أختتن. ولهم في يوم الختان عيد يعظمونه. ينظر: ابن عبدون محمد بن أحمد وابن عبد الرؤوف أحمد بن عبد الله، ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تح: ليفي بروفنسال، القاهرة: مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، د ط، 1955م. ص:49.

[6]- دون باسكوال بورونات، المصدر السابق. ص: 174.

[7]- جافورنال جاكلين، الصيدلة الموريسكية وممارسة الطب لدى المجموعة الموريسكية بمنطقة آراغون (1540،1620)، تونس: المجلة التاريخية المغربية، ع: 1615 جويلية 1979م. ص : 50.

الأحجبة التي تتضمن آيات قرآنية ويسمى باسم إسلامي. وتذبح بهذه المناسبة ذبيحة التي كان يطلق عليها "العقيقة"[1].

ولكن مع تعصب عمال محاكم التحقيق وملاحقاتهم لكل من كان محل شك عمد مسلمو اسبانيا على تأخير عملية الختان إلى سن متأخرة تراوحت ما بين السابعة والثامنة. وبالرغم من صرامة ووحشية الأحكام الصادرة ضد كل من عثر عليه مختونا إلا أنه تواصلت هذه السنة؛ فقد أكدت بعض الروايات التاريخية بأن كل المسلمين الذين وقعوا في أيدي محاكم التحقيق في فالنسيا كانوا مختونين، وقد أشار إلى وجود عائلة من الحلاقين تمارس هذا العمل في منطقة الدا "Elda" في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري الموافق للقرن السادس عشر ميلادي[2].

كما أكدت الحادثة التاريخية التي أوردها مرمول حول اغتيال القائد فرج بن فرج، أن هذا الأخير وبعدما عثر عليه بعض مسلمي القرية غويكار الذين لم يكونوا يعرفونه، وعندما أرادوا التأكد من ديانته وجدوه مختونا وحيا فاقتنعوا أنه واحد منهم: "**فلقد استطاعوا التعرف عليه ومعرفة ما إذا كان مسلما أو صرانيا حينما وجدوه مختونا فحملوه إلى منزله دون أن يعرفوا شخصه**"[3].

كما نلاحظ أيضا من بين العادات التي تصاحب التواريخ المهمة في حياة مسلمي اسبانيا "**الزميا**" "zam" جمعها "**Zambras**" أو "**زامر** " "zamr" وقد كان لها مصير خاص؛ هذا

---

[1]- بدرو لونغاس، المرجع السابق. ص: 63.

[2]- دومينغ يثأورتيث وبرنارد فينسيت، المرجع السابق. ص: 205.

[3]- كريمال مرمول، المصدر السابق. ص: 187.

الاحتفال كان خاص بالمسلمين أيام أعيادهم وقد ظل لفترة طويلة مسموحا به[1]. فقد سمح به السيد فيرناندودى توليدو "Fernando Tollido" في الأوامر التي كتبها لرعاياه المسلمين في كل من منطقة وكاستيخا ويسكا [2].

فالزميا هذا المصطلح هو مرادف لكلمة " حفلة " بصفة عامة[3]، ورقصة على وجه الخصوص متبوع بموسيقى خاصة. هذه الرقصات هي غير موجودة لا في إفريقيا و لا في تركيا. وكانت ترافقها أغاني متوارثة جيل بعد جيل، فقد كانت عبارة عن تقليد لفعل متوارث. فالفعل التقليدي هو ذلك الفعل الذي تمليه التقاليد والعادات. والفاعل هنا لا يأتي فعله من أجل تحقيق هدف أو التمسك بقيمة ما أو لأنه مثار انفعاليا وعاطفيا، ولكن فعله يكون مجرد طاعة لأفكار وعادات اكتسبها من خلال عملية التنشئة الاجتماعية[4]. هذا فيما يخص الطقوس العملية أو الحركات التي تتبع الرقصة.

وأما التقليد في ترديد كلمات الأغنية، فهو عمل يكون بقول الغير من دون تحصل دليل عملي يثبت فائدة هذا القول، ومن أصنافه، التقليد الآلي، والتقليد النظري الذي هو العمل بقول الغير مع تحصيل دليل نظري لا عملي يصحح هذا القول، والتقليد العادي الذي هو العمل بقول الغير مع حصر الدلالة العملي لهذا القول في الحركات الظاهرة، سواء استند هذا العمل إلى دليل يصحح القول المعمول

---

[1]- Rodrigo de Zayas, Ibid. P: 94.

[2]- دومينغ يثأورتيث وبرنارد فينسيت، المرجع السابق. ص: 152.

[3]- Op. Cit. P : 94.

[4] -سمير نعيم أحمد، المرجع السابق. ص: 115.

به أو لم يستند إلى دليل[1].

كما احتفل مسلمو اسبانيا بمناسبات خاصة إن صح التعبير فيمكننا أن نطلق عليها المناسبات السياسية، وكمثال عليها نذكر ذلك الاحتفال الكبير الذي أقيم عند مبايعة القائد بن أمية، إذ قدمت الوفود والجموع من كل ناحية، واحتفلوا بتتويجه في احتفال مؤثر، فرشت فيه على الأرض أعلام إسلامية ذات أهلة فصلى عليها الأمير متجها صوب القبلة، وقبل أحد أتباعه الأرض رمزا بالخضوع والطاعة، وأقسم الأمير أن يموت في سبيل دينه وأمته، بعدما خطب خطبته الشهيرة، ومن بين ما ورد فيها نذكر ما نصه[2]: "**إننا لسنا جماعة من اللصوص، بل إننا نشكل مملكة**"[3]. ولما أنهى خطبته أخذ المدعون في انشاد أغاني إسلامية باللغة العربية[4].

إن المشاركة الجماعية في مثل هذه الاحتفالات وما يمارس خلالها من طقوس، تترك في نفس المسلم أثرا سيكولوجيا عجيبا عن قوة الجماعة، فبعد مزاولته لطقوس الاحتفال يشعر بما للجماعة من سيطرة قوية ممثلة في الفكرة الدينية التي توحي بها تلك الاحتفالات[5]. وقد كان للحكام الاسبان أصداء في وسط العلماء والفقهاء هؤلاء كانوا ينقلون لهم كل ما يخص الجماعة المسلمة من عادات وتقاليد[6]، ولو اعتقدوا أن زميرا هي من بين التقاليد الإسلامية كان لا بد من إصدار أمرا بمنعها.

***– الاحتفال بالأعياد:** لم يشهد تاريخ الإنسانية أنه هناك أمة اضطهدت إلى حد منعها من

---

[1]– مير نعيم أحمد، المرجع نفسه. ص: 122.

[2]_Henry Kamen, l'histoire de l'inquisition espagnole, Paris, 1966. P : 115.

[3]– لقد أكدت الكثير من الروايات التاريخية على أن المشروع الذي قرر ابن أمية تنفيذه كان من أجل إعادة بناء دولة إسلامية في الأندلس المفقودة.

[4]– كريمال مرمول، المصدر السابق. ص: 79.

[5]- يوسف شلحت، المصدر السابق. ص: 188.

[6]– كريمال مرمول، المصدر السابق. ص: 96.

الاحتفال بأعيادها؛ نعم هناك طوائف عبر التاريخ اضطُهدت لكن لم يصل بها الأمر أن أجبرت على ترك المنازل مفتوحة أيام الجمعة والأعياد حتى يتسنى للنصارى التأكد من أنهم لا يحتفلون ولا يقيمون أية مراسم.

بل من ظهرت عليه علامات الفرح أو لبس لباسا جديدا في يوم يناسب عيدا إسلاميا بات عرضة لتحقيقات محاكم التحقيق، وإذا تبث أنه ابتهج أو احتفل بعيد إسلامي فيحاكم بتهمة اتباع دين محمد – عليه الصلاة والسلام – ومصيره يكون الموت حرقا، والمحظوظ منهم من يحكم عليه بمصادرة جميع ممتلكاته، أو التجديف سنوات عديدة في سفن الملك، أو القيام بالأعمال الشاقة بالمناجم.

وأول هذه الأعياد هي العيد الصغير ويدوم ثلاثة أيام[1] وهو عيد الرحمة[2]، ذلك أنه في مثل هذا اليوم تعطى الزكاة للفقراء. و يقع هذا العيد بعد انتهاء شهر رمضان ويطلق عليه أيضا عيد الفطر"[3]. وكانت عادتهم يوم العيد ما كما هو مدون في محاضر محاكم التحقيق أنه: " **بعد أن ينتهي شهر رمضان – ومدته ثلاثون يوما – يحتفل المسلمون بعيد الفطر. وفي أول أيام العيد يقبل الابن المسلم يد أبيه ويطلب منه أن يسامحه، والآباء يباركون الأبناء فيضعون أيديهم على رؤوسهم ويقولون جعلك الله مؤمنا أو مؤمنة صالحا أو صالحة ويطلب من أخيه المغفرة قائلا**

---

[1]– دون باسكوال بورونات، المصدر السابق. ص: 174.

[2]– يبدأ التحضير لعيد الفطر ليلة السابع والعشرون من رمضان، حيث يجتمع الناس على ابتياع الحلوى، وفي يوم العيد يستيقظ الناس في الصباح الباكر فيتجهون إلى المصلى لإقامة صلاة العيد، وكان الرجال يصطحبون معهم النساء والأطفال وينصبون الخيام على مقربة من المصلى لمشاهدة مظاهر الفرحة والابتهاج بالعيد. ينظر: أبو بكر الطرطوشي، الحوادث والبدع، تح وتق: عبد المجيد تركي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط :1، 1990م. ص: 400.

[3]– أنطونيو دومنقيز هورتيز وبرنارد بنثنت، المرجع السابق. ص: 113.

:"**غفر الله لي ولك**"[1].

أما العيد الثاني فهو العيد "الكبير"، أو "عيد الأضحى"؛ كما أطلقوا عليه أيضا مسلمو اسبانيا بـ "عيد الفصح"؛ من خلاله يخلد المسلمون تضحية سيدنا إبراهيم عليه السلام[2]. وأصل هذا العيد في اعتقاد مسلمي إسبانيا مأتاه القرآن في قوله عز من قائل في محكم تنزيله: {**فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاء الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ**}[3]. وكانت تضحية "عيد الفصح" تتم وفقا لطقوس دقيقة جدا[4].

أما تعليقنا فيما يخص تسمية العيد الأضحى بعيد الفصح فيكون أن هذه التسمية خاطئة، ولا ندري إن كان هذا ناتج عن ترجمة خاطئة وقع فيها الباحث "لوي كارداك"، أو ناتجة عن فهم خاطئ ساد الجماعة المسلمة في إسبانيا. وفي كلتي الحالات فعيد الفصح هو من بين الأعياد اليهودية، ويطلق عليه أيضا عيد الفطير، يكون في الخامس عشر من أبريل من كل عام، ويدوم سبع أيام كاملة، يأكلون فيها الفطير، وذلك احتفالا بذكرى خلاصهم من فرعون وغرقه[5]. ولعل هذه التسمية التي كانت تطلق على يوم عاشوراء لتقارب المعطيات حول سبب الاحتفال.

بغض النظر على الكثير من التناقضات التي قد تصادفنا بين الحين والآخر ونحن نؤسس لهذه الدراسة، إلا أنه يتبادر أمامنا تساؤل مهم، كيف يمكن لمسلمي إسبانيا أن يضحوا بأضحية

---

[1]- مرثيدس غارسيا أرينال، المرجع السابق. ص:100.

[2]- كان عيد الأضحى بالنسبة للأندلسيين المسلمين فرصة للاحتفال والتفاخر بالأطعمة والزينة حسب التفاوت في مستوى المعيشة، فقد كانت كل أسرة سواء فقيرة أم غنية تحرص على تقديم الأضحية، والتي تكون خروفا في العادة، وتشترى قبل العيد بيومين وهي عادة عندهم، حيث نجد الناس يتنافسون في شراء الأضحيات من أجل التباهي وليس أتباعا للسنة أو طلبا للأجر. ينظر: أبو بكر الطرطوشي، المصدر السابق، ص:300 .

[3]- سورة الصافات، الآيات رقم: 103-104-105-106.

[4]- لوي كارديك، الأندلسيون والمسيحيون، (المرجع السابق). ص: 40.

[5]- إبراهيم القادري بودشيش، المرجع السابق. ص ص: 94 ،93.

العيد أمام المراقبة الشديدة والمتواصلة للمؤسسة المدنية والدينية والسياسية؟ أم هذه المعطيات وردت في مؤلفات مسلمي إسبانيا بناء على تقاليد عرفها المجتمع الإسلامي في الأندلس منذ عهود طويلة.

أما العيد الثالث فهو عاشوراء. ويحتفل به بعد ثلاثين يوما من الاحتفال الثاني . العيد الأضحى، وهو اليوم العاشر من شهر محرم، وكان الاعتقاد السائد عند مسلمي اسبانيا آنذاك أنه من الواجب في مثل هذه المناسبة أن يصوم المسلم ويتجنب على الخصوص ارتكاب أي إثم[1].

وكان الاعتقاد السائد عند مسلمي إسبانيا بأنه في مثل هذا اليوم قد أنعم الخالق عز وجل الكثير من النعم على مجموعو من أنبيائه وقد ورد في مخطوط ألخميادي لمؤلف مجهول حول ما كان يعتقده مسلمو إسبانيا بالنسبة لهذا اليوم فورد فيه ما نصه: "...**يطلق على هذا اليوم عاشوراء التي تعني عشرة، أي اليوم العاشر من محرم...**" [2]. ثم بعد ذلك بثلاث أشهر من عاشوراء يحتفل مسلمو اسبانيا بيوم التوسعة، ولا نعرف أي شيء عنه[3]. كما حافظ مسلمو اسبانيا على الاحتفال بمولد رسول الأمة محمد صلى الله عليه وسلم[4]، وقد ذكرت بعض الروايات التاريخية أن الأصل في هذا الاحتفال يعود إلى تقليد النصارى باحتفالهم لمولد عيسى عليه السلام.

## – المبحث الثاني: الطقوس السحرية

---

[1]– لوي كارديناك، الأندلسيون والمسيحيون، (المرجع السابق). ص: 34.

[2]– المرجع نفسه. ص: 34.

[3]– بدرو لونغاس، المرجع السابق. ص:64.

[4]– لم يبدأ الاحتفال به إلا بحلول القرن الرابع هجري. ينظر: ليفي بروفنسال، تاريخ اسبانيا المسلمة من الفتح الى سقوط الخلافة القرطبية (711هـ/1031)، تج: علي عبد الرؤوف البمبي وآخرون، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، د ط، د س ط. ص:274. فيما أشار فريق ثاني بأن المجتمع الأندلسي بدأ الاحتفال بهذه المناسبة خلال القرن السابع هجري. ينظر: مسعد مصطفى سامية، صور من المجتمع الأندلسي (رؤية من خلال إشعار الأندلسيين وأمثالهم الشعبية)، القاهرة: عين البحوث الإنسانية والاجتماعية، ط:1، 1988م. ص:62. ويشير الونشريسي بأن الاحتفال بالمولد النبوي الشريف لم يسلم من البدع، كإعداد الطعام، واختلاط الرجال والنساء. ينظر: الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب، ج: 3، (المصدر السابق). ص:278.

تعتبر ظاهرة السحر من المظاهر السلبية والآفات الاجتماعية المنتشرة في العالم الإسلامي وهي كثيرة ومتنوعة، بعضها أشر من بعض وأخطر. فالسحر آفة خطيرة وداء عضال، وخطره على الأفراد والجماعات واضح ومتحقق، فهو عامل من عوامل تفكك الأسر والتفريق بين الأحبة، وإشعال نار الفتن بينهم، ومعول يهدم صرح الأخوة والمحبة التي بناها الإسلام، ويزرع مكانها الحقد والكراهية، كما أنه يزرع الشكوك ويسلب الثقة من نفوس الناس، بل ويسلب منهم الشعور بالأمن والأمان، وتفشيه في مجتمع ما دليل على بلادة أهله وانتشار التخلف الفكري وسيطرة الرجعية الحقة فيه.

ومسلمو اسبانيا مثلهم مثل بقية شعوب العالم قد ساد بين أفرادها آفات منها آفة السحر والشعوذة، الذي كان ناتجا عن عوامل نفسية، وأخرى اجتماعية ودينية وسياسية. ومن خلال هذه الجزئية من البحث لنا وقفة مع نماذج من أعمال السحر والشعوذة التي انتشرت بين مسلمي اسبانيا خلال القرنيين العاشر والحادي عشر هجريين الموافق للقرنيين السادس والسابع عشر الميلاديين.

**1)– العوامل المساعدة على ظهور ظاهرة السحر بين مسلمي اسبانيا:** ما هو متعارف عليه عند علماء الاجتماع أنه من خلال التحولات العميقة تتنامى مشاعر عدم الاستقرار، ويزداد انتشار الخرافات كلما زادت ظروف الحياة صعوبة، أي أن الخرافات تكثر وتنتشر بانتشار حالات القلق والاضطراب والشعور بالضعف والعجز عن مواجهة مشكلات الحياة ومخاطرها.

لذلك فإن السحر[1] كما الخرافة في المجتمع المسلم بالأندلس الضائعة بيد الصليبيين والاسبان تقوم بتهدئة المخاوف الناشئة عن الاضطرابات التي سادت زمن التحولات الجدرية على كل الأصعدة. وبعبارة أخرى يمكن القول بأن السحر يحافظ على مشاعر الخوف من الانحرافات والتوترات المؤدية للمجتمع، فيلعب بذلك لصالح ضبط النظام الاجتماعي (القائم).

إذ من الجانب السوسيولوجي يعتبر مطمئنا لأنه يمنح للإنسان الاعتقاد في التعرف على الشر وبأنه في الإمكان معالجته. ومن الجانب النفساني، يلعب السحر تفريقيا بتحديده لمبررات القلق لدى الفرد وتغييره لاتجاه العدوانية نحو عامل محدد للضرر. أما من الجانب الإيديولوجي فإن السحر يفسر من خلال حركة الأرواح الشريرة، انتقائية الحوادث والمصائب والويلات التي تصيب بعض الناس وليس الآخرين.

من الأمور التي لابد أن نتعرض لها أسباب انتشار ظاهرة السحر بين مسلمي اسبانيا، ولماذا لجأ إليها هؤلاء؟، وما كانت السبل للوصول إليها؟ وإلى أي مدى استطاعت أن تحقق السعادة المنشودة؟ ومدى قابلية الفئة العظمى للجوء إلى مثل هذه الظواهر الغريبة عن عقيدتنا وهويتنا الإسلامية؟ وبالرغم من قلة المصادر والمراجع التي تطرقت إلى الأسباب التي كانت من وراء انتشار آفة

---

[1]- السحر في اللغة العربية يطلق على كل ما خفي سببه ولطف ودق، حتى إنّ العرب تقول : أخفى من السحر. ويطلق السحر على الخديعة لأنّه يخفى سببها ولا يظهر. وبخلاف لغة الضاد، تعرف اللغات اللاتينية، ومنها الفرنسية، غنى ملحوظا من حيث المصطلحات المرتبطة بالموضوع نذكر منها مثلا La démonologie, le satanisme, la sorcellerie, la magie. وحسب المعجم الفرنسي لعلم الاجتماع، فإنّ كلمة La magie تعني عملية تستهدف الفعل ضد الآخرين La sorcellerie قوانين الطبيعة بواسطة وسائل خفية تفترض وجود قوى خارقة وحالة من العالم. بينما يعرف المعجم نفسه السحر بأنها هي " القدرة على إيذاء من خلال عمل روحاني" ومن خلال كل هذه التحديات الاصطلاحية ، نستطيع القول إن السحر هو ممارسة تستخدم عناصر خفية أو مادية بهدف التأثير في الواقع، ومن أجل بلوغ غرض محدد وتحدد القوى المؤثرة وكذا الغاية (أو الغايات ) الموجودة من العملية السحرية." ينظر: واعراب مصطفى، المعتقدات والطقوس السحرية في المغرب، دار البيضاء: دار الحرف للنشر والتوزيع ، ط : 1، 2007م. ص : 14. وعلى العموم فالسحر هو عبارة عن جملة من الطقوس تتكون من إشارات وأقوال لها القدرة على التأثير في الأشياء والكائنات، فإذا هي مجموعة من الطقوس السرية والممنوعة. ينظر: يوسف شلحت، المصدر السابق. ص: 56.

السحر بين مسلمي اسبانيا، إلا أننا حاولنا أن نناقش الموضوع من خلال قراءة استقرائية للأحداث التاريخية، وأمام هذه المحاولة توصلنا إلى مجموعة من الدوافع التي سببت في تبني بعض مسلمي اسبانيا لمثل هذه الظاهرة.

*– **الدافع التاريخي**: تعتبر ظاهرة السحر من أقدم المعتقدات التي عرفتها البشرية منذ فجر التاريخ[1]، وليس معروفا عن شعب من شعوب الأرض أنه كان يجهله في الماضي كما هو حال أمره في الحاضر[2]، وذلك ما دفع علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا إلى الخروج باستنتاج مفاده أن السحر هو نتاج حاجات طبيعية مشتركة، كامنة في أعماق النفس البشرية المعقدة. ومثل غيرهم من أمم وشعوب الأرض، عرف مسلمو الأندلس منذ العصور الغابرة معتقدات تعبدية وسحرية مازالت بقاياها صامدة ومتداولة بيننا.

وبمقتضى أن بلاد الأندلس كانت محط استقرار الكثير من الأجناس، فطبيعيا أن يتولد عنه انتشار مجموعة من الديانات، الاسلام، اليهودية والنصرانية؛ كلها اجتمعت لتحرك آلية التأثر والتأثير؛ فقد عرف تاريخيا عند اليهود والنصارى ظاهرة ممارسة الطقوس السحرية

*– **الدافع الديني**: أدى هجرة العلماء أو تهجيرهم إلى انتشار الجهل بين أوساط

[1]– تربط العلوم الإنسانية المعاصرة ظهور السحر بالأساطير بالماضي السحيق وعهود الآلهة الأبطال، وتربطه كذلك بجذور الإنسان الأولى وبدايات الثقافة القبلية. أمّا علماء الأنثروبولوجيا وعلماء النفس فمنذ القرن التاسع عشر دأبوا على دراسة نشوء وتطور المعتقدات السحرية في المجتمعات البدائية؛ كما اهتم الأوروبيون منهم بمجتمعات شمال افريقيا؛ وبالنسبة لهذا الصنف من الباحثين، يشكل بالنسبة إليهم ظاهرة السحر " مجالا للرغبة" فهو قبل كل شيء، وفي الأصل كان رد فعل جماعيا أنتجه خيال العشيرة، فالرغبات التي حددت السحر كانت قبل كل شيء رغبات جماعية : رغبة في الحصول على صيد وفير أو على مطر أو على حرارة شمس أو غيرها من المستلزمات الحياتية .

[2]– يعتبر ارتباط السحر بالدين أمر جلي واضح قبل الإسلام وبعده، فالبوذية مرتكزة على أعمال السحر، والسحر فيها ركن من الأركان ويدل على ذلك أن السحرة عندهم هم كهنة الدين وسدنة المعابد، وفي عهد انحطاط المسلمين، أصبح السحرة والكهنة أيضا هم من يرجع إليهم في الدين، فتجد الإمام هو من يكتب الحجب والحروز التي يستعاذ بغير الله تعالى فيها.

الجماعة المسلمة في إطار مغلق لثنائية صعب الإفلات إليها وهي السلطة السياسية الإسبانية والكنيسة؛ فالجهل بعقيدة التوحيد، جعل الكثير من مسلمي إسبانيا لا يدركون حقيقة العبادة وأنواعها وشروط لا إله إلا الله ونواقضها، وأن هناك من الأعمال ما هو ناقض لها ومبطل للإسلام، من هذه الأعمال السحر.

ضف إلى ذلك الجهل بعقيدة القضاء والقدر، ذلك أن حال من يعتمد على السحرة ويلجأ إليهم يوحي بأنه يعتقد فيهم القدرة على تغيير قدر الله تعالى ومعارضته، ومن صحت عقيدته في القضاء والقدر علم أن ما قدر الله أن يكون كان وما قدر أن لا يكون لم يكن ولو اجتمع عليه الإنس والجن أجمعون.

*– **الدافع النفسي**: فمن الجانب النفساني، يقوم السحر بتحديده مبررات القلق لدى الفرد وتغييره لاتجاه العدوانية نحو عامل محدد للضرر، فهو يفسر من خلال حركة الأرواح الشريرة، انتقائية الحوادث والمصائب والويلات التي تصيب بعض الناس وليس الآخرين.

وتداعي شعور الشر والرغبة في إيذاء الآخرين والسيطرة عليهم بين أفراد المجتمع الإسلامي في إسبانيا، لعب دور كبير في اللجوء إلى ممارسة السحر، وفي سبيل ذلك يتحالفون مع الشيطان، وهذا لا تخلو منه أمة من الأمم. كما يمثل داء الحسد دافع إلى أذى الآخرين، والسعي إلى سلب النعم التي حباهم الله تعالى بها. والحسد إذا استولى على قلب إنسان أعماه، فربما أوصله إلى الكفر بالله تعالى كما حدث لإبليس مع آدم ولليهود مع النبي موسى عليه السلام.

فالإنسان يميل بطبعه إلى الإيمان بالغيب، لكن الغيب المأمور بالإيمان به هو الله سبحانه وتعالى الذي يجب الخوف منه والإذعان له وطاعته، ومن الناس من تنحرف فطرته فيؤمن بالغيب والغيب بالنسبة إليه هو الشيطان وأعوانه من السحرة، فتراه يخاف منهم ويذعن لهم، كما يذعن المؤمنون لله تعالى ويخافون منه، يقول المولى عز وجل عن اليهود الذي تركوا كتاب الله واتبعوا ما تتلوا عليهم الشياطين من سحر:{ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَـٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا** }[1]

والجبت هو السحر والطاغوت هو الشيطان. فقال إنهم يؤمنون بالسحر بمعنى يطمئنون إليه ويقبلونه ويذعنون له، والمؤمن بدين الله تعالى ليس من يصدق به ولكن من يطمئن إليه ويقبله ويذعن له. وبصفة عامة نجد الفراغ الروحي والقلق والحيرة والهموم التي سكنت في أعماق القلوب والعقد النفسية، كل هذا وذاك جعل الكثير منهم يقصدون المشعوذين والكهان لمطالعة الحظ والأمور المستقبلية

فظاهرة السحر على العموم تؤسس لحالة من الاثارة التي تغير من ظروف النشاط النفسي فطاقات الحياة تصل حينئذ إلى درجة الاثارة والانفعال وتصبح العواطف والانفعالات أكثر حيوية، كما تصبح الانطباعات أكثر قوة. وتتولد مثل تلك اللحظات طاقات جديدة وعواطف وانطباعات جديدة. ويصبح الانسان غير قادر بعد على معرفة نفسه، ويحس كما لو كان اعتراه تغيير جديد ويعمل هو نتيجة لذلك على تغيير البيئة المحيطة به.

[1]– سورة النساء، رقم الآية: 50.

ولكي يفسر الانسان لنفسه الانطباعات المفرطة في الغرابة التي يحس بها نراه ينسب الى الأشياء التي يحتك بها احتكاكا مباشرا بعض الخصائص التي ليست فيها ويعزو إليها بعض القدرات والقوى غير العادية التي لا تتميز بها موضوعات الخبرات اليومية فهو باختصار يتجاوز العالم الواقعي التي تدور فيه وقائع الحياة ليصل الى عالم آخر لاوجود له إلا في تفكيره هو ولكنه ينزله في نفسه منزلة أعلى من العالم الأول[1].

*– **الدافع السياسي**: يمكن القول بأن السحر يحافظ على مشاعر الخوف من الانحرافات والتوترات المؤدية للمجتمع، فيلعب بذلك لصالح ضبط النظام الاجتماعي (القائم). إذ من الجانب السوسيولوجي يعتبر مطمئنا لأنه يمنح للإنسان الاعتقاد في التعرف على الشر وبأنه في الإمكان معالجته.

إن المتعارف عليه في علم الاجتماع أنه من خلال التحولات العميقة تتنامى مشاعر عدم الاستقرار، ويزداد انتشار الخرافات كلّما زادت ظروف الحياة صعوبة، أي أنّ الخرافات تكثر وتنتشر بانتشار حالات القلق والاضطراب والشعور بالضعف والعجز عن مواجهة مشكلات الحياة ومخاطرها. ولذلك فإن السحر كما الخرافة في المجتمع المسلم بالأندلس الضائعة بيد الصليبيين والاسبان تقوم بتهدئة المخاوف الناشئة عن الاضطرابات التي سادت زمن التحولات الجدرية على كل الأصعدة.

كل هذه العوامل اجتمعت لتحريك المسار التاريخي لهذه الظاهرة، التي لم تكن لتهون أو تنقص من حجم المعاناة والمأساة التي كانت تعيشها الجماعة المسلمة في إسبانيا، ذلك أن ما كان

[1]- هنري برجسون، المرجع السابق. ص:97.

ليتغير مصير هؤلاء المضطهدين سوى حل واحد ووحيد، هو المواجهة الحقيقية مع الصراع القائم مع الجبهة المضادة.

**2)– أنواع السحر الشائعة بين مسلمي اسبانيا:** هناك جدل حول تقسيم السحر من الأساس إلى سحر أسود وسحر أبيض فكل سحر هو أسود حسب اليهودية والنصرانية والإسلام والبوذية والهندوسية، ولكن هناك انطباعا قديما أن بعض السحر هدفه الخير ويلاحظ هذا الانطباع في كتابات عديدة؛ فقد كان الاعتقاد السائد بأن للمشعوذ بالفعل قدرة على إنزال المرض أو سوء الحظ أو العقم وحالات أخرى ولايزال هذا النوع من الاعتقاد سائدا في العصر الحديث بصورة محدودة لدى البعض. وانقسم السحر عند مسلمي اسبانيا إلى سحر علاجي ووقائي ونفعي وعدواني

*– **السحر العلاجي**: يدخل ضمن هذا النوع أغلب الممارسات السحرية، لاعتقاد في أن كل ما يلحقها من شر، سواء كان مرضا عضويا أو نفسيا، أو اجتماعيا، كلها من أعمال السحر العدواني، وليست وليدة ظروف ذاتية أو اجتماعية معنوية عادية. والأهمية التي يحتلها السحر العلاجي تعود إلى المرض والشك[1]، ويمثل هذا الأخير مصدر أشد وأقسى أسباب القلق الشخصي والاجتماعي[2]. وقد ارتبط فن الطب[3] بالصيدلية[4] لدى المجموعة المسلمة ارتباطا وثيقا، وقد أدى

[1]– من بين أسباب انتشار هذه الظاهرة امتزاج أساليب العلاج الطبية بالممارسات السحرية، فكثير من كتب الطب القديمة (طب الأعشاب أو الطب التقليدي) تحتوى على مادة سحرية، وهذا ما سوف يتضح من خلال بعض النماذج التي سوف يتم عرضها في سياق الحديث عن هذه الظاهرة.

[2]– وإعراب مصطفى، المرجع السابق. ص: 19.

[3]– لقد برع في الأندلس خلال القرن السادس الهجري الموافق للقرن الثاني عشر الميلادي في علم الطب العديد من الأطباء، فتعمقوا فيه بحثا مبدعين ومخترعين.

[4]– من بين أهم الأسماء التي ظهرت في هذا المجال نذكر أبا العباس أحمد بن محمد بن مفرج بن الرومية الإشبيلي الذي ولد عام 561هـ/1165م. ينظر: ابن آبار أبو عبد الله محمد ابن أبي بكر القضاعي، التكملة لكتاب الصلة، ج: 1، تح: عبد السلام هراس، بيروت: دار الفكر، د ط، 1995م. ص: 10.

ذلك إلى امتزاجها وتجسيدها في شخص المطبب، وحيث هذا الأخير بحكم خبرته ولكونه حافظا لمعارف الأسلاف، رجل تشخيص الأمراض والوصفات الطبية.

إن الصيدلية والطب عند مسلمي اسبانيا تمثل مظهرا توفيقيا غريبا أين يتجسد السحر والتقديس[1]، ومع هذا فإن وجود عدد كبير لدى النصارى الجدد، يوافق الفترة التي حرمت فيها محاكم1620م، تشير إلى سبع قضايا يخص هذا الموضوع[2] وهذا الجدول يشير إلى ذلك:

| السنة | الأطباء المسلمون المحكوم عليهم |
|---|---|
| 962هـ/1552م | حالة واحدة |
| 978هـ/1568م | حالة واحدة |
| 991هـ/1582م | حالة واحدة |
| 992هـ/1583م | حالتان |
| 1005هـ/1596م | حالة واحدة |
| 1018هـ/1609م | حالة واحدة |

ومع هذا إذا وضعنا جنبا هذه الحالات فإن مسلمي اسبانيا لجاءوا في الغالب إلى "المبرئين" والذين كانت ممارستهم مستوحاة من السحر والشعوذة، وقد ادعى بعض "المبرئين" أنهم قلدوا بعض النفوذ والسلطة على عناصر وقوى الطبيعة، فمنهم بذلك لا يمارسون ليس فقط، صيغة معتدلة من

[1]- من النماذج التي عرضت علينا في مختلف المراجع التاريخية التي عالجت هذا اللوضوع قضية الموريسكي الطبيب فرنسيسكو دوفيلا نوفا Dr Francisco de Villanueva الذي زاول دراسته الطبية في فرنسا، وكان يتمتع بشهرة كبيرة غير أنه منع من ممارسة مهنة الطب.

[2]- جافورنال جاكلين، المرجع السابق. ص : 50.

التنبؤ، ولكن باستطاعتهم أيضا أن يتصلوا بالعقول الشيطانية[1]؛ وبالنسبة لسكان الأرياف، فيعد المبرئ شخصا مطلعا نظرا لارتباطه دائما "بأسرار الآلهة".

ومن النماذج التي طرحت في مثل هذا المجال نذكر بدور القاسير (Pedro el Gaco) القاطن بليطكس (Le tux) الذي كان يعالج مرضاه بقراءة كتب عربية ويقوم بتعاويذ وأشياء وغالبا ما كان "المبرؤون" ينتقلون في داخل المنطقة للقيام بزيارات لسكان الأحياء العربية.

كما ادعت النساء المسلمات في اسبانيا معرفة بعلاج مختلف الأمراض، مستعملات في ذلك كما يبدو أساليب السحر والشعوذة[2]؛ ومن بين النماذج التي كانت تتعامل بالسحر في علاج المرضى نذكر إيزابال لاقالفا "Isabel de Calva " المقيمة في منطقة قوواط "Uarte" التي مارست على مريض بعض الطقوس السحرية لعلاجه، كما صبت شيئا من الرصاص في إناء معلنة بذلك أن المريض لن يموت قبل الخريف المقبل[3].

أيضا بهذا الصدد نذكر المدعوة افيولت قاستيون "Violante Gastallon" من منطقة لوشانا التي كانت تعالج مرضاها بوضع يدها على رأس المريض ثم تضع في إناء من الماء شيئا من الريق، وثلاث قطرات من الزيت وثلاث قطع من الفحم ، وتعلن أنه بواسطة هذا العلاج سوف يشفى المريض.

كما ركنت "مبرئات" أخريات إلى استعمال وسائل لمنع الحمل، وأخريات كن يلجأن إلى طرق بغرض تخفيف متاعب الولادة، مثال ذلك نذكر ماريا لابانيا"Maria la Pana" القاطنة بمدينة

[1]-Yvette Cardaillac – Hermosilla, Op. Cit. P: 19.
[2]- Ibid. P: 46.
[3]- فورنال جاكلين، المرجع السابق. ص : 53.

بلبيونت Bulbuente" التي كانت تطلب من النساء اللواتي يشرفن على الولادة بالابتلاع ثلاث شعرات في شيء من الحساء والتلفظ ببعض العبارات والصيغ. كما عرفت ماريا "Maria" هذه بالعرافة، ويفضل طقوسها السحرية، تمكنت من التخفيف على مرضاها على الأقل في الجانب النفسي[1].

وقد كان لهؤلاء الذين ادعوا العلاج بطرقهم الخاصة على ضوء ذلك، حرفاء متأتيين من النصارى الجدد، فهؤلاء ادعوا تقديم خدماتهم الطبية باستعمال شعوذة عربية، مثال ذلك ما كان يفعله البعض منهم من قراءة كتابات خاصة بهم، ثم يصورون على أرجل المرضى بعض الأحرف العربية مصحوبة بتلاوة صلوات[2]. كما لجأ البعض الآخر إلى علاج مرضاهم بالكتابة على كف يد المريض أحرفا عربية مستخرجة من كتاب، وبعد ذلك يلصق على جبين المريض ورقة مكتوبة باللغة العربية[3].

في حين تعامل بعض الآخر منهم مع الشيطان في علاج مرضاهم مثال ذلك نذكر المبرئ جوان أكان "Juan Acan" الذي كان باستطاعته أن يتعرف من خلال قدر مملوء بالماء على وجه الشخص إصابة المريض. أيضا نجد الميرئ ألكووس كافولو "Aloscos Caello" من منطقة ماريا "Maria" الذي كان يعالج مرضاه بصيغ سحرية.

---

[1]- عرف هذا النوع من السحر بالسحر الدفاعي الذي لا ينجح إلاّ خلال النصف الثاني من الشهر القمري. بنظر: وإعراب مصطفى، المرجع السابق. ص: 14.

[1]-Yvette Cardaillac – Hermosilla, Op. Cit. P : 20.

[3]- عادة ما كانت تلك الكتابات عبارة عن مقاطع من القرآن كما تشهد بذلك قضية ميكال كوراك شاكوط (Miguil Corral Chacote) الذي عالج ابنه بإخراج من كتاب القرآن الكريم بعض الخطوط، هذه الأخيرة كان يصنعها على جبين ابنه.

أما إذا لم تعط هذه الطرق أي نتيجة إيجابية، فإنه يلجأ إلى مناجاة الأرواح[1]، وللقضاء على المرض الرئيس فقد يطلب من المريض خلع ثيابه لمحاربة الشيطان، وقد اعترف هذا المبرئ أن مثل هذا العلاج صعب جدا، بسبب حتمية جمع الشياطين واخضاعهم لسلطة الشيطان الأكبر، هذا الأخير هو القادر على طرد القوى الشريرة الأخرى- على حد زعمه- ويشترط على المريض حينها أن يكون متغيبا لحظة التوسل ، أما إذا كان حاضرا لحظتها ، فإن الخوف يمكن أن يقضي عليه بالموت وذلك بمشاهدة الشياطين[2]. وعلى العموم فما يلاحظ على هؤلاء المبرئين أنهم كانوا يقدمون وصفات سحرية على شكل تعويذات لمحاربة الأمراض المختلفة كالحمى، وضيق التنفس، وصداع الرأس[3].

كما لجأ البعض الآخر من "المبرئين" إلى استعمال بعض النباتات والأعشاب[4] في علاج مرضاهم مثال ذلك نذكر فرنسكانو "Frescano" الذي اشتهر بمعرفته الجدية للأعشاب[5]. في حين لجأت بعض من النساء إلى استعمال نبات النارديين، هذا الأخير عرف على أنه نبات سحري، فقد كانت النساء يزرعنه في أواني وترعاه بإجلال، ويضعن حوله المجوهرات والذهب والحرير، معتقدات أن ذلك من شأنه أن يجلب السعادة[6].

هذا ما اعتمده أيضا أحمد بن قاسم الحجري عندما قصده أحدهم يشتكي من مرض أصابه

---

[1]- Yvette Cardaillac – Hermosilla,Op. Cit. P : 20.

[2]- فورنال جاكلين، المرجع السابق. ص ص : 56،57.

[3]- Op. Cit. P : 26.

[4]- إنّ استعمال النبات للعلاج الطبي، يعتبر ظاهرة تولدت مع الطب منذ العصور البدائية، وهذه الطريقة تعتبر أساسا لدى المجموعة المسلمة طبا شعبيا.

[5]- من بين هذه النباتات نذكر السنا، الزعفران، الكافور والبسباس والكفنة والحرمل والنارديين

[6]- فورنال جاكلين، المرجع السابق، ص : 58.

وأقعده الفراش فكتب له "حرزا"[1] ذكر حوله ما يلي: "**الشفا من ذلك إلى ثمانية أشهر. ولم يعد إليها إلى أن جازت نحو العشر سنين وماتت. وهذا من العجب، غذا ليس في هذا العلاج شيء من العقاقير، ولا من الأدوية التي تعالج بها الأمرض، إنما شيء زعفران محلولا في قليل ماء ورد، لتظهر الحروف فقط**"[2].

*- **السحر الوقائي:** يعتبر السحر بمثابة تقنية تعادلية، أي أن خاصية السحر تخضع للهدف منه وليس لخاصية جوهره. ولقد تعددت أهداف السحر عند البعض من مسلمي اسبانيا مثلهم مثل باقي الأشخاص الذين يؤمنون بمثل هذه الأمور، ففي الحياة العادية كان يمارس السحر الوقائي أو الدفاعي بهدف طرد الأرواح الشريرة، والحد من مخاطر الحيوانات المفترسة أو الضارة، إلى جانب تجنب العيون المؤدية، فكان مسلمو اسبانيا يعلقون التمائم أو التعويذات في أعناق أولادهم[3].

كما عمد البعض من مسلمي اسبانيا بهدف جلب الخير والرزق إلى القيام ببعض الطقوس، منها أن يقف الفرد منهم إثناء الليل وتحت ضوء القمر والوجه موجه نحو المشرق، يقوم بأكل كل حبات رومانة دون اسقاط حبة واحدة منها، وعلى قدر حبات الرومان يكون الغنى. كما

---

[1]- يلجأ بعض السحرة والمشعوذون إلى كتابة أحجبة يحملها الشخص أو صاحب الحاجة حتى تقيه من شر ما أو تدفع عنه الأذى أو الخوف والمكروه أو لتحقق له ما يطلبه. والأحجبة عبارة عن كلمات متداخلة ببعضها أو خطوط متراكبة فوق بعضها أو كلمات أعجمية أو أسماء جن؛ والحجاب بهذا الشكل هو إشراك بالله سبحانه وتعالى وكفر به وبقدرته لأنه لا يدفع الضر والأذى إلا الله سبحانه ويكفي من يخشى أمرا من الأمور أن يتلو آيات الله المحكمات حتى تقيه من الشر وتفتح له أبواب الخير والبركة كذلك فالتمائم أو التعاويذ ومفردها عوذ وهي ما يتعوذ به الناس لدفع الشر أو الأذى أو لتحقيق حاجة ما، وكانت عبارة عن خرزة صغيرة يعلقها الأعراب لأولادهم ، وهذه التعاويذ أيضا من صور الإشراك بالله تعالى لأنه جل شأنه هو الذي يملك دفع الأذى وجلب الخير ولا أحد سواه يملك ذلك.

[2]- أحمد بن قاسم الحجري، المصدر السابق. ص: 129.

[3]- ينظر كل من: أحمد بن قاسم الحجري، المصدر السابق. ص: 126. والحايك سيمون، المرجع السابق، ص : 211.

عمد البعض الآخر وفي الحالة نفسها السابقة ذكرها أعلاه ولكنه عليه أكل اثني عشر حبة عنب أثناء الدقات الاثني عشر لمنتصف الليل[1].

*– **السحر العدواني**: قال تعالى في سورة البقرة، الآية رقم: 102 {**واتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُون**} ويمكن تعريف السحر بأنه هو العقد المبرم بين الشيطان والساحر أو هو عبارة عن عزائم ورقى وعقد يعملها السحرة بقصد التأثير على الناس بالقتل أو المرض أو التفريق بين الزوجين وغير ذلك. ومن النماذج التي خلفها البعض من مسلمي اسبانيا بهذا الصدد نذكر ما دونه أحمد بن قاسم الحجري بهذا الصدد:

**ومما أنعم الله تعالى به أن سخر لي ملوك الملتين، وعلماءهم، وصلحاء ديننا. ومن نعم الله تعالى علي بأسمائه الحسنى أن امرأة كانت بها ثلاث علل: كان ظهر يدها وأصابعها به ثالول كثيرة، فكتبت جدولا مثمنا حرفيا اذكر فيه اسمين من أسماء الله الحسنى، بارد مصور. ومزجته بكلام بيت من الضمياطي ".**

**ويا بارء الأنفاس قد بت مبرءا  بك السقم عني يا مصور زولا**

**وجعلته عليها. وفي نحو الستت أيام لم يبق في يديها أثر للثالول، وشفاها الله من العلة**

[2]-Yvette Cardaillac – Hermosilla, Op. Cit. P : 45.

**الأخـرى، ومن الثالثة نقص من دائها"**[1].

ومما كان يعمل للعروسين بهذا الصدد نذكر ما دونه أحمد بن قاسم الحجري:

**"وإذا أردت عقد العريس فخذ خيط أحمر واعقد فيه سبع عقدات، وعزم على كل عقدة سبعة مرات، وقل لهم: اربط كذا وكذا، واجعله في حرز حتى يتخطاه المعمول له، وادفنه في قبر عزيب، وإذا أردت حله حل العقد وعزم، وهذا الخاتم، وبخور الخير: الجاوي وبخور الشر، الكبريت والحبتيت"**[2].

هشطنش لهكوط

دمرياط العفريت مذهب

سليمان

بكشصلصوش هدلياج

شمهروش

[1]- أحمد بن قاسم الحجري، المصدر السابق. ص: 132.

[2]-، المصدر نفسه. ص: 136.

وأيضا ما كتبه في هذا السياق: **"فاذا اردت ان تصرع الجن والريح والجهة من تكتب الاسماء في يد المصاب وتبخره بالجاوي، وتعزم العزيمة على العارض وكل الانوار بصرع العارض، فانه ينصرع من اي قبيلة كان، ومواخر رهط من أرهاط الجن، والغزالة والفرزدقية ورهط مرديورسرديون و...الفرزدق أقوى جن، فإذا انصرع فقل له: اخرج، فانه يخرج ما حجبه بالعزيمة والخاتم، ولذلك اذا اردت ان تخرج الجن فاكتب الخاتم في حرز، ودوره بالدعوة، وعزم على الجن سبع مرات واعطيه المصاب يعلقه في عنقه فان يبرا باذن الله. وإذا اردت ان تحرق الجن او الحمة تكتب الاسماء في يد المصاب، وتكتب الاسماء في خرقة كتان واشعلها بالنار وقربها من أيد المصاب وعزم عليه بالعزيمة، وقل لهم: هذا الجن أو الحمة، أو تقل لهم: اقتلوه، فإنهم يقتلونه"**[1]. وبهذا الصدد على الشخص أن يقول ما يلي أو أن يكتبها على شكل جدول، وقد أطلق عليها أحمد بن قاسم الحجري بـ "العزيمة":

**هذه دعوة الأعوان الأربعة:**

**بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد [وعلى ءاله وصحبه وسلم تسليما].**

**اللهم يا قوي، فلا قوي غيرك، بالله يا الله، يا خالق اليل والنهار، ويا من سبل الليل والنهار، والأرياح والسحاب والغيث، يا رب الأرباب، ويا معتق الرقاب، يا عزيز يا وهاب، أنت القادر...تشاء، وتفعل ما تريد، لا يخفى عليك شيء من الأشياء، ولا تخاف عقابا، ولا ترجو**

[1]- أحمد بن قاسم الحجري، المصدر نفسه. ص: 136.

**ثوابا. انت القادر بقدرتك، الرحيم برحمتك، أسألك...الرحمان الرحيم، رب الروح الأمين جبريل، والعلا الموهب الذي ترتعد منه القلوب. العظيم الرفيع مكايل –عليه السلام– والملك الموكل بالنفخ إسرافيل، والملك الموكل بقبض الأرواح عزرائيلو...العرش أجمعين. اللهم إن أسألك بهؤلاء الأرواح الروحانية الكرام أن تسخر لي العفاريت الأربعة بقدرتك وجلالك: بهشهش فطوش، ليصوش شعش ليوش شخشلوق حجح هشطش أطوش تدشلطط طللكوش أجيبوا بادرميان وباشوشال ويابا كدلياج وبامنعيق.**

**بحق من علم ما كان وما يكون قبل أن يكون، لا اله إلا هو الرحمان الرحيم، انزلوا يا معشر الأعوان الأربعة والوزراء الكرام وامروا خدامكم وأعوانكم بكذا أو كذا بحق نبي الله سليمان، وبحق من قال عفريت من الجن إلى مين أنه من سليمان إلى مسلمين مسرعين بالسكينة والوقار، بحق خاتم سليمان ابن داود – عليه السلام–"**[1].

***– علم التنجيم:** علم التنجيم أو علم النجوم هو علم يهدف إلى معرفة الحوادث المستقبلية عن طريق أوضاع الأفلاك والكواكب المختلفة ومقارنتها بما يسمى أوضاع التثليث والتربيع والتسديس وغيرها من الأوضاع التي لها مدلولات خاصة وينقسم هذا العلم بصفة عامة إلى ثلاثة أقسام : الأول : الحسابيات : وهي العلوم اليقينية ولا مانع شرعا من تعلمها.

أما الثاني فهو يهتم بالطبيعيات مثل الاستدلال على الأحداث من انتقال الشمس في البروج الفلكية إلى الفصول كالحر والبرد أو اعتدال الجو، وهذه أيضا لا مانع من تعلمها. في حين يستند

[1]– أحمد بن قاسم الحجري، المصدر نفسه. ص: 136.

الثالث على الوهميات وهي الاستدلال على الحوادث والتنبؤ بها باستخدام القوى السفلية. وقد نهى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم عن تعلم هذه العلوم السفلية والاكتفاء بمعرفة النوعين الأولين فقط لاستخدامهما في الأعمال النافعة.

كما انتشرت هذه الظاهرة في الأندلس قبل السقوط وبعدها اقتباسا من الرفاعية[1] وأشباههم، وأخذت تأخذ مجراها بين العامة والخاصة من رجال الحكم والبلاط، وهذا ما أكده ابن خلدون في هذا النص: "...**أكثر وأول من يهتم بأخبار المستقبل وقيام الدول وسقوطها هم الملوك والحكام الذين طبعا ليسوا على عقيدة صحيحة يهتمون بأمر ملكهم كم سيبقى؟ وكم سيأتي بعدهم من ملوك ؟ إلى آخر ذلك**..." وعن مثل هذه الظاهرة التي شاعت في البلاط الملكي الغرناطي نذكر ما حدث عند مولد الملك بن عبد الله الصغير.

فقد تطلبت تقاليد القصر، أن ينظر المنجمون في طالع الأمير لدى مولده، وقيل أنهم لما شاهدوا في الأبراج ما كان يخبئه له المستقبل، اعتراهم الخوف والرعب لفداحة ما كشفه لهم عملهم، وصاحوا من الدهشة: "**الله أكبر الله أكبر"، إنّه هو وحده مسير المماليك ومدبر شؤون الدولة، لقد كتب في اللوح أن يكون سقوط المملكة في عهده**"[2].

---

[1]- من بين الطرق المنتشرة في العراق وبلاد الشام وغيرها الرفاعية ، نسبة إلى أبي العباس أحمد بن الحسين الرفاعي، منسوب إلى بني رفاعة قبيلة من العرب ، كما صرح بذلك الشعراني في طبقاته. ولو أن الرفاعية يدعون نسبته إلى بني فاطمة كعادة الصوفية الآخرين بأن كل جماعة وحزب منهم يريد نسبة شيخهم إلى الإشراف والسادات ، فقالوا كما قاله الآخرون: "أنه سيد حسيني". ينظر: محمد أبي الهدى الرفاعي الخالدي الصيادي، قلادة الجواهر في ذكر الغوّث الرفاعي وأتباعه الأكابر، بيروت: دار الكتب العلمية، د ط، 1980م. ص: 12.

[2]- ايرقينج واشنطون، المرجع السابق. ص: 62.

كما اعتمد رجال البلاط في التخطيط السياسي على الكهنة وعلى أخبار السحرة والمنجمين والمشعوذين بنفس الطريقة القديمة، الطريقة التي تعتمد على حركات الكواكب والأفلاك. ومن ذلك ما صرح به الأمير ابن أبي عبد الله الصغير، عند وقوعه أسيرا في يد النصارى فلم يتمالك السلطان نفسه وصرخ قائلا:" **اللعنة على اليوم الذي ولدت فيه، وعلى كوكب النحس الذي ساد ساعة ميلادي، لقد ورثت الألم والحزن عن أبي وها هو ذلك الحزن والألم ينتقل إلى ابني**"[1].

من خلال النماذج التي تم عرضها حول ممارسة البعض من مسلمي اسبانيا للسحر والشعوذة من يمكننا استنتاج أنه مثلما انتشر التدين والتقوى والتمسك بعقيدة التوحيد، فقد انتشرت أيضا بالتوازي بعض الآفات التي تدخل المسلم في دائرة الشرك، فقد وقف المشرع الإسلامي من السحر موقفا حاسما، فسد كل طريق يؤدي إليه، وحرم تعلمه وتعليمه وممارسته، منعا لضرره، وحسما لمادة الخرافة أن تتسلل إلى عقول المسلمين فتعطلها عن التفكير الصحيح، والتخطيط القائم على قانون الأسباب والمسببات الذي قام عليه نظام الكون . فالسحر كما أخبر الله عنه طريق للفساد وسبب للضرر بين العباد، وهو فوق ذلك كله سبب للكفر بالله سبحانه والخروج عن دينه وشرعه.

ومهما كانت الدوافع والظروف التي ساهمت في انتشار هذه الظاهرة الخطيرة إلا أنها لها آثار مدمرة على الفرد والمجتمع، وقد أجمل القرآن مفاسد السحر فذكر في مقدمتها الكفر بالله سبحانه، والتفريق بين المرء وزوجه، وإدخال الضرر على العباد، فقد قال سبحانه وتعالى بهذا الصدد في سورة

[1]- ايرقينج واشنطون، المرجع نفسه. ص: 63.

البقرة، الآية رقم: 102 ما نصه { **وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** }.

من خلال المعطيات التي تم عرضها يمكننا الخروج بمجموعة من الاستنتاجات أهمها:

– ظهور بعض الآفات الاجتماعية بين أفراد الجماعة المسلمة في اسبانيا

– هجرة العلماء الأندلسيين بعد سقوط غرناطة، والحصار الثقافي الذي فرضته السلطات الاسبانية السياسية والكنسية كان له الدور الكبير في تراجع مستوى التدين عند البعض من أفراد الجماعة المسلمة في اسبانيا الكاثوليكية.

– لجوء البعض من هؤلاء إلى الاعتقاد في مثل هذه الممارسات قد يعود إلى سوء الأوضاع على شتى الأصعدة وتخوفهم من المستقبل، وافتقادهم لأي أمل قد يخلصهم من قيود الاستبداد والطغيان.

# الفصل الرابع: الأسطورة والحقيقة في مؤلفات مسلمي اسبانيا

## المبحث الأول: مفهوم الأسطورة ونشأتها

1)_ تعريف الأسطورة

2)_ نشأة الأسطورة

## المبحث الثاني: أهمية الأسطورة ودورها في بناء شخصية الفرد المسلم في اسبانيا

1)_ الأساطير حول سيرة الأنبياء والرسل

2)_ الأساطير حول التاريخ الإسلامي

3)_ الأساطيل الخيالية

تفيد الأسطورة "mythologia" على الغالب، الحادثة القديمة المحفوفة بالمبالغات حتى الخرافات أحيانا، كما تفيد أيضا الأقاويل المنمقة المزخرفة التي لا نظام لها. وقد وردت في اللغة الفرنسية بمعنى الحادث "Histoire" وفى الإنجليزية بمعنى الحادث "Historia". وقد اتخذت الأسطورة معنى الحكاية، سواء أكان لها أصل مبالغ أم لم يكن لها أصل، وزيدت الألف في أول الكلمة لتسهيل اللفظ لأن العرب تأبى لفظ الحرف الساكن كما الحال في كلمة أفلاطون.

كما ذهب بعض الباحثين إلى أن أسطورة قريبة الصلة بقرينتها في اليونانية واللاتينية "إسطوريا" "Historia" بمعنى أنها أخبار تؤثر عن الماضين لاسيما أن «أساطير الأولين» إنما وردت في القرآن الكريم بهذا المعنى في سور مكيّة وفى سياق جدل واحتجاج بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وكفار قريش لأنهم اعتبروا تلك الأخبار من الأوهام والأباطيل.

كانت الأسطورة لدى الشعوب القديمة قصة مقدسة تحكى لأنها من الزمان الأول " in illo tempore" وهي بالنسبة إليهم إذا قصة وقعت حقا وصدقا، تخبر عن حقيقة من الحقائق لا مجال للشك فيها. كما أنها تصور علاقة انسجام بين الإنسان والكون. فالكون ليس كتلة مبهمة أو مستغلة مستعصية على الفهم، بل عالم حي زاخر بالحياة يتحدث عن الإنسان عبر تجليه في الأساطير وعبر تعاقب الليل والنهار والفصول والولادة والبعث في تناغم بين الإنسان والكون والمجتمع.

من هذا المنطلق حاول مسلمو اسبانيا التمسك والحفاظ على تراثهم الثقافي الذي كان يمثل أحد المكونات الأساسية لشخصيتهم الإسلامية العربية؛ ومن بين هذا التراث نذكر الأساطير بكل أنواعها، الطقوسية والتعليلية والبطولية. فهل استطاعت هذه الأساطير بعث روح المقاومة والصمود في

وجه سياسة التغريب التي طبقتها السلطات السياسية والكنسية بهدف تنصيرهم؟ وهل اكتسبت هذه الأساطير نسبة من الحقيقة التاريخية أم كانت خرافية؟ وهل تأثرت بالأساطير النصرانية بحكم معايشتهم للنصارى لقرون طويلة؟ من خلال هذه الجزئية ستكون لنا وقفة لمحاولة الإجابة على كل هذه التساؤلات على أن موضوع مثل هذا يحتاج إلى دراسة منفصلة تتعامل مع مادته بتحليل وتمحيص أكثر.

- **المبحث الثاني: مفهوم الأسطورة ونشأتها**

الأسطورة مكون جوهري في الحضارة الإنسانية، ليست خيالا بل حقيقة قائمة بذلك يلجأ إليها الإنسان لتعينه على كشف حقيقة معنى الطقوس والأعمال التي يؤديها على الصعيد الأخلاقي، وبيان الأسلوب الذي ينبغي عليه أداؤه به. فهي لم تتوقف عند معالجة الموضوعات الكبرى مثل الخلق وقضايا الإنسان المصيرية، مثل الحياة والموت بل تعدت ذلك لتتطرق إلى مواضيع حساسة مثل الحياة اليومية والأمور الدنيوية.

**1)– تعريف الأسطورة:** تعد الأسطورة بمثابة القوة الدافعة للحضارة الإنسانية، وذلك أنها الحاوية الناقلة للتقاليد والعادات، فإذا ما أتضح عدم رضا أفراد المجتمع عن أحد الأنماط الاجتماعية سواء كان هذا النمط ديني أو دنيوي، فإن الأساطير تعمل على إعطاء هذا النمط الشرعية والثبات، ومن هذا المنطلق فإنها تعد إحدى وسائل الضبط الاجتماعي من حيث توصيل الامتثال للأنماط السلوكية المقبولة لأفراد المجتمع.

***– المدلول اللغوي لمصطلح الأسطورة:** ورد لفظ "أساطير" في تسع موارد متفرقة في

القرآن الكريم، ولنا أن نسأل: ما موضوع الآيات التي ذكرت الأساطير؟ ولماذا ذكرت الأساطير في تلك المواضيع دون غيرها؟ وما هي العناصر المشتركة في الآيات كلها؟ وهل يمكن أن نفهم شيئا عن مضامين الأساطير من خلال فهمنا للآيات؟ ولماذا لم تأت لفظ "أساطير" لوحدها بل جاءت في الآيات كلها بـ"أساطير الأولين"؟

فالعنصر المشترك في جميع آيات "**أساطير الأولين**" أنها وردت على لسان الكافرين لدعوة الحق، ولم ترد على لسان غيرهم من أهل الكتاب، كما أن كل الآيات قيلت في مناسبات الاحتجاج والجدال حول قضايا إيمانية عقلية منطقية تدعوهم إلى النظر في الدعوة الجديدة نظرة متجردة أبرزها الدعوة للتوحيد وقبول البعث والحساب.

ومن الآيات التي ورد فيها استعمال "**أساطير الأولين**" نذكر قوله تعالى في محكم تنزيله: **{وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ}**[1]. وأيضا قوله عز وجل: **{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ * قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}**[2].

نستخلص من الآيات السابقة ومن غيرها التي تم ورودها في القرآن الكريم أن:

– قضايا الرسل في جوهرها الاعتقادي (التوحيد) والأخلاقي (القيم) والاجتماعي (العدل) والمعروف) موجودة في أساطير الأولين.

---

[1]– سورة الأنعام، الآية رقم: 25.

[2]– سورة الأنفال، الآتين رقم: 31-32.

– هناك نسبة موجودة بين أساطير الأولين والرسل الذين سبقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أبرز تلك النسبة تشابه ما ورد في الأساطير مع رسالات الرسل وأقوال الأنبياء عليهم صلوات ربي وسلامه باعتراف الكفار أنفسهم.

– نفى سبحانه في كتابه عن نبيه صلى الله عليه وسلم (ما ادعوه عليه أنه مجنون أو مفتون أو شاعر أو كاهن أو ساحر، كما نفى عن القرآن أن يكون مفتريا، أو اكتتبها من أناس، أو قول شيطان رجيم، أو أي شيء، لكنه لم ينف وجود ذلك المضمون ولا مرة واحدة في أساطير الأولين.

فأمام عجز الكفار عن رد الحجة بالحجة لجأوا إلى إغلاق باب الجدال بنسبة ما يسمعونه إلى أساطير الأولين، وفي ذلك إشارة واضحة أن هؤلاء كانوا يعلمون أن هناك تراثا مسطورا وضعه الأولون ويبدو أيضا أنهم كانوا يحتفظون في أذهانهم ببعض معالمه، ودعوة الرسول صلى الله عليه وسلم قد ذكرتهم بتلك المعالم، فأقروا بأن ما يعرفونه سابقا عن أساطير الأولين يتضمن معاني تقترب لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وهي تخالف معتقداتهم وما هم عليه.

***– التعريف الاصطلاحي**: أما تعريف المصطلح في مختلف المعاجم فنلاحظ أن غالبيتها – العربية – انطلاقا من لسان العرب إلى تاج العروس، والصحاح ، والقاموس المحيط، تتفق على أن الأسطورة من مادة "سطر يسطر سطرا". "والسطر الصف من الشيء كالكتاب والشجر والنخل وغيره". والأصل في السطر "الخط والكتابة" و"الأساطير الأباطيل والأكاذيب بمعنى أحاديث لا نظام لها"[1].

[1]– ابن منظور ، المصدر السابق، (مادة سطر).ص: 142.

هذا فيما يخص التعريف اللغوي، أما الاصطلاحي فقد عرف المختصون الأسطورة بأنها"قصة تحكمها مبادئ السرد القصصي من حبكة وعقدة وشخصيات، محافظة على ثباتها مند فترة طويلة تتناقلها الأجيال زيادة على الطابع الجماعي الذي تتمتع به أو ما يعرف بالخيال المشترك للجماعة، كما تلعب الآلهة وأنصاف الآلهة الأدوار الرئيسية فيها بحيث تجري أحداثها في زمن مقدس غير الزمن الحالي، تتمتع فيه بسلطة عظيمة وقدسية على عقول الناس ونفوسهم، وهذا ما جعل بعض الباحثين يعرفونها بأنّها قصة الأعمال الّتي يقوم بها أحد الآلهة في العقائد القديمة أو إحدى الخوارق الطبيعية"[1]

أما الباحث "فراس السواح" فذكر بهذا الصدد أن الأسطورة "حكاية مقدسة لها صلة بحياة الإنسانية والمحيط والوجود" وبالتالي هي عبارة عن "حكاية مقدسة ذات مضمون عميق يستقى منها معان ذات صلة بالكون والوجود والحياة وحياة الإنسان"[2]. في حين عرفها الباحث "محمد عاطف غيث" بأنها "تفسير أو قصة رمزية تروي حادثة غريبة، أو خارقة للطبيعة، توجد في ثقافة فرعية[3].

في حين اختلف الباحثون الغرب في تعريف الأسطورة، وقد تباينت مصطلحاتهم للتعبير عنها، فالأسطورة عندهم هي إما خرافات وأباطيل وأحاديث لا نظام لها، أو هي أحاديث عجيبة"[4].أما في اللغة اليونانية فهي عبارة عن قصص تقليدية تحكي عن الآلهة والأبطال "mythologia mythos"[5]؛ كما تمثل قصصا متداولة تقليديا تفسر بدايات الأشياء سواء كانت كونية أم طبيعية. وتفسر حالة

---

[1]- سليمان مظهر، أساطير من الغرب، القاهرة: مطابع الشعب، د ط، 1959م. ص: 3.

[2]- ينظر: الأسطورة والمعنى (دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية)، دمشق: منشورات دار علاء الذين، ط:2، 2001م. ص:14.

[3]- ينظر: قاموس علم الاجتماع، د ب ن: دار المعرف الجامعية، د ط، د س ط. ص: 296.

[4]- محمد أركون، الفكر العربي، تر: عادل العوا، بيروت: منشورات عويدات، د ط، 1983. ص: 56.

[5]- محمد عاطف غيث، المرجع السابق. ص: 296.

طبيعية لها صدى عالمي عميق في النفوس[1].

من خلال هذه التعاريف نستنتج أن تتكلم عن الواقع في حياة الناس، وبهذا تختلف عن الخرافة والفلكلور[2] وهي حكايات لا يعرف لها مؤلف ما وتدور على الألسن في المجالات الشعبية المختلفة[3]. فالخرافات لا تعتمد على الحقيقة أو الحدث أساسا لها بل تعتمد على البطل (الإله أو الآلهة)، وتختار من الأحداث ما يلقي الضوء على شخصية البطل وتؤثر في حركته.

**2)– نشأة الأسطورة:** لقد أثبت سبحانه وتعالى وجود الأسطورة بشكل مباشر في أساطير الأولين الصحيحة، وسماها في سورة الشعراء، الآية رقم 196: **{وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ}** وأيضا في قوله عز وجل في سورة الأعلى، الآية رقم: 18 **{إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى}**، وعدّ هذا التشابه بينة على صدق المصدر ووحدته في قوله تعالى في سورة طه، الآية رقم: 133: **{أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى}.**

لم تستعمل "**أساطير الأولين**" مع أي نبي أو رسول آخر غير محمد صلى الله عليه وسلم، ما يعني أن هذا التراث (الأساطير) هو تراث الأنبياء والمصلحين قبله. وأنها كمفردة تاريخية صار لها وجود حاضر في عصر البعثة المحمدية لاشتهار التدوين (التسطير)، ولم تكن متاحة فيما سبق إلا بشكل

---

[1]– محمد عاطف غيث، المرجع نفسه. ص: 296.

[2]– **الفلكلور: أو القصص الفلكلورية** والخرافية، غير مقنعة عادة وغير منطقية؛ والشيء الذي يميزها عن بقية الأجناس الأدبية الشبيهة بها هو طابعها وجوهرها المقدس الذي يريد أن يخاطب الانسان الذي أبدعها وصاغها لنفسه وللأجيال من بعده .وأما الخرافة، فإن راويها والمستمع اليها يعرفان بأنهما ليسا مكلفين بتصديقها .فحين نبني البيت مثلا، فإننا نحتاج الى الخارطة أولا ثم الى المواد الأولية للبناء .فهناك الخريطة التي هي الحقيقة في الأساطير، والمواد الأولية التي هي الرموز الاسطورية التي تزين الحقيقة الآلهية.

[3]– مثل هذه الحكايات غير متحقق من صحتها تاريخيا رغم الاعتقاد الشعبي بصحتها وهي تدور غالبا حول حياة أشخاص متميزين ومحبوبين على النطاق الشعبي وتنتمي قصص حياة وأعمال وكرامات القديسين إلى هذه الزمرة، أما الملحمة فهي تأليف شعري عالي المستوى يقص سلسلة من أعمال وإنجازات أحد الأبطال، وتجري معالجتها بإطالة وتفصيل على شكل نص.

خاص للخواص. كما أن ابتعاد الزمن وتشوه عقائده وعاداته وتردي الأخلاق جعل منها نقيصة في الوقت التي كانت في الزمن السابق القديم رمزا للعقيدة الصحيحة ورقي وحضارة وعلم.

وبهذا نشأت الأسطورة عن المعتقد الديني وتكون امتدادا طبيعي له فهي تعمل على توضيحه وإغنائه وتثبيته في صيغة تساعد على حفظه وعلى تداوله بين الأجيال، كما أنها تزوده بذلك الجانب الخيالي الذي يربطهم بالعواطف والانفعالات الإنسانية؛ ويبدو أن المهمة الأساسية للأسطورة هي تزويد فكرة الألوهة بألوان وظلال حية خصوصا في المعتقدات التي تقوم على تعدد الآلهة، فالأساطير هي التي ترسم صور الآلهة وتعطيها أسماءها وتكتب لها سيرتها الذاتية وتاريخ حياتها وتحدد لها صلاحيتها وعلاقات بعضها ببعض[1].

وتصور الأسطورة غالبا ضمن قصة أو حكاية رمزية بسيطة ومأثرة تلخص عددا لا ينتهي من المواقف المتشابهة، فالأسطورة إذن تترجم قواعد السلوك عند الجماعة الاجتماعية أو الدينية بعينها، فهي تنتمي بالتالي إلى العنصر المقدس الذي تكونت حوله هذه الجماعة والأسطورة لا مؤلف لها ويتعين أن يكون أصلها غامض [2].

وبهذا كانت الأسطورة بنية مركبة من فكر وتاريخ وفن وحضارة[3]، وبالتالي فإن لها القدرة على الامتداد ماضيا وحاضرا ومستقبلا، كما تعد من الظواهر الإنسانية والاجتماعية والثقافية المعقدة،

---

[1]- فراس السواح، المرجع السابق. ص: 59.

[2]- حسن الباش، الميثولوجيا الكنعانية والاغتصاب التوراتي، دمشق: دار الجليل، ط:1، 1988م. ص:50.

[3]- تتكون الأسطورة من مجموعة من التخيلات والتصورات حول الآلهة والدنيا وعن علاقات الفرد بالمجتمع والطبيعة وما وراء الطبيعة عبر عنها الإنسان بلغته الخاصة، وأمدها خيال قوي وذهب يجمع بأصحابه وينتقل بهم من القريب إلى البعيد ومن الواقع إلى ما لا حقيقة له. ينظر: هنري برجسون، منبعا الاخلاق والدين، تر: سامي الدروبي، د ب ن: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، د ط، 1971. ص: 85.

فالأسطورة الدينية معتقد[1]، والمعتقد يستدعي طقوسا، والطقوس ليست عبثية، إن لها معنى فالأسطورة الدينية معتقد ترتبط ارتباطا دلاليا، فهي ذات وظيفة اجتماعية، كما أن لها عائدا فرديا[2]. وبهذا نستنتج أن الأسطورة ترتبط ارتباطا وثيقا بالطقوس التي تعد أقوى أشكال التعبير عن الخبرة الدينية، لدى الفرد والجماعة على حد سواء.

هذا عن نشأة الأسطورة عموما، أما فيما يخص تلك التي اتشرت بين مسلمي اسبانيا، فقد ضمت ذلك النتاج الأدبي الذي ضم مجموعة من القصص والحكايات – عدا بعض الاستثناءات – لها علاقة بالعالم الإسلامي[3]؛ والذي يجلب الانتباه في هذا النتاج هو فترتها الزمنية والتي ترجع إلى بداية الإسلام. أما الأبطال فمنهم المسلمون وغير المسلمين. وأما الهدف الأساس لهذه المجابهات، هو بقاء الإسلام وانتشاره، ففي هذه المعارك ينتصر دوما الإسلام والمسلم؛ والغاية من تعميم وانتشار مثل هذه القصص ضمن المجموعة المسلمة، كان يقصد منه البحث عن الإيمان بالإسلام، نشأته وقوته.

وعلى العموم فإن مجموع الأساطير التي أنتجت، حررت بطريقة تجعلها سهلة التذكير بها، حتى تشكل جزءا من التقاليد الشفهية، وبالإضافة إلى ذلك، فإنها شكلت نوعا أدبيا شعبيا في مرحلته الابتدائية. ويمكن تصنيف هذا القسم من الإنتاج الألخميادو إلى ثلاث أصناف: قسم خاص بقصص الأنبياء والرسل، وقسم آخر اهتم بالتأريخ للأحداث التاريخية على فترات متباينة من تاريخ البشرية على وجه العموم، والإسلامية على وجه الخصوص؛ في حين نجد الصنف الثالث من هذا النوع تناول الأساطير وما تحملها من أسلوب التشويق والمبالغة.

---

[1] - يوسف شلحت، المصدر السابق. ص: 86

[2] – فراس السواح، المرجع السابق. ص: 60.

[3] – قام الباحث قالماس دوفوانتس بدراسة ومونوغرافية لهذا الجانب من الأدب الألخميادو.

وقد تميزت الأسطورة بتناقلها، وانتشارها على نطاق واسع، وتأثيرها العميق نتيجة ما تنطوي عليه من حكمة، وفلسفة وإثارة وإلهام. فالأسطورة وهي ظاهرة من أهم ظواهر الثقافة الإنسانية لها أجناس أدبية مشابهة لها من حيث الشكل مثل الخرافة والحكاية البطولية

## المبحث الثاني: أهمية الأسطورة ودورها في بناء شخصية الفرد المسلم في اسبانيا

تقتضي طبيعة الإنسان أن يستمتع بالقصص والخرافات، وأن يقاوم كل محاولات قيام الحقيقة بتعطيل مسيرة قصة مثيرة تروى لهم. فالقصص الشيقة والأساطير المثيرة تقود خيال المستمع والقارئ عادة إلى السمو بعيدا والتحليق في عالم الخيال، وإلى إراحة العقل من عناء التفكير ومشقة العناية بالقضايا الحياتية اليومية، وذلك أثناء القيام بسماع الأساطير وقراءة الحكايات المشوقة.

في المقابل، تفرض الحقيقة على الإنسان أن يتعامل مع معطياتها بجدية، وتقوده عادة إلى الدخول في تفاصيل كثيرا ما تكون مملة، وأحيانا معقدة ومنهكة للجسد والعقل معا. وهذا يعني أن السماح للحقيقة بتعطيل عملية سرد قصة مثيرة، أو كشف ما قد تحتوي عليه الأساطير من مغالطات يؤدي إلى سلب القصة ما لها من إثارة ومتعة.

لذلك لم تستطع الحقيقة خلال تاريخها الطويل أن تتغلب على الحكاية الشيقة والأسطورة المثيرة، مما جعل الكثير من الخرافات والأساطير تستمر في جذب الناس إليها وتجميعهم من حولها، وإلهاب حماس الجماهير التي تستمع لها وتستمتع بها. وهذا بدوره ساهم في تخليد، وأحيانا تقديس بعض الخرافات، وتسبب في دفع المؤمنين بتلك الخرافات إلى مقاومة كل محاولات التشكيك في مصداقيتها من خلال التعرف على الحقيقة باستخدام ما لديهم من عقول.

**1)- الأساطير حول سيرة الأنبياء والرسل**: احتوت الأسطورة الدينية على مضمون محدد، وهذا الأخير لعب دورا محددا، ارتكز على تقوية الإيمان وبناء القناعات القيمية لدى الفرد لكي يشارك باقي أفراد المجتمع، أو يعمل على توجيه سلوكه في اتجاه معين ليتكيف مع الجماعة، النمط الشرعية والثبات، ومن هذا المنطلق فإنها تعد إحدى وسائل الضبط الاجتماعي من حيث توصيل الامتثال للأنماط السلوكية المقبولة لأفراد المجتمع.

فقد لعب الجانب الأسطوري أهم الأدوار لإخراجها من حيز الواقعية إلى ما يشبه الواقعية المثالية[1]، وكل ذلك مبعثه الإلحاح الدائم من أجل إيجاد معادل موضوعي للبقاء والاستماتة في وجه تحديات الطغيان الصليبي الذي يحاول بشتى الأساليب إبادة كينونة كل ما هو غير نصراني كاثوليكي.

ومن بين النماذج التي تطرقت إلى عرض جوانب من حياة الرسل والأنبياء نذكر كتاب[2] ألفه أحد مسلمي اسبانيا[3]، تعرض من خلاله إلى سرد معجزات المسيح عيسى عليه السلام، مع عرض لشخصيات أخرى في سياق الحديث عنه؛ كما بين في السياق نفسه المعجزات التي آلت إلى محمد صلى الله عليه وسلم[4].

وتتصل بهذا المخطوط، من حيث نوعه والهدف من وضعه واستخدامه، كتب عديدة أخرى اهتم فيها مسلمو اسبانيا بتناول قصص الأنبياء والمرسلين التي ترددت في أسفار العهد القديم وفي

---

[1]- حمادي عبد الله، المرجع السابق. ص: 109.

[2]- مخطوط باللغة الألخميادية موجود تحت رقم: 1650 بالخزانة الوطنية بمدريد.

[3]- صاحب المخطوط مجهول، وهذه الظاهرة تكررت غالبا . عدم ذكر اسم صاحب المخطوط . تخوفا من ملاحقة عمال محاكم التحقيق، التي كانت تلاحق أي واحد لمجرد الشك فيه.

[4]- دي إيبلزا ميكال، مخطوط قصصي نموذجي عربي، ألخميادي للقضايا اللغوية والأدبية والعقائدية في الترجمات الموريسيكية، (المرجع السابق). ص: 47 .

الأناجيل، لإعادة صياغتها في صيغ موافقة لتصور الإسلام ولتصوراتهم لهؤلاء الأنبياء والمرسلين، ولمجريات حياتهم بين قومهم، ولمعجزاتهم وعلاقاتهم بالوحي.

ضمن هذا السياق يمكننا عرض نموذجا آخر من الإنتاج الألخميادو، الذي حاول صاحبه من خلاله عرض قصة سيدنا يوسف عليه السلام؛ من خلالها تم سرد حكاية سيدنا يوسف عليه السلام مع زوجة عزيز مصر، المسماة عندهم بـ "ربيعة"، بتفاصيل شيقة عن جميع ما دار بينهما، وعن ابتلائه بحبها ومقاومته لدعوتها. ولقد اتخذوا من سورة يوسف في القرآن الكريم، ومن تفسيراتها عند الطبري والبيضاوي نواة صلبة لتشكيل هذه القصة. كما أنهم قد أحالوا للغرض نفسه على قصص الأنبياء للثعلبي وعلى رواية كعب الأحبار[1].

نذكر كذلك في السياق نفسه قصة تضحية إسماعيل عليه السلام، التي تضمنت حكاية ابتلاء نبي الله إبراهيم عليه السلام في ولده واستجابته لربه، المتمثلة في همه بذبحه، وطاعة هذا الولد لوالده ولإلهه بقبوله هذا الأمر. وبطبيعة الحال، فالذبيح في هذه القصة، ليس هو إسحاق عليه السلام كما ورد في العهد القديم، وكما هو متداول في الذاكرة الدينية اليهودية والنصرانية، بل إسماعيل عليه السلام، كما هو شائع في الذاكرة الشعبية للمسلمين[2].

والواقع أن هذا الضرب من القصص كثير عند مسلمي اسبانيا. كما أنه قد طال بالتناول أشهر أنبياء بني إسرائيل؛ بحيث تتوافر فيه حكايات عن موسى، وعن داوود، وعن سليمان وعن آخرين عليهم جميعا صلوات ربي وسلامه.

---

[1]- فريدة بنعزوز، النثر الموريسكي، WWW . Google. Fr. ص: 6.

[2]- أنجيل جنثالث بالنثيا، المرجع نفسه. ص:513.

كما يمكن القول أن الأسطورة الدينية تعد ظاهرة اجتماعية لعدم خلو أي نظام اجتماعي لمجتمع ما منها، فهي تابعة للدين، بل تمثل الجانب المقدس في منظومة الدين الذي يحمل مصداقيته في ذاته دون الحاجة لبرهان عن ذلك. أما علتها فتبرز في الحاجة الملحة لها، فهي ضرورية لقيام الجماعة بصورة عامة؛ وكذلك تكون الأسطورة الدينية وسيلة في بعض وجودها واستعمالها في تحقيق غايات كتقديس الحاكم لتكريس الطاعة وضبط النظام.

فالأسطورة هي قصة غير متحقق من صحتها تاريخيا رغم الاعتقاد الشعبي بصحتها وهي تدور غالبا حول حياة أشخاص متميزين ومحبوبين على النطاق الشعبي وتنتمي قصص حياة وأعمال وكرامات القديسين إلى هذه الزمرة، أما الملحمة فهي تأليف شعري عالي المستوى يقص سلسلة من أعمال وإنجازات أحد الأبطال، وتجري معالجتها بإطالة وتفصيل على شكل نص[1].

كذلك الحكاية الشعبية لا تحمل طابع القداسة والاعتقاد ولا تتطرق -كما هو شأن الأسطورة-إلى الموضوعات الكبرى مثل الخلق ولا قضايا الإنسان المصيرية، مثل الحياة والموت بل تقف عند حدود الحياة اليومية والأمور الدنيوية، فموضوعاتها تكاد تقتصر على مسائل العلاقات الاجتماعية والأسرية منها خاصة.

والحكاية الشعبية تتصف بالواقعية إلى أبعد الحدود وتركز على أدق تفاصيل وهموم الحياة اليومية لكن هذا لا يعني أن العناصر الخيالية معدومة تماما في الحكاية الشعبية فهذه العناصر قد تستخدم في الإشارة والتشويق عندما يقابل البطل غولا أو جنيا، فيستخدم حيله وذكاءه للإيقاع به[2]

[1]- فراس السواح، المرجع السابق. ص: 16.

[2]- سليمان مظهر، المرجع السابق. ص:74

ولا تخلو الحكاية الشعبية من أهداف، فبالإضافة للتسلية والإمتاع فهي تحمل في جوهرها رسالة تعليمية تأديبية أخلاقية مثل جزاء الخيانة، فضل الصدق والتواضع والإيثار ونبذ الكذب.

**2)– الأساطير حول التاريخ الإسلامي**: اهتم هذا الصنف بالتأريخ للأحداث التاريخية على فترات متباينة، ذلك أن لهذا الصنف مميزاته وخصائصه. فقد اتسمت بعض المخطوطات الألخميادية بالطابع الأدبي لهذه النصوص، ألا وهو الطابع القصصي حتى تكف عن تسميتها بالخرافات، وهي تسمية قد تضفي على محتواها حكما دينيا يجعلنا نقف موقف أولئك الذين ينظرون إلى الروايات الإسلامية بالمنظار النصراني، والحال أنه لا يمكننا أبدا اعتبار نصوص الكتب السماوية اليهودية والنصرانية خرافات؛ ويجدر بنا هنا انطلاقا من مبدأ تنسيق المفاهيم الدينية ومن موضوعية علم التاريخ أن يكون تقسيمها من حيث الشكل والمضمون.

ولرسم صورة واضحة حول هذا النوع من المخطوطات، سوف نعرض نموذجا عنها تمثل في مخطوط[1] غلب عليه الطابع القصصي[2] أي أن نصوصه قابلة للإلقاء، الشيء الذي يدل على سلاسة أسلوبها وقيمتها الأديبة هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى تستند جميع نصوصه تقريبا إلى شخصيات وردت في القرآن الكريم، وفي التدوين الأول للتاريخ الإسلامي؛ ومثل هذه القصص كانت لها علاقة مباشرة بكل ماله اتصال بالنصوص الإسلامية، كالقرآن الكريم والحديث الشريف،

[1]– مخطوط رقم: 1668 عثر عليه في مكتبة الاسكوريال بإسبانيا.

[2]– يعد هذا الأسلوب أسلوبا مهما للتوضيح وإثارة دافعية الدارسين ، وعاملا بارزا في نشر الاتجاهات وتعديل السلوك ، والدعوة إلى التحلي بمكارم الأخلاق وبخاصة لدى أطفال المرحلة الابتدائية ، ذلك أن الأطفال يحبون الاستماع إلى القصص دون ملل ، لأنها تنفق مع ما لديهم من خيال واسع، كما أنها تساعد على تثبيت العقيدة في نفوسهم، ومعايشة القيم والأخلاق، وتكامل المعرفة.

وكتب الفقهاء في الشريعة الإسلامية، وبالتالي فلا يمكن اعتبار هذه النصوص تدوينا عربيا أو ألخميادیو لتقاليد شفاهية.[1]

وهذا المخطوط مزيج بين اللغة العربية والألخميادية فقد ورد جل المخطوط بالعربية[2] في تراكيب مستقيمة، ومفردات سهلة نسبيا، إذا ما استثنينا بعض الألفاظ غير المفهومة، كما تخلله بعض المقاطع الشعبية. وفيما يخص بعض النصوص الألخميادية فكانت مجرد ملاحظات هامشية جاءت لتفسير بعض الكلمات العربية أو لتعطي ما يقابلها في الاسبانية من ذلك: "**حنا**" و"**نستسهموا**".

وهكذا يصبح التطور فارضا للسلطة التي تتمتع بالقدرة على فرض ما تريد بمالها من قوة وليس بما يكمن فيها من رغبة مجردة في الحفاظ على النظام وتمتعهم بالسلطة الإكراهية لتأمين النظام، فقد مثلت الأسطورة ذلك التعبير الفكري عن حقيقة الواقع السياسي، أي أنها عملت على إبراز التفكير والفكر السياسي المعالج للأوضاع القائمة.

فوق كل ذلك فإنها لعبت دورا مهما في توضيح المعتقد الديني، فهي كانت دوما جزءا من الدين، فقد ارتبطت الأسطورة الدينية ارتباطا وثيقا بالطقوس، ودخلت في صلب العبادات التي يمارسها الفرد والجماعة، ولهذا الاعتبار فقد ساعدت في محافظة مسلمي اسبانيا بمقومات شخصيتهم الإسلامية، التي كانت دائما في مواجهة الحرب الشرسة التي أعلنتها ضدها النصرانية في اسبانيا.

3)- **الأساطير الخيالية والطقوسية**: في حين نجد الصنف الثالث من هذا النوع تناول

---

[1]- دي إيبلزا ميكال، المرجع السابق. ص : 43.

[2]- إن العودة إلى الكتابة العربية راجع إلى أن المسلمين الذين ألفوا هذه المخطوطات حصل ذلك في لمنفى أي خارج اسبانيا، وبالتالي فإنه لم يعد من الضروري اللجوء إلى السرية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن قداسة الحرف العربي تعود إلى أنه لغة القرآن، ولهذا فقد حافظ الكثير من مسلمي اسبانيا على استعمال اللغة العربية.

الأساطير وما تحملها من أسلوب التشويق والمبالغة، مع التنويه بأنها كانت في النطاق نفسه تحث على مكارم الأخلاق، والاستعانة بالصبر على البلاء والمصيبة، التي كانوا من خلال هذه القصص يحاولون رسم معالم محنتهم، وأنه لا بد من فرج الله الذي في رأيهم كان قريب.

***– الأساطير الخيالية:** من بين النماذج التي خلفها الإنتاج الأخميادو بهذا الصدد نذكر حكاية الفتاة "كركيونة" التي وردت في بعض المخطوطات الألخميادية. وتروي هذه القصة حكاية فتاة بريئة حكم عليها والدها بقطع يديها ونفيها إلى غابة بعيدة، عقابا لها عن رفضها لزنى المحارم الذي دعاها إليه. لكن رعاية الله لها حالت دون موتها في هذه الغابة. فلقد أرسل الله إليها ظبية بيضاء لتطعمها بفمها، وتشفي جروحها بلسانها. وستخرج من هذا النفي عندما سيقع أمير في حبها ليتزوجها ويخلف منها ولدا. غير أنه سرعان ما ستتهمها أم زوجها في عرضها، لتبعدها صحبة رضيعها إلى المنفى نفسه. ولن تكف في هذه الغابة عن التضرع إلى الله عز وجل، ليظهر براءتها[1].

أيضا في السياق نفسه وردت قصص أخرى في الإنتاج الذي خلفه مسلمو اسبانيا، وللهدف نفسه؛ بهذا الصدد نذكر حكاية تميم الداري، وهي قصة مترجمة عن أصل عربي تحكي قصة اختطاف الصحابي من باب داره والتحليق به في السماوات على ظهر دابة تطير، ليرحل بعد ذلك إلى ممالك الجن والمردة، حيث يصف مشاهداته ومعاناته بين الطيبين والأشرار منهم، قبل عودته إلى المكان نفسه الذي اختطف منه[2].

وبهذا كانت الأسطورة بمثابة القوة الدافعة للحضارة الإنسانية، وذلك أنها الحاوية الناقلة

---

[1]– فريدة بنعزوز، المرجع السابق. ص:5.

[2]–المرجع نفسه. ص:6.

للتقاليد والعادات، فإذا ما اتضح عدم رضا أفراد المجتمع عن أحد الأنماط الاجتماعية سواء كان هذا النمط ديني أو دنيوي، فإن الأساطير تعمل على إعطاء هذا النمط الشرعية والثبات، ومن هذا المنطلق فإنها تعد إحدى وسائل الضبط الاجتماعي من حيث توصيل الامتثال للأنماط السلوكية المقبولة لأفراد المجتمع.

هكذا يصبح التطور فارضا للسلطة التي تتمتع بالقدرة على فرض ما تريد بمالها من قوة وليس بما يكمن فيها من رغبة مجردة في الحفاظ على النظام وتمتعهم بالسلطة الإكراهية لتأمين النظام، فقد مثلت الأسطورة ذلك التعبير الفكري عن حقيقة الواقع السياسي، أي أنها عملت على إبراز التفكير والفكر السياسي المعالج للأوضاع القائمة.

وفوق كل ذلك فإنها لعبت دورا مهما في توضيح المعتقد الديني، فهي كانت دوما جزءا من الدين، فقد ارتبطت الأسطورة الدينية ارتباطا وثيقا بالطقوس، ودخلت في صلب العبادات التي يمارسها الفرد والجماعة، ولهذا الاعتبار فقد ساعدت في محافظة مسلمي اسبانيا بمقومات شخصيتهم الإسلامية، التي كانت دائما في مواجهة الحرب الشرسة التي أعلنتها ضدها النصرانية في اسبانيا.

*– **الأساطير الطقوسية**: تمثل الأسطورة الطقوسية ذلك الجانب الكلامي لطقوس الأفعال التي من شأنها أن تحفظ للمجتمع رخاءه. وما يلاحظ أن مسلمي اسبانيا احتفظوا بكثير من هذه الأساطير، ايمانا منهم أنها تشكل جزءا مهما من تراثهم الثقافي، التي إن تخلوا عنها سيكون سببا في انسلاخهم من شخصيتهم العربية الإسلامية، حتى وإن كانت هذه الأساطير في كثير من المناسبات إلا لم نقل في معظمها لا تبث بصلة للإسلام.

ومن بين ما خلفه مسلمو اسبانيا في البعض من نتاجهم التراثي، أو تناقله الإسبان ودونوه في مؤلفاتهم نذكر البعض من الكلام الذي كان نص أغنية كانت تؤدى أثناء القيام برقصة في سياق القيام بالطقوس الاحتفالية نذكر[1]:

**Li,li,li,ha,ha**
**Guayna ,guayna ,niha,niha**
**No tener de chrresetano intento**
**Ni pascamox por penxamento**
**Que hazeldo por complimento**
**E Mahome al pecho esta**

من خلال هذا النموذج من الأسطورة يمكننا القول بأن كل المعتقدات، وما يدور حولها من أساطير تضعنا في موقف ذهني من القدسي فإن الطقس يضعنا في موقف عملي منه، في حالة فعل من شأنها إحداث رابطة واتصال. فمن خلال أداء حركات معينة ورقصات إيقاعية وتكرار صيغ كلامية ذات أثر خاص على النفوس يمكن للأفراد المستغرقين في الأداء الطقسي الجمعي الانتقال إلى مستويات غير اعتيادية للوعي، يشعرون معها بتلاشي الحدود بين العوالم الدنيوية والعوالم القدسية.

وختاما لهذا الفصل وما تم عرضه من معطيات تاريخية حول الأسطورة، أنواعها وتجلياتها يمكننا القول بأن عنصر الدين قد لعب في أسسه النفسية العميقة اختبار للقدسي من خلال حالة انفعالية سابقة على أي تصور عقلاني، وبأن هذه التجربة الدينية الداخلية ليست وقفا على شخص دون آخر، ولا على فئة دون أخرى، بل يتعرض لها الجميع، وإن حصل ذلك بدرجات متفاوتة من حيث الشدة والوضوح، كما يتعاملون معها بدرجات متفاوتة أيضا من حيث القبول والاعتراف.

[1]-Rodrigo de Zayas, OP, Cit, P:204.

وعندما تصل الخبرة الدينية المباشرة هذه إلى حالة من الشدة لدى الإنسان فإنها تستدعي القيام بسلوك ما، وذلك من أجل إعادة التوازن إلى النفس التي غيرت التجربة من حالتها الاعتيادية. هذا السلوك ندعوه بالطقس. فالطقس هو مجموعة من الإجراءات والحركات التي تأتي استجابة للتجربة الدينية الداخلية، وتهدف إلى عقد صلة مع العوالم القدسية.

كما أن المعتقدات الدينية التي تلعب الأسطورة دورا أساسيا في تثبيتها وترسيخها تبقى، في النتيجة، صورا وأفكارا على هذه الدرجة من الوضوح أو تلك. ولكن هذه الصور والأفكار لا تصنع دينا بالغا ما بلغ من وضوحها واتساقها، إلا عندما تدفع إلى سلوك وإلى فعل؛ فيتم بذلك الانتقال من حالة التأمل إلى الحركة، ومن التفكير في العوالم القدسية إلى اتخاذ مواقف عملية منها؛ فنتقرب إليها، أو نسترضيها، أو نسخر قواها لصالحنا.

وحيث الأساطير المهمة ذات القدرة على إلهاب حماس الجماهير وتجميعهم من حولها هي من إفراز الحضارات الغابرة والشعوب القديمة التي تشابهت ثقافاتها كثيرا، فإن شيوع تلك الأساطير بين الكثير من مسلمي اسبانيا مكنتهم من الاستحواذ على دور الحقيقة، والقيام بالتالي بجرف الحقيقة من طريقها وتهميش دورها المجتمعي، وإلغاء العقلانية من حياة العديد من الشعوب وثقافاتهم الجمعية.

ومع تقادم الزمن والسنين، وعجز الحقيقة عن تعطيل سحر الحكاية وإثارة الأسطورة، أصبحت بعض الإشاعات حكايات، وغدت بعض الحكايات مع تكرارها وحماس مسلمي اسبانيا لها أساطير، وغدت بعض الأساطير مع ولعهم بها وقيام المنتفعين باستغلالها عقائد ذات قدسية لا تمس، خاصة بعد قيام البعض بالترويج لها واستخدامها أداة للسيطرة على العامة والهيمنة عليهم والإثراء على

حسابهم.

ولقد تبع ذلك اتجاه مسلمي اسبانيا إلى الإيمان بالعقدية المؤسسة أصلا على الأسطورة، مما جعل من الصعب جدا نقدها بشكل يكشف زيفها ويقنعهم بالتخلي عنها. وفي ضوء هذه التطورات، لم يعد من المقبول تذكيرهم بالحقيقة، لأنها أصبحت تجسد النقيض المرهق عقليا للحكاية الظريفة والخرافة المثيرة. وفي الواقع، أصبحت بعض العقائد المؤسسة على الأسطـــورة المرتبطـة بالغيب بمثابة الحقيقة التي تسمو على كل الحقائق، وغدت الحقيقة المتناقضة معها والمؤسسة على العقل والعقلانية والمعرفة العلمية بمثابة أكذوبة تحاول التشكيك في إيمانهم ومعتقداتهم الدينية، وتقويض مكانة العقيدة عندهم.

# الباب الخامس:

# الجهاد المسلح في اسبانيا (904_ 1020هـ/1499_ 1611م)

## الفصل الأول: حرب الاعلام ودورها في إنجاح حركة الجهاد الإسلامي في اسبانيا

## الفصل الثاني: العمل المسلح دوافعه وأهذافه (904_ 906هـ/ 1499_ 1501م)

## الفصل الثالث: المقاومة الإسلامية في الفترة الممتدة من سنة 972هـ/1567م وإلى غاية سنة 975هـ/ 1570م

# الفصل الأول: حرب الاعلام ودورها في إنجاح حركة الجهاد الإسلامي في اسبانيا

## المبحث الأول: وسائل الاعلام ودورها في البث الرعب بين الاسبان

1)_ ظاهرة النبوءات ودورها في تحفيز الجماعة المسلمة على الجهاد

2)_ شعر الاستغاثة وسيلة اتصال ودعاية

## المبحث الثاني: التعريف بالقضية إسلاميا وعربيا

1)_ الاتصالات مع الخلافة العثمانية بشكل مباشر

2)_ تدخل الخلافة العثمانية على مستوى ايالات المغرب لتقديم الدعم لحركة الجهاد الإسلامي في اسبانيا

3)_ اتصالات السلطات الاسبانية مع الجانب الاوروبي لمؤازة مسلمي اسبانيا

4)_ تواصل مسلمي اسبانيا مع المشرق الاسلامي

من خلال هذه الجزئية من البحث سنركز على أهمية الحرب الإعلامية بصفتها مرتكزا أساسيا من مرتكزات الجهد الحربي والمعنوي للمقاومة الإسلامية في اسبانيا على الرغم من كل تلك المعاناة جراء الحصار والتشويه والتنكيل الذي تتالت على مسلمي اسبانيا؛ فالمقاومة الإعلامية عانت من نفس ما كان يعانيه الجهد العسكري من حصار وتعتيم ومحاربة.

لذلك ارتأينا أن نشير إلى قوة الجهد الإعلامي المقاوم وأسس العمل والتعامل مع الأحداث وفق متطلبات الحالة العامة للصراع آخذي بعين الاعتبار مقدار الجهد المعادي وإمكانياته المادية وإعلامية، كما نأخذ بعين الاعتبار أيضا أن محاولة مثل هذه هي الأولى من نوعها في حقل ما تعارف عليه عند الباحثين "القضية الموريسكية".

فالحرب الإعلامية هي فن الانتصار بدون حرب؛ وهي في الأغلب تسعى للسيطرة على عقل وقلب الخصم بحيث تصنع ضبابية في الفهم والتصور. إنها تقوم علي صنع هالة أمام أعين الخصم، يعجز معها عن تقدير قوة خصمه بما يمكن للطرف المستهدف السيطرة العقلية والروحية على المستهدف.

وللحرب الإعلامية وسائل من يمتلكها ينجح بقدر ما يوليه لهذه الحرب من أهمية، وللحق فقد استطاعت السلطات الاسبانية السيطرة على إفهام الكثير من الدول الأوروبية وحتى الإسلامية بفضل الجهد الجبار الذي مارسته في حربهم الإعلامية، على أن ما يشاع حول الضغوطات الممارسة على مسلمي اسبانيا ما هي إلا أكاذيب، وما ذاك إلا لخروج المسلمون من حصنهم الذي يقيهم سهام

الرامين والدرع الذي يحميهم من طعنات الطاعنين، ليلجوا في مستنقع الجاهلية والإعلام الكافر بمحض إرادتهم، فيصدقوا الكاذب ويؤمنوا الخائن.

فالحرب الإعلامية في مجملها تقوم على الكذب والتضليل والخداع والتمويه، ولكنها في النظرية الإسلامية جاءت كأسمى ما تكون عليه الأطروحات، وقد اعتمدت على الحقائق والوقائع المحسوسة والملموسة، وإن داخلها بعض المفاهيم كالحرب خدعة، ولكنها في أضيق الحدود وللوصول إلى الحق، وهي جزء من الحرب النفسية والتعبوية ضد أعدائهم.

إذن اللجوء إلى الحرب الإعلامية وفق مفهومها الإسلامي ووفق ما تتطلبه ساحة المعركة تطلبت من زعامات الحركة الجهادية في اسبانيا إلى استخدم أساليب الحرب النفسية والإعلامية ضد أعدائهم إلى درجه استطاعوا بها أن يسبقوهم بخطوات كبيرة وسهل عيلهم حسم الكثير من العوائق. وسنورد بعضا من هذه الحروب الإعلامية التي شنها مسلمو اسبانيا؛ ولكن قبلها سنأتي إلى استخدام الحركة الجهادية إلى الشعراء في شن مثل هذه الحروب وخصوصا في ظل عدم توفر صيغ إعلامية أخرى أنجع من الشعر الذي كان لغة العرب بصفة عامة وفي الأندلس على الخصوص ومصدر من مصادر قوتها في ذلك العصر.

وبهذا كان للإعلام دور مهم في تدعيم المقاومة المسلحة في اسبانيا التي أعطت له مكانا كبيرا في عملها، فالإعلام الناجع في التعريف بالمقاومة هو الإعلام الصادق، ولذلك كان للمصداقية التي انتهجها زعماء الحركة الجهادية في عملها الإعلامي سلاحا أساسيا لها. وقد اتخذ في ذلك وسائل وسبلا في التعريف بقضيتهم على مستوى العالم الإسلامي بصورة خاصة.

## – المبحث الأول:وسائل الاعلام ودورها في بث الرعب بين النصارى الإسبان

لم يكن هناك إعلام بمعنى الكلمة، ولكن ما كان يدور في الساحة الداخلية والخارجية لا يمكننا وصفه إلا بالعمل الإعلامي، الذي كان أساسيا في إبلاغ الرأي العام الدولي بحقيقة الوضع الذي كان يعيشه مسلمو اسبانيا، وكذا أداة لتعبئة الرأي العام الداخلي وتوجيهه في التقاط المعلومات الحقيقية التي هو في حاجة ماسة إليها قصد تتبع مسار المحنة. في هذا السياق قدمت استراتيجية نشر الإشاعات خير خدمة في مجال التوعية والتعبئة، فكانت بذلك أداة فعالة لغرس روح التضحية والنضال وتقوية الإيمان بالنصر ورفع معنويات مسلمي اسبانيا وحشدها للعمل المسلح؛ كما كانت خير وسيلة لتمرير الدور الدبلوماسي لزعماء المقاومة الإسلامية وإبراز نشاطهم السياسي والعسكري في الخارج.

**1)– ظاهرة النبوءات وتأثيرها على تحفيز الجماعة المسلمة على الجهاد:** تعد ظاهرة انتشار النبوءات بين مسلمي اسبانيا عنصرا أساسيا للواقع الديني، بما أنها تفترض أن العمل الإنساني يقع في "حضرة الله"؛ يعلم كل شيء وهو خالد، بينما المخلوق البشري في طرف زمني معين؛ ويمكن لله أن يكشف تدابير عنايته على مجرى الأحداث وأن يكشف مصير الإنسانية إلى بعض المخلوقات التي يختارها، ومن بين هذه التكهنات، ما ينتمي للمعتقدات الصحيحة.

ولقد تعاقبت في اسبانيا خلال القرن السادس عشر وفي بداية القرن السابع عشر تكهنات عديدة، وتكهنات معاكسة لها حول تدمير اسبانيا كما يراها مسلمو اسبانيا وتدمير الإسلام كما يفكر فيها النصارى. فالنصوص هي حينئذ صادرة من جانبين مضادين، لنشير بالإضافة إلى ذلك

ومن جهة نظر منهجية، إلى أهمية المصادر التي تملكها، وتنحصر التكهنات في النصوص التي كتبها مسلمو اسبانيا أو على الأقل التي ترجموها إلى اللغة العربية، من جهة، وفي الشهادات الإضافية الصادرة عن النصارى التي نجدها هي الأخرى، إما في قضايا محاكم التحقيق، أو في الروايات الواردة عن مدوني أخبار الطرد.[1]

تتجلى هوية المسلم من خلال ظاهرة النبوءات في خطاب متأصل بصفة جذرية في عصره، وأبعد ما يكون عن المجانبة. فليس هذا الشخص مسلما كجميع الآخرين، بل هو شخص اعتنق النصرانية بصفة رسمية ويشارك فيها " أحب أم كره" في حياة المجتمع النصراني، ويبني شخصيته في ظروف تطغى عليها التنازعات والتناقضات.

وقد عكست هذه النبوءات حقيقة تاريخية مضبوطة، هي أنها تعبر عن مجتمع متنازع يعيش في وضعية متأزمة، وتتجلى الظاهرة عند مسلمي اسبانيا خصوصا، وفي المجتمعات الأخرى عموما مختلفة تماما، في وقت يحدث فيه ارتجاج مستديم في العقول، وتغلب فيه اللاعقلانية على التفكير المنطقي، وليس من باب الصدفة تكاثر هذه النصوص في أراغون وبلنسية وغرناطة أي في المناطق التي كان فيها الإسلام أشد تأثرا وفي الفترات التي بلغ فيها توتر العلاقات بين المجموعتين حده الأقصى، خاصة زمن الحركات المسلحة، وزمن الطرد.

فتعبر هذه النصوص عن قلق كبير تجاه القدر المشترك؛ وهكذا يصير التكهن حركية تثير الطاقات؛ وأبعد من الانتظار الأخروي، يعبر مسلمو اسبانيا من خلال نصوصه عن النكبة، وأملهم

[1]- نذكر منهم المؤرخ بليدة « Blide » وقواد الاحارا إي كزافيي (Gaud dlajara y Xavier) وأزناركادونا (Azar Cadonna) .

في الأخذ بالثأر بتدخل إلهي. فنحن إذا أمام شخصية مسلمة تكونت عبر السنين اتجاه النصارى وفي حضرتهم. وهذه البطاقة الوصفية لمسلمي اسبانيا التي نحاول رسمها، تعكس فقط تعاقب أجيال أجدادهم المسلمين.

والحقيقة أن كل واحد منهم عاش في نطاق فرديته وحسب أسلوبه هذا التواجد الفعلي مع المجموعة النصرانية، وبذلك نحاول بكل بساطة إثبات تلك الاتجاهات الكبرى لهذه الشخصية مع تجاوز اختلاف الوضعيات والأمكنة والفترات التاريخية المعينة[1]. فلقد التجأ مسلمو اسبانيا إلى التنبؤ بالمستقبل فكانوا يدعون بأنه سوف يكون زاهرا ومليئا بالانتصارات للمجموعة الإسلامية بإسبانيا.

في السياق نفسه نشير إلى بعض النبوءات[2] التي تبشر بظهور قوة إسلامية تحرر أهل الأندلس الضائعة من يد الصليبيين الاسبان، هذه القوة تمثلت في الأتراك العثمانيين الذين سوف يكونون قوة ضاربة في وجه الغزو الصليبي[3]، كما سيتمكنون من استرجاع مناطق كثيرة، التي سوف تكون شريعة الإسلام هي المسيطرة عليها.

ومن بين النماذج التي وردت نصوصها في بعض المخطوطات الألخميادية نذكر هذه النبوءة التي جاء نصها كما يلي[4]:" ...**وأول علامة من ظهور نجم مشع في كبد السماء يعطى نورا ساطعا ويحتل الأتراك المدينة وبعدها يستولون على جزيرة رودس**". في السياق نفسه ظهرت

---

[1]- بارلت لوس لوباز، تاريخ القضاء على عالم : الأدب الألخميادو – الموريسكي، المجلة التاريخية المغربية، ع : 17،18 جانفي 1980. ص: 146.

[2]- يعتبر التطلع إلى المستقبل والتشوق إلى معرفته أمرا مفطورا في النفوس جميعا، فليس من البشر أحد إلا وهو يتطلع ويشتاق إلى معرفة ماذا سيكون له أو لأمته أو لغيره، وهذا أمر ركبه الله سبحانه وتعالى في النفوس، وهو من حكمة الله عز وجل، ولذلك نجد أن الناس تنوعت مصادرهم في هذا.

[3]- دومينغيث اورتيث برنارد فينسينت، المرجع السابق. ص: 9.

[4]- الحايك سيمون، المرجع السابق. ص : 47.

نبوءات أخرى تبشر بهذا الموضوع من بينها ما ورد نصه: "... **ويحتل سبتة والقصر الكبير وطنجة وبلاد الزنوج بجيوش جرارة من الأتراك يهبط إلى المغرب ويحتل ساكنيه، وتعود جميع أجزاء المملكة وتخضع لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتفوز الشريعة والجيل الذي يعبد الله الواحد ويملك جبل طارق الذي ملكه في الماضي ويجب أن يرجع إليهم...**" [1].

فقد شاعت مثل هذه النبوءات كوسيلة دفاعية تزرع في نفوس مسلمي اسبانيا الأمل وبالتالي تمنحهم القوة والشجاعة لرفع لواء المقاومة المسلحة ضد الاضطهاد الكنسي والحكومي، ومن النماذج التي قدمتها لنا المصادر التاريخية نذكر النبوءة التي جاء بها كستيانو[2] مفادها أنه سوف يأتي الخلاص على يد غلام لا يزيد عمره على خمسة شهور، ويصبح هذا الفتى قبل سن الثلاثين زعيما لحركة المقاومة الاسلامية في اسبانيا[3] ويخلصهم من قهر النصارى وظلمهم، في حرب ينتصرون فيها عليهم.

وهذا النوع لا يدخل في الغيب ولا في التنجيم ولا في الكهانة ولكن أيضا ليس بوحي، وإنما هو استنباط من الواقع فيتأملون أحوال الأمم؛ فيستنبطون ويستنتجون، وقد يصلون لشيء من الحق ومن الصواب بقدر ما يعطي الله تبارك وتعالى المرء منهم من فهم لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، أو فهما في تحليل الواقع – واقع هذه الأمم – وكيف تعيش وكيف تتدمر. هذا أيضا نوع من أنواع المصادر الظنية التي تقبل الخطأ و تقبل الصواب.

---

[1]– الحايك سيمون، المرجع نفسه. ص : 47.

[2]– **كستيانو**: أحد مسلمي اسبانيا الذي عاش تحت وطأة تنكيل عمال محاكم التحقيق. غادر اسبانيا متجها نحو تركيا ورجع إلى بلاده بأخبار انتصارات المسلمين على النصارى في كل مكان وانهيار ممالكهم.

[3]– الكتاني، المرجع السابق، ص: 138.

فهذه مجرد نماذج قليلة من ضمن ما ورد في مؤلفات مسلمي اسبانيا كدعاية تهدف إلى تحقيق غرضين، أولهما زرع التشويش والرعب بين الاسبان. وثانيهما تحفيز وتشجيع الجماعة المسلمة على عدم الاستسلام، ورفع لواء الجهاد، قصد استرداد الأندلس الضائعة بفضل مساعدات العثمانيين.

من خلال ما تم عرضه من معطيات مهمة نستخلص إلى أن جميع النبوءات ذات حكاية نمطية واحدة، بتنويعات وتفصيلات مختلفة من حيث الشخصيات والأبطال والرواة وتوزيع الأحداث والوقائع، ففيها جميعا نقف على غربة الإسلام والمسلمين في إسبانيا، وخضوعهم إلى أعدائهم النصارى؛ نتيجة تفريطهم في دينهم وتركهم لمقتضياته الأخلاقية والروحية.

كما نقف فيها كذلك، على تدارك الله برحمته لهؤلاء المسلمين، جزاءا لهم على رباطهم بهذه الجزيرة، وعلى ما صبروا عليه وتحملوه في تشبثهم بعلامات هويتهم. أما العنصر البنائي الثالث لجميع هذه النبوءات، فيتعلق "بنهوض ملك من الشرق التركي" سيتغلب على جميع ملوك النصارى، من قبل أن يظفر بالمملكة الإسبانية، ليحرر المسلمين من قبضة ملوكها الظالمين.

وأخيرا، فإنه إن كان مسلمو اسبانيا قد راموا بنسبة هذه النبوءات إلى سان إزيدرو والحسابات الفلكية، للبحث لها عن سند علمي، بينهم وخاصة بين النصارى الإسبان للتشويش عليهم وتخويفهم في صراعهم معهم، فإنهم قد بحثوا لها كذلك على ما يسندها دينيا وشرعيا بنسبتها إلى العباد وحتى إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم. ولا عجب في ذلك، فقد اضطروا إلى البحث عن جميع المسوغات المختلفة لتجاوز وضعيتهم، وإطلاق العنان لأحلامهم في استرداد أندلسهم كما ذكرنا ذلك آنفا.

بهذا فقد عمد زعماء المقاومة المسلحة على مدى تاريخها على نشر بعض النبوءات التي كان الهدف الرئيس منها هو تحفيز وتشجيع الجماعة المسلمة في اسبانيا على رفع لواء الجهاد ضد قوى الطغيان والظلم؛ ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد فقط بل عمل قادة المقاومة على نشر بعض الاشاعات كانت سيفا ذو حدين، فبالإضافة إلى الهدف المذكور آنفا، عملت هذه الاشاعات على بث الرعب والخوف في نفوس الاسبان منها تلك التي وقعت في شهر مارس من سنة 974هـ/1569م.

فقد انتشرت إشاعات مفادها أن زعيم المقاومة ابن أمية سيحتل غرناطة على رأس قوة من المجاهدين؛ هذا ما أرعب الاسبان، فكانت نتيجة ذلك أن هجم حرس السجن بتاريخ 974هـ/1569/03/17م على السجناء المسلمين بعدما فتحوا أبواب السجن لعامة الجيش، وأمضوا الليل جميعا قتلا في المسلمين العزل حتى أتوا على ما لا يقل عن مائة وخمسين سجينا[1]. ولم ينج من هذه المذبحة الشنيعة سوى والد محمد بن أمية أنطونيو دي بالور وأخوه فرنسيسكو[2]. ثم بعد المذبحة، قامت محاكم التحقيق بمصادرة ممتلكات كل من وقع شهيدا في المجزرة الرهيبة.

كما حاول مسلمو اسبانيا نشر بعض الاشاعات التي كان من شأنها نشر الرعب بين النصارى الاسبان، مما سوف يجعلهم حتما يفقدون تركيزهم ويشوش على تفكيرهم، في معركة منهم لكسب بعض الوقت على الأقل في انتظار وصول الدعم العسكري من الخلافة العثمانية[3]؛ ومن بين الاشاعات التي انتشرت بسرعة في اسبانيا وكان لها أثر بالغ في خلق جو من الرعب بين العائلات

---

[1]- مرمول كربخال، المصدر السابق. ص: 187.

[2]- لما علم أهل مملكة غرناطة بهذه الجريمة، ثاروا في عدة مدن، كطرش وهذرة، ضد الجيش، وقتلوا عددا من الجنود والضباط. بينما قضى جيشا دي مندوجر ودي بلش معظم شهر مارس في القتل والسلب والنهب. وكان مصير من استسلم من المجاهدين الاسترقاق. غير أن شراسة الجيش ضد المسلمين، المسالمين منهم والمحاربين. أدت بالمسلمين إلى تفضيل الموت في معركة الدفاع عن الدين والشرع على الموت دون سبب. مما اذكي روح الجهاد من جديد بين صفوفهم.

[3]- دون باسكوال بورونات، المصدر السابق. ص:130.

الاسبانية تلك التي كان مفادها أنه من كان وراء اختفاء مجموعة كبيرة من الأطفال والنساء الاسبان، هم مسلمو اسبانيا، فهؤلاء قاموا باختطافهم وحملهم إلى بلدان العدوة المغربية. وقد دقت السلطات الاسبانية ناقوس الخطر واستنزفت كل طاقاتها للتأكد من صحة هذه الاشاعات[1].

وبهذا لعبت الاشاعات دورا بارزا في تفعيل الأحداث بين الطرفين المتصارعين، إذ حاول كل طرف استخدام كل الوسائل المتاحة له لتحقيق الأهداف المسطرة، على أنه يجب الأخذ بعين الاعتبار أنه هناك فرق شاسع بين الطرف الاسباني الذي كان يقف موقف الظالم المغتصب للأرض والعرض والطرف المسلم الذي وضع في موقف الدفاع المشروع في معركة البقاء.

**2)– شعر الاستغاثة وسيلة اتصال ودعاية:** إذا كانت العاطفة والخيال هما جوهرا الصورة فإن اللغة بموسيقاها وكلماتها وصيغها وتراكيبها ودلالاتها هي الوسيلة التي تبرزهما، فالصورة الشعرية هي الشكل الفني الذي تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر في سياق بياني خاص ليعبر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية الكاملة في القصيدة، مستخدما طاقات اللغة وإمكاناتها.

فالألفاظ والعبارات مادة الشاعر الأولى التي يصوغ منها ذلك الشكل الفني، والأسلوب هو طريقة التعبير، فيجب أن يكون العرض جميلا وليس عرضا جامدا للأفكار، فالأسلوب الجميل مما يظهر قوة عاطفة الشاعر وعمق تفكيره، والعكس بالعكس فالأسلوب الرديء يعيب هذه الأشياء، والذي يحدد قيمة الألفاظ العاطفة أو الحركة التي يسبغها الشاعر عليها، فالشعر له لغته الخاصة، وليس عرضا للأفكار فقط.

[1]– محمد رزوق أحمد، التجربة الأندلسية الموريسكية، ضمن أعمال السجل العلمي للندوة الموسومة بـ: الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات. (المرجع السابق). ص : 12.

فكذلك كان يمثل شعر الاستغاثة الذي كان بمثابة صرخة أطلقها مسلمو اسبانيا للتعريف بقضيتهم، واستعطاف الرأي العام الإسلامي بضرورة تقديم العون والمساعدة الكافية لتخليصهم من ظلم وبطش السلطات الإسبانية بكل مؤسساتها. فقد احتفظت لنا بعض المصادر بنماذج من هذا الشعر الذي كان بمثابة وسيلة إعلام ودعاية في ظل متطلبات ذلك العصر.

ومن بين القصائد التي كان لها تأثير ايجابي وفعال في التعريف بقضيتهم نذكر الرسالة التي بعثها بها مسلمو اسبانيا إلى السلطان العثماني با يزيد الثاني سنة 905هـ/1501م، وقد ورد فيها ما نصه[1]:

سلام كريم دائم متجدد ... أخص به مولاي خير خليفة

سلام على مولاي ذي المجد والعلا ... ومن ألبس الكفار ثوب المذلة

سلام على من وسع الله ملكه ... وأيده بالنصر في كل وجهة

سلام على مولاي من دار ملكه ... قسنطينية أكرم بها من مدينة

سلام على من زين الله ملكه ... بجند وأتراك من أهل الرعاية

سلام عليكم شرف الله قدركم ... وزادكم ملكا على كل ملة

سلام على القاضي ومن كان مقله ... من العلماء الأكرمين الأجلة

سلام على أهل الديانة والتقى ... ومن كان ذا رأي من أهل المشورة

سلام عليكم من عبيد تخلفوا ... بأندلس بالمغرب في أرض غربة

أحاط بهم بحر من الروم زاخر ... وبحر عميق ذو ظلام ولجة

[1]- جمال يحياوي، المرجع السابق. ص ص: 250 . 254.

سلام عليكم من عبيد أصابهم مصاب عظيم يالها من مصيبة

سلام عليكم من شيوخ تمزقت شبوهم بالنتف من بعد عزة

سلام عليكم من وجوه تكشفت على جملة الأعلاج من بعد سترة

سلام عليكم من بنات عواتق يسوقهم اللباط قهرا لخلوة

سلام عليكم من عجائز أكرهت على أكل لحم خنزير ولحم الجيفة

نقبل نحن الكل أرض بساطكم وندعو لكم بالخير في كل ساعة

أدام الإله ملككم وحياتكم وعافاكم من كل سوء ومحنة

وأيدكم بالنصر والظفر بالعدا وأسكنكم دار الرضا والكرامة

يمثل هذا القسم من القصيدة مقدمة لمضمون الرسالة التي بعث بها مسلمو اسبانيا إلى السلطان العثماني. فعادة ما تتكون القصيدة الشعرية من ثلاث أقسام: مطلع القصيدة والعرض والخاتمة. فأما القسم الأول وهو المطلع فقد ضم ثمانية عشر بيتا ضمت معاني التبجيل والتقدير للسلطان العثماني، كما حملت ضمن معانيها علامات الخضوع والولاء.

وقد كان سبب طول القصيدة أنها كانت موجهة إلى السلطان العثماني، الممثل الشرعي لكافة الأمة الإسلامية في ذلك الوقت، فاقتضى المقام الإطناب في تعداد صفاته؛ لأن هناك من أتباعه ومقربيه من يسمع هذه الأبيات فيعطي الشاعر ما تجود به نفسه، وقد لا يريد نفعا ماديا من وراء ذلك وإنما أداء واجب الطاعة والولاء لولي الأمر.

من خلال هذه الأبيات ينادي الشاعر من خلال هذه الأبيات الخليفة العثماني، لا بكنيته الحقيقية وإنما بكنية من صفاته التي اتصف بها، والتي يفتقدها الشاعر ومن معه في هذا الموقف، وتعبيرا منه على تقديره واحترامه له.

كما حملت هذه الأبيات إشارة واضحة وجلية على أنها صرخة استغاثة وجهتها كل فئات الجماعة المسلمة بإسبانيا بكل شرائحها وشتى أعمارها، حتى لا يفهم من يقرؤها على وجه العموم، والسلطان العثماني خصوصا، أنها مبادرة شخصية حملت معاناة صاحبها فقط.

شكونا لكم مولاي ما قد أصابنـــا  من الضر والبلوى وعظم الرؤية
غـدرنا ونصـرنا وبـدل دينـنـــــا  ظلمنا وعومـــلنا بكـل قبيحـة
وكنـــا علـى ديـن الـنبـي محـمـد  نقاتـل عمـال الصـليب بنيـة
ونلقى أمـــورا في الجهاد عظيمـة  بـقتـل وأسـر ثم جـوع وقـلـة
فجاءت علينا الروم من كل جانب  بـسيل عـظيم جملـة بعد جملة
ومـالـوا علينا كالجـراد يجـمعهم  بجـد وعـزم مـن خيـول وعـدة
فكنا بطـول الدهر نلقى جموعهم  فنقتل فيها فـرقة بعـد فرقـة
وفرسانهم تـزداد في كـل ســاعة  وفرسـاننا في حـال نقص وقلـة
فلمـا ضعـفنا خيموا في بـلادنا  ومالوا علينا بلـدة بعـد بلـدة
وجـاءوا بـأنفـاط عظـام كثيرة  تهـدم أسـوار الـبـلاد المنيعـة
وشـدوا عليها في الحصار بقـوة  شـهورا وأيـامـا بجـد وعـزمة

فلمـا تفـانت خيلنـا ورجـالنـا ولم نـر مـن اخواننا من إغاثـة

وقلت لنا الأقوات واشتد حالنـا أطعناهم بالكره خوف الفضيحة

وخـوفا علـى أبنـائنا وبناتـنا من أن يؤسروا أو يقتلوا شر قتلة

على أن تكون مثل من كان قبلنا الدجن من أهل البلاد القديمـة

ونـبقي على أذانـنا وصـلاتنـا ولا نتركن شيئا من أمر الشريعـة

ومن شاء من البحر جاز مؤمنا بما شاء من مال إلى أرض عدوة

غير ذاك مـن شـروط كثيرة تزيد على الخمسين شرطا بخمسة

فقـال لنا سلطـانهم وكبيرهم لكم ما شرطتم كاملا بالزيـادة

وأبدى لنا كتبا بعهـد وموثـق وقـال لنـا هذا أمـاني وذمتي

فكونوا على أموالكم وديارکـم كمـا كنتـم من قبل دون أذيـة

من خلال القسم الثاني من القصيدة والذي ضم واحد وعشرين بيتا وهو العرض نجد فيها عرضا مفصلا لمسار المحنة، مند توحيد صفوف النصارى وإلى غاية تسليم مدينة غرناطة آخر معقل للمسلمين بالأندلس، وفي السياق ذاته يجب الإشارة إلى ملاحظة مهمة هو التأكيد في محتوى الأبيات على قضية الجهاد ضد المد الصليبي وعدم الاستسلام إلا بعد ما تأكد أمامهم استحالة تحقيق أي نصر مقابل قوات صعب عليهم الصمود أمامها.

و استخدام الشاعر لضمير المتكلمين (نا) مشاركة منه للجماعة المسلمة في اسبانيا في هذا

الأمر وعدم الترفع عليهم. فيلاحظ أن الشاعر عبر عن شدة الألم على ما آلوا إليه تحت حكم الاسبان، ليس في نفسه فقط، ولكن أيضا في نفوس كل جماعته.

ما تؤرخ هذه الأبيات لمعاهدة الاستسلام وتسليم غرناطة (897هـ/1492م)، إذ ذكروا الأسباب الحقيقية التي كانت وراء قبولهم لهذا الأمر؛ كما صوروا لنا اطمئنانهم على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم وفوق كل ذلك على دينهم بعهد من الملك الاسباني فرناندو.

فلما دخلنا تحت عقـد ذمامهـم ... بدا غدرهم فينا بنقض العزيمة

وخان عهودا كـان قـد غـرنا بها ... ونصرنا كرها بعنف وسطـوة

وأحرق ما كانت لما من مصاحف ... وخلطها بالزبل أو بالنجاسـة

وكل كتاب كان في أمـر ديننـا ... ففي النار ألقوه بهزء وحقـرة

ولم يتركوا فيهـا كتـابا لمسلم ... ولا مصحفا يخلى بـه للقـراءة

ومن صام أو صلى ويعلم حالـه ... ففي النار يلقوه على كل حـالة

ومن لم يجئ منا لموضع كفرهـم ... يعاقبه اللبـاط شـر العقوبـة

ويلطـم خـديه ويـأخذ مالـه ... ويجعله في السجن في سوء حالة

وفي رمضان يفسدون صيامنـا ... بأكـل وشرب مـرة بعـد مـرة

وقد أمـرونا أن نسب نبيـنا ... ولا نـذكرنـه في رخـاء وشـدة

وقد سمعوا قوما يغنـون باسمـه ... فـأدركهـم منهم أليـم المضـرة

وعاقبهم حكـامهم وولاتهـم ... بـضرب وتغريم وسجـن وذلـة

ومن جاءه الموت ولم يحضر الذي يذكـــرهم لم يـــدفنـــوه بحيـــاة

ويترك في زبل طريحـــــا مجـدلا كمثل حمـــــار ميت أو بهيـــمـة

إلى غير هذا من أمـــــور كثيرة قباح وأفعـــــال غـــــزار رديـــة

وقد بـــــدلت أسماؤنا وتحـــولت بأسماء أعلاج من أهـــل الغبـــاوة

وآهـــا على أبنـائنا وبناتنـــــا يروحـــــون للبـــاط في كل غـــدوة

يـــعلمهم كفـــرا وزورا وفـريـــة ولا يقـــدروا أن يمنعـــــوهم بحيلـــة

آها على تلك المساجد ســـورت مـــزابل للكفـــار بعـــد الطهـــارة

وآها على تلك الصوامع عـلقـت نواقيسهم فيهـــا نظـــير الشهـــادة

وآها على تلك البـلاد وحسنهـــا لقد أظلمت بالكفار أعظم ظلمـــه

وصارت لعباد الصليب مـعاقـــلا وقد أمنوا فيهـــا نظير الشهـــادة

وصرنا لعباد الصـليب معاقـــــلا وقد أمنوا فيها وقـــــوع الإغـــارة

وصرنا عبيدا لا أسارى فنفتـــدي ولا مسلمين نطـــلقهم بالشهـــادة

فلو أبصرت عيناك ما صار حالنا إليه لجـــادت بالدمـــوع الغـريزة

فينا ويلنا، يا بؤس ما قد أصابنـا مـــن الضـــر والبلوى وثوب المذلة

من خلال القسم الثالث من القصيدة، الذي ضم خمس وعشرين بيتا نلاحظ نبرة الحسرة والألم وفي الوقت نفسه الندم على أنهم أمنوا في عهود زائفة وكاذبة. فقد رسمت لنا هذه الأبيات مسار

المحنة بداية بنقض بنود المعاهدة، مرورا بحرق التراث العربي الإسلامي، ووصولا إلى عملية التنصير القصري التي لم تترك أمرا متصلا بالإسلام وإلا حاولت القضاء عليه من جذوره.

إن ما في هذه الأبيات من معاني الهوان والذل يفسر لنا مدى الخوف الذي كان يملأ قلب الشاعر الذي لم يخفه في باقي أبيات القصيدة وبدا متحققا من صعوبة تغيير مصيره بما كان لديه من إمكانيات، فكان له أن يستنجد بغيره مظهرا خوفه ودله ومسكنته. ففي لحظة من لحظات التفكير في أمر هذه العاقبة، تستولي على مشاعر الشاعر الذي كتب القصيدة وهو يعبر عما كان يجول في نفوس اخوانه المسلمين بإسبانيا الجزع الشديد فيرثي نفسه بقصيدة يحشد فيها مشاعر الخوف واللوعة والحزن والأسف على حياته التي ستضيع، ولابد من مشاركة الأمة الاسلامية له في مأساته لفداحتها وبشاعتها.

سألنـــاك يا مـــولاي بـــالله ربنا ... وبالمصطفى المختار خير البريـة

وبـــالسادة الأخيـــار آل محمد ... وأصحابه أكرم بهم من صحابة

وبالسيـــد العبـــاس عم نبينا ... وشيبته البيضـاء أفضـل شيبـة

وبالصـــالحين العـــارفين بـــربهم ... وكل ولي فاضـل ذي كـرامـــة

عسى تنظروا فينا وفيمـا أصابنـــا ... لعل إله العـرش يـــأتي برحمـــة

فقولك مسمـــوع وأمـــرك نافـــذ ... وما قلت من شيئ يكون بسرعة

ودين النصارى أصله تحت حكمكم ... ومـــن ثم يأتيهم إلى كـــل كـورة

فبـالله يـا مـولاي مـنوا بفضلـكم ... علينا بـــرأي أو كـــلام بحجة

فأنتم أولو الإفضال والمجد والعـــــلا وغـــوث عبـــــاد الله في كل آفة

إلى أن تقول القصيدة:

فها نحن يا مولاي نشكـــو إليكم فهذا الذي نلنـــاه من شـر فرقـة

عسى ديننا يبقى لنـا وصـلاتنـــــا كما عـاهدونا قبل نقض العزيمـة

وإلا فيجلونا جميعا مـــــن أرضـهم بأمـــوالنا للـغـرب دار الأحـبة

فأجلاؤنا خير لنـــا من مقامنـــــا على الكفر في عز على غير ملة

فهذا الذي نرجوه من عز جاهكم ومن عندكـم تقضى لنا حاجـــة

ومـــن عنـدكم نرجو زوال كروبنـــا ومـــا نالنـــا من سوء حال وذلة

فأنتـم بحمـد الله خـير ملوكنـــا وعـــزتكم تـعلـــة كـل عـــــزة

في هذه الأبيات نجد صرخة استغاثة من مسلمي اسبانيا إلى السلطان العثماني، حيث أكدوا له بأنهم رعيته وخاضعين له وعليه فإنه يجب عليه حمايتهم ونصرتهم ممن ظلمهم. وما يلاحظ من مضمون الأبيات أن طلبهم كان مقتصرا على التدخل الديبلوماسي نظرا للمكانة الدولية التي كانت تحتلها الخلافة العثمانية آنذاك، فغرضهم من هذه الرسالة ليس التدخل العسكري، وإنما محاولة الضغط على السلطات الاسبانية بضرورة احترام بنود معاهدة الاستسلام، وإلا فضرورة السماح لهم بالهجرة إلى دول المغرب الثلاث التي وصفوها بأنها كانت حبيبة على قلوبهم.

إن لغة الشعر هي المادة الأولية له، وقد ربط النقاد بين الأسلوب والمضمون، فذهبوا إلى أن كل موضوع يناسبه شكل معين من أشكال التعبير الشعري، وأفضل الألفاظ ما كان سمحا سهل

مخارج الحروف من مواضعها، والسهولة مع عدم الابتذال عنصر مهم في إبداع المبدعين، والمشاكلة بين اللفظ والمعنى قيمة جمالية؛ لأنها تؤدي إلى حسن الشعر وحلاوته وقوة تأثيره في نفس المتلقي.

فللصورة الشعرية أهمية كبرى مما تمثله من قيم إبداعية وذوقية وتعبير متوحد مع التجربة ومجسد لها، وهذا يعني أن الشعر في جوهر بنائه ليس مجرد محاولة لتشكيل صورة لفظية مجردة لا تتغلغل فيها عاطفة صاحبها، فالشاعر الأصيل يتوسل بالصورة ليعبر بها عن حالات لا يمكن له أن يتفهمها ويجسدها بدون صورة.

وبهذا الفهم لا تصبح الصورة شيئا ثانويا يمكن الاستغناء عنه أو حذفه، وإنما تصبح وسيلة حتمية لإدراك نوع متميز من الحقائق تعجز اللغة العادية عن إدراكه أو توصيله، وتصبح المتعة التي تمنحها الصورة للمبدع قرينة الكشف والتعرف على جوانب خفية من التجربة الإنسانية، ولذلك فإن الصورة الشعرية هي وسيلة الأديب في التعبير عن عالمه بمختلف مصادره الواقعية والعقلية.

إن هيكل القصيدة من العناصر الأساسية في القصيدة إلى جانب الموضوع والتفاصيل والوزن، ووظيفة الهيكل أنه يوحد القصيدة ويمنعها من الانفلات والانتشار، والموضوع الواحد لا يفترض هيكلا معينا وإنما يمكن أن يصاغ في مئات الهياكل بحسب اتجاه الشاعر وقدرته الفنية والتعبيرية، ولكن الهيكل الجيد له صفات أربع :التماسك والصلابة والكفاءة والتعادل.

فهناك نوعان من الأسلوب: التعبيري حيث يقدم الشاعر تجربته تاركا لآخرين استشفافا لما فيها من أفكار وأهداف، وما يختلج في نفس صاحبها من أفكار وعواطف، وهذا غالبا يعتمد على

الخيال والتصوير. والأسلوب التقريري :حيث يقدم الشاعر تجربته تقديما مباشرا، فتفهم بسرعة، ولا يجد المتلقي معاناة في معرفة الأفكار، وهذا هو الأسلوب المعتمد في القصيدة.

أما الصورة النفسية في القصيدة لا تختلف عن غيرها من الصور في أدوات التصوير التي تعبر بها، فهي قد تكون صورة مباشرة أو بيانية أو رمزية، ولكنها تختلف في تعبيرها عن المشاعر التي تنطوي عليها نفس الأديب، وترسمها في صورة فنية تجسد خفاياها وتعرضها في قالب أدبي

فالتفكير بضياع العقيدة الإسلامية والخوف من الارتداد كان مما يراود مسلمي اسبانيا في كل مكان وفي كل زمان، بوصفة نهاية كان لابد منها على ضوء المستجدات التي طرأت على أرض الأندلس الضائعة، غير أن الخوف أحيانا يصبح خوفا مرضيا لا دواء له، فيفسد الحياة وينغصها، وقد واجه بذلك مسلمو اسبانيا الخوف بأنواعه المختلفة، فكان العذابُ المشترك الأوسع فيها، كما دل على ذلك شعرهم.

وقد اشتمل هذا الشعر على ثلاثة اتجاهات للخوف، أولها خوف مسلمي اسبانيا من ضياع هويتهم الإسلامية في ظل الرهانات التي كانوا يعيشونها، وثانيها اعتناق النصرانية الكاثوليكية حتى ولو قهرا، وثالثها خوفا من بطش وتنكيل السلطات الاسبانية.

كما كشف البحث عن أن هذه الاتجاهات الثلاثةَ وجدت في الانتاج الشعري لمسلمي اسبانيا واستمرت حتى وقت متأخر من وجودهم هناك، وقد شملت كل الحقب الزمنية، وأن الجماعة المسلمة كانت محاصرة بالخوف سواء أكان خوفا إيجابيا يؤدي إلى العمل على مقاومة التنصير بكل أشكاله، أم خوفا سلبيا يؤدي إما إلى التذلل والتخضع للسلطان العثماني وغيره من حكام العالم الإسلامي

وحتى الأوروبي، أو إلى اليأس والقنوط والتأسف المستمر على الدنيا وانقضاء زمن التمتع بملذاتها كما هو الحال لدى طالبيها، وهو في كل الأحوال يشير إلى أن الحياة في اسبانيا لم تكن ذلك الفردوس الآمن كما كان سابقا.

كما دل هذا الشعر على إسهام كل فئات المجتمع وطبقاته فيه، ولم يستطع الكثيرون إخفاء خوفهم من التنصير، فضلا عن تأكيده أن الشعر بقي صالحا للتعبير عن المشاعر والتأثير فيها، وكان رسولا مسموعا دائما وناجح المسعى أحيانا لنيل لعطف وبالتالي الدعم والمساعدة لدى الملوك والسلاطين وأصحاب القرار في العالم الإسلامي.

وفضلا عن ذلك كله فإن هذا الشعر استطاع أن يثبت أنه قادر أن يكون وثيقة تاريخية مساعدة تستطيع أن تكشف عن بعض حوادث التاريخ السياسي والاجتماعي وملابساتها، لاسيما وهو يتعرض إلى المعنى الحقيقي للمآسي وليس المعنى المجازي لها.

وبهذا صور الشاعر حالة دقيقة من حالات النفس الحزينة المصابة، فهذه النفس يتحقق عليها وقوع الحزن والرغبة في تنفيسه، ولذلك إذا ما حصل ذلك وتهيأت نفس الشجاع القوي التي هدها الحزن، فإنه يتماسك ويتجلد، حيث أتته المعونة والنصرة ضد البكاء والحزن، وهذه القوة ما هي إلا الصبر. وبرع الشاعر في استخدام كلمة جهش فهي ترسم على وجه ناطقها وكأنه وجه يستعد للبكاء، وفي جرسها ما يدل على حال المستعد للبكاء.

بذلك قدم الشاعر لفكرته مجردة من أي صورة أو محسن، وذلك تعبير منه أن هذا الأمر

معروف المشاهد، لا يحتـاج إلى تأكيـد أو تقريب، فالحزن يترجم عواطف الإنسان ويعوض عن الزينة والصور بـأن يشد السامع إليه ويجعله يعيش معه، يشاركه مشاركة وجدانية.

كما يلاحظ أيضا أن الكلمات التي استخدمها الشاعر جاءت في الغالب متوسطة الطول والقصر، حيث إن الكلمات الكثيرة الحروف يمكن أن تعد بوجه عام من الكلمات الصعبة، ذلك لأنها تتطلب جهداً عضليا أكثر، فوق أنها قليلة الشيوع، فغلب عليها عموما السهولة والبعد عن الغريب، فالسياق العام والأسلوب في مجموعه يدل على غلبة السهولة لا تعميمه.

ختاما فمن خلال هذا النموذج من الرسائل التي بعث بها مسلمو اسبانيا إلى السلطان العثماني، نلاحظ أن الشعر كان وسيلة دعاية، بمثابة الصحافة حاليا، هذا من جهة، من جهة أخرى، نجد أنها أتت على شكل قصيدة شعرية ولم تدون على شكل رسالة نثرية لما للشعر من تأثير على النفس البشرية، ولما يحمله من أساليب، تلعب دورا بارزا في ايصال صرخاتهم التي بفضل الصياغة الشعرية لها قد تفعل مفعولها في نفسية السلطان العثماني.

## – المبحث الثاني: التعريف بالقضية عربيا وإسلاميا

اعتمدت السلطات الاسبانية في حربها الإعلامية ضد المقاومة الإسلامية على عدة نقاط ضرورية لتكتمل دائرة السيطرة على الحركة الجهادية من أهمها:

– التهويل من قدرة المستهدِف والتهوين من قدرة المستهدَف.

– تبريـر الحـرب بالأخـلاق والمبـادئ، والتشكيـك بأحـقية الخصـم بالحكـم. وهـذا مـا

حــاولت السلطات الإسبانية إشاعته من خلال نشر أخبار مفادها أن هذه الحرب هي بأمر من الله تعالى، لنصرة الكاثوليكية على أعدائها وعلى رأسهم مسلمي اسبانيا.

– تمييع المصطلحات بحيث يُحار في فهمها كوصف المجاهدين بالمجرمين واللصوص وقطاع الطرق ومن ثَم يعجز عن مواجهتها.

– الكذب في النتائج واستباق حدوثها. وكأن الحرب قد انتهت والقوات قد استسلمت وفي الحقيقة أنها لم تبدأ بعد.

– إضفاء نوع من القداسة على رموز المستهدف.

فالمشكلة الحقيقية لم تكن في وجود إعلام منحاز لاختيار سياسي بعينه، بقدر ما كانت المشكلة في المنهج الإعلامي القائم على التشويه المتعمد لحركة الجهاد في اسبانيا، سواء كان تشويها جزئيا أو كليا. فوسائل الإعلام الإسبانية، حاولت إعادة تفكيك صورة المقاومة الإسلامية، وتركيبها بصورة على غير حقيقته، أيا كانت تلك الحقيقة.

كل هذا نتج عنه إذاعة صورة مشوهة وغير حقيقية عنها. وهذا المنهج الذي استخدمته السلطات الاسبانية كثيرا أو دائما، اعتمد على فرضية أن وسائل الإعلام يمكنها أن تغير من حقيقة المقاومة الإسلامية في اسبانيا لدى الرأي العام الداخلي والخارجي، بالصورة التي تمكنها من تشويه صورته، وإبعاد مؤيديه عنه، مما يؤدي إلى تقليل القاعدة الشعبية المساندة له

ومعنى هذا، أن بعض وسائل الإعلام تصورت أنها قادرة على خلق واقع غير دقيق، مما يجعل

الرأي العام يحكم على المقاومة من خلال هذا الواقع المصور. وقد ترى بعض وسائل الإعلام أنها تقدم للقارئ أو المشاهد الصورة الحقيقية للحركة الجهادية في اسبانيا التي تغيب عنه، أو الصورة الحقيقية غير لظاهرة والتي لا يستطيع الرأي العام الوصول لها، لـذا تتصـور أنها بـذلك تفضـح حقيقتها، بالصـورة التي تمنعها من توسيع قاعدتها الشعبية.

وكل هذه التصورات تقوم على فرضية خاطئة، وهي أن عامة الناس تستمد رؤيتها للواقع بالكامل من خلال وسائل الإعلام، وأن عامة الناس غير قادرين على معرفة الحقيقة بأنفسهم، وكأن المقاومة الإسلامية في إسبانيا هي مجرد حركة مسلحة قابعة في مكان غير منظور، ولا يمكن للفرد العادي الاحتكاك المباشر بها.

في حين أن هذه المقاومة في الأساس لا وجود لها إن لم تكن ملتحمة بكل أو على أقل نسبة كبيرة من مسلمي اسبانيا، ولا يمكن لها تكوين قاعدة شعبية من خلال وسائل الإعلام، بل تحتاج للاحتكاك الإنساني المباشر. لذا فالقاعدة الشعبية لحركة الجهاد الإسلامية بإسبانيا تشكلت من خلال التفاعل الاجتماعي، وأقوى روابطها تمثلت في شبكة العلاقات الاجتماعية، وهي المصدر الأول للمعرفة والحكم لدى عامة الناس.

من هنا يتضح أن ما قامت به وسائل الإعلام الاسبانية، حاولت أن تعمق مخاوف من كان متخوفا من عواقب حركـة الجهـاد الإسلامـي في اسبانيـا، وتعميق الصـورة المشوهـة عنها، لـدى من لـديه صورة مشوهه عنه، وبث صور مشوهه عنه لدى من لا يعرفه، وكل هذه الفئات ليست من القاعدة الشعبية المؤيدة لها، وغالبها من القاعدة الشعبية التي لن تؤيد فكرة العمل المسلح.

وقد كان حصار السلطات الاسبانية، من العوامل الأساسية التي أدت إلى عدم تمكن مشروع الجهاد المسلح من الوصول إلى بعض الشرائح المؤهلة لقبوله. وهي الشرائح نفسها التي أصبحت لديها مخاوف من العمل المسلح، بسبب حملات الهجوم التي شنتها السلطات الإسبانية. لأن كل الشرائح التي ترفض المشروع، لم تتشكل بسبب الإعلام المعادي للعمل المسلح، بقدر ما تشكلت بسبب أسباب اجتماعية وثقافية، أو بسبب اختيارات اجتماعية وسياسية حياتية.

لذا فإن ما يقوم به الإعلام المضاد من تعميق مخاوف هذه الشرائح غير المؤيدة للعمل المسلح، لا يضيف جديدا للخريطة المجتمعية والسياسية، بل يعمق فقط حالة الاستقطاب السياسي والمجتمعي والديني. ولكن الشرائح التي تدور حولها المعركة الحقيقية، هي الشرائح المؤهلة لتأييد التيار المشروع.

هذا ما أورده النص الرسمي الاسباني الذي جاء فيه ما يلي[1]:"...**أنه من المعلوم أن موريسكي هذه الممالك وكذلك قشتالة تقدموا أكثر فأكثر في تنفيذ مشاريعهم الشنيعة، وبما أني علمت بنفسي من تقارير صادقة وصحيحة أنهم في إصرارهم على الردة والضلال أرادوا ويريدون دائما الشر والفساد لمملكتنا عن طريق سفرائهم، وكذلك بسبل أخرى...**"

**1)- الاتصالات مع الخلافة العثمانية بشكل مباشر:** كان العالم الإسلامي يعيش حالة من الضعف والانحطاط خاصة على مستوى الخلافة العباسية التي كانت تمثل الأمة الإسلامية آنذاك، ولكن ظهر بديلا عنها تمثل في العثمانيين الذين حاولوا انقاذ ما يمكن إنقاذه من هذا العالم الذي أخذ ينهار شيئا فشيئا، فكانت لهم مساع كثيرة من أجل انقاذ مسلمي اسبانيا.

1- Mercedes Garcia Arnal, Op. Cit, P , 253

ولاشك أن قضية مسلمي اسبانيا التي استقطبت اهتمام المؤرخين منذ العصور الحديثة، مازالت تشد العديد منهم اليوم إلى دراسة جوانب كثيرة لهذا المشكل المعقد. وعلى الرغم من تنوع وثراء عدد من الدراسات التاريخية المنهجية التي ظهرت مؤخرا، إلا أننا ما نزال نشعر حيال هذا الموضوع بالحاجة إلى تعميقه بالعمل على استقراء المخطوطات والوثائق العربية والعثمانية منها على الخصوص، فضلا على دور الوثائق الاسبانية التي مازالت تزخر بمختلف المعلومات عن هذا الموضوع.

فدراسة موقف الدولة العثمانية من المشكل عموما مازال ينتظر دراسات منصفة، خاصة وأن هناك الكثير من الأبحاث التاريخية أصدرت أحكاما عاطفية واعتباطية دون البحث والتقصي حول الظروف العامة والخاصة التي أحاطت بالخلافة العثمانية خلال تلك الحقبة التاريخية.ومحاولتنا هذه تهدف، انطلاقا من قراءة استقرائية لأهم الوثائق التي نشرت في مختلف الدوريات والمراجع من تتبع موقف الدولة العثمانية، كما سنحاول أن نقوم بإعطاء بعض الحجج التاريخية حول الأسباب التي جعلت من الخلافة العثمانية تتفادى الاصطدام العسكري مع اسبانيا في عقر دارها.

ولنا أن نتساءل ما إذا كانت الدولة العثمانية كانت قادرة في تلك الفترة بتدخل عسكري داخل اسبانيا لإنقاذ مسلمي اسبانيا؟ للإجابة على هذا التساؤل المنطقي والواقعي، وجب علينا إدراك رهانات المواجهة بين القوتين المتصارعتين ـالعثمانية والاسبانية ـ؛ وهي رهانات لا يمكن إطلاقا أن تمنح أحقية أخذ مبادرة نقل العثمانيين مواجهتهم العسكرية على أرض اسبانيا نفسها[1]، إذ كل الدلائل

[1]- إن الوضع السياسي للخلافة العثمانية أثناء حكم السلطان أحمد الأول كان وضعا دقيقا وصعبا، حيث عرفت الدولة العثمانية عددا من المشاكل الداخلية والهزائم البحرية مع النمسا وبلاد فارس؛ بالإضافة إلى ظهور حركات تمرد وصيان في الكثير من الولايات العثمانية؛ كل هذه الظروف ساهمت بشكل مباشر في انشغال الخلافة العثمانية عن قضية مسلمي اسبانيا وحلها بالطرق العسكرية. ينظر: التميمي عبد الجليل، رسالة سلطان أحمد الأول إلى دوق البندقية، المرجع السابق، ص :8.

والمؤشرات والحقائق، لا تسمح أبدا بتبني مثل هذه المجازفة الخطيرة والتي ستؤدي حتما إلى إلحاق خسائر كبيرة بالأسطول العثماني وجيشه.

فبالرغم من كل المشاكل التي كانت تتخبط فيها الخلافة العثمانية، إلا أنها حاولت جاهدة تقـديم الدعم اللازم لمسلمي اسبانيا[1]، فقد خاضت مع اسبانيا حربا ضروسا على مستوى أوروبا وحوض البحر الأبيض المتوسط تكبدت اسبانيا من خلالها خسائر كبيرة على المستويين المادي والبشري. فقد ربط مسلمو اسبانيا اتصالات مع الخلافة العثمانية على فترات متقاربة ومتواصلة، إذ لم تنقطع بينهما الاتصالات على مدى الفترة الممتدة من 905هـ/1501م وإلى غاية سنة الطرد النهائي 1018هـ/1609م، هذا ما أكدته النصوص والوثائق التاريخية سواء العربية منها أو الاسبانية أو حتى العثمانية.

على هذا الأساس سنقدم نموذجا من الطرح الاسباني وكذا العربي للقضية؛ فمن بين النصوص التاريخية الاسبانية التي أكدت على وجود اتصالات مستمرة بين مسلمي اسبانيا والسلطات العثمانية نذكر ما نصه[2]:"...**وظهر منهم العناد لعيشهم فيه بصفة دائمة واستنجادهم كذلك عون السلطات العثمانية لينصرهم علينا، وظهر لي أن بينهم وبينه مراسلات إسلامية ومعاملات دينية، وقد تيقنت ذلك من اخبارات صادقة وصلت إلي، ومع هذا إن أحد منهم لم يأت إلينا ليخبرنا بما هم يديرونه في هذه المدة بينهم وفيما سبق من السنين بل كتموه بينهم** ..." كما

[1]- Sylvie Martorell, Le Gouvernement Ottoman et la tentative de soulèvement des moresques de Valence (1577-1583), Mémoire en vue de l'obtention de grade de dicteur de 3eme çicle, Université de Franche comté des sciences de langage de l'homme et de la société, Octobre 1960. P : 58.

[2]- الأنوار النبوية في آباء خير البرية، (المصدر السابق). ص: 331.

ورد في المصادر الأندلسية ما يؤكد المعلومات الواردة في التقرير الإسباني، فقد أورد الشهاب الحجري ما نصه[1]:"...**ونحن في هذا تحققنا وصح من وجوه، أنهم بعثوا للتركي الكبير باسطنبول...**"

من خلال ما ورد من معطيات تاريخية في النصين التاريخيين نلاحظ تأكد السلطات الاسبانية من وجود اتصالات متواصلة بين مسلمي اسبانيا والخلافة العثمانية، وتخوفها من النتائج التي قد تترتب عنها[2]. ومن بين الرسائل التي بعث بها مسلمو اسبانيا إلى الخلافة العثمانية، والتي عثر عليها عبد الجليل التميمي في أرشيف متحف "طوب كابي" "Top Kapi" بإسطنبول نذكر تلك التي بعثت في سنة 946هـ/1541م إلى السلطان سليمان القانوني، فورد فيها ما نصه[3]:

"...**فان عبيدك الفقر (كذا) المساكين المنقطعين بجزيرة الأندلس وجملة عدتهم ثلاثمائة ألف وأربعة وستون ألف منهم من رسايهم بغرناطة وغيرها خمسون والباقي من عامة المسلمين، رافعين شكواهم، وما يلاقون من بلواهم باكين متضرعين مستنصرين بعناية مولانا السلطان داعم عزه ونصره لما أصبهم من اعداء الدين وطغاة المشركين وما هم من مكابدة الكفار ومقاسات (كذا) التضييق والإضرار وجور أهل الشرك أناء واطراف النهار وتحريقهم ايانا بالنار قد تكالب العدو علينا ومدد السوء والضرر الينا واحاطت بنا الاعداء من كل جانب ورمونا عن قوس واحد بسهم صائب وطالت بنا الأيام وعاشت فينا يد النكاية والايلام...**"

---

[1]- ناصر الدين علي القوم الكافرين، (المصدر السابق). ص : 112.

[2]- وفقا للمعلومات المستمدة من محاضر محاكم التحقيق، فإن السلطان العثماني قد قرر إعداد مكان بإسطنبول، كما فعل الاسبان يومئذ بطليطلة وغيرها من الأماكن، التي خصصت للاحتفال بحرق المسلمين، وقد هدد السلطان العثماني بحرق كل النصارى السجناء لديه، إذا لم يقم الملك اسبانيا بتوقيف المظالم ضد مسلمي إسبانيا.

[3]- جمال يحياوي، المرجع السابق. ص: 257.

فهذه الوثيقة التاريخية هي بمثابة دليل قاطع يؤكد على وجود اتصالات جمعت مسلمي اسبانيا بالسلطات العثمانية، قصد التعريف بقضيتهم، وبالتالي ضمان تقديم مساعدات خاصة العسكرية منها، قصد تخليصهم من ظلم وبطش الاسبان. على أن هذه الرسائل لم تكن من جانب واحد فقط، بل عمدت السلطات العثمانية على ارسال ردود إلى مسلمي اسبانيا تعلمهم من خلالها بالتدابير المقرر تنفيذها. ومن بين الرسائل التي حفظها الأرشيف التعثماني نذكر رد السلطان أحمد الأول على الرسالة التي بعث بها مسلمو اسبانيا فجاء فيه ما نصه:

"... **بأن سليمان وعلي وهما من طائفة المدجنين القاطنين بالأندلس، قد رفعا إلى أبوابنا العالية عرضا أعلما فيه أنه قد ورد سابقا إلى الممالك المحروسة طائفة من المدجنين المسلمين كانوا قد غادروا بلادهم وأنه ما يزال منهم هناك أناس يريدون القدوم علينا عن طريق البر ليدخلوا الممالك المحروسة وهم يرجون أن لا يتعرض لهم ولا يتدخل في شأنهم أحد إذ ورد هؤلاء المسلمون عن طريق البندقية إلى الممالك المحروسة فلتسمح بمرورهم وعبورهم**... "[1].

وبمقتضى العلاقات التي ربطت السلطان أحمد الأول بدوج البندقية[2]، ضمن من هذا الأخير

[1]– نص الوثيقة باللغة التركية أعاد ترجمته إلى اللغة العربية عبد الجليل التميمي ونشرها على شكل مقال موسوم بـ: رسالة من السلطان العثماني أحمد الأول إلى دوج البندقية حول الموريسكيين، المجلة التاريخية المغربية، ع : 7 – 8، جانفي 1977، ص : 14.

[2]– بإدراك البنادقة لعدم جدوى مواجهة الدولة العثمانية، ما كان من حلول بأيديهم سوى اللجوء إلى الأساليب الديبلوماسية ويحكم مكانتها الاقتصادية ، سعت البندقية على تأسيس علاقات مع الخلافة العثمانية وكسب تسهيلات مختلفة في الدولة العثمانية بمقتضى المعاهدات الموقعة بين الطرفين. بنظر: أحمد هريدي صلاح ، تاريخ العلاقات الدولية التجارية والحضارة الحديثة، د ب ن، دار الوفاء، ط : 1، 2003، ص: 97.

تقديم المساعدات اللازمة لمسلمي اسبانيا كسبب لتحكيم بنيان "المصالحة وتمديد المعاهدة بينهما"[1] وهذه نقطة جوهرية تعكس مدى الاهتمام البالغ الذي أظهرته الدولة العثمانية بمصير مسلمي اسبانيا. ومن خلال هذا النص التاريخي المستنبط من وثيقة عثمانية يمكننا الخروج بعدة استنتاجات أهمها:

– أن هناك من الأندلسيين المسلمين من قصد الباب العالي قادما من البندقية وسلم إلى السلطات العثمانية رسالة أو تقريرا مفاده توسط الباب العالي لدى حكومة البندقية بسماح مرورهم عبر أراضيها من أجل العبور إلى أراضي الخلافة العثمانية.

– رغبة مسلمي اسبانيا للالتحاق بأراضي الخلافة العثمانية، وهذا دليل على اهتمام السلطات العثمانية بقضيتهم، ومدى حرصها على توفير الحياة الكريمة لهؤلاء المهجرين.

– كان يتم الالتحاق بأراضي الخلافة العثمانية برا وليس بحرا.

– تخوف مسلمي اسبانيا من ردود فعل سلطات البندقية وذلك راجع إلى أن هؤلاء أصبحوا لا يثقون في كل النصارى، وهذا يتأكد من طلبهم بتدخل عثماني مباشر لحماية أرواحهم وممتلكاتهم.

من خلال ما تقدم أعلاه فإنه يتضح أمام الدارس الجهود التي بدلها مسلمو اسبانيا في محاولة منهم لتغيير أوضاعهم وعدم استسلامهم لواقعهم المر، هذا من جهة، ومن جهة أخرى تأكد لنا مساعي السلطات العثمانية في تقديم العون والمساعدة لمسلمي اسبانيا بشتى الوسائل، مادام أن التدخل العسكري كان غير وارد ومستحيل في ظل الرهانات التي كانت تواجهها السلطات العثمانية.

---

[2]– هناك فترات كثيرة عرفت فيها العلاقات ا لعثمانية البندقية نوعا من التوتر كالذي حصل بعد حصار سالونيك سنة 828هـ/1423م؛ أيضا تلك المواجهات البحرية والبرية التي وقعت بين الطرفين ابتداء من سنة 884هـ/1454م، وحرب خريف 867هـ/1462م، وخسارة البندقيين لمدينة نغريونت سنة 875هـ/1470م التي حكموها طوال 264 سنة. بنظر: كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، تر: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، بيروت: دار العلوم للملايين، د ط، 1948. ص : 438.

## 2)- تدخل العثمانيين على مستوى ايالات المغرب والدول الأوروبية لدعم مسلمي اسبانيا:

تعرضت سواحل دول المغرب الإسلامي للاحتلال الإسباني ابتداء من سنة 910هـ/1505م، بالمقابل كان هناك نشاط للأسطول العثماني على مستوى غربي البحر الأبيض المتوسط، كل هذه المستجدات دفعت بدول المغرب إلى الاستنجاد بالعثمانيين لتخليصهم من الغزو الاسباني الذي اجتـاح معظم المـدن

الساحلية. بموجب هذا التدخل اتخذت الدولة العثمانية قرارا بالغ الأهمية تمثل في ضم بلدان المغرب الثلاث بطلب منها الجزائر، تونس وطرابلس إلى سلطتها، وبالتالي القدرة على مساعدة مسلمي اسبانيا أولا، والعمل على احتواء الشعب المغاربي ثانيا[1]، الذي ما فتئ يتحمل ويلات التدخل الاسباني لفضائه الترابي وموانئه وتركيز حاميات اسبانية وبناء القلاع والحصون.

على هذا الأساس استوجب على المؤرخين المهتمين بدراسة هذا الملف، أن يكونوا أكثر انصافا وحيادا، آخذين بعين الاعتبار الوضعية الجيوسياسية للبحر الأبيض المتوسط الغربي، والرهانات القائمة يومئذ وخصوصا استحالة أن تتدخل الدولة العثمانية عسكريا على أرض اسبانيا، لإنقاذ مسلمي اسبانيا، مما أصابهم من اعتداء صارخ على مرجعيتهم الدينية والحضارية.

لهذا قررت الخلافة العثمانية أن تقدم المساعدة والدعم العسكري والمعنوي لمسلمي

[1]- التحقت المناطق الثلاث التحقت بالخلافة العثمانية – الجزائر- تونس – طرابلس – إلا المغرب الأقصى الذي رفض الاعتراف بالخلافة العثمانية كوصية على العالم الإسلامي لأسباب جعل منها ملوك المغرب الأقصى اعتبارات لا يمكن التنازل عنها تحت أي ظرف من الظروف، حتى ولو تمثل ذلك في التحرش المزدوج . اسباني وبرتغالي . على سواحلها. ومن بين هذه الاعتبارات نظرتهم في مبدأ الخلافة الذي كان يوجب على حامل الخلافة أن يكون من البيت العربي القرشي، ضف إلى ذلك خوفهم من ضياع النظام الملكي الذي ما فتأ يختفي في الجزائر ثم تونس فطرابلس، إذ أصبح في هاتين الأخيرتين نظاما صوريا أو رمزيا أكثر من كونه فعليا.

اسبـانيا للتخلص من تنكيل ومطاردة السلطات الاسبانية وذلك من خلال ولاة الإيالات[1] الثلاث، الجزائر، تونس[2]، وطرابلس[3] وتوجيه الأوامر الصارمة والفرمانات[4] مطالبة هؤلاء الولاة من خلالها تقديم لهم كل العون العسكري والمادي والمعنوي، محاولة من وراء ذلك إثبات مدى اهتمام السلطات العثمانية بهذا الموضوع.

فقد وجه الباب العـالي[5] من اسطنبول أمـرا صارما لباي لاربـاي[6] الجـزائر[7] المدعو علـج

---

[1]- **الايالات**: مفرد ايالة. باللغة التركية "إيالت" نقلا عن العربية " إيالة"؛ وتعني الحكم والإدارة والسلطان. وتعتبر الإيالة في الدولة العثمانية أكبر تقسيم إداري. وقد استعمل المصطلح رسميا سنة 1000هـ/1591م. ينظر: دائرة المعـارف الإسلامـية، تأليـف مجموعة من البـاحثين: هوستما، ليفـي بروفنـسال، ومجموعة أخرى، النسخة العربية: إبراهيم زكي، أحمد الشنتاوي وعبد الحميد يونس، القاهرة: كتاب الشعب، ط:1، د س ط. ص: 264.

[2]- لقد أمرت السلطة العثمانية في استانبول بتجهيز حملة عسكرية من اجل تحرير تونس من الاحتلال والسيطرة الاسبانية, وكان ذلك في ربيع من سنة979 هـ/ 1574م، حققت هذه الحملة نجاحا كبيرا واستطاعت ان تحرر تونس نهائيا من الاحتلال الاسباني، كما تم إلحاقها رسميا بالخلافة. ينظر: عبد الجليل التميمي، عثمنة ايالات الجزائر وتونس وطرابلس على ضوء مهمة دفتري (1559-1595)، تونس: المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، ع: 34، 2006م. ص:22.

[3]- استولى الاسبان على طرابلس الغـرب سنة 915هـ/1510م، وظـلت كـذلك مـا يقارب عرون سنة رغم الهجمات التي قـادها المجاهدون بالتعاون مـع العثمـانيين، ونتيجة لمجموعة من الظروف تخلى الاسبان عن المدينة وتركوها لقرصان يوحنا الذين اصطدموا بمقاومة مسلحة من طرف السكان، هؤلاء استنجدوا بالسلطات العثمانية، هؤلاء بعثوا أسطولا بحريا حررها من الغزو الاسباني نهائيا سنة 1550م. ينظر: محمد سهيل طقوس، العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، بيروت: دار النفائس، د ط، د س ط. ص ص: 216، 217.

[4]- **الفرمان**: كلمة فارسية الأصل, وهو القرار الذي يعده الصدر الأعظم بعد عرضه على الديوان فإذا وافق عليه ختمه الصدر الأعظم بخاتم السلطان. والفرمانات السلطانية منها ما هو خاص بولاية معينة, ومنها ما هو عام لجميع الولايات. ينظر: السليمي هيلة محمد، دور اليهود في إسقاط الدولة العثمانية، رسالة ماجستير، مكة المكرمة: جامعة أم القرى، 2001. ص:50.

[5]- **الباب العالي**: لقب كان يراد به أولاد البلاط السلطاني في اسطنبول ثم مقر الصدر الأعظم، وقد ورد في معظم الوثائق العثمانية. ينظر: ملف الوثائق العثمانية، رقم: 3206، الجزائر: المكتبة الوطنية – الحامة –، قسم المخطوطات.

[6]- **باي لارباي**: كلمة تركية مكونة من شقين وتعني باللغة العربية أمير الأمراء. وأول من تلقب بهذا اللقب السياسي الإداري هو خير الدين سنة 926هـ/1520م، عندما عينه السلطان العثماني حاكما عاما على الجزائر بموجب الوثيقة التي بعثها سكان مدينة الجزائر بمباركة كل سكان الجزائر بطلب الحاق الجزائر بالخلافة العثمانية وذلك سنة 924هـ/1519م. وفترة باي لارباي هي من أزهى عصور الحكم العثماني في الجزائر، إذ عرفت استقرارا ونموا اقتصاديا كبيرا. وامتدت هذه الفترة زمنيا من سنة 950هـ/ 1544م وإلى غاية 995هـ/1587م.

[7]- أطلق على الجزائر خلال العهد العثماني تسمية " محروسة الجزائر" أو دار الجهاد". ينظر: ملف الوثائق العثمانية رقم: 3205، الجزائر: المكتبة الوطنية بالحامة، قسم المخطوطات. كما أطلق عليها العثمانيون اسم " جزائر الغرب" ينظر:

Venture De Paradis, Alger au 18 eme siècle, Edité par E. Fagnan, Imprimerie, Librairie, Editeur, 1898. P : 4.

علي[1]، بضـرورة تقديم الدعـم العسكري[2] إلى الحركة الجهادية بإسبانيا بتوفير الأسلحة للمجاهدين وشد أزرهم في المقاومة، وكذا تسهيل استقرارهم في الفضاء الترابي لايالتي الجزائر وتونس[3]. ومن بين الفرمانات التي أصدرتها بخصوص هذا الموضوع نذكر ما نصه:

**"... أنه في شهر محرم، وصلت سفنكم إلى جزيرة أعزبور واستقرت ما بين سنة أو سبعة أيام لتجهيز السفن وأخذ المؤونة اللازمة للإبحار، وتحصلتم على مجدفين في اليوم الثاني من الشهر المذكور، قدم على بايلرباي إيالة الجزائر، بستة سفن من نوع باشترده وسفينة واحدة من نوع قادرغة وإحدى عشر قالبتة، والتقى بكم في هذه الجزيرة كما التحق بكم وإلى طرابلس الغرب ميناء أغربور كما تم معرفة الأسطول في اليوم التاسع من ميناء أغربوز كما تم معرفة أسطول العدو الذي أصبح يغير على الجزر والسواحل بالمتوسط ولذلك نأمركم بمتابعة سفن سلطان اسبانيا اللعين وإلحاق الهزيمة بسفنه"**[4]. نستنتج من خلال المعطيات المذكورة في الفرمان ما يلي:

- التحرك العسكري يكون مباشرة من اسطنبول

---

[1]– **علج علي**: عرف بجهاده البحري ضد الاسبان، فكان له الفضل في تحرير تونس من العدوان الاسباني سنة 974هـ/1569م وبتحريره لتونس تمكن العثمانيون من السيطرة على المنطقة. ينظر: يحي بو عزيز، المرجع السابق. ص: 50.

[2]– ظهرت الجزائر مند بداية القرن الحادي عشر هجري الموافق للقرن السادس عشر ميلادي، بتبعيتها للخلافة العثمانية تحت قيادة الباي لا باي، وبذلك بدأت معالم الدولة الجزائرية الحديثة تتضح وحدودها الاقليمية تظهر وتستقر تدريجيا، وينمو معها كيانها السياسي المنفصل عن تونس والمغرب الأقصى. وقد شكلت الجزائر خلال هذه الفترة قوة عسكرية على مستوى البحر الأبيض المتوسط بفضل أسطولها البحري الذي صد كل الهجومات والحملات العدوانية على الجزائر.

[3]– عبد الجليل التميمي، ترجيديا طرد المورسكيين من الأندلس والموفق الاسبانية والعربية الإسلامية منها، إشراف وتق : التميمي عبد الجليل التميمي، تونس: منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، 2011م. ص : 75.

[4]– دفتر مهمة 10، المؤرخ في 03 صفر 979هـ/27 جوان 1571م. ص : 12 نقلا عن عبد الجليل التميمي، تراجيديا طرد الموريسكيين من الأندلس، (المرجع السابق).ص : 84.

– كان هناك تحالف بين قوى ثلاث: العثمانية، الجزائرية، وطرابلسية[1].

– أن التدخل كان بحريا من طرف القوات الثلاث

– نجد أن مشاركة الجزائر العسكرية كانت هي الأكثر عددا، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى قوة الأسطول الجزائري في تلك الفترة، هذا ما أكدته كل المصادر والمراجع التاريخية، الغربية منها والعربية.

– هذا التحرك كان قصد تتبع وحدات الأسطول الاسباني وإلحاق أكبر الأضرار بصفوفه.

– محاولة فتح جبهة خارجية ضد اسبانيا حتى تنشغل على متابعة مسلمي اسبانيا واضطهادهم.

كما أن النص التاريخي التالي المستنبط من دفتر المهمة رقم: 9 المؤرخ في شهر ذي القعدة من سنة 977هـ/الموافق لـ 16 أبريل عام 1570م يؤكد على حرص السلطات العثمانية على تقديم الدعم العسكري لمسلمي اسبانيا فجاء في نصه ما يلي: "... **وعليه آمرك**(*) **أن تقوم من جانبك بارسال العساكر والذخائر كلما كان ذلك ممكنا، لمعاونة المسلمين هناك**(**) **ومؤازرتهم. وعند وصول أمرنا وبالطريقة ولمؤازرة للمسلمين المذكورين بما يتيسر لديك، وحيث لا تجوز الغفلة مطلقا إزاء العدو الكافر**"[2]

من خلال المعطيات التاريخية الواردة في هذا النص التاريخي نستنتج ما يلي:

---

[1]– لم تشارك تونس في هذه الحملة لكونها كانت تحت الاحتلال الاسباني ولم يتم تحريرها نهائيا إلا في سنة 952هـ/1547م.

*– الأمر كان موجها من الباب العالي إلى علي باشا حاكم الجزائر.

**– يقصد بهم مسلمي اسبانيا.

[2]– عبد الجليل التميمي، المرجع السابق. ص: 86.

– أن الجزائر كانت أكثر الإيالات المغاربية المعنية بمساعدة مسلمي اسبانيا نظرا لقوتها العسكرية التي عرفت بها في تلك الحقبة التاريخية.

– كلما كان الحديث على مسلمي اسبانيا نجد أن السلطات العثمانية وعلى رأسها البـاب العـالي لا

يستعمل مصطلح "الموريسكيين" وإنما يستبدله بـ " المسلمين".

– وصف العدو الاسباني بـ "**الكافر**" إشارة إلى صيغة الدينية التي اكتسبتها الحملات العثمانية ضد اسبانيا.

من خلال ما ذكر أعلاه من معطيات تاريخية نستنتج أن الاتصالات التي قامت بين الخلافة العثمانية ومسلمي اسبانيا كانت لها نتائج ايجابية حتى ولو بشكل نسبي، فمجرد المساهمة الفعلية والميدانية لإيالات المغرب بأمر من السلطان العثماني هو في حد ذاته مساعدة وعدم الاكتفاء بالتحسر على مآسي هذه الأمة الشهيدة.

كما شدد الباب العالي على وقف المظالم التي لحقت بمسلمي اسبانيا الذين انتهى بهم المطاف بالاستقرار في الجزائر، ما يثبت ذلك الفرمان الذي وجهه إلى باي لارباي الجزائر ما بين سنتي 978–979هـ/1573–1574م، يقدم صورة حزينة وبائسة حول هذا الوضع الذي تثير الشفقة وجاء نصه ما يلي: "...**قام حاليا الفقراء الأندلسيون والتغريون والمدجنون بارسال مبعوث عنهم إلى الباب العالي، وأحاطونا علما بأنهم بعدما تركوا أموالهم وأرزاقهم باسبانيا، نزلوا بالجزائر. والمناطق التابعة لها، وأصبحوا فقراء لا يملكون شيئا. وقد قام قياد وحكام تلك المناطق،**

**بفرض الضرائب عليهم كغيرهم من رعايا البلاد، وهو الأمر الذي جعلهم يشتكون من ضيق وعسر المعيشة، بل وحتى الأجور التي كانوا يتحصلون عليها ، كانت تؤخذ من بين أيديهم ، وحتى البحارة فقد أخذوا منهم أموالهم وأمتعتهم ، فما هو سبب التعدي عليهم وأخذ أموالهم وأجورهم التي تحصل هؤلاء الفقراء عليها ؟ ونظرا للأمر السلطاني ، عليك بالحيطة والانقياد وأن لا تؤخذ أموال وأمتعة هؤلاء الفقراء ولا أجورهم . ولا تسمح لأي شخص بالتدخل أو التعريض لأحوالهم، ويعفى أمثال أولئك الفقراء من جميع التكاليف حتى يصلوا إلى حال الاقتدار، وتوفر لكل واحد منهم أسباب القوة، وتتم رعايتهم لحين تمتعهم بمقدار من القوة والاقتدار. وعندما تصبح أحوالهم جيدة، تؤخذ منهم الحقوق والرسوم المقررة في تلك الجهات، كسائر الرعايا في تأدية التكاليف وغيرها، ولا يتعدى على هؤلاء الفقراء بأي إجراء مغاير للشريعة والقانون، وفقا لأمرنا الهمايوني، وليبق هذا الأمر الشريف بين يديك**[1].

يمدنا هذا الفرمان الموجه إلى باي لاباي الجزائر بعدد من التعليمات:

- عدم مصادرة أملاك مسلمي إسبانيا المستقرين في المدن الساحلية الجزائرية .

- الحرص على تسليم مرتباتهم. وجوب اعفائهم من كل المطالب المخزنية[2] خلال السنوات الثلاثة بدءا من تاريخ التحاقهم بالجزائر.

---

[1]- أرشيف رئاسة الوزراء باستانيول ، مهمة دفتري رقم 10 فرمان بتاريخ 27 جوان 1571 . نقلا عن عبد الجليل التميمي ، المرجع السابق ، ص : 75

[2]- من خلال ملفات الوثائق العثمانية تأكدا للباحث بأن مصطلح الضرائب لم يكن متداولا في تلك الحقبة التاريخية، وإنما كان الاستعمال الأكثر والرائج لمصطلح المطالب المخزينة. ينظر: ملف الوثائق العثمانية، رقم: 1642، الجزائر: المكتبة الوطنية، قسم المخطوطات، رسالة رقم:19.

[3]-

– استوجب منحهم الأمن والأمان[1]، لتستقيم وضعيتهم المادية، ويومئذ يطالبون بتسديد ما عليهم من مطالب مخزنية مثلهم مثل بقية الجزائريين[2].

– هذا الأمر السلطاني يبقى بيد الباي لاباي علج علي، الذي يعد المسؤول الأول على تنفيذ كل ما ورد في نص هذا الفرمان.

**3)– اتصالات الخلافة العثمانية مع الجانب الأوروبي لمؤازرة مسلمي اسبانيا:** تبنى الباب العالي مسألة تكثيف مساعيه السياسية على المستوى الأوروبي لتقديم الدعم اللازم لمسلمي اسبانيا، وذلك بإرسال وفود دبلوماسية وسفراء على أعلى المستويات، حاملين رسائل يطلب من خلالها الباب العالي القائمين على هذه الدول بضرورة مؤازرة مسلمي اسبانيا، وذلك طبعا بناء على مصالح مشتركة بين الطرفين. فقد كانت هناك العديد من المساعي التي قام بها السلطان العثماني أحمد الأول لدى انجلترا وفرنسا والبندقية، لمساعدة مسلمي اسبانيا وإنقاذهم وتسهيل تحولهم إلى أراضي الدولة العثمانية.

انطلاقا مما سبق ذكره، كلف السلطان العثماني المدعو الحاج إبراهيم أغا[3] بالسفر إلى لندن ومقابلة ملكها جاك الأول ( Jacques 1er) وطلب مساعدته في احتضان مسلمي اسبانيا الذين

---

[1]– انقسمت المطالب المخزينة في الجزائر العثمانية إلى نوعين: شرعية وعرفية، فأما عن النوع الأول فتمثلت في الزكاة والعشور، فيما تعددت المطالب المخزينة في النوع الثاني فنذكر على سبيل المثال: الجابرية، الحكور، اللزمة، الغرامة، البشارة وحق البرنوس. ينظر: ملف الوثائق العثمانية، رقم: 1642، رسالة رقم: 30.

[2]– **أغا:** كان يطلق عليه اسم " الزبوج"، تعني باللغة العربية القائد العام. ينظر:

A. Bellegrin, Essai sur les noms et les lieux d'Algérie et deTunisie, Etymologie, Tunis : Edition : S. A. P. I. P : 204.

هاجروا وتسهيل مهمة نقلهم إلى أراضي الدولة العثمانية[1]، إلا أن انجلترا[2] التي عقدت معاهدة سلم مع اسبانيا ابتداء من سنة 1013هـ/1604م، رفضت الاستجابة لطلب السلطان العثماني، وبذلك لم تحقق السفارة أية نتيجة ايجابية.

أما فيما يخص الجانب الفرنسي فقد كانت العلاقات بين الطرفين ودية امتد تاريخها إلى سنة940هـ/1535م، حيث أقام الطرفان حلفا مضادا لكل ما هو عدو لفرنسا والخلافة العثمانية، وهذا طبعا بناءا على مصالح مشتركة ومتبادلة بين الطرفين. وعلى هذا الأساس أرسل السلطان أحمد الأول إلى الملكة "ماري دي ميدسيس"" "Marie de Medcis" الوصية على ابنها لويس الثالث عشر، رسالة يطلب منها مساعدة مسلمي اسبانيا الذين نزلوا بجنوب فرنسا، وذلك بتوفير لهم عدد من السفن ليتم نقلهم إلى أراضي الدولة العثمانية.

وقد استجابت الملكة لنداء السلطان العثماني وأمرت بإخراج مسلمي اسبانيا، وحملهم على متن سفن فرنسية انطلاقا من سواحلها وصولا بهم إلى أراضي الخلافة العثمانية[3]. والسفارة هاته التي بعثها السلطان العثماني إلى السلطات الفرنسية[4]، كانت نتيجة تدخل أحد زعماء الجماعة المسلمة المدعو محمد أبي العباس الحنفي الذي وصل إلى مدينة بلغراد وتقابل مع مراد باشا وزير السلطان

- Sylvie Martorell, Op. Cit. P : 62.

[2]- بدأت العلاقات العثمانية الانجليزية على شكل امتيازات منحتها الخلافة العثمانية لإنجلترا بموجبها أسس مجموعة من المستثمرين "شركة الليفانت" " Levant" لاحتكار التجارة.

[3]- وقعت الخلافة العثمانية مع انجلترا اتفاقية فتحت بموجبها الموانئ العثمانية أمام التجار الانجليز وسمحت لهم بالإقامة ومزاولة البيع والشراء في كافة السلع. ينظر: المنصور ميمونة حمزة، تاريخ الدولة العثمانية، الأردن: دار حامد للنشر والتوزيع، ط: 1، 2008م. ص: 44.

[4]- عبد الجليل التميمي، رسالة من السلطان أحمد الأول إلى دوق البندقية، (المرجع السابق). ص: 10.

العثماني، نقل له خلالها الظروف الصعبة والمآسي التي كان يعيشها إخوانه الذين استقر بهم الأمر في جنوب فرنسا[1].

وبهذا نجحت المساعي العثمانية لدى السلطات الفرنسية في تقديم العون والمساعدة لمسلمي اسبانيا حتى يتم نقلهم إلى مختلف البلاد الإسلامية، أين سوف تكون لهم الإقامة الكريمة والممارسة السليمة والآمنة لشعائرهم الإسلامية.

أما فيما يخص مساعي الخلافة العثمانية مع البندقية[2] حول الموضوع نفسه، فتمثلت في تلك المراسلات التي كانت تتم بين السلطان أحمد الأول مع الدوج البندقية، من خلالها ناشد السلطان العثماني دوج البندقية بتقديم كل الإعانة لمسلمي اسبانيا؛ كما طلب منه أن لا يتدخل في أمورهم أو يتعرض لهم خلافا للعهد والأمان " الذي بينهما.

يعد موضوع موقف السلطات السياسية والدينية العثمانية إزاء "المأساة الأندلسية" من المواضيع التي مازالت تثير لدى الباحثين الغرب والمسلمين، مواقف متقاطعة، إذ كلا الفرقين، يؤاخذان بشدة الدولة العثمانية لإهمالها تماما لمسلمي اسبانيا وتركهم لمصيرهم المحزن والمؤلم، وذلك بعدم تقديم دعمها لهم في الوقت المناسب، بالتدخل العسكري المباشر، والعمل على إنقاذهم من كابوس عدوهم

---

[1]- سمح هنري الرابع بادئ الأمر لمسلمي اسبانيا بالإقامة بفرنسا شريطة اعتناقهم للديانة الكاثوليكية البابوية الرومانية. وبهذا نستنتج من خلال الطلب الذي فرضه ملك فرنسا للسماح لهم بالإقامة على أراضي فرنسا؛ أنه نوع من الاضطهاد الديني الذي مورس على مسلمي اسبانيا ولكن كان أقل شدة وعنفا واضطهادا مما كان عليه في اسبانيا. كما اعتبر الطلب الذي فرضته السلطات الفرنسية على مسلمي اسبانيا ناتج على الصراع الفرنسي الاسباني سواء كان ذلك الصراع ديني أو سياسي. ينظر: كليليا سارنلي وت شركو، الحجري في فرنسا، ضمن أعمال المؤتمر الدولي الموسوم بـ : ترحيديا طرد الموريسكيين من الأندلس، (المرجع السابق). ص: 95

[2]- كانت البندقية أولى الدول التي سارعت إلى بناء علاقات مع الخلافة العثمانية، وإن لم يكن هذا بشيء من المبالغة، فإن تاريخ العلاقات بين الطرفين امتدت منذ سنة 1408، حين تعهدت البندقية بدفع ألف وست مائة ذهب قبل فتح القسطنطينية بخمس وأربعين عاما. ينظر: دوسون مراد جه، نظم الحكم والإدارة في الدولة العثمانية في عهد مراد جه دوسون، تر: فيصل شيخ الأرض، د ط، د س ط. ص: 200.

اللدود، الذي حكم عليهم بموت حضاري بطيء، ومنعهم من الاحتماء بمرجعيتهم والاعتزاز بلغتهم ودينهم وتراثهم الحضاري.

فملف العلاقات العثمانية مع مسلمي اسبانيا، منذ سقوط غرناطة سنة 897هـ/1492م وحتى الطرد النهائي سنة 1018هـ/1609م، قد عولج جانب منه من خلال أرصدة الوثائق العثمانية والفرنسية والعربية، والتي شرحت كيف أن السلطة العثمانية كانت على علم بمأساتهم بواسطة استلامهم للعديد من الرسائل التي وجهها مسلمو اسبانيا إليها؛ وكذا من خلال تلك الوفود المسلمة التي زارت إسطنبول للفت الانتباه لمواجهتهم المستمرة والدامية مع عدوهم الذي سعى إلى اجتثاثهم من أندلسيتهم بالقضاء عليهم بصورة تدريجية وذلك بإعلان حرب ضروس عليهم، انتهت في آخر المطاف باتخاذ قرار الطرد النهائي من اسبانيا عام 1018هـ/1609م.

ومهما كانت وجهات النظر مختلفة وغير متباينة فيما يخص دعم الخلافة العثمانية لمسلمي اسبانيا في صراعهم مع الاسبان النصارى إلا أنه يجب التنويه في هذا المقام بأنه كان للخلافة العثمانية فضل كبير في انقاذ الآلاف من مسلمي اسبانيا من الموت. كما كان لها الفضل في زعزعة استقرار وأمن اسبانيا بالمشاركة الفعالة للأسطول الجزائري في صد المد الصليبي الاسباني من المياه الاقليمية لغربي البحر الأبيض المتوسط، مما جعل اسبانيا ترتبك لمجرد سماعها بوجود اتصالات بين العثمانيين ومسلمي اسبانيا.

**4)– الاتصالات على مستوى المشرق الإسلامي:** توجه مسلمو اسبانيا إلى قانصوه

الغوري سلطان دولة المماليك[1] البرجية[2] برسالة استغاثة أوضحوا له من خلالها ما آلت إليه أحوالهم من إكراه على الارتداد، وانتهاك الحرمات. فأرسل قانصوه وفدا ملكيا إلى اسبانيا، حاملا رسالة تهديد إلى الملكين فحواها إجبار النصارى المقيمين في بلاده على اعتناق الإسلام بالإكراه، إذا لم يحترم الملكان بنود معاهدة الاستسلام التي تم ابرامها بين الملك المخلوع أبي عبد الصغير والملكين الكاثوليكيين.

على هذا الأساس أرسل الملكان وفدا إلى مصر سنة 906هـ/1501م، يتزعمه رئيس كاتدرائية غرناطة، الذي استطاع أن يغرر بسلطان مصر ويوحي له بأن مسلمي اسبانيا في حالة جيدة ويعاملون معاملة حسنة، وأنّ لهم الحقوق والواجبات نفسها التي يتمتع بها الإسبان؛ وهذه الأبيات تؤكد صحة هذه المعلومات التاريخية إذ ورد فيها ما نصه[3]:

| | |
|---|---|
| وقد بلغت إرسال مصر إليهـــم | وما نالهم غدر ولا هناك حرمة |
| وقالوا لتلك الرسل عنـا بأننـــا | رضينا بدين الكفر من غير قهرة |
| وساقوا عقود الزور ممن أطاعهم | ووالله ما نرضى بتلك الشهـــادة |
| لقد كذبوا في قولهم وكلامهـــم | علينا بهذا القـــول أكبر فريـــة |

[1] – **المماليك**: من جهة اللغة جمع مملوك، وتطلق دولة المماليك أو سلطنة المماليك على المماليك الذين اشتراهم الملك الصالح نجم الدين أيوب، ليكونوا له جندا وحرسا، ويرجع أصلهم إلى الجنس التركي. وتعتبر دولة المماليك ثالث قوة في العالم الإسلامي آنذاك وكانت صاحبة السيادة على كل من مصر والشام والحجاز واليمن. وتولت هذه الدولة الحكم منذ أواسط القرن الثالث عشر تقريبا، وكان لهذه الدولة الفضل في إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة عام (660هـ/1261م) وبذلك أضفت على نفسها الطابع الشرعي. ينظر: فريد بك محمد المحامي، تاريخ الدولة العلية، بيروت: د د ن، 1977م. ص ص : 42،44.

2_ كانت دولة المماليك من أشهر الدول الإسلامية بمصر. وقد اعتنى سلاطينها بإقامة المدارس والمساجد؛ فأصبحت مصر على عهدهم ملجأ العلماء والمهاجرين من المشرق الإسلامي بعد سقوط بغداد وهجومات المغول، وهم الذين صدروا هؤلاء عن بقية العالم الإسلامي، وجددوا الخلافة العباسية في القاهرة بعد انقراضها من بغداد. بنظر: المطوي العروسي، المرجع السابق. ص : 125.

[3] – المقري، أزهار الرياض، ج: 1، (المصدر السابق). ص ص: 109-115.

ولكن خوفا القتل والحرق ردنـــا نقول كمـــا قـــالوه من غير نيـــة

مع الأسف لم يحقق قانصوه في الموضوع، لانشغاله بتحركات السلطان سليم الأول التي راح ضحيتها السلطان قانصوه الغوري في معركة مرج دابق عام 921هـ/1516م. من خلال دراستنا لهذا الموضوع حرب الإعلام أردنا أن ننوه بالوعي السياسي الذي ميز مسلمي اسبانيا بالرغم من كل الضغوطات الممارسة عليه، وأنه كيف استطاع استغلال الأوضاع الدولية الراهنة لصالحه، ولولا ذلك لكان أبيد هذا الشعب على آخره، على أن هذه المبادرة دراسة الجانب الإعلامي في الرسالة يبقى عملا جديدا ينتظر دراسات مستقبلية قد تضيف له الكثير انطلاقا من الوثائق الأرشيفية خاصة العثمانية منها.

# الفصل الثاني: العمل المسلح دوافعه وأهذافه (904_ 906هـ/ 1499_ 1501م)

## المبحث الأول: تداعيات سياسة التهميش والاقصاء

1)_ الدوافع المحركة للعمل المسلح

2)_ نظرة مسلمي اسبانيا للجهاد من خلال مخطوط ألخميادي

3)_ انعكاسات ظاهرة النبوءات على العمل المسلح

## المبحث الثاني: المقاومة الإسلامية في غرناطة والجبل الأحمر (904_ 921هـ/ 1499_ 1516م)

1)_ انتفاضو حي البيازين 904هـ/1499م

2)_ حرب البشرات الأولى 904هـ/1499م

3)_ مواصلة الكفاح المسلح في الجبل الأحمر (904_ 906هـ/1499_ 1501م)

لقد أنهى الملكان الكاثوليكيان مهمتهما العسكرية متوجة بأخذهم لآخر معقل للمسلمين بأرض الأندلس، فسلمت لهما مفاتيح قصر الحمراء من طرف أبي عبد الله الصغير آخر ملوك غرناطة رفقة قائده ابن كماشة، وذلك تحت ستار الظلام والصمت خوفا من انفلات رعيته وتحويلهم غرناطة إلى مقبرة لهم ولأعدائهم.

كان حدث تسليم مفاتيح غرناطة بالنسبة للملكين وللكنيسة الكاثوليكية الحليف المباشر بمثابة انتصار سياسي وعسكري لا غير، أما الانتصار الأكبر والأشمل بالنسبة لهم يجب أن يكون انتصارا دينيا، لأن رغبة هذه الأطراف تكمن في خلق الوحدة الروحية الدينية، والتي هي بالنسبة لهم أسمى وأشرف من الوحدة الوطنية، وذلك بحسب منطق ذلك العهد.

لكن مثل هذه الغاية لا يمكن أن تتحقق إلا على جسر التنصير الإجباري لكل كائن حي يرزق على ظهر شبه الجزيرة الإيبرية، من هناك نجدهم ينتقلون إلى تحقيق مهمتهم إلى أصعب جوانبها وأخطرها وهو تنصير المغلوبين من المسلمين أو إبادتهم أو طردهم من الأرض التي كانت وطنهم ولا وطن بديل عنه.

أمام تعنت السلطات السياسية والدينية الاسبانية، كان على هذه الأقلية المنبثقة من تلك الحضارة المهزومة، أن يستجيبوا لثلاث خيارات إما التنصير أو الموت أو الجلاء؛ فهناك فريق اختار اعتناق النصرانية الكاثوليكية كرها وظاهريا فقط، فيما احتفظ بإيمانه المقدس للإسلام خفية؛ في حين فضل الفريق الثاني الهجرة من أرض الوطن نحو دول المغرب العربي فرارا بدينه وروحه؛ أما الفريق الثالث ففضل رفع لواء الجهاد أملا في استرداد ما ضاع منهم، أو على الأقل دفاعا على مقومات شخصيتهم

الإسلامية.

لعل الدافع الرئيس لاندلا ع حركة المقاومة الإسلامية يكمن في عمق إحساس مسلمي اسبانيا تجاه أرضهم ووطنهم الذي فرضت عليهم سياط القهر والتعسف مغادرتها وقطع أواصر انتمائه بها، إنها محاولة اجتثات بالقوة لقلع ما تبقى من ثمالة حضارة دكت وانهدت، إلا أن هذه الفئة المغلوبة على أمرها أرادت أن تراهن بآخر نفس، لذا كان عليها أن تختار الطريق الصعب، طريق المواجهة ورفض أمر الواقع.

لهذا سوف نجدهم يرفعون تمردهم واحتجاجاتهم الساخطة المتعالية في كل منطقة عرفت حضورهم سواء كان ذلك في شمال شبه الجزيرة الإيبيرية كأراغون وقشتالة، أو بجنوبها في جبال البشرات بضواحي غرناطة، هذه الأخير شهدت أعنف المقاومات المسلحة مما جعل مثل هذه الهزات تزيد عمر الوجود الإسلامي، ليمتد على طول الأعوام الرابطة بين تاريخ 987هـ/1492م وهو تاريخ تسليم غرناطة إلى غاية قرار الطرد 1018هـ/1609م، بل استمرت بعد هذا القرار.

فطيلة هذه الحقبة كان لسان حال مسلمي اسبانيا هو المقومات الشعبية المسلحة والمنظمة والمدربة كلسان حال ناطق في وجه زبانية محاكم التحقيق التي كانت الخصم والحكم في الوقت نفسه، كما كانت الوصية باسم الأب والابن وروح القدس . على حد زعمهم . وباسم قداسة البابا الصليبي الذي ما انفك يزيد الطين بلة لإذكاء حمية التعصب والحقد.

من خلال هذا الفصل سوف نعرض نماذج من الحركات الجهادية المسلحة التي اندلعت في فترة حكم الملكين الكاثوليكيين، لاثبات وجهة النظر التاريخية التي مفاذها الرفض القطعي والصريح الذي

أعلنه مسلمو اسبانيا في وجه حركة التنصير القهرية هذا من جهة، ولرفضهم مغادرة وطنهم الأم الذي لم يرضوا له بديلا من جهة أخرى. وقبل التطرق لمجريات أحداث المقاومة المسلحة على عهد الملكين يجب التعريج لدراسة الحالة النفسية التي سادت كل الأطراف المتصارعة في اسبانيا.

**– المبحث الأول: تداعيات سياسة التهميش والإقصاء:** سقطت دولة الإسلام بالأندلس سنة 987هـ/1492م بتسليم أبي عبد الله ابن الأحمر مدينة غرناطة آخر معقل إسلامي بالأندلس إلى الملكين الكاثوليكيين فردناندو وإيزابيلا فرفعا الصليب على أعلى أسوار قصر الحمراء و أدى النصارى صلاة الحمد شكرا للرب على هذا النصر . على حد زعمهم . وقد وعد الملكان الكاثوليكيان في اتفاقية تسليم غرناطة المسلمين باحترام دينهم وتركهم أحرارا في اعتقادهم وعباداتهم. لكن ما إن غادر أبو عبد الله قصر الحمراء حتى حولت مساجدهم إلى كنائس وقد كان هذا أول خيانة للنصارى في خطة للقضاء على معالم الدين الإسلامي.

أما الخطوة الثانية فكانت سنة 904هـ/1499م بإصدار مرسوم ملكي يقضي بتنصير المسلمين وتعميدهم قسرا وتخليهم عن أسمائهم وأزيائهم الإسلامية ولغتهم العربية وكل ما يمت للإسلام بصلة. و أمام إصرار النصارى على تنصيرهم عاش مسلمو اسبانيا حياة مزدوجة فهم ظاهرا نصارى وباطنا مسلمون. أمام هذه المستجدات قرر مسلمو اسبانيا رفع لواء الجهاد المسلح لاستعادة أو على الأقل المحافظة على ما تبقى من مقومات شخصيتهم الإسلامية.

**1)– الدوافع وراء رفع لواء العمل المسلح:** اجتمعت مجموعة من العوامل التي أدت إلى انسداد كل قنوات الحوار وسبل التعايش بين الطرفين – المسلم والنصراني – ولعل من أهمها:

– **أسباب دينية:** لعبت ولا تزال تلعب الأديان ومؤسساتها وسلطاتها، أدوارا عديدة في المجالين العام والخاص؛ ويوظف الدين في العمليات السياسية ويستخدم لأداء وظائف عديدة في الشرعية السياسية والتبرير للخطاب السياسي لبعض الحكام، ودعم سياساتها الاجتماعية وقراراتها ويشكل مكونا مهما في سياستها الخارجية أيا كانت دوائر اهتماماتها ومجالاتها[1].

إن ظواهر العنف المادي والرزمي هي جزء من الصراعات الانسانية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية؛ فالعنف المادي، الايديولوجي، الرمزي، وظف الدين فيها توظيفا مكثفا وضاغطا بين كافة الأطراف، كل طرف يحاول أن يجحد شرعية الطرف الآخر على أساس ديني، قانوني، أو سياسي.

– **الأسباب السياسية:** مند سقوط غرناطة سنة 987هـ/1492م، أخذت السلطات السياسية والدينية فرض قوانينها، وبالتالي فرض شرعيتها، إذ كل نظام ليس قادرا ذاتيا على تأمين وسائل وجوده واستمراريته مآله حتما إلى الزوال[2]. انطلاقا من هذه النظرية سخرت السلطات الإسبانية كل الامكانيات البشرية والمادية في سن القوانين ومحاولة تطبيقها بشتى الوسائل.

هذه القوانين حاولت من خلالها السلطات السياسية القضاء على الإسلام في اسبانيا و مسخ كل مقوماته، والقوانين الدالة على ذلك كثيرة قد تم التطرق إليها بالتفصيل في جزئيات متفرقة من هذا البحث. وكرد فعل طبيعي حاولت الزعامات الناطقة باسم مسلمي اسبانيا الدخول في مفاوضات رسمية تسمح لهم بتأمين قانوني للمحافظة على ثقافة الجماعة في أرض نصرانية.

---

[1]– محمد أركون، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، تر وتع : هاشم صالح، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، د ط ، د س ط. ص: 28.

[2]– حسن ملحم، التحليل الاجتماعي للسلطة، الجزائر: منشورات دحلب، د ط، د س ط. ص: 56.

إن هذه العزيمة السياسية للجماعة تهدف إلى العثور على مخرج سلمي يتفاوض حوله كل الأطراف، قد تم التعبير عنها بشكل واضح خلال المحادثات مع الملك كارلوس الخامس خلال سنتي 930-931هـ/1525-1526م وتم التمسك بها مند الطعنات الخطيرة التي تبنتها السلطة ضد جماعة المسلمين، كحملات التنصير ونزع السلاح الجماعي.

ولكن كل تلك المحادثات والمفاوضات لم تكن لترضي غرور السلطات الإسبانية وعجرفتها، فواصلت في غيها وظلمها واضطهادها لمسلمي اسبانيا، وكنتيجة لذلك، أصبحت الحلول السلمية غير مجدية، لهذا كان لابد لها من الانتقال إلى المرحلة الثانية وهي مرحلة العنف المادي.

– **الأسباب النفسية:** من المعلوم أن لكل فرد ميلا غريزيا إلى التعدي، والذي يصبح بفعل الظروف الاستثنائية ميلا إلى العنف[1]، فصفحات التاريخ مليئة بأحداث العنف النفسي وسياسة التهميش والإقصاء التي عاشها مسلمو اسبانيا تجعل من أي فرد عاش هذه الأحداث يتمرد ليس ليقول لا وإنما ليغير بالفعل ما لم يستطع تحقيقه بالحوار والتفاوض.

– **العامل الاجتماعي:** إن كل قوة اجتماعية، لابد لها من التعبير السياسي عن نفسها، ولا بد لها من استراتيجية شاملة تناسب حجم مصالحها، سواء في مجالها الضيق أو الواسع، وهذا ما يتطلب الحضور الدائم في الزمان والمكان.

فالفعل الاجتماعي هو "صورة للسلوك الإنساني ويكون فعلا عندما يخصص الفرد معنى ذاتيا معينا لسلوكه والفعل يصبح اجتماعيا عندما يرتبط المعنى المعطى لهذا الفعل بواسطة الفرد، بسلوك

[1]- حسن ملحم، المرجع السابق. ص:60.

الأفراد الآخرين ويكون موجها نحو سلوكهم." ووفقا لهذا المنظور يجب فهم السلوك الاجتماعي أو الظاهرة الاجتماعية على مستويين، المستوى الأول أن نفهم الفعل الاجتماعي على مستوى المعنى للأفراد أنفسهم.

أما المستوى الثاني فهو فهم هذا الفعل الاجتماعي على المستوى الجمعي بين جماعات الأفراد وفهم دوافعهم ونواياهم، هنا يرفض الفرد أيضا كلا من الأهداف والوسائل، ولكنه لا يقف عند مجرد الرفض السلبي مثل الانسحاب بل يتعداه إلى الإدانة والسعي نحو تقديم تصور لبناء اجتماعي بديل للبناء القائم، يضم أهدافا ثقافية مختلفة ووسائل أخرى لتحقيقها.

فتكون نتائج الصراع بناءا على الأهداف المسطرة من طرف الجماعات المتصارعة، فكلما كانت أهداف الأطراف المتنازعة غير محددة، وكلما كان الصراع حادا وعنيفا كانت الجماعات المتصارعة بالغة التحديد والوضوح[1]. وكلما ازدادت حدة الصراع، ازداد تضامن كل طرف اجتماعي من الأطراف المتصارعة لأن كل طرف يشعر بأن مصيره واحد ومشترك.

أمام هذه المستجدات التي فرضت نفسها على مسلمي اسبانيا، لم يكن أمام هؤلاء سوى التفكير في مخرج لهذا الوضع الذي في نظرهم لم يعد يحتمل، إذ أصبح الاستشهاد في ساحة المعركة أهون عليهم من البقاء تحت بطش واضطهاد النصارى الاسبان، هؤلاء أعلنوها حربا ضروسا على كل ما يرمز إلى انسانيتهم كبشر، وإلى كيانهم كسكان أصليين للبلاد، وإلى شخصيتهم كمسلمين.

**2)– نظرة مسلمي اسبانيا للجهاد من خلال مخطوط ألخميادي:** فرض الله الجهاد في

[1]– سمير نعيم، النظرية في علم الاجتماع، القاهرة: دار المعارف، ط: 3، 1982 . ص: 108.

السنة الثانية من الهجرة ونادى لنشر العدل والمساواة بين البشر في الحقوق والواجبات بين الغني والفقير، الحاكم والمحكوم، القوي والضعيف، الشريف والوضيع، العالم والجاهل، الحبر والراهب، العابد والزاهد تحت شعار واضح وحديث: " **لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأبيض على أسود. ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى الناس من آدم وآدم من تراب**" فلا عنصرية بغيضة ولا طبقية مقيتة.

وقد عبر القرآن عن ذلك بوضوح في قوله عز وجل في سورة النساء، الآية رقم: 135﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ أي يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم كونوا قوامين بالحق، ابتغاء وجه الله، شهداء بالعدل، ولا يحملنكم بعض القوم على ألا تعدلوا، اعدلوا بين الأعداء والأحباب على درجة سواء، فذلك العدل أقرب لخشية الله، واحذروا أن تجوروا.

ولما كانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم للناس كافة فكان لزاما عليه السعي لرفع هذا الظلم عن الناس كافة ومواجهة هؤلاء الطغاة في أي مكان ومهما كلف الثمن فكان فرض الجهاد على المسلمين لتحقيق مقاصد الدين السامية، ليوصل الإسلام لأهل البلد التي رفض حكامها على الدعوة إلى الإسلام في بلادهم وأعلنوا الحرب على الإسلام، فكان الجهاد على من حارب الإسلام، لا يهم أن يدخل الناس في دين الإسلام ولكن المهم أن ينعموا بالعدل والأمن تحت حكمه مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى في سورة التوبة، الآية رقم: 123 ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**﴾

هذا ما ذكره وحث عليه أحد مسلمي اسبانيا الذين عاشوا تحت ويلات القمع الجسدي والنفسي، هذا الشخص هو "**بن زكريا بن محمد بن غانم بن أحمد ابراهيم**" في كتابه الألخميادو الموسوم بـ " **العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع**"[1] إذ كتب فيما معناه أن قتال العدو وصده عن بلاد الإسلام إن دخلها أو هم بدخولها واجب، كما يجب على أهل بلد هاجمهم العدو أن يدفعوه(يقاتلوه)، فجهاد الدفع أوسع من جهاد الطلب وأعم وجوبا[2].

الرأي نفسه أيده مترجم المخطوط من الأعجمية إلى العربية أبو قاسم الحجري، الذي استند في وجوب جهاد الكفار بالسلاح بمجموعة من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية، على أن حجته وبيانه في اقناع كل من كان مترددا أو متخوفا من رفع لواء الجهاد ضد أعداء الله وخلق الله، هذا من جهة، ومن جهة أخرى اتخذها كوسيلة دعائية لإثبات مشروعية جهادهم.

ومن بين الآيات التي وظفها بن زكريا بن محمد في هذا المؤلف والحاثة على الجهاد[3] نذكر قوله عز وجل في محكم تنزيله: ﴿**إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم**﴾[4] وقد وردت الآية الكريمة مشكلة من المصحف الشريف كالآتي: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾

كما استند صاحب المخطوط في اثبات شرعية الجهاد المسلح ضد الإسبان بأقوال سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم، من ذلك قوله "**اعلم ان الجهاد ركن عظيم في الإسلام**[5] حتى

---

[1]- المصدر السابق, ورقة رقم: 1.

[2]- المصدر نفسه. ورقة رقم: 3.

[3]- المصدر نفسه. ورقة رقم: 4.

[4]- سورة محمد، الآية رقم:47.

[5]- بن زكريا بن محمد بن غانم، المصدر السابق. ورقة رقم: 5 .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "**ما تواطأت قوم على ترك الجهاد ابتلاهم الله فيما بينهم وقد شهد هذا في الدنيا والجهاد فيه خير كثير اذا كان من النبي صلى الله عليه وسلم قولا وفعلا**".

أيضا استند على حديث آخر جاء نصه[1]: "**قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن في الجنة مائة درجة اعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والارض وعنه قال صلى الله عليه وسلم المجاهد في سبيل الله كمثل الصايم الفايم الفانت بايات**[2] **الله لا يفتر من صيام ولا طول المجاهد في سبيل الله متفف عليه.**

كما استعان بالنصوص التاريخية للتحفيز على الجهاد عبرة بالسلف من المجاهدين فمن بين ما كتبه في هذا المقام ما نصه" **فالملوك المسلمون رحمهم الله فأنعم الله عليهم في الدنيا والاخرة حتى قتلوا الكفار المشركين لتكون كلمة الله هي العليا ونصرهم وتبت اقدامهم بالوقوف مع ما امر الله به في دينه الحق**"[3].

فبهذا كان الجهاد في سبيل الله فرضا، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُون** ﴾[4]، وقوله أيضا سبحانه وتعالى: ﴿ **نفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾[5]

---

[1]- المصدر نفسه. ورقة رقم: 5.

[2]- الصحيح من العبارة: الصائم القائم القانت بآيات الله.

[3]- بن زكريا بن محمد بن غانم، المصدر السابق. ورقة رقم: 6.

[4]- سورة البقرة، الآية رقم: 216.

[5]- سورة التوبة، الآية رقم: 41.

فإذا هجم العدو على بقعة من بلاد المسلمين مهما صغرت، وجب على أهل تلك البقعة دفعه وإزالته، فإن لم يستطيعوا وجب على من بقربهم وهكذا، حتى يعم الواجب جميع المسلمين، ولا نعني بالبلد، أو البقعة النطاق الجغرافي الرسمي لكل بلد، فبلد الإسلام من شرقه إلى غربه بلد واحد، وأمة الإسلام أمة واحدة، فلو قدر أن بلدا في دولة إسلامية تعرض لغزو وكان محاذيا لبلد في دولة أخرى، لكان الوجوب أسرع إلى البلدة المحاذية منه إلى المدن الأخرى البعيدة.

هذه نظرة أحد مسلمي اسبانيا لقضية الجهاد المسلح، الذي كان في رأيه واستنادا على أدلة من القرآن والسنة النبوية الشريفة فرضا لا يسقط تحت أي ظرف من الظروف. وهذا ما سوف نحاول التأكيد عليه من خلال عرض مسار المقاومة الإسلامية المسلحة مند سنة 904هـ/1499م وإلى غاية الطرد النهائي والسنوات التي تلته 1018-1020هـ/1609-1611م.

**3)- النبوءات ودورها في تحفيز مسلمي اسبانيا على الجهاد:** أنتج مسلمي اسبانيا ضمن سجلهم النثري، الكثير من كتب الأساطير والنبوءات للاستعانة بها على التمسك بهويتهم العربية والإسلامية، ومواجهة القهر والتنصير القسريين الذين أخضعهما إليهما النصارى في إسبانيا، مدغدغين بذلك أحلامهم بقرب استرداد أندلسهم الضائعة، وفردوسهم المفقود على يد هؤلاء الغاصبين.

ضمن هذا الإطار لم يكلوا عن إنتاج نبوءات عن قرب نهاية الدولة الإسبانية وسقوطها بين أيديهم، جزاءا لهم من رب العالمين على ما صبروا عليه وتحملوه من أجل التشبث المذكور. وللدفاع عن هذه النبوءات بين أوساطهم وتدعيمها في مخيلتهم لم يترددوا في نسبتها إلى بعض العباد

والصالحين، وإلى حسابات فلكية زعموها، وإلى القديس سان إزيدرو، وحتى إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

فقد أخبر خاتم المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بذلك بعضها تفصيلا وبعضها إجمالا أو إشارة، وكل ذلك بمقتضى الحكمة والرحمة، فإن الفتن المضلة الكبيرة التي تعمي وتصم وتظهر أخبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم تفصيلا حتى لا يقع فيها أحد سواء كانت أحداثا تقع أو كانت بدعا. ومما هو معلوم ومما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحاديث حول وقوع الفتن، ليحذرهم منها ولينذرهم وليلزمهم باتباع السنة، والصراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا افتراق عنه ولا يجوز التفرق فيه، وأن النصارى واليهود سيظلون العدو الأبدي لهذا الدين.

المقصود مما سبق أن الرسول صلى الله عليه وسلم، قد أخبرنا بكل ما نحتاج إليه بالتفصيل، وما كان دون ذلك فهو بحبسه، وما على الأمة إلا أن تتحرى وتجتهد معرفة وتمييز الصحيح من الضعيف أو الموضوع من هذه الأخبار، فتتلقى الصحيح الثابت – عموما والحسن – تتلقاه بالقبول وتؤمن به، وما عداه فإنها ترده ولا تقبله، فهذا مصدر يقين وحق لأنه ممن لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم إنما يظل الخلاف وهو موضع الاجتهاد في ماذا ؟ في تفسيره.

وقياسا على ما ذكر أعلاه سوف نعرض بعض النماذج لهذا النوع من النبوءات بالأوضاع المستقبلية بناء على ما ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم من أحاديث حول الفتن والأهوال التي قد تحدث للمسلمين في حالة إذا ما ظلوا عن طريق الهدى. فقد ورد في بعض الروايات التي بلغت إلى

علم محكمة التحقيق بطيطلة بواسطة أحد مسلمي المنطقة ما نصه[1]:

«**أن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، بكى ذات يوم، فلما سأله أصحابه عن أسباب حزنه أجاب قائلا: لأنه سيأتي يوم يحتل فيه المسلمون أرض المسيحيين ثم يأتي يوم آخر يسترجع فيه المسيحيون هذه الأرض، وبعدما يسترجعون غرناطة سوف يفرضون المسيحية على المسلمين ويلحقون بهم الأذى ويعرضونهم إلى العذاب>>**.

وفي هذه النبوءة المنسوبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم يبين أيضا صاحبها بأن فرج الله قريب، فلا بد التحلي بالصبر الذي سيكون زادهم وقوتهم في الصمود والمقاومة ضد أي محاولة للانسلاخ من مقومات شخصيتهم الإسلامية؛ وأن هذا الفرج سيكون سيتم انجازه من طرف قوة لم يصرح بها صاحب النبوءة ولكن احتمالا تكون الخلافة العثمانية هي المشار إليها في هذا النص الذي ورد فيه ما يلي: "...**هذا العذاب ستكون له نهاية طيبة حيث سيأتي فجأة محرر لا بد من الاعتراف به...**"

من خلال المعطيات الواردة في نص هذه النبوءة نستنتج أن مسلمي اسبانيا حاولوا الاستناد إلى معنى العام لبعض الأحاديث المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم، آخذين بالنظرية القائلة معرفة الداء هو السبيل الوحيد لإيجاد الدواء. ثم بعدها يبشر صاحب النبوءة بحدوث الفرج القريب تحفيزا وتشجيعا لهم على الصمود والثبات في وجه السلطات الاسبانية . السياسة والدينية.

**– المبحث الثالث: المقاومة الإسلامية في غرناطة والجبل الأحمر (904–921هـ/1499–1516م)**

[1]– لوي كارديال، ظاهرة التكهن علامة من علامات الهوية الموريسكية، (المرجع السابق). ص:130.

لم تكن مصيبة الأمة الإسلامية في الأندلس تنتهي بزوال سلطانهم السياسي، وسقوط آخر معقل إسلامي بيد السلطات الإسبانية النصرانية المتحدة، بل إن مصيبة جديدة بدأت، إنها مأساة الأمة هناك. مأساة تمثل فيها الثبات والتصارع ضد الفناء الذي كان يريده لهم الحكم الإسباني، لإفناء الأفراد، بل قبله فناء وإفناء العقيدة وإلغاء كل ما يتصل بذلك.

أمام هذه الأوضاع بقي مسلمو اسبانيا يقاومون دفاعا عن عقيدتهم متمثلة في وجودهم، في وقت شددت محاكم التحقيق الخناق عليهم، وتقود كل هذا وتنجزه بروح صليبية، تأخذ من تبدو عليه أية صلة بالإسلام، أو يضبط متلبسا يؤدي الشعائر، أو يترسم عادة من العادات أو يحمل شارة من شارته، حتى الملابس والاغتسال اعتبرت دليلا عليه. فكان من جراء ذلك أن رفع هؤلاء المضطهدين لواء الجهاد المسلح في معركة البقاء.

**1)– انتفاضة حي البيازين عام 904هـ/1499م:** اتخذت حرب الإسلام بعد سقوط غرناطة عدة أشكال، مرت بمراحل لاسيما حين استتبت الأمور للسلطان القشتالي، بعد دخول الملكين الكاثوليكيين غرناطة، واستحواذهما عليها وزال ما كانت تخشاه من انتقام المسلمين أو انتفاضهم عليها، فأحكم قبضته وبدأ يعد العدة لحرب المسلمين ونقض الشروط التي لم يعطها إلا إغراء لهم، وتعجيلا بالاستسلام ليتجنب مقاومة ترهقه، وتكلفه الكثير.

وفي غضون ذلك بلغ اليأس بمسلمي اسبانيا في غرناطة ذروته، ولم يعد بمقدورهم الصبر على الظلم الفادح، وما لقوه ولا زالوا يلقونه من الحيف والجور، فتذامروا وتداعوا إلى المقاومة المسلحة ذودا عن دينهم وأنفسهم وكرامتهم، إزاء هذا التعسف والتعنت المضنى الذي لم يعرف له مثيل فنشبت

حركة مقاومة إسلامية في غرناطة خاض خلالها مسلمو المنطقة معركة الحياة والموت، مع الإمبراطورية الاسبانية، أقوى إمبراطورية في العالم في ذلك الوقت.

أما الإسبان الكاثوليك فإنهم من جانبهم، لم يستكينوا ولم يهدأ لهم بال، بل استمروا في حربهم الضروس لإخماد المقاومة وضربهم لها بيد من حديد وبشكل متواصل، ولم يتركوا وسيلة عدوانية وسياسية، إلا استخدموها في محاربة المجاهدين الذين رفعوا لواء الجهاد بداية في حي البيازين.

فقد اتسعت هذه الضاحية حتى فاقت حدود المدينة، فكانت من الاتساع ما شكلت ضاحية مستقلة لها جهازها القضائي، كما كان لهذه الضاحية "شريعة"[1] خاصة بها. وكانت البيازين الأصلية تشغل المنطقة الواسعة التي قام بتسويرها، بناء على أوامر يوسف الأول عام 750هـ/1350م وزيره المشهور رضوان[2] وكان للبيازين ثلاث مساجد في مستوى جامع[3].

*– **أسباب ومجريات المقاومة:** بلغ التوتر أقصى مداه نتيجة لمحاولات الأب خمينيس المتكررة في الضغط عليهم بشتى الوسائل لتنصير مسلمي غرناطة، وكانت ممارسات عماله تثير الغضب وتأذن بانفجار شعبي على مستوى حي البيازين، الأمر الذي أدى في النهاية إلى الغليان، بعد وقوع اصطدامات بين أهل الحي وبعض رجال خمينيس[4]؛ نتيجة اعتداء الخادم الخاص بخمينيس سالثيدو "Salcedo" بالاشتراك مع أحد مفوضي الشرطة على فتاة مسلمة في حي البيازين.

---

[1]– **الشريعة:** هو مصطلح أندلسي يعني البطحاء التي كانت تسمح للجماعة باقامة الصلوات عليها. كان موقع شريعة البيازين في المنطقة التي تحيطها الآن كنائس "القديس كريستوبال" والقديس "غريغوري" والقديس "بارتولومي".

[2]– **رضوان:** كان مسيحيا واعتنق الإسلام؛ بقي في خدمة ثلاثة سلاطين من حكام غرناطة.

[3]– **جامع البيازين:** عرف بجمال هندسته المعمارية؛ تربع على مساحة قدرت بـ 32،20 X42،20 متر، ضم تسع ممرات، و86 عمودا رخاميا. تحول الجامع إلى كنيسة على يد الكاردينال ثيسنيروس خلافا لشروط معاهدة التسليم، ثم صار كنيسة أبرشية سنة 1501 عندما صارت الصلاة جريمة يعاقب عليها القانون.

[4]– ذنون عبد الواحد طه، حركة المقاومة العربية الإسلامية بعد سقوط غرناطة، بيروت: دار المدار الإسلامي، ط:1، 2004م. ص: 21.

عندها هب سكان الحي في انتفاضة عارمة، استجابة لصراخ الفتاة، ففر الخادم، وقتل أحد الشباب المنتفضين مفوض الشرطة. ومن ثم سارت جموع المقاومين إلى دار الأب خمينيس[1] للقضاء عليه، لعلمهم بأن هذه الحادثة هي من تخطيطه. واختار المقاومون أربعين رجلا منهم يمثلون مجلس المقاومة،[2] وذلك بعدما أذن لهم علماء وزعماء غرناطة بضرورة حمل السلاح دفاعا على أعراضهم وأرواحهم.

احتمى خمينيس في بيت حاكم غرناطة "الكونت دي تنديا" الذي كانت تربطه علاقة طيبة بسكان الحي، فقد كان محل احترام وتقدير منهم لحسن معاملته لهم؛ إلى حين وصول الدعم العسكري من السلطات الاسبانية.

أغلق المقاومون الطرقات أمام الحملات العسكرية التي أرسلتها السلطات ورموها بالحجارة، وتفاديا لتفاقم الأوضاع استنجدت السلطات بمطران[3] غرناطة الأب تنديا الذي حظي باحترام سكان المنطقة، فدخل في مفاوضات مع زعماء المقاومة محاولا إقناعهم بضرورة التريث ووضع السلاح، فاستطاع بفضل حنكته وثقة الزعماء في شخصه بوقف القتال مقابل وعود ضمنتها لهم السلطات الاسبانية والقاضية بمعاقبة المعتدين[4]، وتغيير سياستها اتجاههم، فانتهت المفاوضات بما يلي:

---

1_سالم عبد العزيز، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس. ص:360

2– **دار الأب خمينيس**: موجودة بقصر الحمراء

**3– مطران**: هو إيجاز لكلمة يونانية تدل على المسؤول عن " أم المدن" متروبوليس. ينظر: بولوس الفغالي، موسوعة الأديان، (المرجع السابق). ص: 80.

-Pool, the Moors in Spain, London, 7thedition, 1988, P: 229

– احترام الاتفاقيات المبرمة بين الطرفين.

– أن يعامل المسلمون بكل احترام شريطة أن يكونوا رعايا للملكين الكاثوليكيين، وأن يؤدوا ما عليهم من ضرائب.

– التعهد بعدم إكراههم على اعتناق النصرانية، وأنه من اعتنقها طواعية فله أن يحتفظ بممارسة عاداته وتقاليده ولغته، ومن أبى اعتناقها فعليه أن يغادر مدينة غرناطة.

بالمقابل كانت طلبات زعماء المقاومة، ضرورة مغادرة فورية للأب خمينيس نحو اشبيلية[1]. فكان جواب الكونت دي تنديا أنه سوف ينقل طلباتهم إلى الملكين، وريثما يأتي لهم بقرارهما، فلهم أن يحتفظوا بابنه وزوجته كرهائن على حسن نيته.

لكنها كانت مجرد وعود كاذبة، ذلك أن مطران غرناطة وغيره يعملون أولا وأخيرا لصالح النصرانية الكاثوليكية والسياسة الاسبانية[2]، فلم يستمع الملكان لانشغالاتهم، وأهملوا الأخذ بما اقترحوه من حلول سلمية للحد من الاضطهاد الممارس على مسلمي غرناطة .

لم ينتظر زعماء مجلس المقاومة ردود السلطات الاسبانية، بل فروا نحو جبال البشرات وتحصنوا بها خشية التنكيل بهم أو ملاحقتهم من قبل السلطات، ذلك أنهم لم يكونوا يثقون في وعودها، فمن يغدر مرة، لا تأمن غدره مرات ومرات.

***– نتائج المقاومة:** كانت هناك وردود فعل على الصعيد الداخلي سواء على مستوى

[1]– حتامله محمد عبده، التنصير القصري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين، عمان، د ط، 1986، ص: 77.

[2]– عبد العزيز سالم، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، (المرجع السابق). ص:306.

السلطة السياسية ممثلة في الملكين الكاثوليكيين بمباركة رجال الكنيسة[1]، أو على صعيد مسلمي غرناطة على وجه الخصوص، ومسلمي اسبانيا عموما:

**أ)– ردود الفعل على مستوى السلطة السياسية:** أصدر الملكان مجموعة من القرارات التي كانت الخطوة الأولى نحو إعلان الحرب علانية على كل ما يمثل الإسلام، فقد استدعت الملكة إيزابيلا[2] الأب خمينيس قصد تحمليه رسالة واضحة إلى مسلمي حي البيازين على وجه الخصوص، ومسلمي غرناطة عموما، ضمت هذه الرسالة مجموعة من القرارات التي هي بمثابة إعلان صريح لنقض المعاهدة فشملت ما يلي:

– بما أن الملكين هما كاثوليكيان ولا يدينون إلا بالنصرانية الكاثوليكية فلا يقبلا أي وجود لدين غير هذا الأخير، وإن أرادوا البقاء فعليهم أن يعتنقوا النصرانية، وأن إتباع اللين مع سكان غرناطة بعد هذه المقاومة لن ينتج إلا مقاومات أخرى في بقية المناطق الأخرى. وبهذا تم فرض التنصير القصري على كل مسلمي غرناطة، وخيروا بين هذا الأخير أو الرحيل من غرناطة نحو بلدان المغرب العربي.

– يمنع منعا مطلقا دخول مسلمي المناطق الأخرى مدينة غرناطة تحت أي ظرف من الظروف، وكل مخالف لهذه التعليمة يتعرض إلى عقوبات صارمة.

---

[1]–كانت إيزابيلا أكثر تدينا وورعا من زوجها فرديناند وقد أحبها الشعب الاسباني، والتف حولها الرهبان والأحبار ، يوحون إليها بمشاريعهم وأفكارهم، كانت تركز حول القضاء على الإسلام، ونشر النصرانية في كل بلاد ادنيا، بدء من غرناطة المحتضرة. كما كانت أكثر تعصبا وعلى صلة طيبة بالبابا ، وأمراء فرنسا ودوقتها، وكذلك بالشخصيات البارزة في انجلترا ونبلاء الفلاندرز على وجه الخصوص .

[2]– كان هذا القرار ناتج عن تخوف السلطة السياسية من وصول أخبار المقاومة إلى مناطق أخرى، وبتالي ترفع من معنوياتهم الروحية، التي سوف تفتح مجالا إلى تمردات أخرى.

– دفعت هذه المقاومة إلى إصدار مرسوم ملكي سنة 906هـ/1501م، يحرم ممارسة أي عمل يمت إلى عقيدتهم ولغتهم بصلة [1].

ب)– **انعكاساتها على مسلمي المنطقة:** تأكد مسلمو المنطقة بأن السلطات الاسبانية مقبلة على نقض كل بنود المعاهدة، وسوف تفعل ما في وسعها لتنصيرهم قهرا، أو ترحيليهم، لهذه الأسباب التحقت الجموع الثائرة بالجبال هربا وفرارا من المصير المحتوم الذي كان ينتظرهم في حالة إلقاء القبض عليهم، وأن المقاومة المسلحة هو السبيل الوحيد للخلاص.

نستخلص من هذه التجربة المسلحة التي أعلنها مسلمو حي البيازين في وجه سياسة الاضطهاد والظلم التي قادها الملكان الكاثوليكيان بمباركة رجال الكنيسة أنها لم تثمر نتائج ايجابية، إلا أنها مكنتهم من إيصال كلمتهم إلى العالم الإسلامي. كما أنهم تيقنوا بضرورة رفع السلاح في وجه العدوان الاسباني حفاظا على أرواحهم وأعراضهم ودينهم.

هذا فيما يخص انعكاساتها على الصعيد السياسي، أما فيما يخص الجانب الديني، فلقد اتخذت السلطات الإسبانية بزعامة الملكين الكاثوليكين ومباركة الكنيسة قرار تنصير كل مسلمي غرناطة قسرا إلا ترحيلهم، وهذا ما سنستشفه من كلام المقري الذي وصف القمع الديني الذي مورس على مسلمي اسبانيا فكتب بهذا الصدد ما نصه[2]:

**"...ثم أن النصارى نكثوا العهد، ونقضوا الشروط عروة عروة، إلى أن حال لحملهم المسلمين على التنصير سنة أربع وتسعمائة، بعد أمور أعظمها وأقواها عليهم أنهم قالوا: أن**

---

[1]–حتاملة، التنصير القصري، (المرجع السابق). ص ص: 77–79.

[2]– المقري، نفح الطيب، ج:4، (المصدر السابق). ص ص: 527، 528.

**القسيسين كتبوا على جميع من كان اسلم من النصارى أن يرجعوا قهرا للكفر، ففعلوا ذلك وتكلم الناس ولا جهد لهم ولا قوة، ثم تعدوا إلى أمر آخر، وهو أن يقولوا للرجل المسلم: أن جدك كان نصرانيا فاسلم فترجع نصرانيا، ولما فحش هذا الأمر قام أهل البيازين على الحكام وقتلوهم. وهذا كان السبب للتنصير، قالوا: لان الحكم خرج من السلطان ان من قام على الحاكم فليس إلا الموت أو أن يتنصر فينجو من الموت، وبالجملة فإنهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة..."** [1].

بالرغم من فشل هذه المقاومة إلا أنها كانت بمثابة تحدي قوي لأكبر قوة عسكرية عرفها العالم آنذاك. فقد اعتقد الملكان الكاثوليكيان أنه بمجرد سقوط غرناطة وتوحيدهم لإسبانيا سياسيا، قد أنهوا حربهم العسكرية، وكان عليهم خوض حرب نفسية ودينية، ولكن ما حصل على مستوى حي البيازين أخلط كل الأوراق في البيت الملكي القشتالي، إذ لم تتصور السلطات الإسبانية لحظة أن مسلمي اسبانيا سيتجرؤون عليها ويرفعون لواء الجهاد العسكري، الذي سيكون بمثابة الشرارة الأولى لحركات مقاومة أخرى ستندلع في مناطق أخرى معلنين رفضهم للانسلاخ عن مقومات شخصيتها الإسلامية.

**2)– حرب البشـرات الأولى 904هـ/1499م:** انتشرت أنباء ما حـدث في إشبيلية، والقرار الذي اتخذته إيزابيلا فيما يتعلق بمسلمي غرناطة، فوجد هؤلاء أنفسهم في وضع كانت فيه فرص الاختيار ضئيلة جدا، فرضخ البعض لقرار إيزابيلا، بينما آثر البعض الآخر ترك المدينة والالتحاق

[1]– المقري، نفح الطيب، ج:4، (المصدر السابق). ص ص: 527، 528.

بإخوانه في جبال الجنوب، أما المجموعة الثالثة من سكان المدينة فاختارت أضعف الإيمان وذلك بتقديم بعض المساعدات إلى المقاومين في الجبال دون المشاركة في المقاومة.

ومع تقدم الوقت والإحساس بأن إيزابيلا ماضية في تنفيذ القرار الذي خلصت إليه، بدأ سكان الجبال في التحضير للمقاومة؛ وفي سنة 904هـ/1499م اندلعت الشرارة الأولى في جبل البشرات، وسرعان ما استجاب لها سكان المناطق أخرى، وكان أشدهم تحمسا المسلمون الذين رحلوا عن غرناطة فور استسلامها.

فلقد لعب العامل الطبيعي والمناخي دورا مهما في تسيير وتفعيل مجريات الأحداث بين طرفين، الذي حاول كل واحد منهما فرض وجوده ودينه، وأيضا كل على حسب قدرته وايمانه بشرعية رسالته والأهداف التي رسمها أمام طريق يجهل نهايته.

أحداث المقاومة جرت بمنطقة البشارات وهي عبارة عن جبال شاهقة بنواحي غرناطة، تمتد سلسلتها إلى البحر الأبيض المتوسط، تضم في أرجائها غابات وأودية[1]، لذلك اختارها مسلمو اسبانيا معقلا لعملياتهم الجهادية ضد الطغيان الاسباني الصليبي. كما ضمت المنطقة مجموعة من القرى استوطنها المسلمون الفارون من بطش محاكم التحقيق، وقد أصبحت هذه المناطق لوعورتها وصعوبة الوصول إليها ملاذا للمجاهدين الذين قرروا الاستشهاد بدلا من حياة الذل والهوان.

كما تبين سابقا، فقد كان للمنطقة خصوصياتها الطبيعية، التي ساهمت بشكل مباشر وفعال في تفجير حركة مسلحة زعزعت عرش اسبانيا، هذه الحركة التي كان أبطالها رجالا ونساءا عرفوا

[1]- قشتيلو محمد، الموريسكيون في الأندلس وخارجها، الرباط: منشورات مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات، ط:3، 2008 م. ص: 49.

بروحهم الانتقامية، إذ كانوا يغتنمون أية فرصة للأخذ بالثأر من القوانين التعسفية التي صدرت ضدهم.

*– **مجريات المقاومة:** وصلت أنباء اندلاع المقاومة إلى مسمع إيزابيلا فكلفت الكونت تندلة وغومثالو القرطبي "Gonsalvo de Codoba"[1] بإخمادها، فسار القرطبي إلى مدينة وجار Guejar"[2]؛ وما كاد فرسانه يقتربون من أسوار المدينة حتى وقع قسم منهم في خنادق حفرها أهل المدينة، تم تغطيتها بالزرع والقش. وخلال الفوضى التي ذبت في صفوف الجيش الإسباني فتح المقاومون أبواب المدينة انقضوا على الجنود الإسبان وقتلوا منهم الكثير[3].

إلا أن القرطبي تمكن من التراجع في الوقت المناسب وضرب حصارا على المدينة، استمر فترة غير معروفة، وبعد وصول الإمدادات العسكرية استسلمت المدينة، فدخلها جيش القرطبي وقتل جميع رجالها، وسبى نساءها وأطفالها عن آخرهم[4]، أما الرجال فقد التحقوا بالجبال قبل وصول الحملة؛ ولم يكتف الجنود الاسبان بهذا، بل هدموا المنازل على رؤوس ساكنيها، وأحرقوا المدينة.

ثم انتقل الجيش إلى مناطق أخرى، إلا أن وعورة التركيبة الجغرافية للمنطقة والخوف الدائم من الكمائن جعل عملية تقدم الجيش صعبة للغاية؛ وبنهاية السنة بات من الواضح أن الجيش الاسباني بقيادة القرطبي وجنود تندلة غير قادرين على قمع المقاومة، فطلبا من الملك فرناندو المساعدة خوفا من

---

[1]– **تندلة وغومثالو القرطبي:** كان من أشهر القادة في الجيش الإسباني، شارك في مباحثات استسلام غرناطة سنة 896هـ/1491م نظرا لثقة الملكين الكاثوليكيين به.

[2]– وردت في المصدر "الإحاطة بأخبار غرناطة" باسم أبشر.

[3]– ابن الخطيب، المصدر السابق، ج:1. ص ص: 132، 134.

[4]– بشتاوي، المرجع السابق، ص: 97.

[5]– حومد، محنة العرب في الأندلس، (المرجع السابق).ص: 196.

أن تطول الحرب، فيتحرك أهل العدوة لنجده إخوانهم في الجنوب الأندلسي.

ونظرا لصعوبة موقف الجيش الاسباني، خرج الملك فرناندو شخصيا سنة 905هـ/1500م على رأس قوة عسكرية متكونة من مجموعة كبيرة من القادة والفرسان والنبلاء للقضاء على المقاومة قبل أن يستفحل أمرها، وأثناء طريقه احتل بعض القرى والحصون، مثل وادي لكوين، ومدينة لانخروف، ولوشار، وقونقة، وأندرش، وأمعن في التنكيل بأهلها[1]، بعدما لقيه من مقاومة عنيفة حطت من معنويات جنوده.

بعدما تمكنت القوات الاسبانية بقيادة الملك فرناندو من القضاء على التجمعات الرئيسة للمقاومة أخذ يتقدم بسرعة زاحفا نحو المدن والقرى المحيطة بجبال البشرات، ولما يئس رجال المقاومة من تحقيق انتصارات أخرى، أو حتى الوقوف في وجه زحف القوات الاسبانية فترة كافية لوصول الإمدادات من المناطق الجنوبية الأخرى، أو من عدوة المغرب، عقدوا على أمر الصلح.

وبما أن العامل الطبيعي والمناخي، بالإضافة إلى نقص المؤونة التي أصابت الجيش الاسباني، فضل الملك فرناندو الدخول في مفاوضات ذلك أنه كان يتخوف من تحرك عسكري قد يأتي من أهل المغرب؛ وبعد مباحثات طويلة بين الطرفين توصلوا إلى ما هو الآتي:

- تقديم قيمة مالية قدرت بـ 50000 دوقة "Docados"ذهبية[2].

- تسليم جميع الأسلحة والحصون والمنابر التي كانت بحوزة المقاومين.

بالمقابل تعهد الملك فرناندو الوفاء بتطبيق جزء من شروط معاهدة استسلام غرناطة سنة

---

[1]- هويدي فهمي، في بلاد الموريسك غرباء الأندلس، مجلة العربي، ع: 228، ص: 71.

[2]- **دوقة ذهبية**: هي عبارة عن عملة ذهبية اسبانية قديمة اختلفت قيمتها باختلاف العصور.

987هـ/1492م، من بينها السماح بالرحيل لكل من يرغب في ذلك مقابل دفع مبالغ مالية.

*– **نتائج مقاومة البشرات:** كان للحركة الجهادية المسلحة التي قادها مسلمو البشرات آثارها وانعكاساتها على شتى الأصعدة، فقد حاول الملك فرناندو من خلال اصداره لمجموعة من القرارات تخويف باقي المناطق الأخرى بهدف ردعهم، والقضاء على أي محاولات أخرى لزعزعة أمن واستقرار السلطات الاسبانية. على هذا الأساس وفي السياق نفسه صدرت مجموعة من القرارات تضمنت ما يلي:

– استحضر الملك فرناندو جيشا من القساوسة والرهبان ليقوموا بعملية التنصير لأهل البشرات، في الوقت نفسه أرسلت إيزابيلا مبعوثها إلى أهل غرناطة ينبئهم بأن المعاهدة قد خرقت بسبب هذه الحركات المسلحة وقتل الفرسان القشتاليين؛ ومنذ ذلك الوقت بدأت عملية التنصير الإجباري، وظهر اسم "الموريسكيين".

– اضطهد الإسبان مسلمو اسبانيا اضطهادا لا نظير له، فقتلوا نساءهم وأطفالهم، وتعرضوا لحرب إبادة مكشوفة، لأن هؤلاء في نظر الإسبان مجرد عبيد ورقيق[1].

– إجبارهم على أحد الخيارين: إما التنصير القسري، أو التهجير خارج اسبانيا، ووصل هذا القرار إلى سكان قشتالة وليون[2].

– نسفت السلطات الاسبانية جل المساجد، وما تبقى منها حولته إلى كنائس، وقد وصف

– نصر قسرا أكثر من خمسين ألف شخص على مستوى مدينة غرناطة وحدها.

---

[1]– عنان، نهاية الاندلس، ص ص: 328،329.

[2]– حتاملة، التنصير القسري، (المرجع السابق). ص: 86.

– أجبر مسلمو اسبانيا على لبس السراويل والقبعات؛ كما أجبروا على ترك لغتهم وتقاليدهم.

– انقسم مسلمو اسبانيا فيما بينهم إلى مجموعات؛ فريق أبت عليه عزة الإسلام أن يعيش ذليلا، أو متنصرا فترك البلاد وهاجر إلى مصر وبلاد الشام وبلاد عدوة المغرب، وقسم منهم ذهب مع الرحلات الاستكشافية إلى أمريكا الوسطى والجنوبية. وفريق آخر قرر التظاهر بقبول النصرانية وإخفاء دينه؛ فيما قرر الفريق الثاني التحصن بالمناطق الوعرة ومواصلة المقاومة، فقرروا بذلك إما الشهادة أو الحياة الكريمة.

– وفي نهاية المطاف، فالبرغم من فشل هذه المقاومة إلا أن مسلمي اسبانيا حققوا بعض النجاح، فقد انتصروا في أكثر من ثلاثين معركة، الأمر الذي جعل صعوبة إخماد هذه الحركات يظهر جليا على أرض الواقع.

**3)– مواصلة الكفاح المسلح في الجبل الأحمر (905–906هـ/1500–1501م)**:إن أعمال القمع الوحشي التي ارتكبتها قوات فرناندو والقرطبي أثناء القضاء على المقاومة في جبل البشرات أرهبت سكانه وأجبرتهم على القبول بمطالب الملك، كما بثت الرعب في نفوس سكان غرناطة وأعجزت أهلها على الوقوف في وجه الممارسات التعسفية للسلطة والكنيسة؛ إلا أن تلك الأعمال لم ترهب المسلمين المتواجدين في الأماكن الأخرى بل كانت دافعا لحمل السلاح.

فقد أيقن الكثير من مسلمي اسبانيا أن ما لحق بسكان البشرات وغرناطة سيكون مصيرهم

عاجلا أو آجلا، وأن الوقوف في وجه السلطات الاسبانية هو الخيار الأخير والسبيل الوحيد الذي تركته إيزابيلا وفرناندو مفتوحا أمام باقي المسلمين؛ وما كادت نيران المقاومة في البشرات تخمد حتى كان مسلمو جبل الأحمر يعدون العدة لإضرام نيران المقاومة من جديد، والتصدي لجنود الملكين الكاثوليكيين.

*– **أحداث المقاومة:** هبت حركة مسلحة في الجبل الأحمر، بعدما أيقن المسلمون أن لا أمان في عهود السلطة الاسبانية، وأن ما صدر من قرارات في حق مسلمي البشرات سوف يعمم على سائر المناطق المتبقية، لهذا أعلنوا تمردهم، ففتكوا بالحاميات القشتالية؛ أمام هذه المستجدات تحرك القائد ألونسو أجيلار[1] بأمر من فرناندو في جيش كبير [2] عبر به الممرات الجبلية الوعرة، ولم يكتشف أن رجال المقاومة أعدوا له ولجيشه كمينا محكما إلا بعد فوات الأوان[3].

وهكذا انهالت الصخور على الجيش الاسباني في أحد الممرات، مما أدى إلى مقتل عدد كبير من الجنود، فيما أجهز المجاهدون على معظم الجنود الذين تمكنوا من الفرار[4]؛ أما القائد ألونسو فقد قتل في المعركة[5] التي دارت عقب الانسحاب، أو لقي مصرعه على أيدي فارس بعد مبارزة عادلة. كما قتل المهندس فرانسيسكوا راميرز[6]، وأصيب الدون بدرو بجروح بليغة لكن الناجين من الجنود

---

[1] – **ألونسو دي أجيلار**: كانت له مكانة عالية، إذ كان الأخ الأكبر لغونثالو القرطبي، وقد أثبت على مدى أربعين عاما صلابته ولاسيما في حرب غرناطة.

[2] –رافقه القائد ألونسو ولده الدون بدور بطرة القرطبي.

[3] – تكبدت القوات الاسبانية بقيادة ألونسو خسائر كبيرة نظرا للمعلومات غير الصحيحة التي سلمت له عن مدى انتشار المقاومة في تلك المنطقة التي لم تكن تقل وعورة عن جبال البشرات.

[4] – البشتاوي، المرجع السابق، ص : 118.

[5] – تضاربت المصادر حول موقع المعركة ولكنه هناك من ذكربأنّها وقعت في سهل قلعة اللوز.

[6] – **فرنسيسكو راميرز**: من أشهر المهندسين في جيش الملك فرديناند ،كان له باع كبير في استخدام المدافع أثناء حرب غرناطة.

تمكنوا من إجلائه من ساحة المعركة.

نظرا للنتائج الكارثية التي ألحقها رجال المقاومة بالقوات الاسبانية خرج الملك فرناندو شخصيا متجها نحو مدينة رندة [1] في جيش كبير انطلق به من غرناطة وأقام فيها مدة يلتقط أخبار المجاهدين، وعندما وجد أن الفرصة باتت مواتية للتحرك، سار بجيشه عبر الجبل الأحمر، إلا أن المقاومة التي تعرض لها الجيش كانت عنيفة، فاضطر فرناندو إلى الانسحاب، ثم عاودت القوات الإسبانية الهجوم مرة أخرى فاضطر المقاومون إلى الاحتماء برؤوس الجبال بعد اشتداد الضغط عليهم.

عندها اتخذ فرناندو من مدينة "رندة" مركزا لعملياته، وآثر سياسة الحصار الطويل بدلا من الدخول في معارك قد لا تؤدي إلى نتائج مرجوة، فطال أمد الحصار وجاع الناس فعرضوا على فرناندو الاستسلام، فقبل بعدما أيقن أن استمرار الحرب لن يؤدي إلى نصر حاسم بسبب وعورة المنطقة واستحالة إبقاء عدد كاف من الجنود فيها لضمان استمرار السيطرة على الجبل[2].

بعد مفاوضات تمت بين الطرفين، وعد فرناندو رجال المقاومة بالأمان إن أرادوا العبور إلى العدوة، وكان الاتفاق بين الطرفين على توقيف الحرب التي استمرت حوالي سنتين، دارت خلالها أكثر من عشرين معركة في مناطق مختلفة من الجنوب. كما فرض على من يريد البقاء في اسبانيا دفع مبالغ مالية وتسليم كل الأسلحة الموجودة في حوزتهم.

*- **ردود فعل السلطات الاسبانية بعد مقاومة جبل الأحمر**:مرت فترة قلقة مند استسلام أهل الجبل الأحمر ورحيل بعض سكانه إلى المغرب وغيرها من المناطق في انتظار الخطوة التالية التي

---

[1]- أصبحت مدينة رندة مركز عمليات جيش قشتالة.

[2]- البشتاوي، المرجع السابق. ص : 118.

سيأمر بها الملكان الكاثوليكيان؛ ومن أهم النتائج التي ترتبت عن مقاومة جبل الأحمر صدور مرسوم 907هـ/1502م الذي خير جميع مسلمي اسبانيا بين التنصير أو الرحيل.

فقد نص المرسوم على أنه من واجب أهل قشتالة طرد "أعداء الدين المسيحي" على حد زعمهم . من مملكتي قشتالة وليون؛ كما يتحتم على جميع مسلمي المملكتين، ذكورا فوق سن الرابعة عشر، وإناثا فوق سن الثانية عشر أن يتنصروا قهرا وقسرا. كما سمح المرسوم المذكور أعلاه لكل من يرغب من المسلمين في الرحيل بعد بيع عقاراتهم وممتلكاتهم، ولكنه حظر عليهم إخراج الذهب والفضة.

تنفيذا لقرارات الملكين الكاثوليكين، سخرت السلطات الاسبانية جميع رجالها. وبنهاية المدة التي حددها المرسوم رحل من إسبانيا حوالي 200.000 مسلم، منهم من قصد المغرب بأقسامه الثلاث، ومنهم من رحل إلى بلاد المشرق متجهين نحو مصر أو بلاد الشام[1].

*– **ردود الفعل المسلمة بعد المقاومة:** عندما خابت كل الآمال التي علقها مسلمو اسبانيا على إخوانهم في الدين في بلاد المغرب والمشرق، لم يبق أمامهم سوى ثلاث خيارات: . الموت . أو . التنصير القسري . أو . الهجرة الإجبارية خارج اسبانيا .؛ ففضل الكثير منهم البقاء في بلادهم، والقبول باعتناق النصرانية ولو بالظاهر، بينما اختار فريق آخر مفارقة الوطن نحو البلدان الإسلامية.

كان وقع المرسوم الملكي الذي أصدره كارلوس سنة 930هـ/1525م، والقاضي بتعميد كل مسلمي اسبانيا قسرا بمثابة الضربة القاضية على هؤلاء، فقرروا إعلان حركة عصيان مسلحة اشتركت

[1]– من خلال هذه الجزئية سوف نتفادى التطرق إلى موضوع الهجرة على عهد الملكين الكاثوليكيين، لأنه سنتناول الموضوع ببعض التفصيل في الفصل الثالث من هذا الباب، والخاص بعملية الطرد النهائي لمسلمي اسبانيا كتمهيد لهذا العنصر.

فيها نحو 26 ألف عائلة مسلمة بما يعادل 130 مسلم، تحصنوا بجبال اسبادن Espadan؛ على إثرها وجه كارلوس جيشا لإخمادها، انتهت المواجهة العسكرية بنجاح القوات الاسبانية في دحض المقاومة.

## الفصل الثالث: المقاومة الإسلامية في الفترة الممتدة من سنة 972هـ/1567م وإلى غاية سنة 975هـ/1570م

### المبحث الأول: حرب غرناطة الكبرى (972_974هـ/1567_ 1569م)

1)_ المرحلة الأولى من المقاومة 972_ 974هـ/1567_ 1568م)

2)_ المرحلة الثانية (977_ 978هـ/1568_1569م)

3)_ تخوف السلطات الاسبانية من تأزم الوضع الداخلي

### المبحث الثاني: حركة الجهاد الإسلامي بقيادة ابن أمية (970_ 971هـ/1569_1570م)

1)_ مجريات الحرب ونتائجها (970هـ/1569م)

2)_ اغتيال ابن أمية (970هـ/1569م)

3)_ مواصلة المقاومة بقيادة ابن عبو (970هـ/1569م)

### المبحث الثالث: الجهاد الإسلامي بعد حرب غرناطة (971_ 1010هـ/1570_ 1611م)

1)_ استمرار العمل المسلح من سنة 972هـ/1571م وإلى غاية عام 981هـ/1580م

2)_ مقاومة الفدائيين (983_ 993هـ/1582_ 1592م=

3)_ المحاولات الأخيرة في معركة البقاء (1010_ 1012هـ/ 1699_ 1611م)

مرت مأساة مسلمي اسبانيا المغلوب على أمرهم ليتجرعوا مصيرهم المحتوم بعدة مراحل تعاقب على تنفيذها وتطوير أساليبها بعد الملكين الكاثوليكيين كل من الإمبراطور كارلوس الخامس الذي قام دوره على ابتزاز كل ما يملكه مسلمو اسبانيا من أموال وعقار مقابل التنازل على بعض الممارسات التي اعتبرت خطوط حمراء على عهد الملكين الكاثوليكيين.

لكنه ما انفك أن خلف هذا الإمبراطور ابنه فيليب الثاني الذي ورث الأوضاع بكل خطورتها، ورأى في عدم التعجيل بإنهائها إخلال وأي إخلال بأمن البلاد ووحدة الأرض والدين، لأن في مفهومه للقضية أن هذه الطائفة وإن اعتنق بعضها النصرانية الكاثوليكية ظاهريا فإنها ما تزال مستمرة على الإيمان الشديد بالإسلام بكل خصائصه ومقوماته؛ من هناك تعين على الملك فيليب الثاني اتخاذ اجراءات حاسمة في تجاوزاتها وتمردها ـ على حد زعمه ..

فكانت مجمل قرارته هي محاولة ايجاد السبل الناجعة للقضاء على أي أثر من آثار الإسلام والعربية بين ظهراني هؤلاء المتعجرفين والمغالين بما يمونهم العقيدة النصرانية الكاثوليكية. كل هذه الاجراءات والقرارات نجدها في آخر الأمر تبوء بالفشل الذريع وتتسبب في اندلاع حركات مقاومة إسلامية لم تشهد اسبانيا مثيلها.

فقد أجمعت معظم المصادر والمراجع التاريخية التي اهتمت بتدوين أحداث هذه الأمة الشهيدة، أن من أخطر حركات المقاومة الإسلامية التي حركها مسلمو اسبانيا على مر العهود تلك التي وقعت في عهد الملك فيليب الثاني، لما عرفته من حشد للنفوس المجاهدة، والتنظيم العسكري الجيد والنتائج المحققة، حتى ولو باءت في نهايتها بالفشل.

ورّث الأوضاع بثقل خطورتها إلى ولده ووراث عرشه الملك فيليب الثالث الذي لم يتردد هو الآخر في تفضيل الاختيار الصعب والناجع لمقاومة هذه الأقلية المضطهدة التي أصبحت تشكل خطرا داخليا يهدد باستمرار الوحدة الدينية للإسبان. ففكر هذه المرة وبمعية الكنيسة في خطة تريح البلاد والعباد إلى الأبد . على حد زعمهم . فكان قراره الطرد والطرد الشامل لكل مسلم حتى يقطع دابرهم.

فظن الملك فيليب الثالث أنه بهذا القرار سوف يحقق الأمن والأمان للإسبان، كما أنه من خلال طرده للمسلمين سوف يقطع شوكتهم، ويكبت احساسهم بالمواطنة لهذه الأرض التي كانت وظلت ومازالت أرضهم وأرض أجدادهم؛ ولكن ما حصل لم يكن في حسبان الملك ولا السلطات الكنسية، فهناك الكثير من هؤلاء المضطهدين من رفض سياسية الطرد هذه وقاومها في حركة جهادية أقل ما نقول عنها أنها كانت انتحارية، فكل الظروف والوسائل كانت تسير ضد هؤلاء الماسكين على دينهم وأرضهم؛ ولكنهم مع ذلك رفعوا لواء الجهاد مفضلين الاستشهاد في ساحة القتال على أن ينقادوا وراء إرادة هؤلاء الطغاة المستبدين.

وبهذا نجد أن أسباب المقاومة على عهد الملك فيليب الثاني تختلف عن تلك التي وقعت في عهود سابقة؛ فالدافع الرئيس للحركة الجهاد التي خاضها مسلمو اسبانيا ضد السلطات الإسبانية يكمن في عمق إحساس مسلمي اسبانيا تجاه أرضه ووطنه الذي فرضت عليه سياط القهر والتعسف مغادرتها وقطع أواصر انتمائه بها؛ إنها محاولة اجتثاث بالقوة لقلع ما تبقى من الحضارة الإسلامية.

فهؤلاء المضطهدين راهنوا بآخر نفس باختيارهم الطريق الصعب، وهو طريق المواجهة ورفض أمر الواقع؛ ولم يكن مثل هذا الخيار هو الأول من نتوعه في سجل تاريخ نضال وجهاد هذه الأمة

الشهيدة طيلة فترة احتلال الاسبان لأراضهم، ومسخهم لمقومات شخصيتهم الإسلامية.

## – المبحث الثالث: حرب غرناطة الكبرى 972–974هـ/1567–1569م

عندما رأى مسلمو اسبانيا أنه لا أمل هناك في تفريج كربتهم وبلواهم أعلنوا القيام بمشروع جريء تمثل في المقاومة بقوة السلاح، بعدما فشلت كل محاولات التفاوض مع ممثلي السلطة الاسبانية. وبعد الرد الصريح الذي ألقاه رئيس المحكمة بدره ديسا أيقن المسلمون أنه من المستحيل إلغاء المرسوم كما حصل على عهد الملك كارلوس الخامس، وأن الحل الوحيد الذي بقي أمامهم إعلان التمرد المسلح على السلطات الاسبانية عسى أن يحقق ما لم تستطع أن تحققه المفاوضات.

**1)– المرحلة الأولى من المقاومة (976–977هـ/1567– 1568م)**: يعتبر تمرد مسلمي غرناطة وكل من انضم إليهم محاولة أخيرة ويائسة لإنقاذ هويتهم الثقافية، بعد أن عانوا الويلات من الحصار القمعي المضروب عليهم والذي ضيق عليهم أكثر فأكثر مع مرور السنين، وخصوصا بعد فترة "الحرب الباردة" حيث أصبح النزاع أكثر احتداما ومضرا للجهتين، والذي أدى إلى حصول هوة عميقة بين الحضارتين.

كرد فعل طبيعي حاولت بعض الزعامات بث روح الجهاد بين مسلمي غرناطة، لكن الدعوة لم تلق أذانا صاغية بين أعيان غرناطة سوى من شخص يدعى فرج بن فرج[1]، من عائلة بني سراج[2]

---

[1] – **فرج بن فرج**: ينتمي إلى إحدى الأسر العريقة والتي لها تاريخ في غرناطة، عرف بجرأته وبسالته؛ وكان يتوق إلى الانتقام من مضطهدي شعبه.

[2] – **عائلة بني سراج**: حكمت هذه العائلة مملكة غرناطة في القرن التاسع هجري الموافق للقرن الخامس عشر ميلادي؛ تنتمي هذه العائلة إلى بطن من قبيلة مذحج العربية، أنزلهم بنو أمية لما فتحوا بلاد الأندلس في إقليم أرش اليمن. ينظر: محمد الغساني الأندلسي، المصدر السابق. ص: 53. أما الحميري فيذكر بأن بني سراج هم الكلبيين القضاعيين من جند الشام، دخلوا الأندلس وجعلوا إليهم بنو أمية حراسة ما يليهم من البحر وحفظ الساحل؛ ولم يمض وقت طويل حتى أصبحوا وزراء غرناطة. بنظر: المصدر السابق. ص : 37.

وزعيم آخر يدعى هرننده الصغير[1]، وزعيم ثالث هو دياغه لويس بن عبو[2]، أما الرابع فاسمه ميخائيل دير وجاش[3]، بالإضافة إلى بعض المسلمين من منطقة البشرات، هؤلاء جميعا قرروا بدء المقاومة يوم الخميس[4] من سنة976هـ/1567م.

انتشر النبأ بين المسلمين في قرى البشرات، فأقبل الناس إلى غرناطة للتعرف على قادة المقاومة، وعلى وجه الخصوص فرج بن فرج الذي منعهم من التجول في شوارع غرناطة دون سبب وجيه في رأيهم، ولئلا يفتضح أمرهم في المنظور السياسي للقائد ابن فرج؛ كما أمرهم بالتوجه إلى بيوتهم في انتظار الأوامر الصادرة منه[5].

وصل خبر إعلان المقاومة إلى رئيس أساقفة غرناطة وإلى المركيز مندجار، ثم أخيرا إلى الملك فيليب الثاني[6]، هذا الأخير أمر المركيز مندخار بزيارة منطقة البشرات للتأكد من صدق المعلومات الواردة إليه، كما أكد عليه بضرورة تعزيز الحاميات في المدينة والقلاع[7] وجنة العريف[8]. كما أصدر الملك قرارا بتوقيف كل المشبوهين، ومصادرة جميع الأسلحة النارية من كل شخص لا يحمل ترخيصا.

---

[1]- **هرننده الصغير**: شغل وظيفة وزير كديار ويحمل اسما آخر هو " ابن جوهر ".

[2]- **دياغه لويس بن عبو**: عرف بشجاعته، وينحدر من قرية مسينة.

[3]- **ميخائيل دي روجاش** : من أهم الشخصيات التي سيرت أحداث المقاومة. ينحدر من منطقة أجيجر.

[4]-. هذا اليوم يقابل يوم الأسرار من أسبوع الآلام عند النصارى؛ وفيه ينهمك النصارى بأداء طقوسهم الخاصة بالتقوى والقداسة والاحتفالات الدينية.

[5]- لقد أدخلت هذه الأخبار السرور في نفوس المنفيين الذين كانوا يتجولون مسلحين دون خوف أو رهبة، يقتلون النصارى الذين تصل إليهم أيديهم، وقليلة ونادرة هي الأيام التي كانت لا تصل فيها إلى غرناطة أناس قتلوا، أو قد عثر عليهم في الحقول والبساتين، ووجوههم مشوهة.

[6]- أول إنذار بدنو المقاومة جاء من فرنسيسكو طوريجس وكيل على طاعات في الدلية و السهل؛ ثم رئيس كهنة كاتدرائية غرناطة، الذي كان يعرف اللغة العربية، ويحترمه المسلمون نتيجة للعلاقات الودية لتي يربطها معهم.

[7]- إن الحذر الذي أخذه النصارى في مدينة غرناطة قابله المسلمون في حي البيازين بالهدوء والطمأنينة في الظاهر والاضطراب والقلق في الباطن.

[8]- **جنه العريف**: هي إحدى الجهات من قصر الحمراء. وفيه قصر شيد في أواخر القرن الثالث عشر، وزين على يد السلطان ابي الوليد اسماعيل (1314-1325م) ويقع هذا القصر في شمال شرقي الحمراء فوق ربوة مستقلة و هو يشرف على الحمراء. ينظر: عبد الحكيم دنون، آفاق غرناطة، دمشق: دار المعرفة، د ط، 1408هـ/1988م. ص: 103.

ورغم تستر منظمي المقاومة الشديد، فقد أخذت الإشاعات تنطلق بقرب اندلاعها؛ لكن لا ديسا رئيس إدارة المدنية ولا المركيز دي مونجار القائد العام للجيش[1] صدقا هذه الإشاعات وللقضاء على كل الشكوك، أرسل منظمو المقاومة ممثلا عنهم إلى الرئيس ديسا يشتكي من هذه الإشاعات وادعى أنها كاذبة[2]، واقترح باسم مسلمي غرناطة تقديم ثلاثمائة رهينة برهانا على حسن نيتهم.

ثم اجتمع زعماء المقاومة للمرة الثانية في البيازين ودرسوا ردود الوفود إلى مختلف المناطق بإسبانيا، ثم الواردة من المغرب الأقصى والجزائر، ولكن الخطة لم تسر حسب ما رسم لها، إذ قام أحدهم بتبليغ الرئيس ديسا في 977هـ/1568/04/05م[3]، فاضطر المنظمون إلى تأجيل موعد اندلاع المقاومة، وحددوا موعدا آخرا لإعلان المقاومة.

2)– **المرحلة الثانية(977–978هـ/1568–1569م):** يأبى الدولاب الدائر إلا أن يتم دورته، فلم يستطع مسلمو غرناطة إزاء كشف مخططاتهم إلا أن يؤجلوا التنفيذ وسار وجهاؤهم إلى القائد ديسا ليعلنوا شعورهم الطيب تجاهه وتجاه معتقداتهم النصرانية المفروضة عليهم قسرا ويظهروا الاحتياطات المتخذة من أجل الحفاظ على الاستقرار والأمن. لكن ديسا أبقى قواته في حالة تأهب ولم يكن سلوك مسلمي غرناطة الأخير إلا محاولة امتصاص لشك ديسا وإبعاد النظر عنهم حتى يستطيعوا الانتقام لأنفسهم وكرامتهم وأعراضهم ودينهم، فاجتمعوا في بيت بائع شمع مسلم يدعى عدل وقرروا إعلان المقاومة ليلة اليوم الأول من شهر كانون الثاني عام977هـ/1569م.

---

[1]– قررت قيادة المقاومة تصفية ماركيز موندجار حتى يتمكنوا من دخول قصر الحمراء.

[2]– ميغيل أنخيل بونيس إيبارا، حرب غرناطة كما رآها القشتاليون من خلال مخطوطة لم تنشر بعد، بحث نشر ضمن: دراسات أندلسية وموريسكية، (المرجع السابق). ص:171.

[3]– دون باسكوال بورونات، المصدر السابق. ص: 183

تعتبر مقاومة مسلمي غرناطة وكل من انضم إليهم كمحاولة أخيرة ويائسة لإنقاذ هويتهم الثقافية، بعد أن عانوا الويلات من الحصار القمعي المضروب عليهم والذي ضيق عليهم أكثر فأكثر مع مرور السنين، وخصوصا بعد فترة الحرب الباردة حيث أصبح النزاع أكثر احتداما ومضرا للجهتين، والذي أدى إلى حصول هوة عميقة بين الحضارتين.

أدرك جميع القادة الذين اتصل بهم فرج ابن فرج أنه لا بد من توفر عنصرين أساسين لنجاح حركة المقاومة الإسلامية الجديدة:

-أما العنصر الأول فيتمثل في المشاركة الفعلية لمسلمي جنوب اسبانيا بأسرها، وذلك لتوفير الرجال اللازمين للحركة حتى يصعب على السلطات القضاء عليها في وقت قصير.

- في حين ارتكز العنصر الثاني على الدعم المادي والعسكري من مسلمي المغرب العربي، والخلافة العثمانية[1]، ولا سيما تزويد المقاومة بالسلاح الذي كان يشكو نقصا فادحا.

استكمل القادة استعداداتهم، وتم تجنيد نحو ثمانية آلاف مجاهد في وادي لكرين "Lacrin"، وأرجبة، وشرعوا يتجولون في البلاد بحجة بيع البراذع، واتفقوا على اشارة محددة تصدر من أعلى مرتفع في غرناطة ليبدأوا بالمقاومة، وتماشيا مع الأحداث وضعت خطة المقاومة على النحو التالي:

- يجتمع ألف من المقاومين القادمين من الأرياف في قصبة سكر الواقعة في مكان اسمه «سند"، مهمتهم تسلق جدران قلعة الحمراء.

— يتزعم ميخائيل مجموعة من المقاومين يتوجهون نحو باب فحص اللوز وعلمهم من القماش

[1]- ميغيل أنخيل بونيس إيبارا، المرجع السابق. ص: 185.

الدمشقي القرمزي رسمت عليه أثمار معدنية فضية، وأذيال مصنوعة بخيوط ذهبية[1].

– يتزعم دياغو نيغالي مجموعة أخرى من المقاومين من رعية كنيسة سلفادور وكنيسة القديسة إيزابيل وكنيسة القديس لويس؛ ويكون علمهم من المخمل الأصفر مهمتهم اقتحام باب البنود[2].

– ميخائيل موسى غاز على رأس رجال رعية القديس ميخائيل والقديس يوحنا الملوك والقديسيين بطرس وبولوس، ويكون علمهم من القماش الدمشقي الأزرق السماوي[3]، يرابطون على باب وادي آش[4].

غير أن كل ما تم التخطيط له ذهب هباءا منثورا، إذ فشلت المقاومة لسببين هما:

– أما أولهما فهو اكتشاف السلطات الاسبانية لأمر المقاومة[5]، والاستعداد لها سياسيا وعسكريا.

أمام هذه الظروف اضطر ابن فرج على الانسحاب والالتحاق ببقية القوات الثائرة في منطقة

---

[1]– كان على رجال المقاومة الخاصة بمنطقة فحص اللوز النزول في طريق خارج الأسوار تؤدي إلى المستشفى الملكي لاحتلال باب البيرة ومن ثم الدخول إلى الشارع وقتل كلّ من يصادفونه في طريقهم من النصارى، وعندما يصلون إلى بيوت قضاة محاكم التحقيق، يطلقون سراح الأسرى المسلمين ويلحقون أكثر ما أمكن من أضرار.

[2]-Sylvie Benitez Roca, Iben Humeya et les moresques dans deux œuvres de la littérature Espagnole du XIX$^{éme}$ siècle, doctorat de l'université : Paul Valery, Montpellier III arts et lettres langues et sciences humaine et sociales, sous la codirection : Louis Cardiallac, Décembre 2001. P : 50.

[3]– ارتكزت مهمة المرابطون عند باب وادي آش الدخول إلى شارع النهر للوصول إلى دار الحكومة، عندها يأسرون أو يقتلون الحاكم ويطلقون سراح المسلمين المسجونينفي سجن الحكومة، ثم يلتحقون بالمجتمعين في باب الرملة.

[4]**– وادي آش:** تقع مدينة وادي آش على ثمانية فراسخ من غرناطة وهي على شكل سنام بعير، يمر عبرها نهر أخذ اسم المدينة، وهو ينبع من جبل الثلج ويصل بينهما وبين غرناطة طريق جبلي وعر يبدأ منخفضا أمام وادي آش في بسيط كبير أخضر وبين الحقول والحدائق النضرة ، وغابات الزيتون. وقد كانت مدينة وادي آش بعد سقوط غرناطة مقر مملكة الأمير محمد بن سعد شقيق السلطان أبي الحسن وعم أبي عبد الله آخر ملوك غرناطة، بنظر : يقايفر سيمون، المرجع السابق. ص: 192.

[5]– اعترف أحد المتنصرين الجدد وهو بائع الشمع فرنسيسكو بن آدم إلى الأب البوتودو أنه فهم من بعض المسلمين قرب اندلاع مقاومة ستنفذ ليلة عيد الميلاد، وذلك قبل البدء بتنفيذ ما جاء في المرسوم؛ وهذا الكاهن بدوره أطلع رئيسه على ذلك، هذا الأخير أخبر المركيز مندخار والحاكم العام ليتخذوا الإجراءات اللازمة.

البشرات، بعد أن أعلن للسلطات الاسبانية في المدينة بشكل عملي عن بدء مرحلة جديدة في نضال مسلمي اسبانيا في مختلف أنحاء مملكة غرناطة.

ويرجع بعض المؤرخين السبب الرئيس الذي كان وراء فشل هذه الحركة هو عدم مشاركة سكان البيازين[1]، فلو ساهموا في هذه المقاومة لا كانت هناك نتائج أخرى؛ ذلك أن مسلمي حي البيازين قضوا في هذا الأخير عشرات السنين وهم يتعايشون مع النصارى، والتفرقة بين السكان لم تكن واضحة ويثبت هذا من خلال إحصاء للبيوت المسلمة قبل الطرد أي في سنة 977هـ/1576م[2] الذي قدر بـ 4728 بيت.

ما يلاحظ من خلال الإحصاءات المعروضة في مجموع المصادر والمراجع التي عالجت الموضوع وجود ثلاث دوائر من بين 23 لا يوجد فيها أي منزل للمسلمين و884 بين منزل ومنزل أي ما يوازي نسبة 18% كانت توجد في دوائر ذات أغلبية نصرانية.

على العكس فبفضل مقابلة الوثائق مع بعضها يتبين أن النصارى الكاثوليك تواجدوا في كل الدوائر التي كانت تضم أغلبية مسلمة، بل كانوا في سان خوان دي لوس ريييس يشكلون تجمعا مهما، أما في المنطقة العليا من البيازين فقد كان المسلمون الغرناطيون يمثلون أغلبية ساحقة، حيث توجد هناك المجموعة الضئيلة التي حملت السلاح من الغرناطيين. فعند دراسة تسعمائة حالة تبين أنه اشترك منهم خمسون فقط في الحركة الجهادية، منهم أربع وأربعون مسلم ينتمون إلى الدوائر التي تقع في الجهة المرتفعة من السهل؛ وكان الاشتراك في الموطن يمثل مظهرا واحدا من المعايشة.

---

[1]- لم يهتم كثيرا مسلمو حي البيازين بأمر المقاومة، وكان موقفهم سلبيا. ينظر: ميغيل أنخيل بونيس إيبارا، المرجع السابق. ص:185.

[2]- دومينغيث أورتيث برنارد فينسيت، المرجع السابق. ص ص: 62، 63.

والعنصر الأهم هو علاقات العمل بين الطرفين، ففي النقطة حول باب الرملة وبخاصة في القيصرية كانت الحركة الرئيسة للعمل، وكان هناك عالم يموج بالنصارى الكاثوليك والمسلمين على حد سواء، وكان لكل منهم دكانه، وبين هؤلاء الكثير من مسلمي البيازين، حيث كان العمل في الحرير، الذي برز فيه مسلمو اسبانيا، ومهنة التجارة أو النقل بواسطة البغال [1].

وبالرغم من فشل هذه المقاومة قبل ميلادها، إلا أنها كانت الخطوة الأولى والشرارة التي سوف تفجر مقاومة أعنف وأخطر منها وهي مقاومة ابن أمية. فبعد هذه الخطوة الجريئة التي أضرت بالاستقرار السياسي للسلطات الاسبانية، سعت هذه الأخيرة جاهدة إلى البحث عن السبل الملائمة للقضاء على روح المقاومة في نفوس هؤلاء المضطهدين.

لهذا نجد تخوفا كبيرا من السلطة السياسية بانفجار الوضع داخليا، وهذه الوثيقة لا دليل قاطع على هذا الأمر، فقد وصفت رسالة مؤرخة في977هـ/04 أبريل من سنة 1568م الأجواء التي كانت منتشرة في اسبانيا قبيل انفجار الأوضاع وظهور بوادر مقاومة مسلحة قد تندلع في أي وقت من الأوقات، فورد فيها ما نصه:

"**حضرات السادة الأفاضل : تعيش مدينة غرناطة جوا قلقا مشوبا بالحذر نظرا للبوادر التي ظهرت حول إمكانية انتفاضة المورسكيين الذين يبيتون النية للذهاب إلى بلاد المغرب أين يتمتعون بدعم المسلمين والمرتدين بالجزائر وتطوان. إن الثوار يمكن أن يكونوا من بين الذين يوجدون في حالة مادية سيئة ويسكنون في حي البيازين في هذه المدينة وهم كثر. كما تجدر**

[1]- دومينغيث أورتيث برنارد فينسيت، المرجع نفسه، ص: 65.

**الإشارة إلى أن هذه المنطقة تمثل مكانا مواتيا لمثل هذه الأعمال، إذ بإمكان أهلها قطع الطريق على المسيحيين القدامى قصد قتلهم نهبهم. ولهذا السبب فإن رئيس وأعضاء المجلس البلدي وعدالتها يطالبون بحماية أكبر للمدينة ليلا نهارا دون انقطاع مع انتداب حراس ليليين بالتناوب. وبما أننا نعلم مدى كرههم وعداوتهم المزمنة للديوان الديني، إذ أول عمل سيقومون به هو محاولتهم إلحاق أكبر الأضرار بالتسلح بثماني عشرة بندقية مع عتادها وعدد آخر من الرماح والنبال وستة دروع للدفاع عن أنفسنا وعن المعتقلين الموجودين في السجون ، إذ أنهم يعتبرونهم شهداء دين محمد(*) ويريدون تحريرهم إن أمكن دلك. وهكذا وضعنا قائمة للأسلحة التي توجد بحوزة العسكريين حتى يقع توزيعها للدفاع عن الأماكن المذكورة، كما أننا زدنا في عدد هذه الأسلحة التي بلغت الثلاثين بخمسين أو ثمانين قطعة.**

**إنما نطلب من حضرتكم، حفظكم الله أن توافقوا على هذه العملية ودعمها لأن محكمة التفتيش تستحق عناية أكثر من غيرها م بقية محاكم التفتيش في اسبانيا، إذ أننا نوجد بين أعداء عنيدين، وإننا نخطر حضرتكم بالاحتياطات التي اتخذناها من تسلح ورفع عدد المدافعين، كل تأخر يعرضنا للخطر تبعا لما نعلمه عن هؤلاء الأناس السيئين الذين ينوون بنا الشر وقبل طلب الرخصة من حضرتكم ابتدأنا بعد حراسة مشددة عن المباني المذكورة كل ليلة من طرف الجنود والسكان مثلما تم ذلك في المدينة"(1).**

---

*- صلى الله عليه وسلم.

[1]- فرع محكمة التفتيش، الملف رقم: 2603، نقلا عن خواكين جيل سان خوان، وثائق ديوان التفتيش بمحكمة غرناطة، مقال ضمن أعمال المؤتمر العالمي الثالث عشر للدراسات المورسكية – الأندلسية. (المرجع السابق). ص ص: 61، 62 .

من خلال هذه الرسالة التي بعث بها كل من القضاة التالية أسماؤهم: بريثانيو، دياقوفونثلاث، أندراس دي ألافا، والمؤرخة في الرابع والعشرين من شهر أبريل من سنة 969هـ/1568م يمكننا الخروج بمجموعة من الاستنتاجات:

***- الأبعاد التاريخية لهذه الرسالة:**

— من خلال بعض العبارات الواردة في هذه الرسالة يمكن للباحث أو المطلع عليها إدراك مدى عمق الهوة بين الحضارتين، واحتدام الصراع بين الطرفيين.

– اتخذت محكمة التحقيق موقفا معاديا لقضية مسلمي اسبانيا معتبرة نفسها مؤسسة شبه حكومية؛ إذ وصل بها الأمر إلى تنصيب هياكلها الخاصة البوليسية الجاسوسية.

– من خلال النصوص الواردة في هذه الرسالة ندرك أن القائمين على محاكم التحقيق بغرناطة يعلمون السلطات الاسبانية بأمر التسليح وما هذه الرسالة إلا بلاغ بذلك وهذا ما يتناقض مع الفقرة التالية : "...**وقبل طلب الرخصة من حضرتكم** ..." فهذه لأخيرة — الرخصة — مجرد أمر تشكيلي يعطي الشرعية لهذه العملية.

– يلاحظ أيضا التوافق الموجود بين عمال محكمة التحقيق وأعضاء المجلس الأعلى والمحكمة العليا، وإلاّ فكيف يفسر اتخاذ كل هذه الإجراءات قبل منح الترخيص بذلك.

– كما نستنتج أن السلطات الاسبانية كانت على علم بتحركات المجموعة المسلمة، إذ كان هناك تلميح في الرسالة إلى إمكانية حدوث تمرد خطير.

***– الأبعاد الاجتماعية لهذه الرسالة**

– يلاحظ من خلال ما ورد في مضمون هذه الرسالة أنّه تم استعمال مصطلح "المورسكيين" مرة واحدة كانت في بداية الرسالة، أمّا في كلّ المواقع الأخرى فقد استبدل المصطلح بـ"**الثوار**"، "**أعداء**"؛ إن اعتماد هذه المصطلحات يعبر بصدق عن مدى الصراع الظاهر والقائم بين الطرفين.

– استعمال تسمية الديوان الديني يعطي دلالة على استغلال عمال محكمة التحقيق لعنصر الدين بغرض استعطاف السلطات الاسبانية واقتناص أكبر عدد من الامتيازات.

فهذه الرسالة تعبر بصدق عن مدى خطورة الأوضاع السائدة في غرناطة، والتي نتج عنها تخوف كبير وقلق لدى السلطات الاسبانية، مما أدى بهذه الأخيرة إلى إعلان حالة الطوارئ القصوى تفاديا لمفاجآت غير مرغوب فيها.

## المبحث الثاني:حركة الجهاد الإسلامي بقيادة ابن أمية (970–971 هـ/1569–1570م)

كان مسلمو البشرات يتشوقون إلى اليوم الذي يعلنون فيه الجهاد على النصارى الكاثوليك ليتخلصوا من نير الاستعباد، وينظرون إلى غرناطة التي يشرفون عليها بشوق ولهف ويمنون أنفسهم بالعودة إليها لإقامة ملكهم الضائع لها من جديد.

فبعدما أعد النصارى الكاثوليك كل الوسائل للقضاء على الدين الإسلامي، لجأوا إلى طريق العنف وسياسة الحديد والنار، فحرموا على المسلمين استعمال اللغة العربية كتابة وكلاما، والاتصال بإخوانهم بعدوة المغرب، كما حرموا على النساء الخروج إلى الشوارع متحجبات، ومنعوهم من إغلاق أبوب منازلهم. بالإضافة إلى كل هذا وذاك حطمت الحمامات.

كل هذه القرارات التعسفية الجائرة كانت داعية ومحفزة إلى إثارة حرب بين الطرفين، فكانت بذلك حرب البشارات سنة 977هـ/1568م بزعامة أحمد بن أمية، فمن يكون هذا الزعيم؟ وكيف استطاع أن ينظم مقاومة زعزعت استقرار عرش اسبانيا وكبدتها خسائر مادية وبشرية كبيرة؟ وما هي الظروف التي ساهمت في فشل هذه الحملة؟ وكيف كانت انعكاساتها على الطرفين المتصارعين؟

**1)– ابن أمية من مولده وإلى غاية مبايعته (921– 969هـ/1520–1568م):** هو محمد ابن أمية، اسمه الاسباني فرناندو دي فالو القرطبي وبلور "Fernando de Valor"[1]؛ رجل محترم بين جماعة[2]. ينحدر من عائلة بني مروان[3] الأمويين ومنهم عبد الرحمن بن معاوية الهارب من العباسيين، ولنسبه هذا لقب بابن أمية. ولد في قرية من قرى جبل البشرات عام 921هـ/1520م[4]؛ أما والده فهو أنطونيو البلوري القرطبي، حكمت عليه محاكم التحقيق بالأعمال الشاقة في السفن الشراعية.

كان من عمداء غرناطة[5]، أودع السجن بسبب طعنه لأحد أعمدة غرناطة؛ ونظرا لحاجته الماسة للمال قرر بيع عمدته لشخص يدعى ميجيل بلاسيوس بن أبرونمو بلاسيوس بمبلغ ألف وستمائة دوقية؛ ولكن لظروف خاصة لم يتم إطلاق سراحه.

قرر الفرار من السجن واللجوء إلى منطقة البشرات، فأخذ معه عبده الأسود، وخرجا من غرناطة ، نام ليلتها في معصرة التابعة لأحد البساتين، ثم توجه بعدها إلى واد الإقليم وعند مدخله قابل وكيل وقف يدعى بزنار هاربا من غرناطة فنصحه بعدم مواصلة سيره لأن المنفيين كثيرون في

---

[1]– يرد اسمه في معظم المصادر الاسبانية "ابن ههمية".

[2]_ Sylvie Benitez, Op. Cit. P : 80,

[3]– **بنو مروان** : ينتسبون إلى مروان بن الحكم بن سعد بن أبي العاص بن أمية .

[4]– بشتاوي، المرجع السابق، ص : 164.

[5]_ Op. cit., P : 90,

المنطقة والحالة مضطربة أشد الاضطراب، ولكنه لم يأبه إلى نصيحته وواصل مسيرته إلى المحلة أين نزل في دار صديقه البلوري[1] وهو من أعيان بلدة بزنار وأخبره بما جرى له. اجتمع البلوريون[2] وكان عددهم كبيرا فقرروا تنصيب زعيما عليهم، يطيعون أمره[3]، ويعمل هو بدوره على تنظيم الأمور التي آلت إلى الفوضى والاضطراب؛ ولم يكن هناك أفضل من ابن أمية لهذا المنصب المهم، فهو من أسرة أمراء بني أمية الملوك، فانتخبوه ملكا عليهم.

وقع عندها صراع بين ابن أمية وابن فرج[4] فهذا الأخير كان يرى نفسه الأحق بهذا المنصب، فهو من نظم مقاومة حي البيازين، كما أنه ينتمي إلى أسرة بني سراج لكن البلوريون وأصروا على أنه لا ملك عليهم إلا ابن أمية[5]، عندها تدخل المصلحون وتم الاتفاق على أن الملك هو ابن أمية وعين ابن فرج نائبا له[6]. وبهذا وضع حدا للخلاف الذي كاد أن يجهض بالمقاومة قبل ميلادها.

**2)– مجريات الحرب ونتائجها (970هـ/1569م):** ابتدأ محمد بن أمية بممارسة مسؤولياته الجديدة، فنظم قواته من جديد، وكلف ابن فرج بالتوجه على رأس خمسمائة فارس إلى مختلف أنحاء غرناطة لإيقاظ روح المقاومة في نفوسهم؛ كما كلفه بجمع ما أمكن من الذهب والفضة، وكل ما يمكن

---

[1]– نسبة إلى قرية بلور وهي مشكلة من حيين : الأعلى والأسفل بنظر: الحايك سيمون، المرجع السابق، ص : 81.

[2]– عقد الاجتماع شخص يدعى هرناندو بن جهور الصغير، أحد قادة المقاومة الذي كان وزيرا في بلدة قديار بالبشرات؛ وحضره 26 شخص ممثلا عن المناطق الأندلسية المختلفة.

[3]– بويع محمد ابن أمية في جمع كبير، ألبس خلاله جبة ووضعت في عنقه قلادة حمراء، ثم بسطت له أربع أعلام على الأرض تشير إلى الأقسام الأربع للدنيا، فأدى الصلاة انحنى أثناءها على الأعلام وأقسم أنّه سيموت من أجل شريعته ومملكته، ومن أجل رعيته. بنظر : قشتيليو محمد، المرجع السابق. ص : 42.

[4]– لم يعلم ابن فرج بالموضوع إلا عند دخوله المنطقة، ولما علم بالواقعة ثار غاضبا وقال: "كيف يكون هذا وأنا الذي انتخبت ملكا في حي البيازين؟ وأخذ يصرخ في الجمع ويقول أنّه رائد الحرية ويجب أن ينصب ملكا على المسلمين.

[5]– اختيار البلوريون لابن أمية لم يكن سببه الأساسي هو انتماؤه لأسرة بني أمية فقط، وإنّما أيضا هو ناتج عن العصبية، ذلك أنّ مسقط رأس ابن أمية كان منطقة بلور.

[6]– جرى الانتخاب في الحقل تحت الزيتونة .

لهم أخذه من الكنائس والنصارى، بهدف شراء الأسلحة من بلاد المغرب [1].

وزع زعيم المقاومة المهام على رجاله كل في مكانه، فعين ميجيل دي غرانادا شعبان قائدا وادي لكرين، في حين كلف ماركوس الزمار بإدارة شؤون منطقة المرية، أما على مستوى وادي المنصورة فقد عين عليه فرناندو الغري، وفرنسسكو بورتو لماريرو، وبن مكنون قائدا على المنطقة الشرقية، وأوكل المدعو لجيرونيمو المالح مهمة محاصرة أدرا [2].

في حين احتفظ بثلاثة من القادة الآخرين تحت إمرته لمساعدته على أعمال الدفاع على البشرات وهم على التوالي: الناقص والرنداتيو جيرنسيلو الأرشيدوني. كما ساند ابن أمية في جهاده ضد الاسبان الصليبيين صهره دياقو دير وخاس الذي أظهر حماسا كبيرا في الدفاع على القضية الإسلامية، أيضا نجد خوان مارتين اثارا القاطن بألبونوالاس ابن أخ خيرون، أحد القادة المميزين؛ وقاسياردير وخاس أخ دياقو وبالتالي صهر ابن أمية[3].

وبما أن الحدث التاريخي يصنعه طرفين متصارعين، فعلينا أيضا عرض أحوال السلطة الاسبانية في خضم كل هذه المجريات، فقد فوجئ الملك فليب الثاني بأخبار هذه المقاومة الجديدة، لاعتقاده أنه نجح في احباط الاضطرابات التي نشبت في المنطقة، ولقد بدا ظاهرا للعيان صعوبة إخماد هذه المقاومة في وقت قصير، لاسيما إذا نجح مسلمو اسبانيا في تنفيذ خططهم بالسيطرة على مدينة غرناطة.

ولم تكن الظروف العسكرية التي كانت تمر بها البلاد ملائمة لتوفير الجند الكافي لمواجهتها،

---

[1]- قشتيليو محمد، المرجع السابق، ص : 43.

[2]- ذنون عبد الواحد طه، حركة المقاومة العربية الإسلامية، (المرجع السابق).ص: 61.

[3]- خواكين جيل سان خوان، المرجع السابق. ص: 59.

بسبب حالة استنزاف رجال جنوب اسبانيا وقشتالة وتجنيدهم في جيش الملك لمواجهة التمردات الحاصلة في جبال الألب، ولهذا فقد اضطر الملك إلى جلب الجند من مناطق بعيدة[1] مثل قطالونيا؛ كما أرسل في طلب العون من لمبارديا ونابولي وصقلية[2]. يضاف إلى ذلك طبيعة المنطقة الجبلية الوعرة التي حضنت المقاومة، والتي لم تكن ملائمة للقيام بعملية عسكرية سريعة بغرض إنهائها.

كانت نيران المقاومة تنتقل من قرية إلى أخرى ومن مدينة إلى مدينة، وتحولت جبال البشرات والمناطق القريبة منها إلى قلعة جهاد حقيقية ضد فليب الثاني وقواته، وبدأت بذلك عملية إزالة جميع أشكال السلطة والكنيسة من المراكز التي اعتبرها المجاهدون محررة، وأول قرية أضرمت فيها نيران المقاومة أنجرون، ثم انتقلت إلى أرجبة يوم الخميس بعد الظهر[3]، بعدها تحولت إلى طاعة البقيرة ومن هناك امتدت إلى أن غطت جميع المناطق المحيطة بها.

حيال هذا التطور الخطير للأحداث أصدر فليب الثاني أوامره إلى مركيز موندخار الحاكم العسكري العام لغرناطة بإخماد مقاومة البشرات[4]، ذلك أنه كان على دراية كافية بجغرافية المنطقة؛ فقاد جيشا مكون من حوالي أربعة آلاف جندي، وأثناء مسيرته اصطدم بقوة من المسلمين عددها ثلاثة آلاف وخمسمائة مجاهد في جسر طلابلاطي، وقع بينهم قتال عنيف، استشهد على إثرها عدد

---

[1]- طلب ملك اسبانيا العون من الممالك الأوروبية، فتقاطر عليه المتطوعين والمرتزقة من كل أطراف أوروبا: جاء دون لويس دي ريكسنس من إيطاليا على رأس قوة بحرية تتكون من 24 سفينة نزلت على شاطئ البشرات واشتبكت مع الثوار المسلمين في 1569/04/28م . فهزمت القوة وخسرت كثيرا من قوادها قبل أن ترتد إلى فرجليانية. وفي 1569/05/13م، سمح نائب الملك في مقاطعة قطلونية للمتطوعين بالالتحاق بالجيش الإسباني لمحاربة المجاهدين، كما سهل في 1569/05/18م على الجنود الفرنسيين الاتجاه إلى البشرات. وهكذا اشترك آلاف الجنود من أك أنحاء أوروبا في حرب صليبية حاقدة ضد الأندلسيين، وتقاطروا على مملكة غرناطة برا وبحرا.

[2]- ذنون عبد الواحد طه، حركة المقاومة العربية الإسلامية، (المرجع السابق). ص:62.

[3]-Marmole, Op.cit. P:99.

[4]- ذكرت بعض الروايا تا التاريخية أن سبب خروج هذه القوة العسكرية كان بهدف إغاثة أهالي أرخيفا هؤلاء كانوا مهددين من طرف جيش المسلمين.

كبير من الرجال والنساء، كما أسر الناجين منهم. إلا أن هدفه الرئيس كان جر قادة المقاومة إلى المفاوضات[1] وإقناعهم برفع كل الضغوط المسلطة على مسلمي اسبانيا، وضمان سلامة جميع من اشترك في العمليات العسكرية السابقة[2].

إلا أن فليب الثاني لم يرض بالإنجازات التي حققها قائده، فعهد بالقيادة العامة إلى أخيه غير الشرعي، دون خوان النمساوي "Don John Austria"[3]، الذي وصل إلى غرناطة في 977هـ/ 1569م، وفي 06-04 من السنة نفسها ودع دون خوان أخاه الملك؛ وبتاريخ 14-04- من سنة 977هـ/1569م، اجتمع بزعماء الجماعة المسلمة الذين اشتكوا إليه سوء المعاملة والاحتقار والاستيلاء على ممتلكاتهم وإزهاق الأرواح بلا سبب، فوعدهم بحماية كل من يخلص منهم للنصرانية[4].

وبتاريخ 977هـ/22-04-1569م عقد دون خوان مجلسا حربيا يبحث في الخطط الناجعة للقضاء على المقاومة، حضره الماركيز مندوجر والرئيس ديسا. واختلفت الآراء، فصوت دي مندوجر إلى جانب الذين فضلوا الهدنة والمفاوضة مع المجاهدين، بينما صوت ديسا ومعظم أعضاء المجلس

---

[1]- أمر الملك فليب الثاني الجيش بالدخول في مفاوضات مع زعماء المقاومة لتفادي فتح جبهة داخلية يصعب على الملك وقواته غلقها، ذلك أن فليب الثاني كان يمر بأسوأ مرحل حكمه، فقد تزامنت هذه المقاومة مع الثورة الهولندية من جهة، وسيطرة العثمانيين على غربي البحر الأبيض المتوسط الناتج على سلسلة الانتصارات المحققة هذا من جهة أخرى؛ كما في السنة نفسها اندلعت ثورة في قاطالونيا وقطعت القوات البروتستانية الطرق البحرية إلى خليج بسقاية؛ أضف إلى ذلك فقدان الملك فليب الثاني لزوجته المفضلة وموت ابنه ووريثه دو كارلوس في السجن الذي أودعه فيه والده بعدما أن ظهرت عليه علامات الجنون.

[2]- استطاع المركيز أن يقنع الكثيرين بصدق نواياه، لاسيما وأنّ المقاومين كانوا على قناعة بأنّهم لن يتمكنوا من صد جيوش فليب الثاني إلى ما لا نهاية، وأنّ الهدف الرئيس من حركتهم المسلحة هذه أساسا حمل السلطة على بحث مطالبهم ورفعها عنهم، لذلك وضع المسلمون خيرا ووضعوا السلاح جانبا ريثما يتمكن المركيز من الاتصال بفليب الثاني وتحقيق ما وعد به.

[3]- قرر الملك فليبي الثاني الاتجاه إلى البشرات لإخضاعها بنفسه، عندما رأى صعوبة القضاء على الثورة، أسوة بسلفه الملكين الكاثوليكيين، فاقترح عليه الكاردينال اسبينوزا بدل ذلك، إرسال أخيه (غير شرعي)، دون خوان النمساوي، على رأس جيش جديد، فعينه الملك في 977هـ/ 17-03-1569م ووضع تحت إمرته مجلسا حربيا، ثم أرسل إلى دي مندوجر بخيره من البقاء تحت إمرة دون خوان أو الانتقال إلى المجلس العسكري في غرناطة بصفته احد أعضائه. ففضل مندوجر الانتقال إلى غرناطة.

[4]- Marmole, Op.cit. P: 101.

الآخرين على تهجير المسلمين من حي البيازين ومن مرج غرناطة ونقلهم إلى قشتالة، وبالرغم من أن دون خوان لم يدل بصوته، فقد أبدى ارتياحه للحل الثاني.

أمام هذه المخاطر الجديدة التي أصبحت تهدد مسلمي اسبانيا، والأعمال الهمجية التي قام بها الجيش القشتالي ضد المجاهدين وعائلاتهم، والتجاوزات الوحشية، خاصة بعد تلك المجزرة الرهيبة التي راح ضحيتها رهائن سجن غرناطة[1]، فقد أخذت أفواج المتطوعين تنضم إلى المقاومة مفضلة الموت والسلاح في يدها على العبودية أو الموت في الشوارع والبيوت[2]. وانزرعت بذلك في الجهاد روح جديدة من الحماس والقوة.

ومما زاد في عزيمة المجاهدين على الاستمرار في المقاومة، هو القرار الذي طبقه دون خوان النمساوي[3]، الذي كان مفاده نفي كل مسلمي غرناطة، لاسيما الذكور منهم الذين تتراوح أعمارهم بين عشر وستين سنة، وارسال معظمهم إلى قشتالة حتى لا يلتحقوا بالمقاومة[4].

---

[1]- حومد، المرجع السابق، ص: 255.

[2]- أخذ المجاهدون المبادرة في كثير من الاحيان: فاجأ المجاهدون كتيبة من 400 جندي تحت إمرة حاكم وادي آش تحرك بأمر من ماركيز دي بلش لاحتلال مضيق رياحة، فهزموها وقضوا عليها. ثم شتت المجاهدون قوة تحت امرة حاكم بلش أرادت أن تحتل صخرة فرجليانة، فهزموها وتابعوها إلى بلش. وبقيت فرجليانة في يد المسلمين إلى أن احتلتها قوة دي ريكسنس المتطوعة في 977هـ/ 11-06-1569م. فأبادت حاميتها التي استبسلت في الدفاع عنها بمشاركة النساء والشيوخ، وهكذا حرر المجاهدون في ظرف أسابيع المئات من الحصون والقرى والمدن في كل أنحاء مملكة غرناطة.

[3]_ دنون عبد الواحد طه، حركة المقاومة العربية الإسلامية، (المرجع السابق). ص: 65.

[4]- وصلت أوامر الملك بتهجير مسلمي حاضرة غرناطة في 977هـ/ 23-06-1569م، وأيد هذا القرار جميع أعضاء المجلس، بمن فيهم دي مندوجر، فانتشر الجيش القشتالي في حاضرة غرناطة. وفي فجر ذلك اليوم مباشرة، خرج المنادون على أصوات الطبول يعلنون وجوب التحاق مسلمي اسبانيا بالكنائس، ومنح الرئيس ديسا الأمان لكل من يطيع الأمر. فأذعن أهل غرناطة دون مقاومة، وتجمعوا في الكنائس وقضوا يومهم وليلتهم تحت الحراسة. وفي الصباح فرق الجنود النساء عن الرجال، ثم فرقوا الرجال ما بين الذين تقل أعمارهم عن عشر سنين أو تزيد على الستين وبين الآخرين، وأخذوا هؤلاء بين صفين من الجنود إلى المستشفى الملكي خارج المدينة، ثم انتقوا منهم بعض الصناع والمهرة من العمال الذين سمحوا لهم بالمكوث في غرناطة. وأخذوا الجميع إلى قشتالة، بما فيها مناطق الأندلس التي احتلت قديما ومنطقة بطليوس. وعومل المهجرون في الطريق أسوأ معاملة من نهب وقتل، بينما صودرت، منازلهم وأملاكم وأموالهم التي تركوها في غرناطة، ويقدر عدد المهجرين بـ 7.000 امرأة و 3.500 رجل لم تصل منهم إلى المناطق المعينة لهم إلا أعداد قليلة، بينما قتل الباقون أو ماتوا جوعا ومرضا وتعبا، أو بيعوا عبيدا في أسواق النجاسة.

وبذلك ضمن الدون خوان انقطاع أي مدد يمكن أن تحصل عليه المقاومة من أكبر المدن الأندلسية في منطقة الجنوب، وقد أثر ذلك على معنويات المجاهدين، وقلل من امكانية نجاح المقاومة، ضف إلى ذلك نسف الكونت سرين لمسجد مليء بالنساء والأطفال[1]، فكانت هذه العملية من أبشع الجرائم إذ أريقت أنهار من الدماء المسلمة.

دارت الدائرة على المجاهدين فهزموا على يد الجيوش الإسبانية الذي كان عددهم خمسة آلاف رجل تحت قيادة القائد التركي حسين، ولكن هذه الهزيمة لم تجعل نجم المقاومة يأفل، فالحرب مازالت سجالا[2]، ولكن حدثا مفاجئا وخطيرا قضى على آمال المقاومة في تحقيق النصر الأكيد على أعداء الله والإسلام والإنسانية، تمثل في اغتيال زعيم المقاومة ومحركها ابن أمية.

كما كانت هناك عوامل أخرى قللت من إمكانية توصل المقاومين إلى انتصار بارز على القوات الإسبانية، وتحقيق الأهداف التي قامت من أجلها المقاومة ، ويأتي على رأس هذه العوامل، عدم الانسجام الكامل بين قادة المقاومة الإسلامية وزعمائها. أيضا لعبت الخيانة دورا بارزا في هذا المجال، حيث دبر بعض ذوي النفوس الضعيفة في معسكر بني أمية مؤامرة لاغتياله، وقد تضاربت الروايات التاريخية حول الأسباب الحقيقية التي كانت وراء اغتيال ابن أمية، ولكنها كلها أجمعت على أمر واحد وهو الحسد الذي كان يكنه ابن فرج لقائده.

أما فيما يخص الاختلاف الذي مس الروايات التاريخية حول الدوافع الظاهرية التي كانت وراء

---

[1]- Marmole, Op.cit. P: 112.

[2]- قشتيلو محمد، الموريسكيون في الأندلس وخارجها، (المرجع السابق). ص: 61.

اغتياله فهناك فريق أرجع ذلك إلى اتهامه من طرف أتباعه بالتقاعس عن مقاتلة العدو[1] ومحاولته تصفية بعض العناصر التركية المتطوعة، التي جاءت من الجزائر للمساعدة في الحرب[2]؛ في حين ذكر الفريق الثاني أن ذلك حدث بسبب علاقة ابن أمية بأرملة صديقه يدعى أرقاناسيل "Algnacil" الذي استشهد في إحدى المعارك[3].

في حين ذكرت رواية أخرى أن السبب الذي كان وراء تصفية زعيم المقاومة الإسلامية ابن أمية كونه أراد حقن دم والده وأخيه اللذين وقعا أسيرين في يد محاكم التحقيق، ولأجل ذلك أرسل ابن أمية رسالة إلى خوان النمساوي يعرض عليه تسليمهما له مقابل ثمانين أسيرا من الجيش القشتالي، وإلا انتقم من الجنود الأسرى الذين تحت سلطته، فاتفق المجلس الحربي في غرناطة على عدم الإجابة، وأرغموا والد ابن أمية بالكتابة لابنه ناعيا إياه عن متابعة المقاومة[4]، ونافيا أي إساءة أو تعذيب[5].

فاغتنم بعض الناقمين هذه القضية وأمروا بتصفيته

ومهما كانت الدوافع التي احتج بها أنصار ابن أمية فقد تم اغتياله خنقا[6]، وما نتأسف إليه

---

[1]– دنون عبد الواحد طه،، حركة المقاومة العربية الإسلامية، (المرجع السابق). ص: 65.

[3]– قشتيلو محمد، الموريسكيون في الأندلس وخارجها، ص: 61.

[3]– سار ابن عبو والمتطوعة الأتراك إلى مقر ابن أمية في لوشر، فقبضوا عليه وواجهوه بالتهم التي يتهمونه بها، وأطلعوه على الرسالة التي بيدهم. فتبرأ ابن أمية من التهم الموجهة له، وأكد لهم أن الرسالة مزورة ولم يأمر بكتابتها قط، وأنه ما خان أمته ولا دينه أبدا، فلم يفده دفاعه عن نفسه، فسجنوه في غرفة، وكلفوا بحراسته ديبكو الوزير، كبير المتآمرين عليه، وديبكو أركش، كاتبه، وفي ليل 1569/10/20م، قتله هذان الخائنان خنقا.

[4]_ Sylvie Benitez, Op. Cit. P :72

[5]– طلب ابن أمية من قريبه وقائده محمد بن عبو ضم الأتراك إلى قوته والسير بهم إلى منطقة البنيول وينتظروا هناك أوامره، وكانت غاية ابن أمية تحرير ميناء مطريل دون أن يتسرب خبر اتجاه قوة المجاهدين، للحفاظ على المبادرة. فمر حامل الرسالة على أجيجر، فعلم الوزير منه مضمونها، فتآمر مع كاتب ابن أمية في تزوير رسالة أخرى، وأمر بقتل حامل الرسالة الأولى. فوصلت الرسالة المزورة إلى ابن عبو تأمره بتجريد المتطوعين من السلاح وإعدامهم. فاستنكر ابن عبو هذا الأمر، وآمن بالشائعات التي نشرها العدو حول ابن أمية بأنه يريد مهادنة الإسبان لتحرير والده وأخيه. واعتقد المتطوعون أن ابن أمية قد خان، فقرروا عزله وإعدامه دفاعا عن المقاومة.

[6]– محمد علي قطب، المرجع السابق. ص: 61.

ليس النهاية المأسوية التي لحقت بابن أمية وهو في ريعان شبابه، إذ لم يتجاوز حينها أربعا وعشرين عاما، ولكن ما هو مؤسف حقيقة أن أيادي العدو الإسباني لم تطله، ولم تتمكن منه، ومن قام بتصفيته هم أكثر الناس قربا له، وأحوجهم إلى قائد وزعيم مثله.

وهكذا استشهد قائد المقاومة الإسلامية وراح ضحية الدسائس والغدر، على يد أبناء أمته، تلك الأمة التي ضحى في سبيلها بالغالي والرخيص والتي بسببها شرد أهله وقتلت أمه وإخوته وزوجته وسجن أبوه وأخوه وما وهن ولا استكان، فكان قتله على يد المجاهدين، انتكاسة كبيرة وبذلك طويت صفحة ناصعة من تاريخ المقاومة الإسلامية في اسبانيا النصرانية.

أمام هذه التطورات التي استجدت على الساحة السياسية والعسكرية، ما كان أمام الجماعة المسلمة سوى إعادة تنظيم صفوفها ولم شملها، لمواصلة العمل المسلح ضد قوى الطغيان، لأن هذه الأخيرة لن تتوان على استغلال الفرصة من أجل القضاء عليهم وإنهاء المقاومة التي زعزعت أركان الدولة الإسبانية.

**3)– مواصلة المقاومة بقيادة ابن عبو (970 هـ/1569م):** لم يترك قادة المقاومة الأمور تؤول إلى الفوضى، خاصة وأن زعيم المقاومة قد تم اغتياله، ومعه تم اغتيال مشروع إعادة للمسلمين في إسبانيا مجدهم وكرامتهم الضائعة على يد القوى الصليبية، فتم اختيار دييغو لوبث "Diego Lopez"[1] المعروف بـ "ابن عبو" خليفة لابن أمية وزعيما للمقاومة الإسلامية في إسبانيا، وتسمى باسم مولاي عبد الله محمد بن عبو.

[1]– **دييغو لوبث**: كانت له قرابة دم مع ابن أمية، اتصف بالشجاعة والعزم والفطنة؛ ذكرت بعض الروايات التاريخية أنّه كان يكن الحقد والحسد ضد ابن أمية، وكان من المشجعين والمخططين لاغتياله.

أعاد قائد المقاومة الجديد تنظيم صفوف المجاهدين، إلى أن جمع حوالي ثمانية آلاف من المجاهدين مزودين بالأسلحة النارية، كما استطاع أن يحصل على تأييد من باي لارباي الجزائر، الذي أرسل له التعزيزات والذخيرة. وبهذا استتبت وحدة المجاهدين حول ابن عبو الذي انتشر سلطانه على مناطق عدة منها مالقة ورندة؛ كما وكثرت هجماته على مرج غرناطة.

وفي أوائل نوفمبر من سنة 970هـ/1569م، حررت قوة من المجاهدين بقيادة ابن المليح حصن أرية بعد معركة عنيفة، إذ كانت حامية آرية تغير على قرى المسلمين المجاورة لها. وبعدها حدثت معارك طاحنة بين الجانبين، كانت نتيجتها الكثير من القتلى؛ لهذا خشيت السلطات الإسبانية من عواقب هذا الصراع الذي مضى عليه نحو سنتين دون أن ينتهي بإخماد المقاومة، ففكروا في الجنوح إلى المفاوضات[1] كخدعة حربية لربح الوقت ومحاولة منهم لشق صفوف المجاهدين وزرع الفتنة بينهم.

تطبيقا لهذه الخطة أرسل دون خوان إلى أحد قادة المقاومة فرناندو الحبقي، يفاتحه بالصلح[2]؛ ولكن الشروط التي توصل إليها الحبقي لم ترض الزعيم ابن عبو وباقي القادة، لا سيما أنهم لمحوا فيها

---

[1]- أمام الانهزامات المتواصلة التي تكبدها جيش المسلمين، ويأس المجاهدين من أي عون فعال من العثمانيين والسعديين، افترق المجاهدون بين ثلاثة آراء: منهم من آثر متابعة الجهاد إلا الاستشهاد، مفضلا ذلك على الاستسلام وما يتبعه من تنصير واسترقاق أو الموت ذلا تحت سلطة الأعداء، وكان ابن عبو على رأس هذا الفريق، ومنهم من رأى عدم جدوى متابعة الجهاد ورجح التفاوض مع النصارى للاستسلام بأفضل الشروط الممكنة، وكان فرناندو الحبقي على رأس هذا الفريق. ومنهم من آثر الهجرة وأهله إلى السواحل الجزائرية والمغربية والخروج من الجحيم الذي هو فيه، فعبر البحر منهم عدد كبير منذ فبراير عام 1570م.

[2]- بتاريخ 971هـ/05-02-1570م اجتمع في متفرقات جبل سلير هرناندو برادة، أحد وجوه وادي آش، بالحبقي الذي أصبح قائدا عاما لجيوش المجاهدين بموافقة خوان النمساوي، وعرض على الحبقي إنهاء القتال مقابل العفو العام عن المجاهدين. وتتابعت المفوضات، فاقترح الحبقي على خوان النمساوي إقناع ابن عبو وباقي زعماء المقاومة بالاحتفاظ بالبشرات والتخلي عن جميع ما بيدهم من مناطق خارجها، بما فيها وادي المنصورة، وإعلان الهدنة، مقابل إعطاء الأمان على أرواح جميع المجاهدين، وافق خوان النمساوي مبدئيا على ذلك واستصدر أمرا ملكيا بالعفو عمن يسلم سلاحه من المجاهدين في ظرف عشرين يوما من إعلانه، شرط أن يكون عمره بين الخامسة عشر والخمسين عاما، وان ينضوي تحت قيادة وطاعة الملك فليبي الثاني، ويسمح القرار لكل من يستلم بتقديم شكواه ويعد بحثها بعناية، كما وعد القرار بإعطاء جائزة لكل من يستسلم، وإطلاق سراح شخصين من عائلته، وحكم القرار بالإعدام على من يرفض الاستسلام، عدا النساء والأطفال دون الخامسة عشر، وعين القرار مراكز للاستسلام تابعة لخوان النمساوي والدوقة دي سياسة، وفي الوقت نفسه تابع خوان النمساوي القتل والسبي بين مسلمي المنطقة، مسالمين كانوا أو محاربين.

نية السلطات إلى نفيهم ونزعهم عن أوطانهم، فلما كانت المقاومة إذن؟ لقد ثاروا لأن السلطات الإسبانية أرادت أن تحرمهم من هويتهم ومقومات الشخصية الإسلامية، فكيف بها الآن تريد حرمانهم من وطنهم الأم الذي يضم كل تراثهم وأمجادهم؟

هكذا انهارت كل الجهود الساعية إلى عقد الصلح بين الطرفين، وانتهت باتهام الحبقي بالخيانة وعلى هذا الأساس تم إعدامه؛ وأمام هذا التحدي بذلت السلطات الإسبانية بقيادة دون خوان قصارى جهدها للقضاء على المقاومة، فشنت هجوما ضخما على منطقة البشرات[1]، عندها اضطر ابن عبو للانسحاب إلى المناطق الوعرة، بعد أن استشهد معظم رجاله.

ولم تتوقف الأمور عند هذا الحد، بل توصلت السلطات الإسبانية إلى خطة للإيقاع بابن عبو، فاستطاعت الإغراء ببعض أتباعه لاغتياله[2]، فحصل ذلك سنة 979هـ/1579م. بعد اغتيال مولاي عبد الله محمد بن عبو أدرك بقية المجاهدين أنه لا فائدة من المقاومة، فطلبوا الأمان، ووضعوا أسلحتهم، وانتهى بذلك فصل من فصول المقاومة الإسلامية في إسبانيا النصرانية.

## – المبحث الثالث: الجهاد الإسلامي بعد حرب غرناطة (971–1012هـ/1570–1611م):

[1]– استعانت السلطات الاسبانية بالمرتزقة الإيطاليين الذين استقدمهم فليب الثاني، بعدما أدرك أنّه صعب اخماد هذه المقاومة دون دعم إضافي؛ وقد كان على رأس هؤلاء المرتزقة القائد لويس دي ريسكسنس "Luis de Requesens".

[2]– أكدت بعض الروايات التاريخية على أن عملية الاغتيال هذه نفذها بعض أقرباء ابن أمية ثأرا له، لأنهم كانوا على يقين بأن ابن عبو كان على علاقة مباشرة بمقتله؛ فذهب إثنان منهم وقتلوه، ثم ملئت جثته ملحا وحمل على فرس وأوتي به إلى غرناطة، ووضع رأسه في قفص من حديد ليراه الناس. فيما ذكرت رواية أخرى أن اغتياله تم على يد أتباعه؛ فبعدما ضاقت رقعة المجاهدين بين برشول وترفلش، أوعز الاسبان إلى الشنيش بقتل ابن عبو مقابل عفوهم عنه، وكان الشنيش يحقد على ابن عبو، لأنه منعه من عبور البحر إلى المغرب، وكان الاسبان قد قبضوا عليه وأطلقوا سراحه ومنحوه الأمان ووعدوا بتسليمه زوجته وابنتيه مقابل الإتيان بابن عبو حيا أو ميتا. وفي 1571/03/13م نجحت المؤامرة، إذ هجم الشنيش وستة من أتباعه على ابن عبو في الكهف الذي كان مختبئا فيه، فقاوم حتى استشهد، فسلم الخونة جثمانه للإسبان الذين حملوه إلى غرناطة، وادخلوه المدينة في حفل ضخم، ووضعوه في قفص حديدي بعد أن ألبسوه لباسا كاملا وكأنه صاحبه حي، ثم حملوه على فرس وقطعوا به المدينة تتبعه أفواج من أسرى المجاهدين.

لم يتـم تهجير كـل مسلمي غرنـاطة بعد الحركة المسلحـة التي اندلع فتيلها سنة 971هـ/1570م كما ادعته الكنيسـة[1] فلقد فـر الكثير منهم وتحصنـوا بالجبـال، وكونوا فرقا حملت على عاتقها مهمـة مواصلة الكفاح والمقاومة ضد قوى الشر والاضطهاد ودفاعا على هويتهم الإسلامية.

**1)– استمرار العمل المسلح من سنة 972هـ/1571م وإلى غاية عام 981هـ/1580م:** بين سنتي 972–974هـ/1571–1573م نشرت فرق "الـزريق" الرعب في منطقة المرية مما اضطـر السلطـات الاسبانية إلى الـدخول في مفاوضـات معهـا. كمـا ارتعبـت السـلطات الاسبانية مـن تجمـع المسـلمين في المنـاطق الأندلسـية القديمـة بعـد أن أسـكنت بهـا بعـض المهجـرين الغرنـاطيين؛ ومنـذ مـارس سـنة 972هـ/1571م بـدأ التفكـير في تهجيرهـم مـن جديـد، فصـدر بهـذا الصـدد قـرار ملكـي بتـاريخ 972 هـ/22–11–1571م[2] وتم تطبيقه في شهر ديسمبر من السنة نفسها.

كمـا ظهـرت مـا بـين سـنتي 974هـ و977هـ/1573م و1576م فـرق "فدائيـة" بزعامـة خـوان أسيلاي وماركوس ابن المليح في منطقتي مالقة ورندة انتهى نشاطها بعقد مجموعة من المفاوضات مع السلطات الاسبانية، أدت بمنح العفو "للفدائيين" بما فيهم زعيمهما المذكورين، غير أن السلطات لم تف بوعودها، فألقت القبض على ابن المليح سنة 980هـ/1579م.

وخلال الفترة نفسها أي في سنة 974هـ/1573م وصلت إلى مسامع السلطات الاسبانية أخبار مفادها قرب وقوع هجوم على السواحل البلنسية قادم من الجزائر مقترن بغزو لأراغون القديمة

---

[1]– هذا كان بشهادة كبار موظفي الحكومة الاسبانية، فهذه شهادة بدرو لويزدي ميسا الذي بعث برسالة إلى الكاردينال دييغو دي اسبينوزا جاء فيها ما نصه :" ... **لقد تغيب عدد كبير منهم ( يعني مسلمي حي البيازين ) واختبأ آخرون** ..".

[2]– قررت السلطات الاسبانية إخراج المسلمين الغرناطيين المهجرين، في منطقة الأندلس القديمة إلى المناطق القشتالية المختلفة؛ فأخرج مسلمو ولاية جيان إلى وادي الحجارة وطليطلة وبلنسية، ولم تنته هذه المراحل المتتالية من التهجير إلاّ بعد أن كادت تقضي على المهجرين.

من طرف حاكم بيارن. وفي سنة 976هـ/1575م، اقترح حاكم بيارن على مسلمي أراغون القديمة مساندته عسكريا إذا هاجموا اسبانيا عسكريا، وطلب أيضا منهم إمداده بعشر إلى اثني عشر ألف أسكودو[1] مقابل مساعدته لهم. وبعد تدارس العرض، وجد مسلموأراغون أن المال المطلوب يفوق قدرتهم[2] فرفضوا العرض.

كما اختار الكثير من مسلمي اسبانيا متابعة الجهاد ضد النصارى في قشتالة وذلك عن طريق تنظيم جماعات مسلحة أطلقت عليها المصادر التاريخية اسم "المنفيين"؛ هذه الجماعات قامت بضرب مصالح السلطات الاسبانية والكنيسة، خاصة بعد سنة 978هـ/1577م.

فقد نشطت هذه الجماعات لمدة سنتين على مستوى مناطق عديدة منها بلد الوليد وبشترنة وبطليوس، وأبدة واشبيلية؛ ولم يكن من السهل على السلطات الاسبانية إلقاء القبض عليهم أو القضاء على هؤلاء "المنفيين" لإتقانهم استعمال فنون حرب العصابات هذا من جهة، وللدعم الذي كان يقدم لهم من طرف مسلمي قشتالة. على هذا الأساس كلفت السلطات الاسبانية فرانسيسكو[3] بالقضاء على"المنفيين" أواخر سنة 983هـ/1582م.

وعلى الرغم من كل الضغوطات الممارسة من قبل السلطات الاسبانية على مسلمي اسبانيا إلا أن اتصالاتهم مع الدولة العثمانية لم تتوقف[4] فقد كان لهم في هذه الأخيرة أكبر أمل في

---

[1]- أسكود : عملة نقدية.

[2]- لقد عرض مسلموآراغون على الدولة العثمانية أن تمدهم بهذه القيمة المالية، لكن دون جدوى، إذ أنّ السلطات العثمانية لم ترد على طلبهم هذا؛ فأخبروا حاكم بيارن أنّ لديهم كميات كبيرة من السلاح المخبأ، وطلبوا منه قبولها عوضا من المال.

[3]- **فرانسيسكو** : هو فرانسيسكو هرناندس دي ليبانا، شغل منصب رئيس محكمة التفتيش ببلد الوليد.

[4]- قبضت محاكم التحقيق في بلدة كوديل بمملكة بلنسية، شمال شقورب، على مسلم اسمه شمس الدين؛ أدى استنطاقه إلى اكتشاف شبكة اتصالات سرية بين مسلمي اسبانيا والدولة العثمانية، كان مركزها آراغون؛ كما ضبطت معه محاكم التحقيق رسائل مكتوبة باللغة العربية والأعجمية.

تخليصهم من الاضطهاد الذي أسقطتهم فيه الكنيسة الكاثوليكية[1]، فبين سنتي 979هـ و981هـ/ 1578م و1580م تجددت أنباء قرب قيام حركة مسلحة بمساندة الدولة العثمانية، أرسلوا مبعوثا لمسلمي اسبانيا اسمه خوان دوارتي، هذا الأخير أخذ يتجول بين قرى بلنسية وأراغون لعقد الاجتماعات والتخطيط للمقاومة[2]وفعلا كان مسلمو اسبانيا ينتظرون قدوم الأسطول العثماني منذ سنة 978هـ/1577م.

**2)– مقاومة الفدائيين (983–993هـ/1582– 1592م):** رفض مسلمو قشتالة، تحمل الذل والهوان، فاختاروا المقاومة المتواصلة في الجبال، يغيرون في عمليات "فدائية" على مصالح الكنيسة والدولة؛ وانتشرت العمليات الجهادية بين سنتي 981هـ و991هـ/1580م و 1590م خاصة في مملكة بلنسية، ففي 985هـ/1–10–1584م قتل بعض المسلمين سيدهم بسكوند يشلبة وثاروا ضد نصارى المنطقة.

وخلال سنة 986هـ/1585م اندلعت حرب بين نصارى أراغون القديمة[3] الساكنين في الجبال، ومسلميها القاطنين في سهول وادي أبرة دامت ثلاث سنوات، إلى غاية سنة 989هـ/1588م خلال هذه الحرب ساند النبلاء المسلمين الذين كانوا يعملون في أراضيهم.

ولقد ساند هوكونو[4] بيارن مسلمي أراغون القديمة في صراعهم ضد النصارى الاسبان

---

[1]– لقد خيب السلطان سليم الثاني ( 1566–1574 م ) آمال مسلمي اسبانيا إبان حرب غرناطة الكبرى، وخذلهم بتفضيل فتح قبرص على انجادهم جديا؛ ولكن مع هذا ظلت الدولة العثمانية فاتحة أراضيها للمهاجرين.

[2]– لم تكلل هذه المحاولات بالنجاح واكتفت الخلافة العثمانية بتقديم الدعم لمسلمي اسبانيا بنقلهم على متن أسطولها إلى سواحل المغرب العربي.

[3]– أراغون القديمة هي ولاية طرويل.

[4]– **قضية الهوكونت** : هي حركة قادها البروتستانت في ولاية بيارن الفرنسية، وكان المسلمون في مملكة أراغون القديمة أقرب تجمع إسلامي من فرنسا في اسبانيا، لا تفصلهم عنها سوى جبال البرت.

الكاثوليك[1] في الفترة الممتدة ما بين سنتي 986هـ و989هـ/ 1585 و1588م. وأثناء سنتي 991هـ و993هـ/1590 و 1592م، انتشر الرعب في اسبانيا مرة أخرى عندما لجأ أحد الزعماء المسلمين الملقب بـ " أنطونيو بيريز" إلى فرنسا وحصل على وعد المساندة من أمير بيارن[2] مقابل مساندتهم له إن غزو أراغون.

كما أعدم شنقا في بلنسية ستة غرناطيين مسلمين عقابا على أعمالهم "الفدائية" ضد النصارى؛ أيضا قام المجاهد صليح وجماعته بعمليات متعددة زرعت الرعب في كل أنحاء مملكة بلنسية. كما قام نائب الملك بمجهود عسكري كبير للقضاء على المقاومة الإسلامية المسلحة في مملكة بلنسية. فكان لهم ذلك، إذ استسلم صليح في صيف سنة 987هـ/1586م ومعه 21 مجاهدا، إلا أن السلطات الاسبانية غدرت بهم وهذا من شأنها، فحكمت عليهم في 987هـ/04-11-1586م بالموت البطيء، وهو الخدمة الشاقة في مناجم المعادن لمدة ثلاثين سنة[3].

أما بتاريخ 988هـ/7-6-1587م أصدر القصر الملكي قانونا يحدد عقوبات شديدة ضد أعضاء المجموعات "الفدائية"، وأفراد عائلتهم، حتى إذا لم يشاركوا في أي عمل "فدائي"، ينقلهم إلى قشتالة، وكذلك ضد من يحميهم؛ بعدما كللت كل هذه المحاولات بالفشل، لجأت السلطات الاسبانية إلى التفاوض مع زعيم المقاومة صليح، فتمخض عن هذه المفاوضات الاستسلام مقابل عهد الأمان.

---

[1]- أراد الفرنسيون استعمال مسلمي أراغون لتخويف الاسبان ، وخلق مشاكل لهم عند الضرورة ، للحصول على مكاسب منهم بأرخص الأثمان؛ لذا لم يقدموا أية مساعدة عملية لمسلمي أراغون تساعدهم على ا لتحرر.

[2]- أصبح أمير بيارن فيما بعد هنري الرابع ملك فرنسا.

[3]- الكتاني، المرجع السابق، ص ص: 138، 139.

**3)– المحاولات الأخيرة في معركة البقاء (1010–1012 هـ/1609– 1611م**: اعتصمت جماعة من مسلمي اسبانيا في الجبال وتجمعوا قرب دانية والكوى وأعلنت مقاومتها لقرار النفي بلغة السلاح والنار، وانضمت إليها عشرون قرية في جبال قدر عـدد المجاهـدين بحـوالي ستين ألف تجمـعوا في وادي الهار.

كما نظمت مقاومة كذلك على مستوى وادي خوكار، فقتلوا وكيل الشرطة المكلف بتهجيرهم، ونجح الفقيه عميرة في اشعال نار المقاومة في كوفر نتس وخلاشى فتبعه مسلمو موله دي كورتس وهناك نصبوا عليهم قائدا يحكمهم[1]، واستمرت المقاومة بعد ذلك في عدة مناطق أخرى. لكن كل شيء قد انتهى بالنسبة للمسلمين داخل اسبانيا، إذ تجددت هذه الأخيرة بمساعدة الدول الأوربية لتسوية هذه المسألة.

لقد عانى مسلمي اسبانيا الكثير عند تهجيرهم، ووصلت أخبارهم إلى باقي الجماعات التي لم تطرد بعد، فأدى بهم اليأس الى مقاومة "انتحارية"[2] في القرى الجبلية، ككورتش وكوفرانش وآبورة[3] فاجتمع عدد كبير في مشارف قرية كورتش، وبايعوا شيخا مسنا من زعماء بلدة تريزة ملكا عليهم؛ فرفض البيعة لما رأى استحالة المهمة المنوطة إليه.

عندها بايع المجاهدون مسلما آخر من وجهاء بلدة كتادو اسمه الطريقي، فقبل البيعة، وعين فقيها نائبا عنه؛ فاجتمع حولهما عدة آلاف من المجاهدين المسلحين، وتحصنوا في الجبال فأرسل الملك

---

[1]– مؤرخ مورسكي مجهول، نقلا عن محمد عبده حتالة، موريسكيو بلنسية تحت وطأة السلطة الدينية السياسية في عهد الملك فليب الثالث، بحث قدم ضمن أعمال المؤتمر العالمي الثاني للدراسات المورسكية، (المرجع السابق). ص: 120.

[2]– تعتبر هذه لمقاومة انتحاري ذلك أن الظروف الداخلية والخارجية كانت تخدم السلطات الاسبانية ، لذلك فإن مقا ومة مسلحة في مثل هذه الأوضاع يكون مصيرها حتما الفشل .

[3]– عبارة عن قرى جبلية موجودة جنوب نهر شقر على حدود قشتالة .

فليب الثالث لملاحقتهم جيشا من الجنود الإيطاليين وبعد مقاومة عنيفة، قتل فيها العدد الكثير من جيش الملك، كما استشهد عدد لا يحصى له من المجاهدين، استسلم منهم ثلاثة آلاف مجاهد، طردوا من البلاد[1]، وبقي الطريقي يقاوم مع بعض مئات من المجاهدين إلى أن قبض عليه، وأعدم بعد التعذيب.

كما اتفق مسلمو اسبانيا مع السفير الفرنسي Soult Pani الذي بعث به الدوق de la force حاكم منطقة بيرم Beam على موعد للمقاومة لكن الأب جيم بليدا Jaime Bleda استطاع أن يكشف المؤامرة ويبلغ عنها، فأحبطت وأعدم رؤساؤها شنقا، وإثر ذلك أصدر الأمر إلى نائب الملك بلنسية بإلقاء القبض على أي مسلم يحاول الهرب من بلنسية برا أو بحرا [2]؛ كما تبين مساعدة السلطات الفرنسية لمسلمي اسبانيا عندما بعث السلطان العثماني أحمد الأول سفارة لفرنسا طالبا منها تسهيل تحويلهم إلى أراضي الدولة العثمانية[3]، فلبت حكومة فرنسا الطلب.

كما تبين ذلك أيضا من خلال الاتصالات التي كانت قائمة بين بعض الزعامات المسلمة في اسبانيا والفرنسيين، بل لقد اقترحوا قبيل الطرد على هنري الرابع أن يساعدوه في احتلال منطقة كاسكوقم Gascogme لكنه رفض رغم تحمس سالي Sully لهذا المشروع[4].

كما تم التخطيط لإعلان حركة جهاد مسلحة ضد قوى الطغيان في سنة 1006هـ/1605م بمساعدة فرنسا، حيث تكونت هذه القوة من عشرة آلاف مجاهد، وفي الوقت نفسه يصل إلى ميناء

---

[1]- محمد عبده حتالة، موريسكيو بلنسية تحت وطأة السلطة الدينية السياسية في عهد الملك فليب الثالث، (المرجع السابق). ص: 121.

[2]-Dominguez Ortiz YB . Vicent, historia de los Moriscos , PP : 173 ,174 .

[3]- التميمي عبد الجليل، رسالة من السلطان العثماني أحمد الأول إلى دوق البندقية حول الموريسكيين، (المرجع السابق). ص : 10 .

[4]- Op. Cit. PP : 174.

الغراو أربع سفن حربية فرنسية محملة في الظاهر بالقمح وفي الحقيقة بالأسلحة للثوار؛ وعند سقوط مدينة بلنسية، يحتل الثوار باقي ممتلكاتها، ثم اسبانيا كلها.

هكذا رجع بانسيو بهذا المخطط إلى فرنسا، لكن أحد المشتركين في الاجتماع أوصل الخبر إلى السلطات الاسبانية، فقبضت على أكثر زعماء الثورة الذين حضروا الاجتماع، وعذبتهم حتى اعترفوا، ثم أعدمتهم[1]. بهذا كتب على المشروع الموت قبل ميلاده، ولكن تعتبر المحاولة في حد ذاتها جرأة كبيرة وشجاعة لا مثيل لها من طرف فئة مضطهدة ومقهورة.

من خلال تتبعنا لمجريات الأحداث يمكننا الخروج بمجموعة من الاستنتاجات من جملتها نذكر:

– استعمل المجاهدون تضاريس الجبال ومعرفتهم بالمواقع الجغرافية أحسن استعمال، فكانوا يضربون العدو ضربات مفاجئة ينتقلون بعدها بسرعة من جبل إلى آخر، ويتحاشون المعارك والمواجهات الطويلة، فكانوا مبدعين حتى في محنتهم، إذ اخترعوا حرب العصابات وأتقنوها، فخارت في أول الأمر معنويات الجيش الإسباني الذي كان يخوض حربا كلاسيكية.

– عمد المجاهدون على تجويع جيش العدو بحرق المحاصيل الزراعية، مطبقين في ذلك "الحصار الغذائي".

– تحول الجنود الإسبان من مقاتلين في صفوف جيش نظامي ملكي داعت شهرته على مستوى العالم آنذاك إلى مجرمين وقطاع طرق، بقتلهم أو استبعادهم لجميع من يقع في أيدهم من

[1]– الكتاني، المرجع السابق، ص: 159.

أسرى المجاهدين، سواء كانوا أطفالا شيوخا أو نساءا، للقضاء على معنويات المجاهدين، مطبقين في ذلك أحقر الأساليب وأجبنها، بالرغم من عدم تكافؤ قوى الصراع.

– كانت القوات المتحاربة ضخمة بالنسبة لمجموع عدد السكان، إذ كان عدد المجاهدين في أول الأمر حوالي 4.000 مجاهد، ووصل فيما بعد إلى 30.000 مجاهد. وتدل هذه الأرقام على المجهودات الضخمة التي قام به المجاهدون لتحرير بلدهم، كما يدل ذلك على إجماعهم على المقاومة، ولم يقل عدد القوات النظامية التي جابهتهم عن ثلاثين ألفا، مسلحة بسلاح أفضل بكثير من ذلك الذي استعمله المجاهدون.

– النهاية المأسوية التي كانت مصير المقاومة الإسلامية، كان السبب الرئيس فيها هو الغدر والخيانة، وعدم الإدراك التام بخطورة ألاعيب العدو ومحاولته شق صفوف المجاهدين، فكلفتهم في نهاية المطاف ثمنا غاليا.

– هذا فيما يخص الجانب العسكري والاستراتيجية المطبقة من الطرفين أما من ناحية البعد الاجتماعي لهذه المقاومة فيمكننا الخروج النتائج التالية:

– لم يستطع زعماء الجهاد التغلب على نزاعاتهم الجانبية بين أهل حاضرة غرناطة مثلا وأهل البشرات، فقد ساهمت تلك النزاعات في تقاعس قاعدة غرناطة ومرسية عن الانضمام إلى المقاومة في أول أمرها.

– لم يكن الجانب الإسباني موحدا في صفوفه، نلاحظ ذلك في العداوة القوية التي كانت بين ديسا ومندوجر، وبين سياسة وبليش.

- وقع ضحية هذه الثورة عشرات الآلاف من الأندلسيين، خاصة النساء والأطفال، كما قتل عدة آلاف من الإسبان.

# الباب السادس: الثقافة الإسلامية في اسبانيا خلال القرنيين 10__11هـ/16__17م

## الفصل الأول: جهود الفقهاء في حقل الجدل الديني في اسبانيا الكاثوليكية

## الفصل الثاني: الجدل الديني العملي بين عامة مسلمي اسبانيا والنصارى

## الفصل الثالث: ظاهرة التصوف في اسباني النصرانية

## الفصل الرابع: التنظرم الاجتماعي الإسلامي في اسبانيا الكاثوليكية بين الحقيقة التاريخية والأسطورة

# الفصل الأول: جهود الفقهاء في حقل الجدل الديني في اسبانيا الكاثوليكية

## المبحث الأول: رؤية تاريخية لحركة الجدل الديني في الأندلس

1)__ مفهوم الجدل لغة واصطلاحا

2)__ بدايات الجدل الديني بين المسلمين والنصارى في الأندلس

3)__ جهود علماء الأندلس في حقل الجدل الديني مع نصارى الأندلس

## المبحث الثاني: الجدل الديني بعد سقوط الأندلس من خلال بعض مؤلفات مسلمي اسبانيا

1)__ قراءة في كتاب لوي كارديك "الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون (المجابهة الجدلية)

2)__ جهود الفقهاء في الرد على شبهات النصارى

## المبحث الثالث: الجدل الديني من خلال قراءة في بعض المخطوطات الألخميادية

1)__ نفي عقيدة الألوهية عند النصارى

2)__ نقد نظرية النصارى في ألوهية عيسى عليه السلام من خلال المنظور الإسلامي وكما رآه مسلمو اسبانيا

3) الأناجيل

إن التواصل بين الناس ضروري على تنوع عقائدهم، وتعدد أفكارهم، وتقارب قيمهم أو تباعدها، وهذا نتيجة التنوع في اللغة والثقافة والميول والمقاصد، وهذا التنوع آية ربانية حيث الناس من أصل واحد، ومع ذلك توزعوا وأصبح الاختلاف سنة كونية، وذلك مصداقا لقوله تعالى في سورة هود، الآية رقم: 118{**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**}.

فالعيش الكريم الذي يؤمن سعادة الإنسان المستخلف في الأرض يحتاج إلى مواقع للقاء وفق قواعد وضوابط، ولا يتمكن حدوث ذلك إلا بأساليب التواصل أبرزها ثلاث هي: الجدل، والمناظرة، والحوار، ذلك أن العلاقات التي تقوم على هذا الاختلاف حقيقة وواقع وهو غير الخلاف، فالخلاف ينم عن الخصام والتنازع، بينما الاختلاف يدل على الإقرار بالتنوع، وبوجود الآخر ليكون بعد ذلك التواصل معه من خلال الحوار أو المناظرة أول الجدل.

إذن يعتبر الجدل الديني بين معتنقي الديانات السماوية سمة من سمات "حوار الحضارات" وصفة من صفات الرقي المعرفي وقبول الآخر، ذلك أن لا شيء حقا يفرق الأمم شيعا وفرقا متنافرة مثل معتقدات، لهذا يظل الحوار الديني هو المفتاح الحقيقي، لمعظم المشكلات التي عرفها وعانها المسلمون في حياتهم. والحق أن الحوار الإسلامي ـ النصراني أو ما يعرف الآن بـ "حوار الأديان" هو ما اختاره المسلمون الأوائل في الأندلس كطريق للتعايش السلمي، ومن ثم الدعوة الدينية، التي قامت على الإقناع والاقتناع.

فقد شهدت الأندلس على وجه الخصوص الجدل الديني بين الديانات السماوية ( الإسلام-

اليهودية – النصرانية) في القرون الثلاثة الهجرية (القرون الرابع والخامس والسادس)، حركته جماعة من العلماء المسلمين، ومثلهم من رهبان النصارى وأحبار اليهود. والحق يقال إن تلك المجادلات أنتجت علما غزيرا أتخذ له فيما بعد مسمى " علم مقارنة الأديان" وهو علم لا يزال يلقى قبولا في أوساط الدوائر الأكاديمية المعاصرة، وإن كان للأندلس الإسلامية أن تفخر بأشياء فلا شك أن الحوار الحضاري الذي تم على أرضها بين الشعوب العرقية والدينية يأتي في مقدمة ما تفخر به وتزهو.

فقد كان استعمال الجدل الديني في الأندلس على مر العصور من قبل المتحاورين المسلمين والنصارى للدعوة إلى الإسلام، ومن أجل التبشير بالنصرانية. وقد أبان تجادل أصحاب الديانات عن روح التسامح السائد بين المتجادلين، ولعل ذلك راجع للتقاليد التي أشاعها المسلمون حكاما وعلماء ومنها حرية التعبير والاعتقاد الديني لكل الطوائف والملل.

لكن بعد سقوط غرناطة آخر معقل للمسلمين في الأندلس سنة 897هـ/1492م تغيرت الأمور جذريا وعلى كل المستويات، ذلك أن النصارى المنتصرين لم يكونوا بمستوى التسامح الذي كان عليه المسلمون حكام، وعلماء وعامة المجتمع. أمام التعصب الديني الذي سيطر على الحكام الاسبان ورجال الكنيسة بدأت بوادر الصراع بين معتنقي الديانتين (النصرانية والإسلام) تظهر وتتصاعد، على أساس أن المهمة الأساسية كانت تقتضي توحيد اسبانيا دينيا بعدما وحدتها سياسيا.

أمام هذه المستجدات الخطيرة لم يكن أمام مسلمي اسبانيا سوى التشبث بكل مقومات هويتهم الإسلامية بشتى الوسائل والسبل، فكان الجدل الديني من بين السبل التي اتخذها هؤلاء المغلوبين على أمرهم في سبيل الدفاع على دينهم، ولكن هذا الجدال سيأخذ أشكالا وأساليب تختلف

جذريا على ما كانت عليه قبل سقوط الأندلس، ذلك أن الكثير من المعطيات السياسية والدينية والاجتماعية كان لها دورها في تغيير موازين القوى.

ومن بين المواضيع الأساسية التي كانت محل جدال بين مسلمي اسبانيا والنصارى الطعن في النظام الكنسي البابوي لهذا الدين، واتهامه بتزوير وتزييف نصوصه المقدسة وتحريفها لإضلال أتباعهم وحجبهم عن حقيقة النبوة والدين، ومن بعد جعله ما لم يحرف من هذه النصوص يشهد بذاته على صحة دعواه، لكونه يبشر في رأيه ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم؛ كما حاولوا إبطال أهم معتقدات النصرانية وأسسها، أي التثليث والحلول.

فقد استفرغ هذا الأمر جهدا ملحوظا من مسلمي اسبانيا في دحض هذا المعتقد والاستدلال على ذلك بالآليات المنطقية والعقلية. وغني عن البيان، أن نقدهم لهذا المعتقد النصراني الكاثوليكي هو في حد ذاته دفاع على عقيدة التوحيد والتنزيه وصحة نبوة المصطفى صلى الله عليه وسلم، الذي لم يأل في تأسيسه والتدليل عليه بالآليات المذكورة.

لعل هذه الأمور كلها، هي ما شكلت صلب مجادلة المسلمين للنصرانية وأسسها، من دون أن يعني ذلك مجادلتهم لأمور أخرى ممثل تحليل أو تحريم بعض الأطعمة والأشربة، أو أنظمة الزواج وغيرها من الجوانب التي كانت محل اختلاف بين الإسلام والنصرانية. بناء على هذه المعطيات سنحاول من خلال هذا الفصل الإجابة على بعض التساؤلات من أهمها: ما هي الآليات المنطقية والعقلية التي استند عليها مسلمة اسبانيا في جدالهم مع النصارى الكاثوليك؟ وهل اختلفت سبله ووسائله عما كان عليه قبل سقوط دولة الإسلام في الأندلس؟ وهل استطاع (الجدال) أن يحقق الأهداف المسطرة

التي رسمها مسلمو اسبانيا أمام تعنت وتعصب السلطات الكنسية والسياسية في اسبانيا؟

## – المبحث الأول: رؤية تاريخية لحركة الجدل الديني في الأندلس

من نتائج التعايش السلمي والدائم بين معتنقي الأديان في أرض الإسلام بعامة، وفي الأندلس على وجه خصوص أن المناظرات كانت وافرة جدا بين المسلمين من جهة، والنصارى من جهة ثانية؛ وقد طالت هذه المناظرات المجال العقدي بشكل خاص. وظلت مساحة هذه المجادلات تتسع من قرن إلى قرن؛ مع ازدهار الحضارة الإسلامية . من جانب . وخوف الأقليات النصرانية على خصوصيتها؛ مع انتشار الإسلام من جانب آخر. وقبل التطرق إلى عرض موجز لسيرورة حركة الجدل الديني في الأندلس لا بد لنا التعريج إلى شرح مفهوم الجدل

1)– **مفهوم الجدل لغة واصطلاحا:** يعتبر الجدل شكلا من أشكال الخطاب التبادلي بين شخص أو طرف وآخر، والمنطلق فيه أن أحد الطرفين يكون صاحب عقيدة، أو فكرة، أو موقف، وما عليه نقيض ما يكون عليه الطرف الآخر، ويكون تبادل الكلام مع خصومة، والهدف منه أن صاحب العقيدة، أو الفكرة يعمل على الاستمالة الطرف الآخر، واستقطابه ليؤمن بما يؤمن به.

فالجدل هو المعتمد كقاعدة الانطلاق لعقيدة التوحيد، فالإيمان بالله تعالى هو الكلمة السواء الجامعة لكل من اتبع رسالة سماوية، ثم بعد ذلك يكون واجب من يجادل أهل الكتاب، كما سواهم، أن يعتمد أفضل أساليب الحوار الذي يعتمد الكلمة الطيبة، والقول اللين الذي ترتاح له النفوس، وتستقبله بكل حب ورضى.

*– **مفهوم الجدل لغة:** شرح ابن منظور مصطلح الجدل بأنه "مقابلة الحجة بالحجة"،

والمجادلة هي "المناظرة والمخاصمة والجدل هو إظهار المتنازعين مقتضى نظرتهما على التدافع والتنافي بالعبارة، أو ما يقوم مقامهما من الاستشارة والدلالة[1]. كما ورد شرح مصطلح الجدل في الموسوعة الفقهية بأنه "المخاصمة الكلامية دفاعا عن الرأي طلبا للغلبة، وإذا خلا من المخاصمة والانتصار للرأي، حقا كان أو باطلا، فهو: الحوار"[2].

هذه المعاني تبين بأن الجدل ينطلق من أسس راسخة يؤمن بها من يحملها، ويلتزم بها بثبات دونما ميل إلى التنازل أو التراجع عن أي شيء فيها. فالجدل بهذه الصورة يشير إلى تمسك طرف أو شخص بموقف معين، والمعاندة فيه وعدم الاستعداد للتراجع أو التنازل، "ولذلك يقال: الجدل؛ شدة الخصومة. أو تجادلا: تخاصما. فالمجادلة تؤشر دوما إلى المخاصمة والتناقض في الرأي، بحيث يكون الهدف إلزام الخصم بما عليه المجادل"[3].

**أ)– مفهوم الجدل اصطلاحا:** لقد وظف مصطلح الجدل في القرآن الكريم في مواقع كثيرة من الآيات، ولمناسبات مختلفة، وما يبرز أهمية هذا المصطلح أن يكون اسما لسورة " المجادلة". ومن بين السور الكثيرة التي وظف فيها الله سبحانه وتعالى مصطلح الجدل نذكر سورة النحل التي ورد فيها قوله عز وجل: **{ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}**[4].

فسر ابن كثير الآية الكريمة بأن الله سبحانه وتعالى أمر رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بالدعوة

---

[1]– ابن منظور، مصدر السابق، مادة للجدل. ص: 596-571.

[2]– محمد رواس قلعه، الموسوعة الفقهية الميسرة، م:1، بيروت: دار النفائس، ط:1، 1421هـ/ 2000م. ص ص:626، 627.

[3]– أسعد السحمراني، الإسلام والآخر، بيروت: دار النفائس، ط:1، 1426هـ/ 2005م. ص:18.

[4]– الآية رقم: 125.

إلى الإسلام بالحكمة، ومن يحتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب[1]. كما ورد ذكر هذا المصطلح فيما يخدم مباشرة هذه الجزئية من البحث في سورة العنكبوت في قوله عز وجل:{ **وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** }[2].

وقد ورد شرح هذه الآية بأن الله سبحانه وتعالى أمر عباده بالدعوة الحسنة إلى دين الإسلام، ولكن من حاد عن وجه الحق وعمي عن واضح المحجة، وعاند وكابر، فحينئذ ينتقلون من الجدال إلى القتال[3]. فالمجادل المحق الذي يمتلك الحجة يواجه خصومه من دعاة الباطل استنادا إلى بيان وبرهان ليعجزهم، لأنهم لا يمتلكون بالمقابل من البراهين ما يردون بها على افتراءاتهم.

فعلى صعيد الدعوة إسلامية، يعتبر الجدل هو الخيار الملزم لحامل الدعوة، ذلك أن الإسلام دعوة إلى الدين الحق، لذلك كان الجدل ضرورة؛ فالجدل المحمود إسلاميا إنما هو عمل رسالي لنشر الحقيقة، ودحض الباطل؛ فتاريخ المناظرات الإسلامية لأهل الكتاب قديم في الإسلام بدأت منذ أن كان الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابابته الكرام يجادلون اليهود والنصارى في الأمور العقيدية والتشريعية، فطبيعي أن تنتشر مثل هذه المناظرات في الأندلس لتوفر المناخ الملائم لذلك، وعلى رأس هذا الاحتكاك المباشر بين المسلمين وأهل الكتاب.

هـذا فيمـا يخص الجـدل المحمـود، أمـا المدموم منه فهو الذي يكون مرتكزا على الباطل، ويريد

---

[1]- ابن الكثير، المصدر السابق، مج: 2. ص: 613.

[2]- الآية رقم: 46.

[3]- المصدر السابق، مج:3. ص: 418.

صاحبه المراء، ودحض الحق، أو حب الظهور والشهرة مع المعاندة بما هو فاسد. فالجدل غير المنطلق من قاعدة إيمانية يهم صاحبه الغلبة حتى لو استخدم الحيل، أو اعتمد نصرة الباطل، ذلك أن الجدل منطلقه صراع فكري حول قضية من القضايا أو مسألة من المسائل، ويكون الهدف عند كل واحد من المتجادلين هو هزيمة الآخر فكريا، والانتصار عليه.

والعمل على تحقيق هذا الهدف قد يدفع كل واحد من المتجادلين، أو على أقل تقدير الواحد منهما، إلى أن يعتمد على أي سلاح يمكنه من النصر والغلبة، حتى ولو كان اعتمادا على ما هو باطل إذ الغاية في هذا الموقف تبرر الوسيلة؛ وهذا ما وقع مع النصارى في تنفيذهم لمشروع التنصير القسري أو الاجباري الذي كانت محاكم التحقيق القائم عليه.

والحكم الشرعي للجدال يكون على حسب الهدف المؤسس له؛ فالجدال الذي المقصد منه إظهار الحق فهو واجب[1]. وإن كان في الباطل أو للدفاع عنه وإخفاء نور الحقيقة فهو محرم، مصداقا لقوله تعالى في محكم تنزيله: **{كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ}**[2]. وإن كان لإظهار الغلبة والتفوق على الخصم فهو مكروه ولو كان الجدال في الحق، والكبر في الجدال محرم، ومما جاء في هذا النوع من الجدل المذموم.

هذا هو الجدال، وهو يختلف عن المناظرة وعن الحوار. والجدال المحمود انتصار للحق ودحض للباطل، أما الجدال المذموم فهو في الموقف المقابل، من هنا سلك القرآن الكريم مسلكا خاصا في

---

[1]- محمد رواس قلعه، المرجع السابق. ص: 627.

[2]- سورة غافر، الآية رقم: 5

الجدال، ووضع لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم القواعد التي يمارس على أساسها الجدال على أساسها. ولم تقف آداب الجدال في القرآن الكريم عند طلب أن يكون الجدال بالتي هي أحسن فقط، وإنما تجاوز ذلك إلى أخلاقية أخرى من أخلاقيات الجدل القرآني، وهي أن يكون الحق هو المستهدف من الجدل، وليس الباطل.

**2)– بدايات الجدل الديني بين المسلمين والنصارى في الأندلس:** بدأ يدب الضعف والسقوط بالممالك الإسلامية منذ القرن السادس الهجري الموافق للقرن الثاني عشر الميلادي، وتماشيا مع هذه المستجدات نشطت المجادلات الدينية من الجانب النصراني، وأخذت المناظرات الشفاهية أو المكتوبة شكلا مميزا، فتخصص رجال الدين النصارى في الدراسات العربية والإسلامية.

على هذا الأساس تمكن الرهبان النصارى من تأسيس حلقات العلم الديني لإعداد جيل من الرجال الدين يستطيعون مقارعة حجج المسلمين[1]. وكان من ثمرة تلك الجهود العلمية أن قصد الأندلس أحد علماء تلك الحلقات، وهو بطرس[2]، من أجل التزود من العلوم العربية والإسلامية، وعندما رجع إلى ديره، أخذ يصنف المؤلفات الجدلية للرد على العلماء المسلمين.

إذن يمكن القول إن الجو السياسي والديني والعلمي الذي ساد الأندلس كان مواتيا لانطلاق أكبر تحاور حضاري عرفته أوروبا في تاريخها القديم والوسيط، والفضل يعود للسلطة العربية الإسلامية التي رسخت قولا وعملا منهج التحاور العلمي وأشاعت جوا من الحرية الفكرية تمتع بها الكل.

---

[1]– يعرف علماء الأندلس المسلمين الجدل والمناظرات في العقود الأولى لدخول المسلمين إيبرية وذلك راجع لتفرغ المسلمين لمهمة توطيد السلطة الإسلامية، وراجع أيضا لعدم اتساع معرفة الاسبان باللغة العربية معرفة تخولهم الاطلاع على الفكر الإسلامي. أما بعد استقرار العرب، وشيوع اللغة العربية بين المستعربين والمسلمين الجدد. فقد شهدت الأندلس انصرافا قويا من الشباب إلى الثقافة الإسلامية واللغة العربية.

[2]– **بطرس:** فرنسي الأصل، من الرهبانية البندكتية ورئيس دير كلون.

فقد تعامل المسلمون مع نصارى الأندلس بتسامح كبير[1]، مما أعطى لرجال الدين النصارى حرية دينية، بحيث سمح للأساقفة بعقد مؤتمراتهم الدينية في مختلف المدن الأندلسية، مثال ذلك نذكر المؤتمر الديني الذي عقد في قرطبة عام 582م، ومؤتمر إشبيلية عام 872م.

كما سمحت السلطات الإسلامية للنصارى بتشييد العديد من الكنائس، وكان بعض فقهاء المسلمين في الأندلس يتخذون من النصارى مساعدين لقضاء حوائجهم، ولا يجدون في ذلك غضاضة مثل ما فعله الفقيه ابن الحصار حين استخدم جاره النصراني على قضاء حوائجه ومنافعه.

بل وصل بعض النصارى إلى مناصب عالية في الحكومة الإسلامية فقد استوزر المقتدر بن هود (ت474هـ) ملك سرقسطة أبا عامر بن غند شلب النصراني[2]. كما حدا حدوه محمد بن عبد الرحمن الأوسط (ت 273هـ) الذي صار كبير الكتاب عنده قومس ابن أنتنيان النصراني[3].

نظرا لكل هذه المعطيات انتشرت عملية التبشير في كبريات المدن الأندلسية، وأمام هذا الوضع الخطير لم يكن أمام علماء وفقهاء الأندلس سوى التصدي لهذه الظاهرة، التي إن تركت على حالها فسوف تشكل خطرا يتربص الإسلام والمسلمين في الأندلس.

فقد دخل علماء المسلمين في الأندلس في تحاور حضاري رفيع المستوى، لا من حيث الأسلوب فقط، ولكن من حيث المنهج والمعاني والموضوعات المطروقة التي غطت ميادين دينية

---

[1]- لم يختص المسلمون هذه المعاملة بالنصارى فقط، بل تعدتهم فالامتيازات نفسها تحصل عليها يهود الأندلس، وولوهم المناصب العليا وقربوا المتعلمين منهم، فاستوزر عبد الرحمن الناصر والحكم الثاني الطبيب اليهودي حسداي بن شبروط. (945- 970م). واستوزر الأمير حبوس في غرناطة الأديب اليهودي إسماعيل بن النغريله صاحب كتاب (القصص اليهودي ) وصاحب أكبر مكتبة شخصية في الأندلس.

[2]- محمد بن عبدالله عنان، دول الإسلام في الأندلس، (المرجع السابق). ص: 412.

[3]- أبو عبدالله محمد بن حارث بن أسد الخشني القيرواني، قضاة قرطبة، القاهرة: الدار المصرية للتأليف والنشر، د ط، 1966م. ص: 76.

وفلسفية عديدة. وقد انطلق المتحاورون من كل الطوائف الدينية لتحقيق أهداف معلومة للكل. وينبغي الاعتراف أن الإسلام كعقيدة وشريعة وتطبيق هيأ الأرضية المناسبة لمثل ذلك التحاور الحضاري.

فكما هو معروف لم يطلب الإسلام من الاسبان الذين دخلوا فيه إلا التلفظ بالشهادتين لقاء تمتعهم بكامل الأهلية الإسلامية، وترك للذين اختاروا البقاء على ديانتهم السابقة حرية الدين والشريعة والحكم، ولم يتعرض المسلمون لسواد النصارى فضلا عن ساداتهم[1].

**3)– جهود علماء الأندلس في حقل الجدل الديني مع نصارى الأندلس**: لعب الفقهاء دورا بارزا في حقل الجدال، فقد عرفت الجماعة المسلمة في اسبانيا ذلك فيهم فوثقت بهم واقتدت بهم، بل خضع لهم الكثير رغبة أو رهبة. وكذلك كانوا في كل الميادين والمواقع والأجيال في التاريخ الإسلامي الأندلسي، بكل وضوح. ولم تخل قضية المسلم، إلا وهم فيها قائمون، وعليها ولغيرها متابعون، ولعل هذا كان من العوامل المهمة في الحفاظ على المجتمع المسلم الذي هم حفظته ومناراته وسفاراته، رغم كل المؤامرات التي لم يخل منها زمان أو مكان، خلال التاريخ الإسلامي كله.

ومن أبرز من تصدى لحركة التنصير بأسلوب المجادلات والمناظرات الدينية نذكر الإمام أبي محمد على بن سيعد ابن حزم الظاهري (ت 456هـ)[2]، والشيخ أبي جعفر أحمد بن عبد الصمد الخزرجي

---

1- ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج:1، (المصدر السابق). ص:131.

2- **ابن حزم**: توفي الخزرجي سنة 582 هـ بمدينة فاس بعد أن فقد بصره ولم ينقص ذلك من حفظه وذكائه. نقد عقيدة الألوهية لدى أهل الكتاب وعقيدة صلب المسيح وأنسنة الإله، وتأليه الإنسان، وعقيدة التثليث. كل ذلك وغيره ورد في مؤلفاته (الفصل في الملل والأهواء والنحل )، و(الأصول والفروع). من أهم مؤلفات الخزرجي في علم الكلام مقام المدرك في اقحام المشرك. كما ألف في علوم القران كتابا أسماه "نفس الصباح في غريب القران وناسخه و منسوخة". ينظر: الحفناوي، المصدر السابق..ص:61.

(ت 582هـ) والشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (ت671هـ)؛ فقد قام كل منهم بعمل فكري وجدلي كبيرين، وناقشوا قضايا عقيدية وتشريعه في الدين النصراني محاولين البرهنة على فسادها.

ومن بين النماذج التي ورد ذكرها في مجموعة المصادر والمراجع، والتي عنت بموضوع الجدال الديني بين المسلمين والنصارى في الأندلس نذكر الكتاب الذي ألفه "**محمد بن أحمد بن أبي بكر ابن فرح الأنصاري القرطبي**" المتوفى في الثلث الأخير من القرن الثالث عشر[1]، والموسوم بـ " **كتاب الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام واثبات نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم**"[2].

من خلال عنوان المخطوط يتوضح الموقف الصريح الذي تبناه المؤلف اتجاه النصرانية، ودفاعه على الإسلام ونبي الرسالة محمد صلى الله عليه وسلم. فقد تناول صاحب المخطوط في مؤلفه هذا قضية "تثليث الوحدانية"، واجتماع القساوسة في طليطلة، والعقيدة النصرانية الباطلة. وبهذا يمكن إدماج هذا الإنتاج الفكري ضمن قائمة الأعمال التي أنتجت في المجال الجدلي الذي كان دائرا بين المسلمين والنصارى.

هناك مؤلف آخر يمثل حلقة في سلسلة الجدل الديني بين الإسلام والنصرانية وهو موجود في مخطوط موسوم بـ " **مقامع الصلبان**"، **أحمد بن عبد الصمد بن عبيدة بن محمد بن أحمد بن**

---

[1]- فيرناندو دى لاغرانجا، معجزات اسبانية في مؤلف جدلي إسلامي، ضمن مجموعة من المقالات جمعت في المرجع الموسوم بـ: دراسات أندلسية وموريسكية، (المرجع السابق). ص: 61.

[2]- المخطوط محفوظ في مكتبة كوبو ولو في اسطنبول رقم: 794. كما يوجد لها نسخة أخرى في المكتبة التابعة لمدرسة الدراسات العرب محفوظة في صندوق رقم: 91.

**محمود بن أحمد بن عبد الرحمان بن محمد بن عبد الحق الخزرجي** المكني بـ "أبي جعفر القرطبي"[1].

انتقل الخزرجي إلى الإقامة في بجاية بعد أن عاش في غرناطة؛ وتعلم الحديث على يد كبار الفقهاء نذكر منهم أبي عبد الله بن مكي، وأبي جعفر البطراوي، وعبد الرحمان الحجاري، وأبي بكر بن العربي، وشريح بن محمد، وآخرين. من أهم ما ألف في موضوع الجدال" **"آفاق الشموس وعلائق النفوس**" والمؤلف المذكور أعلاه.

من خلال تتبع مسيرة الخزرجي في حقل الجدال نجده ركز على نقد عقيدة الألوهية لدى أهل الكتاب، وعقيدة صلب المسيح، وكذلك نقد الأناجيل المعتمدة لدى النصارى في زمنه، وقد ألف الخزرجي كتابه العظيم الموسوم: "مقامع هامات الصلبان ومراتع رياض الإيمان" وهو كتاب تم تحقيقه مرتين، وله كتاب أخر لا زال مخطوطا عنوانه: "مقام المدرك في إفحام المشرك" وللخزرجى تجربة فريدة فقد تم أسره من قبل النصارى، وفي مقامه ذاك تمت محاولات عديدة لتحويله من الإسلام إلى النصرانية. ولكنه قاوم بشجاعة العالم، ورد وفند ما أثير حول الإسلام من قبل آسريه.

ومن بين النماذج التي عالج من خلالها الخزرجي أهم العناصر التي كانت موضع جدال بين المسلمين والنصارى نذكر هذا النص المستنبط من مخطوطه ناقش من خلال تأليفه هذا بعض

[1]- **أحمد بن عبد الصمد بن ابي عبيدة محمد بن أحمد بن عبد الرحمان بن محمد بن عبد الحق الخزرجي**: ينتمي نسبه الى سعد بن عبادة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم. نشأة أحمد بن عبد الصمد نشأة علمية. تميز عصره باشتداد الحروب بين المسلمين والنصارى في الاندلس فكان لا يكاد يمر عام، الا ويشتبك الجانبان في حروب ومناسبات وكانت قرطبة التي نشأ بها الخزرجي من بين أهم المدن الأندلسية التي عانت من ويلات الحروب.

المعجزات النصرانية التي حدثت في اسبانيا، ويسخر منها ويعيب على النصارى غباءهم. كما حاول الوصول من خلال عمله هذا إلى أصل هذه المعجزات المشار إليها كوسيلة للتعرف على طرق الاتصال بين المسلمين والنصارى الاسبان أي دون الدخول في صميم الجدل الديني.

فالرسالة التي بعث بها قسيس طليطلة إلى الخزرجي بهدف تنصيره كانت بمثابة دليل يسير عليه كتابه، فهو يواصل الرد نقطة نقطة على ادعاءات القسيس فيقول في إحدى فقرات المخطوط: "...**ليتك قرأت كتبنا كلها وعلمت العجائب التي حدثت على يد القديسين قاموا بمعجزات وبراهين ومع ذلك فهم لا يظهرونها إلا في حالة الضرورة ولو أنك رأيت بنفسك النور الذي يظهر كل عام في ليلة عيدنا الكبير لا رأيت العجائب والغرائب...**"[1]

ويتباهى الخزرجي في نهاية كتابه بأنه على علم بكتب النصارى واليهود التي قرأها وذكر منها فقرات على مدى كتابه، ويجيب على إشارة القسيس قائلا:" ...**فيما يتعلق بما تقوله من أن دينكم فيه صلحاء يظهرون المعجزات على الضرورة...**" بأن هذا كذب وافتراء، ويضيف في السياق نفسه أنه على علم بخدع النصارى فكتب بهذا الصدد يقول:

" ...**فمنها ما وصف لي عن بعض مشاهدكم المعظمة عندكم أن يد الله تخرج لكم منها في يوم واحد من السنة من وراء ستر ولا خفاء لديكم بهذا فحكى لي من أثق في قريحته أن رجلا من اليهود كان قد حظي عند أحد رؤسائكم بالأندلس بوصلة كانت بينهما فدعاه الرئيس له فكان قد رامه يوما عند الخروج عن الدين اليهودي إلى دينه وقال له : ألا ترى هذه**

[1]- فيرناندو دى لاغرانجا، المرجع السابق. ص:66.

**الأعجوبة كظهور يد الله لنا في يوم معلوم من السنة؟ فقال له اليهودي يا مولاي أنا قد رضيت هذا الأمر بشهادتك وصدقك عليه فابحث عنه فإن كان ما يزعم هؤلاء القسيسون حقا صبأت إلى دينك فخالط الرئيس الشك فلما دنا ذلك اليوم الذي تظهر فيه اليد سافر بحملة نحو الشمال وقرب مالا يهديه هناك فبدر إليه الأساقفة وقربوه لتقبيل اليد لما ظهرت اليد له من وراء الستر وضع يده فيها فصاحوا به يقولون: اتق الله الآن تخسف بك الأرض الآن تقع عليك السماء، الآن ترسل السواعق فقال: دعوا عنكم هذا كله فإن هذه اليد لا أحل يدي عنها حتى أعلم أحقا ما تصنعون فيها أم باطلا فلما رأوو الحجة لم يبق منهم إلا اثنان أسرا إليه القول وقالا: ما تبغي في ذلك؟ أصبأت عن دين آبائك؟ قال: لا. قال أ تريد أن تحل ربطا ربط مند ألاف سنة أو نحوها؟ قال: لا وما عاد الله ولكني أريد أن أقف على سر هذه اليد قال: هي يد الله فوقف دون هذا الستر. قال: أيحب أن أراه. قال: أنت وذلك فكشفوا له عن قس مجود الخدين موقوف وراء الستر فلما عاين الرئيس أرسل يده وخرج إلى عسكره فقال له اليهودي: مولاي ما ترى في ديني؟ قال له: رأيك خرجت منه. ففهم اليهودي وسكت...**"[1]

علينا أن نقر بأن جو القصة مرسوم بشكل جيد وأنها تعكس بشكل ما إحدى الأساطير الدينية في اسبانيا النصرانية، هذه الأمور المفتعلة من طرف النصارى التي تتكرر كل عام في يوم محدد كان يشاع عنها أنها المعجزة المفترضة.

كمـا نجـد الجـدال نفسـه يتكـرر في هذا النص الذي يدل على مدى عمق الهوة بين الطرفين .

[1]- فيزناندو دى لاغرانجا، المرجع نفسه. ص:75.

النصارى والمسلمين ومدى قناعة الطرف الأخير بشرعية رسالتهم، وبراءة الدين الذي جاء به عيسى عليه السلام من الزيف والتلفيق الذي أصابه من بعده، فكتب يقول:

**"...وكذلك وصف لي عن صليب بعض مشاهدكم المعظمة عندكم يمشي إليه الناس ليتعجبوا منه وهو واقف بين السماء والأرض وأن أحد رؤسائكم سال عن دلك يهوديا كان كاتبا له فاعلمه أنها حيلة بعد ما استوثق منه فاستكشفه إياها فتفطن اليهودي أن دلك الصليب تمسكه أحجار المغنطيس من جهاته الأربع فأمر الرئيس أن يخلي له يوما دلك المشهد فدخله وحده وأمر بحفر جانب واحد من الحائط فاستخرج منه حجرا من المغنطيس موازيا للصليب فمال إلى جهة واحدة واستخرج منه من الجانب الثاني فاضطرب الصليب وفهم الرئيس وانصرف عنه فما رؤى بعد دلك..."** [1]

من خلال عرضنا لهذه النماذج من الجدال الذي كان دئرا بين الإسلام والنصرانية في الأندلس نلاحظ أنه ارتكز على إظهار الزيف والتحريف الذي أدخله النصارى على الدين السماوي الذي أرسل به سيدنا عيسى عليه السلام. وبهذا حاول علماء الإسلام في الأندلس الدفاع على الإسلام بطريقتهم الخاصة، معتبرين ذلك نوع من الجهاد الذي سوف يؤجرون عليه. كما نلاحظ الفرق الشاسع بين موقف النصارى من المسلمين بعد انتصار هؤلاء في معركتهم السياسية والعسكرية، وموقف المسلمين حكاما وعلماء عندما كانوا هم السادة على أرض الأندلس.

وبهذا فقد بين الجدل الديني الدائر آنذاك مقدار احترام الإسلام والمسلمين للرأي الأخر. وهذا

[1] – فيرناندو دى لاغرانجا، المرجع نفسه. ص:77.

الملمح يعد بحق رافدا من روافد الحضارة الإسلامية التي عرفت التعددية في العقائد والمذاهب والأفكار والرؤى، وكما هو معروف في الإسلام فإن الاختلاف سنة من سنن الله في الكون. ولعل أكبر ثمار الجدل الديني ما توصل إليه المسلمون عقليا، وما أقر به بعض علماء أهل الكتاب المنصفين فيما بعد من أن كثيرا من عقائد أهل الكتاب السائدة آنذاك تفتقر للبرهان المقبول. وقد اعترف بذلك بعض علماء النصرانية. ونجد تلك الاعترافات مبثوثة في مؤلفاتهم الجدلية.

## –المبحث الثاني:الجدل الديني بعد سقوط غرناطة من خلال بعض مؤلفات مسلمي اسبانيا

بعد سقوط غرناطة آخر معقل للمسلمين في الأندلس (897هـ/1492م) بدأت رحلة المأساة تشق طريقها أمام المسلمين، فقد تعاون السيف والقلم معا في محاولة إرهابية لتنصير هذه الفئة القليلة المغلوبة على أمرها، وقد قامت محاكم التحقيق أو الشيطان كما وصفها المسلمون في كتاباتهم بأبشع صور الاضطهاد الديني للقضاء على أي رمز من رموز الدين الإسلامي في اسبانيا.

لم يبق مسلمو اسبانيا مكتوفي الأيدي في معركتهم مع النصارى في محاولة منهم لانقاد معالم هويتهم الإسلامية، فاستعملوا لذلك السلاح كلما سمحت لهم الظروف لإعلانها صرخة مدوية في وجه قوى الظلم والطغيان، والقلم والممارسات الدينية عندما تستحيل أمامهم المعارك العسكرية.

في هذا السياق استعمل مسلمو اسبانيا الجدال الديني في صراعهم مع النصارى الكاثوليك، متخذين في ذلك كل أشكاله وصوره، على أنه يجب الإشارة إلى أن عملية الجدال الديني في اسبانيا خلال القرنيين العاشر والحادي عشر هجريين الموافق للقرنيين السادس والسابع عشر ميلاديين أنها أخذت أشكالا مختلفة نظرا للتفاوت الواضح والشاسع بين قوى الصراع بين الطرفين، فالحوار لا يكون

إلا بين طرفين متكافئين، وهذا ما لا يتوفر الآن في طرفي المعادلة، فأحدهما يلزمه أولا ترتيب بيته من الداخل، ثم النظر في إمكانية الدخول في مثل هذه الحوارات الحضارية، في حين يزهو الآخر بما حققه من إنجازات مادية مذهلة، وبالتالي فهو لا يرى نفسه مضطرا الى محاورة الآخرين. وعليه فإن الحوار ممتنع أصلا بين الطرفين المتصارعين.

ولكن قبل التطرق لأشكال الجدال الديني بين المسلمين والنصارى الكاثوليك في اسبانيا يجب التعريج إلى إشارة خاطفة على أهم دراسة أكاديمية، أثرت المكتبة الأوروبية والإسلامية على حد سواء بإنتاج علمي مهم ساهم بشكل كبير في التعريف بموضوع الجدال الديني بين النصرانية والإسلام خلال القرنيين العاشر والحادي عشر هجريين الموافق للقرنيين السادس والسابع عشر ميلاديين.

**1)– قراءة في كتاب "الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون. (المجابهة الجدلية)":**

عنوان المرجع كاملا" الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون. (المجابهة الجدلية (1422–1640) مع ملحق بدراسة عن الموريسكيين بأمريكا". " Morisques et chrétiens un Affrontement polémique (1491-1640)."[1] لصاحبه" لوي كارداياك" " Louis Cardiallac " أنجز هذا الأخير الذي شغل منصب أستاذ بجامعة مونبلي بفرنسا دراسة مهمة حول هذا موضوع الجدل الديني الذي كان قائما بين المسلمين والكاثوليك الإسبان، جمع فيها وعلق على العديد من النصوص التي كتبت في الجدال الديني الذي أسس له مسلمو اسبانيا بكثير من الحذر.

فكل متتبع أودارس لملف الجدل الديني بين مسلمي اسبانيا والنصارى خلال القرنين العاشر

[1]– قام بتعريب وتقديم للبحث عبد الجليل التميمي. من منشورات: المجلة التاريخية المغربية وديوان المطبوعات الجامعية الجزائر– تونس 1983. طبعة الأولى: المجلة التاريخية المغربية، وديوان المطبوعات الجامعية الجزائر.عدد صفحات المرجع: 195 صفحة من حجم متوسط.

والحادي عشر هجريين الموافق للقرنيين السادس والسابع عشر ميلاديين يدرك تمام الإدراك أنه لا يمكن الاستغناء على هذه الدراسة التي كانت من بين أهم الدراسات التي عالجت موضوع الجدل الذي كان قائما بين المسلمين والنصارى.

تكونت الدراسة من ثلاث أجزاء أو أقسام. أما القسم الأول : فيتكون من الإهداء ومقدمة المؤلف للترجمة العربية، ومقدمة المعرب، وتقديم الدكتور، بالإضافة إلى كلمة المؤلف" فرنارنند برودال " "Fernand Broudel".

في حين ضم القسم الثاني من الدراسة ثلاث فصول:

- الفصل الأول: المجادلة من خلال الحياة اليومية.
- الفصل الثاني: الموريسكيون ودواوين محاكم التفتيش.
- الفصل الثالث: الموريسكيون والبروتستان.

وهناك جزئية من إنجاز المعرب عبد الجليل التميمي حول "القضية الموريسكية بأمريكا". كما ضمت الدراسة مجموعة من الفهارس.

كانت هذه الدراسة العلمية مضمون رسالة جامعية لنيل شهادة دكتوراه دولة؛ ناقشها لوي كارديك في جامعة مونيليبي. وبعد سنتين من مناقشة بحثه قام بطبعها سنة 1977م بباريس لدى " مؤسسة فوندودو كلتورا أكونوميكا "" Frondo de cultura Economica ". ثم قامت دار النشر المكسيكية" كلينسك" "(klinsieck)" بنشره لدى فرعها بمدريد باللغة الإسبانية، وقد أنجزت هذه الترجمة الباحثة "مرسيداس قارسيا أرينال" "Mercedes Garcia Arna" المتخصصة في الدراسات

"المورسكية".

ثم قام الباحث المتخصص في الدراسات العثمانية والمورسكية "عبد الجليل التميمي" بترجمته ونشره سنة 1982م، والترجمة هذه ستسعى دون شك إلى التعريف بهذه الفترة المؤلمة من التاريخ الإسلامي في الأندلس المفقودة. وأيضا من شأنها أن تعزز الاهتمام مستقبلا بدراسة التاريخ "الموريسكي"[1] من خلال مجموعة الوثائق التي يمكنها أن توفر لنا أفضل شبكة من المعلومات الجيدة والسليمة لكتابة التاريخ "الموريسكي".

يعتبر هذا العمل نموذجا لهذه الدراسات القيمة والجديدة التي عمقت البعد الاضطهادي والنفسي الذي عاشه مسلمو اسبانيا، وهو عبارة عن تتبع موضوعي مركزا على الحياة اليومية لهؤلاء المضطهدين وارتجاجهم النفسي الناتج لظروف القهر والتنكيل الذي مارسته السلطات الاسبانية خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين الموافق للقرنيين السادس والسابع عشر ميلاديين. فالدراسة هذه عبارة عن عرض لمجابهة بين مجموعتين – المسلمة والنصرانية – التي ترجمت على المستوى الثقافي في هذه الكتابات الجدلية والتي يمكننا أن نجد العديد من شواهدها في قضايا محاكم التحقيق أو في أعمال المعارضين.

اعتمد الباحث على مجموعة مهمة من المخطوطات الألخميادية، ووثائق محاكم التحقيق؛ بالإضافة إلى مجموعة من التآليف الجدلية العربية، مثال ذلك ما ألفه كل من ابن حزم القرطبي وعبد

[1]– المفارقات الأساسية أن الجدال الديني للمؤلفين المسلمين قد جابه الممارسات الإسلامية مع الممارسات النصرانية في إطار يعمل معه إدراك الطقوس النصرانية والممارسات الإسلامية، ويمكننا أن نقيم بصورة مبسطة وإلى أقصى حد التطورات التي تحتل عدة صفحات من النصوص. ينظر: ميكال دي إليزا، الممارسات الإسلامية في مجابهة الطقوس المسيحية، تع : عبد الجليل التميمي، (المرجع السابق). ص : 123.

الله الترجمان في هذا المجال. وبهذا الصدد ذكر المؤلف بأن النصوص التي استنبط منها مادته التاريخية تميزت بانسجامها في الوسط الاجتماعي وتشكل بذلك، نموذجا حيا، ذا فائدة جمة.

أهم الملاحظات المنهجية المسجلة حول هذا العمل الأكاديمي:

- اعتمد على مجموعة هائلة من الوثائق الأرشيفية التي أكسبت البحث مصداقية علمية.

- اعتمد بالدرجة الثانية على مجموعة من المخطوطات الألخميادية التي احتوتها مختلف المكتبات المتواجدة في فرنسا واسبانيا.

- اعتمد على مصادر جلها أجنبية بالدرجة الأولى (الاسبانية ثم الفرنسية).

- يعتبر بحثه عمل أكاديمي، فهو يشير إلى مصدر كل المعلومات الموجودة في عمله الأكاديمي.

- يقيد كل عنصر يتكلم عنه بأمثلة ونماذج حية عاصرت الحدث.

- لم تكن له نظرة استقرائية للنصوص المستنبطة من الوثائق والمخطوطات وإنما اكتفى بعرضها فقط.

- يتدخل ببعض الاستنتاجات معظمها هي عمليات لما قيل حول نقطة معينة من الموضوع.

- بحثه كان عرض لمجموعة مهمة من المعطيات أخذت منحى بحث اجتماعي ديني أكثر منه تاريخي.

- ابتعد الباحث على الذاتية والتعصب الديني، فلم تكن هناك على مدى دراسته إهانة لشخص النبي صلى الله عليه وسلم؛ أو إبداء رأي حول قضية دينية تخص التشريعات الإسلامية.

– خرج الباحث بنتيجة مهمة مفادها أن مسلمي اسبانيا حافظوا على ممارسة الشعائر الإسلامية، حتى لحظة الطرد النهائي من إسبانيا.

أهم ما يؤاخذ على هذا العمل الأكاديمي:

– اعتمد في ترجمة الآيات الكريمة من الذكر الحكيم على:" Denise Masson: le coran"، على أنه لم يرجع إلى المصادر الإسلامية التي كانت ستضفي مصداقية لعمله هذا، بما أن البحث يدور أساسه حول وضعية الإسلام والمسلمين في اسبانيا، لهذا كان من الضروري الرجوع إلى المصادر الفقهية، التي كانت ستبين الفروق بين الممارسات الدينية الصحيحة والمبتدعة.

– يمكن تقييم النتيجة التي خرج بها لوي كارداك أن امتناع مسلمي إسبانيا عن أكل لحم الخنزير، أو شرب الخمر ضمن العرف والتقليد الخاص "بالأكل والشرب" وما اصطلح عليه في الدراسات الاجتماعية بـ "الذي كان سائدا بين أفراد الجماعة المسلمة، ولم يكن ناتج على اعتقاد ديني بموجب نص قرآني حرم ذلك.

– بالرغم من الكم الهائل من المخطوطات الألخميادية وملفات محاكم التحقيق بالإضافة إلى ذلك العدد الكبير من المصادر إلا أنه لم يفصل في مادة الوضوء مقارنة بما عرضه من مادة علمية حول الممارسات الإسلامية الأخرى.

– حكم على أن أداء الصلاة كان سهلا مقارنة بالوضوء. ولا ندري على أي أساس بنى الباحث موقفه هذا.

– لم يتطرق الباحث إلى تفاصيل كثيرة حول فريضة الحج، وقد علل ذلك بنقص المعطيات

التاريخية حول الموضوع، لصعوبة تأدية هذا الواجب في تلك الحقبة التاريخية.

**2)– جهود الفقهاء في الرد على شبهات النصارى:** لعب العلماء في التاريخ الإسلامي – مع المجتمع المسلم– دور القيادة في رعايته وهدايته، وحفظ الأمة والوراثة الأمينة لهذه الدعوى المباركة. فكانت مواقفهم – خلال الحياة الإسلامية، وفي الأندلس بالذات– معروفة. فكم ردوها إلى دينها وبعثوا فيها الهمة، فانطلقت من جديد ترفع الرايات وتحقق الانتصارات.

لذلك كان العلماء هم الحصن الحصين والبناء الرصين لهذه الأمة، ويلتحق بهم من كان كذلك من الأمراء، وهو موفور في المجتمع الإسلامي خلال تاريخه في الأندلس عبر كل عهوده وفي كل المواقع الإسلامية خلال أحداثه، لذلك من هنا رأينا مكانة العلماء في المجتمع المسلم الذي أدوا دورهم في رعايته وحمايته وقيادته، في كل الأحوال والعصور مهما اشتدت الأحداث، ومن هنا فإن النظر إليهم بهذه المكانة والاعتبار والمنظار يجعل مسؤوليتهم كبيرة، فما قد يكون مسموحا لغيرهم قد يكون مطلوبا منهم أو مفروضا عليهم، وهم قد عرفوا ذلك وارتضوه وقبلوه، بل أحبوه.

كذلك كان حال العلماء المسلمين في الأندلس بعد سقوطها في يد النصارى الصليبيين، فالملاحظ أن مجمل المخطوطات التي تطرقت إلى موضوع الجدال الديني مع النصارى قليلة جدا بالمقارنة مع تلك التي جمعت الحكايات والسير والقرآن والنصوص الفقهية، وما إلى ذلك من المواضيع التي تطرق لها مسلمو اسبانيا. وكانت كتابات المسلمين الجدلية في هذه الفترة يغلب عليها مظهران:

– الدفاع عن الإسلام ضد افتراءات النصارى، والحفاظ على الهوية الإسلامية ضد موجات التنصير الموجهة ضد مسلمي إسبانيا.

– نقض العقائد الدينية النصرانية، وبيان أفضلية الإسلام على النصرانية.

***– قراءة نقدية في كتاب " ناصر الدين على القوم الكافرين"**: من بين الأسماء التي لمعت في حقل الجدل الديني بين مسلمي اسبانيا والنصارى الكاثوليك نذكر الحجري أحمد بن قاسم الذي أراد من كتابه الموسوم بـ "ناصر الدين على القوم الكافرين"، أن يكون مجادلة للنصرانية والنصارى الكاثوليك[1]، ودفاعا عن الإسلام والمسلمين، ومنهجا في القيام بذلك وسبيلا من سبل إنجازه.

إن أول ما يستوقف الناظر في هذه الرحلة، أن مؤلفها قد توفق في محورتها حول الموضوع الرئيس الذي دعاه إلى تأليفها، على الرغم من تناوله فيها جملة من القضايا المختلفة، باختلاف موضوعاتها وأهدافها. لقد طلب منه عبد الرحمن الأهجوري المذكور، مثلما طلب منه عدد من العلماء المسلمين، أن يضع تأليفا يجمع فيه مساجلاته مع النصارى، ومجادلاته لهم في دينهم، ودفاعه عن الإسلام وانتصاره لهذا الدين. لذلك وجدناه يبدأ كتابه بذكر ما جاء في الرق والكتب الرصاصية عن النصرانية والإسلام[2]، وينهيه بالعودة إلى الموضوع نفسه.

---

[1] – لم يجادل الحجري النصارى فقط، ولكنه كانت له مجادلات أيضا مع اليهود؛ ودارت معظمها على ما اتهامهم بالكبر وتحريف العهد القديم. والجدير بالإشارة، أنه لم يهتم بهذا الأمر كثيرا. ولا غرو في ذلك، فبالنظر إلى كونه من علماء المسلمين الذين عاشوا تحت قمع واضطهاد السلطات الكنسية والسياسية في اسبانيا، فلقد كان عليه أن يصرف جهده إلى مجادلة النصارى بوصفهم خصومه الثقافيين الأساسيين.

[2] – عندما تم هدم برج توربين – وهو مئذنة قديمة لجامع عام 1850م لتوسيع الكاتدرائية، عثر على صندوق مصنوع من الرصاص يضم كتابات منقوشة "تتنبأ بالمستقبل" وهي مكتوبة بالإسبانية والعربية، وتتحدث عن نهاية العالم، وتنسب هذه النقوش إلى القديس يوحنا، ولقد بدئ حينها بالعمل المناسب من أجل التحقق من صحة الآثار المكتشفة، ويخبرنا داريو كابانيلاس (Cabanelas Dario) أن القديس يوحنا، وكان حينها رئيسا لدير الراهب ديسكا لسيد الكرملي (Carmelite Discalced) من بين علماء اللاهوت والقضاة والمتخصصين في الكتاب المقدس الذين عينوا لدراسة هذا الاكتشاف الأثري. و في سنة 1595، عثر على اكتشاف لافت آخر أكثر أهمية؛ إذ وجدت ألواح رصاصية في ساكرومونتي في غرناطة مكتوبة بحروف عربية ذات زوايا لكي تبدو عتيقة المظهر وباللاتينية البسيطة غير المتقنة، ويقال إن ما عثر عليه كان تسعة عشر لوحة دائرية مصنوعة من الرصاص على هيئة صفائح رقيقة، وجميعها بحجم رقائق البسكويت التي يتناولها المصلون في العشاء الرباني وقد شاهد داريو كابانيلاس بعض هذه الألواح التي ما زالت موجودة في غرناطة. وقد صنعت الألواح لتبدو كأنها تعود إلى القرن الميلادي الأول، وكتب عليها العديد من الكتب، الأحداث العجيبة الغريبة التي شاهدها القديس جيمس، والأحاجي والأحداث العجيبة الغامضة التي شاهدتها السيدة مريم العذراء.

فإذا علمنا بأن المسلمين في مساجلتهم للنصرانية اتخذوا من نصوص هذا الدين وأصوله، موضوعا مفضلا بامتياز، بحيث يعيبون على النصارى تحريفهم لهذه النصوص، وحذفهم منها ما كانت تتضمنه من بشارات بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم. وإذا علمنا بأن الكتب الرصاصية تزعم فيما تزعمه، بأنها نصوصا أخرى من النصوص المقدسة للنصرانية التي سلمت من هذا الحذف وذاك التحريف، أمكن أن نقول، بأن الحجري قد قصد في افتتاح كتابه[1] واختتامه بها[2]، إقامة الحجة على خصومه من النصارى بنصوصهم، ليستدل تبعا لذلك، على فساد ما هم عليه من معتقدات في التثليث وإنكار نبوة خاتم المرسلين، في مقابل صحة ما عليه المسلمون من معتقدات في التوحيد والتنزيه، والإيمان بهذه النبوة.

***– النتائج المستخلصة من الدراسة:** يتبين مما تركه هذا العالم من كتابات، بأنه قد اهتم بتوزيع نشاطه العلمي ما بين الترجمة والتأليف. فقد ساهم في ترجمة الرق الذي وجده النصارى[3]. كما شارك في ترجمة بعض القطع من الكتب الرصاصية. ومن المعروف أن كلا من ذاك الرق وهذه الكتب التي نحتت على أوراق من رصاص بحروف اللغة العربية القديمة، قد شكلت قلقا للنصرانية بإسبانيا في مطلع القرن الحادي عشر هجري الموافق للقرن السابع عشر[4]، وأقحمتها في إشكالات

---

[1]– المصدر السابق. ص ص:23– 35

[2]– المصدر نفسه. ص ص: 142– 151.

[3]– إلى جانب هذه الترجمة وترجماته الرسمية في ديوان السلاطين السعديين، ترجم شهاب الدين الحجري إلى الإسبانية بعض القطع من الكتابات الدينية الإسلامية لحساب اخوانه المسلمين بمهجرهم بتونس. ونخص بالذكر من ذلك، ترجمته لما جاء في شفاء القاضي عياض عن معجزات الرسول محمد صلى الله عليه وسلم. وترجمته لخطبة عيد الفطر ولبعض ما كان قد كتبه في كتبه باللغة العربية. وتحتفظ اليوم مكتبة جامعة بولونية بمجموع D.565 يضم مخطوطات هذه الترجمات.

[4]– لم تفصل الروايات التاريخية نستطيع حول قضية ضياع هذه الترجمة من عدمه. فهناك من المؤرخين من أكد وجودها بمكتبة دير الجبل ضمن ما استردته هذه المكتبة من الكتب الرصاصية من مكتبة الفاتكان، التي كانت قد أخذتها عنوة منها في القرن السابع عشر ميلادي.

تتعلق بما يكون قد اضطلع به العرب من أدوار في تواريخها وأصولها القديمة.

فما يمكننا ملاحظته ونحن نتفحص صفحات هذا الإنتاج العلمي أن الهدف الأساسي من انجازه يكمن في الدفاع عن الإسلام، فهذه الدراسة تشكل في الوقت نفسه النواة الصلبة للأطروحة المركزية التي تنتظم جملة أبواب هذا الكتاب وتمحوره حولها. فقد توفق الحجري إلى حد بعيد أن يجعلنا نسافر معه ونرحل من الأندلس إلى مراكش، ومنها إلى فرنسا، ثم إلى هولندا، لينقلنا بعد ذلك إلى مصر، ثم إلى تونس؛ كما جعلنا نعيش معه مختلف تجاربه التي عاشها في هذه المناطق، وملاحظاته وتقويماته لمختلف مناحي الحياة بها.

غير أن كل ذلك لم يكن بالنسبة إليه إلا تعلة لكي يحملنا معه إلى عالم مجادلاته للنصارى وللنصرانية، التي تنتشر في أغلب أبواب كتابه، ولكي يعرج بنا كذلك إلى مجال مساجلته لليهود واليهودية، التي نقف عليها في الباب العاشر من الكتاب نفسه.

**3)– الجدال الديني من خلال قراءة في بعض المخطوطات الألخميادية:** يمكن اعتبار الأدب الألخميادو في حد ذاته مجادلة ضد النصارى إنها مجادلة تظهر في مضمون الإنتاج الذي خلفه هؤلاء المضطهدين. فالأدب الألخميادو في التقسيم المقترح سابقا يكمن في الدفاع عن الإسلام أمام النصرانية الكاثوليكية. فاعتبرت تلك الكتابات التي أنتجتها النخبة المسلمة المثقفة في اسبانيا النصرانية قدمت لنا معطيات جد مهمة حول حقيقة ومواضيع الجدال الديني الذي دار بين المسلمين والنصارى حول حقيقة العقيدتين.

ولعل الرسول الذي حظي باهتمام كبير في الكتابات الألخميادية التي اهتمت بموضوع الجدال

الديني مع النصارى، هو نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام. ولا عجب في ذلك، فلقد احتاج مسلو اسبانيا إلى هذه القصص لكي ينافحوا بها عن تصوراتهم الإسلامية لعيسى عليه السلام، في مقابل التصورات التي كان يحملهم عليها النصارى لهذا الرسول عليه صلوات ربي وسلامه، التي لم تكن لتحترم، في رأيهم، لا وحدانية الله ولا تنزيهه.

ومن أهم المواضيع التي أخذت حيزا مهما في الجدال الديني بين مسلمي اسبانيا والنصارى الكاثوليك حول نبي الله عيسى عليه السلام، قصة ولادته وما رافق هذه الولادة وأحاط بها من وقائع غريبة ومعجزات باهرة. وقد اعتمدوا في إعداد هذه القصة على ما جاء عن موضوعها في القرآن الكريم، وفي أناجيل أخرى غير معتمدة بين النصارى، الذين يرون بأنها من تلفيق مسلمي اسبانيا ودسهم عليهم.

أيضا ناقشوا ضمن جدالهم هذا رفضهم القطعي والجازم حول كل ما يخص المعتقد النصراني في موت المسيح على الصليب ودفعه ودحضه. وفيها يتضح بأن مسلمي اسبانيا قد توسلوا بالقصص إلى جانب أدبياتهم الجدالية، ليدافعوا عن الطرح الإسلامي، المعبر عنه في القرآن الكريم، لهذه المسألة الخلافية بينهم وبين النصارى.

فقد نجح مسلمو اسبانيا إلى حد كبير في ذلك، بإعدادهم لحكاية تتضمن مشاهد تعذيب شخص آخر وصلبه، بدل السيد المسيح. ولم يلتفوا على معانيها، إلا عندما كانت تتعلق بما لم يكن ليستطيعوا الإبقاء عليه، مما جاء فيها عن الفرق الأساس والجوهري بينهم وبين النصارى في معتقداتهم الثابتة في المسيح عليه السلام وفي توحيد الله سبحانه وتعالى وتنزيهه.

من خلال هذا التقديم لأهم المواضيع التي شغلت حيزا مهما في المخطوطات الألخميادية، سوف نحاول طرح بعض النماذج من هذه النصوص التي ستبين مدى عمق المفارقة والهوة بين العقيدتين وبالتالي بين معتنقيها؛ فقد أصر مسلمو اسبانيا على موقفهم الرافض لكل ما جاء من تزييف وتحريف في النصوص العقيدية التي اعتمدها نصارى اسبانيا.

***– نفي عقيدة الألوهية عند النصارى:** جاء عيسى عليه السلام برسالة سماوية مكملة لرسالة موسى عليه الصلاة والسلام، ومتممة لما جاء في التوراة من تعاليم، موجهة إلى بني إسرائيل، داعية إلى التوحيد والفضيلة والتسامح، ولكنها واجهت مقاومة واضطهادا شديدا، فسرعان ما فقدت أصولها، مما ساعد على امتداد يد التحريف إليها[1]، فابتعدت كثيرا عن أصولها الأولى.

يتحاشى النصارى تفسير ولادة سيدنا عيسى عليه السلام بالولادة البشرية التي تحدث نتيجة الاقتران بين الزوجين، كما أنهم يفرقون بين هذه البنوة وما ورد في أسفار[2] العهد القديم والجديد[3] من وصف المؤمنين أنهم أبناء الله، وهم لم يستطيعو ا – ولن يستطيعو ا – أن يقدموا لنا تفسيرا منطقيا ومقنعا لهذه الولادة، وغاية ما عندهم في هذا الشأن أنهم يذكرون بعض الأوصاف والمقتضيات

[1]– مرت النصرانية بعدة مراحل وأطوار تاريخية مختلفة، انتقلت فيها من رسالة منزلة من عند الله تعالى إلى ديانة محرفة ومبدلة، تضافر على صنعها بعض الكهان ورجال السياسة.

[2]– **السفر**: بالكسر الكتاب، قيل هو الكتاب الكبير ، وقيل هو جزء من التوراة والجمع أسفار والسفرة الكتبة. ينظر: ابن منظور ، المصدر السابق، ص 2026. وقد ذهب المفسرون الكاثوليك حتى آخر القرن 19م إلى أن سفر دانيال من تأليفه وقد كتبه في بابل وحمله عزرا مع الأسفار الأخرى عند عودته إلى أورشليم، كما أجمع المؤرخون ورجال الدين على أن هذا السفر يؤرخ للفترة الممتدة ما بين عامي (168-160ق.م). ينظر: محمد بيومي مهران، المرجع السابق. ص ص: 74، 75.

[3]– **العهد القديم والجديد**: يقصد بالعهد القديم توراة اليهود، وما ألحق به من أسفار، وعددها تسعة وثلاثون سفرا أو ستة وأربعون سفر. أما العهد الجديد فهو عبارة عن سبعة وعشرون سفرا. وهذان المصدران جمعهما النصارى في كتاب واحد، أُطلق عليه" الكتاب المقدس " هذا الأخير يعتبر مصدر أساسي عند جميع طوائف النصارى، ومصدر وحيد لطائفة البروتستانت.

لهذه البنوة المزعومة، فيصفون هذه البنوة بالأزلية، والأصلية، إذ هو الشخص الوحيد الذي حاز رضى الله، وأنه عليه السلام، محبة سرية قائمة، وأن المسيح في وحدة كاملة مع الله – تعالى – ، ومن أقوالهم في تقرير هذا الشأن:

***– طبيعة سيدنا عيسى عليه السلام:** يعتقد النصارى بأن المسيح عليه السلام مولود من الله عز وجل، فقد شكلت طبيعة سيدنا عيسى عليه السلام مادة للجدل بين المسلمين والنصارى الاسبان. فمن بين النماذج التي سلطت الضوء على الموضوع ذلك المخطوط الذي كتبه أحد مسلمي اسبانيا عن الأنبياء بشكل عام، فيشير إلى أن كل نبي أيده الله بمعجزات. يقول المؤلف[1] في الورقة رقم: 13 من المخطوط[2] حول الجدل الواقع بين المسلمين والنصارى حول قضية "ألوهية" سيدنا عيسى عليه السلام[3]:

**"...ولا يمكن للأنبياء أن يكونوا آلهة، وقد نسب بعض ضعاف الفهم إلى الأنبياء صفة الألوهية، وهذا ما فعله المسيحيون التعساء، فقد رأوا أن سيدنا عيسى قد وضعته السيدة مريم... وأن الله أجرى على يديه معجزات كثيرة فعميت أبصارهم وقالوا إنه إله، وفاتهم أن خلق أدام من حفنة من تراب وخلق حواء من ضلع آدام أشد إعجازا من خلق طفل في رحم امرأة فهذا شيء عادي. هكذا يكون أكثر منطقية أن يكون آدام وحواء آلهة. ولو كانت**

---

[1]– ذكر المؤلف بأنه لا يعرف اسم صاحب المخطوط، وقد اصطلح المتخصصون على تسمية صاحب المخطوط بـ "لاجئ تونس"

[2]– المخطوط تحت رقم: 9653 موجود بالمكتبة الوطنية بمدريد؛ وهو عبارة عن شرح لكتاب في التفسير. لا يعرف تاريخا محددا لكتابة المخطوط، ولكن استنادا لبعض المعطيات الموجودة في المخطوط فيرجح أن تاريخ تأليف يعود إلى سنة 1609م تقريبا.

[3]– عبد الرحمان جمال، ثقافة موريسكي: قراءة في المخطوطة بمكتبة اسبانيا الوطنية، مجموع مقالات في كتاب الموسوم بـ: دراسات أندلسية وموريسكية، (المرجع السابق). ص: 107.

**المعجزات تجعل من أجريت على أيديهم آلهة فليس هناك فرق بين نبي وآخر. إن كل ذلك عمى وتعاسة، فعيسى ومريم بشر خلقاهما الله كالآخرين..."**

نستنتج من خلال المعطيات الواردة في نص المخطوط مجموعة من النقاط:

– استناد صاحب المخطوط لأدلة مقنعة، لا يمكن لعقل سليم تجاهلها أو على الأقل الوقوف عندها، أهمها قضية خلق سيدنا أدام وأمنا حواء عليهما السلام. فكما ذكر صاحب المخطوط أن الطريقة التي وجدا بها في هذا الكون أعظم بكثير من طريقة وجود سيدنا عيسى عليه السلام، وبالتالي كان الأولى القول بـ "ألوهية" سيدنا أدام عليه السلام.

– بناء على الملاحظة المذكورة أعلاه تبين لنا أن المؤلف استند إلى العقل دون الرجوع إلى النص القرآني، ذلك أن النصارى لا يؤمنون به ولا يقرونه، لهذا نجد صاحب المخطوط يجادل النصارى من خلال المنطق والعقل.

– خرج المؤلف باستنتاج نهائي مفاده أن عيسى عليه السلام نبيا مثله مثل بقية الأنبياء ولهذا أجرى الله على يديه بعض المعجزات.

– إن المعجزات التي خص بها الله نبيه عيسى عليه السلام لا يمكن بشكل من الأشكال أن ترفع سيدنا عيسى عليه السلام إلى درجة تتجاوز طبيعته كبشر ورسول.

– كما نستقرأ من خلال كلامه أنه ليس بمقدور أي إنسان حتى ولو كان نبيا أن يقوم بمعجزة من تلقاء نفسه، فالمعجزة لا يستطيع أن يقوم بها إلا الله سبحانه تعالى.

***– نقد نظرية النصارى في ألوهية عيسى عليه السلام من خلال المنظور الإسلامي وكما**

**كان يراه مسلمو اسبانيا خاصة الفقهاء منهم:**

**أ)– بشرية المسيح:** إن افترضنا جدلا أن يتجسد الإله ويخرج من فرج امرأة فهل يتسبب الرب في النجاسة أم التطهير؟! لا ريب أن الرب قدوس في كل الأديان، ففي اليهودية والمسيحية والإسلام هو القدوس المطهر عن كل عيب ونقص. والتقديس لله تعالى يعود معناه إلى وصفه تعالى بصفات الكمال، وتنزيهه عما لا يليق به من النقائص والعيوب.

وقولنا بالنجاسة للحائض والنفساء فهو حسب شريعتهم–النصارى–، وليس حسب شريعة الإسلام التي تؤكد على عدم نجاسة المؤمن، أما في النصرانية المحرفة فالمرأة في حيضها ونفاسها نجسة يجب اعتزالها، ففي سفر اللاويين نجد النص التالي: (**كلم بني إسرائيل قائلا إذا حملت امرأة وولدت ذكرا تكون نجسة سبعة أيام كما في أيام طمث علتها تكون نجسة**)[1].

بناء على ذلك فالسيدة مريم بعد الميلاد كانت في فترة النفاس، حتى أتمت أيامها، ولما طهرت أخذوا عيسى عليه السلام للمعبد لتقديمه للرب حسب رواية لوقا للكتاب المقدس حيث ورد فيها ما نصه: "**و لما تمت أيام تطهيرها حسب شريعة موسى صعدوا به إلى أورشليم ليقدموه للرب**"[2].

أيضا أكد مسلمو اسبانيا كغيرهم من مسلمي العالم بشرية عيسى عليه السلام بالأدلة المستنبطة من عقيدتهم؛ فقد أقر النصارى في كتابهم المقدس بأن عيسى عليه السلام صلي، دعا وابتهل إلى ربه فسجد له، وجاع فأكل، وظمأ فشرب، وتعب فنام، وحزن فدمعت عيناه، وجلد،

---

[1]– عقيلي بن أحمد الشيقي، المرجع السابق. ص ص: 158، 159.

[2]– المرجع نفسه. ص: 160.

وعري، ثم وضع الشوك على رأسه، وتعرض للبصق واللطم واللكم – على حد زعمهم . وتعرض للاستهزاء، وضرب على رأسه وصلب وقتل.

كل هذه الأدلة في غاية الوضوح، ولو سألنا وقلنا من يتصف بهذه الصفات هل يمكن أن يكون إلها ؟ أم أنه إنسان، يتمتع بكامل الصفات البشرية؟ وهل يمكن أن يكون هو الرب الخالق للسموات والأرض، والعليم بكل شيء، والقادر على كل أمر وهو يملك كل صفات البشر ؟! هذه مغالطة كبيرة وقع فيه النصارى أو أوقعوا فيها أنفسهم، فكيف لهم أن يبشروا بدين مثل هذا؟.

**ب)– بطلان هذه العقيدة من خلال الدليل التاريخي:** يزعم النصارى أن استدلالهم على ألوهية المسيح مستند إلى كتبهم، فالأناجيل لا تشتمل على ألوهية المسيح؛ لأن القول بها لم يظهر إلا في مجمع نيقية[1] عام 325م،[2] أيبعد ما يقارب ثلاث قرون من رفع المسيح؛ والنصارى يقولون إن الأناجيل قد كتبت بعد صعود المسيح ولو كانت ألوهية المسيح عليه السلام مستقرة في هذه

---

[1]– تم الاعتراف في مجمع نيقية اعترف بروما على أنها واحدة من الأسقفيات القديمة ذات الامتياز الثلاث إلى جانب أنطاكية والإسكندرية، واستند آباء المجمع النيقاوي كما جاء في بنوده إلى "تقليد قديم" سابق للمجمع في هذا التحديد. غير أن المجمع قد ركّز للبطاركة سلطة إدارية على الأساقفة الداخلين في النطاق البطريركي فقط، وكانت حصة روما أكبر من أنطاكية والإسكندرية من ناحية الحجم إذ شملت الأراضي الممتدة من تركيا وحتى إسبانياب ما فيها تونس وحتى المغرب في شمال أفريقيا. كما حافظ المجمع على تقدّم كرسي روما دون تحديد ماهية هذا التقديم، إذ حتى سلطة البطاركة كانت محدودة بسلطة المتروبوليتيين في كثير من المواضيع على رأسها تعيين الأساقفة.

[2]– نشأ بين كلٍ من اسكندر بطريرك الإسكندرية وأريوس أحد كهنة الإسكندرية خلافا فكان يرى اسكندر أن الكلمة ابن الله مساوٍ للأب، وأن له طبيعة واحدة، أما أريوس فقد اعتبر هذا التعليم هرطقة وليس من تعاليم الإنجيل، وكان رأيه في الأب والابن يتلخص في أن الله هو الإله الواحد والأزلي الموجود بذاته وأن المسيح مخلوق مثل كل الخلائق، وليس أزليا، وليس من جوهر الأب، فقد خرج من العدم بحسب مشيئة الله ، وأنه متغير وليس ثابتا، ومعرفته بالله محدودة وليست مطلقة، لا يستطيع أن يعلم الأب بطريقة كاملة، كما أنه ليس إلها ولا يملك الصفات الإلهية المطلقة، وبناء عليه فهو ليس إلها بذاته ولكنه ارتقى هذه الدرجة عن طريق رفع الله الأب له. وقد اشتد النزاع بينهما، وعقدت من أجل ذلك مجامع عدة لكنها فشلت في تحقيق اتفاق بينهما حتى وصل الخبر إلى قسطنطين الذي هاله هذا الخلاف الذي يشكل خطرا على إمبراطوريته، فأرسل أحد مستشاريه هوسيوس إلى مصر لحل النزاع ولكنه وجد أن النزاع قد اشتد فلم يصغ إليه كلا الطرفان فعزم قسطنطين على عقد مجمع للأساقفة لتقرير التعاليم الصحيحة. فكان أن عقد مجلسا من الأساقفة عام 325 م، في نيقية حضره عدد لا يقل عن 318 أسقفا، وحشد كبير من رجال الدين، بلغ عددهم حوالي 2048 شخصا. كان الاجتماع برئاسة قسطنطين وخرج بمجموعة من القرارات أصبحت سارية المفعول على الجميع.

الأناجيل لم يكن ثمة داع لعقد مجمع لمناقشته، ولم يكن ليحدث الخلاف أصلا حولها، ومحاولة حلها ولو بقوة السيف. وإن دل هذا الأمر فإنما يدل على أن هذه العقيدة أقحمت في الأناجيل بعد ذلك. وهذا الوجه مبني على القول بأسبقية كتابة الأناجيل على القول بألوهية المسيح عليه السلام وهناك قول خلاف ذلك، والاستدلال به أقوى.

فالقول بألوهية عيسى عليه السلام لم يكن صادرا عن الأناجيل، بل كان نتاجا للفلسفات والوثنيات التي كانت منتشرة في البيئة التي ظهرت فيها النصرانية، ولاشك أن بولس هو الذي استخرج من هذا المزيج عقيدة الألوهية، وبقيت غريبة ومنبوذة من قبل الغالبية الذين كانوا من الموحدين حتى جاء قسطنطين فثبتها بقوة السيف، ولبطلانها، ولقلة المعتنقين لها، أقحمت في الأناجيل لتأخذ صبغتها الشرعية، ومن ثم تحضى بالقبول عند النصارى.

وإذا ثبت خلو الأناجيل منها، فبراءة رسالة المسيح عليه السلام منها من باب أولى وهذا ما سوف يتأكد لكل من يريد التعرف على عقيدة النصارى، وبذلك يمكن نقضها من خلال النصوص الواردة في الأناجيل نفسها التي يؤمن بها النصارى ويزعمون أنها عمدتهم في إثبات هذه العقيدة.

**ج)– قضية صلب سيدنا عيسى عليه السلام:** الموقف نفسه اتضح من خلال نص المخطوط الذي كتب صاحبه بهذا الصدد يقول:[1] "...**بل الإنجيل كتاب أرسله الله (إلى عيسى) مع جبريل فبلغه للناس... ثم رفعه الله إليه...**"

نستنتج من خلال ما ورد في نص المخطوط أن المؤلف أكد على موقف المسلمين من صلب

[1]– المخطوط تحت رقم: 9653. ص: 13 ظهر. نقلا عن عبد الرحمان جمال، ثقافة موريسكي: قراءة في المخطوطة بمكتبة اسبانيا الوطنية، (المرجع السابق). ص: 108.

سيدنا عيسى عليه السلام ويؤكد بأنه رفع ولم يصلب.[1]

*- **الأناجيل:** يعرض صاحب المخطوط محتوى الأناجيل ويوجه لها النقد بعد ذلك. وفرق المؤلف بين الكتاب الذي أنزله الله سبحانه تعالى على سيدنا عيسى عليه السلام وبين الكتب الذي وضعها تلاميذه: الكتاب الأول هو الإنجيل أما الكتب الأخرى فيوجه إليها انتقادات شديدة استنادا إلى ما عرفه عنها وهو مقيم في اسبانيا؛ فكتب في مؤلفه حول الموضوع يقول[2]:

"...**والمؤمنون يقولون إنه خلق في رحم مريم العذراء وإنه نبي أرسله الله ومعه الإنجيل وهو شرع الله الذي جاء به. وليكن معلوما أن الإنجيل ليس ما كتبه لوقا ومرقص وحنا ومتى، فكل ذلك زيف وتأليف، بل الإنجيل كتاب أرسله الله (إلى عيسى) مع جبريل فبلغه للناس..**"

من خلال المعطيات الواردة في النص يمكننا الخروج بمجموعة من الاستنتاجات نلخصها في:

- يفهم من كلام صاحب المخطوط أنه كان على ثقافة واسعة، ما يؤكد ذلك معرفته بكل الشخصيات البارزة عند النصارى (لوقا ومرقص وحنا ومتى).

- عند بداية النص خاطب صاحب المخطوط إخوانه في الدين بـ "المؤمنين" ولم يخاطبهم بـ " المسلمين" لأنه يدرك تمام الإدراك أنه هناك فرق واسع بين المصطلحين، وهذا أيضا ما يؤكد على ثقافة الدينية لصاحب المخطوط.

- كما نستنتج من كلام صاحب المخطوط أن هناك مقارنة واضحة بين المسلمين والنصارى، وهذا ما يتضح من خلال توزيع نصه إلى جزئين مهمين: أما الأول فكان يصف لنا اعتقاد المسلمين.

[1]- عبد الرحمان جمال، المرجع نفسه. ص: 108.

وأما الجزء الثاني من النص فيخاطب به النصارى.

– يتضح من خلال ما ورد في نص المخطوط أن المؤلف قد أخذ موقفا مسبقا بإبطال عقيدة النصارى الذي كان المرجعية الأولى لها هو الإنجيل المزعوم الذي كتبه مجموعة من المدعين على الله.

من خلال عرضنا لبعض النماذج من الجدال الديني بين نخبة من المثقفين المسلمين بإسبانيا مع النصارى الكاثوليك يمكننا الخروج بمجموعة من المعطيات أهمها:

– شكل الجدل الديني بين الإسلام والنصرانية سمة من سمات الحوار الحضاري الذي عرفته الأندلس، وهو حوار أنتجته العقلية الأندلسية المتفتحة، فأدى إلى لقاء الثقافات المختلفة على صعيد واحد، كما أدي إلى تلاقح العقول؛ فقد أثبتت التجربة الأندلسية أنه إذا ما توفرت الأجواء الصحيحة والتسامح فإن الدين لا يشكل عقبه أمام الحوار الحضاري، وإن الدين لا يصبح كما يقول البعض من أنه كان سببا من أسباب الصدام الحضاري، وإذا ما ابتعد عن التعصب والتحزب.

– اتضح الجدل الديني من التجربة الأندلسية، جدل قائم على قبول الرأي والرأي الأخر، وعلى فتح باب الخيار أمام المتجادلين وغيرهم، وعدم إجبارهم على قبول مالا يرضون، أو التقليل من شأنهم، ولم يرد في المصادر ما يشير إلى أن المتجادلين والمحاورين من أتباع النصرانية قد تعرضوا للضرب أو السجن، ناهيك عن القتل. وهذا هو الجدل الديني المطلوب. الجدل الديني الذي يؤدي إلى حوار حضاري، وهو الحوار الذي شهدته الأندلس، القائم بين الحضارة الإسلامية وحضارة أهل الكتاب.

– لقد أصبحت حركة الجدال الديني بين المسلمين والنصارى في الأندلس نبراسا يقتفى أثرة

علماء ما بعد القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وكذلك بعد سقوط الأندلس النهائي، بل إن المحاورات والمجادلات الدينية بالأسلوب الأندلسي قد انتقلت إلى البر المغربي، حيث يقوم أحد الفارين من الأندلس إلى المغرب أبو العباس أحمد بن القاسم بن أحمد بن الفقية قاسم بن الشيخ الحجري الذي فر من الأندلس عام 1007هـ/ 1598هـ سجل جادله مع علماء النصرانية في عقر دارهم في فرنسا وهولندا. ودون ملخص لمجادلاته هذه في كتاب أسماه: " ناصر الدين على القوم الكافرين"

– يتضح من خلال استعراض أدبيات الجدل الديني الإسلامي في الأندلس أن كتابات ومناظرات العلماء المسلمين الجدلية يغلب عليها أمران:

أما الأمر الأول فيتمثل في الدفاع عن الدين الإسلامي عقدية وشريعة ونبوة دفاع علمي دقيق، وبأسلوب هادئ ضد حجج المجادلين من أهل الكتاب.

في حين يتلخص الأمر الثاني في المحاولات الناجحة لنقص العقيدة الدينية النصرانية، وكانت المحاورات تتم في الغالب بصورة كتابية، وبمعنى تأليف المسائل والردود.

– أهم القضايا التي استأثرت باهتمام الأطراف المتحاورة هي ما يلي: دحض حجج أهل الكتاب المتعلقة بمذاهبهم المتعددة، ومن ثم البرهنة على بطلانها. وبيان فساد مذهب النصارى المتعلقة في القول بفكرة الاتحاد والحلول. والبرهنة النقلية والعقلية من كون الإنجيل محرف لا يشبه ما أنزل على النبيين موسى وعيسى عليهما السلام.

– من خلال حركة الجدل الديني في اسبانيا خلصوا إلي إثبات نبوة محمد عليه الصلاة والسلام،

والمقارنة الشرعية والنقلية والعقلية بين العديد من الشعائر الإسلامية وما يقابلها في النصرانية، والخلوص إلى أن الشعائر في الديانة النصرانية قد دخلها كثير من الزيادة والنقصان، وأصبحت لا تتفق مع الشرع الإلهي والعقل الإنساني، ولهذا تبقى الشعائر الإسلامية هي الصحيحة.

# الفصل الثاني: الجدل الديني العملي بين عامة مسلمي اسبانيا والنصارى

## المبحث الأول: الجدل العقدي

### 1)_ الأسلام مقابل النصرانية

### 2)_ عقيدة التوحيد ونفي التثليث

### 3)_ الجدل الديني بين مصادر التشريع الإسلامي وشرائع النصرانية

## المبحث الثاني: الممارسات الإسلامية وسيلة رفض الادماج

### 1)_ الجدل الديني في الشؤون الدينية الأخرى

### 2)_ اللغة العربية رمز الهوية الإسلامية

### 3)_ قدسية الحرف العربي عند مسلمي اسبانيا

لقد صارع مسلمو اسبانيا مصيرهم بإسبانيا، وعاشوا لسنوات عديدة تحت وطأة جهاز القمع الإسباني (محاكم التحقيق)، لكنهم لم يستسلموا قط لمصيرهم المحتوم بل ظلوا، إلى آخر لحظة من وجودهم بإسبانيا معتزين بتراثهم الحضاري يقاومون في سبيل المحافظة عليه.

فبعد قيام أبو عبد الله بالإمضاء على معاهدة الاستسلام عام 896هـ/1491م ودخول كل من فرناندو وإيزابيلا مدينة غرناطة في الثاني من يناير عام 897هـ/1492م، بدأت ظلال هذا التعايش الديني تتبدد على الرغم من تعهد ملكي اسبانيا باحترام وضمان حقوق الأقلية الإسلامية، مساجدها، شريعتها وحرية ممارسة الشعائر الدينية.

وبهذا صاحب سقوط غرناطة، سقوط النموذج الإسلامي، الذي سبق الإشارة إليه، بالمعنى الأشمل والأعم كنموذج حضاري، وبالتالي بدأت صفحة جديدة، حيث لم يدم التعايش السلمي فيها إلا فترة قصيرة من الزمن من سنة 897هـ/1492م وإلى غاية 900هـ/1499م، فمع نهاية هذه السنة دعا الكاردينال خمينس إلى ضرورة حشد كافة الطاقات لإجبار كل مسلمي اسبانيا للتحول إلى النصرانية عنوة.

إذ تعتبر سنة 902هـ/1501م أول تحول رسمي لفرض النصرانية، ليبدأ المؤرخون في استخدام كلمة جديدة (الموريسكيين) (Moriscos) لتحل محل (مدجنين)(Mudejares) وكلمة "موريسكي" تحقير لكلمة مورو، وقد أطلق هذا اللفظ بصفة عامة على مسلمي الأندلس؛ فالتعبير اللغوي في حد ذاته لم يستخدم لدلالته الدينية فحسب ولكن للإشارة إلى حضارة وثقافة مختلفة تماما من ثقافة النصارى.

بهذا بدأ موقف الكنيسة والعرش الإسباني تتبلور معالمه في الإعداد اعتبارا من عام 902هـ/ 1501م للقضاء النهائي على هؤلاء المسلمين، حيث تم إصدار مرسوم ملكي في 17 فبراير عام 903هـ/1502م في مملكة قشتالة ليخبر مدجني المملكة ما بين التحول إلى النصرانية، الهجرة، أو الموت.

وبما أن اسبانيا انقسمت إلى مجتمعين أساسيين: أحدهما عسكري والثاني كهنوتي، فكان من الطبيعي أن تستمر الكنيسة في دورها لنصرة العسكرية القشتالية أيام كارلوس الخامس وفيليب الثاني ولكنها اعترفت بفشلها على عهد فيليب الثالث، ولو أن مشروع الطرد النهائي كانت بدايته الفعلية أيام حكم فيليب الثاني، ولكم كان هناك أمل يراود رجال الكنيسة بتحقيق مساعيه في تنصير مسلمي اسبانيا، لهذا قررت تعطيل مشروع الطرد إلى وقت لاحق وليس إلغاءه نهائيا من مخططات الكنسية والسلطة الاسبانية.

وبهذا لعبت الكنيسة دورا حاسما في حشد طاقات الممالك الشمالية ضد الأندلس على مر قرون من الصراع بين النصرانية والإسلام، ولم يتوقف دورها فقط بعد سقوط غرناطة بل حصل انتقاله إلى العدوة في منتصف القرن الثالث عشر وبعده.

كما وضعت السلطات في قشتالة صعوبات كثيرة أمام هجرتهم، وبالتالي أصبح الخيار المتاح لهم يكمن ما بين الموت أو التحول إلى النصرانية. والمراسيم الملكية نفسها صدرت في إقليم فالنسيا عام 926هـ/1525م، ومملكة أراغون عام 927هـ/1526م وبالتالي فإن هؤلاء المضطهدين المنتشرين في اسبانيا شهدوا تحويلهم قسرا وقهرا إلى النصرانية ما بين (900–927هـ)/ (1499- 1526م)، لتشهد

بعد ذلك الأعوام التالية طردهم النهائي في الفترة الممتدة (1018-1015هـ)/(1609-1614م).

من خلال هذه الجزئية سنلقي الضوء على ذلك الجدل الديني العملي إن صح تسميته كذلك بين عامة مسلمي اسبانيا والنصارى الكاثوليك، لنثبت بأن هذا المجال من الصراع الفكري العملي لم يكن حكرا على الفقهاء والعلماء فقط وإنما أخذ طريقه حتى إلى عامة أفراد الجماعة المسلمة في اسبانيا ليكون وسيلة تحدي ومقاومة في وجه أي ظاهرة انسلاخ عن مقومات الشخصية الإسلامية. مع الأخذ بعين الاعتبار بأن مثل هذه المحاولة هي مجرد اجتهاد قد يحتاج مستقبلا إلى دراسات متخصصة تلقي الضوء على مثل هذه الممارسات التي من شأنها أن تسطر لمسيرة هذه الأمة الشهيدة في صراعها مع قوى الظلم والطغيان.

## - المبحث الأول: الجدل العقدي

اتخذت ظاهرة الجدل الديني في اسبانيا النصرانية الكاثوليكية خلال القرنيين العاشر والحادي عشر هجريين الموافق للقرنيين السادس والسابع عشر ميلاديين أشكالا مختلفة وعلى مستوى شتى الأصعدة، فمنه ما كان على شكل جدل عملي يومي، ومنه ما كان على شكل جدل علمي قائم على حجج وأدلة دامغة. ومن بين أشكال الجدل الديني الذي كان يترجم على ذلك الصراع الفكري بين أتباع ديانتين مختلفتين كل واحدة تحاول اثبات مشروعية رسالتها نذكر الجدل العقدي، الذي يشكل نبظ الدين وركنه الأساس.

**1)- الإسلام مقابل النصرانية:** إن البحث حول اعتناق المسلمين للنصرانية مرتبط بمحيطهم الفكري وتصورهم أيضا للمحيط الفكري للمبشرين، إن هذا العقد يمثل الحد الأدنى من التفاهم الذي

يربط بين طرفي قناة الاتصال لتبليغ المعرفة والتي يمكن إبرامه؛ ولهذا فإن فشل عملية التنصير لا يمكن أن يفاجئ المتتبع والدارس لهذا الملف.

فقد جدت مصطلحات جديدة في ساحة العلاقات الاجتماعية مثل: "مسيحي جديد"، أو "موريسكي"[1]، هذه المصطلح الأخير لم يستعمل قبل عام 901هـ/1500م[2]؛ حيث بدا حينذاك التنصير الجماعي للمسلمين. لكن هذا لم يحدث إلا نتيجة نهائية لمرحلة طويلة تطور خلالها الوضع السياسي للأشخاص أنفسهم (المسلمين) من مسلم إلى مدجن، ثم إلى "موريسكي".

وعلى الرغم من ذلك تعتبر السنوات العشر التالية ما بين 901هـ و 911هـ/ 1500 و1510م هي السنوات التي عاصرت تغيرا جذريا في طريقة إدراك المشكل وتصوره؛ حيث ترجم ذلك في شكل مجموعة من الأوامر الملكية التي صدرت ابتداء من عام 912هـ/1511م[3]. فقد فشلت حملات التنصير فشلا ذريعا وثبت خطأ اعتقاد أن المسلمين غير القابلين للتنصير قد رحلوا جماعات، وأنه قد بقى فقط في مملكة غرناطة إلا أولئك الذين مالوا إلى تقبل النصرانية الكاثوليكية بسرعة، وأدركت السلطات أن الإسلام إلى جانب أنه من المستحيل استئصاله، يبدو في الظاهر أنه قد قلل من أهميتها في البداية.

ومن ناحية أخرى كان أكثر مسلمي اسبانيا يعتقدون أنهم بمجرد تعميدهم سيتركون وشأنهم بسلام، لكن الإجراءات التي اتخذت في الفترة الممتدة بين 901 و902هـ/1500و1502م أظهرت أنهم كانوا على خطأ كبير؛ فالخروج الجماعي لمسلمي اسبانيا ورحيلهم عن البلاد في تلك الفترة يعبر عن

---

[1]- دومينغ يثأورتيث وبرنارد فينسيت، المرجع السابق, ص: 24.

[2]- مرثيدس غارثيا، المرجع السابق. ص: 21.

[3]- دون باسكوال بورونات، المصدر السابق. ص: 118.

خيبة الأمل التي عانوها، وكذلك عن عمق جذور الثقافة الإسلامية والإيمان، كما يعبر عن عدم إمكانية الجمع بين ثقافتين في شخصية واحدة.

أمام هذه التطورات الخطيرة واصل مسلمو اسبانيا المقاومة والتصدي لهذه القرارات الزجرية بشتى الوسائل والطرق، ولما رأى أسقف بلنسية أن الملك والدوق لم يتخذا أي قرار عملي فوري لتهجيرهم، بعث بتقريرين جديدين إلى البابا يوضح فيهما خطرهم على البلاد، وتزايد حركتهم؛ واقترح عليه ضرورة تطبيق قرار الطرد.

الأمر نفسه أيده الطرف الإسباني بدليل هذا النص التاريخي الذي ورد فيه ما يلي:[1]:"... **بقيامهم علينا مرارا وقتلهم أكابر مملكتنا والقسيسين والرهبان الذين كانوا بين ظهرينا. وقطعهم لحومهم وتمزيق أعضائهم. مع عدم توبتهم مما فعلوه وعدم رجوعهم رجوعا صالحا من قلوبهم لدين النصرانية وأنه لم ينفع فيهم وصايا ولا وصايا أجدادنا الملوك ولا من سلف منا .....**"

كما اعترف أسقف بلنسية بأنه فشل في مهمته، حينما حاول منذ سنتين تنصير مسلمي المنطقة بحسن المعاملة، وعلى ضوء ذلك طلب من الملك ومن رئيس وزارئه الدوق ليرما (Lerma) تهجيرهم من المملكة، إلا أن أصدر البابا باولو الخامس (Paulo 5) عفوا عاما لمدة سنة. وأخبره في الوقت نفسه أن هذه آخر فرصة لهم، وإلا اتخذ في شأنهم الإجراءات الزجرية الحاسمة.

وبهذا فشلت سياسة الإدماج رغم جميع المحاولات التي قامت بها السلطات الإسبانية، فقد كتب الملك يقول في هذه الديباجة:«... **إنكم لعلى علم بمحاولاتي، مدة سنين طويلة لتنصير**

[1]-Mercedes Garcia, Op. Cit. P P : 251

**موريسكي هذه المملكة (بلنسبة) وكذلك موريسكي قشتالة، وبإصداري أوامر العفو منة مني عليهم، وبمساعي لتفقيههم في ديانتنا المقدسة، وبالنتائج الهزيلة المحصل عليها، إذ من الواضح أنه لم ينتصر أحد، بل على العكس لم يزدد إصدارهم إلا حدة...»**[1].

إذن من خلال هذه النصوص التاريخية لم يكن هدف فيليب الثالث عند اعتلائه لعرش إسبانيا النصرانية تهجير المسلمين، بل كان قراره يدعو إلى تنصيرهم بشكل عام وسريع، لكن العملية لم تمر بالشكل الذي أراده الأساقفة فقد أعلن المحقق العام لمحاكم التحقيق أنه لم يعتنق النصرانية طواعية إلا ثلاثة وثمانين مسلما[2].

الأمر نفسه أكدته بعض المصادر الأندلسية، من بينها ما دونه الشهاب الحجري في الرسالة التي كتبها إلى سلطان المغرب الأقصى مولاي زيدان، من بين ما جاء فيها نذكر ما نصه[3]:"... **قد علمت ما صنع وعمل مع النصارى الجدود (كذا) الأندلس (كذا) أهل تلك السلطنة وقشتالة على طول السنين الكثيرة الماضية من التحريض والإرشاد لإثباتهم في ديننا المجيد وإيماننا ولا نفع معهم قليلا ولا كثيرا، لأنه لم يجد فيها واحدا من هو نصراني حقيقة..."**

في السياق نفسه كتب ابن عبد الرفيع في هذا الموضوع فقال:"... **والتجربة أظهرت لنا عيانا أن الأندلس (كذا) الذين هم متولدون من الذين دمروا مملكتنا فيما مضى بقيامهم علينا مرارا وقتلهم أكابر مملكتنا والقسيسين والرهبان الذين كانوا بين ظهرانيهم وقطعهم لحومهم وتمزيق**

---

[1]-Bertant François, Journal du voyage d'Espagne, Re His, Vol xxx, 1914. P: 225.

[2]- محمد رزوق أحمد، التجربة الأندلسية الموريسكية محاولة فحص من الداخل، ضمن أعمال السجل العلمي للندوة الموسومة بـ: الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات، (المرجع السابق). ص : 11.

[3]- المصدر السايق. ص: 111.

**أعضائهم... مع عدم توبتهم مما فعلوا وعدم رجوعهم رجوعا صالحا من قلوبهم لدين النصرانية وأنه لم ينفع فيهم وصايانا ولا وصايا أجدادنا الملوك ولا من سلف منا..."** [1]

كل هذه النصوص التاريخية تؤكد أمرا واحدا وهو رفض مسلمي اسبانيا اعتناق النصرانية رغم كل الإجراءات التعسفية، والتنكيل والاضطهاد الذي مورس عليهم؛ وبهذا تأكد أمام كل متتبع لمسيرة هذه الأمة الشهيدة أنها صمدت أمام كل الظروف القاسية محاولة قدر الإمكان المحافظة على مقومات شخصيتها الإسلامية.

انطلاقا من فشل مشروع التنصير القسري عمدت الكنيسة إلى ترويج فكرة أساسها، أن أسباب هذه الهزائم هو وجود عناصر في اسبانيا تدعي النصرانية جهرا وتضمر الإسلام سرا؛ وأن وجود مثل هؤلاء سبب الغضب الإلاهي على اسبانيا؛ فشاعت العبارة القائلة[2]: «**كيف يأمل المرء أن يهدي إلى طريق السيد المسيح شعبا عنيدا قاوم التبشير للنصرانية والاضطهاد قرنا كاملا، ومازال مخلصا لقرآنه كإخلاص العرب في إفريقيا؟**.

فرجال الدين الذين أنيطت بهم مهمة تعليم مسلمي إسبانيا مبادئ الكاثوليكية، كانوا يعلمون تمام المعرفة أن هؤلاء، وإن مارسوا طقوس النصرانية علنا وظاهرا، فإن هذه الممارسة لم تكن أكثر من مراءاة يوحيها لهم الخوف من ملاحقات محاكم التحقيق[3].

---

[1]- ابن عبد الرفيع، المصدر السابق. ص: 331.

[2]-Bertant François, Op.Cit. P : 226.

[3]- ما يثبت ذلك أنه حين كان يقصد هؤلاء الكنيسة في عيد الفصح للاعتراف فإنه كان يقدم نفسه بطريقة عالية الانتظام، ولكنه لا يعترف بارتكاب أية ذنوب؛ ولم يعرف على المسلمين أنهم توجهوا إلى القساوسة يطلبون منهم المساعدة حين يمرض أحدهم خوفا من حضور القساوسة بصفتهم الرسمية.

بالرغم من هذا وذاك فقد وجدت السلطات الاسبانية صعوبة في إدماج كل مسلمي إسبانيا وتنصيرهم، فقد امتنع الكثير منهم عن ذلك بشهادة المقري الذي كتب حول الموضوع يقول[1]:"... **وامتنع قوم عن التنصير واعتزلوا النصارى فلم ينفعهم ذلك وامتنعت قرى وأماكن منها بلفيق وأندلس وغيرهما...**"

هذا ما أكده شهاب الحجري أثناء تواجده بهولندا إذ كتب بهذا الصدد ما هو نصه[2]: "... **أعلم أن الأندلس كانوا مسلمين في خفاء من النصارى، ولكن تارة يظهر عليهم الإسلام، ويحكمون فيهم ولما تحقق منهم ذلك لم يأمن فيهم...**"

فقد ارتبط فشل مشروع التنصير مباشرة بمسألتين مهمتين؛ أما الأولى فهي مرتبطة بما يسمى في الفكر الديني بمعرفة "الحقيقة" الموجودة في النصوص الدينية، فقد أوكل إلى رجال الدين مهمة تقديم "الحقيقة" إلى مسلمي اسبانيا والتحول من "اللامعرفة" إلى "المعرفة"، ويمكن وصف الخطاب الروائي الذي انجر عن هذه العملية التحول من قيم إلى قيم أخرى غير مشابهة للأولى. الأمر الذي تطلب تقسيمها أولا بالذات.

فمن شروط تحول مسلمي اسبانيا واعتناقهم للنصرانية الكاثوليكية، اقتناع هؤلاء بحجج المبشرين، إلا أن اعتقاد الحقيقة من طرف المبشر لا يكفي لنقل الحقيقة ( وهي تحول من اللامعرفة إلى المعرفة)، إذ ينبغي توفير حد أدنى من التفاهم الضمني بين الطرفين حتى يبرم عقد يحدد بموجبه نظام قيم يكون مرجعا لتقييم المعرفة التي سيقع تلقينها، والعمليات المؤدية لها؛ ويرتبط حسن استخدام هذا

[1]- نفح الطيب، (المصدر السابق)، ج: 2. ص: 617.

[2]- المصدر السابق. ص: 109.

العقد في نهاية الأمر بمدى حكم المسلم على الخطاب الذي يتلقاه والذي يفسره حسب أصالته.

من هنا يعتبر البحث في موضوع اعتناق المسلمين للنصرانية الكاثوليكية مرتبط بمحيطهم الفكري وتصورهم أيضا للمحيط الفكري للمبشرين، إن هذا العقد يمثل الحد الأدنى من التفاهم الذي يربط بين طرفي قناة الاتصال لتبليغ المعرفة والتي يمكن إبرامه؛ ولهذا فإن فشل عملية التنصير لا يمكن أن يفاجئ المتتبع والدارس لهذا الملف.

أما المسألة الثانية فارتبطت بمدى قناعة مسلمي إسبانيا بمبادئ الدين الإسلامي التي نشؤوا عليها، ومدى الاختلاف الجوهري بين النصرانية الصحيحة والنصرانية التي يدعون لها، فكيف إذا حاولنا مقارنتها بالدين الإسلامي.

أمام هذه المعطيات اتضح الرفض القاطع والنهائي من طرف مسلمي اسبانيا لتبني العقيدة النصرانية، بالرغم من كل الضغوط والمتابعات التي لحقتهم من عمال محاكم التحقيق، التي كانت نتيجتها، إما الإعدام حرقا، أو الرمي بهم في السجون؛ ولكن مع هذا وذاك فضلوا البقاء على الدين الإسلامي لقناعتهم الصادقة والتي لا ينتابها أدنى شك أنه الدين الحق. وبهذا من خلال جدلهم مع النصارى حول الدين الإسلامي اتضح مدى حبهم وتمسكهم به.

في ظل معتقدات النصارى بين الإفراط والتفريط، جاء الإسلام بالقول الحق الوسط، الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، جاء بالمعتقد الصحيح السليم، الذي تقره الفطرة النقية والنفوس الزكية، العقول الرشيدة، ولا تقبل غيره. فالإسلام قد جاء بالقول الفصل، وهو: أن المسيح عيسى عليه السلام هو عبد الله ورسوله، وأن السيدة مريم العذراء (والدة المسيح) هي الطاهرة العفيفة، وأن حملها بالمسيح

عليه السلام، كان بكلمة من الله تعالى (كن فيكون)، وفقا لعلمه وحكمته سبحانه وتعالى وإرادته ومشيئته، فكما خلق سبحانه وتعالى آدم من غير أب ولا أم، فقد شاء سبحانه وتعالى أن تكون ولادة المسيح من غير أب.

ولقد جاء الإسلام بأن ميلاد المسيح عليه السلام، كان ميلادا معجزا، مؤيدا بكلامه (المسيح) في المهد، تبرءة لأُمه مما قد نسبته اليهود إليها، وتمهيدا لرسالته. وأن الله تعالى قد رفع المسيح عليه السلام إلى السماء، وحال بين صلبه وقتله من أعداءه، ومن ثم فإن الإسلام قد جاء نافيا تماما الادعاء الذي تزعمه النصرانية، في إهانته وصلبه وتعذيبه وقتله، تكفيرا لذنوب البشر، حيث إن مثل ذلك المعتقد إنما هو من أحط مراتب الكفر، وسب عظيم للذكاء الإنساني.

**2)– عقيدة التوحيد ونفي التثليث**: يتنافى الشعور الإسلامي بوحدانية الله، مع عقيدة التثليث وفكرة أن عيسى عليه السلام إبنا للرب. فبالنسبة لهم عيسى عليه السلام كان نبيا مرسلا من عند الله تعالى، لكنه لم يكن ربا ولا إبنا لله. فقد ورد في بعض محاضر التحقيق التي حكمت في قضية مسلم افتتضح أمره وهو يناقش زوجته حول قضية التثليث التي يدعي بها الاسبان فجاء على لسانه ما هو نصه: "**كان يسوع نبيا وليس ربا، فكيف يكون ربا و يقتله أحقر الناس**"[1].

الموقف نفسه أكده مسلم آخر في هذا الرد عمن قال: "**إن الله قد مات من أجلنا فأجابه قائلا: "أن الله في السماء إثبات لعقيدة أهل السنة والجماعة في مسألة علو الله عن خلقه ودحض لاعتقاد وحدة الوجود والاتحاد**"[2]. وبهذا فنجد أن هذا المسلم قد أجاب بفطرته في

[1]– مرثيديس غارثيا أرينال، المرجع السابق. ص: 63.

[3]– المرجع نفسه. ص: 64.

الوقت الذي ضل في هذه المسألة كبار أقانيم أهل الكلام فرحمهم الله من رجال ونساء دافعوا عن الإسلام وعقيدة التوحيد وسط جبروت النصارى وبطش محاكم التحقيق.

3)- **مصادر التشريع الإسلامي**: يتصل كل مصدر تشريع في الإسلام بصحيح النظر فيه إلى حكم شرعي عملي مطلقا. أي سواء أكان الاستنباط على سبيل القطع أم على سبيل الظن وهو رجحان أحد الاحتمالين على الآخر بدليل؛ فيصير الدليل قسمين: قطعي الدلالة، وظني الدلالة. والتشريع الإسلامي هو مجموعة الأنظمة التي شرعها الله تعالى للأمة الإسلامية في القرآن الكريم، أو في السنة النبوية، وكذلك باجتهادات الفقهاء، فما ثبت فيه نص شرعي يقال له: شريعة، وما تقرر بالاجتهاد في ضوء النص يقال له: فقه.

أ)- **القرآن الكريم مقابل الإنجيل المحرف**: لاشك أن المناعة الذاتية الجبارة التي أسس لها القرآن الكريم في المسلمين قد حالت بينهم وبين الاندحار الحضاري أو السقوط المادي أمام التكالب الأممي لجحافل التتار والصليبيين، وكذلك جعلت من إمكان تنصير المسلمين مرهونة بإبعادهم عن القرآن وصرف أنظارهم عنه، فقد حدد القرآن الكريم بوضوح وجلاء موقفه من الكتب السابقة، متمثلا في الهيمنة عليها، مصداقا لقوله سبحانه وتعالى في محكم تنزيله في سورة المائدة:

**{وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾** [1]

[1]- سورة المائدة، الآية رقم: 48.

كما بين سبحانه وتعالى أفضلية القرآن الكريم وكماله في قوله عز وجل:﴿ **نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**﴾ [1]. وترجع أفضلية القرآن على غيره من الكتب إلى كماله من جهتين: أولاهما: تبيانه لكل شيء، قال تعالى: ﴿**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ**﴾[2]. والثانية إرشاده إلى غاية ما يصبو إليه الإنسان وما يحقق له كمال الدنيا والدين، قال تعالى: ﴿**إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا**﴾[3].

وقد كان موقف القرآن دقيقا من العهدين القديم والجديد، فكان بذلك جدارا صلبا أمام نجاح الفكر التنصيري أو ما يرتبط به من رؤى حضارية فى اختراق الحياة الروحية أو صمود العقيدة الإسلامية، مما دفع برواد العمل التنصيري إلى التساؤل بعد أربعة عشر قرنا من بدء الغارة التنصيرية [4] هل من الممكن حقا إقناع المسلم بأن النصارى لم يزوروا الكتاب المقدس؟ أو أنهم ليسوا مشركين؟ أو أن المسيح هو أكثر من كونه ابن مريم كما هو مذكور فى القرآن؟ أو أن صلب المسيح وبعثه قد تم فعلا؟.

فلما كان القرآن الكريم بهذه المنزلة لا جرم أن مسلمي اسبانيا على وجه الخصوص، والمسلمين

---

[1]- سورة الزمر، الآية رقم: 23.

[2]- سورة الأنعام، الآية رقم: 38.

[3]- سورة الإسراء، الآية رقم: 9.

[4]- تكمن أهمية هذا الدور من أدوار الجدل التنصيري ضد القرآن في أنه كان معبرا انتقلت خلاله الجدليات التنصيرية إلى الغرب. وأبرز الأمثلة على ذلك كتاب ( نقض الفقهاء Contrarietas elfolica ) لأحد النصارى الأسبان، الذي كان له تأثير بالغ في ريكولدو دي مونت كروس الحانق على الإسلام ، وقد أفاد كروس من هذا الكتاب في تصنيف أشهر كتبه ( تفنيد القرآن Canfutatia Alcorani ) الذي عُني به مارتن لوثر وسارع إلى ترجمته للألمانية عام 1542م. ينظر: قاسم السامرائي، المرجع السابق. ص: 61 .

عموما أقبلوا عليه ودافعوا عنه، واعتبروا أن كل عدوان على القرآن هو عدوانا عليهم، وأن النيل من القرآن الكريم هو نفسه النيل منهم، لذلك دافعوا عليه بكل ما أتوا من قوة، لأن الدفاع عنه – لكونه أصل الدين ومستقى العقيدة- هو السبيل الوحيد لحماية ايمانهم وإسلامهم، بل لأنها السبيل إلى الإيمان بأن الإسلام دين الله، وأن القرآن من عند الله لا من وضع أحد.

فمن خلال النصوص الواردة في الكثير من المخطوطات الألخميادية نجد إشارة إلى آية كريمة[1]، أو مجموعة من الآيات، اعتمد عليها مسلمو اسبانيا في أداء صلاتهم، ومعرفة أمور دينهم[2]. فقد حاولت السلطات الاسبانية بشتى الوسائل والسبل النيل من القرآن الكريم سواء بحرقه أو تحريفه أو تزييف ما ورد فيه من نصوص ربانية، إلا أن العناية الإلهية وحب وتمسك مسلمي اسبانيا به مكنوه من البقاء راسخا في اسبانيا النصرانية رغم كل الجهود المبذولة في جعل مسلمي اسبانيا يكفرون به ويؤمنون بالكتاب الذي ألفه النصارى وادعوا أنه منزل من عند الله سبحانه وتعالى.

**ب)– المذهب المالكي مقابل الكاثوليكية:** عرفت الأندلس سائر المذاهب الفقهية المعروفة كالمذهب الشافعي، ومذهب أهل الظاهر، فضلا عن عدد قليل الذين اعتنقوا مذهب أبي حنيفة، لكن كل هذه المذاهب لم تمثل قط منافسة حقيقية للمذهب المالكي الذي أطبق عليه الأندلسيون حتى نهاية الوجود الإسلامي في هذه البلاد. والسؤال الذي يطرح نفسه ويحتاج إلى بحث منفرد للإجابة عليه هو: لماذا اعتنق الأندلسيون سابقا ومسلمو اسبانيا لاحقا المذهب المالكي وتعصبوا له، وظلوا مستمسكين به حتى في أوقات المحن التي تعرضوا لها أثناء محاكم التحقيق؟.

---

[1]– مخطوط رقم: 9653، ورقة رقم: 135، نقلا من المقال :.

[2]-Chiroz Ben Hadj Ali, La lengua arab y los moriscos del escilio, P : 126.

فقد انتشر المذهب المالكي في الأندلس حتى أصبح الغالب على أهله، ويرجع انتشاره إلى عدة عوامل ساهمت بشكل فعال في ذلك منها ما ارتبط بالعامل النفسي والاجتماعي[1]؛ ومنها ما ارتبط بالعامل الجغرافي[2]، ثم العامل السياسي[3]. وبقي مسلمو الأندلس أوفياء للمذهب المالكي حتى بعد سقوط غرناطة؛ فقد تمسك مسلمو اسبانيا بالمذهب المالكي لدرجة أن آخر كتابين فقهيين كتبا في المذهب المالكي[4]، كتبهما الفقيه عيسى بن جابر باللغة الإسبانية[5] يشرح فيهما أصول المذهب وقواعده لأولئك المسلمين الذين كانوا يقيمون في مملكة قشتالة التي كانت تدين بالكاثوليكية النصرانية[6]، والذين نسوا اللغة العربية ولم يعودوا قادرين على استخدامها؛ مما ألجأه إلى تأليف كتابيه الآنفين بإسبانية القرن الخامس عشر، وقد حمل هذان الكتابان عنوان (Leyes de Moros) أي (شريعة المسلمين)[7].

---

[1]- لقد كان لشخصية الإمام مالك ابن أنس، بالغ التأثير في نفوس الناس عامة، ونفوس أهل الأندلس، ذلك لا يخفى على من يطالع ترجمته، فقد عرف عند الزهد والورع عن ما أبدى الخلق عامة، والولاة خاصة، كما عرف بالكرم ومحبة الناس، والتواضع والحرص على الخير، أما من الناحية الفقهية، فكان شديد التهيب من الفتون، وشديد التحري لما ينقله ويرويه من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، مع عرف عنه من توقير للصحابي. ينظر: الطاهر عمر نابي، أسباب انتشار المذهب المالكي في المغرب العربي، رسالة ماجستير، الجزائر: وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، رمضان 1428هـ/2007م. ص: 9.

[2]-العامل الجغرافي: ارتبط العالم الجغرافي إلى رحلة الأندلسيين إلى الحج والعمرة، ومرورهم بمكة والمدينة، وأيضا باتصالهم بسكان المغرب الإسلامي لعبت هذه الأخيرة دورا كبيرا في انتشار المذهب المالكي في الأندلس. وهو ما أشار إليه ابن خلدون في مقدمته بقوله "**وأما مالك رحمه الله تعالى فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس، وإن كان يوجد في غيرهم، إلا أنهم لم يقبلوا غيره إلا في القليل... وشيخهم يومئذ وإمامهم مالك، فرجع إليه أهل المغرب والأندلس، وقلدوه دون غيره ممن لم تصل إليهم طريقته**". بنظر: ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، (المصدر السابق). ص: 333.

[3]- التزم الخلفاء والحكام والقضاة، بتطبيق الأحكام ومبادئ المذهب المالكي، ويعتبر هذا العامل نتيجة لجهود المالكية المتراكمة وثمرة لما سبق، فقد كان لدور السلطان أثر في نشر المذهب المالكي، مما جعل ابن حزم يقرر بأن هناك مذهبان انتشر في بادئ أمرهما بالرياسة والسلطان مذهب أبي حنيفة ومذهب مالك عندنا بالأندلس" ينظر: المقري أحمد، المصدر السابق، نفح الطيب ج: 2. (المصدر السابق). ص: 10.

[4] - الخزانة الوطنية بمدريد تحت الرقم: 5078 نقلا عن: الحسين بوزينب، المرجع السابق. ص: 2.

[5]- Leila Boukli Hacene Tani, Op. Cit. P: 40.

[6]- أنجيل جنثالث بالنثيا، المرجع السابق. ص: 511.

[7]- الحسين بوزينب، المرجع السابق. ص: 3.

أيضا هناك مخطوط آخر في المذهب المالكي لمؤلف مجهول، حيث قام هذا الأخير بترجمة كتاب " التفريغ" لصاحبه "أبي القاسم عبيد الله بن الحسين بن الحسن بن جلاب البصري المالكي"؛ والملاحظ حول هذه الترجمة أنها حملت عنوان "**ألكتب د لا تفريه**"[1].

وبقي كذلك المذهب المالكي غضا عند مسلمي اسبانيا، ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها، كما وقع في غيره من المذاهب، ولما صار مذهب كل إمام علما مخصوصا عند أهل مذهبه، ولم يكن لهم سبيل إلى الاجتهاد والقياس فاحتاجوا إلى تنظير المسائل في الإلحاق وتفريقها عند الاشتباه بعد الاستناد إلى الأصول المقررة من مذهب إمامهم، وصار ذلك كله يحتاج إلى ملكة راسخة يقتدر بها على ذلك النوع من التنظير، أو التفرقة واتباع مذهب إمامهم فيهما ما استطاعوا، وهذه الملكة هي علم الفقه لهذا العهد.

فقد صمد المذهب المالكي أمام المذهب الكاثوليكي رغم أن معتنقي هذا الأخير حاولوا بشتى السبل القضاء عليه وإحلال محله المذهب الكاثوليكي الزائف، الذي لم يكن له أي صدى أو قبول من طرف مسلمي اسبانيا، هؤلاء رأوا في تمسكهم به، هو نفسه التمسك بسنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

## – المبحث الثاني: الممارسات الإسلامية في مجابهة الطقوس النصرانية الكاثوليكية

لقد أظهر مسلمو اسبانيا في كل فرصة كرههم واحتقارهم للنصرانية وكل ما يتصل بها من رموز، وذلك من خلال المضايقات والسخرية عليها، بالرغم من أنهم كانوا يعلمون بأن مثل هذه

[1]- J. Ribiera Y M. Asim, Manuscritos arabes y Aljamiados de la biblioteca de la Junta, Madrid, 1912. P: 217.

التصرفات قد تصل بهم إلى سجن ومنه إلى الإعدام حرقا. ولكن التحدي الصارخ الذي أعلنته السلطات الإسبانية، وسخرت له كافة الوسائل للقضاء على معالم الدين الإسلامي في الأندلس المفقودة الذي بقي صامدا فيها أكثر من ثماني قرون من الدهر، وتعايش معه كل الديانات والمذاهب الأخرى هو الذي أجبر مسلمو اسبانيا إلى رفع التحدي نفسه من أجل الدفاع على دينهم.

**1)– نقد مسلمي اسبانيا لرموز الكنيسة الكاثوليكية:** عمد مسلمو اسبانيا إلى رفض كل ما له صلة بالنصرانية عموما والكاثوليكية على وجه الخصوص، لما علموا فيها من زيف وتحريف. فقد حاولت السلطات الإسبانية السياسية والكنسية بشتى السبل والوسائل أكانت سلمية أو قهرية اقناع مسلمي اسبانيا بتبني مقدسات ورموز الكنيسة الكاثوليكية، إلا أن هؤلاء رفضوا هذا الأمر رفضا قطعيا، وترجموا هذا الرفض إلى ممارسات يومية تدل على تمسكهم وتشبتهم بمقومات شخصيتهم الإسلامية

***– نقدهم للصليب والتماثيل:** من بين النماذج التي عرضت في ملفات محاكم التحقيق بخصوص هذا الموضوع نذكر قضية بعض السجناء المسلمين في سجن كونيكا، هؤلاء أخذوا يخرجون القش من مراتب أسرتهم وصنعوا منه صلبانا وأخذوا يدهسونها في الأرض ليغيظوا النصارى؛ فقد ذكر في التقرير الذي كتبه القائم على محكمة التحقيق بكوينكا ما نصه: "**كانوا يدهسونها عمدا كالملحدين**"[1].

كما تم عرض قضايا مماثلة في الموضوع نفسه، هذه الأخيرة شير إلى الجدل الديني الذي كان

[1]– مرسيدس غارسيا أرينال، المرجع السابق. ص: 59.

قائما بين مسلمي اسبانيا والنصارى الكاثوليك حول كل ما اتصل بالنصرانية من رموز، فهذا المدعو "دييغو إنريكيث" من منطقة كينتنار، حمل صليبا ربطه بحزام نعله، و كان يجره على الأرض من خلفه حينما يمشي[1].

فهذا الأمر إن دل على شيء فإنه يدل على مدى عمق الهوة بين الطرفين، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يدل على تمسك مسلمي اسبانيا بمقاومتهم لكل أشكال ورموز الدين النصراني، إذ اعتبروا هذا العمل نوعا من الجدال العملي، بينوا من خلاله مدى تمسكهم بمقومات الدين الإسلامي.

كما احتقر وسخر مسلمو اسبانيا من تقديس النصارى الاسبان للتماثيل والصور؛ فمن بين النماذج التي وردت في ملفات محاكم التحقيق، قضية مسلمة أحرقت صليبا ولم تركع أمام تمثال يسوع عند مرور موكب ديني من أمامها وهي تجلس بباب بيتها قائلة "**إنها لا تعتقد في ذلك التمثال الخشبي**". القضية نفسها حكمت فيها محكمة التحقيق بكوينكا ضد مسلمة أخرى صاحت أمام موكب كان مارا أمامها قائلة: "عجبا لتمثال يسوع الضخم هذا، كيف يستطيعون حمله؟"[2]

فكل هذه التلميحات والتعليقات لا تدل دلالة خاصة وقاطعة على رفض مسلمي اسبانيا لرموز العقيدة الكاثوليكية؛ فكانت عبادة التماثيل والقديسين مرفوضة من جانبهم، إذ كانوا فيها ما نصه: " التماثيل التي كان يعبدها النصارى هي ألهة من الخشب مثل تماثيل الجص التي كانت عند الوثنيين في القديم".

***– نظرة مسلمي اسبانيا للقربان المقدس:** حاول مسلمو اسبانيا التعبير على رفضهم لكل

[1]– مرسيدس غارسيا أرينال، المرجع نفسه. ص:60.

[2]– المرجع نفسه. ص:60.

ما يمز إلى العقيدة النصرانية الكاثوليكية، مترجمين ذلك إلى جدال ظل قائما بينهم إلى أتن حانت ساعة الطرد النهائي سنة 1018هـ/1609م. فكما سبقنا وأشرنا إليه في محطات سابقة من بحثنا أن الجدال قد أخذ أشكالا مختلفة نظرا للمستجدات التي طرأت على الساحة السياسية والدينية والاجتماعية في اسبانيا.

ويعتبر القربان المقدس[1] من بين الرموز التي سخر منها مسلمو اسبانيا وترجموا ذلك على شكل ممارسات استفزت النصارى الاسبان، لما كانت تحمل من تحقير، فقد ترجمت أحد النصوص الواردة في ملفات محاكم التحقيق هذا الشعور فورد فيها ما نصه:" ...**بقصد سب وإهانة عقيدتنا الكاثوليكية المقدسة وللإضرار بديننا المسيحي...**". فقد ورد في ملفات محاكم التحقيق قضايا حوكم فيها بعض المسلمين بتهمة إهانة الرموز المقدسة الخاصة بالعقيدة الكاثوليكية، وهو ما سوف يجعل صاحبها يتهم بالردة والكفر، التي كانت عقوبتها الإعدام حرقا.

فمن بين القضايا التي ناقشتها محكمة التحقيق بمنطقة كوينكا، نذكر قضية أحد المسلمين الذي سرق من أركوس وعاء القربان المقدس، وأخذه إلى دار بعض الأصدقاء في أريثا، هؤلاء ربطوا الرعاء في خيط وعلقوها على شجرة. الأمر نفسه يتكرر ولكن في سوكوياموس، أين أخذت جماعة من المسلمين قطعة قماش من الكتان طرز عليها بالحرير ألام المسيح وصلبه، وقاموا بإحراقها[2].

وبهذا اتضح الرفض القاطع الذي أظهره مسلمو اسبانيا للقربان المقدس، فخلال القداس كانوا يديرون وجوههم عندما كان يرفع رجال الكنيسة القربان المقدس، أو ينزوون أو ينامون، ولم يقدموا أي

---

[1]– **القربان المقدس**:القربان المقدس هو خبز ونبيذ. ففي اعتقاد مسلمي اسبانيا أنه كيف لشيء يحضره خادم الكنيسة أن يحل فيه الرب؟.

[2]– ميرسيدس غارسيا أرينال، المرجع السابق. ص:61.

مظهر للتعبد؛ وحينما كان يحمل إلى أي مريض، فبدلا من الركوع أمامه كانوا يسيرون في شارع أخر.

من خلال المعطيات التاريخية التي تم عرضها يمكننا تصور المسيرة الجهادية لهذه الأمة التي قدر لها أن تكون أمة بالرغم من الأقلية التي شكلتها في وسط أغلبية كانت كلها ضده عقيدة تاريخا وانسانية؛ فقد اتخذ مسلمو اسبانيا من الجدال وسيلة لتوصيل رفضهم القاطع لكل ما هو كاثوليكي، وبالتالي عملوا على رسم معالم معاناتهم وصراعهم في معركة البقاء أقل ما نقول عنها أن كل المؤشرات لم تكن تبشر بانفراج قريب لأزمتهم.

2)- **الجدال الديني في الشؤون الدينية الأخرى:** من بين المواضيع الأساسية التي كانت محل جدال بين مسلمي اسبانيا والنصارى الطعن في النظام الكنسي البابوي لهذا الدين، واتهامه بتزوير وتزييف نصوصه المقدسة وتحريفها لإضلال أتباعهم وحجبهم عن حقيقة النبوة والدين. فأدخل النصارى عموما، والنصارى الاسبان الكاثوليك على وجه الخصوص الكثير من الرموز والمقدسات في معتقدهم ما أنزل الله بها من سلطان.

ولأن الدين الإسلامي بفضل ما ورد في كتابه . القرآن الكريم . فضح ادعاءاتهم وتزييفهم للرسالة التي بعث بها سيدنا عيسى عليه السلام، ولأن مسلمي اسبانيا كانوا على دراية بهذه النصوص، فقد انتقدوا كل هذه الرموز والمقدسات، محاولين في ذلك الدخول في حركة جدال، حتى وإن كانت النتائج المترتبة على ذلك لا تبشر بخير.

***- الاعتراف بالتوبة عند النصارى مقابل العفو الإلاهي:** ما كان متعارفا عليه خلال القرون الوسطى أن الكنيسة كانت تمنح صكوك الغفران لكل من كان يشارك في الحروب الصليبية، أو

يدفع مبالغ مالية يكفر بها على ذنوبهم. كما كان يحق للقس أن يمنح الغفران لكل من قدم اعترافا بدنبه. وبالمقابل كان مسلمو اسبانيا يرون أن هذا العمل إظلالا واستغلالا للكنيسة، فلا أحد في نظرهم كان له الحق في منح الغفران إلا الله سبحانه وتعالى.

ومن بين النصوص التاريخية التي احتفظت لنا بها بعض المصادر المعاصرة للحدث التاريخي، تلك التي دونها أبو القاسم الحجري أثناء مجادلاته لبعض النصارى. فقد بعث الحجري فبعث راهب إسباني سؤالا حول هذا الموضوع يقول فيه:

"...**ما قولكم في دينكم رجل زنى بامرأة محصنة وحملت منه وولدت، وزوج المرأة يعتقد أن المولود كان ابنه حتى كبر وأعطاه من ماله واشتكى يوم الحساب لله سبحانه وتعالى من زوجته، ومن زنى بها، والمال الذى انفق وأعطى لابن الذي زنى بها، فأحضر الزاني والزانية، وقيل لهما في ذلك فقالت المرأة :ذكرت ذلك للقسيس الفلاني، وغفر له ذنبه، والسؤال منكم أيها الراهب" فأجاب الراهب :"ليس للرجل ما يطلب من زوجته، ولا ممن زنى بها بعد إقرارهما في الدنيا للقسيس من وغفر له ذنبه، والسؤال منكم أيها الراهب"**

فاندهش الحجري لهذا الرد قائلا :"**فانظر هذا الاعتقاد الفاسد الذي عندهم في دينهم الأصل يقولون بألوهية سيدنا عيسى عليه السلام وأن البابا خليفته وكل واحد خليفة البابا يأمرون الناس في كل عام في أيام صيامهم أن يمشى كل من هو بالغ من ذكر، أو أنثى إلى الكنيسة ويذكر للقسيس جميع ذنوبه، ويعطيه براءة المغفرة ويأخذ الدراهم عليها حينئذ يذهب بيته، ويغفر له، ويأخذ أجرته دراهم...**"

من خلال هذا النص التاريخي يتضح نوع الجدال الذي كان قائما بين المسلمين والنصارى حول قضية منح الغفران، فقد رأى في ذلك الحجري بحكمه شاهدا على العصر هذا من جهة، ومن جهة أخرى واحد من الجماعة المسلمة التي عاشت تحت وطأة الظلم والقهر في اسبانيا، أن هذه العقيدة فاسدة، ولا يمكن لأي عقل سليم قبولها.

*– **التعميد المسيحي مقابل الختان الإسلامي:** حرص مسلمو اسبانيا على الحفاظ على كل ما يتصل بمقوماتهم الإسلامية، فيما ذلك عملية الختان، متحدين بذلك المراسيم التي حرمت ذلك، وغير مبالين تماما بمتابعات وملاحقات محاكم التحقيق. فقد كانت عملية الختان بالنسبة للمسلمين ضرورة إسلامية، فرضت على المسلمين عن طريق سيدنا محمد عليه أزكى الصلوات والتسليم، لذلك بقوا متمسكين بها إلى آخر لحظة كانت فيها طردهم من اسبانيا كليا.

فمباشرة بعد العودة من الكنيسة، كانت النساء المسلمات يقمن بغسل أبناءهن بالماء الساخن للقضاء على الزيت المقدس وبالتالي ازالة آثار عملية التنصير التي تعرض لها أطفالهن الصغار من قبل الكنيسة؛ وأثناء القيام بهذا الاحتفال تقع عملية الختان، هذه الأخيرة كانت تسمى عملية "الفضض" وقد تأكد من خلال ملفات محاكم التحقيق أن كل المسلمين الذين وقعوا في أيدي عمال محاكم التحقيق في بكنسية كانوا مختونين[1].

ولكن مع زيادة الضغوط والملاحقات من طرف عمال محاكم التحقيق تأجل ختان الأبناء إلى السن الثامنة، حتى لا يكتشف أمرهم. أمام هذه المعطيات يمكننا ملاحظة مدى السخط والكره

[1]– أحمد كامون وهاشم السقلي، المرجع السابق. ص: 161.

الذي كان يكنه مسلمو اسبانيا لكل ما هو نصراني، بالمقابل نجد حبهم وتمسكهم وافتخارهم بكل ما يربطهم بالدين الإسلامي.

*– **الإمام أو الفقيه مقابل القس:** أدت عزلة مسلمي الأندلس عن إخوانهم في العالم الإسلامي إلى بروز شخصية الإمام أو الفقيه، الذى كان يمثل المسلمين في الاتفاقيات التي تعقد مع السلطات الإسبانية هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان الفقيه مصدرا رئيسا لمعرفة أحكام الشرع بعد حظر استخدام اللغة العربية قراءة وكتابة.

وقد أسهم ذلك كله في أن تقترب مكانة شخصية الإمام – بالنسبة لمسلمي اسبانيا– من دور القسيس في الدين النصراني. فقد كان الإمام بالنسبة للجماعة المسلمة في اسبانيا بمثابة الزعيم الروحي والسياسي، ينظم أمورها، ويعلمها أمور دينها، ويساهم في حل مشاكلها الداخلية. أمام هذا الإقرار بوظيفة الإمام اعتبر مسلمو اسبانيا أن رسم القسيس في عملية التمثيل للتعاليم النصرانية قد انتقدت بشدة في هذه المجادلات واعتبرت كوساطة لا تغتفر لحركة إلهية ولعلاقات (المؤمن مع الخالق).

*– **الجدال القائم بين مسلمي اسبانيا والنصارى حول الكهنتوية:** لقد من الله تعالى على الإسلام بخصائص تميز بها عن أخلاقيات الديانتين اليهودية والنصرانية، وعن باقي الديانات الوضعية الأخرى، فقد عرف الإسلام بالوسطية، وهي فضيلة بين رذيلتين؛ بين تطرف المادة اليهودية، حتى إنهم عبدوا المال، وعبادة المال لم تعرف في شعوب الأرض إلا عند اليهود، واحتقروا الروح والقيم والأخلاق الفاضلة، كالصدق والوفاء بالعهد والمحافظة على الشرف، فقد ضرب اليهود هذه القيم وغيرها من القيم السامية عرض الحائط، فإن تكلموا كذبوا، وإن عاهدوا غدروا.

أما النصرانية؛ فإنها أوجدت الكهنوتية[1] أو الرهبنة بصفتها رد فعل على المادية اليهودية، فالرهبنة لم تتعلق بعبادة المال، وإنما تركز على تطهير الجسد، لترتقي الروح بالأخلاق كما يزعمون، ولذلك يحرم على الراهب والراهبة الزواج تنكرا لمتطلبات الجسد الفطرية. لقد أوقع الرهبان أنفسهم في مفارقة خطيرة؛ حيث إنهم في الظاهر لا يتزوجون، ولكنهم في حقيقة الأمر يصرفون هذه الطاقة عن طريق لا يدرى كنهها.

في حين جاء الإسلام بالوسطية، فأعطى الجسم حقه من المتطلبات الفطرية الغريزية، كأكل الطيبات الحلال؛ فقد حرم الإسلام كل ما هو فاسد، وأحل كل ما هو طيب، فالزِواج سنة الأنبياء، فإذا اعتقدت بعض المذاهب الفلسفية إمكانية الاستغناء عن الزواج كالرهبان وأمثالهم فهذا تطرف، وهذا الأخير لا يولد إلا ما لا يحمد عقباه. فإقبال مسلمي اسبانيا على الزواج وهم يعيشون حياة الضنك هو في حد ذاته تحديا صارخا لحياة الكهنوتية.

من خلال ما تم عرضه من معطيات تاريخية نستنتج ما يلي:

- كراهية واحتقار مسلمي اسبانيا إلى كل ما كان ينبع على عقيدة الاسبان المزيفة.

- التحدي الذي بدا ظاهرا وجليا من خلال قيام بعض مسلمي اسبانيا بأعمال، أو جهرهم بكلام يهين رموز العقيدة النصرانية الكاثوليكية، والتي أوصلت بالكثير منها إلى السجن، أو الموت.

[1]- الكهنوت النصراني هو رمز مهم جدا في النصرانية، وهو درجة ملقاة على عاتق أشخاص معينين مهيئين لغرض خدمة المؤمنين. والمؤمنون أو العلمانيون هم شركاء في مهمة المسيح الكهنوتية، وذلك في إعلان رسالة المسيح للعالم بالقول والفعل، لأنهم معاونون في نشر البشرى السارة في العالم . أي أنهم جميعا، كهنة بحسب المفهوم الكاثوليكي لخدمة الكلمة وذلك بالمعمودية والتثبيت والمسحة التي يمسحون بها، فيكرسون كهنة بالروح القدس، ويمارسونها بتقديم حياتهم وأعمالهم. ينظر: بولوس وهبة، المرجع السابق. ص: 189.

– تمسك مسلمي اسبانيا بكل ما هو اسلامي كان مقابل رفضهم القطعي والصارخ لكل ما كان يرمز للعقيدة النصرانية الكاثوليكية.

## – المبحث الثالث: الخط العربي كتعبير لرمز مقدس في النصوص الألخميادية

لقد اختلف المؤرخون واللغويون حول الأسباب التي دفعت مسلمي اسبانيا بكتابة انتاجهم الفكري بلغة اسبانية وحروف عربية. فمنهم من برر ذلك في تفادى ملاحقة محكمة التحقيق، إلا أن هذا الرأي لا يصمد كثيرا أمام النقد العلمي، فمن المعلوم أن المراسيم الملكية منعت استعمال اللغة العربية كتابة وقراءة ومخاطبة، فلو نجا "المتهم" من مشكلة النص الإسلامي المحظور قانونا فإنه يدخل هكذا في مشكلة أخرى هي مشكلة اللغة العربية المحظورة كذلك.

وهناك فريق آخر رأى أن مسلمي اسبانيا أرادوا المحافظة على سرية الموضوع المطروح في الكتاب، ولنا هنا تحفظان: الأول هو أن السلطات الإسبانية كانت تضم ضم هيكلها الإداري مترجمين إلى اللغة العربية حتى تتعرف على أسرار عدوها في الداخل والخارج. والتحفظ الثاني هو أن محتوى تلك النصوص لم يكن ممنوعا على المدجنين، وهم فيما نظن مؤلفوها الأصليون.

لم نصل بعد إلى نتيجة حاسمة، لكن أقرب التفسيرات إلى تفكيرنا هو رغبة المدجنين ثم مسلمي اسبانيا بعد سقوط غرناطة من بعدهم في المحافظة على شيء يميزهم عن مجتمع الأغلبية النصرانية، فاللغة العربية كانت وسيلة من وسائل المحافظة على هويتهم الإسلامية، هذا من ناحية. ومن ناحية فقد كانت معظم المؤلفات التي كتبها مسلمو اسبانيا ذات موضوعات إسلامية مقدسة، ومن ثم كان لابد أن تكتب بحروف عربية التي كتب بها القرآن الكريم، وهو كلام الله عز وجل أنزله

على سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم.

وبهذا سنحاول من خلال هذه الجزئية دراسة النظرة الجدالية التي كانت قائمة بين مسلمي اسبانيا والنصارى الكاثوليك حول اللغة العربية التي كان يقابلها اللغة القشتالية، والحرف العربي الذي كان يقابله أيضا الحرف القشتالي؛ على أن هذا العمل لن يكون تكرار لما ورد في الباب الثاني من الرسالة، وإنما هو محاولة توضيح حركة جدلية الحرف العربي واللغة العربية في اسبانيا.

**1)– اللغة العربية رمز الهوية الإسلامية:** أمام عند وتمسك مسلمي اسبانيا بالحفاظ على اللغة العربية، تواصلت جهود السلطات الاسبانية في تحريم استعمالها تخاطبا وقراءة وتأليفا، فقد توالت إصدار المراسيم والقرارات التي تمنع استعمالها؛ إلا أن مواجهة اللغة العربية ومحاولة إبادتها أوقع الساسة الإسبان في مجابهة واقع معاش فرض عليهم في آخر المطاف الركون إلى مفعول اتفاقيات مرحلية.

فقد اعتبرت اللغة العربية مقوم أساسي من مقومات الشخصية الإسلامية التي تميز المسلم في اسبانيا عن غيره من النصارى، فدفاع هؤلاء المغلوب على أمرهم لبقاء اللغة العربية مرة بدفع الأموال للسلطات الإسبانية، ومرات أخرى بالسلاح، ولما كانت هاتين الوسيلتين لا تجديا نفعا كانوا يتعلمونها ويتداولونها سرا. فقد اعتبر مسلمو اسبانيا تمسكهم باللغة العربية نوع من الجدال الذي كان قائما في الجوانب، خاصة الثقافية منها.

فمن المتعارف عليه أن كل مسلم مطالب بتلاوة القرآن الكريم باللغة التي نزل بها، ومعنى هذا أن كافة المسلمين في العالم مطالبون بتعلم اللغة العربية، ومن هنا اكتسبت اللغة العربية القداسة النورانية والخلود

السرمدي، فقد قال عز وجل في محكم تنزيله: **{ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ }**[1]. فبحفظ الله تعال كتابه حفظ اللغة العربية، فهي باقية ببقائه إلى يوم الدين، ولولا القرآن الكريم لاندثرت هذه اللغة أو علي الأقل انزوت وقل من يتكلمها وانهارت أصولها[2].

فالسر الكامن وراء خلود اللغة والحفاظ عليها من الاندثار، هو القرآن الكريم بما كان له من أثر بالغ في حياة الأمة العربية، وتحويلها من أمة تائهة إلى أمة عزيزة قوية بتمسكها بهذا الكتاب؛ فقد كان القرآن الكريم ولا يزال كالطود الشامخ يتحدى كل المؤثرات والمؤامرات التي حيكت وتحاك ضد لغة القرآن، يدافع عنها، بقوله تعالى: **{وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ۞ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}**[3].

فمن بين ما كون الشخصية الإسلامية عند الإنسان المسلم في اسبانيا اللغة العربية، إذ تعتبر هذه الأخيرة لغة القرآن؛ لهذا السبب نجدهم ينظرون إليها بشتى مكوناتها الداخلية والخارجية كعنصر ديني يدخل في تركيب الإسلام؛ ولأن الخط العربي من المكونات الخارجية الأساسية لهذه اللغة، فنجد له قدسية خاصة عند المسلمين.

أمام هذه المعطيات يجب التعامل مع ثقافة مسلمي اسبانيا بنوع من التريث لإدراك النظرة العميقة لهذه الثقافة. ففي هذا الإطار نجد لدى مسلمي اسبانيا تعاملا خاصا مع اللغة التي كانوا

---

[1]- سورة الحجر، الآية رقم: 9.

[2]- كارم السيد غنيم، اللغة العربية والصحوة العلمية الحديثة، الرياض: مكتبة الساعي، د ط، 1990م. ص:40.

[3]- سورة البقرة، الآيات رقم: 23 و24.

يترجمون بها النصوص الدينية من قرآن وحديث وغيرهما من تلك التي كان لها اتصالا مباشرا بتعاليم الدين إسلامي.

هذا التعامل كان يمليه ذلك الرفض لكل ما هو نصراني؛ فكانوا يتجنبون استعمال أي كلمة يمكنها أن تؤدي إلى اختلاط مع طقس أو معتقد نصراني. وقد وصل الأمر ببعض المسلمين الذين يكتبون نصوصهم بالخط اللاتيني إلى الاحتفاظ بكتابة كلمة (**الله**) بالحروف العربية وسط نص كله حروف لاتينية.

فكلمة (**الله**) في نظرهم لا تترجم بـ (Dios) لأنه غير معقول أن يكون (Dios). النصارى مطابقا لـ (الله) المسلمين. فالنصارى يعبدون المسيح أي (Dios). وانطلاقا من هذا الطرح رفض مسلمو اسبانيا مطابقة الله بـ (Dios). وإذا اضطر المؤلف إلى ترجمة كلمة (**الله**) يستعمل (Sinor) بمعنى (سيد) حتى يتحاشى استعمال كلمة (Dios). فعندما يترجم عبارة (**لا إله إلا الله**) يقول no ay senor sino Allah.[1]

كما احتفظ مسلمو اسبانيا في إنتاجهم الديني بالعبارتين (صلى الله عليه السلام) و(رضي الله عنه) كما هما في اللغة العربية. وقلما ما تترجمان كما في المثالين الآتيين:

**صلى الله عليه وسلم ـ ذيش ءال انبي هغ شتلتسين الله ءال اشلبا.**

**صلى الله عليه وسلم ـ ذيش ءال انبي شبرا ءال شا الشلبسين**

**عمر رضي الله عنه ـ عمر ابا غشا الله ذال**

[1]-Louis Cardaillac, Morisques et Chrétiens, Paris : Librairie Klincksieck, 1977.p. 296.

[2]- الحسين بوزينب، الدين واللغة من خلال الكتابات الأعجمية الموركسية، .WWW.Google. Fr. **ص: 3**

كذلك نجد بعض الأحيان ترجمة للعبارات: (تعالى) و(سبحانه) و(عز وجل) الخاصة بذكر الله.

**الله تعالى ــ الله انت ءاش**

**الله سبحانه ــ الله باندتءاش**

**الله عز وجل ــ دابوش دزا ءال نبلاتن باندت ءاش ش نبلاز**[1]

أيضا الأمر نفسه نجده يتكرر عند كتابة أسماء الرسل والأنبياء؛ فكانوا يكتبون أسماء آدم وإبراهيم وإسحاق ويوسف وسليمان ويونس وموسى وعيسى عليهم صلوات ربي وسلامه، كما تكتب باللغة العربية، رغم أن النظام الصوتي الإسباني كان يغلب عليهم ويجعلهم يحرفون بعض الشيء منها.

فنجد مثلا اسم إبراهيم مكتوبا بدون المد الأول (إبرهيم)، وسليمان مكتوبا (سلايمان) ربما لنطقه çuleymen لأن الفتح بالإضافة إلى الألف =e في النسق الأعجمي. وموسى مكتوب (مسى أو مس) وعيسى مكتوب (عس) واسم إسحاق مكتوب (إسحق) دون الألف الذي يغيب عن الإسبانية. ويعقوب (يعوب) بحذف حرف العين الذي لا يوجد في اللغة الإسبانية. وحتى في تلك الحالات التي تتشابه فيها الصيغ العربية والإسبانية لأسماء الأنبياء فإننا نجدهم يجتهدون لإظهار العناصر المميزة للصيغة العربية.

أما عند ذكرهم لرسول الأمة محمد صلى الله عليه وسلم فكان يرد في تآليفهم بالشكل التالي:

**« Nuestro caudilloy bienabenturado muhamad; cresca nuestro**

[1]- الحسين بوزينب، المرجع نفسه. ص:5.

**senor » « Allah onrra y onora sober él, y crezi [ miento] en gardos de gloria. Emin »**

وتكون ترجمتها بالشكل التالي: :" **سيدنا محمد السعيد. زاده الله ربنا شرفا وجاها وزاده درجات في الجنة. آمين."**

ومن ناحية أخرى نجد أن المخطوطات الأعجمية تظهر مرصعة بمصطلحات الدين الإسلامي مثل: الصلاة – الزكاة – السجود . الركوع...إلخ . إن هذه المصطلحات التي تكاد لا تخلو منها أي صفحة من الكتابات الأعجمية يرجع استعمالها إلى العامل نفسه الذي ذكرناه في استعمال أسماء الأنبياء.

هكذا إذن وكخلاصة عامة تقريبية، يمكن أن نقول إن هناك كلمات لا تترجم أو تكاد لا تترجم كالتي تدل على الصلاة وأجزائها : الصلاة – السجدة – سجد – الركعة – ركع – السلام – الإحرام – الإقامة – النافلة. أوقات الصلاة : الفجر – الصبح – الظهر – العصر – المغرب – العتمة. المصطلحات الدالة على أجزاء القرآن : السورة – الآية – آية الكرسي. مصطلحات مختلفة مثل : الفقيه – الجنازة – الجنة – الدين – الوضوء – الطهور...إلخ. كما لم يتم العثور على كلمات (الشهادة) – (الصلاة) – (الزكاة) – (الحج) مترجمة.

وفيما يرجع إلى فعل (صلى) ربما يتعذر عليهم إيجاد تكيف لهذه الكلمة مع اللغة القشتالية، لذلك سنراهم يبتكرون عبارة "فزار الصلاة" (al- ssala faser) [ بالحرف : عمل الصلاة] كصيغة قارة ومنتظمة للتعبير عن عملية الصلاة. فهذه العبارة الجديدة تؤدي لغويا وظيفة الفعل (صلى)[1].

[1]– الحسين بوزينب، المرجع السابق. ص: 5.

إن استعمال هذه المصطلحات العربية داخل النص الإسباني يجب أن يفهم بالدرجة الأولى في نطاق المجادلة الدينية التي كانت قائمة بين المسلمين والنصارى وكذا في نطاق اعتزاز كل طرف بدينه وعدم قبول التنازل عن أدنى شيء للخصم. كما تجدر ملاحظة ندرة ترجمة المصطلح العربي إلى الإسبانية بالمقارنة مع كثرة استعمال الأصل. وبهذا فإن استعمال المصطلح العربي في الأعجمية يبرز في صيغتين:

أ. صيغة تحاول الاحتفاظ بالشكل الأصلي للكلمة العربية دون حدوث أي تحريف بسبب تأثير النسق الصوتي الإسباني الغالب على مسلمي اسبانيا ولكن بدون تكيف مع بنية الأشكال الكلامية الإسبانية، وهذا عرض لنماذج تؤكد ما ذكر أعلاه :

| الكلمة | ما يقابلها |
|---|---|
| اصل | الصل |
| الركع | الركغ |
| عاشوراء | عشر |
| عابد | غابد |
| حلال | خلال |
| ملعون | مَلْغُنْ |
| رمضان | رمضن |
| الرزق | ارسكا |

| صراط | اريان |
| --- | --- |

نلاحظ من خلال هذه النماذج أن النظام الصوتي والبنية الإسبانية تمكنا من فرض نفسيهما على الكلمات العربية. ولكن سيبقى الجانب الدلالي الذي مكث في أغلب الأحيان بعيدا عن هذا الاستيلاء. فقليلة هي المصطلحات والعبارات العربية التي قبلت تعويضها بنظيراتها الإسبانية. فعبارة صلى الله عليه وسلم مثلا، التي تأتي بعد ذكر النبي محمد، تكاد لا تقبل الترجمة أبدا.

**2)– قدسية الحرف العربي عند مسلمي اسبانيا:** يدخل الخط العربي بالنسبة للمسلمين، ومن بينهم مسلمي اسبانيا، في مكونات العبادة الخارجية، لهذا لا يمكن أن نغض الطرف عن شعور القدسية التي كان يشعر بها مسلمو اسبانيا اتجاه الحرف العربي الذي استعملوه لكتابة لغتهم في التخاطب؛ فلقد تشبثوا بالحرف العربي كتشبث الغريق بأي شيء بعد غرق سفينته؛ فالحرف العربي كان يتركهم ماديا في محيط الإسلام. فلو اعتمدوا على الحرف اللاتيني لأبعدهم عنه. ثم لغة التخاطب الحية قابلة للنسيان والضياع لأنها خاضعة للتداول، وأما الخط فلا يعتمد على الممارسة بالطريقة نفسها.

وبهذا فقد ترك مسلمو اسبانيا تراثا ثقافيا مهما، عمد مؤلفوه إلى تسجيله بلغة خاصة تعد من ابتكارهم، ولعل اختيار الحرف العربي كمظهر خارجي للتبليغ من طرف هؤلاء المضطهدين، يبقى الرداء الإسلامي أو القناع الواقي، وهو ما شكل علامة على مدى التلاقي الجدلي بين الحرف العربي والبعد الروحي عند الإنسان المضطهد. ولعل أيضا تفشي ظاهرة الاقتراض الذي عرفته اللغة العربية

وخاصة حين يتعلق الأمر بالشعائر الدينية ليعد ظاهرة ملفتة للانتباه داخل هذا التراث المتبقي والمسجل بعزيمة المقاومة.

إن هذا الإنتاج الفريد من نوعه إن صح التعبير الذي كتبه المسلمون بالحروف العربية هو معلم وأثر باق على ذلك الجهد المثير الذي حاولوا من خلاله مسلمو اسبانيا إنقاذ المعرفة بالدين الإسلامي وثقافته – أو ما تبقى من هذه المعرفة – التي تقلصت بحكم متابعات واضطهاد رجال الدين والسياسة في إسبانيا إلى معتزلات سرية للمسلمين المضطهدين.

لم تكن الكتابة بلغة غير عربية مبادرة انفعالية، بل كانت نتيجة تفكير عميق بحيث لا يخرج عن صحيح الدين الإسلامي، كما هدفت إلى الحفاظ على صحة الدين المتوارث شفويا عن طريق كتابة صحيحة. فالكلمة العربية تنبني على هيكل أساسي يسمى بالأصل ويتكون من ثلاثة حروف في أغلب الأحيان، تتضمن الفكرة الأساسية. وهذا الأصل يتشكل في عدة قوالب بإضافة بعض الأجزاء المحددة التي تكتسي مدلولات معينة في أول ووسط وآخر الكلمة.

أما الكلمة الإسبانية فيحمل الأصل فيها على الفكرة الأساسية، وأجزاء نحوية ومعجمية في أول وآخر هذا الأصل( سوابق وملاحق)، غير أن عدد حروف الأصل عكس العربية غير قار. كما أن أدوات السبق والإلحاق الإسبانية ذات الوظيفة المعجمية، علاوة على كثرتها، فهي تكون إطارا لغويا مفتوحا يستطيع استقبال أدوات جديدة.

واعتماد الإسبانية في بداية الأمر كسائر اللغات الغربية على كلمات إغريقية ولاتينية حرفتها بعض الشيء أو تركتها كما هي، ثم ألحقتها بأول كلماتها للتعبير على معنى جديد أضافته إلى القديم،

أكسبها مرونة سهلت عليها الاستجابة للمتطلبات اللغوية من كلمات ومصطلحات.

من هذا المنطلق فإنه هناك مساوئ قد تنتج من كتابة اللغة العربية بحروف لاتينية نلخصها فيما يأتي:

- قطع الصلة بالتراث الثقافي.

- تعسير الكتابة على الكاتب.

- الفوضى في التطبيق، ونشوء الحاجة مجددا إلى قواعد إملاء معقدة. بل سيصبح لكل قوم طريقتهم في التهجئة بالحرف اللاتيني.

- زوال فنون الخط العربي وزخارفه التي تمثل الفن التجريدي للحضارة الإسلامية.

- لن تختفي الشكوى من مصاعب الإملاء، وستبقى الحاجة إلى النقط والشكل قائمة برغم الاقتراحات الكثيرة.

إذن ما لاشك فيه أن الحروف اللاتينية المعروفة خالية من عدة حروف توافق العربية، فلا تؤدي جميع ما تؤديه الحروف العربية، فلو كتب القرآن الكريم بها على طريقة النظم العربي – كما يفهم من الاستفتاء – لوقع الإخلال والتحريف في لفظه، وتبعهما تغير المعنى وفساده.

وقد قضت نصوص الشريعة بأن يصان القرآن الكريم من كل ما يعرضه للتبديل أو التحريف، وأجمع علماء الإسلام سلفا وخلفا على أن كل تصرف في القرآن الكريم يؤدي إلى تحريف في لفظه أو تغيير في معناه ممنوع منعا باتا، ومحرم تحريما قطعيا، وقد التزم الصحابة رضوان الله عليهم ومن بعدهم

إلى يومنا هذا، كتابة القرآن الكريم بالحروف العربية ومن هذا يتبين أن كتابة القرآن العظيم بالحروف اللاتينية المعروفة لا تجوز لا من حيث الشرع أو البنية اللغوية.

من خلال ما تم عرضه من معطيات، يمكننا القول بأن مسلمي اسبانيا من خلال تأليفهم لهذا الإنتاج كانوا واعين كل الوعي لما حاولوا إنجازه، فقد كانت مهمتهم المستحيلة، كانت في محاولة إحباط إيقاف التاريخ وانتهاكه من طرف اسبانيا النصرانية بكل هيئاتها.

فقد توصلنا من خلال هذه الدراسة إلى الخروج بملاحظة مهمة مفادها أن مؤلفي تلك النصوص لم يتمسكوا بالكتابة بالحروف العربية لدواعي سرية خوفا من ملاحقة ومعاقبة محاكم التحقيق لهم، ولكن أكثر من ذلك فقد لجأوا إلى هذه الطريقة لإيمانهم بالمنزلة المقدسة التي كانت تحتلها تلك الحروف بالنسبة لهم ولقرائهم السريين أيضا، ومن هنا نشأ السخط والنقد اللاذع الذي صبه هؤلاء المضطهدين على كل ما هو غير عربي مسلم، على وجه العموم، وعلى كل ما كان نصرانيا كاثوليكيا اسبانيا، على وجه الخصوص.

# الفصل الثالث: التصوف في اسبانيا النصرانية

## المبحث الأول: رؤية تاريخية حول التصوف في الأندلس

### 1)_ مفاهيم عامة حول التصوف

### 2)_ تطور ظاهرة التصوف في الأندلس

### 3)_ الطريقة الشادلية في بلاد الأندلس

## المبحث الثاني: التصوف الإسلامي في اسبانيا بين السر والعلن

### 1)_ التصوف الإسلامي عامل تأثير وتأثر

### 2)_ ظاهرة التصوف ومدى تأثيرها بحركة التنصير القهري

الحديث عن مفهوم التصوف الإسلامي في الأندلس سواء في مرحلته الأولى، أو المتأخرة يقتضي منا الحديث عن جذره اللغوي، وتأصيله من الناحية التاريخية، وتتبع مساراته، ودراسة مضمون الإنتاج المعرفي لهذا الاتجاه في حقل المعرفة الإسلامية. كما يقتضي منا التنقيب عن مضامينه الروحية والعقلية، وتتبع مدى أصالة انتمائه إلى حقل العلوم والمعارف الشرعية، ومدى علمية ما يطرحه المتصوفة من رؤى عن الله عز وجل، ثم عن الكون والحياة والإنسان، وتحليل المنهج الصوفي مع مراعاة أدوات المعرفة الصوفية وموقع العقل والبداهة منها، وقبل ذلك تعاملها مع الوحي كمصدر للمعرفة، ودور العقل في التعامل مع المعطيات والحقائق.

من هذا الوجه، فالتصوف من حيث هو ظاهرة سلوكية وعبادية، وتطهير للنفس الإنسانية، وتأمل وفكر في الوجود، أصيل في الإسلام. فالتربية الروحية في المجتمع الإنساني وصياغة شخصية الإنسان في ظلها لكي تحفظ توازنها أمام مغريات الحياة، كانت من المهمات الواضحة للوحي القرآن والسنة.

فالقرآن الكريم قائم أساسا على الدعوة إلى الله تعالى وعبادته، وتطهير النفس، وبيان سبل الاستقامة والسلوك الموزون في الحياة. وإن الإيمان العقلي المجرد بخالق الكون ثم بالقيم والفضائل التي تنبعث من هذا الإيمان لا يمكن أن يجعل من الإنسان يقظ الحس، رقيق الوجدان، مستقيم السلوك، رباني المشاعر، متطلعا إلى رضوان الله بشوق وانتظار. ونحن إذا قرأنا القرآن الكريم وجدنا آيات كثيرة تدعو الإنسان إلى الجانب الروحي من حياته، ضمن الإطار العام في الكيان الإنساني المتكامل.

وبهذا تبلور فكر صوفي إسلامي عميق في هذه المدرسة الصوفية، حول حقيقة العبادة والتوحيد

واتباع السلوك الصحيح إلى الحق تبارك وتعالى، ووصف مراتب النفس وتصفيتها، وأمراض القلوب وشفاءها، وحقيقة هذه الحياة وموقع الإنسان فيها، والخلاص من الرذائل، ونبذ العبودية للدنيا، ومعرفة مظاهر الشرك الخفي ومراتبها .

غير أن هذا الفكر الصوفي السليم الذي تضبطه ضوابط القرآن الكريم والسنة النبوية، لم يستطع أن يسيطر على عالم التصوف، بل ظهرت منذ "الجنيد "بوادر انحرافات واضحة، تمثلت في شطحات الحلاج التي كانت نتيجة الغنوصية الشرقية (الهندية والمجوسية وغيرها) التي دخلت المجتمع الإسلامي، ودعت إلى الحلول عند الحلاج، والإشراق عند السهروردي، ووحدة الوجود عند ابن سبعين وابن عربي، هذا الأخير الذي قال بوحدة الأديان وأول الحقائق الشرعية تأويلا منكرا، ودعا إلى نظرية الاتحاد بين الخالق والمخلوق، وغيرها.

هذه النظريات لم تكن تجربة روحية إسلامية، بل كانت مظهرا واضحا لدراسات فلسفية حلولية وغنوصية لا علاقة لها بروحانية الإسلام عند المتصوفة الأوائل المستقيمين من المتمسكين بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وضوابط فهمهما الصحيح .

فبلاد الأندلس تأثرت مثلها مثل باقي المناطق الإسلامية بالفكر الصوفي، القادم سواء من بلاد المغرب الإسلامي، أو من المشرق، وعرف نشاطا كبيرا، فبرزت أسماء ومؤلفات أخذت تنافس مثلاتها في المشرق والمغرب على حد سواء. وبقي الأمر كذلك إلى أن بدأت الهجرات المتتالية للكثير من المتصوفة نحو بلاد المشرق بعد بدايو العد التنازلي لسقوط الأندلس كليا.

ومن خلال هذا الفصل لنا وقفة مع رؤية تاريخية حول حركية ظاهرة التصوف في الأندلس،

كما سنحاول الوقوف عند مسألة قد تكون بالمحاولة المستحيلة إذا قيست بحجم المادة التاريخية المتوفرة في مجموعة المصادر والمراجع المعتمد عليها في انجاز هذا البحث؛ هذه المسألة تتمثل في مدى الحضور الصوفي في اسبانيا النصرانية قياسا بالظروف القاسية والاستثنائية التي كان يمر بها مسلمو اسبانيا.

وبناء عليه فأي خلل أو عدم توازن في المادة التاريخية المعروضة في هذا الفصل مقارنة بفصول البحث الأخرى، لن يكون بسبب تهاون منا في اثراء هذا الجزء المهم من البحث، ولكنه ناتج لقلة المعطيات التاريخية التي تؤرخ لهذه الظاهرة الدينية والاجتماعية معا.

## - المبحث الأول: رؤية تاريخية حول التصوف في الأندلس

إن الحديث عن الطرق الصوفية وما قامت به سلبا و إيجابا منذ وصولها إلى بلاد الأندلس، يتطلب تقديم لمحة عن مفهوم التصوف في الإسلام، إذ يحتل هذا الموضوع أهمية كبرى في حياتنا الفكرية المعاصرة، وهو من القضايا الشائكة والمعقدة في تاريخنا الثقافي والديني، وأسال الكثير من الحبر ولا يزال إلى يومنا هذا، إذ لم يتم الفصل فيه برأي نهائي، فالكثير من الباحثين ما زال يتردد بين الإعلاء من قيمة هذه الظاهرة الدينية وبين الحط منها.

لقد اختلفت آراء الباحثين في ظاهرة التصوف التي سادت في العصر الحديث، فمنهم من وجد فيه ـ في نطاق بلاد الأندلس ـ عنصرا إيجابيا في توجيه الحياة الاجتماعية والعقلية والسياسية خاصة في بعث التقاليد الإسلامية في كثير من الجماعات، وفي الدعوة إلى الجهاد وبث الحماسة في السكان الذين انقادوا لهم لمقاومة الغزو الصليبي.

في حين رأى آخر أن ظاهرة التصوف حملت الكثير من الجوانب السلبية التي أدخلتها على الحياة الاجتماعية، من البدع والانحراف عن العقيدة السليمة[1]. من خلال هذه المعطيات سوف نحاول البحث في أصل مصطلح التصوف؟ وما معناه لغة واصطلاحا ؟.

**1)– مفاهيم عامة حول التصوف:** : اختلف الباحثون قديما وحديثا في تفسير معنى التصوف وقدموا تفسيرات متعددة من الصعب الإجماع على معنى دون الآخر، وذلك لأن كل رأي من الآراء يرتبط بمعنى التصوف بصورة أو بأخرى. والحقيقة أن كلمة التصوف من الكلمات الغامضة من ناحية الأصل اللغوي.

فقد أدرك مبكرا رجال التصوف أنفسهم وقدامى مؤرخيهم، من أمثال أبي نصر السراج الطوسي صاحب اللمع، والكلاباذي صاحب التعرف، والقشيري صاحب الرسالة هذا الغموض وحاولوا توضيحه أو شرح أسبابه. والكلاباذي، وهو معاصر للسراج، حاول هو بدوره أن يتلمس معنى يستند إليه اسم التصوف من طريق الربط بين معنى التصوف وبين الأسماء التي قيل إنه ينسب إليها.

***– أصل مصطلح التصوف واشتقاقه:** إن الذين تحدثوا عن التصوف أو كانوا من أهله اختلفوا في أصل الكلمة واشتقاقها وكذلك اختلفوا في نسبة الصوفية اختلافا كبيرا، و هذه بعض أقوالهم وآرائهم في ذلك. فمنهم من نسب المصطلح إلى "الصفاء"، حيث قال أبو الفتح السبتي: [2]

[1]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن (10_14هـ)/(16_20م)، ج:1، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، د ط، 1981م. ص ص:529، 530.

[2]– عيسى عبد القادر، حقائق عن التصوف، سوريا حلب: دار العرفان، ط:15: 1427هـ/2006م. ص:20.

تنازع الناس في الصوفي واختلفـوا وظنه البعض مشتقا من الصوف

ولست أمنح هذا الاسم غير فتى صفا فصوفي حتى سمي الصــوفي

ومنهم من قال: "الصفاء محمود بكل لسان، وضده: الكدور، وهي مذمومة". فهذا "عبد الله بن نوفل" يذكر حادثة خروج الرسول صلى الله عليه وسلم متغير اللون فقال حينها: "**ذهب صفو الدنيا وبقي الكدر، فالموت اليوم تحفة لكل مسلم**"[1]. ومنه يستنتج بأن المصطلح ينتسب إلى "الصَّفوة"؛ وهذا ما ذهب إليه أيضا الإمام "القشيري"[2].

وقيل مشتق من الصوف لأنه "زي أهله غالبا آثروه تواضعا وتقللا من الدنيا وإتباعا للسلف"، أو لأنهم يرون أنفسهم "كصوفه" ملقاة في الأرض، لقول الشيخ "أبو حفص الفاسي" :"**ظهر لي أنه منسوب إلى الصوف لأنه في الغالب شعاره ودثاره، ولأن هذا اللفظ مشتمل على ثلاث أحرف متقطعة من ثلاث كلمات دالة على معان ثلاثة هي أوصافه المختصة به فالصاد من الصفاء والواو من الوفاء والفاء من الفناء**"[3].

من خلال هذه المفاهيم اللغوية لمصطلح التصوف نجدها تذهب في عدة اتجاهات، على أن عرض البعض منها نتركه دون ترجيح. ولا ربما مع اعطاء أكثر تفاصيل من خلال عرض المفاهيم الاصطلاحية للتصوف سوف تتضح الصورة وتتجلى بشكل أفضل.

***– مفهوم التصوف واصطلاحه:** إذا أردنا أن نعـرف التصوف اصطلاحا فلا بد من الرجوع

---

[1]– أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، الرسالة القشيرية، بيروت لبنان: دار الكتب العلمية، ط:1، 1418هـ/1998م. ص:311 .

[2]– القشيري، المصدر نفسه. ص: 312.

[3]– ابن أحمد الفاسي محمد، حاشية ابن حمدون على ميارة، ج:1، ميارة :دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د ط، د س ط. ص:116.

إلى أقوال الصوفية في ماهية التصوف؛ فمنذ نشأة الصوفية إلى يومنا هذا حدث فيها تشعيبات كثيرة وانحرافات عن منهج الأوائل وكثرت أقوالهم في حقيقة التصوف وتعددت، وكل قول من هذه الأقوال يشير إلى أهم جانب في التصوف عند قائله سواءً بالنظر إلى الطريقة أو الغاية، أو إلى حاجة الصوفي، أو من حوله وبالنظر إلى حاله والخطأ الذي يريد أن يقومه. وهذه بعض النماذج من أقوالهم في الموضوع إذ ذكر "السهروردي" بأن أقوال المشائخ في ماهية التصوف تزيد على ألف قول[1].

فهذا "القاضي شيخ الإسلام زكريا الأنصاري" يقول في التصوف أنه "علم تعرف به أحوال تزكية النفوس، وتصفية الأخلاق وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية"[2]. والرأي نفسه ذهب إليه الشيخ "أحمد زروق" فقال بأنه: **"علم قصد لإصلاح القلوب، وإفرادها لله تعالى عما سواه، والفقه لإصلاح العمل، وحفظ النظام، وظهور الحكمة بالأحكام، وأصول علم التوحيد لتحقيق المقدمات بالبراهين، وتحلية الإيمان بالإيقان"**[3].

أما الإمام **"الجنيد"**[4] فعرف التصوف بأنه: "**استعمال كل خلق سني، وترك كل خلق دني وذكر مع إجماع، ووجد مع استماع، وعمل مع إتباع، والصوفي كالأرض، يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها إلا كل مليح**"[5]. وبهذا فهو القائل بأنه "الطريق إلى الله مسدود على خلق الله عز

---

[1]- عبد القاهر بن عبد الله السهروردي، عوارف المعارف، بيروت: دار الكتاب العربي، ط:2 ، 1403 هـ. ص:57 .

[2]- القشيري، المصدر السابق. ص: 311..

[3]- عبد القادر عيسى، المرجع السابق. ص:17.

[4]- **أبو القاسم الجنيد:** هو بن محمد الخراز، ويقال له أيضا "القواريري "لأن أباه كان يبيع الزجاج. كان أبو القاسم يفتي في حلقته وهو ابن العشرين سنة،. صنفه "السبكي" من صوفية القرن الثالث الهجري هؤلاء عرفوا "بأنهم أعمق روحانية وأكثرهم خصبا بل أكثرهم دقة". فهو بذلك جمع بين الحقيقة والشريعة. توفي في سنة 297هـ/ 909م .ينظر: محمد جلال شرف، دراسات في التصوف الإسلامي، الجزائر: دار المعرفة الجامعية، د ط، د س ط. ص ص:294 ،295.

[5]- القشيري، المصدر السابق. ص:313.

وجل، إلا على المقتفين آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين لسنته".

أما التصوف عند **ابن تيمية** [1] فقد حدده بقوله : **"الصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم في أهل طاعة الله ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمن، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ، ومنهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب، ومن المنتسبين إليهم من هو عاص لربه ظالم لنفسه"**[2]. والرأي نفسه أكده أبو الحسن الشاذلي[3] بقوله: **"التصوف تدريب النفس على العبودية، وردها لأحكام الربوبية "**[4].

وبالنظر إلى أقوال المتقدمين نجد أن كل تعريف من تعريفات أئمة التصوف والمنتسبين إليه يشير إلى جانب من الجوانب، وهذه الأخيرة مجتمعة تشير إلى أمور عظيمة في هذا الدين، فـ"التصوف السني" ينبغي أن يتوفر فيه جميع ما ذكر من زهد وإخلاص ومجاهدة وخلق كريم وتسليم لرب العالمين والتزام بشرعه وترك للتكلف، وأن يلتزم بالعبادة الدائمة لله عز وجل كما أمر، والبعد عن كل ما نهي الشارع عنه، من البدع المضلة، وعن الفكر الغريب، والفلسفات الباطلة.

**2)– تطور ظاهرة التصوف في الأندلس:** اختلف المؤرخون في تاريخ بدء ظهور مصطلح

---

[1]– **ابن تيمية:** هو أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ولد في ربيع الأول 661هـ/1262 م. استقر في دمشق وتوفي، وبعد وفاة والده تولى مكانه مهمة تدريس المذهب الحنبلي وعمره لا يتجاوز الواحد العشرين سنة. في عصره كثرت فيه الطرق الصوفية وحاربها بقلمه، مثالا على ذلك ما حصل له في سنة 705هـ/1305م إذ وقع بينه وبين شيخ الطريقة الأحمدية خلاف كبير نفي على إثره إلى مصر. توفي سنة 702هـ/1302م. من أهم مؤلفاته نذكر: "الفرقان بين الحق والباطل، و"مجموع فتاوى". **ينظر** : أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، الفرقان بين الحق والباطل، تع: يوسف غزال، الجزائر: مكتبة النهضة الجزائرية، د ط، د س ط، ص:3.

[2]– عبد القادر صالح، العقائد والأديان، لبنان: دار المعرفة، ط:1، 2003م. ص: 202.

[3]– **أبو الحسن الشاذلي:** أصله من المغرب، ارتحل إلى المشرق وهناك اطلع على أصول التصوف وأخذ بمبادئه، وعند رجوعه التقى بالشيخ محمد بن عبد السلاو بن مشيش الذي أشار إليه بالتوجه إلى تونس فاستقر بشاذلة وهي قرية قرب زاوية سيدي علي الحطاب أين رابط بمغارة في جبل جلاز ، وهناك أقام زاويته. **ينظر**: أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق،ج:1. ص : 542.

[4]'–عبد القدر صالح، المرجع السابق. ص:202.

التصوف كاختلافهم في أصله وتعريفه، فذكر ابن تيمية وسبقه ابن الجوزي، وابن خلدون في أن مصطلح "الصوفية" لم يكن مشهورا في القرون الثلاثة الأولى، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك، وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ كالإمام أحمد بن حنبل، وأبي سليمان الداراني وغيرهما، وقد روى عن سفيان الثوري أنه تكلم به، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصري[1].

أما الحسن البصري فقد استند إلى تأريخه لظهور التصوف بحادثة تاريخية قال في شأنها ما يلي: رأيت صوفيا في الطواف فأعطيته شيئا فلم يأخذه وقال معي أربع دوانيق يكفيني ما معي" ويشيد هذا ما روي عن سفيان أنه قال: " لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء"[2]. نستنتج من رأي البصري أن ظاهرة التصوف لم تعرف قديما، وإنما تعود إلى المائتين من الهجرة العربية[3].

---

[1]- **الحسن البصري**: ولد سنة 21هـ. تفقه على يد كبار شيوخ المدينة. كان مفهومه للزهد يختلف عن الصوفية في أن الرسالة الزهدية عنده هي رسالة أخلاقية. ارتدى لباس الصوف، وكان يرى أن التبتل إلى الله لا ينافي الواجب. بن عامر توفيق، دراسات في الزهد والتصوف، ليبيا . تونس: الدار العربية للكتاب، ط: 1، 1981م. ص: 16.

[2]- السهرودي، المصدر السابق. ص ص: 59، 60.

[3]- خلال القرنين الأولين ابتداء من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين حتى وفاة الحسن البصري، لم تعرف الصوفية سواء كان باسمها أو برسمها وسلوكها، بل كانت التسمية الجامعة :المسلمين، المؤمنين، أو التسميات الخاصة مثل :الصحابي، البدري، أصحاب البيعة، التابعي. وبهذا لم يعرف ذلك العهد هذا الغلو العملي التعبدي أو العلمي الاعتقادي إلا بعض النزعات الفردية نحو التشديد على النفس الذي نهاهم عنه النبي صلى الله عليه وسلم في أكثر من مناسبة، ومنها قوله للرهط الذين سألوا عن عبادته صلى الله عليه وسلم فرد قائلا:" لكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، وآكل اللحم، فمن رغب عن سنتي فليس مني." وهكذا كان عهد الصحابة والتابعين وتابعيهم على هذا المنهج يسيرون، يجمعون بين العلم والعمل، والعبادة والسعي على النفس والعيال، وبين العبادة والجهاد، والتصدي للبدع والأهواء مثلما تصدى ابن مسعود رضي الله عنه لبدعة الذكر الجماعي بمسجد الكوفة وقضى عليها، وتصديه لأصحاب بن يزيد العجلي لما اتخذوا دورا خاصة للعبادة في بعض الجبال وردهم عن ذلك.

. تطور مفهوم الزهد في الكوفة والبصرة في القرن الثاني للهجرة على أيدي كبار الزهاد أمثال :إبراهيم بن أدهم، مالك بن دينار، وبشر الحافي، ورابعة العدوية، وعبد الواحد بن زيد، إلى مفهوم لم يكن موجودًا عند الزهاد السابقين من تعذيب للنفس بترك الطعام، وتحريم تناول اللحوم، والسياحة في البراري والصحاري، وترك الزواج .يقول مالك بن دينار" :لا يبلغ الرجل منزلة الصديقين حتى يترك زوجته كأرملة، ويأوي إلى مزابل الكلاب ."وذلك دون سند من قدوة سابقة أو نص كتاب أو سنة، ولكن مما يجدر التنبيه عليه أنه قد نسب إلى هؤلاء الزهاد من الأقوال المرذولة والشطحات المستنكرة ما لم يثبت عنهم بشكل قاطع كما يذكر شيخ الإسلام ابن تيمية. وفي الكوفة أخذ معضد بن يزيد العجلي هو وقبيله يروضون أنفسهم في التصوف الإسلامي وتاريخه.

مهما قيل حول تاريخ بدايات التصوف، فإن هذه الظاهرة لم تتجلى بوضوح إلا في العهد الأموي، الذي كان منعطفا حاسما في التاريخ الإسلامي. ثم جاء العهد العباسي، فدرجت وترعرعت فيه، كلها مجتمعة، فكانت من أكبر العوامل على ترك الحياة المادية، والتنكر لها تحت شعار الزهد في الدنيا والعمل من أجل الآخرة.

ويعتبر إبراهيم بن الأدهم المتوفى الرائد الأول في تطبيق هذا المبدأ على نفسه فاعتزل الملك والحياة السلطوية، وتشبه به الآخرون متخذين منه القدوة الحسنة. ومن هذا المنطلق لم يظهر التصوف مذهبا ومشربا، ولم ترج المصطلحات الخاصة به، وكتبه وتعاليمه وضوابطه، أصوله وقواعده، وفلسفته، ورجاله وأصحابه، إلا في القرن الثالث من الهجرة وما بعده.

**3)– بدايات الانحراف**: لقد أحدثت التربية النبوية الشريفة تغييرا كليا في النفوس، وأيقظت الأرواح، ووجه الرسول صلى الله عليه وسلم صحابته وأمته من بعده إلى تأمل كتاب الله، فأشرقت قلوب صحابته، واقتدوا به صلى الله عليه وسلم في عدم إعطاء حياة الشهوات أكثر من حجمها، وعدم التذلل لها، وتميز من بينهم جمع من خالص أصحابه، استغرقوا في العبادة والصلاة وقراءة القرآن والكفاح اليومي على نهج النبوة والاقتداء الكامل برسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم ورث هؤلاء الصحابة في مسلكهم في العبادة كبار التابعين وتابعيهم، واستمر هذا الاتجاه الذي سمي بالزهد في المجتمع الإسلامي، نتيجة تطور أوضاع؛ إذ كلما استبدت المغريات المادية بالناس، وكثرت الآثام، وظهرت المفاسد، وانتشرت المظالم، علت الدعوة إلى محاربة النفس الأمارة بالسوء.

فكان الوعاظ وأهل الزهد والإرشاد ينبهون الناس إلى الثغرات الروحية في الحياة وكيفية معالجتها، وكانوا ينطلقون من منطلقات قرآنية. وبقي الاتجاه الروحي على صفائه الإسلامي، حتى بعد تطوره إلى فكر، واتخاذه مصطلح "التصوف" بوضوح ابتداء من القرن الثالث الهجري، حيث انقلب التصوف إلى علم قائم بذاته، سمي بعلوم الخواطر أو الأحوال أو المكاشفات.

وكأي ظاهرة تبدأ صغيرة ثم ما تفتأ أن تأن تتسع وتنتشر، فكذلك مرت ظاهرة التصوف بأطوار مختلفة وصلت بها إلى الانحراف عن العقيدة السليمة[1] لجنوح أتباعها في المسار حتى تداخلت طريقتهم مع الفلسفات الوثنية: الهندية[2] والفارسية واليونانية المختلفة بما اصطلح عليه في الدراسات المختصة بـ "الغنوصية"[3].

---

[1]- لا يعني وجود هذا الانحراف أن ساحة الفكر الإسلامي الصوفي خلت من التيار الصوفي المنضبط بضوابط الشرع، بل استمر عند القشيري وعبد القادر الجيلاني، والشيخ زروق وغيرهم. الذين حاربوا تيار الإشرافية، ووحدة الوجود، والإباحية، ودعَوْا إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .غير أن ما يمكن ملاحظته من الناحية المعرفية والمنهجية أن التصوف يقوم على الذوق والتجربة الذاتية، وما يسمى "بالكشف"، وهذا يشكل حاجزا كبيرا أن يكون المنهج الصوفي منهجا مشتركا بين الناس يمكن التحقق منه ومن علميته، إذ إنه لا يقوم على النظر العقلي ولا على الحس، وهذا ما يشترك فيه الناس جميعا، وإنما يقوم هذا المنهج على التجربة الذاتية والمجاهدة وسلوك طريق الأحوال والمقامات، وهي فضلا عن غرابتها من الناحية الشرعية، فإنها غير قابلة للتعميم، ولا يمكن البرهنة على صدقها، ولذلك تبقى قاصرة عن التعميم. وقد يمكن أن تكون صادقة ومقبولة عند صاحبها، ولكن لا تعتبر قانونا عاما يحتكم إليه الجميع، ويتصف بالموضوعية؛ كما هو الشأن في مناهج علم الحديث أو الفقه أو التاريخ أو أصول الفقه مثلا.

.كان تأثير النحل الهندية في التصوف الفارسي عميقا، وظهر ذلك في كثير من الأفكار، فالوصول إلى الله أو الحق، أو المطلق عند الجوكيين الهنود، يمر بمرحلتين" :السمبراكناثا"؛ أي: تركيز الخاطر في نقطة واحدة، "الإسمبركناثا"؛ أي: التجاوز عن صور الذَّات، والغوص في فكر الذات العليا، والمرحلة الأولى عند المتصوفة المسلمين تسمى بمرحلة جمع الخاطر، أما المرحلة الأخرى، فتسمى بالمراقبة. ينظر: التصوف عند الفرس؛ إبراهيم الدسوقي شتا، القاهرة: دار المعارف، القاهرة، د ط، د س ط. ص: 23.

[2]- **الغنوصية**: هي عبارة عن عقيدة تمزج بين روحانية الشرق الآسيوي، ومنطق الغرب الإغريقي، فبعد سقوط آخر دولة عراقية في القرن السادس قبل الميلاد على يد الفرس، واحتلال الشام ومصر من قِبَل الإغريق، ثم الرومان – بدأ يتغلغل في هذه البلدان تياران دينيان: التيار الديني الآسيوي "الهندي الصيني"؛ من عقائد هندوسية، وبوذية، وتاويَّة، تؤمن بعقيدة وحدة الوجود، عن طريق بلاد فارس، وكانت فارس تضم ما بين باكستان إلى مشارف الشام، ثم التيار الفلسفي المنطقي اليوناني، الذي يفصل بين الخالق والمخلوق، ويرى تعدد الآلهة. ينظر: عبد المنعم الحفني، الموسوعة الصوفية، القاهرة: دار الرشاد، القاهرة، ط: 1، 1992، ص: 9.

وبلاد الأندلس كغيرها من الأراضي الإسلامية وجد التصوف طريقه إليها منذ القرن الثاني للهجرة وذلك تحت تأثير الاتصال بحركة التصوف في ديار الإسلام، سواء عبر المغرب العربي كالجزائر أو المغرب الأقصى أو عن طريق الصلات المباشرة مع المشرق الإسلامي، كذلك كان علماء الأندلس يقصدون بلاد الشام[1] وبيت المقدس[2] ومصر[3]، بل ويسافرون للتباحث مع علماء ومتصوفة في العراق وبلاد فارس أيضا.

فقد لاق التصوف ازدهارا واسعا، ما أكده عشرات الأسماء التي ورد ذكرها في المصادر التاريخية أمثال موسى بن عمران الميرتلي وأبي الحجاج يوسف الشبربلي، وأبي عبد الله بن المجاهد، وأبي عبد الله قسم وأبي العباس العرياني ونونة فاطمة بنت أبي المدني القرطبية وأبي عبد الله الشرفي وأبي عبد الله محمد الخياط.

من بين أشهر المتصوفة التي ورد ذكرها في المصادر التاريخية نذكر محيي الدين ابن عربي: الملقب عند المتصوفة بـ "الشيخ الأكبر ". ولد بمرسية سنة 560هـ/1165م من أسرة غنية ميسورة. نقله

---

[1]- أثر المسلمون الأندلسيون في الأماكن التي هاجروا إليها وتركوا بصماتهم، من بينها بيت المقدس؛ ومن بين المتصوفة الذين نالوا مكانة خاصة نذكر أبا العباس أحمد المرسي الأندلسي، الذي نشر طريقته وأصبح لها أتباع ومريدين. أيضا نذكر اسماعيل بن محمد أبي ابراهيم برهان الدين من مدينة أبذة بالأندلس، استقر بالبيت المقدس بعد أن زار مكة ودمشق، وصف بالصلاح والزهد. توفي سنة 656هـ/1258م. ينظر: المقري، نفح الطيب، (المصدر السابق)، ج:2. ص: 222.

[2]- لم تكن مدينة القدس هي وحدها التي استقطبت المتصوفة الأندلسيين، فقد برزت مدينة دمشق أيضا في هذا الميدان، حيث احتوت عدة زوايا خصصت لمثل هؤلاء، كما خصصت لهم الأموال والأوقاف التي تصرف على رجال الصوفية؛ وممن علت شهرتهم على صعيد الزهد والصلاح والعبادة نذكر عتيق بن أحمد بن عبد الباقي اللورقي نسبة إلى لورقة Lorca بجنوب شرق الأندلس، والمولود سنة 516هـ/ 1122 م توفي بدمشق عن عمر يناهز مائة سنة عام 619هـ/1219م ودفن بمقابر الصوفية. ينظر : المصدر نفسه. ص: 222.

[3]- من المتصوفة الأندلسيين الذين قصدوا مصر نذكر محمد بن أحمد ابراهيم أبو عبد الله المولود بالأندلس سنة 544هـ/1150م، بقي فيها لمدة يتباحث مع آخرين وينشط في التعريف بطريقته. ينظر: الذهبي محمد بن أحمد شمس الدين، العبر في أخبار من غبر، ج: 4، تح: المنجد صلاح الدين، طبعة الكويت، 1963م. ص: 309.

أهله وهو طفل إلى مدينة إشبيلية سنة 568هـ/ 1173م، وبقي فيها مدة من الزمن[1]، قرأ خلالها القرآن على يد أبي بكر بن خلف، ودرس الحديث على يد عدة علماء[2]. وكنتيجة حتمية لظروف مرت عليه[3]، انكب ابن عربي على دراسة كتب المتصوفة وملازمتهم[4].

غادر ابن عربي اشبيلية سنة 598هـ/1202م، متوجها نحو مصر على عادة الكثير من أهل الأندلس، فتوقف فترة قصيرة بمدينة القاهرة، تألب عليه الفقهاء خلالها واتهموه بالخروج على الدين، لكنه لم يتأثر بذلك. غادر مصر قاصدا العراق، أين استقر في بغداد التقى خلال إقامته بالصوفي شهاب الدين السهروردي[5]؛ كما تتلمذ على يده عدد من المريدين.

خلال سنة 613هـ/1217م قصد مدينة حلب، حيث لقي فيها قبولا وترحيبا من حاكمها الملك الظاهر غازي الأيوبي بالمقابل تصدى له العلماء والفقهاء وشنوا ضده حربا ضروسا على إثرها غادر حلب قاصدا دمشق، حيث أقام فيها بصورة دائمة ضيفا على قاضيها ابن الزكي حتى وفاته سنة 638هـ/1241م.

خلف ابن عربي عدة مؤلفات من بينها: "مشاهد الأسرار" . "رسالة الأنوار" . "الفتوحات

---

[1]- خلال فترة إقامته بإشبيلية تزوج بمريم بنت محمد بن عبدون بن عبد الرحمان الباجي، وخلال هذه المحطة من حياته تغيرت أمورا كثيرة نتيجة ما كان تسمعه له زوجته من مواعظ، وما تلقنه من مثل في الزهد والورع.

[2]- عبد الحي ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج:5 ، طبعة بيروت، د ط، د س ط.. ص: 190.

[3]- لقد مر ابن عربي بظروف غيرت مجرى حياته من أهمها المرض الذي ألزمه الفراش فترة طويلة، خلالها رأى رؤى، تمثل له فيها عذاب جهنم. أيضا وفاة والده الذي كان قد أخبره بيوم وفاته قبل خمسة عشر يوما. كا هذه العوامل تجمعت لتدفعه إلى انتهاج طريق الزهد والتصوف.

[4]- مثال ذلك نذكر: الصوفي موسى بن عمران الميرتلي، الذي علمه كيف يتلقى الإلهام الإلاهي، وأبا عيد الله بن مجاهد، وأبا الحجاج الشيرتلي، وأبا عبد الله بن قسوم، هؤلاء دربوه على محاسبة النفس وكيف تكون. وقد قرن السماع على هؤلاء بالاعتكاف الطويل بين القبور يناجي أرواح الموتى. ينظر: جنثالث بالنثيا آنجل، تاريخ الفكر الإسلامي، تر: حسين مؤنس، د ب ن: طبعة مصر، د ط، 1955م. ص ص: 371، 372.

[5]- المقري، نفح الطيب، (المصدر السابق)،ج:2. ص: 361.

المكية"[1] . "الجمع والتفضيل في حقائق التنزيل" . "الجذوة المقتبسة والخطرة المختلسة" و"فصوص الحكم"[2]، هذا الأخير مثل مصدرا للحملة التي شنها عليه الكثير من الفقهاء والعلماء. أيضا من بين الذين اشتهروا في المجال نفسه نذكر المدعو ابن سبعين (ت 669 هـ/1270م)[3].

**4)– الطريقة الشاذلية في بلاد الأندلس** : كان العالم الإسلامي مفتوح الحدود، تجتازه قوافل التجارة وأفواج الرحالة والحجاج المسلمون القاصدون لبيت الله الحرام، ويجتازه طلاب العلم ذهابا وإيابا، فترى طرق البر والبحر مشغولة بنقل طلاب العلم من الأندلس وإفريقية إلى مصر والشام وإلى أصفهان وهمذان وبخارى وسمرقند وتراها مشغولة بنقل طلاب هذه المدن إلى صقلية وإلى القيروان وفاس ومراكش وإلى قرطبة وإشبيلية وبلنسية ومرسية وغرناطة في الأندلس.

فعمد هؤلاء الطلاب العلم على حمل الكثير من المظاهر الفكرية التي شاعت في بلاد المغرب الإسلامي، والمشرق على حد سواء؛ ومن بين أهم هذه المظاهر، نذكر نقل تعاليم الطرق الصوفية

---

[1]– يعتبرمن أهم كتب ابن عربي في التصوف التي تحتوي أكثر من 4000 صفحة؛ وقد اختصرها الشيخ عبد الوهاب بن أحمد الشعراني المتوفى سنة 973هـ/ وسماه لواقح الأنوار القدسية المنتقاة من الفتوحات المكية وفرغ في ذي الحجة سنة 960هـ/ ثم لخص ذلك التلخيص ثانيا وسماه الكبريت الأحمر.

[2]– هو كتاب يتكلم فيه مؤلفه ابن عربي عن الأسرار الإلهية الأكبر، ويعتبر من أبرز كتب التصوف الإسلامي التي تتكلم علي أسرار الأنبياء والرسل مبينة الحقائق الوجودية الثلاث :الله والكون والإنسان، وعلاقة الإنسان مع الكون ومع خالق الكون. وقد ذكر بعض المحققين مثل عبد الوهاب الشعراني صاحب الكتاب اليواقيت والجواهر أن كتاب الفصوص الحكم قد دس فيه المخالفون من الكلام فيه إلحاد بين مثل الاتحاد والحلول والوحدة المطلقة والشيخ برئ من هذا ودليل على هذا تنافر العقول والفطرة السليمة عند استماع مثل هذا الكفر والإلحاد والشيخ قائم على عقيدة الصوفية كما ذكر هذا في مقدمة آخر كتابه الغزوات المكية تحت عنوان عقيدة الشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي تعالي.

[3]– **ابن سبعين:** يعتبر من كبار متصوفة الأندلس. وقد تعددت آراء الناس فيه فوقره البعض وكفره البعض الآخر(25). وتجول في الأماكن نفسها التي مر بها ابن عربي من قبله، ومنهجه في التصوف لا يختلف عن منهج صاحب ''الفتوحات''. ولابن سبعين تسميات مخصوصات في كتبه وهي نوع من الرموز. وقد انتشر صيت ابن سبعين في أوربا في عصره، فذكره البابا وتحدث عنه حيث قال: ''إنه ليس للمسلمين اليوم أعلم بالله منه. ولما أراد فردريك الثاني صاحب صقلية استيضاح بعض المسائل الفلسفية، انتُدب ابن سبعين للرد عليها .جاء في الإحاطة: ''ولما وردت على سبتة المسائل الصقلية، وكانت جملة من المسائل الحكمية، وجهها علماء الروم تبكيتاً للمسلمين، انتدب إلى الجواب عنها، على فتى من سنه، وبديهة من فكرته. ينظر: ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، (المصدر السابق). ص: 34.

بكل من تحمله هذه الأخيرة من ايجابيات وسلبيات. ومن بين الطرق التي دخلت بلاد الأندلس نذكر الطريقة الشادلية.

*– **التعريف بالطريقة:** شاعت هذه الطريقة في بلاد المغرب الإسلامي، فكان لها مرديها من كل أقطاب المغرب . الأدنى والأوسط . ونظرا للتواصل الحضاري بين العوتين . الأندلس والمغرب . فقد انتقلت هذه الطريقة إلى الأندلس ناقلة معها كل ما تحمله من أفكار ومبادئ، على أن هذه الطريقة لم تكن هي الوحيدة التي دخلت بلاد الأندلس، ولكننا أردناها أن تكون نموذجا فقط للطرق الصوفية المنتشرة في المنطقة.

*– **التعريف بصاحب الطريقة:** تعتبر الطريقة الشادلية هي من أكثر الطرق الصوفية التي برزت في بلاد الأندلس، وتميزت عن غيرها من الطرق بتعدد فروعها. وانتشرت بشكل أساسي في كل من مصر وتونس والجزائر، وهي تعود في أصولها إلى "المشيشية"[1] المنبثقة عن "المدنية"، هذه الأخيرة تعتبر فرع من فروع القادرية الجنيدية، ف "شعيب بن الحسين الأندلسي"، المعروف بـ "أبي مدين" هو مؤسس مدرسة التصوف نقلا عن "عبد القادر الجيلاني" عن "أبي القاسم الجنيد"[2].

وصاحب الطريقة هو الشيخ "أبو الحسن علي بن عبد الله بن الجبار الشاذلي"؛ وكان هذا الأخير يأخذ زينته عند كل مسجد، فيتحلى دائما بالثياب الحسنة، ويعرض عن لبس زي الصوفية، كما كان يركب الخيل. من خلال ما ذكر يتضح أن "الشاذلي" لم يكن من المتصوفين الزهاد

[1] – **المشيشية:** هي طريقة تنسب إلى عبد السلام المشيشي المتوفى سنة 628هـ/1230م. من بين تلامذة أبي مدين شعيب، التي ظهرت في المغرب الأقصى أيام الدولة الموحدية. ينظر: المرجع نفسه. ص :515.

[2] – جلال شرف، المرجع السابق. ص ص 294، 295.

المتقشفين الذين عرفوا بالعزوف عن متطلبات الحياة إلى حد وصلوا فيه إلى الصيام ليلا ونهارا[1]. بل كان من المحبين لتجديد الأناقة ويعطي نفسه حقها في الترفيه، بدليل حبه لركوب الخيل والاحتفال في المواسم وقد تخرج على يده جماعة من كبار العلماء والشيوخ من أبرزهم: "أبا العباس المرسي" الذي قال عنه "الشاذلي" عند وفاته "**إنه الخليفة من بعدي وسيكون له بينكم مقام عظيم وهو باب من أبواب الله سبحانه و تعالى**"[2].

*- **مبادؤها وأفكارها:** تتصف الطريقة الشاذلية بمجموعة من الأفكار والمبادئ، وتتسم بنهج معين يجعلها تختلف في أسلوبها عن غيرها من الطرق الصوفية، ويمكن إبراز هذه النقاط في ما يلي:

تقوم الشاذلية على الرحلة الفكرية والتأمل المستمر في وحدانية الله، وعلى الهيام في الأرض بحثا عن الطهارة والتسامي، وإهمال الذات وقمعها في سبيل الله، وعلى القيام بالصلوات والواجبات الشرعية في كل الظروف لكي يعيش المريد في وحدة دائمة مع الله، كما أنها لا تؤمن بالخلوة وبالممارسات، بل تهتم بالعلم الروحاني، ومذهبهم في ذلك هو المساواة؛ كما وقفوا موقف المعارض فيما يخص التطور الاجتماعي برفضهم لقبول الوظائف الإدارية[3].

وأتباع الطريقة الشاذلية يقرون بأن أبا الحسن الشاذلي هو من نسل الإمام "علي" رضي الله عنه؛ إذ له سلسلتان إحداهما سلسلة الورد وتبدأ بالشاذلي نفسه، ثم بـ "عبد السلام بن مشيش"، وتنتهي

---

[1]- لقد شارك في موقعة المنصورة بين المسلمين بزعامة الظاهر بيبرس والفرنجة بزعامة لويس التاسع ملك فرنسا "رغم أنه كان مسنا وقد كف بصره إلا أنه كان في مقدمة المجاهدين. ينظر: العقبي، المرجع السابق، ص:152.

[2]- محمد مصطفى عبد القادر، الطريقة الشاذلية، الموقع الإلكتروني:/ htt://www.alsoufia.com، بتاريخ: 2010/12/16م، بتوقيت: 15.30 سا

[3]- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج 4، ص:68.

بالإمام "علي" رضي الله عنه[1].

من مبادئهم الغلو في شخص "الشاذلي" وأتباعه المقربين، حتى أوصلوا بعضهم إلى "مرتبة الربوبية"، فقد قالوا أن "مقام "الشاذلي" عند العرش"، وأن "الله كلمه في جبل زغوان، الذي اعتكف فيه، وزعموا أنه ما من كائن أو ولي الله إلاّ أطلع الله شيخهم أبا العباس المرسي عليه وعلى اسمه ونسبه وكم حظه من الله"[2].

ومن بين "كرماتهم" "أن الذين يتبعون هذه الطريقة لا يدخلون النار"،[3] هذا وقد نسبوا إلى شيخهم الشاذلي زعمات تفوق الخيال، مثال ذلك ما ذكر حين منع حاكم تونس من الخروج منها على أعقاب الشكوى التي قدمها كبير قضاة تونس، حيث احتراق بيت الحاكم دون أن يشعر؛ كما زعموا أنهم أعطوا ثلاثا لم تحصل لمن قبلهم ولا لمن بعده[4]: أنهم مختارون في اللوح المحفوظ. وأن المجذوب منهم يرجع إلى الصحو. كما أن القطب منهم إلى يوم القيامة.

من خلال ما ذكر أعلاه فإن هذه الطريقة غلت كثيرا في ما ذهبت فيه من معتقدات، وبتالي أبطلت نفسها بنفسها نظرا لمخالفاتها لنصوص الشريعة الإسلامية في كتاب الله وسنة رسوله . صلى الله عليه وسلم.

***– كيفية الانتساب إلى الطريقة وأذكارها:** إن الانتساب للطريقة الشاذلية لا يتم إلا بالأخذ بمجموعة من الشروط الأساسية، والتقيد بها وهي كالتالي:

---

[1]– أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص:68.

[2]-Octave Depont Xavier Coppolani, Les confréries religieuses musulmanes, Alger 1897. P: 444.

[3]– العقبي، المرجع السابق. ص:153.

[4]– محمد العربي، فرق ومذاهب – الطريقة الشاذلية –، مجلة الراصد، ع:42، ذي الحجة 1427هـ، الموقع الإلكتروني: htt://www.alrased.net/ بتاريخ: 2010/07/25م، بتوقيت: 17.00سا.

-تقوى الله في السر والعلانية، إتباع السنة في الأقوال والأفعال، ثم الإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار، والرضا بالقليل والكثير، والرجوع إلى الله تعالى في السراء والضراء[1]. ثم الأخذ بمجموعة أقسام هي: أخذ المصافحة التلقين والذكر، ولبس الخرقة الخاصة بهم، تلقي الرواية أي قراءة كتبهم من غير حل لمعاينتها، أخذ دراية أي حل كتبهم لإدراك معانيها من غير عمل بها[2].

- يلتزم أتباع الشاذلية بطريقة معينة للذكر وهي الاستغفار (استغفر الله) مئة مرة، والصلاة على الرسول - صلى الله عليه وسلم- مئة مرة ( اللهم صلي على سيدنا محمد النبي الأمي)، والذكر كل صباح ومساء؛ بالإضافة إلى حضور "الحضرة" مرة في الأسبوع على الأقل، وزيارة المقدم والحديث إليه مرة في الشهر على الأقل، ثم التوبة الدائمة، وطلب الغفران من الله، والرجوع إليه بكرة وعشية[3].

ومقارنة مع معتقداتهم في تقديس الشيخ مع أذكارهم والقواعد التي يجب على المريد الالتزام بها فنجد أن هناك تناقض كبير بينهما ولا يمكن أن يجتمعا الأمرين في آن واحد.

## - المبحث الثاني: التصوف الإسلامي في إسبانيا ما بين سر والعلن

لقد عمدت السلطات الإسبانية على قمع كل الحريات سواء كانت فكرية أو دينية أو حتى ابداعية، محاولة من خلال هذه الاستراتيجية مسخ معالم الهوية الإسلامية التي ظلت صامدة في بلاد الأندلس لمدة أكثر من ثماني قرون. مع هذا قاوم المسلمون بالمنطقة مقاومة شديدة وصمدوا في وجه أي محاولة للاندماج في البيئة النصرانية الكاثوليكية المعادية.

---

[1]- محمد العربي، المرجع السابق.

[2]-Oppolani, Op Cit, p : 447.

[3]- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق. ص:69.

وظاهرة التصوف كغيرها من المظاهر الفكرية عانت من الحصار نفسه الذي عانى منه كل مقومات الشخصية الإسلامية؛ فقد هاجر معظم أعلام التصوف من بلاد الأندلس محاولين من خلال ذلك البحث عن فضاء، يمارسون فيه طقوسهم بكل حرية ودون خوف أو قلق. وبناء على ذلك فقلة المادة التاريخية ترجع إلى هذا السبب. كما أن اهتمام مسلمي اسبانيا بتسجيل كل ما يتعلق بركائز الدين الإسلامي جعلهم يغفلون عن التأليف في التصوف وكل ما يتعلق به.

ومع هذا سنحاول من خلال هذه الوقفة أن نرسم المعالم الكبرى لهذه الظاهرة، معترفين أنها تنقصها الكثير من المعطيات، التي إن وجدت فكانت ستكمل الحلقة الناقصة في مسار الفكر الديني الإسلامي في إسبانيا خلال القرنيين العاشر والحادي عشر هجريين الموافق لـ السادس والسابع عشر ميلاديين، نظرا لما تمثله ظاهرة التصوف من علاقة وطيدة مع الفكر الديني.

**1)– التصوف الإسلامي عامل تأثير وتأثر:** يعتبر التصوف ظاهرة إنسانية عامة، عرفتها الأمم والشعوب في الشرق والغرب قديما وحديثا، وهي ظاهرة روحية تهتم بتربية النفس وتزكيتها، وفق الأصول والقواعد المقررة في كل دين وملة، وبالتالي يعكس التصوف – بصورة أو أخرى – الخصائص المميزة لكل دين وملة، معبرا عن جوهر العقيدة وخصائصها.

والواقع أن التصوف كظاهرة روحية إنسانية، يحمل قاسما مشتركا على الأقل من حيث المظاهر والأهداف في مختلف الأديان السماوية والوضعية على السواء، ويمكن تلمس هذه المظاهر والأهداف في إطار الدراسات المقارنة كالتصوف المقارن، أو في مجال تاريخ الأفكار عند تناول التصوف كظاهرة في الأديان المختلفة كالإسلام والنصرانية مثلا.

ويتسم مفهوم التصوف في النصرانية بالعمومية، وربما يعود ذلك لعدم وجود لغة محددة للنصرانية ارتبط بها الكتاب المقدس يمكن أن تكون مرجعا يعود إليه الباحثون عند الاختلاف. فالتصوف في النصرانية ليست له صلة باللغة العربية، واللفظ – كما يرى الباحثون الغربيون – يعبر عنه باللغة الإنكليزية Mysticism وهي مشتقة من كلمة Myein الإغريقية وهي تعني تلقين مبادئ فن أو موضوع ما.

وتلاحظ الباحثة "كارين أرمسترونج" وجود علاقة ارتباط لغوي بين الكلمات الثلاث : " Myth" وتعني أسطورة و"Mysticism" وتعني التصوف و"Mystrey" وتعني الغموض واللغز والسر. وهي جميعا مشتقة من الفعل اليوناني"Musteion " والتي تعني غلق العينين أو الفم[1].

ومن هنا فالكلمات الثلاث مرتبطة بالظلمة "Darkness" والصمت Silence ". ومن هنا، استخدم لفظ «مستيسم» بأكثر من معنى، منها الثيوصوفي، أو التفسير المجازي للكتاب المقدس وغيرها من المعاني. وبالتالي فكل ما هو سر وتجاوز لحدود العقل أو خارق للعادة داخل في اسم التصوف.

ومن خلال نظرة شاملة على مفهوم التصوف الإسلامي والتصوف النصراني لغويا واصطلاحيا، نلاحظ ما يأتي:

– اختلاف الأصل الاشتقاقي للتصوف في كل من الديانتين، ما يعكس اختلاف المفهوم أيضا، وهو ما ينفي وجود علاقة التأثير والتأثر التي سادت لفترة طويلة في الدراسات الاستشراقية.

[1]– هنري برجسون، منبعا الاخلاق والدين، تر: سامي الدروبي عبد الدائم، مصر: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، د ط،1971. ص: 160.

– وجود فارق كبير وواضح بين مفهوم التصوف في الديانتين، على رغم وجود بعض أوجه الشبه في بعض النقاط تعود في الأساس للنزعة الإنسانية لظاهرة التصوف، وذلك مثل غلبة البكاء على الصوفية في الديانتين خوفا من الله وتوبة وندما على الذنوب. لكن بعض أوجه الاتفاق لا تعني أن التصوف الإسلامي متأثر في شكل أساسي وواضح بالتصوف النصراني كما ذهب لذلك لفيف من المستشرقين ومن سار على دربهم من الباحثين المسلمين[1].

ولعلنا أمام هذه المقارنة البسيطة قد أوقعنا أنفسنا في تناقض مع سيرد من معطيات تاريخية، إلا أنه ثمة تواصل واتفاق بين التصوف الإسلامي والنصراني في الأندلس سواء قبل أو بعد السقوط، ذلك أن عملية الاحتكاك المستمرة بين الثقافتين رصدت مجموعة من التفاعلات والتدخلات قد لا يمكن قياسها مع باقي مناطق العالم الإسلامي.

فهناك من متصوفة الأندلس الأوائل الذين تأثروا بالتصوف النصراني، ونالوا قدرا من الشهرة نذكر على سبيل المثال لا الحصر ابن عباد الرندي الذي كان صوفيا على الطريقة الشاذلية، قام بشرح كتاب الحكم لابن عطاء الله السكندري ويظهر أنه ترك أثرا واضحا في المصطلحات التي استعملها الصوفي النصراني المعروف بالقديس يوحنا وأتباعه المسمون بأهل النور، ومن دلائل ذلك استعمال الشاذلية وأهل النور لفظي «البسط» و"القبض» بمعنى النور والظلام، وكذلك زهد الفريقين في الكرامات.

أيضا ممن تركوا بصماتهم في هذا المجال نذكر محي الدين بن عربي صاحب نظرية وحدة

[1]– عادل الهوا، علم الاديان وبنية الفكر الاسلامي تر : عادل الهوا ، بيروت ، باريس ، منشورات عويدات، د.ط، 2005. ص: 139.

الوجود. فهو يرى أن العالم وجد قبل أن يخلق تماما كالأفكار التي تولد في ضمير الإنسان قبل تجسيدها. بمعنى آخر، أن الأشياء لم تخلق من العدم. ويرى أيضا أن الطبيعة هي المظهر الخارجي للذات الإلهية. أما الإنسان فهو العالم الصغير الذي تتحد في ذاته جميع صفات الله.

فوجود المخلوقات عنده عين وجود الخالق لا فرق بينهما من حيث الحقيقة. ومن هنا يتجلى بوضوح تأثير الأفلاطونية الحديثة والنصرانية في فلسفة ابن عربي الصوفية، والنظرية الأفلاطونية الحديثة انتقلت إلى الشرق بوساطة النصارى السريان[1]. وقد أثار عليه مذهبه في وحدة الوجود سخط الفقهاء المتشددين كما ثاروا على الحلاج من قبل.

كما هناك من المتصوفة الأندلسيين الذين أثروا في التصوف النصراني، وتركوا أثرا لا يمحى في تاريخ النصرانية، وهو ما يظهر جليا في كتابات رامي لك أو رايموند ليليو الصوفي النصراني الميورقي، الذي اعتمد على كتاب المسلمين، خصوصا ابن عربي، وتتجلى في كتابات ليوليو رقة ظاهرة للمسلمين تولدت من دون شك من مداومته على قراءة الكتب العربية، فقد كان يرمي إلى أن ينقل إلى النصرانية طائفة مما جرى عليه المسلمون من تقاليد دينية.

فقد دأب على استهلال رسائله باسم المسيح، لأن المسلمين يستهلون كتبهم باسم محمد، وقام بفصل الرجال عن النساء في الكنائس وهو يمتدح في المسلمين إخلاصهم لدينهم وأراد أن تتلى أسماء الله في الكنائس كما يرتل المسلمون القرآن في المساجد وهو يؤكد في كتابه «بلا نكرنا» أنه ألف كتاب «الصديق والمحبوب» على طريقة الصوفية، ولا يبعد أن يكون ألف على نهج ترجمان الأشواق

[1]- علي أحمد، الأندلسيون في بلاد الشام (قراءة في التاريخ من نهاية القرن الخامس حتى نهاية القرن التاسع)، دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، د ط، 2008. ص ص: 138. 141.

لابن عربي[1].

فمن بين الأسماء التي تركت بصماتها في عالم التصوف النصراني ندكر القديس بولوس و القديسة "تيريزا" والقديسة :كاترين دوسيين" والقديس "فرانسوا" هؤلاء أوقفوا جميعهم ما يملكون من نشاط على الدعوة للنصرانية[2]. ويجتاز الصوفية النصارى سلسلة من الحالات حتى يبلغوا المرحلة الالهية النهائية، وقد تختلف هذه الحالات باختلاف المتصوفين، إلا أنها متشابهة والطريق على كل حال واحدة ولو فرضنا أن المحطات مختلفة[3]. ومن بين أهم معتقداتهم:

– أن الاتحاد بالله مهما يكن وثيقا، فما لم يكن كلب لا يكون نهائيا و قد لا يبقى، فيما دلك اي مسافة بين الفكر و موضوع الفكر لان المشكلات التي كانت تقيس المسافة بل تكونها قد انهارت و قد لا يبقى انفصال اساسي [4].

– بين المحب و المحبوب: "فالله حاضر والفرح طافح لاحد له و لكن النفس حين تفرق في الله بالفكر وبالعاطفة فإن شيئا منها يبقى في الخارج، وهو إرادته وفعلها حينئذ إذا هي فعلت، يكون ناشئا عنها فقط ، فحياتها إذن لم تصبح الهبة بعد. وهي تعرف هذا ولذلك تقلق له قلقا غامضا وهذا الاضطراب به الراحة وهو الذي يميز ما نسميه بالصوفية الكاملة: و لعلها أبلغ شيء في الصوفية

[1]– عادل الهوا، المرجع السابق. ص: 140.

[2]– هنري برجسون، المرجع السابق. ص: 163.

[3]– المرجع نفسه. ص: 236.

[4]– التصوف النصراني هو الاتصال باللامتناهي أي الاتحاد بالرب Godhead التصوف هو الشعور بالوحدة مع الله، التصوف هو طلب معرفة الله دون وسيط والتكلم معه وجها لوجه، فالتصوف عندهم هو النزوع إلى المطلق أبديا بواسطة الرموز. وذلك من خلال حلول اللاهوت في الناسوت أي حلول الله في المسيح وبه يتم الخلاص.

النصرانية"[1].

وبهذا نلاحظ أن ظاهرة الاحتكاك الثقافي في بلاد الأندلس بين الإسلام والنصرانية سواء قبل أو بعد السقوط لعبت دورا مهما في افراز الكثير من التدخلات والتفاعلات فيما بينها، فكما تأثرت، أثرت في بعضها البعض، بغض النظر هل كان هذا التأثير إيجابي للطرفين أو سلبي. فظاهرة التصوف الإسلامي في بلاد الأندلس هي كذلك أترث وتأثرت بالتصوف النصراني.

**2)– ظاهرة التصوف ومدى تأثرها بحركة التنصير القسري:** حاولت السلطات الإسبانية الدينية والسياسية الضغط على مسلمي اسبانيا بشتى الوسائل الطرق والسبل لينسلخ من وجوده العربي والإسلامي وليندمج مكرها في وضع بيئي جديد، عقيدة وثقافة وتشكيلا اجتماعيا وممارسة للحياة وتاريخا – يكون الأندلس الذي صنع التاريخ والحضارة بذلك الزخم الذي تحتفظ بمشاهده كتب الثقافة والتاريخ، وبتلك الصورة المشرقة التي أبهرت الإنسانية – يكون الأندلس – قد وقف عند خط الوصول لتنتهي معالم تجربته الوجودية والحضارية على أرض الواقع.

ولئن غاب الأندلس كوضع واقعي في الأرض والإنسان، فإنه قد ظلت هذه الأندلس حاضرة في الكيان العربي والإسلامي ليستمر وجودها قائما كتجربة إنسانية وحضارية مثيرة، لاسيما في البيئة المغربية وهي الأقرب إلى الأندلس في المكان والزمان، والتي شاركتها ذلك الحضور المشرق وشاركتها صناعته.

لقد كان على هذه المناطق في النهاية أن تستقبل من بقي من هذا الإنسان الأندلسي الذي

[1]– هنري برجسون، المرجع السابق. ص: 247.

لفظته نكبة السقوط واغتاله هول التنصير ومحاكم التحقيق، وأن تحتفظ بالذكرى لتجربة الوجود الأندلسي في أبعادها المختلفة. وعلى هذا فماذا بقي من الأندلس وما هي الواجهات التي مثلت مشاهد الحضور الأندلسي واستمراريته في بيئة نصرانية أضحت غريبة عنه على امتداد التاريخ اللاحق لنكبة السقوط والضياع؟.

فقد انقسم المتصوفة في بلاد الأندلس إلى قسمين متباينين، انطلاقا من فهمهم وتطبيقهم لأساليب الزهد والتصوف. فتمثل رجال القسم الأول بأولئك الذين عرفوا بزهدهم ومرابطتهم في أمكنة متعددة، وانحصر نشاطهم في العبادة والورع والدعوة إلى تمثل السلف الصالح في الحياة، كالبساطة في العيش وقهر النفس.

أما القسم الثاني فإن التصوف عندهم غير ذلك، بحيث يمكن تسميته تصوفا فلسفيا خرج عن الحدود المعروفة لدى الفريق الأول إلى درجة توصل بعضهم إلى حد القول، بأن التصوف والزهد ضرب من الذوق يستطيع صاحبه من خلاله، أن يتعرف على كنه وحقيقة وجود الله عز وجل[1]، وبالتالي فليس بمقدور كل إنسان عمله أو التوصل إليه بطريق الممارسة والتدريب، وهذا الفريق لم يلاق أفراده القبول التام من طرف مجموعة العلماء والفقهاء، وذلك بعكس الفريق الأول الذي لاقى أفراده قبولا شعبيا ورسميا.

ونظرا للنهاية المأساوية التي آلت إليها المدن الأندلسية فنجد الكثير من المتصوفة هاجروا مدنهم متجهين إلى بلاد المغرب أو المشرق، أو حتى الحجاز، ليكونوا في مأمن من متابعات عمال

[1]- علي أحمد، الأندلسيون في بلاد الشام (قراءة في التاريخ من نهاية القرن الخامس حتى نهاية القرن التاسع)، دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، د ط، 2008. ص ص: 125، 126.

محاكم التحقيق، وحتى يتمتعوا أيضا بجانب من الحرية لممارسة طقوسهم ونشر مبادئ طريقتهم.

ومن بين الأسماء التي احتفظت لنا بعض المصادر والمراجع بهذا الخصوص . رغم شح المادة التاريخية حول الموضوع . نذكر: عبد الكريم الجيلي المتوفى سنة 832هـ/ 1492م، هذا الأخير كان من تلامذة ابن عربي، وعلى هذا الأساس ألف كتابا يشرح فيه مؤلف شيخه " الفتوحات المكية"، وسمى هذا الشرح بـ " الإنسان الكامل"[1].

أيضا نذكر المتصوف عتيق بن عبد الباقي اللوقي نسبة إلى لورقة، ومحمد بن أحمد ولي الدين الديباج المعروف بـ "المنفالوطي"، هذا الأخير هاجر إلى بلاد الشام واستقر بها؛ وكان يحفظ الكثير من أقوال ابن عربي، الذي لم يستطع أن يظهر شيئا منها، وإنما اقتصر على التلميح بها. كما نجد أيضا المدعو عبد الله ابن ميمون الإدريسي المتوفى سنة 917هـ/1512م، هاجر إلى بلاد الشام وهناك كتب عدة دفاعات كان منها "الرد في منكر الشيخ الأكبر"، بالإضافة إلى أنه قام باختصار تفسير الفتوحات المكية، الذي تصدى له عبد الكريم الجيلي[2].

على أن هذه النماذج لم تكن سوى بعض الحالات من تلك التي هاجرت من الأندلس باحثة لها عن وطن بديل علها تجد فيه ما افتقدته هناك من أمن وأمان وحرية العقيدة والدين. فلقد أجبرت الظروف التي سادت بلاد الأندلس الكثير من أبنائها إلى مغادرتها، لهذا فقد نجهل الكثير حول هذه الفئة التي لعبت دورا بارزا في مجال الفكر الديني بسلبياته وإيجابياته.

فقد عمد الأندلسيون إلى احترام هؤلاء المتصوفة فأطلقوا عليهم حينا " الدراويش" وأحيانا

---

[1]- علي أحمد، المرجع نفسه. ص: 144.

[2]- المرجع نفسه. ص: 144.

أخرى " أولياء الله الصالحين"، فأقاموا لهم زاوياهم التي تمتعت باحترام وتقديس كبيرين من طرف الأندلسيين؛ هذه الزوايا أطلق "رابطات" مفرد "رابطة".

فكان يوجد في كل حي صغير "رابطة" أين كان يقيم المرابط وبعد وفاته يدفن فيه ويحاط بضريح يزار ليتبرك الزوار بكراماته . على زعمهم .؛ وكانت هذه الأبنية في الغالب قبابا على مبعدة من الشارع. وقد بقي واحد من هذه الأبنية ذات الضريح خارج أسوار مدينة غرناطة، وهو بناء صغير، يعود تاريخه إلى القرن العاشر هجري الموافق للقرن الخامس عشر ميلادي.

كان لهذا البناء قبة ذات ستة عشر جانبا تستند على أربع دعامات، وتتفرع الأضلاع منها على شكل أشعة تصدر عن نجمة في أعلى الطاق[1]. مثل هذه الأبنية كانت بسيطة تخلو من الزخرفة وتشبه إلى حد كبير مثيلاتها في دول المغرب. أيضا في السياق نفسه نذكر رابطة باب البيرة الواقعة داخل الأسوار، كما كانت هناك رابطات داخل المقبرة هي رابطة القصار ورابطة القلقة ورابطة الحورة على اسم الشجرة المعروفة.

ومن النماذج التي احتفظت لنا بها بعض المراجع التاريخية حول مكانة " الدرويش" في نفوس المسلمين الأندلسيين قصة ذلك الشيخ الدرويش رأى رؤيا تنبئ بسقوط غرناطة. وقصة هذه النبوءة تبدأ عندما سارع الأعيان والنبلاء إلى قصر الحمراء لتهنئة السلطان على انتصار جيشه[2] واقتحامه

[1]-Leopoldo Torres Balbitas, Hispano muslmanas, « Al Andalus », Vol : 13, 1948, PP : 475, 477 .

[2]- انتزع القشتاليون الحصن من يد أبي الحسن، لكن هذا الأخير باغته واسترجعه في ديسمبر من سنة 1481م، وقضى على كل الحامية القشتالية التي كانت متمركزة فيه.

قلعة الصخرة "Zahra"[1]عندها دخل عليهم الشيخ[2] وقطع عليهم مجلسهم قائلا [3]:" **ويل لنا لقد دنت ساعتك يا غرناطة ولسوف تسقط أنقاض الصخرة على رؤوسنا وإن هاتفا ليهتف في نفسي بأنّ نهاية دولة الإسلام في الأندلس قد حلت**".

رددت قاعة الحمراء صدى صوت الشيخ وبعثت قشعريرة في نفوس رجال البلاط، وساد مجلس السلطان صمت عميق؛ ولكن الملك ظل محتفظا بهدوئه ونظر إلى الرجل الواقف أمامه نظرة احتقار، ووصف نبوءته بأنّها أقوال رجل معتوه.

اندفع الشيخ خارجا من القاعة، وهبط إلى غرناطة وأخذ يتجول في شوارع المدينة وميادينها، معلنا بصوت مؤثر: "**لقد اخترقت الهدنة وبدأت حرب الإبادة، ويل لغرناطة، ويل لها، لقد آن الأوان لسقوطها؛ سيحل الخراب والدمار بقصورها، وسيسقط فرسانها تحت نصال السيوف وسوف يقتاد أطفالها وفتيانها في طريق الأسر والعبودية، والصخرة ضريرة غرناطة**". صدق السكان أقوال الشيخ فاستولى الرعب على نفوسهم، وتحصنوا ببيوتهم؛ ذلك أنهم كانوا يعتقدون بأنه قد أوحي بهذه النبوءة إلى الشيخ الذي كان معروفا بينهم باسم "الدرويش".

من خلال هذه القصة نستنتج مدى تأثر سكان غرناطة بكلام الشيخ الدرويش الذي تنبأ لسقط آخر معاقل الإسلام في بلاد الأندلس، على أن هذه نبوءته قد صدقت، هذا إن حقا كانت هذه الوراية التاريخية حقيقية.

---

[1]- **قلعة الصخرة**: قاعدة حصينة على حدود الأندلس الغربية تقع في شمال مدينة رندة.

[2]- كان هذا الرجل من الزهاد، قضى معظم حياته في الصلاة والصيام والتأمل حتى وصل درجة من النقاوة والصفاء الروحي، فاكتسب بذلك فراسة وحكمة كبيرة.

[3]- ايرقينج واشنطون، المرجع السابق، ص: 32.

وبهذا حاولنا من خلال هذه الوقفة التاريخية حول تطور الفكر الصوفي في بلاد الأندلس أن نعطي صورة ولو تقريبية لخصوصيات ومميزات هذا الفكر؛ على أننا نستطيع القول بأنه لم نوفق في إثراء هذه الجزئية بمادة تاريخية كانت كفيلة بإزالة الغموض حول نقاط كثيرة، وهذا كما ذكرناه سابقا لم يكن تهاونا منا، ولكن لشح المادة التاريخية حول هذا الموضوع خاصة فيما يخص الفترة التي تلت سقوط غرناطة. على أمل أن تظهر دراسات مستقبلية تعالج هذا الموضوع من مصادره الأولية، التي لم نوفق للحصول عليها.

# الفصل الرابع: التنظيم الإسلامي في اسبانيا الكاثوليكية بين الحقيقة التاريخية والأسطورة

## المبحث الأول: الأسرة المسلمة في اسبانيا

1)_ دور الأب في تنشئة أبنائه على تعاليم الدين الإسلامي

2)_ المقاومة الايديولوجية والمسلحة للمرأة المسلمة في اسبانيا

3)_ الطفل والازدواجية الدينية

## المبحث الثاني: نظام الجماعة ودوره في تحقيق الوحدة بين مسلمي اسبانيا

1)_ مساعي التنظيم إلى تحقيق التوازن النفسي والديني وسط بيئة معادية

2)_ الفقهاء حراس لضمير الجماعة المسلمة في اسبانيا

## المبحث الثالث: الأخلاق وأثرها في تكوين الشخصية الإسلامية في اسبانيا

1)_ خلق الصبر

2)_ قانون الصمت وانعدام الثقة بين الطرفين

3)_ التضامن الاجتماعي ووحدة القرار والموقف

## المبحث الرابع: العادات والتقاليد عنوان للهوية الأندلسية الإسلامية

1)_ الطعام في الثقافة الأندلسية الإسلامية

2)_ اللباس الأندلسي

لقد صارع مسلمو اسبانيا مصيرهم بإسبانيا، وعاشوا لسنوات عديدة تحت وطأة جهاز القمع الإسباني (محاكم التحقيق)، لكنهم لم يستسلموا قط لمصيرهم المحتوم بل ظلوا، إلى آخر لحظة من وجودهم بإسبانيا معتزين بتراثهم الحضاري يقاومون في سبيل المحافظة عليه.

فبعد قيام أبو عبد الله بالإمضاء على معاهدة الاستسلام عام 896هـ/1491م ودخول كل من فرناندو وإيزابيلا مدينة غرناطة في الثاني من يناير عام 897هـ/1492م، بدأت ظلال هذا التعايش الديني تتبدد على الرغم من تعهد ملكي اسبانيا باحترام وضمان حقوق الأقلية الإسلامية، مساجدها، شريعتها وحرية ممارسة الشعائر الدينية.

وبهذا صاحب سقوط غرناطة، سقوط النموذج الإسلامي، الذي سبق الإشارة إليه، بالمعنى الأشمل والأعم كنموذج حضاري، وبالتالي بدأت صفحة جديدة، حيث لم يدم التعايش السلمي فيها إلا فترة قصيرة من الزمن من سنة 897هـ/1492م وإلى غاية 900هـ/1499م، فمع نهاية هذه السنة دعا الكاردينال خمينس إلى ضرورة حشد كافة الطاقات لإجبار كل مسلمي اسبانيا للتحول إلى النصرانية عنوة.

إذ تعتبر سنة 902هـ/1501م أول تحول رسمي لفرض النصرانية، ليبدأ المؤرخون في استخدام كلمة جديدة (الموريسكيين) (Moriscos) لتحل محل (مدجنين)(Mudejares) وكلمة "موريسكي" تحقير لكلمة مورو، وقد أطلق هذا اللفظ بصفة عامة على مسلمي الأندلس؛ فالتعبير اللغوي في حد ذاته لم يستخدم لدلالته الدينية فحسب ولكن للإشارة إلى حضارة وثقافة مختلفة تماما من ثقافة النصارى.

بهذا بدأ موقف الكنيسة والعرش الإسباني تتبلور معالمه في الإعداد اعتبارا من عام 902هـ/ 1501م للقضاء النهائي على هؤلاء المسلمين، حيث تم إصدار مرسوم ملكي في 17 فبراير عام 903هـ/1502م في مملكة قشتالة ليخبر مدجني المملكة ما بين التحول إلى النصرانية، الهجرة، أو الموت.

وبما أن اسبانيا انقسمت إلى مجتمعين أساسيين: أحدهما عسكري والثاني كهنوتي، فكان من الطبيعي أن تستمر الكنيسة في دورها لنصرة العسكرية القشتالية أيام كارلوس الخامس وفيليب الثاني ولكنها اعترفت بفشلها على عهد فيليب الثالث، ولو أن مشروع الطرد النهائي كانت بدايته الفعلية أيام حكم فيليب الثاني، ولكم كان هناك أمل يراود رجال الكنيسة بتحقيق مساعيه في تنصير مسلمي اسبانيا، لهذا قررت تعطيل مشروع الطرد إلى وقت لاحق وليس إلغاءه نهائيا من مخططات الكنسية والسلطة الاسبانية.

وبهذا لعبت الكنيسة دورا حاسما في حشد طاقات الممالك الشمالية ضد الأندلس على مر قرون من الصراع بين النصرانية والإسلام، ولم يتوقف دورها فقط بعد سقوط غرناطة بل حصل انتقاله إلى العدوة في منتصف القرن الثالث عشر وبعده.

كما وضعت السلطات في قشتالة صعوبات كثيرة أمام هجرتهم، وبالتالي أصبح الخيار المتاح لهم يكمن ما بين الموت أو التحول إلى النصرانية. والمراسيم الملكية نفسها صدرت في إقليم فالنسيا عام 926هـ/1525م، ومملكة أراغون عام 927هـ/1526م وبالتالي فإن هؤلاء المضطهدين المنتشرين في اسبانيا شهدوا تحويلهم قسرا وقهرا إلى النصرانية ما بين (900–927هـ)/ (1499- 1526م)، لتشهد

بعد ذلك الأعوام التالية طردهم النهائي في الفترة الممتدة (1018-1015هـ)/(1609-1614م).

من خلال هذه الجزئية سنلقي الضوء على ذلك الجدل الديني العملي إن صح تسميته كذلك بين عامة مسلمي اسبانيا والنصارى الكاثوليك، لنثبت بأن هذا المجال من الصراع الفكري العملي لم يكن حكرا على الفقهاء والعلماء فقط وإنما أخذ طريقه حتى إلى عامة أفراد الجماعة المسلمة في اسبانيا ليكون وسيلة تحدي ومقاومة في وجه أي ظاهرة انسلاخ عن مقومات الشخصية الإسلامية. مع الأخذ بعين الاعتبار بأن مثل هذه المحاولة هي مجرد اجتهاد قد يحتاج مستقبلا إلى دراسات متخصصة تلقي الضوء على مثل هذه الممارسات التي من شأنها أن تسطر لمسيرة هذه الأمة الشهيدة في صراعها مع قوى الظلم والطغيان.

## - المبحث الأول: الجدل العقدي

اتخذت ظاهرة الجدل الديني في اسبانيا النصرانية الكاثوليكية خلال القرنيين العاشر والحادي عشر هجريين الموافق للقرنيين السادس والسابع عشر ميلاديين أشكالا مختلفة وعلى مستوى شتى الأصعدة، فمنه ما كان على شكل جدل عملي يومي، ومنه ما كان على شكل جدل علمي قائم على حجج وأدلة دامغة. ومن بين أشكال الجدل الديني الذي كان يترجم على ذلك الصراع الفكري بين أتباع ديانتين مختلفتين كل واحدة تحاول اثبات مشروعية رسالتها نذكر الجدل العقدي، الذي يشكل نبظ الدين وركنه الأساس.

**1)- الإسلام مقابل النصرانية:** إن البحث حول اعتناق المسلمين للنصرانية مرتبط بمحيطهم الفكري وتصورهم أيضا للمحيط الفكري للمبشرين، إن هذا العقد يمثل الحد الأدنى من التفاهم الذي

يربط بين طرفي قناة الاتصال لتبليغ المعرفة والتي يمكن إبرامه؛ ولهذا فإن فشل عملية التنصير لا يمكن أن يفاجئ المتتبع والدارس لهذا الملف.

فقد جدت مصطلحات جديدة في ساحة العلاقات الاجتماعية مثل: "مسيحي جديد"، أو "موريسكي"[1]، هذه المصطلح الأخير لم يستعمل قبل عام 901هـ/1500م[2]؛ حيث بدا حينذاك التنصير الجماعي للمسلمين. لكن هذا لم يحدث إلا نتيجة نهائية لمرحلة طويلة تطور خلالها الوضع السياسي للأشخاص أنفسهم (المسلمين) من مسلم إلى مدجن، ثم إلى "موريسكي".

وعلى الرغم من ذلك تعتبر السنوات العشر التالية ما بين 901هـ و 911هـ/ 1500 و1510م هي السنوات التي عاصرت تغيرا جذريا في طريقة إدراك المشكل وتصوره؛ حيث ترجم ذلك في شكل مجموعة من الأوامر الملكية التي صدرت ابتداء من عام 912هـ/1511م[3]. فقد فشلت حملات التنصير فشلا ذريعا وثبت خطأ اعتقاد أن المسلمين غير القابلين للتنصير قد رحلوا جماعات، وأنه قد بقى فقط في مملكة غرناطة إلا أولئك الذين مالوا إلى تقبل النصرانية الكاثوليكية بسرعة، وأدركت السلطات أن الإسلام إلى جانب أنه من المستحيل استئصاله، يبدو في الظاهر أنه قد قلل من أهميتها في البداية.

ومن ناحية أخرى كان أكثر مسلمي اسبانيا يعتقدون أنهم بمجرد تعميدهم سيتركون وشأنهم بسلام، لكن الإجراءات التي اتخذت في الفترة الممتدة بين 901 و902هـ/1500و1502م أظهرت أنهم كانوا على خطأ كبير؛ فالخروج الجماعي لمسلمي اسبانيا ورحيلهم عن البلاد في تلك الفترة يعبر عن

---

[1]- دومينغ يثأورتيث وبرنارد فينسيت، المرجع السابق, ص: 24.

[2]- مرثيدس غارثيا، المرجع السابق. ص: 21.

[3]- دون باسكوال بورونات، المصدر السابق. ص: 118.

خيبة الأمل التي عانوها، وكذلك عن عمق جذور الثقافة الإسلامية والإيمان، كما يعبر عن عدم إمكانية الجمع بين ثقافتين في شخصية واحدة.

أمام هذه التطورات الخطيرة واصل مسلمو اسبانيا المقاومة والتصدي لهذه القرارات الزجرية بشتى الوسائل والطرق، ولما رأى أسقف بلنسية أن الملك والدوق لم يتخذا أي قرار عملي فوري لتهجيرهم، بعث بتقريرين جديدين إلى البابا يوضح فيهما خطرهم على البلاد، وتزايد حركتهم؛ واقترح عليه ضرورة تطبيق قرار الطرد.

الأمر نفسه أيده الطرف الإسباني بدليل هذا النص التاريخي الذي ورد فيه ما يلي:[1]:"... **بقيامهم علينا مرارا وقتلهم أكابر مملكتنا والقسيسين والرهبان الذين كانوا بين ظهرينا. وقطعهم لحومهم وتمزيق أعضائهم. مع عدم توبتهم مما فعلوه وعدم رجوعهم رجوعا صالحا من قلوبهم لدين النصرانية وأنه لم ينفع فيهم وصايا ولا وصايا أجدادنا الملوك ولا من سلف منا .....**"

كما اعترف أسقف بلنسية بأنه فشل في مهمته، حينما حاول منذ سنتين تنصير مسلمي المنطقة بحسن المعاملة، وعلى ضوء ذلك طلب من الملك ومن رئيس وزارئه الدوق ليرما (Lerma) تهجيرهم من المملكة، إلا أن أصدر البابا باولو الخامس (Paulo 5) عفوا عاما لمدة سنة. وأخبره في الوقت نفسه أن هذه آخر فرصة لهم، وإلا اتخذ في شأنهم الإجراءات الزجرية الحاسمة.

وبهذا فشلت سياسة الإدماج رغم جميع المحاولات التي قامت بها السلطات الإسبانية، فقد كتب الملك يقول في هذه الديباجة:«... **إنكم لعلى علم بمحاولاتي، مدة سنين طويلة لتنصير**

[1]-Mercedes Garcia, Op. Cit. P P : 251

**موريسكي هذه المملكة (بلنسبة) وكذلك موريسكي قشتالة، وبإصداري أوامر العفو منة مني عليهم، وبمساعي لتفقيههم في ديانتنا المقدسة، وبالنتائج الهزيلة المحصل عليها، إذ من الواضح أنه لم ينتصر أحد، بل على العكس لم يزدد إصدارهم إلا حدة...»**[1].

إذن من خلال هذه النصوص التاريخية لم يكن هدف فيليب الثالث عند اعتلائه لعرش إسبانيا النصرانية تهجير المسلمين، بل كان قراره يدعو إلى تنصيرهم بشكل عام وسريع، لكن العملية لم تمر بالشكل الذي أراده الأساقفة فقد أعلن المحقق العام لمحاكم التحقيق أنه لم يعتنق النصرانية طواعية إلا ثلاثة وثمانين مسلما[2].

الأمر نفسه أكدته بعض المصادر الأندلسية، من بينها ما دونه الشهاب الحجري في الرسالة التي كتبها إلى سلطان المغرب الأقصى مولاي زيدان، من بين ما جاء فيها نذكر ما نصه[3]:"... **قد علمت ما صنع وعمل مع النصارى الجدود (كذا) الأندلس (كذا) أهل تلك السلطنة وقشتالة على طول السنين الكثيرة الماضية من التحريض والإرشاد لإثباتهم في ديننا المجيد وإيماننا ولا نفع معهم قليلا ولا كثيرا، لأنه لم يجد فيها واحدا من هو نصراني حقيقة..."**

في السياق نفسه كتب ابن عبد الرفيع في هذا الموضوع فقال:"... **والتجربة أظهرت لنا عيانا**

---

[1]-Bertant François, Journal du voyage d'Espagne, Re His, Vol xxx, 1914. P: 225.

[2]- محمد رزوق أحمد، التجربة الأندلسية الموريسكية محاولة فحص من الداخل، ضمن أعمال السجل العلمي للندوة الموسومة بـ: الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات، قس:2، (الموريسكيون، الكتابات، الاستشراقية، الجغرافية والرحالات)، الرياض: مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ط:1، 1417هـ/1996م. ص : 11.

[3]- المصدر السايق. ص: 111.

**أن الأندلس (كذا) الذين هم متولدون من الذين دمروا مملكتنا فيما مضى بقيامهم علينا مرارا وقتلهم أكابر مملكتنا والقسيسين والرهبان الذين كانوا بين ظهرانيهم وقطعهم لحومهم وتمزيق أعضائهم... مع عدم توبتهم مما فعلوا وعدم رجوعهم رجوعا صالحا من قلوبهم لدين النصرانية وأنه لم ينفع فيهم وصايانا ولا وصايا أجدادنا الملوك ولا من سلف منا..."** [1]

كل هذه النصوص التاريخية تؤكد أمرا واحدا وهو رفض مسلمي اسبانيا اعتناق النصرانية رغم كل الإجراءات التعسفية، والتنكيل والاضطهاد الذي مورس عليهم؛ وبهذا تأكد أمام كل متتبع لمسيرة هذه الأمة الشهيدة أنها صمدت أمام كل الظروف القاسية محاولة قدر الإمكان المحافظة على مقومات شخصيتها الإسلامية.

انطلاقا من فشل مشروع التنصير القسري عمدت الكنيسة إلى ترويج فكرة أساسها، أن أسباب هذه الهزائم هو وجود عناصر في اسبانيا تدعي النصرانية جهرا وتضمر الإسلام سرا؛ وأن وجود مثل هؤلاء سبب الغضب الإلاهي على اسبانيا؛ فشاعت العبارة القائلة[2]: «**كيف يأمل المرء أن يهدي إلى طريق السيد المسيح شعبا عنيدا قاوم التبشير للنصرانية والاضطهاد قرنا كاملا، ومازال مخلصا لقرآنه كإخلاص العرب في إفريقيا؟.**

فرجال الدين الذين أنيطت بهم مهمة تعليم مسلمي إسبانيا مبادئ الكاثوليكية، كانوا يعلمون تمام المعرفة أن هؤلاء، وإن مارسوا طقوس النصرانية علنا وظاهرا، فإن هذه الممارسة لم تكن أكثر من

[1]- ابن عبد الرفيع، المصدر السابق. ص: 331.

[2]-Bertant François, Op.Cit. P : 226.

مراءاة يوحيها لهم الخوف من ملاحقات محاكم التحقيق[1].

بالرغم من هذا وذاك فقد وجدت السلطات الاسبانية صعوبة في إدماج كل مسلمي إسبانيا وتنصيرهم، فقد امتنع الكثير منهم عن ذلك بشهادة المقري الذي كتب حول الموضوع يقول[2]:"... **وامتنع قوم عن التنصير واعتزلوا النصارى فلم ينفعهم ذلك وامتنعت قرى وأماكن منها بلفيق وأندلس وغيرهما...**"

هذا ما أكده شهاب الحجري أثناء تواجده بهولندا إذ كتب بهذا الصدد ما هو نصه[3]: "... **أعلم أن الأندلس كانوا مسلمين في خفاء من النصارى، ولكن تارة يظهر عليهم الإسلام، ويحكمون فيهم ولما تحقق منهم ذلك لم يأمن فيهم...**"

فقد ارتبط فشل مشروع التنصير مباشرة بمسألتين مهمتين؛ أما الأولى فهي مرتبطة بما يسمى في الفكر الديني بمعرفة "الحقيقة" الموجودة في النصوص الدينية، فقد أوكل إلى رجال الدين مهمة تقديم "الحقيقة" إلى مسلمي اسبانيا والتحول من "اللامعرفة" إلى "المعرفة"، ويمكن وصف الخطاب الروائي الذي انجر عن هذه العملية التحول من قيم إلى قيم أخرى غير مشابهة للأولى. الأمر الذي تطلب تقسيمها أولا بالذات.

فمن شروط تحول مسلمي اسبانيا واعتناقهم للنصرانية الكاثوليكية، اقتناع هؤلاء بحجج

---

[1]- ما يثبت ذلك أنه حين كان يقصد هؤلاء الكنيسة في عيد الفصح للاعتراف فإنه كان يقدم نفسه بطريقة عالية الانتظام، ولكنه لا يعترف بارتكاب أية ذنوب؛ ولم يعرف على المسلمين أنهم توجهوا إلى القساوسة يطلبون منهم المساعدة حين يمرض أحدهم خوفا من حضور القساوسة بصفتهم الرسمية.

[2]- نفح الطيب، (المصدر السابق)، ج: 2. ص: 617.

[3]- المصدر السابق. ص: 109.

المبشرين، إلا أن اعتقاد الحقيقة من طرف المبشر لا يكفي لنقل الحقيقة ( وهي تحول من اللامعرفة إلى المعرفة)، إذ ينبغي توفير حد أدنى من التفاهم الضمني بين الطرفين حتى يبرم عقد يحدد بموجبه نظام قيم يكون مرجعا لتقييم المعرفة التي سيقع تلقينها، والعمليات المؤدية لها؛ ويرتبط حسن استخدام هذا العقد في نهاية الأمر بمدى حكم المسلم على الخطاب الذي يتلقاه والذي يفسره حسب أصالته.

من هنا يعتبر البحث في موضوع اعتناق المسلمين للنصرانية الكاثوليكية مرتبط بمحيطهم الفكري وتصورهم أيضا للمحيط الفكري للمبشرين، إن هذا العقد يمثل الحد الأدنى من التفاهم الذي يربط بين طرفي قناة الاتصال لتبليغ المعرفة والتي يمكن إبرامه؛ ولهذا فإن فشل عملية التنصير لا يمكن أن يفاجئ المتتبع والدارس لهذا الملف.

أما المسألة الثانية فارتبطت بمدى قناعة مسلمي إسبانيا بمبادئ الدين الإسلامي التي نشؤوا عليها، ومدى الاختلاف الجوهري بين النصرانية الصحيحة والنصرانية التي يدعون لها، فكيف إذا حاولنا مقارنتها بالدين الإسلامي.

أمام هذه المعطيات اتضح الرفض القاطع والنهائي من طرف مسلمي اسبانيا لتبني العقيدة النصرانية، بالرغم من كل الضغوط والمتابعات التي لحقتهم من عمال محاكم التحقيق، التي كانت نتيجتها، إما الإعدام حرقا، أو الرمي بهم في السجون؛ ولكن مع هذا وذاك فضلوا البقاء على الدين الإسلامي لقناعتهم الصادقة والتي لا ينتابها أدنى شك أنه الدين الحق. وبهذا من خلال جدلهم مع النصارى حول الدين الإسلامي اتضح مدى حبهم وتمسكهم به.

في ظل معتقدات النصارى بين الإفراط والتفريط، جاء الإسلام بالقول الحق الوسط، الذي لا

إفراط فيه ولا تفريط، جاء بالمعتقد الصحيح السليم، الذي تقره الفطرة النقية والنفوس الزكية، العقول الرشيدة، ولا تقبل غيره. فالإسلام قد جاء بالقول الفصل، وهو: أن المسيح عيسى عليه السلام هو عبد الله ورسوله، وأن السيدة مريم العذراء (والدة المسيح) هي الطاهرة العفيفة، وأن حملها بالمسيح عليه السلام، كان بكلمة من الله تعالى (كن فيكون)، وفقا لعلمه وحكمته سبحانه وتعالى وإرادته ومشيئته، فكما خلق سبحانه وتعالى آدم من غير أب ولا أم، فقد شاء سبحانه وتعالى أن تكون ولادة المسيح من غير أب.

ولقد جاء الإسلام بأن ميلاد المسيح عليه السلام، كان ميلادا معجزا، مؤيدا بكلامه (المسيح) في المهد، تبرءة لأُمه مما قد نسبته اليهود إليها، وتمهيدا لرسالته. وأن الله تعالى قد رفع المسيح عليه السلام إلى السماء، وحال بين صلبه وقتله من أعداءه، ومن ثم فإن الإسلام قد جاء نافيا تماما الادعاء الذي تزعمه النصرانية، في إهانته وصلبه وتعذيبه وقتله، تكفيرا لذنوب البشر، حيث إن مثل ذلك المعتقد إنما هو من أحط مراتب الكفر، وسب عظيم للذكاء الإنساني.

**2)– عقيدة التوحيد ونفي التثليث**: يتنافى الشعور الإسلامي بوحدانية الله، مع عقيدة التثليث وفكرة أن عيسى عليه السلام إبنا للرب. فبالنسبة لهم عيسى عليه السلام كان نبيا مرسلا من عند الله تعالى، لكنه لم يكن ربا ولا إبنا لله. فقد ورد في بعض محاضر التحقيق التي حكمت في قضية مسلم افتتضح أمره وهو يناقش زوجته حول قضية التثليث التي يدعي بها الاسبان فجاء على لسانه ما هو نصه: "**كان يسوع نبيا وليس ربا، فكيف يكون ربا و يقتله أحقر الناس**"[1].

[1]– مرثيديس غارثيا أرينال، المرجع السابق. ص: 63.

الموقف نفسه أكده مسلم آخر في هذا الرد عمن قال: "**إن الله قد مات من أجلنا فأجابه قائلا: "أن الله في السماء إثبات لعقيدة أهل السنة والجماعة في مسألة علو الله عن خلقه ودحض لاعتقاد وحدة الوجود والاتحاد**"[1]. وبهذا فنجد أن هذا المسلم قد أجاب بفطرته في الوقت الذي ضل في هذه المسألة كبار أقانيم أهل الكلام فرحمهم الله من رجال ونساء دافعوا عن الإسلام وعقيدة التوحيد وسط جبروت النصارى وبطش محاكم التحقيق.

3)- **مصادر التشريع الإسلامي**: يتصل كل مصدر تشريع في الإسلام بصحيح النظر فيه إلى حكم شرعي عملي مطلقا. أي سواء أكان الاستنباط على سبيل القطع أم على سبيل الظن وهو رجحان أحد الاحتمالين على الآخر بدليل؛ فيصير الدليل قسمين: قطعي الدلالة، وظني الدلالة. والتشريع الإسلامي هو مجموعة الأنظمة التي شرعها الله تعالى للأمة الإسلامية في القرآن الكريم، أو في السنة النبوية، وكذلك باجتهادات الفقهاء، فما ثبت فيه نص شرعي يقال له: شريعة، وما تقرر بالاجتهاد في ضوء النص يقال له: فقه.

**أ)- القرآن الكريم مقابل الإنجيل المحرف**: لاشك أن المناعة الذاتية الجبارة التي أسس لها القرآن الكريم في المسلمين قد حالت بينهم وبين الاندحار الحضاري أو السقوط المادي أمام التكالب الأممي لجحافل التتار والصليبيين، وكذلك جعلت من إمكان تنصير المسلمين مرهونة بإبعادهم عن القرآن وصرف أنظارهم عنه، فقد حدد القرآن الكريم بوضوح وجلاء موقفه من الكتب السابقة، متمثلا في الهيمنة عليها، مصداقا لقوله سبحانه وتعالى في محكم تنزيله في سورة المائدة:

[1]- مرثيديس غارثيا أرينال، المرجع نفسه. ص: 64.

{وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [1]

كما بين سبحانه وتعالى أفضلية القرآن الكريم وكماله في قوله عز وجل:﴿ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [2]. وترجع أفضلية القرآن على غيره من الكتب إلى كماله من جهتين: أولاهما: تبيانه لكل شيء، قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[3]. والثانية إرشاده إلى غاية ما يصبو إليه الإنسان وما يحقق له كمال الدنيا والدين، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[4].

وقد كان موقف القرآن دقيقا من العهدين القديم والجديد، فكان بذلك جدارا صلبا أمام نجاح الفكر التنصيري أو ما يرتبط به من رؤى حضارية فى اختراق الحياة الروحية أو صمود العقيدة الإسلامية، مما دفع برواد العمل التنصيري إلى التساؤل بعد أربعة عشر قرنا من بدء الغارة التنصيرية [5] هل من الممكن حقا إقناع المسلم بأن النصارى لم يزوروا الكتاب المقدس؟ أو أنهم ليسوا مشركين؟ أو

---

[1]- سورة المائدة، الآية رقم: 48.

[2]- سورة الزمر، الآية رقم: 23.

[3]- سورة الأنعام، الآية رقم: 38.

[4]- سورة الإسراء، الآية رقم: 9.

[5]- تكمن أهمية هذا الدور من أدوار الجدل التنصيري ضد القرآن في أنه كان معبرا انتقلت خلاله الجدليات التنصيرية إلى الغرب. وأبرز الأمثلة على ذلك كتاب ( نقض الفقهاء Contrarietas elfolica ) لأحد النصارى الأسبان، الذي كان له تأثير بالغ في ريكولدو دي مونت كروس الحانق على الإسلام ، وقد أفاد كروس من هذا الكتاب في تصنيف أشهر كتبه ( تفنيد القرآن Canfutatia Alcorani ) الذي عُني به مارتن لوثر وسارع إلى ترجمته للألمانية عام 1542م. ينظر: قاسم السامرائي، المرجع السابق. ص: 61 .

أن المسيح هو أكثر من كونه ابن مريم كما هو مذكور في القرآن؟ أو أن صلب المسيح وبعثه قد تم فعلا؟.

فلما كان القرآن الكريم بهذه المنزلة لا جرم أن مسلمي اسبانيا على وجه الخصوص، والمسلمين عموما أقبلوا عليه ودافعوا عنه، واعتبروا أن كل عدوان على القرآن هو عدوانا عليهم، وأن النيل من القرآن الكريم هو نفسه النيل منهم، لذلك دافعوا عليه بكل ما أتوا من قوة، لأن الدفاع عنه – لكونه أصل الدين ومستقى العقيدة- هو السبيل الوحيد لحماية ايمانهم وإسلامهم، بل لأنها السبيل إلى الإيمان بأن الإسلام دين الله، وأن القرآن من عند الله لا من وضع أحد.

فمن خلال النصوص الواردة في الكثير من المخطوطات الألخميادية نجد إشارة إلى آية كريمة[1]، أو مجموعة من الآيات، اعتمد عليها مسلمو اسبانيا في أداء صلاتهم، ومعرفة أمور دينهم[2]. فقد حاولت السلطات الاسبانية بشتى الوسائل والسبل النيل من القرآن الكريم سواء بحرقه أو تحريفه أو تزييف ما ورد فيه من نصوص ربانية، إلا أن العناية الإلهية وحب وتمسك مسلمي اسبانيا به مكنوه من البقاء راسخا في اسبانيا النصرانية رغم كل الجهود المبذولة في جعل مسلمي اسبانيا يكفرون به ويؤمنون بالكتاب الذي ألفه النصارى وادعوا أنه منزل من عند الله سبحانه وتعالى.

**ب)– المذهب المالكي مقابل الكاثوليكية:** عرفت الأندلس سائر المذاهب الفقهية المعروفة كالمذهب الشافعي، ومذهب أهل الظاهر، فضلا عن عدد قليل الذين اعتنقوا مذهب أبي حنيفة، لكن كل هذه المذاهب لم تمثل قط منافسة حقيقية للمذهب المالكي الذي أطبق عليه الأندلسيون

[1]– مخطوط رقم: 9653، ورقة رقم: 135، نقلا من المقال :.

[2]-Chiroz Ben Hadj Ali, La lengua arab y los moriscos del escilio, P : 126.

حتى نهاية الوجود الإسلامي في هذه البلاد. والسؤال الذي يطرح نفسه ويحتاج إلى بحث منفرد للإجابة عليه هو: لماذا اعتنق الأندلسيون سابقا ومسلمو اسبانيا لاحقا المذهب المالكي وتعصبوا له، وظلوا مستمسكين به حتى في أوقات المحن التي تعرضوا لها أثناء محاكم التحقيق؟.

فقد انتشر المذهب المالكي في الأندلس حتى أصبح الغالب على أهله، ويرجع انتشاره إلى عدة عوامل ساهمت بشكل فعال في ذلك منها ما ارتبط بالعامل النفسي والاجتماعي[1]؛ ومنها ما ارتبط بالعامل الجغرافي[2]، ثم العامل السياسي[3]. وبقي مسلمو الأندلس أوفياء للمذهب المالكي حتى بعد سقوط غرناطة؛ فقد تمسك مسلمو اسبانيا بالمذهب المالكي لدرجة أن آخر كتابين فقهيين كتبا في المذهب المالكي[4]، كتبهما الفقيه عيسى بن جابر باللغة الإسبانية[5] يشرح فيهما أصول المذهب وقواعده لأولئك المسلمين الذين كانوا يقيمون في مملكة قشتالة التي كانت تدين بالكاثوليكية

---

[1]- لقد كان لشخصية الإمام مالك ابن أنس، بالغ التأثير في نفوس الناس عامة، ونفوس أهل الأندلس، ذلك لا يخفى على من يطالع ترجمته، فقد عرف عند الزهد والورع عن ما أبدى الخلق عامة، والولاة خاصة، كما عرف بالكرم ومحبة الناس، والتواضع والحرص على الخير، أما من الناحية الفقهية، فكان شديد التهيب من الفتون، وشديد التحري لما ينقله ويرويه من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، مع عرف عنه من توقير للصحابي. ينظر: الطاهر عمر نابي، أسباب انتشار المذهب المالكي في المغرب العربي، رسالة ماجستير، الجزائر: وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، رمضان 1428هـ/2007م. ص: 9.

[2]-العامل الجغرافي: ارتبط العالم الجغرافي إلى رحلة الأندلسيين إلى الحج والعمرة، ومرورهم بمكة والمدينة، وأيضا باتصالهم بسكان المغرب الإسلامي لعبت هذه الأخيرة دورا كبيرا في انتشار المذهب المالكي في الأندلس. وهو ما أشار إليه ابن خلدون في مقدمته بقوله "**وأما مالك رحمه الله تعالى فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس، وإن كان يوجد في غيرهم، إلا أنهم لم يقبلوا غيره إلا في القليل... وشيخهم يومئذ وإمامهم مالك، فرجع إليه أهل المغرب والأندلس، وقلدوه دون غيره ممن لم تصل إليهم طريقته**". بنظر: ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، (المصدر السابق). ص: 333.

[3]- التزم الخلفاء والحكام والقضاة، بتطبيق الأحكام ومبادئ المذهب المالكي، ويعتبر هذا العامل نتيجة لجهود المالكية المتراكمة وثمرة لما سبق، فقد كان لدور السلطان أثر في نشر المذهب المالكي، مما جعل ابن حزم يقرر بأن هناك مذهبان انتشر في بادئ أمرهما بالرياسة والسلطان مذهب أبي حنيفة ومذهب مالك عندنا بالأندلس" ينظر: المقري أحمد، المصدر السابق، ج: 2. ص: 10.

[4] - الخزانة الوطنية بمدريد تحت الرقم: 5078 نقلا عن: الحسين بوزينب، المرجع السابق. ص: 2.

[5]- Leila Boukli Hacene Tani, Op. Cit. P: 40.

النصرانية[1]، والذين نسوا اللغة العربية ولم يعودوا قادرين على استخدامها؛ مما ألجأه إلى تأليف كتابيه الآنفين بإسبانية القرن الخامس عشر، وقد حمل هذان الكتابان عنوان (Leyes de Moros) أي (شريعة المسلمين)[2].

أيضا هناك مخطوط آخر في المذهب المالكي لمؤلف مجهول، حيث قام هذا الأخير بترجمة كتاب " التفريغ" لصاحبه "أبي القاسم عبيد الله بن الحسين بن الحسن بن جلاب البصري المالكي"؛ والملاحظ حول هذه الترجمة أنها حملت عنوان "**ألكتب د لا تفريه**"[3].

وبقي كذلك المذهب المالكي غضا عند مسلمي اسبانيا، ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها، كما وقع في غيره من المذاهب، ولما صار مذهب كل إمام علما مخصوصا عند أهل مذهبه، ولم يكن لهم سبيل إلى الاجتهاد والقياس فاحتاجوا إلى تنظير المسائل في الإلحاق وتفريقها عند الاشتباه بعد الاستناد إلى الأصول المقررة من مذهب إمامهم، وصار ذلك كله يحتاج إلى ملكة راسخة يقتدر بها على ذلك النوع من التنظير، أو التفرقة واتباع مذهب إمامهم فيهما ما استطاعوا، وهذه الملكة هي علم الفقه لهذا العهد.

فقد صمد المذهب المالكي أمام المذهب الكاثوليكي رغم أن معتنقي هذا الأخير حاولوا بشتى السبل القضاء عليه وإحلال محله المذهب الكاثوليكي الزائف، الذي لم يكن له أي صدى أو قبول من طرف مسلمي اسبانيا، هؤلاء رأوا في تمسكهم به، هو نفسه التمسك بسنة نبينا محمد صلى الله

---

[1]- أنجيل جنثالث بالنثيا، المرجع السابق. ص: 511.

[2]- الحسين بوزينب، المرجع السابق. ص: 3.

[3]- J. Ribiera Y M. Asim, Manuscritos arabes y Aljamiados de la biblioteca de la Junta, Madrid, 1912. P: 217.

عليه وسلم.

## – المبحث الثاني: الممارسات الإسلامية في مجابهة الطقوس النصرانية الكاثوليكية

لقد أظهر مسلمو اسبانيا في كل فرصة كرههم واحتقارهم للنصرانية وكل ما يتصل بها من رموز، وذلك من خلال المضايقات والسخرية عليها، بالرغم من أنهم كانوا يعلمون بأن مثل هذه التصرفات قد تصل بهم إلى سجن ومنه إلى الإعدام حرقا. ولكن التحدي الصارخ الذي أعلنته السلطات الإسبانية، وسخرت له كافة الوسائل للقضاء على معالم الدين الإسلامي في الأندلس المفقودة الذي بقي صامدا فيها أكثر من ثماني قرون من الدهر، وتعايش معه كل الديانات والمذاهب الأخرى هو الذي أجبر مسلمو اسبانيا إلى رفع التحدي نفسه من أجل الدفاع على دينهم.

**1)– نقد مسلمي اسبانيا لرموز الكنيسة الكاثوليكية:** عمد مسلمو اسبانيا إلى رفض كل ما له صلة بالنصرانية عموما والكاثوليكية على وجه الخصوص، لما علموا فيها من زيف وتحريف. فقد حاولت السلطات الإسبانية السياسية والكنسية بشتى السبل والوسائل أكانت سلمية أو قهرية اقناع مسلمي اسبانيا بتبني مقدسات ورموز الكنيسة الكاثوليكية، إلا أن هؤلاء رفضوا هذا الأمر رفضا قطعيا، وترجموا هذا الرفض إلى ممارسات يومية تدل على تمسكهم وتشبتهم بمقومات شخصيتهم الإسلامية

***– نقدهم للصليب والتماثيل:** من بين النماذج التي عرضت في ملفات محاكم التحقيق بخصوص هذا الموضوع نذكر قضية بعض السجناء المسلمين في سجن كونيكا، هؤلاء أخذوا يخرجون القش من مراتب أسرتهم وصنعوا منه صلبانا وأخذوا يدهسونها في الأرض ليغيظوا النصارى؛ فقد ذكر

في التقرير الذي كتبه القائم على محكمة التحقيق بكوينكا ما نصه: "**كانوا يدهسونها عمدا كالملحدين**"[1].

كما تم عرض قضايا مماثلة في الموضوع نفسه، هذه الأخيرة شير إلى الجدل الديني الذي كان قائما بين مسلمي اسبانيا والنصارى الكاثوليك حول كل ما اتصل بالنصرانية من رموز، فهذا المدعو "دييغو إنريكيث" من منطقة كينتنار، حمل صليبا ربطه بحزام نعله، و كان يجره على الأرض من خلفه حينما يمشي[2].

فهذا الأمر إن دل على شيء فإنه يدل على مدى عمق الهوة بين الطرفين، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يدل على تمسك مسلمي اسبانيا بمقاومتهم لكل أشكال ورموز الدين النصراني، إذ اعتبروا هذا العمل نوعا من الجدال العملي، بينوا من خلاله مدى تمسكهم بمقومات الدين الإسلامي.

كما احتقر وسخر مسلمو اسبانيا من تقديس النصارى الاسبان للتماثيل والصور؛ فمن بين النماذج التي وردت في ملفات محاكم التحقيق، قضية مسلمة أحرقت صليبا ولم تركع أمام تمثال يسوع عند مرور موكب ديني من أمامها وهي تجلس بباب بيتها قائلة "**إنها لا تعتقد في ذلك التمثال الخشبي**". القضية نفسها حكمت فيها محكمة التحقيق بكوينكا ضد مسلمة أخرى صاحت أمام موكب كان مارا أمامها قائلة: "عجبا لتمثال يسوع الضخم هذا، كيف يستطيعون حمله؟"[3]

فكل هذه التلميحات والتعليقات لا تدل دلالة خاصة وقاطعة على رفض مسلمي اسبانيا

---

[1]- مرسيدس غارسيا أرينال، المرجع السابق. ص: 59.

[2]- المرجع نفسه. ص:60.

[3]- المرجع نفسه. ص:60.

لرموز العقيدة الكاثوليكية؛ فكانت عبادة التماثيل والقديسين مرفوضة من جانبهم، إذ كانوا فيها ما نصه: " التماثيل التي كان يعبدها النصارى هي ألهة من الخشب مثل تماثيل الجص التي كانت عند الوثنيين في القديم".

*– **نظرة مسلمي اسبانيا للقربان المقدس:** حاول مسلمو اسبانيا التعبير على رفضهم لكل ما يمز إلى العقيدة النصرانية الكاثوليكية، مترجمين ذلك إلى جدال ظل قائما بينهم إلى أتن حانت ساعة الطرد النهائي سنة 1018هـ/1609م. فكما سبقنا وأشرنا إليه في محطات سابقة من بحثنا أن الجدال قد أخذ أشكالا مختلفة نظرا للمستجدات التي طرأت على الساحة السياسية والدينية والاجتماعية في اسبانيا.

ويعتبر القربان المقدس[1] من بين الرموز التي سخر منها مسلمو اسبانيا وترجموا ذلك على شكل ممارسات استفزت النصارى الاسبان، لما كانت تحمل من تحقير، فقد ترجمت أحد النصوص الواردة في ملفات محاكم التحقيق هذا الشعور فورد فيها ما نصه:" ...**بقصد سب وإهانة عقيدتنا الكاثوليكية المقدسة وللإضرار بديننا المسيحي...**". فقد ورد في ملفات محاكم التحقيق قضايا حوكم فيها بعض المسلمين بتهمة إهانة الرموز المقدسة الخاصة بالعقيدة الكاثوليكية، وهو ما سوف يجعل صاحبها يتهم بالردة والكفر، التي كانت عقوبتها الإعدام حرقا.

فمن بين القضايا التي ناقشتها محكمة التحقيق بمنطقة كوينكا، نذكر قضية أحد المسلمين الذي سرق من أركوس وعاء القربان المقدس، وأخذه إلى دار بعض الأصدقاء في أريثا، هؤلاء ربطوا

[1] – **القربان المقدس**:القربان المقدس هو خبز ونبيذ. ففي اعتقاد مسلمي اسبانيا أنه كيف لشيء يحضره خادم الكنيسة أن يحل فيه الرب؟.

الرعاء في خيط وعلقوها على شجرة. الأمر نفسه يتكرر ولكن في سوكوياموس، أين أخذت جماعة من المسلمين قطعة قماش من الكتان طرز عليها بالحرير ألام المسيح وصلبه، وقاموا بإحراقها[1].

وبهذا اتضح الرفض القاطع الذي أظهره مسلمو اسبانيا للقربان المقدس، فخلال القداس كانوا يديرون وجوههم عندما كان يرفع رجال الكنيسة القربان المقدس، أو ينزوون أو ينامون، ولم يقدموا أي مظهر للتعبد؛ وحينما كان يحمل إلى أي مريض، فبدلا من الركوع أمامه كانوا يسيرون في شارع أخر.

من خلال المعطيات التاريخية التي تم عرضها يمكننا تصور المسيرة الجهادية لهذه الأمة التي قدر لها أن تكون أمة بالرغم من الأقلية التي شكلتها في وسط أغلبية كانت كلها ضده عقيدة تاريخا وانسانية؛ فقد اتخذ مسلمو اسبانيا من الجدال وسيلة لتوصيل رفضهم القاطع لكل ما هو كاثوليكي، وبالتالي عملوا على رسم معالم معاناتهم وصراعهم في معركة البقاء أقل ما نقول عنها أن كل المؤشرات لم تكن تبشر بانفراج قريب لأزمتهم.

2)- **الجدال الديني في الشؤون الدينية الأخرى:** من بين المواضيع الأساسية التي كانت محل جدال بين مسلمي اسبانيا والنصارى الطعن في النظام الكنسي البابوي لهذا الدين، واتهامه بتزوير وتزييف نصوصه المقدسة وتحريفها لإضلال أتباعهم وحجبهم عن حقيقة النبوة والدين. فأدخل النصارى عموما، والنصارى الاسبان الكاثوليك على وجه الخصوص الكثير من الرموز والمقدسات في معتقدهم ما أنزل الله بها من سلطان.

ولأن الدين الإسلامي بفضل ما ورد في كتابه ـ القرآن الكريم ـ فضح ادعاءاتهم وتزييفهم

[1]- ميرسيدس غارسيا أرينال، المرجع السابق. ص:61.

للرسالة التي بعث بها سيدنا عيسى عليه السلام، ولأن مسلمي اسبانيا كانوا على دراية بهذه النصوص، فقد انتقدوا كل هذه الرموز والمقدسات، محاولين في ذلك الدخول في حركة جدال، حتى وإن كانت النتائج المترتبة على ذلك لا تبشر بخير.

***– الاعتراف بالتوبة عند النصارى مقابل العفو الإلاهي:** ما كان متعارفا عليه خلال القرون الوسطى أن الكنيسة كانت تمنح صكوك الغفران لكل من كان يشارك في الحروب الصليبية، أو يدفع مبالغ مالية يكفر بها على ذنوبهم. كما كان يحق للقس أن يمنح الغفران لكل من قدم اعترافا بدنبه. وبالمقابل كان مسلمو اسبانيا يرون أن هذا العمل إظلالا واستغلالا للكنيسة، فلا أحد في نظرهم كان له الحق في منح الغفران إلا الله سبحانه وتعالى.

ومن بين النصوص التاريخية التي احتفظت لنا بها بعض المصادر المعاصرة للحدث التاريخي، تلك التي دونها أبو القاسم الحجري أثناء مجادلاته لبعض النصارى. فقد بعث الحجري فبعث راهب إسباني سؤالا حول هذا الموضوع يقول فيه:

**"...ما قولكم في دينكم رجل زنى بامرأة محصنة وحملت منه وولدت، وزوج المرأة يعتقد أن المولود كان ابنه حتى كبر وأعطاه من ماله واشتكى يوم الحساب لله سبحانه وتعالى من زوجته، ومن زنى بها، والمال الذى انفق وأعطى لابن الذي زنى بها، فأحضر الزاني والزانية، وقيل لهما في ذلك فقالت المرأة :ذكرت ذلك للقسيس الفلاني، وغفر له ذنبه، والسؤال منكم أيها الراهب" فأجاب الراهب :"ليس للرجل ما يطلب من زوجته، ولا ممن زنى بها بعد إقرارهما في الدنيا للقسيس من وغفر له ذنبه، والسؤال منكم أيها الراهب"**

فاندهش الحجري لهذا الرد قائلا :"**فانظر هذا الاعتقاد الفاسد الذي عندهم في دينهم الأصل يقولون بألوهية سيدنا عيسى عليه السلام وأن البابا خليفته وكل واحد خليفة البابا يأمرون الناس في كل عام في أيام صيامهم أن يمشى كل من هو بالغ من ذكر، أو أنثى إلى الكنيسة ويذكر للقسيس جميع ذنوبه، ويعطيه براءة المغفرة ويأخذ الدراهم عليها حينئذ يذهب بيته، ويغفر له، ويأخذ أجرته دراهم...**"

من خلال هذا النص التاريخي يتضح نوع الجدال الذي كان قائما بين المسلمين والنصارى حول قضية منح الغفران، فقد رأى في ذلك الحجري بحكمه شاهدا على العصر هذا من جهة، ومن جهة أخرى واحد من الجماعة المسلمة التي عاشت تحت وطأة الظلم والقهر في اسبانيا، أن هذه العقيدة فاسدة، ولا يمكن لأي عقل سليم قبولها.

***– التعميد المسيحي مقابل الختان الإسلامي:** حرص مسلمو اسبانيا على الحفاظ على كل ما يتصل بمقوماتهم الإسلامية، فيما ذلك عملية الختان، متحدين بذلك المراسيم التي حرمت ذلك، وغير مبالين تماما بمتابعات وملاحقات محاكم التحقيق. فقد كانت عملية الختان بالنسبة للمسلمين ضرورة إسلامية، فرضت على المسلمين عن طريق سيدنا محمد عليه أزكى الصلوات والتسليم، لذلك بقوا متمسكين بها إلى آخر لحظة كانت فيها طردهم من اسبانيا كليا.

فمباشرة بعد العودة من الكنيسة، كانت النساء المسلمات يقمن بغسل أبناءهن بالماء الساخن للقضاء على الزيت المقدس وبالتالي ازالة آثار عملية التنصير التي تعرض لها أطفالهن الصغار من قبل

الكنيسة؛ وأثناء القيام بهذا الاحتفال تقع عملية الختان، هذه الأخيرة كانت تسمى عملية "الفضض" وقد تأكد من خلال ملفات محاكم التحقيق أن كل المسلمين الذين وقعوا في أيدي عمال محاكم التحقيق في بكنسية كانوا مختونين[1].

ولكن مع زيادة الضغوط والملاحقات من طرف عمال محاكم التحقيق تأجل ختان الأبناء إلى السن الثامنة، حتى لا يكتشف أمرهم. أمام هذه المعطيات يمكننا ملاحظة مدى السخط والكره الذي كان يكنه مسلمو اسبانيا لكل ما هو نصراني، بالمقابل نجد حبهم وتمسكهم وافتخارهم بكل ما يربطهم بالدين الإسلامي.

***– الإمام أو الفقيه مقابل القس:** أدت عزلة مسلمي الأندلس عن إخوانهم في العالم الإسلامي إلى بروز شخصية الإمام أو الفقيه، الذى كان يمثل المسلمين في الاتفاقيات التي تعقد مع السلطات الإسبانية هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان الفقيه مصدرا رئيسا لمعرفة أحكام الشرع بعد حظر استخدام اللغة العربية قراءة وكتابة.

وقد أسهم ذلك كله في أن تقترب مكانة شخصية الإمام – بالنسبة لمسلمي اسبانيا– من دور القسيس في الدين النصراني. فقد كان الإمام بالنسبة للجماعة المسلمة في اسبانيا بمثابة الزعيم الروحي والسياسي، ينظم أمورها، ويعلمها أمور دينها، ويساهم في حل مشاكلها الداخلية. أمام هذا الإقرار بوظيفة الإمام اعتبر مسلمو اسبانيا أن رسم القسيس في عملية التمثيل للتعاليم النصرانية قد انتقدت بشدة في هذه المجادلات واعتبرت كوساطة لا تغتفر لحركة إلهية ولعلاقات (المؤمن مع الخالق).

[1]– أحمد كامون وهاشم السقلي، المرجع السابق. ص: 161.

***– الجدال القائم بين مسلمي اسبانيا والنصارى حول الكهنتوية:** لقد من الله تعالى على الإسلام بخصائص تميز بها عن أخلاقيات الديانتين اليهودية والنصرانية، وعن باقي الديانات الوضعية الأخرى، فقد عرف الإسلام بالوسطية، وهي فضيلة بين رذيلتين؛ بين تطرف المادة اليهودية، حتى إنهم عبدوا المال، وعبادة المال لم تعرف في شعوب الأرض إلا عند اليهود، واحتقروا الروح والقيم والأخلاق الفاضلة، كالصدق والوفاء بالعهد والمحافظة على الشرف، فقد ضرب اليهود هذه القيم وغيرها من القيم السامية عرض الحائط، فإن تكلموا كذبوا، وإن عاهدوا غدروا.

أما النصرانية؛ فإنها أوجدت الكهنوتية[1] أو الرهبنة بصفتها رد فعل على المادية اليهودية، فالرهبنة لم تتعلق بعبادة المال، وإنما تركز على تطهير الجسد، لترتقي الروح بالأخلاق كما يزعمون، ولذلك يحرم على الراهب والراهبة الزواج تنكرا لمتطلبات الجسد الفطرية. لقد أوقع الرهبان أنفسهم في مفارقة خطيرة؛ حيث إنهم في الظاهر لا يتزوجون، ولكنهم في حقيقة الأمر يصرفون هذه الطاقة عن طريق لا يدرى كنهها.

في حين جاء الإسلام بالوسطية، فأعطى الجسم حقه من المتطلبات الفطرية الغريزية، كأكل الطيبات الحلال؛ فقد حرم الإسلام كل ما هو فاسد، وأحل كل ما هو طيب، فالزِواج سنة الأنبياء، فإذا اعتقدت بعض المذاهب الفلسفية إمكانية الاستغناء عن الزواج كالرهبان وأمثالهم فهذا تطرف،

[1]– الكهنوت النصراني هو رمز مهم جدا في النصرانية، وهو درجة ملقاة على عاتق أشخاص معينين مهيئين لغرض خدمة المؤمنين. والمؤمنون أو العلمانيون هم شركاء في مهمة المسيح الكهنوتية، وذلك في إعلان رسالة المسيح للعالم بالقول والفعل، لأنهم معاونون في نشر البشرى السارة في العالم . أي أنهم جميعا، كهنة بحسب المفهوم الكاثوليكي لخدمة الكلمة وذلك بالمعمودية والتثبيت والمسحة التي يمسحون بها، فيكرسون كهنة بالروح القدس، ويمارسونها بتقديم حياتهم وأعمالهم. ينظر: بولوس وهبة، المرجع السابق. ص: 189.

وهذا الأخير لا يولد إلا ما لا يحمد عقباه. فإقبال مسلمي اسبانيا على الزواج وهم يعيشون حياة الضنك هو في حد ذاته تحديا صارخا لحياة الكهنوتية.

من خلال ما تم عرضه من معطيات تاريخية نستنتج ما يلي:

– كراهية واحتقار مسلمي اسبانيا إلى كل ما كان ينبع على عقيدة الاسبان المزيفة.

– التحدي الذي بدا ظاهرا وجليا من خلال قيام بعض مسلمي اسبانيا بأعمال، أو جهرهم بكلام يهين رموز العقيدة النصرانية الكاثوليكية، والتي أوصلت بالكثير منها إلى السجن، أو الموت.

– تمسك مسلمي اسبانيا بكل ما هو اسلامي كان مقابل رفضهم القطعي والصارخ لكل ما كان يرمز للعقيدة النصرانية الكاثوليكية.

## – المبحث الثاني:الخط العربي كتعبير لرمز مقدس في النصوص الألخميادية

لقد اختلف المؤرخون واللغويون حول الأسباب التي دفعت مسلمي اسبانيا بكتابة انتاجهم الفكري بلغة اسبانية وحروف عربية. فمنهم من برر ذلك في تفادى ملاحقة محكمة التحقيق، إلا أن هذا الرأي لا يصمد كثيرا أمام النقد العلمي، فمن المعلوم أن المراسيم الملكية منعت استعمال اللغة العربية كتابة وقراءة ومخاطبة، فلو نجا "المتهم" من مشكلة النص الإسلامي المحظور قانونا فإنه يدخل هكذا في مشكلة أخرى هي مشكلة اللغة العربية المحظورة كذلك.

وهناك فريق آخر رأى أن مسلمي اسبانيا أرادوا المحافظة على سرية الموضوع المطروح في الكتاب، ولنا هنا تحفظان: الأول هو أن السلطات الإسبانية كانت تضم ضم هيكلها الإداري مترجمين إلى اللغة العربية حتى تتعرف على أسرار عدوها في الداخل والخارج. والتحفظ الثاني هو أن

محتوى تلك النصوص لم يكن ممنوعا على المدجنين، وهم فيما نظن مؤلفوها الأصليون.

لم نصل بعد إلى نتيجة حاسمة، لكن أقرب التفسيرات إلى تفكيرنا هو رغبة المدجنين ثم مسلمي اسبانيا بعد سقوط غرناطة من بعدهم في المحافظة على شيء يميزهم عن مجتمع الأغلبية النصرانية، فاللغة العربية كانت وسيلة من وسائل المحافظة على هويتهم الإسلامية، هذا من ناحية. ومن ناحية فقد كانت معظم المؤلفات التي كتبها مسلمو اسبانيا ذات موضوعات إسلامية مقدسة، ومن ثم كان لابد أن تكتب بحروف عربية التي كتب بها القرآن الكريم، وهو كلام الله عز وجل أنزله على سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم.

وبهذا سنحاول من خلال هذه الجزئية دراسة النظرة الجدالية التي كانت قائمة بين مسلمي اسبانيا والنصارى الكاثوليك حول اللغة العربية التي كان يقابلها اللغة القشتالية، والحرف العربي الذي كان يقابله أيضا الحرف القشتالي؛ على أن هذا العمل لن يكون تكرار لما ورد في الباب الثاني من الرسالة، وإنما هو محاولة توضيح حركة جدلية الحرف العربي واللغة العربية في اسبانيا.

**1)– اللغة العربية رمز الهوية الإسلامية:** أمام عند وتمسك مسلمي اسبانيا بالحفاظ على اللغة العربية، تواصلت جهود السلطات الاسبانية في تحريم استعمالها تخاطبا وقراءة وتأليفا، فقد توالت إصدار المراسيم والقرارات التي تمنع استعمالها؛ إلا أن مواجهة اللغة العربية ومحاولة إبادتها أوقع الساسة الإسبان في مجابهة واقع معاش فرض عليهم في آخر المطاف الركون إلى مفعول اتفاقيات مرحلية.

فقد اعتبرت اللغة العربية مقوم أساسي من مقومات الشخصية الإسلامية التي تميز المسلم في اسبانيا عن غيره من النصارى، فدفاع هؤلاء المغلوب على أمرهم لبقاء اللغة العربية مرة بدفع الأموال

للسلطات الإسبانية، ومرات أخرى بالسلاح، ولما كانت هاتين الوسيلتين لا تجديا نفعا كانوا يتعلمونها ويتداولونها سرا. فقد اعتبر مسلمو اسبانيا تمسكهم باللغة العربية نوع من الجدال الذي كان قائما في الجوانب، خاصة الثقافية منها.

فمن المتعارف عليه أن كل مسلم مطالب بتلاوة القرآن الكريم باللغة التي نزل بها، ومعنى هذا أن كافة المسلمين في العالم مطالبون بتعلم اللغة العربية، ومن هنا اكتسبت اللغة العربية القداسة النورانية والخلود السرمدي، فقد قال عز وجل في محكم تنزيله: **{ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ }**[1]. فبحفظ الله تعال كتابه حفظ اللغة العربية، فهي باقية ببقائه إلى يوم الدين، ولولا القرآن الكريم لاندثرت هذه اللغة أو علي الأقل انزوت وقل من يتكلمها وانهارت أصولها[2].

فالسر الكامن وراء خلود اللغة والحفاظ عليها من الاندثار، هو القرآن الكريم بما كان له من أثر بالغ في حياة الأمة العربية، وتحويلها من أمة تائهة إلى أمة عزيزة قوية بتمسكها بهذا الكتاب؛ فقد كان القرآن الكريم ولا يزال كالطود الشامخ يتحدى كل المؤثرات والمؤامرات التي حيكت وتحاك ضد لغة القرآن، يدافع عنها، بقوله تعالى: **{وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ۞ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}**[3].

فمن بين ما كون الشخصية الإسلامية عند الإنسان المسلم في اسبانيا اللغة العربية، إذ تعتبر

---

[1]- سورة الحجر، الآية رقم: 9.

[2]- كارم السيد غنيم، اللغة العربية والصحوة العلمية الحديثة، الرياض: مكتبة الساعي، د ط، 1990م. ص:40.

[3]- سورة البقرة، الآيات رقم: 23 و24.

هـذه الأخيرة لغـة القـرآن؛ لهذا السبب نجدهم ينظرون إليها بشتى مكوناتها الداخلية والخارجية كعنصر ديني يدخل في تركيب الإسلام؛ ولأن الخط العربي من المكونات الخارجية الأساسية لهذه اللغة، فنجد له قدسية خاصة عند المسلمين.

أمام هذه المعطيات يجب التعامل مع ثقافة مسلمي اسبانيا بنوع من التريث لإدراك النظرة العميقة لهذه الثقافة. ففي هذا الإطار نجد لدى مسلمي اسبانيا تعاملا خاصا مع اللغة التي كانوا يترجمون بها النصوص الدينية من قرآن وحديث وغيرهما من تلك التي كان لها اتصالا مباشرا بتعاليم الدين إسلامي.

هذا التعامل كان يمليه ذلك الرفض لكل ما هو نصراني؛ فكانوا يتجنبون استعمال أي كلمة يمكنها أن تؤدي إلى اختلاط مع طقس أو معتقد نصراني. وقد وصل الأمر ببعض المسلمين الذين يكتبون نصوصهم بالخط اللاتيني إلى الاحتفاظ بكتابة كلمة **(الله)** بالحروف العربية وسط نص كله حروف لاتينية.

فكلمة **(الله)** في نظرهم لا تترجم بـ (Dios) لأنه غير معقول أن يكون (Dios). النصارى مطابقا لـ (الله) المسلمين. فالنصارى يعبدون المسيح أي (Dios). وانطلاقا من هذا الطرح رفض مسلمو اسبانيا مطابقة الله بـ (Dios). وإذا اضطر المؤلف إلى ترجمة كلمة **(الله)** يستعمل (Sinor) بمعنى (سيد) حتى يتحاشى استعمال كلمة (Dios). فعندما يترجم عبارة **(لا إله إلا الله)** يقول .no ay senor sino Allah[1]

[1]-Louis Cardaillac, Morisques et Chrétiens, paris : Librairie Klincksieck, 1977.p. 296.

[2]- الحسين بوزينب، الدين واللغة من خلال الكتابات الأعجمية الموركسية، .**WWW.Google. Fr**. ص: **3**

كما احتفظ مسلمو اسبانيا في إنتاجهم الديني بالعبارتين (صلى الله عليه السلام) و(رضي الله عنه) كما هما في اللغة العربية. وقلما ما تترجمان كما في المثالين الآتيين:

**صلى الله عليه وسلم ـ ذيش ءال انبي هغ شتلتسين الله ءال اشلبا.**

**صلى الله عليه وسلم ـ ذيش ءال انبي شبرا ءال شا الشلبسين**

**عمر رضي الله عنه ـ عمر ابا غشا الله ذال**

كذلك نجد بعض الأحيان ترجمة للعبارات: (تعالى) و(سبحانه) و(عز وجل) الخاصة بذكر الله.

**الله تعالى ـــ الله انت ءاش**

**الله سبحانه ـــ الله باندتءاش**

**الله عز وجل ـــ دابوش دزا ءال نبلاتن باندت ءاش ش نبلاز**[1]

أيضا الأمر نفسه نجده يتكرر عند كتابة أسماء الرسل والأنبياء؛ فكانوا يكتبون أسماء آدم وإبراهيم وإسحاق ويوسف وسليمان ويونس وموسى وعيسى عليهم صلوات ربي وسلامه، كما تكتب باللغة العربية، رغم أن النظام الصوتي الإسباني كان يغلب عليهم ويجعلهم يحرفون بعض الشيء منها.

فنجد مثلا اسم إبراهيم مكتوبا بدون المد الأول (إبرهيم)، وسليمان مكتوبا (سلايمان) ربما لنطقه çuleymen لأن الفتح بالإضافة إلى الألف =e في النسق الأعجمي. وموسى مكتوب (مسى أو مس) وعيسى مكتوب (عس) واسم إسحاق مكتوب (إسحق) دون الألف الذي يغيب

[1]- الحسين بوزينب، المرجع السابق. ص:5.

عن الإسبانية. ويعقوب (يعوب) بحذف حرف العين الذي لا يوجد في اللغة الإسبانية. وحتى في تلك الحالات التي تتشابه فيها الصيغ العربية والإسبانية لأسماء الأنبياء فإننا نجدهم يجتهدون لإظهار العناصر المميزة للصيغة العربية.

أما عند ذكرهم لرسول الأمة محمد صلى الله عليه وسلم فكان يرد في تآليفهم بالشكل التالي:

**« Nuestro caudilloy bienabenturado muhamad; cresca nuestro senor » « Allah onrra y onora sober él, y crezi [ miento] en gardos de gloria. Emin »**

وتكون ترجمتها بالشكل التالي: :" **سيدنا محمد السعيد. زاده الله ربنا شرفا وجاها وزاده درجات في الجنة. آمين."**

ومن ناحية أخرى نجد أن المخطوطات الأعجمية تظهر مرصعة بمصطلحات الدين الإسلامي مثل: الصلاة – الزكاة – السجود . الركوع...إلخ . إن هذه المصطلحات التي تكاد لا تخلو منها أي صفحة من الكتابات الأعجمية يرجع استعمالها إلى العامل نفسه الذي ذكرناه في استعمال أسماء الأنبياء.

هكذا إذن وكخلاصة عامة تقريبية، يمكن أن نقول إن هناك كلمات لا تترجم أو تكاد لا تترجم كالتي تدل على الصلاة وأجزائها : الصلاة – السجدة – سجد – الركعة – ركع – السلام – الإحرام – الإقامة – النافلة. أوقات الصلاة : الفجر – الصبح – الظهر – العصر – المغرب – العتمة. المصطلحات الدالة على أجزاء القرآن : السورة – الآية – آية الكرسي. مصطلحات مختلفة

مثل : الفقيه – الجنازة – الجنة – الدين – الوضوء – الطهور...إلخ. كما لم يتم العثور على كلمات (الشهادة) – (الصلاة) – (الزكاة) – (الحج) مترجمة.

وفيما يرجع إلى فعل (صلى) ربما يتعذر عليهم إيجاد تكيف لهذه الكلمة مع اللغة القشتالية، لذلك سنراهم يبتكرون عبارة "فزار الصلاة" (al- ssala faser) [ بالحرف : عمل الصلاة] كصيغة قارة ومنتظمة للتعبير عن عملية الصلاة. فهذه العبارة الجديدة تؤدي لغويا وظيفة الفعل (صلى)[1].

إن استعمال هذه المصطلحات العربية داخل النص الإسباني يجب أن يفهم بالدرجة الأولى في نطاق المجادلة الدينية التي كانت قائمة بين المسلمين والنصارى وكذا في نطاق اعتزاز كل طرف بدينه وعدم قبول التنازل عن أدنى شيء للخصم. كما تجدر ملاحظة ندرة ترجمة المصطلح العربي إلى الإسبانية بالمقارنة مع كثرة استعمال الأصل. وبهذا فإن استعمال المصطلح العربي في الأعجمية يبرز في صيغتين:

أ. صيغة تحاول الاحتفاظ بالشكل الأصلي للكلمة العربية دون حدوث أي تحريف بسبب تأثير النسق الصوتي الإسباني الغالب على مسلمي اسبانيا ولكن بدون تكيف مع بنية الأشكال الكلامية الإسبانية، وهذا عرض لنماذج تؤكد ما ذكر أعلاه :

| الكلمة | ما يقابلها |
|---|---|
| اصل | الصل |
| الركع | الركغ |
| عاشوراء | عشر |

[1]– الحسين بوزينب، المرجع السابق. ص: 5.

| عابد | غابد |
|---|---|
| حلال | خلال |
| ملعون | مَلْغُنْ |
| رمضان | رمضن |
| الرزق | ارسكا |
| صراط | اريان |

نلاحظ من خلال هذه النماذج أن النظام الصوتي والبنية الإسبانية تمكنا من فرض نفسيهما على الكلمات العربية. ولكن سيبقى الجانب الدلالي الذي مكث في أغلب الأحيان بعيدا عن هذا الاستيلاء. فقليلة هي المصطلحات والعبارات العربية التي قبلت تعويضها بنظيراتها الإسبانية. فعبارة صلى الله عليه وسلم مثلا، التي تأتي بعد ذكر النبي محمد، تكاد لا تقبل الترجمة أبدا.

**2)– قدسية الحرف العربي عند مسلمي اسبانيا:** يدخل الخط العربي بالنسبة للمسلمين، ومن بينهم مسلمي اسبانيا، في مكونات العبادة الخارجية، لهذا لا يمكن أن نغض الطرف عن شعور القدسية التي كان يشعر بها مسلمو اسبانيا اتجاه الحرف العربي الذي استعملوه لكتابة لغتهم في التخاطب؛ فلقد تشبثوا بالحرف العربي كتشبث الغريق بأي شيء بعد غرق سفينته؛ فالحرف العربي كان يتركهم ماديا في محيط الإسلام. فلو اعتمدوا على الحرف اللاتيني لأبعدهم عنه. ثم لغة التخاطب الحية قابلة للنسيان والضياع لأنها خاضعة للتداول، وأما الخط فلا يعتمد على الممارسة بالطريقة نفسها.

وبهذا فقد ترك مسلمو اسبانيا تراثا ثقافيا مهما، عمد مؤلفوه إلى تسجيله بلغة خاصة تعد من ابتكارهم، ولعل اختيار الحرف العربي كمظهر خارجي للتبليغ من طرف هؤلاء المضطهدين، يبقى الرداء الإسلامي أو القناع الواقي، وهو ما شكل علامة على مدى التلاقي الجدلي بين الحرف العربي والبعد الروحي عند الإنسان المضطهد. ولعل أيضا تفشي ظاهرة الاقتراض الذي عرفته اللغة العربية وخاصة حين يتعلق الأمر بالشعائر الدينية ليعد ظاهرة ملفتة للانتباه داخل هذا التراث المتبقي والمسجل بعزيمة المقاومة.

إن هذا الإنتاج الفريد من نوعه إن صح التعبير الذي كتبه المسلمون بالحروف العربية هو معلم وأثر باق على ذلك الجهد المثير الذي حاولوا من خلاله مسلمو اسبانيا إنقاذ المعرفة بالدين الإسلامي وثقافته – أو ما تبقى من هذه المعرفة – التي تقلصت بحكم متابعات واضطهاد رجال الدين والسياسة في إسبانيا إلى معتزلات سرية للمسلمين المضطهدين.

لم تكن الكتابة بلغة غير عربية مبادرة انفعالية، بل كانت نتيجة تفكير عميق بحيث لا يخرج عن صحيح الدين الإسلامي، كما هدفت إلى الحفاظ على صحة الدين المتوارث شفويا عن طريق كتابة صحيحة. فالكلمة العربية تنبني على هيكل أساسي يسمى بالأصل ويتكون من ثلاثة حروف في أغلب الأحيان، تتضمن الفكرة الأساسية. وهذا الأصل يتشكل في عدة قوالب بإضافة بعض الأجزاء المحددة التي تكتسي مدلولات معينة في أول ووسط وآخر الكلمة.

أما الكلمة الإسبانية فيحمل الأصل فيها على الفكرة الأساسية، وأجزاء نحوية ومعجمية في أول وآخر هذا الأصل( سوابق وملاحق)، غير أن عدد حروف الأصل عكس العربية غير قار. كما

أن أدوات السبق والإلحاق الإسبانية ذات الوظيفة المعجمية، علاوة على كثرتها، فهي تكون إطارا لغويا مفتوحا يستطيع استقبال أدوات جديدة.

واعتماد الإسبانية في بداية الأمر كسائر اللغات الغربية على كلمات إغريقية ولاتينية حرفتها بعض الشيء أو تركتها كما هي، ثم ألحقتها بأول كلماتها للتعبير على معنى جديد أضافته إلى القديم، أكسبها مرونة سهلت عليها الاستجابة للمتطلبات اللغوية من كلمات ومصطلحات.

من هذا المنطلق فإنه هناك مساوئ قد تنتج من كتابة اللغة العربية بحروف لاتينية نلخصها فيما يأتي:

-. قطع الصلة بالتراث الثقافي.

- تعسير الكتابة على الكاتب.

- الفوضى في التطبيق، ونشوء الحاجة مجددا إلى قواعد إملاء معقدة. بل سيصبح لكل قوم طريقتهم في التهجئة بالحرف اللاتيني.

- زوال فنون الخط العربي وزخارفه التي تمثل الفن التجريدي للحضارة الإسلامية.

- لن تختفي الشكوى من مصاعب الإملاء، وستبقى الحاجة إلى النقط والشكل قائمة برغم الاقتراحات الكثيرة.

إذن ما لاشك فيه أن الحروف اللاتينية المعروفة خالية من عدة حروف توافق العربية، فلا تؤدي جميع ما تؤديه الحروف العربية، فلو كتب القرآن الكريم بها على طريقة النظم العربي – كما يفهم من الاستفتاء – لوقع الإخلال والتحريف في لفظه، وتبعهما تغير المعنى وفساده.

وقد قضت نصوص الشريعة بأن يصان القرآن الكريم من كل ما يعرضه للتبديل أو التحريف، وأجمع علماء الإسلام سلفا وخلفا على أن كل تصرف في القرآن الكريم يؤدي إلى تحريف في لفظه أو تغيير في معناه ممنوع منعا باتا، ومحرم تحريما قطعيا، وقد التزم الصحابة رضوان الله عليهم ومن بعدهم إلى يومنا هذا، كتابة القرآن الكريم بالحروف العربية ومن هذا يتبين أن كتابة القرآن العظيم بالحروف اللاتينية المعروفة لا تجوز لا من حيث الشرع أو البنية اللغوية.

من خلال ما تم عرضه من معطيات، يمكننا القول بأن مسلمي اسبانيا من خلال تأليفهم لهذا الإنتاج كانوا واعين كل الوعي لما حاولوا إنجازه، فقد كانت مهمتهم المستحيلة، كانت في محاولة إحباط إيقاف التاريخ وانتهاكه من طرف اسبانيا النصرانية بكل هيئاتها.

فقد توصلنا من خلال هذه الدراسة إلى الخروج بملاحظة مهمة مفادها أن مؤلفي تلك النصوص لم يتمسكوا بالكتابة بالحروف العربية لدواعي سرية خوفا من ملاحقة ومعاقبة محاكم التحقيق لهم، ولكن أكثر من ذلك فقد لجأوا إلى هذه الطريقة لإيمانهم بالمنزلة المقدسة التي كانت تحتلها تلك الحروف بالنسبة لهم ولقرائهم السريين أيضا، ومن هنا نشأ السخط والنقد اللاذع الذي صبه هؤلاء المضطهدين على كل ما هو غير عربي مسلم، على وجه العموم، وعلى كل ما كان نصرانيا كاثوليكيا اسبانيا، على وجه الخصوص.

# الخـــــاتمـــــة

ليست قراءة التاريخ والوقوف على حقائقه بدقة بالأمر الهين. وليس تحديد عوامل سقوط أمة أو حضارة شيئا في متناول اليد، فالأمر في الحقيقة أشق بكثير مما نظن. ولا تأتي صعوبة هذا الأمر من مدى إمكانية التحقق من حدوث الوقائع التاريخية فحسب، ولكن من إمكانية قراءتها قراءة راشدة دقيقة، فالباحث حين يقرأ التاريخ لا يقرأه على نحو مباشر، وإنما من خلال إشكالية كونها ورسم لها خطوطها.

لذا فإن تفسير الحقائق يتوقف إلى حد بعيد على المعتقدات والمبادئ والخلفيات الثقافية للمفسرين. وهذا يعني أن علينا أن نرضى بموضوعية ناقصة ونتائج نسبية الصواب. ومشكلة التاريخ أنه يتأبى على الخضوع للتجربة، فنحن لا نستطيع أن نجزم هل لو أن أهل الأندلس لم يغرقوا في النعيم أو لم ينقسموا على أنفسهم، أو لم يصيروا من الهجوم إلى الدفاع، هل كانت أعمار دولهم ستطول أكثر مما كانت عليه؟

يشكل سقوط الأندلس مأساة كبرى، لأن سقوطها لم يكن سقوط دولة، وإنما سقوط حضارة، كان يمكن لها أن تكون نقطة انطلاق لبداية جديدة لطرفين، فسقوطها قلع شعبا مسلما من جذوره وعرضه للضياع الكامل، ومن هنا تأتي فرادة النكبة التي حلت بالإسلام والمسلمين في الأندلس. وذلك لأن أسباب السقوط عديدة، ولا نعرف على وجه التحديد شكل النتائج إذا تخلف واحد منها.

ومن جملة هذه الأسباب أن الوعي الأندلسي كان مرتبكا، فهناك ما لا يحصى من الشواهد على أن التقدم العمراني والرخاء في العيش كان يلازمه على نحو شبه مستمر انخفاض في مستوى التدين والالتزام، وحتى لا نجور على القوم فإن الأندلسيين لم يكونوا استثناء من القاعدة، فتاريخ الأديان في العالم كله ناطق بهذه الحقيقة. فقد أصيب الأندلسيون بمرض الانهيار البطيء، حيث كانت صورة التدين لديهم تبتعد رويدا رويدا عن جوهر التدين الحق، وصارت البيئة العامة أشبه بحبل غليظ جمعت خيوطه إلى بعضها خيطا وراء خيط إلى أن استحال قطعه، وصار أهل الإصلاح والغيرة يشعرون باتساع الخرق عليهم.

وهكذا كان الأندلسيون عاجزين عن أن يخطوا خطوة واحدة إلى الوراء، مع أن العدو يتحين الفرص للانقضاض عليهم، فأدركتهم سنن الله في خلقه وكونه. إذ انتشرت بينهم الذنوب والمعاصي، وصارت المبادئ السامية عبارة عن شعارات فارغة لا توجه السلوك، بل تتخذ للتزيين والتكميل الشكلي، وقد كان ابن حزم يقسم بأن ملوك الطوائف لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية لأمورهم لعبدوها! وانعدمت الغيرة الدينية لدى كثير من العامة.

كما كان مصير المسلمين في الأندلس مرتبطا بالخطة التي ينتهجونها في التعامل مع أعدائهم، وفي وضع كوضعهم كان الخيار الصحيح بالنسبة إليهم هو الاستمرار في الجهاد حتى يوجهوا فائض القوة نحو الخارج، وحتى يحافظوا على وحدتهم الداخلية.

بالإضافة إلى أن ذلك يمكنهم من فتح خطوط متقدمة في أرض أعدائهم حتى يتمكنوا من الحفاظ على أرضهم، وقد كان بإمكانهم فعل ذلك، وربع الأموال التي أنفقت على أشكال الترف والسرف كان كافيا لتزويد الحركة الجهادية بما تحتاجه من نفقات؛ لكن القوم ارتضوا لأنفسهم الخطة الدفاعية في مواجهة عدو له عمق استراتيجي ضخم هو أوروبا كلها.

وليت القوم أحسنوا الدفاع إذن لخرجوا بشيء ما، لكنهم كانوا طوائف وشيعا فلم يستطيعوا الوقوف صفا واحدا، وقد كان حسم المواقف وتحديد الوجهة هو أهم ما ينقصهم، كما هو شأن كل المخذولين. إن المسلمين بإعراضهم عن الجهاد وإدامة الهجوم وضعوا أنفسهم في وضعية المدافع المحاصر، وعلى كل حال فدولهم الكثيرة التي كانت تتطاحن في مساحة محدودة من الأرض لم تكن مهيأة لأكثر مما فعلت، فقد كان بين معظمها وبين الحكم بما أنزل الله تعالى فجوة كبيرة.

وبهذا بدأت علامات أفول الحضارة الإسلامية بالأندلس تبرز تباعا مند انهيار الخلافة، كما بدأت المدن العريقة تتهاوى الواحدة تلوى الأخرى حتى جاء دور آخر المعاقل غرناطة، ولم يكن هذا التاريخ مؤذنا بسقوط غرناطة فقط بل معلنا عن انقلاب كلي وعام شمل كل المجالات، لقد كانت صدمة السقوط جد مؤثرة في الوعي العربي الإسلامي عموما، وعلى مسلمي الأندلس على وجه الخصوص.

إن ما عقب سقوط غرناطة من ملاحقات ومحاكمات، كرسها نظام كبت الحريات وعمليات الافناء الجماعي، دمر كيان الجماعة المسلمة وأحدث في مكوناتها الذاتية شرخا حادا. جسم عمق الانفصام الثقافي والحضاري؛ وإذا تفحصنا القوانين التي صدرت في حق المسلمين زمن تسليم غرناطة ثم ما آلت إليه من معاملات عقبت الطرد، فإننا نقف على العديد من الاستنتاجات ذات الصبغة العامة والخاصة معا من أهمها:

إن هذه المواثيق لا تختلف كثيرا عن مواثيق عام 985هـ/1490م إلا في الناحية الدينية الصرفة، حيث يبدو أنه الموضوع الأكثر أهمية، ولهذا ففي سنة 906هـ/1501م صدر أمرا يقضي بإحراق كل الكتب التي لها علاقة بالإسلام؛ وفي هذا الخط نفسه صدرت تعليمات بشأن ذبح الحيوانات حيث اعتبر أمرا دينيا تم تحريمه في اتفاقيات عامي 905-906هـ/1500-1501م.

بينما لم تعتبر الحمامات والثياب الخاصة أمرا دينيا على الرغم من اختلافها عن الأخرى الخاصة بالنصارى، وهكذا فرقت هذه الوثائق بين ما هو ديني وما هو ثقافي. وهذا يعني أن سياسة الإدماج كانت تعالج الجانب الديني فقط. ومن المحتمل أن روح نصوص ومواثيق تسليم المدن لم تنس بالكامل بعد، وبهذه الطريقة أعلنت السلطات ثقتها الساذجة في جدوى الوسائل المتخذة للوصول بالمسلمين إلى تنصير حقيقي وتبين عدم فهم السلطات العميق لطبيعة الحقائق الثقافية حيث كان المسلم في نظرهم يعتبر نصرانيا سيء التدين مؤقتا.

وعلى الرغم من ذلك تعتبر السنوات العشر التالية ما بين 905-915هـ/1500-1510م هي السنوات التي عاصرت تغيرا جذريا في طريقة إدراك المشكل وتصورها. حيث ترجم ذلك في شكل مجموعة من الأوامر الملكية التي صدرت ابتداء من عام 916هـ/1511م. فقد فشلت حملات التنصير فشلا ذريعا وثبت خطأ اعتقاد أن المسلمين غير القابلين للتنصير قد رحلوا جماعات، وأنه قد بقى فقط في مملكة غرناطة الذين يميلون إلى تقبل النصرانية بسرعة، وأدركت السلطات أن الإسلام إلى جانب أنه من المستحيل استئصاله، يبدو في الظاهر أنه قد قلل من أهميتها في البداية.

ومن ناحية أخرى كان أكثر مسلمي اسبانيا يعتقدون أنهم بمجرد تعميدهم سيتركون وشأنهم

بسلام، لكن الإجراءات التي اتخذت في الفترة (905-906هـ/1500-1502م) أظهرت أنهم كانوا على خطأ كبير. فالخروج الجماعي لبعضهم ورحيلهم عن البلاد في تلك الفترة يعبر عن خيبة الأمل التي عانوها، وكذلك عن عمق جذور الثقافة الإسلامية والإيمان، كما يعبر عن عدم إمكانية الجمع بين ثقافتين في شخصية واحدة.

أما في الفترة الممتدة بين 916-931هـ/1511-1526م فتراكمت خلالها مجموعة أخرى من القوانين التي إذا نظرنا إليها بصورة منعزلة تبدو قليلة الأهمية (وهذا ما يفسر الاهتمام القليل الذي وجه إليها) لكننا عند تجميعها نجد أنها تمثل ميزات عامة لسياسة تتأكد على مر الأيام وإن كنا لا نعرف دائما هوية واضعيها.

فأول هذه النصوص يرجع إلى عام 913هـ/1508م حيث يشير نونيث مولاى في مذكراته الشهيرة إلى لائحة ملكية تحدد استعمال الزي الإسلامي وما زال النص الأصلي لها مجهولا. كما صدرت خمس وثائق عام 916هـ/1511م إحداها في 20 ماي تحدد استعمال وشكل بعض الأدوات كالسكاكين التي يخشى استعمالها كأسلحة، وأخرى في 10 يناير تدور حول الكتب العربية، بالإضافة إلى ثلاث قرارات أخرى بشأن ذبح الحيوانات، وتحديد ولي الشخص من الرجال وولي الشخص من النساء عند التعميد والزواج.

وهكذا يمكننا أن نستنتج أن تكرار هذه اللوائح القانونية يمكن أن يفهم على أنه أمر روتيني أو أنه يدل على عجز السلطات عن تحقيق تطبيق كامل، ولكن الحقيقة أن هذا الفهم يعتبر خاطئا تماما لأن كل نص من هذه اللوائح كان نتيجة لتوترات مستمرة.

فمسلمو اسبانيا حاولوا بكل الطرق إبعاد الخطر الذي تمثله تلك اللوائح حيث كانوا يرسلون لجانا إلى السلطات تشكو الابتزاز والجور اللذين كانوا ضحية لهما، ويقترحون دفع غرامات تتيح لهم عند قبولها كسب الوقت، لكن الحصار كان يضبق عليهم، فمن نص واحد منعزل إلى مجموعة من اللوائح ثم بعد ذلك برنامج متكامل يهدف إلى تدمير ثقافي كامل فصارت سياسة الاحتواء أكثر شمولا وتناسقا.

إن نقطة التحول في التطور الذي بدأ في سنتي 905-906هـ/1501-1502م حدث كذلك في عام 931هـ/1526م عندما أعلنت نتائج وصلت إليها لجنة انعقدت في غرناطة بقرار ملكي اقتضى إزالة كل خصائص "الموريسكيين" وسماتهم. فقد حرم أو حدد استخدام اللغة العربية كتابة أو مشافهة. وكذلك الملابس مثل الملحفة والتعاويذ وغير ذلك من الرقى أو الحلي أو أي رمز له صلة بالدين الإسلامي مثل الختان أو امتلاك العبيد والأسلحة أو الطريقة الإسلامية لذبح الحيوانات، أما عقود الزواج فقد كانت موضع مراقبة خاصة. ولكي تطبق هذه القوانين بصورة حازمة صدر قرار يقضي بإنشاء محكمة التحقيق في غرناطة.

وكم كانت سياسة الاستيعاب السريعة لونا من المثالية المفرطة، فقد تم إهمالها بسرعة وسوف يقسم المجتمع من الآن فصاعدا إلى "مسيحيين قدامى ومسيحيين جدد" أو بصورة أوضح بين "مسحيين حقيقيين ومسيحيين مزيفين". وكذلك فإن وثائق عام 905هـ/1501م – التي كانت تقر المساواة الضريبية بين كل الرعايا — لم تستمر طويلا.

ففي عام 915هـ/1510م فرض نظام ضريبي معقد وشائك يسمى الفارضة وضع على مسلمي اسبانيا فقط. تنقسم هذه الضريبة إلى أربع أنواع الثلاثة الأولى أو ما يعرف بالفارضة الكبرى تشمل: ضريبة عادية سنوية قيمتها واحد وعشرين ألف دوقية، وأخرى غير عادية وقيمتها خمسة آلاف دوقية، وأخرى قيمتها عشرة آلاف وتخصص لدفع تكاليف إنشاء قصر الملك كارلوس الخامس في غرناطة. أما الفارضة الصغرى وتسمى أيضا "فارضة البحر"، وكان يشارك في دفعها النصارى القدامى، فقد كانت تستخدم لدفع رواتب حرس السواحل. وهكذا ففي كل المجالات كان يعامل المسلم المنصر قسرا كشخص مختلف.

وعموما تجلى القهر في المجال الديني في صورتين رئيسيتين: فهو يستند إلى جهاز تشريعي متشعب تم إعداده منذ تاريخ مبكر, وتحسينه بشكل متتال، وكان عمله محو أي مظهر فردي أو جماعي ينتسب للإسلام، ولقد حاول مسلمو اسبانيا من جانبهم إلغاء أو تأجيل أو تغير القوانين التي كانت تهددهم وتضيق عليهم.

فقد نجحوا في ذلك بعض الأحيان، ولكنهم لم يفلحوا بشكل كامل، بالإضافة إلى وجود من يخالفهم من ناحية أخرى، وقد استخدمت السلطات أجهزة قضائية عديدة ضدهم، مثل المحكمة العامة والقيادة العامة في غرناطة، ولكن جهاز القهر الأكثر أهمية والأكبر تسلطا كان محاكم التحقيق.

نشطت هذه المحاكم في ارتكاب الفظائع ضد مسلمي إسبانيا، وصدرت عشرات القرارات التي تحول بين هؤلاء ودينهم ولغتهم وعاداتهم وثقافتهم، فحمل التعلق بالأرض على قبول التنصر ملاذا للنجاة، ورأى آخرون أن الموت خير ألف مرة من أن يصبح الوطن العزيز مهدا للكفر، وفر آخرون بدينهم، وكتبت نهايات متعددة لمأساة واحدة هي رحيل الإسلام عن الأندلس.

تفاقمت القطيعة بين الفئتين ولم تعد تحتاج لأسباب أكثر لتكون خطيرة، وقام الأساقفة بالخطوة الحاسمة في الإجراءات القهرية بعد أن خاب أملهم في نتائج حملات التنصير، ففي عام 975هـ/1565م عقد مجلس كنسي في غرناطة كان لقراراته أهمية خاصة، لأنها وضعت بصورة مدروسة نهاية لسياسة الملاينة من جانب الأساقفة حتى تلك الفترة، فقد حوى نص القرار النهائي تسع مواد تدعو إلى تطبيق كل اللوائح الصادرة قبل ذلك والتي توقف تطبيقها منذ عام 916هـ/1511م.

ولم تعد تستعمل تلك الكلمات مثل: التبشير والوعظ وتعليم العقيدة النصرانية، بل استعملت كلمات تحمل صبغة القهر والإكراه، ولم تترك تلك الوثيقة أي مظهر من مظاهر الثقافة الأندلسية إلا وذكرته: مثل اللغة والثياب والحمام والشعائر الدينية.

ونصح الأساقفة الملك باستئصال تلك الخصوصيات كلها إلى جانب منعهم من امتلاك العبيد وأصبح الوافدون من ذوي الأصل الإفريقي، غير مسموح لهم بالإقامة في مملكة غرناطة حيث تبين أن تأثيرهم على السكان كان غير مرغوب فيه، كما طلبوا من محاكم التحقيق أن تكثف نشاطها وحزمها وأن تشدد عقوبتها بإصدار أحكام أكثر بالتجديف في السفن وتناولت الوثيقة كل شيء حتى السكن.

حيث أمروا بأن تقيم اثنتا عشرة عائلة على الأقل من النصارى في كل قرية من القرى التي كان يسكنها مسلمو اسبانيا، وينبغي أن يستقبلهم السادة ثم يقدمون لهم أماكنهم ومساكنهم وذلك

ليقوموا بزيارات دورية لبيوتهم أيام الجمعة والسبت والأعياد، ليتأكدوا من صدق تطبيقهم للتعليمات، ثم نصح في النهاية بأن يعار كبارهم ورؤساؤهم عناية خاصة.

وقد نفذ ما أمر به رجال الدين، لأنه في العام التالي اجتمع رجال لاهوت وقانونيون وعسكريون في مدريد، وتبنوا طلبات رجال الدين، وأضافوا إليها تحريم الكتب العربية لمدة ثلاث سنوات. وقد نشر القرار النهائي لذلك الاجتماع في 1 يناير من عام 979هـ/1567م.

لما عجزت السلطات الإسبانية بمساعدة محاكم التحقيق عن محو هذا الشعب وأبنائه وتفويت حضارته وغسل دماغه وتعطيل شريعته، استصدرت قانون يقضي بالطرد التعسفي والجماعي كحل نهائي لما أسمته السلطات الإسبانية بـ " المشكلة الموريسكية"؛ فعندما تأكد الملك الإسباني فيليب الثالث، بأن أحفاد المسلمين الذين تم إطلاق اسم "الموريسكيين" عليهم، متشبثون بدينهم وثقافتهم الإسلامية التي رسخها أجدادهم في بلاد الأندلس أصدر قراره المشؤوم في تاسع أبريل من سنة 1080 هـ/1609م القاضي بطردهم.

وهو القرار الذي جاء في صيغة قانون أصدره القصر الاسباني للتصفية العرقية والدينية، والذي اعتبر الأول من نوعه عرفه الإنسانية جمعاء؛ وتشير كتب التاريخ إلى أن قرار الطرد لم يكن سهلا تطبيقه في ظل وجود عوامل متداخلة، سواء منها السياسية أو الثقافية والدينية، وهو ما كان يتطلب سنوات عدة من الإجراءات شملت أسلوب الترهيب والاختيار ما بين التنازل عن المعتقد الإسلامي واعتناق النصرانية الكاثوليكية، مما استدعى إقامة محاكم التحقيق، التي نصبت سنوات قبل إصدار قرار الطرد.

وتكشف الدراسات التاريخية أن القرار اتخذ سرا في 9 نوفمبر من سنة 1080هـ/1609م وبقي كذلك في البلاط الإسباني، ولم يتم البدء في تفعيله على أرض الواقع إلا في سبتمبر من السنة نفسها؛ فنهج التفاعل يقتضي ضرورة مراجعة العديد من القضايا في إطار العلاقة التي تربط إسبانيا بالمغرب على وجه الخصوص، وبالعالم الإسلامي والحوض الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط عموما، والتخلي عن ثقافة الخوف التي تسيطر على الساسة الإسبان في سبيل التأسيس لجوار "جيواستراتيجي" قائم على

التعاون المشترك بدل تبني خلفيات مسبقة تشكك في نوايا الآخر.

وتفيد الأبحاث التي أجريت بهذا الصدد بأن قرار الطرد جاء بعدما تبين للسلطات الكنسية والسياسية أن مسلمي اسبانيا لا يزالون متشبثين بماضيهم أكثر من رغبتهم في الاندماج في إسبانيا النصرانية، وهو ما قد يدفعهم إلى التحالف مع المغرب أو الخلافة العثمانية الآخذة في السيطرة على البحر الأبيض المتوسط حينئذ، والتي كانت سفنها تغير على شواطئ إسبانيا بين حين لآخر.

إن تاريخ العلاقات بين الجماعتين كان أساسه دراميا، وكانت المشاعر التي تستعمل في صدور كل من الفئتين بصورة عامة هي الاحتقار والخوف والكراهية، وهذه العداوة والحقد لم تكن تظهر بصورة مستمرة في الحياة اليومية، ولكنها لم تكن تحتاج لعوامل كثيرة حتى تظهر بصورة وحشية. فقد اضطر مسلمو اسبانيا ، أمام هذا الاستهداف الخطير، إلى استعمال التقية التي شطرت حياتهم إلى نصفين؛ ماذا نسمي هذا الانشطار؟ بالنسبة لمحاكم التحقيق هو نفاق يستحق العقاب، ولكنه بالنسبة لمسلمي اسبانيا كان قارب النجاة الوحيد الذي يسمح لهم بالعيش في بلادهم والحفاظ على دينهم وهويتهم في الوقت ذاته.

لجأ غالبية مسلمي اسبانيا الذين فضلوا البقاء إلى استعمال التقية واضطروا إلى المداراة والمصانعة والتظاهر في العلن بشيء، وفي السر والخفاء بشيء آخر. وبتعبير آخر، تراهم مضطرين إلى الالتفات إلى الآخرين وأخذ قوتهم بعين الاعتبار. ومن هنا يمكننا أن نتصور سياقا يضطر فيه كل أبناء الجماعة المسلمة في إسبانيا (ويمكننا أن نستثني من هذا الحكم من يمتلك منهم الجرأة وقوة التحمل) إلى الاحتماء بالتقية والتطبع بأسلوب العيش المزدوج وأخذ قوة الآخرين بعين الاعتبار، وذلك إذا ما وجدوا أنفسهم، فجأة، في ظل علاقات قوة أخذ ميزانها في الميل لصالح النصارى الذين كانوا في عهد قريب يعيشون تحت حماية المسلمين ويمارسون شعائرها الدينية بكل حرية.

ولم تنفع التقية الدينية التي أمن بها علماء المسلمون "الغرباء المؤمنون" من ملاحقة محاكم التحقيق، ولم تمنع من التنصير الجماعي والفردي ومن المطاردة والمحنة. فكانت التقية توجيه ديني سني للحفاظ على الايمان بالقلب وتأويل القول والتستر في العبادة والمعاملات. كما كان التنصير يهدف

الى تحقيق مرحلة تغريب العقيدة واللغة والعادات ثم اذابة المسلمين كطبقة مستضعفة في الكيان الاسباني الكاثوليكي. لم تكن التقية هي الوسيلة الدفاعية الوحيدة التي اجتهد من خلالها مسلمو اسبانيا في إجاد مخرج لوضعيتهم المأسوية، فقد ابتدعوا أيضا لغة اصطلح عليها في حقل الدراسات "الموريسكية" باللغة الألخميادية.

فقد كان للقرار الذي اتخذته السلطات الإسبانية بمنع استعمال اللغة العربية وتداولها قراءة وكتابة أثرا كبيرا في انحصارها وتراجعها لدى عموم مسلمي إسبانيا. ولقد وقفنا بالفعل على نصوص عربية من تأليفهم لم تستطع احترام قواعد اللغة ونحوها وصرفها وإملائها وبنية جملتها وتركيبها التي عهدناها في نصوص أسلافهم من الأندلسيين القدماء.

كما وقفنا كذلك على نصوص أخرى راعت تلك القواعد دون أن تتمكن من التخلص بصفة تامة وكاملة من بعض المفردات والتراكيب الصوتية العامية الأندلسية العربية والإسبانية. غير أن هـذا لا يمنع من كـون ذات النصـوص، وإن لم تـراع الرونق والتنميق اللغويين بقدر ما اهتمت بتصوير ذاتها ومواكبة مأساتها، فلقد جاءت مفعمة بحس أدبي ملحوظ في كثافة التصوير وسمته وعمقه.

إن النتاج الألخميادي منذ ظهوره على شكل صيغ أولية بسيطة نمى ونضج في هيئة نصوص طويلة خضعت لقواعد خطية قارة إلى حد بعيد. وعلى كل حال، نستطيع أن نقول في حدود هامش لا يستهان به من اليقين أن الحاجة الملحة إلى أداة للتواصل الديني بين المسلمين في اسبانيا الكاثوليكية قد منحت الألخميادية ذلك النضج الذي أشرنا إليه في دراستنا كنتيجة لاستعمال مكثف لهذه الأداة.

فالحافز الذي جعل المسلمين في إسبانيا يقومون بهذه الترجمات هو بدون شك حافز المحافظة، على العقيدة الذي كان هو الهدف المتوخى. ثم إن الخوف من التجديد الآتي عن طريق جهل الدين هو الذي أوحاه. ولكن الترجمة نفسها كانت تمثل تجديد (أو بدعة إذا أردنا استعمال المصطلح الديني الإسلامي).

فكـثيرا مـا تكلـم المؤرخـون والمـختصون في ما اصطـلـح عليه بـ "الـدراسـات الموريسكية" عـن

الانحطاط الثقافي الذي آل إليه مسلمو اسبانيا عند مقارنتهم بأجدادهم الأندلسيين وبمعاصريهم من النصارى. ولكن لم ينظر إليهم في هذا إلا قليل من زاوية الاضطهاد الثقافي الذي كان يمارس عليهم حتى يتسنى إصدار حكم يأخذ بعين الاعتبار عمق البعد الثقافي لهذه الأقلية المضطهدة فكريا ودينيا وجسديا.

إن احتفاظ مسلمي اسبانيا بذلك القدر اليسير من الثقافة وتطويره بالوسائل القليلة التي بقيت بين أيديهم يجعلهم جديرين بالاعتزاز والافتخار ربما أكثر من أجدادهم الأندلسيين ومن معاصريهم النصارى الذين كانوا يتوفرون على كل الوسائل المهيأة وعلى الجو الملائم للقيام بنهضتهم العلمية والثقافية.

ومن ناحية أخرى يجب التعامل مع الثقافة الإسلامية في اسبانيا خلال القرنيين العاشر والحادي عشر الهجريين الموافق لسادس والسابع عشر ميلاديين بنوع من الذكاء الخاص لإدراك النظرة العميقة لهذه الثقافة. ففي هذا الإطار نجد لدى مسلمي اسبانيا تعاملا خاصا مع اللغة التي كانوا يترجمون بها النصوص الدينية من قرآن وحديث وغيرهما من النصوص التي تتصل بالإسلام. وهذا التعامل كان يمليه ذلك الرفض لكل ما هو نصراني. فكانوا يتجنبون استعمال أي كلمة يمكنها أن تؤدي إلى اختلاط مع طقس أو معتقد نصراني.

إن ما يميز هذه الآثار الفكرية هو طغيان الكتابات الدينية فيها على بقية الأنواع الأخرى، وذلك لما في دور الدين من قاسم مشترك يربط بين مختلف أفراد الجماعة المسلمة في إسبانيا الكاثوليكية، والتي كانت ترى فيه أحد المقومات الأساسية لإبراز شخصيتها والذي كان في مقدوره وقايتهم من مغبة الانسلاخ و الذوبان والرضوخ لإرادة الخصم العاتي.

وقد حظي بالاهتمام على رأس هذه الكتابات الدينية كتاب الله جل وعلا المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فتحول بذلك القرآن الكريم إلى الينبوع الذي لا ينصب بالنسبة لحياة "المورسكي" الذي وجد فيه ضالته ومرشده ومستقر أمنه وأمله في جو انعدم فيه بصيص الرجاء من يد قد تمتد لإنقاذهم من عدو يتربص بهم من كل الدوائر؛ من هنا تحول القرآن الكريم إلى المصدر

الحيوي الدي يخط "للمورسكي" طريق حياته في الدنيا والآخرة، كما اعتمد عليه كتشريع يسن له أنماط المعاملات والسلوكيات التي تضمن له حرية البقاء وفسحة الأمل.

وما تبقى من النتاج الفكري فقد انقسم إلى نوعين: هناك ما يسجل الطقوس والتعاليم الإسلامية التي كانت قد أخذت في الضياع والتلاشي، وهناك أيضا النصوص التي تناولت مجادلات تبرز زيف الديانة النصرانية، والنوعان في كلتا الحالتين يظهران تراجعا ملحوظا عن الكتابات المعقدة لمسلمي العصر الوسيط، مثل: كتابات الهاشمي وابن حزم القرطبي وغيرهم.

أما النوع الثاني من هذه المخطوطات التي فكت رموزها فكشفت عن بعض اهتمامات الجماعة المسلمة، فهناك كراسات في الفقه، رسائل في السحر والشعوذة، ورسائل تدور حول الوصفات الطبية، ونبوءات تتعلق بالمستقبل، وتعليمات تشرح كيفية التصرف في حال باغتت محاكم التحقيق المسلمين، وكتابات تسجل شهادات المسلمين حول ظروف اضطهادهم، وأشعار وروايات.

وتكشف المخطوطات خاصية أدبية شديدة الأهمية إذا قرأناها بتمعن واهتمام، ولربما من منظور مختلف قليلا؛ في هذه المخطوطات سنرى – ونشعر بنوع من الشفقة والحزن الاستثنائيين – اختفاء شعب بكامله وانقراضه، ونرى في الوقت نفسه الجهود التي بذلها أبناء هذا الأمة الشهيدة لكبح جماح القوى التاريخية المحتومة التي كانت ستهبط عليهم وتسحقهم.

فقد بذل مسلو اسبانيا جهدا ملحوظا في هذا النمط؛ بحيث استفرغوا فيه، ما كان أهله في حاجة ماسة إليه، من تعاليم تثقيفية ومواعظ دينية وأخلاقية علمية وعملية، وتعلقهم برسول الأمة محمد صلى الله عليه وسلم، وإصرارهم على مخالفة النصارى والتشبث بمقتضيات دينهم وجميع شرائعه وطقوسه.

فقد عكست عملية الجدل الإسلامي لأهل الكتاب روح التسامح الديني الذي كفله الإسلام لغير المسلمين عامة ولأهل الكتاب على وجه الخصوص، إذ يعطيهم حق الدفاع على عقيدتهم، وأكثر من ذلك فقد ضمن لعقيدتهم حرية التعبير عن موقفهم من الإسلام، تلك الحرية التي لا تجد لها مثيلا في أي نظام عقائدي قديما كان أو حديثا.

فقد كشفت عملية الجدل عن مصادر انحراف العقيدة لدى النصارى وخطورة التقليد في العقائد إلى الحد الذي يجعل المقلد مجرد تابع لمن يقلده ومحاك له في أقواله وأفعاله حتى وإن خالفت أبسط أحكام التفكير العقلي السليم. فقد تعرض الجدل الإسلامي لدراسة تاريخ الأديان، ومقارنتها، وهي علوم أصبحت في ظل التطورات السريعة والمتلاحقة التي يشهدها عالمنا المعاصر تدرس الأديان على مستويات متعددة، فتاريخ الأديان يعني معرفة التطورات التاريخية التي صاحبت دينا ما من حيث ظهوره والعقبات التي واجهت انتشاره.

قام علماء المسلمين في إسبانيا بجهود عظيمة في الدفاع عن الإسلام ضد أصحاب العقائد المخالفة خاصة النصارى، محاولين في ذلك بدل أقصى وسعهم في الرد على عقائد النصارى وبيان مواطن الاختلاف بينها وبين الإسلام وتوضيح أفضلية العقائد الإسلامية واتفاقها مع العقل السليم، ودحض اعتراضات العلماء النصارى ضد الاسلام.

وقد مر الجدل الإسلامي مع النصارى في بلاد الأندلس على مرحلتين: أما المرحلة الأولى فهي تشمل الفترة الممتدة من بداية الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس وإلى غاية أواخر حكم ملوك الطوائف. واتسمت هذه المرحلة بعقد المناظرات وتأليف المدونات يحاول من خلالها كل طرف تبيان صدق عقيدته ومدى تطابقها مع العقل والمنطق السليمين.

في حين يمكننا تأطير المرحلة الثانية زمنيا بتاريخ سقوط غرناطة 897هـ/1492م وإلى غاية ساعة الطرد النهائي سنة 1080هـ/1609م؛ واتسمت بفرض النصرانية بطرق قهرية وقسرية، وكان رد الجماعة المسلمة على ذلك بابتداع طريقة جديدة في الجدل وهو العمل الميداني لدحض وتحقير كل رمز أو طقس من طقوس العقيدة النصرانية.

وهذا طبعا يدمج ضمن الفكر الديني لمسلمي اسبانيا الذين حاولوا طبقا لتفكيرهم أن يعبروا على رفضهم لهذه العقيدة بطرق فرضتها عليهم الظروف الاستثنائية التي فرضت منطق القوي المتسلط على أقلية حاولت قدر المستطاع المحافظة على عقيدتها مع بقائها في أرض أجدادها، ولكن المعادلة كان صعب جدا تجسيدها على أرض الميدان، فكان لا بد من الاختيار بين أمرين، فكانت النتيجة

أن غلبت تمسكهم بالعقيدة الإسلامية على حبهم لأرض الوطن.

وكانت مناسبة ليفتخر فيها الفرد المسلم في اسبانيا (بالأنا) المسلمة في مواجهة الآخر (الـذات النصرانية)، إذ اتخذت المناظرة بين المسلم والنصراني صورة أخرى التي عهدنا في مراحل سابقة، فبعدما كانت دعوة لنشر الرسالة المحمدية أصبحت جهاد في سبيل الله، يتطلب الكثير من الشجاعة وقوة التحمل والصبر.

إن استعمال المصطلحات العربية داخل النص الإسباني يجب أن يفهم بالدرجة الأولى في نطاق المجادلة الدينية التي كانت قائمة بين المسلمين والنصارى، وكذا في نطاق اعتزاز كل طرف بدينه وعدم قبول التنازل عن أدنى شيء للخصم. كما تجدر ملاحظة ندرة ترجمة المصطلح العربي إلى الإسبانية بالمقارنة مع كثرة استعمال الأصل.

وعموما ما ميز هده الآثار الفكرية كظاهرة عامة هو شكلها العامي الملفت للانتباه الأمر الذي فسح أمامها مجال الانتشار بين مختلف الأوساط الاجتماعية من "مورسكية مسلمة" و"نصرانية"، مما مهد لها الأجواء لتغطية حاجة أفراد الجماعة المسلمة البسيطة من الثقافة فأصبحت لسان حالهم، وحازت بذلك ورقة الثقافة الشعبية التي تحولت إلى عملة متداولة تعبث بالمحظورات والحواجز المعلنة من طرف محاكم التحقيق.

كما اكتسبت تأشيرة الثقافة الشعبية أيضا والتي من مميزاتها الأساسية حجب المؤلف وانفتاحها على أي نوع من أنواع الإضافات أو التنقيح، وهذا بحسب المناطق التي تتداول فيها؛ إنها باختصار تحولت إلى ثقافة الكل وهذا بطبيعة الحال يدخل ضمن "السياق المورسكي" آنذاك ألا وهو اللجوء إلى أسلوب "التقية" لاتقاء شر من أحسنوا إليهم في يوم ما. وبهذا أصبحت معظم الآثار الإبداعية المكتوبة باللغة "الالخميادية "مجهولة المؤلف واستحالت إلى ملك متاح إلى الذاكرة الجماعية، أما طابعها العام فهو السهولة المتناهية من حيث الأسلوب والأداة وبعدها الكلي عن أي مظهر من مظاهر التصنع الذي هو من خصوصيات التأليف الفردي.

مـا يـلاحـظ على هذه الجمـاعة المسلمـة في إسبانيا أنها اجتهـدت في ايجاد سبلا لدفـاع على

مقومات شخصيتهم الإسلامية، فصلوا صلاتهم وصاموا شهرهم وحافظوا على ممارسة عاداتهم وتقاليدهم الإسلامية سرا فتزوجوا على الطريقة الإسلامية وختنوا أبناءهم واحتفظوا بأسمائهم العربية؛ ودفنوا موتاهم كما نصت عليه الشريعة الإسلامية واعتقدوا في الموت والآخرة راحة للمؤمن ونهاية لمآسيه وهمومه. كما حافظوا على وحدتهم وتضامنهم الاجتماعي في تأسيسهم لنظام خاص بهم اصطلح عليه بـ:" نظام الجماعة".

هذا فيما يخص الفريق الأول الذي فضل المقاومة الإيديولوجية والجهاد الفكري، فيما فضل فريق آخر رفع لواء الجهاد المسلح الذي كان في اعتقادهم ركن من أركان الدين الإسلامي لا يمكن اسقاطه في ظل الظروف التي حاصرتهم؛ على أن يفهم من هذه المواجهات المسلحة التي جمعت الطرفين – المسلم والإسباني – أن ثمة توازنا في القوة، لكن الحقيقة أن ميزان القوة كانت متفاوتة، وغير متكافئة، ولكن القهر الذي عان منه مسلمو اسبانيا حفزهم إلى رفع التحدي.

فالنماذج التي تم عرضها فيما يخص هذا الموضوع بينت إلى أي مدى كان من السهل الانتقال من حالة تمرد فردي إلى تمرد جماعي، ونعلم أن مقاومة الغرناطيين عام 978هـ/1568م لم تكن نتيجة أحداث فجائية، بل يجب أن نعتبرها جزءا من سلسلة طويلة من الأحداث نفسها، والتي نظرا لتكرارها كانت تعطى أسبابا للاعتقاد بالشائعات التي كانت تدور حول مؤامرات. وبين تلك المؤامرات والحوادث التي سبق ذكرها: تمرد غرناطة عامي 905-907هـ/1500-1502م، وفالنسيا 966-967هـ/1525-1526م واشبيلية عام 990هـ/1580م.

إن ما اصطلح عليه في تقارير البلاط الملكي الإسباني بـ "الخطر الموريسكي" لم يكن شيئا خياليا فقد ظهر في شكل حركة جهاد إسلامي وكان الكثير من مسلمي اسبانيا الذين اختلفت تسميتهم من إقليم لآخر ما بين مجرمين ولصوص ومنفيين وقطاع طرق، وقد تحول أمر القضاء عليهم إلى مشكلة مقلقة للسلطة. ولكن على الرغم من صدور اللوائح القانونية المتكررة والدقيقة بين عامي 916-919هـ/1511-1514م فإن هذا لم يتم، ولم تتمكن السلطة من القضاء على حركات المقاومة، بل لوحظ زيادتها في الستينات من القرن العاشر الهجري الموافق للقرن السادس عشر ميلادي.

إذ لم تنطفئ روح المقاومة في نفوس مسلمي اسبانيا، فقد تحصنوا في الجبال المجاورة، فلما سمعت السلطات الاسبانية بما حصل للنصارى في المنطقة، وتخوفا من اندلاع شرارة حركة مسلحة يصعب قمعها فيما بعد، جهزت جيشا مصحوبا بعدد كبير من رعاع النصارى الطامعين في أموالهم وأبنائهم، فأثخنوا في المجاهدين قتلا بينما قضى العطش على عدد آخر منهم. وبعد القضاء على هذه المقاومة، وزع النصارى بينهم أطفال المسلمين لبيعهم عبيدا، وساقوا إلى السفن عراة من نجا منهم من الموت بعد أن أخذوا أطفالهم ونساءهم، وسلبوهم كل شيء.

على أنه يجب الإشارة إلى أنه تمة وجود ظاهرة خطيرة في الجيشين: الخلاف بين القيادات، الذي وصل إلى درجة الكراهية الشديدة، فثلاثة من زعماء مسلمي اسبانيا قتلوا بأيدي أتباعهم وهم: ابن أمية، والحبقى، وابن عبو، وقد أصيب فرج بعد محاولة اغتيال دبرها أحد رجاله.

أما في المعسكر النصراني فلم تصل الأمور بين الزعماء إلى هذه الدرجة – وإن كانت المنافسات ظهرت في أشد صورها – حتى أن القائد ريكيسنس عصى أوامر الملك في عام 979هـ/1569م، إذ بدلا من أن يستمر في بلدة أدرة ليساعد قوات بيليث قرر محاصرة فريخيليانا. وكذلك ترك دوق سيسا غرناطة بعد مغادرة السيد خوان لها بساعات ثم تقدم عليه في اتجاه غواخار سيرا، وذلك بإجهاد قواته في سير متتابع ثم هزم مسلمي اسبانيا وخطف شرف النصر من القائد خوان.

يعتبر الفكر الديني والاجتهادات التي طرأت عليه أحد أسلحة المقاومة التي استعملها مسلمو اسبانيا لرد الهجمة الصليبية الشرسة على كيانهم الحضاري ومقوماتهم الروحية الإسلامية، والدفاع عن عقيدتهم ومحاولة اظهارها على عقيدة خصومهم؛ كذلك محاولة إثبات صلاحية البقاء لما هو أصلح كتمجيد للشريعة المحمدية بأنها خاتمة الأديان.

# الملاحق

# ملحق الأعلام

## حرف الألف

بن أحمد بن الشيخ أبي الحسن علي عبد الله بن يعلى: 904

أحمد بن جمعة المغراوي: 36. 294. 296. 297. 300.

أحمد بن قاسم الحجري: 33. 34. 342. 459. 461. 471. 472. 473. 474. 476. 484. 605. 611. 645. 648. 649. 753. 828. 830. 831. 840. 848. 850. 861. 862.

أحمد بن قاسم بن أحمد: 358.

أحمد زروق: 882.

أدريان أترشتي: 119. 122.

أرقانسيل: 793.

بن الأزرق: 680. 923. 924.

أزماكا غدونو: 188.

أزنار كاردونا: 210.

أسامة بن زيد: 433.

أسامة بن عمير: 431.

استبيان: 317.

أبو إسحاق إبراهيم بن الدباغ: 59.

الملك الإسكندر:527.

إسماعيل المنصور: 258.

الأعشى: 267.

أفلاطون: 682.

أفيلوت قاستيون: 643.

الألباني: 430. 431.

ألفريد بل: 590.

ألفونسو الأول: 584.

ألفونسو الثالث: 59.

إيزيدور: 463. 486.

إيكزولانو: 215.

أبو بكر بن خلف: 888.

دي أتونا: 209.

ابن عبد الرفيع: 190. 193.

أبو عبد الله بادويل:66. 76. 72. 73.

أبو عبد الله الشرفي: 88.

ابن عبد الله الصباح: 342. 440. 480. 481. 607. 625. 699.

عبد الله محمد بن السلمى الجعدالة: 706.

أبو عبد الله بن القاسم: 46. 52. 221.

عبد الله بن أبي حميدة: 453. 431.

أبو عبد الله بن مجاهد: 887.

عبد الله بن عمر: 538.

عبد الله بن عمر بن العاص: 688.

أبو عبد الله بن نوفل: 801.

عبد الله محمد عنان: 28. 30. 217.

أبو عبد الله قسيم: 887.

أبو عبد الله بن أحمد بن أبي بكر القرطبي: 817.

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد السلمي: 681.

أبو عبد الله محمد الخياط: 887.

أبو عبد الله محمد بن مجاري: 682. 707.

أبو عبد الله محمد بن يوسف المواق: 707.

أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصغير: 65. 66. 68. 79. 80. 83. 92. 93, 96. 498. 529. 651. 652. 681. 706. 746. 748. 843.

أبو عبد الله محمد بن محمد بن الجداد: 925.

مولاي أحمد: 482. 497.

## حرف الباء

بابلدون برنادينو: 161.

باولو الخامس: 191. 847.

بايزيد الثاني: 100. 327. 509. 530. 531.

بيرناند فينسنت: 300.

البخاري: 433. 434.

بدرو ونسي دي ليون: 198.

بدرو لونغاس: 425. 554. 591. 592. 593. 600. 601. 602. 605. 607. 608. 690. 692. 693. 715. 717. 718.

بدرو القاسير: 642.

ابن برد: 470.

برناندو بيريت: 417.

برثانيو: 783.

بزنار: 786.

بسكوند يشلبة: 799.

بشار: 554.

القديس بطرس: 102. 814.

أبو البقاء الرندي: 493.

أبو بكر الخوازمي: 448.

أبو بكر الصديق رضي الله عنه: 399. 431. 593.

بكر الطرطوشي: 471.

أبو بكر بن العربي: 818.

ابن يغيش: 96.

بواي مونسون: 522.

سيدي بولغايز أبو الغيث القشاش: 468. 469. 470. 471.

القديس بولوس: 780. 838. 897.

بوي منتون: 543.

بدرو غريرو: 169.

بيريب: 124.

بيريس: 123.

البيضاوي: 533. 666.

البيهقي: 431.

## حرف التاء

الأعمى التطيلي: 513.

تايلور: 392. 413.

الترمذي: 430. 455. 717.

أبو تمام بن غالب: 315.

تميم الذاري:669.

تندلة: 96.

القديسة تيريزا: 898.

القس توماس: 108.

ابن تيمية: 883.

الكونت دي تنديا: 760. 761.

## حرف الثاء

الثعلبي: 666.

## حرف الجيم

ابن الجحاف: 58.

الجرجاني: 388.

ابن جريح: 432.

المطران جريرو: 293.

أبو جعفر أحمد البقني: 707.

أبو جعفر أحمد بن داود البلوي: 682. 707.

أبو جعفر أحمد بن عبد الصمد الخزرجي: 816. 818. 819.

أبو جعفر الصادق: 262.

عبد الجليل التميمي: 569. 592. 601. 606. 607. 608. 717. 718. 814. 824. 842.

جمال يحياوي: 31. 245.

جوان أكان: 644.

جواو الثالث: 119.

ابن الجوزية: 883.

جونتالفو فرناند بثتاجري: 96.

جوهان لانج: 941.

جيرونيما دي لويزا: 485.

جيرونيمو منزور: 941.

جيم بليدا: 802.

دون جوان: 151.

## حرف الحاء

ابن حاتمة الأنصاري: 494.

حارث بن أبي شمر الغساني: 532. 533.

أبو حافظ أبو عبد الله محمد: 682.

أبو حافظ أبو عمر يوسف بن عبد البر التمري: 427.

حامد الثغري: 96.

الحايك سيمون: 614.

الحجاب بن المنذر: 401.

حبوس بن ماكسن: 54.

الحجاج يوسف الشبريلي: 887.

ابن الحداد: 493.

حريث بن قبيصة:685.

ابن حزم: 260. 426. 448. 911.

حسن البصري: 531. 553. 884.

أبو الحسن القلصادي: 924.

أبو حسن علي بن قاسم بن محمد التحيبي: 707.

الملك الحسن الحفصي: 87.

أبو الحسين علي بن سعد بن إسماعيل: 68.

أبو حفص الفاسي: 881.

الحلاج: 878.

ابن حمديس: 493. 497.

ابن حوقل النصبي: 259. 270.

ابن حيان: 279. 465. 488.

أبو محسن علي بن إسماعيل بن سيدة: 328.

## حرف الخاء

ابن خفاجة: 493.

ابن خلدون: 466. 551. 883.

الكاردينال خمينيس: 76. 95. 98. 99. 116. 154. 267. 325. 326. 759. 760. 761. 762. 843.

خوان أكان: 671.

خوان ألفونسو: 519.

خوان النمساوي: 790. 791. 793. 795. 797.

خوان ألونسو الأراغوني: 515.

خوان دي أستريا: 198.

خوان دي ثونيغا وافيانيدا: 161.

خوان لورينك: 123.

خوان مارتين أثارا: 788.

خوان مارتينسسيليثيو: 161.

خوان مارتيني يرويز: 315.

خوانا المجنونة: 116. 118. 124.

خورخي: ألماثينو: 590.

خوليو كارو باروخا: 519.

خير الدين بربروس: 147. 151. 152. 454. 477.

خيران العامري: 55.

## حرف الدال

دافيس لويس: 568.

أبو داود أبو جعفر البلوي: 924.

ابن دراج القسطلي: 448. 493. 494.

أبو الدرداء: 248. 466.

درغوث باشا: 152.

دقلديانوس: 266.

دنون عبد الواحد طه: 44.

دوزي: 585.

دون جيرونيما دي لويزا: 462.

دونيا برييباندا دي قرطبة: 914.

دونيا ماريا دي قرطبة: 914.

دياغة لويس بن عبو: 777.

دياغو نيغالي: 780.

دياقو ديروخاس: 788.

دياقو نثلاث: 784.

ديبالافولس ميلتي: 589.

ديسا: 153. 174. 175. 778. 790. 804.

الديلمي: 248.

ماركيز دي سان جرمان: 210. 211.

دي مندوسا: 94. 210.

دون شارل الثاني: 161.

ديغو لوبث:794.

## حرف الراء

الرافعي: 469.

عبد الرحمن الأهجوري: 829.

عبد الرحمان الحجاري: 818.

عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن فطيس: 427. 449.

عبد الرحمن بن معاوية: 786.

ابن رشيق: 497.

ابن عبد الرفيع الأندلسي: 331. 848.

عبد الرحمن بن معاوية: 786.

روديقو ماندیز سليفا: 215.

ابن الرومي الأندلسي: 494.

المطران ريبيرا: 204.

ريكولدو دي هونتركروني: 417.

## حرف الزاي

زرياب: 940.

الزغل: 73. 86.

أبو زكريا الأنصاري: 882.

ابن زكريا بن محمد بن غانم بن إبراهيم الأندلسي: 342. 428. 434. 472. 477. 753.

ابن زمرك: 67. 493.

أبو زيد عبد الرحمن: 904.

أبو زيدان: 497. 848.

زيدون: 448. 493. 514.

## حرف السين

القديس سالفادور: 780.

سانتا كريستيا: 802.

سانشو دي كاردونا: 556. 557.

ابن سبعين: 641. 878. 889.

ستيفن فنك: 222.

سعيد عادل البشتاوي: 28. 30.

سعيد بن زيد: 431.

سفيان الثوري: 883.

عبد السلام بم مشيش: 890.

سلمان الفارسي رضي الله عنه: 434

السلطان سليم الأول: 45.

سليم بن بايزيد بن محمد خان: 452.

سليمان الدراني: 883.

السلطان سليمان القانوني: 45. 146. 451. 474.

سليمان بن الحكم المستعين: 254.

سليمان بن موسى بن داود: 305.

السهرودي: 878. 882. 888.

سيف الدولة الحمداني: 509.

## حرف الشين

الأب شاتل: 409.

شرشير: 509.

شريح بن محمد: 818.

شعيب بن الحسين الأندلسي: 890.

شلاير ماخر: 389.

شمش ريفي: 152.

ابن شهاب الحجري: 190. 200. 455.

ابن شهيد: 484. 493.

أبو شيشرون: 389.

## حرف الصاد

الصاحب بن عباد: 470. 513. 514. 516.

الصفري: 706.

صليح: 800.

## حرف الطاء

الطبراني: 430. 431. 432.

الطبري: 533. 592.

الطريقي: 801. 802.

طه جابر: 400.

## حرف العين

أبو عاصم: 433.

بن أبي عامر المنصور: 43. 49.

السبدة عائشة رضي الله عنها: 532.

الملكة عائشة: 83. 93.

بن عباد الرندي: 896.

أبو العباس أحمد بن علي بن قاسم: 682.

أبو عباس عبد الله بن محمد: 490. 509.

ابن عبدون: 493. 494.

ابن عبو: 784. 795.

عثمان بن عفان رضي الله عنه: 401. 593.

عثمان داي: 469. 470. 471.

عتيق بن عبد الباقي اللوفي: 901.

ابن عدي: 431.

عزيز مصر: 666.

ابن عساكر: 430.

أبو علي بن حسين: 433.

علي بن حمودة: 254.

علي بن محمد بن شكار: 436.

علي بيريزا: 519.

أبو علي حسين بن محمد: 427.

علي رضي الله عنه: 250. 260. 261. 263. 264. 365. 366. 399. 537. 538. 540. 593. 615. 891. 904.

سيدي علي شبيل الاشبيلي: 904.

عمار بن ياسر رضي الله عنه: 248.

أبو عمر أحمد بن عبد ربه: 257. 492. 513.

عمر بن الخطاب رضي الله عنه: 399. 593.

عمر بن حفصون: 253.

أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري: 449.

عمرو بن عوف بن ملحة: 433.

عمرو بن معد يكرب الزبيدي: 537. 538.

عيسى بن جابر: 442. 856.

عبد الله بن عمر رضي الله عنه: 562.

## حرف الغين

غارثيا نابارو: 914.

غارسيا مرثيدس أرينال: 31. 36. 592. 695. 720. 824.

غريغوري التاسع: 101.

الغزالي: 420.

غسبار كيرو غاجستيان: 186.

غومثالو القرطبي: 766. 769.

## حرف الفاء

السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها: 364.

أبو الفتح السبتي: 880.

الفخر الصقلي: 642.

فدركو كورينتيكر دوبة: 532.

فراس السواح: 660.

فرنسسكو ديرياس: 203.

القديس فرانسوا: 898.

فرنسيسكو راميرز: 770.

فرنشيسكو ريبوبيد: 589.

فرج بن فرج: 629. 776. 777. 780. 787.

أبو فرج عبد الله بن الفقيه: 682.

فرعون: 639.

الفرغواني: 614.

ابن فركون: 493.

فرناندو الحبقي: 795. 796.

فرناندو الغري: 788.

فرناندو دي فالو القرطبي: 786.

فرناندو دي لوات: 168.

فرناندو دي فالو القرطبي: 786.

فرناندو دي لوات: 168.

فرناندو: 64. 67. 68. 76. 83. 88. 90. 92. 95. 96. 97. 111. 116. 118. 125, 154. 233. 320. 321. 373. 678. 748. 766. 767. 768. 769. 770. 771. 843.

فرنسسكو بورتو لماريبو: 788.

أبو فضل بن العميد: 470.

فولتيير: 529.

بن أبي فياض: 466.

فيرناندو دي توليدو: 657.

فيلدنج: 529.

فيليب الثالث: 183. 185. 186. 188. 191. 197. 202. 204. 205. 208. 209. 211. 212. 214. 221. 222. 678. 775. 788. 789. 801. 844. 848.

فيليب الثاني: 116. 121. 124. 143. 158. 159. 160. 161. 162. 163. 164. 166. 167. 168. 169. 170. 175. 176. 178. 180. 183. 196. 205. 320. 325. 335. 474. 687. 774. 775. 801. 844.

فيولنتي قاستيون: 890.

## حرف القاف

عبد القادر الجيلاني: 890.

قاسم بن إبراهيم الادريسي: 253.

قاسم الجنيد: 882. 890.

أبو القاسم الفهري القرعة: 924.

أبو القاسم بن رضوان بن غيش: 95.

أبو قاسم عبد الملك: 81. 95.

أبو قاسم عبيد الله بن الحسين بن الحسن بن جلاب البصري: 856.

قاسيا دير وخاس: 788.

قتادة: 440.

قريقوري دي ميراندي: 169. 170.

قسنطين: 41.

القشيري: 881.

القلصادي: 706.

القميطور: 58.

## حرف الكاف

كاتارينا: 119.

كاترين دوسيسن: 898.

كاترين دي ميديشي: 144.

كاتيلينا: 116.

كارلوس الخامس: 116. 117. 118 119. 120. 121. 122. 123. 124. 125. 126. 127. 128. 132. 133. 135. 136. 138. 139. 141. 142. 143. 144. 145. 146. 148. 149. 150. 151. 152. 153. 154. 155. 158. 159. 160. 161. 162. 163. 164. 170. 173. 318. 678. 750. 774. 776. 844. 932.

كاستيخا ويسكا: 630.

ابن كثير: 552. 811.

كريستيان الثاني: 118.

عبد الكريم الجيلي: 900. 901.

عبد الكريم القيسي البسطي: 493. 514.

كعب الأحبار: 533. 666.

الكلابادي: 880.

الوزير كماشة: 81. 746.

كلمنت السابع: 127.

## حرف اللام

دون لويس فاخاردو: 211.

القديس لويس: 780.

لانج: 393. 394.

لايوش الثاني: 119.

ليواي مونسون: 701.

لجيرونيمو المالح: 788.

لسان الدين بن الخطيب: 263. 484. 494.

أبو لهب: 248.

لوبي أريغون: 418.

لورينثو كالبوروثان: 589.

لوسي لوبيز بارالت: 361.

لوي كارديناك: 633. 701. 823. 824. 827.

لويز سافوا: 146.

ليرما: 191. 200. 206. 847.

ليون العاشر: 145.

ليونار دي مسكريناس: 160.

## حرف الميم

ابن ماجة: 432.

مارتن ديلاتوري: 589.

مارتين دي سالبيترا: 723.

ماركو دي غوار دلاخارا: 604.

ماركوس ابن مليح: 795. 797.

ماركوس الزمار: 788.

ماريا لابانيا: 670. 671.

ماريانو سوبر فيا أي لوستالي: 587.

ماكسيمليان: 16. 125.

مالك بن عوف النصري: 538. 539. 540.

مانويل الأول: 118.

المتنبي: 509.

المتوكل: 495.

مجاهد العامري: 55.

أبو محسن علي بن إسماعيل بن سيدة: 315.

السلطان محمد الأول: 323.

محمد الثاني المستعلي: 53.

أبو محمد الجابري الزيعجي: 924.

السلطان محمد الفاتح: 46. 396. 423.

محمد الناصر ابن يعقوب المنصور: 59.

محمد بن أحمد بن أبي بكر ابن فرج الأنصاري: 817.

محمد بن أحمد ولي الدين الديباج: 901.

محمد بن إسحاق بن يسار: 343.

محمد بن أ مية: 631. 782. 785. 786. 787. 788. 792. 793. 914.

محمد بن حيون الحجاري: 257.

محمد بن داوود بن سفيان: 305.

محمد بن عبد الرحمن الأوسط: 815.

محمد بن عبد الله الصغير العقيلي: 529.

محمد بن علي: 556.

محمد بن عيسى القرطبي: 256.

محمد بن يوسف النصري: 63.

محمد خان: 474.

محمد رضا: 246.

محمد رمضان: 514. 535.

محمد عاطف غيث: 660.

أبو محمد عبد الوهاب بن محمد بن أبي الحسن بن علي بن قاسم بن محمد التجيني: 707.

أبو محمد علي بن سعيد ابن حزم: 816. 825.

محمد قاصر: 438.

محي الدين بن العربي: 878. 887. 888. 896. 897. 900.

مراد داي: 501.

السلطان مراد: 476.

مسعود بن حمزة بن أحمد: 904.

الامام مسلم: 434. 614. 456.

المعتصم بن صمادح: 495. 516.

المعتضد: 516.

المعتمد ابن عباد: 493. 495.

المعز لدين الله الفاطمي: 259.

المقتدر بن هود: 815.

المقري: 192. 221. 495. 849.

مكسيمليانو فرناندو: 163.

منذر بن سعيد البلوطي: 258.

المنسي ودي أريبالو: 420.

ابن منظور: 280. 810.

مننب أريقالو: 443.

الامام مواق: 684. 709.

موسى ابن غسان: 82. 83.

موسى الأشعري: 431.

موسى بن عمران الميرتلي: 887.

المركيز موندخار: 174. 175. 777. 778. 779. 784. 790. 804.

القديس ميخائيل: 780.

ميخائيل دير وجاس: 776. 779.

ميخائيل موسى غاز: 780.

مخيل بلاسيوي بن أبروتمو بلاسيويس: 786.

ميخيل دي غرانا شعبان: 788.

ميغيل أسين: 590.

ميغيل نخيل بونيس: 36.

ميقال موسى: 336.

بن ميمون الادريسي: 901.

ميندیث بیدال: 589.

## حرف النون

نافيخيرو: 933.

الامام النسائي: 431.

أبو نصر السراج الطوسي: 880.

نونة بنت أبي المدني: 887.

نيكولاس كابريانا: 934.

## حرف الهاء

هارون بن سعيد العجلي: 262.

ابن هانئ الأندلسي: 256. 492. 494.

هربرت سبنسر: 392.

هراننده الصغير: 777.

أبو هريرة رضي الله عنه: 434. 685.

هشام المؤيد: 254.

الهمداني: 448. 470.

هنري ألبرت: 145.

هوكونو: 799.

الهيثم بن جماز: 452.

الهيثمي: 430.

## حرف الواو

أبو الوليد إسماعيل: 69.

والونيا خوانا ديمنوثا: 96.

وليام جيمس: 390.

وليم دي كرويحا كمشيفر: 119.

الونشريسي: 295. 303. 306.

## حرف الياء

يحي بن حسان: 305.

يحي النيار: 96.

القديس يعقوب: 92.

القديس يوحنا: 149. 501.

يوسف الأول: 759.

يوسف الثالث: 493.

# ملحق القبائل، الدول والطوائف

**حرف الألف**

بنو إسرائيل: 556. 667. 693.

الأتراك: 188.

بنو أمية: 250. 251. 253. 354. 256. 260. 314. 324. 786. 787.

الاسبان: 28. 31. 32. 33. 39. 46. 47. 57. 60. 61. 64. 66. 72. 74. 76. 78. 88. 91. 96. 98. 100. 101. 111. 174. 175. 176. 177. 178. 183. 184. 185. 186. 188. 194. 198. 202. 205. 234. 238. 287. 291. 321. 368. 369. 373. 396. 423. 428. 429. 435. 438. 448. 449. 457. 471. 500. 522. 518. 520. 540. 541. 553. 584.584. 585. 586. 587. 601. 658. 663. 667. 696. 698. 708. 720. 759. 766. 768. 776. 788. 818. 834. 861. 907. 908. 928. 939.

الأفارقة: 32.

بنو الأفطس: 54. 495. 516.

الأندلسيون: 255. 256. 266. 267. 355. 373. 393. 425. 426. 448. 448. 465. 466. 479. 489. 491. 507. 511. 513. 653. 897. 902. 937.

الألبيين: 104.

الألمان: 164.

الانجليز: 193.

## حرف الباء

البربر: 45. 53. 61. 251. 252. 294. 301. 612.

بني برزال: 53.

البروتستانت: 117. 121. 137. 139. 142. 143. 155.

البيزنطيون: 423.

الدولة البويهية: 254.

## حرف التاء

الترك: 419. 612.

التونسيون: 491. 492.

## حرف الثاء

ثقيف: 538.

آل الثغري: 96.

## حرف الحاء

الحبش: 419.

بنو الحضرمي: 359.

الحسنيون: 53.

الحموديون: 253. 254. 255.

الحواريون: 41.

## حرف الخاء

بنو خزرون: 54.

الخوارج: 260. 422.

## حرف الجيم

الجداميون: 53.

بنو جوهر: 52.

## حرف الدال

بنو دمر: 54.

الدونيبكان: 103.

## حرف الزاي

بنو زيري: 54.

## حرف السين

الساسانيون: 418.

بنو سراج: 776.

## حرف الشين

بنو شيبة: 725.

الشيعة: 255. 256. 260. 267. 269. 270. 273. 277. 281. 282. 283. 284. 422.

## حرف الصاد

بنو صمادح: 55.

الصنهاجيون: 55.

## حرف الطاء

بنو طاهر: 55.

ملوك الطوائف: 43. 44. 45. 46. 49. 50. 51. 52. 55. 57. 465. 495. 923.

## حرف العين

بنو عامر: 538.

الدولة العامرية: 49. 54.

بنو عباد: 52. 54. 494. 513.

العباسيون: 45. 46. 250. 251. 252. 260. 261. 265. 786.

الخلافة العثمانية: 456. 474. 476. 478. 513. 757. 779. 798. 799. 802.

العرب: 32. 38. 39. 47. 61. 191. 194. 251. 252. 358. 360. 361. 368. 369. 373. 406. 408. 417. 418. 419. 452. 453. 457. 509. 510. 518. 544. 611. 682. 917.

بنو عرابة: 44.

## حرف الفاء

الفاطميون: 253. 254. 256. 258. 259.

الفرس: 419. 483.

آل فرعون: 266.

الفلمنك: 119. 120.

الفرنسسكان: 103.

الفرنسيون: 120. 148. 159. 703.

الفهريون: 53.

## حرف القاف

بنو قاسم: 52.

القروسطيين: 396.

قريش: 249. 452. 540. 682.

## حرف اللام

الماتردية: 422.

اللخميون: 52.

المعتزلة: 422.

اللوتريون: 117.

## حرف الميم

المدجنون: 28. 29. 37. 326. 843.

المرابطون: 47. 49. 57. 585. 704. 923.

بنو مروان: 270. 786.

المستعربون: 584. 586.

بنو الملوح: 538.

الموحدون: 49. 47. 585. 941.

مورو: 47.

الموريسكيون: 27. 28. 29. 31. 36. 48. 188. 194. 199. 206. 214. 277. 290. 294. 315. 326. 327. 469. 554. 695. 696. 698. 768. 782. 784. 790. 804. 843. 915. 916. 917. 919.

## حرف النون

النصارى: 421. 438. 439. 440. 447. 448. 449. 460. 470. 474. 475. 507. 509. 518.
562. 564. 587. 652. 656. 748. 751. 756. 763. 764. 781. 782. 787. 799. 800. 808.
810. 812. 815. 816. 818. 819. 820. 822. 823.824. 827. 828. 829. 830. 831. 832.
833. 834. 835. 836. 837. 838. 839. 844. 848. 849. 850. 851. 859. 861. 862. 866.
868. 897. 898. 915. 917. 918. 921. 928. 929. 930. 932.937.

الدولة النصرية: 941.

قبائل بني النضير: 538.

بنو دي النون: 54.

## حرف الهاء

قبائل هوازن: 538.

بنو هود: 52.

# ملحق المدن والأماكن

## حرف الألف

ابدة: 60. 798.

أبلة: 108.

البحر الأبيض المتوسط: 473. 509. 765.

البيرة: 71. 262. 587.

الجزيرة الايبيرية: 38. 106. 120. 193. 356. 357. 509. 746. 747.

أثناتي: 86.

أججير: 86.

جبل الأحمر: 769. 770. 771.

أدرا: 788.

أندرش: 86. 93. 221. 767.

آراغون: 63. 64. 87. 106. 108. 117. 118. 119. 122. 124. 125. 136. 144. 162. 165. 167. 171. 198. 205. 209. 213. 345. 349. 351. 515. 522. 555. 563. 565. 566. 567. 701. 747. 797. 798. 799. 800. 934. 939.

حصن أربة: 795.

أرجبة: 86. 779. 789.

الأرجنتين: 165.

أركوس: 860.

أرميليا: 93.

اسبانيا: 27. 28. 29. 30. 31. 32. 34. 38. 39. 40. 43. 44. 45. 47. 48. 50. 59. 65. 71. 74. 76. 77. 78. 101. 106. 107. 109. 111. 112. 116. 117. 118. 119. 123. 125. 126. 129. 133. 134. 135. 136. 137. 140. 142. 143. 145. 146. 147. 149. 150. 153. 154. 155. 158. 159. 160. 161. 162. 163. 164. 165. 166. 167. 168. 169. 170. 171. 172. 173. 174. 175. 176. 178. 179. 180. 181. 183. 184. 185. 188. 189. 190. 191. 192. 193. 194. 195. 196. 197. 198. 199. 200. 202. 203. 204. 206. 207. 208. 214. 215. 235. 236. 237. 240. 241. 242. 244. 245. 246. 256 . 260. 262. 263. 264. 266. 267. 268. 269. 270. 273. 275. 276. 277. 282. 283. 284. 285. 286. 287. 288. 289. 290. 291. 292. 293. 294. 295. 296. 299. 302. 303. 306. 308. 311. 312. 315. 316. 317. 318. 321. 326. 327. 328. 329. 330. 331. 332. 333. 334. 335. 336. 337. 339. 340. 350. 351. 353. 357. 361. 367. 368. 369. 370. 371. 372. 373. 377. 403. 404. 408. 409. 413. 414. 415. 416. 417. 418. 419. 420. 421. 422. 423. 424. 425. 426. 428. 432. 434. 435. 437. 438. 440. 441. 443. 445. 449. 450. 455. 456. 457. 462. 463. 464.

.465 .466 .467 .468 .471 .477 .479 .480 .481 .483 .488 .489 .496 .500 .502 .511
.512 .513 .515 .518 .519 .520 .521 .522 .523 .526 .528 .529 .530 .532 .533 .534
.535 .536 .537 .540 .541 .542 .543 .544 .545 .546 .548 .549 .553 .554 .556 .557
.558 .588 .590 .591 .592 .598 .601 .602 .603 .604 .605 .607 .608 .609 .610 .611
.612 .614 .616 .621 .623 .624 .626 .627 .628 .629 .630 .631 .633 .634 .635 .636
.637 .640 .641 .642 .645 .652 .653 .655 .656 .662 .665 .666 .671 .675 .678 .679
.680 .683 .685 .686 .687 .687 .688 .689 .690 .691 .753 .755 .757 .759 .761 .764
.765 .768 .769 .771 .772 .774 .775 .776 .778 .779 .782 .784 .788 .790 .791 .794
.798 .799 .800 .801 .802 .808 .809 .810 .816 .822 .824 .825 .826 .827 .828 .827
.828 .831 .832 .835 .836 .841 .843 .844 .845 .846 .848 .850 .851 .854 .855 .856
.857 .858 .859 .860 .862 .863 .864 .865 .866 .868 .871 .872 .873 .875 .879 .893
.899 .901 .902 .907 .908 .909 .913 .915 .917 .918 .919 .920 .921 .924 .924 .925
.926 .927 .928 .929 .930 .932 .933 .934 .935 .936 .937 .938 .939 .940 .941 .942

جبال اسبادن: 772.

استراليا: 125. 414.

أسترامادورا: 176.

إسطنبول: 460.

الأسكويال: 780.

اشبيلية: 161. 176. 177. 203. 212. 313. 417. 761. 563. 764. 798. 815. 887.

أشبونة: 60. 204.

أصفهان: 889.

المحيط الأطلسي: 209. 530.

الفردات: 164.

إفريقيا: 164. 191. 253. 403. 657.

افريقية: 521.

الإقليم: 521.

إنكلترا: 116. 145. 164.

جبال الألب: 209. 788.

ألبا: 162.

ألبونوالاس: 788.

الدا: 629.

المانشا: 213.

ألمانيا: 103. 126. 136. 138. 149. 158. 164. 464.

ألموخيا: 44.

ألموناسيد دي لاسييرا: 350.

ألمرية: 44. 55. 129. 315. 494. 501. 502. 587. 788.

أليكانت: 210.

أمريكا: 124. 148. 158. 164. 165. 769. 824.

أمريكا اللاتينية: 224.

أمستردام: 485.

أنحرون: 789.

الأندلس: 28. 30. 33. 34. 35. 37. 38. 39. 44. 47. 49. 50. 51. 52. 55. 56. 57. 58. 59. 60. 61. 62. 63. 66. 67. 69. 71. 72. 77. 79. 80. 91. 94. 193. 194. 200. 210. 212. 214. 232. 233. 235. 246. 313. 314. 315. 316. 322. 324. 333. 341. 347. 356. 359. 360. 371. 377. 415. 426. 427. 428. 447. 448. 449. 450. 459. 460. 461. 465. 466. 472. 476. 487. 488. 489. 492. 494. 495. 496. 502. 509. 511. 526. 543. 545. 588. 615. 636. 637. 651. 678. 679. 680. 681. 682. 683. 684. 685. 746. 748. 755. 758. 807. 808. 809. 810. 812. 814. 815. 819. 821. 822. 825. 828. 831. 840. 844. 848. 849. 855. 856. 877. 878. 879. 886. 887. 888. 889. 890. 891. 893. 896. 898. 899. 900. 901. 902. 909. 910. 911. 912. 923. 924. 935. 937. 938. 939. 940.

أنوستردامث: 487.

أنها: 200.

أوروبا: 101. 104. 159. 161. 164. 165. 266. 314. 403. 464. 486.

أوسيكا: 587.

إيران 254.

إيطاليا: 103. 147. 148. 165. 207. 213. 233.

نهر ايبرو: 212.

## حرف الباء

باثا: 44.

باثا ويسكار: 44.

الباسك: 65

باريس: 824.

بادول: 44.

البداخور: 45.

نهر لابلاتا: 165.

البرازيل: 45. 165.

براغواي: 165.

بورتوريكو: 165.

البرتغال: 118. 119. 126. 204.

بجاية: 151. 818.

برجنديا: 146.

بال دي روبلس: 209.

بريشتر: 56.

البرتغال: 118. 119. 126. 204.

برجة: 86.

بخارى: 889.

بشترتة: 798.

برشك: 453.

برشلونة: 125.

بسطة: 500. 503. 681.

جبال البشرات: 87. 94. 747. 761. 765. 767. 768. 769. 770. 777. 780. 785. 786. 789. 796. 804.

البشرة:221.

البصرة: 253.

بطليوس: 48. 54. 177. 315. 494. 495. 798.

برغش: 133.

بلاموس: 162.

بلبيونت: 670.

بلجيكا: 165.

بلنسية: 44. 45. 50. 52. 61. 123. 124. 127. 133. 135. 162. 141. 169. 177. 178. 185. 190. 191. 197. 198. 199. 205. 207. 208. 209. 210. 314. 320. 463. 799. 800. 801. 847. 889. 914.

جزر البهارات: 165.

بليطكس: 642.

بليدا: 214.

بلييوانت: 643.

بيناكي: 44.

البيازين: 98. 174. 759. 762. 763. 764. 778. 781. 784. 787. 788. 790.

بيزيريس: 98. 174. 759. 762. 763. 764. 778. 781. 784. 787. 788. 790.

بيزيريس: 105.

بوهيميا: 119.

بيريس: 123.

بورغونيا: 124. 125.

المملكة البرينية: 145.

بينما: 165.

بيرو: 165.

بنيا روجا: 209.

بيناروث: 210.

بغداد: 314. 888.

البقيرة: 789.

بلش: 500. 524.

بليش: 262. 616.

بورجس: 914.

بيارن: 797. 800.

بيرم: 802.

## حرف التاء

تاويتي: 564.

تركيا: 657.

بلدة تريزة: 801.

تروخيلو: 462.

ترينتو: 169.

ترينداد: 165.

تشيلي: 165.

تل البذول: 93.

تلمسان: 453.

تونس: 152. 432. 469. 470. 514. 831. 890. 891. 905.

تول: 164.

تولوز: 106.

توليدو: 200.

تيطوان: 515. 519.

## حرف الجيم

الجابية: 189.

الجزائر: 150. 458. 459. 500. 778. 794. 887. 890.

قصر الجعفرية: 371.

جليقية: 176.

الجوف: 252. 262.

جيان: 62. 107.

## حرف الحاء

الحامة: 64.

الحجاز: 451.

البيت الحرام: 417.

حلب: 888.

قصر الحمراء: 748. 902.

حنين: 562.

حلق الوادي: 152.

## حرف الخاء

الجزيرة الخضراء: 62.

خلاشي: 801.

وادي خوكار: **801**.

## حرف الدال

نهر الدانوب: 149.

دانية: 45. 55. 65. 189. 315.

نهر الدجلة: 606.

دلاية: 86.

دمشق: 327.

الدنمارك: 118.

ديلا: 123.

## حرف الراء

رصافة: 189.

وادي رقوط: 211.

ساحة الرملة: 267. 326.

روسيل: 125.

روسيليون: 165.

رندة: 48. 53. 500. 502. 524. 771. 795. 797.

روما: 96. 101.

الرويضة: 514.

وادي رونكال (نافارا): 655.

قلعة الرياح: 216.

ريكلا: 350.

## حر ف الزاي:

بئر زمزم: 652.

زلاقة: **4**70.

## حرف السين


ساروزار دي موندوزا: 214.

ساكسون الألمانية: 139.

سان بيدرو: 186.

سانتا ماريا لانوبيا: 636.

سان خوان دي لويس رييس: 781.

سان كليمنتي: 913.

سانتيغو دي كراكس: 165.

سبتة: 262.

سردينيا: 125. 165.

سرقسطة: 50. 53. 60. 109. 262. 314. 350. 371. 444. 564. 565. 567. 815.

سقوبية: 335.

السقيفة: 260. 419.

سوكاباموس: 860. 913.

سمرقند: 889.

سمورة: 122.

سويسرا: 698.

سند: 779.

## حرف الشين

شاطبة: 60.

الشام: 266. 398. 477. 768. 887. 889. 901. 902.

شقوبية: 107. 122. 177. 442.

شرشال: 453.

جبل شوتي: 633.

## حرف الصاد

قلعة الصخرة: 903.

صقلية: 125. 165. 789. **889**.

## حرف الطاء

جبل طارق: 262.

طرطوشة: 60.

طمنكة: 177.

طلابلاطي: 789.

طليطلة: 54. 107. 108. 123. 177. 267. 314. 371. 757. 817. 819.

طنجة: 262.

## حرف العين

حصن العقاب: 56. 59. 60.

العدوة: 196. 222.

العراق: 266. 438. 887. 888.

الجزيرة العربية: 417. 418. 419.

جبل عرفة: 625.

جنة العريف: 777.

العمورية: 509.

## حرف الغين

الغاتيوس: 44.

غاليثيا: 590.

غردي: 589.

غرناطة: 31. 32. 38. 39. 44. 46. 50. 51. 54. 61. 62. 63. 65. 66. 68. 69. 70. 71. 72. 73. 76. 77. 78. 79. 80. 81. 82. 83. 84. 85. 86. 89. 91. 93. 95. 98. 101. 102. 106. 107. 112. 113. 165. 167. 169. 170. 171. 172. 173. 174. 175. 176. 178. 179. 180. 196. 198. 217. 245. 260. 266. 267. 268. 271. 289. 290. 315. 316. 320. 653. 678. 680. 681. 682. 747. 748. 749. 757. 758. 759. 760. 761. 762. 763. 764. 765. 768. 769. 776. 777. 778. 779. 782. 786. 788. 790. 791. 795. 796. 804. 818. 822. 843. 844. 855. 865. 889. 902. 905. 910. 912. 923. 925. 929. 930. 934. 937. 938. 940. 941.

وادي الغزالة: 481.

غواديكس: 44.

غويكار: 630.

## حرف الفاء

بلاد فارس: 889.

فاس: 508. 889.

فالنسيا: 187. 210. 211. 347. 417. 555. 656. 844.

فال ريكون: 216.

فالور: 914.

ميناء الفاكيس القطالوني: 212.

نهر الفرات: 606.

فرنسا: 103. 105. 106. 117. 118. 122. 126. 136. 142. 143. 144. 145. 147. 148. 164. 165. 184. 207. 213. 224. 484. 800. 802. 803. 826. 840.

فرنش كونته: 165.

الفلاندر: 119. 144. 161.

فينيانا: 44.

فورمز: 138.

فيرارا: 144.

فينا: 149.

فلوريدا: 165.

فلنديس: 164.

فلندرا: 165.

فبارة: 209.

جزائر فليبين: 394.

## حرف القاف

القاهرة: 45. 315.

قرطبة: 50. 52. 53. 60. 107. 109. 123. 177. 314. 322. 323. 545. 616. 889. 566. 587.

قرمونة: 53.

قشتالة:50. 64. 77. 83. 87. 92. 107. 108. 116. 119. 120. 121. 122. 124. 125. 162. 161. 162. 168. 176. 177. 189. 190. 196. 200. 208. 211. 214. 251. 253. 258. 316. 320. 336. 349. 442. 460. 747. 772. 788. 790. 791. 798. 799. 800. 930. 940.

القسطنطينية: 45. 46. 395. 376. 403. 475.

قنارية: 504.

نهر قيصون: 631.

قوواط: 642.

قطالونيا: 77. 125. 128. 135. 141. 162. 198. 216. 218. 362. 543. 522. 788.

قونقة: 767.

قومس بن أنتنتيان: 815.

قالور: 914.

## حرف اللام

لاردة: 767.

لوشة: 65. 86.

ليبانت: 187.

ليكنت: 189.

ليون: 200.

لشبونة: 568.

ليطكس: 670.

لوشانا: 643.

لندن: 697.

لوشار: 767.

لانخروف: 767

وادي لكرين: 779. 788.

فحص اللوز: 779.

لوقوونو: 914.

## حرف الميم

ماتشارابياخا: 44

ماريا: 644.

مالطا: 149.

مالقة: 96. 262. 500. 501. 503. 616. 695. 697. 797.

البحر: 118. 125.

وادي المخازن: 204.

مدريد: 146. 169. 341. 587. 588. 589.

المدينة المنورة: 417. 438. 460.

مر: 60.

مراكش: 346. 460. 504. 505. 831. 889.

مرسية: 50. 55. 60. 211. 218. 804. 887.

مرشانة: 86.

مزدلفة: 652.

مستغانم: 187.

المشرق: 250. 251. 252. 255. 260. 426. 448. 487. 492. 772. 878. 887. 900.

مصر: 254. 266. 451. 476. 484. 772. 831. 887. 888. 890.

المغرب الأقصى: 461. 515. 778. 848. 887.

المغرب العربي: 150. 158. 188. 199. 205. 207. 209. 212. 213. 250. 252. 255. 256. 290. 303. 307. 536. 615. 640. 746. 762. 769. 772. 779. 887. 889. 900. 902. 937. 939.

بيت المقدس: 480. 482. 483. 887.

مكة المكرمة: 46. 132. 259. 417. 418. 438. 480. 481. 699. 700. 701.

خليج المكسيك: 165.

مليانة: 555.

منشمة: 476.

المنصورة: 788.

المنكب: 262. 521. 616.

مني:652.

المهدية: 469.

مهلبرغ: 142.

موترپل: 44.

مورو: 54.

مورون: 145.

موريغنسبورغ: 137.

موله دي كورتس: 801.

مونتيخاكي: 44.

مونزون: 135. 141.

مونوبولي: 823. 824.

ميتس: 164.

ميريز: 145.

ميشق: 476.

ميلان:145. 165.

ميلانو: 125. 144.

ميلانيا: 146.

ميورقة: 60. 208.

ميوركا: 125.

## حرف الكاف

كابريزا: **14**9.

الكاريبي: 124.

كاسكوقم: 802.

كاليفورنيا: 165.

كامبودي الزيتون: 902.

كوبا: 165.

كورتش: 801.

كوفرانتس: 801.

كونت: 200.

كوينكا: 697. 858. 859. 860.

كيرنتنتير: 125.

كينو: 165.

## حرف النون

نابولي: 125. 146. 165. 789.

قرية الناصرية: 41.

نافارا: 124. 566. 567.

نافارو اللوكسمبورغ: 145.

نجد: 417.

نجران: 417.

النمسا: 116. 119. 125. 138. 149. 151.

نورمبرغ: 149.

نيس: 147.

نهر النيل: 147.

نينا أوخان: 44.

نيو سردينيا: 125.

## حرف الهاء

هابسبورغ: 119. 125.

هند: 165.

هوغسبورغ: 137.

هولندا: 118. 120. 138. 139. 143. 144. 159. 166. 484. 840.

وادي هار: 801.

## حرف الياء

يثرب: 397.

دير يوستي: 120.

## حرف الواو

وأغوابيبا: 209.

# قائمة المصادر والمراجع

**القرآن الكريم**

## قائمة المصادر والمراجع باللغة العربية

### *- المخطوطات

1- بن أحمد ابراهيم بن زكريا بن محمد بن غانم ، العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع، مخطوط رقم: 1252، الجزائر، المكتبة الوطنية . الحامة . قسم المخطوطات.

2- البكري الصديقي محمد أبي سرور، فتح الرحمانية في الدولة العثمانية، المخطوط رقم: 1651، الجزائر: المكتبة الوطنية (الحامة).

3_ ابن صباح عبد الله، نصاب الأخبار وتذكرة الأخيار، رقم المخطوط: 2295، تونس: دار الكتب التونسية.

4- مجهول، رثاء احتلال المسيحيين، مخطوط رقم: 1627، الجزائر، المكتبة الوطنية . الحامة . قسم المخطوطات.

5- مجهول، كتاب غزوات عروج وخير الدين، مخطوط رقم: 1622، الجزائر: المكتبة الوطنية (الحامة).

6- مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، مخطوط رقم: 1528، المغرب، الخزانة الحسنية.

### أ)- الوثائق الأرشيفية:

- ملفات الوثائق العثمانية، الجزائر: المكتبة الوطنية (قسم المخطوطات):

7- ملف رقم: 1642، الرسالة رقم: 20، 22، 30.

8- ملف رقم: 3205، الرسالة رقم: 15.

9- ملف رقم: 3206، الرسالة رقم: 03.

ب)- ***المصادر::***

10- ابن آبار أبو عبد الله محمد ابن أبي بكر القضاعي، التكملة لكتاب الصلة، ج: 1، تح: عبد السلام هراس، بيروت: دار الفكر، د ط، 1995م.

11- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج: 5، مر وتص: الذقاق محمود يوسف، بيروت: دار الكتب العلمية، ط:1، 1407هـ/1987م.

12_ بن أحمد الفاسي محمد، حاشية ابن حمدون على مبارة، ج: 1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د ط، د س ط.

13- الإدريسي بن عبد الله بن إدريس أبو عبد الله محمد الحمودي ، القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس مقتبس من كتاب نزهة المشتاق، تح: إسماعيل العربي، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، د.ط،،1983م.

14- الأسدي بن عبد الله ابن سهل أبي الأصبح عيسى، ديوان الأحكام الكبرى والإعلان بنوازل الأحكام وقطر من سير الحكام، تح: يحي مراد، القاهرة: دار الحديث، د ط، د س ط.

15- ابن بشكوال، كتاب الصلة في تاريخ علماء الأندلس، بيروت: المكتبة المصرية، ط: 1، 2003م.

16- البيهقي بن موسى ابن علي بن الحسين أبو بكر أحمد، الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد، بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، ط: 1، 1424هـ/2003م.

-17 التنسي أبو عبد الله، تاريخ دولة الأدارسة من كتاب نظم الدر و العقيان، تح: عيد الحميد حاجيات، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، د ط، 1984م.

18- التوزري بن الشباط بن علي محمد، وصف الأندلس (قطعة من كتاب صلة الصمط وسمة المرط)، در وتح: أحمد مختار العبادي، مدريد: المعهد المصري للدراسات الإسلامية، ط:1، 1971م.

19- ابن تيمية بن عبد الحليم أحمد، الفرقان بين الحق والباطل، تع: يوسف غزال، الجزائر: مكتبة النهضة الجزائرية، د ط، د س ط.

20- ، اقتضاء الصراط المستقيم، تح: محمد حامد فقي، د ب ن، د د ن، دط، د س ط.

21- جار الله بن أحمد بن عمر أبو القاسم محمود، أساس البلاغة، ج: 1، تح: محمد باسل عيون السود، بيروت: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، ط:1، 1419هـ/1998م.

22- الجرجاني الشريف أبا الحسن علي بن محمد بن علي الحسيني، التعريفات، تح: محمد باسل عيون السود، بيروت: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، ط:2، 1424هـ/2003م.

23- الحجري أحمد بن قاسم، ناصر الدين على القوم الكافرين، تح: رزوق محمد، دار البيضاء: كلية الآداب والعلوم الانسانية، ط: 1، 1407هـ/1987م.

24- الحميري ابن عبد الله محمد بن عبد المنعم ، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، (القاهرة، مؤسسة ناصر للثقافة، ط:2، 1980م.

25- ، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، نش وتص وتع: ليفي بروفنسال، بيروت: دار الجيل، ط : 2، 1988م.

26- الحموي ياقوت شهاب الدين أبي عبد الله بن عبد الله الرومي البغدادي، معجم البلدان، ج: 3 بيروت: دار صادر، د ط، 1977م.

27- الحميدي بن أبي نصر أبو عبد الله محمد ، فتوح بن عبد الله، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، د ط، 1966م.

28_- بن الخاقان الفتح، قلائد العقيان، مصر: مطبعة التقدم العلمية، ط: 1،1320هـ.

29_ الخشني بن حارث بن أسد عبد الله محمد القيراوني، قضاة قرطبة، القاهرة: الدار المصرية للتأليف والنشر، د ط، 1966.

30- بن الخطيب لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج: 1، تح: محمد عبد الله عنان، القاهرة : الشركة المصرية للطباعة والنشر، 1393هـ/1973م.

31- ،أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام المعروف بـ تاريخ اسبانيا الإسلامية، ج: 2، تح ونش: إ.ليفي بروفنسال، تحت عنوان: تاريخ أسبانيا الإسلامية، بيروت: دار المكشوف، ط:2، 1956م.

32- ابن خلدون بن محمد بن عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون – المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من دوي السلطان الأكبر، ج: 4، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، د ط، 1391ه/1871م.

33- ، مقدمة ابن خلدون، بيروت لبنان: دار القلم، ط:7، 1409ه/1989م.

34- الذهبي محمد بن أحمد شمس الدين، العبر في أخبار من غبر، ج: 4، تح: المنجد صلاح الدين، طبعة الكويت، 1963م.

35- أبو راس بن ناصر محمد، الخبر المعرب عن الأمر المغرب والحال بالأندلس وثغور المغرب، دمط، دط، 1386ه/1966م.

36- الراشدي الشقراني أحمد بن عبد الرحمان، القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط، تح وتق: سعيدوني ناصر الدين، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط:1، 1991م.

37- الرشاطي أبو محمد، ابن الخراط الإشبيلي، الأندلس في اقتباس الأنوار وفي اختصار اقتباس الأنوار، تح: إميليو مولينا وخاثيو يوسك ميلا، مدريد : المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، معهد التعاون مع العالم العربي، دط، 1990م.

38- ابن رشيق أبو علي الحسن المسيلي، العمدة في محاسب النقد وآدابه وعيوبه، ج: 2، القاهرة: مطبعة السعادة، ط:2، 1955م.

39-ابن رفيع، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، القاهرة: المطبعة السلفية، د ط، 1348هـ/1928م.

40- ابن القيم الجوزية ، تلبيس ابليس، بيروت: دار القلم، د ط، د س ط.

41_ ، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، اعتنى به أحمد حجازي السقا، القاهرة: المكتبة القيمة، د ط، د س ط.

42- ابن فارس بن زكرياء أبو الحسين أحمد، مقاييس اللغة، مج:2، تح: عبد السلام محمد هارون، بيروت: دار الجيل، د ط، د س ط.

43-الزياني بن يوسف محمد بن يوسف ، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، د ط، 1978م.

44- السهروردي بن عبد الله عبد القاهر، عوارف المعارف، بيروت: دار الكتاب العربي، ط:2، 1403هـ.

45- السيوطي جلال الدين، تاريخ الخلفاء، تن وتح: الحلبي محمود رياض، بيروت: دار المعرفة، ط: 4، 1420هـ/1999م.

46- ابن الشحنة محب الدين أبي الوليد بن محمد، روض المناظر في علم الأوائل والأواخر، تح: مهني سيد محمد، بيروت: منشورات محمد علي بيضون، ط:1، 1417هـ/1997م.

47- الشنتريني أبو الحسن بن بسام علي، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، ط:1، 1399هـ/1979م.

48- الضبي بن عميرة أبو جعفر أحمد بن يحي أحمد، بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، تح: فرانشسكه قداره وخ. ريباره، د د ن، د ط، 1884.

49- الطرطوشي أبو بكر ، الحوادث والبدع، تح وتق: عبد المجيد تركي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط :1، 1990م.

50- ابن عباد عبد الحي الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج:5 ، طبعة بيروت، د ط، د س ط.

51-أبو العباس أحمد بن يحي الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء أفريقيا، والأندلس والمغرب، أخرجه جماعة من العلماء بإشراف: محمد حجي، ج: 2-11، بيروت: دار المغرب الإسلامي، د ط، 1981م.

52- ، أسنى المتاجر في بيان الأحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر، د تح: بن عبد الكريم نجيب أحمد، الرباط: المركز الإعلامي للدراسات والنشر، ط: 1، 1427هـ/2006م.

53- بن عبد ربه بن محمد أحمد الأندلسي، العقد الفريد، ج: 3، تح: بركات يوسف هبود، بيروت: دار الأرقم، ط:1، 1420هـ/1999م.

54- ابن عبدون محمد بن أحمد وابن عبد الرؤوف أحمد بن عبد الله، ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تج: ليفي بروفنسال، القاهرة: مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، د ط، 1955م.

55- ابن عذارى أبو عبد الله محمد المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج:2، تح: بروفنسال ليفي، بيروت: دار الثقافة، ط: 3، 1983م.

56- العذري ابن الدلائي أحمد بن عمر بن انس، ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، تح: عبد العزيز الأهوائي، مدريد: مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، د ط، 1965م.

57- ، نصوص عن الأندلس (من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تح: الأهواني عبد العزيز، مدريد: معهد الدراسات الإسلامية، د ط، د س ط.

58- بن علي عبد الواحد محي الدين المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح: العريان محمد سعيد، د ط، 1383هـ/ 1963م.

59- ابن العماد عبد الحي الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج:5 ، طبعة بيروت، د ط، د س ط.

60- الغساني محمد الأندلسي، رحلة الوزير في افتكاك الأسير، حر وقد: نوري الجراح، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط:1، 2002م.

61- أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، الملل و النحل، ج: 1، تع: عبد الامير علي مهتا وعلي حسن قاعود، بيروت: دار المعرفة، ط: 3، 1414هـ/1993م.

62- القرطاجني حازم ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب ابن الخوجة، تونس: المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، د ط، 1966م.

63- القشيري بن هوازن أبو القاسم عبد الكريم، الرسالة القشيرية، بيروت: دار الكتب العلمية، ط: 1، 1418هـ/1998م.

64- ابن الكثير أبو الفداء الحافظ الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، مج: 2، بيروت: منشورات محمد بن علي بيضون، د ط، 1421هـ/2000م.

65- مؤلف مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها – رحمهم الله – والحروب الواقعة بينهم، تح و تق: إبراهيم الأبياري، القاهرة: دار الكتاب المصري، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط : 1،1981م.

66- مؤلف مجهول، نبذة العصر في أخبار انقضاء دولة بني نصر، تح: مؤنس حسين، القاهرة: مطابع الزهراء للإعلام العربي، ط:1، 1991م.

67- بن محمد بن عبد الملك بن سعيد علي بن موسى المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج: 2، تح: شوقي ضيف، مصر: دار المعارف، ط:2، 1964م.

68- محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تح: احسان حقي، د ب ن: دار النفائس، ط:1، 1401هـ/1981م.

69- المقدسي بن أحمد محمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تح: غازي طليمات، دمشق: وزارة الثقافة و الإرشاد القومي د.ط، د س ن. 1980 م.

70- المقري بن محمد أحمد شهاب الدين التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، ج: 1، الرباط: طبع هذا الكتاب تحت اشراف الجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومتي المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية، د ط، د س ط.

71- ، نفخ الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، تح: إحسان عباس، بيروت: دار صادر، د ط، 1408هـ/1988م.

72_ المشرفي عبد القادر الجزائري، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين، تق: بن عبد الكريم محمد، د مط، د ط، د س ط.

73- بن المهدي أحمد الغزال، نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد (رحلة الغزال وسفارته إلى الأندلس)، تق: العربي اسماعيل، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، د ط، 1984م.

74- الناصري أبو العباس أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، تح: الناصري جعفر و الناصري محمد، الدار البيضاء: دار الكتب، د ط، 1954م.

75- النووي بن شرف يحي أبي زكريا، شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، شر: العثيمين بن صالح محمد محمود بن الجميل وخالد بن محمد بن عثمان، القاهرة: مكتبة الصفا، ط: 1، 1492هـ/2002م.

76- الوزان بن محمد الحسن، وصف افريقيا، ج:2، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت: دار الغرب الإسلامي، د ط، 1983م.

## ب)- المراجع :

77- إبراهيم محمد إبراهيم، الأديان الوضعية في مصادرها المقدسة وموقف الإسلام منها، مصر: مطبعة الأمانة، ط:1، 1406هـ/1985م.

78- أركون محمد، الفكر الإسلامي قراءة علمية، تر: هاشم صالح، د ب ن: المركز الثقافي العربي، ط: 2، 1986م.

79- ، الفكر العربي، تر: عادل العوا، بيروت: منشورات عويدات، د ط، 1983م.

80- ، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، تر وتع : هاشم صالح، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، د ط ، د س ط.

81- اسلام علي باشا، اسبانيا والأندلس، الاسكندرية: د د ن، د ط، 2001م.

82- إسماعيل أمين، العرب لم يغزو الأندلس (لمحة تاريخية مختلفة) رياض: الريس للكتب والنشر، ط:1، 1991م.

83- بن أشنهو بن أبي زيان عبد الحميد، دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، الجزائر: الطباعة الشعبية للجيش، د ط، د س ط.

84- الاشي السيد أحمد، جواهر الأدب في الأدبيات وإنشاء لغة العرب، ج:1، د ب ن: دار الجيل، د ط، د س ط.

85- الباش حسن، الميثولوجيا الكنعانية والاغتصاب التوراتي، دمشق: دار الجليل، ط:1، 1988م.

86- بدر يحي مرسي عيد، أصول علم الإنسان الأنثروبولوجيا، ج:1، تق: محمد عباس إبراهيم، الإسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط:1، 2007م.

87- بشتاوي عادل سعيد، الأندلسيون المواركة (دراسة في تاريخ الأندلسيين بعد سقوط غرناطة)، القاهرة: مطابع أنترناشيونال برس، د ط، 1403هـ/1983م.

88- ،الأمة الأندلسية الشهيدة (تاريخ 100 عام من المواجهة والاضطهاد بعد سقوط غرناطة)، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط: 1، 2000م.

89- البغدادي عبد القاهر، الفرق بين الفرق، بيروت: د دن، د ط، د س ط.

90- بيضون إبراهيم، الدولة العربية في إسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة 92-492هـ/ 711-1031م، بيروت: دار النهضة العربية، ط:2.

91- التميمي عبد الجليل، الدراسات الموريسكية الأندلسية بين الواقع والمأمول، الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، د ط، 1423هـ/2003م.

92- ، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين، تونس: منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والمويسكية والتوثيق والمعلومات، د ط.

93_ الحاجري محمد طه، ابن حزم صورة أندلسية، بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، د ط، 1983.

94- حاطوم نور الدين، تاريخ النهضة الأوروبية، لبنان: دار الفكر الحديث، د ط، 1968م.

95- حتامله محمد عبده، التنصير القصري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين، عمان، د ط، 1986م.

96- الحجي علي عبد الرحمان، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (897.92هـ/1492.711م)، دمشق: دار القلم، د ط، د س ط.

97- ، محاكم التفتيش الغاشمة وأساليبها، الكويت: مكتبة المنار الإسلامية، ط:1، 1987م.

98- ، هجرة علماء الأندلس لدى سقوط غرناطة (ظروفها وآثارها)، د ب ن، د د ن، د ط، 1421هـ/2000م.

99- حسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، بيروت: دار الثقافة، ط:3، 1981م.

100- حسين مؤنس، فجر الأندلس دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية 711-756م، د ب ن: الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط: 2، 1985م.

101- حمدي عبد المنعم محمد حسين، دراسات في التاريخ الإسلام" دولة بني برزال في قرمونة، الاسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، د ط، 1990م.

102- حومد أسعد، محنة العرب في الأندلس، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط:1، 1400هـ/1980م.

103- خالدة سعيد، حركية الإبداع، بيروت: باب العودة، ط: 2، 1982م.

104- الخالدي يونس خالد، اليهود في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس (92-897هـ/711-1498م)، د ب ن: جامعة بغداد، د ط، 1999م.

105- خالص صالح، إشبيلية في القرن الخامس الهجري (دراسة أدبية تاريخية)، بيروت: دار الثقافة، د.ط، 1965م.

106- خرما نايف، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، كويت: مجلس وطني ثقافة و فنون وآداب، ط: 2، 1979م.

107- خلاف محمد عبد الوهاب، تاريخ قرطبة الإسلامي، القاهرة: د د ن، ط:2، 2003م.

108- دحلان أحمد بن زين ، الدولة العثمانية، ج: 2، اسطنبول: مكتبة إيشيق، د ط، 1980م.

109- دراز محمد عبد الله، الدين (بحوث ممهدة من دراسة الأديان)، بيروت: دار القلم، مطبعة الحرية، د ط، د س ط.

110- دنون عبد الواحد طه، دراسات أندلسية، بيروت: دار المدار الإسلامي، د ط، د س ط.

111- ، حركة المقاومة العربية الإسلامية بعد سقوط غرناطة، بيروت: دار المدار الإسلامي، ط:1، 2004م.

112- ، آفاق غرناطة، دمشق: دار المعرفة، د ط، 1408هـ/1988م.

113- ، دراسات أندلسية، د ب ن: المدار الإسلامي، د ط، د س ط.

114- ، تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، مصر: مكتبة الخانجي، د ط، دس ط.

115- ، نشأة التدوين التاريخي العربي في الأندلس، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ط: 1، 1988م.

116- رائف أحمد، وتذكروا من الأندلس الابادة، القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ط: 1، 1407هـ /1987م.

117- عبد الرحمن جمال، "الإسلام في الأندلس بعد سقوط غرناطة من خلال وثائق لم تنشر بعد" كتاب تكريم الدكتور لوى دى كارداياك، مؤسسة التميمى للبحث العلمي والمعلومات، 1995م.

- عبد الرحيم أحمد مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، القاهرة: د د ن، ط : 2، 1993م.

118_ ركيبي محمد، تطور النثر الحديث، الكويت: دار الكتاب الحديث، د ط، 2001م.

119- روس محمد حسن العيد، تاريخ العرب الحديث، الكويت: دار الكتاب الحديث، د ط، 2001م.

120- الزويعي محمود، محاكم التفتيش الاسبانية (922هـ/1516م)، الأردن: دار زهران للنشر والتوزيع، د ط، د س ط.

121- الزيني محمد محمود عبد العزيز، الضرورة في الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي، الإسكندرية : مؤسسة الثقافة الجامعية، د ط، 1993م.

122- السائح الحسن، الحضارة المغربية (البداية والاستمرار)، ج: 3، الرباط: منشورات عكاظ، د ط، 2000م.

123- السحمراني أسعد، الإسلام والآخر، بيروت: دار النفائس، ط:1، 1426هـ/2005م.

124- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج:1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، د ط، 1998م.

125- سعود الخلف بن عبد العزيز، دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، مكتبة أضواء السلف، ط:1، 1418هـ/1997م.

126- سمير نعيم أحمد، النظرية في علم الاجتماع، القاهرة: دار المعارف، ط:3، 1982م.

127- سواح فراس، الأسطورة والمعنى (دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية)، دمشق: منشورات دار علاء الذين، ط:2، 2001م.

128_ السيوطي خالد عبد الرحيم، الجدل الديني بين المسلمين وأهل الكتاب بالأندلس (ابن حزم_ الخزرجي)، القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، د ط، 2001م.

129- الشافعي دياب حامد، الكتب والمكتبات في الأندلس القاهرة: دار قباء للطباعة و النشر، ط: 1، 1998م.

130- شتا الدسوقي إبراهيم، التصوف عند الفرس؛ القاهرة: دار المعارف، القاهرة، د ط، د س ط.

131- شرف جلال محمد، دراسات في التصوف الإسلامي، الجزائر: دار المعرفة الجامعية، د ط، د س ط.

132- شلبي عبد الجليل، الإرساليات التبشيرية،كتاب يبحث في نشأة التبشير وتطوره وأشهر الإرساليات التبشيرية ومناهجها، الإسكندرية : منشأة المعارف ، د ط، د س ط.

133- الشملاوي علي، التقية في إطارها الفقهي، دمشق: د د ن، 1411هـ.

134- شوكي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، د ب ن: دار المعارف، د ط، د س ط.

135- صالح عبد القادر، العقائد والأديان، لبنان: دار المعرفة، ط:1، 2003م.

136- صلاح أحمد هريدي، تاريخ أوروبا الحديث، الاسكندرية: دار الوفاء، ط: 1، 2001م.

137- صلال الموحي عبد الرزاق رحيم، العبادات في الأديان السماوية (اليهودية، المسيحية، الإسلام)، دمشق: الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات والطبع، ط: 1، 2001م.

138- الصيادي الخالدي الرفاعي أبي الهدى محمد، قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الأكابر، بيروت: دار الكتب العلمية، د ط، 1980م.

139- طعيمة صابر، دراسات في الفرق (الشيعة، النصيرية، الباطنية، الصوفية، الخوارج)، الرياض: مكتبة المعارف، د ط، د س ط.

140- طقوس محمد سهيل، العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، بيروت: دار النفائس، د ط، د س ط.

-141 الطويل مريم قاسم، مملكة ألمرية في عهد بن صمادح، مملكة ألمرية 443-484هـ/1051-1091م، الدار البيضاء: مكتبة الوحدة العربية، ط: 1، 1994م.

142- الطهطاوي محمد عزت إسماعيل، التبشير والاستشراف (أحقاد على النبي - محمد - وبلاد الإسلام)، القاهرة : الزهراء للإعلام العربي، د ط، 1411هـ/1991م.

143- بن عامر توفيق، دراسات في الزهد والتصوف، ليبيا ـ تونس: الدار العربية للكتاب، ط: 1، 1981م.

144- العبادي أحمد مختار، في تاريخ المغرب والأندلس، بيروت: دار النهضة العربية، د ط، 1978م.

145- عباس إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، بيروت: دار الثقافة، ط :2، 1962م.

146- العثميين بن صالح محمد، القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، الجزائر، دار الفجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط:18، 1424هـ/2003م.

147- العروسي محمد، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، تونس: نشر دار الكتب الشرقية، ط: 1، 1374هـ/1954م.

148- عزام محمد، قضية الالتزام في الشعر العربي من العصر الجاهلي وحتى عصر الانحطاط، دمشق: دار طلاس، ط:1، 1989م.

149- عبد العزيز سالم، تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، بيروت، د ط، 1962م.

150- عبد العزيز عتيق، النقد الأدبي، بيروت : دار النهضة العربية، د ط، 1972 م.

151 - ، بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، قس:2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط:1، 1992م.

152- ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، بيروت: دار النهضة العربية، د.ط، 1969م.

153- ، قرطبة حاضرة الخلافة (دراسة تاريخية عمرانية أثرية)، ج: 2، بيروت: دار النهضة العربية، د ط، 1972م.

154- بوعزيز يحي، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، د ط، 1999م.

155- عودة عبد الله محمد و الخطيب إبراهيم ياسين، تاريخ العرب الحديث، عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، د ط، 1979م.

156- العقيقي نجيب، المستشرقون، مج:3، القاهرة : دار المعارف، ط: 4، 1980م.

157- العشماوي محمد زكي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، ط:3، الاسكندرية : الهيئة العامة المصرية للكتاب، ط:3، 1978م.

158- علي أحمد، الأندلسيون في بلاد الشام (قراءة في التاريخ من نهاية القرن الخامس حتى نهاية القرن التاسع)، دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، د ط، 2008م.

159- عنان محمد عبد الله، الآثار الباقية في اسبانيا والبرتغال (دراسة تاريخية أثرية)، مطبعة التأليف والترجمة والنشر، ط:2، 1311هـ/1921م.

160- ، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الرابع، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط : 4، 1987م.

161- ، دولة الإسلام في الأندلس العصر الثاني دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط : 3، 1988م.

162- عناني زكريا، تاريخ الأدب الاندلسي، د ب ن: دار المعرفة الجامعية، د ط، 1999م.

163- عيسى عبد القادر، حقائق عن التصوف، سوريا حلب: دار العرفان، ط:15: 1427هـ/2006م.

164- الغزالي أبو حامد، فضائح الباطنية، تح وتق: عبد الرحمان بدوي, مصر: دار المعارف، د ط، د س ط.

165- الفقي عصام الدين عبد الرؤوف، تاريخ المغرب والاندلس، القاهرة : مكتبة نهضة الشرق د ط ، د س ط .

166- القاسمي ظافر، نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، لبنان: دار النقاش، ط: 5، 1405هـ/1985م.

167- قشتيلو محمد، الموريسكيون في الأندلس وخارجها، الرباط: منشورات مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات، ط:3، 2008 م.

168- ، محنة الموريسكوس في إسبانيا، تطوان: مطبعة الشويخ، د ط، 1980م.

169- قطب محمد علي، مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس د ب ن: د د ن، ط:1، د س ط.

170- كارم السيد غنيم، اللغة العربية والصحوة العلمية الحديثة، الرياض: مكتبة الساعي، د ط، 1990م.

171- الكتاني علي المنتصر، انبعاث الإسلام في الأندلس، الجامعة الإسلامية العالمية إسلام آباد: مجمع البحوث الإسلامية، ط: 1، 1313هـ/1992م.

172_ كواتي مسعود، اليهود في المغرب الإسلامي، الجزائر: دار الهومة للنشر والتوزيع، د ط، 2000م.

173- متولي محمد فؤاد، تاريخ الدولة العثمانية مند نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي، القاهرة: إبتراك للطباعة والنشر والتوزيع، د ط، 2005م.

174- محسن جاسم الموسوى، انفراط العقد المقدس، منعطفات الرواية بعد محفوظ، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999م.

175- محمد طاهر كريم، من أدب الرسائل في المغرب العربي خلال القرنين السابع والثامن، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، د ط، 1993م.

176_ محمد عزام، قضية الالتزام في الشعر العربي من العصر الجاهلي وحتى عصر الانحطاط، دمشق: دار الطلاس، ط: 1، 1989م.

177- المختاري زين الدين، المدخل إلى نظرية النقد النفسي، د ب ن: منشورات اتحاد الكتاب العرب، د ط، 1998م.

178- المدني أحمد توفيق، حرب ثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492-1792م، الجزائر: عالم المعرفة، ط:5، 2010م.

179- مرزوق محمد عبد العزيز، الفنون الزخرفية في المغرب و الأندلس، بيروت: دار الثقافة، د.ط، د. س ط.

180_مرمول صالح، السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في المغرب الإسلامي، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، د ط، 1983م.

181- مسعد مصطفى سامية، صور من المجتمع الأندلسي (رؤية من خلال أشعار الأندلسيين وأمثالهم الشعبية)، القاهرة: عين البحوث الإنسانية والاجتماعية، ط:1، 1988م.

182- أبو مصطفى كمال السيد، تاريخ مدينة بلنسية، بحوث في التاريخ وحضارة الأندلس في العصر الإسلامي، الإسكندرية، د د ن، د ط، 1983م.

183- مظهر سليمان، أساطير من الغرب، القاهرة: مطابع الشعب، د ط، 1959م.

184- المطبقاني مازن، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي ( دراسة تطبيقية على كتابات برنارد لويس)، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، د ط، 1416هـ/1995م.

185- المقدسي صبري، الموجز في المذاهب والأديان، ج:1، المديرية العامة للثقافة والفنون، ط:1، 2007م.

186- ملحم حسن، التحليل الاجتماعي للسلطة، الجزائر: منشورات دحلب، د ط، د س ط.

187- المنصور حمزة ميمونة، تاريخ الدولة العثمانية، الأردن: دار حامد للنشر والتوزيع، ط: 1، 2008م.

188_ مهران بيومي محمد، بنو إسرائيل (التاريخ مند عصر إبراهيم وحتى عصر موسى عليهما السلام)، ج: 1، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، د ط، 1999م.

189- مؤنس محمد، الحروب الصليبية بين الشرق والغرب، د د ن: عين الدراسات والبحوث العلمية والإنسانية والاجتماعية، د ط، 1999-2000م.

190- النوش حسن أحمد، التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي، بيروت: دار الجيل، ط: 1، 1992م.

191- هريدي أحمد صلاح، تاريخ العلاقات الدولية التجارية والحضارة الحديثة، د ب ن، دار الوفاء، ط : 1، 2003م.

192- مهران بيومي محمد، بنو إسرائيل (التاريخ منذ عصر إبراهيم وحتى عصر موسى عليهما السلام )، ج: 1، الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، د ط، 1999م.

193- الهوا عادل، علم الاديان وبنية الفكر الاسلامي تر : عادل الهوا، بيروت، باريس، منشورات عويدات، د.ط، 2005م.

194- واعراب مصطفى، المعتقدات والطقوس السحرية في المغرب، دار البيضاء: دار الحرف للنشر والتوزيع، ط: 1،2007م.

195- يابوش جعفر، الحركة الطبية في الأندلس بين صراع السياسي و المعرفي، الجزائر: دار الغرب للنشر، ط :1، د س ط.

196- يحياتن محمد، مفهوم التمرد عند البير كامو ومواقفه من الثورة الجزائرية، الجزائر، د د ن، د ط، 1984م.

197- يحياوي جمال، سقوط غرناطة ومأساة الأندلسيين 1492-1610، الجزائر: دار الهومة للطباعة والنشر والتوزيع، 2004م.

## *- المصادر والمراجع الأجنبية:

### أ)- المصادر:

198_ Aznar Cardona, Explusion de los moriscos espgnoles, Parte: 2, Capitulo : 2

199_ Don Francisco Javier Simomet, El cardénal Ximenexde Cisneros, Y los manuscritos ababigo_ Granadinos, Imprenta de la lealtad a ocargo de J. G, Garrido, Grannada, 1885.

200_ Ernest Renan, Documents inédits sur l'histiore de l'occupation Espagnole en Afrique (1506_ 1574), Alger : A. Jourdan, Libraire_ éditeur, 1875.

201- George Ticknor, Historia de Is literatura espanola, Madrid: Impr de la Publicidad, 1888, vol : 4.

202- Henri Lapeyre, géographie de l'Espagne morisque, Paris : S.E.V.P.E.N, 1959.

203- Liorente Juan Antonio, Historica critica de la inquisicion d'España, Tome I.

204- Manuel Danvila Collado, El poder Civil en España, mémoria premiada Por la real academia de ciencias morales y politicas, Madrid, 1885, T: 2.

205- Marmol Carvajal, Historia Rebellon y Castigo de los moriscos, Madrid : Del rieno de de Crenada, 1946.

-206 Venture De Paradis, Alger aux 18eme siècle, Edité par E. Fagnan, Imprimerie, Librairie, Editeur, 1898.

-207 Octave Depont Xavier Coppolani, Les confréries religieuses musulmanes, Alger 1897.

## ب)- المصادر الأجنبية المترجمة إلى اللغة العربية:

208- بروفنسال ليفي، تاريخ اسبانيا المسلمة من الفتح الى سقوط الخلافة القرطبية (711هـ/ 1031)، تج: علي عبد الرؤوف البمبي وآخرون، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، د ط، د س ط.

209- دوسون جه مراد، نظم الحكم والإدارة في الدولة العثمانية في عهد مراد جه دوسون، تر: فيصل شيخ الأرض، د د ن، د ط، د س ط.

210- كريمال مارمول، إفريقيا، تر: محمد حجي آخرون، الرباط: مكتبة المعارف ، د ط، 1984م.

211- إي براتشينا دون باسكوال بورونا ، الموريسكيون الإسبان ووقائع طردهم، ج: 1، تر: كنزة الغالي، د ب ن: مركز العمودي للترجمة ونشر التراث المخطوط، ط: 1، 1433هـ/2012م.

## ت)- المراجع

212-Apud Mercedes Garcia Arenal, Los Moriscos, Madrid, 1975.

213 A. Bellegrin, Essai sur les noms et les lieux d'Algérie et de Tunisie, - Etymologie, Tunis : Edition : S. A. P. I. P

214- Abdeljalil Temimi, "Attachement des morisques à leur identité à travers les hadiths dans deux manuscrits morisques", Religion, identité et sources documentaires sur les morisques andalous, T; II, Tunis, 1984.

215- Bronat y Barrachina Pascual, Los moriscos Espagnoles y su expulsion, Valencia, 1901.

216- , Los moriscos Espagnoles y su expulsion, Valencia, 1901.

217- Caille. j. la ville de Rebat Juifs qu'au Protectorat français, Edition d'art et d'histoire, Paris.

218- Del policiamiento inquisitorial : Lasuete de los moriscos en el Rio de plata, en el libro homenaje a galmes de fuentes, Zaguan, Tunis, 2003.

219- Descola .J, Histoire d'Espagne, Librairie Anthème Faard, 1959

220 - Don Francisco Javier Simomet, El cardénal Ximenexde Cisneros, y Los manuscritos abàbigo- Granadinos, Imprenta de la lealtad à ocargo de J. G. Garrido, Grannada, 1885.

-221 Edouard Driault, La question d'orient depuis ses origines jusqu'à la paix de secrets (1920). 8e Edition, Paris, 1921.

222- Fournet Jaqueline, Les moresques Araconais et l'inquisition de Sarracosse (1540 _ 1620), Montepellier, 1980.

223- Francisco de Poula Villa, Real y Valdivia : Leccionesele mentales de hisstoria critica de Espana, 2e édition, Grenada, 1899

224- George Ticknor, Historia de Is literatura espanola, Madrid: Impr de la Publicidad, 1881, vol : 4.

225-Henry Kamen, l'histoire de l'inquisition espagnole, Paris, 1966

226- Juan Regla, Estudios sobre los moriscos, Barcelona : edition Ariel, 1974.

227- Julian Ribera y Tarrago and Miguel Asin Palacios, Manuscritos arabes y aliamiados de la Biblioteca de In Junta, Madrid, 1912.

228 - Julio Caro Baroja, Los Moriscos del Reino de Granada, Madrid: Edition Isimo. 1976.

-229 Liorente Juan Antonio, Historica critica de la inquisicion d'España, Tome I.

230-Lo Pèze- Baaralt, Chronique de la destruction d'un monde la littératureAlmarado- Morisque.

231- Louis Cardaillac, L'Espagne des Rios catholiques (Le prince don Juan Symbol de l'apofée D'un règne, 1474_1497 Edition Aurement _ collection Mémoires.

- 232 , Morisques et Chrétiens**,** Paris : Librairie Klincksieck, 1977.

- 233Manuel Danvila Collado, El poder Civil en España, mémoria premiada Por la real academia de ciencias morales y politicas, Madrid, 1885, Tome : 2

234- Pool, The Moors in Spain, London, 7th edition, 1988.

235- Rafael Ramón Guerrero: el arte de lógica en Córdoba, el libro " al-Taqrib li-hadd al Mantiq " de Ibn Hazam, revista del instituto egipcio de estadios islámicos, volumen XXIX, Madrid, 1997.

236- Ravaillard Martin, Morisque Bibliographies, Paris, 1982, T : 2.

237- Yvette Cardaillac – Hermosilla, Les noms du diable essai sur la magie, la religion et la vie des derniers musulmans d'Espagne : Les moresques, Paris : Edition : Seguier- Carré idées, I S B N.

238- Henry Kamen, l'histoire de l'inquisition espagnole, Paris, 1966.

239-J H Elliot, Imperial Spain 1469_ 1716, Edward Amoid L.T.D, London, 1969

240- Rodrigo de Zayas, Les moresques et le racisme d'état et la différence, Paris, 1992.

241– Leopoldo Torres Balbitas, Hispano muslmanas, « Al Andalus », Vol : 13, 1948.

242 - Lo Pèze- Baaralt, Chronique de la destruction d'un monde la littérature Almarado- Morisque, Paris, 1986.

## ج)– المراجع الأجنبية المترجمة إلى اللغة العربية

243- اديثكر يزويل، عنصر البنيوية، تر: جابر عصفور، القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، د ط، 1993م.

244– أرينال غارثيا مرثيديس، محاكم التفتيش والموريسكيين، تر مر وتق: عباس خالد، المجلس الأعلى للثقافة، د ط، 2004م.

245- ، الموريسكيون الأندلسيون، تر وتق: جمال عبد الرحمن، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، د ط،2001م.

246- أوزتونا يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، تر: عدنان محمود سليمان، تركيا: منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، د ط، 1988م.

247- إيبارا بونيس أنجيل ميغيل، الموريسكيون في الفكر التاريخي، تر: وسام محمد جزر، مرازق جمال عبد الرحمان، د ب ن: المجلس الأعلى للثقافة، د ط، 2005م.

248- ايرقينج واشنطون، سقوط غرناطة آخر الممالك الإسلامية بالأندلس، تر: العربي اسماعيل، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، د ط، 1988م.

249- بروفنسال ليفي، الحضارة العربية في اسبانيا، تر: كريم عجيل حسين، بيروت: د د ن، د ط، 1976م.

250- ب وولف جون، الجزائر وأوروبا، تر وتع: أبو القاسم سعد الله، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، د ط، 1986م.

251- برجسون هنري، منبعا الاخلاق والدين، تر: سامي الدروبي، د ب ن: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، د ط،1971م.

252- بروكلمان كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، تر: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، بيروت: دار العلوم للملايين، د ط، 1948م.

253- تشارلس هنري، العرب والمسلمون في الأندلس بعد سقوط غرناطة، تر : الكرمي حسن سعيد، بيروت : دار لبنان للطباعة والنشر، ط: 1، 1988م.

254- بويرتاس انتونيو فرناندیز، فن الخط العربي في الأندلس ( الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس)، ج:2 ، د مط، د ط، د س ط.

255- تيوبا فرنتيسكو ماركيثبيا، القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى، بيروت: منشورات دار المكتبة الحياة، د ط، د س ط.

256- جاكلين لاغريه، الدين الطبيعي،تر: منصور القاضي، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط:1، 1413هـ/1993م.

257- جنثالث بالنثيا آنجل، تاريخ الفكر الأندلسي، تر: حسين مؤنس، طبعة مصر، د ط، 1955م.

258- جوميث مورينو، الفن الإسلامي في إسبانيا، ترج: لطفي عبد البديع ومحمود عبد العزيز سالم، مصر: الدار المصرية للتأليف والترجمة، د.ط، د. س ط.

259- دومنيقير أنطونيو، هوتز وبرنارد بنشت، تاريخ مسلمي الأندلس الموركسيون: حياة ومأساة أقلية، تر: عبد العالي صالح طه، الدوحة: دار الإشراق للطباعة والنشر، د ط،1977م.

260- دي إيبالثا ميكيل، الموريسكيون في إسبانيا وفي المنفى، تر وتق: عبد الرحمان جمال، د م ن، المجلس الأعلى للثقافة، د ط، 2005م.

261- دي إيبـالزا ميكـيـل، المستعربون -الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس-، ج: 1، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، د ط، 1999م.

262- روجر آلان، الرواية العربية، تر:المنيف حصة ابراهيم، مصر: المجلس الأعلى للثقافة، د ط، 1997م.

263- ريبيرا خوليان، التربية الإسلامية في الأندلس أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية، تر: طاهر أحمد مكي، القاهرة: دار المعارف، د ط، د س ط.

264- ستانلي لين بول، قصة العرب في اسبانيا، تر: علي جارم بك، مصر، د د ن، د ط، د س ط.

265- فرنثيسكو ماركيث من وجهة نظر أخرى، مر وتق: جمال عبد الرحمن، د ب ن: المجلس القومي للترجمة، د ط، 2005م.

266- فليب وولف، الأصول اللغوية لأوروبا الغربية، باريس، د د ن، د ط، 1970م.

267- كارديك لوي، الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون، تر: التميمي، زغوان: منشورات المجلة التاريخية المغربية وديوان المطبوعات الجامعية، د ط، 1983م.

268- لونغاس بدرو، الحياة الدينية للموريسكيين الأندلسيين، تع: عبد الرحمان جمال، زغوان: منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق، د ط، 1992م.

269- هارفي ليوناردو، تاريخ الموريسكيين السياسي والثقافي والاجتماعي، بيروت: مركز دراسات وحدة لؤلؤ، د ط، د س ط.

270- يثأورتيث دومينغ وفينيست برنارد، تاريخ الموريسكيين مأساة أقلية، تر: عبد العال صالح، مر وتق: جمال عبد الرحمان، القاهرة: المشروع القومي للترجمة، ط: 1، 2007م.

## *- المؤتمرات الدولية:

- ***المؤتمر العالمي الثاني*** **للدراسات المورسكية، تونس، 1973م:**

271- حتاملة محمد عبده، موريسكيو بلنسية تحت وطأة السلطة الدينية السياسية في عهد الملك فيليب.

**- أعمال المؤتمر العربي الخامس الموسوم بـ: المدخل المنظومي في التدريس والتعليم نظمه، مركز تطوير تدريس العلوم بجامعة عين شمس القاهرة – ابريل 2005.**

272- العمري خالد، المدخل المنظومي في إدارة الأزمات وحل الصراع في النظام التربوي.

- **المؤتمر العالمي الثالث للدراسات المورسكية – الأندلسية حول: تطبيق المورسكين للشعائر الإسلامية (1492، 1609)، إشراف : التميمي عبد الجليل، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والمورسكية، 1989م.**

273- برنابي لوي و مارتيناز جوزي ، وضع لغة المخطوطات المورسكية المكتوبة بالحروف اللاتينية : " المشكل الديني ".

274- جمعة شيخة، بعض المظاهر الدينية في رحلة عبد الله ابن الصباح.

**- المؤتمر العالمي الثامن للدراسات المورسكية – الأندلسية الموسوم بـ : صورة الموريسكيين في الآداب والفنون، اعداد عبد الجليل التميمي، تونس: مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، 1999م:**

275_جليل رشيد سمير، المخطوط الموريسكس _ الألخميادي_ ويريا دي خالون تحليل أدبي.

276_ درارجة أبو القاسم، آثار الأندلسيين الموريسكيين في الفنون الشعبية باسبانيا المسيحية وبلاد المغرب.

277_ حايك سيمون، من زرع الريح حصد العاصفة.

278_ الصغير نور الدين، مرويات السنين العجاف في _ناريون_ الموريسكيون والتطهير المسيحي.

**- المؤتمر العالمي العاشر للدراسات المورسكية المنعقد فيما بين 9_12 ماي 2001م الموسوم بـ: الموريسكيون والبحر الأبيض المتوسط والمخطوطات الألخميادية، نشر وتقديم: عبد الجليل التميمي، ، تونس: مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، 2003م:**

279_ جمال عبد الرحمن، رسالة موريسكية إلى العالم " قراءة في مخطوطين بالمكتبة الوطنية بمدريد".

**- المؤتمر العالمي الثاني عشر للدراسات المورسكية – الأندلسية حول : الصور الأدبية للموريسكيين وكتاباتهم ولغتهم في القرن 16، تونس: مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، ط: 1، 2007:**

280- جافورنال جاكلين، الصيدلة الموريسكية وممارسة الطب لدى المجموعة الموريسكية بمنطقة أراغون (1540،1620)، تع: التميمي عبد الجليل.

281- كاراسكو رافيل، محاكم التفتيش وأملاك الموريسكيين (1566- 1609)، تع: التميمي عبد الجليل.

**أعمال المؤتمر الدولي الموسوم بـ: تراجيديا طرد المورسكيين من الأندلس والموفق الاسبانية والعربية الإسلامية منها، إشراف وتق : التميمي عبد الجليل التميمي، تونس: منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، 2011م.**

282_ كليليا سارنلي وت شركو، الحجري في فرنسا.

**- المؤتمر العالمي الثالث عشر للدراسات المورسكية – الأندلسية حول : الأبعاد العقائدية والفكرية في الأدب الألخميادو سياسة محاكم التفتيش تجاه المورسكيين، تونس : مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، ط: 1، 2009م:**

**- المقالات باللغة العربية:**

283- التميمي عبد الجليل، رسالة من السلطان العثماني أحمد الأول إلى دوج البندقية حول الموريسكيين، المجلة التاريخية المغربية، ع : 7 – 8، جانفي 1977م.

284- ، لغة المورسكيين وأوضاعهم من خلال نصوص وفرمانات.

285- خواكين جيل سان خوان، وثائق ديوان التفتيش بمحكمة غرناطة حول المورسكيين.

286- دي إيبلزا ميكال، مخطوط قصصي نموذجي عربي، ألخميادي للقضايا اللغوية والأدبية

والعقائدية في الترجمات الموريسيكية.

287- دي فوانتاسالفارو قلماس، ما المشاكل حول نقحرة النصوص الألخميادية الموريسكية، الأدب الألخميادو – الموريسكي، تزاوج لغوي وعالم الاستطرادات اللامتناهي.

288- رفاييل بينيتا سبلانكو ، محاولة استيلاب ثقافي للموريسكين في بلنسية.

289– كاراسكو رافيل، محاكم التفتيش ببلنسية وأملاك الموريسكيين (1566-1609م)، تر: التميمي عبد الجليل.

290_كارداياك ، ظاهرة التكهن علامة من علامات الهوية الموريسكية،

**– *المقالات باللغة الأجنبية:***

291 -Gellert Fabre, la lettre et l'esprit ou la survivance du manuscrit et sa signification dans les milieux morisques d'Aragon.

292- Chiroz Ben Hadj Ali, La lengua arab y los moriscos del escilio

**– *الندوات والموائد المستديرة:***

291- التميمي عبد الجليل، أبو الغيث القشاش، **ضمن أعمال الندوة العالمية الأولى للجنة العالمية للدراسات الموريسكية الأندلسية، التميمي عبد الجليل، المعهد الأعلى للتوثيق، منشورات مركز البحوث في علوم المكتبات والمعلومات، تونس، ع: 13.**

292- لوت لويات بالرات، غم المنفي الخفي ( شهادة مورسكي من تونس )، **ضمن أعمال المائدة المستديرة الموسومة بـ: الأدب الألخميادو – المورسكي ، تزاوج لغوي وعالم الاستطرادات اللامتناهي.**

293 _دنون عبد الواحد طه، أهمية الكتب الفقهية في دراسة تاريخ الأندلس نموذج تطبيقي عن كتاب العبر، **ضمن أعمال الندوة الدولية الموسومة بـ: حضارة الأندلس في الزمن والمكان، الرباط: د د ن، 1992م.**

294– **السلسلة الرابعة الموسومة بـ: تراجيديا طرد الموريسكيين من الأندلس والمواقف الاسبانية والعربية الإسلامية منها آراغون، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، 2011م:**

295- فنسان برنار، لغة الموريسكيين، تع: التميمي عبد الجليل.

296- كارديك لوي، ظاهرة التكهن علامة من علامات الهوية الموريسكية، تع : التميمي.

**– أعمال السجل العلمي للندوة الموسومة بـ: الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات، قس:2، (الموريسكيون، الكتابات، الاستشراقية، الجغرافية والرحالات)، الرياض: مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ط:1، 1417هـ/1996م:**

297- عبد الله محمد جمال الدين، طرد المسلمين من الأندلس مراحله، آثاره، ونتائجه.

**_ أعمال المائدة المستديرة الموسوم بـ: الأدب الألخميادو – المورسكي، تزاوج لغوي وعالم الاستطرادات اللامتناهي. منشورات مركز البحوث في علوم المكتبات والمعلومات، تونس: المعهد الأعلى للتوثيق، أبريل 1995م:**

298- خافييركاستير فرناندیس، النبلاء المورسكيون: وهم تاريخي وواقع اجتماعي

***– مجموع مقالات ضمن أعمال السجل العلمي لندوة الموسومة بـ: الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات،** قس:2، (الموريسكيون، الكتابات، الاستشراقية، الجغرافية والرحالات)، الرياض: مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ط:1، 1417هـ/1996م:

299- طارق محمد خضر، علاقات الموريسكيين بالأراضي العربية المكرمة "من خلال المخطوطات الموريسكية".

300- محمد رزوق أحمد، التجربة الأندلسية الموريسكية محاولة فحص من الداخل.

**Table rande internationnale 4_7 juillet 1891 : Les moresques et leurs temps, Paris : édition du centre nationalede la recherche scientifique, 1983 :**

301_Bernard Vincent, Les moresques et les prénoms chrétiens.

302_Laila Sabrag H, La religien des moriscos entre deux fatwas.

303_Maria Liusa Lugo Acevedo, La imagen luminica de Mohamad en el libro de las luces (leyenda aljamiada sobre la genealogia de Mohamed)/

304_Yvette Cardiallac, Hemosilla, Le maure moresque et Turcs dans les dances et le fétes en Espgne.

## *-المعاجم والموسوعات

### - المعاجم:

**305**- أبادي الفيروز ابن يعقوب بن محمد بن إبراهيم مجد الدين محمد، القاموس المحيط، ج:4، بيروت: دار الكتب العلمية، ط:1، 1415هـ/1995م.

306- ابن منظور بن مكوم أبو الفضل جمال الدين محمد، لسان العرب، مج: 4، بيروت: دار الصادر، ط: 2، 1384هـ/1992م.

307- أحمد رضا، معجم متن اللغة، مج: 5، بيروت: منشورات مكتبة الحياة، 1377هـ/1985م.

308- الحموي ياقوت، معجم البلدان، ج: 4، بيروت: دار البصائر، د ط، د س ط.

309- رزق عاصم محمد، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، القاهرة: مكتبة مذبولي، ط:1، 2000م.

310- غيث محمد عاطف، قاموس علم الاجتماع، د ب ن: دار المعرف الجامعية، د ط.

### - الموسوعات:

### - الموسوعات باللغة العربية:

311- أحمد زكي ، موسوعة العلوم العربية وبحث على رسائل اخوان الصفا، مصر: المطبعة الأميرية، ط :1، 1308هـ.

312- الحفني عبد المنعم، الموسوعة الصوفية، القاهرة: دار الرشاد، القاهرة، ط: 1، 1992م.

313- الساموك سعدون محمود، موسوعة الأديان والمعتقدات القديمة (العقائد)، ج:2، عمان، الأردن: دار المناهج للنشر، والتوزيع، ط:1، 1422هـ/2002م.

314- مجموعة من الباحثين، موسوعة الأديان المسيرة.

315- الموسوعة العربية العالمية، مج:17، المملكة العربية السعودية، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ط:2، 1419هـ/1999م.

316- موسوعة لاروس، مادة اينوصان، م:11.

317- دائرة المعارف الإسلامية، تأليف مجموعة من الباحثين: هوستما، ليفي بروفنسال، ومجموعة أخرى، النسخة العربية: إبراهيم زكي، أحمد الشنتاوي وعبد الحميد يونس، القاهرة: كتاب الشعب، ط:1، د س ط.

318- رواس قلعه محمد، الموسوعة الفقهية الميسرة، م:1، بيروت: دار النفائس، ط:1، 1421هـ/ 2000م.

319- لانجر وليم، موسوعة تاريخ العالم، تر: محمد مصطفى زيادة، ج: 4، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، د ط، 1963م.

320- وجدي محمد فريد، دائرة معارف القرن العشرين، بيروت: دار المعرفة، ط:3، د س ط.

## - الموسوعات باللغة الأجنبية

_321Lévi Provensel, E : Moriscos, art. Ensyclopédia of Islam, Paris: Leyden, 1936.

## *- الدوريات:

**- المقالات باللغة العربية:**

- أورفوا دومنيك، الثقافة الأندلسية في الحياة اليومية، العالم العربي في البحث العلمي، ع:9، 1998م.

- بارلت لوس لوباز، تاريخ القضاء على عالم : الأدب الألخميادو – الموريسكي، المجلة التاريخية المغربية، ع : 18،17، جانفي1980م.

- بدوي منير محمود، مفهوم الصراع : دراسة فى الأصول النظرية للأسباب والأنواع، مجلة دراسات مستقبلية، مصر ، جامعة أسيوط: مركز دراسات المستقبل، ع:3، يوليو 1997م.

- التميمي عبد الجليل، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين، زغوان: المنشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، 1989م.

- ، رسالة من السلطان العثماني أحمد الأول إلى دوق البندقية حول الموريسكيين، المجلة التاريخية المغربية، تونس، ع : 7-8، 1977م.

- ، عثمنة ايالات الجزائر وتونس وطرابلس على ضوء مهمة دفتري (1559-1595)، تونس: المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، ع: 34، 2006م.

- الحماد محمد عبد الله، الخصائص العمرانية والإدارية لمدن الأندلس الإسلامية، مجلة المنهل, جدة: دار المنهل للصحافة والنشر المحدودة، ع: 519، ط: جمادى الأولى والآخرة 1415هـ/أكتوبر – نوفمبر 1993م، مج: 56.

– دي إيبلزا مكيال، وثائق جديدة حول الأندلسيين، تع : الحلاوي نور الدين، المجلة التاريخية المغاربية، ع: 15 – 16،جويلية 1979م.

–صاحبي محمد، الورق والوراقون وأثرهما في ظهور خزائن المخطوطات، المجلة الجزائرية للمخطوطات، ع: 1، جوان 2003م.

– عزب خالد، الاستحكامات الحربية في المدن الإسلامية، مجلة المنهل، ع:519، أكتوبر– نوفمبر1994م، مج:56.

– غيشار بيير، المجتمع الأندلسي، الأسطورة والواقع، العالم العربي في البحث العلمي، ع: 19، 1988م.

– مكي محمود علي، التشيع في الأندلس إلى نهاية ملوك الطوائف، مدريد: صحيفة المعهدِ المصرِي للدراسات الإسلامية، مح: 2، 1373هـ/1954م، ع: 1 – 2.

– نويفا فيلا فرانسيسكو، الدراسات العربية في اسبانيا، العالم العربي في البحث العلمي، ع: 9، 1998م.

_ هلايلي حنيفي، الحرف العربي: تعبير مقدس في المخطوطات الألخميادية والموريسكية، الجزائر: المجلة الجزائرية للمخطوطات، ع:1، جوان 2003م.

– هويدي فهمي، في بلاد الموريسك غرباء الأندلس، مجلة العربي، ع: 228.

**– مجموعة من المقالات ضمن كتاب موسوم بـ: دراسات أندلسية وموريسكية، تر وتق: جمال عبد الرحمن، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ط:1، 2008:**

- جمال عبد الرحمن، ثقافة موريسكي: قراءة في المخطوطة بمكتبة اسبانيا الوطنية.

- ، رسالة موريسكية إلى العالم (قراءة في مخطوطين بمكتبة اسبانيا الوطنية).

- دى لاغرانجا فيرناندو، معجزات اسبانية في مؤلف جدلي إسلامي.

- ميغيل أنخيل بونيس إيبارا، حرب غرناطة كما رآها القشتاليون من خلال مخطوطة لم تنشر بعد.

***– المقالات باللغة الأجنبية:**

- Alois Richard Nykl Aljamiado Literature: El Rekontamiento del Rrey Alisandere ,Rv, hispanique ,vol : 172 an : 1929.

.Hist Vol xxx, 1914 - Bertant François, Journal du voyage d'Espagne, R

.- Chiroz Ben Hadj Ali, La lenguaarab y los moriscos del escilio

- CHAUMU, Monorites et conjoncture l'expulsion des Morisque en 1609, Revue historique, Paris, 1961, n°1.

## *9)– الرسائل الجامعية:*

***– الرسائل الجامعية باللغة العربية:**

- الحاج الطاهر زكية، العهد القديم ومدى علاقته مضمونه بالدولة الآشورية والكلدانية ومملكة يهوذا، رسالة ماجسيستر، جامعة الجزائر، 2002م.

- داخي عبد القادر، النثر الفني في الأندلس في القرن الخامس الهجري –الحادي عشر الميلادي، رسالة ماجستير، جامعة دمشق: كلية الآداب، 1987م.

- السليمي هيلة محمد، دور اليهود في إسقاط الدولة العثمانية، رسالة ماجستير، مكة المكرمة: جامعة أم القرى، 2001م.

- العسيبي صفية بنت بن رضيان العسيبي، توظيف الشعر في الرسائل الاخوانية من بداية العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع، رسالة ماجستير في الأدب، المملكة العربية السعودية: جامعة أم القرى.

- عقيلي بن أحمد الشيقي، تقديس الأشخاص عند النصارى (عرض ونقذ)، إشراف: مزروعة محمود محمد، رسالة ماجستير، المملكة العربية السعودية: أم القرى، السنة الجامعية: 1429هـ.

***- الرسائل الجامعية باللغة الأجنبية:**

- Laila Boukli Hacene Tani, El moriscis visto a traves del siglo XIX, Mémoire de diplôme d'études approfondies, Dirigé par : Louis Cadaillac, Alger : université d'Alger, Juin 1983.

- Sylvie Benitez, Aben Humeya et les moresques dans deux œuvres de la littérature espagnoles du XIX$^{e}$ siècle, sous la codirection : Louis Kardiallac, Doctorat de l'université Paul Valery, Monthllier III, Arts et lettres, langue et sciences humaines et sociales, Décembre 2001.

***10)- مواقع الأنترنت:***

- بروكي عبد العالي ، كتاب المغازي الموريسكية استلهام الملحمة واضفاء طابع البطولة على الحكايـات، مجلة القـدس العـربي، 23 أوت 2011م، الشبكة العنكبوتية موقع: www. Google. Fr ، 2011/11/04م، 14،05سا.

- بوزينب الحسين، الدين واللغة من خلال الكتابات الأعجمية الموركسية، www.google. Fr.، بتاريخ: 10/22/ 2012م، بتوقيت: 17,55سا.

- الجيوسي سلمى الخضراء، الأدب الألخميائي (الأدب الإسباني المكتوب بحروف عربية)، WWW. Google. FR، 2013/02/12.

- سعدون عبد الهادي، ابتهالات الحاج. رحلة الموريسكي الأخير إلى مكة المكرمة، WWW.Google. Fr. بتاريخ: 2012/12/30م. 12,30سا.

- الصاوي أحمد سعيد، كتابة العربية بالحروف اللاتينية ( الأبعاد التربوية والسياسي) ، الشبكة العنكبوتية: موقع مكتبة مشكاة الإسلامية، 2013/11/22م، 15،35سا.

- العربي محمد ، فرق ومذاهب – الطريقة الشاذلية –، مجلة الراصد، ع:42، ذي الحجة 1427هـ، الشبكة العنكبوتية: htt://www.alrased.net/ بتاريخ: 2010/07/25م، بتوقيت: 17.00سا.

- محمد خير فلاحة، الخلافة العثمانية من المهد إلى اللحد، الشبكة العنكبوتية: WWW.SMART10.COM، بتاريخ: 2012/11/12، بتوقيت: 16،50سا.

- عبد المحسن عبد الراضي محمد، الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم، ضمن أعمال الندوة الموسومة: بـ "العناية بالقرآن الكريم وعلومه"، 1421هـ، موقع المفكرة الدعوية www.dawahmemo.com، بتاريخ: 2012/12/15م، 10،30 سا،

- عبد الهادي التازي، منشاب الأخبار وتذكرة الأخيار (حلة ابن الصباح الى مكة، www. Google. Fr، بتاريخ: 2012/05/26م، 16-30سا.

- محمد مصطفى عبد القادر، الطريقة الشاذلية، الشبكة العنكبوتية:/ htt://www.alsoufia.com، بتاريخ: 2010/12/16م، بتوقيت: 15.30 سا.

# فهرس الموضوعات

مقدمة.....أ....م

تصحيح مفاهيم أساسية.....26

مصطلح المريسكيون "يقابله" مسلمو اسبانيا.....27

الأندلس "يقابلها" اسبانيا.....37

محاكم التفتيش "يقابلها" محاكم التحقيق".....39

مصطلح المسيحية "يقابله" النصرانية".....40

مصطلح الثورة "يقابله"حركةالجهادالإسلاميأو المقاومة اللإسلامية.....42

مصطلح اللإمبراطورية العثمانية "يقابلها" الخلافة العثمانية.....44

عبارة الاسترداد "يقابلها" الغزو الصليبي.....46

الأدب الألخميادو.....47

الفصل التمهيدي: الأندلس في طريق المحنة (422 – 896هـ/1030–1492 م).....49

المبحث الأول: أهم المحطات التاريخية في طريق المحنة(422–895هـ/1030–1491م)..50

1)– ملوك الطوائف و بداية النهاية(422–456 هـ/1030– 1064 م).....51

2)– سقوط المدن الأندلسية (456– 895 هـ/1064– 1491 م).....55

المبحث الثاني: سقوط غرناطة آخر معقل لإسلامي في الأندلس (898هـ/1492م).....62

1)– توحيد القوى النصرانية لمجابهة غرناطة.....63

2)- نهاية الحكم الإسلامي في الأندلس.....67

الباب الأول: المسيرة التاريخية للمحنة الأندلسية (897.1018هـ /1492.1609م).....74

الفصل الأول: تسليم غرناطة و بداية المأساة.897_ 904 هـ/1492_ 1501م).....76

المبحث الأول:تسليم غرناطة (897هـ/1492م).....77

1)- معاهدة تسليم غرناطة (897هـ/1492م).....78

2)- ملخص نص المعاهدة.....84

3)- قراءة تحليلية في بنود المعاهدة.....87

المبحث الثاني: بوادر الغدر و الخيانة (904هـ/1501م).....91

1)- رحيل عبد الله الصغير و مؤشرات نقض بنود المعاهدة.....91

التنصير بالطرق السلمية (901-906هـ/1496-1501م).....93

المبحث الثالث: بداية التعايش المستحيل(906-921هـ /1501-1516م).....99

1)- لمحة تاريخية عن محاكم التحقيق.....99

2)-محاكم التحقيق في اسبانيا.....106

الفصل الثاني: اسبانيا على عهد كارلوس الخامس(921-963هـ/1516-1558م).....116

المبحث الأول: كارلوس الخامس منذ ولادته و إلى غاية اعتلائه العرش (921-923هـ/1516-1558م).....118

1)- مولده ونشأته.....118

2)-بداية مشواره السياسي.....120

المبحث الثاني: سياسة كارلوس في محاربة الإسلام في إسبانيا.....124

1)- نقص العهد و تجدد الصراع النصراني الإسلامي .....125

2)- عمل محاكم التحقيق.....128

3)- سياسة المهادنة وتداعياتها.....133

المبحث الثالث: السياسة الإسبانية الخارجية و انعكاساتها على مسلمي إسبانيا (935-946هـ/1530-1541).....134

1)- إسبانيا في موجهة البروتستانت.....134

2)- حرب إسبانيا مع فرنسا.....141

3)- الصراع الإسباني العثماني.....145

الفصل الثالث: مسلمو إسبانيا على عهد فيليب الثاني (963-1007هـ/1555-1598م).....153

المبحث الأول: فيليب الثاني, مشواره السياسي حتى اعتلائه العرش (1542-1558م)....154

1)- مولده ونشأته.....155

2)- مشواره السياسي و إلى غاية تنازل كارلوس للحكم (947-963هـ- 1542-1558م).....157

المبحث الثاني: محاولات قتل الذاكرة التاريخية و الدمج الثقافي (956-975هـ/1560-1579م).....161

1) سياسة التنصير القسري (965_ 971/ 1560_ 1566م).....162

2) عملية التهجير مراحلها ونتائجها (972_ 971هـ/ 1567_ 1570م).....168

الفصل الرابع مأساة الطرد التعسفي_التحليل والأبعاد_ (1007_ 1018هـ/ 1598_ 1609م)

المبحث الأول: التنصير القهري على عهد فيليب الثالث (1004_ 1017هـ/1598_ 1609م)

1) آخر محاولات التنصير.....179

2) فشل مشروع التنصير.....179

المبحث الثاني: الدوافع الرئيسة وراء قرار الطرد.....188

1) العوامل المساهمة على تبني مشروع الطرد.....189

2)قراءة تحليلية في دوافع الطرد.....192

المبحث الثالث: إجراءات الطرد.....195

1)الإجراءات التشريعية.....196

2)الإجراءات التنفيذية.....206

المبحث الرابع: إحصاء عدد المطرودين وانعكاسات قرار الطرد على اسبانيا.....206

1)إحصاء عدد المطرودين.....206

2)الأوضاع المصاحبة لعملية الطرد والنتائج المترتبة عليها.....212

الباب الثاني: الصراع الفكري بين مسلمي اسبانيا والنصارى (906_ 1018هـ/1504_ 1609م)

الفصل الأول: الصراع الفكري آلياته، وتجلياته.....218

المبحث الأول: الصراع مفهومه وأنواعه.....219

1)- مفهوم الصراع .....220

2)- مسبباته.....225

3)- أنواع الصراع.....227

المبحث الثاني: الصراع الفكري في إسبانيا مواصفاته و دوافعه.....229

1)- مواصفات الصراع الفكري في اسبانيا الكاثوليكية.....229

2)- الدوافع النفسية والاجتماعية المحركة لظاهرة الصراع.....234

الفصل الثاني: التقية رمز من رموز المقاومة.....244

المبحث الأول: التقية بين اعتقاد شيعي وممرسات مسلمي اسبانيا.....245

1)- التقية مدلوله اللغوي و التاريخي.....246

2)- حركة التشيع في بلاد الأندلس ( رؤية تاريخية).....250

المبحث الثاني: مظاهر التشيع في اسبانيا الكاثوليكية.....255

1)- قنوات التشيع في بلاد المغرب.....256

2)- موقف مسلمي إسبانيا من التشيع.....260

المبحث الثالث: التقية عند مسلمي اسبانيا بين الشرع و المعتقدات الشيعية.....265

1)- الدواعي السياسية و الدينية والنفسية لتبني مبدأ التقية.....266

2)- تقية مسلمي اسبانيا في ميزان الشرع .....271

الفصل الثالث: التقية بين الاجبار والاختيار.....275

المبحث الأول: التقية بين الختيار و الإكراه.....276

1)- الفرق بين الضرورة و الإكراه.....277

2)- محاولات تطبيق في العبادات و المعاملات.....282

المبحث الثاني: التأسيس الشرعي لمبدأ التقية.....290

1)- نظرة السلطات الإسبانية للتقية.....291

2)- فتوى الفقيه أبي جمعة الوهراني بالتزام التقية والبقاء في اسبانيا.....294

3)- الاستناد الى السنة النبوية كأداة لتبرير قرار البقاء.....300

المبحث الثالث: الحلول البديلة على استعمال التقية.....302

1)- الهجرة وسيلة لحفظ الروح و الدين.....303

2)- الجهاد المسلح خيار لا مفر منه.....307

الفصل الرابع: اللغة العربية في معركة البقاء.....310

المبحث الأول: مساعي السلطات الاسبانية للاجتثات اللغة العربية.....312

1)- رؤية تاريخية حول حركية اللغة العربية في الأندلس.....312

2)- منع اللغة العربية كمحاولة لمسخ الهوية الإسلامية.....316

3)- جهود السلطات الإسبانية في القضاء على الإنتاج الفكري الإسلامي.....321

المبحث الثاني: جهود مسلمي اسبانيا في الدفاع على اللغة العربية.....328

1)– مكانة اللغة العربية عند مسلمي إسبانيا.....329

2)– جهود الفقهاء في حماية اللغة العربية من الإندثار.....,.....333

الفصل الخامس: اللغة الألخميادية مقاومة وابداع.....339

المبحث الأول: اللغة العربية مدلولها اللغوي و التاريخي.....,.....340

1)– المدلول اللغوي للأدب الألخميادو.....341

2)– رؤية تاريخية حول ظهور اللغة و تطورها.....346

المبحث الثاني: الدراسة النسقية للأدب الألخميادو.....352

1)– المميزات النسقية .....353

2)– الأدب الألخميادو عامل تأثير و تأثر.....355

المبحث الثالث: الخصائص الغوية للأدب الألخميادو.....362

1)– المميزات اللغوية.....362

2)– نماذج من الكتابات الألخمادية.....369

الباب الثالث: الصراع الفكري بين مسلمي اسبانيا و النصارى (909– 1018هـ /1504– 1609م).....374

الفصل الأول: الفكر مفهومه,تطوره وعلاقاته بالدين في الإسلام.....376

المبحث الأول: الفكر و الدين مدلولهما اللغوي و الاصطلاحي.....377

1)– مفهوم الفكر لغة واصطلاحا.....377

2)- الدين مفهومه و مصادره.....383

المبحث الثاني: النظريات المؤسسة للدين.....390

1)- النظريات القائمة على الاتجاه الوضعي.....390

2)- النظريات المؤسسة لمذهب التوحيد الفطري.....394

المبحث الثالث: رؤية تاريخية حول تطور الفكر الديني في الإسلام.....397

1)- الفكر الديني بين البعثة و نهاية الخلافة الراشدة.....397

2)- تطور الفكر الديني ما بين الخلافة الأموية و الى غاية ظهور الخلافة العثمانية.....400

3)- مصادر الفكر الإسلامي.....404

الفصل الثاني: الكتابات الدينية ودورها في صمود الإسلام في إسبانيا.....413

المبحث الأول: القرآن الكريم دستور وحصن المسلم في إسبانيا.....415

1)- مساعي السلطات الإسبانية لدحض القرآن الكريم.....416

2)- مجهودات مسلمي إسبانيا في الدفاع على القرآن الكريم.....418

المبحث الثاني: الحديث في مؤلفات مسلمي إسبانيا ما بين الصحيح والموضوعية.....425

1)- نماذج من الأحاديث الموضوعة.....426

2)- توظيف الحديث النبوي في المسائل المصيرية للجماعة المسلمة في اسبانيا الكاثوليكية.....432

3)- الأدعية المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم.....435

المبحث الثالث: التأليف في التفسير و العقيدة.....437

1)- التأليف في التفسير.....437

2)- فضل علم العقيدة وأهميته.....441

الفصل الثالث:الإنتاج الأدبي بين الإبداع و المقاومة.....447

المبحث الأول: أدب الرسائل.....448

1)- الرسائل الديوانية.....449

2)- الرسائل الاخوانية.....458

3)- رسائل المناظرات.....461

المبحث الثاني: التاريخ و أدب الرحلة.....465

1)- التأريخ لمواطن استقرارهم.....467

2)- قراءة تاريخية في مؤلفين – عربي و ألخميادي-.....471

3)- أدب الرحلة.....479

الفصل الرابع: الشعر وأنواعه و أغراضه.....487

المبحث الأول: لمحة تاريخية حول الحركية الشعرية في الأندلس.....489

1)- خصائص الشعر الأندلسي.....489

2)- التطور التاريخي للشعر الأندلسي.....492

المبحث الثاني: شعر الثراء في قصائد مسلمي اسبانيا.....496

1)- شعر الرثاء مدلوله و خصائصه.....496

2)- نموذج من الشعر الأندلسي في رثاء المدن.....499

3)- وصف الشاعر للمحنة الأندلسية.....502

4)- دراسة نقدية للنص الشعري.....504

المبحث الثالث: الاستغاثة, المدح والجدل الديني والسياسي في أشعار مسلمي اسبانيا..507

1)- شعر الاستغاثة.....508

2)- شعر المدح.....513

3)- الشعر في المجادلة الدينية والسياسية.....518

الفصل الخامس: الرواية ودورها في المحافظة على مقومات الشخصية العربية الإسلامية.526

المبحث الأول: الرواية التاريخية و الخيالية في مؤلفات مسلمي إسبانيا.....527

1)- القصص حول حياة و تاريخ الرسل.....530

2)- القصص و الروايات حول المغازي.....536

المبحث الثاني: الرومانسية و الموعظة في الإنتاج الروائي.....542

1)- الرواية الرومانسية.....543

2)- الموعظة والحث على المسك بالأخلاق في الإنتاج الروائي الألخمادي.....546

المبحث الثالث: الوصية والرواية الخيالية في مؤلفات مسلمي اسبانيا.....549

1)- أدب الوصية .....549

2)- الرواية الخيالية.....556

الباب الرابع: الحياة الدينية بين الممارسة الصحيحة و البدعة.....559

الفصل الأول: قراءة نقدية في كتاب بدرو رونغاس"الحياة الدينية عند الموريسكيين الأندلسيين".....561

المبحث الأول: بطاقة فنية للكتاب.....562

1)- المستعربون و الدراسات الإسلامية.....562

2)- التعريف بصاحب الكتاب.....564

3)- إنجازاته العلمية.....566

4)- شهادات علمية حول الدراسة.....568

المبحث الثاني: قراءة تحليلية في الكتاب.....569

1)- نقد بيوغرافية المصادر المستعملة في انجاز هذه الدراسة والمنهج المتبع.....570

2)- الأخطاء التي يِؤاخذ عليها الباحث.....576

الفصل الثاني: الايمان وأركانه في منظور الفكر الديني لمسلمي اسبانيا.....586

المبحث الأول: توحيد الألوهية والربوبية عند مسلمي اسبانيا.....588

1)- عقيدة التوحيد.....589

2)- نماذج من النصوص القرآنية الدالة على توحيد مسلمي اسبانيا الله تعالى.....594

3)- اعتقاد مسلمي اسبانيا في صفات الله وأسمائه الحسنى.....602

المبحث الثاني: الايمان بالملائكة و الكتب و الرسل واليوم الآخر والقضاء والقدر.....604

1)- الايمان بالكتب والملائكة.....604

2)- الايمان بالرسل.....607

3)- الايمان باليوم الآخر والقضاء والقدر.....611

الفصل الثالث: الطقوس بين التقليد والاجتهاد .....620

المبحث الأول: الطقوس الدينية و الاحتفالية.....621

1)- الطقوس الدينية.....622

2)- الطقوس الاحتفالية.....627

المبحث الثاني: الطقوس السحرية.....635

1)- العوامل المساعدة على انتشار ظاهرة السحر بين مسلمي إسبانيا.....635

2)- أنواع السحر الشائعة بين مسلمي اسبانيا.....640

3)- نماذج من الممارسات السحرية.....646

الفصل الرابع:الأسطورة والحقيقة في مؤلفات مسلمي اسبانيا.....655

المبحث الأول: مفهوم الأسطورة ونشأتها.....656

1)- تعريف الأسطورة.....657

2)- نشأة الأساطير.....661

المبحث الثاني: أهمية الأسطورة و دورها في بناء شخصية الفرد المسلم في اسبانيا...663

1)- الأساطير حول سيرة الأنبياء و الرسل.....664

2)- الأساطير حول التاريخ الإسلامي.....667

3)- الأساطير الخيالية والطقوسية.....668

الفصل الخامس: ممارسة العبادات في مجابهة الطقوس النصرانية الكاثوليكية.....678

المبحث الأول: الصلاة عمود الدين.....685

1)- الأذان.....686

2)- الصلوات اليومية وصلاة الجمعة.....688

المبحث الثاني: الصيام و الحج.....694

1)- فريضة الصيام بين الفرض و النافلة.....695

2)- أداء مسلمي اسبانيا لفريضة الحج من خلال بعض المؤلفات الألخمادية.....698

الباب الخامس: الجهاد الإسلامي المسلح في إسبانيا (904-1020هـ/1499-1611م).....704

الفصل الأول: حرب الإعلام ودورها في إنجاح حركة الجهاد الإسلامي في اسبانيا.....706

المبحث الأول: وسائل الإعلام في بث الرعب بين الاسبان.....707

1)- ظاهرة النبؤات ودورها في تحفيز الجماعة المسلمة في اسبانيا على الجهاد.....708

2)- شعر الاستغاثة وسيلة اتصال ودعاية.....714

المبحث الثاني: التعريف بالقضية إسلاميا وعربيا.....726

1)- الاتصالات مع الخلافة العثمانية بشكل مباشر.....؟.....728

2)- تدخل الخلافة العثمانية على مستوى ايالات المغرب لتقديم الدعم لحركة الجهاد الإسلامي في إسبانيا.....733

3)- اتصالات السلطات العثمانية مع الجانب الأوروبي لمؤازرة مسلمي إسبانيا....739

4)- تواصل مسلمي اسبانيا مع المشرق الإسلامي.....742

الفصل الثاني: العمل المسلح دوافعه وأهدافه(904-921هـ/1499-1516م)...746

المبحث الأول: تداعيات سياسة التهميش والإقصاء .....748

1)- الدوافع المحركة للعمل المسلح.....748

2)- نظرة مسلمي اسبانيا للجهاد من خلال مخطوط ألخميادي.....751

3)- انعكاسات ظاهرة النبؤات على العمل المسلح.....755

المبحث الثاني: المقاومة الإسلامية في غرناطة و الجبل الأحمر(904-921هـ/1499-1516م).....757

1)- انتفاضة حي البيازين عام 904هـ/1499م.....758

2)- حرب الباشرات الأولى904هـ/1499م.....764

3)- مواصلة الكفاح المسلح في الجبل الأحمر(905-906هـ/1500-1501م)..768

الفصل الثالث: المقاومة الإسلامية في الفترة الممتدة من سنة 972هـ/1567م والى غاية 975هـ/1570م.....774

المبحث الأول: حرب غرناطة الكبرى(972–974هـ/1567–1569م).....776

1)– المرحلة الأولى من المقاومة(976–977هـ/1567–1568م).....776

2)– المرحلة الثانية(977–978هـ/1568–1569م).....778

3)– تخوف السلطات الإسبانية من تأزم الوضع الداخلي.....782

المبحث الثاني: حركة الجهاد الإسلامي بقيادة ابن أمية(970–971هـ/1569–1570م).....785

1)– مجريات الحرب ونتائجها(970هـ/1569م).....787

2)– اغتيال ابن أمية(970هـ/1569م).....792

3)– مواصلة المقاومة بقيادة ابن عبو (970هـ/1569م).....794

المبحث الثالث: الجهاد الإسلامي بعد حرب غرناطة(971–1010هـ/1570–1611م).....796

1)– استمرار العمل المسلح من سنة 972هـ/1571م والى غاية عام 981هـ/1580م.....797

2)– مقاومة الفدائيين(983–993هـ/1582–1592م).....799

3)–المحاولات الأخيرة في معركة البقاء(1010–1012هـ/1609–1611م)...801

الباب السادس: الثقافة الإسلامية في اسبانيا خلال القرنين 10–11هـ/16–17م...805

الفصل الأول: جهود الفقهاء في حقل الجدل الديني في اسبانيا الكاثوليكية.....807

المبحث الأول: رؤية تاريخية لحركة الجدل الديني في الأندلس .....810

1)- مفهوم الجدل لغة واصطلاحا.....810

2)- بدايات الجدل الديني بين المسلمين و النصارى في الأندلس.....814

3)- جهود علماء الأندلس في حقل الجدل الديني مع نصارى الأندلس.....816

المبحث الثاني: الجدال الديني بعد سقوط الأندلس من خلال بعض مؤلفات مسلمي اسبانيا.....822

1)- قراءة في كتاب للوي كارديك"المريسكيون الأندلسيون و المسحيون(المجابهة الجدلية)".....823

2)- جهود الفقهاء في الرد على شبهات النصارى.....827

المبحث الثالث: الجدال الديني من خلال قراءة في بعض المخطوطات الألخمادية.....831

1)- نفي عقيدة الألوهية عند النصارى.....833

2)- نقد نظرية النصارى في ألوهية عيسى عليه السلام من خلال المنظور الإسلامي وكما رآه مسلمو اسبانيا.....835

3)- الأناجيل.....838

الفصل الثاني: الجدل الديني العلمي بين عامة مسلمي اسبانيا و النصارى.....843

المبحث الأول: الجدل العقدي.....845

1)- الإسلام مقابل النصرانية.....845

2)- عقيدة التوحيد ونفي التثليث.....851

3)- مصادر التشريع الإسلامي في صراعها مع التشريعات النصرانية المزيفة.....853

المبحث الثاني: الممارسات الإسلامية لغة الرفض والقطيعة.....857

1)- نقد مسلمي اسبانيا لرموز الكنيسة الكاثوليكية.....858

2)- الجدل الديني في الشؤون الدينية الأخرة.....860

المبحث الثالث: الحرف العربي تعبير لرمز مقدس في النصوص الألخمادية.....865

1)- اللغة العربية رمز الهوية الإسلامية.....866

2)- قدسية الحرف العربي عند مسلمي اسبانيا.....872

الفصل الثالث: ظاهرة التصوف في اسبانيا النصرانية.....877

المبحث الأول:رؤية تاريخية حول التصوف في الأندلس.....879

1)- مفاهيم عامة حول التصوف.....880

2)- تطور ظاهرة التصوف في الأندلس.....884

3)- الطريقة الشادلية في بلاد الأندلس.....889

الفصل الرابع: التنظيم الاجتماعي الإسلامي في اسبانيا الكاثوليكية بين الحقيقة التاريخية والأسطورة.....907

المبحث الأول: الأسرة المسلمة في اسبانيا.....908

1)- دور الأب في تنشئة أبنائه على تعاليم الدين الإسلامي.....908

2)- المقاومة الأيديولوجية والمسلحة للمرأة المسلمة في اسبانيا.....911

3)- الطفل والازدواجية الدينية.....915

المبحث الثاني: نظام الجماعة ودوره في تحقيق الوحدة بين مسلمي اسبانيا.....917

1)- مساعي التنظيم الى تحقيق التوازن النفسي والديني وسط بيئة معادية.....918

2)- الفقهاء حراس لضمير الجماعة المسلمة في اسبانيا.....923

المبحث الثالث: الأخلاق وأثرها في تكوين الشخصية الإسلامية في اسبانيا.....926

1)- خلق الصبر.....926

2)-قانون الصمت وانعدام الثقة بين الطرفين.....929

3)- التضامن الاجتماعي ووحدة القرار و الموقف.....932

المبحث الرابع: العادات والتقاليد عنوان للهوية الأندلسية الإسلامية.....934

1)- الطعام في الثقافة الأندلسية الإسلامية.....935

2)- اللباس الأندلسي.....939

الخاتمة:.....944

الملاحق:.....963

1)- الخرائط.....964

2)- نماذج من بعض المخطوطات و الوثائق.....970

الفهارس:.....983

1)- فهرس الأعلام.....984

2)- فهرس الطوائف والشعوب والدول.....1005

3)- فهرس الأماكن.....1009

قائمة المصادر والمراجع:.....1024